

سورة فاتحة الكتاب

مكية. وقيل مكية ومدنية لأنها نزلت بمكة مرة وبالمدينة أخرى. وتسمى أمّ القرآن ؛ لاشتغالها على المعاني التي في القرآن من الثناء على الله تعالى بما هو أهله ، ومن التعبد بالأمر والنهي ، ومن الوعد والوعيد. وسورة الكنز والوافية لذلك. وسورة الحمد والمثاني لأنها تثنى في كل ركعة. وسورة الصلاة لأنها تكون فاضلة أو مجزئة بقراءتها فيها. وسورة الشفاء والشفافية. وهي سبع آيات بالاتفاق ، إلا أنّ منهم من عدّ ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ دون التسمية ، ومنهم من مذهبه على العكس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)

قرأء المدينة والبصرة والشّام وفقهاؤها على أنّ التسمية ليست بآية من الفاتحة ولا من غيرها من السور ، وإنما كتبت للفصل والتبرك بالابتداء بها ، كما بدأ بذكرها في كل أمر ذى بال ، وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله ومن تابعه ، ولذلك لا يجهر بها عندهم في الصلاة. وقرأء مكة والكوفة وفقهاؤها على أنّها آية من الفاتحة ومن كل سورة ، وعليه الشافعي وأصحابه رحمهم الله ، ولذلك يجهر بها. وقالوا : قد أثبتتها السلف في المصحف مع توصيتهم بتجريد القرآن ، ولذلك لم يثبتوا (آمين) فلو لا أنّها من القرآن لما أثبتوها. وعن ابن عباس : «من تركها فقد ترك مائة وأربع عشرة آية من كتاب الله تعالى»^(١).

(١) موقوف ، ليس بمعروف عنه ، والذي في الشعب للبيهقي عنه : «من ترك بسم الله الرحمن الرحيم فقد ترك آية من كتاب الله». وتعقب ابن الحاجب ما أورده الزمخشري بأن قال : «الصواب مائة وثلاث عشرة» وبهذا اللفظ ذكر الشهرزوري في المصباح. وزاد : وإنما لم يقل «أربع عشرة» لأن براءة لا بسملة فيها ، انتهى. روى البيهقي في الشعب عن أحمد بن حنبل أنه قال : «من لم يقل مع كل سورة بسم الله الرحمن الرحيم فقد ترك مائة وثلاث عشرة آية من كتاب الله تعالى». قلت : وقفت على سبب الغلط في منقول الزمخشري. وذلك أن الحاكم روى في ترجمة عبد الله بن المبارك بسند له عن علي القاشاني قال : «رأيت عبد الله بن المبارك يرفع يديه في أول تكبيرة على الجنابة ثم الثانية أخفض قليلا والصلوات مثل ذلك». قال علي قال عبد الله «من ترك بسم الله الرحمن الرحيم في فواتح السور فقد ترك مائة وثلاث عشرة آية». قال عبد الله : وأخبرنا حنظلة بن عبد الله عن شهر بن حوشب عن ابن عباس رضى الله عنه قال : «من ترك بسم الله الرحمن الرحيم فقد ترك آية من كتاب الله تعالى». فلما لم يخص ابن عباس سورة حملة ابن المبارك على الكل إلا براءة فكان مائة وثلاث عشرة.

فإن قلت : بم تعلقت الباء؟ قلت : بمحذوف تقديره : بسم الله أقرأ أو أتلو ؛ ^(١) لأن الذي يتلو التسمية مقروء ، كما أنّ المسافر إذا حلّ أو ارتحل فقال : بسم الله والبركات ، كان المعنى : بسم الله أحل وبسم الله ارتحل ؛ وكذلك الذابح وكل فاعل يبدأ في فعله ب «بسم الله» كان مضمر ما جعل التسمية مبدأ له. ونظيره في حذف متعلق الجارّ قوله عزّ وجلّ : ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ ، أى اذهب في تسع آيات. وكذلك قول العرب في الدعاء للمعرس : بالرفاء والبنين ، وقول الأعرابي : باليمن والبركة ، بمعنى أعرست ، أو نكحت. ومنه قوله :

فَقُلْتُ إِلَى الطَّعَامِ فَقَالَ مِمنَّهُمْ فَرِيْقٌ نَحْسُ الدُّ الْإِنْسِ الطَّعَامِ (٢)

(١) قال محمود رحمه الله تعالى : «الباء في البسملة تتعلق بمحذوف تقديره : بسم الله أقرأ أو أتلو» قال أحمد : رحمه الله تعالى : الذي يقدره النحاة «أبتدئ» وهو المختار لوجوه : الأول : أن فعل الابتداء يصح تقديره في كل بسملة ابتدئ بها فعل ما من الأفعال خلاف فعل القراءة ، والعام صحة تقديره أولى أن يقدر ، ألا تراهم يقدرون متعلق الجار الواقع خبراً أو صفة أو صلة أو حالاً بالكون والاستقرار حيثما وقع ويؤثرونه لعموم صحة تقديره ، والثاني : أن تقدير فعل الابتداء مستقل بالغرض من البسملة إذ الغرض منها أن تقع مبدأ فتقدير فعل الابتداء أوقع بالمحل ، وأنت إذا قدرت «أقرأ» فإنما تعنى أبتدئ القراءة والواقع في أثناء التلاوة قراءة أيضاً لكن البسملة غير مشروعة في غير الابتداء. ومنها ظهور فعل الابتداء في قوله تعالى : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾. وقال عليه السلام : «كل أمر خطير ذى بال لا يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر». ولا يعارض هذا ما ذكره من ظهور فعل القراءة في قوله تعالى : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ فان فعل القراءة إنما ظهر ثم لأن الأهم هو القراءة غير منظور إلى الابتداء بها. ألا ترى إلى تقدم الفعل فيها على متعلقه لأنه الأهم ولا كذلك في البسملة ؛ فان الفعل المقدر كائناً ما كان إنما يقدر بعدها ، ولو قدر قبل الاسم لفات الغرض من قصد الابتداء إذاً على أنه الأهم في البسملة ، فوجب تقديره ، وسيأتى الكلام على هذه النقطة.

(٢) ونار قد حضأت بعبد وهن بدار ماً أريد بهما مقاماً
سوى ترحيل راحلة وعين أكاليه مخافة أن تنام
أتوا ناري فقلبت منون أنتم فقوالوا الجن قلبت عموا ظلام
فقلبت إلى الطعام فقال مَنهم زعيم نحسد الانس الطعام
لقصد فضلتهم في الأكمل فينما ولكلكن ذاك يعقبكم سقاما

لسمير بن الحارث الضبي ، وقيل لتأبط شراً ، وقيل لشمر الغساني ، وقيل للفرزدق يصف نفسه بالجرأة واقتحام المخاوف ، يقول : ورب نار قد حضأتها بالخاء المهملة : أشعلتها وسعرتها ، وقيل هو خضأتها ، بالمعجمة ، ولا أعلمه وإن ذكره بعض النحاة في باب الحكاية ، وبعيد : تصغير بعد ، والوهن والموهن : بمعنى الفتور أو النوم أو هدوء الصوت ، وقيل : نحو نصف الليل. أى أوقدتها في جوف الليل في مفازة لا أريد إقامة بها سوى تجهيز ما يلزم لراحلتى في السفر ولأجل عين أكاليها أى أساهاها أو أحافظها ، فأنا أحفظها من النوم وهي تحفظني من العدو ، والضمير في أتوا : لميهم. ومنون استفهام ، وكان حقه : من أنتم ، لأنه لا يأتى بصورة الجمع إلا في الوقف ، والأصل في نونه الأخيرة السكون

باسم الله فهو أبتر» ^(١) إلا كان فعلا كلا فعل ، جعل فعله مفعولا باسم الله كما يفعل الكتب بالقلم. والثاني أن يتعلق بها تعلق الدهن بالإنبات ^(٢) في قوله : «تَنْبُتُ بِالذُّهْنِ» على معنى : متبركا بسم الله أقرأ ، وكذلك قول الداعي للمعرس : بالرفاء والبنين ، معناه أعرست ملتبسا بالرفاء والبنين ، وهذا الوجه أعرب وأحسن ؛ فإن قلت : فكيف قال الله تبارك وتعالى متبركا باسم الله أقرأ؟ قلت : هذا مقول على السنة العباد ، كما يقول الرجل الشعر على لسان غيره ، وكذلك : «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» . إلى آخره ، وكثير من القرآن على هذا المنهاج ، ومعناه تعليم عباده كيف يتبركون باسمه ، وكيف يحمّدونه ويمجّدونه ويعظمونه. فإن قلت : من حق حروف المعاني التي جاءت على حرف واحد أن تبنى على الفتحة التي هي أخت السكون ، نحو كاف التشبيه ولام الابتداء وواو العطف وفائه وغير ذلك ، فما بال لام الإضافة وبائها بنيتا على الكسر؟ قلت : أما اللام فللفصل بينها وبين لام الابتداء ، وأما الباء فلكونها لازمة للحرفية والجر ، والاسم أحد الأسماء العشرة التي بنوا أوائلها على السكون ، فإذا نطقوا بها مبتدئين زادوا همزة ، لئلا يقع ابتداءؤهم بالسكان إذا كان دأبهم أن يبتدئوا بالمتحرك ويقفوا على الساكن ، لسلامة لغتهم من كل لكنة وبشاعة ، ولوضعها على غاية من الإحكام والرصانة ، وإذا وقعت في الدرج لم تفتقر إلى زيادة شيء. ومنهم من لم يزدنها واستغنى عنها بتحريك الساكن ، فقال : سم وسم. قال:

بِاسْمِ الَّذِي فِي كُلِّ سُورَةٍ سَمَةٌ ^(٣)

(١) لم أره هكذا. والمشهور فيه حديث أبي هريرة من رواية قرة عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضى الله عنه بلفظ «لا يبدأ فيه بحمد الله أقطع» أخرجه أبو عوانة في صحيحه ، وأصحاب السنن. ولأحمد من هذا الوجه «لا يفتتح بذكر الله فهو أبتر أو أقطع» وللخطيب في الجامع من طريق مبشر بن إسماعيل عن الزهري بلفظ «لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع» والراوي له عن مبشر . مجهول

(٢) قوله «تعلق الدهن بالإنبات» هذا يناسب قراءة «تنبت» من أنبت الرباعي : كما يأتي. (ع)

(٣) باسم الذي في كل سورة سممة قـــــــد وردت علــــى طرــــيق تعلمــــه
أرسل فيها بازلا يقرمه فـــــهو بمـــــا ينحـــــو طرــــيقـــــاً يعلمـــــه

لرؤية بن العجاج يصف إبلا. ولفظ «اسم» من الألفاظ العشرة التي سمع بناء أوائلها على السكون كابن وامرئ ، فإذا ابتداءوا بها زادوا همزة الوصل ولا حاجة لها في الدرج ، وسمع تحريك أول بعضها كما في سمه بتثليث أوله وباسم متعلق بأرسل وباؤه للملابسة. وضمير وردت للسورة. وضمير تعلمه بالفوقية لله على طريق الالتفات إلى الخطاب ، ويمكن أنه لمخاطب مبهم ، وعلى روايته بالتحتيه فالضمير لله فقط. ويحتمل من بعد أن ضمير وردت للإبل فكذلك تعلمه بالفوقية ، وأما بالتحتيه فضميره لله أو للراعي. والبازل : الذي انشق نابه من الإبل وذلك في السنة التاسعة وربما يزل في الثامنة ، وقرم الى اللحم ونحوه : اشتاق إليه. والتقرم والاقرام : التشويق.

وهو من الأسماء المحذوفة الأعجاز : كيد ودم ، وأصله : سمو ، بدليل تصريفه : كأسماء ، وسمى ، وسميت. واشتقاقه من السمو ، لأنّ التسمية تنويه بالمسمى وإشادة بذكره ، ومنه قيل للقب النبز : من النبز بمعنى النبر ، وهو رفع الصوت. والنبز قشر النخلة الأعلى. فإن قلت : فلم حذفت الألف في الخط وأثبتت في قوله : باسم ربك؟ قلت : قد اتبعوا في حذفها حكم الدرج دون الابتداء الذي عليه وضع الخط لكثرة الاستعمال ، وقالوا : طولت الباء تعويضا من طرح الألف. وعن عمر بن عبد العزيز أنه قال لكاتبه : طوّل الباء وأظهر السنوات ودوّر الميم. و (الله) أصله الإله. قال :

مَعَاذَ الْإِلَهِ أَنْ تَكُونَ كَظَبْنَةٍ ^(١)

ونظيره : الناس ، أصله الأناس. قال :

إِنَّ الْمُنَى يَا يَطْلُ ع نَ عَلَى الْآمِنِينَ ^(٢)

فحذفت الهمزة وعوّض منها حرف التعريف ، ولذلك قيل في النداء : يا الله بالقطع ، كما يقال :

. إليه والجملة حال من الراعي المرسل أو صفة لبازل ، وعليه فلم يبرز ضمير الفاعل لأمن اللبس. فهو أى البازل ؛ وينحو : أى يقصد بها ، والباء للظرفية أو للتعدية إلى المفعول به كذهبت بزيد ، ويجوز أن الضمير للراعي فالباء للتعدية فقط. وروى «نزلت» بدل «وردت» وهو يؤيد جعل الضمير للسورة ، وروى البيت الثاني قبل الأول. والمعنى أرسل فيها الراعي ملتبساً بذكر اسم الله بازلا حال كونه يشوقه إليها باعفائه من العمل وحبسه عن الإبل ثم إرساله فيها ، فذلك البازل يقصد بها طريق يعرفه وهو طريق الضراب ، وعلم ما لا يعقل مجاز عن اهتدائه إلى منافعه ، على طريق الاستعارة التصريحية والمجاز المرسل ، أو شبهه بالعقل على طريق المكنية ، فالعلم تخييل لذلك التشبيه. وكون اسمه تعالى في كل سورة ظاهر على القول بأن البسملة آية من كل سورة ، وإلا ورد مثل سورة العصر. وربما يدفع إبطاء القافية باختلافها في الفاعل وفي معنى المفعول وفي الحقيقة والمجاز.

(١) معــــــاذ الالهــــــه أن تكــــــون كظبيــــــة ولا دميــــــة ولا عقيلــــــة ربــــــرب ولكنــــــها زادت علــــــى الحسنــــــن كلــــــه كــــــمــــــالا ومــــــن طيــــــب علــــــى كلــــــل طيــــــب

للبيث بن حريث في محبوبته أم السلسبيل ، يقال : عاذ عياداً وعبادة ومعاذاً وعوداً ، إذا التجأ إلى غيره ، فالمعاذ مصدر نائب عن اللفظ بفعله ، والدمية : الصنم والصورة من العاج ونحوه المنقوشة بالجواهر. وعقيلة كل شيء : أكرمه. والربرب : القطيع من بقر الوحش : شبه محبوبته بالظبية وبالدمية وبالعقلية في نفسه ، ثم وجدها أحسن منها فرجع عن ذلك والتجأ إلى الله منه كأنه أثم ؛ أو المعنى لا أشبهها بذلك وإن وقع من الشعراء. وأتى بلا المؤكدة لما قبلها من معنى النفي أى ليست كظبية ولا دمية ولا عقيلة ربرب ولكنها زادت كمالا على الحسن المعروف كله ، أو زادت على الحسن الحسى كمالا معنويا ، وزادت من الطيب على كل طيب.

(٢) شبه المنايا بأناس يبحثون عمن استحق الموت على طريق المكنية والاطلاع تخييل. والمعنى : أن المنايا تأتي الناس على حين غفلة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها. والأناس : اسم جمع لا واحد له من لفظه ، مأخوذ من الإيناس وهو الأبصار لظهورها ، أو من الأنس ضد الوحشة. والآمنون : الغافلون عن مجيء المنايا ، فهو مجاز مرسل.

يا إله ، والإله . من أسماء الأجناس كالرجل والفرس . اسم يقع على كل معبود بحق أو باطل ، ثم غلب على المعبود بحق ، كما أن النجم اسم لكل كوكب ثم غلب على الثريا ، وكذلك السنة على عام القحط ، والبيت على الكعبة ، والكتاب على كتاب سيوييه . وأما (الله) بحذف الهمزة فمختص بالمعبود بالحق ، لم يطلق على غيره . ومن هذا الاسم اشتق : تأله ، وأله ، واستأله . كما قيل : استنوق ، واستحجر ، في الاشتقاق من الناقة والحجر . فإن قلت : أسم هو أم صفة؟ قلت : بل اسم غير صفة ، ألا تراك تصفه ولا تصف به ، لا تقول : شيء إله ، كما لا تقول : شيء رجل . وتقول : إله واحد صمد ، كما تقول : رجل كريم خير . وأيضا فإن صفاته تعالى لا بد لها من موصوف تجرى عليه ، فلو جعلتها كلها صفات بقيت غير جارية على اسم موصوف بها وهذا محال . فإن قلت : هل لهذا الاسم اشتقاق؟ قلت : معنى الاشتقاق أن ينتظم الصيغتين فصاعدا معنى واحد ، وصيغة هذا الاسم وصيغة قولهم : أله ، إذا تحير ، ومن أخواته : دله ، وعله ، ينتظمهما معنى التحير والدهشة ، وذلك أنّ الأوهام تتحير في معرفة المعبود وتدهش الفطن ، ولذلك كثر الضلال ، وفشا الباطل ، وقل النظر الصحيح . فإن قلت : هل تفخم لاه؟ قلت : نعم قد ذكر الزجاج أنّ تفخيمها سنة ، وعلى ذلك العرب كلهم ، وإطباقهم عليه دليل أنهم ورثوه كابرا عن كابر .

و ﴿الرَّحْمَنُ﴾ فعلان من رحم ، كغضبان وسكران ، من غضب وسكر ، وكذلك الرحيم فعيل منه ، كمريض وسقيم ، من مرض وسقم ، وفي ﴿الرَّحْمَنُ﴾ من المبالغة ما ليس في ﴿الرَّحِيمِ﴾ ، ^(١) ولذلك قالوا : رحمن الدنيا والآخرة ، ورحيم الدنيا ، ويقولون : إنّ الزيادة في البناء لزيادة المعنى . وقال الزجاج في الغضبان : هو الممتلئ غضبا . ومما طرّ على أذني من ملح العرب أنهم يسمون مركبا من مراكبهم بالشقدف ، وهو مركب خفيف ليس في ثقل محامل العراق ، فقلت في طريق الطائف لرجل منهم : ما اسم هذا الحمل؟ أردت الحمل العراقي ، فقال : أليس ذاك اسمه الشقدف؟ قلت : بلى ، فقال : هذا اسمه الشقنداف ، فزاد في بناء الاسم لزيادة المسمى ، وهو من الصفات الغالبة . كالدبران ، والعيوق ، والصعق . لم يستعمل في غير الله عزّ وجلّ ، كما أنّ (الله) من الأسماء

(١) قال محمود : «وفي الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم ... الخ» . قال أحمد رحمه الله : لا يتم الاستدلال بقصر البناء وطوله على نقصان المبالغة وتماها ، ألا ترى بعض صيغ المبالغة كفعل أحد الأمثلة أقصر من فاعل الذي لا مبالغة فيه البتة . وأما قولهم : رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا ، فلا دلالة فيه أيضا على مبالغة رحمن بالنسبة إلى رحيم ؛ فان حاصله أن الرحمة منه بالدلالة على إتمامها ؛ ألا ترى أن ضاربا لما كان أعم من ضراب ، كان ضراب أبلغ منه لخصوصه ، فلا يلزم إذاً من خصوص رحيم أن يكون أقصر مبالغة من رحمن لعمومه .

الغالبية. وأما قول بنى حنيفة في مسيلمة : رحمان اليمامة ، وقول شاعرهم فيه :

وَأَنْتَ غَيْثُ الْوَرَى لَا زِلْتَ رَحْمَانًا ^(١)

فباب من تعنتهم في كفرهم. فإن قلت : كيف تقول : الله رحمن ، أتصرفه أم لا؟ ^(٢) قلت : أقيسه على أخواته من بابهِ ، أعني نحو عطشان وغرثان وسكران ، فلا أصرفه.

(١) سموت بالمجد يا بــــن الأكرــــميين أبا وأنتــــ غيــــث الــــورى لا زلــــت رــــحماــــنا
لرجل من بنى حنيفة يمدح مسيلمة الكذاب ، يقول : علوت بسبب المجد يا بن الأكرمين من جهة الأب ، وليس المراد خصوصه ، بل مطلق الأصل ، ولو كان المراد خصوصه لأشعر بالذم ، وهو تمييز للأكرمين أو تمييز لسماءوات ، وأنت كالغيث للورى في كثرة النفع ، ولا زلت رحمانا : دعا بدوامه رحيمًا عليهم ؛ ورحمن خاص بالله فاطلاقه على غيره جهل أو عناد. وقيل : إن الخاص به المحلى بآل.

(٢) قال محمود رحمه الله تعالى : «فان قلت كيف تقول الله رحمن أتصرفه أم لا ... الخ»؟ قال أحمد : ليت شعري بعد امتناع فعلانة وفعلى ما الذي عين قياسه على عطشان دون ندمان مع أن قياسه على ندمان معتضد بالأصل في الأسماء وهو الصرف؟ أقول : الذي عينه هو أن باب سكران وعطشان أكثر من باب ندمان ، وإذا احتمل أن يكون من كل واحد منهما فحملة على ما هو الأكثر أولى ؛ ولأنّ رحمن وعطشان مشتركان في عدم وجود فعلانة ، بخلاف ندمان فلهذا كان حملة على عطشان أولى ، ثم قال : وقد نقل غيره خلافا في صرف رحمن مجرداً من التعريف ، وبناء على تعيين العلة في منع صرف عطشان هل هي وجود فعلى فيصرف رحمن ، أو امتناع فعلانة فيمتنع الصرف؟ وهو أيضاً نظر قاصر. وأتم منهما أن يقال : امتنع صرف عطشان وفاقا وامتناع صرفه معلل بشبه زيادته بألفي التأنيث ، والشبه دائر على وجود فعلى وامتناع فعلانة ؛ فاما أن يجعل الأمر ان وصفى شبه بمجموعهما مستقل ، أو كل واحد منهما مستقلا ببيان الشبه ، أو أحدهما دون الآخر على البديل ؛ فهذه أربع احتمالات. فان كان مقتضى الشبه المجموع أو وجود فعلى خاصة انصرف رحمن ، وإن كان كل واحد من الأمرين مستقلا أو الشبه بامتناع فعلانة خاصة منع رحمن من الصرف ؛ فلم يبق إلا تعيين ما به حصل الشبه في عطشان بين زيادته وبين ألقى التأنيث من الاحتمالات الأربعة ، وعليه يبنى الصرف وعدمه. والتحقيق أن كل واحد من الأمرين المذكورين مستقل باقتضاء الشبه فيمتنع صرف رحمن لوجود إحدى العلتين المتعلقتين في الشبه وهي امتناع فعلانة على هذا التقدير ؛ وإنما قلنا ذلك لأن امتناع فعلانة فيه حاصله امتناع دخول تاء التأنيث على زيادته كامتناع دخولهما على ألقى التأنيث فحصل الشبه بهذا الوجه. ووجود فعلى يحقق أن مذكره مختص ببناء ومؤنثه مختص ببناء آخر ، فيشبه أفعّل وفعلّى في اختصاص كل واحد منهما ببناء غير الآخر ، فهذا وجه آخر من الشبه. ومن تأمل كلام سيبويه فهم منه ما قررته. فان قيل : محصل ذلك مناسبة كل واحد من الأمرين المذكورين لاقتضاء الشبه ، فما الذي دل على استقلال كل واحد منهما علة في الشبه؟ وهلا كان المجموع علة وحينئذ ينصرف رحمن وهو أحد الاحتمالات الأربعة المتقدمة؟ قلت : امتناع صرف عمران العلم يدل علي استقلال كل واحد من الأمرين بالشبه المانع من الصرف ؛ إذ عمران علما لا فعلى له وهو غير منصرف وفاقا. أقول : قد عثر هاهنا رحمه الله وإن الجواد قد يعثر لأن اعتبار وجود فعلى أو انتفاء فعلانة إنما كان في الصفة ، أما في الاسم فشرطه العلمية لا وجود فعلى ولا انتفاء فعلانة.

فإن قلت : قد شرط في امتناع صرف فعلا أن يكون فعلا فعلى واختصاصه بالله يحظر أن يكون فعلا فعلى ، فلم تمنعه الصرف؟ قلت : كما حظر ذلك أن يكون له مؤنث على فعلى كعطشى فقد حظر أن يكون له مؤنث على فعلا كندمانه ، فإذا لا عبرة بامتناع التأنيث للاختصاص العارض فوجب الرجوع إلى الأصل قبل الاختصاص وهو القياس على نظائره. فإن قلت : ما معنى وصف الله تعالى بالرحمة ^(١) ومعناها العطف والحنوّ ومنها الرحم لانعطفها على ما فيها؟ قلت : هو مجاز عن إنعامه على عباده ؛ لأنّ الملك إذا عطف على رعيته ورق لهم أصابهم بمعرفه وإنعامه ، كما أنه إذا أدركته الفظاظه والقسوة عنف بهم ومنعهم خيره ومعرفه. فإن قلت : فلم قدّم ما هو أبلغ من الوصفين على ما هو دونه ، ^(٢) والقياس الترقى من الأدنى إلى الأعلى كقولهم : فلان عالم نحرير ، وشجاع باسل ، وجودا فياض؟ قلت : لما قال ﴿الرَّحْمَنُ﴾ فتناول جلائل النعم وعظائمها وأصولها ، أردفه ﴿الرَّحِيمُ﴾ كاللتمّة والريّف ليتناول ما دقّ منها ولطف.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢) ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (٣)

الحمد والمدح أخوان ، وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها. تقول : حمدت الرجل على إنعامه ، وحمدته على حسبه وشجاعته.

وأما الشكر فعلى النعمة خاصة وهو بالقلب واللسان والجوارح قال :

أَفَادَتْكُمْ النَّعْمَاءُ مِثِّي ثَلَاثَةً يَدِي وَلِسَانِي وَالضُّمِيرُ الْمَحْجَبُ ^(٣)

(١) قال محمود رحمه الله : «فان قلت : ما معنى وصف الله تعالى بالرحمة ... إلخ»؟ قال أحمد رحمه الله : فالرحمة على هذا من صفات الأفعال ولك أن تفسرها بارادة الخير فيرجع إلى صفات الذات وكلا الأمرين قال به الأشعرية في الرحمة وأمثالها مما لا يصح إطلاقه باعتبار حقيقته اللغوية على الله تعالى ؛ فمنهم من صرفه إلى صفة الذات ، ومنهم من صرفه إلى صفة الفعل. (٢) قال محمود رحمه الله : «فان قلت : فلم قدم ما هو أبلغ من الوصفين على ما هو دونه ... إلخ»؟ قال أحمد رحمه الله : إنما كان القياس تقديم أدنى الوصفين ؛ لأن في تقديم أعلاهما ثم الازداف بأدناها نوعا من التكرار ؛ إذ يلزم من حصول الأبلغ حصول الأدنى ؛ فذكره بعده غير مفيد ولا كذلك العكس ؛ فانه ترقى من الأدنى إلى مزيد بمزية الأعلى لم يتقدم ما يستلزمه ، ولذلك كان هذا الترتيب خاصاً بالاثبات. وأما النفي فعلى عكسه تقدم فيه الأعلى. تقول : ما فلان تحريراً ولا عالماً ، ولو عكست لوقعت في التكرار ؛ إذ يلزم من نفي الأدنى عنه نفي الأعلى وكل ذلك مستمده في عموم الأدنى وخصوص الأبلغ ، وإثبات الأخص يستلزم ثبوت الأعم ، ونفي الأعم يستلزم نفي الأخص.

(٣) وما كان شكرى وافيا بنى والكلم ولكنني حاولت في الجهل مد مذهبها

أَفَادَتْكُمْ النَّعْمَاءُ مِثِّي ثَلَاثَةً يَدِي وَلِسَانِي وَالضُّمِيرُ الْمَحْجَبُ

أى لم يكن تعظيمي إياكم وافيا بحق عطائكم ، ولكنني أردت من الاجتهاد في تعظيمكم مذهباً ، وبينه بقوله : إن .

والحمد باللسان وحده ، فهو إحدى شعب الشكر ، ومنه قوله عليه السلام : «الحمد رأس الشكر ، ما شكر الله عبد لم يحمده» ^(١) وإنما جعله رأس الشكر ؛ لأن ذكر النعمة باللسان والثناء على موليتها ، أشيع لها وأدلّ على مكانها من الاعتقاد وآداب الجوارح لخفاء عمل القلب ، وما في عمل الجوارح من الاحتمال ، بخلاف عمل اللسان وهو النطق الذي يفصح عن كلّ خفى ويجلّى كل مشتبّه.

والحمد نقيضه الذمّ ، والشكر نقيضه الكفران ، وارتفاع الحمد بالابتداء وخبره الظرف الذي هو الله وأصله النصب ^(٢) الذي هو قراءة بعضهم بإضمار فعله على أنه من المصادر التي تنصبها العرب بأفعال مضمرة في معنى الإخبار ، كقولهم : شكراً ، وكفراً ، وعجباً ، وما أشبه ذلك ، ومنها : سبحانك ، ومعاذ الله ، ينزلونها منزلة أفعالها ويسدّون بها مسدّها ، لذلك لا يستعملونها معها ويجعلون استعمالها كالشريعة المنسوخة ، والعدل بها عن النصب إلى الرفع على الابتداء للدلالة على ثبات المعنى واستقراره. ومنه قوله تعالى : ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ ، رفع السلام الثاني للدلالة على أنّ إبراهيم عليه السلام حياتهم بتحية أحسن من تحيتهم ؛ لأن الرفع دال على معنى ثبات السلام لهم دون تجدد وحدوثه. والمعنى : نحمد الله حمداً ، ولذلك قيل : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ؛ لأنه بيان لحمدهم له ، كأنه قيل : كيف تحمدون؟ فقيل : إياك نعبد. فإن قلت : ما معنى التعريف فيه؟ قلت : هو نحو التعريف في أرسلها العراك ، ^(٣) وهو تعريف الجنس ،

. نعمتكم على إفادتكم من يدي ولساني وجناني ، فهي وأعمالها لكم ، قال السيد الشريف : هو استشهاد معنوي على أن الشكر يطلق على أفعال الموارد الثلاثة ، وبيان أنه جعلها جزءاً للنعمة ، وكل ما هو جزء للنعمة عرفاً يطلق عليه الشكر لغة ، فكأنه قال : كثرت نعمتكم عندي فوجب على استيفاء أنواع الشكر لكم ، وبالغ في ذلك حتى جعل مواردها ملكاً لهم ، وقيل : النعماء جمع للنعمة ، لكن ظاهر عبارة اليد أنها بمعناها ، ورواية البيت الأول بعد الثاني أحسن موقعا وأظهر استشهاداً.

(١) أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما به مرفوعاً ، وفيه انقطاع ؛ وعن ابن عباس مثله ، رواه البغوي في تفسير (سبحان) وفيه نصر بن حماد. وهو ضعيف.

(٢) قال محمود رحمه الله : «الأصل في الحمد النصب ... الخ» قال أحمد : ولأن الرفع أثبت اختار سيبويه في قول القائل : رأيت زيداً فإذا له علم علم الفقهاء : الرفع ، وفي مثل : رأيت زيداً فإذا له صوت صوت حمار : النصب ، والسر في الفرق بين الرفع والنصب أن في النصب إشعاراً بالفعل ، وفي صيغة الفعل إشعار بالتجدد والطور ، ولا كذلك الرفع ، فانه إنما يستدعى اسماً : ذلك الاسم صفة ثابتة ، ألا ترى أن المقدر مع النصب نحمد الله الحمد. ومع الرفع الحمد ثابت لله أو مستقر.

(٣) قال محمود رحمه الله : «وتعريف الحمد نحو التعريف في أرسلها العراك وهو تعريف الجنس ومعناه الخ» قال أحمد رحمه الله : تعريف التكرار باللام إما عهدي وإما جنسى ، والعهد إما أن ينصرف العهد فيه إلى فرد معين من أفراد الجنس باعتبار يميزه عن غيره من الأفراد كالتعريف في نحو ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ ، وإما أن ينصرف العهد فيه الى .

ومعناه الإشارة إلى ما يعرفه كل أحد من أنّ الحمد ما هو ، والعراك ما هو ، من بين أجناس الأفعال. والاستغراق الذي يتوهمه كثير من الناس وهم منهم. وقرأ الحسن البصري : (الحمد لله) بكسر الدال لإتباعها اللام. وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة : (الحمد لله) بضم اللام لإتباعها الدال ، والذي جسرهما على ذلك . والإتباع إنما يكون في كلمة واحدة كقولهم منحدر الجبل ومغيرة . تنزل الكلمتين منزلة كلمة لكثرة استعمالهما مقترنتين ، وأشف القراءتين قراءة إبراهيم حيث جعل الحركة البنائية تابعة للإعرابية التي هي أقوى ، بخلاف قراءة الحسن.

الرب : المالك. ومنه قول صفوان لأبي سفيان : لأن يربني رجل من قريش أحب إليّ من أن يربني رجل من هوازن ^(١). تقول : ربه يربه فهو رب ، كما تقول : ثمّ عليه ينمّ فهو ثمّ. ويجوز أن يكون وصفاً بالمصدر للمبالغة كما وصف بالعدل ، ولم يطلقوا الرب إلا في الله وحده ، وهو في غيره على التقيد بالإضافة ، كقولهم : رب الدار ، ورب الناقة ، وقوله تعالى : ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ ، ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾. وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما : (رب العالمين) بالنصب على المدح ، وقيل بما دل عليه ﴿اِحْمَدُ لِلَّهِ﴾ ، كأنه قيل : نحمد الله رب العالمين. العالم : اسم لذوي العلم من الملائكة والثققلين ، ^(٢) وقيل : كل ما علم به الخالق من الأجسام

. الماهية باعتبار يميزها عن غيرها من الماهيات كالتعريف في نحو «أكلت الخبز ، وشربت الماء» ، والجنسي هو الذي ينضم إليه شمول الآحاد ، نحو : الرجل أفضل من المرأة ، وكلا نوعي العهد لا يوجب استغراقها ، وإنما يوجب الجنسي خاصة ؛ فالزخشرى جعل تعريف الحمد من النوع الثاني من نوعي العهد ، وإن كان قد عبر عنه بتعريف الجنس ؛ لعدم اعتناؤه باصطلاح أصول الفقه. وغير الزخشري جعله للجنس فقضى بإفادته ، لاستغراق جميع أنواع الحمد وليس ببعيد.

(١) موقوف. قال ابن إسحاق في المغازي : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر بن عبد الله عن أبيه في قصة حنين. وفيه قول صفوان هذا. ومن طريقه أخرجه ابن حبان في صحيحه. والبيهقي في الدلائل. ورواه جويرية عن مالك عن الزهري مرسلًا. وأخرجه الدارقطني في الغرائب.

(تنبيه) وقع فيه أن صفوان قال ذلك لأبي سفيان. والذي في مرسل الزهري أنه قال لابن أخيه. والذي في المغازي : أنه قال لأخيه ابن أمه كلدة. وأخرجه أبو يعلى من طريق ابن إسحاق.

(٢) قال محمود رحمه الله : «العالم اسم لذوي العلم من الملائكة ... الخ». قال أحمد رحمه الله : تعليله الجمع بإفادة استغراقه لكل جنس تحته فيه نظر ؛ فان «علما» كما قرره : اسم جنس عرف باللام الجنسية ، فصار العالم . وهو مفرد . أدل على الاستغراق منه جمعاً. قال إمام الحرمين رحمه الله : التمر أخرى باستغراق الجنس من التمر ؛ فان التمر يسترسل على الجنس لا بصيغة لفظية ، والتمر ترده إلى تخيل الوجدان ، ثم الاستغراق بعده بصيغة الجمع ، وفي صيغة الجمع مضطرب. انتهى كلامه. والتحقيق في هذا وفي كل ما يجمع من أسماء الأجناس ثم يعرف تعريف الجنس : أنه يفيد أمرين : أحدهما أن ذلك الجنس تحته أنواع مختلفة. والآخر أنه مستغرق لجميع ما تحته منها ؛ لكن المفيد .

والأعراض. فإن قلت : لم جمع؟ قلت : ليشمل كل جنس مما سمي به. فإن قلت : هو اسم غير صفة ، وإنما تجمع بالواو والنون صفات العقلاء أو ما في حكمها من الأعلام. قلت : ساغ ذلك لمعنى الوصفية فيه وهي الدلالة على معنى العلم.

مَالِكٌ يَوْمَ الدِّينِ (٤)

قارئ : ملك يوم الدين ، ومالك ، وملك بتخفيف اللام. وقرأ أبو حنيفة رضى الله عنه : مالك بالنصب. وقرأ غيره : مالك وهو نصب على المدح ؛ ومنهم من قرأ : مالك ، بالرفع. ومالك : هو الاختيار. لأنه قراءة أهل الحرمين ، ولقوله : (لمن اللك اليوم) ، ولقوله : (ملك الناس). ولأن الملك يعم والملك يخص. ويوم الدين : يوم الجزاء. ومنه قولهم : «كما تدين تدان»^(١) وببيت الحماسة :

. لاختلاف الأنواع الجمع ، والمفيد لاستغراق جميعها التعريف ؛ ألا ترى أنه إذا جمع مجردا من التعريف دل على اختلاف الأنواع ، ثم إذا عرف أفاد استغراقا غير موقوف على الجمعية ، إذ هذا حكم مفردة إذا عرف ؛ فقول الزمخشري إذا «إن فائدة جمع العالمين الاستغراق» مردود بثبوت هذه الفائدة وإن لم يجمع ؛ وقول إمام الحرمين «إن الجمع يؤيد الاشعار بالاستغراق لما نتخيله من الرد إلى الوجدان» مردود بأن فائدة الجمع الاشعار باختلاف الأنواع ، واختلافها لا ينافي استغراقها بصيغة المفرد المقرر من تعريف الجنس ، وإن أراد أن الجمع يخيل الإشارة إلى أنواع محله معهودة فهذا الخيال يعينه من المفرد ، فالعالم إذا جمع ليفيد اختلاف الأنواع المندرجة تحته من الجن والانس والملائكة ، وعرف ليفيد عموم الربوبية لله تعالى في كل أنواعه ؛ وتوضيح هذا التقرير : أنا لو فرضنا جنساً ليس تحته إلا آحاد متساوية وهو الذي يسميه غير النحاة النوع الأسفل ، لما جاز جمع هذا بحال ، لا معرفاً ولا منكرأ ، وبهذا الفائدة يرد قول إمام الحرمين «إن التمرور جمع من حيث اللفظ» لا معنى تحته لجمع الجمع في نحو نوق ونياق وأنيق ؛ وأما تعليل الزمخشري جمعه بالواو والنون باشعاره لصفة العلم فيلحق بصفات من يعقل ، فصحيح إذا بنى الأمر على أنه لا يتناول إلا أولى العلم : وأما على القول بأنه اسم لكل موجود سوى الله ، فيحتاج إلى مزيد نظر في تغليب العاقل في الجمع على غير العاقل

(١) هو طرف من حديث مرفوع أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن أبي قلابة هوسلا هكذا أخرجه البيهقي في الزهد ؛ ورواه الامام أحمد عن عبد الرزاق بسنده عن أبي قلابة عن أبي الدرداء ، وهكذا منقطع مع وقفه . وله شاهد موصول من حديث ابن عمر رضى الله عنهما ، وأخرجه ابن عدى في ترجمه محمد بن عبد الملك وضعفه . قلت : وأخرج ابن أبي عاصم في السنة عن أبي أيوب الجبائري عن سعيد بن موسى عن رباح بن زيد عن معمر عن الزهري عن أنس حديثاً موضوعاً ، وفيه : إن الله تعالى قال « يا موسى كما تدين تدان » والمتهم بوضعه سعيد بن موسى

ولم يبق سقى العودا ن دناه كم كذا دانو^(١)
 فإن قلت : ما هذه الإضافة؟ قلت : هي إضافة اسم الفاعل إلى الظرف على طريق الاتساع ، مجرى المفعول به كقولهم : يا سارق الليلة أهل الدار ، والمعنى على الظرفية. ومعناه : مالك الأمر كله في يوم الدين ، كقوله : (لمن الملك اليوم). فإن قلت : إضافة اسم الفاعل إضافة غير حقيقية إذا أريد باسم الفاعل الحال أو الاستقبال ، فكان في تقدير الانفصال ، كقولك : مالك الساعة ، أو غدا. فأما إذ قصد معنى الماضي ، كقولك : هو مالك عبده أمس ، أو زمان مستمرّ ، كقولك : زيد مالك العبيد ، كانت الإضافة حقيقية ، كقولك : مولى العبيد ، وهذا هو المعنى في (مالك يوم الدين) ، ويجوز أن يكون المعنى ، مالك الأمور يوم الدين ، كقوله : (ونادى أصحاب الجنة) ، و (نادى أصحاب الأعراف) ، والدليل عليه قراءة أبي حنيفة : (مالك يوم الدين) ، وهذا الأوصاف التي أجريت على الله سبحانه . من كونه ربا مالكا للعالمين لا يخرج منهم شيء من ملكوته وربوبته ، ومن كونه منعما بالنعم كلها الظاهرة والباطنة والجلال والدقائق ، ومن كونه مالكا للأمر كله في العاقبة يوم الثواب والعقاب بعد الدلالة

(١) صفحنا عن بني ذم ل وقلنا القوم إخوان
 فلم صرح الشرح فأمس و هو عريان
 ولم يبق سقى العودا ن دناه كم كذا دانو

لشهل بن شيبان بن ربيعة. وليس في العرب شهل بالمعجمة غيره هو وشهل بن أنمار بن أراش. يقول : صفحنا عن بني ذهل رحمة بهم لعلمهم يرجعون ، فلما ظهر الشر بيننا وبالغ في الظهور حتى كأنه وجل عريان عن ثيابه ، فشبّه الشر بانسان على طريق المكنية وأثبت له العرى تخيلا. ويروى : هو هو غرثان ، أي : جائع ، فهو على التشبيه أيضا. وقيل أراد بالشر : السيف ، وعريه : تجرده عن غمده. وزيدت الواو قبل الجملة الواقعة خير لأمسى لتأكيد الربط ، تشبيها لها بالجملة الواقعة حالا ، ولم يبق بيننا سوى عدوان بعضنا على بعض ، أو سوى عدوانهم علينا جازيناهم كما ظلمونا ، وسمى الثاني دينا مشاكله ، وهي مجاز لعلاقة المجاورة وقسم برأسه خلاف بين القوم ، ومذهب الجمهور أن سوى لا تخرج عن النصب على الظرفية المكانية إلا في الضرورة كما هنا ، ومذهب ابن مالك كالجرجاني أنها بمعنى غير فتصرف في الاختيار ، كما في قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «سألت الله أن لا يسلط على أمتي عدوا من سوى أنفسها» وقول بعض العرب : أتاني سواك ، أي : غيرك ، وصرح صراحا بالتحريك : خلص خلوما وظهر ، وصرح تصرحا : خلص تخليصا وأظهر ، فما هنا من الأولى. ويروى بدل الشطر الثاني : بدا والشر عريان ، وفيه إظهار الشعر في مقام الاضمار ، و «بدا» بدل من صرح ، وفيه تبين وتفسير لمعناه ، وأما جواب «لما» فهو قوله : دناهم كما دانوا.

على اختصاص الحمد به وأنه به حقيق في قوله الحمد لله . دليل على أنّ من كانت هذه صفاته لم يكن أحد أحق منه بالحمد والثناء عليه بما هو أهله.

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)

(إيا) ضمير منفصل للمنصوب ، والواحق التي تلحقه من الكاف والهاء والياء في قولك : إياك ، وإياه ، وإياي ، لبيان الخطاب والغيبة والتكلم ، ولا محل لها من الإعراب ، كما لا محل للكاف في أرأيتك ، وليست بأسماء مضمرة ، وهو مذهب الأخفش وعليه المحققون ، وأما ما حكاه الخليل عن بعض العرب : «إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب» فشيء شاذ لا يعول عليه ، وتقديم المفعول لقصد الاختصاص ، كقوله تعالى : ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ﴾ ، ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ . والمعنى نخصك بالعبادة ، ونخصك بطلب المعونة . وقرئ : إياك بتخفيف الياء ، وأياك بفتح الهمزة والتشديد ، وهياك بقلب الهمزة هاء . قال طفيل الغنوي :

فَهَيَّـكَ وَالْأَمْرَ الّـذِي إِنْ تَرَاخَبَـتْ مَـوَارِدُهُ ضَـاقتْ عَلَيْكَ مَـصَادِرُهُ^(١)

والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل . ومنه ثوب ذو عبدة إذا كان في غاية الصفاقة وقوة النسج ، ولذلك لم تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى ، لأنه مولى أعظم النعم فكان حقيقاً بأقصى غاية الخضوع . فإن قلت : لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ قلت : هذا يسمى الالتفات في علم البيان قد يكون^(٢) من الغيبة إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبة ، ومن الغيبة إلى التكلم ،

(١) لمضرس بن رباعي ، وقيل لطفيل ، وهياك : أصله إياك ، قلبت همزته هاء ، وهو في محل نصب بمحذوف وجوبا ، والأمر : عطف عليه ، والأصل : احذر تلاقى نفسك والأمر فحذف ما عدا ضمير الخطاب وما عطف عليه لكثرة الاستعمال ، ولأن مقام التحذير يقتضى السرعة وإيجاز الكلام ، وقيل أصله : باعد نفسك من الأمر وباعد الأمر من نفسك ، فحذف لذلك ، وشبه أسباب الدخول في الأمر بالموارد : أى مواضع الورود إلى نحو الماء ، وأسباب الخروج منه بالمصادر : أى مواضع الصدور : أى الرجوع ، فكل منهما استعارة تصريحية ، وأما تشبيه الأمر بشيء له موارد ومصادر كالماء على طريقة المكنية ، فهو خارج عن قانون البيان ؛ لأن الأمر يطلق على كل شيء ، فتخصيصه بغير نحو الماء ثم تشبيهه به ، بالقصد لا بالوضع . ويروى هكذا :

فـإِياكَ وَالْأَمْرَ الّـذِي إِنْ تَوْسَعَتْ مَـوَارِدُهُ ضَـاقتْ عَلَيْكَ المَـصَادِرُ
فمـا حـسـن أن يـعـذر المـرء نـفسـه

أى فليس عذر المرء لنفسه حسناً : أى قبوله لاعتذارها بعد وقوعها في الورطة ، وقوله : وليس له الخ : جملة حالية وعلى هذا فحقه حرف الراء .

(٢) قوله «في علم البيان قد يكون» لعله وقد ، وعبرة النسفي : وهو قد يكون . (ع)

كقوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمُ﴾. وقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ﴾. وقد التفت امرؤ القيس ثلاث التفاتات في ثلاثة أبيات : ^(١)

تَطَّـوْلُ لَيْلُكَ بِالْإِثْمِ دِ وَنَامَ الْخَلْدُ لَيْلُكَ وَلَمْ تَرْقُ دِ
وَبَاتَ وَبَاتَ لَيْلُكَ لَيْلُكَ كَلَيْلُكَ ذِي الْعَنَاءِ الْأَرْقُ دِ
وَذَلِكَ مِنْ نَبِيٍّ جَاءَنِي وَخَيْرُتُهُ عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ ^(٢)

وذلك على عادة افتنائهم في الكلام وتصرفهم فيه ، ولأنّ الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب ، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع ، وإيقاظا للإصغاء إليه من إجراءاته على أسلوب واحد ، وقد تختص مواقعه بفوائد. ومما اختص به هذا الموضع : أنه لما ذكر الحقيق بالحمد ، وأجرى عليه تلك الصفات العظام ، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات ، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات ، فقيل : إياك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة ، لا نعبد غيرك ولا نستعينه ، ليكون الخطاب أدل على أنّ العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به. فإن قلت : لم قرنت الاستعانة بالعبادة؟ قلت : ليجمع بين ما يتقرّب به العباد إلى ربه وبين ما يطلبونه ويحتاجون إليه من جهته. فإن قلت : فلم قدّمت العبادة على الاستعانة؟ ^(٣) قلت : لأنّ تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة

(١) قال محمود رحمه الله : «وقد التفت امرؤ القيس ثلاث التفاتات في ثلاثة أبيات ... الخ». قال أحمد رحمه الله : يعني أنه ابتدأ بالخطاب ثم التفت إلى الغيبة ، ثم إلى التكلم وعلى هذا فهما التفاتان لا غير ، وإنما أراد الزمخشري والله أعلم أنه أتى بثلاثة أساليب : خطاب لحاضر ، وغائب ، ولنفسه ، فوهم بقوله ثلاث التفاتات ، أو تجعل الأخير ملفتا لتفاتين عن الثاني وعن الأول فيكون ثلاثا ، والأمر فيه سهل.

(٢) لامرئ القيس بن حجر الجاهلي ، وقال ابن هشام : هو غلط ، وقائله امرؤ القيس بن عابس الصحابي ، وقيل لعمرو بن معديكرب ، والأئمة كأحمد ، وقد تضم ميمه ، وقد يروى بكسرهما : اسم موضع ، والعائر اسم جامد يطلق على قذى تدمع منه العين ، وعلى الرمد ، وعلى كل ما أعل العين ، وفي الشعر ثلاث التفاتات ، لكن الأول على مذهب السكاكي فقط : وهو أنه كان الظاهر التعبد بطريق التكلم فالتفت إلى الخطاب وذلك في البيت الأول.

والثاني : عدوله عن الخطاب إلى الغيبة في الثاني. والثالث : التفاته عن الغيبة إلى التكلم في الثالث. والجمهور يجعلون الأول من قبيل التجريد. وأبو الأسود : كنية صاحب الشاعر الذي يرثيه ، وقيل هو المخبر واسمه ظالم بن عمرو وهو عم امرئ القيس. وقيل أبي مضاف لياء المتكلم والأسود صفته ، ويروى : عن بني الأسود.

(٣) قال محمود رحمه الله : «فان قلت لم قدمت العبادة على الاستعانة ... الخ». قال أحمد : معتقد أهل السنة أن العبد لا يستوجب على ربه جزاء . تعالى الله عن ذلك . والثواب عندنا . من الاعانة في الدنيا على العبادة ومن صنوف النعيم في الآخرة . ليس بواجب على الله تعالى ، بل فضل منه وإحسان. وفي الحديث «أنه عليه الصلاة والسلام قال : .

ليستوجبوا الإجابة إليها. فإن قلت : لم أطلقت الاستعانة؟ قلت : ليتناول كل مستعان فيه ، والأحسن أن تراد الاستعانة به وبتوقيقه على أداء العبادة ، ويكون قوله : ﴿اهْدِنَا﴾ بيانا للمطلوب من المعونة ، كأنه قيل : كيف أعينكم؟ فقالوا : اهدنا الصراط المستقيم ، وإنما كان أحسن لتلاؤم الكلام وأخذ بعضه بحجزة بعض. وقرأ ابن حبيش : نستعين ، بكسر النون.

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)

هدى أصله أن يتعدى باللام أو يلى ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ ، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ، فعومل معاملة . اختار . في قوله تعالى : ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ . ومعنى طلب الهداية . وهم مهتدون . طلب زيادة الهدى بمنح الإلطف ، كقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ ، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ . وعن علي وأبي رضى الله عنهما : اهدنا ثبتنا ، وصيغة الأمر والدعاء واحدة ، لأن كل واحد منهما طلب ، وإنما يتفاوتان في الرتبة. وقرأ عبد الله : أرشدنا.

(السرط) الجادة ، من سطر الشيء إذا ابتلعه ، لأنه يسترط السابلة إذا سلكوه ، كما سمي : لقما ، لأنه يلتقمهم. والصراط من قلب السين صاداً لأجل الطاء ، كقوله : مصيطر ، في مسيطر ، وقد تشم الصاد صوت الزاى ، وقرئ بجنّ جميعا ، وفصاحتهنّ إخلاص الصاد ، وهي لغة قريش وهي الثابتة في الإمام ، ويجمع سراطا ، نحو كتاب وكتب ، ويذكر ويؤنث كالطريق والسبيل ، والمراد طريق الحق وهو ملة الإسلام.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (٧)

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بدل من الصراط المستقيم ، وهو في حكم تكرير العامل ، كأنه قيل : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ، اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم ، كما قال : ﴿الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا﴾ لمن آمن منهم. فإن قلت : ما فائدة البدل؟ وهلا قيل اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم؟ قلت : فائدته التوكيد لما فيه من التثنية والتكرير ، والإشعار بأن الطريق المستقيم بيانه وتفسيره :

. لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قيل : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته» مضافا إلى دليل العقل المحيل أن يجب على الله تعالى شيء ، لكن قام الدليل عقلا وشرعا على أنه تعالى لا يجب عليه شيء ، فقد قام عقلا وشرعا على أن خبره تعالى صدق ووعدده حق ، أى يجب عقلا أن يقع ، فاما أن يكون الزمخشري تسامح في إطلاق الاستيجاب وأراد وجوب صدق الخبر ، وإما أن يكون أخرجه على قواعد البدعية في اعتقاد وجوب الخير على الله تعالى وإن لم يكن وعد.

صراط المسلمين ؛ ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة على أبلغ وجه وأكده ، كما تقول : هل أدلك على أكرم الناس وأفضلهم؟ فلان ؛ فيكون ذلك أبلغ في وصفه بالكرم والفضل من قولك : هل أدلك على فلان الأكرم الأفضل ، لأنك ثنيت ذكره مجملاً أولاً ، ومفصلاً ثانياً ، وأوقعت فلانا تفسيراً وإيضاحاً للأكرم الأفضل فجعلته علماً في الكرم والفضل ، فكأنك قلت : من أراد رجلاً جامعاً للخصلتين فعليه بفلان ، فهو الشخص المعين لاجتماعهما فيه غير مدافع ولا منازع. والذين أنعمت عليهم : هم المؤمنون ، وأطلق الإنعام ليشمل كل إنعام ؛ ^(١) لأن من أنعم عليه بنعمة الإسلام لم تبق نعمة إلا أصابته واشتملت عليه. وعن ابن عباس : هم أصحاب موسى قبل أن يغيروا ، وقيل هم الأنبياء. وقرأ ابن مسعود : (صراط من أنعمت عليهم) ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بدل من الذين أنعمت عليهم ، على معنى أنّ المنعم عليهم : هم الذين سلموا من غضب الله والضلال ، أو صفة على معنى أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة وهي نعمة الإيمان ، وبين السلامة من غضب الله والضلال. فإن قلت : كيف صح أن يقع (غير) صفة للمعرفة وهو لا يتعرّف وإن أضيف إلى المعارف؟ قلت : ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ لا توقيت فيه كقوله : وَلَقَدْ أَمَرْتُ عَلَى اللَّيْمِ يَسْتَبْنِي ^(٢)

(١) قال محمود رحمه الله : وأطلق الانعام ليشمل كل إنعام. قال أحمد رحمه الله : إن إطلاق الانعام يفيد الشمول كقوله : إن إطلاق الاستعانة يتناول كل مستعان فيه ، وليس بمسلم فان الفعل لا عموم لمصدره ، والتحقيق أن الإطلاق إنما يقتضى إجماعاً وشيوعاً ، والنفس إلى المبهمة أشوق منها إلى المقيد لتعلق الأمل مع الإبهام لكل نعمة تخطر بالبال

(٢) ولقد أمرت على اللئيم يسبني فمضيت ثملة قللت لا يعنيني غضبان ممتلى على إهابه إلى وربك سخطه يرضيني لرجل من بنى سلول ، ويسبني صفة للئيم وإن قرن بأل ، لأنه ليس المراد لئيماً بعينه بدليل مقام التمدح فأل فيه للعهد الذهني لا الخارجي ، ومدخولها في المعنى كالنكرة ، فجاز وصفه بالجملة وإن كانت لا يوصف بها إلا النكرة ، وهذا يفيد اتصافه بالسب دائماً لا حال المرور فقط وهو المراد ، وكان الظاهر أن يقول : فأمضى ثم أقول ، ولكن أتى بالماضي دلالة على تحقق ذلك منه ، وروى : فأعف ثم أقول : أى أكف عنه وعن مكافأته ، ويحتمل أنه أراد صررت على صبغه الماضي بالمضارع لحكاية الحال ، هذا والظاهر أن الجملة حالية ، أى : أمر على اللئيم حال كونه يسبني وأنا أسمع فأعرض عنه وأقول إنه لا يقصدني بذلك السب الذي سمعته منه ، وليس المراد وصفه بالسب الدائم ، لأنه لا يظهر مع تخصيص السب بوقوعه على ضمير المار ، على أنه يمكن جعل الحال لازمة فتفيد الدوام. هو غضبان ممتلى جلده غضباً على لكن لا أبالي بذلك ، فاني وحق ربك غضبه يرضيني ، فليدم عليه وليزدد منه ، والإهاب : الجلد قبل دبغه بل وقبل سلخه كما هنا.

ولأنّ المغضوب عليهم والضالين خلاف المنعم عليهم ، فليس في . غير . إذا الإبهام الذي يأبى عليه أن يتعرّف ، وقرئ بالنصب على الحال وهي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمر بن الخطاب ، ورويت عن ابن كثير. وذو الحال الضمير في عليهم ، والعامل أنعمت ، وقيل المغضوب عليهم : هم اليهود ؛ لقوله عز وجل : ﴿مَنْ لَعْنَهُ اللَّهُ وَعَصْبُ عَلَيْهِ﴾. والضالون : هم النصارى ؛ لقوله تعالى : ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾. فإن قلت : ما معنى غضب الله؟ قلت : هو إرادة الانتقام ^(١) من العصاة ، وإنزال العقوبة بهم ، وأن يفعل بهم ما يفعله الملك إذا غضب على من تحت يده . نعوذ بالله من غضبه ، ونسأله رضاه ورحمته. فإن قلت : أى فرق بين (عليهم) الأولى و (عليهم) الثانية؟ قلت : الأولى محلها النصب على المفعولية ، والثانية محلها الرفع على الفاعلية. فإن قلت : لم دخلت ﴿لَا﴾ في ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾؟ قلت : لما في . غير . من معنى النفي ، كأنه قيل : لا المغضوب عليهم ولا الضالين. وتقول : أنا زيدا غير ضارب ، مع امتناع قولك : أنا زيدا مثل ضارب ؛ لأنه بمنزلة قولك أنا زيدا لا ضارب. وعن عمر وعلى رضى الله عنهما أنهما قرءا : وغير الضالين. وقرأ أيوب السخيتاني : ولا الضالين . بالهمز ، كما قرأ عمرو بن عبيد : (ولا جان) وهذه لغة من جدّ في الهرب من التقاء الساكنين. ومنها ما حكاه أبو زيد من قولهم : شأبة ، ودأبة. آمين : صوت سمى به الفعل الذي هو استعجب ، كما أنّ «رويد ، وحيهل ، وهلم» أصوات سميت بها الأفعال التي هي «أمهل ، وأسرع ، وأقبل». وعن ابن عباس : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى آمين ^(٢) فقال : «افعل» وفيه لغتان : مدّ ألفه ، وقصرها. قال :

وَيَرْحَمُ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ آمِينَ ^(٣)

(١) قال محمود رحمه الله : «ومعنى الغضب من الله تعالى إرادة الانتقام ... الخ» قال أحمد : أدرج في هذا ما يقتضى عنده وجوب وعيد العصاة ، وليس مذهب أهل السنة ، بل الأمر عندهم في المؤمن العاصي موكلول إلى المشيئة : فمنهم من أراد الله تعالى عقوبته والانتقام منه فيقع ذلك لا محالة ، ومنهم من أراد العفو عنه وإثابته فضلا منه تعالى ، على أن المغضوب عليهم والضالين واقعان على الكفار ، ووعيدهم واقع لا محالة ومراد ، والله موفق. أقول : قال الزمخشري رحمه الله : الغضب من الله تعالى إرادة الانتقام من العصاة الخ لا يدل على ما فسرته ، فان وجوب وعيد العصاة لا يعلم منه.

والغضب من الله عند أهل السنة والمعتزلة : عبارة عما ذكره الزمخشري رحمه الله ، إلا أن عند أهل السنة أن الله تعالى إن شاء عذب صاحب الكبيرة وإن شاء غفر له ، وعند المعتزلة وجوب عذابه ؛ فعند المعتزلة ظاهر أن الغضب عبارة عن إرادة الانتقام ، وعند أهل السنة : إن غفر له فلا غضب ، وإن لم يغفر له فغضبه عبارة عما ذكره.

(٢) أخرجه الثعلبي من رواية أبي صالح عنه بإسناد واه

(٣) يا رب إنـــــــك ذو مـــــــن ومغفـــــــرة

الـــــــذاكرين الهـــــــوى مـــــــن بـــــــعد مـــــــا رـــــــقدوا

بـــــــيت بـــــــعافـــــــة لـــــــي لـــــــل مـــــــحبـــــــين

الـــــــســـــــاقـــــــطين عـــــــلى الأـــــــيدى المـــــــكـــــــين

أنه قال لأبي بن كعب : «ألا أخبرك بسورة لم ينزل في التوراة والإنجيل والقرآن مثلها؟»^(١) قلت : بلى يا رسول الله. قال : «فاتحة الكتاب إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته» وعن حذيفة بن اليمان أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : «إنّ القوم ليعث الله عليهم العذاب حتما مقضيا»^(٢) فيقرأ صبي من صبياتهم في الكتاب (الحمد لله رب العالمين) فيسمعه الله تعالى فيرفع عنهم بذلك العذاب أربعين سنة»

سورة البقرة

مدنية ، وهي مائتان وست وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الم﴾ (١)

﴿الم﴾ اعلم أنّ الألفاظ التي يتهجى بها أسماء ، مسمياتها الحروف المبسوطة التي منها ركبت الكلم ، فقولك . ضاد . اسم سمي به «ضه» من ضرب إذا تهجيته ، وكذلك : را ، با : اسمان لقولك : ره ، به ؛ وقد روعيت في هذه التسمية لطيفة ، وهي أن المسميات لما كانت ألفاظا كأسمائها وهي حروف وحدان والأسامى عدد حروفها مرتق إلى الثلاثة ، اتجه لهم طريق إلى أن يدلوا في التسمية

(١) أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم من رواية عبد الحميد بن جعفر عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة. ورواه مالك في الموطأ عن العلاء بن عبد الرحمن : أن أبا سعيد مولى عامر بن كريز أخبره «أن النبي صلى الله عليه وسلم نادى أبي بن كعب . فذكره» وهو مرسل ؛ لأن أبا سعيد هذا تابعي. وهذا الحديث قد أخرجه البخاري من وجه آخر عن أبي سعيد بن المعلى «أن النبي صلى الله عليه وسلم مر به وهو يصلى ، فدعاه . فذكر الحديث» وهم صاحب جامع الأصول فجعلهما واحدا فأخطأ. لأن الأول مكى مولى تابعي. والثاني أنصاري مدني من أنفسهم. صحابي. قال البيهقي : يحتمل أن يكون ذلك صدر منه صلى الله عليه وسلم لأبي بن كعب مرة ، ولسعید بن المعلى مرة أخرى

(٢) أخرجه الثعلبي من رواية أبي معاوية عن أبي مالك الأشجعي عن ربعي عنه. قلت : إلا أن دون أبي معاوية من لا يحتج به. وله شاهد في مسند الدارمي عن ثابت بن عجلان قال «كان يقال إن الله يريد العذاب بأهل الأرض فإذا سمع تعليم الصبيان بالحكمة صرف ذلك عنهم» يعني بالحكمة : القرآن ، وحديث أبي بن كعب رضى الله عنه في فضائل القرآن سورة سورة. أخرجه الثعلبي من طرق عن أبي بن كعب رضى الله عنه كلها ساقطة. وأخرجه ابن مردويه من طريقين. وأخرجه الواحدي في الوسيط. وله قصة ذكرها الخطيب ثم ابن الصلاح عمن اعترف بوضعه. ولهذا روى عن أبي عصمة أنه وضعه.

على المسمى فلم يغفلوها ، وجعلوا المسمى صدر كل اسم منها كما ترى ، إلا الألف فإنهم استعاروا الهمزة مكان مسماها ؛ لأنه لا يكون إلا ساكنا. ومما يضاهاها في إيداع اللفظ دلالة على المعنى : التهليل ، والحولقة ، والحيلة ، والبسمة ؛ وحكمها . ما لم تلهاها العوامل . أن تكون ساكنة الأعجاز موقوفة كأسماء الأعداد ، فيقال : ألف لام ميم ، كما يقال : واحد اثنان ثلاثة ؛ فإذا وليتها العوامل أدركها الإعراب. تقول : هذه ألف ، وكتبت ألفاً ، ونظرت إلى ألف ؛ وهكذا كل اسم عمدت إلى تأدية ذاته فحسب ، قبل أن يحدث فيه بدخول العوامل شيء من تأثيراتها ، فحقك أن تلفظ به موقوفاً. ألا ترى أنك إذا أردت أن تلقى على الحاسب أجناساً مختلفة ليرفع حسابها ، كيف تصنع وكيف تلقيها أغفالا من سمة الإعراب؟ فتقول : دار ، غلام ، جارية ، ثوب ، بساط. ولو أعربت ركبت شططا. فإن قلت : لم قضيت لهذه الألفاظ بالاسمية؟ وهلا زعمت أنها حروف كما وقع في عبارات المتقدمين؟ قلت : قد استوضحت بالبرهان النير أنها أسماء غير حروف ، فعلمت أن قولهم خليك بأن يصرف إلى التسامح ، وقد وجدناهم متسامحين في تسمية كثير من الأسماء التي لا يقدح إشكال في اسميتها كالظروف وغيرها بالحروف ، مستعملين الحرف في معنى الكلمة ، وذلك أن قولك : «ألف» دلالة على أوسط حروف «قال ، وقام» دلالة «فرس» على الحيوان المخصوص ، لا فضل فيما يرجع إلى التسمية بين الدالتين. ألا ترى أنّ الحرف : ما دلّ على معنى في غيره ، وهذا كما ترى دال على معنى في نفسه ؛ ولأنها متصرف فيها بالإمالة كقولك : با ، تا. وبالتفخيم كقولك : يا ، ها. وبالتعريف ، والتنكير ، والجمع والتصغير ، والوصف ، والإسناد ، والإضافة ، وجميع ما للأسماء المتصرفة. ثم إنني عثرت من جانب الخليل على نص في ذلك. قال سيبويه : قال الخليل يوما . وسأل أصحابه . : كيف تقولون إذا أردتم أن تلفظوا بالكاف ^(١) التي في لك ، والباء التي في ضرب؟ فقبل : نقول : باء ، كاف ؛ فقال : إنما جئتم بالاسم ، ولم تلفظوا بالحرف ، وقال : أقول : كه ، به. وذكر أبو علي في كتاب الحجة في : (يس) : وإمالة يا ، أنهم قالوا : يا زيد ، في النداء ؛ فأمالوا وإن كان حرفا ، قال : فإذا كانوا قد أمالوا ما لا يمال من الحروف من أجل الباء ، فلأن يميلوا الاسم الذي هو يس أجدر.

(١) قال محمود رحمه الله : «وقد سأل الخليل أصحابه كيف ينطقون بالكاف ... الخ». قال أحمد رحمه الله : وسألهم أيضا كيف ينطقون بالقاف من قبل؟ فقالوا : قاف ، كقولهم الأول ، فأجابهم كجوابه الأول وقال : أما أنا فأقول : اقه ، فألحق رضى الله عنه أولا هاء السكت ؛ لأن الحرف المنطوق به متحرك ، وثانيا همزة الوصل ؛ لأنه ساكن.

ألا ترى أنّ هذه الحروف أسماء لما يلفظ بها؟ فإن قلت : من أى قبيل هي من الأسماء ، أمعربة أم مبنية؟ قلت : بل هي أسماء معربة ، وإنما سكنت سكون زيد وعمرو وغيرهما من الأسماء حيث لا يمسه إعراب لفقد مقتضية وموجبه. والدليل على أنّ سكونها وقف وليس ببناء : أنها لو بنيت لحذى بها حذو : كيف ، وأين ، وهؤلاء. ولم يقل : ص ، ق ، ن مجموعا فيها بين الساكنين. فإن قلت : فلم لفظ المتهجي بما آخره ألف منها مقصورا ، فلما أعرب مدّ فقال هذه باء ، وباء ، وهاء ؛ وذلك يخيل أن وزانها وزان قولك «لا» مقصورة ؛ فإذا جعلتها اسما مددت فقلت : كتبت لاء؟ قلت : هذا التخيل يضمحل بما لخصته من الدليل ؛ والسبب في أن قصرت متهجاة ، ومدّت حين مسها الإعراب : أنّ حال التهجي خليقة بالأخف الأوجز ، واستعمالها فيه أكثر. فإن قلت : قد تبين أنها أسماء لحروف المعجم ، وأنها من قبيل المعربة ، وأن سكون أعجازها عند الهجاء لأجل الوقف ، فما وجه وقوعها على هذه الصورة فواتح للسور؟ قلت : فيه أوجه : أحدها وعليه إطباق الأكثر : أنها أسماء السور. وقد ترجم صاحب الكتاب الباب الذي كسره على ذكرها في حد ما لا ينصرف ب «باب أسماء السور» وهي في ذلك على ضربين : أحدهما ما لا يتأتى فيه إعراب ، نحو : كهيعص ، والمر. والثاني : ما يتأتى فيه الإعراب ، وهو إما أن يكون اسما فردا كص وق ون ، أو أسماء عدّة مجموعها على زنة مفرد ك «حم وطس ويس ؛» فإنها موازنة لقابيل وهابيل ، وكذلك طسم يتأتى فيها أن تفتح نونها ، وتصير ميم مضمومة إلى طس فيجعلها اسماء واحد ؛ كدار الجرد ؛ فالنوع الأول محكي ليس إلا ؛ وأما النوع الثاني فسائغ فيه الأمران : الإعراب ، والحكاية ؛ قال قاتل محمد بن طلحة السجاد وهو شريح ابن أوفى العبسي^(١)

(١) قوله «قال قاتل محمد بن طلحة ... الخ» هكذا نسبه البخاري لشريح في تفسير غافر. ولفظه : ويقال إن (حم) اسم. لقول شريح بن أبي أوفى ، فذكره. ونسب ذلك لغير شريح ، ففي الطبقات لابن سعد والمستدرک للحاكم من رواية الواقدي عن محمد بن الضحاك بن عثمان عن أبيه قال : كان محمد بن طلحة يوم الجمل مع أبيه ، فنهى على رضى الله عنه عن قتله وقال : من رأى صاحب البرنس الأسود فلا يقتله . يعنيه . فقتله رجل من بني أسد بن خزيمه يقال له : طلحة بن مدلج ، وقيل : شداد بن معاوية العبسي . وقيل عصام بن متشعر وعليه الأكثر . وهو الذي يقول في قتله . فذكره . قلت : وهو من جملة أبيات . أولها :

وأشـعـث قـمـام بآيات ربـه قـلـيـل الأذى فيمـا تـرى العـيـن مـسـلم

يُذَكِّرُنِي خَامِيمٍ وَالرُّمُحُ شَّاجِرٌ فَهَلَّا تَلَّا خَامِيمٍ قَبْلَ التَّقْدُمِ (١)

فأعرب حاميم ومنعها الصرف ، وهكذا كل ما أعرب من أخواتها ؛ لاجتماع سببي منع الصرف فيها ، وهما : العلمية ، والتأنيث. والحكاية أن تحيي بالقول بعد نقله على استبقاء صورته الأولى. كقولك : دعني من تمرتان ، وبدأت بالحمد لله ، وقرأت سورة أنزلناها. قال :

وَجَدْنَا فِي كِتَابٍ بَنِي تَمِيمٍ أَخْبَىٰ الْخَيْلِ بِالرَّكْضِ الْمَعَارِ (٢)

(١) وأشعث قوام بآيات ربه	قليل الأذى فيهما ترى العيين مسلم
شككت لسه بالرمح جيب قميصه	فخسر صريعاً لليلدين وللفهم
على غير شيء غير أن ليس تابعه	عليه وممن لا يتبع الحق يظلم
يذكرني حاميم والرمح شاجر	فهلا تلا حاميم قبل التقدم

لشريح بن أوفى العبسي يوم الجمل ، حين أمر أبو طلحة محمد بن طلحة أن يبرز للقتال ، وكان من قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان كلما حمل عليه رجل قال : نشدتك بحم لما فيها من آية (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى) حتى حمل عليه العبسي فقتله وأنشأ يقول : ورب أشعث من أثر العبادة كثير القيام والعمل بآيات ربه ، أو القيام في الليل بتلاوتها ، قليل الأذى ، وروى الكرى : أى النوم ، وروى القذى : وهو ما يتساقط في العين فيغمضها : كنى بقلته عن قلة النوم فيما ترى العين : أى في رأى العين ، شككت : أى خرقت له بالرمح جيب : أى طوق قميصه ، كناية عن طعنه به في صدره أو من خلفه حتى نفذ من صدره ، أو نظمت وربطت جيب قميصه بصدرة فسقط مطروحاً على يديه ووجهه. وعبر بالفم مبالغة في التنكيل ؛ ولأنه أول ما يلقي الأرض من الوجه ، وذلك بلا سبب غير أنه ليس تابعاً لعلی بن أبی طالب ، وهكذا حال كل من لا يتبع الحق ، وهو أنه يعاقب ويهان. يذكرني حاميم ، والحال أن رمحي مختلط في ثيابه وأضلاعه. وقيل المعنى : والحال أن الرماح مختلطة والحرب قائمة ، وقوله فهلا ، فيه نوع توبيخ : أى كان من حقه أن يذكرني بما قبل التقدم للحرب.

(٢) وجدنا في كتاب بني تميم	أحسب الخيل بالركض المعار
يضممر بالأصائل فهو نهد	أقرب مقلص فيسه اقصورار
كان سمراته والخيل شعث	غداة وجيفها مسد مغار
كان حفيف منخره إذا مفا	كتمن الربو كسير مسدغار

لبشر بن أبي خازم الأسدي ، وقيل للطرماح. والركض : ضرب الراكب دابته برجله ، وعار الفرس : ذهب هاهنا وهاهنا مرجاً عند انفلاته ، وأعاره صاحبه فهو معار. قال أبو عبيدة : والناس يروونه أى يظنون المعار من العارية وهو خطأ. ويروى : المعار بكسر الميم. ويروى : يشمر ، بدل يضممر. والأصائل جمع أصيل كالآصال وهي أواخر النهار. أى يترك بلا علف من أول النهار فيجوع حتى يكون ضامر البطن في آخره ، أو يهياً ويرسل للقتال في آخر النهار فما بال أوله. والنهد : غليظ الجنين مرتفع الأضلاع ، والأقرب ، رقيق الخصر ، والمقلص . كمعظم على اسم المفعول . المشمر المشرف طويل القوائم ، ويجوز جعله على اسم الفاعل بمعنى المتشمر المكتنز اللحم. يقال : قلصه بالتشديد شمره ، فقلص هو أيضاً : أى تشمر ، ويقال قلصت الناقة كذلك : إذا استمرت على السير . والاقورار : رقة الجسم ونخافته. والسراة : أعلى الظهر. والوجيف : سرعة سير الخيل. والمسد : الحبل. شبه السراة به .

وقال ذو الرِّمَّة :

سَعَيْتُ النَّاسَ يَنْتَجِعُونَ غَيْثاً فَقُلْتُ لِمَ يَنْتَجِعُونَ بِـلَالاً^(١)

وقال آخر :

تَنَادَوْا بِالرَّحِيلِ غَداً وَفِي تَرْخٍ لِهَمِّ نَفْسِي^(٢)

وروى منصوبا ومجرورا. ويقول أهل الحجاز في استعمال من يقول : رأيت زيدا ، من زيدا؟ وقال سيبويه : سمعت من العرب : لا من أين يافتى. فإن قلت : فما وجه قراءة من قرأ : ص ، وق ، ون مفتوحات؟^(٣) قلت : الأوجه أن يقال : ذاك نصب وليس بفتح ، وإنما لم يصحبه التنوين لامتناع الصرف على ما ذكرت. وانتصابها بفعل مضمر. نحو : اذكر ؛ وقد أجاز

. في الامتداد والصلابة ، وقوله : والخيل شعث ، جملة حالية ، والشعث جمع أشعث ، أو شعث ، وغداة : ظرف له . والحفيف : دوى الجري والطيران. يقال : حف الفرس حفيفاً ، وأحففته : إذا حملته على الحفيف ، وضمير كتمن للخيل. والربو : الزيادة وما ارتفع من الأرض ، والنفس العالي ، وانتفاخ الفرس من عدو أو فزع. يقال منه : ربا يربو ، إذا أخذه الربو : أى إذا ضاقت مناخر الخيل عن إخراج النفس لعجزها ، كان منخر فرسي واسعاً كالكير . وهو منفخة الحداد . لعلو نفسه وتردده ، وجعله مستعاراً ليدل على أنه تداولته الأيدي. يقول : وجدنا في كلام جدودنا هذا الكلام ، فأحق مبتدأ ، والمعار خبره ، والجملة محكية محلها نصب بوجدنا.

(١) لذي الرمة يمدح بلالا أبا بريدة ، وهما لقب وكنية لعامر بن أبي موسى الأشعري ، كان أمير البصرة وقاضيهما ، وصيدح : اسم ناقة الشاعر. والناس رفع بالابتداء : أى سمعت هذا الكلام فحكاه على ما كان عليه ، ولم ينصب الناس ، لأنه يقتضى أن فعل الانتجاع مما يسمع وليس كذلك ، لأنه بمعنى يرتحلون طالبين غيثاً ، أو بمعنى يطلبون غيثاً أى مطراً أو كلاً نابتاً منه. وروى بنصب الناس ، فيكون ينتجعون غيثاً : بمعنى يتكلمون بطلبه.

وروى رأيت الناس. قال ابن القطاع : ولا يصح معه الرفع ، وذلك لأن الروية لا تقع على اللفظ ، وشبه تهيئتها وإعدادها للسير إليه ليسوقها أو سوقها إليه بأمره لها بالسير إليه ، وطلبه لترتب السير على كل على طريق التصريح ، ويجوز أنه شبهها بالعاقل فخاطبها بذلك على سبيل المكنية : أى اطلبي بلالا ، فانه أنفع مما يطلبه الناس ، ولما سمع بلال ذلك قال : يا غلام اعلف صيدح قتا ونوى ، والقت : نوع من النبات الطري.

(٢) روى الرحيل بالرفع على أنه مبتدأ ، وغداً. أى في غد . خبره ، وبالنصب : مصدر لفعل محذوف ، وذلك كله على الحكاية. وروى بالجر على الأصل ، وغدا. ظرف للرحيل ، وفي ترحالهم : أى مع رحيلهم نفسي . أى روحي . فكأن محبوبه أخذ روحه وغادره ميتاً لتعلق قلبه به ، ويجوز أنه استعارها لمحبوبه على طريق التصريح ، لأن به حياته وسروره ، فكأنه يموت بمفارقتها لاغتمامه

(٣) قال محمود رحمه الله : «فان قلت : فما وجه من قرأ ص وق ون مفتوحات ... الخ»؟ قال أحمد رحمه الله تعالى : كلامه على الوجه الأول يوجب كونها معربة ، وعلى الوجه الثاني يحتتمل أن يكون أراد أن الفتحة . لالتقاء الساكنين . نشأت عن سكون الحكاية ، فإنها إنما تحكى ساكنة مجردة من سمة الاعراب ، فلا تكون الحركة .

سيبويه مثل ذلك في : حم ، وطس ، ويس لو قرئ به. وحكى أبو سعيد السيرافي أنّ بعضهم قرأ : يس. ويجوز أن يقال : حركت لالتقاء الساكنين ، كما قرأ من قرأ : ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾. فإن قلت : هلا زعمت أنها مقسم بها؟^(١) وأنها نصبت قولهم : نعم الله لأفعلن ، وآي الله لأفعلن ، على حذف حرف الجر وإعمال فعل القسم؟ وقال ذو الرمة :

أَلَا رَبُّ مَنْ قَلْبِي لَهُ اللَّهُ نَاصِحٌ^(٢)

وقال آخر :

فَذَاكَ أَمَانَةُ اللَّهِ الثَّرِيدُ^(٣)؟

. إذا إعرابا ، إذ لا مقتضى له مع الحكاية ، ولا بناء إذ هي معربة عنده على هذا التقدير. ويحتمل أن يكون أراد أنها مبنية فتكون الحركة مثلها في أين وكيف حركة بناء ، والأول هو الظاهر من مراده إذ حتم قبل أنها معربة ، على أن سيبويه نص في كتابه على ما أورده بلفظه قال : وأما (ص) فلا يحتاج إلى أن يجعل اسما أعجميا ، لأن وزنه في كلامهم. ولكنه يجوز أن يكون اسما للسورة فلا يصرف. ويجوز أن يكون أيضا (يس وص) اسمين غير متمكنين فيلزمان الفتح كما ألزمت الأسماء غير المتمكنة للحركات نحو : كيف ، وأين ، وحيث ، وأمس اه كلام سيبويه. وفيه رد على الزمخشري رحمه الله في حتمه أن تكون معربة وأن فتحتها نصب أو لالتقاء الساكنين العارض للحكاية على ما ظهر من مقوله آنفاً ، وسيأتى له أيضا ما يدل على أنه لا يجوز بناؤها البتة. أقول : بعد تسليم أن الأول هو الظاهر من مراده ، فما ذكره . حكاية عن سيبويه . غير وارد عليه ، لأنه اختار أحد الوجهين.

(١) قال محمود رحمه الله : «هلا زعمت أنها مقسم بها ... الخ»؟ قال أحمد رحمه الله : وله البقاء على أنها منصوبة على القسم ، وجعل الواو عاطفة على مذهب الخليل وسيبويه في أمثاله ، ويسلك حيثنذ في العطف سبيل:

ولا سابق شيئا إذا كان جائياً

فان المقسم به وإن كان منصوباً لأنه محل يعهد وفيه الخبر ، فعطف بالجر رعاية لذلك العهد ، وهاهنا أولى بالصحة منه بيت زهير المذكور لأن انتصاب المقسم به إنما نشأ عن حذف حرف الجر الذي هو أصل في القسم ، وانتصاب خبر ليس أصل في نفسه ، ليس ناشئا عن حذف. غايته أن حرف الجر قد يصحب خبرها دخيلا ، فمراعاة الأصل أجدر من مراعاة العارض ، فقد تحرر في فتح ص وجهان : أحدهما أن يكون إعرابا وهو إما جرى على الوجه الذي أبداه الزمخشري ، أو نصب على الوجه الذي نقلته عن سيبويه ، ثانيهما أنه لا إعراب ولا بناء وهو عروضه على الوقف في الحكاية.

(٢) ألا رب من قلبي لله ناصح و من قلبي في الطبيب السوانح

لذي الرمة. و «من» نكرة موصوفة. و «قلبي» مبتدأ. «الله» قسم نصب على حذف الجار وإعمال فعل القسم المقدّر. و «ناصر» خبر ، والجملة صفة «من» و «السوانح» المسرعات جهة اليمين ، كما أن «البوارح» المسرعات جهة الشمال. يقول : رب شخص قلبي له ناصر خالص والله. ورب شخص قلبه لي غير خالص بل نافر عنى كأنه من الأطباء المسرعات نفورا. وأعاد الموصوف . وإن كان المقصود ذكر الصفة فقط . تنبيهها على استقلال كل من الصفتين بقصد الاخبار به. هذا ، ويحتمل أن المعنى : أن قلبه لي ناصر أيضا ؛ لأن بعض العرب يتيمن بالسوانح. وفيه تلويح بتشبيهه محبوبته بالطيبة.

(٣) إذا ما الخبر تأدمه بلحمة فذاك أمان الله الثريد

«ما» زائده. وأدم يأدم كضرب يضرب ، إذا وفق وأصلح ، وكذلك آدم بمد الهمزة ، فتأدمه : تصلحه .

قلت : إنّ القرآن والقلم بعد هذه الفواتح مخلوف بهما ، فلو زعمت ذلك لجمعت بين قسمين على مقسم واحد وقد استكروها ذلك. قال الخليل في قوله عزّ وجلّ : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ، وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ، وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ : الواوان الأخريان ليستا بمنزلة الأولى ، ولكنهما الواوان اللتان تضمان الأسماء إلى الأسماء في قولك : مررت بزيد وعمرو ، والأولى بمنزلة الباء والتاء. قال سيبويه : قلت للخليل : فلم لا تكون الأخريان بمنزلة الأولى؟ فقال : إنما أقسم بهذه الأشياء على شيء ، ولو كان انقضى قسمه بالأوّل على شيء لجاز أن يستعمل كلاما آخر ، فيكون كقولك بالله لأفعلنّ ، بالله لأخرجنّ اليوم. ولا يقوى أن تقول : وحقك وحق زيد لأفعلنّ. والواو الأخيرة واو قسم لا يجوز إلا مستكرها قال : وتقول وحياتي ثم حياتك لأفعلنّ ؛ فثم هاهنا بمنزلة الواو. هذا ولا سبيل فيما نحن بصدده إلى أن تجعل الواو للعطف ؛ لمخالفة الثاني الأول في الإعراب. فان قلت : فقدّرها مجرورة بإضمار الباء القسمية لا بحذفها ، فقد جاء عنهم : الله لأفعلنّ مجرورا ، ونظيره قولهم : لاه أبوك ؛ غير أنها فتحت في موضع الجر لكونها غير مصروفة ، واجعل الواو للعطف حتى يستتب لك المصير إلى نحو ما أشرت إليه. قلت : هذا لا يبعد عن الصواب ، وبعضه ما رووا عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : أقسم الله بهذه الحروف ^(١). فإن قلت : فما وجه قراءة بعضهم ص وق بالكسر ^(٢)؟ قلت : وجهها ما ذكرت من التحريك لالتقاء الساكنين ، والذي يبسط من عذر المحرّك : أن الوقف لما استمرّ بهذه الأسامي ، شاكلت لذلك ما اجتمع في آخره ساكنان من المبنيات ، فعوملت تارة معاملة «الآن» وأخرى معاملة «هؤلاء». فإن قلت : هل تسوّغ لي في الحكاية مثل ما سوّغت لي في

. وتحيته للأكل. وأمانة الله رفع على الابتداء ، والخير محذوف ، أى : قسمي ؛ أو نصب بفعل القسم المقدر بعد حذف الجار ، أى : أقسم بأمانة الله ؛ أو جر بواو القسم مقدرة ، لكن البصريون خصوا هذا بلفظ الجلالة. يقول : إذا كان الخبز مأدوما باللحم ومزوجا به ، فذلك هو الثريد دون ما عدها وحق أمانة الله.

(١) موقوف رواه البيهقي في الأسماء والصفات ، من طريق معاوية بن صالح ، عن على بن طلحة عنه بلفظ : الحروف المقطعة في أوائل السور كلها أقسام أقسم الله بها. ورواه ابن مردويه من هذا الوجه في تفسير طه. قال : طه وأشباهاها قسم أقسم الله بها. وهي من أسماء الله تعالى.

(٢) قال محمود رحمه الله : «فان قلت فما وجه قراءة بعضهم ص وق بالكسر ... الخ»؟ قال أحمد رحمه الله : وهذا تحقق لك مخالفته لما نقلته من نص سيبويه من أنها غير متمكنة. وبذلك على أن فتحتها التي قال قبل إنها لالتقاء الساكنين فتحة بناء ، أنه إنما أراد السكون العارض في الحكاية لا سكون البناء وهو مخالف لنص سيبويه كما نهت عليه أيضا.

المعربة ^(١) من إرادة معنى القسم؟ قلت : لا عليك في ذلك ، وأن تقدّر حرف القسم مضمراً في نحو قوله عز وجل : ﴿حَمِ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ، كأنه قيل : أقسم بهذه السورة ، وبالكتاب المبين : إنا جعلناه. وأما قوله صلى الله عليه وسلم «حم لا يبصرون» ^(٢) فيصلح أن يقضى له بالجرّ والنصب جميعاً على حذف الجار وإضمامه. فان قلت : فما معنى تسمية السور بهذه الألفاظ خاصة؟ قلت : كأن المعنى في ذلك الإشعار بأن الفرقان ليس إلا كلمتا عربية معروفة التركيب من مسميات هذه الألفاظ ، كما قال عز من قائل : ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾. فان قلت : فما بالها مكتوبة في المصحف على صور الحروف ^(٣) أنفسها ، لا على صور أساميها؟ قلت : لأنّ الكلم لما كانت مركبة من ذوات الحروف ، واستمرّت العادة متى تهجيت ومتى قيل للكاتب : اكتب كيت وكيت أن يلفظ بالأسماء وتقع في الكتابة الحروف أنفسها ، عمل على تلك الشاكلة المألوفة في كتابة هذه الفواتح. وأيضاً فإن شهرة أمرها ، وإقامة ألسن الأسود والأحمر لها ،

(١) قال محمود رحمه الله : «هل تسوغ لي في الحكاية ارادة القسم كما سوغت لي في المعربة ... الخ»؟ قال أحمد رحمه الله : وقد منع الزمخشري أن يكون ص منصوباً على القسم لما تقدم ، وأجاز أن يكون حم في الحديث المذكور منصوبة على القسم ، بخلاف حم في القرآن ، فتلك يتعين أن يكون نصبها على إضمار الفعل ، أو مجرورة على القسم. وأما النصب مع القسم فلا يجيزه إلا في الحديث ، والفرق عنده أن المانع من إجازته في القرآن مجيء المعطوف بعده مخالفاً له في الاعراب ، إذ المعطوفات كلها مجرورة ، ويتعذر عنده القسم في التواني خوفاً من جمع قسمين على مقسم واحد ، ولا كذلك الحديث فانه لم يأت بعده ما يباه ؛ فلذلك خص جواز هذا الوجه بالحديث. وأما على الوجه الذي أو صحته فيعم جواز ذلك القرآن والحديث جميعاً.

(٢) أخرجه أصحاب السنن الثلاثة ، من رواية المهلب عمن سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول «إن بيتكم العدو فليكن شعاركم حم لا يبصرون» قال الحاكم : المبهم هو البراء بن عازب رضى الله عنهما. ثم أخرجه كذلك وهو في النسائي أيضاً ، وفي الباب عن أنس رضى الله عنه في الأوسط للطبراني. وفي لدلائل لأبي نعيم عنه في غزوة حنين. وعن شيبه بن عثمان في الطبراني أيضاً وعن أبي دجانة الأنصاري في آخر الدلائل للبيهقي ، في حديث طويل

(٣) قال محمود رحمه الله : «فان قلت : فما بالها مكتوبة في المصحف على صورة الحروف ... الخ»؟ قال أحمد رحمه الله : على هذا المعنى من خروج خط المصحف عن قياس الخط اعتمد القاضي رضى الله عنه في كتاب الانتصار ، في الجواب عما نقل عن عثمان رضى الله عنه : أن عكرمة لما عرض عليه المصحف وجد فيه حروفاً من اللحن فقال : لا تغيروها فان العرب ستقيمها بألسنتها. فلو كان الكاتب من ثقيف والممل من هذين لم يوجد فيه هذه الحروف ، قال القاضي : وإنما قال عثمان رضى الله عنه ذلك ؛ لأن ثقيفاً كانت أبصر بالهجاء ، وهذياناً كانت تظهر الهمزة ، والهمزة إذا ظهرت في لفظ الممل كتبها الكاتب على صورتها فما أراد عثمان رضى الله عنه إلا أن تلك الحروف كتبت على خلاف قياس الخط ، مثل كتابة : الصلوة ، والزكاة ، بالواو لا بالألف ؛ قال القاضي : وإنما أخذ الله على الحفظة أن لا يغيروا التلاوة ، أما الخط فلم يأخذ عليهم رسماً بعينه ، حتى لا يسوغ الخروج من قياس رسم خاص من رسوم الخط

اه كلامه

القول من القوة والخلافة بالقبول بمنزل ، ولناصره على الأوّل أن يقول : إن القرآن إنما نزل بلسان العرب مصبوباً في أساليبهم واستعمالاتهم ، والعرب لم تتجاوز ما سموا به ^(١) مجموع اسمين ، ولم يسم أحد منهم بمجموع ثلاثة أسماء وأربعة وخمسة ، والقول بأنها أسماء السور حقيقة : يخرج إلى ما ليس في لغة العرب ، ويؤدّي أيضاً إلى صيرورة الاسم والمسمى واحداً. فإن اعترضت عليه بأنه قول مقول على وجه الدهر وأنه لا سبيل إلى ردّه ، أجابك بأن له محملاً سوى ما يذهب إليه ، وأنه نظير قول الناس : فلان يروى : قفا نبك ، وعفت الديار. ويقول الرجل لصاحبه : ما قرأت؟ فيقول (الحمد لله) و (براءة من الله ورسوله) و (يوصيكم الله في أولادكم) و (الله نور السماوات والأرض). وليست هذه الجمل بأسامي هذه القصائد وهذه السور والآي ، وإنما تعني رواية القصيدة التي ذاك استهلالها ، وتلاوة السورة أو الآية التي تلك فاتحتها. فلما جرى الكلام على أسلوب من يقصد التسمية ، واستفيد منها ما يستفاد من التسمية ، قالوا ذلك على سبيل المجاز دون الحقيقة. وللمجيب عن الاعتراضين على الوجه الأول أن يقول : التسمية بثلاثة أسماء فصاعداً مستنكرة لعمري وخروج عن كلام العرب ، ولكن إذا جعلت اسماً واحداً على طريقة حضر موت ، فأما غير مركبة منشورة نثر أسماء العدد فلا استنكار فيها ؛ لأنها من باب التسمية بما حقه أن يحكى حكاية ، كما سموا : بتأبط شراً ، وبرق نحرة ، وشاب قرناها. وكما لو سمي : بزيد منطلق ، أو بيت شعر. وناهيك بتسوية سيبويه بين التسمية بالجملة والبيت من الشعر ، وبين التسمية بطائفة من أسماء حروف المعجم ، دلالة قاطعة على صحة ذلك. وأما تسمية السورة كلها بفاتها ، فليست بتصيير الاسم والمسمى واحداً ، لأنها تسمية مؤلف بمفرده ، والمؤلف غير المفرد. ألا ترى أنهم جعلوا اسم الحرف مؤلفاً منه ومن حرفين مضمومين إليه ، كقولهم : صاد ، فلم يكن من جعل الاسم والمسمى واحداً حيث كان الاسم مؤلفاً والمسمى مفرداً. الوجه الثالث : أن ترد السور مصدرة بذلك ليكون أوّل ما يقرع الأسماع مستقلاً بوجه من الإعراب ، وتقدمة من دلائل الإعجاز. وذلك أنّ النطق بالحروف أنفسها كانت العرب فيه مستوية الأقدام : الأميون منهم وأهل الكتاب ، بخلاف النطق بأسامي الحروف ، فإنه كان مختصاً بمن خط وقرأ وخالط أهل الكتاب وتعلم منهم ، وكان مستغرباً مستبعداً من الأمي التكلم بما استبعاد الخط والتلاوة ، كما قال عز وجل : ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

فكان حكم النطق بذلك

(١) قوله «لم تتجاوز ما سموا به» لعله : بما ، أو لعله : فيما. (ع)

. مع اشتهار أنه لم يكن ممن اقتبس شيئاً من أهله . حكم الأفاضيل المذكورة في القرآن ، التي لم تكن قريش ومن دان بدينها في شيء من الإحاطة بها ، في أن ذلك حاصل له من جهة الوحي ، وشاهد بصحة نبوته ، وبمنزلة أن يتكلم بالبطانة من غير أن يسمعها من أحد. واعلم أنك إذا تأملت ما أورده الله عز سلطانه في الفواتح من هذه الأسماء. وجدتها نصف أسامي حروف المعجم ^(١) أربعة عشر سواء ، وهي : الألف ، واللام ، والميم ، والصاد ، والراء ، والكاف ، والهاء ، والياء ، والعين ، والطاء ، والسين ، والحاء ، والقاف ، والنون . في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم. ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف ، بيان ذلك أن فيها من المهموسة نصفها : الصاد ، والكاف ، والهاء ، والسين ، والحاء. ومن المجهورة نصفها : الألف ، واللام ، والميم ، والراء ، والعين ، والطاء ، والقاف ، والياء ، والنون. ومن الشديدة نصفها : الألف ، والكاف ، والطاء ، والقاف. ومن الرخوة نصفها : اللام ، والميم ، والراء ، والصاد ، والهاء ، والعين ، والسين ، والحاء ،

(١) قال محمود رحمه الله : «واعلم أنك إذا تأملت ما أورده الله عز سلطانه في الفواتح من هذه الأسماء وجدتها نصف أسامي حروف المعجم ... الخ». قال أحمد : بقي عليه من الأصناف الحروف الشديدة ، وقد ذكر تعالى نصفها : الهمزة المعبر عنها بالألف ، والكاف ، والقاف ، والطاء. والمطبقة ، وقد ذكر تعالى نصفها : الصاد ، والطاء. والمنفتحة ، وقد ذكر نصفها : الألف ، والحاء ، والراء ، والسين ، والعين ، والقاف ، والكاف ، واللام ، والميم ، والنون ، والهاء ، والياء. وحروف الصغير لما كانت ثلاثاً : السين ، والصاد ، والراء ؛ لم يكن لها نصف فذكر منها اثنين : السين ، والصاد. وتلك العادة المألوفة فيما يقصد إلى تنصيفه فلا يمكن فيتم الكسر. ألا ترى طلاق العبد وعدة الأمة ونحو ذلك؟ والحروف اللينة وهي ثلاثة : الألف ، والياء ، والواو. وذكر منها اثنين : الألف ، والياء كحروف الصغير. والمكرر وهو الراء. والهاوي وهو الألف. والمنحرف وهو اللام. وقد ذكرها. ولم يبق من أصناف الحروف خارجاً عن هذا النمط إلا ما بين الشديد والرخو ، فانه لم يقتصر منها على النصف ؛ لأن ما ذكر منها زائداً على النصف اندرج في غيرها من الأصناف ، فلم يمكن الاقتصار لها كالشديدة والرخوة فلم يكن بها عناية. وأما حروف الذلاقة والمصمتة فالصحيح أن لا يعدا صنفين ، ولئن عدتهما صنفين متميزين بخط طويل في جهة تمييزهما ، حتى أبعد الزمخشري في مفصله في تمييزهما فقال : حروف الذلاقة التي يعتمد الناطق فيها على ذلق اللسان . أى طرفه . وهو تمييز مردود جداً ؛ لأن من جملتها : الميم ، والباء ، والفاء. ولا مدخل لطرف اللسان فيها ، ثم لا يتم على هذا التمييز مطابقتها للمصمتة ، إذ المصمتة مفسرة عنده بأنها حروف تكون عن تركيب كلمة رباعية فما زاد منها حتى يدرج معها أحد حروف الذلاقة ، فكيف المقابلة بين الخروج من طرف اللسان وبين الصمت؟ فالحق أنهما صنفان ضعيف تمييزهما ، فلم يعتبر جريانها على النمط المستمر في غيرها من الأصناف البين امتيازها. وعد الزمخشري في هذا النمط حروف القلقة ، وذكر أن المذكور منها النصف : القاف ، والطاء ؛ ووهم فإنها خمسة أحرف ، لم يذكر منها في الفواتح سوى الحرفين المذكورين. وعلى الجملة فلا يقدم الناظر تخريج ما لم يجر على هذا النمط من الأصناف على وجه يمكن الاستئناس إليه.

والياء ، والنون. ومن المطبقة نصفها : الصاد ، والطاء. ومن المنفتحة نصفها : الألف ، واللام ، والميم ، والراء ، والكاف ، والهاء ، والعين ، والسين ، والحاء ، والقاف ، والياء ، والنون. ومن المستعلية نصفها : القاف ، والصاد ، والطاء. ومن المنخفضة نصفها : الألف ، واللام ، والميم ، والراء ، والكاف ، والهاء ، والياء ، والعين ، والسين ، والحاء ، والنون. ومن حروف القلقلة نصفها : القاف ، والطاء. ثم إذا استقرت الكلم وتراكيبها ، رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها ، فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته. وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله. وهو المطابق للطائف التنزيل واختصاراته ، فكأن الله عز اسمه عدّد على العرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم ، إشارة إلى ما ذكرت من التبكيث لهم وإلزام الحجة إياهم. ومما يدل على أنه تغمد^(١) بالذكر من حروف المعجم أكثرها وقوعاً في تراكيب الكلم^(٢). أن الألف واللام لما تكاثرا وقوعهما فيها جاءتا في معظم هذه الفواتح مكرّرتين. وهي : فواتح سورة البقرة ، وآل عمران ، والروم ، والعنكبوت ولقمان ، والسجدة ، والأعراف ، والرعد ، ويونس ، وإبراهيم ، وهود ، ويوسف ، والحجر. فان قلت : فهلا عدّدت بأجمعها في أوّل القرآن؟ وما لها جاءت مفرقة على السور؟ قلت : لأنّ إعادة التنبيه على أنّ المتحدّى به مؤلف منها لا غير ، وتحديدّه في غير موضع واحد أوصل إلى الغرض وأقرّ له في الأسماع والقلوب من أن يفرد ذكره مرة ، وكذلك مذهب كل تكرير جاء في القرآن فمطلوب به تمكين المكرر في النفوس وتقريره. فان قلت : فهلا جاءت على وتيرة واحدة؟ ولم اختلفت أعداد حروفها فوردت ص وق ون على حرف ، وطه وطس ويس وحم على حرفين ، والم والر وطسم على ثلاثة أحرف ، والمص والمر على أربعة أحرف ،

(١) قوله «تغمد» لعله «تعمد» بالعين المهملة. (ع)

(٢) قال محمود رحمه الله : «ومما يدل على أنه تغمد بالذكر من حروف المعجم أكثرها وقوعاً في تراكيب الكلم أن الألف واللام ... الخ» قال أحمد رحمه الله : الألف المذكورة في الفواتح يحتمل أن يكون المراد بها الهمزة اللينة ، وقد اضطرب فيها كلام الزمخشري في هذا الفصل ، فعند ما عد الحروف أربعة عشر حرفاً في الفواتح قال : إنّها نصف حروف العربية ، فهذا يدل على أن جملتها ثمانية وعشرون حرفاً ، فلا بد من سقوط أحد الحرفين من هذا العدد إما اللينة أو الهمزة ، وإلا كانت تسعة وعشرين. والظاهر أن الساقط الهمزة وعند ما قال : في تسع وعشرين على عدد الحروف اقتضى هذا دخول الأليين في العدد. والظاهر من كلامه أن الألف عنده هي اللينة ، فلذلك على تسميتها بالألف بأن النطق لما تعذر بها أولاً استقرت الهمزة مكانها وفاء بمراعاة تلك اللطيفة التي قدمها من جعل مسمى الحرف أول اسمه. وأما عند النحاة فالألف المعدودة في حروف المعجم مفردة هي الهمزة ؛ وأما اللينة فهي المعدودة مع اللام حيث يقولون : لام ألف ، ويكتبونها على صورة «لا».

وكهيعص وحـم عسق على خمسة أحرف؟ قلت : هذا على إعادة افتنائهم في أساليب الكلام ، وتصرفهم فيه على طرق شتى ومذاهب متنوّعة. وكما أن أبنية كلماتهم على حرف وحرفين إلى خمسة أحرف لم تتجاوز ذلك ، سلك بهذه الفواتح ذلك المسلك. فإن قلت : فما وجه اختصاص كل سورة بالفاتحة التي اختصت بها؟ قلت : إذا كان الغرض هو التنبيه . والمبادي كلها في تأدية هذا الغرض سواء لا مفاضلة . كان تطلب وجه الاختصاص ساقطاً ، كما إذا سمى الرجل بعض أولاده زيداً والآخر عمراً ، لم يقل له : لم خصصت ولدك هذا بزيد وذاك بعمر؟ لأنّ الغرض هو التمييز وهو حاصل أية سلك ؛ ولذلك لا يقال : لم سمى هذا الجنس بالرجل وذاك بالفرس؟ ولم قيل للاعتماد بالضرب؟ وللانتصاب القيام؟ ولنقيضه القعود؟ فإن قلت : ما بالهم عدواً بعض هذه الفواتح أية دون بعض؟ قلت : هذا علم توقيفي لا مجال للقياس فيه كعرفة السور. أمّا ألم فأية حيث وقعت من السور المفتحة بها. وهي ست. وكذلك المص آية ، والمر لم تعدّ آية ، والر ليست بأية في سورها الخمس ، وطسم آية في سورتها ، وطه ويس آيتان ، وطس ليست بأية ، وحـم آية في سورها كلها ، وحـم عسق آيتان ، وكهيعص آية واحدة ، وص وق ون ثلاثتها لم تعدّ آية. هذا مذهب الكوفيين ومن عداهم ، لم يعدّوا شيئاً منها آية. فإن قلت : فكيف عدّ ما هو في حكم كلمة واحدة آية؟ قلت : كما عدّ الرحمن وحده ومدهاقتان وحدها آيتين على طريق التوقيف. فإن قلت : ما حكمها في باب الوقف؟ قلت : يوقف على جميعها وقف التمام إذا حملت على معنى مستقل غير محتاج إلى ما بعده ، وذلك إذا لم تجعل أسماء للسور ونعق بها كما ينعق بالأصوات أو جعلت وحدها أخبار ابتداء محذوف كقوله عز قائلًا : ﴿الم الله﴾ أى هذه ألم ثم ابتداء فقال ﴿الله لا إله إلا هو﴾. فإن قلت : هل لهذه الفواتح محل من الإعراب؟^(١) قلت : نعم لها محل فيمن جعلها أسماء للسور لأنها عنده كسائر الأسماء الأعلام. فإن قلت : ما محلها؟ قلت : يحتمل الأوجه الثلاثة ، أما الرفع : فعلى الابتداء ، وأما النصب والجَرّ ، فلما مرّ من صحة القسم بها وكونها بمنزلة الله والله على اللغتين. ومن لم يجعلها أسماء للسور ، لم يتصوّر أن يكون لها محل في مذهبه ، كما لا محل للجمل المبتدأة وللنفردات المعدّدة.

(١) قال محمود رحمه الله : «فإن قلت : ما محل هذه الفواتح من الاعراب ... الخ»؟ قال أحمد رحمه الله : وإنما جاز النصب مع القسم فيما لا يعقبه معطوف مجرور. فأما ما يعقبه معطوف مجرور مثل ص وق ون فإنه لا يميز فيه النصب مع القسم البتة ، ويحمله على إضمار فعل ، أو على أن الفتح في موضع الجر. وأما على وجه بدئه فيما تقدم فيجوز النصب مع القسم في جميعها فجدد به عهداً. وعلى النصب بإضمار فعل أعربها سيبويه في كتابه.

ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢)

فإن قلت : لم صحت الإشارة بذلك إلى ما ليس ببعيد؟^(١) قلت : وقعت الإشارة إلى الم بعد ما سبق التكلم به وتقضى ، والمتقضى في حكم المتباعد ، وهذا في كل كلام. يحدث الرجل بحديث ثم يقول : وذلك ما لا شك فيه. ويحسب الحاسب ثم يقول : فذلك كذا وكذا. وقال الله تعالى : ﴿لَا فَاِرِضٌ وَلَا بُكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾. وقال : ﴿ذَلِكُمَا بِمَا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ ، ولأنه لما وصل من المرسل إلى المرسل إليه ، وقع في حد البعد ، كما تقول لصاحبك وقد أعطيته شيئاً : احتفظ بذلك. وقيل معناه : ذلك الكتاب الذي وعدوا به. فإن قلت : لم ذكر اسم الإشارة . والمشار إليه مؤنث وهو السورة ؟^(٢) قلت : لا أخلو من أن أجعل الكتاب خبره أو صفته. فإن جعلته خبره ، كان ذلك في معناه ومسماه مسماه ، فجاز إجراء حكمه عليه في التذكير ، كما أجرى عليه في التأنيث في قولهم : من كانت أمك. وإن جعلته صفته ، فإنما أشير به إلى الكتاب صريحاً ؛ لأنّ اسم الإشارة مشار به إلى الجنس الواقع صفة له. تقول : هند ذلك الإنسان ، أو ذلك الشخص فعل كذا. وقال الذبياني :

نُبِّئْتُ نَعْمَى عَلَى الْمَجْرَانِ عَاتِيَةً سُقِّيَا وَرُعِيَا لِذَاكَ الْعَاتِبِ الزَّرَارِي^(٣)

(١) قال محمود رحمه الله : «إن قلت لم صحت الإشارة بذلك إلى ما ليس ببعيد ... الخ»؟ قال أحمد رحمه الله: ولأن البعد هنا باعتبار علو المنزلة ، وبعد مرتبة المشار إليه من مرتبة كل كتاب سواه كما يقطعون بثم للاشعار بتراخي المراتب ، وقد يكون المعطوف سابقاً في الوجود على المعطوف عليه وسيأتى أمثاله.

(٢) قال محمود رحمه الله : «فإن قلت : لم ذكر اسم الإشارة ... الخ»؟ قال أحمد رحمه الله : ولو مثل ذلك بقول القائل : حصان كانت دابتك ، لكان أقوم وأسلم من الفرق بما في لفظ «من» من الإيهام الصالح للمذكور والمؤنث. ومثل هذا قوله تعالى : ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَادُوا﴾ فيمن وصل الكلام فجعل ﴿هُمُ الْعَادُوا﴾ جملة في موضع المفعول الثاني للحسيان ، وعدل عن أن يقول : هي العدو ، نظراً إلى المفعول الثاني الذي هو في المعنى خبر عن الصيحة ، فذكر وجمع لما كان المبتدأ هو الخبر في المعنى. وقد وجه الشيخ أبو عمرو قول الزمخشري ، وتسمى الجملة بالتاء والياء عقيب قوله : والكلام هو المركب من كلمتين . بهذا التوجيه

(٣) عوجوا فحيوا لننعم دمنمة العدار ما ذا يحيون من نوى وأحجار

لقعد أرائى ونعمى لاهيين بهما والهدر والعيش لم يهيم بامرار

نبئت نعمى على المجران عاتبة سقيا ورعيا لذاك العاتب الزاري

للنابغة الذبياني. والعوج : عطف رأس البعير بالزمام. ونعم : اسم محبوبته. والدمنة : ما تلبد من البعر والرماد والقمامة ، والمراد مطلق الآثار. والنوى : الحاجز حول الخباء لئلا يدخله الماء. والمراد بالأحجار : الأثافي التي تنصب عليها القدور ، أو بقية الجدران ، وهم بالشيء : أراده ، وأصله الإدغام ، وفكه هنا لغة ، أى لم يهيم كل منهما.

فإن قلت : أخبرني عن تأليف ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ مع ﴿الْم﴾. قلت : إن جعلت ﴿الْم﴾ اسماً للسورة ففي التأليف وجوه : أن يكون ﴿الْم﴾ مبتدأ ، و ﴿ذَلِكَ﴾ مبتدأ ثانياً ، و ﴿الْكِتَابُ﴾ خبره ، والجملة خبر المبتدأ الأول. ومعناه : أن ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل ، كأن ما عده من الكتب في مقابلته ناقص ، وأنه الذي يستأهل أن يسمى كتاباً ، كما تقول : هو الرجل ، أى الكامل في الرجولية ، الجامع لما يكون في الرجال من مرضيات الخصال. وكما قال :

هُمَّ الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ يَا أُمَّ خَالِدٍ ^(١)

وأن يكون الكتاب صفة. ومعناه : هو ذلك الكتاب الموعود ، وأن يكون ﴿الْم﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أى هذه الم ، ويكون ذلك خبراً ثانياً أو بدلاً ، على أن الكتاب صفة ، وأن يكون : هذه الم جملة ، وذلك الكتاب جملة أخرى. وإن جعلت الم بمنزلة الصوت ، كان ذلك مبتدأ خبره الكتاب ، أى ذلك الكتاب المنزل هو الكتاب الكامل. أو الكتاب صفة والخبر ما بعده ، أو قدر مبتدأ محذوف ، أى هو . يعنى المؤلف من هذه الحروف . ذلك الكتاب. وقرأ عبد الله : الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه. وتأليف هذا ظاهر.

. والإمرار : صيرورة الشيء مرا ، والاحلاء : صيرورته حلواً ، وجعل الطعم مرّاً ، وجعله حلواً ، ويروى زارية بدل عاتبة. والزاري : العائب ، يقال : زرى عليه يزرى إذا عاب عليه. وقوله ما ذا تحيون : استشعار للخطأ في الأمر بالتحية ورجوع عنه لأنه لا يجدى شيئاً. و «من» بيان لما ذا ، وفيه معنى التحقير ، ونعمى : عطف على ضمير النصب ، والواو للحال ، أى والحال أن الدهر والعيش لم يتغير كل منهما إلى البؤس ، شبههما بما تصح منه الإرادة على طريق الكناية ، فأسند لهما اهم تخيلاً ، أو استعار اهم المشاركة والقرب تصريحاً ، وشبههما بالمطعم فأثبت لهما الإمرار ، أو استعاره لتكدرهما ونغصهما بجامع كراهية النفس لكل. وعلى الهجران : أى مع هجرانها ، أو لأحل هجران لها. وسقيا ، ورعيا : منصوبان على المصدرية ، أى سقاها الله ورعاها. وذلك إشارة إلى الإنسان أو الشخص وهي المراد ، ووصفها بما للذكر تعظيماً لها وتفخيماً لشأنها.

(١) وإن الــــــذي حانــــــت بفلــــــج دماؤهم هم القــــــوم كــــــل القــــــوم يا أم خالــــــد

للأشهب بن ربيعة. وقيل لحريث بن مخفض. والذي : أصله الذين ، فحذفت النون تخفيفاً. وروى : وإن الألى ، وهو بمعنى الذين ، وهم المذكورون في أول الأبيات وهو :

ألم تــــــر أنى بــــــعد عمــــــرو ومالــــــك وعــــــروة وابــــــن الهــــــول لــــــست بــــــخالــــــد

وحانت : أتى حين هلاكها ، وهو كناية عن الهلاك. ويقال : حان حيناً : هلك ، وأحانه الله : أهلكه ؛ فهو حقيقة. وفلج . بالفتح . اسم موضع بطريق البصرة ، ودماءهم : نفوسهم. وهم القوم كل القوم : أى هم المختصون بجميع صفات الرجال الحميدة دون غيرهم.

والريب : مصدر رابى ، إذا حصل فيك الريبة . وحقيقة الريبة : قلق النفس واضطرابها .

ومنه ما روى الحسن بن على قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»^(١) فإن الشك ريبة ، وإنّ الصدق طمأنينة» أى فإن كون الأمر مشكوكا فيه مما تقلق له النفس ولا تستقرّ . وكونه صحيحا صادقا مما تطمئن له وتسكن . ومنه : ريب الزمان ، وهو ما يقلق النفوس ويشخص بالقلوب من نوائبه . ومنه أنه مر بظي حاقف^(٢) فقال : «لا يربه أحد بشيء»^(٣) . فإن قلت : كيف نفى الريب على سبيل الاستغراق؟ وكم من مراتب فيه؟ قلت : ما نفى أنّ أحدا لا يرتاب فيه^(٤) وإنما المنفي كونه متعلقا للريب ومظنة له ؛ لأنه من وضوح الدلالة وسطوع البرهان بحيث لا ينبغي لمرتاب أن يقع فيه . ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ ، فما أبعد وجود الريب منهم؟ وإنما عرفهم الطريق إلى مزيل الريب ، وهو أن يحزروا أنفسهم ويوزوا قواهم في البلاغة ، هل تتم للمعارضة أم تتضاءل دونها؟ فيتحققوا عند عجزهم أن ليس فيه مجال للشبهة ولا مدخل للريبة . فإن قلت : فهلا قدّم الظرف على الريب ، كما قدّم على الغول في قوله تعالى : ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾؟ قلت : لأنّ القصد في إيلاء الريب حرف النفي ، نفى الريب عنه ، وإثبات أنه حق وصدق لا باطل وكذب ، كما كان المشركون يدّعون ، ولو أولى الظرف لقصد إلى ما يبعد عن المراد ، وهو أنّ كتابا آخر فيه الريب لا فيه ، كما قصد في قوله : ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ تفضيل خمر الجنة على خمر الدنيا بأنّها لا تغتال العقول كما تغتالها هي ، كأنه قيل : ليس فيها

(١) أخرجه الترمذي في آخر الطب ، والحاكم في الأحكام وفي البيوع . والطبراني والبخاري . ورواه البيهقي في الشعب بلفظ «فان الشر ريبة والخير طمأنينة»

(٢) قوله «أنه مر بظي حاقف» لعله : أنه صلى الله عليه وسلم الخ . وفي الصحاح أنه عليه السلام مر بظي حاتف في ظل شجرة ، وهو الذي انحنى وتثنى في نومه اه (ع)

(٣) أخرجه في الموطأ . والنسائي في الحج . وابن حبان من رواية عمر بن سلمة الضمري عن البهري : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يريد مكة وهو محرم ، حتى إذا كان بالاثنية بين الروثة والعرج ، إذا ظي حاتف في ظل وفيه سهم . فأمر رجلا أن يقف عنده لا يريه أحد من الناس حتى يجاوزوه . ولإسحاق في مسنده : فقال لبعض القوم : «كن حتى يمر الناس ولا يريه أحد بشيء» اه . البهري وقع في مسند أبي يعلى أن اسمه مخول ، ولفظه : تبعت حبائل لي بالأبواء فوقع فيها ظي ، فأقلت والحبل في رجله ، فخرجت أفقوه فسبقني إليه رجل فاحتضنها ، ثم ترفعنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فجعله بيننا نصفين .

(٤) قوله «أن أحدا لا يرتاب فيه» لعله أن أحدا يرتاب فيه . وقد يقال المراد ما نفى الريب على معنى أن أحدا لا يرتاب فيه . (ع)

ما في غيرها من هذا العيب والنقيصة : وقرأ أبو الشعثاء : (لا ريب فيه) بالرفع : والفرق بينها وبين المشهورة ، أنَّ المشهورة توجب الاستغراق ، وهذه تجوزه. والوقف على : ﴿فِيهِ﴾ هو المشهور. وعن نافع وعاصم أنهما وقفا على : ﴿لَا رَيْبَ﴾ ولا بد للواقف من أن ينوى خبرا. ونظيره قوله تعالى : ﴿قَالُوا لَا صَبْرَ﴾ ، وقول العرب : لا بأس ، وهي كثيرة في لسان أهل الحجاز. والتقدير : لا ريب فيه.

﴿فِيهِ هُدًى﴾ الهدى مصدر على فعل ، كالسرى والبكى ، وهو الدلالة الموصلة إلى البغية ، بدليل وقوع الضلالة في مقابلته. قال الله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى﴾. وقال تعالى : ﴿لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾. ويقال : مهدي ، في موضع المدح كمهتد ؛ ولأن اهتدى مطلق هدى . ولن يكون المطاوع في خلاف معنى أصله . ألا ترى إلى نحو : غمه فاعتم ، وكسره فانكسر ، وأشبهه ذلك : فإن قلت : فلم قيل : ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ والمتقون مهتدون؟ ^(١) قلت : هو كقولك للعزیز المكرم : أعزك الله وأكرمك ، تريد طلب الزيادة إلى ما هو ثابت فيه واستدامته ، كقوله : ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. ووجه آخر ، وهو أنه سماهم عند مشارفتهم لاكتساء لباس التقوى : متقين ، كقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قتل قتيلا فله سلبه» ^(٢) وعن ابن عباس : «إذا أراد أحدكم الحج فليعجل فإنه يمرض المريض وتضل الضالة ، وتكتف الحاجة» ^(٣) فسمى المشارف للقتل والمرض والضلال :

(١) قال محمود رحمه الله : «فان قلت : فلم قيل هدى للمتقين والمتقون مهتدون ... الخ». قال أحمد رحمه الله : الهدى يطلق في القرآن على معنيين : أحدهما الإرشاد وإيضاح سبيل الحق. ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾. وعلى هذا يكون الهدى للضال باعتبار أنه رشد إلى الحق ، سواء حصل له الاهتداء أولا. والآخر خلق الله تعالى الاهتداء في قلب العبد ، ومنه : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَفْتَدَهُ﴾ فإذا ثبت وروده على المعنيين فهو في هذه الآية يحتمل أن يراد به المعنيان جميعاً. وأما قول الزمخشري : إن القرآن لا يكون هدى للمعلوم بقاؤهم على الضلالة ، وإنما يستقيم إذا أريد بالهدى خلق الاهتداء في قلوبهم. وأما إذا أريد معناه الأول ، فلا يمتنع أن الله تعالى أرشد الخلق أجمعين ، وبين للناس ما نزل إليهم ، فمنهم من اهتدى ، ومنهم من حقت عليهم الضلالة. هذا مذهب أهل السنة.

(٢) متفق عليه من حديث أبي قتادة. وفيه قصته. وغلط الطيبي فقرأه لأبي داود عن ابن عباس رضى الله عنهما ، والذي فيه أنه قال يوم بدر «من قتل قتيلا فله كذا أو كذا» لم يقل «فله سلبه».

(٣) موقوف. عزاه الطيبي لأبي داود وحده مرفوعا وقال : ليس فيه الزيادات ، يعنى قوله : فيه يمرض إلى آخره. انتهى. والحديث بتمامه عند ابن ماجه ، وأحمد وإسحاق في مسنديهما مرفوعا ، وفيه أبو إسرائيل المكي ، وهو صدوق سيئ الحفظ.

قتيلاً ومريضاً وضالاً. ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِراً كَفَّاراً﴾ ، أى صائراً إلى الفجور والكفر. فإن قلت : فهلا قيل هدى للضالين؟ قلت : لأن الضالين فريقان : فريق علم بقاؤهم على الضلالة وهم المطبوع على قلوبهم ، وفريق علم أنّ مصيرهم إلى الهدى ؛ فلا يكون هدى للفريق الباقيين على الضلالة ، فبقى أن يكون هدى لهؤلاء ، فلو جيء بالعبرة المفصحة عن ذلك لقليل : هدى للصائرين إلى الهدى بعد الضلال ، فاختصر الكلام بآجرائه على الطريقة التي ذكرنا ، فقليل : هدى للمتقين. وأيضاً فقد جعل ذلك سلماً إلى تصدير السورة التي هي أولى الزهراوين وسنام القرآن وأول المثاني ، بذكر أولياء الله والمرتبطين من عباده.

والمتقى في اللغة اسم فاعل ، من قولهم : وقاه فاتقى. والوقاية : فرط الصيانة. ومنه : فرس واق ، وهذه الدابة تقى من وجاها ، إذا أصابه ضلع^(١) من غلظ الأرض ورقة الحافر ، فهو يقى حافره أن يصيبه أدنى شيء يؤلمه. وهو في الشريعة الذي يقى نفسه تعاطى ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك. واختلف في الصغائر^(٢) وقيل الصحيح أنه لا يتناولها ، لأنها تقع مكفرة عن مجتنب الكبائر. وقيل : يطلق على الرجل اسم المؤمن لظاهر الحال ، والمتقى لا يطلق إلا عن خبرة ، كما لا يجوز إطلاق العدل إلا على المختبر.

ومحل ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الرفع ، لأنه خبر مبتدئ محذوف ، أو خبر مع ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لذلك ، أو مبتدأ إذا جعل الظرف المقدم خبراً عنه. ويجوز أن ينصب على الحال ، والعامل فيه معنى الإشارة أو الظرف. والذي هو أرسخ عرفاً في البلاغة أن يضرب عن هذه المحال صفحاً ، وأن يقال إن قوله : ﴿الْم﴾ جملة برأسها ، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها. و ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ جملة ثانية. و ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ثالثة. و ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ رابعة.

(١) قوله «من وجاها إذا أصابه ضلع» في الصحاح : الوجي : الوجع في الحافر. والضلع : الميل والاعوجاج : والظلع : غمز في مشية البعير. (ع)
(٢) قال محمود رحمه الله : «واختلف في الصغائر ... الخ». قال أحمد رحمه الله : ومن تمنى القدرية على الله تعالى اعتقادهم أن الصغائر محوثة عنهم ما اجتنبوا الكبائر ، وأنه يجب أن يعفو الله عنها لمجتنب الكبائر ، كما يجب عندهم أن لا يعفو عن مرتكب الكبائر ، وهذا هو الخطأ الصراح ، والمحادة لآيات الله البينات وسنن رسوله صلى الله عليه وسلم الصحاح. والحق أن غفران الصغائر . وإن اجتنبت الكبائر . موكل إلى المشيئة ، كما أن غفران الكبائر موكل إليها أيضاً. ومن لا يعتقد ذلك وهم القدرية يضطرون إلى الوقوف عند قوله تعالى : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ فانه ناطق بالمؤاخاة بالصغائر. ويتحiron عند قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ فانه مصرح بمغفرة الكبائر. أما أهل السنة فقد ألفوا بين هاتين الآيتين بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فان التقييد بالمشيئة في هذه يقضى على الآيتين المطلقتين.

وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم ، حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق ، وذلك لمجيئها متأخية آخذا بعضها بعنق بعض. فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها ، وهلم جراً إلى الثالثة والرابعة. بيان ذلك أنه نبه أولاً على أنه الكلام المتحدى به ، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال. فكان تقريراً لجهة التحدي ، وشدّاً من أعضاده. ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب ، فكان شهادة وتسجيلاً بكماله ، لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين ، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة. وقيل لبعض العلماء : فيم لذتك؟ فقال : في حجة تتبخر اتضاحاً ، وفي شبهة تتضاءل افتضاحاً. ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين ، فقرّر بذلك كونه يقيناً لا يحوم الشك حوله ، وحققاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ثم لم تحل كل واحدة من الأربع ، بعد أن رتبت هذا الترتيب الأنيق ، ونظمت هذا النظم السرى ، من نكتة ذات جزالة. ففي الأولى الحذف والرمز إلى الغرض بالطف وجه وأرشفه. وفي الثانية ما في التعريف من الفخامة. وفي الثالثة ما في تقديم الريب على الظرف. وفي الرابعة الحذف. ووضع المصدر الذي هو «هدى» موضع الوصف الذي هو «هاد» وإيراده منكرًا. والإيجاز في ذكر المتقين.

زادنا الله اطلاعا على أسرار كلامه ، وتبيننا لنكت تنزيله ، وتوفيقاً للعمل بما فيه.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (٣)

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ إما موصول بالمتقين على أنه صفة مجرورة ، أو مدح منصوب ، أو مرفوع بتقدير : أعنى الذين يؤمنون ، أو هم الذين يؤمنون. وإما مقتطع عن المتقين مرفوع على الابتداء مخبر عنه ب ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى﴾. فإذا كان موصولا ، كان الوقف على المتقين حسناً غير تام. وإذا كان مقتطعاً ، كان وقفاً تاماً. فإن قلت : ما هذه الصفة ، أواردة بيانا وكشفا للمتقين؟ أم مسرودة مع المتقين تفيد غير فائدتها؟ أم جاءت على سبيل المدح والثناء كصفات الله الجارية عليه تمجيداً؟ قلت : يحتمل أن ترد على طريق البيان والكشف لاشتغالها على ما أسست عليه حال المتقين من فعل الحسنات وترك السيئات. أمّا الفعل فقد انطوى تحت ذكر الإيمان الذي هو أساس الحسنات ومنصبها ، وذكر الصلاة والصدقة ؛ لأنّ هاتين أمّا العبادات البدنية والمالية ، وهما العيار على غيرهما. ألم تركيف سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة عماد الدين ، وجعل الفاصل بين الإسلام والكفر ترك الصلاة؟ وسمى الزكاة قنطرة

الإسلام؟^(١) وقال الله تعالى : ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾. فلما كانتا بهذه المثابة كان من شأنهما استجرار سائر العبادات واستتباعها. ومن ثم اختصر الكلام اختصاراً ، بأن استغنى عن عدّ الطاعات بذكر ما هو كالعنوان لها ، والذي إذا وجد لم تتوقف أخواته أن تقترن به ، مع ما في ذلك من الإفصاح عن فضل هاتين العبادتين. وأما الترك فكذلك. ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾؟ ويحتمل أن لا تكون بيانا للمتقين ، وتكون صفة برأسها دالة على فعل الطاعات ، ويراد بالمتقين الذين يجتنبون المعاصي. ويحتمل أن تكون مدحا للموصوفين بالتقوى ، وتخصيصاً للإيمان بالغيب وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر ؛ إظهاراً لإنافتها على سائر ما يدخل تحت حقيقة هذا الاسم من الحسنات والإيمان : إفعال من الأمن. يقال : أمنت وأمنتته غيرى. ثم يقال : آمنه إذا صدّقه. وحقيقته : آمنه التكذيب والمخالفة. وأمّا تعديته بالباء فلتضمينه معنى أقرّ وأعترف. وأمّا ما حكى أبو زيد عن العرب : ما أمنت أن أجد صحابة . أى ما وثقت . فحقيقته : صرت ذا أمن به ، أى ذا سكون وطمأنينة ، وكلا الوجهين حسن في ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ أى يعترفون به أو يثقون بأنه حق. ويجوز أن لا يكون (بالغيب) صلة للإيمان ، وأن يكون في موضع الحال ، أى يؤمنون غائبين عن المؤمن به. وحقيقته : ملتبسين بالغيب ، كقوله : ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ ، ﴿لَيَعْلَمَ أَيْنَ لَمْ أَخْنُهِ بِالْغَيْبِ﴾. ويعضده ما روى «أن أصحاب عبد الله ذكروا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢) وإيمانهم ، فقال ابن مسعود : إنّ أمر محمد كان بيناً لمن رآه. والذي لا إله غيره ، ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب ، ثم قرأ هذه الآية. فإن قلت : فما المراد بالغيب إن جعلته صلة؟ وإن جعلته حالاً؟ قلت : إن جعلته صلة كان بمعنى

(١) أما الحديث الأول ، فأخرجه البيهقي في الشعب من طريق عكرمة عن عمر رضى الله عنه في حديث في آخره «والصلاة عماد الدين» قال : وعكرمة لم يسمع من عمر. قال : وأراه عن ابن عمر رضى الله عنهما. وله شاهد من حديث على رضى الله عنه بلفظ «الصلاة عماد الإسلام» أخرجه الأصبهاني في الترغيب. وغفل ابن الصلاح في مشكل الوسيط فقال : هذا حديث غير معروف. قلت : والطبي عزاه لتخريج الترمذي في حديث معاذ ففيه «وعموده الصلاة» ، ولا يخفى بعده. وأما الحديث الثاني ، فرواه مسلم من حديث جابر رضى الله عنه بلفظ «بين الرجل وبين الكفر تركه الصلاة». وأما الحديث الثالث ، فرواه إسحاق في مسنده من حديث أبي الدرداء رضى الله عنه به سواء. وفيه الضحّاك ابن حمق. وهو ضعيف. (٢) موقوف. أخرجه الحاكم من طريق عبد الرحمن بن زيد «ذكروا عند عبد الله بن مسعود. الخ» وإسناده صحيح.

الغائب ، إنما تسمية بالمصدر من قولك. غاب الشيء غيباً ، كما سمي الشاهد بالشهادة. قال الله تعالى : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾. والعرب تسمى المطمئن من الأرض غيباً. وعن النضر بن شميل : شربت الإبل حتى وارت غيوب كلالها. يريد بالغيب : الخمصة التي تكون في موضع الكلية ، إذا بطنت الدابة انتفخت. وإما أن يكون فيعلاً فخفف ، كما قيل «قيل» وأصله : قيل : والمراد به الخفي الذي لا ينفذ فيه ابتداءً إلا علم اللطيف الخبير ، وإنما نعلم منه نحن ما أعلمناه ، أو نصب لنا دليلاً عليه. ولهذا لا يجوز أن يطلق فيقال : فلان يعلم الغيب. وذلك نحو الصانع وصفاته ، والنبوءات وما يتعلق بها ، والبعث والنشور والحساب والوعد والوعيد ، وغير ذلك. وإن جعلته حالاً كان بمعنى الغيبة والخفاء ، فإن قلت : ما الإيمان الصحيح؟^(١) قلت : أن يعتقد الحق ويعرب عنه بلسانه ، ويصدق به عمله. فمن أخل بالاعناد . وإن شهد وعمل . فهو منافق. ومن أخل بالشهادة فهو كافر. ومن أخل بالعمل فهو فاسق.

ومعنى إقامة الصلاة تعديل أركانها وحفظها من أن يقع زيف في فرائضها وسننها وآدابها ، من أقام العود . إذا قومه . أو الدوام عليها والمحافظة عليها ، كما قال عز وعلا : ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ ، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ من قامت السوق إذا نفقت ، وأقامها. قال :

(١) قال محمود رحمه الله تعالى : «إن قلت ما معنى الإيمان الصحيح ... الخ». قال أحمد رحمه الله : يعنى بالفاسق غير مؤمن ولا كافر ، وهذا من الأسماء التي سماها القدرية وما أنزل الله بها من سلطان. ومعتقد أهل السنة أن الموحّد لله الذي لا خلل في عقيدته مؤمن وإن ارتكب الكبائر. وهذا هو الصحيح لغة وشرعاً. أما لغة فإن الإيمان هو التصديق وهو مصدق. وأما شرعاً فأقرب شاهد عليه هذه الآية ، فإنه لما عطف فيها العمل الصالح على الإيمان دل على أن الإيمان معقول بدونه. ولو كان العمل الصالح من الإيمان لكان العطف تكراراً. وانظر حيلة الزمخشري على تقريب معتقده من اللغة بقوله : المؤمن من اعتقد الحق وأعرب عنه بلسانه وصدق به عمله. فجعل التصديق من حظ العمل حتى يتم له أن من لم يعمل فقد فوت التصديق الذي هو الإيمان لغة. ولقد أوضحنا أن التصديق إنما هو بالقلب ولا يتوقف وجوده على عمل الجوارح ؛ مما يحقق معتقد أهل السنة أن من آمن بالله ورسوله ثم اخترم قبل أن يتعين عليه عمل من أعمال الجوارح فهو مؤمن باتفاق وإن لم يعمل. وأصدق شاهد على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ، حتى إذا لم يبق بينه وبينها إلا فواق ناقة عمل بعمل أهل الجنة فكتب من أهل الجنة» وإنما مثل عليه الصلاة والسلام بفواق الناقة لأنه الغاية في القصر ، ومثل هذا الزمان إنما يتصور فيه القصد الصحيح خاصة ، ومع ذلك فقد عده من أهل الجنة. وإنما يدخل المؤمن الجنة باتفاق الفريقين ، والأدلة على ذلك تجرد كون الشرط فيه شطراً. أقول : تفسير الفاسق بغير مؤمن ولا كافر كما هو مذهب المعتزلة غير موجه والشيء الذي هو لم يصح به لا يجب علينا تصريحه وتعريفه ؛ فإن عندنا «الضال» من أخل بالعمل فهو فاسق.

أَقَامَتْ غَزَالَةً سُـوْقَ الصَّـرَابِ لِأَهْلِ الْعِرَاقَيْنِ حَـوْلًا قَمِيْطاً^(١)

لأنها إذا حوِّظ عليها ، كانت كالشيء النافق الذي تتوجه إليه الرغبات ويتنافس فيه المحصلون . وإذا عطلت وأضيعت ، كانت كالشيء الكاسد الذي لا يرغب فيه . أو التجلد والتشمر لأدائها . وأن لا يكون في مؤدبها فتور عنها ولا توان ، من قولهم : قام بالأمر ، وقامت الحرب على ساقها . وفي ضده : قعد عن الأمر ، وتقاعد عنه . إذا تقاعس وتثبط . أو أداؤها ، فعبر عن الأداء بالإقامة ؛ لأنَّ القيام بعض أركانها ، كما عبر عنه بالقنوت . والقنوت القيام . وبالركوع والسجود . وقالوا : سبح ، إذا صلى ؛ لوجود التسبيح فيها . ﴿فَلَوْ لَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ .

والصلاة : فعلة من صلى ، كالزكاة من زكى . وكتابتها بالواو على لفظ المفخم . وحقيقة صلى : حرَّك الصلوتين ؛ لأن المصلى يفعل ذلك في ركوعه وسجوده . ونظيره كفر اليهودي إذا طأطأ رأسه وانحنى عند تعظيم صاحبه ؛ لأنه يثنى على الكاذبتين^(٢) وهما الكافرتان . وقيل للداعي : مصلٍّ ، تشبيها في تحشعه بالراكع والساجد .

وإسناد الرزق إلى نفسه^(٣) للإعلام بأنهم ينفقون الحلال^(٤) الطلق الذي يستأهل أن يضاف إلى الله ، ويسمى رزقا منه . وأدخل من التبعية صيانة لهم وكفا عن الإسراف والتبذير المنهي عنه . وقدّم مفعول الفعل دلالة على كونه أهم ، كأنه قال : ويخصون بعض المال الحلال بالتصدق به . وجائز أن يراد به الزكاة المفروضة ، لاقتارانه بأخت الزكاة وشقيقتها وهي الصلاة

(١) لأيمن بن خزيمة . وغزالة : امرأة شبيب الخارجي ، قتله الحجاج فحاربتة سنة كاملة ، فسوق الضراب : مجاز عن ميدان المحاربة ، أو شبه المطاعنة بالرماح والمضاربة بالسيوف بالأمثلة التي تنبع وتشتري في السوق على سبيل المكنية والسوق تخييل . والعراقان : البصرة والكوفة . والقميطة : التام نعت مؤكد ، ويقال : قمط الطائر أنثاه : سفدها . والقماط : حبل تشد به الأسرى والأخصاص ، فالمادة دالة على الاحاطة والضم .

(٢) قوله «على الكاذبتين» في الصحاح : الكاذتان ما نشأ من اللحم في أعالي الفخذ اه (ع)

(٣) قال محمود رحمه الله : «أضاف الرزق إلى نفسه للإعلام بأنهم إنما ينفقون من الحلال الطلق ... الخ» . قال أحمد رحمه الله : فهذه بدعة قدرية ، فإنهم يرون أن الله تعالى لا يرزق إلا الحلال ، وأما الحرام فالعبد يرزقه لنفسه حتى يقسمون الأرزاق قسمين : هذا لله بزعمهم ، وهذا لشركائهم . وإذا أثبتوا خالقاً غير الله ، فلا يأنفون عن إثبات رازق غيره . أما أهل السنة فلا خالق ولا رازق في عقدهم إلا الله سبحانه . تصديقا بقوله تعالى : ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنَّ تَوَفُّكُونَ﴾ أيها القدرية .

(٤) قوله «بأنهم ينفقون الحلال» مبنى على أن الرزق مختص بالحلال ، وهو مذهب المعتزلة . وعند أهل السنة : الرزق أعم . (ع)

وأن تراد هي وغيرها من النفقات في سبل الخير ، لمجيئه مطلقاً يصلح أن يتناول كل منفق. وأنفق الشيء وأنفده أخوان. وعن يعقوب : نفق الشيء ، ونفد واحد. وكل ما جاء مما فاؤه نون وعينه فاء ، فдал على معنى الخروج والذهاب ونحو ذلك إذا تأملت.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (٤)

فإن قلت : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ أهم غير الأولين أم هم الأولون؟ وإنما وسط العاطف كما يوسط بين الصفات في قولك هو الشجاع والجواد ، وفي قوله :

إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْمِ وَأَبْنِ الْأَهْمَامِ وَلَيْسَ الْكَيْبِ فِي الْمِزْدَحِمِ^(١)
وقوله :

يَا هَـؤُلَاءِ زَيَّابَةُ لِلْحَارِثِ الصَّاحِبِ فَالْعَازِمِ فَلَا يُبْ؟^(٢)
قلت : يحتمل أن يراد بهؤلاء مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه من الذين آمنوا ، فاشتمل إيمانهم على كل وحى أنزل من عند الله ، وأيقنوا بالآخرة إيقاناً زال معه ما كانوا عليه من أنه لا يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى وأن النار لن تمسهم إلا أياماً

(١) الجار والمجرور متعلق بما قبله في الشعر. والقرم. بالفتح. في الأصل : الفحل المكرم الذي يعفى من العمل لتقدمه وتشويقه إلى ضرب الإبل ، استعاره للسيد الرئيس أو للفارس المعد للمكاره. وظاهر القاموس أنه بمعنى السيد حقيقة. ووسط الواو بين النعوت لتوكيد ربطها بالمنعوت. والهمام : العظيم الهمة ، النافذ العزيمة. واستعار ليلث للشجاع على طريق التصريح. والكتيبة : الجيش المنظم المنتظم. والمزدحم : المعركة ؛ لأنها محل الازدحام ، وأصله «مزتحم» من الافتعال قلبت تاؤه دالا.

(٢) يا لهؤلاء زيا بة للحارث الصاحب فالعازم فالا ي ب
والله لـ و لاقيتـه خاليـا لأب سـ يفانا مـع الغالـب
لابن زيا بة في جواب الحرث بن هشام حين قال له :

أيا ابـ ن زيا بـة إن تلقـني لا تلقـني في العـازب
و تلقـني يشـد بي أجـرد مسـتقدم البركـة كالراكـب

والعازب . بالزاي . البعيد عن أهله. يعرض بأن زيا بة يراع للنعم لا شجاع. والأجرد : المنجرد الشعر. والبركة في البعير والفرس : العظم الناتئ في صدرهما وعظمه ممدوح فيهما ، وشبهه بالراكب في طول عنقه وامتداده ويجوز أن المعنى أن راكبه أيضا مستقدم البركة لا متخشع منكش. يقول : يا حسرة أبي على من أجل الحارث الذي بلغ مراده مني. وفيه ضرب من التهكم فان كان توعدته ثم نكص على عقبيه. وقيل : هو على ظاهره ، ثم حلف أنه لو وجده لقتله ، ولكنه أبرز الكلام في صورة الإيهام للانصاف في الكلام ورجوع السيفين مع الغالب : كناية عن قتل المغلوب واستلاب سلاحه.

معدودات ، واجتماعهم على الإقرار ^(١) بالنشأة الأخرى وإعادة الأرواح في الأجساد ، ثم افتراقهم فرقتين : منهم من قال : تجرى حالهم في التلذذ بالمطاعم والمشارب والمناكح على حسب مجراها في الدنيا ؛ ودفعه آخرون فزعموا أن ذلك إنما احتيج إليه في هذه الدار من أجل نماء الأجسام ولمكان التوالد والتناسل ، وأهل الجنة مستغنون عنه فلا يتلذذون إلا بالنسيم والأرواح العبقّة والسماع اللذيذ والفرح والسرور ، واختلافهم في الدوام والانقطاع ، فيكون المعطوف غير المعطوف عليه. ويحتمل أن يراد وصف الأولين. ووسط العاطف على معنى أنهم الجامعون بين تلك الصفات وهذه. فإن قلت : فإن أريد بمؤلاء غير أولئك ، فهل يدخلون في جملة المتقين أم لا؟. قلت : إن عطفتهم على ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ دخلوا وكانت صفة التقوى مشتملة على الزميتين من مؤمنى أهل الكتاب وغيرهم. وإن عطفتهم على ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ لم يدخلوا. وكأنه قيل : هدى للمتقين ، وهدى للذين يؤمنون بما أنزل إليك. فإن قلت : قوله ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ إن عني به القرآن بأسره والشرعة عن آخرها ، فلم يكن ذلك منزلاً وقت إيمانهم ، فكيف قيل أنزل بلفظ المضى؟ وإن أريد المقدار الذي سبق إنزاله وقت إيمانهم فهو إيمان ببعض المنزل واشتمال الإيمان على الجميع سالفه ومتروقه واجب. قلت : المراد المنزل كله وإنما عبر عنه بلفظ المضى وإن كان بعضه متروكاً ، تغليبا للموجود على ما لم يوجد ، كما يغلب المتكلم على المخاطب ، والمخاطب على الغائب فيقال : أنا وأنت فعلنا ، وأنت وزيد تفعلان. ولأنه إذا كان بعضه نازلاً وبعضه منتظر النزول جعل كأن كله قد نزل وانتهى نزوله ، وبدل عليه قوله تعالى : ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ ولم يسمعوا جميع الكتاب ، ولا كان كله منزلاً ، ولكن سبيله سبيل ما ذكرنا. ونظيره قولك : كل ما خطب به فلان فهو فصيح ، وما تكلم بشيء إلا وهو نادر. ولا تريد بهذا الماضي منه فحسب دون الآتي ، لكونه معقوداً ببعضه ببعض ، ومربوطاً آتية بماضيه. وقرأ يزيد بن قطيب ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ على لفظ ما سمي فاعله. وفي تقديم ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ وبناء ﴿يُوفُونَ﴾ على : ﴿هُمْ﴾ تعريض بأهل الكتاب وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته ، وأنّ قولهم ليس بصادق عن إيقان ، وأن اليقين ما عليه من آمن بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك. والإيقان : إتقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه. و ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ تأنيث الآخر الذي هو

(١) قوله «واجتماعهم على الإقرار» لعله عطف على مجرور «من» البائية ، باعتبار ما عطف عليه من افتراقهم واختلافهم الآتين فتدبر. (ع)

نقيض الأول ، وهي صفة الدار بدليل قوله : ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ وهي من الصفات الغالبة ، وكذلك الدنيا. وعن نافع أنه خففها بأن حذف الهمزة وألقى حركتها على اللام ، كقوله ﴿دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ وقرأ أبو حية ^(١) النميري (يوقنون) بالهمز ، جعل الضمة في جار الواو كأنها فيه ، فقلبها قلب واو «وجوه» و «وقنت». ونحوه :

لَحَبَّ الْمُؤَقَّ دَانَ إِلَى مُؤَسَّي وَجَعَلْ دَةً إِذْ أَضَاءَهُمَا الْوُقُودُ ^(٢)

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥)

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى﴾ الجملة في محل الرفع إن كان الذين يؤمنون بالغيب مبتدأ ؛ وإلا فلا محل لها. ونظم الكلام على الوجهين : أنك إذا نويت الابتداء بالذين يؤمنون بالغيب ، فقد ذهبت به مذهب الاستئناف. وذلك أنه لما قيل : ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ واختص المتقون بأن الكتاب لهم هدى ، اتجه لسائل أن يسأل فيقول : ما بال المتقين مخصوصين بذلك؟ فوقع قوله : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ إلى ساقته كأنه جواب لهذا السؤال المقدر. وجيء بصفة المتقين المنطوية تحتها خصائصهم التي استوجبوا بها من الله أن يلطف بهم ، ويفعل بهم ما لا يفعل بمن ليسوا على صفتهم ، أى الذين هؤلاء عقائدهم وأعمالهم ، أحقاء بأن يهديهم الله ويعطيهم الفلاح. ونظيره

(١) قوله «وقرأ أبو حية» لعله : أبو حية. (٤)

(٢) لجرير في مدح هشام بن عبد الملك وموسى ابنه وجعدة بنته ، وقيل ابنه أيضا وليس كذلك. واللام للقسم. وحب أصله حبب . كظرف . نقلت حركة الباء إلى الحاء ثم أدغمت في الأخرى. ومعناه : إنشاء المدح كنعم ، ويفيد التعجب أيضا ك «مأجبه». وقد تفتح حاؤه إذا كان فاعله ذا المؤقدان بالهمز فاعل. ومؤسى بالهمز أيضا. وجعدة المخصوص بالمدح على طريقة : نعم لرجل زيد. و «حب» : محول من «حب» الثلاثي كضرب ، وإن كان الكثير «أحب» الرباعي ؛ لأنه لا يصاغ للمدح إلا من الثلاثي. فان قلت : أهو محول من «حب» المسند للفاعل ، أم من «حب» المبني للمجهول؟ قلت : إن كان من المسند للفاعل فالمؤقدان محبوبان ، وإن كان من المسند للمفعول فالتحويل تقديرى. فالظاهر أنه مصوغ من المادة من غير ملاحظة إسناد. ويجوز أن «حب» أصله «حبب». كضرب مبنى للمجهول. فالمؤقدان نائب فاعل ، ومؤسى وجعدة بدل أو بيان. والمعنى على الخير لا الإنشاء. وروى : أحب الموقدين ، باضافة أفعال التفضيل إلى صيغة الجمع ؛ فمؤسى وجعدة خير. وسوغ قلب واو الموقدين وموسى همزة ، ضم ما قبلها ، فكأنها مضمومة ، وهي إذا ضمت تبدل همزة. ويقال : أضاء المكان وأضاءه السراج. وما هنا من الثاني ، فهو متعد بمعنى أثارها الوقود بالضم : أى توقد نار القرى وتلتهبها ، وأما بالفتح فهو ما توقد. به. وأصل فعول أنه مبالغة في الفاعل كضروب ، وكثر بمعنى ما يفعل به الفعل كوقود وسحور ، فيحتمل أنه من قبيل اسم المفعول ، وأنه من قبيل اسم الآلة شذوذاً. والمعنى : ما أحبهما إلى وقت بأن أظهرتهما النار التي يوقدانهما لقرى الأضياف

قولك : أحبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار الذين قارعوا دونه ، وكشفوا الكرب عن وجهه ، أولئك أهل للمحبة . وإن جعلته تابعاً للمتقين ، وقع الاستئناف على أولئك ؛ كأنه قيل : ما للمستقلين بهذه الصفات قد اختصوا بالهدى؟ فأجيب بأن أولئك الموصوفين ، غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلاً ، وبالفلاح آجلاً . واعلم أنّ هذا النوع من الاستئناف يجيء تارة بإعادة اسم من استؤنف عنه الحديث ، كقولك : قد أحسنت إلى زيد ، زيد حقيق بالإحسان . وتارة بإعادة صفته ، كقولك : أحسنت إلى زيد صديقك القديم أهل لذلك منك ؛ فيكون الاستئناف بإعادة الصفة أحسن وأبلغ ، لانطوائها على بيان الموجب وتلخيصه . فإن قلت : هل يجوز أن يجرى الموصول الأوّل على المتقين ، وأن يرتفع الثاني على الابتداء وأولئك خبره؟ قلت : نعم على أن يجعل اختصاصهم بالهدى والفلاح تعريضاً بأهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم ظانون أنهم على الهدى وطامعون أنهم ينالون الفلاح عند الله . وفي اسم الإشارة الذي هو (أولئك) إيذان بأن ما يرد عقبيه فالمذكورون قبله أهل لاكتسابه من أجل الخصال التي عدّدت لهم ، كما قال حاتم : والله صعلوك ثم عدّد له خصالاً فاصلة ، ثم عقب تعديدها بقوله :

فَذَلِكَ إِن يَهْدِلْكَ فَحَسْبُكَ تَنَاسَاؤُهُ وَإِنْ عَاشَ لَمْ يَقْعُدْ ضَعِيفًا مُذَمَّمًا (١)

ومعنى الاستعلاء في قوله : ﴿ **عَلَى هُدًى** ﴾ مثل لتمكنهم من الهدى ، واستقرارهم عليه ، وتمسكهم به . شبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه . ونحوه : هو على الحق وعلى الباطل .

(١) ويغشى إذا مأكان يوم كريمة
أو الحرب أبعدت ناجذها وشممرت
فذلك إن يها فحسبى ثناءؤه

لحاتم الطائي ، يرثى رجلاً بأنه على المهمة ، وإذا كان يوم حرب يذهب إلى صدور الرماح وينزل فيما بينها ، والحال أنه مختضب بالدم منها. وقوله «أو الحرب» عطف على قوله «كان يوم كريهة» وإسناد إبداء الناجذ والتشمير عن الساعد مثلاً إلى الحرب مجاز عقلي ، لأنها سبب في أن الفرسان يفعلون ذلك. ويجوز أنه شبهها في قوتها واشتدادها بشجاع يفعل ذلك على طريق الكناية وإبداء الناجذ والتشمير تخييل. والناجذ : آخر الأضراس وهو ضرر الحلم. والهدان . ككتاب . : الأحمق الثقيل ، وجمعه هدون . من الهدنة وهي السكون .. وأقدم : جواب الشرط ، معلماً للناس بأنه فلان على عادة الفرسان ، أو معلماً فرسه مسومها. فذلك الموصوف بتلك الصفات المختص بتلك الخصال ، هو المستحق لأن يقال فيه إن يهلك وبمت فيكفى ثناؤه فخراً : أى ذكره بين الناس بالجميل. وقوله «إن عاش» شرط لا يقتضى الوقوع ، لكن ذكره دلالة على أنه محمود الفعال على أى حال. وقوله «لم يقعد» قليل المدح في الظاهر كثيره عند أولى البصائر : أى بل يقعد على حاله المشهورة وخصاله الحميدة.

وقد صرّحوا بذلك في قولهم : جعل الغواية مركباً ، وامتطى الجهل ^(١) واقتعد غارب الهوى.

ومعنى ﴿هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أى منحوه من عنده وأوتوه من قبله ، وهو اللطف والتوفيق الذي اعتضدوا به على أعمال الخير ، والترقي إلى الأفضل فالأفضل. ونكر (هدى) ليفيد ضرباً مبهماً لا يبلغ كنهه ، ولا يقادر قدره ؛ كأنه قيل : على أى هدى ، كما تقول : لو أبصرت فلانا لأبصرت رجلاً. وقال الهذلي :

فَلَا وَأَبَى الطَّيْرِ الْمَرِيَّةَ بِالضُّحَى ^(٢) عَلَى خَالِدٍ لَقَدْ وَقَعْتَ عَلَى لَحْمٍ ^(٣)

والنون في : ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أدغمت بغنة وبغير غنة. فالكسائي ، وحمزة ، ويزيد ، وورش في رواية والهاشمي عن ابن كثير لم يغنوها. وقد أغنها الباقون إلا أبا عمرو. فقد روى عنه فيها روايتان.

وفي تكرير ﴿أُولَئِكَ﴾ تنبيه على أنهم كما ثبتت لهم الأثرة بالهدى ، فهي ثابتة لهم بالفلاح ؛ فجعلت كل واحدة من الأثرتين في تمييزهم بالمشابة التي لو انفردت كفت مميزة على حياها. فإن قلت :

لم جاء مع العاطف؟ وما الفرق بينه وبين قوله : ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾؟ قلت : قد اختلف الخبران هاهنا فلذلك دخل العاطف ، بخلاف الخبرين ثمة فإنهما متفقان ؛ لأن التسجيل عليهم بالغفلة وتشبيههم بالبهاائم شيء واحد ، فكانت الجملة الثانية مقررة لما في الأولى فهي من العطف بمعزل

(١) قوله «وامتطى الجهل» أى اتخذ الجهل مطية ، واتخذ الهوى قعوداً. والقعود من الإبل : البكر حين يركب. والغارب : ما بين السنام إلى العنق ، كما في الصحاح. (ع)

(٢) قوله «وأبى الطير المرية بالضحى» أى المجتمعة العاكفة. أفاده الصحاح (ع)

(٣) فَلَا وَأَبَى الطَّيْرِ الْمَرِيَّةَ بِالضُّحَى عَلَى خَالِدٍ لَقَدْ وَقَعْتَ عَلَى لَحْمٍ
فَلَا وَأَبَى لَا يَأْكُلُ الطَّيْرِ مِثْلَهُ عَشِيَّةَ أَمْسَى لَا يَبِينُ مِثْلَ السَّيْلِ

لأبى كبير الهذلي يرثى خالد بن زهير. ولا زائدة قبل القسم. واستعظم الطير الواقعة عليه فأقسم بها ، وكنى عنها بأبى الطير كما يكنى عن العظيم بأبى فلان. وأصل أبى هنا : أبين ، على صيغة جمع المذكر السالم ، سقطت نونه للاضافة. ويحتمل أنه مفرد والمراد به النسر ؛ لأنه يكنى بأبى الطير. ويجوز أن يريد بأبى الطير خالداً لوقوعها عليه ، ويجوز أن يريد به أصلها. ويروى : لعمر أبى الطير المربة غدوة ... الخ. ويروى هذا يرفع الطير. ولعله على الابتداء أو الخبرية لمخدوف ، أو على تقدير النداء ، وإلى مضاف إلى ضمير المتكلم كالذي بعده. ويقال : أرب بالمكان وألب به. أقام فيه ولازمه ، فالمربة المقيمة العاكفة وقت الضحى على خالد القتيل. والتفت إلى خطاب الطير فقال لها : لقد وقعت. ويروى علقت ، على لحم. بالتحريك. على لغة وتنكيره للعظيم : أى على لحم عظيم. وأنها لأنها جماعة في المعنى. فان قرئ بفتح التاء فظاهر ، وخاطبه لتنزيله منزلة العاقل ، ثم أقسم بأبيه أن الطير لا يأكل مثل خالد في العظم عشيّة أمسى لا يظهر لنا من السلم. وهو شجر العضاه. كناية عن كونه قتيلاً فيه والطير حوله على ذلك الشجر. وفي البيتين التفاتان.

و ﴿رَبِّهِمْ﴾ فصل : وفائده : الدلالة على أن الوارد بعده خبر لا صفة ، والتوكيد ، وإيجاب أن فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره. أو هو مبتدأ والمفلحون خبره ، والجملة خبر أولئك.

ومعنى التعريف في ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ : الدلالة على أن المتقين هم الناس الذين عنهم بلغك أنهم يفلحون في الآخرة كما إذا بلغك أن إنساناً قد تاب من أهل بلدك ، فاستخبرت من هو؟ فقليل زيد الثائب ، أى هو الذي أخبرت بتوبته. أو على أنهم الذين إن حصلت صفة المفلحين وتحققوا ما هم ، وتصوّروا بصورتهم الحقيقية ، فهم هم لا يعدون تلك الحقيقة. كما تقول لصاحبك : هل عرفت الأسد وما جبل عليه من فرط الإقدام؟ إن زیداً هو هو. فانظر كيف كرّر الله عزّ وجلّ التنبيه على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله أحد على طرق شتى ، وهي : ذكر اسم الإشارة ، وتكريره ، وتعريف المفلحين ، وتوسيط الفصل بينه وبين أولئك ؛ ليبصرك مراتبهم ويرغبك في طلب ما طلبوا ، وينشطك لتقديم ما قدّموا ، ويثبطك عن الطمع الفارغ والرجاء الكاذب والتمني على الله ما لا تقتضيه حكمته ولم تسبق به كلمته. اللهمّ زينا بلباس التقوى ، واحشرنا في زمرة من صدرت بذكرهم سورة البقرة. والمفلح : الفائز بالبغيّة كأنه الذي انفتحت له وجوه الظفر ولم تستغلق عليه. والمفلح . بالجيم . مثله. ومنه قولهم المطلقة : استفلحى بأمرك بالحاء والجيم. والتركيب دال على معنى الشق والفتح ، وكذلك أخواته في الفاء والعين ، نحو : فلق ، وفلذ ، وفلي.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦)

لما قدّم ذكر أوليائه وخالصة عبادهم بصفاتهم التي أهلتهم لإصابة الزلّفى عنده ، وبين أن الكتاب هدى ولطف لهم خاصة ، قفى على أثره بذكر أضدادهم وهم العتاة المردة من الكفار الذين لا ينفع فيهم الهدى ، ولا يجدى عليهم اللطف ، وسواء عليهم وجود الكتاب وعدمه ، وإنذار الرسول وسكوته. فإن قلت : لم قطعت قصة الكفار عن قصة المؤمنين ولم تعطف كنحو قوله : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ، وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ وغيره من الآي الكثيرة؟ قلت : ليس وزان هاتين القصتين وزان ما ذكرت : لأن الأولى فيما نحن فيه مسوقة لذكر الكتاب وأنه هدى للمتقين ، وسيقت الثانية لأن الكفار من صفتهم كيت وكيت ، فبين الجملتين تباين في الغرض والأسلوب ، وهما على حدّ لا مجال فيه للعاطف. فإن قلت : هذا إذا زعمت أن الذين يؤمنون جار على المتقين ، فأما إذا ابتدأته وبنيت الكلام لصفة المؤمنين ، ثم عقبته بكلام آخر في صفة أضدادهم ، كان

مثل تلك الآي المتلوّة. قلت : قد مرّ لي أن الكلام المبتدأ عقيب المتقين سبيله الاستئناف ، وأنه مبنيّ على تقدير سؤال ، فذلك إدراج له في حكم المتقين ، وتابع ^(١) له في المعنى ؛ وإن كان مبتدأ في اللفظ فهو في الحقيقة كالجارى عليه.

والتعريف في ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يجوز أن يكون للعهد وأن يراد بهم ناس بأعيانهم كأبي لهب وأبي جهل والوليد بن المغيرة وأضرابهم ، وأن يكون للجنس متناولاً كلّ من صمم على كفره تصميمًا لا يزعوى بعده ^(٢) وغيرهم ، ودل على تناوله للمصيرين الحديث عنهم باستواء الإنذار وتركه عليهم ، و ﴿سَوَاءٌ﴾ اسم بمعنى الاستواء وصف به كما يوصف بالمصادر. ومنه قوله تعالى : ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ ، ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءٍ لِلْسَّائِلِينَ﴾ بمعنى مستوية وارتفاعه على أنه خبر لأنّ ، و ﴿أَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ في موضع المرتفع به على الفاعلية ؛ كأنه قيل : إنّ الذين كفروا مستو عليهم إنذارك وعدمه. كما تقول : إنّ زيدا مختصم أخوه وابن عمه. أو يكون أنذرتهم أم لم تنذرهم في موضع الابتداء ، وسواء خبراً مقدّماً بمعنى : سواء عليهم إنذارك وعدمه ، والجملة خبر لأنّ. فإن قلت : الفعل أبداً خبر لا مخبر عنه فكيف صحّ الإخبار عنه في هذا الكلام؟ قلت : هو من جنس الكلام المهجور فيه جانب اللفظ إلى جانب المعنى ، وقد وجدنا العرب يميلون في مواضع من كلامهم مع المعاني ميلاً بيناً ، من ذلك قولهم : لا تأكل السمك وتشرب اللبن ، معناه لا يكن منك أكل السمك وشرب اللبن ، وإن كان ظاهر اللفظ على ما لا يصح من عطف الاسم على الفعل. والهمزة وأم مجرّدتان لمعنى الاستواء ^(٣) وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام رأساً. قال سيبويه : جرى هذا على حرف الاستفهام كما جرى على حرف النداء قولك : اللهم اغفر لنا أيّتها العصاة ، يعني أنّ هذا جرى على صورة

(١) قوله «وتابع له في المعنى» لعله واتباع له (ع)

(٢) قوله «بعده وغيرهم» لعله كهؤلاء وغيرهم (ع)

(٣) قال محمود رحمه الله : «والهمزة وأم مجرّدتان لمعنى الاستواء ... الخ». قال أحمد رحمه الله : وحاصل هذا النقل استعمال الحرف في أعم معناه ، فالهمزة المعادلة لأم موضوعة في الأصل للاستفهام عن أحد متبادلين في عدم علم التعين فنقلت إلى مطلق المعادلة وإن لم يكن استفهاماً ، واستعملت في الجزء الحقيقي. وكذلك حرف النداء موضوع في الأصل لتخصيص المنادى بالدعاء ، ثم نقل إلى مطلق التخصيص ولا نداء ، كما يكون المجاز بالتخصيص والقصر مثل تخصيص الدابة بذوات الأربع وإن كانت في الأصل لكل ما دب ، فقد يكون بالتعميم والتعدي مثل تسمية الرجل الشجاع أسداً نقلاً لهذا الاسم من موصوف بالشجاعة مخصوص وهو الحيوان المعروف ، إلى كل موصوف بتلك الصفة غير مقصورة على محلها الأصلي.

الاستفهام ولا استفهام ، كما أن ذلك جرى على صورة النداء ولا نداء. ومعنى الاستواء استواءهما في علم المستفهم عنهما لأنه قد علم أن أحد الأمرين كائن ، إما الإنذار وإما عدمه ، ولكن لا بعينه ، فكلاهما معلوم بعلم غير معين. وقرئ : ﴿أَنذَرْتَهُمْ﴾ بتحقيق الهمزتين ، والتخفيف أعرب وأكثر ، وبتخفيف الثانية بين بين ، وبتوسيط ألف بينهما محقتين ، وبتوسيطها والثانية بين بين ، وب حذف حرف الاستفهام ، وب حذفه وإلقاء حركته على الساكن قبله ، كما قرئ ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾. فإن قلت : ما تقول فيمن يقلب الثانية ألفاً؟ قلت : هو لاحن خارج عن كلام العرب خروجين : أحدهما الإقدام على جمع الساكنين على غير حدّه. وحدّه أن يكون الأوّل حرف لين والثاني حرفاً مدغمًا نحو قوله : الضالين ، وخويصة ^(١) ؛ والثاني : إخطاء طريق التخفيف ؛ لأن طريق تخفيف الهمزة المتحركة المفتوح ما قبلها أن تخرج بين بين ؛ فأما القلب ألفاً فهو تخفيف الهمزة الساكنة المفتوح ما قبلها كهمزة رأس. والإنذار : التخويف من عقاب الله بالزجر عن المعاصي. فإن قلت : ما موقع ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾؟ قلت : إما أن يكون جملة مؤكدة للجملة قبلها ، أو خبراً لأنّ والجملة قبلها اعتراض.

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَكُنَّ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٧)

الختم والختم أخوان ؛ لأن في الاستيثاق من الشيء بضرب الخاتم عليه كتما له وتغطية لئلا يتوصل إليه ولا يطلع عليه. والغشاوة الغطاء فعالة من غشاه إذا غطاه ، وهذا البناء لما يشتمل على الشيء كالعصابة والعمامة. فإن قلت : ما معنى الختم على القلوب والأسماع وتغشية الأبصار؟ قلت : لا ختم ولا تغشية ^(٢) ثم على الحقيقة ، وإنما هو من باب المجاز ، ويحتمل أن يكون من كلا نوعيه وهما الاستعارة والتمثيل. أما الاستعارة فأن تجعل قلوبهم لأن الحق لا ينفذ فيها ولا يخلص إلى ضمائرهما من قبل إعراضهم عنه واستكبارهم عن قبوله واعتقاده ، وأسماعهم لأنها تمجّه وتنبو عن الإصغاء إليه وتعاف استماعه كأنها مستوثق منها بالختم ، وأبصارهم لأنها لا تحتلّى آيات الله المعروضة ودلائله المنصوبة كما تحتلّيها أعين المعتبرين المستبصرين كأنما غطى عليها وحجبت ، وحيل بينها وبين الإدراك. وأمّا التمثيل فأن تمثل حيث لم يستنفعوا بها في الأغراض الدينية التي كلفوها وخلقوا من

(١) قوله «وخويصة» مسلم من رواية زياد بن رباح عن أبي هريرة رضى الله عنه : «بادروا بالأعمال ستا ...» فذكره. وفيه «وخويصة أحكم».

(٢) قوله «لا ختم ولا تغشية» ولا تغطية.

أجلها بأشياء ضرب حجاب بينها وبين الاستنفاع بها بالختم والتغطية. وقد جعل بعض المازنيين الحبسة في اللسان والعى ختما عليه فقال :

خَتَمَ الْإِلَهُ عَلَى لِسَانِ عَذَا فِرٍ خَتَمَ أَلْفَلَيْسَ عَلَى الْكَلَامِ بِقَادِرٍ
وَإِذَا أَرَادَ النُّطْقَ خَلَّتْ لِسَانُهُ لَحْمًا يُحَرِّكُهُ لِحَافُهُ لِقْرِ نَاقِرٍ^(١)

فإن قلت : فلم أسند الختم إلى الله تعالى^(٢) وإسناده إليه يدل على المنع من قبول الحق والتوصل

(١) لرجل من فزارة واستعار الختم المانع من زيادة الكتاب ونقصه للمنع من الكلام. وعذافر . بالضم . اسم رجل . ويطلق على الشديد العظيم ، وعلى الأسد . والبيت معناه الاخبار عن حال عذافر ، وهو الظاهر من التفريع ويعد أنه دعاء عليه . وفاعل يحرك لعذافر . شبه لسانه باللحم الذي ينقره الصقر بجامع تحرك كل بغير استقامة مع عدم التلفظ ، وهذا مما يدل على أن البيت إخبار لا دعاء .

(٢) قال محمود رحمه الله : «فإن قلت فلم أسند الختم إلى الله تعالى ... الخ»؟ قال أحمد رحمه الله : هذا أول عشواء خبطها في مهواة من الأهواء هبطها ، حيث نزل من منصة النص إلى حضيض تأويله ؛ ابتغاء الفتنة استبقاء لما كتب عليه من المحنة ، فانطوى كلامه هذا على ضلالات أعدها وأردتها :

الأولى : مخالفة دليل العقل على وحدانية الله تعالى . ومقتضاه أنه لا حادث إلا بقدرة الله تعالى لا شريك له ، والامتناع من قبول الحق من جملة الحوادث ؛ فوجب انتظامه في سلك متعلقات القدرة العامة المتعلق بالكائنات والممكنات .

الثانية : مخالفة دليل النقل المضاهي لدليل العقل كأمثال قوله تعالى : ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ، ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ وهذه الآية أيضا ؛ فإن الختم فيها مسند إلى الله تعالى نصا . والزمخشري رحمه الله لا يأبى ذلك ، ولكنه يدعى الالتجاء إلى تأويلها لدليل قام عنده عليه . فإذا أثبت أن الدليل العقلي على وفق ما دلت عليه ، وجب عليه إبقاؤها على ظاهرها بل لو وردت على خلاف ذلك ظاهرا ، لوجب تأويلها بالدليل جمعا بين العقل والنقل .

الثالثة : الفرار من نسبة ما اعتقده قبحا إلى الله تعالى تنزيها ، على زعمه أن الاشراك به في اعتقاد أن الشيطان هو الذي يخلق الختم والكافر يخلفه لنفسه بقدرته على خلاف مراد ربه . فلقد استوخم من السنة المناهل العذاب وورد من حميم البدعة موارد العذاب .

الرابعة : الغلط باعتقاد أن ما يقبح شاهدا يقبح غائبا ، فلما كان المنع من قبول الحق قبيحا في الشاهد وجب على زعمه أن يكون قبيحا من الغائب . وهذه قاعدة قد فرغ من بطلانها في فنها .

الخامسة : اعتقاده أن ذلك لو فرض وجوده بقدرة الله تعالى لكان ظلما ، والله تعالى منزّه عن الظلم بقوله تعالى ﴿وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ ومن الظلم البين جهل حقيقة الظلم ؛ فانه التصرف في ملك الغير بغير إذنه . فكيف يتصور ثبوت حقيقته لله تعالى؟ وكل مفروض محصور بسور ملكه عز وجل : الملك لله الواحد القهار .

السادسة : أنه فر من اعتقاد نسبة الظلم إلى الله تعالى فتورط فيه إلى عنقه ؛ لأنه قد جزم بأن المنع من قبول الحق لو كان من فعل الله تعالى لكان ظلما . فيقال له : وقد قام البرهان على أنه من فعل الله تعالى فيلزمك أن يكون ظلما . تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا . والخيال الذي يدندن حوله هؤلاء : أن أفعال العبد لو كانت مخلوقة لله تعالى لما نعاها على عباده ولا عاقبهم .

إليه بطرقه وهو قبيح والله تعالى عن فعل القبيح ^(١) علوا كبيرا لعلمه بقبحه وعلمه بغناه عنه. وقد نص على تنزيه ذاته بقوله : ﴿وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ ونظائر ذلك مما نطق به التنزيل؟ قلت : القصد إلى صفة القلوب بأنها كالمختوم عليها. وأما إسناد الختم إلى الله عز وجل ، فلينبه على أنّ هذه الصفة في فرط تمكنها وثبات قدمها كالشيء الخلقى غير العرضي. ألا ترى إلى قولهم : فلان مجبول على كذا ومفطور عليه ، يريدون أنه بليغ في الثبات عليه. وكيف يتخيل ما خيل إليك وقد وردت الآية ناعية على الكفار شناعة صفتهم وسماعة حالهم ، ونيط بذلك الوعيد بعذاب عظيم؟ ويجوز أن تضرب الجملة كما هي ، وهي ختم الله على قلوبهم مثلاً كقولهم : سال به الوادي ، إذا هلك. وطارت به العنقاء ، إذا أطال الغيبة ، وليس للوادي ولا للعنقاء عمل في هلاكه ولا في

. ولا قامت حجة الله عليهم. وهذه الشبه قد أجزاها في أدراج كلامه المتقدم ، فيقال لهم : لم قلتم إنها لو كانت مخلوقة لله لما نعاها على عباده؟ فان أسندوا هذه الملازمة . وكذلك يفعلون . إلى قاعدة التحسين والتقييح وقالوا : معاقبة الإنسان بفعل غيره قبيحة في الشاهد لا سيما إذا كانت المعاقبة من الفاعل فيلزم طرد ذلك غائباً. قيل لهم : ويقبح في الشاهد أيضاً أن يمكن الإنسان عبده من القبائح والفواحش بمراى منه ومسمع ، ثم يعاقبه على ذلك من القدرة على ردعه ورده من الأول عنها. وأنتم معاشر القدرية تزعمون أن القدرة التي بها يخلق العبد الفواحش لنفسه مخلوقة لله تعالى ، على علم منه عز وجل أن العبد يخلق بها لنفسه ذلك ، فهو بمثابة إعطاء سيف باتر لفاجر يعلم أنه يقطع به السبيل ويسبى به الحرم ، وذلك في الشاهد قبيح جزماً. فسيقولون : أجل إنه لقبيح في الشاهد ، ولكن هناك حكمة استأثر الله تعالى بعلمها فرقت بين الشاهد والغائب ، فحسن من الغائب تمكين عبده من الفواحش مع القدرة على أن لا يقع منه شيء ، ولم يحسن ذلك في الشاهد. وفي هذا الموطن تنزلز أقدامهم وتتنكس أعلامهم ، إذا لاحت لهم قواطع اليقين وبوارق البراهين ؛ فيقال لهم : ما المانع أن تكون تلك الأفعال مخلوقة لله تعالى ويعاقب العبد عليها لمصلحة وحكمة استأثر الله بها كما فرغتم منه الآن سواء؟ فلم لا يسلك أحدكم الطريق الأعدل وينظر عاقبة هذا الأمر فيصير آخر أول ، وليفوض من الابتداء إلى خالقه ، ويتلقى حجة الله تعالى عليه بالقبول والتسليم ، ويسلك مهتدياً بنور العقل ومقتدياً بدليل الشرع الصراط المستقيم ؛ فان نازعته النفس وحادثته الهواجس ورغب في مستند من حيث النظر يأنس به من مفاوز الفكر ، فليخطر بباله ما ذكر عند كل عاقل من التمييز بين الحركة الاختيارية والقسرية ، فلا يجد عنده في هذه التفرقة ريباً. فإذا استشعر ذلك فليتنبه فقد لطف به إلى أن انحرف عن مضايق الجبر ، فإرا أن يلوح به شيطان الضلال إلى مهامه الاعتزال ، فليمسك نفسه دوحاً بزمام دليل الوجدانية على أن لا فاعل ولا خالق إلا الله تعالى ، فإذا وقف لم يقف إلا وهو على الصراط المستقيم والطريقة المثلى ، ماراً عليها في أسرع من البرق الخاصف والريح العاصف؟ فليتأمل الناظر هذا الفصل ، ويتخذ وزره في قاعدة الأفعال ، يقف على الحق إن شاء الله تعالى.

(١) قوله «والله يتعالى عن فعل القبيح» هذا مذهب المعتزلة. أما عند أهل السنة فيجوز عليه تعالى خلق الشر وإرادته كالخير ، وإن كان لا يأمر إلا بالخير. والختم على القلوب عندهم. خلق الضلال فيها كما بين في علم التوحيد. (ع)

طول غيبته ؛ وإنما هو تمثيل مثلث حاله في هلاكه بحال من سال به الوادي ، وفي طول غيبته بحال من طارت به العنقاء ؛ فكذلك مثلث حال قلوبهم فيما كانت عليه من التجافي عن الحق بحال قلوب ختم الله عليها نحو قلوب الأغنام^(١) التي هي في خلّوها عن الفطن كقلوب البهائم ، أو بحال قلوب البهائم أنفسها ، أو بحال قلوب مقدّر ختم الله عليها حتى لا تعي شيئاً ولا تفقه ، وليس له عز وجل فعل في تجافيتها عن الحق ونبوّها عن قبوله ، وهو متعال عن ذلك. ويجوز أن يستعار الإسناد في نفسه من غير الله ، فيكون الختم مسنداً إلى اسم الله على سبيل المجاز. وهو لغيره حقيقة. تفسير هذا : أنّ للفعل ملابسات شتى يلابس. الفاعل والمفعول به والمصدر والزمان والمكان والمسبب له ؛ فإسناده إلى الفاعل حقيقة ، وقد يسند إلى هذه الأشياء على طريق المجاز المسمى استعارة ؛ وذلك لمضاهاتها للفاعل في ملابسة الفعل ، كما يضاهاه الرجل الأسد في جرائته فيستعار له اسمه ، فيقال في المفعول به : عيشة راضية ، وماء دافق. وفي عكسه : سيل مفعم^(٢). وفي المصدر : شعر شاعر ، وذيل ذائل. وفي الزمان : نهاره صائم. وليله قائم. وفي المكان : طريق سائر ، ونهر جار. وأهل مكة يقولون : صلى المقام. وفي المسبب : بنى الأمير المدينة ، وناقاة ضبوث^(٣) وحلوب. وقال :

إِذَا رَدَّ عَائِي الْقَدْرُ مَنْ يَسْتَعِيرُهَا^(٤)

(١) قوله «نحو قلوب الأغنام» الذي في الصحاح : الغنمة العجمة ، والأغتم الأعجم الذي لا يفصح شيئاً :

والجمع غتم. (ع)

(٢) قوله «سيل مفعم» في الصحاح : أفعمت الإناء ملأته ، وفيه أيضاً : يقال : ذيل ذائل ، وهو الهوان والحزني. (ع)

(٣) قوله «وناقاة ضبوث» في الصحاح : ناقاة ضبوث ، يشك في سمنها فتضبث ، أى تجس باليد. (ع)

(٤) فلا تسألني واسألني عن خليقي إذا رد عائي القدر من يستعيرها

فكانوا قعاً فوقه وكان فتاة الحامي ممن يعيرها

لعوف بن الأحوص الباهلي. وقيل : للكميت. يقول : فلا تسألني عن طبعتي واسألني غيري عنها ، وقت أن يمنع عائي القدر. أى طالب الرزق الذي فيها. من يستعيرها ليطبخ فيها. وإسناد الرد للعائي مجاز عقلي ؛ لأن المانع في الحقيقة هو صاحب القدر بسبب طالب الرزق ، ولم يسنده إلى نفسه تبرأً من نسبة الرد إليها ، إلا أن يراد جنس القدر لا قدره هو فقط ؛ فالمعنى : إذا أجذب الزمان على ما سيأتى. وجمع الضمير في قوله «فكانوا» لأن العائي متعدد في المعنى : أى فكان العفاة قاعدين حولها ينتظرون نضج ما فيها. وكانت فتاة الحامي. يعنى حيه. من جملة من يعير القدر. ويجوز أن ضمير «كانوا» لمن يستعيرها. ويحتمل أن «عائي القدر» بقية ما كان فيها من المرق ، والاسناد مجازي أيضاً على معنى أن من يستعيرها يجدها مشغولة ، وهو دليل على كثرة طبخه للضيفان.

فالشيطان هو الخاتم في الحقيقة أو الكافر ، إلا أنّ الله سبحانه لما كان هو الذي أقدره ومكنه ، أسند إليه الختم كما يسند الفعل إلى المسبب . ووجه رابع : وهو أنهم لما كانوا على القطع والبت ممن لا يؤمن ولا تغنى عنهم الآيات والنذر ، ولا تجدى عليهم الألفاظ المحصلة ولا المقربة إن أعطوها ، لم يبق . بعد استحكام العلم بأنه لا طريق إلى أن يؤمنوا طوعا واختياراً . طريق إلى إيمانهم إلا القسر والإلجاء ، وإذا لم تبق طريق إلا أن يقسروهم الله ويلجئهم ثم لم يقسروهم ولم يلجئهم لئلا ينتقض الغرض في التكليف ، عبر عن ترك القسر والإلجاء بالختم ، إشعاراً بأنهم الذين ترمى أمرهم في التصميم على الكفر والإصرار عليه إلى حدّ لا يتناهون عنه إلا بالقسر والإلجاء ، وهي الغاية القصوى في وصف لجأهم في الغى واستشرائهم في الضلال والبغي . ووجه خامس : وهو أن يكون حكاية لما كان الكفرة يقولونه تحكما بهم من قولهم : ﴿قُلُونَا فِي أَكْثَنِ مَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ، وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ، وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ ونظيره في الحكاية والتهكم قوله تعالى : ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ . فإن قلت : اللفظ يحتمل أن تكون الأسماع داخلية في حكم الختم وفي حكم التغطية ^(١) فعلى أيهما يعوّل؟ قلت : على دخولها في حكم الختم لقوله تعالى : ﴿وَحَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ، وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ ولوقفهم على سمعهم دون قلوبهم . فإن قلت : أى فائدة في تكرير الجارّ في قوله : ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾؟ قلت : لو لم يكرّر لكان انتظاما للقلوب والأسماع في تعدية واحدة ؛ وحين استجدّ للأسماع تعدية على حدة ، كان أدل على شدة الختم في الموضوعين . ووجد السمع كما وجد البطن في قوله : كلوا في بعض بطنكم تعفوا ، يفعلون ذلك إذا أمن اللبس . فإذا لم يؤمن كقولك : فرسهم ،

. ويجوز أن المراد أن الحالة جذب حتى أن صاحب القدر برد المستعير حرصا على ما فيها من بقية المرق ولو قليلة ؛ فضمير «كانوا» لمن يستعيرها ويجوز أن عاقب القدر : مفعول لم يظهر نصبه للوزن ، و «من يستعيرها» فاعل ؛ لأنه كان من عادة العرب في الجذب أن برد المستعير بقية من المرق في القدر للمعير ، فهو كناية عن الجذب ؛ لكن لا تتم مناسبة لما بعده : ويجوز أن يكون المعنى إذا منع مستعير القدر عافيتها أى طالب الرزق منها ولبخله وعدم نزول الضيفان عنده ، لا يملك لنفسه قدرا ، فإذا استعار قدرا لطبخ فيها مرة منع طالب الرزق منها . وعلى هذا يحتمل أنه جمع حذفت نونه للاضافة فنصبه بالياء ، فهذه أربعة وجوه .

(١) قال محمود رحمه الله : «اللفظ يحتمل أن تكون الأسماع داخلية في حكم الختم وفي حكم التغطية ... الخ» . قال أحمد رحمه الله وكان جدي رحمه الله يذكر هذا ويريد عليه أن الأسماع والقلوب لما كانت محوية كان استعمال الختم لها أولى ، والأبصار لما كانت بارزة وإدراكها متعلق بظاهرها كان الغشاء لها أليق .

وثوبهم ، وأنت تريد الجمع رفضوه. ولك أن تقول : السمع مصدر في أصله ، والمصادر لا تجمع. فلمح الأصل يدل عليه جمع الأذن في قوله : ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرًا﴾ وأن تقدّر مضافاً محذوفاً : أى وعلى حواس سمعهم. وقرأ ابن أبي عبله : وعلى أسماعهم. فإن قلت : هلا منع أبا عمرو والكسائي من إمالة أبصارهم ما فيه من حرف الاستعلاء وهو الصاد؟ قلت : لأنّ الراء المكسورة تغلب المستعلية ، لما فيها من التكرير كأن فيها كسرتين ، وذلك أعون شيء على الإمالة وأن يمال له ما لا يمال. والبصر نور العين ، وهو ما يبصر به الرائي ويدرك المرئيات. كما أن البصيرة نور القلب ، وهو ما به يستبصر ويتأمل. وكأتهما جوهراً لطيفان خلقهما الله فيهما آلتين للإبصار والاستبصار.

وقرى (غشاوة) بالكسر والنصب. وغشاوة : بالضم والرفع. وغشاوة : بالفتح والنصب. وغشاوة : بالفتح والرفع. وغشاوة : بالفتح والنصب. وغشاوة : بالعين غير المعجمة والرفع ، من العشا.

والعذاب : مثل النكال بناء ومعنى ؛ لأنك تقول : أعذب عن الشيء ، إذا أمسك عنه.

كما تقول : نكل عنه. ومنه العذب ؛ لأنه يقمع العطش ويردعه ، بخلاف الملح فإنه يزيده.

ويدل عليه تسميتهم إياه نقاخاً ؛ لأنه ينقخ العطش أى يكسره. وفراتا ، لأنه يرفته على القلب. ثم اتسع فيه فسمى كل ألم فادح عذاباً ، وإن لم يكن نكالا. أى عقاباً يرتدع به الجاني عن المعادة.

والفرق بين العظيم والكبير ، أن العظيم نقيض الحقير ، والكبير نقيض الصغير ، فكأن العظيم فوق الكبير ، كما أن الحقير دون الصغير. ويستعملان في الجثث والأحداث جميعاً. تقول : رجل عظيم وكبير ، تريد جثته أو خطره. ومعنى التنكير أن على أبصارهم نوعاً من الأغطية غير ما يتعارفه الناس ، وهو غطاء التعامي عن آيات الله. ولهم من الآلام العظام نوع عظيم لا يعلم كنهه إلا الله.

اللهم أجزنا من عذابك ولا تبلنا بسخطك يا واسع المغفرة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (١٠)

افتتح سبحانه بذكر الذين أخلصوا دينهم لله وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم ووافق سرهم علمهم وفعلهم قولهم. ثم ثنى بالذين محضوا الكفر ظاهراً وباطناً قلوباً وألسنة. ثم ثلث بالذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم وأبطنوا خلاف ما أظهروا وهم الذين قال فيهم : ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ ، لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ وسماهم المنافقين ، وكانوا أخبث الكفرة وأبغضهم إليه وأمقتهم عنده ؛ لأنهم خلطوا بالكفر تمويهاً وتدليساً ، وبالشرك استهزاء وخداعاً. ولذلك أنزل فيهم ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ ووصف حال الذين كفروا في آيتين ، وحال الذين نافقوا في ثلاث عشرة آية ، نعى عليهم فيها خبثهم ومكرهم ، وفضحهم وسفهمهم ، واستجهلهم واستهزأ بهم ، وتهكم بفعلهم ، وسجل بطغيانهم ، وعمهم ودعاهم صماً بكماً عمياً ، وضرب لهم الأمثال الشنيعة. وقصة المنافقين عن آخرها معطوفة على قصة الذين كفروا كما تعطف الجملة على الجملة.

وأصل (ناس) أناس ، حذفت همزته تخفيفاً كما قيل : لوقه ، في ألوقه ^(١). وحذفها مع لام التعريف كاللزام لا يكاد يقال الأناس. ويشهد لأصله إنسان وأناس وأناسي وإنس.

وسموا لظهورهم وأنهم يؤنسون أى يبصرون ، كما سمي الجنّ لاجتنانهم. ولذلك سموا بشرراً. ووزن ناس فعال ؛ لأن الزنة على الأصول. ألا تراك تقول في وزن «قه» افعل ، وليس معك إلا العين وحدها؟ وهو من أسماء الجمع كرخال ^(٢). وأما نويس فمن المصغر الآتي على خلاف مكبره كأنيسيان ورويحل. ولأم التعريف فيه للجنس. ويجوز أن تكون للعهد ، والإشارة إلى الذين كفروا المارّ ذكرهم ؛ كأنه قيل : ومن هؤلاء من يقول. وهم عبد الله بن أبي وأصحابه ومن كان في حالهم من أهل التصميم على النفاق. ونظير موقعه موقع القوم في قولك : نزلت ببني فلان فلم يقرؤني والقوم لتمام.

ومن في ﴿مَنْ يَقُولُ﴾ موصوفة ، كأنه قيل : ومن الناس ناس يقولون كذا ، كقوله (من المؤمنين رجال) إن جعلت اللام للجنس. وإن جعلتها للعهد فموصولة ، كقوله : ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾. فإن قلت : كيف يجعلون بعض أولئك والمنافقون غير المختوم على قلوبهم؟ قلت : الكفر جمع الفريقين معاً وصيرهم جنساً واحداً. وكون المنافقين نوعاً من نوعي هذا

(١) قوله «كما قيل لوقه في ألوقه» اللوقه والألوقه : الزبدة. أفاده الصحاح (ع)

(٢) قوله «من أسماء الجمع كرخال» الرخل . بالكسر . : الأنثى من ولد الضأن ، والجمع رخال بالكسر ، وبالضم كذا في الصحاح. (ع)

الجنس . مغايراً للنوع الآخر بزيادة زادوها على الكفر الجامع بينهما من الخديعة والاستهزاء . لا يخرجهم من أن يكونوا بعضاً من الجنس ؛ فإن الأجناس إنما تنوعت لمغايرات وقعت بين بعضها وبعض . وتلك المغايرات إنما تأتي بالنوعية ولا تأبى الدخول تحت الجنسية . فإن قلت : لم اختص بالذكر الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر؟ قلت : اختصاصهما بالذكر كشف عن إفراطهم في الحبث وتماديهم في الدعارة ؛ لأن القوم كانوا يهوداً ، وإيمان اليهود بالله ليس بإيمان ، لقولهم : ﴿عَزَّزَ ابْنُ اللَّهِ﴾ . وكذلك إيمانهم باليوم الآخر ، لأنهم يعتقدونه على خلاف صفته ، فكان قولهم : ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ خبثاً مضاعفاً وكفراً موحهاً ، لأن قولهم هذا لو صدر عنهم لا على وجه النفاق وعقيدتهم عقيدتهم ، فهو كفر لا إيمان . فإذا قالوه على وجه النفاق خديعة للمسلمين واستهزاء بهم ، وأروهم أنهم مثلهم في الإيمان الحقيقي ، كان خبثاً إلى خبث ، وكفراً إلى كفر . وأيضاً فقد أوهوا في هذا المقال أنهم اختاروا الإيمان ^(١) من جانبيه ، واكتنفوه من قطريه ، وأحاطوا بأوله وآخره . وفي تكرير الباء أنهم ادعوا كل واحد من الإيمانيين على صفة الصحة والاستحكام . فإن قلت : كيف طابق قوله : ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ قولهم ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ والأول في ذكر شأن الفعل لا الفاعل ، والثاني في ذكر شأن الفاعل لا الفعل؟ قلت : القصد إلى إنكار ما ادعوه ونفيه ، فسلك في ذلك طريق أدى إلى الغرض المطلوب . وفيه من التوكيد والمبالغة ما ليس في غيره ، وهو إخراج ذواتهم وأنفسهم من أن تكون طائفة من طوائف المؤمنين ، لما علم من حالهم المنافية لحال الداخلين في الإيمان . وإذا شهد عليهم بأنهم في أنفسهم على هذه الصفة ، فقد انطوى تحت الشهادة عليهم بذلك نفى ما انتحلوا إثباته لأنفسهم على سبيل البت والقطع . ونحوه قوله تعالى : ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ هو أبلغ من قولك : وما يخرجون منها . فإن قلت : فلم جاء الإيمان مطلقاً في الثاني وهو مقيد في الأول؟ قلت : يحتمل أن يراد التقييد ويترك لدلالة المذكور عليه ، وأن يراد بالإطلاق أنهم ليسوا من الإيمان في شيء قط ، لا من الإيمان بالله وباليوم الآخر ، ولا من الإيمان بغيرهما . فإن قلت : ما المراد باليوم الآخر؟ قلت : يجوز أن يراد به الوقت الذي لا حد له وهو الأبد الدائم الذي لا ينقطع ، لتأخره عن الأوقات المنقضية . وأن يراد الوقت المحدود من

(١) قوله «اختاروا الإيمان» لعله احتازوا . بالخاء المهملة والزاي . كما في عبارة البيضاوي (ع)

النشور إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، لأنه آخر الأوقات المحدودة الذي لا حدّ للوقت بعده.

والخدع : أن يوهم صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه. من قولهم : ضب خادع وخدع ، إذا أمر الحارث يده على باب جحره أو همه إقباله عليه ثم خرج من باب آخر. فإن قلت : كيف ذلك ومخادعة الله والمؤمنين لا تصح ^(١) لأن العالم الذي لا تخفى عليه خافية لا يخدع ، والحكيم الذي لا يفعل القبيح لا يخدع ، والمؤمنون وإن جاز أن يخدعوا لم يجز أن يخدعوا. ألا نرى إلى قوله :

(١) قال محمود رحمه الله : «فان قلت كيف ذلك ومخادعة الله والمؤمنين لا تصح ... الخ»؟ قال أحمد رحمه الله : هذا الفصل من كلام الزمخشري جمع فيه بين الغث والسمين. ونحن ننبه على ما فيه من الزيد ، ليطم للناظر أخذ ما فيه من السنة ، آمنا من التورط في وضر البدعة ، مستعينين بالله وهو خير معين. فمما خالف فيه السنة قوله : إن الله تعالى عالم بذاته ، يريد لا يعلم. وهذا مما وسمت به المعتزلة في المقدمة من أنهم يحددون صفات الكمال الإلهي ، ييغون بذلك زعمهم التوحيد والتنزيه. ومعتقد أهل السنة أن الله تعالى عالم بعلم قديم أزلي ، متعلق بكل معلوم واجب أو ممكن أو مستحيل ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين. وحسبك هذه الآية مصدقة لمعتقدهم في ثبوت صفة العلم له تعالى وفي عموم نعلقه بالكليات والجزئيات إلى ما وراءها من البراهين الكلامية على ذلك. ولسنا بصدد ذكرها في هذا الكتاب. ومما خالف فيه السنة : اعتقاده أن في الكائنات ما ليس مخلوقا لله تعالى ؛ لأنه قبيح على زعمه كالمفهوم من الخداع في هذه الآية. وما جره إلى هاتين النزعتين إلا اعتقاده أنه لا يتم استحالة كونه تعالى مخدوعا ، إلا بأنه عالم بذاته حتى تعم عالميته كل كائن فلا يخدع ؛ إذ نسبة الذات إلى الكائنات نسبة واحدة ، ولا يتم استحالة كونه تعالى خادعا إلا باستحالة صدور بعض الكائنات عنه لأنه قبيح على زعمهم. ولقد وقف هذا التنزيه على ما لا توقف عليه ولا شرط فيه. فنحن معاشر أهل السنة نعتقد أن الله تعالى عالم بعلم ، ومع ذلك نعتقد استحالة كونه مخدوعا ؛ لأن علمه عندنا عام التعلق كما وصفنا. ونعتقد أنه لا يصدر كائن في الوجود إلا عن قدرته لا غير ، ومع ذلك نمنع أن ينسب الخداع إلى الله تعالى لما يوهم ظاهره من أنه إنما يكون عن عجز عن المكافحة وإظهار المكتوم. هذا هو الموهوم منه في الإطلاق ، ولكن حيث أطلقه تعالى مقابلا لما ذكره من خداع المنافقين كمقابلة المكر بمكرهم ، علمنا أن المراد منه أنه فعل معهم فعلا سماه خداعا مقابلة ومشكلة ؛ وإلا فهو قادر على هتك سترهم وإنزال العذاب بهم رأى العين فهذا معتقد أهل السنة في هذه الآية وأمثالها لا كالزمخشري وشيعته الذين يزعمون أنهم يوحدون فيجحدون ، وينزهون فيشركون. والله الموفق للحق. وكذلك الخداع المنسوب إليهم على سبيل المجاز عن تعاطيهم أفعال المخادع على ظنهم وأصدق شاهد في أنه مجاز نفيه بعقب إثباته في قوله : ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ففي هذه التهمة نفى احتمال الحقيقة حتى تتعين جهة المجاز. ومما عده البيانون من أدلة المجاز صدق نفيه فتأمل هذا الفصل فله على سائر الفصول الفضل.

وَاسْتَمْطَرُوا مِنْ قُرَيْشٍ كُلَّ مُنْخَدِعٍ ^(١)

وقول ذى الرمة :

إِنَّ الْحَلِيمَ وَذَا الْإِسْلَامِ يُخْتَلَبُ ^(٢)

فقد جاء النعت بالانخداع ولم يأت بالخدع. قلت : فيه وجوه. أحدها : أن يقال كانت صورة صنعهم مع الله حيث يتظاهرون بالإيمان وهم كافرون ، صورة صنع الخادعين. وصورة صنع الله معهم . حيث أمر بإجراء أحكام المسلمين عليهم وهم عنده في عداد شرار الكفرة وأهل الدرك الأسفل من النار . صورة صنع الخادع ، وكذلك صورة صنع المؤمنين معهم حيث امتثلوا أمر الله فيهم فأجروا أحكامهم عليهم. والثاني : أن يكون ذلك ترجمة عن معتقدهم وظنهم أن الله ممن يصح خداعه ؛ لأن من كان ادعاؤه الإيمان بالله نفاقا لم يكن عارفا بالله ولا بصفاته ، ولا أن لذاته تعلقا بكل معلوم ، ولا أنه غنى عن فعل القبائح ؛ فلم يبعد من مثله تجويز أن يكون الله في زعمه مخدوعا ومصابا بالمكره من وجه خفى ، وتجويز أن يدلس على عباده ويخدعهم. والثالث : أن يذكر الله تعالى ويراد الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه خليفته في أرضه ، والناطق عنه بأوامره ونواهيه مع عباده ، كما يقال : قال الملك كذا ورسم كذا ؛

(١) واسـتمـطـروا مـن قـريش كـل منـخدع إن الكـريم إذا خادعتـه انـخدع

كانت العرب إذا أصابها جندب فزعت إلى قريش ليستسقى لهم ، لأنهم ولادة بيت الله وحماة حرمه ، كما فعل قوم عاد لما قحطوا. وكذلك استسقى عمر بالعباس عم النبي صلى الله عليه وسلم. واستسقى أبو سفيان النبي صلى الله عليه وسلم فأجابه واستسقى له مع ما كان بينهما من العداوة. يقول : طلب القوم من كل منخدع من قريش المطر : أى أن يطلب لهم المطر. وقال السيد : واستمطروا ، أى استقوا وطلبوا ، فأفاد أنه على صيغة الأمر. وفي الصحاح : أى سلوه أن يعطي كالمطر مثلا ، وهو يؤيد كلام السيد. ويجوز تشبيه كل منخدع من قريش بالسحاب على سبيل المكنية ، فيطلب منه المطر. والمنخدع المغلوب لكرمه ، وبينه قوله : إن الكريم. ويروى البيت هكذا

لا خـير في الحـسب لا ترجـى نوافلـه فاسـتمـطـروا مـن قـريش كـل منـخدع

ويروى «من فريق» بدل «قريش». وقوله «لا ترحى الخ» جملة حالية للحب. وفريق موضع بعينه من الحجاز.

(٢) تـزداد للـعـين إهـاجـا إذا سـفـرت وتـخـرج العـين فـيـهـا حـين تـنـتـقـب

تـلك الـفتـاة الـتي عـلـقـتـهـا عـرضـا إن الـحـلـيم وذا الإـسـلام يـخـتـلـب

لذي الرمة في محبوبته مى. وسفرت المرأة : كشفت عن وجهها. وروى : إسفاراً ، بدل إهجاجا. والمراد أن إهجاجها بسفرها لعيني يزداد إذا كشفت عن وجهها. وخرجت العين . كتعبت . حارت. وروى «منها» بدل «فيها» أى من أجلها. وتنتقب : أى ترسل النقاب على وجهها. وعرضاً أى من غير قصد ولا شعور. وخب . من باب قتل . : خدع أى هي الشابة التي اعترضني حبها حيث لا أشعر. ثم تسلى بأن العاقل المسلم كثيراً ما ينخدع.

وإنما القائل والراسم وزيره أو بعض خاصته الذين قولهم قوله ورسمهم رسمه. مصداقه قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ، يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ وقوله : ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾. والرابع : أن يكون من قولهم : أعجبنى زيد وكرمه ، فيكون المعنى يخادعون الذين آمنوا بالله. وفائدة هذه الطريقة قوة الاختصاص ، ولما كان المؤمنون من الله بمكان ، سلك بهم ذلك المسلك. ومثله : ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ وكذلك : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ونظيره في كلامهم : علمت زيدا فاضلا ، والغرض فيه ذكر إحاطة العلم بفضل زيد لا به نفسه ؛ لأنه كان معلوما له قديما ؛ كأنه قيل : علمت فضل زيد ؛ ولكن ذكر زيد توطئة وتمهيد لذكر فضله. فإن قلت : هل للاقتصار بخادعت على واحد وجه صحيح؟ قلت : وجهه أن يقال : عنى به «فعلت» إلا أنه أخرج في زنة «فاعلت» لأن الزنة في أصلها للمغالبة والمباراة ، والفعل متى غولب فيه فاعله جاء أبلغ وأحكم منه إذا زاوله وحده من غير مغالب ولا مبار لزيادة قوة الداعي إليه. وبعضه قراءة من قرأ : ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهو أبو حيوة. و ﴿يُخَادِعُونَ﴾ بيان ليقول. ويجوز أن يكون مستأنفا كأنه قيل : ولم يدعون الإيمان كاذبين وما رفقههم في ذلك؟ فقيل يخادعون. فان قلت: عمّ كانوا يخادعون؟ قلت : كانوا يخادعونهم عن أغراض لهم ومقاصد منها متاركتهم وإعفاؤهم عن المحاربة وعما كانوا يطرقون به من سواهم من الكفار. ومنها اصطناعهم بما يصطنعون به المؤمنين من إكرامهم والإحسان إليهم وإعطائهم الحظوظ من المغانم ونحو ذلك من الفوائد ، ومنها اطلاعهم . لاختلاطهم بهم . على الأسرار التي كانوا حراسا على إذاعتها إلى منابذهم. فإن قلت : فلو أظهر عليهم حتى لا يصلوا إلى هذه الأغراض بخداعهم عنها. قلت : لم يظهر عليهم لما أحاط به علما من المصالح التي لو أظهر عليهم لانقلبت مفسد واستبقاء إبليس وذريته ومتاركتهم وما هم عليه من إغواء المنافقين وتلقيهم النفاق أشد من ذلك. ولكن السبب فيه ما علمه تعالى من المصلحة. فإن قلت : ما المراد بقوله : ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾؟ قلت : يجوز أن يراد : وما يعاملون تلك المعاملة المشبهة بمعاملة المخادعين إلا أنفسهم لأن ضررها يلحقهم ، ومكرها يحيق بهم ، كما تقول : فلان يضارّ فلانا وما يضارّ إلا نفسه ، أى : دائرة الضرر راجعة إليه وغير متخطية إياه ، وأن يراد حقيقة المخادعة أى : وهم في ذلك يخدعون أنفسهم حيث يمنونها الأباطيل ويكذبونها فيما يحدثونها به ، وأنفسهم كذلك تمنهم وتحذتهم بالأمانى وأن يراد : وما يخدعون فجيء به على لفظ «يفاعلون» للمبالغة. وقرئ : وما يخدعون ،

ويخدعون من خدع. ويخدعون . بفتح الياء . بمعنى يخدعون. ويخدعون. ويخدعون على لفظ ما لم يسم فاعله. والنفس : ذات الشيء وحقيقته. يقال عندي كذا نفسا. ثم قيل للقلب : نفس ؛ لأن النفس به. ألا ترى إلى قولهم : المرأ بأصغريه. وكذلك بمعنى الروح وللدن نفس ؛ لأن قوامها بالدم. وللماء نفس ؛ لفرط حاجتها إليه : قال الله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ وحقيقة نفس الرجل بمعنى عين أصيبت نفسه ، كقولهم : فلان يؤامر نفسه . إذا تردّد في الأمر اتجه له رأيان وداعيان لا يدرى على أيهما يعرج كأنهم أرادوا داعي النفس ، وهاجسى النفس فسموها : نفسين ، إما لصدورهما عن النفس ، وإما لأن الداعيين لما كانا كالمشيرين عليه والأمينين له ، شبهوهما بذاتين فسموهما نفسين. والمراد بالأنفس هاهنا ذواتهم. والمعنى بمخادعتهم ذواتهم : أن الخداع لاصق بهم لا يعدوهم إلى غيرهم ولا يتخطاهم إلى من سواهم. ويجوز أن يراد قلوبهم ودواعيهم وآراؤهم.

والشعور علم الشيء علم حس^(١) من الشعار. ومشاعر الإنسان : حواسه. والمعنى أن لحوق ضرر ذلك بهم كالمحسوس ، وهم لتمادى غفلتهم كالذي لا حسّ له.

واستعمال المرض في القلب يجوز أن يكون حقيقة ومجازا ، فالحقيقة أن يراد الألم كما تقول : في جوفه مرض. والمجاز أن يستعار لبعض أعراض القلب ، كسوء الاعتقاد ، والغل ، والحسد والميل إلى المعاصي ، والعزم عليها ، واستشعار الهوى ، والجبن ، والضعف ، وغير ذلك مما هو فساد وآفة شبيهة بالمرض كما استعيرت الصحة والسلامة في نقائص ذلك. والمراد به هنا ما في قلوبهم من سوء الاعتقاد والكفر ، أو من الغل والحسد والبغضاء ، لأن صدورهم كانت تغلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين غلا وحنقا ويبغضونهم البغضاء التي وصفها الله تعالى في قوله : ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ ويتحرقون عليهم حسدا ﴿إِنْ تَسْسَكُكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ وناهيك مما كان^(٢) من ابن أبي وقول سعد بن عبادة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : «اعف عنه يا رسول الله واصفح ، فو الله لقد أعطاك الله الذي أعطاك ،

(١) قال محمود رحمه الله تعالى : «والشعور علم الشيء علم حس ... الخ». قال أحمد رحمه الله : إيضاح هذا الكلام على تفسير الشعور كما قال بأنه علم الشيء من ناحية الحس الخ : أنه لما كانت مفسدة النفاق عائدة على المنافق عوداً بيناً جلياً محسوساً ، نعى عليهم جهلهم بالمحسوس فنفى شعورهم به ولا كذلك معرفة الحق وتميزه عن الباطل فانه أمر عقلى نظري.

(٢) قوله «وناهيك مما كان» لعله : بما كان. (ع)

ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة أن يعصبوه بالعصاة فلما ردّ الله ذلك بالحق الذي أعطاه شرق بذلك^(١). أو يراد ما تداخل قلوبهم من الضعف واللين والخور ، لأن قلوبهم كانت قوية ، إما لقوة طمعهم فيما كانوا يتحدثون به : أن ربح الإسلام تهب حيناً ثم تسكن ولواءه يخفق أياماً ثم يقترّ ، فضعفت حين ملكها اليأس عند إنزال الله على رسوله النصر وإظهار دين الحق على الدين كله. وإما لجرامتهم وجسارتهم في الحروب فضعفت جنباً وخوراً^(٢) حين قذف الله في قلوبهم الرعب وشاهدوا شوكة المسلمين وإمداد الله لهم بالملائكة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «نصرت بالرعب مسيرة شهر»^(٣). ومعنى زيادة الله إياهم مرضاً أنه كلما أنزل على رسوله الوحي فسمعوه كفروا به فازدادوا كفراً إلى كفرهم ، فكأن الله هو الذي زادهم ما ازدادوه إسناداً للفعل إلى المسبب له ، كما أسنده إلى السورة في قوله : ﴿فَزَادَهُمْ رَجْساً إِلَى رَجْسِهِمْ﴾ لكونها سبباً. أو كلما زاد رسوله نصرة وتبسطا في البلاد ونقصا من أطراف الأرض ازدادوا حسداً وغلا وبغضا وازدادت قلوبهم ضعفاً وقلة طمع فيما عقدوا به رجاءهم وجنبا وخوراً. ويحتمل أن يراد بزيادة المرض الطبع. وقرأ أبو عمرو في رواية الأصمعي : مرض ، ومرضاً ، بسكون الراء :

يقال ألم فهو ﴿أَلِيمٌ﴾ كوجع فهو وجيع ووصف العذاب به نحو قوله :

تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ^(٤)

(١) متفق عليه من رواية عروة عن أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب على حمار على قطيفة فركبه وأردف أسامة بن زيد وراءه ، يعود سعد بن عبادة. فذكره مطولاً

(٢) قوله «جنباً وخوراً» الخور بالتحريك : الضعف ، كما في الصحاح. (ع)

(٣) متفق عليه من حديث جابر رضي الله عنه.

(٤) أمــــن ربحانة الســــداعي الســــميع يــــورقني وأصــــحاحي هجــــوع
وســــوق كتيــــبة دلفــــت لأخــــرى كــــأن زهــــاءهــــا رأس صــــليع
وخــــيل قــــدد دلفــــت لهــــا بخــــيل تخــــيبة بــــينهم ضــــرب وجيــــع

لعمرو بن معديكرب صاحب ربحانة أخت دريد بن الصمة ، التمس منه زواجها فأجابته ومطله. وقيل : ربحانة اسم موضع بعينه. والسميع : المسمع على اسم المفعول ، أو المسموع ، أو المسمع على اسم الفاعل ، أو السامع وأصل فعيل أن يكون بمعنى فاعل كعليم. وكذا ما جاء بمعنى مفعول كجريح وقتيل. ونادر من الرباعي بمعنى مفعول اسم فاعل كوجيع ، وبمعنى مفعول اسم مفعول كسميع بمعنى مسمع اسم مفعول. وكثير سماعاً بمعنى مفاعل كجليس وشريك. وسميع : مبتدأ ، خبره يؤرقني أى هل داعي الشوق من ربحانة يسهرني والحال أن أصحابي نيام؟ والاستفهام للتعجب «وسوق كتيبة» عطف على الداعي أو على ضمير يؤرقني. والكتيبة : الجماعة المنظمة المنتظمة. ودلف دلفاً من باب .

وهذا على طريقة قولهم : جدّ جدّه. والألم في الحقيقة للمؤلم كما أنّ الجدّ للجادّ.

والمراد بكذبهم قولهم آمنا بالله وباليوم الآخر. وفيه رمز إلى قبح الكذب وسماجته ، وتخييل أن العذاب الأليم لاحق بهم من أجل كذبهم. ونحوه قوله تعالى : ﴿بِمَا خَطَيْنَاهُمْ أُعْرِفُوا﴾ والقوم كفرة. وإنما خصت الخطيئات استعظاما لها وتنفيرا عن ارتكابها. والكذب : الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو به وهو قبيح كله. وأما ما يروى عن إبراهيم عليه السلام أنه كذب ثلاث كذبات ^(١). فالمراد التعريض. ولكن لما كانت صورته صورة الكذب سمى به. وعن أبي بكر رضى الله عنه وروى مرفوعا : «إياكم والكذب فإنه مجانب للإيمان» ^(٢) وقرئ ؛ يكذبون ، من كذبه الذي هو نقيض صدقه ؛ أو من كذب الذي هو مبالغة في كذب ، كما بولغ في صدق ف قيل : صدق. ونظيرهما : بان الشيء وبين ، وقلص الثوب وقلص. أو بمعنى الكثرة كقولهم : موتت البهائم ، وبركت الإبل ، أو من قولهم : كذب الوحشي إذا جرى شوطا ثم وقف لينظر ما وراءه ؛ لأن المنافق متوقف متردد في أمره ، ولذلك قيل له مذبذب. وقال عليه السلام : «مثل المنافق كمثل الشاة ^(٣) العائرة بين الغنمين ، تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ

. تعب مشى بتؤدة. وقيل تقدم وأسرع. كان زهاءها : أى مقدارها. والصليع : الذي لا شعر فيه ، ولعله شبهها بذلك الرأس في التجرد والانكشاف والظهور والتمام كما يقال : جيش أفرع ، وألف أفرع : أى تام مجازاً. وخيل : أى وأصحاب خيل قد تقدمت لها مثلها. والتحية : الدعاء بالحياة ، فأخبر عنها بالضرب الوجيع على سبيل التهكم. وضمير «بينهم» للخيل بمعنى الجيش. وانتقل من ذكر ريحانة إلى ذكر الحرب لأنه كان أغار على دريد في طلبها.

(١) متفق عليه واللفظ للبخاري من رواية ابن سيرين ، عن أبي هريرة رضى الله عنه رفعه «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات : اثنتين منهن في ذات الله عز وجل» الحديث. وأخرجه الترمذي في تفسير الأنبياء ، من طريق أبي الزناد عن الأعرج عنه.

(٢) روى مرفوعا وموقوفا على أبي بكر الصديق رضى الله عنه. أما المرفوع فأخرجه ابن عدى من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن قيس عنه. قال الدارقطني في العلل : رفعه يحيى بن عبد الملك وجعفر الأحمر وعمر بن ثابت عن إسماعيل. ووقفه غيرهم وهو أصح. ويروى عن أبي أسامة ويزيد بن هرون عنه أيضا مرفوعا. ولا يثبت عنهما اه. وأما الموقوف فأخرجه أحمد وابن أبي شيبة في الأدب كلاهما عن وكيع عن إسماعيل وابن المبارك في الزهد عن إسماعيل كذلك. ولم يجد الطيبي المرفوع فأخرج بدله عن صفوان بن سليم. قيل : يا رسول الله والمؤمن يكون جباناً؟ قال : نعم. يكون بخيلاً؟ قال : نعم. يكون كذاباً؟ قال : لا. أخرجه مالك وهو مرسل.

(٣) أخرجه مسلم من رواية موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما : قوله تعير بمهملة أى تتردد.

هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ آمَنُوا كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤْنَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رَبَّحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ معطوف على يكذبون. ويجوز أن يعطف على : ﴿يَقُولُ آمَنَّا﴾ لأنك لو قلت : ومن الناس من إذا قيل لهم لا تفسدوا ، كان صحيحا ، والأول أوجه.

والفساد : خروج الشيء عن حال استقامته وكونه منتفعا به ، ونقيضه ؛ الصلاح ، وهو الحصول على الحالة المستقيمة النافعة. والفساد في الأرض : هيج الحروب والفتن ، لأن في ذلك فساد ما في الأرض وانتفاء الاستقامة عن أحوال الناس والزروع والمنافع الدينية والدنيوية. قال الله تعالى : ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ ، ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾. ومنه قيل لحرب كانت بين طيء : حرب الفساد. وكان فساد المنافقين في الأرض. أنهم كانوا يمايلون الكفار ويمالئونهم على المسلمين بإفشاء أسرارهم إليهم وإغرائهم علتهم ، وذلك مما يؤدي إلى هيج الفتن بينهم ، فلما كان ذلك من صنيعهم مؤديا إلى الفساد قيل لهم : لا تفسدوا ، كما تقول للرجل : لا تقتل نفسك بيدك ، ولا تلق نفسك في النار ، إذا أقدم على ما هذه عاقبته. و «إنما» لقصر الحكم على شيء ، كقولك : إنما ينطق زيد ، أو لقصر الشيء على حكم كقولك : إنما زيد كاتب. ومعنى ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصَلِّحُونَ﴾ أن صفة المصلحين خلصت لهم وتمحضت من غير شائبة قادح فيها من وجه من وجوه الفساد. و ﴿أَلَا﴾ مركبة من همزة الاستفهام وحرف النفي ، لإعطاء معنى التنبيه على تحقق ما بعدها ، والاستفهام إذا دخل على النفي أفاد تحقيقا كقوله : ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ﴾؟ ولكونها في هذا المنصب من التحقيق ، لا تكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدرة بنحو ما يتلقى به القسم. وأختها التي هي «أما» من مقدمات اليمين وطلائعها :

أَمَّا وَالَّذِي لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ عَيْزُهُ ^(١)

أَمَّا وَالَّذِي أَبْكَى وَأَضْحَكَ ^(٢)

ردّ الله ما ادعوه من الانتظام في جملة المصلحين أبلغ ردّ وأدله على سخط عظيم ، والمبالغة فيه من جهة الاستئناف وما في كلتا الكلمتين ألا . وإن من التأكيدين وتعريف الخبر وتوسيط الفصل . وقوله : ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ أتوهم في النصيحة من وجهين : أحدهما تقبيح ما كانوا عليه لبعده من الصواب وجرّه إلى الفساد والفتنة . والثاني : تبصيرهم الطريق الأسد من اتباع ذوى الأحلام ، ودخولهم في عدادهم ؛ فكان من جوابهم أن سفهوههم لفرط سفههم ، وجهلوههم لتمادى

(١) أمّا والــــــذي لا يعلم الغيب غــــــيره ويحــــــي العظــــــام البــــــيض وهــــــي رمــــــيم
لقد كنت أختار القــــرى طــــاوى الحشــــا محــــاذرة مــــن أن يقــــال لــــمــــيم
وإني لأستحي بــــي وبينهــــا و بــــين فمــــي داجــــى الظــــلام بــــمــــيم

لحاتم الطائي . وأصل «أما» مركبة من همزة الاستفهام وما الباقية ، فصارت حرفا لاستفتاح القسم وتوكيد الكلام وأقسم بالذي بعلم الغيب والضمان وهو الله تعالى ، لأن جواب القسم من هذا القبيل . وذكر البيض دفعا لتوهم أنها المكينة باللحم أو كناية عن طول مدتها عارية عنه ، فيشتد بياضها لجفاف دمها وهي رميم بالية . واستواء لمذكر والمؤنث في فعليل بمعنى فاعل كما هنا قليل ، والكثير في الذي بمعنى مفعول . لقد كنت أختار القرى : أى جمع الضيفان وإكرامهم . ويجوز أن يروى : أجنّاز القرى بالجيم والزى وضم القاف : يصف نفسه بالعفة . ويروى : أختار الجوى بمعنى حرقة القلب من الجوع ونحوه حال كوني عفوفاً . وعلى الأولى فالمعنى : حال كوني جائعاً ، قطي الحشا أى المعدة والأمعاء كناية عن ذلك ، وكثر استعمال الطى في هذا المعنى ، حتى قيل منه : طوى يطوى كرضى يرضى بمعنى جاع ، فهو طيان كجوعان وزنا ومعنى . محاذرة : أى حذرا من قول الناس إنه لئيم لا كريم . وكان يستحي أن يمد يده للطعام إلى فمه ، مع أن الليل شديد الظلمة حائل بينهما فيمنعه أن يراها . والبهيم : الذي انبهمت فيه الأشياء لظلمته .

(٢) أمّا والــــــذي أبكــــى وأضــــحك والــــــذي أمــــات وأحــــيا والــــــذي أمــــره الأمــــر
لقد تركتني أحســــد الوحــــش أن أرى أليفــــين منهــــا لا يروعهــــم الوحــــش الذعر

لأبي صخر عبد الله بن سلمى الهذلي . و «أما» استفتاحية ومقدمة وطلبة لليمين . والواو بعدها للقسم : أى وحق الذي أبكى وأضحك حقيقة ، أو الذي سر وضر كناية ، وهو أنسب بالمقام . والذي أمره : أى مقدره هو المقدر النافذ ، أو الذي أمره إذا أراد شيئاً الأمر : أى قوله كن . ويروى «أمر» بلا لام : أى أمر حق عظيم . لقد تركتني جواب القسم : أى صيرتني أحسد الوحش على رؤيتي متآلفين منها ، أى الوحش ؛ لأنه في معنى الجماعة . لا يروعهما أى لا يخيفهما ، لأن الخوف يحل الروح . بالضم . وهو القلب . وذعر ذعراً ، كتعب : خاف خوفاً . وذعرته ذعرا كضربته ضرباً أخفته . أى لا تخيفهما الاخافة . ويجوز أن يراد بالذعر : الأمر المخيف . ويروى : لا يروعهما النفر : أى لا ينفر أحدهما من الآخر فيروعه بذلك .

جهلهم. وفي ذلك تسلية للعالم مما يلقي من الجهلة. فإن قلت : كيف صح أن يسند «قيل» إلى «لا تفسدوا ، وآمنوا» وإسناد الفعل إلى الفعل مما لا يصح؟ قلت : الذي لا يصح هو إسناد الفعل إلى معنى الفعل ، وهذا إسناد له إلى لفظه ، كأنه قيل : وإذا قيل لهم هذا القول وهذا الكلام. فهو نحو قولك : «ألف» ضرب من ثلاثة أحرف. ومنه : زعموا مطية الكذب ^(١).

و «ما» في «كما» يجوز أن تكون كافة مثلها في : ﴿رُبَّمَا﴾ ، ومصدرية مثلها في : ﴿بِمَا رَحَّبْتَ﴾. واللام في «الناس» للعهد ، أى كما آمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه. أو هم ناس معهودون كعبد الله بن سلام وأشياعه لأنهم من جلدتهم ومن أبناء جنسهم ، أى : كما آمن أصحابكم وإخوانكم ، أو للجنس أى : كما آمن الكاملون في الإنسانية. أو جعل المؤمنون كأهم الناس على الحقيقة ، ومن عداهم كالبهائم في فقد التمييز بين الحق والباطل.

والاستفهام في ﴿أَنُؤْمِنُ﴾ في معنى الإنكار. واللام في ﴿السُّفَهَاءُ﴾ مشاربها إلى الناس ، كما تقول لصاحبك : إن زيدا قد سعى بك ، فيقول : أو قد فعل السفه. ويجوز أن تكون للجنس ، وينطوى تحته الجاري ذكرهم على زعمهم واعتقادهم ؛ لأنهم عندهم أعرق الناس في السفه. فإن قلت : لم سفههم واستركوا عقولهم ، وهم العقلاء المراجيح؟ قلت : لأنهم لجهلهم وإخلالهم بالنظر وإنصاف أنفسهم ، اعتقدوا أن ما هم فيه هو الحق وأن ما عداه باطل ، ومن ركب متن الباطل كان سفيها ؛ ولأنهم كانوا في رياسة وسطة في قومهم ويسار ، وكان أكثر المؤمنين فقراء ومنهم موال كصهيب وبلال وخباب ، فدعوههم سفهاء تحقيرا لشأنهم. أو أرادوا عبد الله بن سلام وأشياعه ومفارقتهم دينهم وما غاطهم من إسلامهم وفت في أعضادهم. قالوا ذلك على سبيل التجلد توقيا من الشماتة بهم مع علمهم أنهم من السفه بمعزل ، والسفه سخافة العقل وخفة الحلم. فان قلت : فلم فصلت هذه الآية ب : ﴿لَا يَغْلُمُونَ﴾ ، والتي قبلها ب : ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾؟ قلت : لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحق وهم على الباطل ، يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة. وأما النفاق وما فيه من البغي المؤدى إلى الفتنة والفساد في الأرض فأمر دنيوى مبنى على

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات من رواية الأعمش عن شريح قال : زعموا كنية الكذب. وقد ذكره المصنف مرفوعا في سورة التغابن ولم أجده بهذا اللفظ. والذي في الأدب المفرد للبخاري من حديث أبي مسعود الأنصاري رضى الله عنه مرفوعا : «بئس مطية الرجل زعموا» وكذا أخرجه أحمد وإسحاق وأبو يعلى ، وهو من رواية أبي قلابة عنه. وفي رواية البخاري بين أبي قلابة وبين أبي مسعود : أبو المهلب.

العادات ، معلوم عند الناس ، خصوصاً عند العرب في جاهليتهم وما كان قائماً بينهم من التغاور والتناحر والتحارب والتحايز ، فهو كالمحسوس المشاهد ؛ ولأنه قد ذكر السفه وهو جهل فكان ذكر العلم معه أحسن طباقاً له . مساق هذه الآية بخلاف ما سبقت له أوّل قصة المنافقين فليس بتكرير ، لأن تلك في بيان مذهبهم والترجمة عن نفاقهم ، وهذه في بيان ما كانوا يعملون عليه مع المؤمنين من التكذيب لهم والاستهزاء بهم ولقائهم بوجوه المصادقين وإيهامهم أنهم معهم ، فإذا فارقوهم إلى شطار دينهم صدقوهم ما في قلوبهم . وروى أن عبد الله بن أبيّ وأصحابه خرجوا ذات يوم فاستقبلهم ^(١) نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عبد الله : انظروا كيف أردّ هؤلاء السفهاء عنكم ، فأخذ بيد أبي بكر فقال : مرحباً بالصدّيق سيد بنى تيم وشيخ الإسلام وثاني رسول الله في الغار ، الباذل نفسه وماله لرسول الله . ثم أخذ بيد عمر فقال : مرحباً بسيد بنى عدّى الفاروق القويّ في دين الله ، الباذل نفسه وماله لرسول الله . ثم أخذ بيد عليّ فقال : مرحباً بابن عم رسول الله وختنه سيد بنى هاشم ما خلا رسول الله . ثم افترقوا فقال لأصحابه : كيف رأيتموني فعلت؟ فأثنوا عليه خيراً ، فنزلت . ويقال لقيته ولاقيته إذا استقبلته قريباً منه ، وهو جارى ملاقيّ ومراوقى . وقرأ أبو حنيفة : وإذا لاقوا .

وخلوت بفلان وإليه ، إذا انفردت معه . ويجوز أن يكون من «خلا» بمعنى : مضى ، وخلاك ذمّ : أى عداك ومضى عنك . ومنه : القرون الخالية ، ومن «خلوت به» إذا سخرت منه . وهو من قولك : خلا فلان بعرض فلان يعث به . ومعناه : وإذا أهوا السخرية بالمؤمنين إلى شياطينهم وحدّثوهم بها . كما تقول : أحمد إليك فلاناً ، وأدّمه إليك . وشياطينهم : الذين ماثلوا الشياطين في تمرّدهم . وقد جعل سيبويه نون الشيطان في موضع من كتابه أصلية ، وفي آخر زائدة . والدليل على أصلتها قولهم : تشيطن ، واشتقاقه من «شطن» إذا بعد ؛ لبعده من الصلاح والخير . ومن «شاط» إذا بطل إذا جعلت نونه زائدة . ومن أسمائه الباطل .

(١) أخرجه الواحدي في الأسباب من رواية السدى الصغير . ومحمد بن مروان ، عن أبي صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما . قال : «نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي وأصحابه . وذلك أنهم خرجوا ذات يوم» فذكره وفي آخره «فرجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه فنزلت» . ومحمد بن مروان متروك متهم بوضع الحديث وسياقه في غاية النكارة .

﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ إنا مصاحبوكم وموافقوكم على دينكم. فإن قلت : لم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية ، وشياطينهم بالاسمية محققة بأن؟ ^(١) قلت : ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديراً بأقوى الكلامين وأوكدهما ، لأنهم في ادعاء حدوث الإيمان منهم ونشئه من قبلهم ، لا في ادعاء أنهم أوحديون في الإيمان غير مشقوق فيه غبارهم ، وذلك إما لأن أنفسهم لا تساعد على إلهامهم من عقائدهم باعث ومحرك ، وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة واعتقاد. وإما لأنه لا يروج عنهم لو قالوه على لفظ التوكيد والمبالغة. وكيف يقولونه ويطمعون في رواجه وهم بين ظهرائي المهاجرين والأنصار الذين مثلهم في التوراة والإنجيل. ألا ترى إلى حكاية الله قول المؤمنين : ﴿رَبَّنَا إِنَّا آمَنَّا﴾. وأما مخاطبة إخوانهم ، فهم فيما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اليهودية والقرار على اعتقاد الكفر ، والبعد من أن يزلوا عنه على صدق رغبة ووفور نشاط وارتياح للتكلم به ، وما قالوه من ذلك فهو رائج عنهم متقبل منهم ، فكان مظنة للتحقيق ومثنية للتوكيد. فإن قلت : أنى تعلق قوله : ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ﴾ بقوله : ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ قلت : هو توكيد له ، لأن قوله : ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ معناه الثبات على اليهودية. وقوله : ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ﴾ رد للإسلام ودفع له منهم ، لأن المستهزئ بالشيء المستخف به منكر له ودافع لكونه معتدا به ، ودفع نقيض الشيء تأكيد لثباته أو بدل منه ، لأن من حقر الإسلام فقد عظم الكفر. أو استئناف ، كأنهم اعترضوا عليهم حين قالوا لهم : ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ ، فقالوا : فما بالكم إن صح أنكم معنا توافقون أهل الإسلام فقالوا : ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ﴾. والاستهزاء : السخرية والاستخفاف ، وأصل الباب الحفة . من الهزء وهو القتل السريع . وهزأ يهزأ : مات على المكان. عن بعض العرب : مشيت فغلبت فظننت لأهز أن على مكاني. وناقته تهزأ به : أى تسرع وتخف. فإن قلت : لا يجوز الاستهزاء على الله تعالى ، لأنه متعال عن القبيح ، والسخرية من باب العيب والجهل. ألا ترى إلى قوله : ﴿قَالُوا اتَّخَذْنَا هُزُوءًا قَالِ اعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ، فما معنى استهزائه بهم؟ قلت : معناه إنزال الهوان والحقارة بهم ، لأن المستهزئ غرضه الذي يرميه هو طلب الحفة والزراية ممن يهزأ به ،

(١) قال محمود رحمه الله : «إن قلت لم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية ... الخ»؟ قال أحمد رحمه الله : وبني هذا التقرير على أن الجملة الاسمية أثبت من الفعلية خصوصاً مؤكدة بأن مردفة بانما على أنه قد حكى إيمان المؤمنين المخلصين بالجملة الفعلية أيضاً في قوله : ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾. وعلي الجملة فلقد أحسن الزمخشري رحمه الله في تقريره ما شاء وأجمل ما أراد.

وإدخال الهوان والحقارة عليه ، والاشتقاق كما ذكرنا شاهد لذلك. وقد كثر التهكم في كلام الله تعالى بالكفرة. والمراد به تحقير شأنهم وازدراء أمرهم ، والدلالة على أن مذاهبهم حقيقة بأن يسخر منها الساخرون ويضحك الضاحكون. ويجوز أن يراد به ما مر في : ﴿يُجَادِعُونَ﴾ من أنه يجري عليهم أحكام المسلمين في الظاهر ، وهو مبطن بادخار ما يراد بهم ، وقيل : سمى جزاء الاستهزاء باسمه كقوله : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ ، ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾. فإن قلت : كيف ابتدئ قوله : ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ ولم يعطف على الكلام قبله ^(١). قلت : هو استئناف في غاية الجزالة والفخامة. وفيه أن الله عز وجل هو الذي يستهزئ بهم الاستهزاء الأبلغ ، الذي ليس استهزاؤهم إليه باستهزاء ولا يؤبه له في مقابلته ، لما ينزل بهم من النكال ويحل بهم من الهوان والذل. وفيه أن الله هو الذي يتولى الاستهزاء بهم انتقاماً للمؤمنين ، ولا يحوج المؤمنين أن يعارضوهم باستهزاء مثله. فان قلت : فهلا قيل الله مستهزئ بهم ليكون طبقاً لقوله : ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤْنَ﴾ ^(٢) قلت : لأن (يستهزئ) يفيد حدوث الاستهزاء وتجدده وقتاً بعد وقت ، وهكذا كانت نكايات الله فيهم وبلاياه النازلة بهم ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ وما كانوا يخلون في أكثر أوقاتهم من تهتك أستار وتكشف أسرار ، ونزول في شأنهم واستشعار حذر من أن ينزل فيهم ﴿يَخَذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنَّ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ ، ﴿قُلِ اسْتَهْزُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾. ﴿وَيَمْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ من مدّ الجيش وأمدّه إذا زاده وألحق به ما يقويه ويكثره. وكذلك مدّ الدواة وأمدّها : زادها ما يصلحها. ومددت السرج والأرض : إذا استصلحتهما بالزيت والسماذ. ومدّه الشيطان في الغى وأمدّه : إذا وصله بالوساوس حتى يتلاحق غيه ويزداد انهما كافيّه. فإن قلت : لم زعمت أنه من المدد دون المد في العمر والإملاء والإمهال؟ قلت : كففاً دليلاً على أنه من المدد دون المد قراءة ابن كثير وابن محيصن : ﴿وَيَمْدُهُمْ﴾ ، وقراءة نافع : ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمْدُونَهُمْ﴾ على أن الذي بمعنى أمهله

(١) قال محمود رحمه الله : «إن قلت : كيف ابتدئ قوله : الله يستهزئ بهم ولم يجعله معطوفاً ... إلخ»؟ قال أحمد رحمه الله : فان قال قائل : أفلا يستفاد هذا المعنى من العطف؟ قيل له : لو عطف لأشعر بأن الغرض كل الغرض اجتماع مضمون الجملتين وإعراض عن هذا المعنى الذي ينفرد به الاستئناف

(٢) قال محمود رحمه الله : «فان قلت : فهلا قيل الله مستهزئ بهم ... إلخ»؟ قال أحمد رحمه الله : ولهذا الفرق بين الفعل والاسم ورد قوله تعالى : ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ، وَالطُّيُورُ مَحْشُورَةٌ﴾. لما كان التسبيح من الطوائد متكرراً متجدداً شيئاً فشيئاً وحشر الطير معه أمر دائم ، ذكر التسبيح بصيغة الفعل ، والحشر بصيغة الاسم. وسيأتى إن شاء الله تعالى مزيد تقرير فيه.

إنما هو مدّ له مع اللام كأملّى له. فان قلت : فكيف جاز أن يوليهم الله مددا في الطغيان وهو فعل الشياطين؟ ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ﴾؟^(١) قلت : إما أن يحمل على أنهم لما منعهم الله ألطافه التي يمنحها المؤمنين ، وخذلهم بسبب كفرهم وإصرارهم عليه ، بقيت قلوبهم بتزايد الرين والظلمة فيها ، تزايد الانشراح والنور في قلوب المؤمنين فسمى ذلك التزايد مدداً. وأسند إلى الله سبحانه لأنه مسبب عن فعله بهم بسبب كفرهم. وإما على منع القسر والإلجاء وإما على أن يسند فعل الشيطان إلى الله لأنه بتمكينه وإقداره والتخليّة بينه وبين إغواء عباده. فإن قلت : فما حملهم على تفسير المدّ في الطغيان بالإمهال وموضوع اللغة كما ذكرت لا يطاوع عليه؟ قلت : استجّرهم إلى ذلك خوف الإقدام على أن يسندوا إلى الله ما أسندوا إلى الشياطين ولكن المعنى الصحيح ما طابقه اللفظ وشهد لصحته ، وإلا كان منه بمنزلة الأروى من النعام. ومن حق مفسر كتاب الله الباهر وكلامه المعجز ، أن يتعاهد في مذهب بقاء النظم على حسنه والبلاغة على كمالها وما وقع به التحدّي سليماً من القادح ، فإذا لم يتعاهد أوضاع اللغة فهو من تعاهد النظم والبلاغة على مراحل. ويعضد ما قلناه قول الحسن في تفسيره : في ضلالتهم يتمادون ، وأن هؤلاء من أهل الطبع. والطغيان : الغلو في الكفر ، ومجاورة الحدّ في العتوّ. وقرأ زيد بن علي رضي الله عنه : (في طغيانهم) بالكسر وهما لغتان ، كلقيان ولقيان ، وغنيان وغنيان. فان قلت : أى نكتة في إضافته إليهم؟^(٢) قلت : فيها أن الطغيان والتمادي في الضلالة مما اقترفته أنفسهم واجترحتة أيديهم ، وأن الله بريء منه ردّاً لاعتقاد الكفرة القائلين : لو شاء

(١) قال محمود رحمه الله : «إن قلت : كيف جاز أن يوليهم الله مدداً من الطغيان ... الخ»؟ قال أحمد رحمه الله : ما يمنعه أن يقره على ظاهره ويبقيه في نصابه إلا أنه توحيد محض وحق صرف ، والقدرية من التوحيد على مراحل

(٢) قال محمود رحمه الله : «فان قلت : ما النكتة في إضافة الطغيان إليهم ... الخ»؟ قال أحمد رحمه الله : كل فعل صدر من العبد اختياراً فله اعتباران : إن نظرت إلى وجوده وحدوثه وما هو عليه من وجوه التخصيص ، فانسب ذلك إلى قدرة الله وحده وإرادته لا شريك له. وإن نظرت إلى تميزه عن القسر الضروري فانسبه في هذه الجهة إلى العبد ، وهي النسبة المعبر عنها شرعاً بالكسب في أمثال قوله تعالى : ﴿فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ، وهي المتحققة أيضاً إذا عرضت على ذهنك الحركتين الضرورية العرشية مثلاً والاختيارية ، فإنك تميز بينهما لا محالة بتلك النسبة. فإذا تقرر تعدد الاعتبار فمدّهم في الطغيان مخلوق لله تعالى فأضافه إليه. ومن حيث كونه واقعاً منهم على وجه الاختيار المعبر عنه بالكسب أضافه إليهم. ففرع على أصول السنة بحسن ثمار فروعك في الجنة ، لا كما تفرع القدرية فإنهم يحبون ولكن على أنفسهم. ألهمنا الله التحقيق وأبدنا بالتوفيق.

الله ما أشركنا ، ونفياً لوهم من عسى يتوهم^(١) عند إسناد المدّ إلى ذاته لو لم يصف الطغيان اليهم ليميط الشبه ويقلعها ويدفع في صدر من يلحد في صفاته. ومصدق ذلك أنه حين أسند المدّ إلى الشياطين ، أطلق الغي ولم يقيده بالإضافة في قوله : ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ﴾. والعمه : مثل العمى ، إلا أن العمى عامّ في البصر والرأى ، والعمه في الرأى خاصة ، وهو التحير والتردد ، لا يدري أين يتوجه. ومنه قوله : بالجاهلين العمه ، أى الذين لا رأى لهم ولا دراية بالطرق. وسلك أرضاً عمهاء : لا منار بها^(٢)

ومعنى اشتراء الضلالة بالهدى : اختيارها عليه واستبدالها به ، على سبيل الاستعارة ، لأنّ الاشتراء فيه إعطاء بدل وأخذ آخر^(٣). ومنه :
 أَخَذْتُ بِالْجُمَّةِ رَأْسًا أَرْعَا وَبِالْتَّنَّائِ الْوَاضِحَاتِ دَرَدَرًا
 وبالطَّوِيلِ الْعُمُرَ عُمُرًا حَيِّدَرًا كَمَا اشْتَرَى الْمُسْلِمُ إِذْ تَنَصَّرَ رَا^(٤)
 وعن وهب : قال الله عز وجل فيما يعيب به بنى إسرائيل : «تفقهون لغير الدين ، وتعلمون لغير العمل ، وتبتاعون الدنيا بعمل الآخرة». فان قلت : كيف اشتروا الضلالة بالهدى وما كانوا على هدى؟ قلت : جعلوا لتمكنهم منه وإعراضه لهم^(٥) كأنه في أيديهم ، فإذا تركوه إلى

(١) قوله «ونفياً لو هم من عسى ... الخ» يريد الرد على أهل السنة القائلين : إن الله تعالى هو الفاعل في الحقيقة للخير والشر. وينتصر للمعتزلة القائلين بأنه تعالى لا يفعل الشر ولا يريده (ع)

(٢) قوله «وسلك أرضاً عمهاء» أى ومنه قولهم سلك ... الخ (ع)

(٣) قال محمود رحمه الله : «الشرء يستدعي بذل العوض ... الخ». قال أحمد رحمه الله : ومن هذا القبيل منع مالك رضى الله عنه أن يشتري إحدى أورتين مذبوحتين يختارها المشتري منهما ، لأنه يعد مختاراً لكل واحدة منهما ، ثم بائعاً لها بالأخرى فيدخله الربا ، وهو الذي يعبر عنه متأخرو أصحابه بأن من ملك أن يملك هل يعد مالكا أولاً؟ وربما قالوا : من خير بين شيئين عد منتقلا على أحد القولين.

(٤) «الجمّة» : كثرة الشعر ، والباء للبدل ، و «زعر» كتعب فهو أزعر ، أى قليل الشعر. ويقال للموضع الذي لا نبات فيه. والثنايا : مقدم الأسنان. والمراد الثغر كله. والدردر . بالفتح . منارز الأسنان. والحيدر :

القصير. واشترى : استبدل. والمراد أنه أخذ امرأة عجزواً قبيحة بدل امرأة شابة جميلة ، وروى أن حبله بن الأيهم قد مكة فطاف بالكعبة ، فوطئ رجل إزاره ، فلطمه فشكى إلى عمر رضى الله عنه فحكم بالقصاص من جبلة ، فاستمهلته إلى الغد وهرب ليلاً إلى الروم ، وتنصر بعد الإسلام ، ثم ندم على ما فعل فضرب به المثل.

(٥) قوله «وإعراضه لهم» في الصحاح : اعترض لك الخير ، إذا أمكنك (ع)

الضلالة فقد عطلوه واستبدلوها به ، ولأن الذين القيم هو فطرة الله التي فطر الناس عليها ، فكل من ضل فهو مستبدل خلاف الفطرة و ﴿الضَّلَالَةَ﴾ الجور عن الفصد وفقد الاهتداء. يقال. ضلّ منزله ، وضل دريص نفقه ^(١) فاستعير للذهاب عن الصواب في الدين. والريح : الفضل على رأس المال ، ولذلك سمى : الشف ، من قولك : أشف بعض ولده على بعض ، إذا فضله. ولهذا على هذا شف. والتجارة : صناعة التاجر ، وهو الذي يبيع ويشترى للربح. وناقّة تاجرة : كأنها من حسننها وسمنها تباع نفسها. وقرأ ابن أبي عبلّة (تجاراّهم). فإن قلت : كيف أسند الخسران إلى التجارة وهو لأصحابها؟ قلت : هو من الإسناد المجازي ، وهو أن يسند الفعل إلى شيء يتلبس بالذي هو في الحقيقة له ، كما تلبست التجارة بالمشتريين. فإن قلت : هل يصح : ربح عبدك وخسرت جاريّتك ، على الإسناد المجازي؟ قلت : نعم إذا دلت الحال. وكذلك الشرط في صحة : رأيت أسداً ، وأنت تريد المقدم ؛ إن لم تقم حال دالة لم يصح. فإن قلت : هب أنّ شراء الضلالة بالهدى وقع مجازاً في معنى الاستبدال ، فما معنى ذكر الربح والتجارة؟ كأنّ ثمّ مبيعة على الحقيقة ^(٢). قلت : هذا من الصنعة البديعة التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا ، وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ، ثم تقف بأشكال لها وأخوات ، إذا تلاحقن لم تر كلاماً أحسن منه ديباجة وأكثر ماء ورونقا ، وهو المجاز المرشح. وذلك نحو قول العرب في البليد : كأن أذن قلبه خطلاً ، وإن جعلوه كالحمار ، ثم رشحوا ذلك روما لتحقيق البلادة ، فادعوا لقلبه أذنين ، وادعوا لهما الخطل ^(٣) ، ليمثلوا البلادة تمثيلاً يلحقها ببلادة الحمار مشاهدة معاينة. ونحوه :

(١) قوله «وَضَلَّ دريص نفقه» في الصحاح : الدرس ولد الفأرة واليربوع وأشباه ذلك. وفي المثل «ضل دريص نفقه» أى جحره. (ع)

(٢) قال محمود رحمه الله : «فان قلت : هب أن شراء الضلالة بالهدى ... الخ». قال أحمد رحمه الله : وهذا النوع قريب من التتميم الذي يمثله أهل صناعة البديع بقول الخنساء :

وإن صخرّاً لتــــأتم الهــــداة بــــه كــــأنــــه علــــه م في رأسه نار

لما شبهته في الاهتداء به بالعلم المرتفع ، أتبع ذلك ما يناسبه ويحققه ، فلم تقنع بظهور الارتفاع حتى أضافت إلى ذلك ظهوراً آخر باشتعال النار في رأسه.

(٣) قوله «وادعوا لهما الخطل» أى الاسترخاء. (ع)

وَلَمَّا رَأَيْتُ النَّسْرَ عَزَّ ابْنُ دَائِيَةِ وَعَشَّشَ فِي وَكْرِيهِ جَاشَ لَهُ صَدْرِي ^(١)

لما شبه الشيب بالنسر ، والشعر الفاحم بالغراب ، أتبعه ذكر التعشيش والوكر . ونحوه قول بعض فتاكهم في أمه :

فَمَا أُمُّ الْوَكْرِ دِينَ وَإِنْ أَدَلَّتْ بِعَالِيَةِ بَأْخِ لَاقِ الْكَرَامِ

إِذَا الشَّيْطَانُ قَصَّ فِي قَفَاهَا تَنَفَّقْتُ نَاهُ بِالْجُبِّ لِي التُّوَامِ ^(٢)

أى إذا دخل الشيطان في قفاها استخرجناه من نافقائه بالحبل المثني المحكم . يريد : إذا حردت ^(٣) وأساءت الخلق اجتهدنا في إزالة غضبها وإمطة ما يسوء من خلقها . استعار التقصيع أولا ، ثم ضم إليه التنفق ، ثم الحبل التوام . فكذلك لما ذكر سبحانه الشراء أتبعه ما يشاكله ويواخيه وما يكمل ويتم بانضمامه إليه ، تمثيلا لحسارهم وتصويرا لحقيقته . فإن قلت : فما معنى قوله ﴿فَمَا رِيحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ . قلت : معناه أنّ الذي يطلبه التجار في متصرفاتهم

(١) شبه الشيب بالنسر بجامع البياض ، واستعاره له تصريحاً . وشبه الشباب بالغراب . وهو ابن داية . بجامع السواد كذلك . وعزه يعزه عزراً ، كنصره نصراً : إذا غلبه وقهره . والتعشيش في الوكرين ترشيح للاستعارتين ، والمراد بهما الرأس واللحية . ويحتمل أن التركيب كله استعارة تمثيلية . يقول : لما رأيت الشيب غلب الشباب وحل محله ، تحرك لأجله قلبي واضطرب ، فالصدر مجاز . ويروى : جاشت له نفسي .

(٢) دلت المرأة وأدلت : حسن تمنعها مع رضاها . ودلت وأدلت أيضاً : تغنجت وتشكلت . والاسم : الدل ، والدالة ، والدلال . وقيل : هو قريب من معنى الهدى . ومنه : كانوا ينظرون إلى هدى عمر ودله فيتشبهون به . ونفى علمها بأخلاق الكرام : كناية عن إساءتها الخلق . ويروى : بقائله بأخلاق الكرام ، أى بمكرثته ولا معتنية بها ، أو ليست فاعلة لها والمال واحد . وقصع اليربوع : اتخذ القاصعاء أو دخل فيها ، وهي جحره الذي يدخل فيه . وتنفق : اتخذ النافقاء أو خرج منها ، وهي الطرف الثاني من الجحر الذي يخرج منه . وتنفقه الصائد : استخرجه منها ، فلجحره بابان إذا أتاه الصائد من الأول خرج من الثاني فاستعار التقصيع الذي هو فعل اليربوع لدخول الشيطان في قفاها ، واستعار التنفق لإخراجه منه على طريق التصريحية والثانية ترشيح للأولى وبالعكس . والحبل : جمع حبال جمع حبل ككتب جمع كتاب . والتوام : الثني من الحبل ، وجمعه : توائم ، وتوام كغراب . أى بالحبل المثناة المفتولة ، وهي على رواية الحبل بالافراد ، فيخرج على أن التوام ليس جمعاً بل اسم جمع يعامل معاملة المفرد ، أى بالحبل القوى لأنه مجموع حبال مفتولة ، وهذا ترشيح للتنفق وترشيح الترشيح ترشيح ، فيكون ترشيحاً للتقصيع أيضاً ، والحبال من ملائمات التنفق في نحو الاصطيد . ويجوز أن يشبه الشيطان باليربوع ، فإذا أردنا اصطيداده من جهة هرب من جهة أخرى حتى نصطاده بأقوى حيلة ، فتكون مكنية والتقصيع والتنفق بالحبل تخييل . وجعل ذلك كله في قفاها لأن الحمق ينسب إليه عادة ، أو لأن الشيطان يأتيها من حيث لا تشعر ، كأنه من خلفها . ثم إن هذا الكلام كناية أو تمثيل للمراد ، وهو أنها إذا أساءت الخلق ترضيناها بالتحيل والترفق .

(٣) قوله «يريد إذا حردت» في الصحاح : الحرد . بالتحريك . الغضب (ع)

شيئان : سلامة رأس المال ، والربح. وهؤلاء قد أضاعوا الطلبتين معاً ، لأن رأس ما لهم كان هو الهدى ، فلم يبق لهم مع الضلالة. وحين لم يبق في أيديهم إلا الضلالة ، لم يوصفوا بإصابة الربح. وإن ظفروا بما ظفروا به من الأغراض الدنيوية ؛ لأن الضال خاسر دامر ، ولأنه لا يقال لمن لم يسلم له رأس ماله : قد ربح ، وما كانوا مهتدين لطرق التجارة كما يكون التجار المتصرفون العالمون بما يربح فيه ويخسر.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾

(١٨)

لما جاء بحقيقة صفتهم عقبها بضرب المثل زيادة في الكشف وتتميمًا للبيان. ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر. شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني ، ورفع الأستار عن الحقائق ، حتى تريك التخيل في صورة المحقق ، والمتوهم في معرض المتيقن ، والغائب كأنه مشاهد. وفيه تبكيت للخصم الألد ، وقمع لسورة الجامح الأبيّ ، ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله ، وفشت في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الأنبياء والحكماء. قال الله تعالى : ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾ ومن سور الإنجيل سورة الأمثال. والمثل في أصل كلامهم : بمعنى المثل ، وهو النظر. يقال : مثل ومثل ومثيل ، كشبه وشبه وشبيه. ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده : مثل. ولم يضربوا مثلاً ، ولا رأوه أهلاً للتسيير ، ولا جديراً بالتداول والقبول ، إلا قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه. ومن ثمّ حوفظ عليه وحى من التغيير. فإن قلت : ما معنى مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ، وما مثل المنافقين ومثل الذي استوقد ناراً حتى شبه أحد المثلين بصاحبه؟ قلت : قد استعير المثل استعارة الأسد للمقدام ، للحال أو الصفة أو القصة ، إذا كان لها شأن وفيها غرابة ، كأنه قيل : حالهم العجيبة الشأن كحال الذي استوقد ناراً. وكذلك قوله : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أى وفيما قصصنا عليك من العجائب : قصة الجنة العجيبة. ثم أخذ في بيان عجائبها. والله المثل الأعلى : أى الوصف الذي له شأن من العظمة والجلالة. ﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ : أى صفتهم وشأنهم المتعجب منه. ولما في المثل من معنى الغرابة قالوا : فلان مثله في الخير والشر ، فاشتقوا منه صفة للعجيب الشأن. فإن قلت : كيف مثلت الجماعة بالواحد؟ قلت : وضع الذي موضع الذين ، كقوله : ﴿وَحُضِّنْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ والذي سوغ

وضع الذي موضع الدين ، ولم يجز وضع القائم موضع القائمين ولا نحوه من الصفات أمران : أحدهما : أنّ «الذي» لكونه وصلة إلى وصف كل معرفة بجملة ، وتكاثر وقوعه في كلامهم ، ولكونه مستطالا بصلته ، حقيق بالتخفيف ، ولذلك نهكوه بالحذف فحذفوا ياءه ثم كسرتة ثم اقتصروا به على اللام وحدها في أسماء الفاعلين والمفعولين. والثاني : أن جمعه ليس بمنزلة جمع غيره بالواو والنون. وإنما ذاك علامة لزيادة الدلالة. ألا ترى أن سائر الموصولات لفظ الجمع ، والواحد فيهن واحد. أو قصد جنس المستوقدين. أو أريد الجمع أو الفوج الذي استوقد ناراً. على أنّ المنافقين وذواتهم لم يشبهوا بذات المستوقد حتى يلزم منه تشبيه الجماعة بالواحد ؛ إنما شبهت قصتهم بقصة المستوقد. ونحوه قوله : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾ ، وقوله : ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾. ووقود النار : سطوعها وارتفاع لهبها. ومن أخواته : وقل في الجبل إذا صعد وعلا ، والنار : جوهر لطيف مضيء حارّ محرق. والنور : ضوءها وضوء كل نير ، وهو نقيض الظلمة. واشتقاقها من نار ينور إذا نفر ؛ لأنّ فيها حركة واضطراباً ، والنور مشتق منها. والإضاءة : فرط الإنارة. ومصدق ذلك قوله : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً﴾ ، وهي في الآية متعدية. ويحتمل أن تكون غير متعدية مسندة إلى ما حوله. والتأنيث للحمل على المعنى ؛ لأنّ ما حول المستوقد أماكن وأشياء. ويعضده قراءة ابن أبي عبلة (ضاءت). وفيه وجه آخر ، وهو أن يستتر في الفعل ضمير النار. ويجعل إشراق ضوء النار حوله بمنزلة إشراق النار نفسها ، على أنّ ما مزيدة أو موصولة في معنى الأمكنة. و ﴿حَوْلَهُ﴾ نصب على الظرف وتأليفه للدوران والإطافة. وقيل للعام : حول ؛ لأنه يدور. فإن قلت : أين جواب لما؟ قلت : فيه وجهان : أحدهما أن جوابه ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾. والثاني : أنه محذوف كما حذف في قوله : ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾. وإنما جاز حذفه لاستطالة الكلام مع أمن الإلباس للدالّ عليه ، وكان الحذف أولى من الإثبات لما فيه من الوجازة ، مع الإعراب عن الصفة التي حصل عليها المستوقد بما هو أبلغ من اللفظ في أداء المعنى ، كأنه قيل : فلما أضاءت ما حوله خمدت فبقوا خابطين في ظلام ، متحيرين متحسرين على فوت الضوء ، خائبين بعد الكدح في إحياء النار. فإن قلت : فإذا قدّر الجواب محذوفا فبم يتعلق ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾؟ قلت : يكون كلاماً مستأنفاً. كأنهم لما شبهت حالهم بحال المستوقد الذي طفئت ناره ، اعترض سائل فقال : ما بالهم قد أشبهت حالهم حال هذا المستوقد؟ فقليل له : ذهب الله بنورهم. أو يكون بدلاً من

جملة التمثيل على سبيل البيان. فإن قلت : قد رجع الضمير في هذا الوجه إلى المنافقين فما مرجعه في الوجه الثاني؟^(١) قلت : مرجعه الذي استوقد ؛ لأنه في معنى الجمع. وأما جمع هذا الضمير وتوحيده في : ﴿حَوْلَهُ﴾ ، فللحمل على اللفظ تارة ، وعلى المعنى أخرى. فإن قلت : فما معنى إسناد الفعل إلى الله تعالى في قوله : ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾؟ قلت : إذا طفت النار بسبب سماوي ريح أو مطر ، فقد أطفأها الله تعالى وذهب بنور المستوقد. ووجه آخر ، وهو أن يكون المستوقد في هذا الوجه مستوقد نار لا يرضاها الله. ثم إما أن تكون ناراً مجازية كنار الفتنة والعداوة للإسلام ، وتلك النار متقاصرة مدّة اشتعالها قليلة البقاء. ألا ترى إلى قوله : ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ ، وإما ناراً حقيقية أوقدها الغواة ليتوصلوا بالاستضاءة بها إلى بعض المعاصي ، ويتهادوا بها في طرق العبث ، فأطفأها الله وخيب أمانيتهم. فإن قلت : كيف صح في النار المجازية أن توصف بإضاءة ما حول المستوقد؟ قلت : هو خارج على طريقة المجاز المرشح فأحسن تدبره. فإن قلت : هلا قيل ذهب الله بضوئهم؟ لقوله : ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ﴾؟ قلت : ذكر النور أبلغ ؛ لأنّ الضوء فيه دلالة على الزيادة. فلو قيل : ذهب الله بضوئهم ، لأوهم الذهاب بالزيادة وبقاء ما يسمى نوراً ، والغرض إزالة النور عنهم رأساً وطمسه أصلاً. ألا ترى كيف ذكر عقيبهِ ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ والظلمة عبارة عن عدم النور وانطماسه ، وكيف جمعها ، وكيف نكرها ، وكيف أتبعها ما يدل على أنها ظلمة مبهمة لا يتراءى فيها شبحان وهو قوله ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾. فان قلت : فلم وصفت بالإضاءة؟ قلت : هذا على مذهب قولهم : للباطل صولة ثم يضمحل. ولريح الضلالة عصفة ثم تخفت ، ونار العرفج مثل لنزوة كل طماح. والفرق بين أذهبه وذهب به ، أن معنى أذهبه : أزاله وجعله ذاهباً. ويقال : ذهب به إذا استصحبه ومضى به معه. وذهب السلطان بماله : أخذه ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ ، ﴿إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾. ومنه : ذهبت به الخيلاء. والمعنى : أخذ الله نورهم وأمسكه ، (وما يمسك فلا مرسل له) فهو أبلغ من الإذهاب. وقرأ اليماني : أذهب الله نورهم. وترك : بمعنى طرح وخلي ، إذا علق بواحد ، كقولهم : تركه ترك ظي ظله. فإذا علق بشيئين كان مضمناً معنى صير ، فيجري مجرى أفعال القلوب كقول عنترة :

(١) قوله «فما مرجعه في الوجه الثاني» لعله السابق. (ع)

فَتَرَكْتُهُ جَزَرَ السَّبَّاحِ يُشْنُهُ (١)

ومنه قوله : ﴿وَتَرَكْتُهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ أصله : هم في ظلمات ، ثم دخل ترك فنصب الجزأين. والظلمة عدم النور. وقيل : عرض ينافي النور. واشتقاقها من قولهم : ما ظلمك أن تفعل كذا : أى ما منعك وشغلك ، لأنها تسدّ البصر وتمنع الرؤية. وقرأ الحسن (ظلمات) بسكون اللام وقرأ اليماني (في ظلمة) على التوحيد. والمفعول الساقط من (لا يبصرون) من قبيل المتروك المطروح الذي لا يلتفت إلى إخطاره بالبال ، لا من قبيل المقدر المنوي ، كأنّ الفعل غير متعدّ أصلاً ، نحو ﴿يَعْمَهُونَ﴾ في قوله : ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. فإن قلت : فيم شبهت حالهم بحال المستوقد؟ قلت : في أنهم غب الإضاءة خبطوا في ظلمة وتوزّطوا في حيرة. فان قلت : وأين الإضاءة في حال المنافق؟ وهل هو أبداً إلا حائر خابط في ظلماء الكفر؟ قلت : المراد ما استضاءوا به قليلاً من الانتفاع بالكلمة المجرة على ألسنتهم ، ووراء استضاءتهم بنور هذه الكلمة ظلمة النفاق التي ترمى بهم إلى ظلمة سخط الله وظلمة العقاب السرمد. ويجوز أن يشبه بذهاب الله بنور المستوقد اطلاع الله على أسرارهم وما افتضحوا به بين المؤمنين واتسموا به من سمة النفاق. والأوجه أن يراد الطبع ، لقوله : ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمِّيٌّ﴾. وفي الآية تفسير آخر : وهو أنهم لما وصفوا بأنهم اشتروا الضلالة بالهدى ، عقب ذلك بهذا التمثيل ليمثل هداهم الذي باعوه بالنار المضيفة ما حول المستوقد ، والضلالة التي اشتروها وطبع بها على قلوبهم بذهاب الله بنورهم وتركه إياهم في الظلمات. وتنكير النار للتعظيم. كانت حواسهم سليمة ولكن لما سدّوا عن الإصاخة إلى الحق مسامعهم ، وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم ، وأن ينظروا ويتبصروا بعيونهم جعلوا كأنما أيفت مشاعرهم وانتقضت بناها التي بنيت عليها للإحساس والإدراك كقوله :

(١) فشككت بالـرمح الأصـم ثيابـه ليس الكـريم علـى القنـا بمحـرم
فتركته جـزر السـبـاح ينشـنه يقضـ من حـسن بنانـه والمعـصـم

لعنّرة بن شداد العبسي من معلقته. يقول : فخرقت بالرمح اليابس الصلب ثيابه ، أى قلبه وأحشائه ، فهي كناية عنها. أو شككت ثيابه بمعنى نظمتها ببدنه بإدخال الرمح فيها. ويروى : إهابه ، أى جلده. وليس الكريم ... إلى آخره : اعتراض دال على أن عادة الكرام أن يجودوا بكل شيء حتى بالأرواح للرماح. وفيه نوع تهكم. فتركته : أى صيرته. جزر السباع. بالتحريك. أى نصيبها وطعمتها من اللحم. ونهشه وناشه : تناوله بفمه وكدمه. وقضمه يقضمه ، من بابى علم وضرب : عضه بمقدم أسنانه. فقوله «يقضمن» بدل. وعبر بالحسن عن الشيء الحسن مبالغة : أى يأكلن بنانه الحسن ومعصمه الحسن. ويروى بدل هذا الشطر : ما بين قلة رأسه والمعصم. وما زائدة ، و «بين» ظرف للنوش. ويجوز أن «ما» موصولة بدل من ضمير المفعول. وقلة الرأس : أعلاه ، كقلة الجبل وقتته.

صُم إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرْتُ بِهُ وَإِنْ ذُكِرْتُ بِسُوءٍ عَنْهُمْ أُذُنُوا^(١)
أَصَمُّ عَمَّا سَاءَهُ سَمِيعٌ

أَصَمُّ عَنِ الشَّيْءِ الَّذِي لَا أَرِيْدُهُ وَأَسْمَعُ خَلْقِ اللَّهِ حِينَ أَرِيْدُ^(٢)
فَأَصَمْتُ عَنْ رَأً وَأَعْمَيْتُهُ عَنْ الْجُودِ وَالْفَخْرِ يَوْمَ الْفَخَارِ^(٣)

فإن قلت : كيف طريقته عند علماء البيان؟ قلت : طريقة قولهم «هم ليوث» للشجعان ، وبحور للأسخياء. إلا أنّ هذا في الصفات ، وذاك في الأسماء ، وقد جاءت الاستعارة في الأسماء والصفات والأفعال جميعاً. تقول : رأيت ليوثا ، ولقيت صما عن الخير ، ودجا الإسلام. وأضاء الحق. فإن قلت : هل يسمى ما في الآية استعارة؟ قلت : مختلف فيه. والمحققون على

(١) إن يسمعوا ريبة طاروا بفرحاً مئني ومما سمعوا ممن صالح دفنوا
صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا
جهلاً على وجبتاً عن عدوهم لبست الخلتان الجهل والجليل

لقعنب بن أم صاحب بن ضمرة. وضمة أبوه. وأم صاحب : كنية أمه. يقول : إن يسمعوا. وروى : يأذنوا ، كيستمعوا وزنا ومعنى ، من جهتي كلمة بهتان وزور أذاعوها ، فكأنهم يطبّون بها بين الناس من فرحهم بما نقل عني. فالطيران استعارة مصرحة لذلك. قال ابن مالك تبعاً للفراء : ويجوز إجابة المضارع بالماضي وإن منعه الجمهور في الاختيار. وأي شيء سمعوه من قول صالح كتموه ، فالدفن استعارة تصريحية أيضاً. وهم صم : أي كالصم ، فهو تشبيه بليغ واستعارة على الخلاف. وإن ذكرت عندهم بسوء أذنوا وأنصتوا. ويروى «سبة» بالضم : ما يسب به. وقد يروى : سباً ، بتحتية ساكنة فهمزة. ويروى : وما يسمعوا. ويروى : صموا ، على لفظ الماضي ، بدل صم. ويروى بسوء كلهم أذن : أي فكلهم أذن ؛ فهو على تقدير الفاء ، لأنه جواب الشرط. ويحتمل أنه على التقديم والتأخير : أي كلهم أذن إن ذكرت بسوء وهو أنسب بما قبله. وجعلهم نفس الأذن مبالغة. ويجوز أن الأذن وصف يقع على الواحد والمتعدد ، وذلك لجهلهم وبأسهم على ، وجبنهم وضعفهم عن عدوهم. وقيل : هو على تقدير جمعوا جهلاً. والخلتان الخصلتان. والجليل بضم الجيم وإطاب بالتوشع ، لأنه أتى بمثنى وفسره باسمين ثانيهما معطوف على الأول وهو حسن.

(٢) صم صمما ، كتعب تعباً. فأصم . بفتح الصاد . فعل مضارع. ولو جعلته اسماً على الخيرية لضمير محذوف لكانت مناسبة لأسمع المعطوف عليه. والمعنى أن حالي تكون كحال الأصم ؛ فهو مجاز عن ذلك. وأسمع : أي أفعل بمقتضى السماع ، فهو مجاز أيضاً. ويجوز أنه كناية. يقول : لا أستمع لما أكره. وأسمع كلام خلق الله حين أريده ، بأن يكون محبوباً إلى ، أو حين أريد السماع.

(٣) يقول : لما أظهرت مفاخرى ومكارمي ، أصممت عمراً : أي صيرته كالأصم. وأعميته : أي صيرته كالأعمى فالصمم والعمي : استعارتان مصرحتان. والمراد أجمته وأسكته عن الكلام في الفخر والجلود حين مفاخرتي إياه. وقيل أصممته وأعميته : وجدته أصم ووجدته أعمى : أي كأنه كذلك على ما مر.

تسميته تشبيهاً بليغاً لا استعارة ؛ لأنّ المستعار له مذكور وهم المنافقون. والاستعارة إنما تطلق حيث يطوى ذكر المستعار له ، ويجعل الكلام خلوّاً عنه صالحاً لأن يراد به المنقول عنه والمنقول إليه ، لو لا دلالة الحال أو فحوى الكلام ، كقول زهير :

لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السِّلَاحِ مَقْدَفٍ لَّهُ لَيْدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقْلَمِ (١)

ومن ثم ترى المفلقين السحرة منهم كأهم يتناسون التشبيه ويضربون عن توهمه صفحاً. قال أبو تمام :

وَيُضْمَدُ حَيِّي يَطُّ نَّ الْجَهْلُ وَلُ بَأَنَّ لَّهُ حَاجَةً فِي السَّ مَاءِ (٢)

وبعضهم :

لَا تَحْسَبُوا أَنَّ فِي سِرِّهِ رِجَالَهُ رَجُلًا فَفِيهِ عَيْتٌ وَنَيْتٌ مُسْتَبِيلٌ مُشْتَبِلٌ (٣)

(١) فشدد فلهم يفزع بيوتاً كثيرة لىدى حىث ألقىت رحله أماً قشعم لىدى أسد شاكي السلاح مقذف لىده لىد أظفاره لم تقلم

لزهير بن أبي سلمى من معلقته يمدح حصين بن ضمضم بأنه شد على عدوه بحسن تدبير فلم يفزع بيوتاً كثيرة. أو المعنى شد عليه وحده ، فلم يفزع بيوتاً ، أى أهل بيوت تساعده. و «حيث» بدل من «لدى» ويحتمل أن لدى لمكان مبهم مضاف لحيث المعنى بإضافته للجملة. وأم قشعم : اسم للمنية. شبهها بالمسافر على طريق المكنية. والرحل تخيل و «لدى» الثاني بدل من الأول. وجرد من الممدوح لكماله في الشجاعة شخصاً آخر ، فاستعار له الأسد استعارة تصريحية. وشاكي : أى تام السلاح تجريد ؛ لأنه يلائم المشبه. قال الفراء : هو مقلوب شايك : أى ذى شوكة وحدة. ومقذف : أى ضخم ، كأنه قذف باللحم ورمى به. له لبد : أى شعور متلبدة على منكبيه. أظفاره لم تقلم : كل هذا ترشيح لأنه يلائم المشبه به. وفي قوله أظفاره لم تقلم : نوع من الاطناب يسمى الإيغال ختم به البيت للمبالغة في التشبيه ، كقول الخنساء في أخيها صخر : كأنه علم في رأسه نار.

(٢) لأبي تمام يمدح خالد بن يزيد الشيباني ويذكر أباه. فضمير «يصعد» ليزيد. واستعار الصعود من العلو الحسى للعلو المعنوي على طريق التصريح ، ثم بنى عليه ما ينبى على العلو في المكان ترشيحاً وتتميماً للمبالغة في التشبيه ، لأن ذلك الظن لا ينبى إلا على رؤيته صاعداً حقيقة. والظن . كالعلم . يتعدى بنفسه تارة وبالحرف أخرى. وخص الجهول ليفيد أن ذلك الظن خطأ ، ويشبه أن يكون تجريداً للاستعارة ، لكن أخفاه ظهور الترشيح. وأفاد السعد أن ذكر الجهول احتراز من توهم احتياج الممدوح والمقام ، لدعوى أنه في غاية الكمال. واشتهرت روايته لظن بالماضي ، وهو على تقدير القسم وقد : أى والله لقد ظن الجهول ذلك.

(٣) للزخشي. شبه الممدوح بالغيث في كثرة الخير والكرم ، وبالليث في كثرة الشجاعة ، واستعارها له على طريق الاستعارة التصريحية ، وبنى على ذلك نهي الناس عن أن يظنوا أن في ثوبه رجلاً ، للدلالة على تناسي التشبيه وادعاء الاتحاد. والمسبل : كثير الانسياب ، فهو راجع للغيث. والمسبل الذي كثرت أشباله : أى أولاده من الأسود ، فهو راجع لليث ، ففيه لف ونشر ، وفيه شبه التضاد حيث جمع بين ما يخشى وما يرجى. وفيه الجناس اللاحق بين غيث وليث ، وبين مسبل ومشبلى.

وليس لقائل أن يقول : طوى ذكرهم عن الجملة بحذف المبتدأ فأتسلق بذلك إلى تسميته استعارة لأنه في حكم المنطوق به ، نظيره قول من يخاطب الحجاج :

أَسَدٌ عَلَيَّ وَفِي الْحُرُوبِ نَعَامٌ فَتَخَاءُ تَنْفُرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ^(١)

ومعنى ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ أنهم لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه ، أو عن الضلالة بعد أن اشتروها ، تسجيلا عليهم بالطبع. أو أراد أنهم بمنزلة المتحيرين الذين بقوا جامدين في مكانهم لا يرحون ، ولا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون؟ وكيف يرجعون إلى حيث ابتدءوا منه؟

﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُرٌّ يُجْعَلُونَ أَصَابِعُهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٠)

ثم ثنى الله سبحانه في شأنهم بتمثيل آخر ليكون كشفا لحالهم بعد كشف ، وإيضاحا غب إيضاح. وكما يجب على البليغ في مظان الإجمال والإيجاز أن يجمل ويوجز ؛ فكذلك الواجب عليه في موارد التفصيل والإشباع أن يفصل ويشبع. أنشد الجاحظ :

(١) أَسَدٌ عَلَيَّ وَفِي الْحُرُوبِ نَعَامٌ فَتَخَاءُ تَنْفُرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ

هَلَاكَ رَرَّتْ عَلَيَّ غَزَالَةٌ فِي السُّوْغِي بَلْ كَانَتْ قَلْبِكَ فِي جَنَاحِي طَائِر

لعمران بن حطان قاتل الحجاج. روى أن شبيب الخارجي وأمه جهيزة وامراته غزالة ، كانوا في غاية الفراسة فدخلوا الكوفة في ألف وثلاثين فارسا ، وفيها حينئذ الحجاج ومعه ثلاثون ألف مقاتل فحاربوه سنة كاملة حتى هرب منهم فعيّره عمران بذلك : أى أنت كالأسد ، ولا يصح استعارة عند الجمهور لنية ذكر المشبه. وجوزها التفتازاني على أن المذكور فرد هن أفرادها لا عينه. و «على» متعلق بأسد ، لما فيه من معنى الشجاعة والقوة ، و «في الحروب» متعلق بنعام ، لما فيه من معنى الجبن والضعف. وهذا ظاهر على مذهب العلامة ، لأن الأسد مستعار لمطلق شجاع ، والنعام لمطلق جبان. وأما على مذهب الجمهور فهما جامدان لبقائهما على حقيقتيهما ، إلا أن يقال : لما وقع في مقام التشبيه لو حظ فيهما الوصف الذي بنيت عليه المشابهة. ويجوز تعلقيهما بمعنى التشبيه ، أو بمحذوف حال من المبتدأ المحذوف على رأى سيبويه. والفتح . بالتحريك . لين وانفراج في الأصابع والأجنحة. والفتحاء : وصف منه. وتنفر : صفة نعامة ، أى تفزع وتلعب خوفا من أدنى صوت تسمعه. وصفها بغاية الضعف ليدل على أن المشبه كذلك ثم وبخه بقوله : هلاكررت على تلك المرأة في الحرب. لم تفعل ذلك بل كان قلبك يخضق ويضطرب ، كأنه في جناحي طائر ، وهو من التشبيه البليغ. ويروى : هلا برزت إلى غزالة.

يُؤْخَذُونَ بِالْخُطِّ الطَّيِّبِ وَتَارَةً وَخَسِيَ الْمَلَا حِظَّ خَيْفَةَ الرُّقْبَاءِ (١)

ومما ثنى من التمثيل في التنزيل قوله : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ، وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾
وألا ترى إلى ذى الرمة كيف صنع في قصيدته؟ :

أَذَاكَ أَمْ نَمَشَّشَ بِالْوَشِّ يَ أَكْرَعُهُ

أَذَاكَ أَمْ خَاضَ بِالسِّبِّ يَ مَرْتَعُهُ

فإن قلت : قد شبه المنافق في التمثيل الأول بالمستوقد نارا ، وإظهاره الإيمان بالإضاءة ، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار ، فما ذا شبه في التمثيل الثاني بالصيب وبالظلمات وبالرعد وبالبرق وبالصواعق؟ قلت : لقائل أن يقول : شبه دين الإسلام بالصيب ، لأنّ القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر. وما يتعلق به من شبه الكفار بالظلمات. وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق. وما يصيب الكفرة من الأفزع والبلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق. والمعنى : أو كمثل ذوى صيب. والمراد كمثل قوم أخذتهم السماء على هذه الصفة فلقوا منها ما لقوا. فإن قلت : هذا تشبيه أشياء بأشياء فأين ذكر المشبهات؟ وهلا صرح به كما

(١) أنشده الجاحظ. وروى «يرمون» استعار الرمي لإخراج الكلام من الفم بكثرة على طريق التصريح.

ويقال : وحى له ، وإليه وحيا ، وأوحى له وإليه إجماء : إذا ألقى إليه الكلام ، أو أشار له به ، وألهمه إياه. فالوحى مصدر وحى أو اسم مصدر أوحى ، واللحظ : الإشارة بطرف العين بمنة أو يسرة. واللاحظ وصف بحسب الأصل ، وهو اسم لطرف العين. ولذلك جمع على لواحظ ، ونسب الوحى إليها لأنها آلة. ويجوز أنه جمع لاحظة عنق للنسائي أى يتكلمون بالخطب الطوال تارة عند الأمن ، ويوحون وحيا باللواحق تارة أخرى ، لخوفهم من الرقباء ، فلكل مقام عندهم مقال.

(٢) أذاك أم نمشش بالوشش يَ أَكْرَعُهُ مسفع الخسد عداد ناشط شبيب

أذاك أم خاضب بالسبب يَ مرتعه أبو ثلاثين أمسى وهو منقلب

لذي الرمة يصف ناقته شبهها أولا بحمار الوحش ، ثم قال : أذاك الحمار تشبهه ناقتي أم تمش. والتمش بالتحريك . : تفرق اللون. وكحذر : متفرق اللون. والوشي : لون يخالف لون بقية الشيء. والأكرع : جمع كراع وهو الساق والمسفع : الأسود. من السفعة. وهي السواد. والناشط : الخارج من أرض لأخرى. والشبيب. كحذر أيضا. المسن من بقر الوحش. ثم قال أذاك الثور يشبهها ، أم خاضب؟ وهو الظليم الذي احمرت ساقاه ، أو اصفرتا من أكل الربيع. والسى : المستوى من الأرض ، واسم موضع بعينه. والمرتع : مصدر أو اسم مكان مطروف في أوسع منه. ومنقلب : راجع من المرعى إلى أفراخه الثلاثين. فيكون أسرع ما يكون ، فهي كذلك سريعة السير. وأكرعه فاعل بالظرف أو فاعل نمش. ومرتعه : فاعله بالظرف ، أو مبتدأ والظرف خبر له.

في قوله : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ ، وفي قول امرئ القيس :

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَىٰ وَكْرِهَا الْعُنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي^(١)

قلت : كما جاء ذلك صريحاً فقد جاء مطويا ذكره على سنن الاستعارة ، كقوله تعالى : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ ، ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾. والصحيح الذي عليه علماء البيان لا يتخطونه : أنَّ التمثيلين جميعا من جملة التمثيلات المركبة دون المفارقة ، لا يتكلف الواحد واحد شيء يقدر شبهه به ، وهو القول الفحل والمذهب الجزل ، بيانه : أنَّ العرب تأخذ أشياء فرادى ، معزولا بعضها من بعض ، لم يأخذ هذا بحجزة ذاك فتشبهها بنظائرها ، كما فعل امرؤ القيس وجاء في القرآن ، وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضاممت وتلاصقت حتى عادت شيئا واحدا ، بأخرى مثلها كقوله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ﴾ الآية. الغرض تشبيه حال اليهود في جهلها بما معها من التوراة وآياتها الباهرة ، بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة ، وتساوى الحالتين عنده من حمل أسفار الحكمة وحمل ما سواها من الأوقار ، لا يشعر من ذلك إلا بما يمرّ بدفيه من الكدّ والتعب. وكقوله : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ المراد قلة بقاء زهرة الدنيا كقلة بقاء الخضر. فأما أن يراد تشبيه الأفراد بالأفراد غير منوط بعضها ببعض ومصيرة شيئا واحدا ، فلا. فكذلك لما وصف وقوع المنافقين في ضلاللتهم وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة شبّهت حيرتهم وشدة الأمر عليهم بما يكابد من طفئت ناره بعد إيقادها في ظلمة الليل ، وكذلك من أخذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق. فإن قلت : الذي كنت تقدّره في المفروق من التشبيه من حذف المضاف وهو قولك «أو كمثّل ذوى صيب» هل تقدّر مثله في المركب منه؟ قلت : لو لا طلب

(١) لامرئ القيس يصف العقاب وهي تأكل صغار الطير إلا قلوبها ، فلذلك كثرت عندها ، ويصف نفسه بالشجاعة ، حيث وصل إلى رؤية ذلك فقال : كأن قلوب الطير حال كونها رطبا بعضها ويابسا بعضها ، حال كونها عند وكر العقاب . أى عشها . : العناب ، وهو ثمر أحمر رطب ، فهو راجع للبعض الرطب. والحشف : الجاف الرديء من التمر البالي الهالك ، فهو راجع للبعض اليابس ، ففيه لف ونشر مرتب ، وفيه طباق التضاد بين الرطب واليابس. ويجوز أن رطباً ويابسا نصب على البدل من قلوب الطير ، أى كأن الرطب واليابس منها : العناب والحشف. وبدل البعض لا يجب فيه ضمير يرجع للبدل منه ، وإن كانت الأولى ذلك.

الراجع في قوله تعالى : ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعُهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ ما يرجع إليه لكنت مستغنيا عن تقديره ؛ لأني أراعى الكيفية المنتزعة من مجموع الكلام فلا على أولى حرف التشبيه مفرد يتأتى التشبيه به أم لم يله. ألا ترى إلى قوله : ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الآية ، كيف ولى الماء الكاف ، وليس الغرض تشبيه الدنيا بالماء ولا بمفرد آخر يتمحل لتقديره. ومما هو بين في هذا قول لبيد :

وَمَا النَّاسُ إِلَّا كَالَّذِي يَرِى وَأَهْلُهُ
بِمَا يَرِى حُلُوهَا وَعَظْمُهَا بَلَاقِعُ^(١)

لم يشبه الناس بالديار ، وإنما شبه وجودهم في الدنيا وسرعة زوالهم وفنائهم ، بحلول أهل الديار فيها ووشك نوحهم عنها ، وتركها خلاء خاوية. فان قلت : أى التمثيلين أبلغ؟ قلت : الثاني ، لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر وفضاعته ، ولذلك أخر ، وهم يتدرجون في نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ. فإن قلت : لم عطف أحد التمثيلين على الآخر بحرف الشك؟ قلت : أو في أصلها لتساوى شيئين فصاعدا في الشك ، ثم اتسع فيها فاستعيرت للتساوى في غير الشك ، وذلك قولك : جالس الحسن أو ابن سيرين ، تريد أنهما سيان في استصواب أن يجالسا ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ ، أى الآثم والكفور متساويان في وجوب عصيانهما ، فكذلك قوله : ﴿أَوْ كَصِيبٍ﴾ معناه أن كيفية قصة المنافقين مشبهة لكيفيتى هاتين القصتين ، وأن القصتين سواء في استقلال كل واحدة منهما بوجه التمثيل ، فبأيتهما مثلتها فأنت مصيب ، وإن مثلتها بهما جميعا فكذلك. والصيب : المطر الذي يصبّ ، أى ينزل ويقع.

ويقال للسحاب : صيب أيضا. قال الشماخ :

وَأَسْحَمَ دَانٍ صَادِقِ الرَّعْدِ صَيْبٍ^(٢)

(١) لم يرد تشبيه الناس بالديار ذاتها ، وإنما أراد تشبيه حالهم مع الدنيا بحال الديار مع أهلها. وقوله : «وأهلها بها» جملة حالية. و «يوم حلوها» نصب بعامل المجرور قبله المحذوف. و «غدوا بلاقع» أى وهي في غد بلاقع ، جمع بلقع : أى قفر خالي. والشائع استعمال «الغد» كالكيد ، فظهرت واوه هنا على الأصل. وعبر بالغد ومراده به الزمن القريب ، كما يقال أفعله بكرة. والمراد بعد أيام قليلة ، فالجامع سرعة الفناء والزوال بعد البهجة والنضرة. ولك جعله من تشبيه المفرد بالمفرد بجامع أن الناس تكون فيها الأرواح ، فهي زاهية باهية ، ثم تنزع منها فتصير خالية خاوية كالدار تكون عامرة بأهلها فتصبح خرابا. وهذا على رفع أهلها. وأما على جره عطفاً على الديار فيتعين الأول ، ويكون «بها» متعلق بمحذوف حال من أهلها. والباء بمعنى «في» على التقديرين.

(٢) أَرَسَمَا جَدِيداً مِّن سَعَادٍ تَجَنَّبَ عَفَسَتْ رَوْضَةَ الْأَجْدَادِ مِنْهُ فَيَنْقُصُ

عَفَا آيَةً نَسَجَ الْجَنُوبَ مَعَ الصَّبَا وَأَسْحَمَ دَانَ صَادِقِ الْوَعْدِ صَيْبٌ

للسماخ. وقيل للنابعة الديباني وقيل للهيثم بن خوار. يقال : جنبه ، باعده أو أصاب جانبه. وعفى المنزل: .

جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴿١﴾. فان قلت : بم ارتفع ظلمات؟ قلت : بالظرف على الاتفاق لاعتماده على موصوف. والرعد : الصوت الذي يسمع من السحاب ، كأن أجرام السحاب تضطرب وتنتفض إذا حدثها الريح فتصوّت عند ذلك من الارتعاد. والبرق الذي يلمع من السحاب ، من برق الشيء بريقا إذا لمع. فان قلت : قد جعل الصيب مكانا للظلمات فلا يخلو من أن يراد به السحاب أو المطر ، فأيهما أريد فما ظلماته؟ قلت : أما ظلمات السحاب فإذا كان أسحم مطبقا فظلمتا سجمته وتطبيقه مضمومة إليهما ظلمة الليل. وأما ظلمات المطر فظلمة تكاثفه وانتساجه بتتابع القطر ، وظلمة إظلال غمامه مع ظلمة الليل. فان قلت : كيف يكون المطر مكانا للبرق والرعد وإنما مكانهما السحاب؟ قلت إذا كانا في أعلاه ومصبه وملتبسين في الجملة فهما فيه. ألا تراك تقول : فلان في البلد ، وما هو منه الا في حيز يشغله جرمه. فان قلت : هلا جمع الرعد والبرق أخذا بالأبلغ كقول البحري :

يَا عَارِضَ مُتَلَفِعًا بِرُودِهِ يَخْتَالُ بَيْنَ بُرُوقِهِ وَرُعُودِهِ ^(١)

وكما قيل ظلمات؟ قلت : فيه وجهان : أحدهما أن يراد العينان ، ولكنهما لما كانا مصدرين في الأصل . يقال : رعدت السماء رعداً وبرقت برقاً . ، روعي حكم أصلهما بأن ترك جمعهما وإن أريد معنى الجمع. والثاني : أن يراد الحدثان كأنه قيل : وإرعاد وإبراق. وإنما جاءت هذه الأشياء منكرات ، لأن المراد أنواع منها ، كأنه قيل : فيه ظلمات داجية ، ورعد قاصف ، وبرق خاطف. وجاز رجوع الضمير في يجعلون إلى أصحاب الصيب مع كونه محذوفاً قائماً مقامه الصيب ، كما قال : ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ ، لأن المحذوف باق معناه وإن سقط لفظه. ألا ترى إلى حسان كيف عوّل على بقاء معناه في قوله :

(١) يا عارض متلفعاً بروده يختال بين بروقه ورعوده
إن شئت عادت لأرض تجعد عوده فحللت بين عقيقه وزروده
لتجود في ربيع بمنعرج اللوى قفقر تبدل وحشة من غيده

للبحري يخاطب السحاب لأنه شبهه لتكاثفه وتراكمه بإنسان متلفع بثيابه. وإثبات التلفع بالبرود والاختيال تخييل وبنى على ذلك إثبات المشيئة وجمع البرق والرعد مع أنهما مصدران للدلالة على الكثرة والتعدد المرات. والعقيق والزود موضعان يعينهما. والمنعرج . على زنة اسم المفعول . المكان الذي ينعطف فيه السائر بمنة ويسرة. واللوى الرمل المتوى. والأغيد : الناعم الجميل ، مؤنثه غيداء ، والغيد . كالبيض . جمعه . والجود : الأمطار .

يلتمس من السحاب المعترض في الأفق أن يمطر في ربيع الأحبة بالمكان المنعطف ، ثم وصف الربيع بأنها قفر لا نبات فيه ، وصار فيه وحشة بالوحوش بدل الأنس بالأحبة.

يُسْقَوْنَ مِنْ وَرْدٍ بَرِيضٍ عَلَيْهِمْ بِرُزْدِي يُصَاقِقُ بِالرَّحِيْقِ السَّلْسَلِ (١)

حيث ذكر يصفق ؛ لأن المعنى ؛ ماء بردي ، ولا محل لقوله : ﴿يَجْعَلُونَ﴾ لكونه مستأنفا ، لأنه لما ذكر الرعد والبرق على ما يؤذن بالشدة والهول ، فكأن قائله قال : فكيف حالهم مع مثل ذلك الرعد؟ فقيل : ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ ثم قال : فكيف حالهم مع مثل ذلك البرق؟ فقيل : يكاد البرق يخطف أبصارهم. فان قلت : رأس الأصبع هو الذي يجعل في الأذن (٢) فهلا قيل أناملهم؟ قلت : هذا من الاتساعات في اللغة التي لا يكاد الحاصر يحصرها ، كقوله : ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ ، ﴿فَأَقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ أراد البعض الذي هو إلى المرفق والذي إلى الرسغ. وأيضا ففي ذكر الأصابع من المبالغة ما ليس في ذكر الأنامل. فان قلت : فالأصبع التي تسدّ بها الأذن أصبع خاصة ، (٣) فلم ذكر الاسم العام دون الخاص؟ قلت : لأن السبابة

(١) الله در عصاة نادم تهم يوم يجلس في الزمان الأول

يسقون من ورد البريص عليهم بردي يصفق بالرحيق السلسل

لحسان بن ثابت يذكر أيام ملوك الشام الغسانيين. والعصاة : الجماعة على رأى واحد. وجلق . بالتشديد . اسم أعجمى لبلد. «وفي الزمان» متعلق بمحذوف صفة ليوم الواقع ظرفا للمنادمة ، وهي المحادثة على الشراب. والبريص اسم واد. ويروى . بفتحتان . : علم لنهر بدمشق وحبل بالحجاز واسم للبحر. ويصفق : أى يمتزج. وقيل «يتصفى» ينقله من إناء إلى آخر. ولعله رواه «يصفى» من التصفية. والرحيق : الصافي. والسلسل : السهل المساغ «ومن ورد» مفعول أول ، و «عليهم» قيل متعلق بمحذوف حال من الضمير المنوي في ورد. والظاهر أنه متعلق بورد أى أقبل ونزل. و «بردي» مفعول ثان. و «يصفق» جملة حالية. والمعنى : أن كل من ورد عليهم البريص يسقونه ماء بردي حال كونه يصفق على ما مر. ويجوز أن يكون معناه تتلاطم أمواجه فالباء للملابسة. ويحتمل أن فيه قلباً. والأصل يصفق الرحيق السلسل به ، ولعل ذلك كناية عن كرمهم لإكثارهم العطاء. وقيل الرحيق السلسل الخمر الصافية السهلة. والمعنى على التشبيه ، أى بماء كأنه الخمر. والظاهر بقاءه على حقيقته ، ويكون ذلك قبل تحريمها وهو أوقع في مقام المدح. فان قلت : «بردي» مؤنث ، فلم قال «يصفق» بالتذكير؟ قلت : هناك مضاف مذكر حذف ، فقام المضاف إليه مقامه في الاعراب والتذكير. والأصل : ماء بردي.

(٢) قال محمود رحمه الله : «فان قلت المفعول من الأصابع في الأذن رءوسها ... الخ» قال أحمد رحمه الله : لأن فيه إشعاراً بأنهم يبالغون في إدخال أصابعهم في آذانهم فوق العادة المعتادة في ذلك فرارا من شدة الصوت.

(٣) قال محمود رحمه الله : «فان قلت : فالأصبع التي تسدّ بها الأذن ... الخ». قال أحمد رحمه الله : لا ورود لهذين السؤالين. أما الأول فلأنه غير لازم أن يسدرا في تلك الحالة بالسبابة ولا بد فإنها حالة حيرة ودهش ، فأى أصبع اتفق أن يسدوا بها فعلوا غير معرجين على ترتيب معتاد في ذلك ، فذكر مطلق الأصابع أدل على الدهش والحيرة. أو فلعلهم يؤثرون في هذا الحال سد آذانهم بالوسطى ، لأنها أصم للأذن وأحجب للصوت فلم يلزم اقتصرهم على السبابة. وأما السؤال الثاني فمفرع على الأول ، وقد ظهر بطلانه ؛ وأيضا ففيه مزيد ركاقة ، إذ الغرض تشبيه حال المنافقين بحال أمثالهم من ذوى الحيرة ، فكيف يليق أن يكنى عن أصابعهم بالمسبحات؟ ولعل ألسنتهم ما سبحت .

فعالة من السب فكان اجتنابها أولى بآداب القرآن. ألا ترى أنهم قد استبشعوها فكنوا عنها بالمسبحة والسباحة والمهللة والدعاء. فان قلت : فهلا ذكر بعض هذه الكنايات؟ قلت : هي ألفاظ مستحدثة لم يتعارفها الناس في ذلك العهد ، وإنما أحدثوها بعد. وقوله ﴿مِنَ الصَّوَاعِقِ﴾ متعلق بيجعلون ، أى : من أجل الصواعق يجعلون أصابعهم في آذانهم ، كقولك : سقاه من العيمة ^(١). والصاعقة : قصفة رعد تنقض معها شقة من نار ، قالوا : تنقذ من السحاب إذا اصطكت أجرامه ، وهي نار لطيفة حديدة. لا تمرّ بشيء إلا أتت عليه ، إلا أنها مع حدتها سريعة الخمود. يحكى أنها سقطت على نخلة فأحرقت نحو النصف ثم طفئت. ويقال : صعقته الصاعقة إذا أهلكته ، فصعق ؛ أى مات إما بشدة الصوت أو بالإحراق. ومنه قوله تعالى : ﴿وَحَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾. وقرأ الحسن : من الصواقع ؛ وليس بقلب للصواعق ، لأنّ كلا البناءين سواء في التصرف ، وإذا استويا كان كل واحد بناء على حياله. ألا تراك تقول : صعقه على رأسه ، وصقع الديك ، وخطيب مصقع : مجهر بخطبته. ونظيره «جذب» في «جذب» ليس بقلبه لاستوائهما في التصرف. وبنائها إما أن يكون صفة لقصفة الرعد ، أو للرعد ، والتاء مبالغة كما في الراوية ، أو مصدرا كالكاذبة والعافية. وقرأ ابن أبي ليلى : حذار الموت ، وانتصب على أنه مفعول له كقوله :

وَأَغْفِرُ عَوْرَاءَ الْكَرِيمِ إِحَارَةً ^(٢)

والموت فساد بنية الحيوان. وقيل : عرض لا يصح معه إحساس معاقب للحياة. وإحاطة الله بالكافرين مجاز. والمعنى أنهم لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط به حقيقة. وهذه الجملة

. الله قط. ثم إذا كان الغرض من التمثيل تصوير المعاني في الأذهان تصوير المحسوسات ، فذلك خليف بذكر الصرائح واجتناب الكنايات والرموز.

(١) قوله «سقاه من العيمة» هي شهوة اللبن ، وقيل شدة شهوته. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) وعوراء قد أعرضت عنها فلم تضمر وذى أود قومته فتقومه

وأغفر عوراء الكريم ادخاراه وأعرض عن شتم اللئيم تكرمه

لحاتم الطائي. وقيل للأحنف بن قيس. يقول : ورب عوراء ، أى كلمة قبيحة ، قد أعرضت عن المؤاخذة بما فلم تضمر. ورب ذى أود. أى اعوجاج. كالعصى المعوجة ، قومته وعدلته بالمخاربة فتقوم. وقسم الأعراض إلى قسمين : لكل منهما علة مخصوصة فقال : وأغفر عوراء الكريم ، أى قبيحته ، لأجل ادخارى إياه ، فادخاره : مفعول له نصب بأغفر ، وإن عرف بالاضافة. وأعرض عن شتمي للرجل اللئيم تكرمه منى كى لا أكون مثله. ويجوز أن المعنى : عن مؤاخذة اللئيم لشتمه لي تكرمه منى. فتكرما : مفعول نصب بأعرض. والقول بأن تكرمه علة لأعرض وأغفر : قول من لم يذق طعم الكلام.

اعتراض لا محل لها. والخطف : الأخذ بسرعة. وقرأ مجاهد (يخطف) بكسر الطاء ، والفتح أفصح وأعلى ، وعن ابن مسعود : يختطف. وعن الحسن : يخطف ، بفتح الياء والخاء ، وأصله يختطف. وعنه : يخطف ، بكسرها على إتباع الياء الخاء. وعن زيد بن علي : يخطف ، من خطف. وعن أبي : يختطف ، من قوله : ﴿يَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾. ﴿كَلِمًا أَضَاءَ لَهُمْ﴾ استئناف ثالث كأنه جواب لمن يقول : كيف يصنعون في تارتى خفوق البرق وخفيته؟ وهذا تمثيل لشدة الأمر على المنافقين بشدته على أصحاب الصيب وما هم فيه من غاية التحير والجهل بما يأتون وما يذرون ، إذا صادفوا من البرق خفقة ، مع خوف أن يخطف أبصارهم ، انتهزوا تلك الخفقة فرصة فخطوا خطوات يسيرة ، فإذا خفى وفتر لمعانه بقوا واقفين متقيدين عن الحركة ، ولو شاء الله لزداد في قصيف الرعد فأصمهم ، أو في ضوء البرق ^(١) فأعماهم. وأضاء : إما متعد بمعنى : كلما نَوَّرَ لهم ممشى ومسلكا أخذوه والمفعول محذوف. وإما غير متعد بمعنى : كلما لمع لهم ﴿مَشْيُوا﴾ في مطرح نوره وملقى ضوئه. وبعضه قراءة ابن أبي عبلة : كلما ضاء لهم والمشي : جنس الحركة المخصوصة. فإذا اشتد فهو سعى. فإذا ازداد فهو عدو. فإن قلت : كيف قيل مع الإضاءة : كلما ، ومع الإظلام : إذا؟ قلت ؛ لأنهم حراس على وجود ما همهم به معقود من إمكان المشي وتأتيه ، فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها ، وليس كذلك التوقف والتحبس. وأظلم : يحتمل أن يكون غير متعد وهو الظاهر ، وأن يكون متعديا منقولاً من ظلم الليل ، ^(٢) وتشهد له قراءة يزيد بن قطيب : أظلم ، على ما لم يسم فاعله. وجاء في شعر حبيب ابن أوس :

هُمَّا أَظْلَمََا حَالِيَّ ثُمَّتَ أَجْلِيَا ظَلَامِيَهُمَا عَنْ وَجْهِهِ أَمْرَدَ أَشْيَبِ ^(٣)

(١) قوله «أو في ضوء البرق» لعله وفي. (ع)

(٢) قوله «منقولاً من ظلم الليل» في الصحاح «ظلم الليل بالكسر وأظلم» بمعنى ، عن الفراء (ع)

(٣) أحاولت إرشادى فعقلنى مرشدي أم اسـتمت تأديـبي فـدهرى مـؤدبي
همـا أظلمـا حـالـي ثـمـت أجـليـا ظلاميهما عن وجهه أمرد أشيب
شـجـي في حـلـوق الحـادثـات مشـرق بـه عـزـمـه في التـهـرات مـغـرب

لأبي تمام. ويقال لحبيب بن أوس. وحاول الشيء : أراده وحام حول تحصيله. واستام الشيء : قصده وتبع سماته وتعرفه بها. ويروى : أم اشتقت. وقوله «عن وجه أمرد أشيب» فيه تجريد ، أى عن وجه رجل أمرد كناية عن حسن الخلق. أشيب كناية عن جودة الرأى اللازمة لكمال الرجولية. والأول كناية عن الماضي في طرق الهزل. والثاني كناية عن الماضي في طرق الجد ، فلذلك اجتماعهما معا في زمان واحد. ويحتمل أنه شاب مع أنه أمرد من كثرة حوادث .

وهو وإن كان محدثا لا يستشهد بشعره في اللغة ، فهو من علماء العربية ، فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه. ألا ترى إلى قول العلماء : الدليل عليه بيت الحماسة ، فيقتنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه. ومعنى ﴿فَاقُمُوا﴾ وقفوا وثبتوا في مكانهم. ومنه : قامت السوق ، إذا ركدت وقام الماء : جمداً. ومفعول ﴿شَاءَ﴾ محذوف ، لأن الجواب يدل عليه. والمعنى : ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها ، ولقد تكاثر هذا الحذف في «شاء» و «أراد» لا يكادون يبرزون المفعول إلا في الشيء المستغرب كنحو قوله :

فَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَمًا لَبَكَيْتُهُ ^(١)

وقوله تعالى «لو أردنا أن نتخذ لهمو لاتخذناه من لدنا ، ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾. وأراد : ولو شاء الله لذهب بسمعهم بقصيف الرعد ، وأبصارهم بوميض البرق. وقرأ ابن أبي عبلة : لأذهب بأسماعهم ، بزيادة الباء كقوله : ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ﴾. والشيء : ما صح أن يعلم ويخبر عنه. قال سيويه . في ساقية الباب المترجم بباب مجارى أواخر الكلم من العربية . : وإنما يخرج التأنيث من التذكير. ألا ترى أن الشيء يقع على كل ما أخبر عنه من قبل أن يعلم أذكر هو أم أنثى؟. والشيء : مذكر ، وهو أعم العام : كما أن الله أخص الخاص يجرى على الجسم والعرض

. الدهر. والشجي : ما نشب في الخلق لا يصعد ولا ينزل. والمشرق المغرب : الذاهب شرقا وغربا. والمراد التعميم. والترهة : فارسي معرب بمعنى الطريق الصغيرة غير الجادة ، والجمع ترهات وتراربه. ثم استعير للباطل وصار اسما له ، والمعنى : إن أردت مرشدي فهو عقلي ، أو مؤدبي فدهري. فالاستفهام بمعنى الشرط مجازاً ، ويحتمل أنه توبيخي والفاء تعليلية لمحذوف ، أى لا ينبغي إرادة إرشادى ولا تأديبي ، فان دهري وعقلي تكفلا بذلك. وبين ذلك بقوله «هما أظلما» واستعمال أظلم متعديا لغة رديفة. وحالى : مفعول. والاظلام استعارة لتنغيص العيش وتكدير الخاطر. وأجلها : أزالا وكشفا ظلاميهما. والظلامان : استعارة للتكدر والتنغص. وقوله «شجي» بدل من الأمرد ، أى كالشجي. وشبه الحوادث بحيوانات لها حلوق على طريق المكنية والحلوق تخيل لذلك. والمعنى أن الحوادث صارت لا تؤثر فيه ومضى به عزمه في جميع طرق الهزل كما مضى به في الجد ، وبين مشرق مغرب طباق التضاد.

(١) ملكوت دموع العين حين رددتها إلى ناظرها والعين كالقلب تدمع ولما شئت أن أبكى دموعا لبيكتها عليه ولكون ساحة الصبر أوسع

لابن يعقوب إسحاق بن حسان الخنمي ، يرثى أبا الهيثم عامر بن عمار أمير عرب الشام. يقول : غلبت دموع عيني وقدرت عليها حين رددتها إلى مكانها. ويروى «ثم رددتها» والحال أنها تدمع دموعا كالقلب في الحمرة والحرقه ، أو بدمع على وجه التبعية للقلب. ويروى «فالعين في القلب» مبالغة في فكره وحزنه المضمحل فيه. وذكر مفعول المشيئة مع أنه صار في استعمالهم نسيا منسياً لأنه شيء مستغرب فحسن ذكره. وضمن «أبكى» معنى أدمع ، فعدها إلى الدم مع أنه لا يتعدى إلا إلى المبكى عليه. وشبه الصبر بكرم أو ببيت له ساحة على سبيل المكنية. والمراد أنه يترك الجزع ويعدل إلى الصبر فيتصف به.

والقديم. تقول : شيء لا كالأشياء ؛ أى معلوم لا كسائر المعلومات ، وعلى المعدوم والمحال فان قلت : كيف قيل ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وفي الأشياء ما لا تعلق به للقادر كالمستحيل ^(١) وفعل قادر آخر ^(٢)؟ قلت : مشروط في حد القادر أن لا يكون الفعل مستحيلا ؛ فالمستحيل مستثنى في نفسه عند ذكر القادر على الأشياء كلها ، فكأنه قيل : على كل شيء مستقيم قدير. ونظيره : فلان أمير على الناس أى على من وراءه منهم ، ولم يدخل فيهم نفسه وإن كان من جملة الناس. وأما الفعل بين قادرين فمختلف فيه. فإن قلت : مم اشتقاق القدير؟ قلت : من التقدير ، لأنه يوقع فعله على مقدار قوته واستطاعته وما يتميز به عن العاجز.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢١)

لما عدّد الله تعالى فرق المكلفين من المؤمنين والكفار والمنافقين ، وذكر صفاتهم وأحوالهم ومصارف أمورهم ، وما اختصت به كل فرقة مما يسعدها ويشقيها ، ويحظيها عند الله ويرديها ، أقبل عليهم بالخطاب ، وهو من الالتفات المذكور عند قوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، وهو فنّ من الكلام جزل ، فيه هرّ وتحريك من السامع ، كما أنك إذا قلت لصاحبك حاكيا عن ثالث لكما : إنّ فلانا من قصته كيت وكيت ، فقصصت عليه ما فرط منه ، ثم عدلت

(١) قال محمود رحمه الله : «وفي الأشياء ما لا تعلق به للقادر كالمستحيل ... الخ». قال أحمد رحمه الله : هذا الذي أورده خطأ على الأصل والفرع. أما على الأصل ، فلأن الشيء لا يتناول إلا الموجود عند أهل السنة. وأما على الفرع ، فلأننا وإن فرعنا على معتقد القدرية . والشيء عندهم إنما يتناول الموجود والمعدوم الذي يصح وجوده فلا يتناول المستحيل . إذاً على هذا التفرع ما يراه إياه نقضاً غير مستقيم على المذهبين. وأما المقدور بين قادرين ، فإنها ورطة إنما يستاق إليها القدرية الذين يعتقدون أن ما تعلقت به قدرة العبد استحال أن يتعلق به قدرة الرب ، إذ قدرة العبد خالقة فيستغنى الفعل بها عن قدرة خالق آخر . تعالى الله عما يشركون علواً كبيراً . وأما أهل السنة فالقادر الخالق عندهم واحد ، وهو الله الواحد الأحد ، فتتعلق قدرته تعالى بالفعل فيخلقه ، وتتعلق به قدرة العبد تعلق اقتران لا تأثير ؛ فلذلك لم يخلق مقدور بين قادرين على هذا التفسير . وقد حشى الزمخشري في أدراج كلامه هذا سلب القدرة القديمة وجحدها ، وجعل الله تعالى قادراً بالذات لا بالقدرة ، دس ذلك تحت قوله : وفي الأشياء ما لا تعلق به لذات القادر ، ولم يقل لقدرة القادر ، فليتفطن لدفائه. وكم من ضلالة استدسها في هذه المقالة والله الموفق. فان قيل : أيها الأشعرية ، إذا كان الشيء عندهم هو الموجود ، فما معنى القدرة عليه بعد وجوده وبقائه ، والله تعالى يقول وهو أصدق القائلين : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؟ قلنا : القدرة تتعلق بمقدورها فتوجد فيكون حينئذ شيئاً ؛ فلما كان مآل ما تعلقت به القدرة إلى الشيء حتماً ، صح إطلاق الشيء عليه ، وهو من وادى : «من قتل قتيلاً فله سلبه» وإذا سمو الشيء باسم ما يؤول إليه غالباً ، فما يؤول إليه حتماً أجدر .

(٢) قوله «وفعل قادر آخر» لعله مبنى على مذهب المعتزلة أن العبد هو الفاعل لأفعاله الاختيارية. ومذهب أهل السنة أن فاعلها في الحقيقة هو الله تعالى. (ع)

بخطابك إلى الثالث فقلت : يا فلان من حقلك أن تلزم الطريقة الحميدة في مجارى أمورك ، وتستوي على جادة السداد في مصادرك ومواردك ، نبهته بالتفاتك نحوه فضل تنبيهه ، واستدعيت إصغاءه إلى إرشادك زيادة استدعاء ، وأوجدته بالانتقال من الغيبة إلى المواجهة هازماً من طبعه ما لا يجده إذا استمررت على لفظ الغيبة ، وهكذا الافتنان في الحديث والخروج فيه من صنف إلى صنف ، يستفتح الأذان للاستماع ، ويستتهش الأنفس للقبول ، وبلغنا بإسناد صحيح عن إبراهيم عن علقمة : أنَّ كل شيء نزل فيه : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ ^(١) فهو مكى ، و ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهو مدنى ، فقله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ خطاب لمشركي مكة ، و «يا» حرف وضع في أصله لنداء البعيد ، صوت يهتف به الرجل بمن يناديه. وأما نداء القريب فله أى والهزمة ، ثم استعمل في منادة من سها وغفل وإن قرب. تنزيلاً له منزلة من بعد ، فإذا نودي به القريب المفاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معنىً به جداً. فإن قلت : فما بال الداعي يقول في جواره : يا رب ، ^(٢) ويا الله ، وهو أقرب إليه من جبل الوريد ، وأسمع به وأبصر؟ قلت : هو استقصار منه لنفسه ، واستبعاد لها من مظان الزلفى وما يقربه إلى رضوان الله ومنازل المقرين ، هضماً لنفسه وإقراراً عليها بالتفريط في جنب الله ، مع فرط التهالك على استجابة دعوته والإذن لندائه وابتهاله ، و «أى» وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام ، كما أنَّ «ذو» و «الذي» وصلتان إلى الوصف بأسماء الأجناس ووصف المعارف بالجميل. وهو اسم مبهم مفتقر إلى ما يوضحه ويزيل إبهامه ، فلا بد أن يردفه اسم جنس أو ما يجرى مجراه يتصف به حتى يصح المقصود بالنداء ، فالذي يعمل فيه حرف النداء هو «أى» والاسم التابع له صفته ، كقولك : يا زيد الطريف ؛ إلا أن «أيا» لا يستقل بنفسه استقلال «زيد» فلم ينفك من الصفة. وفي هذا التدرج من الإبهام إلى التوضيح ضرب من التأكيد والتشديد. وكلمة التنبيه

(١) أخرجه ابن أبى شيبة قال : حدثنا وكيع عن الأعمش عن إبراهيم بهذا. وأخرجه البزار من رواية الأقيس ابن الربيع عن الأعمش موصول بذكر عبد الله بن مسعود فيه. وقال : لا نعلم أحداً أسنده إلا قيس واعترض بما رواه الحاكم والبيهقي في الدلائل عنه. وابن مردويه في تفسير الحج. كلهم من طريق وكيع أيضاً قال : حدثنا أبى عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله. (فائدة) هذا محمول على أن المراد بالملكى ما وقع خطاباً لأهل مكة ، والمدنى ما وقع خطاباً لأهل المدينة ؛ لأن الغالب على أهل مكة كان الكفر فخطوبوا ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾. وكان الغالب على أهل المدينة الإيمان فخطوبوا : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾. أفاده الشيخ بهاء الدين ابن عقيل.

(٢) قوله «يقول في جواره : يا رب» في الصحاح : جأر الثور بجأراً ، أى صاح. وجأر الرجل إلى الله عز وجل : أى تضرع. (ع)

المقحمة بين الصفة وموصوفها لفائدتين : معاضدة حرف النداء ومكانفته بتأكيد معناه ، ووقوعها عوضاً مما يستحقه أئى من الإضافة. فان قلت : لم كثر في كتاب الله النداء على هذه الطريقة ما لم يكثر في غيره؟ قلت : لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة : لأن كل ما نادى الله له عباده . من أوامره ونواهيه ، وعظاته وزواجره ووعدته ووعيدته ، واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم ، وغير ذلك مما أنطق به كتابه . أمور عظام ، وخطوب جسام ، ومعان . عليهم أن يتيقظوا لها ، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها ، وهم عنها غافلون. فاقتضت الحال أن ينادوا بالأكّد الأبلغ. فإن قلت : لا يخلو الأمر بالعبادة من أن يكون متوجّها إلى المؤمنين والكافرين جميعاً ، أو إلى كفار مكة خاصة ، على ما روى عن علقمة والحسن ، فالمؤمنون عابدون ربهم فكيف أمروا بما هم ملتبسون به؟ وهل هو إلا كقول القائل :

فَلَوْ إِنِّي فَعَلْتُ كُنْتُ مَن تَسْأَلُهُ وَهُوَ قَائِمٌ أَنْ يُقُومَ^(١)

وأما الكفار فلا يعرفون الله ، ولا يقرّون به فكيف يعبدونه؟ قلت : المراد بعبادة المؤمنين : ازديادهم منها وإقبالهم وثباتهم عليها. وأما عبادة الكفار فمشروط فيها ما لا بد لها منه وهو الإقرار. كما يشترط على المأمور بالصلاة شرائطها من الوضوء والنية وغيرها وما لا بد للفعل منه ، فهو مندرج تحت الأمر به وإن لم يذكر ، حيث لم ينفعل إلا به ، وكان من لوازمه. على أنّ مشركي مكة كانوا يعرفون الله ويعترفون به ﴿وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾. فان قلت : فقد جعلت قوله : ﴿اعْبُدُوا﴾ متناولاً شيئين معاً : الأمر بالعبادة ، والأمر بازديادها. قلت : الازدياد من العبادة عبادة وليس شيئاً آخر. فإن قلت : ﴿رَبِّكُمْ﴾ ما المراد به؟ قلت : كان المشركون معتقدين ربوبيتين : ربوبية الله ، وربوبية آلهتهم. فإن خصوا بالخطاب فالمراد به اسم يشترك فيه رب السموات والأرض والآلهة التي كانوا يسمونها أرباباً وكان قوله ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ صفة موضحة مميزة. وإن كان الخطاب للفرق جميعاً ، فالمراد به «ربكم»

(١) نعممة الله فيك لا أسألك الله إليهم نعمي سوي أن تدوما
فلو اني فعلت كنت كمن تسأله وهو قائم أن يقوم

النعمة بالكسر ، والنعمى بالضم ، وكذلك النعماء بالفتح بمعنى واحد. يقول : نعمة الله علينا فيك كافية لا نطلب من الله نعمة أخرى منضمة إليها ، سوى أن تدوم هي أو أنت أو أنتما. فلو اني . بالنقل للوزن. فعلت ، أى سألت الله غيرها كانت حالى مع الله كحالك مع من تسأله القيام وهو قائم ، فهو تشبيه مركب ، وإلا فهو سائل ومن تسأله مسؤول. يعنى أن السؤال يكون تحصيلاً للحاصل ، لأنه لا نعمة سواها أعظم منها في ظنه. وفيه مبالغة في تعظيمها.

على الحقيقة. والذي خلقكم : صفة جرت عليه على طريق المدح والتعظيم. ولا يمتنع هذا الوجه في خطاب الكفرة خاصة ، إلا أن الأول أوضح وأصح. والخلق : إيجاد الشيء على تقدير واستواء. يقال : خلق النعل ، إذا قدرها وسواها بالمقياس. وقرأ أبو عمرو : (خلقكم) بالإدغام. وقرأ أبو السميعة : وخلق من قبلكم. وفي قراءة زيد بن علي : ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ وهي قراءة مشككة ، ووجهها على إشكالها أن يقال : أقحم الموصول الثاني بين الأول وصلته تأكيداً ، كما أقحم جرير في قوله :

يا تَيْمَ تَيْمَ عَدِيَّ لاَ أَبَا لَكُمْ^(١)

تيمما الثاني بين الأول وما أضيف إليه ، وكإقحامهم لام الإضافة بين المضاف والمضاف إليه في : لا أبالك : ولعل للترجي أو الإشفاق. تقول : لعل زيدا يكرمني. ولعله يهينني.

(١) يا تـــــــيم تـــــــيم عـــــــدى لا أبــــا لكــــم لا يلقىــــنكم في ســــوءة عمــــ تعرضــــت تــــيم لي جـــــه لا لأهـــــجوها كــــما تعرضــــت الاســــت الخــــارئ الحـــــج

لجرير ، تعرض له عمر بن لجأ ، ويقال بن لجام التميمي بالهجو فخاطب قبيلته بذلك. وحذف المضاف إليه مع بقاء المضاف على حالة الإضافة مضطرد ، إن اقترن بذكر مثله ليدل عليه ؛ وإلا فهو سماعي. ومثل هذا للتركيب يجوز فيه ضم الأول فهو مفرد والثاني مضاف لما بعده ، وفتح على أنه مضاف للمذكور ، أو محذوف مماثل له ، أو على أنهما مركبان اسما واحداً مضافا لما بعدهما ؛ فقيم الأول هنا مضاف لعددي ، والثاني مقحم بينهما مضاف لعددي محذوفا عند سيبويه أو مضاف للمذكور ، والأول مضاف لمحذوف مثل المذكور عند المبرد وتبعه ابن مالك ، أو هما معا مركبان كخمسة عشر ، مضافان لعددي عند الفراء وتبعه الأعلام. ولو كان الثاني بدلا أو بيانا أو توكيدا والأول مفرد ، لضم الأول وهم غير تيم قريش. وقولهم «لا أبأ له» دعاء بعدم الأب. وقيل محتمل للذم ، أن لا أبله رشيداً ، بل هو ابن زنا. ويحتمل المدح ، أى ليس محتاجا إلى الأب بل مفاخره ذاتية ، لكن ما هنا من الأول. و «لكم» خير «لا» عند ابن الحاجب. وخبرها محذوف عند غيره ولكم متعلق بمحذوف صفة. أو اللام زائدة والضمير مضاف إليه. وأما على الأول مبنى على فتح مقدر وحذف تنوينه للبناء. وعلى الثاني منصوب بفتحة مقدرة وحذف تنوينه لشبه الإضافة. وعلى الثالث منصوب بفتحة مقدرة وحذف تنوينه للإضافة. وهذا كله على لغة قصره كفتى. وأما نصبه بالألف على لغة إعرابه بالحروف فلا يظهر إلا في الثالث ، وفيه أن المضاف معرفة و «لا» لا تعمل إلا في النكرات ، إلا أن يقال زيادة اللام صيرته في صورة النكرة فعملت فيه. و «لا يلقىنكم» نعى عن الإلقاء في المكروه. وروى بالفاء بدل القاف ، من ألفى إذا وجد لكن روى «لا يوقعنكم» وهو يؤيد الأول. والمراد النهى عن إقرار عمر على هجوه الموقع لهم في السوءة وهي هجو جرير لهم. واللام في لأهجوها لام العاقبة. وقد شبه نفسه . بل فمه . باست الخارئ ، أى دبره. ومهد لذلك التشبيه فيما تقدم بالتعبير بالسوءة. ولقد هجا نفسه من حيث لم يشعر. والاسـت : من الأسماء العشرة التي بنوا أوائلها على السكون فزادوها همزة الوصل.

وقال الله تعالى : ﴿لَعَلَّه يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ ، ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ . ألا ترى إلى قوله : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ . وقد جاءت على سبيل الإطماع في مواضع من القرآن ، ولكن لأنه إطماع من كريم رحيم ، إذا أطمع فعل ما يطمع فيه لا محالة ، لجرى إطماعه مجرى وعده المحتوم وفأؤه به . قال من قال : إن «لعل» بمعنى «كى» ، و «لعل» لا تكون بمعنى «كى» ، ولكن الحقيقة ما ألقيت إليك . وأيضا فمن ديدن الملوك وما عليه أوضاع أمرهم ورسومهم أن يقتصروا في مواعيدهم التي يوطنون أنفسهم على إنجازها على أن يقولوا : عسى ، ولعل ، ونحوها من الكلمات أو يخيلوا إخاله . أو يظفر منهم بالرمزة أو الابتسامة أو النظرة الحلوة ، فإذا عثر على شيء من ذلك منهم ، لم يبق للطالب ما عندهم شك في النجاح والفوز بالمطلوب . فعلى مثله ورد كلام مالك الملوك ذى العز والكبرياء . أو يجيء على طريق الإطماع دون التحقيق لئلا يتكل العباد ، كقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ، عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ . فان قلت : ف «لعل» التي في الآية ما معناها وما موقعها؟ قلت : ليست مما ذكرناه في شيء ، لأن قوله : ﴿خَلَقَكُمْ﴾ ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ، لا يجوز أن يحمل على رجاء الله تقواهم لأن الرجاء لا يجوز على عالم الغيب والشهادة : وحمله على أن يخلقهم راجين للتقوى ليس بسديد أيضا . ولكن «لعل» واقعة في الآية موقع المجاز ^(١) لا الحقيقة ، لأن الله عز وجل خلق عباده ليتعبد لهم بالتكليف ، وركب فيهم العقول والشهوات ، وأزاح العلة في أقدارهم وتمكينهم وهداهم النجدين ، ووضع في أيديهم زمام الاختيار ، وأراد منهم الخير والتقوى ^(٢) . فهم في صورة المرجو منهم أن يتقوا ليترجح أمرهم . وهم مختارون بين الطاعة والعصيان . كما ترجحت حال المرتضى بين أن يفعل وأن لا يفعل ، ومصادقه قوله عز وجل : ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وإنما يبلو ويختبر من تخفى عليه العواقب ، ولكن شبه بالاختبار بناء أمرهم على الاختيار . فإن قلت : كما خلق المخاطبين لعلهم يتقون ، فكذلك خلق الذين من قبلهم لذلك ، فلم قصره عليهم

(١) قال محمود رحمه الله : «لعل واقعة في الآية موقع المجاز ... الخ» . قال أحمد رحمه الله : كلام سديد إلا قوله : وأراد منهم التقوى والخير ؛ فانه كلام أبرزه على قاعدة القدرية . والصحيح والسنة أن الله تعالى أراد من كل أحد ما وقع منه من خير وغيره ، ولكن طلب الخير والتقوى منهم أجمعين . والطلب والأمر عند أهل السنة مباينان للإرادة ، ألهمنا الله صواب القول وسداده .
(٢) قوله «وأراد منهم الخير والتقوى» مبنى على مذهب المعتزلة أنه تعالى لا يريد إلا الخير وإن وقع خلافه . ومذهب أهل السنة أنه يريد الخير والشر ، وكل ما أراده يقع ، لإجماع السلف على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . (ع)

دون من قبلهم؟ قلت : لم يقصره عليهم ، ولكن غلب المخاطبين على الغائبين في اللفظ والمعنى على إرادتهم جميعا. فان قلت : فهلا قيل تعبدون لأجل عبدوا؟^(١) أو اتقوا لمكان تتقون ليتجاوب طرفا النظم. قلت : ليست التقوى غير العبادة حتى يؤدى ذلك إلى تنافر النظم. وإنما التقوى قصارى أمر العابد ومنتهى جهده. فإذا قال : ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ للاستيلاء على أقصى غايات العبادة كان أبعث على العبادة ، وأشدّ إلزاما لها ، وأثبت لها في النفوس. ونحوه أن تقول لعبدك : احمل خريطة الكتب ، فما ملكتك يميني إلا لجزّ الأثقال. ولو قلت : لحمل خرائط الكتب لم يقع من نفسه ذلك الموقع.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٢)

قدّم سبحانه من موجبات عبادته وملزمات حق الشكر له خلقهم أحياء قادرين أولا ؛ لأنه سابقة أصول النعم ومقدمتها ، والسبب في التمكن من العبادة والشكر وغيرهما ، ثم خلق الأرض التي هي مكائهم ومستقرهم الذي لا بدّ لهم منه ، وهي بمنزلة عرصة المسكن ومتقلبه ومفترشه ، ثم خلق السماء التي هي كالقبة المضروبة والخيمة المطبنة على هذا القرار ، ثم ما سواه عزّ وجل من شبه عقد النكاح بين المقلة والمظلة بإنزال الماء منها عليها. والإخراج به من بطنها . أشباه النسل المنتج من الحيوان . من ألوان الثمار رزقا لبنى آدم ، ليكون لهم ذلك معتبرا : ومتسلقا إلى النظر الموصل إلى التوحيد والاعتراف ؛ ونعمة يتعرفونها فيقابلونها بلازم الشكر ، ويتفكرون في خلق أنفسهم وخلق ما فوقهم وتحتهم ، وأن شيئا من هذه المخلوقات كلها لا يقدر على إيجاد شيء منها ، فيتيقنوا عند ذلك أن لا بدّ لها من خالق ليس كمثلهما ، حتى لا يجعلوا المخلوقات له أندادا وهم يعلمون أنها لا تقدر على نحو ما هو عليه قادر. والموصول مع صلته إما أن يكون في محل النصب وصفا كالذي خلقكم ، أو على المدح والتعظيم. وإما أن يكون رفعا على الابتداء وفيه ما في النصب من المدح. وقرأ يزيد الشامي : بساطا. وقرأ

(١) قال محمود رحمه الله : «فان قلت فهلا قيل تعبدون ... الخ»؟ قال أحمد رحمه الله : كلام حسن إلا قوله خلقكم للاستيلاء على أقصى غاية العبادة ؛ فانه مفرع على تلك النزعة المتقدمة آنفا. والعبارة المحررة في ذلك على قاعدة السنة أن يقال : اعبدوا ربكم الذي خلقكم على حالة من حقكم معها أن تستولوا على أقصى غاية العبادة وهي التقوى لما ركب فيكم من العقول ، وبينه لكم من البواعث على تقواه ، فكان جديرا بكم أن لا تدعوا من جهدكم في التقوى شيئا.

طلحة : مهادا. ومعنى جعلها فراشا وبساطا ومهادا للناس : أنهم يقعدون عليها وينامون ويتقلبون كما يتقلب أحدهم على فراشه وبساطه ومهاده. فإن قلت : هل فيه دليل على أنّ الأرض مسطحة وليست بكزية؟ قلت : ليس فيه إلا أن الناس يفتشونها كما يفعلون بالمفارش ، وسواء كانت على شكل السطح. أو شكل الكرة ، فالافتراض غير مستنكر ولا مدفوع ، لعظم حجمها واتساع جرمها وتباعد أطرافها. وإذا كان متسهلا في الجبل وهو وتد من أوتاد الأرض ، فهو في الأرض ذات الطول والعرض أسهل. والبناء مصدر سمي به المبنى . بيتا كان أو قبة أو خباء أو طرافا . وأبنية العرب : أخبيتهم ، ومنه بنى على امرأته ، لأنهم كانوا إذا تزوجوا ضربوا عليها خباء جديدا. فإن قلت : ما معنى إخراج الثمرات بالماء وإنما خرجت بقدرته ومشيتته؟ قلت : المعنى أنه جعل الماء سببا في خروجها ومادة لها ، كماء الفحل في خلق الولد ، وهو قادر على أن ينشئ الأجناس كلها بلا أسباب ولا مواد كما أنشأ نفوس الأسباب والمواد ، ولكن له في إنشاء الأشياء مدرجا لها من حال إلى حال ، وناقلا من مرتبة إلى مرتبة حكما ودواعي يجدد فيها لملائكته والنظار بعيون الاستبصار من عباده عبدا وأفكارا صالحة ، وزيادةطمأنينة ، وسكون إلى عظيم قدرته وغرائب حكمته ، ليس ذلك في إنشائها بغتة من غير تدريج وترتيب. و «من» في ﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ للتبويض بشهادة قوله : ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ، وقوله : ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ﴾. ولأن المنكرين أعنى : ماء ، ورزقا. يكتنفانه. وقد قصد بتنكييرهما معنى البعضية فكأنه قيل : وأنزلنا من السماء بعض الماء ، فأخرجنا به بعض الثمرات ، ليكون بعض رزقكم. وهذا هو المطابق لصحة المعنى ، لأنه لم ينزل من السماء الماء كله ، ولا أخرج بالمطر جميع الثمرات ، ولا جعل الرزق كله في الثمرات. ويجوز أن تكون للبيان كقولك : أنفقت من الدراهم ألفا. فإن قلت : فيم انتصب ﴿رِزْقًا﴾؟ قلت : إن كانت «من» للتبويض. كان انتصابه بأنه مفعول له. وإن كانت مبنية ، كان مفعولا لأخرج. فإن قلت : فالثمر المخرج بماء السماء كثير جم فلم قيل الثمرات دون الثمر والثمار؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما أن يقصد بالثمرات جماعة الثمرة التي في قولك : فلان أدركت ثمرة بستانه ، تريد ثماره. ونظيره قولهم : كلمة الحويدرة ، لقصيدته. وقولهم للقريّة : المدرة ، وإنما هي مدر متلاحق. والثاني : أنّ الجموع يتعاور بعضها موقع بعض لالتقائها في الجمعية ، كقوله : ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ﴾ و ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾. ويعضد الوجه الأول قراءة محمد بن السميع : من الثمرة ، على التوحيد. و ﴿قَبْلَكُمْ﴾ صفة جارية على الرزق إن أريد به العين ، وإن جعل

وقرأ محمد بن السميع : فلا تجعلوا لله ندا. فإن قلت : ما معنى ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. قلت : معناه : وحالكم وصفتمكم أنكم من صفة تميزكم بين الصحيح والفساد ، والمعرفة بدقائق الأمور وغوامض الأحوال ، والإصابة في التدابير ، والدهاء والفتنة ، بمنزل لا تدفعون عنه. وهكذا كانت العرب ، خصوصاً ساكن الحرم من قريش وكنانة ، لا يصطلى بنارهم ^(١) في استحكام المعرفة بالأمور وحسن الإحاطة بها. ومفعول (تعلمون) متروك كأنه قيل : وأنتم من أهل العلم والمعرفة. والتوبيخ فيه أكد ، أى أنتم العرّافون المميزون. ثم إنّ ما أنتم عليه في أمر ديانتم من جعل الأصنام لله أندادا ، هو غاية الجهل ونهاية سخافة العقل. ويجوز أن يقدر : وأنتم تعلمون أنه لا يماثل. أو : وأنتم تعلمون ما بينه وبينها من التفاوت. أو : وأنتم تعلمون أنها لا تفعل مثل أفعاله ، كقوله : ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ﴾

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٣)

لما احتج عليهم بما يثبت الوجدانية ويحققها ، ويبطل الإشراف ويهدمه ، وعلم الطريق إلى إثبات ذلك وتصحيحه ، وعرفهم أنّ من أشرك فقد كابر عقله وغطى على ما أنعم عليه من معرفته وتمييزه . عطف على ذلك ما هو الحجة على إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وما يدحض الشبهة في كون القرآن معجزة ، وأراهم كيف يتعرفون أهو من عند الله كما يدعى ، أم هو من عند نفسه كما يدعون. بإرشادهم إلى أن يحزروا أنفسهم ويدوقوا طباعهم وهم أبناء جنسه وأهل جلدته. فان قلت : لم قيل : ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا﴾ على لفظ التنزيل دون الإنزال؟ قلت : لأن المراد النزول على سبيل التدرّج والتنجيم ، وهو من محازة لمكان التحدي. وذلك أنهم كانوا يقولون : لو كان هذا من عند الله مخالفاً لما يكون من عند الناس ، لم ينزل هكذا نجوماً سورة بعد سورة وآيات غب آيات ، على حسب النوازل وكفاء الحوادث ^(٢) وعلى سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر ، من وجود ما يوجد منهم مفرقا حيناً فحيناً ، وشيئاً فشيئاً حسب ما يعنّ لهم من الأحوال المتجددة والحاجات السانحة ، لا يلقي الناظم ديوان شعره دفعة ،

(١) قوله «لا يصطلى بنارهم» لعله يصطلى بدون «لا» أو لعله : لا يصطلى إلا بنارهم ، بزيادة «إلا» فليحرر. ويمكن أن يراد اختصاصهم بكمال المعرفة ، وأن غيرهم لا يصل إلى شيء مما لديهم من ذلك. (ع)

(٢) قوله «وكفاء الحوادث» أى مقابلها ومساويها. أفاده الصحاح. (ع)

ولا يرمى النائر بمجموع خطبه أو رسائله ضربة ، فلو أنزله الله لأنزله خلاف هذه العادة جملة واحدة : قال الله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ ، فقيل: إن ارتبتم في هذا الذي وقع إنزاله هكذا على مهل وتدرّج ، فهاتوا أنتم نوبة واحدة من نوبه ، وهلموا نجما فردا من نجومه : سورة من أصغر السور ، أو آيات شتى مفتريات. وهذه غاية التبكيث ، ومنتهى إزاحة العلل. وقرئ (على عبادنا) يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته. والسورة : الطائفة من القرآن المترجمة التي أقلها ثلاث آيات. وواوها إن كانت أصلا ، فيما أن تسمى بسورة المدينة وهي حائطها ، لأنها طائفة من القرآن محدودة محوِّزة على حياها ، كالبلد المسور ، أو لأنها محتوية على فنون من العلم وأجناس من الفوائد ، كاحتواء سورة المدينة على ما فيها. وإما أن تسمى بالسورة التي هي الرتبة. قال النابغة :

وَلَرَهْطٌ حَرَّابٍ وَقَدْ سُوِّرَتْ فِي الْمَجْدِ لَيْسَ غُرَابُهُ بِمُطَارٍ^(١)

لأحد معنيين ، لأن السور بمنزلة المنازل والمراتب يترقى فيها القارئ : وهي أيضاً في أنفسها مترتبة : طوال وأوساط وقصار ، أو لرفعة شأنها وجلالة محلها في الدين. وإن جعلت واوها منقلبة عن همزة ، فلأنها قطعة وطائفة من القرآن ، كالسورة التي هي البقية من الشيء والفضلة منه. فان قلت : ما فائدة تفصيل القرآن وتقطيعه سوراً؟ قلت : ليست الفائدة في ذلك واحدة. ولأمر ما أنزل الله التوراة والإنجيل والزبور وسائر ما أوحاه إلى أنبيائه على هذا المنهاج مسورة مترجمة السور. وبوّب المصنفون في كل فن كتبهم أبواباً موشحة الصدور بالتراجم. ومن فوائده : أنّ الجنس إذا انطوت تحته أنواع ، واشتمل على أصناف ، كان

(١) ولـرهط حـرّاب وقـد سـوـرـت في المـجـد لـيـس غـرـابـه بـمـطـار

قـوم إذا كـثـر الصـيـاح رأـيـتـهم وقـرأ غـرـابـة الـرـوع والـانـفـار

للنابغة الذبياني. والسورة . بالضم . : الرتبة ، يقول : ولقوم حراب بن زهير وقد بن مالك درجة في الشرف دائمة العز . وحراب بالراء . وروى بالزاي . وقد بالمهملة . وروى بالمعجمة . وقد وقد : أخوان. وليس غرابها بمطار استعارة تمثيلية لدوام العز لهم ؛ أو كناية عنه ، لأن أصله : أنه إذا كثرت الشجر والنبات ، يقيم فيه الغراب ولا يطيره شيء لحب الخصب وعدم الجذب. والأوجه أن السورة أصلها المرتبة الحسية ، فاستعيرت للمعنوية ، ثم جرت فيها المكينة حيث شبهت بمكان الخصب ، وإثبات الغراب والاطارة تخييل لذلك التشبيه. ثم قال : هم قوم إذا كثرت الصياح في الحرب رأيتهم وقرا أي صما ، فهو من الوقر أي ثقل الأذن ، بمعنى أن كثرة الصياح لا تزعجهم كأنهم صم وقيل من الوقار والسكينة. وغداة الروح والانفار : صبيحة الخوف والافزع. وقيل : أصله أن الغراب يقع على رأس البعير يتلقت منها الهوام ، فلا يحرك رأسه لئلا ينفر الغراب فشبه مرتبتهم برأس البعير على طريق الممكنية. وقيل لارتفاعها لا يصلها الغراب حتى يضار من فوقها. فالمعنى لا غراب فوقها فيطار .

أحسن وأنبّل وأفخم^(١) من أن يكون بياناً واحداً. ومنها أن القارئ إذا ختم سورة أو باباً من الكتاب ثم أخذ في آخر كان أنشط له وأهز لعطفه ، وأبعث على الدرس والتحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله. ومثله المسافر ، إذا علم أنه قطع ميلاً ، أو طوى فرسخاً ، أو انتهى إلى رأس بريد : نفس ذلك منه ونشطه للسير. ومن ثم جزأ القراء القرآن أسباعاً وأجزاء وعشوراً وأخماساً. ومنها أن الحافظ إذا حذق السورة^(٢) ، اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها لها فاتحة وخاتمة ، فيعظم عنده ما حفظه ، ويجل في نفسه ويغبط به. ومنه حديث أنس رضي الله عنه : «كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران ، جد فينا^(٣)» ومن ثمة كانت القراءة في الصلاة بسورة تامة أفضل. ومنها أنّ التفصيل سبب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض. وبذلك تتلاحظ المعاني ويتجاوب النظم ، إلى غير ذلك من الفوائد والمنافع ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ متعلق بسورة صفة لها أى بسورة كائنة من مثله. والضمير لما نزلنا^(٤) ، أو لعبدنا. ويجوز أن يتعلق بقوله : ﴿فَأَتُوا﴾ والضمير للعبد. فإن قلت : وما مثله حتى يأتوا بسورة من ذلك المثل؟ قلت : معناه فأتوا بسورة مما هو على صفته في البيان الغريب وعلو الطبقة في حسن النظم. أو فأتوا ممن هو على حاله من كونه بشراً عربياً أو أمياً لم يقرأ الكتب ولم يأخذ من العلماء ، ولا قصد إلى مثل ونظير هنالك. ولكنه نحو قول القبعثري للحجاج . وقد قال له : لأحملنك على الأدهم . : مثل الأمير حمل على الأدهم والأشهب. أراد

(١) قوله «وأنبّل وأفخم» أى أفضل وأعظم. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله «إذا حذق السورة» حذق الشيء ، أى مهر فيه. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) هذا طرف من حديث أخرجه أحمد وابن أبي شيبه قال : حدثنا يزيد بن هارون عن حميد عن أنس رضي الله عنه «أن رجلاً كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم وقد قرأ البقرة وآل عمران ، وكان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا . أى عظم : الحديث». وأخرجه ابن حبان من هذا الوجه بلفظ «عد فينا ذو شأن» وقد ذكره الجوهري في الصحاح من حديث أنس رضي الله عنه بلفظ المصنف. وأصله عند البخاري من رواية عبد العزيز ابن صهيب. وعند مسلم في رواية ثابت ، كلاهما عن أنس دون القدر الذي اقتصر عليه المصنف. ولم يصب الطيبي في عزوه له إلى الصحيحين. وعزاه الزمخشري في تفسير الجن إلى رواية عمر رضي الله عنه أيضاً كما سيأتى.

(٤) قال محمود رحمه الله : «الضمير يحتمل عوده لما نزلناه ... الخ». قال أحمد رحمه الله : ومعنى هذا الترجيح أن المتحدى عليهم في التفسير الأوجه جملة المخاطبين ، أى أحمم باجتماعهم ومظاهرة بعضهم بعضاً ، عجرة عن الإتيان بطائفة منه. وأما على التفسير المرجوح ، فهم مخاطبون بأن يعينوا واحداً منهم يكون معارضاً للمتحدى بأنه يأتى بمثل ما أوتى به أو ببعضه. ولا شك أن عجز الخلائق أجمعين أبهى من عجز واحد منهم. ويشهد لرجحان الأول قوله تعالى : ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾

من كان على صفة الأمير من السلطان والقدرة وبسطة اليد. ولم يقصد أحدا يجعله مثلاً للحجاج. وردّ الضمير إلى المنزل أوجه ، لقوله تعالى : ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ﴾. ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ﴾ ، ﴿عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ ، ولأن القرآن جدير بسلامة الترتيب والوقوع على أصح الأساليب ، والكلام مع ردّ الضمير إلى المنزل أحسن ترتيباً. وذلك أن الحديث في المنزل لا في المنزل عليه ، وهو مسوق إليه ومربوط به ، فحقه أن لا يفك عنه برد الضمير إلى غيره. ألا ترى أن المعنى : وإن ارتبتم في أنّ القرآن منزل من عند الله. فهاتوا أنتم نبذاً مما يماثله ويجانسه. وقضية الترتيب لو كان الضمير مردوداً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقال : وإن ارتبتم في أنّ محمداً مُنزل عليه فهاتوا قرآناً من مثله. ولأنهم إذا خوطبوا جميعاً. وهم الجم الغفير. بأن يأتوا بطائفة يسيرة من جنس ما أتى به واحد منهم ، كان أبلغ في التحدى من أن يقال لهم : ليأتى واحد آخر بنحو ما أتى به هذا الواحد ، ولأنّ هذا التفسير هو الملائم لقوله : ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ والشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة. ومعنى (دون) أدنى مكان من الشيء. ومنه الشيء الدون ، وهو الدنىّ الحقير ، ودون الكتب ، إذا جمعها ، لأن جمع الأشياء إدناء بعضها من بعض وتقليل المسافة بينها. يقال : هذا دون ذاك ، إذا كان أحط منه قليلاً. ودونك هذا : أصله خذه من دونك. أى من أدنى مكان منك فاختصر واستعير للتفاوت في الأحوال والرتب فقبل زيد دون عمرو في الشرف والعلم. ومنه قول من قال لعدوه ^(١) وقد رآه بالثناء عليه : أنا دون هذا وفوق ما في نفسك ، واتسع فيه فاستعمل في كل تجاوز حدّ إلى حدّ وتخطى حكم إلى حكم.

قال الله تعالى : ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى لا يتجاوزوا ولاية المؤمنين إلى ولاية الكافرين. وقال أمية :

يا نَفْسُ مَا لَكَ دُونَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ^(٢)

(١) أخرجه البزار من رواية على بن أبي ربيعة قال : «جاء رجل إلى على بن أبي طالب رضى الله عنه ، فجعل يثنى عليه. وكان يبلغه عنه خلاف ذلك. فقال : أنا دون هذا الذي تقول ولكنى فوق ما في نفسك».

(٢) يا نفس مالــــــــــــــــك دون الله مــــــــــــــــن وــــــــــــــــاق ولا للــــــــــــــــسع بــــــــــــــــنات الــــــــــــــــدهر مــــــــــــــــن راق
لأمية بن أبي الصلت يقول : يا نفس ليس لك حافظ دون الله ، أى متجاوز الله ، أو متجاوزة الله ، فهو حال من الواقى أو من النفس. واستعار البنات للحوادث بإجماع ملازمة كل لمنشئه على طريق التصريح ، ثم شبه الحوادث بالأفاعى بإجماع إيداء كل لغيره على طريق المكنية ولسعها تخيل. ويجوز أنه استعار اللسع للاصابة على طريق التصريح. ولراقى طبيب اللسع. ومن زائدة في الموضعين لتوكيد الاستغراق : أى لا حافظ لك إلا الله ، ولا جابر لك إلا هو.

أى إذا تجاوزت وقاية الله ولم تنالها لم يقك غيره. و ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ متعلق بادعوا أو بشهداءكم. فإن علقته بشهداءكم فمعناه : ادعوا الذين اتخذتموهم آلهة من دون الله وزعمتم أنهم يشهدون لكم يوم القيامة أنكم على الحق. أو ادعوا الذين يشهدون لكم بين يدي الله من قول الأعشى :

تُرِيكَ الْقَدَى مِنْ دُونِهَا وَهِيَ دُونُهُ ^(١)

أى تريك القذى قدّامها وهي قدّام القذى ، لرقتها وصفائها. وفي أمرهم أن يستظهروا بالجماد الذي لا ينطق في معارضة القرآن بفصاحته : غاية التهكم بهم. وادعوا شهداءكم من دون الله ، أى من دون أوليائه ومن غير المؤمنين ، ليشهدوا لكم أنكم أتيتم بمثله. وهذا من المساهلة وإرخاء العنان والإشعار بأنّ شهداءهم وهم مدارة القوم ، ^(٢) الذين هم وجوه المشاهد وفرسان المقاتلة والمناقلة ، تأبى عليهم الطباع وتحمح بهم الإنسانية والأنفة أن يرضوا لأنفسهم الشهادة بصحة الفاسد البين عندهم فساده واستقامة المحال الجلى في عقولهم إحالته ، وتعليقه بالدعاء في هذا الوجه جائز. وإن علقته بالدعاء فمعناه : ادعوا من دون الله شهداءكم ، يعنى لا تستشهدوا بالله ولا تقولوا : الله يشهد أنّ ما ندعيه حق ، كما يقوله العاجز عن إقامة البينة على صحة دعواه وادعوا الشهداء من الناس الذين شهداتهم بينة تصحح بها الدعاوى عند الحكام. وهذا تعجيز لهم وبيان لانقطاعهم واتخاذهم. وأنّ الحجة قد بهرتهم ولم تبق لهم متشبثاً غير قولهم : الله يشهد أنا صادقون. وقولهم هذا : تسجيل منهم على أنفسهم بتناهي العجز وسقوط القدرة.

(١) وساق إذا شئنا كمشيش بمعشـــــر وصهباء زياد إذا مـــــا ترقـــــرق

تريك القذى مـــــن دونهـــــا وهـــــي دونهـــــة إذا ذاقهـــــا مـــــا ذاقهـــــا يتمـــــطـــــق

للأعشى في مدح المخلق عبد الرحيم بن خيثم بن شداد. والكميش : السريع. وماضى العزم : أى سريع في سقى الناس ولو كثروا. والزياد . كرمان . : رغبة اللبن ونحوه. والترقرق : الترشش والانصباب. وترقرق : أصله تترقرق ، فحذف منه إحدى التاءين ، أى تتحرك. تريك : أى الصهباء وهي الخمر ، لأن فيها لون الصهبة. والقذى ما يتساقط في الشراب والعين. دونهـــــا : أى قدمها حائلا بينها وبينك ، والحال أنّها دونه أى قدمه حائلة بينه وبينك إذا ذاقها : أى الخمر ، من ذاقها : من أراد ذوقها ، يتمطق : أى يصوت بفتح فمه ومص لسانه وشفثيه ، أو يطبق فمه ويفتحه تلذذاً بما فيصوت. وقيل إن ضمير «تريك» عائد للزجاجة يصفها بالصفاء ، فلعله أطلق الصهباء عليه لتلوّنها بلون الخمرة. وضمير «ذاقها» عائد لها بمعنى الخمرة ، فيكون في الكلام استخدام. وروى «وهي فوقه» بدل «دونه» وفيه نوع تأييد لعود الضمير على الخمرة.

(٢) قوله «مدارة القوم» المدارة جلد يدار ويخرز على هيئة الدلو ، لكنها تكون واسعة الجوف قصيرة الجوانب لتغمس في الماء وإن كان قليلا فتمتلئ منه. أفاده الصحاح فهي هنا مجاز. (ع)

وعن بعض العرب أنه سئل عن نسبه فقال : قرشي والحمد لله. ف قيل له : قولك «الحمد لله» في هذا المقام ريبة. أو ادعوا من دون الله شهداءكم : يعني أنّ الله شاهدكم لأنه أقرب إليكم من حبل الوريد ، وهو بينكم وبين أعناق رواحلكم. والجن والإنس شاهدوكم فادعوا كل من يشهدكم واستظهروا به من الجن والإنس إلا الله تعالى ، لأنه القادر وحده على أن يأتي بمثله دون كل شاهد من شهدائكم ، فهو في معنى قوله : ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ﴾ ... الآية.

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٢٤)

لما أرشدهم إلى الجهة التي منها يتعرفون أمر النبي صلى الله عليه وسلم وما جاء به حتى يعثروا على حقيقته وسرّه وامتنياز حقه من باطله. قال لهم فإذا لم تعارضوه ولم يتسهل لكم ما تبغون وبان لكم أنه معجز عنه ، فقد صرح الحق عن محضه ووجب التصديق ؛ فأمنوا وخافوا العذاب المعدّ لمن كذب. وفيه دليلان على إثبات النبوة : صحة كون المتحدى به معجزاً ، والإخبار بأنهم لن يفعلوا وهو غيب لا يعلمه إلا الله. فان قلت : انتفاء إتيانهم بالسورة واجب ، فهلا جيء ب «إذا» الذي للوجوب دون «إن» الذي للشك. قلت : فيه وجهان : أحدهما أن يساق القول معهم على حسب حسابهم وطمعهم ، وأن العجز عن المعارضة كان قبل التأمل كالمشكوك فيه لديهم لاتكالمهم على فصاحتهم واقتدارهم على الكلام. والثاني : أن يتهمكم بهم كما يقول الموصوف بالقوة الواصل من نفسه بالغلبة على من يقاويه : إن غلبتك لم أبق عليك وهو يعلم أنه غالبه ويتيقنه تهكما به. فإن قلت : لم عبر عن الإتيان بالفعل وأى فائدة في تركه إليه؟ قلت : لأنه فعل من الأفعال. تقول : أتيت فلانا ، فيقال لك : نعم ما فعلت. والفائدة فيه أنه جار مجرى الكناية التي تعطيك اختصاراً ووجازة تغنيك عن طول المكث عنه. ألا ترى أنّ الرجل يقول : ضربت زيداً في موضع كذا على صفة كذا ، وشمته ونكلت به ، ويعدّ كفيات وأفعالا ، فتقول : بئسما فعلت. ولو ذكرت ما أنبته عنه ، لطال عليك ، وكذلك لو لم يعدل عن الإتيان إلى لفظ الفعل ، لاستطيل أن يقال : فإن لم تأتوا بسورة من مثله. ولن تأتوا بسورة من مثله. فإن قلت : ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ ما محلها؟ قلت : لا محل لها لأنها جملة اعتراضية. فإن قلت : ما حقيقة «لن» في باب النفي؟ قلت : «لا» و «لن» أختان في نفي المستقبل ، إلا أن في «لن» تأكيداً وتشديداً. تقول لصاحبك : لا أقيم غداً ، فإن أنكر عليك قلت : لن أقيم غداً ؛ كما تفعل في : أنا مقيم ، وإن مقيم. وهي عند الخليل في إحدى الروايتين عنه

أصلها «لا أن» وعند الفراء «لا» أبدلت ألفها نونا. وعند سيبويه وإحدى الروایتين عن الخليل : حرف مقتضب لتأكيد نفى المستقبل. فإن قلت : من أين لك أنه إخبار بالغيب على ما هو به حتى يكون معجزة؟ قلت : لأنهم لو عارضوه بشيء لم يمتنع أن يتواصفه الناس ويتناقلوه ، إذ خفاء مثله فيما عليه مبنى العادة محال ، لا سيما والطاعنون فيه أكثر عدداً من الذابین عنه ، فحين لم ينقل علم أنه إخبار بالغيب على ما هو به فكان معجزة. فإن قلت : ما معنى اشتراطه في اتقاء النار انتفاء إتيانهم بسورة من مثله؟ قلت : إنهم إذا لم يأتوا بها وتبين عجزهم عن المعارضة ، صح عندهم صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وإذا صح عندهم صدقه ثم لزمو العناد ولم ينقادوا ولم يشايعوا ، استوجبوا العقاب بالنار ؛ فقليل لهم : إن استبنتم العجز فاتركوا العناد ؛ فوضع ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ موضعه ، لأن اتقاء النار لصيقه وضميمه ترك العناد ، من حيث أنه من نتائجه ؛ لأن من اتقى النار ترك المعاندة. ونظيره أن يقول الملك لحشمه : إن أردتم الكرامة عندي فاحذروا سخطي. يريد : فأطيعوني واتبعوا أمري ، وافعلوا ما هو نتيجة حذر السخط. وهو من باب الكناية التي هي شعبة من شعب البلاغة. وفائدته الإيجاز الذي هو من حلية القرآن ، وتحويل شأن العناد بإنابة اتقاء النار منابه وإبرازه في صورته ، مشيعاً ذلك بتحويل صفة النار وتفضيع أمرها.

والوقود : ما ترفع به النار. وأما المصدر فمضموم ، وقد جاء فيه الفتح. قال سيبويه :

وسمنا من العرب من يقول : وقدت النار وقوداً عالياً. ثم قال : والوقود أكثر ، والوقود الخطب. وقرأ عيسى بن عمر الهمداني . بالضم . تسمية بالمصدر ، كما يقال : فلان فخر قومه وزين بلده. ويجوز أن يكون مثل قولك : حياة المصباح السليط ، أى ليست حياته إلا به ؛ فكأن نفس السليط حياته ، فإن قلت : صلة «الذي» و «التي» يجب أن تكون قصة معلومة ، للمخاطب ، فكيف علم أولئك أن نار الآخرة توقد بالناس والحجارة؟ قلت : لا يمتنع أن يتقدم لهم بذلك سماع من أهل الكتاب ، أو سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو سمعوا قبل هذه الآية قوله تعالى في سورة التحريم ﴿نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ فإن قلت : فلم جاءت النار الموصوفة بهذه الجملة منكورة في سورة التحريم ، وهانها معرفة؟ قلت : تلك الآية نزلت بمكة ، فعرفوا منها ناراً موصوفة بهذه الصفة. ثم نزلت هذه بالمدينة ^(١) مشاراً بها إلى ما عرفوه أولاً.

(١) قال محمود رحمه الله : «هذه الآية نزلت بالمدينة بعد نزول آية التحريم بمكة ... الخ». قال أحمد رحمه الله يعنى بالآية قوله تعالى : ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ لكني لم أقف على خلاف بين المفسرين .

فإن قلت : ما معنى قوله تعالى : ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾؟ قلت : معناه أنها نار ممتازة عن غيرها من النيران ، بأنها لا تتقد إلا بالناس والحجارة ، وبأن غيرها إن أريد إحراق الناس بها أو إحماء الحجارة أو قدت أولاً بوقود ثم طرح فيها ما يراد إحراقه أو إحماءه ، وتلك . أعاذنا الله منها برحمته الواسعة . توقد بنفس ما يحرق ويحوى بالنار ، وبأنها لإفراط حرّها وشدة ذكائها إذا اتصلت بما لا تشتعل به نار ، اشتعلت وارتفع لهبها . فإن قلت : أنار الجحيم كلها موقدة بالناس والحجارة ، أم هي نيران شتى منها نار بهذه الصفة؟ قلت : بل هي نيران شتى ، منها نار توقد بالناس والحجارة ، يدل على ذلك تنكيرها في قوله تعالى : ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ ، ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ . ولعل لكفار الجن وشياطينهم ناراً وقودها الشياطين ، كما أنّ لكفرة الإنس ناراً وقودها هم ، جزاء لكل جنس بما يشاكله من العذاب . فإن قلت : لم قرن الناس بالحجارة وجعلت الحجارة معهم وقوداً . قلت : لأنهم قرنوا بها أنفسهم في الدنيا ، حيث نحتوها أصناماً وجعلوها لله أنداداً أو عبدوها من دونه : قال الله تعالى : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ وهذه الآية مفسرة لما نحن فيه . فقلوه : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ في معنى الناس والحجارة ، و ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ في معنى وقودها . ولما اعتقد الكفار في حجارته المعبودة من دون الله أنها الشفعاء والشهداء الذين يستشفعون بهم ويستدفعون المضارّ عن أنفسهم بمكانهم ، جعلها الله عذابهم ، فقرّهم بها محماة في نار جهنم ، إبلاغا في إيلاهم وإعراقا في تحسيرهم^(١) ، ونحوهم ما يفعله بالكانزين الذين جعلوا ذهبهم وفضتهم عدّة وذخيرة فشحوا بها ومنعوها من الحقوق ، حيث يحوى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم . وقيل : هي حجارة الكبريت ، وهو تخصيص بغير دليل وذهاب عما هو المعنى الصحيح الواقع المشهود له بمعاني التنزيل ﴿أَعِدَّتْ﴾ هيئت لهم وجعلت عدّة لعذابهم . وقرأ عبد الله ، أعتدت ، من العتاد بمعنى الغدة .

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥)

. أن سورة التحريم مدنية وما اشتملت عليه من القصة المشهورة أصدق شاهد على ذلك . فالظاهر أن الزمخشري وهم في نقله أنها مكية .

(١) قوله «وإعراقا في تحسيرهم» لعله : وإغراقا ، بالغين المعجمة . (ع)

من عادته عز وجل في كتابه أن يذكر الترغيب مع التهيب ، ويشفع البشارة بالإنذار لإرادة التنشيط ، لاكتساب ما يزلف ، والتثبيط عن اقتراف ما يتلف . فلما ذكر الكفار وأعمالهم وأوعدهم بالعقاب ، قفاه ببشارة عباده الذين جمعوا بين التصديق والأعمال الصالحة من فعل الطاعات وترك المعاصي ، وحموها من الإحباط بالكفر والكبائر بالثواب . فإن قلت : من المأمور بقوله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ﴾ ؟ قلت : يجوز أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن يكون كل أحد . كما قال عليه الصلاة والسلام «بشر المشاءين إلى المساجد في الظلم بالنور التام يوم القيامة ^(١)» لم يأمر بذلك واحداً بعينه . وإنما كل أحد مأمور به ، وهذا الوجه أحسن وأجزل ؛ لأنه يؤذن بأن الأمر لعظمه وفخامة شأنه محقق بأن يبشر به كل من قدر على البشارة به . فإن قلت : علام عطف هذا الأمر ولم يسبق أمر ولا نهي يصح عطفه عليه ؟ قلت : ليس الذي اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب له مشاكل من أمر أو نهي يعطف عليه ؛ إنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين ، فهي معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين ، كما تقول : زيد يعاقب بالقيود والإرهاق ، وبشر عمرًا بالعمو والإطلاق . ولك أن تقول : هو معطوف على قوله : ﴿فَاتَّقُوا﴾ كما تقول : يا بني تميم احذروا عقوبة ما جنيتم ، وبشر يا فلان بنى أسد بإحسانى إليهم . وفي قراءة زيد بن عليّ رضي الله عنه : ﴿وَبَشِّرِ﴾ على لفظ المبني للمفعول عطفاً على : ﴿أُعِدَّتْ﴾ . والبشارة : الإخبار مما يظهر سرور المخبر به . ومن ثم قال العلماء : إذا قال لعبيده : أيكم بشرني بقدوم فلان فهو حرّ ، فبشروه فرادى ، عتق أولهم ، لأنه هو الذي أظهر سروره بخبره دون الباقي . ولو قال مكان «بشرني» «أخبرني» عتقوا جميعاً ، لأنهم جميعاً أخبروه . ومنه : البشارة لظاهر الجلد . وتباشير الصبح : ما ظهر من أوائل ضوئه . وأما ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فمن العكس في الكلام الذي يقصد به الاستهزاء الزائد في غيظ المستهزأ به وتألمه واغتمامه ، كما يقول الرجل لعدوّه : أبشر بقتل ذريّتك ونخب مالك . ومنه قوله :

(١) أخرجه أبو داود . والترمذي والبخاري . من طريق إسماعيل بن سليمان عن عبد الله بن أوس عن بريدة وقال الدارقطني : تفرد به إسماعيل . وله شاهد من رواية ثابت عن أنس وسهل بن سعد رضي الله عنهما ، أخرجه ابن ماجه والحاكم . وأخرجه ابن حبان عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، والطبراني من رواية ابن عباس وابن عمر وزيد بن حارثة وأبي موسى وأبي أمامة رضي الله عنهم بأسانيد ضعيفة . وحديث زيد في الكامل لابن عدى . وحديث أبي موسى عند البخاري . ورواه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة في ترجمة أحمد بن محمد بن صدقة . وقال : تفرد به قتادة بن الفضل عن الحسن بن علي البيروتي . ورواه الطيالسي وأبو يعلى من حديث أبي سعيد وإسناده ضعيف أيضاً . ورواه عمر بن شاهين في الترغيب له من حديث حارثة بن وهب الخزاعي .

فَاعْتَبُوا بِالصَّيْلِمْ^(١)

والصالحة نحو الحسنه في جريها مجرى الاسم. قال الخطيبه :

كَيْفَ الْمَجَاءُ وَمَا تَنْفُكَ صَالِحَةُ مِمَّنْ آلِ لَأَمْ بَظْهُرِ الْعَيْبِ تَأْتِيَنِي^(٢)

والصالحات : كل ما استقام من الأعمال بدليل العقل والكتاب والسنة ، واللام للجنس. فإن قلت : أى فرق بين لام الجنس داخله على المفرد ، وبينها داخله على المجموع؟ قلت : إذا دخلت على المفرد كان صالحا لأن يراد به الجنس إلى أن يحاط به ، وأن يراد به بعضه إلى الواحد منه. وإذا دخلت على المجموع ، صلح أن يراد به جميع الجنس ، وأن يراد به بعضه لا إلى الواحد منه ؛ لأن وزانه في تناول الجمعية في الجنس وزان المفرد في تناول الجنسية ، والجمعية في جمل الجنس لا في وحدانه. فإن قلت : فما المراد بهذا المجموع مع اللام؟ قلت : الجملة من الأعمال الصحيحة المستقيمة في الدين على حسب حال المؤمن في مواجب التكليف.

والجنة : البستان من النخل والشجر المتكاثف المظلل بالتفاف أغصانه. قال زهير ؛

تَسْقَى جَنَّةً سَحْحًا^(٣)

(١) غضبت تمسحهم أن نقتل عمامراً يوم النسار فاعتبوا بالصليلم

لبشر بن أبي حازم الأسدي. وتميم ، وعامر : قبيلتان. وهل : استفهام إنكارى. أى ليس المحرب للأمور مثلهما كمن لم يجرها. ويجوز أنه أمره بالسؤال لأن الذي يسأل ويعلم ليس كمن لم يعلم. وأن تقتل : أى من أن تقتل. وروى : تقتل عامر ، بالباء للمجهول. والنسار اسم ماء لبنى عامر ، أى غضبت علينا تميم من قتل حلفائهم فكأنها عتبت علينا لضعفها. فأعتبناهم ، أى أزلنا عتائهم بالصيلم : وهو السيف الكثير القطع ، من صلمه إذا قطعه. وشبه إجابتهم بالمحاربة بالسيف باجابة من يزيل العتاب على سبيل التصريحية التهكمية. لأن الأول مكروه والثاني محبوب.

(٢) للخطيبه واسمه جرول بن أوس بن حومة بن مخدوم بن مالك الغطفاني ، حين وفدت العرب على النعمان بن المنذر فأحضر حللا عظيمة وقال : إني ملبسها غداً لمن شئت ، فلما كان الغد تخلف ابن سعدى خوف إلباسها غيره وهو حاضر فطلبه الملك وألبسه الحلل ، فحسدته سادات العرب من قومه ، وضمنوا للخطيبه مائة بعير لو هجاه ، فقال : كيف الهجاء له ، والحال أن لا تنفك فعلة صالحة تأتيني من آل لأم حال كوني ملتبسا بظهر الغيب ، أو حال كونهم ملتبسين بظهر الغيب. وأقحم الظاهر لأن الغائب كأنه وراء الظهر ، أو لتقوية الغيب ، لأنهم إذا أرادوا تقوية شيء أسندوا له الظاهر لقوته ، وكثيراً ما يجرون الصفة مجرى الاسم ، إما لعدم الاحتياج إلى ذكره كما في صالحة ، أو لأنها كافية في تعيين الموصوف إن احتيج إليه.

(٣) إن الخليط أجسادوا البمين فافترقا وعلق القلب ممن أسماء ما علقا

وفارقتك بمرهن لا فكراك ليه يوم السوداع فأمسى المرهن قد غلقا

كأن عيني في غمرتي مقتلة ممن النواضح تسقى جننة سحقا

لزهير بن أبي سلمى. والخليط المعاشر. والبين : الانفصال والبعد ، وأسماء : اسم محبوبته. وأصله من الوسامة وهي .

أى نحلا طوالا. والتركيب دائر على معنى الستر ، وكأنها لتكاثفها وتظليلها سميت بالجنة التي هي المرّة ، من مصدر جنه إذا ستره ، كأنها سترة واحدة لفرط التفافها. وسميت دار الثواب «جنة» لما فيها من الجنان. فإن قلت : الجنة مخلوقة أم لا؟ قلت : قد اختلف في ذلك. والذي يقول إنها مخلوقة يستدل بسكنى آدم وحواء الجنة وبمجيئها في القرآن على نهج الأسماء الغالبة اللاحقة بالأعلام ، كالنبي والرسول والكتاب ونحوها. فان قلت : ما معنى جمع الجنة وتنكيرها؟ قلت : الجنة اسم لدار الثواب كلها ، وهي مشتملة على جنان كثيرة مرتبة مراتب على حسب استحقاقات العاملين ، لكل طبقة منهم جنات من تلك الجنان. فان قلت : أما يشترط في استحقاق الثواب بالإيمان والعمل الصالح أن لا يحبطهما المكلف بالكفر والإقدام على الكبائر ؛ وأن لا يندم على ما أوجده من فعل الطاعة وترك المعصية؟ فهلا شرط ذلك؟ قلت : لما جعل الثواب مستحقا بالإيمان والعمل الصالح ، والبشارة مختصة بمن يتولاهما ، وركز في العقول أن الإحسان إنما يستحق فاعله عليه المثوبة والثناء ، إذا لم يتعقبه بما يفسده ويذهب بحسنه ، وأنه لا يبقى مع وجود مفسده إحساناً ، وأعلم بقوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وهو أكرم الناس عليه وأعزهم : ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ ، وقال تعالى المؤمنين : ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ كان اشتراط حفظهما من الإحباط والندم كالداخل تحت الذكر. فان قلت : كيف صورة جرى الأنهار من تحتها؟ قلت : كما ترى الأشجار النابتة على شواطئ الأنهار الجارية. وعن مسروق : أن أنهار الجنة تجري في غير أهدود. وأنزه البساتين وأكرمها منظراً ما كانت أشجاره مظلمة ، والأنهار في خلالها مطردة. ولو لا أن الماء الجاري من النعمة العظمى واللذة الكبرى ، وأن الجنان والرياض وإن كانت آنق شيء وأحسنه لا تروق النواظر ولا تبهج الأنفس ولا تجلب الأريحية

. علامة الحسن. وقيل أصله جمع اسم. وعلق : مبنى للمجهول. والقلب : نائب فاعل. وما علق . بالتخفيف . : مفعوله ، أى ما تعلق به منها وهو الحب والتحسر والتحنن على سفرها. ولم يعينه دلالة على التكنير والتهويل ولما اشتغل قلبه بها ، فكأنها أخذته معها ؛ ولذلك ادعى أنها أخذته رهنا على سبيل الاستعارة المصروفة ، ورشحها بقوله : لا فكاك له : وغلق الرهن . بالكسر . : إذا امتلكه الدائن ويأس صاحبه من رجوعه إليه ، ثم قال : كأن عيني من شدة البكاء وكثرة الدموع عينان في دلوين عظيمتين ممتلئتين ماء ، تحملهما ناقة مقتلة مندللة معتادة على العمل من الإبل النواضح التي يستقى عليها ، تسقى تلك الناقة جنة «سحقا» بضمين : جمع سحوق ، أى نحلا طوالا جهة السماء ، أو بعيدة عن محل الماء ، فهي دائمة ذاهبة آتية. ولقد خاطب نفسه أولا كأنه يخبرها بسفر أسماء لفرط جزعه ، ثم التفت كأنه يشتكى للناس في قوله : كأن عيني.

والنشاط حتى يجري فيها الماء ، وإلا كان الأنس الأعظم فائتاً ، والسرور الأوفر مفقوداً ، وكانت كتماثيل لا أرواح فيها ، وصور لا حياة لها ، لما جاء الله تعالى بذكر الجنات مشفوعاً بذكر الأنهار الجارية من تحتها مسوقين على قرن واحد كالشيعين لا بد لأحدهما من صاحبه ، ولما قدّمه على سائر نعوتها. والنهر : المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر. يقال لبردى : نهر دمشق ، وللنيل : نهر مصر. واللغة العالية «النهر» بفتح الهاء. ومدار التركيب على السعة ، وإسناد الجري إلى الأنهار من الإسناد المجازي كقولهم : بنو فلان يطؤون الطريق ، وصيد عليه يومان. فإن قلت : لم نكرت الجنات وعزفت الأنهار. قلت : أما تنكير الجنات فقد ذكر. وأما تعريف الأنهار فأن يراد الجنس ، كما تقول : لفلان بستان فيه الماء الجاري والتين والعنب وألوان الفواكه ، تشير إلى الأجناس التي في علم المخاطب. أو يراد أنهارها ، فعوض التعريف باللام من تعريف الإضافة كقوله : ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾. أو يشار باللام إلى الأنهار المذكورة في قوله : ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ . الآية.

وقوله ﴿كُلُّمَا رِزْقًا﴾ لا يخلو من أن يكون صفة ثانية لجنات ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو جملة مستأنفة ؛ لأنه لما قيل إن لهم جنات لم يخل خلد السامع أن يقع فيه أثمار تلك الجنات أشباه ثمار جنات الدنيا ، أم أجناس آخر لا تشابه هذه الأجناس؟ فقل إن ثمارها أشباه ثمار جنات الدنيا ، أى أجناسها أجناسها وإن تفاوتت إلى غاية لا يعلمها إلا الله. فان قلت : ما موقع ﴿مِنْ ثَمَرَةٍ﴾؟ قلت : هو كقولك : كلما أكلت من بستانك من الرمان شيئاً حمدتك. فموقع ﴿مِنْ ثَمَرَةٍ﴾ موقع قولك من الرمان ، كأنه قيل : كلما رزقوا من الجنات من أى ثمرة كانت من تفاحها أو رمانها أو عنبها أو غير ذلك رزقاً قالوا ذلك. فمن الأولى والثانية كلتاها لا ابتداء الغاية لأنّ الرزق قد ابتدئ من الجنات ، والرزق من الجنات قد ابتدئ من ثمرة. وتنزيله تنزيل أن تقول : رزقني فلان ، فيقال لك : من أين؟ فتقول : من بستانه ، فيقال : من أى ثمرة رزقك من بستانه؟ فتقول : من رمان. وتحريره أن «رزقوا» جعل مطلقاً مبتدأ من ضمير الجنات ، ثم جعل مقيداً بالابتداء من ضمير الجنات ، مبتدأ من ثمرة ، وليس المراد بالثمرة التفاح الواحدة أو الرمانة الفضة على هذا التفسير ، وإنما المراد النوع من أنواع الثمار. ووجه آخر : وهو أن يكون ﴿مِنْ ثَمَرَةٍ﴾ بيانا على منهج قولك : رأيت منك أسداً. تريد

أنت أسد. وعلى هذا يصح أن يراد بالثمرة النوع من الثمار ، والجنت الواحدة. فإن قلت : كيف قيل ﴿هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ وكيف تكون ذات الحاضر عندهم في الجنة هي ذات الذي رزقوه في الدنيا؟ قلت : معناه هذا مثل الذي رزقناه من قبل ^(١). وشبهه بدليل قوله وأتوا به متشابها ، وهذا كقولك : أبو يوسف أبو حنيفة ، تريد أنه لاستحكام الشبه كأن ذاته ذاته. فإن قلت : إلام يرجع الضمير في قوله : ﴿وَأَتُوا بِهِ﴾؟ قلت : إلى المرزوق في الدنيا والآخرة جميعاً ؛ لأنّ قوله : ﴿هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ انطوى تحته ذكر ما رزقوه في الدارين. ونظيره قوله تعالى : ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أُولَىٰ بِمَا﴾ أي بجنسى الغنى والفقر لدلالة قوله : غنيا أو فقيرا على الجنسيتين. ولو رجع الضمير إلى المتكلم به لقليل أولى به على التوحيد. فإن قلت : لأى غرض يتشابه ثمر الدنيا وثمر الجنة ، وما بال ثمر الجنة لم يكن أجناسا آخر؟ قلت : لأنّ الإنسان بالمألوف آنس ، وإلى المعهود أميل ، وإذا رأى ما لم يألفه نفر عنه طبعه وعافته نفسه ، ولأنه إذا ظفر بشيء من جنس ما سلف له به عهد وتقدّم له معه ألف ، ورأى فيه مزية ظاهرة ، وفضيلة بينة ، وتفاوتا بينه وبين ما عهد بليغاً ، أفرط ابتهاجه واغتباطه ، وطال استعجابه واستغرابه ، وتبين كنه النعمة فيه ، وتحقق مقدار الغبطة به. ولو كان جنساً لم يعهده وإن كان فائقا ، حسب أنّ ذلك الجنس لا يكون إلا كذلك ، فلا يتبين موقع النعمة حق التبين. فحين أبصروا الرمان من رمان الدنيا ومبلغها في الحجم ، وأن الكبرى لا تفضل عن حدّ البطيخة الصغيرة ، ثم يبصرون رمانة الجنة تشبع السكن. والنبقة من نبق الدنيا في حجم الفلكة ، ثم يرون نبق الجنة كقلال هجر ، كما رأوا ظل الشجرة من شجر الدنيا وقدر امتداده ، ثم يرون الشجرة في الجنة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، كان ذلك أبين للفضل ، وأظهر للمزية ، وأجلب للسرور ، وأزيد في التعجب من أن يفاجئوا ذلك الرمان وذلك النبق من غير عهد سابق بجنسهما. وترديدهم هذا القول ونطقهم به عند كل ثمرة يرزقونها ، دليل على تناهى الأمر وتمادى الحال في ظهور المزية وتمام الفضيلة ، وعلى أنّ ذلك التفاوت العظيم هو الذي يستملى تعجبهم ، ويستدعى تبجحهم في كل أوان. عن مسروق : «نخل الجنة نضيد من أصلها إلى فرعها ، وثمرها أمثال القلال ، كلما نرعت ثمرة عادت مكانها أخرى ، وأنهارها تجري في غير أخدود ، والعنقود اثنتا عشرة

(١) قال محمود رحمه الله : «معناه هذا مثل الذي رزقناه من قبل ... الخ». قال أحمد رحمه الله : وهذا من التشبيه بغير الأداة ، وهو أبلغ مراتب التشبيه ، كقولهم : أبو يوسف أبو حنيفة.

ذراعاً». ويجوز أن يرجع الضمير في : ﴿**أَتُوا بِهِ**﴾ إلى الرزق ، كما أن هذا إشارة إليه ، ويكون المعنى : أن ما يرزقونه من ثمرات الجنة يأتيهم متجانساً في نفسه ، كما يحكى عن الحسن : يؤتى أحدهم بالصحفة يأكل منها ، ثم يؤتى بالأخرى فيقول : هذا الذي أتينا به من قبل ، فيقول الملك : كل ، فاللون واحد والطعم مختلف. وعنه صلى الله عليه وسلم : «والذي نفس محمد بيده ^(١) ، إن الرجل من أهل الجنة ليتناول الثمرة ليأكلها فما هي بواصلة إلى فيه حتى يبدل الله مكانها مثلها» فإذا أبصروها والهيئة هيئة الأولى قالوا ذلك. والتفسير الأول هو هو. فإن قلت : كيف موقع قوله : ﴿**وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا**﴾ من نظم الكلام؟ قلت : هو كقولك : فلان أحسن بفلان ونعم ما فعل. ورأى من رأى كذا وكان صواباً. ومنه قوله تعالى : ﴿**وَجَعَلُوا أَعْرََّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ**﴾ وما أشبه ذلك من الجمل التي تساق في الكلام معترضة للتقرير. والمراد بتطهير الأزواج : أن طهرن مما يختص بالنساء من الحيض والاستحاضة ، وما لا يختص بهنّ من الأقدار والأدناس. ويجوز لجيئه مطلقاً : أن يدخل تحته الطهر من دنس الطباع وطبع الأخلاق الذي عليه نساء الدنيا ، مما يكتسبن بأنفسهنّ ، ومما يأخذنه من أعراق السوء والمناصب الرديئة والمناشئ المفسدة ، ومن سائر عيوبهنّ ومثالبهنّ وخبثهنّ وكيدهنّ. فان قلت : فهلا جاءت الصفة مجموعة كما في الموصوف؟ قلت : هما لغتان فصيحتان. يقال : النساء فععلن ، وهنّ فاعلات وفواعل ، والنساء فعلت ، وهي فاعلة. ومنه بيت الحماسة :

وَإِذَا الْعَذَارَى بِالْـدُّخَانِ تَقَنَّعَتْ وَاسْتَتَعْجَلَتْ نَضَبُ الْقُدُورِ فَمَلَّتْ ^(٢)

(١) أخرجه الطبراني والبخاري والحاكم من حديث ثوبان بلفظ «لا ينزع رجل من أهل الجنة من ثمرها شيئاً إلا أخلف الله مكانها مثلها» ولفظ البزار : «إلا أعيد في مكانها مثليها» على التثنية. وسيأتى في آخر الزخرف.

(٢) وإذا العذرى بالدخان تقنعت واستتعتجلت نضاب القُدور فملت
دارت بأرزاق العنساء مغالق بيدي من قمع العشار الجليلة
ولقد رأيت ثأى العشيرة بينها وكفيتها جانبها اللتيما واليتي

لسلمى بن ربيعة بن جفنة الضبي وشبه استتار الأبقار بالدخان أو سوادهن به باستتارهن بالقناع على طريق التصريح أو شبه الدخان به على طريق المكنية. وملت : شوت المليل بأن تضع اللحم أو الخبز على الجمر فينضج. ويروى «درت» بدل «دارت» أى كثر بذلها. والعفاة : طلاب الرزق. والمغالق : سهام الميسر التي تغلق الحظر وتثبت للغالب. والقمع : قطع السنام جمع قمع. والعشار : النوق التي مضى على حملها عشرة أشهر. والجملة : السمان العظيمات السنام ، جمع جليل كصبية جمع صبي ، أى إذا جذب الزمان ، حتى أن الأبقار مع فرط حيائهن ووصوفهن ، يقبلن على الدخان ويشتوين على الجمر ، ويأكلن ولا يصبرن لنضج القدور من الجوع بذلت للناس بكثرة. ويحتمل أن مخدراته تباشر تنضيج قرى الضيفان بأنفسهن فيبذله لهم. والأول أبلغ. ورأيت : أصلحت. والثأى الفساد وكفيت .

والمعنى وجماعة أزواج مطهرة^(١). وقرأ زيد بن علي : (مطهرات) وقرأ عبيد بن عمير : مطهرة ، بمعنى متطهرة. وفي كلام بعض العرب : ما أحوجني إلى بيت الله. فأطهر به أطهرة. أى فأتطهر به تطهرة. فإن قلت : هلا قيل طاهرة؟ قلت : في «مطهرة» فخامة لصفتهنّ ليست في طاهرة ، وهي الإشعار بأن مطهراً طهرهنّ. وليس ذلك إلا الله عزّ وجلّ المرید بعباده الصالحين أن يخوّلهم كلّ مزية فيما أعدّ لهم.

والخلد : الثبات الدائم والبقاء اللازم الذي لا ينقطع. قال الله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ، أَلَا إِنَّ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾. وقال امرؤ القيس :

أَلَا أَنْعَمَ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي وَهَلْ يَنْعَمَنْ مَنْ كَانَ فِي الْعُصْرِ الْخَالِي
وَهَلْ يَنْعَمَنْ إِلَّا سَعِيدٌ مُحَلَّلٌ قَلِيلُ الْهُمُومِ مَا يَبِيْتُ بِأَوْجَالِ^(٢)

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَغُوصَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا

. من جنى منها. ويروى «جانبها» بالموحدة الداهية الصغيرة والكبيرة. واللتيا : تصغير التي كغيرها من الموصولات التي سمع تصغيرها ، وزيدت الألف في آخرها عوضاً عن ضم التصغير ، وهي بفتح اللام. وقال الأخفش بضمها على قياس التصغير وإن كان شاذاً في الأسماء المبنية كما هنا. واستغنت عن الصلة لنقلها بالتصغير عن معنى الموصولية وحمل عليها «التي» لأنها لما ذكرت في مقابلتها كان معناها الداهية العظيمة فلم يكن قصد إلى معنى الموصولية أيضاً. وقيل يجوز حذف الصلة لدليل ، فيقدر هنا : اللتيا صغرت ، والتي عظمت. ثم إن هذا من قبيل الأمثال السائرة. وأصله أن رجلاً تزوج امرأة قصيرة فقاسى منها الشدائد ، ثم زوج طويلة أيضاً فقاسى ضعف ذلك ، فطلقهما وقال : بعد اللتيا والتي لا أتزوج أبداً.

(١) قوله «وجماعة أزواج مطهرة» لعل الواو مزيدة من الناسخ. أو لعل أصله ولهم فيها جماعة أزواج. (ع)

(٢) لامرئ القيس. وألا استفتاحية. وأنعم صباحاً : تحية الجاهلية ، أى طاب عيشك. ويخفف فيقال عم ، كما روى هنا. وكذلك «يعمن» روى هنا أيضاً. ونعم ينعم كضرب يضرب : ونعم ينعم كسهل يسهل. ونعم ينعم كعلم يعلم. ونعم ينعم بكسر عينهما وهو قليل ، بمعنى صار ناعماً لينا. وخص الصباح لأنه وقت الغارات. والطلل : ما بقي من آثار الديار. والبالى : الفاني. والمراد تحية أهل الطلل ثم تذكر الخطأ في تحيتهم فقال : لا يتنعم من كان في الزمن الماضي وهو اليوم فان ، فالاستفهام إنكارى : والمخلد : طويل العمر بحيث لا يفنى. والأوجال : جمع وجل وهو الخوف ، والباء للملابسة. ويجوز أنها للظرفية تخيلاً.

يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ
أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾

سيقت هذه الآية لبيان أنّ ما استنكره الجهلة والسفهاء وأهل العناد والمرء من الكفار واستغريوه من أن تكون المحقرات من الأشياء مضروبا بها المثل ، ليس بموضع للاستنكار والاستغراب ، من قبل أنّ التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب ، وإدناء المتوهم من المشاهد. فان كان الممثل له عظيما كان الممثل به مثله ، وإن كان حقيرا كان الممثل به كذلك. فليس العظم والحقارة في المضروب به المثل إذاً إلا أمراً تستدعيه حال الممثل له وتستجّزه إلى نفسها ، فيعمل الضارب للمثل على حسب تلك القضية. ألا ترى إلى الحق لما كان واضحاً جلياً أبلغ ، كيف تمثل له بالضياء والنور؟ وإلى الباطل لما كان بضد صفته ، كيف تمثل له بالظلمة؟ ولما كانت حال الآلهة التي جعلها الكفار أنداداً لله تعالى لا حال أحقر منها وأقلّ ، ولذلك جعل بيت العنكبوت مثلها في الضعف والوهن ، وجعلت أقلّ من الذباب وأخس قدرا ، وضربت لها البعوضة فالذي دونها مثلاً لم يستنكر ولم يستبدع ، ولم يقل للممثل : استحي من تمثيلها بالبعوضة ، لأنه مصيب في تمثيله ، محق في قوله ، سائق للمثل على قضية مضربه ، محتذ على مثال ما يحتكمه ويستدعيه ، ولبيان أنّ المؤمنين الذين عادتهم الإنصاف والعمل على العدل والتسوية والنظر في الأمور بناظر العقل ، إذا سمعوا بمثل هذا التمثيل علموا أنه الحق الذي لا تمرّ الشبهة بساحته ، والصواب الذي لا يرتع الخطأ حوله. وأنّ الكفار الذين غلبهم الجهل على عقولهم ، وغضبهم على بصائرهم فلا يتفطنون ولا يلقون أذهانهم ، أو عرفوا أنه الحق إلا أنّ حب الرياسة وهوى الألف والعادة لا يخليهم أن ينصفوا ، فإذا سمعوه عاندوا ^(١) وكابروا وقضوا عليه بالبطلان ، وقابلوه بالإنكار ، وأنّ ذلك سبب زيادة هدى المؤمنين وانهماك الفاسقين في غيهم وضلالهم. والعجب منهم كيف أنكروا ذلك وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور وأحناش الأرض والحشرات والهوام ، وهذه أمثال العرب بين أيديهم مسيرة في حواضرهم وبواديهم قد تمثلوا فيها بأحقر الأشياء

(١) قوله «فإذا سمعوه عاندوا» لعل زيادة الفاء في خبر أن لشبه اسمها بالشرط. (ع)

فقالوا : أجمع من ذرة ، وأجرأ من الذباب ، وأسمع من قراد ، وأصرد من جرادة ^(١) ، وأضعف من فراشة ، وأكل من السوس . وقالوا في البعوضة : أضعف من بعوضة ، وأعز من مخ البعوض . وكلفتني مخ البعوض . ولقد ضربت الأمثال في الإنجيل بالأشياء المحقرة ، كالزوان والنخالة ^(٢) وحب الخردل ، والحصاة ، والأرضة ، والدود ، والزناير . والتمثيل بهذه الأشياء وبأحقق منها مما لا تغنى استقامته وصحته على من به أدنى مسكة ، ولكن ديدن المحجوج المبهوت الذي لا يبقى له متمسك بدليل ولا متشبث بأمانة ولا إقناع ، أن يرمى لفرط الحيرة والعجز عن أعمال الحيلة بدفع الواضح وإنكار المستقيم والتعويل على المكابرة والمغالطة إذا لم يجد سوى ذلك معوّلاً . وعن الحسن وقتادة : لما ذكر الله الذباب والعنكبوت في كتابه وضرب للمشركين به المثل ، ضحكت اليهود وقالوا : ما يشبه هذا كلام الله . فأنزل الله عز وجل هذه الآية .

والحياء تغير وانكسار يعتري الإنسان من تخوّف ما يعاب به ويذم . واشتقاقه من الحياة . يقال : حيي الرجل ، كما يقال : نسي وحشى وشظى الفرس ، إذا اعتلت هذه الأعضاء ^(٣) جعل الحي لما يعتريه من الانكسار والتغير ، منتكس القوّة منتقص الحياة ، كما قالوا : هلك فلان حياء من كذا ، ومات حياء ، ورأيت الهلاك في وجهه من شدّة الحياء . وذاب حياء ، وجمد في مكانه خجلاً . فإن قلت : كيف جاز وصف القديم سبحانه به ^(٤) ولا يجوز عليه التغير والخوف والذم ، وذلك في حديث سلمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الله حي كريم ^(٥) يستحي إذا رفع إليه العبد يديه أن يردهما صفراً حتى يضع فيهما خيراً» . قلت :

(١) قوله «وأصرد من جرادة» في الصحاح : صرد الرجل بالكسر فهو صرد ومصراد : يجد البرد سريعاً (ع)

(٢) قوله «كالزوان والنخالة» في الصحاح : الزوان حب يخالط البر (ع)

(٣) قوله «إذا اعتلت هذه الأعضاء» عرق النسا والحشا والشظى . وفي الصحاح : الشظى عظم مستدق ملزق بالذراع ، فإذا تحرك في موضعه قيل : قد شظى الفرس (ع)

(٤) قال محمود رحمه الله : «إن قلت كيف جاز وصف الله تعالى بالاستحيائية ... الخ»؟ قال أحمد رحمه الله : ولقائل أن يقول : ما الذي دعاه إلى تأويل الآية مع أن الحياء الذي يخشى نسبة ظاهره إلى الله تعالى مسلوب في الآية كقولنا : الله ليس بجسم ولا بجوهر في معرض التنزيه والتقديس . وأما تأويل الحديث فمستقيم ، لأن الحياء فيه ثبت لله تعالى . وللمخشّي أن يجيب بأن السلب في مثل هذا إنما يطرأ على ما يمكن نسبته إلى المسلوب عنه . إذ مفهوم نفى الاستحياء عنه في شيء خاص ، ثبوت الاستحياء في غيره ، فالحاجة داعية إلى تأويله لما أفضى إليه مفهومه . وإنما يتوجه السؤال لو كان الاستحياء مسلوباً مطلقاً ، كقولنا : الله لا يحول ولا يزول ؛ فإن ذلك لا يثبت ومحال ، بل يقال : هو مقدس منزّه مطلقاً ،

(٥) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديثه بلفظ «إن ربكم حي كريم يستحي .

هو جار على سبيل التمثيل مثل تركه تخيب العبد وأنه لا يردّ يديه صفرا من عطائه لكرمه بترك من يترك ردّ المحتاج إليه حياء منه. وكذلك معنى قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ أى لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحي أن يتمثل بها لحقارتها. ويجوز أن تقع هذه العبارة في كلام الكفرة ، فقالوا : أما يستحي رب محمد أن يضرب مثلا بالذباب والعنكبوت فجاءت على سبيل المقابلة وإطباق الجواب على السؤال. وهو فنّ من كلامهم بديع ، وطراز عجيب ، منه قول أبي تمام :

مَنْ مَبْلَغُ أَفْنَاءٍ يَغْرُبُ كُلُّهَا أَنِّي بَنَيْتُ الْجَارَ قَبْلَ الْمُنْزِلِ؟^(١)

وشهد رجل عند شريح. فقال : إنك لسبط الشهادة. فقال الرجل : إنها لم تبعد عني. فقال : لله بلادك ، وقبل شهادته. فالذي سوغ بناء الجار وتباعد الشهادة هو مراعاة المشاكلة. ولولا بناء الدار لم يصح بناء الجار. وسبوط الشهادة لامتنع تباعدها. والله درّ أمر التنزيل وإحاطته بفنون البلاغة وشعبها ، لا تكاد تستغرب منها فنا إلا عثرت عليه فيه على أقوم مناهجه وأسدّ مدارجه. وقد استعير الحياء فيما لا يصح فيه :

إِذَا مَا اسْتَحْيَيْنَ الْمَاءَ يَغْرِضُ نَفْسَهُ كَرَعْنَ بِسَبْتٍ^(٢) فِي إِنْاءٍ مِّنَ الْوُورِ^(٣)

. من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردّها صفراً» قال الترمذي : حسن غريب. ورواه بعضهم ولم يرفعه. وفي الباب عن أنس رضى الله عنه. أخرجه عبد الرزاق أخبرنا معمر عن أبان عنه. وأخرجه أبو نعيم في الحلية من طريق أبان. وأخرجه الحاكم من طريق حفص بن عمر بن عبد الله بن أبي طلحة قال : حدثني أنس بن مالك رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن الله رحيم حتى كريم يستحي من عبده أن يرفع يديه ثم لا يضع فيهما خيراً» وعن جابر أخرجه أبو يعلى. وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر وهو متروك وعن ابن عمر رضى الله عنهما أخرجه الطبراني.

(١) لأبي تمام. وفناء الدار : ما امتد من جوانبها ، وجمعه أفنية. ويقال : هو من أفناء الناس ، إذا لم يعلم من أى قبيلة هو ، أى من أطرافهم. ويعرب : اسم قبيلة ، وبناء الجار : اتخاذه ، سماه بناء للمشاكلة التقديرية حيث قرنه بما بينى وهو المنزل وهو مجاز بجامع مطلق الاتخاذ أو علاقته المجاورة الذهنية أو اللفظية ، وهذه العلاقة تجرى في كل مشاكلة. ولم يرتضه بعضهم ، واختار أنها إن لم يوجد لها علاقة فهي قسم رابع لا حقيقة ولا مجاز ولا كناية.

(٢) (قوله بسبت في إناء من الورد) في الصحاح : السبت بالكسر جلود البقر المدبوعة بالقرظ اه وهو في البيت مجاز كالإناء من الورد (ع)

(٣) كفـفـانا الـريـبع العـيس مـن بـركـاتـه فـجـاءتـه لـم تـسـمـع حـدـاء سـوى الرـعد

إذا ما استـحـين المـاء يعـرض نـفـسـه كـرعـن بـسـبـت في إناء مـن الـورد

للمتنبي. والعيس : الإبل. والربيع : المطر. والحداء : الغناء للإبل ، والاستثناء متصل على تشبيه الرعد بالحداء ، وجعله من أفراد ، أى : كفانا حاجة العيس لكثرتة ، حتى كأنه يعرض نفسه على النوق. ويقال : استحي واستحي كما هنا .

وقرأ ابن كثير في رواية شبيل (يستحي) بياء واحدة. وفيه لغتان : التعدي بالجاء والتعدي بنفسه. يقولون : استحييت منه واستحييته ، وهما محتملتان هاهنا. وضرب المثل : اعتماده وصنعه ، من ضرب اللبن وضرب الخاتم. وفي الحديث «اضطرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتماً من ذهب» ^(١) و (ما) هذه إجماعية ^(٢) وهي التي إذا اقترنت باسم نكرة أجهته إجماعاً وزادته شياعاً وعموماً ، كقولك : أعطني كتاباً ما ، تريد أى كتاب كان. أو ضلة للتأكيد ، كالتى في قوله : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ كأنه قيل : لا يستحي أن يضرب مثلاً حقاً أو البتة ، هذا إذا نصبت ﴿بِعُوضَةٍ﴾ فإن رفعتها فهي موصولة ، ^(٣) صلتها

. أى إذا خشين من عرض نفسه عليهن ، أو امتنعن منه. وروى «استجبن» بالجيم فالموحدة ، أى أطعنه في عرض نفسه عليهن. وجملة «يعرض نفسه» حالية. واستعار السبب بالكسر . وهو الجلد المدبوغ بالقرظ . لمشافر النوق على طريق التصريح. وكذلك استعار الإناء من الورد للبركة التي كثر زهرها ونورها ، وإن لم يكن ذلك الإناء موجوداً و «في» بمعنى «من». ويجوز أنه جعل الأرض ظرفاً للشرب.

(١) أخرجه مسلم من حديث أنس رضى الله عنه.

(٢) قال محمود رحمه الله : «وما هذه إجماعية ... الخ». قال أحمد رحمه الله : وفيها وهم إمام الحرمين في تقرير نصوصية العموم في قوله عليه الصلاة والسلام : «أبما امرأة نكحت بغير إذن وليها ... الحديث» فانه قرر العموم والإجماع في أى ، ثم قال : فإذا انضافت إليها ما الشرطية كان ذلك أبلغ في اقتضاء العموم ، فاعتقد أن المؤكدة هي الشرطية ، وإنما هي حرف مزيد لهذا الغرض. وأما «ما» الشرطية فاسم كمن. والله الموفق.

(٣) قال محمود : «هذا إذا نصبت بعوضة ، فان رفعتها فهي موصولة ... إلى قوله : ووجه آخر جميل وهو أن تكون ... الخ». قال أحمد : حملها على الاستفهامية بالمعنى الذي قرره : فيه نظر ؛ لأن قوله تعالى «فما فوقها» في الحقارة فيكون معناه : فما دونها. وإما أن يراد فما هو أكبر منها حجماً. وعلى كلا التقديرين يتقدر الاستفهام ؛ لأنه إنما يستعمل في مثل : ما دينار وديناران ، أى إذا جاد بالكثير فما القليل. وإذا ذهب في الآية هذا المذهب لم تجد لصحته مجالا ، إذ يكون الراد : إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً بالحقرات ، فما البعوضة وما هو أحقر منها. وقد فرضنا أنها في أحد الوجهين نهاية في المحقرات ، وفي الوجه الآخر ليست نهاية ، بل النهاية في قوله : ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ أى دونها. فإذا حمل ما بعد الاستفهام على النهاية في الوجهين جميعاً لم ينتظم التنبيه المذكور ، بل ينعكس الغرض فيه ؛ إذ المقصود في مثل قولنا : فلان لا يبالي بعطاء الألوفاً فما الدينار الواحد . التنبيه على أن إعطاء القليل منه محقق بعطائه الكثير بطريق الأولى ، ولا يتحقق في الآية على هذا التقدير أنه لا يستحي من ضرب المثل بالحقرات التي لا تبلغ النهاية ، فكيف يستحي من ضرب المثل بما يبلغ النهاية في الحقارة كالبعوضة. هذا عكس لنظم الأولوية ، ولو كانت الآية مثلاً واردة على غير هذا التكلم كقول القائل : إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً بالبعوضة التي هي نهاية في الحقارة ، فما الأنعام التي هي أبهى من البعوضة أو أبعد منها عن الحقارة بما لا يخفى ، لكان تقرير الزمخشري متوجهاً ، وما أراه والله أعلم إلا واهماً في هذا الوجه. وما طولت النفس ووسعت العبارة في الاعتراض عليه ، إلا أنه محل ضيق ومعنى متعاص لا يخلص إلى الفهم إلا بهذا المزيد من البسط. وناهيك بموضع العكس على فهم الزمخشري بل مع تعود فهمه وإصابة نسجه ، خصوصاً في تنسيق المعاني وتفصيلها والله الموفق. وما تبججه بالعثور على الوجه .

الجملة ؛ لأن التقدير : هو بعوضة ، فحذف صدر الجملة كما حذف في : ﴿قَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ ووجه آخر حسن جميل ، وهو أن تكون التي فيها معنى الاستفهام لما استنكفوا من تمثيل الله لأصنامهم بالمحقرات قال : إن الله لا يستحي أن يضرب للأنداد ما شاء من الأشياء المحقرة مثلاً ، بله البعوضة فما فوقها ، كما يقال : فلان لا يبالي بما وهب ما دينار وديناران. والمعنى : أن الله أن يتمثل للأنداد وحقارة شأنها بما لا شيء أصغر منه وأقل ، كما لو تمثل بالجزء الذي لا يتجزأ وبما لا يدركه ^(١) لتناهيه في صغره إلا هو وحده بلطفه ، أو بالمعدوم ، كما تقول العرب : فلان أقل من لا شيء في العدد. ولقد ألم به قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وهذه القراءة تعزى إلى رؤية بن العجاج ، وهو أمضغ العرب للشيخ والقيصوم ، والمشهود له بالفصاحة ، وكانوا يشبهون به الحسن ، وما أظنه ذهب في هذه القراءة إلا إلى هذا الوجه ، وهو المطابق لفصاحته. وانتصب ﴿بَعُوضَةً﴾ بأنها عطف بيان لمثلاً. أو مفعول ليضرب ، و ﴿مَثَلًا﴾ حال عن النكرة مقدمة عليه. أو انتصبا مفعولين فجرى «ضرب» مجرى «جعل». واشتقاق البعوض من البعض وهو القطع كالبضع والعضب. يقال : بعضه البعوض. وأنشد :

لَنَنْعَمَ الْبَيْتُ بَيْتُ أَبِي دِثَارٍ إِذَا مَا خَافَ بَعْضُ الْقَوْمِ بَعْضًا ^(٢)

ومنه : بعض الشيء لأنه قطعه منه. والبعوض في أصله صفة على فعول كالقَطُوعِ فغلبت. وكذلك الخموش ^(٣) ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ فيه معنيان : أحدهما : فما تجاوزها وزاد عليها في المعنى الذي ضربت فيه مثلاً ، وهو القلة والحقارة ، نحو قولك . لمن يقول : فلان أسفل الناس وأنذلهم . :

. الذي ظن أن رؤية بن العجاج راعاه في قراءته ، فكلام ركيك توهم أن القراءة موكولة إلى رأى القارئ وتوجيهه لها ونصرتة بالعربية وفصاحته في اللغة ، وليس الأمر كذلك ، بل القراءة على اختلاف وجوهها وبعد حروفها : سنة تتبع ، وسماع يقضى بنقله ، الفصيح وغيره على حد سواء ، لا حيلة للفصيح في تعسر شيء منه عما سمعه عليه ، وما يصنع بفصاحته في القرآن الذي بدد كل فصاحة وعزل كل بلاغة. فالصحيح والمعتقد أن كل قارئ معزول إلا عما سمعه فوعاه ، وتلقنه من الأفواه ، فأداه إلى أن ينتهى ذلك إلى استماع من أنصح من نطق بالضاد : سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، فتأمل هذا الفصل فان فاهمه قليل

(١) قوله «وبما لا يدركه» لعله : أو بما. (ع)

(٢) المراد بالبيت : الكلة التي تمنع البعوض ليالي الصيف عمن فيها : وأبو دثار : اسم رجل. والدثار : ما يلبس فوق الثياب إذا خاف بعض القوم بعض البعوض ، أى قطعه ولسعه. ويحتمل أن المعنى : نعم المأوى والملجأ بيت أبي دثار ، أخاف بعض الناس من شر بعضهم. ففيه التورية وهي من بديع الكلام.

(٣) قوله «وكذلك الخموش» في الصحاح : الخموش . بالفتح . : البعوض. (ع)

هو فوق ذاك ، تريد هو أبلغ وأعرق فيما وصف به من السفالة والندالة. والثاني : فما زاد عليها في الحجم ، كأنه قصد بذلك ردّ ما استنكروه من ضرب المثل بالذباب والعنكبوت ، لأنهما أكبر من البعوضة. كما تقول لصاحبك . وقد ذمّ من عرفته يشح بأدنى شيء فقال ؛ فلان بخل بالدرهم والدرهمين . : هو لا يبالي أن يبخل بنصف درهم فما فوقه ، تريد بما فوقه ما بخل فيه وهو الدرهم والدرهمان ، كأنك قلت : فضلا عن الدرهم والدرهمين. ونحوه في الاحتمالين ما سمعناه في صحيح مسلم عن إبراهيم عن الأسود قال : دخل شباب من قريش على عائشة رضى الله عنها وهي بمنى وهم يضحكون. فقالت : ما يضحكم؟ قالوا : فلان خرّ على طنب فسطاط فكادت عنقه أو عينه أن تذهب. فقالت : لا تضحكوا. إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «ما من مسلم يشاك شوكه فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت بما عنه خطيئة»^(١) يحتمل فما عدا الشوكه وتجاوزها في القلة وهي نحو نخبة النملة في قوله عليه الصلاة والسلام : «ما أصاب المؤمن من مكروه فهو كفارة لخطايا حتى نخبة النملة»^(٢) وهي عضتها. ويحتمل ما هو أشد من الشوكه وأوجع كالخروج على طنب الفسطاط. فإن قلت : كيف يضرب المثل بما دون البعوضة وهي النهاية في الصغر؟ قلت : ليس كذلك ، فإن جناح البعوضة أقل منها وأصغر بدرجات ، وقد ضربه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً للدنيا^(٣) ، وفي خلق الله حيوان أصغر منها ومن جناحها ، ربما رأيت في تضاعيف الكتب العتيقة دويبة لا يكاد يجلبها للبصر الحادّ إلا تحركها ، فإذا سكنت فالسكون يواربها ، ثم إذا لوحت لها بيدك حادت عنها وتجنبت مضرتها ، فسبحان من يدرك صورة تلك وأعضاءها الظاهرة والباطنة وتفاصيل خلقتها ويصبر بصرها ويطلع على ضميرها ، ولعل في خلقه ما هو أصغر منها وأصغر ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ وأنشدت لبعضهم :

يَا مَنْ يَرَى مَدَّ الْبُعْضِ جَنَاحَهَا	فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ لِيَلْبِثَ الْبَهِيمُ الْأَلْيَسُ
وَيَرَى غُرُوقَ نَيَاطِطِهَا فِي نَحْرِهَا	وَالْمَمِخَّ فِي تَلْكَ الْعِظَامِ النَّحَّاسُ
اغْفِرْ لِعَبْدٍ تَابَ مِنْ قَرَّاطَتِهِ	مَا كَانَ مِنْهُ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ ^(٤)

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة.

(٢) لم أجده. وأصل الحديث . دون ما في آخره . مروي بطرق كثيرة.

(٣) كأنه يشير إلى حديث سهل بن سعد مرفوعا «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء». أخرجه الترمذي.

(٤) للزمخشري ، وإن كانت عادته في الكتاب أن لا ينسب شعره لنفسه. يقول : يا الله يا مبصر الخفيات حتى

و ﴿فَأَمَّا﴾ حرف فيه معنى الشرط ، ولذلك يجاب بالفاء. وفائدته في الكلام أن يعطيه فضل تأكيد. تقول : زيد ذاهب. فإذا قصدت تأكيد ذاك وأنه لا محالة ذاهب وأنه بصدد الذهاب وأنه منه عزيمة قلت : أما زيد فذاهب. ولذلك قال سيبويه في تفسيره : مهما يكن من شيء فزيد ذاهب. وهذا التفسير مدل لفائدتين : بيان كونه تأكيداً ، وأنه في معنى الشرط. ففي إيراد الجملتين مصدرتين به . وإن لم يقل : فالذين آمنوا يعلمون ، والذين كفروا يقولون . إحماد عظيم لأمر المؤمنين ، واعتداد بعلمهم أنه الحق ، ونعى على الكافرين إغفالهم حظهم وعنادهم ورميهم بالكلمة الحمقاء. و ﴿الْحَقُّ﴾ الثابت الذي لا يسوغ إنكاره. يقال : حق الأمر ، إذا ثبت ووجب. وحقت كلمة ربك ، وثوب محقق : محكم النسخ : و ﴿مَا ذَا﴾ فيه وجهان : أن يكون ذا اسماً موصولاً بمعنى الذي ، فيكون كلمتين. وأن يكون (ذا) مركبة مع (ما) مجموعتين اسماً واحداً فيكون كلمة واحدة ، فهو على الوجه الأول مرفوع المحل على الابتداء وخبره ذا مع صلته. وعلى الثاني منصوب المحل في حكم (ما) وحده لو قلت : ما أراد الله. والأصوب في جوابه أن يجيء على الأول مرفوعاً ، وعلى الثاني منصوباً ، ليطابق الجواب السؤال. وقد جَوَّزُوا عكس ذلك تقول . في جواب من قال : ما رأيت؟ . خير ، أى المرئي خير. وفي جواب ما الذي رأيت؟ خيراً ، أى رأيت خيراً. وقرئ قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ بالرفع والنصب على التقديرين. والإرادة نقيض الكراهة ، وهي مصدر أردت الشيء إذا طلبته نفسك ومال إليه قلبك. وفي حدود المتكلمين : الإرادة معنى يوجب للحىّ حالاً لأجلها يقع منه الفعل على وجه دون وجه. وقد اختلفوا في إرادة الله ، فبعضهم على أنّ للباري مثل صفة المريد منا التي هي القصد ، وهو أمر زائد على كونه عالماً غير ساه. وبعضهم على أن معنى إرادته لأفعاله هو أنه فعلها وهو غير ساه ولا مكروه. ومعنى إرادته لأفعال غيره أنه أمر بها. والضمير في ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ للمثل ، أو لأن يضرب. وفي قولهم (ما ذا أراد الله بهذا مثلاً) استزدال واستحقار كما قالت عائشة رضی الله عنها في عبد الله بن عمرو بن العاصي ^(١) يا عجباً لابن عمرو

. مد البعوض جناحها في ظلمة الليل. والبهيم : المظلم ، لانبهام الأشياء فيه. والأليل : أفعل تفضيل من الليل . وإن كان جامداً. للمبالغة في الظلمة. والنياط : عرق غليظ منوط بالقلب تتصل به عروق رقيقة. والنحر : أسفل العنق والمخ : ما في وسط العظام. والنحل : جمع ناحل ، أى دقيق. والفرطات : ذنوبه التي فرطت منه. و «ما كان» مفعول «أغفر». والزمان الأول : زمن الشباب.

(١) هو قطعة من حديث أخرجه مسلم في كتاب الحيض من رواية عبيد بن عمير قال «بلغ عائشة أن عبد الله ابن عمرو بن العاص كان يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن ، فقالت عائشة : يا عجباً لابن عمرو هذا يأمر النساء ... الحديث».

هذا؟ ﴿مَثَلًا﴾ نصب على التمييز كقولك لمن أجاب بجواب غث : ما ذا أردت بهذا جوابا. ولمن حمل سلاحا رديا. كيف تنتفع بهذا سلاحا؟ أو على الحال ، كقوله : ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾. وقوله : ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ جاز مجرى التفسير والبيان للجملتين المصدرتين بأما ، وأن فريق العالمين بأنه الحق وفريق الجاهلين المستهزئين به كلاهما موصوف بالكثرة ، وأنّ العلم بكونه حقاً من باب الهدى الذي ازداد به المؤمنون نوراً إلى نورهم ، وأنّ الجهل بحسن مورده من باب الضلالة التي زادت الجهلة خبطا في ظلماتهم. فإن قلت : لم وصف المهديون بالكثرة . والقلّة صفتهم ^(١) ، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ ، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ ، الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة ، وجدت الناس أخبر ثقله؟ قلت : أهل الهدى كثير في أنفسهم ، وحين يوصفون بالقلّة إنما يوصفون بما بالقياس إلى أهل الضلال. وأيضاً فإنّ القليل من المهديين كثير في الحقيقة وإن قلوا في الصورة ، فسموا ذهاباً إلى الحقيقة كثيراً :
 إِنَّ الْكَرَامَ كَثِيرٌ فِي الْبِلَادِ وَإِنْ قَلُّوا كَمَّا غَيَّرُهُمْ قَلٌّ وَإِنْ كَثُرُوا ^(٢)
 وإسناد الإضلال إلى الله تعالى إسناد الفعل إلى السبب ^(٣) : لأنه لما ضرب المثل فضل به قوم

(١) قال محمود رحمه الله : فان قلت : كيف وصف المهديون بالكثرة ... الخ؟ قال أحمد رحمه الله : جوابه صحيح ، وتنظيره بالبيت وهم ؛ لأن الشاعر إنما ذهب إلى أن عدد الكرام وإن كان قليلا في نفسه فالواحد منهم لعموم نفعه وانيساط كرمه يقوم مقام ألف من جنسه مثلاً. وعدد اللثام وإن كثروا فالأكثر منهم يعدون بواحد من غيرهم ، لعل أيديهم وانقباضها عن الجود ، وعدم تعدى نفع منهم إلى غيرهم ، كقول ابن يزيد :

النَّاسُ أَلْفٌ مِّنْهُمْ كَوَاحِدٍ وَوَاحِدٌ كَأَلْفٍ إِنْ أَمَّرَ عَنَّا

وأما الآية فمضمونها أن عدد المهديين كثير في نفسه ، ومضمون الآيات الأخر أن عددهم قليل بالنسبة إلى كثرة عدد الضالين ، فعبّر عنه تارة بالكثرة نظراً إلى ذاته ، وتارة بالقلّة نظراً إلى غيره ، فليس معنى البيت من الآية في شيء.

(٢) القل . بالفتح . : القليل ، وهو المراد. وبالضم : بمعنى القلة ، ويستعمل بمعنى القليل أيضا. وبالكسر : الارتعاد غضباً. يقول : إن الكرام في الدنيا كثير لكثرة خيرهم ، لأن الكريم يقاوم ألف لئيم ، والحال أنهم قليل في العدد كما أن غيرهم . يعنى اللثام . قليل في الخير وإن كثروا في العدد. فوجه الشبه اجتماع الكثرة والقلّة في كل على التوزيع.

(٣) قال محمود رحمه الله : «ونسبة الإضلال إلى الله تعالى من إسناد الفعل إلى السبب ... الخ». قال أحمد رحمه الله : جرى على سنة السببية في اعتقاد أن الاشراك بالله وأن الإضلال من جملة المخلوقات الخارجة عن عدد مخلوقاته عز وجل ، بل من مخلوقات العبد لنفسه على زعم هذه الطائفة . تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً. وانظر إلى ضيق الخناق ، فغلبة الحكايات لاطلاقات المشايخ فرتب عليها حقائق العقائد ، وهذا من ارتكاب الهوى واقتحام الهلكة. وما أشنع تصريحه بأن الله سبب الإضلال لا خالقه كما أن السلة سبب في وضع القيود في رجلي المحبوس ، وإسناد الفعل لله عز وجل مجاز لا حقيقة ، كما أن إسناد الفعل إلى البلد كذلك! يا له من تمثيل صار به مثلة ، وتنظير صار به حائداً عن النظر الصحيح ، مردود على التفصيل والجملة. نسأل الله تعالى العصمة من أمثال هذه الزلة ، وهو ولى التوفيق.

واهتدى به قوم ، تسبب لضلالهم وهداهم. وعن مالك بن دينار رحمه الله أنه دخل على محبوس قد أخذ بمال عليه وقيد ، فقال : يا أبا يحيى ، أما ترى ما نحن فيه من القيود؟ فرفع مالك رأسه فرأى سلة. فقال : لمن هذه السلة؟ فقال : لي ، فأمر بها تنزل ، فإذا دجاج وأخبصة ، فقال مالك : هذه وضعت القيود على رجلك. وقرأ زيد بن علي : يَظِلُّ بِهِ كَثِيرٌ . وكذلك : وما يَظِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقُونَ. والفسق : الخروج عن القصد. قال رؤبة :

فَوَاسِقًا عَنْ قَصْدِهَا جَوَائِرًا ^(١)

والفاسق في الشريعة الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة ، وهو النازل بين المنزلتين ^(٢) أى بين منزلة المؤمن والكافر ، وقالوا ؛ إِنَّ أَوَّلَ مَنْ حَدَّ لَهُ هَذَا الْحَدَّ : أَبُو حذيفة واصل بن عطاء رضى الله عنه وعن أشياعه ^(٣). وكونه بين بين أَنَّ حكمه حكم المؤمن في أنه يناكح ويوارث ويغسل ويصلى عليه ويدفن في مقابر المسلمين. وهو كالكافر في الذم واللعن والبراء منه واعتقاد عداوته ، وأن لا تقبل له شهادة. ومذهب مالك بن أنس والزيدية : أَنَّ الصلاة لا تجزئ خلفه. ويقال للخلفاء المردة من الكفار : الفسقة. وقد جاء الاستعمالان في كتاب الله. ﴿يَسْأَلُ الْإِسْمَ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾. يريد اللمز والتنازع ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

النقض : الفسخ وفك التركيب. فإن قلت : من أين ساغ استعمال النقص في إبطال العهد؟ قلت : من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة ، لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين. ومنه قول ابن التيهان في بيعة العقبة : يا رسول الله ، إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ حَبَالًا وَنَحْنُ قَاطِعُوهَا ، فَنَخْشَى إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَعَزَّكَ وَأَظْهَرَكَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ ^(٤)» وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار ، ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من

(١) فواسقاً عن قصدها جوائراً يذهب في نجده وغوره غائراً

لرؤبة بن العجاج ، وقيل لذي الرمة ، يصف نوفا تمشى في المفاوز ، خارجات عن طريق الاستقامة ، مجاوزات حده. وبين ذلك بقوله : يذهب : وروى : يهوين ، أى يسرعن تارة في مكان مرتفع ، وتارة في غور : أى في مكان كثير الانخفاض. فغورا : نصب على الظرفية. وغائراً : وصف مؤكد.

(٢) قوله «وهو النازل بين المنزلتين» هذا عند المعتزلة ، وأما عند أهل السنة فهو مؤمن ، والفسق لا يخرج عن الإيمان. (ع)

(٣) قوله «وعن أشياعه» هم المعتزلة. (ع)

(٤) أخرجه ابن إسحاق في المغازي في قصة العقبة من رواية كعب بن مالك. فذكر القصة وفيها «فاعترض القول أبو الهيثم بن التيهان فذكره بطوله. وأخرجه أحمد والطبراني والبيهقي في الدلائل ، كلهم من طريقه.

روادفه ، فينبهوا بتلك الرمزة على مكانه. ونحوه قولك : شجاع يفترس أقرانه ، وعالم يغترف منه الناس ، وإذا تزوّجت امرأة فاستوثقها. لم تقل هذا إلا وقد نبهت على الشجاع والعالم بأتهما أسد وبحر ، وعلى المرأة بأنها فراش ^(١)

والعهد : الموثق. وعهد إليه في كذا : إذا وصاه به ووثقه عليه. واستعهد منه : إذا اشترط عليه واستوثق منه : والمراد بهؤلاء الناقضين لعهد الله : أحبار اليهود المتعنتون ، أو منافقوهم ، أو الكفار جميعاً. فإن قلت : فما المراد بعهد الله؟ قلت : ما ركز في عقولهم من الحجة على التوحيد كأنه أمر وصاهم به ووثقه عليهم ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ أو أخذ الميثاق عليهم بأنهم إذا بعث إليهم رسول . يصدق الله بمعجزاته . صدّقوه واتبعوه ، ولم يكتموا ذكره فيما تقدّمه من الكتب المنزلة عليهم ، كقوله : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾. وقوله في الإنجيل لعيسى صلوات الله عليه : «سأنزل عليك كتاباً فيه نبأ بنى إسرائيل ، وما أريته إياهم من الآيات ، وما أنعمت عليهم وما نقضوا من ميثاقهم الذي واثقوا به ، وما ضيعوا من عهده إليهم» وحسن صنعه للذين قاموا بميثاق الله تعالى وأوفوا بعهده ، ونصره إياهم ، وكيف أنزل بأسه ونقمته بالذين غدروا ونقضوا ميثاقهم ولم يوفوا بعهده ، لأنّ اليهود فعلوا باسم عيسى ما فعلوا باسم محمد صلى الله عليهما وسلم من التحريف والجحود وكفروا به كما كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم. وقيل : هو أخذ الله العهد عليهم أن لا يسفكوا دماءهم ، ولا يبغي بعضهم على بعض ، ولا يقطعوا أرحامهم. وقيل : عهد الله إلى خلقه ثلاثة عهود : العهد الأول الذي أخذه على جميع ذرية آدم ، الإقرار بربوبيته ^(٢) وهو قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ ، وعهد خص به النبيين أن يبلغوا الرسالة وقيموا الدين ولا يتفرّقوا فيه ، وهو قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ وعهد خصّ به العلماء وهو قوله : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾. والضمير في ميثاقه للعهد وهو ما وثقوا به عهد الله من قبوله وإلزامه أنفسهم. ويجوز أن يكون بمعنى توثيقه ، كما أنّ الميعاد والميلاد ، بمعنى الوعد والولادة. ويجوز أن يرجع الضمير إلى الله تعالى ، أى من بعد توثيقته عليهم ، أو من بعد ما وثق به عهده من آياته وكتبه وإنذار رسله. ومعنى قطعهم ما أمر الله به أن يوصل : قطعهم الأرحام وموالاته المؤمنين ، وقيل قطعهم ما بين الأنبياء من الوصلة

(١) قوله «وعلى المرأة بأنها فراش» بناء على أن الوثارة لين الفراش خاصة. (ع)

(٢) قوله «الإقرار بربوبيته» لعله من الإقرار. (ع)

والاتحاد والاجتماع على الحق ، في إيمانهم ببعض وكفرهم ببعض . فإن قلت : ما الأمر؟ قلت: طلب الفعل ممن هو دونك وبعثه عليه . وبه سمى الأمر الذي هو واحد الأمور ؛ لأن الداعي الذي يدعو إليه من يتولاه شبه بأمر يأمره به ، فقليل له : أمر ، تسمية للمفعول به بالمصدر كأنه مأمور به ، كما قيل له شأن . والشأن : الطلب والقصد . يقال : شأنت شأنه ، أى قصدت قصده ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لأنهم استبدلوا النقص بالوفاء ، والقطع بالوصل ، والفساد بالصلاح وعقابها بثوابها .

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢٩)

معنى الهمزة التي في ﴿كَيْفَ﴾ مثله في قولك : أتكفرون بالله ومعكم ما يصرف عن الكفر ويدعو إلى الإيمان ، وهو الإنكار والتعجب . ونظيره قولك : أنطير بغير جناح ، وكيف تطير بغير جناح؟ فإن قلت : قولك : أنطير بغير جناح إنكار للطيران ، لأنه مستحيل بغير جناح ، وأما الكفر فغير مستحيل مع ما ذكر من الإمامة والإحياء . قلت : قد أخرج في صورة المستحيل لما قوى من الصارف عن الكفر والداعي إلى الإيمان . فإن قلت : فقد تبين أمر الهمزة وأنها لإنكار الفعل والإيدان باستحالته في نفسه ، أو لقوة الصارف عنه ، فما تقول في «كيف» حيث كان إنكاراً للحال التي يقع عليها كفرهم؟ قلت : حال الشيء تابعة لذاته ، فإذا امتنع ثبوت الذات تبعه امتناع ثبوت الحال ؛ فكان إنكار حال الكفر لأنها تتبع ذات الكفر ورديفها إنكاراً لذات الكفر ، وثباتها على طريق الكناية ، وذلك أقوى لإنكار الكفر وأبلغ . وتحريره : أنه إذا أنكر أن يكون لكفرهم حال يوجد عليها . وقد علم أن كل موجود لا ينفك عن حال وصفة عند وجوده . ومحال أن يوجد بغير صفة من الصفات كان إنكاراً لوجوده على الطريق البرهاني .

والواو في قوله ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ للحال . فإن قلت : فكيف صح أن يكون حالاً وهو ماض ، ولا يقال جئت وقام الأمير ، ولكن وقد قام ، لا أن يضمّر قد؟ قلت : لم تدخل الواو على : ﴿كُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ وحده ، ولكن على جملة قوله : ﴿كُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ إلى ﴿تُرْجَعُونَ﴾ ، كأنه قيل : كيف تكفرون بالله وقصتكم هذه وحالككم أنكم كنتم أمواتاً نطفاً في أصلاب

آبائكم فجعلكم أحياء ثم يميتكم بعد هذه الحياة ، ثم يحييكم بعد الموت ، ثم يحاسبكم. فإن قلت : بعض القصة ماض وبعضها مستقبل ، والماضي والمستقبل كلاهما لا يصح أن يقعا حالا حتى يكون فعلا حاضرا وقت وجود ما هو حال عنه ، فما الحاضر الذي وقع حالا؟ قلت : هو العلم بالقصة ، كأنه قيل : كيف تكفرون وأنتم عالمون بهذه القصة بأولها وآخرها. فإن قلت : فقد آل المعنى إلى قولك : على أى حال تكفرون في حال علمكم بهذه القصة فما وجه صحته؟ قلت : قد ذكرنا أنّ معنى الاستفهام في «كيف» الإنكار. وأنّ إنكار الحال متضمن لإنكار الذات على سبيل الكناية ، فكأنه قيل : ما أعجب كفركم مع علمكم بحالكم هذه! فإن قلت : إن اتصل علمهم بأنهم كانوا أمواتا فأحياءهم ثم يميتهم ، فلم يتصل بالإحياء الثاني والرجوع؟ قلت : قد تمكنوا من العلم بهما بالدلائل الموصلة إليه ، فكان ذلك بمنزلة حصول العلم. وكثير منهم علموا ثم عاندوا. والأموات : جمع ميت ، كالأقوال في جمع قيل^(١). فإن قلت : كيف قيل لهم أموات في حال كونهم جمادا ، وإنما يقال ميت فيما يصح فيه الحياة من البني؟ قلت : بل يقال ذلك لعدم الحياة ، كقوله : ﴿بَلَدَةٌ مَيِّتٌ﴾ ، ﴿وَأَيَّةٌ هُمْ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ﴾ ، ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾. ويجوز أن يكون استعارة لاجتماعهما في أن لا روح ولا إحساس. فإن قلت : ما المراد بالإحياء الثاني؟ قلت : يجوز أن يراد به الإحياء في القبر ، وبالرجوع : النشور. وأن يراد به النشور ، وبالرجوع : المصير إلى الجزاء. فإن قلت : لم كان العطف الأول بالفاء والإعقاب بثم؟ قلت : لأنّ الإحياء الأول قد تعقب الموت بغير تراخ ، وأما الموت فقد تراخى عن الإحياء. والإحياء الثاني كذلك متراخ عن الموت. إن أريد به النشور. تراخيا ظاهرا. وإن أريد به إحياء القبر فمنه يكتسب العلم بتراخيه والرجوع إلى الجزاء أيضا متراخ عن النشور. فإن قلت : من أين أنكر اجتماع الكفر مع القصة التي ذكرها الله ، ألأنها مشتملة على آيات بينات تصرفهم عن الكفر ، أم على نعم جسام حقها أن تشكر ولا تكفر؟ قلت : يحتمل الأمرين جميعا ، لأنّ ما عدده آيات وهي مع كونها آيات من أعظم النعم. ﴿لَكُمْ﴾ لأجلكم ولانتفاعكم به في دنياكم ودينكم. أما الانتفاع الدنيوي فظاهر. وأما الانتفاع الديني فالنظر فيه وما فيه من عجائب الصنع الدالة على الصانع القادر الحكيم ، وما فيه من التذكير بالآخرة وبثوابها وعقابها ، لاشتماله على أسباب الأنس واللذة

(١) قوله «كالأقوال في جمع قيل» ملك من ملوك حمير. وأصله «قيل» بالتشديد. ومن جمعه على أقيال لم يجعل أصله مشدداً. كذا في الصحاح. (ع)

من فنون المطاعم والمشارب والفواكه والمناكح والمراكب والمناظر الحسنة البهية ، وعلى أسباب الوحشة والمشقة من أنواع المكاره كالنيران والصواعق والسباع والأحناش والسموم والغموم والمخاوف. وقد استدل بقوله : ﴿خَلَقَ لَكُمْ﴾ على أنَّ الأشياء التي يصح أن ينتفع بها ^(١) ولم تجرِ المحظورات في العقل خلقت في الأصل مباحة مطلقاً لكل أحد أن يتناولها ويستنفع بها. فإن قلت : هل لقول من زعم أنَّ المعنى خلق لكم الأرض وما فيها وجه صحة؟ قلت : إن أراد بالأرض الجهات السفلية دون الغبراء كما تذكر السماء وتراد الجهات العلوية : جاز ذلك ، فإنَّ الغبراء وما فيها واقعة في الجهات السفلية. و ﴿جَمِيعاً﴾ نصب على الحال من الموصول الثاني. والاستواء : الاعتدال والاستقامة. يقال : استوى العود وغيره ، إذا قام واعتدل ، ثم قيل : استوى إليه كالسهم المرسل إذا قصده قصداً مستوياً ، من غير أن يلوى على شيء. ومنه استعير قوله : ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ ، أى قصد إليها بإرادته ومشيتته بعد خلق ما في الأرض ، من غير أن يريد فيما بين ذلك خلق شيء آخر. والمراد بالسماء : جهات العلو ، كأنه قيل : ثم استوى إلى فوق. والضمير في ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ ضمير مبهم. و ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ تفسيره ، كقولهم : ربه رجلاً. وقيل الضمير راجع إلى السماء. والسماء في معنى الجنس. وقيل جمع سماء ، والوجه العربي هو الأول. ومعنى تسويتهم : تعديل خلقهم ، وتقديمه ، وإخلاقه من العوج والفتور ، أو إتمام خلقهم ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فمن ثم خلقهم خلقاً مستوياً محكما من غير تفاوت ، مع خلق ما في الأرض على حسب حاجات أهلها ومنافعهم ومصالحهم. فإن قلت : ما فسرت به معنى الاستواء إلى السماء يناقضه «ثم» لإعطائه معنى التراخي والمهلة قلت : «ثم» هاهنا لما بين الخلقين من التفاوت وفضل خلق السماوات على خلق الأرض ، لا للتراخي في الوقت كقوله : ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾. على أنه لو كان لمعنى التراخي في الوقت لم يلزم ما اعترضت به ، لأن المعنى أنه حين قصد إلى السماء لم يحدث فيما بين ذلك. أى في تضاعيف القصد إليها .

(١) قال محمود رحمه الله تعالى : «وقد استدل بقوله : ﴿خَلَقَ لَكُمْ﴾ على أن الأشياء التي يصح أن ينتفع بها ... الخ». قال أحمد رحمه الله : هذا استدلال فرقة من القدرية ذهبت إلى أن حكم الله تعالى الإباحة في ذوات المنافع التي لا يدل العقل على تحريمها قبل ورود الرسل تلقيها من العقل وزعموا أنها اشتملت على منافع وحاجة الخلق داعية إليها ، فخلقها مع خطرهما على العباد خلاف مقتضى الحكمة ؛ فوجب عندهم بمقتضى العقل أن يعتقدوا إباحتها في حكم الله عز وجل ، وهذا زلل ناشئ عن قاعدة التحسين والتقبيح الباطلة. وأما استدلال الزمخشري لهذه الفرقة بالآية فغير مستقيم ، فإن دعواهم أن العقل كاف في إباحة هذه الأشياء. فإن دلت الآية على الإباحة فنحن نقول بموجبها ويكون إذاً إباحة شرعية سمعية. وإن لم تدل على الإباحة لم يبق في الاستدلال بها مطمع.

خلقاً آخر. فإن قلت : أما يناقض هذا قوله : ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾؟ قلت : لا ؛ لأنّ جرم الأرض تقدم خلقه خلق السماء. وأمّا دحوها فمتأخر. وعن الحسن : خلق الله الأرض في موضع بيت المقدس كهيئة الفهر ، عليها دخان ملتزق بها ، ثم أصدد الدخان وخلق منه السموات ، وأمسك الفهر في موضعها وبسط منها الأرض ، فذلك قوله : ﴿كَانَتْ رَتْقًا﴾ وهو الالتزاق.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٣٣)

﴿وَإِذْ﴾ نصب بإضمار اذكر. ويجوز أن ينتصب بقالوا. والملائكة : جمع ملائكة على الأصل ، كالشمائل في جمع شمأل. وإلحاق التاء لتأنيث الجمع. و ﴿جَاعِلٌ﴾ من جعل الذي له مفعولان ، دخل على المبتدأ والخبر وهما قوله ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فكانا مفعوليه.

ومعناه مُصير في الأرض خليفة. والخليفة : من يخلف غيره. والمعنى خليفة منكم ، لأنهم كانوا سكان الأرض فخلفهم فيها آدم وذريته. فإن قلت : فهلا قيل : خلائف ، أو خلفاء؟ قلت : أريد بالخليفة آدم ، واستغنى بذكره عن ذكر بنيه كما استغنى بذكر أبي القبيلة في قولك : مضر وهاشم. أو أريد من يخلفكم ، أو خلفا يخلفكم فوحد لذلك. وقرئ : خليفة بالقاف ويجوز أن يريد : خليفة مني ، لأنّ آدم كان خليفة الله في أرضه وكذلك كل نبي ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾. فإن قلت : لأى غرض أخبرهم بذلك؟ قلت : ليسألوا ذلك السؤال ويجابوا بما أجيبوا به فيعرفوا حكمته في استخلافهم قبل كونهم ، صيانة لهم عن اعتراض الشبهة في وقت استخلافهم. وقيل ليعلم عباده المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها ، وعرضها على ثقاتهم ونصحاءهم ، وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنيا عن المشاورة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ تعجب من أن

يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية وهو الحكيم الذي لا يفعل إلا الخير ^(١) ولا يريد إلا الخير. فإن قلت : من أين عرفوا ذلك حتى تعجبوا منه وإنما هو غيب؟ قلت : عرفوه بإخبار من الله ، أو من جهة اللوح ، أو ثبت في علمهم أنّ الملائكة وحدهم هم الخلق المعصومون ، وكل خلق سواهم ليسوا على صفتهم : أو قاسوا أحد الثقلين على الآخر حيث أسكنوا الأرض فأفسدوا فيها قبل سكنى الملائكة. وقرئ : يسفك ، بضم الفاء. ويسفك. ويسفك ، من أسفك. وسفك. والواو في ﴿وَنَحْنُ﴾ للحال ، كما تقول : أحسن إلى فلان وأنا أحق منه بالإحسان. والتسبيح : تبعيد الله عن السوء ، وكذلك تقديسه ، من سبج في الأرض والماء. وقدس في الأرض : إذا ذهب فيها وأبعد. و ﴿بِحَمْدِكَ﴾ في موضع الحال ، أى نسبج حامدين لك وملتبسين بحمدك ؛ لأنه لو لا إنعامك علينا بالتوفيق واللفظ لم نتمكن من عبادتك. ﴿أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى أعلم من المصالح في ذلك ما هو خفى عليكم. فإن قلت : هلا بين لهم تلك المصالح؟ قلت : كفى العباد أن يعلموا أن أفعال الله كلها حسنة وحكمة ، وإن خفى عليهم وجه الحسن والحكمة. على أنه قد بين لهم بعض ذلك فيما أتبعه من قوله ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ واشتقاقهم «آدم» من الأدمة ، ومن أديم الأرض ، نحو اشتقاقهم «يعقوب» من العقب ، و «إدريس» من الدرس ، و «إبليس» من الإبلas. وما آدم إلا اسم أعجمي : وأقرب أمره أن يكون على فاعل ، كآزر ، وعازر ، وعابر وشالغ. وفالغ ، وأشباه ذلك ﴿الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ أى أسماء المسميات ^(٢)

(١) قوله «وهو الحكيم الذي لا يفعل إلا الخير» هذا وما بعده عند المعتزلة. وأما عند أهل السنة فهو تعالى يفعل الخير والشر ويريدهما (ع)
 (٢) قال محمود رحمه الله : «أى أسماء المسميات ... الخ». قال أحمد رحمه الله : وهو يفر من اعتقاد أن الاسم هو المسمى ، لأن ذلك معتقد أهل السنة ، فيعمل الحيلة في إبعاده عن مقتضى الآية بقوله : ﴿أَنبِئُهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ ويتغافل عن قوله : ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ فان الضمير فيه عائد إلى المسميات اتفاقاً ، ولم يجر إلا ذكر الأسماء ، فدل على أنها المسميات ، ويعرض أيضاً عن حكمة التعليم ، وأن تعليقه بنفس الألفاظ لا كبير غرض فيه بل الغرض المهم تعليمه لذوات المسميات وإطلاعه على حقائقها وما أودع الله تعالى فيها من خواص وأسرار وعلى تسميتها أيضاً فان طريق التعليم يميز كل حقيقة باسمها فقد ثبت بماتين النكتتين أن المراد بالأسماء المسميات. وأما استدلاله بقوله : ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ فغاياته إضافة الأسماء إلى الذوات ، فلمهم أن يقولوا لو كانت الأسماء هي الذوات لزمّت إضافة الشيء إلى نفسه ، وهذا ما لا مطمع فيه فان هذه الاضافة مثلها في قولك : نفس زيد وحقيقته ، فالمراد إذاً نبئوني بحقائق هؤلاء ، ولا نكير في هذه الاضافة ؛ فان الأسماء بمعنى المسميات. والحقائق أعم من هؤلاء المشار إليهم والمضاف إليهم فصحت الاضافة لما بين الأعم والأخص من التباين ، وهذا هو المصحح للاضافة في مثل نفس زيد وأشباهه. فهذه نبذة من مسألة الاسم والمسمى تختص بهذه الآية. وفيها إن شاء الله كفاية على أنها وإن عدها المتكلمون من فن الكلام ، فالعالب عليها أنها مسألة لفظية لا يرجع اختلاف الأشعرية والمعتزلة فيها إلى كثير من حيث الحقيقة ،

فحذف المضاف اليه لكونه معلوما مدلولاً عليه بذكر الأسماء ، لأن الاسم لا بدله من مسمى ، وعوض منه اللام كقوله : ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ﴾ . فان قلت : هلا زعمت أنه حذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه ، وأن الأصل : وعلم آدم مسميات الأسماء؟ قلت : لأن التعليم وجب تعليقه بالأسماء لا بالمسميات لقوله : ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ ، ﴿أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ ، ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ فكما علق الإنباء بالأسماء لا بالمسميات ولم يقل : أنبؤني بهؤلاء ، وأنبئهم بهم ، وجب تعليق التعليم بها . فان قلت : فما معنى تعليمه أسماء المسميات؟ قلت : أراه الأجناس التي خلقها ، وعلمه أن هذا اسمه فرس ، وهذا اسمه بعير ، وهذا اسمه كذا ، وهذا اسمه كذا ، وعلمه أحوالها وما يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ أى عرض المسميات . وإنما ذكر لأن في المسميات العقلاء فغلبهم . وإنما استنبأهم وقد علم عجزهم عن الإنباء على سبيل التبيكيت ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعنى في زعمكم أنى أستخلف في الأرض مفسدين سفاكين للدماء إرادة للرد عليهم ، وأن فيمن يستخلفه من الفوائد العلمية التي هي أصول الفوائد كلها ، ما يستأهلون لأجله أن يستخلفوا . فأراهم بذلك وبين لهم بعض ما أجمل من ذكر المصالح في استخلافهم في قوله ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ . وقوله : ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ استحضار لقوله لهم ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ، إلا أنه جاء به على وجه أبسط من ذلك وأشرح . وقرئ : وعلم آدم ، على البناء للمفعول . وقرأ عبد الله : عرضهن . وقرأ أبيّ : عرضها . والمعنى عرض مسمياتهن أو مسمياتها : لأن العرض لا يصح في الأسماء . وقرئ : أنبيهم ، بقلب الهمزة ياء . وأنبهم ، بحذفها والهاء مكسورة فيهما .

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (٣٦)

السجود لله تعالى على سبيل العبادة ، ولغيره على وجه التكرمة كما سجدت الملائكة

لآدم ، وأبو يوسف ^(١) وإخوته له؟ ويجوز أن تختلف الأحوال والأوقات فيه. وقرأ أبو جعفر (للملائكة اسجدوا) بضم التاء للاتباع. ولا يجوز استهلاك الحركة الإعرابية بحركة الإتياع إلا في لغة ضعيفة ، كقولهم : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾. ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ استثناء متصل ، لأنه كان جنياً واحداً بين أظهر الألف من الملائكة مغموراً بهم ، فغلبوا عليه في قوله : ﴿فَسَجِدُوا﴾ ثم استثنى منهم استثناء واحد منهم. ويجوز أن يجعل منقطعاً ﴿أَبِي﴾ امتنع مما أمر به ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ عنه ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ من جنس كفر الجن وشياطينهم ، فكذلك أبي واستكبر كقوله : ﴿كَانَ مِنَ الْجِنَّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾. السكني من السكون لأنها نوع من اللبث والاستقرار. و ﴿أَنْتَ﴾ تأكيد للمستكن في : ﴿اسْكُنْ﴾ ليصح العطف عليه. و ﴿رَغَدًا﴾ وصف للمصدر ، أى أكلا رغداً واسعاً رافها. و ﴿حَيْثُ﴾ للمكان المبهم ، أى : أى مكان من الجنة ﴿سِتْنَمَا﴾ أطلق لهما الأكل من الجنة على وجه التوسعة البالغة المزيجة لليلة ، حين لم يحظر عليهما بعض الأكل ولا بعض المواضع الجامعة للمأكولات من الجنة ، حتى لا يبقى لهما عذر في تناول من شجرة واحدة بين أشجارها الفائتة للحصر ، وكانت الشجرة فيما قيل «الحنطة» أو «الكرمة» أو «التينة» وقرئ (ولا تقربا) بكسر التاء. وهذى ، والشجرة ، بكسر الشين. والشيرة بكسر الشين والياء. وعن أبي عمرو أنه كرهها ، وقال : يقرأ بها براءة مكة وسودانها. ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله ﴿فَتَكُونُوا﴾ جزم عطف على : ﴿تَقْرَبَا﴾ أو نصب جواب للنهي. الضمير في : ﴿عَنْهَا﴾ للشجرة. أى فحملهما الشيطان على الزلة بسببها. وتحقيقه : فأصدر الشيطان زلتهما عنها. و «عن» هذه ، مثلها في قوله تعالى : ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾. وقوله :

يَنْهَوْنَ عَنْ أَكْلِ ^(٢) وَعَنْ شُرْبِ ^(٣)

وقيل : فأزلهما عن الجنة ^(٤) بمعنى أذهبهما عنها وأبعدهما ، كما تقول : زلّ عن مرتبته. وزل عني ذاك :

(١) قوله «لآدم وأبو يوسف» لعله وأبوى يوسف. (ع)

(٢) قوله «وقوله ينهون عن أكل» في الصحاح : جزور نهيّة . على فعيلة . : أى ضحمة سميّة.

(٣) يمشون رسمًا فوق قنتتة ينهون عن أكل وعمن شرب

يصف مضيفا أشبع أضيافه ، فهم يمشون ويرسمون رسما فوق أعلى الجبل. وقنة الجبل وقلته : أعلاه ، حال كونهما متناهيين في السمن تناهيا ناشئا عن أكل كثير وشرب كثير.

(٤) قال محمود رحمه الله : «وقيل فأزلهما عن الجنة بمعنى أذهبهما عنها وأبعدهما ، كما تقول زل ... الخ». قال أحمد رحمه الله : ويشهد له قوله تعالى : ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾.

إذا ذهب عنك وزل من الشهر كذا. وقرئ : فأزالهما. ﴿مَّا كَانَا فِيهِ﴾ من النعيم والكرامة. أو من الجنة إن كان الضمير للشجرة في عنها. وقرأ عبد الله : فوسوس لهما الشيطان عنها. وهذا دليل على أن الضمير للشجرة ، لأن المعنى صدرت وسوسته عنها. فان قلت : كيف توصل إلى إزالتهما ووسوسته لهما بعد ما قيل له ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾. قلت : يجوز أن يمنع دخولها على جهة التقريب والتكرمة كدخول الملائكة ، ولا يمنع أن يدخل على جهة الوسوسة ابتلاء لآدم وحواء. وقيل كان يدنو من السماء فيكلمهما. وقيل : قام عند الباب فنادى. وروى أنه أراد الدخول فمنعته الخزنة ، فدخل في فم الحية حتى دخلت به وهم لا يشعرون. قيل ﴿اهْبِطُوا﴾ خطاب لآدم وحواء وإبليس : وقيل والحية. والصحيح أنه لآدم وحواء والمراد هما وذريتهما ، لأنهما لما كانا أصل الإنس ومنتشعهم جعلوا كأنهما الإنس كلهم. والدليل عليه قوله : ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾. ويدل على ذلك قوله : ﴿فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. وما هو إلا حكم يعم الناس كلهم. ومعنى بعضكم لبعض ﴿عَدُوٌّ﴾ ما عليه الناس من التعادي والتباغي وتضليل بعضهم لبعض. والهبوط : النزول إلى الأرض ﴿مُسْتَقَرًّا﴾ موضع استقرار ، أو استقرار و ﴿مَتَاعًا﴾ وتمتع بالعيش ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ يريد إلى يوم القيامة. وقيل إلى الموت.

﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣٩)

معنى تلقى الكلمات استقبلها بالأخذ والقبول والعمل بها حين علمها. وقرئ بنصب آدم ورفع الكلمات : على أنها استقبلته بأن بلغته واتصلت به. فإن قلت : ما هن؟ قلت : قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ ... الآية. وعن ابن مسعود رضى الله عنه : «إن أحب الكلام إلى الله ما قاله أبونا آدم^(١) حين اقترف الخطيئة : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى

(١) موقوف. أخرجه ابن أبي شيبه في أوائل الصلاة من رواية إبراهيم التيمي عن الحارث بن سويد قال : قال ابن مسعود : فذكره ولم يقل «ما قال أبونا آدم حين اقترف الخطيئة».

جدّك ، لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت». وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : «يا رب ألم تخلقني بيدك؟ قال : بلى. قال : يا رب ألم تنفخ فيّ الروح من روحك؟ قال : بلى. قال : يا رب ألم تسبق رحمتك غضبك؟ قال : بلى. قال : ألم تسكني جنتك؟ قال : بلى. قال : يا رب إن تبت وأصلحت أراجعى أنت إلى الجنة؟ قال : نعم^(١)» واكتفى بذكر توبة آدم دون توبة حواء ، لأنها كانت تبعا له ، كما طوى ذكر النساء في أكثر القرآن والسنة لذلك. وقد ذكرها في قوله : ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾. ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ فرجع عليه بالرحمة والقبول. فإن قلت : لم كرر : ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا﴾؟ قلت : للتأكيد ولما نيط به من زيادة قوله : ﴿فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾. فإن قلت : ما جواب الشرط الأول؟ قلت : الشرط الثاني مع جوابه كقولك : إن جئتني فإن قدرت أحسنت إليك. والمعنى : فإذا يأتينكم منى هدى برسول أبعته إليكم وكتاب أنزله عليكم ؛ بدليل قوله : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ في مقابلة قوله : ﴿فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ﴾ فإن قلت : فلم جيء بكلمة الشك^(٢) وإتيان الهدى كائن لا محالة لجوابه؟ قلت : للإيدان بأن الإيمان بالله والتوحيد لا يشترط فيه بعثة الرسل وإنزال الكتب ، وأنه إن لم يبعث رسولا ولم ينزل كتابا ، كان الإيمان به وتوحيده واجبا ؛ لما ركب فيهم^(٣) من العقول ونصب لهم من الأدلة ومكنهم من النظر والاستدلال. فإن قلت : الخطيئة التي أهبط بها آدم^(٤) إن كانت كبيرة فالكبيرة لا تجوز على الأنبياء ، وإن كانت

(١) موقوف. أخرجه الحاكم في ترجمة آدم ، من فضائل الأنبياء ، من رواية المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عنه.

(٢) قال محمود رحمه الله : «فإن قلت لم جيء بكلمة الشك وإتيان الهدى كائن ... الخ؟». قال أحمد رحمه الله : هاتان زلتان زلتهما فلزهما في قرن : الأولى : إيراد السؤال بناء على أن الهدى على الله تعالى واجب. والثانية : بناء الجواب على أن الوجوب الشرعي يثبت بالعقل قبل ورود الشرع. والحق أن الله تعالى لا يجب عليه شيء . تعالى عن الإيجاب رب الأرباب .. وإنما يدخل تحت رقة التكليف المربوب لا الرب. وأما وجوب النظر في أدلة التوحيد ، فإنما يثبت بالسمع لا بالعقل ، وإن كان حصول المعرفة بالله وتوحيده غير موقوف على ورود السمع ، بل محض العقل كاف فيه باتفاق.

(٣) قوله «واجبا لما ركب فيهم» هذا عند المعتزلة. وأما عند أهل السنة فلا حكم قبل الشرع. (ع)

(٤) قال محمود رحمه الله : «فإن قلت الخطيئة التي أهبط بها آدم من الجنة ... الخ». قال أحمد رحمه الله تعالى : مقتضاه تأويل الآي المشعر ظاهرها بوقوع الصغائر من الأنبياء تنزيهاً لهم عنها. على أن تجوز الصغائر عليهم قد قال به طوائف من أهل السنة. وفي طي وقوعها إطفاف وزيادة في الالتجاء إلى الله تعالى والتواضع له والإشفاق على الخطائين والدعاء لهم بالتوبة والمغفرة ، كما نقل عن داود أنه كان بعد ابتلاء الله له يدعو للخطائين كثيراً. وعلى الجملة فالقدرى يجوز الصغائر على الأنبياء ويقول : إن اجتناب الكبائر يوجب تكفير الصغائر في حق الناس .

صغيرة ، فلم جرى عليه ما جرى بسببها من نزع اللباس والإخراج من الجنة والإهباط من السماء ، كما فعل إبليس ونسبته إلى الغيِّ والعصيان ونسيان العهد وعدم العزيمة والحاجة إلى التوبة؟ قلت : ما كانت إلا صغيرة مغمورة بأعمال قلبه من الإخلاص والأفكار الصالحة التي هي أجل الأعمال وأعظم الطاعات. وإنما جرى عليه ما جرى ، تعظيماً للخطيئة وتفطياً لشأها وتهويلاً ، ليكون ذلك لطفاً له ولذريته في اجتناب الخطايا واتقاء المآثم ، والتنبيه على أنه أخرج من الجنة بخطيئة واحدة ، فكيف يدخلها ذو خطايا جمّة. وقرئ : فمن تبع هُدىً ، على لغة هذيل ، فلا خوف . بالفتح.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَأَمِنُوا بِمَا أُنْزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ (٤١)

﴿إِسْرَائِيلَ﴾ هو يعقوب عليه السلام لقب له ، ومعناه في لسانهم : صفوة الله ، وقيل عبد الله. وهو بزنة إبراهيم وإسماعيل غير منصرف مثلهما لوجود العلمية والعجمة. وقرئ إسرائيل ، وإسرائيل. وذكرهم النعمة : أن لا يخلوا بشكرها ، ويعتدوا بها ، ويستعظموها ، ويطيعوا ماتحتها. وأراد بما ما أنعم به على آبائهم مما عدّد عليهم : من الإنجاء من فرعون وعذابه ومن الغرق. ومن العفو عن اتخاذ العجل ، والتوبة عليهم ، وغير ذلك ، وما أنعم به عليهم من إدراك زمن محمد صلى الله عليه وآله وسلم المبشر به في التوراة والإنجيل. والعهد يضاف إلى المعاهد والمعاهد جميعاً. يقال أوفيت بعهدي ، أى بما عاهدت عليه كقوله : ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ وأوفيت بعهدك : أى بما عاهدتك عليه. ومعنى ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ وأوفوا بما عاهدتموني عليه من الإيمان بي والطاعة لي ، كقوله : ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ﴾ ، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ﴾ ، ﴿رَجُلًا صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ ، ﴿أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾

. فلا جرم التزم الزمخشري ورود السؤال ؛ لأن آدم عليه السلام معصوم من الكبائر باتفاق فيلزم على قاعدة القدريّة أن تكون صغيرة واجبة التكفير والحو ، غير مؤاخذ عليها ولا مستوجب بسببها عقوبة ولا شيئاً مما وقع. وهذا لا جواب للزمخشري عنه إلا الانصاف والرجوع عن المعتقدات الباطلة والمذاهب الماحلة ولقد شنّع السؤال بقوله إن الذي جرى على آدم عليه السلام كالذي جرى على إبليس عليه اللعنة. ومعاذ الله أن يكون الحالان سواء والعاقبتان كما تعلم : أن آدم عليه السلام خالد في النعيم المقيم ؛ وأن إبليس خالد في العذاب الأليم.

بما عاهدتكم عليه من حسن الثواب على حسناتكم ﴿وَإِذْ يَأْتِي فَارَهُبُونَ﴾ فلا تنقضوا عهدي. وهو من قولك : زيدا رهبتة. وهو أوكد في إفادة الاختصاص من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾. وقرئ (أوف) بالتشديد : أى أبالغ في الوفاء بعهدكم ، كقوله : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾. ويجوز أن يريد بقوله : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ ما عاهدوا عليه ووعدوه من الإيمان بنبي الرحمة والكتاب المعجز. ويدل عليه قوله : ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ أول من كفر به ، أو أول فريق أو فوج كافر به ، أو : ولا يكن كل واحد منكم أول كافر به ، كقولك : كسانا حلة ، أى كل واحد منا. وهذا تعريض بأنه كان يجب أن يكونوا أول من يؤمن به لمعرفة بهم وبصفته. ولأنهم كانوا المبشرين بزمان من أوحى إليه والمستفتحين على الذين كفروا به ، وكانوا يعدون اتباعه أول الناس كلهم ، فلما بعث كان أمرهم على العكس كقوله : ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ إلى قوله : ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾. ويجوز أن يراد : ولا تكونوا مثل أول كافر به ، يعنى من أشرك به من أهل مكة. أى : ولا تكونوا وأنتم تعرفونه المذكورا في التوراة موصوفا ، مثل من لم يعرفه وهو مشرك لا كتاب له. وقيل : الضمير في «به» لما معكم ، لأنهم إذا كفروا بما يصدقه فقد كفروا به. والاشتراء استعارة للاستبدال كقوله تعالى : ﴿اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ وقوله :

كَمَا اشْتَرَى الْمُسْلِمُ إِذْ تَنَصَّرَا ^(١)

وقوله :

فَإِنِّي شَرِيتُ الْحِلْمَ بِعَدَاكَ بِالْجَهْلِ ^(٢)

(١) مر شرح هذا الشاهد صفحة ٦٩ من هذا الجزء فراجعه إن شئت. اه مصححه

(٢) ألا زعمت أسمى أسمى أن لا أحبها فقلت لها : بلى أحبك لو لا ينزعني : أى لو لا أن ينزعني شغلي ويصرفني عن مودتك ، أو لو لم ينزعني جزيتك ضعف الود لو لا اشتكتكته فإني شريت الحليم بععداك بالجهل

لأني ذؤيب الهذلي. وزعمت : أى ظنت أنه الحال والشأن لا أحبها ، فقلت لها : بلى أحبك لو لا ينزعني : أى لو لا أن ينزعني شغلي ويصرفني عن مودتك ، أو لو لم ينزعني شغلي لوددتك : جزيتك ضعف الود : أى وددتك قدر المعتاد مرتين ، أو قدر ودك مرتين ، لو لا اشتكتكته : أى لو لا أن مللته وسئمته ، أو لو لم تشتكته لضاعفته وأكثرته ، فلولا هنا يحتمل أنها كلمة واحدة فيقدر بعدها «أن» المصدرية ، ويحتمل أنها كلمتان بمعنى لو لم ، لكنه .

يعنى ولا تستبدلوا بآياتى ثمنا وإلا فالثمن هو المشتري به. والثمن القليل الرياسة التي كانت لهم في قومهم ، خافوا عليها الفوات لو أصبحوا أتباعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فاستبدلوها . وهي بدل قليل ومتاع يسير . بآيات الله وبالحق الذي كل كثير إليه قليل ، وكل كبير إليه حقير ، فما بال القليل الحقير . وقيل كانت عاقبتهم يعطون أحبارهم من زروعهم وثمارهم ، ويهدون إليهم الهدايا ، ويرشونهم الرشا على تحريفهم الكلم ، وتسهيلهم لهم ما صعب عليهم من الشرائع . وكان ملوكهم يدرون عليهم الأموال ليكتنموا أو يحرفوا.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (٤٣)

الباء التي في ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ إن كانت صلة مثلها في قولك : لبست الشيء بالشيء خلطته به ، كأن المعنى : ولا تكتبوا في التوراة ما ليس منها فيختلط الحق بالمنزل بالباطل الذي كتبتهم ، حتى لا يميز بين حقها وباطلكم ، وإن كانت باء الاستعانة كالتى في قولك : كتبت بالقلم ، كان المعنى : ولا تجعلوا الحق ملتبسا مشتبهًا بباطلكم الذي تكتبونه ﴿وَتَكْتُمُوا﴾ جزم داخل تحت حكم النهى بمعنى : ولا تكتنموا. أو منصوب بإضمار أن ، والواو بمعنى الجمع ، أى ولا تجمعوا لبس الحق بالباطل وكتمان الحق ، كقولك : لا تأكل السمك وتشرب اللبن. فإن قلت : لبسهم وكتمانهم ليسا بفعلين متميزين حتى ينهوا عن الجمع بينهما ، لأنهم إذا لبسوا الحق بالباطل فقد كتنموا الحق ^(١)؟ قلت : بل هما متميزان ، لأن لبس الحق بالباطل ما ذكرنا

. استعمال نادر. ويجوز في «لو لا» الثانية أنها حرف تحضيض وتوبيخ كهلا ، يعنى كان الأحق بالشكوى كثرة المودة الموجبة للتهمة ، لا كثرة الهجر. و «ما» نافية ، و «إن» و «من» زائدتان. وأجهل : فعل مضارع مرفوع. وقيل : أفعل تفضيل منصوب. فيكم : أى بسببكم ، أو فيما بين قبيلتكم. وعبر بضمير جمع المذكر للتعظيم. فإني شريت : جواب الشرط ، واشترى الشيء : أخذه بالثمن ، وشراه : باعه به ، فالمراد هنا : استبدلت العقل بعد فراقك بالجهل ، فهو مجاز مرسل علاقته بالإطلاق. والمعنى : أنه اعتذر عن عدم ودها بشغله وشكواها وعقله. (١) قال محمود رحمه الله : «إن قلت لبسهم وكتمانهم ليسا بفعلين متميزين ... الخ». قال أحمد رحمه الله : السؤال غير موجه ، لأنه ادعى فيه عدم التمييز بين الفعلين. وغاية ما قدره تلازمهما. والمتلازمان متغايران متميزان ، إلا أن يعنى بعدم التمييز عدم الانفكاك ، فلا نسلم له تعذر جمعهما في النهى إذاً بل النهى عن أحدهما على هذا التقدير مستلزم للنهى عن الآخر ، وإن لم يصرح به.

من كتابتهم في التوراة ما ليس منها. وكتماهم الحق أن يقولوا : لا نجد في التوراة صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، أو حكم كذا. أو يحسوا ذلك. أو يكتبوه على خلاف ما هو عليه. وفي مصحف عبد الله : وتكتمون ، بمعنى كاتمين ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ في حال علمكم أنكم لا بسون كاتمون ، وهو أقبح لهم ، لأنّ الجهل بالقبیح ربما عذر راكمه ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يعنى صلاة المسلمين وزكاتهم ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ منهم ، لأنّ اليهود لا ركوع في صلاتهم. وقيل «الركوع» الخضوع والانقياد لما يلزمهم في دين الله. ويجوز أن يراد بالركوع : الصلاة ، كما يعبر عنها بالسجود ، وأن يكون أمرا بأن يصلى مع المصلين ، يعنى في الجماعة ، كأنه قيل : وأقيموا الصلاة وصلوها مع المصلين ، لا منفردين.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٤٤) ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (٤٦)

﴿أَتَأْمُرُونَ﴾ الهمزة للتقرير مع التوبيخ والتعجيب من حالهم. والبرّ سعة الخير والمعروف. ومنه البر لسعته ، ويتناول كل خير. ومنه قولهم : صدقت وبررت. وكان الأخبار يأمرهم من نصحوه في السر من أفارهم وغيرهم باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ولا يتبعونه. وقيل كانوا يأمرهم بالصدقة ولا يتصدقون ، وإذا أتوا بصدقات ليفرقوها خانوا فيها. وعن محمد بن واسع : بلغني أنّ ناسا من أهل الجنة اطلعوا على ناس من أهل النار فقالوا لهم : قد كنتم تأمرونا بأشياء عملناها فدخلنا الجنة. قالوا كنا نأمركم بها ونخالف إلى غيرها ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ وتتركونها من البر كالمنسيات ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ تبكيث مثل قوله : ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعنى تتلون التوراة وفيها نعت محمد صلى الله عليه وسلم ، أو فيها الوعيد على الخيانة وترك البر ومخالفة القول العمل ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ توبيخ عظيم بمعنى : أفلا تفتنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه ، وكأنكم في ذلك مسلوبو العقول ، لأنّ العقول تأباه وتدفعه. ونحوه ﴿أَفِ لَكُمْ وَلَئِنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. ﴿وَأَسْتَعِينُوا﴾ على حوائجكم إلى الله ﴿بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ أى بالجمع بينهما ، وأن تصلوا صابرين على تكاليف الصلاة ، محتلمين لمشاقتها وما يجب فيها. من إخلاص القلب ، وحفظ النيات ، ودفع الوسواس

ومراعاة الآداب ، والاحتراس من المكاره مع الخشية والخشوع ، واستحضار العلم بأنه انتصاب بين يدي جبار السموات ، ليسأل فك الرقاب عن سخطه وعذابه. ومنه قوله تعالى: (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها) أو : واستعينوا على البلايا والنوائب بالصبر عليها والالتجاء إلى الصلاة عند وقوعها. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة»^(١) وعن ابن عباس أنه نعى إليه أخوه «قثم» وهو في سفر ، فاسترجع وتنحى عن الطريق فصلى ركعتين أطل فيهما الجلوس ، ثم قام يمشى إلى راحلته وهو يقول : واستعينوا بالصبر والصلاة»^(٢) وقيل : الصبر الصوم ، لأنه حبس عن المفطرات. ومنه قيل لشهر رمضان : شهر الصبر. ويجوز أن يراد بالصلاة الدعاء ، وأن يستعان على البلايا بالصبر ، والالتجاء إلى الدعاء ، والابتغال إلى الله تعالى في دفعه ﴿وَأَنفَا﴾ الضمير للصلاة أو للاستعانة. ويجوز أن يكون لجميع الأمور التي أمر بها بنو إسرائيل ونهوا عنها من قوله : ﴿ادْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾ إلى ﴿وَاسْتَعِينُوا﴾. ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ لشاقة ثقيلة من قولك : كبر على هذا الأمر ، ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾. فإن قلت : ما لها لم تثقل على الخاشعين والخشوع في نفسه مما يثقل؟ قلت :

لأنهم يتوقعون ما آذخ للصابرين على متاعبها فتهون عليهم. ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَطْنُونَ أَنفُسَهُمْ يُلَاقُوا رَبَّهُمْ﴾ أى يتوقعون لقاء ثوابه ونيل ما عنده ، ويطمعون فيه. وفي مصحف عبد الله : يعلمون. ومعناه : يعلمون أن لا بد من لقاء الجزاء فيعملون على حسب ذلك. ولذلك فسر «يطنون» بيتيقنون. وأما من لم يوقن بالجزاء ولم يرج الثواب ، كانت عليه مشقة خالصة فثقلت عليه كالمنافقين والمراءين بأعمالهم. ومثاله من وعد على بعض الأعمال والصنائع أجرة زائدة على مقدار عمله ، فتراه يزاوله برغبة ونشاط وانشراح صدر ومضاحكة لحاضريه ، كأنه يستلذ مزاولته بخلاف حال عامل يتسخره بعض الظلمة. ومن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «وجعلت قرّة عيني في الصلاة»^(٣) وكان يقول «يا بلال

(١) أخرجه الطبري في تفسيره من حديث حذيفة بهذا اللفظ. فأخرجه أبو داود وأحمد من رواية عبد العزيز أخى حذيفة عن حذيفة بلفظ «كان إذا حزبه أمر صلى». وأخرجه البيهقي في الدلائل في قصة الخندق مطولا.

(٢) موقوف. أخرجه سعيد بن منصور. والطبري من طريق عيينة بن عبد الرحمن عن أبيه «أن ابن عباس ...

فذكره». وأخرجه البيهقي في الشعب من هذا الوجه

(٣) أخرجه النسائي والحاكم وأحمد وابن أبي شيبة والبزار من حديث أنس رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «حبيب إلى من الدنيا النساء والطيب وجعلت قرّة عيني في الصلاة» وسيأتى في آل عمران.

أو ترك ، ثم نفى أن يقبل منها شفاعة شفيح فعلم أنها لا تقبل للعصاة. فإن قلت : الضمير في ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ إلى أى النفسين يرجع؟ قلت : إلى الثانية العاصية غير المجزى عنها ، وهي التي لا يؤخذ منها عدل. ومعنى لا يقبل منها شفاعة : إن جاءت بشفاعة شفيح لم يقبل منها. ويجوز أن يرجع إلى النفس الأولى ، على أنها لو شفعت لها لم تقبل شفاعتها ، كما لا تجزى عنها شيئاً ، ولو أعطت عدلاً عنها لم يؤخذ منها ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يعنى ما دلت عليه النفس المنكرة من النفوس الكثيرة والتذكير بمعنى العباد والأناسى ، كما تقول : ثلاثة أنفس.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (٤٩)

أصل ﴿آل﴾ أهل ، ولذلك يصغر بأهيل ، فأبدلت هاؤه ألفاً. وخص استعماله بأولى الخطر والشأن كالملوك وأشباههم ، فلا يقال آل الإسكاف والحجام. و ﴿فِرْعَوْنَ﴾ علم لمن ملك العمالق ، كقيصر : لملك الروم ، وكسرى : لملك الفرس. ولعتو الفراعنة اشتقوا : تفرعن فلان ، إذا عتا وتجر. وفي ملح بعضهم :

قَدْ جَاءَهُ الْمُوسَى الْكَلُومُ فَزَادَ فِي أَفْصَى تَفَرُّعِيهِ وَقَرَطَ عُزَامِيهِ^(١)

وقرى : أنجيناكم ، ونجيتكم ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ من سامه خسفاً إذا أولاه ظلماً. قال عمرو بن كلثوم :

إِذَا مَا الْمَلِكُ سَامَ النَّاسَ خَسُفًا أَبَيْنَا أَنْ يَقَرَّ الْحُسُفُ فَيَنَالَا^(٢)

. أخرجه منكراً ، ولا شك أن في القيامة مواطن ، ويومها معدود بخمسين ألف سنة ، فبعض أوقاتها ليس زماناً للشفاعة وبعضها هو الوقت الموعود وفيه المقام المحمود لسيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام. قد وردت أي كثيرة ترشد إلى تعدد أيامها واختلاف أوقاتها. منها قوله تعالى : ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ مع قوله : ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ فيتعين حمل الآيتين على يومين مختلفين ، متغايرين : أحدهما محل للتساؤل ؛ والآخر ليس محلاً له ، وكذلك الشفاعة ، وأدلة ثبوتها لا تحصى كثرة ، رزقنا الله الشفاعة وحشرنا في زمرة أهل السنة والجماعة

(١) الضمير للصبي. وقيل لذكره. والموسى : آلة الخلق والختان ، من أوسى رأسه حلقة. وقال الفراء وغيره هي فعلى ويؤنث. يقال. رجل ماس مثل مال ، أى خفيف طياش. وقيل : هو مفعول. وذلك كناية عن ختانه به ، لأنه يورث النمو والفتوة. وقيل : عن حلق العانة ، لأنه زمن بلوغ الأشد. واختار السعد الأول لأنه أنسب بالمقام. والكلوم : كثير الكلم. أى الجرح. والتفرعن : العتو والتجبر ، مأخوذ من فرعون لشهرته بالطغيان والظلم والتكبر. والعرام كغراب : الشدة والحدة والخبث. ويمكن أنه من الفرع ، لارتفاعه وعلوه على غيره.

(٢) لعمرو بن كلثوم من معلقته. «وما» زائدة. «والمملك» بالسكون : لغة فيه. ويقال : سامه ذلاً ، إذا أولاه إياه وأحقه به. وقيل : إذا كلفه ما فيه ذل وأكرهه عليه. والخسف . بفتح الخاء وضمها . : الذل. يقول إذا ألحق بالناس الذل منعناه إقرار الذل فينا ، ولم ننقد له كسائر الناس ، لشجاعتنا على جميع من سوانا.

وأصله من سام السلعة إذا طلبها. كأنه بمعنى ييغونكم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ ويريدونكم عليه. والسوء : مصدر السيئ : يقال أعوذ بالله من سوء الخلق وسوء الفعل ، يراد قبحهما. ومعنى سوء العذاب . والعذاب كله سيئ . : أشدّه وأفظعه ، كأنه قبحه بالإضافة لي سائره. و ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ : بيان لقوله يسومونكم. ولذلك ترك العاطف كقوله تعالى : ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقرأ الزهري (يذبحون) بالتخفيف كقولك : قطعت الثياب وقطعتها. وقرأ عبد الله : يقتلون. وإنما فعلوا بهم ذلك لأن الكهنة أئذروا فرعون بأنه يولد مولود يكون على يده هلاكه ، كما أئذر نمرود. فلم يغن عنهما اجتهداهما في التحفظ ، وكان ما شاء الله. والبلاء المحنة إن أشير بذلكم إلى صنيع فرعون. والنعمة إن أشير به إلى الإنجاء.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (٥٠)

﴿فَرَقْنَا﴾ فصلنا بين بعضه وبعض حتى صارت فيه مسالك لكم. وقرئ : فرّقنا ، بمعنى فصلنا. يقال : فرق بين الشيئين ، وفرّق بين الأشياء ؛ لأن المسالك كانت اثني عشر على عدد الأسباط. فإن قلت : ما معنى ﴿بِكُمْ﴾؟ قلت : فيه أوجه : أن يراد أنهم كانوا يسلكونه ، ^(١) ويتفرّق الماء عند سلوكهم ، فكأنما فرق بهم كما يفرق بين الشيئين بما يوسط بينهما ، وأن يراد فرقناه بسببكم ^(٢) وبسبب إنجائكم ، وأن يكون في موضع الحال ^(٣) بمعنى فرقناه ملتبسا بكم كقوله :

تَدُوسُ بَنَا الْجَمَاحِمِ وَالْثَرِيَا ^(٤)

(١) قال محمود رحمه الله : «يحتمل أنهم كانوا يسلكون ... الخ». قال أحمد رحمه الله : فتكون الباء على هذا الوجه استعانة مثلها في كتبت بالقلم.

(٢) قال محمود رحمه الله : «ويحتمل أن يكون المراد فرقناه بسببكم». قال أحمد رحمه الله : وهي على هذا الوجه سببية ، كما تقول : أكرمتك بإحسانك إلى.

(٣) قال محمود رحمه الله : «ويحتمل أن يكون في موضع الحال ... الخ» قال أحمد رحمه الله : وهي على هذا الوجه للمصاحبة مثلها في : أسندت ظهري بالحائط ، والوجه الأول ضعيف من حيث أن مقتضاه أن تفريق البحر وقع ببني إسرائيل. والمنقول بل المنصوص عليه في الكتاب العزيز : أن البحر إنما انفرق بعضا موسى ، يشهد لذلك قوله تعالى : ﴿أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ ، فآلة التفريق العصا ، لا بنو إسرائيل

(٤) كـ أن خيولـ كانـت قـديما تسـقى في قحـ وفهم الحليـ

فمـرت غـير نافـرة علـيهم تدوس بنـا الجمـاجم والترـيبـ

لأبي الطيب المتنبي. وتسقى : بالتضعيف ، والقحوف : جمع قحف بالكسر ، وقيل بالضم : وهو العظم الذي فوق .

أى تدوسها ونحن راكبوها. وروى أنّ بنى إسرائيل قالوا لموسى : أين أصحابنا لا نراهم؟ قال : سيروا فإنهم على طريق مثل طريقكم. قالوا : لا نرضى حتى نراهم. فقال : اللهم أعنى على أخلاقهم السيئة. فأوحى إليه : أن قل بعصاك هكذا ، فقال بها على الحيطان ، فصارت فيها كوى. فتراموا وتسامعوا كلامهم ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ إلى ذلك وتشاهدونه لا تشكون فيه.

﴿وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٥٢)

لما دخل بنو إسرائيل مصر بعد هلاك فرعون ولم يكن لهم كتاب ينتهون إليه ، وعد الله موسى أن ينزل عليه التوراة ، وضرب له ميقاتا ذا القعدة وعشر ذى الحجة. وقيل ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ لأنّ الشهور غررها بالليالي. وقرئ ﴿وَاَعَدْنَا﴾ لأن الله تعالى وعده الوحي ووعد المجيء للميقات إلى الطور ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد مضيه إلى الطور ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ بإشراككم ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ حين تبتم ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ من بعد ارتكابكم الأمر العظيم وهو اتخاذكم العجل ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إرادة أن تشكروا ^(١) النعمة في العفو عنكم.

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (٥٣) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٤)

. الدماغ وإناء صغير من خشب. والحليب : اللبن المحلوب ، أى كأنها كانت معتادة بهم فمرت عليهم مطمئنة. تدوس جماجمهم : أى رؤسهم ونحن على ظهورها. والترتيب : لغة في التراب (١) قال محمود : «ومعناه إرادة أن تشكروا». قال أحمد رحمه الله : أخطأ في تفسير «لعل» ؛ بالارادة ؛ لأن مراد الله تعالى كائن لا محالة. فلو أراد منهم الشكر لشكروا ولا بد. وإنما أجراه الرخشري على قاعدته لفاسدة في اعتقاد أن مراد الرب كمراد العبد ، منه ما يقع ومنه ما يتعذر . تعالى الله عن ذلك . ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. والتفسير الصحيح في «لعل» هو الذي حرره سيبويه رحمه الله في قوله : ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ قال سيبويه : الرجاء منصرف إلى المخاطب كأنه قال : كونا على رجائكما في تذكرته وخشيته وكذلك هذه الآية معناها لتكونوا على رجاء الشكر لله عز وجل ونعمه ، فينصرف الرجاء إليهم وينزه الله تعالى.

﴿الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ يعنى الجامع بين كونه كتابا منزلا ، وفرقانا يفرق بين الحق والباطل : يعنى التوراة ، كقولك : رأيت الغيث والليث ، تريد الرجل الجامع بين الجود والجرأة. ونحوه قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا﴾ يعنى الكتاب الجامع بين كونه فرقانا وضياءً وذكرًا : أو التوراة. والبرهان : الفارق بين الكفر والإيمان من العصا واليد وغيرهما من الآيات ، أو الشرع الفارق بين الحلال والحرام ، وقيل الفرقان : انفراق البحر. وقيل : النصر الذي فرّق بينه وبين عدوّه ، كقوله تعالى : ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ يريد به يوم بدر. حمل قوله ﴿فَأَفْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ على الظاهر وهو البخع^(١). وقيل : معناه قتل بعضهم بعضا. وقيل : أمر من لم يعبد العجل أن يقتلوا العبد. وروى أن الرجل كان يبصر ولده ووالده وجاره وقريبه ، فلم يمكنهم المضي لأمر الله ، فأرسل الله ضيابة وسحابة سوداء لا يتباصرون تحتها ، وأمروا أن يحتبوا بأفنية بيوتهم ، يأخذ الذين لم يعبدوا العجل سيوفهم ، وقيل لهم : اصبروا ، فلعن الله من مدّ طرفه أو حل حبوته أو اتقى بيد أو رجل ، فيقولون : آمين ، فقتلوههم إلى المساء حتى دعا موسى وهرون وقالوا : يا رب ، هلكت بنو إسرائيل ، البقية البقية ، فكشفت السحابة ونزلت التوبة. فسقطت الشفار من أيديهم ، وكانت القتلى سبعين ألفا. فإن قلت : ما الفرق بين الفاءات؟ قلت : الأولى للتسبب لا غير ، لأن الظلم سبب التوبة. والثانية للتعقيب لأن المعنى فاعزموا على التوبة فاقتلوا أنفسكم ، من قبل أن الله تعالى جعل توبتهم قتل أنفسهم. ويجوز أن يكون القتل تمام توبتهم. فيكون المعنى : فتوبوا ، فأتبعوا التوبة القتل تنمة لتوبتكم ، والثالثة متعلقة بمحذوف ، ولا يخلو إما أن ينتظم في قول موسى لهم فتتعلق بشرط محذوف ، كأنه قال : فإن فعلتم فقد تاب عليكم. وإما أن يكون خطابا من الله تعالى لهم على طريقة الالتفات. فيكون التقدير : ففعلتم ما أمركم به موسى فتتاب عليكم بارئكم. فإن قلت : من أين اختص هذا الموضع بذكر البارئ؟ قلت : البارئ هو الذي خلق الخلق بريئا من التفاوت ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ ومتميزا بعضه من بعض بالأشكال المختلفة والصور المتباينة ، فكان فيه تفرع بما كان منهم من ترك عبادة العالم الحكيم الذي برأهم بلطف حكمته على الأشكال المختلفة أبرياء من التفاوت والتنافر ، إلى عباد البقرة التي هي مثل في الغباوة والبلادة. . في أمثال العرب : أبلد من ثور . حتى عرضوا أنفسهم لسخط

(١) قوله «وهو البخع» في الصحاح : بخع نفسه بخعا ، أى قتلها غما. (ع)

الله ونزول أمره بأن يفك ما ركبته من خلقهم ، وينثر ما نظم من صورهم وأشكالهم ، حين لم يشكروا النعمة في ذلك ، وغمطوها بعبادة من لا يقدر على شيء منها.

﴿وَإِذْ قُلْنَا يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٥٧)

قيل : القائلون السبعون الذين صعقوا. وقيل قاله عشرة آلاف منهم ﴿جَهْرَةً﴾ عيانا. وهي مصدر من قولك : جهر بالقراءة وبالدهاء ، كَأَنَّ الذي يرى بالعين جاهر بالرؤية ، والذي يرى بالقلب مخافت بها ، وانتصاها على المصدر ، لأنها نوع من الرؤية فنصبت بفعالها كما تنصب القرفصاء بفعل الجلوس ، أو على الحال بمعنى ذوى جهرة. وقرئ «جهرة» بفتح الهاء ، وهي إما مصدر كالعلبة. وإما جمع جاهر. وفي هذا الكلام دليل على أن موسى عليه الصلاة والسلام رآهم القول وعرفهم أن رؤية ما لا يجوز عليه أن يكون في جهة محال ^(١) وأن من استجاز على الله الرؤية فقد جعله من جملة الأجسام ^(٢) أو الأعراض ، فرادوه بعد بيان

(١) قوله «أن يكون في جهة محال» هذا مذهب المعتزلة. ومن استجاز عليه الرؤية هم أهل السنة ، والجهة ليست شرطا للرؤية عندهم ، فلا يلزم كونه من جملة الأجسام أو الأعراض كما بين في علم التوحيد. (ع)

(٢) قال محمود رحمه الله : «فيه دليل على أن موسى عليه السلام رآهم القول ، وعرفهم أن رؤية من لا يجوز عليه ... الخ». قال أحمد رحمه الله : لقد انتهز الزمخشري ما اعتقده فرصة من هذه الآية التي لا مطمع له عند التحقيق في التشبث بها ، فبنى الأمر على أن العقوبة سببها طلب ما لا يجوز على الله تعالى من الرؤية على ظنه ، وأنى له ذلك وثم سبب ظاهر في العقوبة سوى ما ادعاه هو كل السبب. وذلك أن موسى عليه السلام لما علم جواز رؤيته تعالى طلبها في آية الأعراف في دار الدنيا ، فأخبره الله تعالى أنه لا يراه في الدنيا ، وصار ذلك عنده وعند بني إسرائيل أصلا مقررًا ، كما هو عندنا الآن معاشر أهل السنة أن الله تعالى لا يرى في دار الدنيا ، لأنه أخبر أنه لا يرى والخبر واجب الصدق وكما أخبر أنه لا يرى في دار الدنيا فقد وعد الوعد الصادق عز وجل برؤيته في الدار الآخرة وتخصيص ذلك بالمؤمنين ، وبعد استقرار هذا المعتقد طلب بنو إسرائيل الرؤية في الدنيا تعنتا أو شكًا في الخبر ، فأنزل الله تعالى بهم تلك العقوبة. وكيف تخيل الزمخشري وشيعته أن موسى عليه السلام طلب من الله ما لا يجوز عليه. وهل هو لو كان الأمر على ما تخيل إلا كبني إسرائيل. ومعاذ الله ، لقد برأه من ذلك وكان عند الله وجيها. وأما الأدلة العقلية على جواز رؤيته تعالى عقلا والسمعية على وقوعها في الدار الآخرة ، فأكثر من أن تحصى وهي مستقصاه في فن الكلام. وإنما غرضنا في هذا الباب مباحثة الزمخشري والرد عليه من حيث يتمسك على ظنه وأخذه قوما منه. والله الموفق.

الحجة ووضح البرهان ، ولجوا فكانوا في الكفر كعبدة العجل ، فسلط الله عليهم الصعقة كما سلط على أولئك القتل تسوية بين الكافرين ودلالة على عظمهما بعظم المحنة. و ﴿الصَّاعِقَةُ﴾ ما صعقهم ، أى أماتهم. قيل : نار وقعت من السماء فأحرقتهم. وقيل : صيحة جاءت من السماء. وقيل : أرسل الله جنودا سمعوا بحسها فخرجوا صعقين ميتين يوما وليلة. وموسى عليه السلام ، لم تكن صعقته موتا ولكن غشية ، بدليل قوله : فلما أفاق. والظاهر أنه أصابهم ما ينظرون إليه لقوله ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾. وقرأ على رضى الله عنه فأخذتكم الصاعقة. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمة البعث بعد الموت ، أو نعمة الله بعد ما كفرتموها إذا رأيتم بأس الله في رميكم بالصاعقة وإذاقتكم الموت. ﴿وَوَلَّلْنَا﴾ وجعلنا الغمام يظلكم. وذلك في التيه ، سخر الله لهم السحاب يسير بسيرهم يظلمهم من الشمس ؛ وينزل بالليل عمود من نار يسرون في ضوءه ، وثياهم لا تتسخ ولا تبلى ، وينزل عليهم ﴿الْمَن﴾ وهو الترنجيب مثل الثلج. من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، لكل إنسان صاع ، ويبعث الله الجنوب فتحشر عليهم ﴿السَّلَوى﴾ وهي السمانى فيذبح الرجل منها ما يكفيه ﴿كُلُوا﴾ على إرادة القول ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ يعنى فظلموا بأن كفروا هذه النعم وما ظلمونا ، فاختصر الكلام بحذفه لدلالة (وما ظلمونا) عليه.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)﴾

﴿الْقَرْيَةَ﴾ بيت المقدس. وقيل أريحاء من قرى الشام ، أمروا بدخولها بعد التيه ﴿الْبَابَ﴾ باب القرية. وقيل هو باب القبة التي كانوا يصلون إليها وهم لم يدخلوا بيت المقدس في حياة موسى عليه الصلاة والسلام. أمروا بالسجود عند الانتهاء إلى الباب شكراً لله وتواضعاً. وقيل «السجود» أن ينحنوا ويتطامنوا داخلين ، ليكون دخولهم بخشوع وإخبات. وقيل : طوطى لهم الباب ليخفضوا رؤسهم فلم يخفضوها ، ودخلوا متزحفين على أوراكنهم ﴿حِطَّةً﴾ فعلة من الحط كالجلسة والركبة ، وهي خبر مبتدأ محذوف ، أى مسألتنا حطة ، وأمرنا حطة. والأصل : النصب بمعنى : حط عنا ذنوبنا حطة. وإنما رفعت لتعطى معنى الثبات ، كقوله :

عطشوا في التيه ، فدعا لهم موسى بالسقيا فقبل له ﴿**اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ**﴾ واللام إمّا للعهد والإشارة إلى حجر معلوم ، فقد روى أنه حجر طوري حمله معه ، وكان حجراً مربعاً له أربعة أوجه كانت تنبع من كل وجه ثلاث أعين ، لكل سبط عين تسيل في جدول إلى السبط الذي أمر أن يسقيهم ، وكانوا ستمائة ألف ، وسعة المعسكر اثنا عشر ميلاً. وقيل أهبطه آدم من الجنة فتوارثوه ، حتى وقع إلى شعيب ، فدفعه إليه مع العصا. وقيل هو الحجر الذي وضع عليه ثوبه حين اغتسل إذ رموه بالأدرة ، ففرّ به ، فقال له جبريل : يقول لك الله تعالى : ارفع هذا الحجر ، فإنّ لي فيه قدرة ولك فيه معجزة ، فحمله في مخلاته. وإمّا للجنس ، أى اضرب الشيء الذي يقال له الحجر. وعن الحسن : لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه قال : وهذا أظهر في الحجة وأبين في القدرة. وروى أنهم قالوا : كيف بنا لو أفضينا إلى أرض ليست فيها حجارة ، فحمل حجراً في مخلاته فحيثما نزلوا ألقاه. وقيل كان يضربه بعصاه فينفجر ، ويضربه بما فيبيس. فقالوا : إن فقد موسى عصاه متنا عطشا ، فأوحى إليه : لا تقرع الحجارة ، وكلمها تطعك ، لعلهم يعتبرون. وقيل : كان من رخام وكان ذراعاً في ذراع. وقيل مثل رأس الإنسان. وقيل : كان من آس الجنة ^(١) طوله عشرة أذرع على طول موسى ، وله شعبتان تتقدان في الظلمة ، وكان يحمل على حمار ﴿**فَانْفَجَرَتْ**﴾ الفاء متعلقة بمحذوف ، أى فضرب فانفجرت. أو فإن ضربت فقد انفجرت ، كما ذكرنا في قوله : ﴿**فَتَنَابَ عَلَيْهِمْ**﴾ وهي على هذا فاء فصيحة لا تقع إلا في كلام بليغ. وقرئ (عشرة) بكسر الشين وبفتحتها وهما لغتان ﴿**كُلُّ أَنَاسٍ**﴾ كل سبط ﴿**مَشَرَّهْمُ**﴾ عينهم التي يشربون منها ﴿**كُلُّوا**﴾ على إرادة القول ﴿**مِنْ رِزْقِ اللَّهِ**﴾ مما رزقكم من الطعام وهو المّنّ والسلوى ومن ماء العيون. وقيل الماء ينبت منه الزروع والثمار ، فهو رزق يؤكل منه ويشرب. والعنّى : أشدّ الفساد ، فقيل لهم : لا تتمادوا في الفساد في حال فسادكم لأنهم كانوا متمادين فيه.

﴿**وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى**

(١) قوله «من آس الجنة» : ضبط في بعض النسخ بالضم والتشديد وكتب على هامشه : «كذا بخط جار الله ومعناه الأساس ، والصواب ضبطه بالفتح والمد والتخفيف أى شجر الآس لأنه صفة العصا سها فيها المصنف كذا بهامشه» اه عليان. والظاهر أن ضبطه بالضم والتشديد بمعنى الأساس أليق لأن الكلام في وصف الحجر لا العصا. اه مصححه.

بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

كانوا فلاحه فترعوا إلى عكرهم فأجموا ما كانوا فيه ^(١) من النعمة وطلبت أنفسهم الشقاء ﴿عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ أرادوا ما رزقوا في التيه من المن والسلوى. فإن قلت : هما طعامان فما لهم قالوا على طعام واحد؟ قلت : أرادوا بالواحد ما لا يختلف ولا يتبدل ، ولو كان على مائدة الرجل ألوان عدة يداوم عليها كل يوم لا يبدلها ، قيل : لا يأكل فلان إلا طعاما واحدا يراد بالوحدة نفى التبدل والاختلاف. ويجوز أن يريدوا أنهما ضرب واحد ، لأنهما معاً من طعام أهل التلذذ والتترف ، ونحن قوم فلاحه أهل زراعات ، فما نريد إلا ما ألفتناه وضرينا به من الأشياء المتفاوتة كالحبوب والبقول ونحو ذلك. ومعنى ﴿يُخْرِجُ لَنَا﴾ يظهر لنا ويوجد والبقول ما أنبتته الأرض من الخضر. والمراد به أطيب البقول التي يأكلها الناس كالنعناع والكرفس والكراث وأشباهها. وقرئ (وقثائها) بالضم. والفوم : الحنطة. ومنه فؤموا لنا ، أى : اخبزوا. وقيل الثوم. ويدل عليه قراءة ابن مسعود : وثومها ، وهو للعدس والبصل أوفق ﴿الَّذِي هُوَ أَذْنِي﴾ الذي هو أقرب منزلة وأدون مقداراً ، والدنو والقرب يعبر بهما عن قلة المقدار فيقال : هو داني المحل وقريب المنزلة ، كما يعبر بالبعد عن عكس ذلك فيقال : هو بعيد المحل وبعيد المهمة يريدون الرفعة والعلو. وقرأ زهير الفرقي : أدناً بالهمزة من الدناءة ﴿أَهْبَطُوا مِصْرًا﴾ وقرئ اهبطوا ، بالضم : أى انحدروا إليه من التيه. يقال : هبط الوادي إذا نزل به ، وهبط منه ، إذا خرج. وبلاد التيه : ما بين بيت المقدس إلى قنسرين ، وهي اثنا عشر فرسخاً في ثمانية فراسخ. ويحتمل أن يريد العلم وإنما صرفه مع اجتماع السببين فيه وهما التعريف والتأنيث ، لسكون وسطه كقوله : ونوحا ولوطا. وفيهما العجمة والتعريف ، وإن أريد به البلد فما فيه إلا سبب واحد ، وأن يريد مصرّاً من الأمصار. وفي مصحف عبد الله وقرأ به الأعمش : اهبطوا مصر. بغير تنوين. كقوله : ادخلوا مصر. وقيل هو «مصرائيم» فعرب ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم ، فهم فيها كما يكون في القبة من ضربت عليه. أو ألصقت بهم حتى لزمتهم ضربة لازب ، كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه ،

(١) قوله «فأجموا ما كانوا فيه» أى كرهوا. أفاده الصحاح. (ع)

فاليهود صاغرون أذلاء أهل مسكنة ومدقعة^(١) إما على الحقيقة ، وإما لتصاغرهم وتفاجرهم ، خيفة أن تضاعف عليهم الجزية ﴿وَبَاؤُاْ بِغَضَبِ مِّنَ اللَّهِ﴾ من قولك : باء فلان بفلان ، إذا كان حقيقاً بأن يقتل به ، لمساواته له ومكافأته ، أى صاروا أحقاء بغضبه ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدّم من ضرب الذلة والمسكنة والخلاقة بالغضب ، أى ذلك بسبب كفرهم وقتلهم الأنبياء وقد قتلت اليهود . لعنوا . شعيا وزكريا ويحيى وغيرهم : فان قلت : قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق فما فائدة ذكره؟ قلت : معناه أنهم قتلوه بغير الحق عندهم ، لأنهم لم يقتلوا ولا أفسدوا في الأرض فيقتلوا . وإنما نصحوهم ودعوهم إلى ما ينفعهم فقتلوه ، فلو سئلوا وأنصفوا من أنفسهم لم يذكروا وجهها يستحقون به القتل عندهم . وقرأ علىّ رضى الله عنه ويقتلون بالتشديد ﴿ذَلِكَ﴾ تكرار للإشارة ﴿بِمَا عَصَوْاْ﴾ بسبب ارتكابهم أنواع المعاصي واعتدائهم حدود الله في كل شيء ، مع كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء . وقيل : هو اعتداؤهم في السبت . ويجوز أن يشار بذلك إلى الكفر وقتل الأنبياء على معنى أن ذلك بسبب عصيانهم واعتدائهم ، لأنهم ائتمكوا فيهما وغلوا حتى قست قلوبهم فجسروا على جحود الآيات وقتل الأنبياء ، أو ذلك الكفر والقتل مع ما عصوا .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢)

إن الذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطأة القلوب وهم المنافقون ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ والذين تهودوا . يقال : هاد يهود . وتهود إذا دخل في اليهودية ، وهو هائد ، والجمع هود . ﴿وَالنَّصَارَى﴾ وهو جمع نصران . يقال : رجل نصران ، وامرأة نصرانة ، قال : نصرانة لم تحنف . والياء في نصراني للمبالغة كالتي في أحمري . سموا لأنهم نصروا المسيح . ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ وهو من صبأ إذا خرج من الدين وهم قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة ﴿مَنْ آمَنَ﴾ من هؤلاء الكفرة إيماناً خالصاً ودخل في ملة الإسلام دخولا أصيلاً ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ الذي يستوجبونه بإيمانهم وعملهم . فإن قلت : ما محل من آمن؟ قلت : الرفع إن جعلته مبتدأ خبره ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ والنصب إن جعلته بدلا من اسم إنَّ والمعطوف عليه . فخير إنَّ في الوجه الأول الجملة كما هي وفي الثاني فلهم أجرهم . والفاء لتضمن «من» معنى الشرط .

(١) قوله «أهل مسكنة ومدقعة» أى متربة . أفاده الصحاح . (ع)

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٦٦)

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ بالعمل على ما في التوراة ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ حتى قبلتم وأعطيتم الميثاق. وذلك أن موسى عليه السلام جاءهم بالألواح فرأوا ما فيها من الآصار والتكاليف الشاقة ، فكبرت عليهم وأبوا قبولها ، فأمر جبريل فقلع الطور من أصله ، ورفع وطلله فوقهم وقال لهم موسى : إن قبلتم وإلا ألقى عليكم ، حتى قبلوا. ﴿خُذُوا﴾ على إرادة القول ﴿مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ من الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بحذ وعزيمة ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ واحفظوا ما في الكتاب وادرسوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ رجاء منكم أن تكونوا متقين ، أو قلنا خذوا واذكروا إرادة أن تتقوا. ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ ثم أعرضتم عن الميثاق والوفاء به ﴿فَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بتوفيقكم للتوبة لخسرتم. وقرئ : خذوا ما آتيتكم ، وتذكروا ، واذكروا ^(١) و ﴿السَّبْتِ﴾ مصدر سبتت اليهود إذا عظمت يوم السبت ، وإن ناساً منهم اعتدوا فيه أى جاوزوا ما حد لهم فيه من التجرد للعبادة وتعظيمه واشتغلوا بالصيد. وذلك أن الله ابتلاهم فما كان يبقى حوت في البحر إلا أخرج خرطومهم يوم السبت ، فإذا مضى تفرقت. كما قال : ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ﴾ فحفروا حياضاً عند البحر وشرعوا إليها الجداول ، فكانت الحيتان تدخلها فيصطادونها يوم الأحد. فذلك الحبس في الحياض هو اعتداؤهم : ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ خبر ان أى كونوا جامعين بين القرذية والخسوء ، وهو الصغار والطرذ ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ بمعنى المسخة ﴿نَكَالًا﴾ عبرة تنكل من اعتبر بها أى تمنعه. ومنه النكل : القيد ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ لما قبلها ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ وما بعدها من الأمم والقرون ^(٢) لأن مسختهم ذكرت في كتب الأولين فاعتبروا بها ، واعتبر بها من بلغتهم من الآخرين : أو أريد

(١) قوله «وتذكروا واذكروا» أى بتشديد الذال والكاف ، وأصله : وتذكروا. (ع)

(٢) قوله «وما بعدها من الأمم والقرون» لعله : والقرى ، نظير قوله الآتي : من القرى والأمم. (ع)

بما بين يديها : ما بحضرتها من القرى والأمم. وقبل نكالا : عقوبة منكلة لما بين يديها. لأجل ما تقدّمها من ذنوبهم وما تأخر منها ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ للذين نھوهم عن الاعتداء من صالحى قومهم ، أو لكل متق سمعها.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوعًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضَ وَلَا بِكْرَ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوُهَا تَسُرُّ النَّاتِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٧١)

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٧٣) كان في بنى إسرائيل شيخ موسر فقتل ابنه بنو أخيه ليرثوه ، وطرحوه على باب مدينة ثم جاءوا يطالبون بديته ، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها ليحيا فيخبرهم بقاتله ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوعًا﴾ أجمعنا مكان هزو ، أو أهل هزو ، أو مهزوا بنا ، أو الهزو نفسه لفرط الاستهزاء ﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ لأن الهزو في مثل هذا من باب الجهل والسفه. وقرئ «هزؤا» بضميتين. «وهزءا» بسكون الزاى ، نحو كفؤا وكفؤا. وقرأ حفص «هزوا» بالضمتين والواو وكذلك «كفوا». والعياذ واللياذ من واد واحد.

في قراءة عبد الله : سل لنا ربك ما هي؟ سؤال عن حالها وصفتها. وذلك أنهم تعجبوا من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيا ، فسألوا عن صفة تلك البقرة المجيبة الشأن الخارجة عما عليه البقر. والفارض : المسنة ، وقد فرضت فروضا فهي فارض. قال خفاف بن ندبة :

لَعَمْرِي لَقَدْ أُعْطِيَْتُ ضَيْقَكَ فَارِضاً تُسَاقُ إِلَيْهِ مَا تَقُومُ عَلَى رِجْلِي^(١)

وكأنها سميت فارضاً لأنها فرضت سنها أى قطعتها وبلغت آخرها. والبكر : الفتية.

والعوان النصف. قال :

نَوَاعِمُ بَيْنَ أَبْكَارٍ وَعُونٍ^(٢)

وقد عوّنت^(٣). فإن قلت : (بين) يقتضى شيئين فصاعداً^(٤) فمن أين جاز دخوله على (ذلك) : قلت لأنه في معنى شيئين حيث وقع مشاراً به إلى ما ذكر من الفارض والبكر. فإن قلت : كيف جاز أن يشار به إلى مؤنثين ، وإنما هو للإشارة إلى واحد مذكر؟ قلت : جاز ذلك على تأويل ما ذكر وما تقدم ، للاختصار في الكلام ، كما جعلوا «فعل» نائبا عن أفعال جمّة تذكر قبله : تقول للرجل : نعم ما فعلت ، وقد ذكر لك أفعالا كثيرة وقصة طويلة ، كما تقول له : ما أحسن ذلك. وقد يجرى الضمير مجرى اسم الإشارة في هذا. قال أبو عبيدة قلت لرؤبة في قوله :

فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقٍ كَأَنََّّهُ فِي الْجِلْدِ تَوَلَّى الْبَهَقَ^(٥)

(١) لخفاف بن ندبة يهجو العباس بن مرداس بالبخل. والفاض : الناقة المسنة تساق إليه ، أى لا تركب ، بل تحتاج إلى من يضربها ويسوقها من خلفها. لا تقوم على رجل : أى لا رجل لها قوية تعتمد عليها في قيامها.

(٢) طعمان كننت أعهدن قهدما وهن لهدى الاقامه غهير جهدون

حصان مواضع القهب الأعهادى نواعم بهين أبكار وعهدون

للطرماح. والظعانن النساء في الهوادج. والضعانن. بالضاد. : المطايا. والضعانن. بالغين. : جمع ضعينة ، وهي الحقد والميل والاعوجاج. وضغنته : إذا أخذته في حضنك. وفرس ضاغن : لا يعطى ما عنده من الجري. وناقة ذات ضغن : أى حنين إلى وطنها. وامرأة ذات ضغن تحب غير زوجها. والجون. بالضم جمع جوناى أى سوداء. والحصان. بالفتح. : المحصنة. والنقب : جمع نقاب ، ككتب وكتاب. والعون أصله بضم الواو جمع عون ، وهي النصف. بفتحتن. أى الوسط من النساء والبهايم ، فسكن تخفيفاً. يقول : تلك النساء طعانن أى مسافرات غير لوطن السفر ، وكنت أعهدهن في قديم الزمان حين الإقامة غير سود وهن محصنات الوجوه ، وإذا حفظت حفظن كلهن عادة. والأعلى : صفة للنقب أو المواضع ، وهذا لا يكون إلا في النساء كما ترى. وروى بعضهم «ضعانن» بدل «طعانن» ولعله تحريف. وهن ناعمات ، دائرات بين أبكار صغيرات وعون أواسط.

(٣) قوله «وقد عونت» في الصحاح : وتقول منه عونت المرأة تعوينا ، وعانت تعون عونا. (ع) (٤) قال محمود رحمه الله : «فان قلت بين يقتضى شيئين ... الخ» قال أحمد رحمه الله : وقد مر نظير هذا عند قوله : ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ فجدد به عهدا.

(٥) لرؤبة بن العجاج يصف بقرة وحشية ، وقيل فرساً ، وقيل خيلاً فيها لون السواد ولون البلق. أى البياض. ويروى : من بياض وياق ؛ فلعل البياض بياض يرهقه فترة ، كأنه : أى ذلك المذكور أو المجتمع منهما ، توليع .

إن أردت الخطوط فقل : كأنها. وإن أردت السواد والبلق فقل : كأنهما. فقال : أردت كأن ذاك ، ويلك! والذي حسن منه أنّ أسماء الإشارة تثنيتهما وجمعها وتأنيثها ليست على الحقيقة وكذلك الموصولات. ولذلك جاء الذي بمعنى الجمع ﴿**مَا تُوْمَرُونَ**﴾ أى ما تؤمرونه بمعنى تؤمرون به من قوله أمرتك الخير أو أمركم بمعنى مأموركم تسمية للمفعول به بالمصدر ، كضرب الأمير.

الفقوع أشد ما يكون من الصفرة وأنصعه. يقال في التوكيد : أصفر فاقع ووارس ، كما يقال أسود حالك وحانك ، وأبيض يقق ولهق. وأحمر قاني وذريحي. وأخضر ناضر ومدهام. وأورق خطباتي وأزمك رداي. فإن قلت : فاقع هاهنا واقع خبرا عن اللون ، فلم يقع توكيداً لصفراء قلت : لم يقع خبرا عن اللون إنما وقع توكيداً لصفراء ، إلا أنه ارتفع اللون به ارتفاع الفاعل واللون من سببها وملتبس بها ، فلم يكن فرق بين قولك صفراء فاقعة وصفراء فاقع لوها. فإن قلت : فهلا قيل صفراء فاقعة؟ وأى فائدة في ذكر اللون؟ قلت : الفائدة فيه التوكيد ، لأنّ اللون اسم للهيئة وهي الصفرة ، فكأنه قيل : شديدة الصفرة صفرتها ، فهو من قولك : جدّ جدّه ، وجنونك مجنون. وعن وهب : إذا نظرت إليها خيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها والسرور لذة في القلب عند حصول نفع أو توقعه. وعن علي رضي الله عنه : «من لبس نعلا صفراء قل همه ^(١) لقوله تعالى تسرّ الناظرين» وعن الحسن البصري ﴿**صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا**﴾ سوداء شديدة السواد. ولعله مستعار من صفة الإبل ؛ لأن سوادها تعلوه صفرة. وبه فسر قوله تعالى : ﴿**جَمَلَتْ صُفْرُ**﴾. قال الأعشى :

تَلَّكَ خَيْلِي مِنْهُ وَتَلَّكَ رَكَابِي هُنَّ صُفْرٌ أَوْلَادُهُ كَالزَّيْبِ ^(٢)

. البهق في الجلد. أو كأنه حال كونه في الجلد توليع البهق ، أى تخطيطه من البياض المشوب بكثرة الناشئ من البهق ، وهو داء يتغير منه لون الجلد. روى أن أبا عبيدة قال له : إن أردت الخطوط فقل : كأنها. وإن أردت السواد والبلق فقل : كأنهما. فقال أردت كأن ذاك ، فقد أجرى الضمير مجرى اسم الإشارة في صحة الإشارة بالمفرد منه إلى المتعدد بتأويله بالمذكور ونحوه. (١) موقوف لم أجده : لكن أخرجه العقيلي والطبراني والخطيب من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال «من لبس نعلا صفراء لم يزل في سرور ما دام لابسها» وقال ابن أبي حاتم : سألت أبي عنه : فقال : كذب. موضوع.

(٢) إن قيس أقيس الفعـال أبا	الأشـعث أمسـت أصـداؤه لشـعوب
كـل عـام يـمـدني بـمـوم	عـنـد وـضـع للـضـأن أو بنـجـب
تـلـك خـيـلـي مـنـه وتـلـك رـكـابـي	هـنـ صـفـر أولادـه كـالزـيـب

للأعشى في أبي الأشعث بن قيس. والفعال . بالفتح . : فعل الخير . والأصداء : جمع صدى ، وهو ذكر اليوم .
كانت العرب تزعم أن عظام رأس القتيل تصير بومة وتصبح : أدركوني . حتى يؤخذ بثأره . وشعوب : اسم للمنية ، .

﴿ما هي﴾ مرة ثانية تكرير للسؤال عن حالها وصفتها ، واستشكاف زائد ليزدادوا بيانا لوصفها. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «لو اعترضوا أدنى بقرة فذبحوها لكفتهم» ^(١) ولكن شدّدوا فشّدّد الله عليهم» والاستقصاء شؤم. وعن بعض الخلفاء أنه كتب إلى عامله بأن يذهب إلى قوم فيقطع أشجارهم ويهدم دورهم ، فكتب إليه : بأيهما أبدأ؟ فقال : إن قلت لك بقطع الشجر سألتني : بأى نوع منها أبدأ؟ وعن عمر بن عبد العزيز : إذا أمرتك أن تعطى فلانا شاة سألتني : أضائن أم ماعز؟ فإن بينت لك قلت : أذكر أم أنثى؟ فإن أخبرتك قلت : أسوداء أم بيضاء؟ فإذا أمرتك بشيء فلا تراجعني. وفي الحديث «أعظم الناس جرما من سأل عن شيء لم يحرم فحرم لأجل مسألته» ^(٢) ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ أى إنّ البقر الموصوف بالتعوين والصفرة كثير فاشتبه علينا أيها نذبح. وقرئ : تشابه ، بمعنى تتشابه بطرح التاء وإدغامها في الشين. وتشابهت ومتشابهة ومتشابه. وقرأ محمد ذو الشامة : إن الباقر يشابه ، بالياء والتشديد. جاء في الحديث «لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد» ^(٣) أى : لو لم يقولوا إن شاء الله. والمعنى : إنا لمهتدون إلى البقرة المراد ذبحها ، أو إلى ما خفى علينا من أمر القاتل ﴿لَا ذُلُولٌ﴾ صفة لبقرة بمعنى بقرة غير ذلول ، يعنى لم تذلل للكراب ^(٤) وإثارة الأرض ، ولا هي من النواضح التي يسنى عليها لسقى الحروث ، و «لا» الأولى للنفي ، والثانية مزيدة لتوكيد الأولى ، لأن المعنى : لا ذلول تثير وتسقى. على أنّ الفعلين صفتان للذلول ، كأنه قيل : لا ذلول مثيرة وساقية. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي : لا ذلول ، بمعنى لا ذلول هناك : أى حيث هي ، وهو نفى لذلها ؛ ولأن توصف به فيقال : هي ذلول. ونحوه قولك : مررت بقوم لا بخيل ولا جبان. أى فيهم ، أو حيث هم.

. ويمكن أنه جمع شعب بمعنى طريق ، أى أمست متفرقة في الطرق. وذلك كناية عن قتله. والجمع للتعظيم ، أو اعتباري. والجموم : جمع جم بتثليث أوله بمعنى الكثير. والنجيب : الكريم من الخيل والإبل. والركاب : المطايا. هن أى الركاب ، صفر : جمع أصفر أو صفراء ، أولادها يغلب عليها السواد كالزبيب. والمراد بالصفرة سواد ترهقه صفرة ، لأن هذا أعز ألوان الإبل عندهم. (١) ابن مردويه واليزار وابن أبي حاتم كلهم من طريق الحسن عن أبي رافع عن أبي هريرة مرفوعا وفي سنده عباد بن منصور ، وفيه ضعف والطبري من كلام ابن عباس موقوفا. ومن كلام أبي العالية ، دون قوله «والاستقصاء شؤم» فليس هو في المرفوع ولا الموقوف قلت قوله «والاستقصاء شؤم» من كلام الزمخشري

(٢) متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه.

(٣) قلت : أخرجه ابن جرير من طريق ابن جريج مرفوعا. وهو معضل.

(٤) قوله «لم تذلل للكراب» في الصحاح : كربت الأرض إذا قلبتها للحرث. وفي المثل : الكراب على البقر ، ويقال : الكلاب على البقر. (ع)

وقرئ تسقى بضم التاء من أسقى ﴿مُسَلَّمَةً﴾ سلمها الله من العيوب أو معفاة من العمل سلمها أهلها منه كقوله :

أَوْ مَعْبَرِ الظَّهْرِ يُنْجِي عَنِ وَلِيَّتِهِ مَا حَجَّ رُؤُسُهُ فِي الدُّنْيَا وَلَا اعْتَمَرَ^(١)

أو مخلصه اللون ، من سلم له كذا إذا خلص له ، لم يشب صفرتها شيء من الألوان ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ لا لمعة في نقبتها^(٢) من لون آخر سوى الصفرة ، فهي صفراء كلها حتى قرنها وظلفها. وهي في الأصل مصدر وشاه وشيا وشية ، إذا خلط بلونه لونا آخر ، ومنه ثور موشى القوائم ﴿جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ أى بحقيقة وصف البقرة ، وما بقي إشكال في أمرها ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ أى فحصلوا البقرة الجامعة لهذه الأوصاف كلها فذبحوها. وقوله ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ استثقال لاستقصائهم واستبطاء لهم ، وأنهم لتطويلهم المفرط وكثرة استكشافهم ، ما كادوا يذبحونها ، وما كادت تنتهي سؤالاتهم ، وما كاد ينقطع خيط إسهابهم فيها وتعمقهم. وقيل : وما كادوا يذبحونها لغلاء ثمنها. وقيل : لخوف الفضيحة في ظهور القاتل. وروى أنه كان في بني إسرائيل شيخ صالح له عجلة فأتى بها الغيضة^(٣) وقال : اللهم إني أستودعكها لابنى حتى يكبر ، وكان براً بوالديه ، فشبت وكانت من أحسن البقر وأسمنه ، فساوموها اليتيم وأمه حتى اشتروها بملء مسكها ذهباً ، وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير

(١) أنشدته سيبويه. ويقال : أعبرت الشاة فهي معبرة ، إذا كثرت صوفها لتركها سنة من غير جز ، فالظهر المعبر : المتروك من الجز فيكثر وبره ، أو لأنه لا وبر عليه فيحز. ولعل المراد هنا المتروك من الحمل عليه. وقيل : المنجرد الشعر. ونبا عنه ينبو : انخرف. وأنبيته : حرفته وأبعدته ، فما هنا معناه يمنع غيره عن ركوب وليته. وظاهر كلام بعضهم أنه يقال : نبى ينبى ، كرمى يرمى ، إذا انخرف. وأن ما هنا منه ، أى ينفر عن وليته : أى برذعته ، لأنها تلى الجلد. وربه باختلاس الحركة للوزن ، بمعنى صاحبه. والمعنى : أنه بعير متروك من العمل فهو مصعب ينفر من الراكب ، لأنه لم يسافر أصلاً حتى أن صاحبه لا حج ولا اعتمر : وظاهر كلام بعضهم أن «ربه» هي رب التي هي حرف جر ، فتكون جارة للضمير بلا تمييز لتقدم مرجعه ، ودالة على تحقيق النفي مجازاً عن معنى التكثير وهي اعتراض بين المتعاطفين. وإسناد الفعلين للضمير البعير مجاز عقلى ، لأنه من آلات الحج والاعتماد. وقائل ذلك فسر أنه منجرد الظهر ينفر من برذعته لدبره من كثرة الأسفار. ما سافر لحج ولا اعتمر ، وإنما يسافر إلى الأعداء. ولو جعل معناه كما تقدم لجاز. فالعنى أنه مصعب لم يركب ولم يسافر أصلاً ، حتى أنه لم يسافر لحج ولا عمرة وهو ظاهر.

(٢) قوله «لا لمعة في نقبتها» في الصحاح : النقبة اللون والوجه. (ع)

(٣) قوله «فأتى بها الغيضة» في الصحاح : الغيضة الأجمة ، وهي مغيض ماء يجتمع فيه فينبت فيه الشجر. (ع)

وكانوا طلبوا البقرة الموصوفة أربعين سنة. فإن قلت : كانت البقرة التي تناولها الأمر بقرة من شق البقر غير مخصوصة ، ثم انقلبت مخصوصة بلون وصفات ، فذبحوا المخصوصة ، فما فعل الأمر الأول؟ قلت : رجع منسوخا لانتقال الحكم إلى البقرة المخصوصة ، والنسخ قبل الفعل جائز. على أنّ الخطاب كان لإبهامه متناولا لهذه البقرة الموصوفة كما تناول غيرها. ولو وقع الذبح عليها بحكم الخطاب قبل التخصيص لكان امتثالا له ، فكذلك إذا وقع عليها بعد التخصيص ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ خوطبت الجماعة لوجود القتل فيهم ﴿فَادَّارَأْتُمْ﴾ فاختلقتم واختصمتم في شأنها ، لأنّ المتخاصمين يدرأ بعضهم بعضاً ، أى يدفعه ويترحمه. أو تدافعتم ، بمعنى طرح قتلها بعضكم على بعض ، فدفع المطروح عليه الطراح. أو لأنّ الطرح في نفسه دفع. أو دفع بعضكم بعضاً عن البراءة واتهمه ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ مظهر لا محالة ما كتمتم من أمر القتل لا يتركه مكتوماً. فإن قلت : كيف أعمل مخرج وهو في معنى المضى؟ قلت : وقد حكى ما كان (١) مستقبلا في وقت التدارؤ. كما حكى الحاضر في قوله : ﴿بَاسِطُ ذِرَاعَيْهِ﴾ وهذه الجملة اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه وهما ﴿فَادَّارَأْتُمْ﴾ و ﴿فَقُلْنَا﴾ والضمير في ﴿اضْرِبُوهُ﴾ إمّا أن يرجع إلى النفس والتذكير على تأويل الشخص والإنسان ، وإمّا إلى القتل لما دل عليه من قوله : ﴿مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾. ﴿بِغَضِبِهَا﴾ ببعض البقرة. واختلف في البعض الذي ضرب به ، ف قيل : لسانها ، وقيل : فخذها اليمنى ، وقيل : عجبها ، وقيل : العظم الذي يلي الغضروف وهو أصل الأذن ، وقيل : الأذن ، وقيل : البضعة بين الكتفين. والمعنى : فضربه فحيى ، فحذف ذلك لدلالة قوله : ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾. وروى أنهم لما ضربوه قام بإذن الله وأوداجه تشخب دماً وقال : قتلتني فلان وفلان لا بنى عمه ، ثم سقط ميتاً ، فأخذوا وقتلوا ولم يورث قاتل بعد ذلك. ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ إما أن يكون خطابا للذين حضروا حياة القتل بمعنى قلنا لهم : كذلك يحيى الله الموتى يوم القيامة ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ ودلائله على أنه قادر على كل شيء ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تعملون على قضية عقولكم. وأن من قدر على إحياء نفس واحدة قدر على إحياء الأنفس كلها لعدم الاختصاص حتى لا تنكروا البعث. وإما أن يكون خطابا للمنكرين في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإن قلت : هلا أحياء ابتداء؟ ولم شرط في إحيائه ذبح البقرة وضربه ببعضها؟ قلت : في الأسباب والشروط

(١) قوله «قلت وقد حكى ما كان» لعله «قد» بدون واو. (ع)

حكم وفوائد. وإنما شرط ذلك لما في ذبح البقرة من التقرب وأداء التكاليف واكتساب الثواب والإشعار بحسن تقديم القرية على الطلب ، وما في التشديد عليهم لتشديدهم من اللطف لهم ، ولآخرين في ترك التشديد والمصارعة إلى امتثال أوامر الله تعالى وارتسامها على الفور ، من غير تفتيش وتكثير سؤال ، ونفع اليتيم بالتجارة الرابحة ، والدلالة على بركة البرّ بالوالدين ، والشفقة على الأولاد ، وتجهيل الهازئ بما لا يعلم كنهه ولا يطلع على حقيقته من كلام الحكماء ، وبيان أنّ من حق المتقرب إلى ربه أن يتنوّق ^(١) في اختيار ما يتقرب به ، وأن يختاره فتى السنّ غير قحّم ولا ضرع ، حسن اللون برياً من العيوب يونق من ينظر إليه ، وأن يغالى بثمره ، كما يروى عن عمر رضى الله عنه أنه ضحى بنجبية ^(٢) بثلاثمائة دينار ، وأنّ الزيادة في الخطاب نسخ له ، وأن النسخ قبل الفعل جائز وإن لم يجز قبل وقت الفعل وإمكانه لأدائه إلى البداء ، وليعلم بما أمر من مس الميت بالميت وحصول الحياة عقيبه أن المؤثر هو المسبب لا الأسباب ، لأن الموتين الحاصلين في الجسمين لا يعقل أن تتولد منهما حياة. فإن قلت : فما للقصة لم تقص على ترتيبها ، وكان حقها أن يقدّم ذكر القتل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها ، وأن يقال : وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها؟ قلت : كل ما قص من قصص بنى إسرائيل إنما قص تعديداً لما وجد منهم من الجنايات ، وتقريعا لهم عليها ، ولما جدّد فيهم من الآيات العظام. وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التفرّيع وإن كانتا متصلتين متحدتين ، فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك. والثانية للتقريع على قتل النفس المحرّمة وما يتبعه من الآية العظيمة. وإنما قدّمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتل لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة ، ولذهب الغرض في تثنية التقريع. ولقد روعيت نكتة بعد ما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها أن وصلت بالأولى ، دلالة على اتحادها بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله : ﴿اضْرِبُوهُ بِعُضْبِهَا﴾ حتى تبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع وتثنيته بإخراج الثانية مخرج الاستئناف مع تأخيرها ، وأنها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة.

(١) قوله «أن يتنوّق» في الصحاح : تنوّق في الأمر ، أى تأنّق فيه. ويفيد أيضاً أن «القحّم» المسنّ الفاني ، و «الضرع» بالتحريك الضعيف النحيف. و «الأنق» الفرح والسرور. (ع)
(٢) أخرجه أبو داود من رواية الجهم بن الجارود عن سالم عن أبيه. قال : «أهدى عمر رضى الله عنه نجبية فأعطى بها ثلاثمائة دينار. فقال يا رسول الله أفأبيعها وأشتري بثمرها بدناً؟ قال : لا ، أنحرها إياها».

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٧٤)

معنى ﴿ثُمَّ قَسَتْ﴾ استبعاد القسوة من بعد ما ذكر مما يوجب لين القلوب ورقتها ونحوه : ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ وصفة القلوب بالقسوة والغلظ مثل لنبّوها عن الاعتبار وأنّ المواعظ لا تؤثر فيها. و ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى إحياء القتيل ، أو إلى جميع ما تقدّم من الآيات المعدادة ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ فهي في قسوتها مثل الحجارة ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ منها ، وأشدّ معطوف على الكاف ، إما على معنى أو مثل أشدّ قسوة ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وتعضده قراءة الأعمش بنصب الدال عطفاً على الحجارة. وإما على : أو هي أنفسها أشدّ قسوة. والمعنى : أن من عرف حالها شبهها بالحجارة ، أو بجوهر أقسى منها وهو الحديد مثلاً. أو من عرفها شبهها بالحجارة ، أو قال : هي أقسى من الحجارة. فإن قلت : لم قيل : أشدّ قسوة ، وفعل القسوة مما يخرج منه أفعل التفضيل وفعل التعجب ^(١)؟ قلت : لكونه أبين وأدلّ على فرط القسوة. ووجه آخر ، وهو أن لا يقصد معنى الأقسى ولكن قصد وصف القسوة بالشدّة ، كأنه قيل : اشتدت قسوة الحجارة ، وقلوبهم أشدّ قسوة. وقرئ : قساوة. وترك ضمير المفضل عليه لعدم الإلباس ، كقولك : زيد كريم وعمرو أكرم. وقوله ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ﴾ بيان لفضل قلوبهم على الحجارة في شدّة القسوة ، وتقرير لقوله : ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾. وقرئ «وإن» بالتخفيف ، وهي «إن» المخففة من الثقيلة التي تلزمها اللام الفارقة. ومنها قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ﴾. والتفجر : التفتح بالسعة والكثرة. وقرأ مالك بن دينار (ينفجر) بالنون. ﴿يَشَقَّقُ﴾ يتشقّق. وبه قرأ الأعمش. والمعنى إنّ من الحجارة ما فيه خروق واسعة يتدفق منها الماء الكثير الغزير ، ومنها ما ينشق انشقاقاً بالطول أو بالعرض فينبع منه الماء أيضاً ﴿يَهْبِطُ﴾ يتردّى من أعلى الجبل. وقرئ بضم الباء. والخشية مجاز عن انقيادها لأمر الله تعالى ، وأنها

(١) قال محمود رحمه الله : «فان قلت : لم قيل : أشدّ قسوة ... الخ»؟ قال أحمد رحمه الله : ولأن سياق هذه الأفاصيص قصد فيه الأسباب لزيادة التقرّيع ، حتى جعلت القصة الواحدة قصتين كما مر الآن. ولا شك أن قوله ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أدخل في الأسباب من قول القائل : أو أقسى.

لا تمتنع على ما يريد فيها ، وقلوب هؤلاء لا تتقاد ولا تفعل ما أمرت به. وقرئ (يعملون) بالياء والتاء ، وهو وعيد.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُفِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٧٧)

﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أن يحدثوا الإيمان لأجل دعوتكم ويستجيبوا لكم ، كقوله : ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ يعنى اليهود ، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ﴾ طائفة فيمن سلف منهم ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ وهو ما يتلونه من التوراة ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ كما حرّفوا صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وآية الرّجم ، وقيل كان قوم من السبعين المختارين سمعوا كلام الله حين كلم موسى بالطور وما أمر به ونهى ، ثم قالوا : سمعنا الله يقول في آخره : إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا ، وإن شئتم فلا تفعلوا فلا بأس. وقرئ : كلم الله ، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ من بعد ما فهموه وضبطوه بعقولهم ولم تبق لهم شبهة في صحته ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون مفترون. والمعنى : إن كفر هؤلاء وحرّفوا فلهم سابقة في ذلك. ﴿وَإِذَا لَقُوا﴾ يعنى اليهود ﴿قَالُوا﴾ قال منافقوهم ^(١) ﴿آمَنَّا﴾ بأنكم على الحق ، وأنّ محمدا هو الرسول المبشر به ﴿وَإِذَا خَلَا بِعَضُفِهِمْ﴾ الذين لم ينافقوا ﴿إِلَى بَعْضٍ﴾ الذين نافقوا ﴿قَالُوا﴾ عاتبين عليهم ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بما بين لكم في التوراة من صفة محمد. أو قال المنافقون لأعقابهم يروّهم التصلب في دينهم : أتحدّثوهم ، إنكارا عليهم أن يفتحوا عليهم شيئا في كتابهم فينافقون المؤمنين وينافقون اليهود ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ ليحتجوا عليكم بما أنزل ربكم في

(١) قال محمود رحمه الله : «قال منافقوهم ... الخ». قال أحمد رحمه الله : وصح عود الضمير في اللفظ إلى جهة واحدة مع اختلاف المرجوع إليه ، لأنهما صنفان مندرجان في الأول. ونظيره قوله تعالى : ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ فالضمير الأول للأزواج ، والثاني للأولياء وهو راجع إلى جهة واحدة وهي جهة المخاطبين لاشتمالهم على الصنفين جميعا ، والله أعلم.

كتابه ، جعلوا محاجتهم به ، وقولهم هو في كتابكم هكذا محاجة عند الله. ألا تراك تقول : هو في كتاب الله هكذا. وهو عند الله هكذا ، بمعنى واحد ﴿يَعْلَمُ﴾ جميع ﴿مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ومن ذلك إسرارهم الكفر وإعلانهم الإيمان.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٍّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٧٨) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (٧٩)

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ﴾ لا يحسنون الكتب فيطالعوا التوراة ويتحققوا ما فيها ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿إِلَّا أَمَانِيٍّ﴾ إلا ما هم عليه من أمانيتهم ، وأن الله يعفو عنهم ويرحمهم ولا يؤاخذهم بخطاياهم ، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم وما تمنيتهم أحبارهم من أن النار لا تمسهم إلا أياما معدودة. وقيل : إلا أكاذيب مختلفة سمعوها من علمائهم فتقبلوها على التقليد. قال أعرابي لابن دأب في شيء حدث به : أهذا شيء رويته ، أم تمنيت ، أم اختلقته ^(١) وقيل : إلا ما يقرؤون من قوله :

تَمَتَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ ^(٢)

والاشتقاق من متى إذا قدر ، لأن الممتنى يقدر في نفسه ويحزر ما يتمناه ، وكذلك المختلق والقارئ يقدر أن كلمة كذا بعد كذا. وإلا أمانى : من الاستثناء المنقطع. وقرئ : أمانى ، بالتخفيف. ذكر العلماء الذين عاندوا بالتحريف مع العلم والاستيقان ، ثم العوام الذين قلدوهم ، ونبه على أنهم في الضلال سواء ، لأن العالم عليه أن يعمل بعلمه ، وعلى العامي أن لا يرضى بالتقليد والظن وهو متمكن من العلم. ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ﴾ المحرف ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ ^(٣) تأكيد ، وهو

(١) قوله «أم تمنيت أم اختلقته» لعله أى أم الخ (ع)

(٢) تممتنى كتاب الله أول ليلة تمتمنى داود الزبور على رسل

لحسان بن ثابت في مرثية عثمان بن عفان رضى الله عنهما. يقول : تمتمنى كتاب الله ، أى تلاه وتابع في تلاوته كتمنى داود عليه السلام الزبور : أى كتلاوته الزبور على رسل بالكسر : أى تؤدو وسكينة. وروى بدل الشطر الثاني وآخرها لاقى حمام المقادر والحمام : الموت ، لأنه مقدر ، من حم الله الشيء : قدره.

(٣) قال محمود : «إن قلت : ما فائدة قوله بأيديهم ... الخ»؟ قال أحمد رحمه الله : وربما قال الزمخشري في مثل هذا : إن فائدته تصوير الحالة في النفس كما وقعت ، حتى يكاد السامع لذلك أن يكون مشاهداً للهيئة.

من محاز التأكيد ، كما تقول لمن ينكر معرفة ما كتبه : يا هذا كتبه بيمينك هذه. ﴿مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ من الرشا.

﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٨٢) ﴿إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ أربعين يوما عدد أيام عبادة العجل. وعن مجاهد : كانوا يقولون مدّة الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما نعذب مكان كل ألف سنة يوما. ﴿فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ﴾ متعلق بمحذوف تقديره : إن اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده. و ﴿أَمْ﴾ إمّا أن تكون معادلة بمعنى أى الأمرين كائن على سبيل التقرير ، لأن العلم واقع بكون أحدهما. ويجوز أن تكون منقطعة ﴿بَلَى﴾ إثبات لما بعد حرف النفي وهو قوله : ﴿لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ﴾ أى بلى تمسكم أبدا ، بدليل قوله : ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ من السيئات ، يعنى كبيرة من الكبائر ^(١) ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ تلك واستولت عليه ، كما يحيط العدو ولم يتفص عنها ^(٢) بالتوبة. وقرئ : خطاياها ، وخطيئاته. وقيل في الإحاطة : كان ذنبه أغلب من طاعته. وسأل رجل الحسن عن الخطيئة قال : سبحان الله : ألا أراك ذا لحية وما تدرى ما الخطيئة ، انظر في المصحف فكل آية نهي فيها الله عنها وأخبرك أنه من عمل بها أدخله النار فهي الخطيئة المحيطة.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٨٣)

(١) قوله «يعنى كبيرة من الكبائر» فسرهما بذلك لتنطبق الآية على مذهب المعتزلة ، وهو أن فاعل الكبيرة مخلد في النار ، ومذهب أهل السنة أنه لا يخلد فيها إلا الكافر. وفسروا الخطيئة بالشرك. وفي الخازن قال ابن عباس : هي الشرك يموت عليه صاحبه اه وهو الذي يحيط بفاعله ويسد أبواب النجاة أمامه في كل جهة. (ع)

(٢) قوله «ولم يتفص عنها» أى يتخلص. (ع)

﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ إخبار في معنى النهي ^(١) ، كما تقول : تذهب إلى فلان تقول له كذا ، تريد الأمر ، وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي ، لأنه كأنه سورع إلى الامتثال والانتهاز ، فهو يخبر عنه وتنصره قراءة عبد الله وأبي (لا تعبدوا) ولا بدّ من إرادة القول ، ويدل عليه أيضا قوله : ﴿وَقُولُوا﴾. وقوله ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ إما أن يقدر : وتحسنون بالوالدين إحسانا. أو وأحسنوا. وقيل : هو جواب قوله : ﴿أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ^(٢) إجراء له مجرى القسم ، كأنه قيل : وإذ أقسمنا عليهم لا تعبدون. وقيل : معناه أن لا تعبدوا ، فلما حذفت «أن» رفع ، كقوله :

أَلَا أَيُّهَا الزَّاجِرِ أَحْضَرُ الْوَعَى ^(٣)

ويدل عليه قراءة عبد الله (أن لا تعبدوا) ويحتمل (أن لا تعبدوا) أن تكون «إن» فيه مفسرة ، وأن تكون أن مع الفعل بدلا عن الميثاق ، كأنه قيل : أخذنا ميثاق بني إسرائيل توحيدهم وقرئ بالتاء حكاية لما خوطبوا به ، وبالياء لأنهم غيب. ﴿حُسْنًا﴾ قولا هو حسن في نفسه ^(٤) لإفراط حسنه. وقرئ حسنا. وحسنى . على المصدر . كبشرى. ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ على طريقه الالتفات أى توليتم عن الميثاق ورفضتموه. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ﴾ قيل : هم الذين أسلموا منهم ﴿وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ وأنتم قوم عادتكم الإعراض عن المواثيق ، والتولية.

(١) قال محمود رحمه الله تعالى : «لا تعبدون إخبار في معنى النهي ... الخ» قال أحمد رحمه الله : وجه الدليل منه أن الأول لو لم يكن في معنى النهي لما حسن عطف الأمر عليه ، لما بين الأمر والخبر المحض من التنافر. ولا كذلك الأمر والنهي لالتقائهما في معنى الطلب.

(٢) قال محمود رحمه الله : «وقيل هو جواب قوله : ﴿وَأِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ... الخ». قال أحمد رحمه الله : لو قدر القسم مضافا إلى المذكورين لكان أوجه ، فيقول (وإذ أقسمتم لا تعبدون إلا الله ... الخ)

(٣) ألا أيها الزاجر أحضري أحضر الوعى وأن أشهد اللذات هـل أننت مخلدى

لطفة بن العبد من معلقته. وألا أداة استفتاح. وحرف النداء مخدوف. وأى منادى. واسم الإشارة نعت له. والزاجر نعت لاسم الإشارة مضاف لياء المتكلم إضافة الوصف لمفعوله. وروى بدله «اللائي» : وروى «أحضر» منصوبا بإضمار أن ، ومرفوعا على إهمالها وحسن حذفها ذكرها فيما بعد. يقول : يا أيها الزاجر لي عن حضور الحرب وشهود لذات النصر والظفر والغنيمة ، أو شهود لذات الشراب ومغازلة النساء المستدعين لاتلاف المال ، لست مخلداً لي لو طوعتك. فالاستفهام إنكارى.

(٤) قال محمود : «أى قولا هو حسن في نفسه ... الخ». قال أحمد : وفيه من التأكيد والتخصيص على إحسان مناولة الناس ، أنه وضع الصدر فيه موضع الاسم. وهذا إنما يستعمل للمبالغة في تأكيد الوصف ، كرجل عدل ، وصوم وفطر. وقرئ حسنا فهو على هذا من الصفات المشبهة.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٨٦)

﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ لا يفعل ذلك بعضكم ببعض. جعل غير الرجل نفسه. إذا اتصل به أصلاً أو ديناً. وقيل : إذا قتل غيره فكأنما قتل نفسه ، لأنه يقتص منه ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ بالميثاق واعترفتم على أنفسكم بلزومه ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ عليها كقولك : فلان مقرر على نفسه بكذا شاهد عليها. وقيل : وأنتم تشهدون اليوم يا معشر اليهود على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ استبعاد لما أسند إليهم ^(١) من القتل والإجلاء والعدوان بعد أخذ الميثاق منهم وإقرارهم وشهادتهم. والمعنى ثم أنتم بعد ذلك هؤلاء المشاهدون ، يعنى أنكم قوم آخرون ^(٢) غير أولئك المقررين تنزيلاً ، لتغير الصفة منزلة تغير الذات ، كما تقول : رجعت بغير الوجه الذي خرجت به. وقوله ﴿تَقْتُلُونَ﴾ بيان لقوله ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ وقيل : هؤلاء موصول بمعنى الذي ^(٣). وقرئ (تظاهرون) بحذف التاء وإدغامها ، وتظاهرون بإثباتها ، وتظاهرون بمعنى تتظاهرون : أى تتعاونون عليهم. وقرئ : تفادوهم ، وتفادوهم. وأسرى ، وأسارى ﴿وَهُوَ﴾ ضمير الشأن. ويجوز أن يكون مبهما تفسيره ﴿إِخْرَاجُهُمْ ، أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾

(١) قال محمود رحمه الله : أدخل ثم استبعاداً ... الخ؟ قال أحمد رحمه الله : وهذا نظير ما تقدم آنفاً في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ الآية.

(٢) قال محمود رحمه الله : «والمعنى : ثم أنتم بعد ذلك هؤلاء الشاهدون ، يعنى أنكم قوم آخرون غير أولئك ... الخ». قال أحمد رحمه الله : هو بيان لتغير الصفة الموجب لتنزيلهم منزلة المغايرين لهم بالذات.

(٣) قوله «موصول بمعنى الذي» لعله الذين. (ع)

أى بالفداء ﴿وَتَكْفُرُونَ بِنَعْصِ﴾ أى بالقتال والإجلاء. وذلك أنّ قريظة كانوا حلفاء الأوس ، والنضير كانوا خلفاء الخزرج ، فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه ، وإذا غلبوا خربوا ديارهم وأخرجوهم ، وإذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له حتى يقدوه. فغيرتهم العرب وقالت ؛ كيف تقاتلونهم ثم تفدوهم ، فيقولون : أمرنا أن نفديهم وحرّم علينا قتالهم ، ولكننا نستحي أن نذل حلفاءنا. والحزبي : قتل بنى قريظة وأسروهم وإجلاء بنى النضير. وقيل الجزية. وإنما ردّ من فعل منهم ذلك إلى أشد العذاب ، لأن عصيانه أشدّ. وقرئ : يردّون ، ويعملون . بالياء والتاء . ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ عذاب الدنيا بنقصان الجزية ، ولا ينصرهم أحد بالدفع عنهم. وكذلك عذاب الآخرة.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)﴾

﴿الْكِتَابَ﴾ التوراة ، آتاه إياها جملة واحدة. ويقال : قفاه إذا أتبعه من القفا. نحو ذنبه ، من الذنب. وقفاه به : أتبعه إياه ، يعنى : وأرسلنا على أثره الكثير من الرسل ، كقوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ وهم يوشع وأشمويل وشمعون وداود وسليمان وشعيا وأرميا وعزير وحزقييل وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى وغيرهم. وقيل ﴿عِيسَى﴾ بالسريانية أيشوع. و ﴿مَرْيَمَ﴾ بمعنى الخادم. وقيل : المريم بالعربية من النساء ، كالزير من الرجال ^(١). وبه فسر قول رؤبة :

قُلْتُ لَزِيرٍ لَمْ تَصِلْهُ مَرْيَمُهُ ^(٢)

(١) قوله «كالزير من الرجال» في الصحاح : هو الذي يجب محادثة النساء ومجالستهن. (ع)

(٢) قلــــت لزيــــر لم تصــــلــــه مريــــمــــه ضــــلــــل أهــــواء الصــــبــــا تندمــــه

لرؤبة بن العجاج يعاتب أبا جعفر الدوانيقي على البطالة ومغازلة النساء. سمى بذلك لأنه زاد في الخراج دوانق أيام خلافته ، كذا في الكشف. والزير من يكثر مودة النساء وزيارتهم. والمريم : من تكثر مودة الرجال وزيارتهم. .

ووزن «مریم» عند النحويين «مفعّل» لأن فعلاً بفتح الفاء لم يثبت في الأبنية كما ثبت نحو عثير وعليب ^(١) ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات الواضحات والحجج ، كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار بالمغيبات. وقرئ : وآيدناه. ومنه : آجده بالجيم ^(٢) إذا قوّاه. يقال : الحمد لله الذي آجدين بعد ضعف ، وأوجدني بعد فقر. ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ بالروح المقدسة ، كما تقول : حاتم الجود ، ورجل صدق. ووصفها بالقدس كما قال : ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ فوصفه بالاختصاص والتقريب للكرامة. وقيل : لأنه لم تضمه الأصلاب ، ولا أرحام الطوامث. وقيل بالإنجيل كما قال في القرآن : ﴿رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾ وقيل باسم الله الأعظم الذي كان يحيى الموتى بذكره. والمعنى : ولقد آتينا يا بنى إسرائيل أنبياءكم ما آتيناهم ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ منهم بالحق ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان به ، فوسط بين الفاء وما تعلقت به همزة التوبيخ والتعجيب من شأنهم. ويجوز أن يريد : ولقد آتيناهم ما آتيناهم ففعلتم ما فعلتم. ثم وبخهم على ذلك. ودخول الفاء لعطفه على المقدّر. فإن قلت : هلا قيل وفريقاً قتلتم؟ ^(٣). قلت : هو على وجهين : أن تراد الحال الماضية ، ^(٤) لأنّ الأمر فظيع فأريد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب ، وأن يراد : وفريقاً تقتلونهم بعد لأنكم تحومون حول قتل محمد صلى الله عليه وسلم لو لا أنى أعصمه منكم. ولذلك سحرتموه وسمتم

. قال أبو عمرو : من رام بریم ، ومعناه بقي أو ذهب. وريمت السحابة تريماً : دامت ، لدوامها على المودة ، أو لخروجها من بيتها. والضليل كثير الضلال. والصبا : الميل إلى الجهل والفتوة. وتندمه : بمعنى ندمه ، فهو مصدر مرفوع فاعل ضليل. ولعل معناه أن ندمه ضال ضائع في أهواء الصبا. ويروى «مندمه» بصيغة اسم الفاعل. وضليل : مرفوع على الابتداء ، ومندمه خبره. ولعل معناه أن الرجل كثير الضلال يعنى نفسه هو الذي يندمه ويجعله نادماً ، أى يأمره بالندم. وقال عبد الحكيم على البيضاوي نقلاً عن الكشف : أى قلت له من كثر ضلاله يكون مندم نفسه وموقعها في الندامة. واللام في قوله ليزير للتعليل ؛ أى قلت ذلك القول لأجله ، هذا توجيه ما قيل فيه. ولو جعلت ضليل صفة زير كالوجه الأول ، وتندمه فعل أمر مقول القول ، حرك بالضم لالتقاء ساكناً مع هاء السكت ومناسبة القافية لجاز : أى قلت له تندم وتب ، لكن فيه تكلف شاذ.

(١) قوله «عثير وعليب» العثير : الغبار. وعليب : اسم واد. (ع)

(٢) قوله «ومنه آجده بالجيم» وأصله ما يقال : ناقة أجد ، أى قوية موثقة الخلق أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قال محمود رحمه الله : «إن قلت هلا قيل وفريقاً قتلتم ... الخ» قال أحمد رحمه الله : والتعبير بالمضارع يفيد ذلك دون الماضي ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا تَرَأَى اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ فعبّر بالماضي ثم قال : فتصبح الأرض مخضرة ، فعدل عنه إلى المضارع لإرادة لتصوير اخضرارها في النفس. وعليه قوله ابن معديكرب يصور شجاعته وجرأته :

فَإِنِّي قَدْ لَقِيتُ الْقَرْنَ أَسْعَى	بَسْ هَبْ كَالصَّحِيفَةِ صَحَصَ حَانَ
فَأَخَذَهُ فَأَضْرَبُ بِهِ فِيهِ وَى	صَرِيحاً لِلَّيْلِ دِينَ وَلِلْجَرَانِ

(٤) قوله «أن تراد الحال الماضية» لعله : أن تراد حكاية الحال. (ع)

له الشاة. وقال صلى الله عليه وسلم عند موته «ما زالت أكلة خيبر تعادني ، فهذا أوان قطعت أبهرى»^(١) ﴿غُلْفٌ﴾ جمع أغلف ، أى هي خلقة وجبلة مغشاة بأغطية لا يتوصل إليها ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ولا تفقّهه ، مستعار من الأغلف الذي لم يختن ،

(١) أخرجه البزار وأبو نعيم في الطب وابن عدى في الكامل. من طريق سعيد بن محمد بن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضى الله عنه. وسعيد ضعيف ، لكن رواه الحاكم من طريق حماد بن سلمة عن محمد بن عمر بسنده «أن امرأة يهودية أتت النبي صلى الله عليه وسلم بشاة مصلية. فذكر القصة. وفيها : أن هذه الشاة مسمومة ، وأن بشر بن البراء مات منها. فقتلها رسول الله صلى الله عليه وسلم». وأخرج هذا القدر أبو داود من رواية خالد الطحان عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة مرسلًا. ورواه الطبري من حديث بريدة قال «خرجنا إلى خيبر. فذكر القصة. قال : فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم. أهدت زينب بنت الحارث إليه شاة. فذكر القصة فيه وقال : يا أم بشر ، ما زالت أكلة خيبر التي أكلت مع ابنك تعادني. فهذا أو ان قطعت أبهرى» قلت : من قوله «فلما اطمأن الخ» ليس هو في حديث بريدة ، وإنما هو من كلام الطبري. وهو في مغازي ابن إسحاق بهذا اللفظ الأول. وفيه قال ابن إسحاق : فحدثني مروان بن عثمان عن أبي سعيد بن المعلى «أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأُم بشر. وقد دخلت عليه : يا أم بشر إن هذا لأوان وجدت انقطاع أبهرى. الحديث» وكذا أخرجه الطبراني وأبو نعيم في الدلائل من رواية أبي الأسود عن عروة مختصراً. وذكره الواقدي في المغازي مطولاً بغير سند. وذكره ابن سعد في الطبقات عنه بأسانيد وفيه : ورفعها إلى ولادة بشر بن البراء فقتلها. وروى أبو عبيدة والحري في غريبهما من حديث أبي جعفر الباقر نحو الأول مرسلًا. قال الأصمعي : تعادني من العداد. وهو الشيء الذي يأتي لوقت دون وقت وذكره البخاري تعليقا من رواية عيينة عن يونس عن الزهري عن عروة عن عائشة رضى الله عنها ووصله البزار والحاكم من هذا الوجه واتفق الشيخان على حديث أنس رضى الله عنه «أن امرأة يهودية أتت النبي صلى الله عليه وسلم بشاة مسمومة» فأكل منها الحديث وفيه : فقال : ما زلت أعرفها في لهوات النبي صلى الله عليه وسلم» وروى أحمد والحاكم من حديث الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه عن أم بشر قالت «دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجعه الذي قبض فيه ، فقلت : ما يتهم نفسك ، فاني لا أتهم بابي إلا الطعام الذي أكله معك بخيبر. قال : وأنا لا أتهم غيرها. فهذا أو ان انقطع أبهرى» وأخرج البيهقي في الدلائل هذه القصة عن الزهري وفيها قال الزهري : قال جابر : «واحتجم يومئذ على الكاهل وبقي ثلاث سنين حتى كان وجعه الذي توفي فيه. قال : ما زلت أجد من الأكلة التي أكلت من الشاة يوم خيبر عدادا حتى كان هذا أوان انقطاع الأهر مني» وأخرج أبو داود من رواية الزهري عن جابر كذلك. وروى الطبراني والدارقطني من رواية يحيى بن عبد الرحمن بن لبيبة عن أبيه عن جده لبيبة الأنصاري رضى الله عنه قال «أهدت يهودية إلى النبي صلى الله عليه وسلم شاة مصلية مسمومة. فأكل منهما هو وبشر ابن البراء بن مصرور. فمرضا مرضا شديداً. فذكر القصة. وفيها : ثم أمر بها فصلبت» وروى معمر عن الزهري أنه قال : أسلمت. فتركها رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال معمر : هكذا قال. والناس يقولون : أنها لم تسلم وإنما قتلت. قال البيهقي : ثم السهيلي : يجمع بينهما بأنه صفح عنها فلم يقتلها ، لأنه كان لا ينتقم لنفسه. فلما مات بشر من تلك الأكلة قتلها به قصاصاً.

كقولهم : قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه. ثم ردّ الله أن تكون قلوبهم مخلوقة ^(١) كذلك لأنها خلقت على الفطرة والتمكن من قبول الحق ، بأن الله لعنهم وخذلهم بسبب كفرهم ، فهم الذين غلفوا قلوبهم بما أحدثوا من الكفر الزائغ عن الفطرة وتسببوا بذلك لمنع الألفاظ التي تكون للمتوقع إيمانهم وللمؤمنين ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فإيماننا قليلاً يؤمنون. وما مزيدة ، وهو إيمانهم ببعض الكتاب. ويجوز أن تكون القلة بمعنى العدم. وقيل «غلف» تخفيف «غلف» جمع غلاف ، أى قلوبنا أوعية للعلم فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره. وروى عن أبي عمرو : قلوبنا غلف ، بضمتين ﴿كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ هو القرآن ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من كتابهم لا يخالفه. وقرئ : مصدقاً ، على الحال. فإن قلت : كيف جاز نصبها عن النكرة؟ قلت : إذا وصف النكرة تخصص فصح انتصاب الحال عنه ، وقد وصف «كتاب» بقوله «من عند الله» وجواب لما محذوف وهو نحو : كذبوا به ، واستهانوا بمجيئه ، وما أشبه ذلك ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يستنصرون على المشركين ، إذا قاتلوهم قالوا : اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد نعته وصفته في التوراة ، ويقولون لأعدائهم من المشركين : قد أظلم زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم : وقيل معنى ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ يفتحون عليهم ويعرفونهم أنّ نبيا يبعث منهم قد قرب أوانه. والسين للمبالغة ، أى يسألون أنفسهم الفتح عليهم ، كالسين في استعجب واستسخر ، أو يسأل بعضهم بعضاً أن يفتح عليهم ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾ من الحق ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ بغيا وحسداً وحرصاً على الرياسة. ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أى عليهم وضعاً للظاهر موضع المضمير للدلالة على أنّ

(١) قال محمود رحمه الله : «ثم رد الله أن تكون قلوبهم مخلوقة ... الخ». قال أحمد رحمه الله : وهذا من نوائب الزمخشري على تنزيل الآيات على عقائدهم الباطلة ، وأنى له ذلك في الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ألا تراه كيف أخذ من رد الله على هذه الطائفة أن تكون قلوبهم مخلوقة على الكفر ، أن الكفر والامتناع من قبول الحق هم خلقوه لأنفسهم ، تمهيداً لقاعدته الفاسدة في خلق الأعمال. وسبيل الرد عليه : أن الله تعالى إنما كذبهم ورد عليهم في ادعائهم عدم الاستطاعة للإيمان وسلب التمكن وعللوا ذلك بأن قلوبهم غلف وصدق الله ورسوله في أنه إنما خلقهم على الفطرة والتمكن من الإيمان والتأني والتيسر له. وإنما هم اختاروا الكفر على الإيمان فوقع اختيارهم الكفر مقارناً لخلق الله تعالى إياه في قلوبهم بعد ما أنشأهم على الفطرة ، بقيام حجة الله تعالى عليهم : بأنه خلقهم متمكنين من الإيمان غير مقسورين على الكفر ، وذلك لا ينافي توجيه أهل السنة في اعتقاد أن الله تعالى خالق ذلك في قلوبهم على وفق اختيارهم. هذا هو الحق الأبلج والصراط الأبهج والله الموفق. وقول الزمخشري : إن كفرهم إنما خلقوه لأنفسهم بسبب منع أطفاف الله تعالى التي تسبب المؤمنون في حصولها لهم وكانت سبباً في خلقهم الإيمان في قلوبهم : كل هذا تستر من الاشراك واعتقاد آلهة غير الله تخلق لنفسها ما شاءت من إيمان وكفر تعالى الله عما يشركون علواً كبيراً ..

اللجنة لحقتهم لكفرهم. واللام للعهد. ويجوز أن تكون للجنس ويدخلوا فيه دخولا أوليا.

﴿يُسَمَّا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبِأُوْءِ بَعْضٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (٩٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٩١)

﴿يُسَمَّا﴾ نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بئس بمعنى بئس شيئا ﴿اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ والمخصوص بالذم ﴿أَنْ يَكْفُرُوا﴾ واشتروا بمعنى باعوا ﴿بَغْيًا﴾ حسداً وطلباً لما ليس لهم ، وهو علة اشتروا ﴿أَنْ يَنْزِلَ﴾ لأن ينزل أو على أن ينزل ، أى حسدوه على أن ينزل الله ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ الذي هو الوحي ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ وتقتضي حكمته إرساله ﴿فَبِأُوْءِ بَعْضٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ فصاروا أحقاء بغضب مترادف ، لأنهم كفروا بنبي الحق وبغوا عليه. وقيل كفروا بمحمد بعد عيسى. وقيل بعد قولهم : عزيز ابن الله ، وقولهم : يد الله مغلولة ، وغير ذلك من أنواع كفرهم ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ مطلق فيما أنزل الله من كل كتاب ﴿قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا﴾ مقيد بالتوراة ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ أى قالوا ذلك والحال أنهم يكفرون بما وراء التوراة ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ منها غير مخالف له ، وفيه رد لمقاتلهم لأنهم إذا كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها ^(١) ثم اعترض عليهم بقتلهم الأنبياء مع ادّعائهم الإيمان بالتوراة والتوراة لا تسوغ قتل الأنبياء

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَيْنَا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٣)

(١) قال محمود رحمه الله : «أنهم إذا كفروا بما يوافق التوراة ... الخ». قال أحمد رحمه الله : وهذه النكتة بعينها هي الموجب لكفر القدرية على أحد قولي مالك والشافعي والقاضي رضى الله عنهم ، فان العقائد الصحيحة السنية متلازمة متوافقة يصدق بعضها بعضاً ، فجحد أحدها كفر به ثم كفر بالجميع ، نسأل الله تعالى العصمة.

﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ يجوز أن يكون حالا ، أى عبدتم العجل وأنتم واضعون العبادة غير موضعها. وأن يكون اعتراضا بمعنى : وأنتم قوم عادتكم الظلم. وكرر رفع الطور لما نيط به من زيادة ليست مع الأول مع ما فيه من التوكيد ﴿وَاسْمِعُوا﴾ ما أمرتم به في التوراة ﴿قَالُوا سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك. فإن قلت : كيف طابق قوله جوابهم؟ قلت : طابقه من حيث أنه قال لهم : اسمعوا ، وليكن سماعكم سماع تقبل وطاعة ، فقالوا : سمعنا ، ولكن لا سماع طاعة ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ أى تداخلهم حبه والحرص على عبادته كما يتداخل الثوب الصبغ. وقوله ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ بيان لمكان الإشراب كقوله : ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾. بسبب كفرهم ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾ بالتوراة ، لأنه ليس في التوراة عبادة العجائيل. وإضافة الأمر إلى إيمانهم تحكم ، كما قال قوم شعيب ﴿أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ وكذلك إضافة الإيمان إليهم. وقوله ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ تشكيك في إيمانهم وقدح في صحة دعواهم له.

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزٍهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٦)

﴿خَالِصَةً﴾ نصب على الحال من الدار الآخرة. والمراد الجنة ، أى سالمة لكم ، خاصة بكم ، ليس لأحد سواكم فيها حق. يعنى إن صح قولكم لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً. و ﴿النَّاسِ﴾ للجنس وقيل للعهد وهم المسلمون ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾ لأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها وتمنى سرعة الوصول إلى النعيم والتخلص من الدار ذات الشوائب ، كما روى عن المبشرين بالجنة ما روى. كان على رضى الله عنه يطوف بين الصفيين في غلالة ، فقال له ابنه الحسن : ما هذا بزى المحاربين : فقال : يا بنى لا يبالي أبوك على الموت سقط ، أم عليه سقط الموت. وعن حذيفة رضى الله عنه أنه كان يتمنى الموت ، فلما احتضر قال : حبيب جاء على فاقة ، لا أفلح من ندم^(١). يعنى

(١) أخرجه الحاكم من طريق زيد بن سلام عن أبيه عن جده «أن حذيفة لما احتضر قال : حبيب جاء على فاقة».

على التمني. وقال عمار بصفين : «الآن ألقى الأحبة محمداً وحزبه»^(١). وكان كل واحد من العشرة يحب الموت ويحنّ إليه. وعن النبي صلى الله عليه وسلم : «لو تمنوا الموت لغص كل إنسان بريقه فمات مكانه وما بقي على وجه الأرض يهودى»^(٢) ﴿بِمَا قَدَّمْتُمُ أُيُودِيَهُمْ﴾ بما أسلفوا من موجبات النار من الكفر بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وبما جاء به ، وتحريف كتاب الله ، وسائر أنواع الكفر والعصيان. وقوله ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ من المعجزات ، لأنه إخبار بالغيب ، وكان كما أخبر به ، كقوله : ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ فإن قلت : ما أدراك أنهم لم يتمنوا؟ قلت : لأنهم لو تمنوا لنقل ذلك كما نقل سائر الحوادث ، ولكان ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم من أولى المطاعن في الإسلام أكثر من الذرّ ، وليس أحد منهم نقل ذلك. فإن قلت : التمني من أعمال القلوب وهو سرّ لا يطلع عليه أحد ، فمن أين علمت أنهم لم يتمنوا؟ قلت : ليس التمني من أعمال القلوب ، إنما هو قول الإنسان بلسانه : ليت لي كذا ، فإذا قاله قالوا : تمنى ، وليت : كلمة التمني ، ومحال أن يقع التحدي بما في الضمائر والقلوب ولو كان التمني بالقلوب وتمنوا لقالوا : قد تمنينا الموت في قلوبنا ، ولم ينقل أنهم قالوا ذلك فإن قلت : لم يقولوه لأنهم علموا أنهم لا يصدّقون. قلت : كم حكى عنهم من أشياء قالوا بها المسلمون من الافتراء على الله وتحريف كتابه وغير ذلك مما علموا أنهم غير مصدقين فيه ولا يحمل له إلا الكذب البحت ولم يبالوا ، فكيف يمتنعون من أن يقولوا إنّ التمني من أفعال القلوب وقد فعلناه ، مع احتمال أن يكونوا صادقين في قولهم وإخبارهم عن ضمائرهم ، وكان الرجل يخبر عن نفسه بالإيمان فيصدّق مع احتمال أن يكون كاذبا لأنه أمر خافٍ لا سبيل إلى الاطلاع عليه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ تهديد لهم ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ هو من وجد بمعنى علم المتعدي إلى مفعولين في قولهم : وجدت زيدا

(١) أخرجه الطبراني والبخاري من رواية ربيعة بن ناجد قال قال لي عمار يوم صفين : «اليوم ألقى الأحبة : محمدا وحزبه» ورواه أبو نعيم في الحلية. من رواية أبي سنان قال «رأيت عمار بن ياسر يوم صفين دعا بشراب فأتى بقدح من لبن فشرب منه ، ثم قال : صدق الله ورسوله : اليوم ألقى الأحبة : محمدا وحزبه»
(٢) لم يخرج. وقد أخرجه الطبري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما موقوفا. وأخرج البيهقي في الدلائل من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما «أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لليهود «إن كنتم صادقين في مقاتلكم فقولوا : اللهم أمتنا. فوالذي نفسي بيده ، لا يقولها رجل منكم إلا غص بريقه ومات مكانه. قالوا : فأنزل الله ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ وفي البخاري من رواية عبد الكريم الجزري عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال أبو جهل «إن رأيت محمدا عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه. فقال النبي صلى الله عليه وسلم «لو فعل لأخذته الملائكة. زاد الإسماعيلي . : عيانا. قال ابن عباس : ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا. ولو خرج الذين يباهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا» وأخرجه ابن مردويه من هذا الوجه مثله. وزاد بعد قوله «لماتوا» «ورأوا مقاعدهم من النار».

ذا الحفاظ ^(١) ومفعولاه «هم أحرص». فإن قلت : لم قال : ﴿عَلَى حَيَاةٍ﴾ بالتنكير؟ قلت : لأنه أراد حياة مخصوصة وهي الحياة المتطاولة ، ولذلك كانت القراءة بها أوقع من قراءة أَيْ (على الحياة) ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ محمول على المعنى لأن معنى أحرص الناس : أحرص من الناس. فإن قلت : ألم يدخل الذين أشركوا تحت الناس؟ قلت : بلى ، ولكنهم أفردوا بالذكر لأن حرصهم شديد. ويجوز أن يراد : وأحرص من الذين أشركوا ، فحذف لدلالة أحرص الناس عليه. وفيه توبيخ عظيم : لأنّ الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا ، فحرصهم عليها لا يستبعد لأنها جنتهم ، فإذا زاد عليهم في الحرص من له كتاب وهو مقرّ بالجزاء كان حقيقاً بأعظم التوبيخ. فإن قلت : لم زاد حرصهم على حرص المشركين؟ قلت : لأنهم علموا . لعلمهم بحالهم . أنهم صائرون إلى النار لا محالة والمشركون لا يعلمون ذلك. وقيل : أراد بالذين أشركوا المجوس ، لأنهم كانوا يقولون لملوكهم : عش ألف نيروز وألف مهرجان. وعن ابن عباس رضى الله عنه : هو قول الأعاجم : زى هزار سال ^(٢). وقيل ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ كلام مبتدأ ، أى ومنهم ناس ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ على حذف الموصوف كقوله : ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ والذين أشركوا . على هذا . : مشارّ به إلى اليهود ، لأنهم قالوا : عزيز ابن الله. والضمير في ﴿وَمَا هُوَ﴾ لأحدهم و ﴿أَنْ يُعَمَّرَ﴾ فاعل بمزحزحه ، أى : وما أحدهم بمن يزحزحه من النار تعميره. وقيل : الضمير لما دل عليه يعمر من مصدره ، وأن يعمر بدل منه. ويجوز أن يكون «هو» مبهما ، و «أن يعمر» موضحة. والزحزحة : التباعد والإنحاء. فإن قلت : ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ ما موقعه؟ قلت : هو بيان لزيادة حرصهم على طريق الاستئناف. فإن قلت : كيف اتصل لو يعمر بيودّ أحدهم؟ قلت : هو حكاية لودادتهم. و «لو» في معنى التمني ، وكان القياس : لو أعمر ، إلا أنه جرى على لفظ الغيبة لقوله : ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ كقولك : حلف بالله ليفعلن.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾

(١) قوله «وجدت زيدا ذا الحفاظ» في الصحاح : يقال إنه ل ذو حفاظ ، وذو محافظة ، إذا كانت له أنفة. (ع)

(٢) قوله «زى هزار سال» زى بالفارسية بمعنى : عش. وهزار بمعنى : ألف. وسال بمعنى : عام. (ع)

روى أنّ عبد الله بن سوريا من أحبار فذك حاج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسأله عمن يهبط عليه بالوحي ، فقال : جبريل ، فقال : ذاك عدونا ، ولو كان غيره لآمنا بك ، وقد عادانا مرارا ، وأشدّها أنه أنزل على نبينا أنّ بيت المقدس سيخرجه بخت نصر ، فبعثنا من يقتله فلقية ببابل غلاما مسكينا ، فدفع عنه جبريل وقال : إن كان ربكم أمره بهلاككم فإنه لا يسلطكم عليه ، وإن لم يكن إياه فعلى أى حق تقتلونه ^(١) . وقيل : أمره الله تعالى أن يجعل النبوة فينا فجعلها في غيرنا. وروى أنه كان لعمر رضى الله عنه أرض بأعلى المدينة ، وكان ممّره على مدارس اليهود ، فكان يجلس إليهم ويسمع كلامهم ، فقالوا يا عمر ، قد أحبيناك ، وإنا لنطمع فيك فقال : والله ما أجيئكم لحبكم ، ولا أسألكم لأنى شاك في ديني ، وإنما أدخل عليكم لأزداد بصيرة في أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وأرى آثاره في كتابكم ، ثم سألهم عن جبريل فقالوا : ذاك عدونا يطلع محمداً على أسرارنا ، وهو صاحب كل خسف وعذاب ، وإنّ ميكائيل يجيء بالخصب والسلام. فقال لهم : وما منزلتهما من الله تعالى قالوا : أقرب منزلة ، جبريل عن يمينه ، وميكائيل عن يساره. وميكائيل عدو لجبريل. فقال عمر : لئن كانا كما تقولون فما هما بعدوين ، ولأنتم أكفر من الحمير ، ومن كان عدواً لأحدهما كان عدواً للآخر ، ومن كان عدواً لهما كان عدواً لله. ثم رجع عمر فوجد جبريل قد سبقه بالوحي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لقد وافقك ربك يا عمر.

فقال عمر : لقد رأيتني في دين الله بعد ذلك أصلب من الحجر ^(٢) . وقرئ : جبرئيل ، بوزن قفشليل ^(٣) وجبرئيل بحذف الياء ، وجبريل بحذف الهمزة ، وجبريل بوزن قنديل ، وجبرالّ بلام شديدة. وجبرائيل بوزن جبراعيل ، وجبرائيل بوزن جبراعل. ومنع الصرف فيه للتعريف والعجمة. وقيل معناه : عبد الله. الضمير في ﴿نَزَّلَهُ﴾ للقرآن. ونحو هذا الإضمار . أعنى إضمار ما لم يسبق ذكره . فيه فخامة لشأن صاحبه ، حيث يجعل لفرط شهرته كأنه يدل على نفسه ، ويكتفى عن اسمه الصريح بذكر شيء من صفاته ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ أى حفظه إياك وفهمكه ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بتيسيره

(١) هكذا ذكره الثعلبي والواحدي والبغوي فقالوا روى ابن عباس «أن حبرا من أحبار اليهود من فذك يقال له عبد الله بن سوريا فذكره» ولم أقف له على سند. ولعله من تفسير الكلبي عن أبي صالح عنه.

(٢) أخرجه الواحدي في الأسباب من رواية داود بن أبي هند عن الشعبي ، قال «كان لعمر ، فذكره سواء» وأخرجه الطبري من طريق أسباط عن السدى. قال في قوله : ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا جِبْرِيلَ﴾ الآية قال «كان لعمر بن الخطاب رضى الله عنه أرض بأعلى المدينة . إلى آخره . إلا أنه قال فقال عمر : والذي بعثك بالحق لقد جئتكم وما أريد إلا أن أخبركم».

(٣) قوله «بوزن قفشليل» في الصحاح : القفشليل المغرفة ، فارسي معرب. (ع)

وتسهيله. فإن قلت : كان حق الكلام أن يقال : على قلبي^(١). قلت : جاءت على حكاية كلام الله تعالى كما تكلم به ، كأنه قيل : قل ما تكلمت به من قولي : من كان عدوًّا لجبريل فإنه نزل على قلبك. فإن قلت : كيف استقام قوله : ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ﴾ جزاء للشرط^(٢)؟ قلت : فيه وجهان : أحدهما إن عادى جبريل أحد من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته حيث نزل كتابا مصدقا للكتب بين يديه ، فلو أنصفوا لأحبوه وشكروا له صنيعه في إنزاله ما ينفعهم ويصح المنزل عليهم. والثاني : إن عاداه أحد فالسبب في عداوته أنه نزل عليك القرآن مصدقا لكتائبهم وموافقا له ، وهم كارهون للقرآن ولموافقته لكتائبهم ، ولذلك كانوا يحرفونه ويجحدون موافقته له ، كقولك : إن عاداك فلان فقد أذيتته وأسأت إليه. أفرد الملكان بالذكر لفضلهما كأتهما من جنس آخر ، وهو مما ذكر أنّ التغاير في الوصف ينزل منزلة التغاير في الذات. وقرئ : ميكال ، بوزن قنطار. وميكائيل كميكاعيل. وميكائيل كميكاعيل. وميكائيل كميكاعيل. قال ابن جني : العرب إذا نطقت بالأعجمي خلطت فيه. ﴿عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ أراد عدوًّا لهم فجاء بالظاهر ، ليدل على أنّ الله إنما عاداهم لكفرهم ، وأن عداوة الملائكة كفر ، وإذا كانت عداوة الأنبياء كفراً فما بال الملائكة وهم أشرف^(٣) والمعنى من عاداهم عاداه الله وعاقبه أشدّ العقاب.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩)﴾

(١) قال محمود رحمه الله : «فان قلت : كان حق الكلام أن يقال على قلبي ... الخ». قال أحمد رحمه الله : الحكاية مرة تكون مع التزام اللفظ ، ومرة تكون بالمعنى غير متبعة للفظ ، فلعل الأمر في هذه الآية توجه على النبي عليه السلام أن يحكى معنى قول الله تعالى له ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ بلفظ المتكلم ونظير هذا قوله تعالى : ﴿وَلَيْتَن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ إلى قوله : ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا﴾ فانظر ما وقع بعد القول المنسوب إليهم مما يفهم أنه قول الله عز وجل لا على سبيل الحكاية عنهم ، إذ هم لا يقولون : فأنشَرنا ، وإنما يقولون : فأنشَر ، على لفظ الغيبة ولكن جاء الكلام حكاية على المعنى ، لأن معنى قولهم : فأنشَر الله ، هو معنى قول الله عن ذاته : فأنشَرنا ، ولا يستتب لك أن يجعل هذا من باب الخروج من الغيبة إلى التكلم الذي يسمى التفاتا ، فان في هذا مزيداً. ومنه قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام ﴿قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ، الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ﴾ إلى قوله : ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ فأول الكلام يفهم قول موسى وآخره يفهم قول الله تعالى. والطريق الجامع في ذلك ما قررته والله أعلم.

(٢) قال محمود رحمه الله : «فان قلت كيف استقام قوله فانه نزله جزاء للشرط ... الخ»؟ قال أحمد رحمه الله : ويكون دخول الفاء في الجزاء على هذا الوجه مستحقاً لسببين : أحدهما أنه جملة اسمية. والآخر أنه ماض صحيح.

(٣) قوله «فما بال الملائكة وهم أشرف» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فالأنبياء أشرف. (ع)

أَوْكَلَمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

﴿إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ إلا المتمردون من الكفرة. وعن الحسن : إذا استعمل الفسق في نوع من المعاصي وقع على أعظم ذلك النوع من كفر وغيره. وعن ابن عباس رضى الله عنه : قال ابن صوريا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما جئتنا بشيء نعرفه وما أنزل عليك من آية فنتبعك لها ^(١) فنزلت. واللام في : ﴿الْفَاسِقُونَ﴾ للجنس والأحسن أن تكون إشارة إلى أهل الكتاب ﴿أَوْكَلَمَا﴾ الواو للعطف على محذوف معناه أكفروا بالآيات البينات وكلما عاهدوا. وقرأ أبو السمال بسكون الواو على أنّ الفاسقون بمعنى الذين فسقوا ، فكأنه قيل : وما يكفر بها إلا الذين فسقوا ، أو نقضوا عهد الله مراراً كثيرة. وقرئ عوهدوا وعاهدوا واليهود موسومون بالغدر ونقض العهود ، وكم أخذ الله الميثاق منهم ومن آبائهم فنقضوا. وكم عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يفوا ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾. والنبذ الرمي بالذمام ^(٢) ورفضه. وقرأ عبد الله نقضه ﴿فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ وقال فريق منهم ، لأنّ منهم من لم ينقض ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالتوراة وليسوا من الدين في شيء ، فلا يعدّون نقض المواثيق ذنباً ولا يبالون به ﴿كِتَابَ اللَّهِ﴾ يعنى التوراة ، لأنهم بكفركم برسول الله المصدق لما معهم كافرون بها نابذون لها. وقيل : كتاب الله القرآن ، نبذوه بعد ما لزمهم تلقيه بالقبول. ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه كتاب الله لا يدخلهم فيه شك ^(٣). يعنى أنّ علمهم بذلك رصين ، ولكنهم كابروا وعاندوا ونبذوه وراء ظهورهم ، مثل لتركهم وإعراضهم عنه ، مثل بما يرمى به وراء الظهر استغناء عنه وقلة التفات إليه. وعن الشعبي : هو بين أيديهم يقرءونه ، ولكنهم نبذوا العمل به. وعن سفيان : أدرجوه في الديباج والحريز وحلوه بالذهب ، ولم يحلوا حلاله ولم يحرموا حرامه.

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ

(١) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق. حدثني محمد بن أبي محمد حدثني سعيد بن جبير عنه بهذا.

(٢) قوله «بالذمام» في الصحاح : الذمام الحرمة. (ع)

(٣) قوله «لا يدخلهم فيه شك» لعله علما لا يدخلهم فيه شك. (ع)

الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾

﴿وَاتَّبَعُوا﴾ أى نبذوا كتاب الله واتبعوا ﴿مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ يعنى واتبعوا كتب السحر والشعوذة التي كانت تقرأها ﴿عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَانَ﴾ أى على عهد ملكه وفي زمانه. وذلك أنّ الشياطين كانوا يسترقون السمع ثم يضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلقونها ويلقونها إلى الكهنة وقد دوّنوها في كتب يقرءونها ويعلمونها الناس ، وفشا ذلك في زمن سليمان عليه السلام حتى قالوا : إن الجن تعلم الغيب ، وكانوا يقولون : هذا علم سليمان ، وما تم لسليمان ملكه إلا بهذا العلم ، وبه تسخر الإنس والجن والريح التي تجرى بأمره ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ تكذيب للشياطين ودفع لما بهتت به ^(١) سليمان من اعتقاد السحر والعمل به وسماه كفراً ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ﴾ هم الذين ﴿كَفَرُوا﴾ باستعمال السحر وتدوينه ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ يقصدون به إغواءهم وإضلالهم ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ عطف على السحر ، أى ويعلمونهم ما أنزل على الملكين. وقيل : هو عطف على ما تتلو ، أى واتبعوا ما أنزل. ﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ عطف بيان للملكين علمان لهما ، والذي أنزل عليهما هو علم السحر ابتلاء من الله للناس. من تعلمه منهم وعمل به كان كافراً ، ومن تجنبه أو تعلمه لا يعمل به ولكن ليتوقاه ولئلا يغتر به كان مؤمناً :

عَرَفْتُ الشَّرَّ لَا لِلشَّرِّ لَكِنْ لِتَوَقِّيهِ ^(٢)

(١) قوله «لما بهتت به» أى قالت عليه ما لم يفعله. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) عرفت الشر لا للشّر لك ن لتوقيه
فمن لا يعرف الشر من الناس يقنع فيه
لأني نواس. ومعنى «لكن» هنا. للاضراب الانتقالي. ويمكن أن يتوهم من قوله «لا للشّر» أنه لم يعرف الشر لأجل شيء من متعلقاته رأساً فدفع هذا التوهم بقوله : لكن عرفته لتوقيه ، فهي للاستدراك ، أى عرفته لأجل التحفظ منه. و «من الناس» بيان لمن يؤكد للعموم ، ويقع جزم في جواب الشرط ، أى من جهل الشر وقع فيه ، كالمار إذا جهل البئر المغطاة في طريقه. واستروحوا بذلك لجواز تعلم نحو السحر للتمكن من تجنبه. ويجوز أن «من الناس» صفة للشّر ، و «من» بيانية أو ابتدائية. ويروى «من الخير» أى من لم يميز الشر من الخير يقع في الشر.

كما ابتلى قوم طالوت بالنهر ، ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ . وقرأ الحسن (على الملكين) بكسر اللام ، على أنَّ المنزل عليهما علم السحر كانا ملكين ببابل. وما يعلم الملكان أحدا حتى ينبهاه وينصحاها ويقولوا له ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ أى ابتلاء واختيار من الله ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ فلا تتعلم معتقداً أنه حق فتكفر ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ الضمير لما دلّ عليه من أحد. أى فيتعلم الناس من الملكين ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ أى علم السحر الذي يكون سببا في التفريق بين الزوجين من حيلة وتمويه ، كالنفث في العقد ، ونحو ذلك مما يحدث الله عنده الفرق والنشوز والخلاف ^(١) ابتلاء منه ، لا أنَّ السحر له في نفسه بدليل قوله تعالى : ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ لأنه ربما أحدث الله عنده فعلا من أفعاله وربما لم يحدث ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ لأنهم يقصدون به الشر. وفيه أن اجتنباه أصلح كتعلم الفلسفة التي لا يؤمن أن تجرّ إلى الغواية. ولقد علم هؤلاء اليهود أن من اشتراه أى استبدل ما تملو الشياطين من كتاب الله ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ من نصيب ﴿وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ أى باعوها. وقرأ الحسن : الشياطين. وعن بعض العرب : بستان فلان حوله بساتون. وقد ذكر وجهه فيما بعد. وقرأ الزهري (هاروت وماروت) بالرفع على : هما هاروت وماروت. وهما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف ، ولو كانا من الهرت والمرت. وهو الكسر كما زعم بعضهم. لانصرفا. وقرأ طلحة (وما يعلمان) من أعلم ، وقرئ (بين المرء) بضم الميم وكسرها مع الهمز. والمرّ ، بالتشديد على تقدير التخفيف والوقف ، ^(٢) كقولهم : فرج ، وإجراء الوصل مجرى الوقف. وقرأ الأعمش : وما هم بضارّى ، بطرح النون والإضافة إلى أحد والفضل بينهما بالظرف. فإن قلت : كيف يضاف إلى أحد وهو مجرور بمن؟ قلت : جعل الجار جزءاً ^(٣) من المجرور. فإن قلت : كيف أثبت لهم العلم أولا في قوله ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ على سبيل التوكيد القسمي ثم نفاه عنهم في قوله : ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾؟ قلت : معناه لو كانوا يعملون بعلمهم ، جعلهم حين لم يعملوا به كأنهم منسلخون عنه.

(١) قوله «الفرق والنشوز» في الصحاح الفرق بالكسر بغض ولا يستعمل إلا بين الزوجين وقوله لا أن السحر الخ : مبنى على مذهب المعتزلة من أن السحر لا حقيقة له ولا تأثير له. وذهب أهل السنة إلى إثباته وإثبات تأثيره وإن كان تأثير كل شيء في غيره لا يكون إلا باذنه تعالى وهذا هو ظاهر الكتاب وظاهر السنة. (ع)

(٢) قوله «على تقدير التخفيف والوقف» أى في لغة من وقف بالتضعيف (ع)

(٣) قوله «قلت جعل الجار جزءاً» ونظيره لا أبالك. (ع)

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (١٠٥)

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ برسول الله والقرآن ﴿وَاتَّقَوْا﴾ الله فتركوا ما هم عليه من نبد كتاب الله واتباع كتب الشياطين ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ وقرئ : لمثوبة ، كمشورة ومشورة ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ ثواب الله خير مما هم فيه وقد علموا ، ولكنه جهلهم لترك العمل بالعلم. فإن قلت : كيف أوثرت الجملة الاسمية على الفعلية في جواب لو؟ قلت : لما في ذلك من الدلالة على ثبات المثوبة واستقرارها كما عدل عن النصب إلى الرفع في سلام عليكم لذلك ، فإن قلت : فهلا قيل لمثوبة الله خير؟ قلت : لأنّ المعنى : لشيء من الثواب خير لهم. ويجوز أن يكون قوله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ تمنيا ^(١) لإيمانهم على سبيل المجاز عن إرادة الله لإيمانهم واختيارهم له ، كأنه قيل ؛ وليتهم آمنوا : ، ثم ابتدئ لمثوبة من عند الله خير. كان المسلمون يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ألقى عليهم شيئا من العلم : راعنا يا رسول الله ، أى راقبنا وانتظرنا وتأن بنا حتى نفهمه وتحفظه. وكانت لليهود كلمة يتسابون بها عبرانية أو سريانية وهي «راعيانا» فلما سمعوا بقول المؤمنين : راعنا ، افترصوه وخاطبوا به الرسول صلى الله عليه وسلم وهم يعنون به تلك المسبة ، فهي المؤمنون عنها وأمروا بما هو في معناها وهو ﴿انظُرْنَا﴾ من نظره إذا انتظره. وقرأ أبيّ : أنظرنا من النظرة ، أى أمهلنا حتى نحفظ وقرأ عبد الله بن مسعود : راعونا ، على أنهم كانوا يخاطبونه بلفظ الجمع للتوقير : وقرأ الحسن : راعنا ، بالتثنية من الرعن وهو الهوج ، أى لا تقولوا قولنا راعنا منسوباً إلى الرعن بمعنى رعنيا ، كدارع ولابن لأنه لما أشبه قولهم : راعينا ، وكان سببا في السب اتصف بالرعن ﴿وَاسْمَعُوا﴾ وأحسنوا سماع ما يكلمكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويلقى عليكم من المسائل بأذان واعية وأذهان

(١) قال محمود رحمه الله : «ويجوز أن يكون قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ تمنيا ... الخ» قال أحمد رحمه الله : التمني مجاز عن إرادة الله تعالى لإيمانهم وتقواهم من طراز تفسيره للعل بالارادة والرد عليه على سبيل ثم.

حاضرة ، حتى لا تحتاجوا إلى الاستعانة وطلب المراعاة ، أو واسمعوا سماع قبول وطاعة ، ولا يكن سماعكم مثل سماع اليهود حيث قالوا : سمعنا وعصينا ، أو واسمعوا ما أمرتم به بجدّ حتى لا ترجعوا إلى ما نهيتم عنه ، تأكيداً عليهم ترك تلك الكلمة. وروى أن سعد بن معاذ سمعها منهم فقال : يا أعداء الله ، عليكم لعنة الله ، والذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأضربن عنقه. فقالوا : أو لستم تقولونها ^(١) فنزلت. ﴿وَالْكَافِرِينَ﴾ ولليهود الذين تعاونوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وسبوه ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ من الأولى للبيان لأنّ الذين كفروا جنس تحته نوعان : أهل الكتاب ، والمشركون ؛ كقوله تعالى : ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ والثانية مزیدة لاستغراق الخير ، والثالثة لابتداء الغاية. والخير الوحي ، وكذلك الرحمة كقوله تعالى : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ والمعنى : أنهم يرون أنفسهم أحق بأن يوحى إليهم فيحسدونكم وما يحبون أن ينزل عليكم شيء من الوحي والله يختص بالنبوة ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ ولا يشاء إلا ما تقتضيه الحكمة ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ إشعار بأن إتياء النبوة من الفضل العظيم كقوله تعالى : ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾.

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧) أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِدَلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨) وَدَكَّيْثٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠)

(١) أخرجه أبو نعيم في الدلائل من رواية محمد بن مروان السدي عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. في قوله تعالى : ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ قال «راعنا» بلسان اليهود السب القبيح. فكانت اليهود تقولها لرسول الله صلى الله عليه وسلم سراً. فلما سمعها أصحابه أعلنوا بها. فكانوا يقولونها ويضحكون منها : فسمعها سعد بن معاذ منهم. قال فذكره. والسدي هذا الصغير متروك. وكذا شيخه.

روى أنهم طعنوا في النسخ فقالوا : ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ، ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً؟ فنزلت. وقرئ ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ وما ننسخ : بضم النون ، من أنسخ. أو ننسأها. وقرئ ﴿نُنْسِهَا﴾ وننسها بالتشديد. وتنسها وتنسها ، على خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقرأ عبد الله. ما ننسك من آية أو ننسخها وقرأ حذيفة : ما ننسخ من آية أو ننسكها. ونسخ الآية : إزالتها بإبدال أخرى مكانها وإنساخها. الأمر بنسخها ، وهو أن يأمر جبريل عليه السلام بأن يجعلها منسوخة بالإعلام بنسخها. ونسؤها ، تأخيرها وإذها بما. لا إلى بدل. وإنساؤها أنّ يذهب بحفظها عن القلوب. والمعنى أن كل آية يذهب بها على ما توجه المصلحة من إزالة لفظها وحكمها معا ، أو من إزالة أحدهما إلى بدل أو غير بدل ﴿نَأْتِ﴾ بآية خير منها للعباد ، أى بآية العمل بها أكثر للثواب أو مثلها في ذلك ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو يقدر على الخير ، وما هو خير منه ، وعلى مثله في الخير ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو يملك أموركم ويدبرها ويجريها على حسب ما يصلحكم ، وهو أعلم بما يتبعكم به من ناسخ ومنسوخ. لما بين لهم أنه مالك أمورهم ومدبرها على حسب مصالحهم من نسخ الآيات وغيره ، وقرّهم على ذلك بقوله : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ أراد أن يوصيهم بالثقة به فيما هو أصح لهم مما يتبعدهم به وينزل عليهم وأن لا يقترحوا على رسولهم ما اقترحه آباء اليهود على موسى عليه السلام من الأشياء التي كانت عاقبتها وبالا عليهم كقولهم : اجعل لنا إلها ، أرنا الله جهرة ، وغير ذلك ﴿وَمَنْ يَتَّبِدْ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ ومن ترك الثقة بالآيات المنزل ، وشك فيها ، واقترح غيرها ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ روى أن فنحاص بن عازوراء وزيد بن قيس ونفراً من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد : ألم يروا ما أصابكم. ولو كنتم على الحق ما هزمتهم ، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم وأفضل ، ونحن أهدى منكم سبيلاً فقال عمار : كيف نقض العهد فيكم؟ قالوا شديد. قال : فإنني قد عاهدت أن لا أكفر بمحمد ما عشت : فقالت اليهود : أما هذا فقد صبا. وقال حذيفة : وأما أنا فقد رضيت بالله ربا ، وبمحمد نبيا ، وبالإسلام ديناً ، وبالقرآن إماماً ، وبالكعبة قبله ، وبالمؤمنين إخواناً. ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبراه فقال : أصبتما خيراً وأفلحتما ^(١). فنزلت. فإن قلت : بم تعلق قوله : ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾؟ ^(٢) قلت : فيه وجهان : أحدهما أن يتعلق بوّد ، على معنى أنهم تمنوا

(١) لم أجده مسنداً. وهو في تفسير الثعلبي كذلك بلا سند ولا راو.

(٢) قال محمود رحمه الله : «إن قلت : بم تعلق قوله من عند أنفسهم ... الخ؟». قال أحمد رحمه الله : يبعد الوجه الثاني دخول عند. ويقرب الأول قوله تعالى : ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾.

أن ترتدوا عن دينكم وتمنيهم ذلك من عند أنفسهم ومن قبل شهوتهم ، لا من قبل التدين والميل مع الحق ، لأنهم ودّوا ذلك من بعد ما تبين لهم أنكم على الحق ، فكيف يكون تمنّهم من قبل الحق؟ وإما أن يتعلق بحسدا ، أى حسدا متبالغا منبعثا من أصل أنفسهم ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ فاسلكوا معهم سبيل العفو والصفح عما يكون منهم من الجهل والعداوة ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ الذي هو قتل بنى قريظة وإجلاء بنى النضير وإذلالهم بضرب الجزية عليهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو يقدر على الانتقام منهم ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ من حسنة صلاة أو صدقة أو غيرها ﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ تجدوا ثوابه عند الله ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ عالم لا يضيع عنده عمل عامل.

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١١١) بلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١١٢)

الضمير في ﴿وَقَالُوا﴾ لأهل الكتاب من اليهود والنصارى. والمعنى : وقالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى ، فلف بين القولين ثقة بأن السامع يردّ إلى كل فريق قوله ، وأما من الإلباس لما علم من التعادي بين الفريقين وتضليل كل واحد منهما لصاحبه. ونحوه ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ ، والهود : جمع هائد ، كعائد وعوذ ، وبازل وبُزل. فإن قلت : كيف قيل كان هوداً على توحيد الاسم وجمع الخبر؟ قلت : حمل الاسم على لفظ «من» والخبر على معناه ، كقراءة الحسن إلا من هو صالوا الجحيم. وقوله : ﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾. وقرأ أبى بن كعب : إلا من كان يهوديا أو نصرانيا. فإن قلت : لم قيل ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ وقولهم ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ﴾ أمنية واحدة^(١)؟ قلت :

(١) قال محمود رحمه الله : «فان قلت : لم قيل تلك أمانيتهم وقولهم لن يدخل الجنة أمنية واحدة ... الخ»؟ قال أحمد رحمه الله : يبعد هذا الجواب قوله تعالى عقيب ذلك : ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، بلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فان البرهان المطلوب منهم هاهنا إنما هو على صحة دعواهم أن الجنة لا يدخلها غيرهم. ويحقق هذا قوله : ﴿بلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ فإنما يعنى الجنة ونعيمها ، ردّاً عليهم في نفى غيرهم عن دخولها ففي هذا دليل بين على أن الأمانى المشار إليها ليس إلا ما طولبوا بإقامة البرهان على صحته وهو أمنية واحدة والله أعلم. والجواب القريب : أنهم لشدة تمنّهم لهذه الأمنية ومعاودتهم لها وتأكدها في نفوسهم جمعت ، ليفيد جمعها أنها متأكدة في قلوبهم ، بالغة منهم كل مبلغ ، والجمع يفيد ذلك وإن كان مؤداه واحداً. ونظيره قولهم : معاً جياح ، فجمعوا الصفة ومؤداهما واحد ، لأن موصوفها واحد تأكيداً لثبوتها وتمكنها. وهذا المعنى أحد ما روى في قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ فانه جمع قليلا وقد كان الأصل إفراده ، فيقال لشرذمة قليلة كقوله تعالى : ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ لو لا ما قصد إليه من تأكيد معنى القلة بجمعها. ووجه إفادة الجمع في مثل هذا للتأكيد أن الجمع يفيد بوضعه الزيادة في الأحاد ، فنقل إلى تأكيد الواحد ، وإبائه زيادته على نظرائه نقلا مجازيا بديعاً ، فتدبر هذا الفصل فانه من نفائس صناعة البيان والله الموفق.

أشير بها إلى الأمانى المذكورة وهو أمنيّتهم^(١) أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم ، وأمنيّتهم أن لا يدخل الجنة غيرهم : أى تلك الأمانى الباطلة أمانيتهم. وقوله ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ متصل بقولهم : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى. وتلك أمانيتهم : اعتراض ، أو أريد أمثال تلك الأمنية أمانيتهم ، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه. يريد أن أمانيتهم جميعا في البطلان مثل أمنيّتهم هذه. والأمنية أفعولة من التمني ، مثل الأضحوكة والأعجوبة ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ هلموا حجّتكم على اختصاصكم بدخول الجنة ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم ، وهذا أهدم شيء لمذهب المقلدين. وأنّ كل قول لا دليل عليه فهو باطل غير ثابت. و «هات» صوت بمنزلة هاء ، بمعنى أحضر ﴿بلى﴾ إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ من أخلص نفسه له لا يشرك به غيره ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في عمله ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ الذي يستوجبه. فإن قلت : من أسلم وجهه كيف موقعه؟ قلت : يجوز أن يكون ﴿بلى﴾ ردّاً لقولهم ، ثم يقع ﴿مَنْ أَسْلَمَ﴾ كلاماً مبتدأ ، ويكون ﴿مَنْ﴾ متضمناً لمعنى الشرط ، وجوابه ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ ، وأن يكون ﴿مَنْ أَسْلَمَ﴾ فاعلاً لفعل محذوف ، أى بلى يدخلها من أسلم ، ويكون قوله : ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ كلاماً معطوفاً على يدخلها من أسلم.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤)﴾

﴿على شيء﴾ أى على شيء يصح ويعتدّ به. وهذه مبالغة عظيمة ، لأنّ المحال والمعدوم يقع عليهما اسم الشيء^(٢) ، فإذا نفى إطلاق اسم الشيء عليه ، فقد بولغ في ترك الاعتداد به إلى ما ليس بعده^(٣). وهذا كقولهم : أقل من لا شيء ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ الواو للحال ، والكتاب

(١) قوله «وهو أمنيّتهم» لعله : وهي. (ع)

(٢) قال محمود رحمه الله : «هذه مبالغة عظيمة لأن المحال والمعدوم يقع عليهما اسم الشيء ... الخ». قال أحمد رحمه الله : وتفسيره الشيء مخالف لفريقى أهل السنة والبدعة ، فانه عند أهل السنة قاصر على الموجود وعند المعتزلة يطلق على الموجود وعلى المعدوم الذي يصح وجوده ، فليس متناولاً للمحال بحال عندهما ، وقد تقدم له مثله.

(٣) قوله «إلى ما ليس بعده» لعل المعنى : إلى حد ليس بعده حد. (ع)

للجنس. أى قالوا ذلك ، وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب. وحق من حمل التوراة أو الإنجيل أو غيرها من كتب الله وآمن به أن لا يكفر بالباقي ؛ لأن كل واحد من الكتابين مصدق للثاني شاهد بصحته ، وكذلك كتب الله جميعا متواردة على تصديق بعضها بعضا ﴿كَذَلِكَ﴾ أى مثل ذلك الذي سمعت به على ذلك المنهاج ﴿قَالَ﴾ الجهلة ﴿الَّذِينَ﴾ لا علم عندهم ولا كتاب كعبدة الأصنام والمعطلة ونحوهم قالوا لأهل كل دين : ليسوا على شيء. وهذا توبيخ عظيم لهم حيث نظموا أنفسهم مع علمهم في سلك من لا يعلم. وروى أنّ وفد نجران لما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم ، فقالت اليهود : ما أنتم على شيء من الدين ، وكفروا بعبسى والإنجيل. وقالت النصارى لهم نحوه ، وكفروا بموسى والتوراة ^(١) ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ﴾ بين اليهود والنصارى ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بما يقسم لكل فريق منهم من العقاب الذي استحقه. وعن الحسن : حكم الله بينهم أن يكذبهم ويدخلهم النار ﴿أَنْ يُذَكَّرَ﴾ ثانياً مفعولي منع. لأنك تقول : منعه كذا. ومثله ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ﴾ ، ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ ويجوز أن يحذف حرف الجر مع أن ، ولك أن تنصبه مفعولاً له بمعنى كراهة أن يذكر ، وهو حكم عام لجنس مساجد الله ، وأن مانعها من ذكر الله مفرط في الظلم ، والسبب فيه أن النصارى كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى ويمنعون الناس أن يصلوا فيه ، وأن الروم غزوا أهله فخرّبوه وأحرقوا التوراة وقتلوا وسبوا. وقيل أراد به منع المشركين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية. فإن قلت : فكيف قيل مساجد الله وإنما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد وهو بيت المقدس أو المسجد الحرام؟ قلت : لا بأس أن يجيء الحكم عاما وإن كان السبب خاصا ، كما تقول لمن أذى صالحا واحداً : ومن أظلم ممن أذى الصالحين. وكما قال الله عز وجل : ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ والمنزول فيه الأخنس بن شريق ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ بانقطاع الذكر أو بتخريب البنيان. وينبغي أن يراد بـ «من» منع العموم كما أريد بمساجد الله ، ولا يراد الذين منعوا بأعيانهم من أولئك النصارى أو المشركين ﴿أُولَئِكَ﴾ المانعون ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا﴾ أى ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله ﴿إِلَّا خَائِفِينَ﴾ على حال التهيب وارتعاد الفرائض من المؤمنين أن يبطشوا بهم ، فضلا أن يستولوا عليها ويلوها ويمنعوا المؤمنين منها. والمعنى ما كان الحق والواجب إلا ذلك لو لا ظلم الكفرة وعتوّهم. وقيل ما كان لهم في حكم الله ، يعنى أن الله قد حكم وكتب في اللوح أنه ينصر المؤمنين ويقوّيهم حتى

(١) أخرجه الطبري من رواية ابن إسحاق حدثني محمد بن أبي محمد حدثني سعيد أو عكرمة عن ابن عباس به وفيه «أن قاتل اليهود اسمه رافع بن حرملة».

لا يدخلوها إلا خائفين. روى أنه لا يدخل بيت المقدس أحد من النصارى إلا متكرراً مسارقة. وقال قتادة : لا يوجد نصراني في بيت المقدس إلا أنهك ضرباً وأبلغ إليه في العقوبة. وقيل : نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم «ألا لا يحجّ بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوفن بالبيت عريان^(١)» وقرأ عبد الله : إلا خيفاً ، وهو مثل صيم^(٢). وقد اختلف الفقهاء في دخول الكافر المسجد : فجوّزه أبو حنيفة رحمه الله ، ولم يجوّزه مالك ، وفرق الشافعي بين المسجد الحرام وغيره. وقيل : معناه النهى عن تمكينهم من الدخول والتخليفة بينهم وبينه ، كقوله : ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾. ﴿خِزْيٌ﴾ قتلٌ وسبيٌ ، أو ذلةٌ بضرب الجزية. وقيل : فتح مدائنهم قسطنطينية ورومية وعمورية.

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (١١٥)

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أى بلاد المشرق والمغرب والأرض كلها لله هو مالکها ومتوليها ﴿فَأَيْنَمَا تُولُّوا﴾ ففي أى مكان فعلتم التولية ، يعنى تولية وجوهكم شطر القبلة بدليل قوله تعالى : ﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾. ﴿ثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ أى جهته التي أمر بها ورضيها. والمعنى أنكم إذا منعتم أن تصلوا في المسجد الحرام أو في بيت المقدس ، فقد جعلت لكم الأرض مسجداً فصلوا في أى بقعة شئتم من بقاعها ، وافعلوا التولية فيها فإن التولية ممكنة في كل مكان لا يختص إسكانها في مسجد دون مسجد ولا في مكان دون مكان ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ﴾ الرحمة يريد التوسعة على عباده والتيسير عليهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالحهم. وعن ابن عمر نزلت في صلاة المسافر على الراحلة أينما توجهت. وعن عطاء : عميت القبلة على قوم فصلوا إلى أنحاء مختلفة ، فلما أصبحوا تبينوا خطأهم فعذروا. وقيل : معناه فأينما تولوا للدعاء والذكر ولم يرد الصلاة. وقرأ الحسن : فأينما تولوا ، بفتح التاء من التولي يريد : فأينما توجهوا القبلة.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ (١١٦)

﴿وَقَالُوا﴾ وقرئ بغير واو ، يريد الذين قالوا المسيح ابن الله وعزير ابن الله والملائكة بنات الله. ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه له عن ذلك وتبعيد ﴿بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هو خالقه ومالكه ، ومن جملة الملائكة وعزير والمسيح ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ منقادون ، لا يمتنع شيء منه على

(١) متفق عليه من رواية حميد بن عبد الرحمن : عن أبي هريرة رضى الله عنه.

(٢) قوله «وهو مثل صيم» في الصحاح : قوم صوم وصيم. (ع)

تكوينه وتقديره ومشيتته ، ومن كان بهذه الصفة لم يجانس ، ومن حق الولد أن يكون من جنس الوالد. والتنوين في : (كلّ) عوض من المضاف إليه ، أى كل ما في السموات والأرض. ويجوز أن يراد كلّ من جعلوه لله ولداً له فانتون مطيعون عابدون مقرون بالربوبية منكرون لما أضافوا إليهم. فإن قلت : كيف جاء بما التي لغير أولى العلم مع قوله قانتون؟ قلت : هو كقوله : سبحان ما سخر كلّ لنا. وكأنه جاء ب «ما» دون «من» تحقيراً لهم وتصغيراً لشأنهم ، كقوله : ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا﴾.

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١١٧)

يقال بدع الشيء فهو بديع ، كقولك : بزع الرجل ^(١) فهو يزيع. و ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ﴾ من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها أى بديع سمواته وأرضه. وقيل البديع بمعنى المبدع ، كما أنّ السميع في قول عمرو :

أَمِنْ رِيحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ ^(٢)

بمعنى المسمع وفيه نظر ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ من كان التامة ، أى أحدث فيحدث. وهذا مجاز من الكلام وتمثيل ولا قول ثم ، كما لا قول في قوله :

إِذْ قَالَتِ الْأُنثَىٰ لِلْبَطْنِ الْحَقِّ ^(٣)

وإنما المعنى أنّ ما قضاه من الأمور وأراد كونه ، فإنما يتكوّن ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف ، كما أنّ المأمور المطيع الذي يؤمر فيمتثل لا يتوقف ولا يمتنع ولا يكون منه الإباء.

(١) قوله «بزع الرجل» بزع بالزاي كظرف وزنا ومعنى. أفاده الصحاح وصرح كقولك بأنه لا يوصف به الأحداث. (ع)

(٢) مر شرح هذا الشاهد صفحة ٦٠ من هذا الجزء فراجعه إن شئت اه مصححه.

(٣) إذا قالت الأنثى للبطن الحق قـدوما فأضـت كـالفنـيق الحنـق

لأبي النجم العجلى. والنسع. بالكسر. : حزام عريض يشد به وسط الدابة وستر الهودج. والحق : فعل أمر ، أى التصق يا بطن بالظهر وانضم. وقدوما : نصب على المصدر بمحذوف أو بما قبله على أنه مفعول له. وأض يبيض أيضا : إذا صار يصير ، أو رجع يرجع ، أى صارت الناقة كالفنيق. ويروى : فأحنّت ، أى حقدت واغتاطت الناقة ، وأصله بكسر الحاء فسكن تخفيفاً كما تقدم في ضجر ودبر. والفنيق : الفحل المنعم المكرم. يقال : أفنقه ، إذا نعمه. وجارية فنقة : ناعمة. والمحنق : المغيظ ، من الحنق وهو الحقد والغيط. ويروى «إذا قالت» بدل «إذا قالت». والحق : بوصل الهمزة وقطعها. والمحنق بسكون الحاء ، فيكون من الرجز ، لا من الطويل. وقدم قدما ، كنصر نصراً ، إذا تقدم. والظاهر أن هذه الرواية هي الصواب لكثرة رجز أبي النجم. وإثبات القول للأنساع ومخاطبتها البطن من باب التمثيل. والمعنى أنه شد عليها أدوات السفر فاغتاطت غيطاً شديداً ، كالفحل المكرم الذي غاظه غيره.

أكد بهذا استبعاد الولادة لأن من كان بهذه الصفة من القدرة كانت حاله مביانة لأحوال الأجسام في توالدها. وقرئ (بديع السماوات) مجروراً على أنه بدل من الضمير في له. وقرأ المنصور بالنصب على المدح.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْ لَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَاهَيْتُمْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (١١٨)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقال الجهلة من المشركين ، وقيل من أهل الكتاب ، ونفى عنهم العلم لأنهم لم يعملوا به : ﴿لَوْ لَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ هلا يكلمنا كما يكلم الملائكة وكلم موسى؟ استكباراً منهم وعتوا ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ جحوداً لأن يكون ما أتاهم من آيات الله آيات ، واستهانة بها ﴿تَشَاهَيْتُمْ قُلُوبُهُمْ﴾ أى قلوب هؤلاء ومن قبلهم في العمى ، كقوله : ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾. ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ﴾ ينصفون فيوقفون أنها آيات يجب الاعتراف بها والإذعان لها والاكتفاء بها عن غيرها.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ (١١٩)

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ لأن تبشر وتنذر لا لتجبر على الإيمان ، وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتسرية عنه ، لأنه كان يغتم ويضيق صدره لإصرارهم وتصميمهم على الكفر. ولا نسألك ﴿عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلغت وبلغت جهدك في دعوتهم ، كقوله : ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ وقرئ : ﴿وَلَا تُسْئَلُ﴾ على النهي. روى أنه قال : ليت شعري ما فعل أبواي ، فنهى عن السؤال عن أحوال الكفرة والاهتمام بأعداء الله. وقيل : معناه تعظيم ما وقع فيه الكفار من العذاب كما تقول : كيف فلان؟ سائلاً عن الواقع في بلية ، فيقال لك : لا تسأل عنه. ووجه التعظيم أن المستخير يجزع أن يجرى على لسانه ما هو فيه لفظاعته ، فلا تسأله ولا تكلفه ما يضجره ، أو أنت يا مستخير لا تقدر على استماع خبره لإيحاشه السامع وإضجاره ، فلا تسأل.

وتعصد القراءة الأولى قراءة عبد الله : ولن تسئل ، وقراءة أبي : وما تسئل.

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنَّ آتِيتَهُمْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١٢٠)

كأنهم قالوا : لن نرضى عنك وإن أبلغت في طلب رضانا حتى تتبع ملتنا ، إقناطاً منهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن دخولهم في الإسلام ، فحكى الله عز وجل كلامهم ، ولذلك قال : ﴿قُلْ

إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى ﴿١﴾ على طريقة إجابتهم عن قولهم ، يعنى أن هدى الله الذي هو الإسلام هو الهدى بالحق والذي يصح أن يسمى هدى ، وهو الهدى كله ليس وراءه هدى ، وما تدعون إلى اتباعه ما هو بهدى إنما هو هوى. ألا ترى إلى قوله : ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أى أقوالهم التي هي أهواء وبدع ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أى من الدين المعلوم صحته بالبراهين الصحيحة.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٢١) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ هم مؤمنون أهل الكتاب ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ لا يحرفونه ولا يغيرون ما فيه من نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ﴾ بكتابهم دون المحرفين ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ من المحرفين ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ حيث اشتروا الضلالة بالهدى ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (١٢٤) ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَاتَّخَذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (١٢٥)

﴿ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ اختبره بأوامر ونواه. واختبار الله عبده مجاز عن تمكينه عن اختيار ^(١) أحد الأمرين : ما يريد الله ، وما يشتهي العبد ، كأنه يمتحنه ما يكون منه حتى يجازيه على حسب ذلك. وقرأ أبو حنيفة رضى الله عنه وهي قراءة ابن عباس رضى الله عنه : (إِبْرَاهِيمُ رَبُّهُ) رفع إبراهيم ونصب ربه. والمعنى : أنه دعاه بكلمات من الدعاء فعل المختبر هل يجيبه إلهي أم لا؟ فإن قلت : الفاعل في القراءة المشهورة يلي الفعل في التقدير ، فتعليق الضمير به إضمار قبل الذكر. قلت : الإضمار قبل الذكر أن يقال : ابتلى ربه إبراهيم. فأما ابتلى إبراهيم ربه ، أو ابتلى ربه إبراهيم ، فليس واحداً منهما بإضمار قبل الذكر. أما الأول فقد ذكر فيه صاحب الضمير قبل الضمير ذكراً ظاهراً. وأما الثاني فإبراهيم فيه مقدّم في المعنى ، وليس كذلك : ابتلى ربه إبراهيم. فإن الضمير فيه قد تقدم لفظاً ومعنى فلا سبيل إلى

(١) قوله «تمكينه عن اختيار» لعله من.

صحته. والمستكن في ﴿فَأَتَتْهُمْ﴾ في إحدى القراءتين لإبراهيم بمعنى : فقام بهنّ حق القيام وأداهنّ أحسن التأدية من غير تفريط وتوان. ونحوه ﴿وإبراهيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ وفي الأخرى لله تعالى بمعنى فأعطاه ما طلبه لم ينقص منه شيئاً. ويعضده ما روى عن مقاتل أنه فسر الكلمات بما سأل إبراهيم ربه في قوله : ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ ، ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾ ، ﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾. ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ فإن قلت : ما العامل في إذ؟ قلت : إما مضمّر نحو : واذكر إذ ابتلى أو وإذا ابتلاه كان كبت وكيت ، وإما ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ﴾. فإن قلت : فما موقع قال؟ قلت : هو على الأول استئناف ، كأنه قيل : فما ذا قال له ربه حين أتم الكلمات؟ فقيل : قال إني جاعلك للناس إماماً. وعلى الثاني جملة معطوفة على ما قبلها. ويجوز أن يكون بيانا لقوله : ﴿ابْتَلَى﴾ وتفسيراً له فيراد بالكلمات ما ذكره من الإمامة وتطهير البيت ورفع قواعده. والإسلام قبل ذلك في قوله : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾ وقيل في الكلمات : هنّ خمس في الرأس : الفرق ، وقص الشارب ، والسواك ، والمضمضة والاستنشاق. وخمس في البدن : الختان ، والاستحدا ، والاستنجاء ، وتقليم الأظفار ، ونسف الإبط. وقيل ابتلاه من شرائع الإسلام بثلاثين سهماً : عشر في براءة ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ ، وعشر في الأحزاب ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ ، وعشر في المؤمنون وسأل سائل إلى قوله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ وقيل هي مناسك الحج ، كالطواف والسعي والرمي والإحرام والتعريف وغيرهنّ. وقيل : ابتلاه بالكوكب والقمر والشمس والختان وذبح ابنه والنار والهجرة. والإمام اسم من يؤتم به على زنة الآلة ، كالإزار لما يؤتز به ، أى يأتمون بك في دينهم ﴿وَمَنْ ذُرِّيَّتِي﴾ عطف على الكاف ، كأنه قال : وجاعل بعض ذريتي ، كما يقال لك : سأكرمك ، فتقول : وزيدا ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ وقرئ : الظالمون ، أى من كان ظالماً من ذريتك. لا يناله استخلافي وعهدي إليه بالإمامة ، وإنما ينال من كان عادلاً بريئاً من الظلم. وقالوا : في هذا دليل على أن الفاسق لا يصلح للإمامة. وكيف يصلح لها من لا يجوز حكمه وشهادته ، ولا تحب طاعته ؛ ولا يقبل خبره ، ولا يقدم للصلاة. وكان أبو حنيفة رحمه الله يفتي سراً بوجوب نصرة زيد بن عليّ رضوان الله عليهما ، وحمل المال إليه ، والخروج معه على اللص المتغلب المتسمى بالإمام والخليفة ، كالدوانيقي وأشباهه. وقالت له امرأة : أشرت على ابني بالخروج مع إبراهيم ومحمد ابني عبد الله بن الحسن حتى قتل. فقال : ليتني مكان ابنك. وكان يقول في المنصور وأشياعه : لو أرادوا بناء مسجد وأرادوني على عدّ أجره لما فعلت. وعن ابن عيينة : لا يكون الظالم إماماً قط. وكيف يجوز نصب الظالم للإمامة ، والإمام إنما هو لكف الظلمة. فإذا نصب من كان ظالماً في نفسه فقد جاء المثل السائر : من استرعى الذئب ظلم. و ﴿الْبَيْتِ﴾

اسم غالب للكعبة ، كالنجم للثريا ﴿مَثَابَةٌ لِّلنَّاسِ﴾ مباءة ومرجعاً للحجاج والعمار ، يتفرقون عنه ثم يثوبون إليه أى يثوب إليه أعيان الذين يزورونه أو أمثالهم ﴿وَأَمْنًا﴾ موضع أمن ، كقوله ﴿حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حُوْلِهِمْ﴾ ولأن الجاني يأوى إليه فلا يتعرض له حتى يخرج. وقرئ : مثابات ، لأنه مثابة لكل من الناس لا يختص به واحد منهم ﴿سَوَاءٌ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ ﴿وَاتَّخِذُوا﴾ على إرادة القول ، أى وقلنا اتخذوا منه موضع صلاة تصلون فيه. وهو على وجه الاختيار والاستحباب دون الوجوب. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «أنه أخذ بيد عمر فقال : هذا مقام إبراهيم ، فقال عمر أفلا نتخذه مصلى . يريد أفلا نؤثره لفضله بالصلاة فيه تركا به وتيمنا بموطئ قدم إبراهيم . فقال : لم أؤمر بذلك ، فلم تغب الشمس حتى نزلت» ^(١). وعن جابر بن عبد الله «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استلم الحجر ورمل ثلاثة أشواط ومشى أربعة ، حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين وقرأ ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ ^(٢) وقيل : مصلى مدعى. ومقام إبراهيم : الحجر الذي فيه أثر قدميه ، والموضع الذي كان فيه الحجر حين وضع عليه قدميه ، وهو الموضع الذي يسمى مقام إبراهيم. وعن عمر رضى الله عنه أنه سأل المطلب بن أبى وداعة : هل تدرى أين كان موضعه الأول؟ قال : نعم ، فأراه موضعه اليوم. وعن عطاء ﴿مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾ عرفة والمزدلفة والجمار ، لأنه قام في هذه المواضع ودعا فيها. وعن النخعي : الحرم كله مقام إبراهيم. وقرئ (واتخذوا) بلفظ الماضي عطفًا على : ﴿جَعَلْنَا﴾ أى واتخذ الناس من مكان إبراهيم الذي وسم به لاهتمامه به وإسكان ذريته عنده قبلة يصلون إليها ﴿عَهْدَنَا﴾ أمرناهما ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي﴾ بأن طهرا ، أو أى طهرا. والمعنى طهراه من الأوثان والأنجاس وطواف الجنب والحائض والخبائث كلها ، أو أخلصاه لهؤلاء لا يغشه غيرهم ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ المجاورين الذين عكفوا عنده ، أى أقاموا لا يبرحون ، أو المعتكفين. ويجوز أن يريد بالعاكفين الواقفين يعنى القائمين في الصلاة ، كما قال : ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ ، والمعنى : للطائفين والمصلين ، لأنَّ القيام والركوع والسجود هيأت المصلى.

(١) أخرجه أبو نعيم من رواية مجاهد عن ابن عمر «أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ بيد عمر رضى الله عنه فمر على المقام فقال له : يا نبي الله هذا مقام إبراهيم؟ قال نعم. قال ألا نتخذه مصلى؟ فأنزل الله ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. الآية وقال : غريب من رواية . مجاهد. تفرد به جعفر بن محمد المدائني عن أبيه عن هارون الأعور عن أبان بن تغلب عن الحكم عن مجاهد. وفي الصحيحين عن أنس رضى الله عنه قال : قال عمر رضى الله عنه «وافقني ربي في ثلاث . فذكر الحديث» وفيه «قلت يا رسول الله ، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى ، فنزلت».

(٢) هكذا ذكره. والذي في صحيح مسلم في الحديث الطويل في صفة الحج «أنه قرأ الآية لما فرغ من الطواف ثم صلى»

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (١٢٦)

أى اجعل هذا البلد أو هذا المكان ﴿بَلَدًا آمِنًا﴾ ذا أمن ، كقوله : ﴿عَيْشَةً رَاضِيَةً﴾. أو آمنا من فيه ، كقوله : ليل نائم. و ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل من أهله ، يعنى وارزق المؤمنين من أهله خاصة. ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ عطف على من آمن كما عطف ﴿وَمَنْ ذُرِّيَّتِي﴾ على الكاف في جاعلك فإن قلت : لم خص إبراهيم صلوات الله عليه المؤمنين حتى ردّ عليه؟ قلت : قاس الرزق على الإمامة فعرف الفرق بينهما ، لأنّ الاستخلاف استرعاء يختص بمن ينصح للمرعى ، وأبعد الناس عن النصيحة الظالم ، بخلاف الرزق فإنه قد يكون استدراجا للمرزوق وإلزاما للحجة له. والمعنى : وأرزق من كفر فأمّته. ويجوز أن يكون ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ مبتدأ متضمنا معنى الشرط. وقوله ﴿فَأُمَتِّعُهُ﴾ جوابا للشرط ، أى ومن كفر فأنا أمّته. وقرئ فأمّته فأضطره ^(١) فألّزه إلى عذاب النار لئلا المضطر الذي لا يملك الامتناع مما اضطر إليه ، وقرأ أبى : فتمتعه قليلا ثم نضطره. وقرأ يحيى بن وثاب : فاضطره ، بكسر الهمزة. وقرأ ابن عباس فأمّته قليلا ثم اضطره ، على لفظ الأمر. والمراد الدعاء من إبراهيم دعا ربه بذلك. فإن قلت : فكيف تقدير الكلام على هذه القراءة؟ قلت : في : (قال) ضمير إبراهيم ، أى قال إبراهيم بعد مسألته اختصاص المؤمنين بالرزق : ومن كفر فأمّته قليلا ثم اضطره. وقرأ ابن محيصن : فاطره ، بإدغام الضاد في الطاء كما قالوا : اطجع ، وهي لغة مرذولة ، لأنّ الضاد من الحروف الخمسة التي يدغم فيها ما يجاورها ولا تدغم هي فيما يجاورها ، وهي حروف «ضم شفر».

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٢٩)

(١) قوله «فأضطره» التلاوة : ثم أضطره (ع)

﴿يَرْفَعُ﴾ حكاية حال ماضية. و ﴿الْقَوَاعِدُ﴾ جمع قاعدة وهي الأساس والأصل لما فوقه ، وهي صفة غالبية ، ومعناها الثابتة. ومنه فعدك الله ، أى أسأل الله أن يقعدك أى يثبتك. ورفع الأساس : البناء ^(١) عليها لأنها إذا بنى عليها نقلت عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع وتطاولت بعد التقاصر ويجوز أن يكون المراد بها سافات البناء ^(٢) لأن كل ساف قاعدة للذي يبنى عليه ويوضع فوقه. ومعنى رفع القواعد : رفعها بالبناء لأنه إذا وضع سافا فوق ساف فقد رفع السافات. ويجوز أن يكون المعنى : وإذا يرفع إبراهيم ما قعد من البيت . أى استوطأ. يعنى جعل هيئته القاعدة المستوطئة مرتفعة عالية بالبناء ، وروى أنه كان مؤسساً قبل إبراهيم فبنى على الأساس. وروى أن الله تعالى أنزل البيت ياقوتة من يواقيت الجنة له بابان من زمرد : شرقى وغربى ، وقال لآدم عليه السلام : أهبطت لك ما يطاف به كما يطاف حول عرشي ، فتوجه آدم من أرض الهند إليه ماشياً ، وتلقته الملائكة فقالوا : بر حجك يا آدم ، لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام ^(٣) وحج آدم أربعين حجة من أرض الهند إلى مكة على رجله ، فكان على ذلك إلى أن رفعه الله أيام الطوفان إلى السماء الرابعة فهو البيت المعمور ثم إن الله تعالى أمر إبراهيم ببناؤه وعرفه جبريل مكانه. وقيل بعث الله سبحانه أظلمته : ونودي : أن ابن على ظلها لا نزد ولا تنقص. وقيل : بناه من خمسة أجبل طور سينا ، وطور زيتا ، ولبنان ، والجودي ، وأسس من حراء. وجاءه جبريل بالحجر الأسود من السماء. وقيل : تمخض أبو قبيس فانشق عنه ، وقد خبى فيه في أيام الطوفان وكان ياقوتة بيضاء من الجنة ، فلما لمستة الحيز في الجاهلية اسودّ. وقيل كان إبراهيم يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة ﴿رَبَّنَا﴾ أى يقولان ربنا. وهذا الفعل في محل النصب على الحال ، وقد أظهره عبد الله في قراءته ،

(١) قوله «ورفع الأساس البناء» لعله الأسس . بضمّتين. (ع)

(٢) قوله «المراد بها سافات البناء» قوله «سافات» عبارة أئى السعود. والفخر «ساقات» بالقاف بدل الفاء. والصواب أنه بالفاء كما في الصحاح في باب الفاء : الساف : كل عرق من الحائط. (ع)

(٣) أخرجه الفاكهي في كتاب مكة من رواية الضحاك هو ابن مزاحم. قال : قال حذيفة : وسلمان الفارسي «سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن الله أنزل البيت من ياقوتة حمراء نزلت به الملائكة مع آدم ، فنزلت به في الحرم ونزل آدم في الهند في جبل يقال له واشب بأرض الهند ونزل إبليس بالحرم فحول الله إبليس إلى أرض الهند وحول آدم إلى الحرم. الحديث. وفي إسناده ضعف وانقطاع. ورواه أيضا من طريق ابن إدريس عن أبيه عن عطاء أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سأل كعبا قال : أخبرني عن بناء هذا البيت ما كان أمره؟ فقال : إن هذا البيت ، أنزله الله من السماء ياقوتة حمراء مجوفة مع آدم» وفي رواية النهاس بن قهم : سمعت عطاء يقول «قال آدم يا رب أين توجهني؟ قال تبنى لي بتهامة بيتا مما يلي البحر يطاف حوله ، كما تطوف الملائكة حول عرشي. ويصلى عنده كما تصلى الملائكة عند عرشي. فأقبل نحو البيت. مما يلي الصفا. فطاف بالبيت وصلى عنده. قال النهاس : وحدثني عقيل على بن سفيان. حدثنا عطاء عن عبد الله بن عمرو بمثله وقال الفاكهي في كتاب مكة أيضا : حدثنا ابن عمرو. حدثنا سفيان عن ابن أبي لبيد قال «حج آدم فتلقته الملائكة فقالوا : أبر نسكك. فقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام» وهكذا هو في جامع سفيان بن عيينة.

ومعناه : يرفعانها قائلين ربنا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾ لدعائنا ﴿الْعَلِيمُ﴾ بضمائرننا ونياتنا. فإن قلت : هلا قيل : قواعد البيت ، وأى فرق بين العبارتين؟ قلت : في إيهام القواعد وتبيينها بعد الإيهام ما ليس في إضافتها لما في الإيضاح بعد الإيهام من تفخيم لشأن المبين ﴿مُسْلِمِينَ لَكَ﴾ مخلصين لك أوجهنا ، من قوله : ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أو مستسلمين. يقال : أسلم له وسلم واستسلم ، إذا خضع وأذعن. والمعنى : زدنا إخلاصاً أو إذعاناً لك. وقرئ (مسلمين) على الجمع ، كأنهما أرادا أنفسهما وهاجر ، أو أجريا التثنية على حكم الجمع لأنهما منه ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا﴾ واجعل من ذرّيتنا ﴿أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ و (من) للتبعية أو للتبيين ، كقوله : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾. فإن قلت : لم خصا ذرّيتهما بالدعاء؟ قلت : لأنهم أحق بالشفقة والنصيحة ﴿فُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ ، ولأنّ أولاد الأنبياء إذا صلحوا صلح بهم غيرهم وشايعوهم على الخير. ألا ترى أن المقدّمين من العلماء والكبراء إذا كانوا على السداد ، كيف يتسببون لسداد من وراءهم؟ وقيل : أراد بالأمة أمة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَأَرَنَا﴾ منقول من رأى بمعنى أبصر أو عرّف. ولذلك لم يتجاوز مفعولين ، أى وبصرنا متعبداتنا في الحج ، أو وعرفناها. وقيل : مذابحنا. وقرئ : وأرنا ، بسكون الراء قياس على فخذ في فخذ. وقد استزدلت ، لأنّ الكسرة منقولة من الهمزة الساقطة دليل عليها ، فإسقاطها إجحاف. وقرأ أبو عمرو بإشمام الكسرة. وقرأ عبد الله : وأرهم مناسكهم. ﴿وَتُبَّ عَلَيْنَا﴾ ما فرط منا ^(١) من الصغائر أو استتابا لذرّيتهما ﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾ في الأمة المسلمة ﴿رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ من أنفسهم. وروى أنه قيل له : قد استجيب لك وهو في آخر الزمان ، فبعث الله فيهم محمداً صلى الله عليه وسلم. قال عليه الصلاة والسلام «أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى أخى عيسى ورؤيا أمى ^(٢)

(١) قوله «وتب علينا ما فرط منا» لعله على تضمين تب معنى اغفر. (ع)

(٢) أخرجه أحمد والبخاري وابن حبان. والطبراني والحاكم من حديث العرياض بن سارية : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إني عبد الله وخاتم النبيين ، وأبى آدم منجدل في طينته وأخيركم عن ذلك. دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى ، ورؤيا أمى التي رأت . الحديث» ولأحمد من حديث أبي أمامة رضى الله عنه «قلت : يا رسول الله. ما كان يدؤ أمرك قال : دعوة أبي إبراهيم ؛ وبشرى عيسى ، ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت به قصور الشام» ورواه البيهقي في الشعب. ثم قال «أما دعوة إبراهيم فهي قوله : ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ وأما بشارة عيسى فهي قوله تعالى : ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾. قال : وأما رؤيا أمه فذكر ابن إسحاق في السيرة قال «كانت أمنة بنت وهب أم رسول الله صلى الله عليه وسلم تحدث أنها أتيت» ولأبي يعلى عن شدداد بن أوس رفعه «أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى أخى عيسى ابن مريم ، وأن أمى رأت في المنام نوراً قالت : فجعلت أتبع بصرى النور فجعل النور يسبق بصرى حتى أضاء لي مشارق الأرض ومغاربها» وللحاكم في المستدرک من طريق ابن إسحاق عن ثور بن يزيد عن خالد ابن معدان عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم «قالوا : يا رسول الله أخبرنا عن نفسك قال : دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ، ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام».

وقيل معناه : سفه في نفسه ، فحذف الجار ، كقولهم : زيد ظني مقيم ، أى في ظني. والوجه هو الأوّل. وكفى شاهداً له بما جاء في الحديث ^(١) «الكبر أن تسفه الحق وتغمص الناس ^(٢)» وذلك أنه إذا رغب عما لا يرغب عنه عاقل قط فقد بالغ في إذالة نفسه ^(٣) وتعجيزها ، حيث خالف بها كل نفس عاقبة ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ﴾ بيان لخطأ رأى من رغب عن ملته ، لأنّ من جمع

. رعى غيرهم وحرمة شهرهم عن هتكها ، بأن يغار عليهم فيه ، فلا استعارة إلا في هلاك الشهر. وروى تأخذ : بالحركات الثلاث ، وكذلك كل مضارع معطوف على جواب الشرط ، فالجزم على العطف ، والرفع على الاستئناف. والنصب بإضمار إن لشبه الشرط بالنفي ، لكنه قليل. والذئاب . بالكسر . : ذنب البعير والفرس ، وعقب كل شيء. وشبه العيش الضنك الضيق الناقص ببعير مهزول على طريق المكينة. والذئاب ، والظهر ، والسنام . بالفتح . تحييل ، وأجب الظهر : منقطعه ، أى ونتمسك بعده بطرف عيش وبقية منه ضيقة قليلة ، كالبعير المقطوع الظهر ، وبين ذلك بقوله : ليس له سنام. وأجب : صفة مشبهة ممنوع من الصرف ، فيجر بالفتحة على الصفة لعيش. وقيل نصب على الحال. وروى بالرفع على الخبرية لمحدوف ، ويروى الظهر بالرفع ، فاعلا للصفة ، أو بدلا من الضمير فيها وفتح النحاة ، وبالنصب تشبيها بالمفعول أو تمييزاً على مذهب من ميز بالمعرفة وضعفوه وبالجر باضافة أجب إليه فيجر أجب بالكسرة ، وحسنوا هذا.

(١) أخرجه البزار من رواية ابن إسحاق عن عمرو بن دينار عن ابن عمر «قيل : يا رسول الله ، أمن الكبر أن يتخذ الرجل الطعام فيكون عليه الجماعة ، يلبس القميص النظيف» قال : ليس ذلك بالكبر. وإنما الكبر أن تسفه الحق وتغمص الناس» وذكر فيه قصة. وقال : لا نعلم رواه عن عمرو عن ابن عمر إلا ابن إسحاق اه.

وأخرجه الطبراني من رواية ابن إسحاق عن عمرو بن دينار عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال «قلت يا رسول الله أمن الكبر أن ألبس الثوب الحسن؟ قال : لا. قلت : فما الكبر؟ فذكره» ورواه البخاري في الأدب المفرد. من طريق الصعب بن زهير عن زيد بن أسلم قال لا نعلمه إلا عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو قال «جاء رجل فقال يا رسول الله : الكبر أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟ قال : لا ... الحديث» وأخرجه أيضا من رواية عبد العزيز ابن محمد. وأخرجه البزار. من رواية أبي بكر بن أبي سبرة. وأخرجه أحمد في الزهد من رواية هشام بن سعد كلهم عن زيد به. وقال عبد بن حميد في مسنده : أخبرنا عبد الله بن موسى عن موسى بن عبيدة عن زيد بن أسلم عن جابر فذكر حديثا وفيه : فقال معاذ «يا رسول الله أمن الكبر أن يكون لأحدنا الدابة فيركبها ، أو النعلان ، أو الثياب يلبسها ، أو الطعام يجمع عليه أصحابه؟ قال : لا. ولكن الكبر أن يسفه الحق ويغمص المؤمنين» وموسى ضعيف. وفي الطبراني من رواية عبد الحميد بن سليمان ، عن عمارة بن غزية عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها. أن عبد الله ابن عمرو قال «يا رسول الله ، أمن الكبر أن ألبس الحلة الحسنة؟ الحديث» وأخرجه الطبراني في الأوسط ، ومسند الشاميين عن عطاء الخراساني عن نافع عن ابن عمر نحوه ، وفي الباب عن أبي هريرة : أخرجه ابن حبان وأخاكم من طريق ابن سيرين عنه ، وعن ابن مسعود ، أخرجه إسحاق وأبو يعلى والحاكم : أن مالك بن مرارة الرهاوي. قال «يا رسول الله إن لي من الجمال ما ترى ، وإنني لا أحب أحداً أن يفضلني بشركين فما فوقهما. أفهذا من البغي؟ قال : لا. الحديث» وعن أبي ربحانة. أخرجه أحمد والطبراني. وعن ثابت بن قيس ، أخرجه الدارمي والطبراني. وعن سوداء بن عمرو والحسين بن علي أخرجهما الطبراني. وعن ابن عباس. أخرجه عبد بن حميد وعن عقبة بن عامر أخرجه أبو مسلم في الجامع من السنن له.

(٢) قوله «وتغمص الناس» أى تستصغرهم وتعييهم. أفاده الصحاح (ع)

(٣) قوله «في إذالة نفسه» أى إهانتها. أفاده الصحاح (ع)

الكرامة عند الله في الدارين ، بأن كان صفوته وخيرته في الدنيا وكان مشهوداً له بالاستقامة على الخير في الآخرة ، لم يكن أحد أولى بالرغبة في طريقته منه **﴿إِذْ قَالَ﴾** ظرف لاصطفيناه ، أى : اخترناه في ذلك الوقت. أو انتصب بإضمار «أذكر» استشهاداً على ما ذكر من حاله. كأنه قيل : اذكر ذلك الوقت لتعلم أنه المصطفى الصالح الذي لا يرغب عن ملة مثله. ومعنى قال له : أسلم ، أخطر بباله النظر في الدلائل المؤدية إلى المعرفة والإسلام **﴿قَالَ أَسْلَمْتُ﴾** أى فنظر وعرف. وقيل أسلم : أى أذعن وأطع. وروى أن عبد الله بن سلام دعا ابني أخيه سلمة ومهاجراً إلى الإسلام فقال لهما : قد علمنا أن الله تعالى قال في التوراة : إني باعث من ولد إسماعيل نبيا اسمه أحمد ، فمن آمن به فقد اهتدى ورشد ، ومن لم يؤمن به فهو ملعون. فأسلم سلمة وأبي مهاجر أن يسلم ، فنزلت.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٢)

قرئ : وأوصى ، وهي في مصاحف أهل الحجاز والشام. والضمير في **﴿بِهَا﴾** لقوله أسلمت لرب العالمين على تأويل الكلمة والجملة ، ونحوه رجوع الضمير في قوله : **﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً﴾** إلى قوله : **﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾** وقوله : كلمة باقية ، دليل على أن التأنيث على تأويل الكلمة **﴿وَيَعْقُوبُ﴾** عطف على إبراهيم ، داخل في حكمه. والمعنى : ووصى بها يعقوب بنيه أيضا. وقرئ : ويعقوب ، بالنصب عطفا على بنيه. ومعناه : ووصى بها إبراهيم بنيه وناقلته يعقوب **﴿يَا بَنِي﴾** على إضمار القول عند البصريين. وعند الكوفيين يتعلق بوصي ، لأنه في معنى القول. ونحوه قول القائل :

رَجُلَانِ مِــــنْ ضَــــبَّةٍ أَحْــــمَدُ بَرَانَا إِنَّا رَأَيْنَا رَجُلًا غُــــرِّيَانَا ^(١)

بكسر الهمزة : فهو بتقدير القول عندنا ، وعندهم يتعلق بفعل الإخبار. وفي قراءة أبي وابن مسعود : أن يا بني **﴿اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ﴾** أعطاكم الدين الذي هو صفوة الأديان وهو دين الإسلام. ووفقكم للأخذ به **﴿فَلَا تَمُوتُنَّ﴾** معناه فلا يكن موتكم إلا على حال كونكم ثابتين على الإسلام ، فالنهي في الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا ، كقولك : لا تصل إلا وأنت

(١) رجلان بالسكون للتخفيف والوزن ، كما يسكن عضد. وضبة : اسم قبيلة. وروى بدله «من مكة» والخبار فيه معنى القول ، فلذلك كسرت بعده إن على الحكاية ، أى قالوا لنا ذلك القول وهو : أنا رأينا. ومذهب الكوفيين أن الجملة المحكية في محل نصب بالفعل المذكور. ومذهب البصريين بقول مقدر. وقال بعضهم : الظاهر أنها مفسرة فلا محل لها ، وروى بالفتح على حذف الجار ، أى بأننا رأينا.

خاشع ، فلا تنهاه عن الصلاة ، ولكن عن ترك الخشوع في حال صلاته. فإن قلت : فأى نكتة في إدخال حرف النهى على الصلاة وليس بمنهى عنها؟ قلت : النكتة فيه إظهار أن الصلاة التي لا خشوع فيها كلا صلاة ، فكأنه قال : أتهلك عنها إذا لم تصلها على هذه الحالة. ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد»^(١) فإنه كالتصريح بقولك لجار المسجد : لا تصل إلا في المسجد : وكذلك المعنى في الآية إظهار أن موتهم لا على حال الثبات على الإسلام موت لا خير فيه ، وأنه ليس بموت السعداء ، وأن من حق هذا الموت أن لا يحل فيهم. وتقول في الأمر أيضا : مت وأنت شهيد. وليس مرادك الأمر بالموت. ولكن بالكون على صفة الشهداء إذا مات ؛ وإنما أمرته بالموت اعتداداً منك بميتته ، وإظهاراً لفضلها على غيرها ، وأنها حقيقة بأن يحث عليها.

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَالِلّٰهِ آبَائُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٣)

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ هي أم المنقطعة^(٢). ومعنى الهمزة فيها الإنكار. والشهداء جمع شهيد ، بمعنى الحاضر : أى ما كنتم حاضرين يعقوب عليه السلام إذ حضره الموت ، أى حين احتضر والخطاب للمؤمنين بمعنى : ما شاهدتم ذلك^(٣) وإنما حصل لكم العلم به من طريق الوحى. وقيل

(١) أخرجه الدارقطني والحاكم من رواية أبي سلمة. عن أبي هريرة وفيه سليمان بن داود اليماني. وهو ضعيف. والدارقطني وابن عدى. والعقيلي من حديث جابر. وفيه محمد بن مسكين. وهو ضعيف. وأخرجه ابن حبان في الضعفاء في ترجمة عمر بن راشد عن ابن أبي ذئب عن الزهري عن عروة عن عائشة ، وقال كان عمر بن راشد يضع الحديث. وقد صح موقوفاً عن على رضى الله عنه. أخرجه ابن أبي شيبة

(٢) قوله «هي أم المنقطعة» هي تفسير ببل والهمزة. (ع)

(٣) قال محمود رحمه الله : «الخطاب فيه للمؤمنين بمعنى ما شاهدتم ... الخ». قال أحمد رحمه الله : وإنما اختار على هذا التفسير أن تكون متصلة ، لأنه لو جعلها منقطعة كالأول ، لكان مضمون الكلام نفى شهود المخاطبين وهم اليهود على هذا التفسير الثاني ، لوفاة يعقوب والوصية بالإسلام ، وحينئذ يكون ذلك كاقامة حجته على جحد الإسلام وإنكار أن يكون الأنبياء مسلمين والغرض ضد ذلك. وإنما كان الكلام يقتضى النفي حينئذ ، لأن الاستفهام من الله تعالى لا يحمل على ظاهره ، فتعين صرفه إلى الإنكار ، لأن السياق يقتضيه. ولهذا كان نفياً لشهود المسلمين وفاة يعقوب ووصيته على التفسير الأول ، لا سيما والمعتاد خطاب اليهود المعاصرين للنبي عليه الصلاة والسلام بما يخاطب به أوائلهم ، تنزيلاً لعلمهم ورضاهم منزلة حضورهم وتعاطيهم ، كقوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ ، ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى﴾ إلى أشباه ذلك ، فإذا كانت أم متصلة والخطاب لليهود فقد جرى الأمر في خطابهم على المعتاد ، وإذا كانت منقطعة انعكس الأمر.

الاختصاص ، أى نريد بإله آبائك إلهاً واحداً ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ حال من فاعل نعبد ، أو من مفعوله ، لرجوع الهاء إليه في له. ويجوز أن تكون جملة معطوفة على نعبد ، وأن تكون جملة اعتراضية مؤكدة ، أى ومن حالنا أنا له مسلمون مخلصون التوحيد أو مدعونون.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٣٤)

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الأمة المذكورة التي هي إبراهيم ويعقوب وبنوهما الموحدون. والمعنى: أن أحداً لا ينفعه كسب غيره متقدماً كان أو متأخراً ، فكما أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا ، فكذلك أنتم لا ينفعكم إلا ما اكتسبتم. وذلك أنهم افتخروا بأوائلهم. ونحوه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يا بنى هاشم ، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم»^(١) ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ولا تؤاخذون بسيئاتهم كما لا تنفعكم حسناتهم.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى فَمَتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٣٥)

﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ بل تكون ملة إبراهيم أى أهل ملته كقول عدى بن حاتم. إني من دين^(٢) يريد من أهل دين. وقيل : بل نتبع ملة إبراهيم. وقرئ : (ملة إبراهيم) بالرفع ، أى ملته ملتنا ، أو أمرنا ملته ، أو نحن ملته بمعنى أهل ملته. و ﴿حَنِيفًا﴾ حال من المضاف إليه ، كقولك : رأيت وجه هند قائمة. والحنيف : المائل عن كل دين باطل إلى دين الحق. والحنف : الميل في القدمين. وتحنف إذا مال. وأنشد :

وَلَكِنَّا خُلِقْنَا إِذْ خُلِقْنَا حَنِيفًا دِينَنَا عَنْ كُفْلٍ دِينِ^(٣)

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض بأهل الكتاب وغيرهم لأن كلا منهم يدعى اتباع إبراهيم

(١) لم أجده.

(٢) أخرجه ابن سعد من رواية ابن سيرين عن أبي عبيدة بن حذيفة. قال : قال عدى بن حاتم. فذكر قصة إسلامه. وفيه فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم «يا عدى ، أسلم تسلم. قال : إني من دين. قال أنا أعلم بدينك منك»

(٣) الحنف والحنف : الميل. والحنيف : المائل عن الباطل إلى الحق. يقول : خلقنا حال كوننا مائلا ديننا عن الأديان الباطلة كلها إلى دين أبينا إبراهيم ، لأن العرب اتفقت على أنه حق ، وذلك من وقت ابتداء خلقنا ، فإذا : ظرف للخلق الأول بعد تقييده بالحال بعده.

وهو على الشرك ﴿قُولُوا﴾ خطاب للمؤمنين. ويجوز أن يكون خطاباً للكافرين ، أى قولوا لتكونوا على الحق ، وإلا فأنتم على الباطل وكذلك قوله : ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ يجوز أن يكون على : بل اتبعوا أنتم ملة إبراهيم ، أو كونوا أهل ملته.

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٣٧) والسبب : الحافد. وكان الحسن والحسين سبطي رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وَالْأَسْبَاطِ﴾ حفدة يعقوب ذراريّ أبنائه الاثني عشر ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى. و ﴿أَحَدٍ﴾ في معنى الجماعة ^(١). ولذلك صح دخول (بين) عليه ﴿بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾ من باب التبكيت ، لأن دين الحق واحد لا مثل له وهو دين الإسلام ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ فلا يوجد إذاً دين آخر يماثل دين الإسلام في كونه حقاً ، حتى إن آمنوا بذلك الدين المماثل له كانوا مهتدين ، فقيل : فإن آمنوا بكلمة الشك على سبيل الفرض والتقدير ، أى : فإن حصلوا ديناً آخر مثل دينكم مساوياً له في الصحة والسادد فقد اهتدوا. وفيه أنّ دينهم الذي هم عليه وكل دين سواه مغاير له غير مماثل ، لأنه حق وهدى وما سواه باطل وضلال. ونحو هذا قولك للرجل الذي تشير عليه. هذا هو رأى الصواب ، فإن كان عندك رأى أصوب منه فاعمل به ، وقد علمت أن لا أصوب من رأيك. ولكنك تريد تبكيت صاحبك ، وتوقيفه على أن ما رأيت لا رأى وراءه. ويجوز أن لا تكون الباء صلة وتكون باء الاستعانة ، كقولك : كتبت بالقلم ، وعملت بالقدم أى فإن دخلوا في الإيمان بشهادة مثل شهادتكم التي آمنتم بها. وقرأ ابن عباس وابن مسعود : بما آمنتم به ، وقرأ أبى : بالذي آمنتم به. ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عما تقولون لهم ولم ينصفوا فما هم إلا

(١) قال محمود رحمه الله : «وأحد في معنى الجماعة ... الخ». قال أحمد رحمه الله : وفيه دليل على أن النكرة الواقعة في سياق النفي تفيد العموم لفظاً حتى يتنزل المفرد فيها منزلة الجمع في تناوله الأحاد مطابقة ، لا كما ظنه بعض الأصوليين من أن مدلولها بطريق المطابقة في النفي كمدلولها في الإثبات. وذلك الدلالة على الماهية. وإنما لزم فيها العموم من حيث أن سلب الماهية يستوجب سلب الافراد لما بين الأعم والأخص من التلازم في جانب النفي ، إذ سلب الأعم أخص من سلب الأخص فيستلزمه ، فلو كان لفظاً ما لا إشعار له بالتعدد والعموم وضعاً لما جاز دخول بين عليها.

﴿فِي شِقَاقٍ﴾ أى في مناوأة ومعاندة ^(١) لا غير ، وليسوا من طلب الحق في شيء. أو : وإن تولوا عن الشهادة والدخول في الإيمان بها ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ ضمان من الله لإظهار رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ، وقد أنجز وعده بقتل قريظة وسبيهم وإجلاء بنى النضير. ومعنى السين أنّ ذلك كائن لا محالة وإن تأخر إلى حين ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وعيد لهم ، أى يسمع ما ينطقون به ، ويعلم ما يضمرون من الحسد والغل وهو معاقبهم عليه. أو وعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمعنى : يسمع ما تدعو به ويعلم نيتك وما تريده من إظهار دين الحق ، وهو مستجيب لك وموصلك إلى مرادك.

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ (١٣٨)

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ مصدر مؤكد منتصب على قوله : ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ كما انتصب (وعد الله) عما تقدمه ، وهي «فعلة» من صبغ ، كالجلسة من جلس ، وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ والمعنى : تطهير الله ، لأن الإيمان يطهر النفوس. والأصل فيه أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية ، ويقولون : هو تطهير لهم ، وإذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قال : الآن صار نصرانيا حقا ، فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم : قولوا آمنا بالله ، وصبغنا الله بالإيمان صبغة لا مثل صبغتنا ، وطهرنا به تطهيراً لا مثل تطهيرنا. أو يقول المسلمون. صبغنا الله بالإيمان صبغته ولم نصبغ صبغتك. وإنما جيء بلفظ الصبغة على طريقة المشاكلة ، كما تقول لمن يغرس الأشجار : اغرس كما يغرس فلان ، تريد رجلاً يصطنع الكرم ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ يعنى أنه يصبغ عباده بالإيمان ، ويطهرهم به من أو ضار الكفر فلا صبغة أحسن من صبغته. وقوله ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ عطف على آمنا بالله. وهذا العطف يردّ قول من زعم أن ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ بدل من ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أو نصب على الإغراء بمعنى : عليكم صبغة الله ، لما فيه من فك النظم وإخراج الكلام عن التثامه واتساقه ، ^(٢) وانتصاها على أنها مصدر مؤكد هو الذي ذكره سيبويه ، والقول ما قالت حذام

﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

(١) قوله : «في مناوأة ومعاندة» في الصحاح : ناوأت الرجل مناوأة ونواء ، عاديته. وربما لم يهمز. وأصله الهمز. (ع)

(٢) قوله «واتساقه» في الصحاح : الاتساق الانتظام. وفيه أيضاً : التنسيق التنظيم. (ع)

وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)

قرأ زيد بن ثابت (أتحاجونا) بإدغام النون. والمعنى : أتجادلوننا في شأن الله واصطفائه النبي من العرب دونكم ، وتقولون : لو أنزل الله على أحد لأنزل علينا ، وترونكم أحق بالنبوة منا ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ نشترك جميعا في أننا عباده ، وهو ربنا ، وهو يصيب برحمته وكرامته من يشاء من عباده ، هم فوضى في ذلك لا يختص به عجمي دون عربي إذا كان أهلا للكرامة ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ يعنى أن العمل هو أساس الأمر وبه العبرة ، وكما أن لكم أعمالا يعتبرها الله في إعطاء الكرامة ومنعها فنحن كذلك. ثم قال ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ فجاء بما هو سبب الكرامة ، أى ونحن له موحدون نخلصه بالإيمان فلا تستبعدوا أن يؤهل أهل إخلاصه لكرامته بالنبوة ، وكانوا يقولون : نحن أحق بأن تكون النبوة فينا ، لأننا أهل كتاب والعرب عبدة أو ثان ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ يحتمل فيمن قرأ بالتاء أن تكون أم معادلة للهمزة في : ﴿أَتَحَاجُّونَنَا﴾ بمعنى أى الأمرين تأتون : ألحاجة في حكمة الله أم ادعاء اليهودية والنصرانية على الأنبياء؟ والمراد بالاستفهام عنهما إنكارهما معاً ، وأن تكون منقطعة بمعنى : بل أتقولون ، والهمزة للإنكار أيضا ، وفيمن قرأ بالياء لا تكون إلا منقطعة ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ﴾ يعنى أن الله شهد لهم بملة الإسلام في قوله : ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أى كتم شهادة الله التي عنده أنه شهد بها وهي شهادته لإبراهيم بالحنيفية. ويحتمل معنيين : أحدهما أن أهل الكتاب لا أحد أظلم منهم ، لأنهم كتموا هذه الشهادة وهم عالمون بها. والثاني : أنا لو كتمنا هذه الشهادة لم يكن أحد أظلم منا فلا نكتمها. وفيه تعريض بكتماهم شهادة الله لحمد صلى الله عليه وسلم بالنبوة في كتبهم وسائر شهاداته. (ومن) في قوله : ﴿شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ مثلها في قولك : هذه شهادة منى لفلان إذا شهدت له ، ومثله ﴿بِرَاءةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا

وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ الخفاف الأحلام وهم اليهود لكراحتهم التوجه إلى الكعبة ، وأنهم لا يرون النسخ. وقيل : المنافقون ، لحرصهم على الطعن والاستهزاء. وقيل : المشركون ، قالوا رغب عن قبلة آبائهم ثم رجع إليها ، والله ليرجعن إلى دينهم. فإن قلت : أى فائدة في الإخبار بقولهم قبل وقوعه ^(١)؟ قلت : فائدته أنّ مفاجأة المكروه أشدّ ، والعلم به قبل وقوعه أبعد من الاضطراب إذا وقع لما يتقدّمه من توطئ النفس ، وأنّ الجواب العتيد قبل الحاجة إليه أقطع للخصم وأرد لشغبه ، وقبل الرمي يراش السهم ﴿مَا وَلَّاهُمْ﴾ ما صرفهم ﴿عَنْ قِبَلَتِهِمْ﴾ وهي بيت المقدس ﴿اللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أى بلاد المشرق والمغرب والأرض كلها ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ من أهلها ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو ما توجهه الحكمة والمصلحة ، من توجيههم تارة إلى بيت المقدس ، وأخرى إلى الكعبة ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ﴾ ومثل ذلك الجعل العجيب جعلناكم ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ خيارا ، وهي صفة بالاسم الذي هو وسط الشيء. ولذلك استوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث. ونحوه قوله عليه السلام : «وأنطوا ^(٢) الثبجة ^(٣)» يريد الوسيطة بين السمينة والعجفاء وصفا بالثبج وهو وسط الظهر ، إلا أنه الحق تاء التأنيث مراعاة لحق الوصف. وقيل : للخيار : وسط ^(٤) لأنّ الأطراف يتسارع إليها الخلل ، والأعوار والأوساط محمية محوطة. ومنه قول الطائي :

كَانَتْ هِيَ الْوَسَطُ الْمَحْمِيَّ فَكَتَنَتْ بِهَا الْحَوَادِثُ حَتَّى أَصْبَحَتْ طَرْفًا ^(٥)

(١) قال محمود رحمه الله : «أى فائدة في الاخبار بقولهم قبل وقوعه ... الخ»؟ قال أحمد رحمه الله تعالى :ولهذه النكتة أجرى من حذو النظر في إدراج مناظرهم العمل بمقتضى الذي هو كذا ، السلام عن معارضة كذا ، فسيقول : درء للمعارض قبل ذكر الخصم له ، وهي نكتة بديعة أحسن ما يستدل على صحتها بهذه الآية. فتفطن لها فإنما من الملح.

(٢) قوله «وأنطوا الثبجة» لغة في أعطوا. (ع)

(٣) يأتى في الكوثر

(٤) قال محمود رحمه الله : «وقيل للخيار وسط ... الخ». قال أحمد رحمه الله : وهذا مما اقتضى المجاز فيه التعميم

(٥) وغيضة الموت أعنى البذ قدت لها عرمرم الخ روق الأرض معتسفا

كانت هي الوسط المحمى فاكتنفت بها الحوادث حتى أصبحت طرفا

لأبى تمام ، يخاطب المعتصم. والغيضة : مغيض الماء. يجتمع فيه ثم يغيض ويذهب فينبت فيه الشجر والنبات.

وقد اكرتبت بمكة جمل أعرابى للحج فقال : أعطنى من سطاتهته ، أراد من خيار الدنانير . أو عدولا ، لأنّ الوسط عدل بين الأطراف ليس إلى بعضها أقرب من بعض ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ روى «أنّ الأمم يوم القيامة يحددون تبليغ الأنبياء ، فيطالب الله الأنبياء بالبينه على أنهم قد بلغوا وهو أعلم ، فيؤتى بأمة محمد صلى الله عليه وسلم فيشهدون ، فتقول الأمم : من أين عرفتم؟ فيقولون علمنا ذلك بإخبار الله في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق ، فيؤتى بمحمد صلى الله عليه وسلم فيسأل عن حال أمته ، فيزكيهم ويشهد بعد التهم^(١)» وذلك قوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾. فإن قلت : فهلا قيل لكم شهيدا وشهادته لهم لا عليهم^(٢)؟ قلت : لما كان الشهيد كالرقيب والمهيم على المشهود له ، جيء بكلمة الاستعلاء. ومنه قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ، ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. وقيل : لتكونوا شهداء على الناس في الدنيا فيما لا يصح إلا بشهادة العدول الأخير ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ يزكيكم ويعلم بعد التكم. فإن قلت : لم أخرت صلة الشهادة أولا وقدّمت آخر^(٣)؟ قلت : لأن الغرض في

. والمراد هنا : موضع العسكر. والبذ : اسم قلعة لبابك الخرمى. والعرمم : الجيش الكثير. وخروق الأرض : طرائقها. والمعترف : الحائد عن الطريق لكثرتة. شبه ذلك الموضع بالغيضة على سبيل التهكم بأصحابه ، لأنها تضاف للماء ، فأضافها للموت. وشبه الجيش في الانقياد بالإبل على طريق المكينة وقودهم تحييل ، وكنى بالوسط عن التي لا يصل إليها الخلل لأنها محمية بالأطراف فاكنتفت وأحاطت بها الحوادث ، يعنى جيوش المعتصم ، حتى أصبحت تلك الغيضة طرفا فالحقها الخلل ومكاره الجيش.

(١) موقوف : أخرجه الطبري عن زيد بن أسلم موقوفا. وأخرجه في تفسير النسائي من قول السدى أيضا. وفي البخاري من حديث أبي سعيد الخدري. قال «يدعى نوح يوم القيامة فيقول لبيك وسعديك يا رب فيقول : هل بلغت؟ فيقول : نعم. فيقال لأمتة : هل بلغكم؟ فيقولون : ما أأنا من نذير. فيقول : من يشهد لك؟ فيقول : محمدا وأمتة. فيشهدون أنه بلغ ثم قرأ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾. الآية ورواه البيهقي في البعث والنشور من رواية أبي معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيء النبي يوم القيامة ومعه الثلاثة والأربعة والرجلان ، حتى يجيء النبي وليس معه أحد ، فتدعى أمة محمد فيشهدون أنهم بلغوا. فيقال لهم : وما علمكم أنهم بلغوا فيقولون : جاءنا رسولنا بكتاب أخبرنا فيه أنهم قد بلغوا فصدقنا. قال فيقال : صدقتم. وذلك قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾.

(٢) قال محمود رحمه الله : «فان قلت : فهلا قيل لكم شهيدا وشهادته لهم لا عليهم ... الخ»؟ قال أحمد رحمه الله : وجه الاستدلال بالآية أنه وصف الله تعالى في أولها بالرقيب وفي آخرها بالشهيد على وجه التخصيص أولا ثم التعميم ثانيا : وإنما ينتظم التعميم والتخصيص مع اتحاد مؤدى الرقيب والشهيد ، إذ الآية في مثل قول القائل لمن شكره : كنت محسنا إلى وأنت بكل أحد محسن. وكأنه لما قال : ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ وكان ذلك مخصصا لرقيبته تعالى على بنى إسرائيل ، أراد أن يصفه بما هو أهله حتى ينفى وهم الخصوصية فقال في التقدير : وأنت على كل شيء كذلك ، فوضع «شهيدا» موضع «كذلك» المشار به إلى رقيبته ، فلا يتم الاستدلال بها إلا على هذا الوجه. وفيه غموض على كثير من الأفهام والله الموفق.

(٣) قال محمود رحمه الله : «فان قلت : لم أخرت صلة الشهادة أولا وقدّمت آخرأ ... الخ»؟ قال أحمد رحمه الله :

الأول إثبات شهادتهم على الأمم ، وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم ﴿الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ ليست بصفة للقبلة إنما هي ثاني مفعولي جعل. يريد : وما جعلنا القبلة الجهة التي كنت عليها وهي الكعبة ، لأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى بمكة إلى الكعبة ، ثم أمر بالصلاة إلى صخرة بيت المقدس بعد الهجرة تألفا لليهود ، ثم حوّل إلى الكعبة فيقول : وما جعلنا القبلة التي تحب أن تستقبلها الجهة التي كنت عليها أولاً بمكة ، يعنى : وما رددناك إليها إلا امتحانا للناس وابتلاء ﴿لِنَعْلَمَ﴾ الثابت على الإسلام الصادق فيه ، ممن هو على حرف ينكص ﴿عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ لقلقه فيرتدّ ، كقوله : ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ . الآية ويجوز أن يكون بيانا للحكمة في جعل بيت المقدس قبلته. يعنى أنّ أصل أمرك أن تستقبل الكعبة ، وأن استقبالك بيت المقدس كان أمرا عارضا لغرض. وإنما جعلنا القبلة الجهة التي كنت عليها قبل وقتك هذا . وهي بيت المقدس ، لمتحن الناس وننظر من يتبع الرسول منهم ومن لا يتبعه وينفر عنه. وعن ابن عباس رضى الله عنه : كانت قبلته بمكة بيت المقدس إلا أنه كان يجعل الكعبة بينه وبينه ^(١). فإن قلت :

كيف قال : ﴿لِنَعْلَمَ﴾ ولم يزل عالما بذلك؟ قلت : معناه : لنعلمه علما يتعلق به الجزاء ، وهو أن يعلمه موجوداً حاصلًا ونحوه : ﴿وَلَمَّا يَغْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ . وقيل : ليعلم رسول الله والمؤمنون. وإنما أسند علمهم إلى ذاته ، لأنهم خواصه وأهل الزلفى عنده. وقيل : معناه لتمييز التابع من الناكص ، كما قال : ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ فوضع العلم موضع التمييز لأنّ العلم به يقع التمييز به ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ هي إن المخففة التي تلزمها اللام الفارقة. والضمير في : (كانت) لما دل عليه قوله : ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ من الردّة ، أو التحويلة ، أو الجعلة. ويجوز أن يكون للقبلة ﴿لَكَبِيرَةً﴾ لثقلها شاقة ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ إلا على الثابتين الصادقين في اتباع الرسول الذين لطف الله بهم وكانوا أهلا للطفه ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أى ثباتكم على الايمان وأنكم لم تزلوا ولم ترتابوا ، بل شكر صنيعكم وأعدّ لكم الثواب العظيم. ويجوز أن يراد : وما كان الله ليترك تحويلكم لعلمه أن تركه مفسدة وإضاعة لإيمانكم. وقيل : من كان صلى إلى بيت المقدس قبل

. لأن المنّة عليهم في الطرفين ، ففي الأول بثبوت كونهم شهداء وفي الثاني بثبوت كونهم مشهوداً لهم بالتركية خصوصاً من هذا الرسول المعظم ولو قدم شهيداً لانتقل الغرض إلى الامتنان على النبي عليه الصلاة والسلام بأنه شهيد. وسياق الخطاب لهم والامتنان عليهم يأباه. وإنما أخذ الزمخشري الاختصاص من التقديم لأن فيه إشعار بالأهمية والعناية ، وكثيراً ما يجرى أى ذلك في أثناء كلامه ، وفيه نظر.

(١) أخرجه إسحاق وابن سعد والبخاري والطبراني من رواية مجاهد عن ابن عباس : قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بمكة نحو بيت المقدس. والكعبة بين يديه. وبعد ما هاجر إلى المدينة ستة عشر شهرا» قال البخاري لا يعلم رواه عنه إلا الأعمش ولا عنه إلا أبو عوانة.

التحويل فصلاّته غير ضائعة^(١). عن ابن عباس رضى الله عنه : لما وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الكعبة^(٢) قالوا : كيف بمن مات قبل التحويل من إخواننا فنزلت. ﴿لَرْؤُفٌ رَّحِيمٌ﴾ لا يضيع أجورهم ولا يترك ما يصلحهم. ويحكى عن الحجاج أنه قال للحسن : ما رأيك في أبي تراب ، فقرأ قوله : ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ ثم قال : وعلىّ منهم ، وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه على ابنته ، وأقرب الناس إليه ، وأحبهم. وقرئ : إلا ليعلم على البناء للمفعول. ومعنى العلم : المعرفة. ويجوز أن يكون «من» متضمنة لمعنى الاستفهام معلقا عنها العلم ، كقولك : علمت أزيد في الدار أم عمرو. وقرأ ابن أبي إسحاق (على عقبه) بسكون القاف. وقرأ اليزيدي (لكبيرة) بالرفع. ووجهها أن تكون «كان» مزيدة ، كما في قوله :

وَجِيرَانٍ لَنَا كَانُوا كِرَامَ^(٣)

والأصل : وإن هي لكبيرة ، كقولك : إن زيد لمنطلق ثم ، وإن كانت لكبيرة وقرئ : ليضيع بالتشديد ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٤٥) ﴿قَدْ نَرَى﴾ ربما نرى ، ومعناه : كثرة الرؤية^(٤). كقوله :

(١) أخرجه أبو داود والترمذي. وصححه الحاكم من رواية سماك عن عكرمة عنه.

(٢) هو في الذي بعده.

(٣) فكيف إذا مررت بدار قوم وجيران لنا كرام ، فكانوا : زائدة للدلالة على الماضي ، وأن الجيران كانوا ثم انقضوا. وكرام . بالجر . : صفة جيران

للفرزدي. يقول : فكيف يكون الحال إذا مررت بدار قوم وجيران لنا كرام ، فكانوا : زائدة للدلالة على الماضي ، وأن الجيران كانوا ثم انقضوا. وكرام . بالجر . : صفة جيران.
(٤) قال محمود رحمه الله : «معناه كثرة الرؤية ... الخ». قال أحمد رحمه الله : وهذا من المواضع التي تبالغ العرب فيها بالتعبير عن المعنى بضد عبارته. ومنه : ﴿رَبِّمَا يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والمراد كثرة مودتهم للإسلام في القيامة وعند معاينة جزائه وثوابه ، وكذلك : ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ ومراده إظهار عنادهم بأن علمهم برسالته يقينى مؤكد ، ومع ذلك يكفرون به.

قَدْ أَتَرَكُ الْقِرْنَ مُصَفَّرًا أَنَامِلُهُ^(١)

﴿تَقَلُّبٌ وَجْهَكَ﴾ تردّد وجهك وتصرف نظرك في جهة السماء. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوقع من ربه أن يحوِّله إلى الكعبة ، لأنها قبلة أبيه إبراهيم ، وأدعى للعرب إلى الإيمان لأنها مفخرتهم ومزارهم ومطافهم ، ولمخالفة اليهود فكان يراعى نزول جبريل عليه السلام والوحى بالتحويل ﴿فَلَنُؤَلِّينَكَ﴾ فلنعطينك ولنمكننك من استقبالها ، من قولك : وليته كذا. إذا جعلته والياً له ، أو فلنجعلنك تلى سمتها دون سمت بيت المقدس ﴿تَرْضَاهَا﴾ تحبها وتميل إليها لأغراضك الصحيحة التي أضمرتها ووافقت مشيئة الله وحكمته ﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ نحوه. قال :

وَأُظْعَنُ بِالْقَوْمِ شَطْرَ الْمُلُوكِ

وقرأ أبيّ : تلقاء المسجد الحرام. وعن البراء بن عازب قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً ثم وجه إلى الكعبة^(٢) وقيل : كان ذلك في رجب بعد زوال الشمس قبل قتال بدر بشهرين ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في مسجد بنى سلمة وقد صلى بأصحابه ركعتين من صلاة الظهر فتحول في الصلاة واستقبل الميزاب ، وحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال ، فسمى المسجد مسجد القبلتين^(٣). و ﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ﴾ نصب على الظرف ، أى اجعل تولية الوجه تلقاء المسجد أى في جهته وسمته^(٤) لأن

(١) قد أتترك القيرن مصفراً أنامله كـ أن أثوابه مجت بفرصاد

أو جرتـه ونواصـي الخيـل معلـمة سـمـر أعاملـها مـن خلفـه نادى

للهنلى. وقيل لعبيد بن الأبرص. وقد للتكثير والترك معنى التصيير. واصفرار الأنامل : كناية عن الموت. والفرصاد : ماء التوت ، وهو أحمر. والايجار : السقي كرها. ونواصي الخيل : شعور رؤوسها. والمعلمة : المشهورة بعلامات. والسمراء : القناة. وعاملها في الأصل : هو ما يلي السنان منها ، فاستعاره لما يأتى مبالغة. ويقال : نأذته الداهية نأذاً ، إذا فدحته وبلغت منه ، وخفف الند هنا بإبدال الهمزة ألفاً ، أى كثيراً ما أترك قرينى في الشجاعة قتيلاً ملطخة أثوابه بدمه أسقيته رحماً عاملها من خلفها شدة ضربي. ويروى : ثادى ، بالمثلثة. والثاد . بالهمز وقد يخفف . : الندى والمطر. وأما الثادى . اسم فاعل . فهو السحاب الكثير المطر ، أى سقيته ، والحال أن نواصي الخيل مسومة رحماً عاملها من خلفها شدة ضربي الشبيهة بالندى أو بالسحاب ، وذلك مناسب للإيجاز. ويروى : سمر ، كحمر ، فهو خبر ثان. وأعاملها : مضارع. وناد : مفعول أو جرتـه وفيه نوع التهكم. وروى

لـ زهير تكميـل البيـت الأول بقولـه يميـد في الـمرمح مـيـد المـسائح الأسـن

أى المنتن. يقال : أسن الماء فهو آسن ، بالمد وتركه ، إذا أنتن.

(٢) متفق عليه من طريق أبى إسحاق عنه. وفيه «وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت . الحديث» وفي رواية لابن حبان «وكان يحب أن يحول نحو البيت».

(٣) أخرجه الواقدي في المغازي ونقله عن ابن سعد ثم أبو الفتح اليعمرى

(٤) قال محمود رحمه الله : «الشطر النحو والسمت ... الخ». قال أحمد رحمه الله : وقد نقل أصحابنا المالكية

استقبال عين القبلة فيه حرج عظيم على البعيد. وذكر المسجد الحرام دون الكعبة : دليل في أنّ الواجب مراعاة الجهة دون العين ﴿لِيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ أن التحويل إلى الكعبة هو الحق لأنه كان في بشارة أنبيائهم برسول الله أنه يصلى إلى القبلتين ﴿يَعْمَلُونَ﴾ قرئ بالياء والتاء ﴿مَا تَبِعُوا﴾ جواب القسم المحذوف سدّ مسدّ جواب الشرط. ﴿بِكُلِّ آيَةٍ﴾ بكل برهان قاطع أن التوجه إلى الكعبة هو الحق ، ما تبعوا ﴿قِبَلَتَكَ﴾ لأن تركهم اتباعك ليس عن شبهة تزيلها بإيراد الحجة ، إنما هو عن مكابرة وعناد مع علمهم بما في كتبهم من نعتك أنك على الحق ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبَلَتِهِمْ﴾ حسم لأطماعهم إذ كانوا ماجوا في ذلك وقالوا : لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن يكون صاحبنا الذي ننتظره وطمعوا في رجوعه إلى قبلتهم. وقرئ (بتابع قبلتهم) على الإضافة ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبَلَةَ بَعْضٍ﴾ يعنى أنهم مع اتفاقهم على مخالفتك مختلفون في شأن القبلة لا يرجى اتفاقهم ، كما لا ترجى موافقتهم لك. وذلك أن اليهود تستقبل بيت المقدس ، والنصارى مطلع الشمس. أخبر عز وجل عن تصلب كل حزب فيما هو فيه وثباته عليه ، فالحق منهم لا يزل عن مذهبه لتمسكه بالبرهان ، والمبطل لا يقلع عن باطله لشدة شكيمته في عناده. وقوله ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ بعد الإفصاح عن حقيقة حاله المعلومة عنده في قوله وما أنت بتابع قبلتهم كلام وارد على سبيل الفرض والتقدير ، بمعنى : ولئن اتبعتهم مثلاً بعد وضوح البرهان والإحاطة بحقيقة الأمر ﴿إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ المرتكبين الظلم الفاحش. وفي ذلك لطف للسامعين وزيادة تحذير. واستفظاع لحال من يترك الدليل بعد إنارته ويتبع الهوى ، وتهيج وإلهاب للثبات على الحق. فإن قلت : كيف قال : ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ﴾ ^(١) ﴿قِبَلَتِهِمْ﴾ ولهم قبلتان

. خلافاً عن المذهب في الواجب فقليل : الجهة. وقيل : العين ، هذا مع البعد. وأما حيث تشاهد الكعبة في المسجد الحرام فمن خرج عن السميت ثم لم تصح صلاته قولاً واحداً ، ثم لهم على كل واحد من القولين إشكال. أما على قول العين فيلزم أن لا تصح صلاة الصف المستقيم المستطيل زيادة على مسامحة الكعبة شرفها الله تعالى ، لأننا نعلم بالضرورة. وإن لم نشاهد. أن بعضهم يصلى إلى غير عينها ، إذ لا يفي سميتها بذلك على هذا التقدير. لكن الجواز في مثل هذا مع البعد متفق عليه. وأما على قول الجهة فيلزم تجويز صلاة الكائن في الشمال مثلاً إلى الجهات الثلاث ، لأنها كلها جهات الكعبة ، والسميت غير مراعي على هذا المذهب ، وإنما جاء هذا الخط من عدم التمييز بين مراعاة الجهة والسميت ، ولقد ميزهما أبو حامد بمثال هندسي في كتاب الأحياء فلا تطول بذكره. والتحقيق عند الفتوى : أن المعتبر مع البعد الجهة لا السميت.

(١) قال محمود رحمه الله : «إن قلت لم جاء على التوحيد وهما قبلتان ... الخ»؟ قال أحمد رحمه الله : ومثل هذا ما أجيب به عن قوله تعالى : ﴿لَنْ نَنْصُرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ مع أنه متعدد وهو المن والسلوى ، فقليل إنهم أرادوا أنهما من طعام الترفه ، وآثروا طعام الفلاحة والأجلاف ، فلما اتحد الطعامان المذكوران في الرفاهية جعلوهما طعاماً واحداً. وهذا المعنى في إنكار الطعام أبلغ ، لأنهم لم يكتفوا في إنكاره بقولهم ﴿لَنْ نَنْصُرَ عَلَى طَعَامٍ﴾ حتى أكدوه بقولهم ﴿وَاحِدٍ﴾ وللزحخشري عنه جواب آخر سلف بمكانه.

لليهود قبلة وللنصارى قبلة؟ قلت : كلتا القبلتين باطلة مخالفة لقبلة الحق ، فكانتا بحكم الاتحاد في البطلان قبلة واحدة.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٤٦) **الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ** (١٤٧) **وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيُهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** (١٤٨)

﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم معرفة جلية يميزون بينه وبين غيره بالوصف المعين المشخص ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ لا يشتبه عليهم أبناؤهم وأبناء غيرهم. وعن عمر رضى الله عنه أنه سأل عبد الله بن سلام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنا أعلم به منى بابني. قال : ولم؟ قال : لأنى لست أشك في محمد أنه نبي. فأما ولدى ، فلعل والدته خانت ، فقبل عمر رأسه. وجاز الإضمار وإن لم يسبق له ذكر لأن الكلام يدل عليه ولا يلتبس على السامع. ومثل هذا الإضمار فيه تفخيم وإشعار بأنه لشهرته وكونه علماً معلوماً بغير إعلام. وقيل الضمير للعلم أو القرآن أو تحويل القبلة. وقوله : ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ يشهد للأول وينصره الحديث عن عبد الله بن سلام. فإن قلت : لم اختص الأبناء^(١)؟ قلت : لأنّ الذكور أشهر وأعرف ، وهم لصحبة الآباء ألزم ، وبقلوبهم ألصق. وقال ﴿فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ استثناء لمن آمن منهم ، أو لجهاهم الذين قالوا : يقال فيهم : ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾. ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ يحتمل أن يكون الحق خبر مبتدأ محذوف. أى هو الحق. أو مبتدأ خبره ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ وفيه وجهان : أن تكون اللام للعهد ، والإشارة إلى الحق الذي عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو إلى الحق الذي في قوله ليكتُمون الحق. أى : هذا الذي يكتُمونه هو الحق من ربك ، وأن تكون للجنس على معنى الحق من الله لا من غيره. يعنى أن الحق ما ثبت أنه من الله كالذي أنت عليه ، وما لم يثبت أنه من الله كالذي عليه أهل الكتاب فهو الباطل. فإن قلت : إذا جعلت الحق خبر مبتدأ فما محل من ربك؟ قلت : يجوز أن يكون خبراً بعد خبر ، وأن يكون حالاً. وقرأ على رضى الله عنه : الحق من ربك.

(١) قال محمود رحمه الله : «إن قلت لم خص الأبناء ولم يقل أولادهم ... الخ». قال أحمد رحمه الله : بنى كلامه هذا على أن الإناث لا يدخلن في لفظ الأبناء كما يدخلن في لفظ الأولاد ، وليس الأمر كذلك ، بل اللفظان سواء في شمول الإناث ، ولذلك يدخلن في لفظ الواقف إذا وقف على بنيه وبنى بنيه ، كما يدخلن في لفظ الأولاد. هذا مذهب الامام مالك رضى الله عنه.

على الإبدال من الأول ، أى يكتمون الحق ، الحق من ربك ، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين في كتمانهم الحق مع علمهم ، أو في أنه من ربك ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من أهل الأديان المختلفة ﴿وَجْهَةٌ﴾ قبله. وفي قراءة أبيّ : ولكل قبله ﴿هُوَ مُوَلِّيْهَا﴾ وجهه ، فحذف أحد المفعولين. وقيل هو الله تعالى ، أى الله مولئها إياه. وقرئ : ﴿وَلِكُلٍّ وَجْهَةٌ﴾ على الإضافة. والمعنى وكل وجهة الله مولئها ، فزيدت اللام لتقدم المفعول كقولك : لزيد ضربت ولزيد أبوه ضاربه. وقرأ ابن عامر : هو مولأها ، أى هو مولى تلك الجهة وقد وليها. والمعنى : لكل أمة قبله تتوجه إليها ، منكم ومن غيركم ﴿فَاسْتَبِقُوا﴾ أنتم ﴿الْخَيْرَاتِ﴾ واستبقوا إليها ^(١) غيركم من أمر القبلة وغيره. ومعنى آخر : وهو أن يراد : ولكل منكم يا أمة محمد وجهة أى جهة يصلى إليها جنوبية أو شمالية أو شرقية أو غربية فاستبقوا الخيرات ﴿أَيَّنْ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ للجزاء من موافق ومخالف لا تعجزونه. ويجوز أن يكون المعنى : فاستبقوا الفاضلات من الجهات وهي الجهات المسامطة للكعبة وإن اختلفت ، أينما تكونوا من الجهات المختلفة يأت بكم الله جميعا يجمعكم ويجعل صلواتكم كأنها إلى جهة واحدة ، وكأنكم تصلون حاضري المسجد الحرام.

﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٤٩) ﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ﴾

(١) قوله «واستبقوا إليها» لعله واسبقوا. (ع)

الْحَرَامَ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمْنِيَّ عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠) كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُفْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (١٥٤) ﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ أى ومن أى بلد خرجت للسفر ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ إذا صليت ﴿وَإِنَّهُ﴾ وإن هذا المأمور به. وقرئ (يعملون) بالتاء والياء. وهذا التكرير لتأكيد أمر القبلة وتشديده ، لأنّ النسخ من مظانّ الفتنة والشبهة وتسويل الشيطان والحاجة إلى التفصّل بينه وبين البداء ، فكرر عليهم ليثبتوا ويعزموا ويحدّوا ، ولأنه نيط بكل واحد ما لم ينط بالآخر فاختلفت فوائدها ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ استثناء من الناس ، ومعناه ، لئلا يكون حجة لأحد من اليهود إلا للمعاندين منهم القائلين : ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلا إلى دين قومهم وحباً لبلده ، ولو كان على الحق للزم قبلة الأنبياء. فإن قلت : أى حجة كانت تكون للمنصفين منهم لو لم يحول حتى احترز من تلك الحجة ولم يبال بحجة المعاندين؟ قلت : كانوا يقولون ماله لا يحول إلى قبلة أبيه إبراهيم كما هو مذكور في نعته في التوراة؟ فإن قلت : كيف أطلق اسم الحجة على قول المعاندين؟ قلت : لأنهم يسوقونه سياق الحجة. ويجوز أن يكون المعنى : لئلا يكون للعرب عليكم حجة واعتراض في ترككم التوجه إلى الكعبة التي هي قبلة إبراهيم وإسماعيل أبي العرب ، إلا الذين ظلموا منهم وهم أهل مكة حين يقولون : بدا له فرجع إلى قبلة آبائه ، ويوشك أن يرجع إلى دينهم. وقرأ زيد بن على رضى الله عنهما : ألا الذين ظلموا منهم ، على أنّ ألا للتنبيه ووقف على حجة ، ثم استأنف منبها ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ فلا تخافوا مطاعنهم في قبلتكم فإنهم لا يضرونكم ﴿وَإِخْشَوْنِي﴾ فلا تخالفوا أمرى وما رأيته مصلحة لكم. ومتعلق اللام محذوف ، معناه : ولا تمانى النعمة عليكم وإرادتى اهتداءكم أمرتكم بذلك ؛ أو يعطف على علة مقدّرة ، كأنه قيل. واخشوني لأوفقكم ولأتمّ نعمتي عليكم. وقيل : هو معطوف على : ﴿لِئَلَّا يَكُونَ﴾. وفي الحديث «تمام النعمة دخول الجنة»^(١) وعن على رضى الله عنه «تمام النعمة الموت على الإسلام» ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا﴾ إمّا أن يتعلق بما قبله ، أى : ولأتمّ نعمتي عليكم في الآخرة بالثواب كما أتممتها عليكم في الدنيا بإرسال الرسول ، أو بما بعده : أى كما ذكرتكم بإرسال الرسول ﴿فَادْكُرُونِي﴾ بالطاعة ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالثواب ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ ما أنعمت به عليكم ﴿وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ ولا تجحدوا نعمائي. ﴿أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ هم أموات بل هم أحياء ﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ كيف حالهم في حياتهم. وعن الحسن : أنّ الشهداء أحياء عند الله تعرض أرزاقهم على أرواحهم ، فيصل إليهم الروح والفرح ، كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدوة وعشيا ، فيصل إليهم الوجع. وعن مجاهد :

يرزقون ثمر الجنة ويجدون ريحها وليسوا فيها. وقالوا : يجوز أن يجمع الله من أجزاء الشهيد جملة فيحييها ويوصل إليها النعيم وإن كانت في حجم الذرة. وقيل : نزلت في شهداء بدر وكانوا أربعة عشر.

(١) أخرجه أحمد والترمذي والبزار من حديث معاذ وسيأتي في سورة الرحمن.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (١٥٧)

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ ولنصيبنكم بذلك إصابة تشبه فعل المختبر لأحوالكم ، هل تصبرون وتثبتون على ما أنتم عليه من الطاعة وتسلمون لأمر الله وحكمه أم لا؟ ﴿بَشْيْءٍ﴾ بقليل من كل واحد من هذه البلايا وطرف منه ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ المسترجعين عند البلاء ؛ لأنَّ الاسترجاع تسليم وإذعان. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبتَه وأحسن عقباه وجعل له خلفاً صالحاً يرضاه»^(١). وروى أنه طفى سراج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «إنا لله وإنا إليه راجعون» فقليل : أمصيبة هي؟ قال «نعم كل شيء يؤذى المؤمن فهو له مصيبة»^(٢) وإنما قلل في قوله : ﴿بَشْيْءٍ﴾ ليؤذن أن كل بلاء أصاب الإنسان وإن جل ففوقه ما يقل إليه ، وليخفف عليهم ويربهم أن رحمته معهم في كل حال لا تزيلهم وإنما وعدهم ذلك قبل كونه ليوطنوا عليه نفوسهم. ﴿وَنَقْصٍ﴾ عطف على : ﴿بَشْيْءٍ﴾ أو على الخوف ، بمعنى : وشيء من نقص الأموال. والخطاب في : ﴿وَبَشِّرِ﴾ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو لكل من يتأتى منه البشارة. وعن الشافعي رحمه الله في الخوف : خوف الله. والجوع : صيام شهر رمضان ؛ والنقص من الأموال : الزكوات والصدقات ، ومن الأنفس : الأمراض ، ومن الثمرات ؛ موت الأولاد^(٣). وعن النبي صلى الله

(١) أخرجه الطبري والطبراني والبيهقي في الشعب من رواية على بن أبي طلحة عن ابن عباس ، قال في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ﴾ الآية : إن المؤمن إذا أسلم لأمر الله واسترجع عند المصيبة أحرز ثلاث خصال من الخير : الصلاة من الله ، والرحمة. وتحقيق سبيل الهدى. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من استرجع ... فذكره.

(٢) أخرجه أبو داود في المراسيل من حديث عمران القصير قال طفى مصباح النبي صلى الله عليه وسلم فاسترجع فقالت عائشة رضى الله عنها : إنما هذا مصباح. فقال : كل ما ساء المؤمن فهو مصيبة.

(٣) قال محمود رحمه الله : «وعن الشافعي رضى الله عنه : الخوف خوف الله ، والجوع : صيام شهر رمضان ، والنقص من الأموال : الزكوات ، ومن الأنفس : الأمراض ، ومن الثمرات : موت الأولاد» قال أحمد : وفي تفسيره هذا نظر ، لأن هذا الابتلاء موعود به في المستقبل ، مذكور قبل وقوعه توطنا عليه عند الوقوع ، ولعله ما من بلية ذكرها إلا وقد تقدمت لهم قبل نزول الآية ، إذ الخوف من الله تعالى لم يزل مشحونا في قلوب المؤمنين ، ويعد أن يعبر عن الصدقة بالنقص وقد عبر عنها الشرع بالزكاة التي هي النمو ضد النقص وورد. ما نقص مال من صدقة» ويمكن أن يقال هي نقص حساً ؛ وإنما سميت زكاة باعتبار ما يؤول إليه حال القيام بها من النمو فالعوض المرجو من كرم الله خلف .

عليه وسلم ، إذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة : أقبضتم ولد عبدي؟ فيقولون : نعم ، فيقول : أقبضتم ثمرة قلبه؟ فيقولون : نعم ، فيقول الله تعالى : ما ذا قال عبدي؟ فيقولون : حمدك واسترجع ، فيقول الله تعالى : ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد ^(١). والصلاة : الحنو والتعطف ، فوضعت موضع الرأفة وجمع بينها وبين الرحمة. كقوله تعالى : ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ ﴿لِرُؤْفٍ رَحِيمٍ﴾. والمعنى : عليهم رأفة بعد رأفة. ورحمة أى رحمة. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ لطريق الصواب حيث استرجعوا وسلموا لأمر الله.

﴿إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٥٨)

والصفا والمروة : علمان للجبلين ، كالصمان والمقطم ، والشعائر : جمع شعيرة وهي العلامة ، أى من أعلام مناسكه ومتعبداته : والحج : القصد. والاعتمار : الزيارة ، فعلمنا على قصد البيت وزيارته للنسكين المعروفين ، وهما في المعاني كالنجم والبيت في الأعيان. وأصل ﴿يَطَّوَّفُ﴾ يتطوَّف فأدغم. وقرئ (أن يطوف) من طاف. فإن قلت : كيف قيل إنهما من شعائر الله ثم قيل لا جناح عليه أن يطوف بهما؟ قلت : كان على الصفا أساف ، وعلى المروة نائلة ، وهما صنمان ، يروى أنهما كانا رجلا وامرأة زنيا في الكعبة ، فمسخا حجرتين فوضعا عليهما ليعتبر بهما ، فلما طالت المدّة عُبدَا من دون الله ، فكان أهل الجاهلية إذا سعوا مسحوهما ، فلما جاء الإسلام وكسرت الأوثان كره المسلمون الطواف بينهما لأجل فعل الجاهلية وأن لا يكون عليهما جناح في ذلك ، فرفع عنهم الجناح. واختلف في السعى ، فمن قائل : هو تطوُّع بدليل رفع الجناح وما فيه من التخيير بين الفعل والترك ، كقوله : ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ وغير ذلك ، ولقوله ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ كقوله : ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾. ويروى ذلك عن أنس وابن عباس وابن الزبير ، وتنصره قراءة ابن مسعود : فلا جناح عليه أن لا يطوَّف بهما. وعن أبي حنيفة رحمه الله أنه واجب وليس بركن وعلى تاركه دم. وعند الأولين لا شيء عليه. وعند مالك والشافعي : هو ركن ، لقوله عليه السلام «اسعوا فإن الله كتب عليكم السعى» ^(٢) وقرئ : ومن يطوِّع بمعنى : ومن يتطوِّع ، فأدغم.

. فلما ذكرها الله تعالى في سياق الابتلاء الموعود بها عبر عنها بالزكاة تسهيلا لخراجها على المكلف لأنه إذا استشعر العوض من الله تعالى ونمو ماله بذلك ، هان عليه بذلها وسمحت نفسه لذلك.

(١) أخرجه الترمذي وقال : حسن غريب. وأخرجه أحمد وغيره من حديث. وصححه ابن حبان. ورواه البيهقي في الشعب مرفوعا وموقوفا.

(٢) أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس رضى الله عنهما : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عام حج عن .

وفي قراءة عبد الله : ومن يتطوع بخير .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ (١٥٩)

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ من أحبار اليهود ﴿مَا أَنْزَلْنَا﴾ في التوراة ﴿مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ من الآيات الشاهدة على أمر محمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَالْهُدَى﴾ والهداية بوصفه إلى اتباعه والإيمان به ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ﴾ ولخصناه ﴿لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾ في التوراة ، لم ندع فيه موضع إشكال ولا اشتباه على أحد منهم ، فعمدوا إلى ذلك المبين الملخص فكتموه ولبسوا على الناس ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ الذين يتأتى منهم اللعن عليهم وهم الملائكة والمؤمنون من الثقلين.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٦٠)

﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أفسدوا من أحوالهم ، وتداركوا ما فرط منهم ﴿وَبَيَّنُّوا﴾ ما بينه الله في كتابهم فكتموه ، أو بينوا للناس ما أحدثوه من توبتهم ليمحوا سمة الكفر عنهم ، ويعرفوا بضد ما كانوا يعرفون به ، ويقتدى بهم غيرهم من المفسدين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (١٦٢)

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعنى الذين ماتوا من هؤلاء الكافرين ولم يتوبوا ، ذكر لعنتهم أحياء ثم لعنتهم أمواتاً. وقرأ الحسن : والملائكة والناس أجمعون ، بالرفع عطفاً على محل اسم الله ، لأنه

. الرمل فذكره. رواه الشافعي وأحمد وإسحاق والطبراني والدارقطني والحاكم من رواية عبد الله بن المؤمل عن عمر بن عبد الرحمن ابن مخيس عن عطاء بن أبي رباح عن حبيبة بنت أبي تجرة قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه ، وهو وراءهم يسعى حتى إنى لأرى ركبتيه من شدة السعى ، وهو يقول «اسعوا فان الله كتب عليكم السعى» وعبيد الله ضعيف. وأخرجه الحاكم من طريق آخر عن عبد الله بن شبيه عن جدته صفية بنت شيبة عن حبيبة بنت أبي تجرة. قالت : اطلعت بكرة بين الصفا والمروة فأشرفت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا هو يسعى ، ويقول لأصحابه «اسعوا فان الله كتب عليكم السعى» وأخرجه الطبراني والبيهقي من رواية ابن عيينة عن المثني بن الصباح عن المغيرة بن حكيم ، عن صفية عن تملك العبدرية قالت نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا في غرفة لي بين الصفا والمروة وهو يقول : «أيها الناس إن الله كتب عليكم السعى فاسعوا» والمثنى ضعيف. وأخرجه الطبراني من رواية حميد بن عبد الرحمن عن المثني بن الصباح فلم يذكر تملك.

فاعل في التقدير ، كقولك : عجبت من ضرب زيد وعمرو ، تريد من أن ضرب زيد وعمرو ، كأنه قيل : أولئك عليهم أن لعنهم الله والملائكة. فإن قلت : ما معنى قوله ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وفي الناس المسلم والكافر. قلت : أراد بالناس من يعتدّ بلعنه وهم المؤمنون. وقيل : يوم القيامة يلعن بعضهم بعضاً ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ في اللعنة. وقيل في النار إلا أنها أضمرت تفخيماً لشأنها وتهويلاً ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ من الإنظار أى لا يمهلون ولا يؤجلون ، أو لا ينتظرون ليعتدروا. ولا ينظر إليهم نظر رحمة.

﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (١٦٣)

﴿إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ فرد في الإلهية لا شريك له فيها ولا يصح أن يسمى غيره إلهاً. و ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير للوحدانية بنفي غيره وإثباته ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ المولى لجميع النعم أصولها وفروعها ، ولا شيء سواه بهذه الصفة ، فإن كل ما سواه إمّا نعمة وإمّا منعم عليه. وقيل كان للمشركين حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً ، فلما سمعوا بهذه الآية تعجبوا وقالوا : إن كنت صادقاً فأت بآية نعرف بها صدقك فنزلت.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٦٤)

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ واعتقائهما لأن كل واحد منهما يعقب الآخر ، كقوله : ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ ﴿بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ بالذي ينفعهم مما يحمل فيها أو ينفع الناس. فإن قلت : قوله ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ عطف على أنزل أم أحيا؟ قلت : الظاهر أنه عطف على أنزل داخل تحت حكم الصلة ، لأن قوله : ﴿فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ عطف على أنزل ، فاتصل به وصاراً جميعاً كالشيء الواحد ، فكأنه قيل : وما أنزل في الأرض من ماء وبث فيها من كل دابة. ويجوز عطفه على أحيا على معنى فأحيا بالمطر الأرض وبث فيها من كل دابة ؛ لأنهم ينمون بالخصب ويعيشون بالحيا^(١). ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ﴾ في مهاجها : قبولا ، ودبورا ، وجنوبا ، وشمالا. وفي

(١) قوله «ويعيشون بالحيا» في الصحاح : الحيا . مقصور . : المطر والخصب. (ع)

أحوالها : حارة ، وباردة ، وعاصفة ، ولينة ، وعقما ، ولواقع. وقيل تارة بالرحمة ، وتارة بالعذاب **﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ﴾** سخر للرياح تقلبه في الجو بمشيئة الله يحطر حيث شاء **﴿لَا يَأْتِ لِقَوْمٍ يُعْقِلُونَ﴾** ينظرون بعيون عقولهم ويعتبرون ، لأنها دلائل على عظيم القدرة وباهر الحكمة. وعن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم «ويل لمن قرأ هذه الآية فمخَّ بها» أى لم يتفكر فيها ولم يعتبر بها. وقرئ : والفلك ، بضم تين. وتصريف الريح ، على الأفراد **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾** (١٦٥) **﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾** (١٦٦) **﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأْنَا كَذَلِكَ إِيَّاهُمْ أَعْمَاهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾** (١٦٧)

﴿أَنذَاداً﴾ أمثالا من الأصنام. وقيل من الرؤساء الذين كانوا يتبعونهم ويطيعونهم وينزلون على أوامرهم ونواهيهم. واستدل بقوله **﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾**. ومعنى : **﴿يُحِبُّوهُمْ﴾** يعظمونهم ويخضعون لهم تعظيم المحبوب **﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾** كتعظيم الله ^(١) والخضوع له ، أى كما يحب الله تعالى ، على أنه مصدر من المبنى للمفعول. وإنما استغنى عن ذكر من يحبه لأنه غير ملبس. وقيل : كحبهم الله ، أى يسوون بينه وبينهم في محبتهم ، لأنهم كانوا يقرون بالله ويتقربون إليه ، فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين **﴿أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾** لأنهم لا يعدلون عنه إلى غيره ؛ بخلاف المشركين فإنهم يعدلون عن أندادهم إلى الله عند الشدائد فيفزعون إليه ويخضعون له ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه ، فيقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، ويعبدون الصنم زماناً ثم يرفضونه إلى غيره ، أو يأكلونه كما أكلت باهلة إلهها من حيس عام المجاعة **﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾** إشارة إلى متخذي الأنداد أى لو يعلم هؤلاء الذين ارتكبوا الظلم العظيم بشركهم أن القدرة كلها لله على كل شيء من العقاب والثواب دون أندادهم ويعلمون شدة عقابه للظالمين إذا عاينوا العذاب يوم القيامة ، لكان منهم

(١) قال محمود رحمه الله : «يحبونهم كحب الله : يعظمونهم كما يعظم الله ... الخ» قال أحمد : فالمصدر على هذا مضاف إلى المفعول كالأول ، ولكن هذا الفاعل مسمى وفعله مبنى للفاعل عند فكه من السبك.

ما لا يدخل تحت الوصف من الندم والحسرة ووقوع العلم بظلمهم وضلالهم ، فحذف الجواب كما في قوله : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا﴾ ، وقولهم : لو رأيت فلانا والسياط تأخذه. وقرئ : ولو ترى ، بالتاء على خطاب الرسول أو كل مخاطب ، أى ولو ترى ذلك لرأيت أمراً عظيماً. وقرئ : إذ يرون ، على البناء للمفعول. وإذ في المستقبل كقوله : ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾. ﴿إِذْ تَبَرَّأَ﴾ بدل من ﴿إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ أى تبرأ المتبوعون وهم الرؤساء من الأتباع. وقرأ مجاهد الأول على البناء للفاعل والثاني على البناء للمفعول ، أى تبرأ الأتباع من الرؤساء ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ﴾ الواو للحال ، أى تبرؤا في حال رؤيتهم العذاب ﴿وَتَقَطَّعَتْ﴾ عطف على تبرأ. و ﴿الْأَسْبَابُ﴾ الوصل التي كانت بينهم : من الاتفاق على دين واحد ، ومن الأنساب ، والمحاب ، والأتباع ، والاستتباع ، كقوله : ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ (لو) في معنى التمني. ولذلك أجيب بالفاء الذي يجاب به التمني ، كأنه قيل : ليت لنا كربة فتتبرأ منهم (كذلك) مثل ذلك الإراءة الفطيع ﴿يُزَيِّرُهُمُ اللَّهُ أَعْمَاهُمْ حَسْرَاتٍ﴾ أى ندامات وحسرات ، ثالث مفاعيل أرى : ومعناه أنّ أعمالهم تنقلب حسرات عليهم فلا يرون إلا حسرات مكان أعمالهم ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ﴾ هم بمنزلته في قوله :

هُمْ يَفْرَشُونَ اللَّيْلَ كُلَّ طِمْرَةٍ^(١)

في دلالة على قوّة أمرهم فيما أسند إليهم لا على الاختصاص.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

(١) قال محمود رحمه الله : «هم هاهنا بمنزلته في قوله هم يفرشون ... الخ» قال أحمد رحمه الله : أشد ما أخفى في هذه الكلمات معتقداً ورب صدره كلمات فهو ينفس عن نفسه خناق الكتمان بما ينفثه منه في بعض الأحيان ، وكشف ذلك أن يقال : لما استشعر دلالة الآية لأهل السنة على أنه لا يخلد في النار إلا الكافر. وأما العاصي . وإن أصر على الكبائر . فتوجيهه يخرج منه ولا بد وفاء بالوعد. ووجه الدلالة منها على ذلك أنه صدر الجملة بضمير مبتدأ ، ومثل هذا النظم يقتضى الاختصاص والحصر لغة. وستمز للزخشي موضع يستدل فيها على الحصر بذلك ، فقد قال في قوله تعالى : ﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ أن معناه لا ينشر إلا هم ، وأن المنكر عليهم ما يلزمهم من حصر الألوهية فيهم. وكذلك يقول في أمثال قولهم ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أن معناه الحصر أنه لا يوقن بالآخرة إلا هم ، فإذا ابتنى الأمر على ذلك لزم حصر نفى الخروج من النار في هؤلاء الكفار دون غيرهم من الموحدين. لكن الزخشي يأبى ذلك ، فيعمل الحال من معارضة هذه الفائدة بفائدة تتم له على القاعدة ، فيجعل الضمير المذكور يفيد تأكيد نسبة الخلود إليهم لاختصاصه بهم ، وهم عنده بهذه المثابة ، لأن العصاة وإن خلدوا على زعمه إلا أن الكفار أحق بالخلود وأدخل في استحقاقه منهم. فسبحان من امتحنه بهذه المحنة على حذقه وفطنته. والله ولى التوفيق.

﴿حَلَالًا﴾ مفعول كلوا ، أو حال مما في الأرض ﴿طَيِّبًا﴾ طاهرا من كل شبهة ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ فتدخلوا في حرام ، أو شبهة ، أو تحريم حلال ، أو تحليل حرام. و «من» للتبعيض ؛ لأن كل ما في الأرض ليس بمأكول. وقرئ خطوات بضمتين ، وخطوات بضمة وسكون ، وخطوات بضمتين وهمزة جعلت الضمة على الطاء كأنها على الواو ؛ وخطوات بفتحيتين ، وخطوات بفتحة وسكون. والخطوة : المرة من الخطو. والخطوة : ما بين قدمي الخاطي. وهما كالغرفة والغرفة ، والقبضة والقبضة. يقال : اتبع خطواته ، ووطئ على عقبه. إذا اقتدى به واستن بسنته ﴿مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة لا خفاء به ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ﴾ بيان لوجوب الانتهاء عن اتباعه وظهور عداوته. أى لا يأمركم بخير قط إنما يأمركم ﴿بِالسُّوءِ﴾ بالقبيح ﴿وَالْفَحْشَاءِ﴾ وما يتجاوز الحد في القبح من العظائم ، وقيل : السوء ما لا حد فيه. والفحشاء : ما يجب الحد فيه ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهو قولكم : هذا حلال وهذا حرام ، بغير علم. ويدخل فيه كل ما يضاف إلى الله تعالى مما لا يجوز عليه. فإن قلت : كيف كان الشيطان أمرا مع قوله : ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾؟ قلت : شبه تزيينه وبعثه على الشر بأمر الأمر ، كما تقول : أمرتني نفسي بكذا. وتحتة رمز إلى أنكم منه بمنزلة المأمورين لطاعتكم له وقبولكم وسأوسه ؛ ولذلك قال : ﴿وَلَا مَرَهُمْ فَلْيُبْتِئَنَّ أَذَانُ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ وقال الله تعالى : ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ لما كان الإنسان يطيعها فيعطيهما ما اشتته.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُوهُمْ لَا يَفْقَهُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١٧٠)

﴿هُمْ﴾ الضمير للناس. وعدل بالخطاب عنهم على طريقة الالتفات للنداء على ضلالهم ، لأنه لا ضال أضل من المقلد ، كأنه يقول للعقلاء : انظروا إلى هؤلاء الحمقى ما ذا يقولون. قيل : هم المشركون. وقيل : هم طائفة من اليهود دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فقالوا : ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ فإنهم كانوا خيرا منا وأعلم. وألفينا : بمعنى وجدنا ، بدليل قوله : ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾. ﴿أَوَّلُوهُمْ﴾ الواصلون للحال ، والهمزة بمعنى الرد والتعجب ، معناه : أيتبعوهم ولو كان آبؤهم لا يعقلون شيئا من الدين ولا يهتدون للصواب.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بَكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٧١)

لا بدّ من مضاف محذوف تقديره. ومثل داعي الذين كفروا ﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ﴾ أو : ومثل الذين كفروا كبهائم الذي ينعق. والمعنى : ومثل داعيهم إلى الإيمان. في أنهم لا يسمعون من الدعاء إلا جرس النغمة ودوى الصوت ، من غير إلقاء أذهان ولا استبصار. كمثال الناعق بالبهائم ، التي لا تسمع إلا دعاء الناعق ونداء الذي هو تصويت بها وزجر لها ، ولا تفقه شيئا آخر ولا تعي ، كما يفهم العقلاء ويعون. ويجوز أن يراد بما لا يسمع : الأصم الأصلح ، الذي لا يسمع من كلام الرافع صوته بكلامه إلا النداء والتصويت لا غير ، من غير فهم للحروف. وقيل معناه : ومثلهم في اتباعهم آباءهم وتقليدهم لهم ، كمثال البهائم التي لا تسمع إلا ظاهر الصوت ولا تفهم ما تحته ، فكذلك هؤلاء يتبعونهم على ظاهر حالهم ولا يفقهون أهم على حق أم باطل؟ وقيل معناه : ومثلهم في دعائهم الأصنام كمثال الناعق بما لا يسمع ، إلا أنّ قوله ﴿إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ لا يساعد عليه ، لأنّ الأصنام لا تسمع شيئا. والنعيق : التصويت. يقال : نعق المؤذن ، ونعق الراعي بالضأن. قال الأخطل :

فَـانْعَقُ بِضَـأْنِكَ يَا جَرِيْمَـا مَنَّتْكَ نَفْسُكَ فِي الْحَـلَاِ ضَـالَالَا^(١)

وأما «نعق الغراب» فبالغين المعجمة ﴿صَمٌ﴾ هم صم ، وهو رفع على الذم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١٧٢)

﴿مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ من مستلذاته ، لأنّ كل ما رزقه الله لا يكون إلا حلالا^(٢) ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ الذي رزقكموها ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ إن صح أنكم تخصونه بالعبادة. وتقرّون أنه مولى النعم. وعن النبي صلى الله عليه وسلم : «يقول الله تعالى : إني والجنّ والإنس في نبيّ عظيم ، أخلق ويُعبد غيبري وأرزق ويُشكر غيبري^(٣)».

(١) للأخطل. ونعق ينعق نعيقا. بالعين المهملة. إذا صوت بغنمه. ونعق الغراب نغاقا. بالمعجمة. إذا صاح. أي : صوت لغنمك يا جرير ، واكتف بذلك عن المفاخر فلست من أهلها ، إنما أنت راعي غنم. منتك : حدثتك نفسك ووعدتك وسولت لك في الفضاء الخالي عن الناس ضلالا وكذبا. لا هدى وصدقا كما تزعم ، وذمه جرير بقوله :

والتغلـي إذا تنحـلـج للـقـرى حـكـك اسـمـته وتمثـل الأمثـالا

ورد عليه الأخطل بقوله :

قـوم إذا اسـتـنـج الأضـياف كلـبـهم قـالوا لأمـهم بـولي علـى النـار

(٢) قوله «كل ما رزقه الله لا يكون إلا حلالا» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فقد يكون حراما ، كما بين في موضعه. (ع)

(٣) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين والبيهقي في الشعب من رواية بقية ، حدثنا صفوان ابن عمر. حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير. وشريح بن عبيد عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم. قال «قال الله عز وجل «إني والجنّ والإنس ...» فذكره سواء.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَحُمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ بِهِ لَغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٧٣)

قرئ (حَرَّمَ) على البناء للفاعل ، وحُرِّمَ على البناء للمفعول ، وحُرِّمَ بوزن كرم ﴿أَهَلَ بِهِ لَغَيْرِ اللَّهِ﴾ أى رفع به الصوت للصنم ، وذلك قول أهل الجاهلية : باسم اللات والعزى ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ على مضطر آخر بالاستيثار عليه ﴿وَلَا عَادٍ﴾ سدّ الجوعة. فإن قلت : في الميتات ما يحل وهو السمك والجراد. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أحلت لنا ميتتان ودمان»^(١). قلت : قصد ما يتفاهمه الناس ويتعارفونه في العادة. ألا ترى أنّ القائل إذا قال : أكل فلان ميتة ، لم يسبق الوهم إلى السمك والجراد ، كما لو قال : أكل دما ، لم يسبق إلى الكبد والطحال. ولا اعتبار العادة والتعارف قالوا : من حلف لا يأكل لحما فأكل سمكا لم يحنث. وإن أكل لحما في الحقيقة ، قال الله تعالى : ﴿لَتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وشبهوه بمن حلف لا يركب دابة فركب كافرا لم يحنث. وإن سماه الله تعالى دابة في قوله : ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. إن قلت : فما له ذكر لحم الخنزير دون شحمه؟ قلت : لأنّ الشحم داخل في ذكر اللحم ، لكونه تابعا له وصفة فيه ، بدليل قولهم : لحم سمين ، يريدون أنه شحيم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (١٧٦)

﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾ ملء بطونهم. يقال : أكل فلان في بطنه ، وأكل في بعض بطنه ﴿إِلَّا النَّارَ﴾ لأنه إذا أكل ما يتلبس بالنار لكونها عقوبة عليه ، فكأنه أكل النار. ومنه قولهم : أكل فلان الدم ، إذا أكل الدية التي هي بدل منه. قال : أَكَلْتُ دَمًا إِنْ لَمْ أُزْعِكْ بَضْرَةً^(٢)

(١) أخرجه أحمد والشافعي. وابن ماجة والدارقطني من حديث ابن عمر رضى الله عنهما ،

(٢) دمشق خذوها واعلم أي أن ليلسة

أكلت دما إن لم أرعك بضرة

تمر بعدى نعيشها ليلسة القدر

بعيدة مهوى القدر طيبة النشور

وقال : (١)

يَأْكُلْنَ كُلَّ لَيْلَةٍ إِكَافًا (٢)

أراد ثمن الإكاف ، فسماه إكافا لتلبسه بكونه ثمنا له ﴿وَلَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ﴾ تعريض بحرمانهم حال أهل الجنة في تكرمه الله إياهم بكلامه وتنزيتهم بالثناء عليهم. وقيل : نفى الكلام عبارة عن غضبه عليهم كمن غضب على صاحبه فصرمه وقطع كلامه. وقيل : لا يكلمهم بما يجبون ، ولكن بنحو قوله : ﴿أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾. ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ تعجب من حالهم في التباسهم بموجبات النار من غير مبالاة منهم ، كما تقول لمن يتعرض لما يوجب غضب السلطان : ما أصبرك على القيد والسجن ، تريد أنه لا يتعرض لذلك إلا من هو شديد الصبر على العذاب. وقيل : فما أصبرهم ، فأى شيء صبرهم. يقال : أصبره على كذا وصبره بمعنى.

. تزوج امرأة فلم توافقه ، فقيل له : إن حمى دمشق سريعة في موت النساء ، فحملها إليها وقال لها ذلك ، ونزل دمشق . وهي مدينة بالشام . منزلة العاقل فناداها . والظاهر أن هذا التنزيل من باب الاستعارة المكنية والنداء تخييل ، وكذلك الأمر بالعلم ، والمرور : المشي ، فاسناده لليلة مجاز عقلي من الاسناد للزمان ، وهو في الحقيقة لحملة النعش ، أو بمعنى المضي فهو حقيقة والباء للملابسة ، وهو كناية عن موتها. والعودان : طرفا النعش. وجعل تلك الليلة قليلة القدر عنده لشدة ترقبها وتمنيها والتشوق إليها ، ثم التفت إلى خطاياها ودعا على نفسه بقوله : أكلت دما ، أى دية ، لأنها بدل الدم وأخذها عار عند العرب ، لدالتها على الجبن وحب المال دون الثأر. وإن لم أرعك : من راعه يروعه إذا أخافه. والمراد أنه يغیظها بتزوج ضرة عليها جميلة طويلة العنق. فبعد مهوى القرط : كناية عن ذلك. والقرط : حلى الأذن. ومهواه : مسقطه من المنكب. والنشر : الرائحة الطيبة. ويحتمل أنه دعا على نفسه بالجدب حتى يحتاج لفصد النوق وأكل دمها ، وكذلك كانت تفعل الجاهلية في الجدب. ويحتمل أن المراد : شربت دما ، فهو تعليق على الممتنع عنده دلالة على تحقيق التزوج ، لأنه يرجع إلى أن عدم التزوج ممتنع كما أن شرب الدم ممتنع. ونظيره ما أنشدته أبو إياس :

أمالك عمر إنمنا أننت حيرة	إذا هـي لم تقتل تعش آخر العمر
ثلاثين حولا لا أرى منك راحة	لهنك في الدنيا لباقيمة العمر
دمشق خذيها لا تفتك قليلا	تمر بعودي نعشها ليللة القدر
فإن أنفلت من عمر صعبة سالما	تكن من نساء الناس لي بيضة العقر

ولعل «العمر» في القافية الأولى بمعنى الدهر. ولهنك هاؤه بدل من همزة إن عند البصريين ، وعند غيرهم أصله : لله إنك. وبيضة العقر : زعموا أنها بيضة الديك لا يبيض في عمره غيرها. وقيل : هي مثل لما لا وجود له أصلا. فالعنى : أنه يتزوج جميلة لا يتزوج غيرها ، أو أنه لا يتزوج أصلا. وصعبة هي امرأته.

(١) إن لنمنا أحمرة عجافا يأكلن كل ليلة علفا يشتري بثمان إكافا

الأحمر : الحمير. والعجاف : المهازبل. والأكاف : البرذعة ، فالمراد : يأكلن كل ليلة علفا يشتري بثمان إكاف ، بأن يباع الأكاف ثم يشتري بثمانه علفا لها ، فأوقع الأكل على الأكاف بواسطتين ، ولعل بيع براذعها لضعفها عن العمل. ويمكن أنه مجرد تقديم ، وإنما خص الأكاف لاختصاصه بالحمير.

(٢) قوله «كل ليلة إكافا» هو ما يوضع على ظهر الحمار عند ركوبه أو تحميله. أفاده الصحاح. (ع)

وهذا أصل معنى فعل التعجب. والذي روى عن الكسائي أنه قال : قال لي قاضى اليمن بمكة. اختصم إلى رجلان من العرب فحلف أحدهما على حق صاحبه فقال له : ما أصبرك على الله ، فمعناه : ما أصبرك على عذاب الله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ﴾ أى ذلك العذاب بسبب أن الله نزل ما نزل من الكتب بالحق ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا﴾ في كتب الله فقالوا في بعضها حق وفي بعضها باطل وهم أهل الكتاب ﴿لَفِي شِقَاقٍ﴾ لفي خلاف ﴿بَعِيدٍ﴾ عن الحق ، والكتاب للجنس. أو كفرهم ذلك بسبب أن الله نزل القرآن بالحق كما يعلمون ، وإن الذين اختلفوا فيه من المشركين . فقال بعضهم : سحر ، وبعضهم : شعر ، وبعضهم : أساطير . لفي شقاق بعيد. يعنى أن أولئك لو لم يختلفوا ولم يشاقوا لما جسر هؤلاء أن يكفروا.

﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (١٧٧)

﴿الْبِرُّ﴾ اسم للخير ولكل فعل مرضى ﴿أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ الخطاب لأهل الكتاب ^(١) لأن اليهود تصلى قبل المغرب إلى بيت المقدس ، والنصارى قبل المشرق. وذلك أنهم أكثروا الخوض في أمر القبلة حين حوّل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة ، وزعم كل واحد من الفريقين أن البرّ التوجه إلى قبلته ، فردّ عليهم. وقيل : ليس البرّ فيما أنتم عليه فإنه منسوخ خارج من البرّ ، ولكن البرّ ما نبينه. وقيل : كثر خوض المسلمين وأهل الكتاب في أمر

(١) قال محمود رحمه الله : «الخطاب فيه لليهود والنصارى ... الخ». قال أحمد رحمه الله : هذا منقول عن المبرد ، مسمى بسهام الرد ، فان فيه إجماعاً بأن اختلاف وجوه القراءة موكول إلى الاجتهاد ، وأنه مهما اقتضاه قياس اللغة جازت القراءة به لمن يعد أهلاً للاجتهاد في العربية واللغة. وهذا خطأ محض ، فالقرآت سنة متبعة لا مجال فيها للدراية. على أن ما قاله وقدر أنه الأوجه ليس ببالغ ذروة فصاحة الآية إلا على القرآت المستفيضة ، لأن الكلام مصدر بذكر البر الذي هو المصدر قولاً واحداً ، فلو عدل إلى ذكر البر الذي هو الوصف لا يفك المطابقة ومعنى النظام. ولذلك كان تأويل الآية بحذف المضاف من الثاني على تأويل : بر من آمن ، أوجه وأحسن وأبقى على السياق. ومن ظن أنه يشق غباراً أو يتعلق بأذيال فصاحة المعجز للفصحاء ، فقد سولت له نفسه محالاً ومنته ضلالاً.

القبلة ، فقيل : ليس البرّ العظيم الذي يجب أن تذهلوا بشأنه عن سائر صنوف البرّ أمر القبلة ، ولكن البرّ الذي يجب الاهتمام به وصرف الهمة برّ من آمن وقام بهذه الأعمال. وقرئ : وليس البرّ . بالنصب على أنه خبر مقدم . وقرأ عبد الله : بأن تولوا ، على إدخال الباء على الخبر للتأكيد كقولك : ليس المنطلق بزيد ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ على تأويل حذف المضاف ، أى برّ من آمن ، أو يتأول البرّ بمعنى ذى البرّ ، أو كما قالت :

فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ^(١)

وعن المبرّد : لو كنت ممن يقرأ القرآن لقرأت : ولكنّ البرّ ، بفتح الباء. وقرئ : ولكن الباء. وقرأ ابن عامر ونافع : ولكنّ البر بالتخفيف ﴿وَالْكِتَابِ﴾ جنس كتب الله ، أو القرآن ﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ مع حب المال والشح به ، كما قال ابن مسعود «أن يؤتیه وأنت صحيح صحيح ، تأمل العيش وتخشى الفقر ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا^(٢)». وقيل :

(١) فما عجلول على بو تطيف به لهنا حنينان إصـغار وإكبـرار
لا تسأم الدهر منه كلمـا ذكرـت فإنمـا هـي إقبـال وإدبار
يومـا بأوجـد مـنى حـين فـارقـى صـخر وللـدهر إحـلاء وإمـرار

للخنساء ترى أخاها صخرًا. والعجول : الناقة التي أسقطت حملها قبل تمام شهرين ، والتي فقدت ولدها بنحر أو موت والبو : جلد محشو تدر الناقة لأجله. وقيل : ولد الناقة. وطاف به يطوف طوفا وطوفا وطوفانا ، إذا دار حوله وطاف عليه يطيف طيفاً ، إذا أقبل عليه. وقد يستعمل كل موضع الآخر ، أى تحرم حوله. ويروى : تحن له. وإصغار وإكبار : بدل من حنينان. ويروى : إعلان وإسرار. والمعنى واحد ، غير أن فيه تقدماً وتأخيراً. أو الاصغار الحنين على الولد الصغير ، والإكبار على الكبير ، كذا قيل ، لكن خير ما فسره بالوارد. والدهر : نصب بتسام أى : لا تمل طول الدهر مما ذكر من الحنين ورجوعه للبو ، تأباه جزالة المعنى. ويمكن عوده على الطيف المعلوم من تطيف. ويروى بدل هذا الشطر ترتع ما رتعت حتى إذا اذكرت وأصله اذكرت أى تذكرت. ويروى ترتع ما غفلت حتى إذا ذكرت أى ترعى مدة غفلتها عنه ، فإذا تذكرته فإنما هي ذات إقبال وذات إدبار ، أو مقبلة ومدبرة ، أو هي نفس الإقبال والإدبار مبالغة. أى تلتفت تارة أمامها وتارة خلفها وتلهى عن الرعي. وقيل المراد إقبال النهار وإدبار الليل وعكسه. ويمكن أن وجهه استقلال المدة ، أى فإنما مدة الدهر إقبال وإدبار دائرين بين الليل والنهار ، بالضمير عائد على معلوم من السياق ، لكن لا يظهر على الرواية الثانية. ويوما : نصب بأوجد وجاز تقدمه على أفعل التفضيل ، لأنه ظرف ، وكذلك تنبيهاً على أن المراد باليوم مطلق الزمن غالباً. وبأوجد : خبر عجول. ويروى «بأوجع» أى ليست أشد حزناً منى حين فارقني أخي ، وحين نصب بأوجد أيضاً. ووجهه أنه في معنى عاملين ، أى ليس وجدها يوماً أشد من وجدي حين الفراق ، فالأول للأول ، والثاني للثاني ، ثم تسلت بقولها : وللدهر إحلاء وإمرار. ويقال : أحلى الشيء وأمر ، صار حلوّاً وصار مرّاً. ويجوز أنهما متعديان. والمراد : أن الدهر ينعم العيش تارة ويبيسه أخرى. فالإحلاء والإمرار استعارتان لذلك.

(٢) موقوف ، كذا أخرجه عبد الرزاق عن الثوري عن زبيد عن مرة عنه. قال في قوله تعالى : ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى﴾ قال «أن يؤتیه» فذكره إلى قوله «ويخشى الفقر» ولم يذكر ما بعده. ومن طريقه أخرجه الطبراني والحاكم وذكره أبو نعيم في الحلية. في ترجمة مسعر فأخرجه من طريقه عن زبيد به. وقال هكذا رواه .

على حب الله. وقيل : على حب الإيتاء ، يريد أن يعطيه وهو طيب النفس بإعطائه. وقدم ذوى القربى لأنهم أحق. قال عليه الصلاة والسلام : «صدقتهك على المسكين صدقة. وعلى ذى رحمك اثنتان لأخا صدقة وصلة^(١)» وقال عليه الصلاة والسلام^(٢) : «أفضل الصدقة على ذى الرحم الكاشح^(٣)». وأطلق **﴿ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى﴾** والمراد الفقراء منهم لعدم الإلباس. والمسكين : الدائم السكون إلى الناس ، لأنه لا شيء له ، كالمسكين : للدائم السكر **﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾** المسافر المنقطع. وجعل ابنا للسبيل لملازمته له ، كما يقال للص القاطع : ابن الطريق. وقيل : هو الضيف ، لأنّ السبيل يعرف به^(٤) **﴿وَالسَّائِلِينَ﴾** المستطعمين. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، للسائل حق وإن جاء على ظهر فرسه^(٥) **﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾** وفي معاونة المكاتبين حتى يفكوا رقابهم. وقيل

. مسعر والناس. عن زبيد موقوفاً رواه مخلدين يزيد عن الثوري مرفوعاً. وتفرد برفعه ثم ساقه. وأخرجه البيهقي من رواية شعبة عن زبيد موقوفاً ومن طريق سلام بن سليم المدائني عن محمد بن طلحة عن زبيد مرفوعاً : وسلام ضعيف رواه الطبري من ثلاثة طرق عن زبيد موقوفاً. ولم يذكر أحد منهم ولا تمهل وإنما هو في حديث أبي هريرة. اتفق الشيخان عليه بلفظ «قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم يا رسول الله ، أى الصدقة أفضل؟ قال أن تصدق وأنت صحيح صحيح شحيح تأمل العنى وتحشى الفقر ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان».

(١) أخرجه النسائي والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وأحمد وابن أبي شيبه والدارمي كلهم من حديث سلمان بن عامر بلفظ «الصدقة على المسكين حسنة» الترمذي. وفي الباب عن ابن طلحة وأبي أمامة. أخرجه الطبراني.

(٢) أخرجه عبد الرزاق والحاكم والبيهقي والطبراني من رواية ابن عيينة عن الزهري. عن حميد بن عبد الرحمن عن أمه أم كلثوم بنت عقبة. ورواه أبو عبيد في كتاب الأموال من رواية ابراهيم بن يزيد المكي عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة. وأخرجه من طريق عقيل عن الزهري مراسلاً. لم يذكر أبا هريرة ورواه أحمد من رواية سفيان بن حسين عن الزهري عن أيوب بن بشير عن حكيم بن حزام ورواه أيضاً هو وإسحاق والطبراني من طريق الحجاج بن أرطاة عنه عن حكيم بن بشير عن أبي أيوب. فهذه الطرق كلها تدور على الزهري ، مع اختلاف عليه ، وأحفظهم سفيان بن عنبسة ، وعقيل أحفظ منه. وروايته أشبه بالصواب.

(٣) قوله «ذى الرحم الكاشح» في الصحاح : تقول طوى فلان عن كشحه ، إذا قطعك. والكاشح الذي يضمن لك العداوة. (ع)

(٤) قوله «لأن السبيل يعرف به» أى يتقدم به ويبرزه للمقيمين ، كما يعرف الأنف بدم الرعاف. أفاده الصحاح. (ع)

(٥) أخرجه أبو داود من رواية فاطمة بنت الحسين بن على عن أبيها عن على رضوان الله عليه. ومن رواية الحسين بن على ، من غير ذكر أبيه. في إسنادهما يحيى بن أبى يعلى وقيل : يعلى بن أبى يحيى : وهو مجهول. وقد رواه إسحاق بن راهويه من طريقه فجعله من رواية فاطمة بنت الحسين عن فاطمة ، ورواه الطبراني من حديث الهرماس بن زياد. وفيه عثمان بن فايد. وهو ضعيف : وقال مالك في الموطأ : أخبرنا زيد بن أسلم أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم. فذكره ووصله ابن عدى من طريق عبد الله بن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبى صالح عن أبى هريرة. وعبد الله ضعيف. ورواه أيضاً من طريق عمر بن يزيد المدائني عن عطاء عن أبى هريرة. وعمر ضعيف.

في ابتياع الرقاب وإعتاقها. وقيل في فك الأسارى. فإن قلت : قد ذكر إيتاء المال في هذه الوجوه ثم قفاه بإيتاء الزكاة فهل دل ذلك على أنّ في المال حقاً سوى الزكاة؟ قلت : يحتمل ذلك. وعن الشعبي : أنّ في المال حقاً سوى الزكاة ، وتلا هذه الآية. ويحتمل أن يكون ذلك بيان مصارف الزكاة ، أو يكون حثاً على نوافل الصدقات والمبارّ. وفي الحديث «نسخت الزكاة كلّ صدقة» ^(١) يعنى وجوبها. وروى «ليس في المال حق سوى الزكاة» ^(٢) ﴿وَالْمُؤَفُّونَ﴾ عطف على من آمن. وأخرج. ﴿الصَّابِرِينَ﴾ منصوباً على الاختصاص والمدح ، إظهار الفضل الصبر في الشدائد ومواطن القتال على سائر الأعمال. وقرئ : والصابرون. وقرئ. والموفين ، والصابرين. و ﴿الْبَاسَاءِ﴾ الفقر والشدّة ﴿وَالصَّرَّاءِ﴾ المرض والزمانة ﴿صَدَقُوا﴾ كانوا صادقين جادّين في الدين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بِعَدْوٍ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧٩)

عن عمر بن عبد العزيز ، والحسن البصري ، وعطاء ، وعكرمة ، وهو مذهب مالك والشافعي ^(٣) رحمة الله عليهم : أنّ الحر لا يقتل بالعبد ، والذكر لا يقتل بالأنثى ، أخذاً بهذه الآية. ويقولون : هي مفسرة لما أجهّم في قوله : ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ ولأن تلك واردة لحكاية ما كتب في التوراة على أهلها ، وهذه خوطب بها المسلمون وكتب عليهم ما فيها. وعن سعيد ابن المسيب ، والشعبي والنخعي ، وقتادة ، والثوري ، وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه : أنّها منسوخة بقوله : ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ والقصاص ثابت بين العبد والحرّ ، والذكر والأنثى. ويستدلون بقوله صلى الله عليه وسلم

(١) أخرجه الدارقطني والبيهقي ، من حديث علي رضي الله عنه. وإسناده ضعيف. وأخرجه عبد الرزاق من قول علي موقوفاً

(٢) أخرجه ابن ماجة من رواية أبي حمزة عن الشعبي عن فاطمة بنت قيس بهذا. وترجم عليه. باب ما أدى زكاته فليس بكنز. وقال البيهقي : والذي يرويه أصحابنا في التعاليق «ليس في المال حق سوى الزكاة» لا أحفظ له إسناداً وقد رواه الترمذي وأبو يعلى والطبراني من هذا الوجه ، بلفظ «إن في المال حقاً سوى الزكاة» قال الترمذي : ليس إسناده بذلك. وقد رواه بيان وإسماعيل عن الشعبي قال. وهو أصح.

(٣) قال محمود رحمه الله : «مذهب مالك والشافعي رضي الله عنهما أن الحر لا يقتل بالعبد والذكر لا يقتل بالأنثى ... الخ» قال أحمد رحمه الله : وهذا من الزمخشري وهم على الإمامين ، فإنهما يقتصان من الذكر للأنثى بلا خلاف عنهما. وأما الحر والعبد عندهما فهو الذي وهم الزمخشري عنهما.

«المسلمون تتكافأ دماؤهم»^(١) وبأنّ التفاضل غير معتبر في الأنفس ، بدليل أنّ جماعة لو قتلوا واحداً قتلوا به. وروى «أنه كان بين حيين من أحياء العرب دماء في الجاهلية ، وكان لأحدهما طول على الآخر ، فأقسموا لقتلنّ الحرّ منكم بالعبد منا ، والذكر بالأنثى ، والاثنين بالواحد ، فتحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جاء الله بالإسلام فنزلت ، وأمرهم أن يتباوؤا»^(٢) ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ معناه : فمن عفى له من جهة أخيه^(٣) شيء من العفو. على أنه كقولك : سير بزيد بعض السير ، وطائفة من السير. ولا يصح أن يكون شيء في معنى المفعول به ، لأن «عفا» لا يتعدى إلى مفعول به إلا بواسطة. وأخوه : هو وليّ المقتول ، وقيل له أخوه ، لأنه لا بسه ، من قبل أنه ولي الدم ومطالبه به ، كما تقول للرجل : قل لصاحبك كذا ، لمن بينه وبينه أدنى ملابسة أو ذكره بلفظ الأخوة ، ليعطف أحدهما على صاحبه بذكر ما هو ثابت بينهما من الجنسية والإسلام فإن قلت : إن عفى يتعدى يعن لا باللام ، فما وجه قوله : ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ﴾؟ قلت : يتعدى يعن إلى الجاني وإلى الذنب ، فيقال : عفوت عن فلان وعن ذنبه. قال الله تعالى : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ وقال : ﴿عَفَا

(١) أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم من طريق قيس بن عباد عن علي في قصة. ورواه أبو داود وابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وزاد «ويسعى بدمتهم أدناهم ، ويجبر عليهم أقصاهم. وهم يد على من سواهم» وفي الباب عن عائشة : رواه البخاري في تاريخه والدارقطني. وعن ابن عباس ومعاقل بن يسار في ابن ماجه وعن جابر في المعجم الأوسط للطبراني.

(٢) لم أجده.

(٣) قال محمود رحمه الله : «معنى الآية : فمن عفى له من جهة أخيه ... الخ». قال أحمد رحمه الله : ويقوى هذا التأويل القول بأن موجب العمد أحد الأمرين من القصاص أو الدية ، والخيار إلى الولي. وهو أحد القولين في مذهب مالك رضى الله عنه ومشهورهما. إذ لو جعلنا موجب العمد القود على القول الآخر ، لكان في ذلك تضيق على الولي. والآية مشعرة بالتخفيف والسعة وتحتمل الآية وجهها آخر ، وهو عود الضميرين جميعاً إلى الولي ، وقالوا على هذا الوجه يكون العفو إعطاء البذل ، كأنه قال : فمن أعطى شيئاً من أخيه أى بدلاً من أخيه. ويكون «من» مثلها في قوله تعالى : ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾. ونظيره في استعمال العفو في العطاء عندي قوله تعالى : ﴿إِلَّا أَنْ يَغْفُونَ أَوْ يَغْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ إذا حمل الذي بيده العقدة على الزوج. وهو مذهب الشافعي رضى الله عنه. ويقول أصحابه. عفوه على أحد وجهين : إما من استرجاع النصف الواجب إن كان قد سلم جميع المهر ، وإما على دفع النصف الآخر الذي سقط عنه إن كان لم يسلمه ، فيكون العفو على هذا مستعملاً في الإعطاء. ويقوى هذا الوجه في أنه لا قصاص قوله : ﴿فَاتَّبَاعَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ لأن المخاطب بالاتباع المعروف إنما هو الولي ، فإذا جعلنا الضميرين له انساق الكلام سياقة واحدة إلى جهة واحدة ، وصار المعنى : فمن أعطى من الأولياء بدلاً من أخيه ، فليتبع بالمعروف في طلب ما أعطى. ولما خالفه الولي عن التقاضي خاطب القاتل بحسن الأداء ، فلينتظم الكلام موجهها إلى وجهة واحدة. وأما على الوجه الذي قرره الزمخشري ، فالضميران جميعاً راجعان إلى القاتل وتقدير الكلام : فمن عفى له من القاتلين عن جنايته شيء من العفو فليتبع الولي هذا القاتل المعفو عنه بالمعروف ، فيكون المخاطب أول الآية القاتل ، وآخرها الولي ، بخلاف الوجه الذي قرره والله أعلم. وكلا الوجهين حسن جيد.

اللَّهُ عَنْهَا فإذا تعدّى إلى الذنب والجاني معا قيل : عفوت لفلان عما جنى ، كما تقول : غفرت له ذنبه وتجاوزت له عنه . وعلى هذا ما في الآية ، كأنه قيل : فمن عفى له عند جنائته ، فاستغنى عن ذكر الجنائية . فإن قلت : هلا فسرت عفى بترك حتى يكون شيء في معنى المفعول به؟ قلت : لأن عفا الشيء بمعنى تركه ليس بثبت ، ولكن أعفاه . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : «وأعفوا للحى» ^(١) فإن قلت . فقد ثبت قولهم : عفا أثره إذا محاه وأزاله ، فهلا جعلت معناه : فمن محى له من أخيه شيء؟ قلت : عبارة قلقه في مكانها ، والعفو في باب الجنائيات عبارة متداولة مشهورة في الكتاب والسنة واستعمال الناس ، فلا يعدل عنها إلى أخرى قلقه نائية عن مكانها ، وترى كثيراً ممن يتعاطى هذا العلم يجترئ . إذا أعضل عليه تخريج وجه للمشكل من كلام الله . على اختراع لغة وادعاء على العرب ما لا تعرفه ، وهذه جرأة يستعاذ بالله منها . فإن قلت؟ لم قيل : شيء من العفو؟ قلت : للإشعار بأنه إذا عفى له طرف من العفو وبعض منه بأن يعفى عن بعض الدم ، أو عفا عنه بعض الورثة تم العفو وسقط القصاص ولم تجب إلا الدية **﴿فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾** فليكن اتباع ، أو فالأمر اتباع . وهذه توصية للمعفو عنه والعافي جميعاً . يعنى فليتبع الولي القاتل بالمعروف بأن لا يعنف به ولا يطالبه إلا مطالبة جميلة ، وليؤدّ إليه القاتل بدل الدم أداء بإحسان ، بأن لا يطله ولا يبخره **﴿ذَلِكَ﴾** الحكم المذكور من العفو والدية **﴿تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾** لأن أهل التوراة كتب عليهم القصاص البتة وحرّم العفو وأخذ الدية ، وعلى أهل الإنجيل العفو وحرّم القصاص والدية ، وخيرت هذه الأمة بين الثلاث : القصاص والدية والعفو ، توسعة عليهم وتيسيراً **﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾** التخفيف ، فتجاوز ما شرع له من قتل غير القاتل ^(٢) ، أو القتل بعد أخذ الدية . فقد كان الولي في الجاهلية يؤمن القاتل بقبوله الدية ، ثم يظفر به فيقتله **﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** نوع من العذاب شديد الألم في الآخرة . وعن قتادة : العذاب الأليم أن يقتل لا محالة ولا يقبل منه دية ، لقوله عليه السلام «لا أعافى أحداً قتل بعد أخذه الدية» **﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾** كلام فصيح لما فيه من الغرابة ^(٣) ، وهو أنّ القصاص قتل وتفويت للحياة ، وقد جعل مكانا وظرفا للحياة ، ومن إصابة محز البلاغة بتعريف القصاص وتنكير الحياة ؛ لأنّ المعنى : ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة ، وذلك أنهم كانوا

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر رضى الله عنهما

(٢) قوله «من قتل غير القاتل» بيان للتجاوز والاعتداء . (ع)

(٣) قال محمود رحمه الله : «كلام فصيح لما فيه من الغرابة ... الخ» . قال أحمد رحمه الله : قوله جعل أحد الضدين محلا للآخر : كلام إما وهم فيه أو تسامح ، لأن شرط تضاد الحياة والموت اجتماعهما في محل واحد تقديراً ، ولا تضاد بين حياة غير المقتص منه وموت المقتص ، والبلاغة التي أوضحها في الآية بينة بدون هذا الإطلاق .

يقتلون بالواحد الجماعة ، وكم قتل مهلهل بأخيه كليب حتى كاد يفنى بكر بن وائل ، وكان يقتل بالمقتول غير قاتله فتثور الفتنة ويقع بينهم التناحر ، فلما جاء الإسلام بشرع القصاص كانت فيه حياة أئى حياة ، أو نوع من الحياة ، وهي الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل لوقوع العلم بالاختصاص من القاتل ، لأنه إذا همّ بالقتل فعلم أنه يقتصّ فارتدع منه سلم صاحبه من القتل ، وسلم هو من القود ، فكان القصاص سبب حياة نفسين. وقرأ أبو الجوزاء : ولكم في القصاص حياة : أى فيما قص عليكم من حكم القتل. والقصاص. وقيل القصص : القرآن ، أى ولكم في القرآن حياة للقلوب : كقوله تعالى : ﴿رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ ، ﴿وَيُخَيِّ مِنْ حَيٍّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أى أريتكم ما في القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ تعملون عمل أهل التقوى في المحافظة على القصاص والحكم به. وهو خطاب له فضل اختصاص بالأئمة.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (١٨٠) ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٨١) ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٨٢) ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ إذا دنا منه وظهرت أماراته ﴿خَيْرًا﴾ مالا كثيرا. عن عائشة رضی الله عنها أنّ رجلا أراد الوصية وله عيال وأربعمائة دينار ، فقالت : ما أرى فيه فضلا^(١). وأراد آخر أن يوصى فسألته : كم مالك؟ فقال : ثلاثة آلاف. قالت : كم عيالك؟ قال : أربعة. قالت : إنما قال الله ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ وإنّ هذا الشيء يسير فاتركه لعيالك^(٢) ، وعن عليّ رضی الله عنه : أنّ مولى له أراد أن يوصى وله سبعمائة فمنعه^(٣). وقال : قال الله تعالى

(١) أخرجه عبد الرزاق عن الثوري عن منصور بن صفيّة حدثنا عبد الله بن عبيد بن عمير «أن عائشة سئلت عن رجل مات وله أربعمائة دينار. وله عدة من الولد. فقالت عائشة : ما في هذا فضل عن ولده» وعن ابن جريج عن منصور بن عبد الرحمن عن أمه عن عائشة مثله ، وزاد «فلامته عائشة ، وقالت : إن ذلك لقليل ، قلت : منصور ابن عبد الرحمن هو ابن صفيّة. فكأنه سمعه من أمه ومن عبد الله كلاهما عن عائشة رضی الله عنها.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة حدثنا أبو معاوية عن محمد بن شريك عن ابن أبي مليكة عن عائشة «أن رجلا قال لها : إني أريد أن أوصى . فذكره».

(٣) أخرجه عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن هشام عن أبيه قال «دخل على رضی الله عنه على مولى له في الموت فقال : ألا أوصى؟ فقال له على : إنما قال الله تعالى : ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ وليس لك كثير مال. قال : وكان له سبعمائة درهم» ورواه ابن أبي شيبة عن أبي خالد الأحمر عن هشام به.

﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ والخير هو المال ، وليس لك مال. والوصية فاعل كتب ، وذكر فعلها للفاصل ، ولأنها بمعنى أن يوصى ، ولذلك ذكر الراجع في قوله : ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ﴾ والوصية للوارث كانت في بدء الإسلام فنسخت بآية الموارث ، وبقوله عليه السلام «إِنَّ اللَّهَ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقِّ حَقَّهُ أَلَا لَا وَصِيَّةَ لَوَارِثٍ»^(١) وبتلقى الأمة إياه بالقبول حتى لحق بالمتواتر وإن كان من الأحاد ، لأنهم لا يتلقون بالقبول إلا الثابت الذي صحت روايته. وقيل : لم تنسخ ، والوارث يجمع له بين الوصية والميراث بحكم الآيتين. وقيل : ما هي بمخالفة لآية الموارث. ومعناها : كتب عليكم ما أوصى به الله من توريث الوالدين والأقربين^(٢) من قوله تعالى : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ أو كتب على المحتضر أن يوصى للوالدين والأقربين بتوفير ما أوصى به الله لهم عليهم ، وأن لا ينقص من أنصبتهم ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالعدل ، وهو أن لا يوصى للغنى ويدع الفقير ولا يتجاوز الثلث ﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد ، أى حق ذلك حقاً ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ فمن غير الإيصاء عن وجهه إن كان موافقاً للشرع من الأوصياء والشهود ﴿بَعْدَ مَا سَمِعَهُ﴾ وتحققه ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ فما إثم الإيصاء المغير أو التبديل إلا على مبدليه دون غيرهم من الموصى والموصى له ، لأنهما بريان من الحيف ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وعيد المبدل ﴿فَمَنْ خَافَ﴾ فمن توقع وعلم ، وهذا في كلامهم شائع يقولون : أخاف أن ترسل السماء ، يريدون التوقع والظنّ الغالب الجاري مجرى العلم ﴿جَنَفًا﴾ ميلا عن الحق بالخطأ في الوصية ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ أو تعمداً للحيف ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الموصى لهم وهم الوالدان والأقربون بإجرائهم على طريق الشرع ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ حينئذ ، لأنّ تبديله تبديل باطل إلى حق ذكر من يبدل بالباطل ثم من يبدل بالحق ليعلم أنّ كل تبديل لا يؤثم^(٣).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٨٣) أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٨٤)

(١) أخرجه أبو داود والترمذي : وحسنه ، وابن ماجه من حديث أبي أمامة ، والترمذي أيضا وصححه ، والنسائي وابن ماجه من حديث عمرو بن خارجة ، وابن ماجه من رواية عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن سعيد بن أبي سعيد أنه حدثه عن أنس بن مالك به.

(٢) قوله «من توريث الوالدين والأقربين من» لعله في. (ع)

(٣) قوله «أن كل تبديل لا يؤثم» لعل المعنى أن ليس كل تبديل يؤثم (ع)

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ على الأنبياء والأئم من لدن آدم إلى عهدكم. قال عليّ رضي الله عنه : أولهم آدم ، يعني أنّ الصوم عبادة قديمة أصلية ما أخلق الله أمة من افتراضها عليهم ، لم يفرضها عليكم وحدكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ بالمحافظة عليها وتعظيمها لأصالتها وقدمها ، أو لعلكم تتقون المعاصي ، لأنّ الصائم أظلف لنفسه ^(١) وأردع لها من واقعة السوء. قال عليه السلام : «فعليه بالصوم ^(٢) فإنّ الصوم له وجاء ^(٣)» أو لعلكم تنتظمون في زمرة المتقين ، لأنّ الصوم شعارهم. وقيل معناه : أنه كصومهم في عدد الأيام وهو شهر رمضان ، كتب على أهل الإنجيل فأصابعهم موتان ، فزادوا عشراً قبله وعشرأ بعده. فجعلوه خمسين يوماً. وقيل : كان وقوعه في البرد الشديد والحرّ الشديد ، فشقّ عليهم في أسفارهم ومعاشهم فجعلوه بين الشتاء والربيع ، وزادوا عشرين يوماً كفارة لتحويله عن وقته. وقيل : الأيام المعدودات : عاشوراء ، وثلاثة أيام من كل شهر. كتب على رسول الله صلى الله عليه وسلم صيامها حين هاجر. ثم نسخت بشهر رمضان. وقيل : كتب عليكم كما كتب عليهم أن يتقوا المفطر بعد أن يصلوا العشاء وبعد أن يناموا ، ثم نسخ ذلك بقوله : ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾ ... الآية. ومعنى ﴿مَعْدُودَاتٍ﴾ موقتات بعدد معلوم. أو قلائل ، كقوله : ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ وأصله أنّ المال القليل يقدّر بالعدد ويتحرك فيه. والكثير يهال هيلاً ويحشى حشياً. وانتصاب أياماً بالصيام ، كقولك : نويت الخروج يوم الجمعة ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أو راكب سفر ﴿فَعِدَّةً﴾ فعليه عدّة. وقرئ بالنصب بمعنى : فليصم عدّة وهذا على سبيل الرخصة. وقيل : مكتوب عليهما أن يفطرا ويصوما عدّة ﴿مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ واختلف في المرض المباح للإفطار ، فمن قائل : كل مرض ، لأنّ الله تعالى لم يخص مرضاً دون مرض كما لم يخص سفراً دون سفر ، فكما أنّ لكل مسافر أن يفطر ، فكذلك كل مريض. وعن ابن سيرين أنه دخل عليه في رمضان وهو يأكل فاعتلّ بوجع أصبعه. وسئل مالك عن الرجل يصيبه الرمد الشديد أو الصداغ المضّر وليس به مرض يضجعه ، فقال : إنه في سعة من الإفطار. وقائل : هو المرض الذي يعسر معه الصوم ويزيد فيه ، لقوله تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ﴾ وعن الشافعي : لا يفطر حتى يجهد الجهد غير المحتمل. واختلف أيضاً في القضاء فعاقمة العلماء على التخيير. وعن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه : «إنّ الله لم يرخص لكم في

(١) قوله «لأنّ الصائم أظلف لنفسه» في الصحاح : ظلف نفسه عن الشيء منعه عنه. وظلفت نفسي عن كذا . بالكسر . : كلست (ع)

(٢) قوله «قال عليه السلام فعليه بالصوم» صدره : يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم الخ. (ع)

(٣) متفق عليه من حديث ابن مسعود

فطره وهو يريد أن يشق عليكم في قضاائه ، إن شئت فواتر ، وإن شئت ففرّق» ^(١) وعن عليّ وابن عمر والشعبي وغيرهم أنه يقضى كما فات متتابعاً ^(٢). وفي قراءة أبيّ : فعدة من أيام آخر متتابعات. فإن قلت : فكيف قيل ﴿فَعِدَّةٌ﴾ على التنكير ولم يقل : فعدتها ، أى فعدة الأيام المعدودات؟ قلت : لما قيل : فعدة ، والعدة بمعنى المعدود فأمر بأن يصوم أياما معدودة مكانها ، علم أنه لا يؤثر عدد على عددها ، فأغنى ذلك عن التعريف بالإضافة ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ وعلى المطيقين للصيام الذين لا عذر بهم إن أفطروا ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ نصف صاع من برّ أو صاع من غيره عند أهل العراق ، وعند أهل الحجاز مدّ ، وكان ذلك في بدء الإسلام : فرض عليهم الصوم ولم يتعودوه فاشتدّ عليهم ، فرخص لهم في الإفطار والفدية. وقرأ ابن عباس : يطوّقونه ، تفعيل من الطوق إما بمعنى الطاقة أو القلادة ، أى يكلفونه أو يقلّدونه ويقال لهم صوموا. وعنه : يتطوّقونه بمعنى يتكلفونه أو يتقلّدونه. ويطوقونه بإدغام التاء في الطاء. ويطيقونه ويطيقونه بمعنى يتطوقونه ، وأصلهما يطيقونه ويتطيقونه ، على أنهما من يفعل وتفعيل من الطوق ، فأدغمت الياء في الواو بعد قلبها ياء كقولهم : تدير المكان وما بها ديار. وفيه وجهان : أحدهما نحو معنى يطيقونه. والثاني يكلفونه أو يتكلفونه على جهد منهم وعسر وهم الشيوخ والعجائز ، وحكم هؤلاء الإفطار والفدية ، وهو على هذا الوجه ثابت غير منسوخ. ويجوز أن يكون هذا معنى يطيقونه ، أى يصومونه جهدهم وطاقتهم ومبلغ وسعهم ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ فزاد على مقدار الفدية ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ فالتطوع أخير له أو الخير. وقرئ فمن يطوّع ، بمعنى يتطوّع ﴿وَأَنْ تَصُومُوا﴾ أيها المطيقون أو المطوقون وحملت على أنفسكم وجهدتم طاقتكم ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من الفدية وتطوّع الخير. ويجوز أن ينتظم في الخطاب المريض والمسافر أيضاً. وفي قراءة أبيّ : والصيام خير لكم.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٨٥)

الرمضان : مصدر رمض إذا احترق . من الرمضاء . فأضيف إليه الشهر وجعل علماً ، ومنع الصرف للتعريف والألف والنون كما قيل «ابن داية» للغراب بإضافة الابن إلى داية البعير ،

(١) موقوف : الدارقطني من روايته.

(٢) أخرجه عبد الرزاق عنهما قالا «يقضيه تباعاً»

شاهداً ، أى حاضراً مقيماً غير مسافر في الشهر ، فليصم فيه ولا يفطر. والشهر : منصوب على الظرف وكذلك الهاء في : ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾ ولا يكون مفعولاً به كقولك : شهدت الجمعة ، لأن المقيم والمسافر كلاهما شاهدان للشهر ﴿يُرِيدُ اللَّهُ﴾ أن ييسر عليكم ولا يعسر ، وقد نفى عنكم الحرج في الدين ، وأمركم بالحنيفية السمحة التي لا إصر فيها ، وجملة ذلك ما رخص لكم فيه من إباحة الفطر في السفر والمرض. ومن الناس من فرض الفطر على المريض والمسافر ، حتى زعم أن من صام منهما فعليه الإعادة. وقرئ : اليسر ، والعسر - بضمين. الفعل المعلن محذوف مدلول عليه بما سبق تقديره ^(١) ﴿وَلْتَكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ شرع ذلك يعني جملة ما ذكر من أمر الشاهد بصوم الشهر وأمر المرخص له بمراعاة عدة ما أفطر فيه ومن الترخيص في إباحة الفطر ، فقوله : ﴿لِتَكْمِلُوا﴾ علة الأمر بمراعاة العدة ﴿وَلِتُكَبِّرُوا﴾ علة ما علم من كيفية القضاء والخروج عن عهدة الفطر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ علة الترخيص والتيسير ، وهذا نوع من اللف لطيف المسلك لا يكاد يهتدى إلى تبينه إلا التقاب المحدث من علماء البيان. وإنما عدى فعل التكبير بحرف الاستعلاء لكونه مضمناً معنى الحمد ، كأنه قيل : ولتكبروا الله حامدين على ما هداكم. ومعنى ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وإرادة أن تشكروا. وقرئ (ولتكملا) بالتشديد. فإن قلت : هل يصح أن يكون ﴿وَلِتَكْمِلُوا﴾ معطوفاً على علة مقدرة ، كأنه قيل لتعملوا ما تعلمون ، ولتكملا العدة. أو على اليسر ، كأنه قيل : يريد الله بكم اليسر ، ويريد بكم لتكملا ، كقوله : ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا﴾؟ قلت : لا يبعد ذلك والأول أوجه. فإن قلت : ما المراد بالتكبير؟ قلت : تعظيم الله والثناء عليه. وقيل : هو تكبير يوم الفطر. وقيل : هو التكبير عند الإهلال ^(٢).

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (١٨٦)

﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ تمثيل لحاله في سهولة إجابته لمن دعاه وسرعة إنجاحه حاجة من سأل به بحال من قرب مكانه ، فإذا دعى أسرع تلبيته ، ونحوه ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ وقوله عليه الصلاة والسلام : «هو بينكم وبين أعناق رواحلكم» ^(٣) وروى أن أعرابياً قال لرسول الله

(١) قال محمود رحمه الله : «الفعل المعلن محذوف تقديره شرع ذلك ... الخ». قال أحمد رحمه الله : ولقبه الخاص به في صناعة البديع : رد أعجاز الكلام إلى صدره. ولقد أحسن الزمخشري في التنقيب عنه فهو منظوم في سلك حسناته.

(٢) قوله «عند الإهلال» أى الإحرام بالنسك. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري قال «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة. فلما قفلنا أشرفنا على المدينة ، فكبر الناس ، ورفعوا أصواتهم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم. إن ربكم ليس بأصم ولا غائب ، هو بينكم وبين رءوس رواحلكم» ورواه الترمذي.

صلى الله عليه وسلم : أقرب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ^(١)؟ فنزلت. ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ إذا دعوتهم للإيمان والطاعة ، كما أنى أجيبهم إذا دعوني لحوائجهم. وقرئ يرشدون ويرشدون ، بفتح الشين وكسرها.

﴿أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ هُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (١٨٧)

كان الرجل إذا أمسى حل له الأكل والشرب ^(٢) والجماع إلى أن يصلى العشاء الآخرة أو يرقد ، فإذا صلاها أو رقد ولم يفطر حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى القابلة ، ثم إنَّ عمر رضى الله عنه واقع أهله بعد صلاة العشاء الآخرة ، فلما اغتسل أخذ ييكى ويلوم نفسه ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله ، إني أعتذر إلى الله وإليك من نفسي هذه الخاطئة وأخبره بما فعل ، فقال عليه الصلاة والسلام : ما كنت جدرا بذلك يا عمر ^(٣). فقام رجال فاعترفوا بما كانوا صنعوا بعد العشاء ، فنزلت. وقرئ : أحل لكم ليلة الصيام الرفث ، أى أحل الله. وقرأ عبد الله :

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم والدارقطني في المؤتلف من رواية الصلت بن حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه عن جده «أن أعرابيا . فذكره . وزاد» بعد قوله «فنناديه» «فسكت عنه»
(٢) قال محمود رحمه الله : «كان الرجل إذا أمسى حل له الأكل ... الخ» قال أحمد رحمه الله : ويشهد لصحة هذا الجواب أنه لما استقرت الاباحة فيه قال : ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ فكفى عنه الكناية المألوفة في الكتاب العزيز. وبشكل بقوله : ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ فان هذه العبارة استعملت ولم ينقل في الحج ما نقل في الصوم من سبب نزول الآية وهو واقعة المكروه. ويمكن أن يجاب عنه لما وقع في آية الحج منهيّا عنه أريد للشعبة عندهم كيلا يقعوا فيه ، فعبّر عنه بما هجنه لكون ذلك منفراً لهم عن التورط.
(٣) رواه الطبري من طريق عطية عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ الآية ، قال : كان الناس أول ما أسلموا إذا صاموا يطعمون من الطعام فيما بين الماء والعتمة. فإذا صلوا العتمة حرم عليهم الطعام حتى يمسوا من الليلة القابلة وإن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بينما هو نائم إذ سولت له نفسه فأتى أهله فذكره. ليس فيه «فقام رجال فاعترفوا» وروى الطبري من طريق السدى قال «كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقع على جارية له في ناس من المسلمين لم يملكوا أنفسهم فأتى النبي صلى الله عليه وسلم».

الرفوث ، وهو الإفصاح بما يجب أن يكنى عنه ، كلفظ النيك ، وقد أرفث الرجل . وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه أنشد وهو محرم :

وَهَـؤُلَـؤُا يَمْشِيْنَ بَنَـاءٍ هَـيَسَـاءٍ إِنْ تَصَدَّقِ الطَّيْرُ نَبِيَّكَ لَمِيْسَـاءٍ ^(١)

فقليل له : أرفثت؟ فقال : إنما الرث ما كان عند النساء ^(٢) . وقال الله تعالى : فلا رث ولا فسوق ، فكنى به عن الجماع ، لأنه لا يكاد يخلو من شيء من ذلك . فإن قلت : لم كنى عنه هاهنا بلفظ الرث الدال على معنى القبح بخلاف قوله : ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ ، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ ، ﴿بَاشِرُوهُنَّ﴾ ، ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ ، ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ ، ﴿فَأْتُوا حُرَّتْكُمْ﴾ ، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ ، ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ ، ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ﴾؟ قلت : استهجانا لما وجد منهم قبل الإباحة ، فقليل له : أرفثت؟ فقال : إنما الرث ما كان عند النساء ^(٢) . وقال الله تعالى : فلا رث ولا فسوق ، فكنى به عن الجماع ، لأنه لا يكاد يخلو من شيء من ذلك . فإن قلت : لم كنى عنه هاهنا بلفظ الرث الدال على معنى القبح بخلاف قوله : ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ ، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ ، ﴿بَاشِرُوهُنَّ﴾ ، ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ ، ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ ، ﴿فَأْتُوا حُرَّتْكُمْ﴾ ، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ ، ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ ، ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ﴾؟ قلت : استهجانا لما وجد منهم قبل الإباحة ، كما سماه اختيانا لأنفسهم . فإن قلت : لم عدى الرث بلى؟ قلت : لتضمينه معنى الإفضاء . لما كان الرجل والمرأة يعتنقان ويشتمل كل واحد منهما على صاحبه في عناقه ، شبه باللباس المشتمل عليه . قال الجعدي :

إِذَا مَـاءَ الصَّـجِيعِ ثَنَى عِطْفُهُ تَثَنَّتْ فَكَانَتْ عَلَيْهِ لِبَاسَـاءٍ ^(٣)

فإن قلت : ما موقع قوله : ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ﴾؟ قلت : هو استئناف كالبیان لسبب الإحلال ، وهو أنه إذا كانت بينكم وبينهن مثل هذه المخالطة والملابسة قل صبركم عنهنّ وصعب عليكم اجتنابهنّ ، فلذلك رخص لكم في مباشرتهنّ ﴿تَحْتَائُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ تظلمونها وتنقصونها حظها من الخير . والاختيان من الخيانة ، كالاكتساب من الكسب فيه زيادة وشدة ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ حين تبتن مما ارتكبتم من المحذور ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ واطلبوا ما قسم الله لكم وأثبت في اللوح من الولد بالمباشرة ، أى لا تباشروا لقضاء الشهوة وحدها ولكن لا ابتغاء ما وضع الله له النكاح من التناسل .

(١) أنشده ابن عباس في الحج ، فقال له أبو العالية : أترث وأنت محرم؟ فقال إنما الرث ما كان عند النساء . وقال بعضهم : قال حصين بن قيس : أخذ ابن عباس بذنوبه بعيره يلويه وهو يحدو ويقول : وهن ... البيت . فقلت له : أترث وأنت محرم؟ فقال : إنما الرث ما قيل عند النساء . وهن ، أى النوق «يمشين بنا» أى معنا . والهميس : نوع من السير لا صوت له ، نصب يمشين . وإن تصدق الطير ، أى التي تفاء لنا بها حيث طارت جهة اليمين ، وشبه الطير بمخير على طريق المكنية والصدق تخييل . وروى : إن يصدق الظن ، والفعل بعده جواب الشرط ولفظ «النيك» هو الحقيقة في إدخال الذكر في الفرج ، وما عداه . كالوطء والجماع والملامسة . مجاز في الأصل أو كناية ، ولذلك قبح النطق بها دون غيرها . ولميس : اسم امرأة ، ولعل ابن عباس ضربه مثلا للظفر بما كان يقصده

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک من طريق زياد بن الحسين عن أبي العالية «أترث وأنت محرم؟ فقال : إنما الرث ما روجع به النساء» وأخرجه ابن أبي شيبة والطبري من هذا الوجه . والهميس : يفتح الهاء وآخره مهملة : ضرب من السير ، لا يسمع له وقع . ذكره ثابت السرقسطي .

(٣) للنايعة الجعدي . و «ما» زائدة . والضجيع : المضاجع . والعطف . بالكسر . : الجانب . تثنت : بالغث في مطلوبه من التعانق فكانت مشتملة عليه كاللباس ، فهو تشبيه بليغ . ويروى : ثنى جيدها ، أى عنقها .

وقيل : هو نُهى عن العزل لأنه في الحرائر. وقيل : وابتغوا المحل الذي كتبه الله لكم وحلله دون ما لم يكتب لكم من المحل المحرّم. وعن قتادة : وابتغوا ما كتب الله لكم من الإباحة بعد الحظر. وقرأ ابن عباس (واتبعوا) وقرأ الأعمش (وأوتوا) وقيل معناه : واطلبوا ليلة القدر وما كتب الله لكم من الثواب إن أصبتموها وقمتموها ، وهو قريب من بدع التفاسير ﴿الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ﴾ هو أوّل ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق كالخيوط الممدود. و ﴿الْخَيْطُ الْأَسْوَدُ﴾ ما يمتدّ معه من غبش الليل ، شبهها بخيطين أبيض وأسود. قال أبو داود ^(١) :

قَلَمَ أَضَاءَتْ لَنَا سَدَفَةٌ وَلَاحَ مِنَ الصُّبْحِ خَيْطٌ أَنَارَ ^(٢)

وقوله ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ بيان للخيوط الأبيض ، واكتفى به عن بيان الخيط الأسود. لأنّ بيان أحدهما بيان للثاني. ويجوز أن تكون «من» للتبعيض : لأنه بعض الفجر وأوله. فإن قلت : أهذا من باب الاستعارة أم من باب التشبيه؟ قلت : قوله : ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ أخرجه من باب الاستعارة ، كما أن قولك : رأيت أسداً مجاز. فإذا زدت «من فلان» رجعت تشبيهاً. فإن قلت : فلم زيد ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ حتى كان تشبيهاً؟ وهلا اقتصر به على الاستعارة التي هي أبلغ من التشبيه وأدخل في الفصاحة؟ قلت : لأن من شرط المستعار أن يدل عليه الحال أو الكلام ، ولو لم يذكر ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ لم يعلم أن الخيطين مستعاران ، فزيد ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فكان تشبيهاً بليغاً وخرج من أن يكون استعارة. فإن قلت : فكيف التبس على عدى بن حاتم مع هذا البيان حتى قال : عمدت إلى عقالين أبيض وأسود ^(٣) فجعلتهما تحت وسادتي فكنت أقوم من الليل فأنظر إليهما فلا يتبين لي الأبيض من الأسود ، فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فضحك وقال : «إن كان وسادك لعريضا» ، وروى : «إنك لعريض القفا» ^(٤) إنما ذاك بياض النهار وسواد الليل؟ قلت : غفل عن البيان ، ولذلك عرّض رسول الله صلى الله عليه وسلم قفاه ، لأنه مما يستدل به على بلاهة الرجل وقلة فطنته. وأنشدتني بعض البدويات لبدوى :

(١) قوله «قال أبو داود» لعله : دواد. (ع)

(٢) لأبي داود. وأضاء وأنار ، يجيئان لازمان كما هنا ومتعديين. والسدفة بياض الفجر يشوبه قليل ظلام. وفي لغة نجد : الظلمة. وأسدف المرأة القناع : أرسلته. وأسدف الليل : أظلم. وعند غيرهم هي الاضاءة والصبح. وأسدف الصبح. أضاء. وأسدف الباب فتحه. وشبه بياض بعض الصبح بالخيوط في امتداده. ويجوز أن «من» بياض ، وجملة أنار صفة خيط ، وجواب الشرط فيما بعده.

(٣) متفق عليه من حديث الشعبي عن عدى بن حاتم.

(٤) هذه الرواية في البخاري أيضا من طريق الشعبي عن عدى بن حاتم أيضا.

عَرِيضُ الْقَفِّ مِيزَانُهُ فِي شِمَالِهِ قَدْ انْخَصَّ مِنْ حَسَبِ الْقَرَارِيطِ شَارِبُهُ (١)

فإن قلت : فما تقول فيما روى عن سهل بن سعد الساعدي (٢) : أنها نزلت ولم ينزل ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود ، فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبيننا له ، فنزل بعد ذلك ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فعلموا أنه إنما يعنى بذلك الليل والنهار؟ وكيف جاز تأخير البيان وهو يشبه العبث ، حيث لا يفهم منه المراد ، إذ ليس باستعارة لفقد الدلالة ، ولا بتشبيه قبل ذكر الفجر ، فلا يفهم منه إذن إلا الحقيقة وهي غير مرادة؟ قلت : أما من لم يجوز تأخير البيان . وهم أكثر الفقهاء والمتكلمين ، وهو مذهب أبي عليّ وأبي هاشم . فلم يصح عندهم هذا الحديث . وأما من يجوز فيقول : ليس بعبث . لأن المخاطب يستفيد منه وجوب الخطاب ويعزم على فعله إذا استوضح المراد منه ﴿ثُمَّ أَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ قالوا : فيه دليل على جواز النية بالنهار (٣) في صوم رمضان ، وعلى جواز تأخير الغسل إلى الفجر ، وعلى نفى صوم الوصال ﴿عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ معتكفون فيها . والاعتكاف أن يجلس نفسه في المسجد يتعبد فيه . والمراد بالمباشرة الجماع لما تقدم من قوله ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ ، ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ وقيل معناه : ولا تلامسوهنّ بشهوة ، والجماع يفسد الاعتكاف ، وكذلك إذا لمس أو قبل فأنزل . وعن قتادة كان الرجل إذا اعتكف خرج فباشر امرأته ثم رجع إلى المسجد ، فنهاهم الله عن ذلك . وقالوا : فيه دليل على أن الاعتكاف لا يكون إلا في مسجد ، وأنه لا يختص به مسجد دون مسجد . وقيل : لا يجوز إلا في مسجد نبويّ وهو أحد المساجد الثلاثة . وقيل : في مسجد جامع . والعمامة على

(١) يصف رجلا بالغباوة على طريق الكناية . فعرض القفا : كناية عن الحمق . وكون ميزانه في شماله : كناية عن البلية . وانخص : أى انحسر شاربه ، لكثرة ما يعرض على شفته عند الحسب ، كناية عن البلادة .

(٢) متفق عليه من رواية أبي حازم عنه .

(٣) قال محمود رحمه الله : «قالوا فيه دليل على جواز النية بالنهار ... الخ» . قال أحمد : وجه : استدلالهم من الآية على الحكم الأول متعذر ، لأن إقران النية بأول الصوم وجوداً غير معتبر باتفاق ، وتقديمها من الليل وتستصحب معتبر باتفاق ، فإذا لا تنافي بين الأكل والشرب إلى الفجر وبين نية الصوم المستقبل من الليل . ووجودها من الليل متقدمة على الصوم مستفاد من دليل دل عليه ، وإنما لم يتم لهم الاستدلال بالآية على اعتبار النية في النهار . لو كان الأكل والشرب ليلاً إلى الفجر . يناهض صحة استصحاب النية ، وكان اقتضاء الآية لجواز الأكل والشرب إلى الفجر يمنع من اعتبار النية من الليل إلى الفجر لوجود المناق لها ولا بد منها ، فيتعين أن يوقع بعد الفجر على هذا التقدير . وذلك التقدير كما علمت متفق على بطلانه . وأما الاستدلال بما على الحكمين الآخرين فصحيح مستند والله أعلم . ولتفطن الزمخشري لبطلان الاستدلال بالآية على الحكم المذكور سلك سبيل النقل عنهم فقال : قالوا ، لا يقوله إلا في مثل هذا المعنى ، ولم يسعه التنبيه على بطلان الاستدلال لأنه على وفق مذهبه .

أنه في مسجد جماعة. وقرأ مجاهد : في المسجد ﴿تِلْكَ﴾ الأحكام التي ذكرت ﴿حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ فلا تغشوها فإن قلت : كيف قيل ^(١) ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ مع قوله : ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾؟ قلت : من كان في طاعة الله والعمل بشرائعه فهو متصرف في حيز الحق فنهى أن يتعداه لأن من تعداه وقع في حيز الباطل ثم بولغ في ذلك فنهى أن يقرب الحد الذي هو الحاجز بين حيزي الحق والباطل لئلا يداني الباطل ، وأن يكون في الواسطة متباعداً عن الطرف فضلاً عن أن يتخطاه ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إِنَّ لكل ملك حمى ، وحمى الله محارمه فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه ^(٢)» فالرتع حول الحمى وقربان حيزه واحد. ويجوز أن يريد بحدود الله محارمه ومناهيه خصوصاً ، لقوله : ﴿وَلَا تُبَاسِرُوا هُنَّ﴾ وهي حدود لا تقرب.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْءِلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٨٨)

ولا يأكل بعضكم مال بعض ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ بالوجه الذي لم يبيحه الله ولم يشرعه. ولا ﴿تُدْءِلُوا بِهَا﴾ ولا تلتقوا أمرها والحكومة فيها إلى الحكام ﴿لِتَأْكُلُوا﴾ بالتحاكم ﴿فَرِيقًا﴾ طائفة ﴿مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾ بشهادة الزور ، أو باليمين الكاذبة ، أو بالصلح ، مع العلم بأن المقضى له ظالم. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال للخصمين. «إنما أنا بشر وأنتم تختصمون إليّ ، ولعلّ بعضكم ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع منه ، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذنّ منه شيئاً ، فإن ما أفضى ^(٣) له قطعة من نار» فبكيا وقال كل واحد منهما : حقي لصاحبي. فقال «أذهباً فتوخيا ، ثم استهمل ، ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه» ^(٤) وقيل ﴿وَتُدْءِلُوا بِهَا﴾ وتلقوا بعضها إلى حكام السوء على وجه الرشوة. وتدلوا : مجزوم داخل في حكم النهى ، أو منصوب بإضمار أن ، كقوله : ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾. ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم على الباطل ، وارتكاب المعصية مع العلم بقبحها أقبح ، وصاحبه أحق بالتوبيخ.

(١) قال محمود رحمه الله : «إن قلت كيف قال فلا تقربوها ... الخ» قال أحمد رحمه الله تعالى : وفي هذه الآية دليل بين لمذهب مالك رضى الله تعالى عنه في سد الذرائع والاحتياط للمحرمات لا يدافع عنه.

(٢) متفق عليه. وله ألفاظ.

(٣) قوله «فان ما أفضى» لعله : فإنما. (ع)

(٤) أخرجه أبو داود ، والدارقطني ، والحاكم ، وأحمد ، وإسحاق ، وابن أبي شيبة ، وأبو يعلى ، كلهم من رواية أسامة بن زيد عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أم سلمة. وأصله في الصحيحين بدون الزيادة.

ولم يجسر على مثله. ثم قال ﴿وَأَنُؤُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ أى وباشروا الأمور من وجوهها التي يجب أن تباشر عليها ولا تعكسوا. والمراد وجوب توطين النفوس وربط القلوب على أن جميع أفعال الله حكمة وصواب ، من غير اختلاج شبهة ولا اعتراض شك في ذلك حتى لا يسأل عنه ؛ لما في السؤال من الابهام بمقارفة الشك ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلَوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٩٣)

المقاتلة في سبيل الله : هو الجهاد لإعلاء كلمة الله وإعزاز الدين ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ الذين يناجزونكم القتال دون المحاجزين. وعلى هذا يكون منسوخا بقوله : ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾. وعن الربيع بن أنس رضى الله عنه : هي أول آية نزلت في القتال بالمدينة فكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم يقاتل من قاتل ويكف عمن كف. أو الذين يناصرونكم القتال دون من ليس من أهل المناصب من الشيوخ والصبيان الرهبان والنساء. أو الكفرة كلهم لأنهم جميعا مضادون للمسلمين قاصدون لمقاتلتهم ، فهم في حكم المقاتلة ، قاتلوا أو لم يقاتلوا. وقيل : لما صدّ المشركون رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم عام الحديبية وصالحوه على أن يرجع من قابل فيخلوا له مكة ثلاثة أيام فرجع لعمرة القضاء ، خاف المسلمون أن لا يفي لهم قريش ويصدّوهم ويقاتلوهم في الحرم وفي الشهر الحرام وكرهوا ذلك نزلت وأطلق لهم قتال الذين يقاتلوهم منهم في الحرم والشهر الحرام ، ورفع عنهم الجناح في ذلك ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ بابتداء القتال أو بقتال من نهيتم عن قتاله من النساء والشيوخ والصبيان والذين ^(١) بينكم وبينهم عهد أو بالمثلثة أو بالمفاجأة من غير دعوة ﴿حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ﴾

(١) قوله «والذين» لعله أو الذين. (ع)

حيث وجدتموهم في حل أو حرم. والثقف وجود على وجه الأخذ والغلبة. ومنه : رجل ثقف ، سريع الأخذ لأقرانه. قال :

فَإِمَّا تَثْقَفُونِي فَمَقْلُوبُونَ فَأَتَقَفْ فَلَئْسَ إِلَى خُلُودٍ (١)

﴿مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أى من مكة وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن لم يسلم منهم يوم الفتح ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أى المحنة والبلاء الذي ينزل بالإنسان يتعذب به أشد عليه من القتل. وقيل لبعض الحكماء : ما أشد من الموت؟ قال : الذي يتمنى فيه الموت ، جعل الإخراج من الوطن من الفتن والحن التي يتمنى عندها الموت. ومنه قول القائل :

لَقَتُّ لِي بِحَدِّ السَّيْفِ أَهْوَنُ مَوْقِعاً عَلَى النَّفْسِ مِنْ قَتْلِ بَحْدٍ فِرَاقٍ (٢)

وقيل ﴿الْفِتْنَةُ﴾ عذاب الآخرة ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ وقيل : الشرك أعظم من القتل في الحرم ، وذلك أنهم كانوا يستعظمون القتل في الحرم ويعيبون به المسلمين ، ف قيل : والشرك الذي هم عليه أشد وأعظم مما يستعظمونه. ويجوز أن يراد : وفتنتهم إياكم بصدكم عن المسجد الحرام أشد من قتلهم إياهم في الحرم ، أو من قتلهم إياكم إن قتلوكم فلا تبالوا بقتلهم. وقرئ : ولا تقتلوهم حتى يقتلوكم ، فإن قتلوكم : جعل وقوع القتل في بعضهم كوقوعه فيهم. يقال : قتلنا بنو فلان. وقال : فإن تقتلونا نقتلكم ﴿فَإِنْ انْتَهَوْا﴾ عن الشرك والقتال ، كقوله : ﴿إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾. ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ أى شرك ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ خالصا ليس للشيطان فيه نصيب ﴿فَإِنْ انْتَهَوْا﴾ عن الشرك ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ فلا تعدوا على المنتهين لأنّ مقاتلة المنتهين عدوان وظلم ، فوضع قوله : ﴿إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ موضع على المنتهين. أو فلا تظلموا إلا الظالمين غير المنتهين ، سمى جزاء الظالمين ظلما للمشاكلة ، كقوله تعالى : ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ أو أريد أنكم إن تعرضتم لهم بعد الانتهاء كنتم ظالمين فيسلط عليكم من يعدو عليكم.

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٩٤)

(١) «إما» هي «أن» الشرطية أدغمت نونها في «ما» الزائدة للتصيص على التعميم. والثقف : القبض والضبط. ومنه «الثقاف» وهو الآلة التي تعض الرماح وتقبضها لتقويمها. يقول : إن تدركوني في أى وقت وتغلبوني فاقتلوني ، فإن من أدركني منكم ليس مجابا أو منتهيا إلى خلود ، بل لا بد من قتله. وهذا من الاشاحة والجد في القتال ، وقطع أطماع الصلح من البال.

(٢) يقول : تالله إن القتل بالسيف أهون على النفس وقوعا من القتل بالفراق. وشبهه بالسيف على طريق المكنية ، وإضافة الحد إليه تخييل ، وحسن الاستعارة مشاكلته لما قبله.

قاتلهم المشركون عام الحديبية في الشهر الحرام وهو ذو القعدة ، فقليل لهم عند خروجهم لعمرة القضاء وكراهم القتال وذلك في ذى القعدة : ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ أى هذا الشهر بذلك الشهر وهتكه بهتكه ، يعنى تهتكون حرمة عليهم كما هتكوا حرمة عليكم ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ أى وكل حرمة يجرى فيها القصاص من هتك حرمة أى حرمة كانت ، اقتص منه بأن تهتك له حرمة ، فحين هتكوا حرمة شهرهم فافعلوا بهم نحو ذلك ولا تبالوا ، وأكد ذلك بقوله ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ مِثْلَ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في حال كونكم منتصرين ممن اعتدى عليكم ، فلا تعتدوا إلى ما لا يحل لكم.

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٩٥)

الباء في ﴿بِأَيْدِيكُمْ﴾ مزيده مثلها في أعطى بيده للمنقاد. والمعنى : ولا تقبضوا التهلكة أيديكم ، أى لا تجعلوها آخذة بأيديكم مالكة لكم. وقيل (بأيديكم) بأنفسكم : وقيل تقديره : ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم ، كما يقال : أهلك فلان نفسه بيده ، إذا تسبب لهلاكها. والمعنى : النهى عن ترك الإنفاق في سبيل الله لأنه سبب الهلاك ، أو عن الإسراف في النفقة حتى يفقر نفسه ويضيع عياله. أو عن الاستقتال والإضرار بالنفس ، أو عن ترك الغزو الذي هو تقوية للعدو. وروى أن رجلا من المهاجرين حمل على صف العدو فصاح به الناس : ألقى بيده إلى التهلكة. فقال أبو أيوب الأنصاري : نحن أعلم بهذه الآية ، وإنما أنزلت فينا ، صحبتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنصرناه ، وشهدنا معه المشاهد ، وآثرناه على أهالينا وأموالنا وأولادنا ، فلما فشا الإسلام وكثر أهله ووضعت الحرب أوزارها ، رجعنا إلى أهالينا وأولادنا وأموالنا نصلحها ونقيم فيها ، فكانت التهلكة الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد^(١). وحكى أبو على في الحلبيات عن أبي عبيدة ، التهلكة والهلاك والهلك واحد. قال : فدلّ هذا من قول أبي عبيدة على أن

(١) أخرجه الثعلبي من طريق عثمان الدارمي أخبرنا عبد الله بن صالح عن الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن أسلم بن عمران . فذكره سواء. وأصله عند أبي داود والنسائي والترمذي من رواية أسلم المذكور. قال «خرجنا من المدينة نريد القسطنطينية. وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد. فخرج من المدينة صف عظيم من الروم وصفنا لهم صفاً عظيماً من المسلمين فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم. فصاح الناس : ألقى بيده إلى التهلكة فقال أبو أيوب : يا أيها الناس ، الحديث . وفي رواية الترمذي «وعلى الناس فضالة بن عبيد» وفي رواية النسائي «وعلى أهل مصر عقبة بن خالد» «وعلى أهل الشام فضالة» وكذا أخرجه أحمد وإسحاق ، وأبو يعلى ، والطبري ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وغيرهم.

التهلكة مصدر. ومثله ما حكاه سيبويه من قولهم التضرة والتسرة ونحوها في الأعيان : التنضبة والتنفلة. ويجوز أن يقال : أصلها التهلكة كالتجربة والتبصرة ونحوها ، على أنها مصدر من هلك فأبدلت من الكسرة ضمة ، كما جاء الجوار في الجوار.

﴿وَأَتُمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَخْلِفُوا رُؤُسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (١٩٦)

﴿وَأَتُمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ اتوا بهما تامين كاملين بمناسكهما وشرائطهما لوجه الله من غير توان ولا نقصان يقع منكم فيهما. قال :

تَمَامُ الْحَجِّ أَنْ تَقْرَفَ الْمَطَايَا عَلَى خَرْقَاءٍ وَاضِرَّةٍ اللَّيْلَةَ (١)

جعل الوقوف عليها كبعض مناسك الحج الذي لا يتم إلا به. وقيل : إتمامها أن تحرم بهما من دويرة أهلك ، روى ذلك عن عليّ وابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم. وقيل : أن تفرد لكل واحد منها سفراً كما قال محمد : حجة كوفية وعمرة كوفية أفضل. وقيل : أن تكون النفقة حالاً. وقيل : أن تخلصوهما للعبادة ولا تشوبوهما بشيء من التجارة والأغراض الدنيوية. فإن قلت : هل فيه دليل على وجوب العمرة؟ قلت : ما هو إلا أمر بإتمامهما ، ولا دليل في ذلك على كونهما واجبين أو تطوعين ، فقد يؤمر بإتمام الواجب والتطوع جميعاً ، إلا أن تقول : الأمر بإتمامهما أمر بأدائهما ، بدليل قراءة من قرأ : وأقيموا الحج والعمرة. والأمر للوجوب في أصله ، إلا أن يدلّ دليل على خلاف الوجوب ، كما دلّ في قوله : ﴿فَاصْطَادُوا﴾ ، ﴿فَانْتَشَرُوا﴾

(١) لذي الرمة. وخرقاء : اسم محبوبة له من بنى عامر ، لأنه لما شغف بها خرق أدواته وقال : إن تمام حجنا أن نزور خرقاء فتقف مطايا رجل مسافر ، فأصلح لي أدواتي. فقالت : والله لا أحسن العمل وإني لخرقاء أى حمقاء ، حولها حال كونها واضعة اللثام عن وجهها حتى أراه. وإضافة الوصف إلى مفعوله لفظية لا تفيد التعريف فصح حالاً. وحكى أن بعض السلف الصالح قال لصاحبه : هل نتم حجنا كما قال ذو الرمة ، وأنشد البيت. قيل وحقيقة مراده أنه ينبغي كما قطعنا البراري ووصلنا إلى حرمة ، أن نقطع أهواء النفس حتى نشاهد آثار كرمه ، فيكون استعماله البيت من باب التمثيل.

ونحو ذلك ، فيقال لك : فقد دلّ الدليل على نفى الوجوب ، وهو ما روى أنه قيل : يا رسول الله : العمرة واجبة مثل الحج؟ قال : «لا ، ولكن أن تعتمر خير لك» ^(١) وعنه «الحج جهاد والعمرة تطوع» ^(٢). فإن قلت : فقد روى عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : إن العمرة لقرينة الحج ^(٣). وعن عمر رضي الله عنه أن رجلا قال له : إني وجدت الحج والعمرة مكتوبين عليّ ، أهملت بهما جميعاً فقال : «هديت لسنة نبينا» ^(٤) وقد نظمت مع الحج في الأمر بالإتمام فكانت واجبة مثل الحج؟ قلت : كونها قرينة للحج أنّ القارن يقرن بينهما ، وأنهما يقتربان في الذكر فيقال : حجّ فلان واعتمر والحجّ والعمار ، ولأنها الحجّ الأصغر ، ولا دليل في ذلك على كونها قرينة له في الوجوب. وأما حديث عمر رضي الله عنه فقد فسر الرجل كونهما مكتوبين عليه بقوله : أهملت بهما ، وإذا أهمل بالعمرة وجبت عليه كما إذا كبر بالتطوع من الصلاة. والدليل الذي ذكرناه أخرج العمرة من صفة الوجوب فبقى الحجّ وحده فيها ، فهما بمنزلة قولك : صم شهر رمضان وستة من شوال ، في أنك تأمره بفرض وتطوع. وقرأ عليّ وابن مسعود والشعبي رضي الله عنهم (والعمرة لله) بالرفع ، كأنهم قصدوا بذلك إخراجها عن حكم الحجّ وهو الوجوب ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ يقال : أُحْصِر فلان ، إذا منعه أمر من خوف أو مرض أو عجز. قال الله تعالى ﴿الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. وقال ابن ميادة :

وَمَا هَجَرُوا لَيْلَى أَنْ تَكُونَنَّ تَبَاعَدَتْ عَلَيَّكَ وَلَا أَنَّ أُحْصِرْتُمْ شَأْنٌ غَوْلٌ ^(٥)

(١) أخرجه الترمذي من رواية حجاج بن أرطاة عن ابن المنكدر «أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن العمرة : أواجبة هي؟ قال : لا. وأن تعتمر هو أفضل» ورواه الطبراني من رواية عبيد الله بن المغيرة عن أبي الزبير عن جابر ، بلفظ «وأن تعتمر خير لك» ورواه الدارقطني من الوجهين. وضعفه.

(٢) أخرجه ابن ماجه من رواية إسحاق بن طلحة بن عبيد الله عن أبيه بهذا. ورواه الطبراني من حديث ابن عباس بنحوه وفيه محمد بن الفضل بن عطية. وهو ضعيف. ورواه ابن داود في المصاحف من رواية عمر بن قيس عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن عمه عن مسعود. قال الدارقطني في العلل : هذا خطأ. ولعله أراد إسحاق بن يحيى بن طلحة عن عمه عيسى بن طلحة. وإنما يعرف هذا الحديث من رواية معاوية بن إسحاق بن طلحة عن عمته عائشة بنت طلحة عن عائشة. ورواه الحفاظ من أصحاب شعبة عن معاوية بن إسحاق عن أبي صالح عن ماهان مرسلا. وكذلك رواه ابن أبي شيبه عن جرير عن معاوية بن إسحاق. وقال البيهقي : روى عن شعبة هذا الاسناد موصولا. لكن الطريق فيه إلى شعبة ضعيف.

(٣) أخرجه البخاري تعليقا. والشافعي موصولا. من رواية عمرو بن دينار عن طاوس عنه.

(٤) أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان ، من رواية أبي وائل عن الضبي بن مغبدية.

(٥) لتوبة بن حمير ، يقول لنفسه : ليس هجر ليلي الأخيلية محبوبتك لتباعدتها عنك ولا لأشغال منعتك عنها ، بل لخوف الرقباء والوشاة هجرتها. ويجوز أن المعنى : ليس هجرها لك بسبب ، وإنما هو لا يذاتك واحتراق قلبك.

وَحُصِرَ : إذا حبسه عدوّ عن المضىّ ، أو سجن. ومنه قيل للمحبس : الحصير. وللملك ، الحصير ، لأنه محجوب. هذا هو الأكثر في كلامهم ، وهما بمعنى المنع في كل شيء ، مثل صدّه وأصدّه. وكذلك قال الفراء وأبو عمرو الشيباني ، وعليه قول أبي حنيفة رحمهم الله تعالى ، كل منع عنده من عدوّ كان أو مرض أو غيرهما معتبر في إثبات حكم الإحصار. وعند مالك والشافعي منع العدو وحده. وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم : «من كسر أو عرج فقد حلّ وعليه الحج من قابل»^(١) ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ فما تيسر منه. يقال : يسر الأمر واستيسر ، كما يقال : صعب واستصعب. والهدى جمع هدية ، كما يقال في جدية السرج^(٢) جدي. وقرئ (من الهدى) بالتشديد جمع هدية كمطية ومطىّ. يعنى فإن منعتم من المضى إلى البيت وأنتم محرمون بحج أو عمرة ، فعليكم إذا أردتم التحلل ما استيسر من الهدى من بعير أو بقرة أو شاة ، فإن قلت : أين ومتى ينحر هدى المحصر؟ قلت : إن كان حاجاً فبالحرم متى شاء عند أبي حنيفة يبعث به ، ويجعل للمبعوث على يده يوم أمار^(٣) وعندهما في أيام النحر وإن كان معتمراً فبالحرم في كل وقت عندهم جميعاً. و «ما استيسر» رفع بالابتداء ، أى فعلية ما استيسر. أو نصب على : فاهدوا ما استيسر ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ﴾ الخطاب للمحصرين : أى لا تحلقوا حتى تعلموا أنّ الهدى الذي بعثتموه إلى الحرم بلغ ﴿مَحَلَّةً﴾ أى مكانه الذي يجب نحره فيه. ومحل الدين وقت وجوب قضائه ، وهو ظاهر على مذهب أبي حنيفة رحمه الله. فإن قلت : إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم نحر هديه حيث أحصر^(٤)؟ قلت : كان محصره طرف الحديبية الذي إلى أسفل مكة وهو من الحرم ، وعن الزهري أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نحر هديه في الحرم. وقال الواقدي : الحديبية هي طرف الحرم على تسعة أميال

(١) أخرجه أصحاب السنن وأحمد ، وإسحاق ، وابن أبي شيبة ، والطبراني من حديث عكرمة عن ابن عمرو ابن غزية الأنصاري.

(٢) قوله «في جدية السرج» في الصحاح «الجدية» بتسكين الدال : شيء محشو يجعل تحت دفتي السرج والرحل. ثم قال : وكذلك الجدية على فعيلة. (ع)

(٣) قوله «على يده يوم أمار» عبارة البيضاوي : يوم أمار ، فإذا جاء اليوم وظن أنه ذبح تخلل. وفي الصحاح : قال الأصمعي : الأمار ولأماراة. الوقت والعلامة. (ع)

(٤) أما نحر الهدى حين حصر ففي البخاري من حديث ابن عمر رضى الله عنهما «أنه صلى الله عليه وسلم خرج معتمراً. فحال كفار قريش بينه وبين البيت فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية» وأما كونه أسفل مكة فرواه [بياض في الأصل]. وأما حديث الزهري فلم أجده لكن روى الطبري من حديث ناجية بن جندب الأسلمي» قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم حين صد عن البيت. فقلت : يا رسول الله ابعث معى بالهدى فنحر بالحرم. قال : كيف تصنع به؟ قال : أنحدر به في أودية فلا يقدرّون عليه. فانطلقت به حتى نحرته في الحرم.

من مكة ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا﴾ فمن كان به مرض يحوجه إلى الحلق ﴿أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ﴾ وهو القمل أو الجراحة ، فعليه إذا احتلق فدية ﴿مِنْ صِيَامٍ﴾ ثلاثة أيام ﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾ على ستة مساكين ، لكل مسكين نصف صاع من برٍّ ﴿أَوْ نُسْكِ﴾ وهو شاة. وعن كعب بن عجرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له ، «لعلك أذاك هو امك؟» قال : نعم يا رسول الله. قال : «احلق رأسك وصم ثلاثة أيام ، أو أطعم ستة مساكين ، أو انسك شاة»^(١) وكان كعب يقول : فيّ نزلت هذه الآية ، وروى أنه مرّ به وقد قرّح رأسه^(٢) فقال : «كفى بهذا أذى»^(٣) وأمره أن يحلق ويطعم ، أو يصوم. والنسك مصدر ، وقيل جمع نسيكة. وقرأ الحسن : أو نسك ، بالتخفيف ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ الإحصار ، يعني فإذا لم تحصروا وكنتم في أمن وسعة ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ﴾ أى استمتع ﴿بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ واستمتعاه بالعمرة إلى وقت الحج : انتفاعه بالتقرب بها إلى الله تعالى قبل الانتفاع بتقريبه بالحج. وقيل : إذا حلّ من عمرته انتفع باستباحة ما كان محرماً عليه إلى أن يحرم من الحج ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ هو ، هدى المتعة ، وهو نسك عند أبي حنيفة ويأكل منه. وعند الشافعي يجري مجرى الجنايات ولا يأكل منه. ويذبحه يوم النحر عندنا. وعنده يجوز ذبحه إذا أحرم بحجته ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ الهدى فعليه ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ أى في وقته وهو أشهره ما بين الإحرامين إحرام العمرة وإحرام الحج ، وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله. والأفضل أن يصوم يوم التروية وعرفة ويوماً قبلهما ، وإن مضى هذا الوقت لم يجزئه إلا الدم. وعند الشافعي : لا تصام إلا بعد الإحرام بالحج تمسكا بظاهر قوله : ﴿فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ بمعنى إذا نفرتم وفرغتم من أفعال الحج عند أبي حنيفة ، وعند الشافعي : هو الرجوع إلى أهاليهم. وقرأ ابن أبي عبله (وسبعة) بالنصب عطفا على محل ثلاثة أيام ، وكأنه قيل : فصيام ثلاثة أيام ، كقوله : ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا﴾ فإن قلت فما فائدة الفذلة؟ قلت : الواو قد تجيء للإباحة في نحو قولك : جالس الحسن وابن سيرين. ألا ترى أنه لو جالسهما جميعا أو واحداً منهما كان ممثلا ففذلكت نفيا لتوهم الإباحة. وأيضا ففائدة الفذلة في كل حساب أن يعلم العدد جملة كما علم تفصيلا ليحاط به ، ومن جهتين ، فيتأكد العلم. وفي أمثال العرب : علما من خير من علم ، وكذلك ﴿كَامِلَةً﴾ تأكيد آخر. وفيه

(١) متفق عليه. وله طريق وألفاظ في الكتب الستة وغيرها. والأقرب للفظ المصنف ما رواه مالك.

(٢) قوله «وقد قرّح رأسه» في الصحاح : قرّح جلده . بالكسر . خرجت به القروح. (ع)

(٣) أخرجه إسحاق في مسنده والطبراني والدارقطني من رواية الزبير بن عدى عن أبي وائل عن كعب بن عجرة قال «لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمسح رأسي فتناثر القمل. فقال : كفى بهذا أذى ، انطلق فاحلق وتصدق على ستة مساكين» وفي رواية إسحاق ، قال : «إن هذا لأذى» وأمره أن يحلق وأن ينسك أو يصوم أو يطعم».

زيادة توصية بصيامها وأن لا يتهاون بها ولا ينقص من عددها ، كما تقول للرجل إذا كان لك اهتمام بأمر تأمره به وكان منك بمنزل : الله الله لا تقصر . وقيل : كاملة في وقوعها بدلا من الهدى . وفي قراءة أبيّ : فصيام ثلاثة أيام متتابعات ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى التمتع ، عند أبي حنيفة وأصحابه . لا متعة ولا قران لحاضري المسجد الحرام عندهم ، ومن تمتع منهم أو قرن كان عليه دم وهو دم جنابة لا يأكل منه ؛ وأما القارن والمتمتع من أهل الآفاق فدمهما دم نسك يأكلان منه . وعند الشافعي : إشارة إلى الحكم الذي هو وجوب الهدى أو الصيام ولم يوجب عليهم شيئا ^(١) . وحاضرو المسجد الحرام : أهل المواقيت فمن دونها إلى مكة عند أبي حنيفة . وعند الشافعي : أهل الحرم ومن كان من الحرم على مسافة لا تقصر فيها الصلاة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في المحافظة على حدوده وما أمركم به ونهاكم عنه في الحج وغيره ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن خالف ليكون علمكم بشدة عقابه لطفاً لكم في التقوى .

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٩٧)

أى وقت الحج ﴿أَشْهُرٌ﴾ كقولك : البرد شهران . والأشهر المعلومات : شوال وذو القعدة وعشر ذى الحجة ^(٢) عند أبي حنيفة . وعند الشافعي : تسع ذى الحجة وليلة يوم النحر . وعند مالك : ذى الحجة كله . فإن قلت : ما فائدة توقيت الحج بهذه الأشهر؟ قلت : فائدته أن شيئا من أفعال الحج لا يصح إلا فيها ، والإحرام بالحج لا ينعقد أيضا عند الشافعي في غيرها . وعند أبي حنيفة ينعقد إلا أنه مكروه . فإن قلت : فكيف كان الشهران وبعض الثالث أشهر؟ قلت : اسم الجمع

(١) قوله «ولم يوجب عليهم شيئا» أى على حاضري المسجد الحرام . (ع)

(٢) قال محمود رحمه الله : «هي شوال وذو القعدة ... الح» . قال أحمد : الذي نقله عن مالك أحد قوليه وليس بالشهور عنه . وأما استدلاله لهذا القول بكرامية عمر الاعتماد إلى أن يهل الحرم فلا ينهض دليلا لمالك ، لأنه يقول : لا تنعقد العمرة في أيام منى خاصة لمن حج ، ما لم يتم الرمي ويحل بالافاضة فتتعقد . وجميع السنة ما عدا ما ذكر ميقات للعمرة ، ولا تطهر فائدة هذا القول عند مالك إلا في إسقاط الدم عن مؤخر طواف الافاضة إلى آخر ذى الحجة لا غير ، وهي الفائدة التي نقلها الزمخشري عن عروة ، ولعمري إن هذا القول حسن دليلا ، فلا يحتاج إلى مزيد . ولكن ظاهر الآية ومقتضاها : أن جملة الأشهر هي زمان الحج . ألا ترى أن من قال : وعشر من ذى الحجة يحتاج في تنزيل الآية على مذهبه إلى تقرير أن بعض الشهر يتنزل منزلة جميعه ، ويستشهد على ذلك بقوله : ثلاثون شهرا في ثلاثة أحوال وإنما أحوجه إلى الاستشهاد ، خروج مقالته عن ظاهر الآية ؛ فالمتمسك بها على ظاهرها في كمال الأشهر الثلاثة واقف مع اقتضاها غير مضطر إلى مزيد عليه .

يشترك فيه ما وراء الواحد. بدليل قوله تعالى : ﴿فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ فلا سؤال فيه إذن ، وإنما كان يكون موضعاً للسؤال لو قيل : ثلاثة أشهر معلومات. وقيل : نزل بعض الشهر منزلة كله ، كما يقال : رأيتك سنة كذا ، أو على عهد فلان ، ولعل العهد عشرون سنة أو أكثر ، وإنما رآه في ساعة منها. فإن قلت : ما وجه مذهب مالك وهو مروى عن عروة بن الزبير؟ قلت : قالوا إنّ العمرة غير مستحبة فيها عند عمر وابن عمر ؛ فكأنها مخصصة للحج لا مجال فيها للعمرة. وعن عمر رضى الله عنه : أنه كان يخفق الناس بالدرة وينهاهم عن الاعتمار فيهنّ. وعن عمر ^(١) رضى الله عنه قال لرجل : إن أطعتني انتظرت حتى إذا أهملت المحرم ^(٢) خرجت إلى ذات عرق فأهللت منها بعمره. وقالوا : لعل من مذهب عروة جواز تأخير طواف الزيارة إلى آخر الشهر ﴿مَعْلُومَاتٌ﴾ معروفة عند الناس لا يشككن عليهم. وفيه أنّ الشرع لم يأت على خلاف ما عرفوه. وإنما جاء مقرراً له ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ فمن ألزمه نفسه بالتلبية أو بتقليد الهدى وسوقه عند أبي حنيفة وعند الشافعي بالنية ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ فلاجماع ؛ لأنه يفسده. أو فلا فحش من الكلام ﴿وَلَا فُسُوقٌ﴾ ولا خروج عن حدود الشريعة وقيل. هو السباب والتنازع بالألقاب ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ ولا مرأى مع الرفقاء والخدم والمكاريين ^(٣) : وإنما أمر باجتناب ذلك. وهو واجب الاجتناب في كل حال ^(٤) لأنه مع الحج أسمع كلبس الحرير في الصلاة ؛ والتطريب في قراءة القرآن. والمراد بالنفي وجوب انتفائها ، وأنها حقيقة بأن لا تكون. وقرئ المنفيات الثلاث بالنصب وبالرفع. وقرأ أبو عمرو وابن كثير الأولين بالرفع ؛ والآخر بالنصب ؛ لأنهما حملاً الأولين على معنى النهي ، كأنه قيل : فلا يكونن رفث ولا فسوق ، والثالث على معنى الإخبار بانتفاء الجدال كأنه قيل : ولا شك

(١) قوله «وعن عمر» لعله ابن عمر. (ع)

(٢) قوله «حتى إذا أهملت المحرم» في الصحاح : أهل الهلال واستهل ، على ما لم يسم فاعله. (ع)

(٣) قوله «والمكاريين» في الصحاح : الكراء ممدود ، لأنه مصدر كارية. والدليل على ذلك أنك تقول : رجل مكار. ومفاعل : إنما هو من فاعلت اه فالمكاريين في عبارة المفسر. جمع للمكارى ، على زنة المفاعلين جمعاً للمفاعل. (ع)

(٤) قال محمود رحمه الله : «إنما أمر باجتناب ذلك في الحج واجتنابه واجب ... الخ». قال أحمد رحمه الله : وفيه نكتة تتعلق بعلم البيان ، وهي أن تخصيص الحج بالنهي عن الرفث فيه والفسوق والجدال يشعر بأنها في غير الحج وإن كانت منها قبيحة ، إلا أن ذلك القبح الثابت لها في غير الحج كلا قبح بالنسبة إلى وقوعها في الحج فاشتمل هذا التخصيص على هذا النوع من المبالغة البليغة والله أعلم. على أن الرفث إن كان التحدث في أمر الجماع خاصة ، فالنهي عنه خاص بالحج وهو جائز في غيره على الوجه الشرعي. وقد نبه مالك رضى الله عنه على أنه لا بأس للحاج بالسعي في أمور النساء ، إلا أن ذلك قد يقع في الوهم أنه يؤدي إلى ترك المحذور ، وهذا يدل على تشديد مالك في حظر الرفث للحاج وما يتعلق به والله أعلم. وسمعت الشافعية يلهجون بالاعتراض على إسحاق في قوله من التنبيه : وتحريم الغيبة على الصائم. فيقولون : وعلى المفطر ، فلا فائدة في تخصيص الصائم ، ويعدون ذلك وهماً منه وهم بمعزل عن هذه الآية وأمثالها ، فقد أوسعته عذراً في عبارته تلك ؛ إذ الكتاب العزيز به تمتحن الفصاحة وصحة العبارات.

ولا خلاف في الحج وذلك أنّ قريشاً كانت تخالف سائر العرب فتقف بالمشعر الحرام ، وسائر العرب يقفون بعرفة ؛ وكانوا يقدمون الحج سنة ويؤخرونه سنة وهو النسيء ، فترد إلى وقت واحد وردّ الوقوف إلى عرفة ، فأخبر الله تعالى أنه قد ارتفع الخلاف في الحج. واستدلّ على أن المنهي عنه هو الرث والفسوق دون الجدال بقوله صلى الله عليه وسلم «من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج كهيئة يوم^(١) ولدته أمه^(٢)» وأنه لم يذكر الجدال ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾. حث على الخير عقيب النهي عن الشر ؛ وأن يستعملوا مكان القبيح من الكلام الحسن ، ومكان الفسوق البرّ والتقوى ؛ ومكان الجدال الوفاق والأخلاق الجميلة. أو جعل فعل الخير عبارة عن ضبط أنفسهم حتى لا يوجد منهم ما نحووا عنه ، وينصره قوله تعالى ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ أى اجعلوا زادكم إلى الآخرة اتقاء القبائح فإنّ خير الزاد اتقاؤها. وقيل : كان أهل اليمن لا يتزوّدون ويقولون : نحن متوكلون ، ونحن نحج بيت الله أفلا يطعمنا فيكونون كلاً على الناس ، فنزلت فيهم. ومعناه : وتزوّدوا واتقوا الاستطعام وإبرام الناس^(٣) والتثقيل عليهم ، فإن خير الزاد التقوى ﴿وَاتَّقُوا﴾ وخافوا عقابي ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يعنى أن قضية اللب تقوى الله ، ومن لم يتقه من الألباء فكأنه لا لب له.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٢٠٢)

(١) قوله «خرج كهيئة يوم» لعله «كهيئة» بدون «يوم». (ع)

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٣) قوله «إبرام الناس» في الصحاح : أبرمه ، أى أمله وأضجره. (ع)

﴿فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ عطاء منه وتفضلا ، وهو النفع والربح بالتجارة ، وكان ناس من العرب يتأثمون أن يتجروا أيام الحج ، وإذا دخل العشر كفوا عن البيع والشراء فلم تقم لهم سوق ، ويسمون من يخرج بالتجارة الداج^(١). ويقولون هؤلاء الداج وليسوا بالحاج. وقيل : كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقهم في الجاهلية يتجرون فيها في أيام الموسم. وكانت معاشهم منها ، فلما جاء الإسلام تأثموا ، فرفع عنهم الجناح في ذلك وأبيع لهم ، وإنما يباح ما لم يشغل عن العبادة ، وعن ابن عمر رضى الله عنه : أن رجلا قال له : إنا قوم نكرى في هذا الوجه وإن قوما يزعمون أن لا حج لنا ، فقال : سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عما سألت فلم يردّ عليه ، حتى نزل (ليس عليكم جناح) فدعا به فقال : أنتم حجاج^(٢). وعن عمر رضى الله عنه أنه قيل له : هل كنتم تكرهون التجارة في الحج؟ فقال : وهل كانت معاشنا إلا من التجارة في الحج^(٣). وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما : فضلا من ربكم في مواسم الحج. إن تبتغوا في أن تبتغوا^(٤) ﴿أَفْضُنْكُمْ﴾ دفعتم بكثرة ، وهو من إفاضة الماء وهو صبه بكثرة ، وأصله أفضنتم أنفسكم ، فترك ذكر المفعول كما ترك في دفعوا من موضع كذا صبوا. وفي حديث أبي بكر رضى الله عنه^(٥) : صب في دقران ، وهو يخرش^(٦) بغيره بمحجنه» ويقال : أفاضوا في الحديث وهضبوا فيه^(٧). و ﴿عَرَفَاتٍ﴾ علم للموقف سمى بجمع كأذرعات. فإن قلت : هلا منعت الصرف وفيها السبيان : التعريف والتأنيث؟^(٨)

-
- (١) قوله «الداج» الدجيج : الديب في السير وقالوا : الحاج والداج ، فالداج : الأعوان والمكارون كذا في الصحاح. والمكارون : جمع المكاري ، كالمغازين جمع المغازي. (ع)
- (٢) أخرجه أبو داود وأحمد وابن أبي شيبة والحاكم من طريق العلاء بن المسيب : حدثنا أبو أمامة التيمي قال «كنت أكرى في هذا الوجه وكان قوم يقولون : إنه ليس لك حج ، فلقيت ابن عمر ، فقال : ألسنت بمحرم ، ولكن . الحديث»
- (٣) أخرجه الطبري من طريق عبد الرحمن بن مهاجر عن أبي صالح مولى عمر. قال «قلت : يا أمير المؤمنين . فذكره» وفي إسناده مندل بن علي . وهو ضعيف.
- (٤) قوله «أن تبتغوا» كان الأوجه تقديم هذا على تفسير قوله تعالى : ﴿فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾. (ع)
- (٥) لم أجده. والذي في الغرائب لأبي عبيد الجرمي . وفي مسند الشافعي وطبقات ابن سعد كلهم من حديث ابن عيينة عن ابن المنكدر ، وعن عبد الرحمن بن سعيد بن يربوع عن جبير بن الحويرث قال «رأيت أبا بكر على قزع. وهو يخرش بغيره بمحجنه» : زاد الجرمي عن أبي بكر بن أبي شيبة عن ابن عيينة «كأنى أنظر إلى فخذه وقد انكشفت»
- (٦) قوله «دقران» في بعض النسخ : ذفران ، بالذال المعجمة والفاء. ولعل الأول بالذال المهملة والفاء ، من الدفر بمعنى النتن خاصة. والذفر . بالمعجمة والفاء محركة . ذكاء الرائحة طيبة أو خبيثة ، كما في الصحاح. أما الدقر بالمهملة والقاف فبمعنى الشدة والكذب والفحش والنميمة. أفاده الصحاح. وفيه. الخرش مثل الخدش. (ع)
- (٧) قوله «وهضبوا فيه» في الصحاح : الهضبة المطرة. وهضب القوم في الحديث واهتضبوا أى أفاضوا فيه. (ع)
- (٨) قال محمود رحمه الله : «فان قلت هلا منعت عرفات الصرف ... الخ؟ قال أحمد رحمه الله : يلزمه إذا .

قلت : لا يخلو من التأنيث إما أن يكون بالتاء التي في لفظها ، وإما بتاء مقدرة كما في سعاد ، فالتى في لفظها ليست للتأنيث ، وإنما هي مع الألف التي قبلها علامة جمع المؤنث ولا يصح تقدير التاء فيها ، لأنّ هذه التاء لا اختصاصها بجمع المؤنث مانعة من تقديرها كما لا يقدر تاء التأنيث في بنت ، لأن التاء التي هي بدل من الواو لا اختصاصها بالمؤنث كتاء التأنيث فأبت تقديرها. وقالوا : سميت بذلك لأنها وصفت لإبراهيم عليه السلام فلما أبصرها عرفها. وقيل إن جبريل حين كان يدور به في المشاعر أراه إياها فقال : قد عرفت. وقيل : التقى فيها آدم وحواء فتعارفا. وقيل : لأنّ الناس يتعارفون فيها والله أعلم بحقيقة ذلك ، وهي من الأسماء المرتجلة لأنّ العرفة لا تعرف في أسماء الأجناس إلا أن تكون جمع عارف. وقيل : فيه دليل على وجوب الوقوف بعرفة لأنّ الإفاضة لا تكون إلا بعده. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «الحج عرفة فمن أدرك عرفة فقد أدرك الحج»^(١) ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ بالتلبية والتلهيل والتكبير والثناء والدعوات. وقيل : بصلاة المغرب والعشاء و ﴿الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ قرح ، وهو الجبل الذي يقف عليه الإمام وعليه الميقدة. وقيل المشعر الحرام : ما بين جبل المزدلفة من مأزمية عرفة^(٢) إلى وادي محسر ، وليس المأزمان ولا وادي محسر من المشعر الحرام. والصحيح أنه الجبل ، لما روى جابر رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم لما صلى الفجر يعنى بالمزدلفة بغلس ، ركب ناقته حتى أتى المشعر الحرام فدعا وكبر وهلل ، ولم يزل واقفا حتى أسفر^(٣). وقوله تعالى : ﴿عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ معناه مما يلي المشعر الحرام قريبا منه ، وذلك للفضل ، كالقرب من جبل الرحمة ، وإلا فالمزدلفة كلها موقف إلا وادي محسر. أو جعلت أعقاب المزدلفة لكونها في حكم المشعر ومتصلة به عند المشعر. والمشعر : المعلم ، لأنه معلم العبادة. ووصف بالحرم لحرمة. وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه نظر إلى الناس ليلة جمع فقال : لقد أدركت الناس هذه الليلة لا ينامون. وقيل : سميت المزدلفة وجمعا ؛ لأنّ آدم صلوات الله عليه اجتمع فيها مع حواء وازدلف إليها ، أى دنا منها. وعن قتادة : لأنه يجمع فيها بين الصلاتين. ويجوز أن يقال : وصفت بفعل أهلها ، لأنهم يزدلفون إلى الله أى يتقربون بالوقوف فيها ﴿كَمَا هَدَاكُمْ﴾

. سمى امرأة بمسلمات أن لا يصرفه فيقول : هذا مسلمات بغير تنوين ، وهو قول ردىء بل الأفصح الصحيح في مسلمات إذا سمى به أن ينون. وإنما بنى الزمخشري كلامه هذا على أن تنوين عرفات للتمكين لا للمقابلة ، ولذلك أسقط تنوين المقابلة من أنواع التنوين التي عدها في مفصله ، على أنه راجع إلى تنوين التمكين.

(١) رواه أصحاب السنن والحاكم. واللفظ للنسائي. وزاد «قبل أن يطلع الفجر» كلهم من حديث عبد الرحمن ابن يعمر الديلي رضى الله عنه

(٢) قوله «من مأزمية عرفة» في الصحاح : المأزم المضيق ، وموضع الحرب أيضا. (ع)

(٣) أخرجه مسلم في صفة الحج في الحديث الطويل.

ما مصدرية أو كافة. والمعنى : واذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هداية حسنة واذكروه كما علمكم كيف تذكرونه ، لا تعدلوا عنه ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ﴾ من قبل الهدى ﴿لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ الجاهلين ، لا تعرفون كيف تذكرونه وتعبّدونه. وإن هي مخففة من الثقلية واللام هي الفارقة ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا﴾ ثم لتكن إفاضتكم ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ ولا تكن من المزدلفة ، وذلك لما كان عليه الخمس من الترفع ^(١) على الناس والتعالي عليهم وتعظمهم عن أن يساووهم في الموقف. وقولهم : نحن أهل الله وقطان حرمة فلا نخرج منه ، فيقفون بجمع وسائر الناس بعرفات؟ فإن قلت : فكيف موقع ثم؟ قلت : نحو موقعها في قولك : أحسن إلى الناس ثم لا تحسن إلى غير كريم ، تأتي بثم لتفاوت ما بين الإحسان إلى الكريم والإحسان إلى غيره وبعد ما بينهما ؛ فكذلك حين أمرهم بالذكر عند الإفاضة من عرفات قال : ثم أفيضوا لتفاوت ما بين الإفاضتين ، وأن إحداها صواب والثانية خطأ. وقيل : ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس وهم الخمس ، أى من المزدلفة إلى منى بعد الإفاضة من عرفات. وقرئ : من حيث أفاض الناس . بكسر السين . أى الناسي وهو آدم ، من قوله : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى﴾ يعنى أن الإفاضة من عرفات شرع قديم فلا تخالفوا عنه ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ من مخالفتكم في الموقف ونحو ذلك من جاهليتكم ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مِنْ أَنْبَاءِكُمْ﴾ أى فإذا فرغتم من عباداتكم الحجية ونفرتم ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ فأكثروا ذكر الله وبالغوا فيه كما تفعلون في ذكر آبائكم ومفاخرهم وأيامهم. وكانوا إذا قضوا مناسكهم وقفوا بين المسجد بمنى وبين الجبل. فيعدّدون فضائل آبائهم ويذكرون محاسن أيامهم. ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ في موضع جرّ عطف على ما أضيف إليه الذكر ^(٢) في قوله : ﴿كَذِكْرِكُمْ﴾ كما

(١) قال محمود رحمه الله : «وذلك لما كان عليه الخمس من الترفع على الناس ... الخ». قال أحمد رحمه الله :

وقد اشتملت الآية على نكتتين :

إحداها : عطف الإفاضتين إحداها على الأخرى ومرجعها واحد وهو الإفاضة المأمور بها ، فرمما يتوهم متوهم أنه من باب عطف الشيء على نفسه ، فيزال هذا الوهم بأن بينهما من التغاير ما بين العام والخاص ، والمخبر عنه أولاً الإفاضة من حيث هي غير مقيدة ، والمأمور به ثانياً الإفاضة مخصوصة بمساواة الناس.

والثانية : بعد وضوح استقامة العطف كونه وقع بحرف المهيمنة وذلك يستدعى التراخي مضافاً إلى التغاير ، وليس بين الإضافة المطلقة والمقيدة تراخ. فالجواب على ذلك : أن التراخي كما يكون باعتبار الزمان قد يكون باعتبار علو المرتبة وبعدها في العلو بالنسبة إلى غيرها ، وهو الذي أجاب به بعد مزيد نشيط وإيضاح

(٢) قال محمود رحمه الله : «أشد معطوف على ما أضيف إليه الذكر ... الخ». قال أحمد رحمه الله : فعلى الأول يكون ﴿أَشَدَّ﴾ واقعاً على المذكور المفعول. ومثاله على الأول : أن يضرب اثنان زيداً مثلاً ، فيقول أيهما أشد ضرباً لزيد؟ فيوقعه على الضارب. ومثال الثاني أن يضرب زيد اثنان مثلاً فتقول : أيهما أشد ضرباً؟ فتوقعه على المضروب. وعلى الوجه الأول يكون التفضيل على الفاعل وهو القياس. وعلى الثاني يكون التفضيل على المفعول وهو خلاف القياس. وقد ذكر الزمخشري في مفصله أنه شاذ بقولهم : أتسبل مرآة التحسين وأنا أسر منك ، هذا في .

تقول كذاكر قريش آباءهم أو قوم أشد منهم ذكراً. أو في موضع نصب عطف على آباءكم ، بمعنى أو أشد ذكراً من آباءكم ، على أن ذكراً من فعل المذكور ﴿فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ﴾ معناه أكثروا ذكر الله ودعائه فإنّ الناس من بين مقل لا يطلب بذكر الله إلا أعراض الدنيا ، ومكثر يطلب خير الدارين ، فكونوا من المكثرين ﴿آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ اجعل إيتاءنا أى إعطاءنا في الدنيا خاصة ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ أى من طلب خلاقي وهو النصيب. أو ما لهذا الداعي في الآخرة من نصيب ، لأنّ همه مقصور على الدنيا.

والحسنتان ما هو طلبه الصالحين في الدنيا من الصحة والكفاف والتوفيق في الخير ، وطلبتهم في الآخرة من الثواب. وعن علي رضي الله عنه : الحسنة في الدنيا المرأة الصالحة ، وفي الآخرة الحوراء. وعذاب النار : امرأة السوء : ﴿أُولَئِكَ﴾ الداعون بالحسنتين ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ أى نصيب من جنس ما كسبوا من الأعمال الحسنة ، وهو الثواب الذي هو المنافع الحسنة. أو من أجل ما كسبوا ، كقوله : ﴿مِمَّا خَطِينَا قِمَمُ أُغْرِقُوا﴾. أو لهم نصيب مما دعوا به نعطيتهم ما يستوجبونه بحسب مصالحهم في الدنيا واستحقاقهم في الآخرة. وسمى الدعاء كسبا لأنه من الأعمال ، والأعمال موصوفة بالكسب : بما كسبت أيديكم. ويجوز أن يكون ﴿أُولَئِكَ﴾ للفريقين جميعاً ، وأن لكل فريق نصيباً من جنس ما كسبوا ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب العباد. فبادروا إكثار الذكر وطلب الآخرة ، أو وصف نفسه بسرعة حساب الخلائق على كثرة عددهم وكثرة أعمالهم ليدلّ على كمال قدرته ووجوب الحذر منه.

. أمثلة عددها ، فليت شعري كيف حمل الآية عليه وقد وجد غير ذلك سبيلا ، وفي الوجهين جميعاً يفر من عطف أشد على الذكر الأول ، لئلا يكون واقعاً على الذكر وقد انتصب الذكر تمييزاً عنه ، فيكون الذكر ذاكراً وهو محال ، لكن أبا الفتح صحح هذا الوجه وألحقه بباب قولهم : شعر شاعر ، وجن جنونه ، ونحوه مما بالغت العرب فيه حتى جعلت للصفة صفة مثلها تمكينا لثبوتها. ووضح ذلك أن انتصاب الذكر تمييزاً يوجب أن لا يقع أشد عليه ، ويعين خروجه منه إما بأن يقع على الجثة الذاكرة بتأويل جعله ذاكراً ، على ما صار إليه أبو الفتح أنك لو قلت : زيد أكرم أبا ، لكان زيد من الأبناء : ولو قلت : زيد أكرم أب ، لكان من الآباء. ويحتمل عطفه على الذكر أعني وجهها آخر سوى ما ذهب إليه أبو الفتح ، وهو أن يكون من باب ما ذكره سيبويه قال : ويقولون هو أشح الناس رجلاً ، وهما خير الناس رجلاً ، وهما خير الناس اثنين ، فالمرور هنا بمنزلة التنوين ، وانتصب الرجل والاثنين ، كما انتصب الوجه في قولك : هو أحسن منه وجهها ، ولا يكون إلا نكرة ، كما لا تكون الحال إلا نكرة ، والرجل هو الاسم المبتدأ ؛ فإنما أراد بذلك أن هذا ليس بمثابة : هو أشجع الناس غلاماً فان هذا يجوز أن يكون غلاماً هو الاسم المبتدأ كما في المثال الأول ، ويجوز أن يكون غيره ؛ فالآية على هذا الوجه الذي أوضحته منزلة على المثال الأول ، فيكون ذكر المنصوب واقعاً على أشد كما كان الرجل المنصوب واقعاً على أشح ؛ فكأنه قال : أو أشد الأذكار ذكراً ، فهذه وجوه أربعة كلها مطروقة ، إلا هذا الوجه الذي زدته ، فان خاطري أبو عذرته ﴿كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ ولم أقف على كلام الزمخشري فيها بعد.

روى أنه يحاسب الخلق في قدر حلب شاة : وروى في مقدار فواق نافة. وروى في مقدار لحة.

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِيْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِيْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٠٣)

الأيام المعدادات. أيام التشريق ، وذكر الله فيها : التكبير في أذبار الصلوات وعند الجمار. وعن عمر رضى الله عنه : أنه كان يكبر في فسطاطه بمنى فيكبر من حوله ، حتى يكبر الناس في الطريق وفي الطواف ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ﴾ فمن عجل في النفر أو استعجل النفر. وتعجل ، واستعجل : يميئان مطاوعين بمعنى عجل. يقال : تعجل في الأمر واستعجل : ومتعدين ، يقال : تعجل الذهاب واستعجله. والمطاوعة أوفق لقوله : ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ﴾ كما هي كذلك في قوله :

قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعِجِلِ الزَّلَلُ^(١)

لأجل المتأنى ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ بعد يوم النحر يوم القر^(٢) وهو اليوم الذي يسميه أهل مكة يوم الرؤوس ، واليوم بعده ينفر إذا فرغ من رمى الجمار كما يفعل الناس اليوم وهو مذهب الشافعي ويروى عن قتادة. وعند أبي حنيفة وأصحابه ينفر قبل طلوع الفجر ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ﴾ حتى رمى في اليوم الثالث. والرمي في اليوم الثالث يجوز تقديمه على الزوال عند أبي حنيفة. وعند الشافعي

(١) والناس ممن يلبق خيراً قائلون له ما يشتهي ولأم المخطئ الهبل

وقد يدرك المتأنى بعض حاجته

ورمى ففات قوم جمل أمرهم ممن التأنى وكان الرأى لـو عجلوا

للقطامى وقيل للأعشى. والناس مبتدأ. ومن يلق. يصب. خيراً ، شرط حذف صدر جوابه ، أى فهم قائلون له ، والجملة خبر المبتدأ. ما يشتهي ، أى الذي يريده من الدعاء بخير أو من المدح. وروى : ما تشتهي ، فلعل معناه يقولون له : ما تشتهيه أنت يا مخاطب. ويجوز أن «ما» استفهامية ، أى ما الذي تريده يا من لقيت الخير ، لكن تبعده المقابلة. وهبلى المرأة هبلا ، كتعبت تعباً : ثكلت ولدها وفقدته فحزنت عليه. أى ويقال لأم المخطئ الثكلى ، فهو دعاء عليها بموت ولدها. ثم قال :

قد يدرك المنهـل بعض قصده

وعجلته فتعجل واستعجل ، ويتعديان أيضاً فيقال : تعجل الأمر واستعجله. ثم قال : وقد يفوت قوما معظم قصدهم بسبب التأنى وكان الرأى الصواب عجلتهم ، فلو مصدرية.

والمعنى أن بعض الحاجات يناسبها التمهـل ، وبعضها التعجل.

ويجوز أن «لو عجلوا» هو اسم كان والرأى بالنصب خبرها. وروى بدله الحزم ، والمعنى متقارب. وفي الكلام نوع بديعى يسمى العكس والتبديل ، وهو الإتيان بنقيض المعنى المشهور كما هنا ، فان مدح التأنى هو المشهور ، ومدح العجلة يناقضه. أفاده السيوطي في شرح عقود الجمان.

(٢) قوله «يوم النحر يوم القر» في الصحاح : لأن الناس يقرون في منازلهم. (ع)

لا يجوز. فإن قلت : كيف قال ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ عند التعجل والتأخر جميعاً؟ قلت : دلالة على أنّ التعجل والتأخر مخير فيهما ، كأنه قيل : فتعجلوا أو تأخروا. فإن قلت : أليس التأخر بأفضل؟ قلت : بلى ، ويجوز أن يقع التخيير بين الفاضل والأفضل كما خير المسافر بين الصوم والإفطار وإن كان الصوم أفضل ^(١) وقيل : إنّ أهل الجاهلية كانوا فريقين : منهم من جعل المتعجل أثماً ، ومنهم من جعل المتأخر أثماً فورد القرآن بنفي المأثم عنهما جميعاً ﴿لَمَنِ اتَّقَى﴾ أى ذلك التخيير. ونفى الإثم عن المتعجل والمتأخر لأجل الحاج المتقى : لئلا يتخالج في قلبه شيء منهما فيحسب أنّ أحدهما يرهق صاحبه آثام في الإقدام عليه ، لأنّ ذا التقوى حذر متحرّز من كل ما يريبه ، ولأنه هو الحاج على الحقيقة عند الله. ثم قال ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ليعبأ بكم. ويجوز أن يراد ذلك الذي مرّ ذكره من أحكام الحج وغيره لمن اتقى ، لأنه هو المنتفع به دون من سواه ، كقوله : ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾.

﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (٢٠٦)

﴿مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ﴾ أى يروك ويعظم في قلبك. ومنه : الشيء العجيب الذي يعظم في النفس. وهو الأخنس بن شريق كان رجلاً حلو المنطق ، إذا لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ألان له القول وادعى أنه يحبه وأنه مسلم وقال : يعلم الله أنى صادق. وقيل : هو عامّ في المنافقين ، كانت تحلولي ألسنتهم ، وقلوبهم أمرّ من الصبر ، فإن قلت : بم يتعلق قوله ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؟ قلت :

(١) قال محمود رحمه الله : «إنما نفى الإثم في الطرفين جميعاً ليدل على التخيير بين الأمرين الفاضل والأفضل ، كما خير المسافر بين الصوم والفطر وإن كان الصوم أفضل». قال أحمد رحمه الله : قوله . إن التخيير يقع بين الفاضل والأفضل . غير مستقيم ، فان التخيير يوجب التساوي في غرض الخير ، وينافي طلب أحد الطرفين والأمر به . وكيف يستقيم اجتماع ما يوجب الطلب والترجيح وما يوجب التساوي والتخيير . وقد وقع لإمام الحرمين قريب من هذا ، فانه ميز الوجوب من الندب بأن الندب يشتمل على اقتران الأمر بخيرة الترك ولا كذلك الوجوب ، ولم يرضه محققو الفن وإنما أخل الزمخشري في تفسيره الآية فلزمه ذلك السؤال الوارد عليه . وبيان عدم التطابق بين تفسيره والآية ، أى مضمونها نفى الإثم عن الطرفين جميعاً ، وهذا القدر مشترك بين الندب والكراهة والاباحة ، لكن يتميز الندب بترجيح الفعل على الترك ، وتتميز الكراهة والاباحة بالتخيير بينهما ؛ فلا تنافي إذاً بين الندب إلى التأخير وأنه أفضل ، وبين نفى الإثم عن تاركه إلى التعجيل . وحينئذ لا يرد السؤال الذي لزمه فأجاب عنه.

بالقول ، أى يعجبك ما يقوله في معنى الدنيا ؛ لأنّ ادّعاءه المحبة بالباطل يطلب به حظاً من حظوظ الدنيا ولا يريد به الآخرة ، كما تراد بالإيمان الحقيقي والمحبة الصادقة للرسول : فكلامه إذاً في الدنيا لا في الآخرة. ويجوز أن يتعلق بـ«عجبك» ، أى قوله حلّو فصيح في الدنيا فهو يعجبك ، ولا يعجبك في الآخرة لما يرهقه في الموقف من الحبسة واللكنة ، أو لأنه لا يؤذن له في الكلام فلا يتكلم حتى يعجبك كلامه ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ أى يحلف ويقول : الله شاهد على ما في قلبي من محبتك ومن الإسلام. وقرئ : ويشهد الله. وفي مصحف أبيّ : ويستشهد الله : ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ وهو شديد الجدال والعداوة للمسلمين. وقيل : كان بينه وبين ثقيف ^(١) خصومة فبيتهم ليلاً وأهلك مواشيهم وأحرق زروعهم. والخصام : المخاصمة. وإضافة الألد بمعنى في ، كقولهم : ثبت الغدر. أو جعل الخصام ألدّ على المبالغة. وقيل الخصام : جمع خصم ، كصعب وصعاب ، بمعنى وهو أشدّ الخصوم خصومة ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ عنك وذهب بعد إلانة القول وإحلاء المنطق ﴿سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ كما فعل بثقيف. وقيل ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ وإذا كان واليا فعل ما يفعله ولادة السوء من الفساد في الأرض بإهلاك الحرث والنسل. وقيل : يظهر الظلم حتى يمنع الله بشؤم ظلمه القطر فيهلك الحرث والنسل. وقرئ : ويهلك الحرث والنسل ، على أن الفعل للحرث والنسل. والرفع للعطف على سعى. وقرأ الحسن بفتح اللام ، وهي لغة. نحو : أبى يأبى. وروى عنه : ويهلك ، على البناء للمفعول ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ من قولك : أخذته بكذا ، إذا حملته عليه وألزمته إياه ، أى حملته العزة التي فيه وحمية الجاهلية على الإثم الذي ينهى عنه ، وألزمته ارتكابه ، وأن لا يخلّى عنه ضراراً ولجاجاً. أو على ردّ قول الواعظ.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٢٠٧)

﴿يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ يبيعها أى يبيدها في الجهاد. وقيل : يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى يقتل ، وقيل : نزلت في صهيب بن سنان : أرادته المشركون على ترك الإسلام وقتلوا نفراً كانوا معه ، فقال لهم : أنا شيخ كبير ، إن كنت معكم لم أنفعكم وإن كنت عليكم لم أضركم ، فخلوني وما أنا عليه وخذوا مالي. فقبلوا منه ماله وأتى المدينة ﴿وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ﴾ حيث كلفهم الجهاد فعرضهم لثواب الشهداء.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ

(١) قوله «وقيل كان بينه وبين ثقيف» الضمير للأخنس بن شريق (ع)

لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾

السلم) بكسر السين وفتحها. وقرأ الأعمش بفتح السين واللام ، وهو : الاستسلام والطاعة ، أى استسلموا لله وأطيعوه ﴿كَافَّةً﴾ لا يخرج أحد منكم يده عن طاعته. وقيل هو الإسلام. والخطاب لأهل الكتاب لأنهم آمنوا بنبيهم وكتابهم ، أو للمنافقين لأنهم آمنوا بألسنتهم. ويجوز أن يكون كافة حالا من السلم ، لأنها تؤنث كما تؤنث الحرب. قال :

السِّلْمُ تَأْخُذُ مِنْهَا مَا رَضِيتَ بِهِ وَالْحَرْبُ يَكْفِيكَ مِنْ أَنْفَاسِهَا جُرْعٌ^(١)
على أن المؤمنين أمروا بأن يدخلوا في الطاعات كلها. وأن لا يدخلوا في طاعة دون طاعة. أو في شعب الإسلام وشرائعه كلها ، وأن لا يخلوا بشيء منها. وعن عبد الله بن سلام أنه استأذن رسول الله

(١) أبا خراشة أمما أننت ذا نفــــر فــــان قــــومي لم تأكلهــــم الضــــبع
إن تــــك جلمــــود بــــصر لا أؤبــــســــه أوقــــد عــــليه فأمحــــيه فــــينصــــدع
السلم تأخذ منها ما رضىيت به والحرب يكفيك من أنفاسها جـــــرع

للعباس بن مرداس يخاطب خفاف بن ندية. وأما أنت : أصله لأن كنت ، فحذفت لام التعليل وكان الناقصة ، فانفصل ضميرها ونابت عنها ما ، وأدغمت فيها أن المصدرية. وقال الكوفيون تأتي «أن» بالفتح شرطية كان بالكسر ، وعلى هذا فلا حاجة لتقدير لام التعليل ، والمعنى على الشرط والجواب. والضبع : السنة المجذبة ، أو الحيوان المعروف. والبصر : حجارة تضرب إلى بياض ، واحدة بصرة. وقيل هي بمعناه ، وأبسه تأيساً : ذلله وكسره. يقول يا أبا خراشة ، لأن كنت صاحب جيش افتخرت على ، لا تفعل ذلك فان قومي موجودون كثيرون. وكفى عن ذلك بعدم أكل الضبع إياهم. ويحتمل أن فيه تعريضا أيضا ، ثم قال : إن تكن كصخر من الحجارة لا أقدر على تأيسه وتكسيه لصلابته ، أو قد عليه نار الحرب بمعاونة الفرسان لي فأحرقه فينشق وينكسر ؛ فالإيقاد استعارة مصرحة ، والاحماء ترشيح. أو إن لم أغلبك على العادة تحيلت حتى أغلبك ، كما يتحيل بكسر الحجر بالنار. وأتى بضمير الغيبة نظراً للخبر ، ورفع أحميه وينصدع بعد الشرط المضارع قليل ضعيف ، سيما مع عطفهما على المجزوم ، ولعله توهم جزمه. والسلم بالفتح وبالكسر : الصلح تأخذ منها ما يكفيك من طول المدة ، أو تأخذ منا بسببها. وأما الحرب فيكفيك منها القليل ، فتتكبر جرع للتقليل. وشبه الحرب بنار منجسة في ظرف ذى منافذ تخرج منها أنفاس ، وشبه الأنفاس بماء على طريق المكنية والأنفاس تحيل للأولى والجرع تحيل للثانية ، وفيها نوع تمكيم حيث شبه الحار بالبارد ، كأنه يسقيه من أنفاسها. ويروى «في السلم تأخذ منا ما رضىيت به» أى تأخذ منا شيئا كثيراً في زمن الصلح ، ولا تطبيق من حربنا إلا قليلا ؛ لكن هذه الرواية إنما تدل على تأنيث السلم ، بطريق المقابلة للحرب.

صلى الله عليه وسلم أن يقيم على السبت ^(١) وأن يقرأ من التوراة في صلاته من الليل ^(٢) وكافة من الكف ، كأثم كفوا أن يخرج منهم أحد باجتماعهم ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ﴾ عن الدخول في السلم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أى الحج والشواهد على أن ما دعيتم إلى الدخول فيه هو الحق ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يعجزه الانتقام منكم ﴿حَكِيمٌ﴾ لا ينتقم إلا بحق. وروى أن قارئا قرأ غفور رحيم ، فسمعه أعرابي فأنكره ولم يقرأ القرآن وقال : إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا الحكيم ، لا يذكر الغفران عند الزلل ، لأنه إغراء عليه. وقرأ أبو السمال : زلتم بكسر اللام وهما لغتان ، نحو : ظللت وظللت. ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٢١٠)

إتيان الله إتيان أمره وبأسه كقوله : ﴿أَوْ يَأْتِي أَمْرُ رَبِّكَ﴾ ، ﴿جَاءَهُمْ بِأَسْنَا﴾ ويجوز أن يكون المأتى به محذوفا ، بمعنى أن يأتيهم الله ببأسه أو بنقمته للدلالة عليه بقوله : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾. ﴿فِي ظُلَلٍ﴾ جمع ظلة وهي ما أظلك. وقرئ : ظلال وهي جمع ظلة ، كقطة وقلال أو جمع ظل. وقرئ ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ بالرفع كقوله : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ وبالجر عطف على ظلل أو على الغمام. فإن قلت : لم يأتيهم العذاب في الغمام؟ قلت : لأن الغمام مظنة الرحمة ، فإذا نزل منه العذاب كان الأمر أفضع وأهول ، لأن الشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أغم ، كما أن الخير إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أسرّ ، فكيف إذا جاء الشر من حيث يحتسب الخير ، ولذلك كانت الصاعقة من العذاب المستفظة لحيثها من حيث يتوقع الغيث. ومن ثمة اشتد على المتفكرين في

(١) رواه عبد الغنى بن سعيد الثقفي في تفسيره عن موسى بن عبد الرحمن الصنعاني عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال «نزلت هذه الآية في عبد الله بن سلام وأصحابه. وذلك أنهم حين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم آمنوا بشريعته وشريعة موسى ، فعظموا السبت وكرهوا لحمان الإبل والبأنها بعد ما أسلموا. فأنكر ذلك عليهم المسلمون : فقالوا : إنا نقوى على هذا وهذا وقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم في التوراة كتاب الله تعالى : وفي هذا فلنعمل بما [في نسخة «إن التوراة كتاب الله. فدعا فلنعمل بها»]. فأنزل الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ وهي نسخة موضوعة. وقد أخرجه الطبري من رواية حجاج بن محمد عن ابن جريج عن عكرمة. وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ الآية قال : نزلت في أناس من اليهود أسلموا كعبد الله بن سلام ، وثعلبة ، وابن يامين وأسد بن كعب. وطائفة من يهود ، استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسبتوا وأن يقوموا بالتوراة ليلا. فأمرهم الله بإقامة شعائر الإسلام والرغبة عما عداها. قال فذكر الآية. فهذا أولى. وابن جريج لم يسمع من عكرمة.

(٢) قوله «في صلاته من الليل» لعل بعده سقطا تقديره : فنزلت. (ع)

كتاب الله قوله تعالى : ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾. ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ وأتم أمر إهلاكهم وتدميرهم وفرغ منه. وقرأ معاذ بن جبل رضى الله عنه : وقضاء الأمر ، على المصدر المرفوع عطفا على الملائكة. وقرئ : ترجع ، وترجع ، على البناء للفاعل والمفعول بالتأنيث والتذكير فيهما.

﴿سَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٢١١)

﴿سَلَّ﴾ أمر للرسول عليه الصلاة والسلام أو لكل أحد. وهذا السؤال سؤال تقرير كما تسئل الكفرة يوم القيامة ﴿كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ على أيدي أنبيائهم وهي معجزاتهم ، أو من آية في الكتب شاهدة على صحة دين الإسلام ، و ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ آياته ، وهي أجل نعمة من الله ، لأنها أسباب الهدى والنجاة من الضلالة. وتبديلهم إياها : أن الله أظهرها لتكون أسباب هداهم ، فجعلوها أسباب ضلالتهم. كقوله : ﴿فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ أو حرفوا آيات الكتب ^(١) الدالة على دين محمد صلى الله عليه وسلم. فإن قلت : كم استفهامية أم خبرية؟ قلت : تحتل الأمرين.

ومعنى الاستفهام فيها للتقرير. فإن قلت : ما معنى ﴿مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُ﴾. قلت : معناه من بعد ما تمكن من معرفتها أو عرفها ، كقوله : ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه؟ لأنه إذا لم يتمكن من معرفتها أو لم يعرفها ، فكأنها غائبة عنه : وقرئ : ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ﴾ بالتخفيف.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢١٢)

المزين هو الشيطان ^(٢) زين لهم الدنيا وحسنها في أعينهم بوساوسه وحببها إليهم فلا يريدون غيرها.

ويجوز أن يكون الله قد زينها لهم بأن خذلهم حتى استحسوها وأحبوها ، أو جعل إمهال المزين له تزيينا ، ويدل عليه قراءة من قرأ (زين الذين كفروا

الحياة الدنيا) على البناء للفاعل ﴿وَيَسْخَرُونَ

(١) قوله «أو حرفوا آيات الكتب» لعله عطف على المعنى ، أى أنهم جعلوا المعجزات أسباب ضلالهم ، وقد جعلها الله أسباب هداهم. أو حرفوا آيات الكتب ... الخ. (ع)

(٢) قال محمود رحمه الله «المزين هو الشيطان ... الخ» قال أحمد رحمه الله : وردت إضافة التزيين إلى الله تعالى وإضافته إلى غيره في مواضع من الكتاب العزيز وهذه الآية تحتل الوجهين ، لكن الإضافة إلى قدرة الله تعالى حقيقة ، والإضافة إلى غيره مجاز. على قواعد السنة. والمخشري يعمل على عكس هذا ، فان أضاف الله فعلا من أفعاله إلى قدرته جعله مجازا وإن أضافه إلى بعض مخلوقاته جعله حقيقة. وسبب هذا هو التعكيس باتباع الهوى في القواعد الفاسدة.

مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا كانت الكفرة يسخرون من المؤمنين الذين لا حظ لهم من الدنيا كابن مسعود وعمار وصهيب وغيرهم ، أى لا يريدون غيرها. وهم يسخرون ممن لا حظ له فيها ، أو ممن يطلب غيرها **﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾** لأنهم في عليين من السماء ، وهم في سجين من الأرض ^(١) أو حالهم عالية لحالهم ؛ لأنهم في كرامة وهم في هوان. أو هم عالون عليهم متطاولون يضحكون منهم كما يتطاول هؤلاء عليهم في الدنيا ويرون الفضل لهم عليهم ، **﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾**. **﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾** بغير تقدير ، يعنى أنه يوسع على من توجب الحكمة التوسعة عليه كما وسع على قارون وغيره ، فهذه التوسعة عليكم من جهة الله لما فيها من الحكمة وهي استدراجكم بالنعمة. ولو كانت كرامة لكان أولياؤه المؤمنون أحق بها منكم. فإن قلت : لم قال : **﴿مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾** ثم قال : **﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا﴾** ؟ قلت : ليريك أنه لا يسعد عنده إلا المؤمن المتقى ، وليكون بعثا للمؤمنين على التقوى إذا سمعوا ذلك.

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُخَكِّمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢١٣)

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ متفقين على دين الإسلام **﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾** يريد : فاختلّفوا فبعث الله. وإنما حذف لدلالة قوله : **﴿لِيُخَكِّمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾** عليه. وفي قراءة عبد الله : كان الناس أمة واحدة فاختلّفوا فبعث الله. والدليل عليه قوله عز وعلا **﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ**

(١) قال محمود رحمه الله : «لأنهم في عليين من السماء ، وهم في سجين ... الخ». قال أحمد رحمه الله : وهذا من وضع الظاهر موضع المضمرة بصفة أخرى ومثله في كتاب الله كثير ، قال الله تعالى : **﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾** وكان الأصل : ألا إنهم ... الآية ، فوضع الظاهر موضع المضمرة بصفة أخرى ، وضمنه ذكر صفة الظلم بتلو صفة الخسران. وفي كلام الزمخشري طماح إلى قاعدته في وجوب وعيد العصاة. ألا تراه يقول : ليريك أنه لا يسعد عنده إلا المؤمن المتقى ، إشارة إلى أن غير المتقى وهو المصر على الكبائر شقى حتما كهؤلاء الذين يسخرون من الذين آمنوا ، ومنهم من يتمحل فيقول : لأنه جعل المؤمن عين المتقى ومقتضى قاعدته الفاسدة : أن الإيمان يستلزم القوى حتى لا يفرض مؤمن إلا متقيا. إذ الإيمان فيما فسره هو في تفسيره هذا وفيما فسره أهل بدعته في كتبهم هو تصديق الاعتقاد الصحيح والنطق به بالعمل الصالح ، والمخل عندهم بالعمل إما بالإصرار على كبيرة أو بترك مهم من الواجبات فاسق ليس بمؤمن ولا كافر. فمقتضى هذا التقرير على ما ترى أن كل مؤمن متق ، وقد علمت من كلامه على هذه الآية ما يأبى ذلك وينقصه.

إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ﴿٢١٤﴾ وقيل : كان الناس أمة واحدة كفاراً ، فبعث الله النبيين ، فاختلفوا عليهم . والأول الوجه . فإن قلت : متى كان الناس أمة واحدة متفقين على الحق؟ قلت : عن ابن عباس رضى الله عنهما : أنه كان بين آدم وبين نوح عشرة قرون على شريعة من الحق فاختلفوا . وقيل : هم نوح ومن كان معه في السفينة **﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾** يريد الجنس ، أو مع كل واحد منهم كتابه **﴿لِيَحْكُمَ﴾** الله ، أو الكتاب ، أو النبي المنزل عليه **﴿فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾** في الحق ودين الإسلام الذي اختلفوا فيه بعد الاتفاق **﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ﴾** في الحق **﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾** إلا الذين أوتوا الكتاب المنزل لإزالة الاختلاف ، أى ازدادوا في الاختلاف لما أنزل عليهم الكتاب ، وجعلوا نزول الكتاب سبباً في شدة الاختلاف واستحكامه **﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾** حسداً بينهم وظلماً لحرصهم على الدنيا وقلة إنصاف منهم . و **﴿مِنَ الْحَقِّ﴾** بيان لما اختلفوا فيه ، أى فهدى الله الذين آمنوا للحق الذي اختلف فيه من اختلف .

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبَاسَاءِ وَالصَّرَاءِ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهَ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (٢١٤)

﴿أَمْ﴾ منقطعة ، ومعنى الهمزة ^(١) فيها للتقرير وإنكار الحسبان واستبعاده . ولما ذكر ما كانت عليه الأمم من الاختلاف على النبيين بعد مجيء البينات . تشجيعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على الثبات والصبر مع الذين اختلفوا عليه من المشركين وأهل الكتاب وإنكارهم لآياته وعداوتهم له . قال لهم على طريقة الالتفات التي هي أبلغ : أم حسبتم **﴿وَلَمَّا﴾** فيها معنى التوقع ، وهي في النفي نظيرة «قد» في الإثبات . والمعنى أن إتيان ذلك متوقع منتظر **﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا﴾** حالهم التي هي مثل في الشدة . و **﴿مَسْتَهْمُ﴾** بيان للمثل وهو استئناف ، كأن قائلًا قال : كيف كان ذلك المثل؟ ف قيل : مستهم البأساء **﴿وَزُلْزِلُوا﴾** وأزعجوا إزعاجاً شديداً شبيهاً بالزلزلة بما أصابهم من الأهوال والأفزع **﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ﴾** إلى الغاية التي قال الرسول ومن معه فيها **﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾** أى بلغ بهم الضجر ولم يبق لهم صبر حتى قالوا ذلك . ومعناه طلب الصبر وتمنيه ، واستطالة زمان الشهادة . وفي هذه الغاية دليل على تناهى الأمر في الشدة وتماديها في العظم ، لأنّ الرسل لا يقادر قدر ثباتهم واصطبارهم وضبطهم لأنفسهم ، فإذا لم يبق لهم صبر حتى ضجوا كان

(١) قوله «أم منقطعة ومعنى الهمزة» تفسر بمعنى بل والهمزة . (ع)

ذلك الغاية في الشدة التي لا مطمح وراءها ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ على إرادة القول ، يعنى فليلهم ذلك إجابة لهم إلى طلبتهم من عاجل النصر. وقرئ (حتى يقول) بالنصب على إضمار أن ومعنى الاستقبال ؛ لأن «أن» علم له. وبالرفع على أنه في معنى الحال ، كقولك : شربت الإبل حتى يجيء البعير يجز بطنه ، إلا أنها حال ماضية محكية.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٢١٥)
 فإن قلت : كيف طابق الجواب السؤال في قوله : ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ﴾ وهم قد سألوا عن بيان ما ينفقون وأجيبوا ببيان المصروف؟ قلت : قد تضمن قوله ما أنفقتم ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ بيان ما ينفقونه وهو كل خير ، وبنى الكلام على ما هو أهم وهو بيان المصروف ؛ لأن النفقة لا يعتد بها إلا أن تقع موقعها. قال الشاعر :

إِنَّ الصَّـنِيعَةَ لَا تَكُونُ صَـنِيعَةً حَتَّى يُصَـابَ بِهَا طَرِيقُ الْمَصْنَعِ^(١)
 وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أنه جاء عمرو بن الجموح وهو شيخ هم^(٢) وله مال عظيم فقال : ما ذا ننفق من أموالنا؟ وأين نضعها؟ فنزلت. وعن السدى : هي منسوخة بفرض الزكاة. وعن الحسن : هي في التطوع.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢١٦)
 ﴿وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ من الكراهة بدليل قوله ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً﴾ ثم إما أن يكون بمعنى الكراهة على وضع المصدر موضع الوصف مبالغة ، كقولها :

فَأَمَّا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ^(٣)

(١) إن الصنعة لا تكون صنعة
 حتى يصاب بها طريق المصنع
 فإذا صنعت صنعة فاعمد بها
 لله أو لذوي القربى أو دع
 يقول : إن العطية لا تكون عطية حقيقة حتى تكون في موضعها ، فكنى باصابة الطريق عن إيصالها إلى المقصد ، وهو من يستحقها. وقوله «فاعمد بها» أى اقصد بها. وضمنه معنى اذهب بها ، فعاده باللام. ويروى : لذوي القرائب فلعل معناه لأصحاب القرباب القرائب. وقوله «أو دع» أى اترك ، لأنه ليس بعد هذين إلا الفخر.

(٢) قوله «وهو شيخ هم وله مال» في الصحاح المهم. بالكسر . : الشيخ الفاني. (ع)

(٣) مر شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة ٢١٨ فراجع إن شئت اه مصححه

كأنه في نفسه لفرط كراحتهم له. وإما أن يكون فعلاً بمعنى مفعول كالحبز بمعنى المخبوز ، أى وهو مكروه لكم. وقرأ السلمي . بالفتح . على أن يكون بمعنى المضموم ، كالضعف والضعف ، ويجوز أن يكون بمعنى الإكراه على طريق المجاز ، كأنهم أكرهوا عليه لشدة كراحتهم له ومشقته عليهم. ومنه قوله تعالى : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾^(١) ، وعلى قوله تعالى : ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ جميع ما كلفوه ، فإن النفوس تكرهه وتنفر عنه وتحب خلافه ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما يصلحكم وما هو خير لكم ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١٨)

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جحش على سرية في جمادى الآخرة^(٢) قبل قتال بدر بشهرين ليتصد غيراً لقريش فيها عمرو بن عبد الله الحضرمي وثلاثة معه ، فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير وفيها من تجارة الطائف ، وكان ذلك أول يوم من رجب وهم يظنونهم من جمادى الآخرة ، فقالت قريش : قد استحل محمد الشهر الحرام شهراً يأمن فيه الخائف ويبدع^(٣) فيه الناس إلى معاشهم فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم العير ، وعظم ذلك على أصحاب السرية وقالوا : ما نبرح حتى تنزل توبتنا ، وردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والأسارى ، وعن ابن عباس رضى الله عنه : لما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنيمة. والمعنى : يسألك الكفار أو المسلمون عن القتال في الشهر الحرام. و ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ بدل الاشتمال من الشهر. وفي

(١) قوله «ووضعت كرها وعلى قوله تعالى» أى جميع ما كلفوه جار على قوله تعالى : ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا...﴾ الخ فان النفوس تكرهه وهو خير لهم ، وتحب خلافه وهو شر لهم. (ع)
(٢) أخرجه ابن إسحاق في المغازي ، قال : حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير بطوله ، ومن طريقه رواه البيهقي في الدلائل ، وكذا ذكره ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة. ومن طريقه الواحدي. وأخرجه الطبراني من حديث جندب بن عبد الله البجلي موصولاً.
(٣) قوله «ويبدع فيه الناس» أى يتفرقون فيه. أفاده الصحاح. (ع)

قراءة عبد الله : عن قتال فيه ، على تكرير العامل ، كقوله : ﴿لِّلَّذِينَ اسْتِزْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ وقرأ عكرمة : قتل فيه قل قتل فيه كبير ، أى إثم كبير . وعن عطاء : أنه سئل عن القتال في الشهر الحرام؟ فحلف بالله ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم ولا في الشهر الحرام إلا أن يقاتلوا فيه ، وما نسخت . وأكثر الأقاويل على أنها منسوخة بقوله : ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ . ﴿وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ مبتدأ وأكبر خبره ، يعنى وكبائر قريش من صدّهم عن سبيل الله وعن المسجد الحرام ، وكفرهم بالله وإخراج أهل المسجد الحرام وهم رسول الله والمؤمنون ﴿أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ مما فعلته السرية من القتال في الشهر الحرام على سبيل الخطأ والبناء على الظن ﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ الإخراج أو الشرك . والمسجد الحرام : عطف على سبيل الله ، ولا يجوز أن يعطف على الهاء في : ﴿بِهِ﴾ . ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ﴾ إخبار عن دوام عداوة الكفار للمسلمين وأنهم لا ينفكون عنها حتى يردّوهم عن دينهم ، وحتى معناها التعليل كقولك : فلان يعبد الله حتى يدخل الجنة ، أى يقاتلونكم كي يردّوكم . و ﴿إِنْ اسْتَطَاعُوا﴾ استبعاد لاستطاعتهم كقول الرجل لعدوّه : إن ظفرت بى فلا تبقي علىّ . وهو واثق بأنه لا يظفر به ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ﴾ ومن يرجع عن دينه إلى دينهم ويطاوعهم على ردّه إليه ﴿فَيَمُتْ﴾ على الردّة ﴿فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لما يفوتهم بإحداث الردّة مما للمسلمين في الدنيا من ثمرات الإسلام ، وباستدامتها والموت عليها من ثواب الآخرة . وبها احتج الشافعي على أن الردّة لا تحبط الأعمال حتى يموت عليها . وعند أبي حنيفة أنها تحبطها وإن رجع مسلماً . ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ روى أن عبد الله بن جحش وأصحابه حين قتلوا الحضرمي ، ظنّ قوم أنهم إن سلموا من الإثم فليس لهم أجر ، فنزلت ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ وعن قتادة : هؤلاء خيار هذه الأمة ، ثم جعلهم الله أهل رجاء كما تسمعون . وإنه من رجا طلب ، ومن خاف هرب .

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢١٩) في الدنيا والآخرة ويسئلونك عن اليتامى قُلْ إِصْلَاحُ هُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٢٠)

نزلت في الخمر أربع آيات نزلت بمكة ^(١) : ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ

(١) قال محمود رحمه الله : نزلت في الخمر أربع آيات نزلت بمكة ... الخ . قال أحمد : ويظهر لي سر واقع مما ذكره في هذا الغرض ، وذلك أن السؤال الأول من الأسئلة .

سَكْرًا فكان المسلمون يشربونها وهي لهم حلال. ثم إن عمر ومعاذاً ونفراً من الصحابة قالوا ؛ يا رسول الله ، أفتنا في الخمر فإنها مذهبة للعقل مسلبة للمال ، فنزلت : **﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾** فشربها قوم وتركها آخرون. ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناساً منهم فشربوا وسكروا فأثم بعضهم فقراً : قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون فنزلت : «لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى» فقل من يشربها. ثم دعا عتبان بن مالك قوما فيهم سعد بن أبي وقاص فلما سكروا افتخروا وتناشدوا حتى أنشد سعد شعراً فيه هجاء الأنصار فضربه أنصارى بلحى بعير فشججه موضحة ، فشكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال عمر : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا ، فنزلت **﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾** إلى قوله **﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾** فقال عمر رضى الله عنه : انتهينا يا رب ^(١). وعن عليّ رضى الله عنه : لو وقعت قطرة في بئر فبنيت مكانها منارة لم أؤذن عليها ^(٢) ولو وقعت في بحر ثم جف ونبت فيه الكلاء

. المقرونة بالواو عين السؤال الأول من الأسئلة المجردة عن الواو. ولكن وقع جوابه أولا بالمصرف لأنه الأهم وإن كان المسئول عنه إنما هو المنفق لا وجه مصرفه ، ثم لما لم يكن في الجواب الأول تصريح بالمسئول عنه أعيد السؤال ليجابوا عن المسئول عنه صريحا ، فقليل العفو أى الفاضل من النفقة الواجبة على العيال ، أو نحو ذلك حيثما ورد في تفسيره ، فتعين إذاً اقتران هذا السؤال بالواو ليرتبط بالأول. ويحتمل أنهم لما أجيبوا أولا ببيان جهة المصرف ولم يصرح لهم بالجواب على عين المنفق ما هو ، أعاد السؤال لكي يتلقوا جوابه صريحا ، فتعين دخول الواو. وأما السؤال الثاني من الأسئلة المقرونة بالواو ، فقد وقع عن أحوالهم مع اليتامى وهل يجوز لهم مخالطتهم في النفقة والكسوة والسكنى وقد كانوا يتخرجون من ذلك في الجاهلية؟ فلما كان مناسبا للسؤال عن الإنفاق باعتبار المنفق وباعتبار جهة المصرف ، عطف عليه ليكمل لهم بيان المشروعية في النفقة وآدابها الدينية بيانا شافيا ، لأنه قد اجتمع في علمهم ما ينفقون ، وفيهم ينفقون ، وعلى أى حالة ينفقون من مخالطة اليتيم والانفراد عنه. وأما السؤال الثالث منها وهو الواقع عن النساء الحيض ، فقد ورد أنهم في الجاهلية كانوا يعتزلون الحيض في المؤكلة والمساكنة يقتدون في ذلك باليهود ، فسألوا السؤال المذكور ، كما كانوا يعتزلون اليتامى في المساكنة والمؤكلة تخرجاً جاهلياً ، وكان بين هذين السؤالين تناسب كما ترى ، فحسن أن يعطف الآخر على ما قبله تنبيهاً على ما بينهما من المشكلة والله أعلم. وإذا اعتبرت الأسئلة المجردة عن الواو لم تجد بينها مدانة ولا مناسبة البتة ، إذ الأول منها عن النفقة ، والثاني عن القتال في الشهر الحرام ، والثالث عن الخمر والميسر. فبين هذه الأسئلة من التباين والتقاطع ما لا يخفى ، فذكرت كذلك مرسله متعاطفة غير مربوطة بعضها ببعض ، فتنبه لهذا السر فانه بديع لا تجده يراعى إلا في الكتاب العزيز ، لاستيلائه على أسرار البلاغة ونكت الفصاحة ، ولا يستفاد منه إلا بالتنقيب في صناعة البيان وعلم اللسان. وقد اشتمل جواب الزمخشري المقدم على وهم أنه عليه ، وذلك أنه قال : الأسئلة الثلاثة الأخيرة وقعت في وقت واحد وكانت في حكم السؤال الواحد ، فربط بعضها ببعض بالواو ، وهذا يقتضى كما ترى أن يقتزن السؤال الثاني والثالث بالواو خاصة دون الأول ، إذ الواو إنما يربط ما بعدها بما قبلها ، فافتراضها بالأول لا يربطه بالثاني وإنما يربطه بما قبله ، وعلى هذا تكون الأسئلة التي وقعت في وقت واحد أربعة أسئلة لا ثلاثة خاصة ، وقد قال : إن الأسئلة المرتبطة الواقعة في وقت واحد هي الثلاثة الأخيرة ، فهو واهم بلا شك وكل أحد مأخوذ من قوله ومتروك إلا المعصوم.

(١) هكذا ذكره الثعلبي في تفسيره بغير إسناد وسيأتى في تفسير سورة النساء من حديث أبي هريرة معناه.

(٢) لم أجده عنه.

لم أرعه. وعن ابن عمر رضى الله عنهما : لو أدخلت أصبعي فيه لم تتبعني^(١). وهذا هو الإيمان حقاً ، وهم الذين اتقوا الله حق تقاته. والخمر : ما غلى واشتدّ وقذف بالزبد من عصير العنب ، وهو حرام ، وكذلك نقيع الزبيب أو التمر الذي لم يطبخ ، فإن طبخ حتى ذهب ثلثاه ثم غلى واشتدّ ذهب خبثه ونصيب الشيطان ، وحلّ شربه ما دون السكر إذا لم يقصد بشربه اللهو والطرب عند أبي حنيفة. وعن بعض أصحابه : لأن أقول مراراً هو حلال ، أحبّ إليّ من أن أقول مرة هو حرام ، ولأن آخرّ من السماء فأتقطع قطعاً أحبّ إليّ من أن أتناول منه قطرة. وعند أكثر الفقهاء هو حرام كالخمر ، وكذلك كل ما أسكر من كل شراب. وسميت خمرّاً لتغطيتها العقل والتمييز كما سميت سكرّاً لأنها تسكرهما ، أى تحجزهما ، وكأنها سميت بالمصدر من «خمره خمرّاً» إذا ستره للمبالغة. والميسر : القمار ، مصدر من يسر ، كالموعد والمرجع من فعلهما. يقال : يسرته ، إذا قمرته ، واشتقاقه من اليسر ، لأنه أخذ مال الرجل بيسر وسهولة من غير كد ولا تعب ، أو من اليسار. لأنه سلب يساره. وعن ابن عباس رضى الله عنهما : كان الرجل في الجاهلية يخاطر على أهله وماله قال :

أَقُولُ هُمْ بِالشَّعْبِ إِذْ يَيْسِرُونِي^(٢)

أى يفعلون بى ما يفعل الياسرون بالميسور. فإن قلت : كيف صفة الميسر؟ قلت : كانت لهم عشرة أقداح ، وهي : الأزلام والأقلام ، والفد ، والتوأم ، والرقيب ، والجلس ، والنافس ، والمسبل ، والمعلّى والمنيح والسفيح ، والوغد. لكل واحد منها نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويجزءونها عشرة أجزاء. وقيل : ثمانية وعشرين إلا لثلاثة ، وهي المنيح والسفيح والوغد. ولبعضهم :

لِي فِي الْـ دُنْيَا سِـ هَامٌ لَيْسَ فِي يَهَنَ رَبِّ يَخُ
وَأَسَـ مِيهَنَ وَغُـ دُ وَسَـ فَيَحُ وَمِـ يَخُ^(٣)

(١) أخرجه ابن أبى شيبة عن ابن المبارك عن الأوزاعي عن سليمان بن حبيب أن ابن عمر قال «لو أدخلت أصبعي في خمر ما أحببت أن ترجع إلى».

(٢) أقول لهم بالشعب إذ ييسروننى ألم تيأسوا أنى ابــــن فرس زهــــدم

لسحيم بن وثيل الرياحي. والشعب : اسم مكان. ويقال : يسره ، إذا غلبه في لعب الميسر وهو القمار. واليأس هنا بمعنى العلم. وزهدم في الأصل فرخ البازي يسمى به الفرس لسرعته. أى أقول لهم في هذا الموقع وقت أن غلبوني في الميسر وضربوني بسهامه : ألم تعلموا أنى ابن الرجل الشجاع فارس تلك الفرس. والاستفهام للتقرير والتقريع. وروى : إذ يأسروننى ، أى يأخذوننى أسيراً عندهم. ويجوز أن المعنى : ألم تيأسوا وتقطعوا أطماعكم عما تريدون بى لأنى ابن ذلك الفارس المشهور ، فالاستفهام للتوبيخ والحث على اليأس من ذلك.

(٣) الأسماء الثلاثة لأقلام الميسر التي لا نصيب لها من الجزور كل اسم لعلم ، والوغد في الأصل : الحادم ، والدنىء ، وثمر الباذنجان ؛ بخلاف السبعة الباقية فلها أنصباء. والكلام من باب التمثيل ، شبه حاله في الدنيا بحال من خرجت له تلك السهام في الميسر لعدم الظفر بالمرام. ويعد كونه كناية عن الكرم ، حيث يعطى ولا يأخذ. ويروى بدل «وأساميهن» «إنما سهمي» أى سهمي ، بدليل : سهام قبله.

للفذ سهم ، وللتوأم سهمان ، وللرقيب ثلاثة ، وللحلس أربعة ، وللنفس خمسة ، وللمسبل ستة ؛ وللمعلى سبعة يجعلونها في الربابة وهي خريطة ، ويضعونها على يدي عدل ، ثم يجلسها ويدخل يده فيخرج باسم رجل رجل قدحا منها. فمن خرج له قدح من ذوات الأنصباء أخذ النصيب الموسوم به ذلك القدح. ومن خرج له قدح مما لا نصيب له لم يأخذ شيئا وغرم ثمن الجزور كله. وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء ولا يأكلون منها. ويفتخرون بذلك ويزمون من لم يدخل فيه ، ويسمونه البرم. وفي حكم الميسر : أنواع القمار ، من النرد والشطرنج وغيرها. وعن النبي صلى الله عليه وسلم : «إياكم وهاتين اللعبتين المشئومتين فإنهما من ميسر العجم^(١)» وعن عليّ رضي الله عنه : أنّ النرد والشطرنج من الميسر^(٢). وعن ابن سيرين : كل شيء فيه خطر فهو من الميسر. والمعنى : يسألونك عما في تعاطيهما ، بدليل قوله تعالى ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ ، ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ وعقاب الإثم في تعاطيهما ﴿أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ وهو الالتذاذ بشرب الخمر والقمار ، والطرب فيهما ، والتوصل بهما إلى مصادقات الفتيان ومعاشراتهم ، والنيل من مطاعمهم ومشاربهم وأعطياتهم ، وسلب الأموال بالقمار ، والافتخار على الأبرام^(٣). وقرئ : إثم كثير . بالثاء . وفي قراءة أبيّ : وإثمهما أقرب. ومعنى الكثرة : أن أصحاب الشرب والقمار يقتربون فيهما الآثام من وجوه كثيرة ﴿الْعَفْوُ﴾ نقيض الجهد ؛ وهو أن ينفق ما لا يبلغ إنفاقه منه الجهد واستفراغ الوسع ، قال :

خُذِيَ الْعَفْوُ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي^(٤)

ويقال للأرض السهلة : العفو. وقرئ بالرفع والنصب. وعن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنّ رجلا أتاه ببيضة من ذهب أصابها في بعض المغازي فقال : خذها مني صدقة ، فأعرض عنه رسول الله صلى

(١) أخرجه ابن مردويه من حديث سمرة بن جندب. ومن حديث أبي موسى الأشعري نحوه ، ورواه أحمد ، والبخاري في الأدب المفرد من وجهين عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود بلفظ «اتقوا هاتين اللعبتين المشئومتين اللتين يزجران زجرا فإنهما من ميسر العجم».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم والبيهقي والنعلبي من طريق حاتم بن إسماعيل عن جعفر بن محمد عن أبيه «أن عليا قال في النرد والشطرنج : هما من الميسر» وهو منقطع.

(٣) قوله «والافتخار على الأبرام» جمع للبرم بالتحريك ، وهو الذي لا يدخل مع القوم في الميسر. كذا في الصحاح. (ع)

(٤)

خُذِيَ الْعَفْوُ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي	ولا تنطقــــى في ســــوري حــــين أغضــــب
فــــاني رأيت الحــــب في الصــــدر والأذى	إذا اجتمعــــا لم يلبــــث الحــــب يــــذهب
ولا تضــــربيني مــــرة بــــمرة	فإنــــك لا تــــدري كــــيف المغيــــب

لأسماء بن خازم النزاري أحد حكماء العرب يخاطب زوجته حين بنى عليها. والعفو : السهل اليسير. والسورة : شدة الغضب. واجتماعا : شارفا الاجتماع. ويذهب : استئناف وقع جواب سؤال مقدر ، والضرب مجاز عن الإيذاء ، والمغيب عاقبة الأمر ، أى خذي السهل من أخلاقى لئلا يذهب حبي إياك ويذهب فيه رائحة الاضراب ، أى بل يذهب.

الله عليه وسلم ؛ فأتاه من الجانب الأيمن فقال مثله فأعرض عنه ، ثم أتاه من الجانب الأيسر فأعرض عنه ؛ فقال : هاتما مغضبا ، فأخذها فخذفه بها خذفا لو أصابه لشجه أو عقره ، ثم قال : «يجيء أحدكم بماله كله يتصدق به ويجلس يتكفف الناس ! إنما الصدقة عن ظهر غنى»^(١) ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾
 إما أن يتعلق بتفكرون ، فيكون المعنى : لعلكم تتفكرون فيما يتعلق بالدارين ؛ فتأخذون بما هو أصلح لكم ؛ كما بينت لكم أنّ العفو أصلح من الجهد في النفقة ، وتتفكرون في الدارين فتؤثرون أبقاهما وأكثرهما منافع. ويجوز أن يكون إشارة إلى قوله : ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ لتتفكروا^(٢) في عقاب الإثم في الآخرة والنفع في الدنيا. حتى لا تختاروا النفع العاجل على النجاة من العقاب العظيم. وإما أن يتعلق بيبين على معنى : يبين لكم الآيات في أمر الدارين وفيما يتعلق بهما لعلكم تتفكرون ، لما نزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ اعتزلوا اليتامى وتحاموهم وتركوا مخالطتهم والقيام بأموالهم والاهتمام بمصالحهم ، فشق ذلك عليهم وكاد يوقعهم في الحرج ، فقليل ﴿إِصْلَاحٌ هُمْ خَيْرٌ﴾ أى مداخلتهم على وجه الإصلاح لهم ولأموالهم خير من مجانبتهم ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ﴾ وتعاشروهم ولم تجانبوهم (فهم) ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾ في الدين ، ومن حق الأخ أن يخالط أخاه ، وقد حملت المخالطة على المصاهرة ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ أى لا يخفى على الله من داخلهم بإفساد وإصلاح فيجازه على حسب مداخلته ، فاحذروه ولا تتحروا غير الإصلاح ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ لحملككم على العنت وهو المشقة وأخرجكم فلم يطلق لكم مداخلتهم. وقرأ طاوس : قل إصلاح إليهم. ومعناه إيصال الإصلاح وقرئ : لعنتكم ، بطرح الهمزة وإلقاء حركتها على اللام ، وكذلك ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾^(٣). ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب يقدر على أن يعنت عباده ويخرجهم ولكنه ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يكلف إلا ما تتسع فيه طاقتهم.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ

(١) أخرجه أبو داود وابن حبان والبخاري ، وأبو يعلى ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وإسحاق في مسانيدهم : كلهم من رواية محمود بن لبيد عن جابر. ورواه ابن سعد في ترجمة أبي حصين السلمي من رواية عمر ابن الحكم بن ثوبان عن جابر ، قال «قدم أبو حصين السلمي يذهب أصابه من معدنهم فقضى منه ديناً كان عليه» فذكر الحديث مثل سياق أبي داود. وفي إسناده الواقدي.

(٢) قوله «أكبر من نفعهما لتتفكروا» لعله فيكون المعنى : لتتفكروا. (ع)

(٣) قوله «وكذلك فلا إثم عليه» لعله : كذلك في طرح الهمزة ، لا في نقل الحركة ، وتطرح ألف المد لالتقاء الساكنين. فليحذر. (ع)

مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

﴿وَلَا تَنْكِحُوا﴾ وقرئ بضم التاء ، أى لا تتزوجوهن أو لا تزوجوهن. و ﴿الْمُشْرِكَاتِ﴾ الحريات ، والآية ثابتة. وقيل المشركات الحريات والكتابات جميعاً ، لأن أهل الكتاب من أهل الشرك ، لقوله تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّى ابْنُ اللَّهِ ، وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ، وهي منسوخة بقوله تعالى : ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾. وسورة المائدة كلها ثابتة لم ينسخ منها شيء قط ، وهو قول ابن عباس والأوزاعي. وروى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث مرثد بن أبي مرثد الغنوي إلى مكة ليخرج منها ناساً من المسلمين وكان يهوى امرأة في الجاهلية اسمها عناق ، فأتته وقالت : ألا نخلو؟ فقال : ويحك! إن الإسلام قد حال بيننا. فقالت : فهل لك أن تتزوج بي؟ قال : نعم ، ولكن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأمره ، فاستأمره ^(١) فنزلت ﴿وَلَأَمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ﴾ ولامرأة مؤمنة حرة كانت أو مملوكة ، وكذلك ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ﴾ لأنّ الناس كلهم عبيد الله وإماؤه ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ ولو كان الحال أنّ المشركة تعجبكم وتحبونها ، فإنّ المؤمنة خير منها مع ذلك ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المشركات والمشركين ، أى يدعون إلى الكفر فحقهم أن لا يوالوا ولا يصاهروا ولا يكون بينهم وبين المؤمنين إلا المناصبة والقتال ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ﴾ يعنى وأولياء الله وهم المؤمنون يدعون إلى الجنة ﴿وَالْمَغْفِرَةِ﴾ وما يوصل إليهما فهم الذين تجب موالاتهم ومصاهرتهم ، وأن يؤثروا على غيرهم ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بتيسير الله وتوفيقه للعمل الذي تستحق به الجنة والمغفرة. وقرأ الحسن : والمغفرة بإذنه . بالرفع . أى والمغفرة حاصلة بتيسيره.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا التَّسَاءُ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

(١) أورده الواحدي من تفسير الكلبي عن ابن عباس «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلاً يقال له : مرثد بن أبي مرثد فذكره» ونزلها في هذه القصة ليس بصحيح فقد رواه أبو داود والترمذي والنسائي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال «كان رجل يقال له : مرثد بن أبي مرثد الغنوي. وكان رجلاً شديداً يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة . الحديث بطوله. وفيه حتى نزلت ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ قال فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأها على. وقال لا تنكحها وكذا أخرجه أحمد وإسحاق والبخاري. وقال لا نعلم أسند مرثد بن أبي مرثد إلا هذا الحديث.

التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣)

﴿الْمَحِيضُ﴾ مصدر. يقال : حاضت محيضا ، كقولك : جاء مجيئا وبات مبيتا ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ أى الحيض شيء يستقذر ويؤذى من يقربه نفرة منه وكراهة له ﴿فَاعْتَرِلُوا الْبَسَاءَ﴾ فاجتنبوهنّ ؛ يعنى فاجتنبوا مجامعتهنّ. روى أنّ أهل الجاهلية كانوا إذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجالسوها على فرش ولم يساكنوها في بيت كفعل اليهود والمجوس ، فلما نزلت أخذ المسلمون بظاهر اعتزالهنّ فأخرجوهنّ من بيوتهم ، فقال ناس من الأعراب : يا رسول الله البرد شديد والثياب قليلة ، فإن آثرناهن بالثياب هلك سائر أهل البيت ؛ وإن استأثرنا بها هلكت الحيض : فقال عليه الصلاة والسلام : إنما أمرتم أن تعتزلوا مجامعتهنّ إذا حضن ، ولم يأمركم بإخراجهنّ من البيوت كفعل الأعاجم^(١). وقيل : إنّ النصارى كانوا يجامعونهنّ ولا يبالون بالحيض ، واليهود كانوا يعتزلونهنّ في كل شيء ، فأمر الله بالاقتصاد بين الأمرين ، وبين الفقهاء خلاف في الاعتزال ، فأبو حنيفة وأبو يوسف يوجبان اعتزال ما اشتمل عليه الإزار ، ومحمد بن الحسن لا يوجب إلا اعتزال الفرج ، وروى محمد حديث عائشة رضى الله عنها : أنّ عبد الله بن عمر سأها : هل يباشر الرجل امرأته وهي حائض؟ فقالت : تشدّ إزارها على سفلتها ، ثم ليباشرها إن شاء^(٢). وما روى زيد بن أسلم أنّ رجلا سأل النبیّ صلى الله عليه وسلم : ما يحلّ لي من امرأتى وهي حائض؟ قال : لتشدّ عليها إزارها ثم شأنك بأعلاها^(٣) ، ثم قال : وهذا قول أبي حنيفة. وقد جاء ما هو أرخص من هذا عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : يجتنب شعار الدم وله ما سوى ذلك^(٤). وقرئ (يطهرن) بالتشديد ، أى يتطهرن ، بدليل قوله ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ وقرأ عبد الله : حتى يتطهرن. ويطهرن بالتخفيف. والتطهر : الاغتسال. والطهر : انقطاع دم الحيض. وكلتا

(١) لم أجده

(٢) هو في الموطأ من رواية محمد بن الحسن : عن. لك عن نافع «أن عبد الله بن عمر أرسل إلى عائشة يسأها . فذكره» وكذا أخرجه رواة الموطأ عن مالك والشافعي وغيره. وأخرجه عبد الرازق عن ابن جريج عن سلمان ابن موسى عن نافع نحوه

(٣) رواه مالك في الموطأ عنه بهذا مرسلا. ووصله الطبراني من رواية الدراوردي عن زيد بن أسلم وصفوان ابن مسلم عن عطاء بن يسار مرسلا. وفي الباب عن حزام بن حكيم عن عمه عبد الله بن سعد «أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما يحل لي من امرأتى وهي حائض؟ قال : لك ما فوق الإزار» أخرجه أبو داود. وعن معاذ بن جبل قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحوه . وزاد : والتعفف عن ذلك أفضل وإسناده ضعيف

(٤) أخرجه الدرامي من رواية أيوب عن رجل عن عائشة أنها قالت لإنسان «اجتنب شعار الدم ولك ما سواه».

القراءتين مما يجب العمل به ، فذهب أبو حنيفة إلى أن له أن يقربها في أكثر الحيض بعد انقطاع الدم وإن لم تغتسل ، وفي أقل الحيض لا يقربها حتى تغتسل أو يمضي عليها وقت صلاة. وذهب الشافعي إلى أنه لا يقربها حتى تطهر وتطهر ، فتجمع بين الأمرين ، وهو قول واضح. ويعضده قوله : ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾. ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ من المأتى الذي أمركم الله به وحلله لكم وهو القبل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ مما عسى يندر منهم من ارتكاب ما نھوا عنه من ذلك ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ المتنزهين عن الفواحش. أو إنَّ الله يحبَّ التَّوَّابِينَ الذين يطهرون أنفسهم بطهارة التوبة من كل ذنب ، ويجب المتطهرين من جميع الأقدار : كمجامعة الحائض والطاهر قبل الغسل ، وإتيان ما ليس بمباح ، وغير ذلك ﴿حَرِّثَ لَكُمْ﴾ مواضع الحرث لكم. وهذا مجاز ، شبهن بالحارث تشبيها لما يلقي في أرحامهن من النطف التي منها النسل بالبدور. وقوله ﴿فَاتَّوَا حَرِّثُكُمْ أَنِّي سَنُتِّمُ﴾ تمثيل ، أى فأتوهن كما تأتون أراضيكم التي تريدون أن تحرثوها من أى جهة شئتم ، لا تحظر عليكم جهة دون جهة ، والمعنى : جامعوهن من أى شق أدركتم بعد أن يكون المأتى واحداً وهو موضع الحرث. وقوله : ﴿هُوَ أَذًى ، فَاعْتَرِلُوا النِّسَاءَ﴾ ، ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ ، ﴿فَاتَّوَا حَرِّثُكُمْ أَنِّي سَنُتِّمُ﴾ من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة. وهذه وأشباهها في كلام الله آداب حسنة على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدبوا بها ويتكلفوا مثلها في محاورتهم ومكاتبتهم. وروى أن اليهود كانوا يقولون : من جامع امرأته وهي مجيبة من دبرها في قبلها كان ولدها أحول ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال كذبت اليهود ^(١) ونزلت. ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ ما يجب تقديمه من الأعمال الصالحة وما هو خلاف ما نهيتكم عنه. وقيل : هو طلب الولد ، وقيل : التسمية على الوطاء ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فلا تجترئوا على المناهي ﴿وَاغْلَمُوا أَنكُم مِّلَاقُوهُ﴾ فتزودوا ما لا تفتضحون به ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المستوجبين للمدح والتعظيم بترك القبائح وفعل الحسنات. فإن قلت : ما موقع قوله : ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ مما قبله؟ قلت : موقعه موقع البيان والتوضيح لقوله : ﴿فَاتَّوَاهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ يعنى أنَّ المأتى الذي أمركم الله به هو مكان الحرث ، ترجمة له وتفسيراً ، أو إزالة للشبهة ، ودلالة على أنَّ الغرض الأصيل في الإتيان هو طلب النسل لا قضاء الشهوة. فلا تأتوهنَّ إلا من المأتى الذي يتعلق به هذا الغرض. فإن قلت : ما بال ﴿يَسْتَأْذِنُكَ﴾ جاء بغير واو ثلاث مرات ، ثم مع الواو ثلاثاً؟

(١) متفق عليه من طرق عن ابن المنكدر عن جابر : والتقيد لمسلم فقط. ولمسلم من رواية الزهري «إن شاء مجيبة وإن شاء غير مجيبة. غير أن ذلك في صمام واحد» وهو من قول الزهري. وأخرجه أصحاب السنن والبخاري وابن حبان. وليس عند أحد منهم قول «فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم» وأخرجه البزار من طريق خفيف عن ابن المنكدر. وزاد فيه «وإنما الحرث من حيث يخرج الولد» تفرد به خفيف. وهو ضعيف.

قلت : كان سؤالهم عن تلك الحوادث الأول وقع في أحوال متفرقة ، فلم يؤت بحرف العطف لأن كل واحد من السؤالات سؤال مبتدأ. وسألوا عن الحوادث الآخر في وقت واحد ، فجاء بحرف الجمع لذلك ، كأنه قيل : يجمعون لك بين السؤال عن الخمر والميسر ، والسؤال عن الإنفاق ، والسؤال عن كذا وكذا.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٢٤) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (٢٢٥)

العرضة : فعلة بمعنى مفعول ، كالقبضة والغرفة ، وهي اسم ما تعرضه دون الشيء من عرض العود على الإناء فيعترض دونه ويصير حاجزاً ومانعاً منه. تقول : فلان عرضة دون الخير. والعرضة أيضاً : المعرض للأمر. قال :

فَلَا تَجْعَلُونِي عُرْضَةً لِلْوَائِمِ^(١)

ومعنى الآية على الأولى : أن الرجل كان يحلف على بعض الخيرات ، من صلة رحم ، أو إصلاح ذات بين ، أو إحسان إلى أحد ، أو عبادة ، ثم يقول : أخاف الله أن أحنت في يميني ، فيتترك البرّ إرادة البرّ في يمينه ، فقليل لهم : ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ﴾ أى حاجزاً لما حلفتكم عليه. وسمى المحلوف عليه يميناً لتلبسه باليمين ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن سمرة : «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك»^(٢) أى على شيء مما يحلف عليه. وقوله : ﴿أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا﴾ عطف بيان لأيمانكم ، أى للأمور المحلوف عليها التي هي البر والتقوى والإصلاح بين الناس. فإن قلت : بم تعلقت الالام في لأيمانكم؟ قلت : بالفعل ، أى ولا تجعلوا الله لأيمانكم برزخاً وحجاً. ويجوز أن يتعلق ب : ﴿عُرْضَةً﴾ لما فيها

(١) دعوني أنـح وجـدا كنـح الحـمائم ولا تجعلوني عرضة للـوائـم

قيل هو لأبي تمام. يقول : اتركوني أنح لما بي من الوجد وحرقة العشق مثل نوح الحمائم. ويروى : لنوح الحمائم ، فهو علة للمعلل مع علته. والعرضة : المعرض للأمر ، أى : ولا تجعلوني معرضاً للوم اللوائم. أو المراد باللوائم : أنواع اللوم مبالغة ، على حد : جد جده ، لأن اللائم حقيقة فاعل اللوم.

(٢) أخرجه الأئمة الخمسة من رواية الحسن البصري عن عبد الرحمن بن سمرة.

من معنى الاعتراض ، بمعنى لا تجعلوه شيئاً يعترض البر ، من اعترضني كذا. ويجوز أن يكون اللام للتعليل ، ويتعلق أن تبروا بالفعل أو بالعرضة ، أى ولا تجعلوا الله لأجل إيمانكم به عرضة لأن تبروا. ومعناها على الأخرى : ولا تجعلوا الله معرضاً لإيمانكم فتبتذلوه بكثرة الحلف به ، ولذلك ذم من أنزل فيه ﴿وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَالٍ مَّهِينٍ﴾ بأشنع المذام وجعل الحلاف مقدّماتها. وأن تبروا علة للنهي ، أى إرادة أن تبروا وتتقوا وتصلحوا ، لأن الحلاف مجتزئ على الله ، غير معظم له ، فلا يكون براً متقياً ، ولا يثق به الناس فلا يدخلونه في وساطاتهم وإصلاح ذات بينهم. اللغو : الساقط الذي لا يعتد به من كلام وغيره. ولذلك قيل لما لا يعتد به في الدية من أولاد الإبل «لغو» واللغو من اليمين : الساقط الذي لا يعتد به في الإيمان ، وهو الذي لا عقد معه. والدليل عليه ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ ، ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ واختلف الفقهاء فيه ، فعند أبي حنيفة وأصحابه هو أن يحلف على الشيء يظنه على ما حلف عليه ، ثم يظهر خلافه. وعند الشافعي : هو قول العرب : لا والله ، وبلى والله ، بما يؤكدون به كلامهم ولا يخطر ببالهم الحلف. ولو قيل لواحد منهم : سمعتك اليوم تحلف في المسجد الحرام لأنكر ذلك ، ولعله قال : لا والله ألف مرة. وفيه معنيان : أحدهما ﴿لَا يُؤَاخِذُكُم﴾ أى لا يعاقبكم بلغو اليمين الذي يحلفه أحدكم بالظن ، ولكن يعاقبكم بما كسبت قلوبكم ، أى اقترفته من إثم القصد إلى الكذب في اليمين ، وهو أن يحلف على ما يعلم أنه خلاف ما يقوله وهي اليمين الغموس. والثاني ﴿لَا يُؤَاخِذُكُم﴾ أى لا يلزمكم الكفارة بلغو اليمين الذي لا قصد معه ، ولكن يلزمكم الكفارة بما كسبت قلوبكم ، أى بما نوت قلوبكم وقصدت من الإيمان ، ولم يكن كسب اللسان وحده ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ حيث لم يؤاخذكم باللغو في إيمانكم.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧) وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيُعَوِّلْنَهُنَّ أَهَقُ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٢٨)

قرأ عبد الله : ألوا من نسائهم. وقرأ ابن عباس : يقسمون من نسائهم : فإن قلت : كيف عدى بمن ، وهو معدى بعلی ؟ قلت : قد ضمن في هذا القسم المخصوص معنى البعد ، فكأنه قيل : يبعدون

من نسائهم مؤلّين أو مقسمين. ويجوز أن يراد لهم ﴿مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ كقوله : لي منك كذا. والإيلاء من المرأة أن يقول : والله لا أقربك أربعة أشهر فصاعداً على التقليد بالأشهر. أو لا أقربك على الإطلاق. ولا يكون في مادون أربعة أشهر ، إلا ما يحكى عن إبراهيم النخعي. وحكم ذلك : أنه إذا فاء إليها في المدة ^(١) بالوطء إن أمكنه أو بالقول إن عجز : صح الفيء ، وحنث القادر ، ولزمته كفارة اليمين ، ولا كفارة على العاجز. وإن مضت الأربعة بانتهى بتطبيقه عند أبي حنيفة. وعند الشافعي : لا يصح الإيلاء إلا في أكثر من أربعة أشهر ثم يوقف المولى ، فإما أن يفيء وإما أن يطلق وإن أبي طلق عليه الحاكم. ومعنى قوله ﴿فَإِنْ فَاؤُ﴾ فإن فاءوا في الأشهر ، بدليل قراءة عبد الله : فإن فاءوا فيهن ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر للمولين ما عسى يقدمون عليه من طلب ضرار النساء بالإيلاء وهو الغالب ، وإن كان يجوز أن يكون على رضا منهن إشفاقاً منهن على الولد من الغيل ^(٢) ، أو لبعض الأسباب لأجل الفية التي هي مثل التوبة ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ فتربصوا إلى مضيّ المدة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وعيد على إصرارهم وتركهم الفية ، وعلى قول الشافعي رحمه الله معناه : فإن فاءوا ، وإن عزموا ^(٣) بعد مضيّ المدة. فإن قلت : كيف موقع الفاء إذا كانت الفية قبل انتهاء مدّة التبرص؟ ^(٤) قلت : موقع صحيح لأن قوله : ﴿فَإِنْ فَاؤُ﴾ ، ﴿وَإِنْ عَزَمُوا﴾ تفصيل لقوله : ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ والتفصيل

-
- (١) قال محمود رحمه الله : «وحكم ذلك أنه إذا فاء إليها في المدة ... الخ». قال أحمد رحمه الله : وهذا التفسير منزل على مذهب أبي حنيفة لأنه لا يرى الفية بعد انقضاء الأربعة الأشهر مقيدة إذا وقع الطلاق بنفس مضيها فلا تكون الفية معتبرة عنده إلا في أربعة الأشهر خاصة.
- (٢) قوله «على الولد من الغيل» في الصحاح : اخترت الغيلة . بالكسر . بولد فلان ، إذا أتيت أمه وهي ترضعه ، أو حملت وهي ترضعه . والغيل . بالفتح . اسم ذلك الابن. (ع)
- (٣) قوله «فإن فاءوا وإن عزموا» يعنى أن كلا من الشرطين عند الشافعي بعد مضيّ المدة. (ع)
- (٤) قال محمود رحمه الله : «فإن قلت كيف موقع الفاء إذا كانت الفية قبل انقضاء مدة التبرص الخ» قال أحمد رحمه الله : هذا جواب عن سؤال موجه على أبي حنيفة رضى الله عنه لأنه إذا رأى الفية في الأشهر الأربعة خاصة لا فيما بعدها والله تعالى عطف الفية على تبرص أربعة أشهر بالفاء ومقتضاها كما علمت وقوع ما عطفه بعد ما عطفه عليه فيلزم وقوع الفية المعتبرة بعد انقضاء الأشهر الأربعة ، وأبو حنيفة يأباه فلذلك أجاب عنه الزمخشري بجوابه المتقدم والسؤال عندي يندفع بطريق آخر وهو أن المعطوف عليه التبرص وهو حاصل من أول المدة لوقوع الفية في المدة بعد التبرص فلا يحتاج إلى الجواب بالمثل المذكور وإنما أوقع الزمخشري في التزام السؤال تسليمه لتقدم الفية في الأربعة الأشهر على تبرصها بناء منه على أنه لا يصدق قول القائل قد تبرصت بفلان أربعة أشهر إلا إذا انقضت المدة وليس الأمر كذلك فإنه يصدق من الحاكم أن يقول عند ضرب أجل المولى قد تبرصت لك أربعة أشهر كما قال الله تعالى لينظر أفيء أم لا ، ويصدق رب الدين في أن يقول لمديانه حالة القرض قد أجلك بهذا الدين سنة وإن كان المقتضى منها حينئذ دقيقة واحدة فلذلك التبرص المعطوف عليه في الآية واقع عند ضرب الأجل المذكور فالفية الواقعة في الأجل إنما يقع بعده ، فالفاء على بابها المعروف.

يعقب المفصل ، كما تقول : أنا نزيلكم هذا الشهر ، فإن أحمدتكم أقمت عندكم إلى آخره ، وإلا لم أقم إلا ريثما أتحوّل. فإن قلت : ما تقول في قوله : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١) وعزمهم الطلاق بما يعلم ولا يسمع؟ قلت : الغالب أن العازم للطلاق وترك الفيئة والضرار ، لا يخلو من مقابلة ودمدمة^(٢) ولا بد له من أن يحدث نفسه ويناجيها بذلك ، وذلك حديث لا يسمعه إلا الله كما يسمع وسوسة الشيطان ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ﴾ أراد المدخول بهن من ذوات الأقراء. فإن قلت : كيف جازت إرادتهن خاصة واللفظ يقتضى العموم؟ قلت : بل اللفظ مطلق في تناول الجنس صالح لكله وبعضه ، فجاء في أحد ما يصلح له كالاسم المشترك. فإن قلت : فما معنى الإخبار عنهن بالتربص؟ قلت : هو خبر في معنى الأمر. وأصل الكلام : وليتربص المطلقات ، وإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر ، وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله ، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص ، فهو يخبر عنه موجوداً. ونحوه قولهم في الدعاء : رحمك الله ، أخرج في صورة الخبر ثقة بالاستجابة ، كأنما وجدت الرحمة فهو يخبر عنها ، وبناءً على المبتدأ مما زاده أيضاً فضل تأكيد. ولو قيل : ولتربص المطلقات ، لم يكن بتلك الوكادة. فإن قلت : هلا قيل : يتربصن ثلاثة قروء ، كما قيل

(١) قال محمود رحمه الله : «فإن قلت : ما القول في قوله فإن الله سميع عليم ... الخ»؟ قال أحمد رحمه الله : في هذا الجواب إسلاف جواب عن سؤال آخر يتوجه على أبي حنيفة رضى الله عنه فيقال له : إذا كان مضى الأربعة الأشهر يوجب عندك وقوع الطلاق بنفسه غير موقوف على إيقاع من أحد ، فما الذي يسمع إذا؟ وهو أمكن من السؤال الذي قدره الزمخشري ، فإن لقائل أن يقول : عبر بالعزم عن الإيقاع لأنه يستلزمه غالباً ، وفي أثناء كلامه نكتة تحتاج إلى التنبيه عند قوله : والعزم بما يعلم ولا يسمع ، والذي نبيه عليه أن قاعدة أهل السنة أن كل موجود يجوز أن يسمع ، حتى الجواهر والألوان والمعاني بجملتها ، وكذلك يعتقد أن موسى عليه السلام سمع الكلام القديم وليس بحرف ولا صوت ، فلا يتوقف السمع عندهم على أن يكون المسموع صوتاً ولا نطقاً ، غير أن المعتاد انقسام الموجودات إلى مسموع ومرئى وملموس ومشوم ومذوق وهو المعلوم بالحس ، وإلى معلوم بغير ذلك. وعلى هذا المعتاد جرت عادة خطاب الله تعالى لعبده ، وإن كان الزمخشري ثابتاً فيما قاله على الأمر العربي معتقداً ما ذكرناه من حيث المعروف . وما أراه كذلك . فالأمر سهل. وإن كان أخرج كلامه المذكور على قاعدة الاعتزال . وهو الظاهر من حاله في اعتقاد أن ما عدا الأصوات لا يجوز أن يسمع عقلاً. فالحذر الحذر من هذه القاعدة الفاسدة والله المستعان. ثم لا بد لنا في مسألة الإيلاء من البصر لما يعتقده من مذهب مالك رضى الله عنه ، ومذهب مالك رضى الله عنه هو الذي اقتفاه الشافعي رضى الله عنه في المسألة فنقول : مضى أربعة الأشهر بمجرد لا يوجب وقوع الطلاق على الزوج ، لأن الأصل بقاء العصمة ، وقد جعل الله له الفيئة بعد تربص الأجل المذكور ، ونحن وإن بينا أولاً أن الآية لا تأبى وقوع الفيئة في الأجل وهي أيضاً تأبى وقوعها بعد الأجل ، فينتظم من أصله ، أعنى بقاء العصمة. والسلامة من معارضة الآية ، وقوع الفيئة المعتبرة بعد الأجل ، وبقاء العصمة بعد الأجل ، استصحاباً للأصل غير معارض بالآية ، وهو المطلوب.

(٢) قوله «لا يخلو من مقابلة ودمدمة» في الصحاح : دمدمت الشيء إذا ألزقته بالأرض ، لكنه غير مناسب هنا ، فلعله زمزمة بالزاي. وفي الصحاح : الزمزمة صوت الرعد. والزمزمة : كلام المجوس عند أكلهم. أو رممة بالراء ، وفي الصحاح : ترمم ، إذا حرك فاه للكلام اه. وهذا أنسب. (ع)

تربص أربعة أشهر؟ وما معنى ذكر الأنفس؟ قلت : في ذكر الأنفس تهييج لهن على التربص وزيادة بعث ، لأن فيه ما يستنكفن منه فيحملهن على أن يتربصن ، وذلك أن أنفس النساء طوامح إلى الرجال ، فأمرن أن يقمعن أنفسهن ويغلبنها على الطموح ويجبرنّها على التربص. والقروء : جمع قرء أو قرء ، وهو الحيض ، بدليل قوله عليه الصلاة والسلام : «دعى الصلاة أيام أقرائك» ^(١) وقوله : «طلاق الأمة تطليقتان ، وعدتها حيضتان» ^(٢) ولم يقل طهران. وقوله تعالى ﴿وَاللَّائِي يَكُونُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ فأقام الأشهر مقام الحيض دون الأطهار. ولأن الغرض الأصيل في العدة استبراء الرحم ، والحيض هو الذي تستبرأ به الأرحام دون الطهر ، ولذلك كان الاستبراء من الأمة بالحيضة. ويقال : أقرأت المرأة ، إذا حاضت. وامرأة مقرئ. وقال أبو عمرو بن العلاء : دفع فلان جاريته إلى فلانة تقرأها ، أي تمسكها عندها حتى تحيض للاستبراء. فإن قلت : فما تقول : في قوله تعالى : ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ والطلاق الشرعي ، إنما هو في الطهر؟ قلت : معناه : مستقبلات لعدتهن ، كما تقول : لقيته لثلاث بقين من الشهر ، تريد مستقبلات لثلاث ، وعدتهن الحيض الثلاث. فإن قلت : فما تقول في قول الأعشى :

لِمَا ضَاعَ فِيهَا مِنْ قُرُوءِ نِسَائِكَا؟ ^(٣)

قلت : أراد : لما ضاع فيها من عدة نساءك ، لشهرة القروء عندهم في الاعتداد بهن ، أي من مدة طويلة كالمدة التي تعتد فيها النساء ، استطال مدة غيبته عن أهله كل عام لاقتحامه في الحروب والغارات. وأنه تمرّ على نسائه مدة كمدة العدة ضائعة لا يضاجعن فيها ، أو أراد من أوقات نساءك ،

(١) أخرجه الطحاوي والدارقطني من حديث فاطمة بنت أبي حبيش «أنها قالت : يا رسول الله إني امرأة أستحاض فلا أطهر. قال : دعى الصلاة أيام أقرائك ثم اغتسلي وصلي».

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم من رواية مظاهر بن أسلم عن القاسم عن عائشة بهذا. ومظاهر ضعيف. ورواه ابن ماجه والدارقطني من رواية عطية عن ابن عمر نحوه : وفيه عمر بن شبيب وهو ضعيف.

(٣) أفي كـل عـام أنـت جـاشـم غـزوة تشـد لأقـصـاها عـزيم عـزائـكـا

مؤثـلة مـالـا و في الحـي ر فـعـة مـا ضـاع فـيها مـن قـروء نـسـائـكـا

للأعشى ، يقول لجاره : أئبغى أن تتجشم وتكلف نفسك في كل عام دخول غزوة واقتحام ما هاهنا ، تشد وتوثق عزيمة صبرك ، لأقصاما : أي أبعداها وأعلاها أو غايتها ومنتهاها. ومؤثلة أي مؤصلة على اسم الفاعل. ويروى مورثة ، أي تورثك تلك الغزوة مالا كثيرا بغنائمها ، ورفع لك في الحي لأجل ما ضاع فيها أي في الأعوام المعلومه من ذكر كل عام ، واللام للعاقبة ، شبه ضياع القروء المترتب على خروجه للغزو بأمر مرغوب على طريق المكنية ولام العلة تخييل ، أو شبه ترتب المرغوب عنه بترتب المرغوب فيه ، واستعار له اللام على طريق التصريحية ، وفيها نوع توبيخ. ويجوز أن ذلك الاستفهام للتعجب ، فقوله «لما ضاع فيها» من تمام العجب. والأقراء التي تضيع على الزوج هي الأطهار ، لأنها التي يوطأن فيها ، لا الحيض ، وضياع ذلك يؤدي إلى انقطاع النسل.

فإنَّ القرء والقارئ جاءا في معنى الوقت ، ولم يرد لا حيضاً ولا طهرًا. فإن قلت : فعلام انتصب ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾؟ قلت : على أنه مفعول به كقولك : المحتكر يتربص الغلاء ، أى يتربصن مضى ثلاثة قروء ، أو على أنه ظرف ، أى يتربصن مدة ثلاثة قروء. فإن قلت : لم جاء المميز على جمع الكثرة دون القلة التي هي الأقراء؟ قلت : يتسعون في ذلك فيستعملون كل واحد من الجمعين مكان الآخر لاشتراكهما في الجمعية. ألا ترى إلى قوله : ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾ وما هي إلا نفوس كثيرة ، ولعل القروء كانت أكثر استعمالاً في جمع قرء من الأقراء ، فأوثر عليه تنزيلاً لقليل الاستعمال منزلة المهمل ، فيكون مثل قولهم : ثلاثة شسوع. وقرأ الزهري : ثلاثة قرو ، بغير همزة. ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ من الولد أو من دم الحيض. وذلك إذا أرادت المرأة فراق زوجها فكتمت حملها لئلا ينتظر بطلاقها أن تضع ، ولئلا يشفق على الولد فيترك تسريحها ، أو كتمت حيضها وقالت وهي حائض : قد طهرت ، استعجالاً للطلاق. ويجوز أن يراد اللاتي يبعين إسقاط ما في بطونهن من الأجنة فلا يعترفن به ويحججنه لذلك ، فجعل كتمان ما في أرحامهن كناية عن إسقاطه ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ تعظيم لفعلهن ، وأن من آمن بالله وبعقابه لا يجترئ على مثله من العظام. والبعولة : جمع بعل ، والتاء لاحقة لتأنيث الجمع كما في الحزونة والسهولة. ويجوز أن يراد بالبعولة المصدر من قولك : بعل حسن البعولة ، يعنى : وأهل بعولتهن ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ برجعتهن. وفي قراءة أبي : بردتهن ﴿فِي ذَلِكَ﴾ في مدة ذلك التربص. فإن قلت : كيف جعلوا أحق بالرجعة ، كأن للنساء حقاً فيها؟ قلت : المعنى أنَّ الرجل إن أراد الرجعة وأبتها المرأة وجب إثبات قوله على قولها وكان هو أحق منها ، إلا أن لها حقاً في الرجعة ﴿إِنْ أَرَادُوا﴾ بالرجعة ﴿إِصْلَاحاً﴾ لما بينهم وبينهن وإحساناً إليهن ولم يريدوا مضارتهن ﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾ ويجب لهنَّ من الحق على الرجال مثل الذي يجب لهم عليهنَّ ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالوجه الذي لا ينكر في الشرع وعادات الناس فلا يكلفنهم ما ليس لهنَّ ولا يكلفوهنَّ ما ليس لهم ولا يعنف أحد الزوجين صاحبه. والمراد بالمماثلة مماثلة الواجب الواجب في كونه حسنة ، لا في جنس الفعل ، فلا يجب عليه إذا غسلت ثيابه أو خبزت له أن يفعل نحو ذلك ، ولكن يقابله بما يليق بالرجال ﴿دَرَجَةً﴾ زيادة في الحق وفضيلة. قيل المرأة تنال من اللذة ما ينال الرجل ، وله الفضيلة بقيامه عليها وإنفاقه في مصالحها.

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِنْ سَاكَ مَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا

يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

﴿الطَّلَاقُ﴾ بمعنى التطلاق كالسلام بمعنى التسليم ، أى التطلاق الشرعي تطليقة بعد تطليقة على التفريق دون الجمع والإرسال دفعة واحدة ، ولم يرد بالمرتين الثانية ولكن التكرير ، كقوله : ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أى كرة بعد كرة ، لا كرتين اثنتين. ونحو ذلك من الثانى التي يراد بها التكرير قولهم : لبيك وسعديك وحنانيك وهذاذك ودواليك. وقوله تعالى ﴿فَإِمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ﴾ تخيير لهم بعد أن علمهم كيف يطلقون ، بين أن يمسكوا النساء بحسن العشرة والقيام بمواجهتهن ، وبين أن يسرحوهن السراح الجميل الذي علمهم. وقيل : معناه الطلاق الرجعى مرتان ، لأنه لا رجعة بعد الثلاث ، فإمساك بمعروف أى برجعة ، أو تسريح بإحسان أى بأن لا يراجعها حتى تبين بالعدّة ، أو بأن لا يراجعها مراجعة يريد بها تطويل العدة عليها وضرارها. وقيل : بأن يطلقها الثالثة في الطهر الثالث. وروى أنّ سائلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين الثالثة؟ فقال عليه الصلاة والسلام : «أو تسريح بإحسان»^(١) وعند أبى حنيفة وأصحابه : الجمع بين التطليقتين والثلاث بدعة ، والسنة أن لا يوقع عليها إلا واحدة في طهر لم يجامعها فيه ، لما روى في حديث ابن عمر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : «إنما السنة أن تستقبل الطهر استقبالا فتطلقها لكل قرء تطليقة^(٢)» وعند الشافعي. لا بأس بإرسال الثلاث ، لحديث العجلاني الذي

(١) أخرجه الدارقطني من رواية عبد الواحد بن زياد عن إسماعيل بن سميع عن أنس به. وقال في العلل : وهم فيه ليث بن حماد رواية عن عبد الواحد. والمحفوظ عن إسماعيل بن سميع عن أبى رزين مرسلا. وقد أخرجه ابن أبى شيبه عن أبى معاوية. وعبد الرزاق عن الثوري كلاهما عن إسماعيل بن سميع. ورواه الدارقطني أيضا من رواية حماد بن سلمة عن قتادة عن أنس قال قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم «إني أسمع الله يقول : الطلاق مرتان فأين الثالثة؟ قال : إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، هي الثالثة».

(٢) أخرجه الدارقطني والطبراني من رواية شعيب بن رزين أن عطاء الخراساني حدثهم عن الحسن قال : حدثنا عبد العزيز بن عمير «أنه طلق امرأته تطليقة وهي حائض ، ثم أراد أن يتبعها بتطليقتين آخرتين عند القرءين فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال : يا ابن عمير ، ما هكذا أمرك الله. قد أخطأت السنة ، والسنة أن تستقبل الطهر فتطلق لكل قرء : فأمرني بمراجعتها. فقال : إذا طهرت فطلق عند ذلك أو أمسك. الحديث».

لا عن امرأته فطلقها ثلاثاً بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينكر عليه ^(١). روى أنّ جميلة بنت عبد الله بن أبيّ كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس وكانت تبغضه وهو يحبها. فأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، لا أنا ولا ثابت ، لا يجمع رأسى ورأسه شيء ، والله ما أعيب عليه في دين ولا خلق ، ولكني أكره الكفر في الإسلام ، ما أطيقه بغضاً ، إني رفعت جانب الحياء فرأيتُه أقبل في عدّة فإذا هو أشدهم سواداً وأقصرهم قامة وأقبحهم وجهاً. فنزلت ، وكان قد أصدقها حديقة فاختلفت منه بها وهو أول خلع كان في الإسلام ^(٢). فإن قلت : لمن الخطاب في قوله ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا﴾؟ إن قلت للأزواج لم يطابقه قوله : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ وإن قلت للأئمة والحكام فهؤلاء ليسوا بأخذين منهن ولا بمؤتيهن؟ قلت : يجوز الأمران جميعاً : أن يكون أول الخطاب للأزواج ، وآخره للأئمة والحكام ، ونحو ذلك غير عزيز في القرآن وغيره ، وأن يكون الخطاب كله للأئمة والحكام ، لأنهم الذين يأمرون بالأخذ والإيتاء عند الترافع إليهم ، فكأنهم الآخذون والمؤتون ﴿مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ مما أعطيتموهنّ من الصدقات ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يَقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ إلا أن يخاف الزوجان ترك إقامة حدود الله فيما يلزمهما من مواجب الزوجية ، لما يحدث من نشوز المرأة وسوء خلقها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾

(١) متفق عليه من حديث سهل بن سعد لكن قيل : إن قوله «فطلقها ثلاثاً قبل أن يأمره النبي صلى الله عليه وسلم بطلاقها» من كلام الزهري رواية عن سهل (تنبيه) قال عبد الحق في الأحكام : لم يصح اللفظ بالثلاث إلا في حديث الملاعن. وتعقب بما في مسلم عن فاطمة بنت قيس قالت «طلقني زوجي ثلاثاً فخاصمته ... الحديث».

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره : حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا معتمر بن سليمان قال : قرأت على فضيل عن أبي جرير أنه سأل عكرمة «هل كان للخلع أصل؟ قال : كان ابن عباس يقول : إن أول خلع كان في الإسلام في أخت عبد الله بن أبي بن سلول ، أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكره «ولم يسمها» وقد سماها البخاري من رواية حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة «أن جميلة . فذكره» ولابن ماجه من رواية أخرى عن عكرمة عن ابن عباس «أن جميلة بنت سلول» وكذا أخرجه عبد الرزاق من وجه آخر «أن امرأة أتت النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي جميلة بنت عبد الله بن أبي» وعند الدارقطني من طريق ابن جريج أخبرنا أبو الزبير «أن ثابت بن قيس كانت عنده زينب بنت عبد الله بن أبي. وكان أصدقها حديقة ، فكرهته . إلى آخره» فان كان محفوظاً فيحتمل أن يكون لها اسمان. وقد رويت القصة لغيرها. وفي الموطأ عن يحيى بن سعيد عن عمرو عن حبيبة بنت سهل «أما كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الصبح فوجدها عند بابي في الغلس. فقال من هذه؟ قالت : أنا حبيبة بنت سهل. قال : ما شأنك؟ قالت : لا أنا ولا ثابت بن قيس» ومن طريقه أخرجه أبو داود والنسائي وأحمد ، ولابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : «كانت حبيبة بنت سهل تحت ثابت ابن قيس بن شماس ، وكان رجلاً دميماً. فقالت : يا رسول الله لو لا مخافة الله لبرزت في وجهه : فقال : أتريدين عليه حديقته؟ قالت : نعم. فردت عليه حديقته. وفرق بينهما» ولأحمد من حديث سهل بن أبي حثمة قال «كانت بنت سهل . الحديث».

فلا جناح على الرجل فيما أخذ ولا عليها فيما أعطت ﴿فِيْمَا افْتَدَتْ بِهٖ﴾ فيما فدت به نفسها واختلعت به من بذل ما أوتيت من المهر. والخلع بالزيادة على المهر مكروه وهو جائز في الحكم. وروى أن امرأة نشزت على زوجها فرفعت إلى عمر رضى الله عنه ، فأباحتها في بيت الزيل ثلاث ليال ثم دعاها فقال : كيف وجدت مبيتك؟ قالت : ما بت منذ كنت عنده أقرّ لعيني منهن. فقال لزوجها : اخلعها ولو بقرطها ^(١). قال قتادة : يعنى بما لها كله ، هذا إذا كان النشوز منها ، فإن كان منه كره له أن يأخذ منها شيئاً. وقرئ إلا أن يخافا ، على البناء للمفعول وإبدال أن لا يقيما من ألف الضمير ، وهو من بدل الاشتمال كقولك : خيف زيد تركه إقامة حدود الله. ونحوه ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ويعضده قراءة عبد الله (إلا أن تخافوا) وفي قراءة أبي : إلا أن يظنا. ويجوز أن يكون الخوف بمعنى الظن.

يقولون : أخاف أن يكون كذا ، وأفرق أن يكون ، يريدون أظن ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ الطلاق المذكور الموصوف بالتكرار في قوله تعالى : ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ واستوفى نصابه. أو فإن طلقها مرة ثالثة بعد المرتين ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ﴾ من بعد ذلك التطليق ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ حتى تنزوّج غيره ، والنكاح يسند إلى المرأة كما يسند إلى الرجل كما التزوج. ويقال : فلانة ناكح في بنى فلان. وقد تعلق من اقتصر على العقد في التحليل بظاهره وهو سعيد ابن المسيب. والذي عليه الجمهور أنه لا بد من الإصابة ، لما روى عروة عن عائشة رضى الله عنها أنّ امرأة رفاعه جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : إن رفاعه طلقني فبت طلاقى وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوّجني ، وإنما معه مثل هدبة الثوب وإنه طلقني قبل أن يمسنى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك قد عليه وسلم : أتريدين أن ترجعى إلى رفاعه؟ لا ، حتى تذوقي عُسيلته ويدوق عُسيلتك ^(٢). وروى أنها لبثت ما شاء الله ، ثم رجعت فقالت : إنه كان قد مسنى ، فقال لها : كذبت في قولك الأول ، فلن أصدّقك في الآخر ، فلبثت حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) فأنت أبا بكر رضى الله عنه فقالت : أأرجع إلى زوجي الأول ، فقال : قد عهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال لك ما قال ، فلا ترجعى إليه ، فلما قبض أبو بكر رضى الله عنه قالت مثله لعمر رضى الله عنه فقال : إن أتيتيني بعد مرّتك هذه لأرجمنك ، فمنعها. فإن قلت :

(١) أخرجه عبد الرزاق وابن أبي شيبة والطبري وإبراهيم الحربي في أواخر الغريب له كلهم من رواية أيوب عن كثير مولى سمرة «أن عمر أتى بامرأة ناشزة فذكره» قال إبراهيم : الناشز التي تعصى زوجها.

(٢) متفق عليه من هذا الوجه.

(٣) قال عبد الرزاق : أخبرنا ابن جريج عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة . فذكر الحديث . وفيه «فقدت ما شاء الله. ثم جاءته فأخبرته أنه قد مسها ، فمنعها أن ترجع إلى زوجها الأول ، وقال : اللهم إن كان إثمًا بها أن يحلها لرفاعة فلا يتم لها نكاحه مرة أخرى. ثم أتت أبا بكر وعمر في خلافتها فمناها».

فما تقول في النكاح المعقود بشرط التحليل؟ قلت : ذهب سفيان والأوزاعي وأبو عبيد ومالك وغيرهم إلى أنه غير جائز ، وهو جائز عند أبي حنيفة مع الكراهة. وعنه أنهما إن أضمر التحليل ولم يصرحا به فلا كراهة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه لعن المحلل والمحلل له ^(١). وعن عمر رضي الله عنه : لا أوتى بمحلل ولا محلل له إلا رجتهما ^(٢). وعن عثمان رضي الله عنه : لا إلا نكاح رغبة غير مدالسة ^(٣). ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ الزوج الثاني. ﴿أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ أن يرجع كل واحد منهما إلى صاحبه بالزواج ﴿إِنْ طَلَّأ﴾ إن كان في ظنهما أنهما يقيمان حقوق الزوجية. ولم يقل : إن علما أنهما يقيمان ، لأنّ اليقين مغيب عنهما لا يعلمه إلا الله عز وجل. ومن فسر الظن هاهنا بالعلم فقد وهم من طريق اللفظ والمعنى ، لأنك لا تقول : علمت أن يقوم زيد ، ولكن : علمت أنه يقوم ، ولأنّ الإنسان لا يعلم ما في الغد ، وإنما يظن ظنا.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبِغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأُمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبِغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٣٢)

(١) روى عن ابن مسعود وعلى وجابر وعقبة بن عامر ، وأبي هريرة. وابن عباس. قلت : أحال بها على تخريج الهداية وحديث ابن مسعود أخرجه الترمذي والنسائي وصححه ابن دقيق العيد على شرط البخاري. وحديث ابن عباس أخرجه ابن ماجه. وحديث على أخرجه أحمد وأبو داود. وحديث أبي هريرة رواه أحمد والبيهقي وحديث عقبة بن عامر أخرجه ابن ماجه. وحديث جابر ذكره الترمذي.

(٢) أخرجه عبد الرزاق وابن أبي شيبة ، من رواية المسيب بن رافع عن قبيصة بن جابر عن عمر فذكره.

(٣) لم أجده عن عثمان بل وجدته عن ابن عمر. أخرجه الحاكم من رواية عمر بن نافع عن أبيه أنه قال «جاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثا فتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه ليحلها لأخيه ، هل تحل للأول؟ قال : لا إلا نكاح رغبة. كنا نعد هذا سفاحا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم» وقد روى مرفوعا أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس رضي الله عنها «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن المحلل. فقال : لا ، إلا نكاح رغبة غير دلسة ، ولا مستهزئ بكتاب الله تعالى لم يذق العسيلة» وفي إسناده إبراهيم بن إسماعيل ابن أبي حبيبة وهو ضعيف.

﴿فَبَلِّغْ أَجَلَهُنَّ﴾ أى آخر عدتهن وشارفن منتهاها. والأجل يقع على المدّة كلها ، وعلى آخرها ، يقال لعمر الإنسان : أجل ، وللموت الذي ينتهى به : أجل ، وكذلك الغاية والأمد ، يقول النحويون «من» لابتداء الغاية ، و «إلى» لانتهاء الغاية. وقال :

كُلُّ حَيٍّ مُسْتَكْمِلٌ مُدَّةَ الْعُمُرِ وَمُودٍ إِذَا انْتَهَى أَمْرُهُ (١)

ويتسع في البلوغ أيضاً فيقال : بلغ البلد إذا شارفه وداناه. ويقال : قد وصلت ، ولم يصل وإنما شارف ، ولأنه قد علم أنّ الإمساك بعد تقضى الأجل لا وجه له ، لأنها بعد تقضيه غير زوجة له في غير عدّة منه ، فلا سبيل له عليها ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ فإما أن يراجعها من غير طلب ضرار بالمراجعة ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ وإما أن يخليها حتى تنقضي عدّتها وتبين من غير ضرار ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾ كان الرجل يطلق المرأة ويتركها حتى يقرب انقضاء عدّتها ، ثم يراجعها لا عن حاجة ، ولكن ليطول العدة عليها ، فهو الإمساك ضراراً ﴿لِتَعْتَدُوا﴾ لتظلموهن. وقيل : لتلجئوهن إلى الافتداء ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ بتعريضها لعقاب الله ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزْوَاً﴾ أى جدّوا في الأخذ بها والعمل بما فيها ، وارعوها حق رعايتها ، وإلا فقد اتخذتموها هزواً ولعباً. ويقال لمن لم يجد في الأمر : إنما أنت لاعب وهازئ. ويقال : كن يهودياً وإلا فلا تلعب بالتوراة. وقيل : كان الرجل يطلق ويعتق ويتزوّج ويقول : كنت لاعباً. وعن النبي صلى الله عليه وسلم : «ثلاث جدّهن جدّ وهزلن جدّ : الطلاق (٢) والنكاح والرجعة (٣)» ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام ونبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ من القرآن والسنة وذكرها مقابلتها بالشكر والقيام بحقها ﴿يَعْظُمُ بِهِ﴾ بما أنزل عليكم ﴿فَبَلِّغْ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ إما أن يخاطب به الأزواج الذين يعضلون نساءهم بعد انقضاء العدة ظلماً وقسراً ، ولحمية الجاهلية لا يتركونهنّ يتزوّجن من شئن من الأزواج. والمعنى : أن ينكحن أزواجهن الذين يرغبن فيهم ويصلحون لهنّ ، وإما أن يخاطب به الأولياء في عضلهنّ أن يرجعن إلى أزواجهنّ. روى أنها نزلت في معقل بن يسار حين عضل أخته أن ترجع إلى الزوج الأوّل. وقيل : في جابر

(١) يقال : أودى إذا هلك ، وأودى به السبل ونحوه أهلكه وذهب به. والودي كالغنى : الهلاك. ويروى أجله. والأمد والأجل يطلقان على جميع مدة الشيء. وعلى منتهاها ، كما تطلق الغاية على جميع المسافة وعلى آخرها. يقول : كل حي لا بد أنه يستكمل مدة عمره ويهلك إذا انتهت مدته وتسكين العمر لغة فيه.

(٢) قوله «وهزلن جد الطلاق والنكاح والرجعة» في أبي السعود : النكاح والطلاق والعناق. (ع)

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجة والحاكم والدارقطني والبيهقي ، من حديث أبي هريرة. وفي إسناده ضعف.

ابن عبد الله حين عضل بنت عم له. والوجه أن يكون خطاباً للناس ، أى لا يوجد فيما بينكم عضل ، لأنه إذا وجد بينهم وهم راضون كانوا في حكم العاضلين. والعضل : الحبس والتضييق. ومنه : عضلت الدجاجة إذا نشب بيضها فلم تخرج. وأنشد لابن هرمة :

وَإِنَّ قَصَصَائِدِي لَكَ فَاصْطَنَعِي عَقَائِلُ قَدْ عَضُّنَ عَنِ النَّكَاحِ^(١)

وبلوغ الأجل على الحقيقة. وعن الشافعي رحمه الله : دلّ سياق الكلامين على افتراق البلوغين ﴿إِذَا تَرَضَّوْا﴾ إذا تراضى الخطاب والنساء ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بما يحسن بالدين والمروءة من الشرائط وقيل : بمهر المثل. ومن مذهب أبي حنيفة رحمه الله أنها إذا زوجت نفسها بأقل من مهر مثلها فلا ولياء أن يعتزضوا. فإن قلت : لمن الخطاب في قوله ﴿ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ﴾؟ قلت : يجوز أن يكون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولكل أحد. ونحوه ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾. ﴿أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ من أدناس الآثام : وقيل ﴿أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أفضل وأطيب ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما في ذلك من الزكاء والطهر ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ، أو والله يعلم ما تستصلحون به من الأحكام والشرائع وأنتم تجهلون.

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢٣٣)

﴿يُرْضِعْنَ﴾ مثل يترصن في أنه خبر في معنى الأمر المؤكد ﴿كَامِلَيْنِ﴾ تأكيد كقوله : ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ لأنه مما يتسامح فيه فتقول : أقيمت عند فلان حولين ، ولم تستكملهما. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما : أن يكمل الرضاعة : وقرئ الرضاعة. بكسر الراء. والرضعة. وأن تتم الرضاعة وأن يتم الرضاعة ، برفع الفعل تشبيهاً لـ «أن» بـ «ما» لتأخيها في التأويل. فإن قلت : كيف

(١) العقائل : جمع عقيلة ، وهي المعقولة في خدرها من النساء. يقول : إن قصائدك لك مثل المخدرات ، فلك : حال من القصائد أو العقائل. وقوله «فاصطنعني» اعتراض ، أى فاتخذني مادحا وكافني على مدحي إياك بما لا أمدح به غيرك من القصائد. ولما شبه القصائد بالنساء رشح ذلك بالعضل ، وهو المنع من النكاح الخاص بالنساء.

اتصل قوله ﴿لِمَنْ أَرَادَ﴾ بما قبله؟ قلت : هو بيان لمن توجه إليه الحكم ، كقوله تعالى : ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ لك بيان للمهيت به ، أى هذا الحكم لمن أراد إتمام الرضاع. وعن قتادة : حولين كاملين ، ثم أنزل الله اليسر والتخفيف فقال ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ أراد أنه يجوز النقصان ، وعن الحسن : ليس ذلك بوقت لا ينقص منه بعد أن لا يكون في الفطام ضرر. وقيل : اللام متعلقة بيرضعن ، كما تقول : أرضعت فلانة لفلان ولده ، أى يرضعن حولين لمن أراد أن يتم الرضاعة من الآباء ، لأن الأب يجب عليه إرضاع الولد دون الأم ، وعليه أن يتخذ له ظئراً إلا إذا تطوعت الأم بإرضاعه ، وهي مندوبة إلى ذلك ولا تجبر عليه. ولا يجوز استئجار الأم عند أبي حنيفة رحمه الله ما دامت زوجة أو معتدة من نكاح. وعند الشافعي يجوز. فإذا انقضت عدتها جاز بالاتفاق. فان قلت : فما بال الوالدات مأمورات بأن يرضعن أولادهن؟ قلت : إما أن يكون أمراً على وجه الندب ، وإما على وجه الوجوب إذا لم يقبل الصبي إلا ثدي أمه ، أو لم توجد له ظئر ، أو كان الأب عاجزاً عن الاستئجار. وقيل : أراد الوالدات المطلقات ، وإيجاب النفقة والكسوة لأجل الرضاع ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ وعلى الذي يولد له وهو الوالد. و ﴿لَهُ﴾ في محل الرفع على الفاعلية ، نحو ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في : ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ فإن قلت لم قيل ﴿الْمَوْلُودِ﴾ له دون الوالد. قلت : ليعلم أن الوالدات إنما ولدن لهم ، لأن الأولاد للآباء ، ولذلك ينسبون إليهم لا إلى الأمهات. وأنشد للمأمون بن الرشيد :

فَأَمَّا أُمَّهُ نَسَبَاتُ النَّاسِ أَوْعِيَّةٌ مُسْتَتَوْدَعَاتٌ وَلِلْآبَاءِ أَبْنَاءٌ^(١)

فكان عليهم أن يرزقوهن ويكسووهن إذا أرضعن ولدهم ، كالأطّار. ألا ترى أنه ذكره باسم الوالد حيث لم يكن هذا المعنى ، وهو قوله تعالى : ﴿وَإِذَا خَشَا يُومًا لَا يَخْزِي وَالِدَهُ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ ، ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ تفسيره ما يعقبه ، وهو أن لا يكلف واحد منهما ما ليس في وسعه ولا يتضاراً. وقرئ (لا تكلف) بفتح التاء ؛ و (لا تكلف) بالنون. وقرئ : ﴿لَا تُضَارَّ﴾ بالرفع على

(١) لا تـزـرـين بـفـتى مـن أن يـكـون لـه أم مـن الـروم أو سـوداء عـجماء
فَأَمَّا أُمَّهُ نَسَبَاتُ النَّاسِ أَوْعِيَّةٌ مَسْتَتَوْدَعَاتٌ وَلِلْآبَاءِ أَبْنَاءٌ

للمأمون بن الرشيد حين كتب إليه أخوه الأمين يوجهه على الخلافة بغير استحقاق ، وفي آخره : ابن الأمة ما لأمه : فأجابه بذلك. وأزرى به : إذا أوقع به العيب ورماه به. والنون في الفعل للتوكيد. ويروى : لا تزدرين فتى ، على خطاب المؤنثة ، وكأنه أراد به إسماع أخيه. وزرى عليه : إذا عاب عليه. والازدراء : افتعال منه ، أى لا تعيبى ، والنون ثابتة بعد النهى شذوذاً. والعجماء : التي لا تفصح في كلامها. وشبه النساء بالأوعية التي تودع فيها الأشياء تشبيهاً بليغا ، أو على طريق التصريح على رأى السعد في كل تشبيه بليغ. وروى : وللأبناء آباء. والمعنى أن الرفعة والضعفة من جهة الآباء لا من جهة الأمهات ، لأنها كالأوعية للأبناء. لكن هذا التشبيه مبنى على الظاهر. ثم كتب المأمون أيضاً في جواب أخيه : القلم بمده ، والسيف بحده ، والمرء بسعده ، لا بأبيه ولا بجده.

الإخبار ، وهو يحتمل البناء للفاعل والمفعول ، وأن يكون الأصل : تضارر بكسر الراء ، وتضارر بفتحها. وقرأ ﴿لَا تُضَارَّ﴾ بالفتح أكثر القراء. وقرأ الحسن بالكسر على النهى ، وهو محتمل للبناءين أيضاً. ويبين ذلك أنه قرئ لا تضارَّ ، ولا تضارر ، بالجزم وفتح الراء الأولى وكسرها. وقرأ أبو جعفر : لا تضارَّ ، بالسكون مع التشديد على نية الوقف. وعن الأعرج (لا تضار) بالسكون والتخفيف ، وهو من ضاره يصيره. ونوى الوقف كما نواه أبو جعفر ، أو اختلس الضمة فظنه الراوي سكوناً. وعن كاتب عمر بن الخطاب : لا تضرر. والمعنى : لا تضارَّ والدّة زوجها بسبب ولدها ، وهو أن تعنف به وتطلب منه ما ليس يعدل من الرزق والكسوة ، وأن تشغل قلبه بالتفريط في شأن الولد ، وأن تقول بعد ما ألفها الصبي : اطلب له ظمراً ، وما أشبه ذلك ؛ ولا يضارّ مولود له امرأته بسبب ولده ، بأن يمنعها شيئاً مما وجب عليه من رزقها وكسوتها ؛ ولا يأخذها منها وهي تريد إرضاعه ، ولا يكرهها على الإرضاع. وكذلك إذا كان مبنياً للمفعول فهو نهي عن أن يلحق بها الضرر من قبل الزوج ، وعن أن يلحق بها الضرر بالزوج من قبلها بسبب الولد : ويجوز أن يكون ﴿تُضَارَّ﴾ بمعنى تضر ، وأن تكون الباء من صلته ، أى لا تضرّ والدّة بولدها ، فلا تسيء غذاءه وتعهدّه ، ولا تفرط فيما ينبغي له ، ولا تدفعه إلى الأب بعد ما ألفها. ولا يضّرّ الوالد به بأن ينتزعه من يدها أو يقصر في حقها فتقصر هي في حق الولد. فان قلت : كيف قيل بولدها وبولده؟ قلت : لما نُهِيت المرأة عن المضارة أضيف إليها الولد استعطافاً لها عليه وأنه ليس بأجنبيّ منها ، فمن حقها أن تشفق عليه وكذلك الوالد ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ﴾ عطف على قوله ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ ، وما بينهما تفسير للمعروف معترض بين المعطوف والمعطوف عليه. فكان المعنى : وعلى وارث المولود له مثل ما وجب عليه من الرزق والكسوة ، أى إن مات المولود له لزم من يرثه أن يقوم مقامه في أن يرزقها ويكسوها بالشريطة التي ذكرت من المعروف وتجنب الضرر. وقيل : هو وارث الصبي الذي لو مات الصبي ورثه. واختلفوا ، فعند ابن أبي ليلى كل من ورثه ، وعند أبي حنيفة من كان ذا رحم محرم منه. وعند الشافعي : لا نفقة فيما عدا الولاد. وقيل من ورثه من عصبته مثل الجد والأخ وابن الأخ والعم وابن العم. وقيل : المراد وارث الأب وهو الصبي نفسه ، وأنه إن مات أبوه وورثه وجبت عليه أجرة رضاعه في ماله إن كان له مال ، فإن لم يكن له مال أجبرت الأم على إرضاعه. وقيل ﴿عَلَى الْوَارِثِ﴾ على الباقي من الأبوين من قوله : «واجعله الوارث منا»^(١) ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا﴾ صادراً ﴿عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في ذلك ، زادا على الحولين أو نقصا ، وهذه توسعة بعد التحديد. وقيل : هو في غاية الحولين لا يتجاوز ، وإنما اعتبر تراضييهما

(١) قوله «واجعله الوارث منا» الرواية المشهورة : منى. (ع)

في الفصال وتشاورهما : أمّا الأب فلا كلام فيه ، وأمّا الأمّ فلائها أحق بالتربية وهي أعلم بحال الصبي . وقرئ (فإن أراد). استرضع : منقول من أرضع . يقال : أرضعت المرأة الصبي ، واسترضعتها الصبي ، لتعديه إلى مفعولين ، كما تقول : أنجح الحاجة ، واستنجحته الحاجة . والمعنى : أن تسترضعوا المراضع أولادكم ، فحذف أحد المفعولين للاستغناء عنه ، كما تقول : استنجحت الحاجة ولا تذكر من استنجحته ، وكذلك حكم كل مفعولين لم يكن أحدهما عبارة عن الأول ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ﴾ إلى المراضع ﴿مَا آتَيْتُمْ﴾ ما أردتم إيتاءه ، كقوله تعالى : ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ وقرئ : ما آتيتم ، من أتى إليه إحساناً إذا فعله . ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ أى مفعولاً . وروى شيبان عن عاصم : ما أوتيتم ، أى ما آتاكم الله وأقدركم عليه من الأجرة ، ونحوه ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ وليس التسليم بشرط للجواز والصحة ، وإنما هو ندب إلى الأولى . ويجوز أن يكون بعثاً على أن يكون الشيء الذي تعطاه المراضع من أهني ما يكون ، لتكون طيبة النفس راضية ، فيعود ذلك إصلاحاً لشأن الصبي واحتياطاً في أمره ، فأمرنا بإيتائه ناجزاً يداً بيد ، كأنه قيل : إذا أديتم إليهن يداً بيد ما أعطيتموهن ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ متعلق بسلامتم ، أمروا أن يكونوا عند تسليم الأجرة مستبشرين الوجوه ، ناطقين بالقول الجميل ، مطيعين لأنفس المراضع بما أمكن ، حتى يؤمن تفريطهن بقطع معاذيرهن .

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٣٤) وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَغْرِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (٢٣٥)

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾ على تقدير حذف المضاف ، أراد : وأزواج الذين يتوفون منكم يتربصن . وقيل : معناه يتربصن بعدهم ، كقولهم : السمن منوان بدرهم . وقرئ : يتوفون بفتح الياء ^(١)

(١) قال محمود رحمه الله : «قرأها علي رضي الله عنه بفتح الياء ... الخ» ، قال أحمد رحمه الله : ولعل السائل .

أى يستوفون آجالهم ، وهي قراءة على رضى الله عنه. والذي يحكى أن أبا الأسود الدؤلي كان يمشى خلف جنازة ، فقال له رجل : من المتوفى . بكسر الفاء ، فقال الله تعالى. وكان أحد الأسباب الباعثة لعلى رضى الله عنه على أن أمره بأن يضع كتابا في النحو ، تناقضه هذه القراءة ﴿يَتَرَبَّصْنَ بَأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ يعتدّن هذه المدّة وهي أربعة أشهر وعشرة أيام ، وقيل عشراً ذهاباً إلى الليالي والأيام داخله معها ، ولا تراهم قط يستعملون التذكير فيه ذاهبين إلى الأيام.

تقول : صمت عشراً^(١) ، ولو ذكرت خرجت من كلامهم. ومن البين فيه قوله تعالى : ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ ثم ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ فإذا انقضت عدّتهن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأئمة وجماعة المسلمين ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾ من التعرّض للخطاب ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالوجه الذي لا ينكره الشرع. والمعنى أنهن لو فعلن ما هو منكر كان على الأئمة أن يكفوهن. وإن فرّطوا كان عليهم الجناح ﴿فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ﴾ هو أن يقول لها إنك لجميلة أو صالحة أو نافقة ومن غرضي أن أتزوّج ، وعسى الله أن ييسر لي امرأة صالحة ، ونحو ذلك من الكلام الموهوم أنه يريد نكاحها حتى تحبس نفسها عليه إن رغبت فيه ، ولا يصرح بالنكاح ، فلا يقول : إني أريد أن أنكحك ، أو أتزوجك ، أو أخطبك. وروى ابن المبارك عن عبد الله بن سليمان عن خالته قالت : دخل عليّ أبو جعفر محمد بن علي وأنا في عدتي فقال : قد علمت قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم وحق جدّي عليّ وقدمي في الإسلام ، فقلت : غفر الله لك! أخطبني في عدّتي وأنت يؤخذ عنك؟ فقال : أو قد فعلت! إنما أخبرتك بقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضعى ، قد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أم سلمة وكانت عند ابن عمها أبي سلمة فتوفى عنها ، فلم يزل يذكر لها منزلته من الله وهو متحامل على يده حتى أثر الحصر في يده من شدّة تحامله عليها ، فما كانت تلك خطبة^(٢). فإن قلت : أى فرق بين الكناية والتعريض؟ قلت : الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له ، كقولك : طويل النجاد والحمائل لطول القامة^(٣)

. لأبى الأسود كان ممن يفهم عنه أنه لا فرق عنده بين الكسر والفتح وهو الظاهر ، وعلى ذلك أجابه أبو الأسود ، فلا تناقض حينئذ.

(١) قال محمود رحمه الله : «تقول : صمت عشراً ... الخ» قال أحمد رحمه الله : ومنه «من صام رمضان وأتبعه بست من شوال فكأنما صام الدهر» فغلب الليالي أو كان الصوم غير متصور فيها حتى قالوا : إن شرطة النية وزمانها الليل ، فلهذا جعل لها حظاً في الصوم وغلبها.

(٢) هكذا هو في كتاب النكاح لابن المبارك ورواه الدارقطني من رواية محمد بن الصلت عن عبد الرحمن بن سليمان . وهو ابن الغسيل . نحوه بتمامه.

(٣) قوله «لطول القامة» لعله : لطويل. (ع)

وكثير الرماد للمضياف. والتعريض أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره ، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه : جئتكَ لأسلم عليك ، ولأنظر إلى وجهك الكريم. ولذلك قالوا :

وَحَسْبُكَ بِالتَّسْلِيمِ مِنِّي تَقَاضِيَا

وكأنه إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض ويسمى التلويح لأنه يلوح منه ما يريد **﴿أَوْ أَكُنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾** أو سترتم وأضمرتم في قلوبكم فلم تذكره بألسنتكم لا معرّضين ولا مصرحين **﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾** لا محالة ولا تنفكون عن النطق برغبتكم فيهنّ ولا تصبرون عنه ، وفيه طرف من التوبيخ كقوله : **﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾**. فإن قلت : أين المستدرك بقوله ^(١) **﴿وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ﴾**؟ قلت : هو محذوف للدلالة ستذكروهنّ عليه ، تقديره : علم الله أنكم ستذكروهنّ فاذكروهنّ ، ولكن لا تواعدوهنّ سراً. والسر وقع كناية عن النكاح الذي هو الوطاء ، لأنه مما يسرّ. قال الأعشى :

وَلَا تَقْرَبَنَّ مَرْبَنَ جَارَةٍ إِنْ سَرَّهَا عَلَيْكَ حَرَامٌ فَانْكِحَنَّ أَوْ تَأْتَبَّ دَا^(٢)

ثم عبر به عن النكاح الذي هو العقد لأنه سبب فيه كما فعل بالنكاح **﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا﴾**

(١) قال محمود رحمه الله : «إن قلت أين المستدرك بقوله ولكن ... الخ» قال أحمد رحمه الله : وقويت دلالة هذا المذكور على ما حذف ، لأن المعتاد في مثل هذه الصيغة ورود الاباحة عقيبها. ونظير هذا النظم قوله تعالى **﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾** الآية. ولهذا الحذف سر والله أعلم ، وهو أنه اجتنب لأن الاباحة لم تنسحب على الذكر مطلقاً ، بل اختصت بوجه واحد من وجوهه وذلك الوجه المباح عسر التميز عما لم يباح ، فذكرت مستثناة بقوله : **﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾** تنبيهاً على أن المحل ضيق والأمر فيه عسر والأصل فيه الحظر ، ولا كذلك الوطاء في زمن ليل الصوم فانه أبيض مطلقاً غير مقيد ، فلذلك صدر الكلام بالاباحة والتوسعة ، وجاء النهي عن مباشرة المعتكفة في المسجد تلوا للاباحة وتبعاً في الذكر ، لأنها حالة فاذة والمنع فيها لم يكن لأجل الصوم ، ولكن الأمر يتعلق به من حيث المصاحب وهو الاعتكاف ، فتفطن لهذا السر فانه من غرائب النكت.

(٢) ولا تسخرن مــــــن بئــــــس ذى ضــــــرارة ولا تحسبن مــــــن المــــــال للــــــم رء مــــــخلدا

ولا تقــــــربن مــــــن جــــــارة إِنْ ســــــررها عليــــــك حــــــرام فــــــانكحــــــن أَوْ تَأْتَبــــــدا

للأعشى ميمون بن قيس. والبائس : الفقير المحتاج. والضارة : العمى. وإسناد الإخلاد إلى المال مجاز ، لأنه سببه على التوهم. وتقرب . بفتح الراء . بمعنى نفعل ، فمن زائدة. وجارة : مفعول ، وبضمها بمعنى تدنو ، فمن أصلية. وروى : ولا تقرين جارة . بتشديد النون . وعلى كل فهو كناية عن النهي عن الوطاء. والسر : ضد الجهر ، واستعمل هنا في الموطئ مجازاً لأنه يقع فيه ، أو لأنه مما يسر. والنكاح : عقد الزوجية. ويقال : أبدا الوحشي أبودا ، وتأبد تأبدا : نفر عن الأنيس ، وألفه هنا منقلبة عن نون التوكيد في الوقف ، والمراد منه التباعد مجازاً ، والمخاطب بذلك ليس معينا. ونهاه عن الدنو منها لأنه أبلغ من تحبه عن وطئها ، ثم قال : فتزوج أو اعتزل النساء كالوحش.

مَعْرُوفًا ﴿ وهو أن تعرّضوا ولا تصرّحوا. فإن قلت : بم يتعلق حرف الاستثناء؟ قلت : بلا تواعدوهنّ ، أى لا تواعدوهنّ مواعدة قط إلا مواعدة معروفة غير منكرة. أى لا تواعدوهنّ إلا بأن تقولوا ، أى لا تواعدوهنّ إلا بالتعريض. ولا يجوز أن يكون استثناء منقطعا من **﴿سِرًّا﴾** لأدائه إلى قولك لا تواعدوهنّ إلا التعريض. وقيل معناه : لا تواعدوهن جماعا ، وهو أن يقول لها إن نكحتك كان كيت وكيت ، يريد ما يجرى بينهما تحت اللحاف. إلا أن تقولوا قولاً معروفاً يعنى من غير رث ولا إفحاش في الكلام. وقيل لا تواعدوهن سراً : أى في السر على أنّ المواعدة في السرّ عبارة عن المواعدة بما يستهجن ، لأن مسارّتهنّ في الغالب بما يستحيا من المجاهرة به. وعن ابن عباس رضى الله عنهما **﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾** ، هو أن يتواتقا أن لا تتزوّج غيره **﴿وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾** من عزم الأمر وعزم عليه ، وذكر العزم مبالغة في النهي عن عقدة النكاح في العدة ، لأن العزم على الفعل يتقدّمه ، فإذا نهى عنه كان عن الفعل أنهى ومعناه : ولا تعزموا عقد عقدة النكاح. وقيل : معناه ولا تقطعوا عقدة النكاح : وحقيقة العزم : القطع ، بدليل قوله عليه السلام «لا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل» وروى «لمن لم يبيت الصيام ^(١)» **﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾** يعنى ما كتب وما فرض من العدة **﴿يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾** من العزم على ما لا يجوز **﴿فَاخْذِرُوهُ﴾** ولا تعزموا عليه. **﴿غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾** لا يعاجلكم بالعقوبة.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ مَسُوهُنَّ أَوْ تَفَرَّضُوا هُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسَعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ هُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوا أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢٣٧)

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ لا تبعه عليكم من إيجاب مهر **﴿إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾** ما لم تجمعهن **﴿أَوْ تَفَرَّضُوا هُنَّ فَرِيضَةً﴾** إلا أن تفرضوا هن فريضة ، أو حتى تفرضوا ، وفرض الفريضة : تسمية المهر. وذلك أن المطلقة غير المدخول بها إن سمى لها مهر فلها نصف المسمى ، وإن لم يسم لها فليس لها نصف مهر المثل ولكن المتعة. والدليل على أن الجناح تبعه المهر قوله :

(١) أخرجه أصحاب السنن من حديث حفصة بلفظ «لمن لم يجمع» وقوله : وروى «لمن لم يبيت» هي عند النسائي.

(وإن طلقتموهن) إلى قوله : ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ فقلوه : فنصف ما فرضتم : إثبات للجناح المنفي ثمة ، والمتعة درع وملحفة وخمار على حسب الحال عند أبي حنيفة ، إلا أن يكون مهر مثلها أقل من ذلك. فلها الأقل من نصف مهر المثل ومن المتعة ، ولا ينقص من خمسة دراهم ؛ لأن أقل المهر عشرة دراهم فلا ينقص من نصفها. و ﴿الْمُوسِعِ﴾ الذي له سعة. و ﴿الْمُقْتِرِ﴾ الضيق الحال. ﴿وَقَدَرَهُ﴾ مقداره الذي يطيقه ، لأن ما يطيقه هو الذي يختص به. وقرئ بفتح الدال. والقدر والقدر لغتان. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لرجل من الأنصار تزوج امرأة ولم يسم لها مهراً ، ثم طلقها قبل أن يمسه : «أمتعتها»؟ قال : لم يكن عندي شيء. قال : «متعها بقلنسوتك^(١)». وعند أصحابنا لا تجب المتعة إلا لهذه وحدها ، وتستحب لسائر المطلقات ولا تجب. ﴿مَتَاعاً﴾ تأكيد لمتعهن ، بمعنى تمتيعاً ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالوجه الذي يحسن في الشرع والمروءة ﴿حَقّاً﴾ صفة لمتاعا ، أى متاعا واجبا عليهم. أو حق ذلك حقاً ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ على الذين يحسنون إلى المطلقات بالتمتع ، وسماهم قبل الفعل محسنين كما قال صلى الله عليه وسلم «من قتل قتيلاً فله سلبه^(٢)» ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ يريد المطلقات. فإن قلت : أى فرق بين قولك : الرجال يعفون. والنساء يعفون؟ قلت : الواو في الأول ضميرهم ، والنون علم الرفع. والواو في الثاني لام الفعل والنون ضميرهنّ ، والفعل مبنى لا أثر في لفظه للعامل وهو في محل النصب «ويعفو : عطف على محله. و ﴿الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ الولي^(٣)

(١) لم أجده.

(٢) تقدم في صفحة ٣٥ من هذا الجزء.

(٣) قال محمود رحمه الله : «والذي بيده عقدة النكاح الولي ... الخ» قال أحمد رحمه الله : هذا النقل وهم فيه الزمخشري عن الشافعي رضى الله عنه ، فان مذهبه موافق لمذهب أبي حنيفة رضى الله عنه في أن المراد به الزوج.

وإنما ذهب إلى أن المراد الولي الامام مالك رضى الله عنه ، وصدق الزمخشري أنه قول ظاهر الصحة ، عليه رونق الحق وطلاوة الصواب لوجوه :

الأول : أن الذي بيده عقدة النكاح ثابتة مستقرة هو الولي. وأما الزوج فله ذلك حالة العقد المتقدم خاصة ، ثم هو بعد الطلاق ، والكلام حينئذ ليس من عقدة النكاح في شيء البتة ، فان قيل : أطلق عليه ذلك بعد الطلاق بتأويل «كان» مقدرة ، فلا يخفى على المنصف ما في ذلك من البعد والخروج من حد إطلاق الكلام وأصله. الثاني : أن الخطاب الأول للزوجات اتفاقاً بقوله : ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ وفيهن من لا عفو لها البتة كالأمة والبكر ، فلو لا استتمام التقسيم بصرف الثاني إلى الولي على ابنته البكر أو أمتة ، وإلا لزم الخروج عن ظاهر عموم الأول ، وحيث حمل الكلام على الولي صار الكلام بمعنى : إلا أن يعفون كن أهلاً للعفو ، أو يعفو لهن إن لم يكن أهلاً ، ولهذا كان الولي الذي يعفو ويعتبر عفو عند مالك : هو الأب في ابنته البكر. والسيد في أمتة خاصة.

الثالث : أن الكتاب العزيز جدير بتناسب الأقسام وانتظام أطراف الكلام ، والأمر فيه على هذا المحمل بهذه المثابة ، فان الآية حينئذ مشتملة على خطاب الزوجات ثم الأولياء ثم الأزواج بقوله : ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ فتكون على هذا الوجه ملية بالفوائد جامعة للمقاصد.

يعنى إلا أن تعفو المطلقات عن أزواجهن فلا يطالبنهم بنصف المهر ، وتقول المرأة : ما رأيي ولا خدمته ولا استمتع بي فكيف آخذ منه شيئا ، أو يعفو الولي الذي يلي عقد نكاحهن ، وهو مذهب الشافعي. وقيل هو الزوج ، وعفوه أن يسوق إليها المهر كاملا ، وهو مذهب أبي حنيفة والأول ظاهر الصحة. وتسمية الزيادة على الحق عفواً فيها نظر ، إلا أن يقال كان الغالب عندهم أن يسوق إليها المهر عند التزويج ، فإذا طلقها استحق أن يطالبها بنصف ما ساق إليها ، فإذا ترك المطالبة فقد عفا عنها. أو سماه عفواً على طريق المشاكلة. وعن جبير بن مطعم أنه تزوج امرأة وطلقها قبل أن يدخل بها فأكمل لها الصداق وقال : أنا أحق بالعفو. وعنه أنه دخل على سعد بن أبي وقاص فعرض عليه بنتاً له فتزويجها ، فلما خرج طلقها وبعث إليها بالصداق كاملا ، فقيل له : لم تزويجتها؟ فقال : عرضها على فكرهت رده ، قيل : فلم بعثت بالصداق؟ قال : فأين الفضل؟^(١) و ﴿الْفَضْلُ﴾ التفضل. أى ولا تنسوا أن يتفضل بعضكم على بعض وتتمروا ولا تستقصوا : وقرأ الحسن : أن يعفو الذي ، بسكون الواو. وإسكان الواو والياء في موضع النصب تشبيههما بالألف لأحدهما أختاها. وقرأ أبو نهيك : وأن يعفو ، بالياء. وقرئ : ولا تنسو الفضل ، بكسر الواو.

. الرابع : أن المضاف إلى صاحب عقدة النكاح العفو كما هو مضاف إلى الزوجات ، والعفو : الاسقاط لغة وهو المراد في الأول اتفاقا ، إذ المضاف إلى الزوجات هو الاسقاط بلا ريب ، ولو كان المراد بصاحب العقدة الزوج لتعين حمل العفو على تكميل المهر وإعطائه ما لا يستحق عليه ، وهذا إنما يطابقه من الأسماء التفضل. ومن ثم قال في خطاب الأزواج ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ لأن المبدول من جهته غير مستحق عليه فهو فضل لا عفو. ولا يقال : لعل الزوج تعجل المهر كاملا قبل الطلاق وطلق فيجب استرجاع النصف فيسقطه ويعفو عنه وحينئذ يبقى العفو من جانب الزوج على ظاهره وحقيقته ، لأننا نقول : حسبنا في رد هذا الوجه ما فيه من الكلفة وتقدير ما الأصل خلافه.

الخامس : أن صدر الآية خطاب للأزواج في قوله : ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ إلى قوله : ﴿فَرَضْتُمْ﴾ فلو جاء قوله ﴿أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ مراداً به الزوج لكان عدولا والتفاتا من الخطاب إلى الغيبة ، وليس هذا من مواضعه ، ولأجل هذا جاء قوله : ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ على صيغة الخطاب ، لأن المراد به الأزواج لخطابهم أولا السادس : أن قوله : ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ وما عطف عليه استثناء من قوله : ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ وأصل الكلام : فنصف ما فرضتم واجب عليكم إلا أن يعفو عنه الزوجات فليس بواجب عليكم إذاً ، فإذا حمل الكلام على الولي استقام ، إذ هم لو كملوا المهر لهن فالنصف واجب عليهم ولا يتغير ولا يخالف الحالة المستثناة مما وقع منه الاستثناء ، فلا يجرى الاستثناء على حقيقته في المخالفة بين الأول والثاني ، إلا أن يقال : مقتضى قوله : ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ واجب عليكم : أن النصف الآخر غير مؤدى إليهن لأنه ساقط عن الزوج ، فإذا عفا بمعنى كمل المهر فقد صار النصف الآخر مؤدى إليهن ، ففي هذا التأويل من الكلفة ما يسقط مؤنة رده.

(١) أخرجه الطبري من طريق ابن أبي ذئب عن سعيد بن محمد بن جبير عن جده جبير بن مطعم به سواء.

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَدْكُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٣٩)

﴿الصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ أى الوسطى بين الصلوات ، أو الفضلى ، من قولهم للأفضل : الأوسط.

وإنما أفردت وعطفت على الصلاة ^(١) لانفرادها بالفضل وهي صلاة العصر. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يوم الأحزاب «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملاً الله بيوثهم ناراً» ^(٢) وقال عليه السلام «إنها الصلاة التي شغل عنها سليمان بن داود حتى توارت بالحجاب» ^(٣) وعن حفصة أنها قالت لمن كتب لها المصحف : إذا بلغت هذه الآية فلا تكتبها حتى أمليها عليك كما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها ، فأملت عليه : والصلاة الوسطى صلاة العصر ^(٤) وروى عن عائشة وابن عباس رضى الله عنهم : والصلاة الوسطى وصلاة العصر ^(٥) ؛ بالواو.

(١) قوله «وعطفت على الصلاة» لعله : على الصلوات. (ع)

(٢) أخرجه مسلم من رواية شتير بن شكل عن علي به. والحديث في الكتب الستة ، إلا أن قوله «صلاة العصر» عند مسلم وحده. وأخرجه البخاري في المغازي والجهاد والتفسير وفي الباب عن ابن مسعود رفعه «الصلاة الوسطى صلاة العصر» أخرجه الترمذي. وعنده عن سمرة نحوه.

(٣) أخرجه ابن عدى في الكامل عن علي مرفوعاً. قال «صلاة الوسطى صلاة العصر التي غفل عنها سليمان بن داود حتى توارت بالحجاب» وفي إسناده مقاتل بن سليمان. وهو ساقط ، ورواه ابن أبي شيبة من رواية أبي إسحاق عن الحرث ابن علي مرفوعاً ، وهو أشبه بالصواب. وفي الباب عن ابن عباس موقوفاً عند الطبري.

(٤) أخرجه الطبري من طريق أبي بشر عن سالم عن حفصة أنها أمرت رجلاً فكتب لها مصحفاً. فقالت : إذا بلغت هذا المكان فأعلمنى. فلما بلغ ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ قالت : اكتب : صلاة العصر. وفي رواية له : فقالت له «اكتب فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى هي صلاة العصر» هكذا عند الطبري. والمشهور عن حفصة أنها أملت على الكاتب : حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر. كذلك رواه مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم عن عمرو بن رافع أنه قال : كنت أكتب مصحفاً لحفصة فذكره. ورواه ابن حبان من رواية ابن إسحاق : حدثني أبو جعفر محمد بن علي ونافع بن عمرو بن نافع مولى عمر بن الخطاب حديثهما أنه كان يكتب المصاحف في عهد ازواج رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فاستكتبتنى حفصة مصحفاً وقالت : إذا بلغت هذه الآية من هذه السورة . البقرة . فلا تكتبها حتى تأتيني بها فأملئها عليك كما حفظتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فلما بلغت جثتها بالورقة التي أكتبها : فقالت لي : اكتب حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر. ومن هذا الوجه أخرجه أبو يعلى والطحاوي. ورواه عبد الرزاق عن ابن جريج عن نافع عن حفصة نحوه وكذا رواه الطبري من طريق عبد الله بن عمر عن نافع : أن حفصة أمرت مولى لها : وأخرجه ابن أبي داود في كتاب المصاحف من نحو عشرين طريقاً فيها كلها وصلاة العصر بالواو.

(٥) أما عائشة فروى مسلم من طريق أبي يونس مولى عائشة قال : أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفاً وقالت إذا بلغت هذه الآية فأذني. فلما بلغت آذنتها فأملت على : حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر ، وقالت .

فعلى هذه القراءة يكون التخصيص لصلاتين : إحداهما الصلاة الوسطى ، وإما الظهر ، وإما الفجر وإما المغرب ، على اختلاف الروايات فيها ، والثانية : العصر ، وقيل : فضلها لما في وقتها من اشتغال الناس بتجاراتهم ومعاشهم. وعن ابن عمر رضى الله عنهما : هي صلاة الظهر ^(١) ، لأنها في وسط النهار ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّيها بالهجرة ، ولم تكن صلاة أشدّ على أصحابه منها. وعن مجاهد : هي الفجر لأنها بين صلاتي النهار وصلاتي الليل. وعن قبيصة بن ذؤيب : هي المغرب ، لأنها وتر النهار ولا تنقص في السفر من الثلاث ^(٢) : وقرأ عبد الله : وعلى الصلاة الوسطى : وقرأت عائشة رضى الله عنها (والصلاة الوسطى) بالنصب على المدح والاختصاص. وقرأ نافع : الوسطى ، بالصاد ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ﴾ في الصلاة ﴿فَانْتَبِهْ﴾ ذاكرين لله في قيامكم. والقنوت : أن تذكر الله قائما : وعن عكرمة : كانوا يتكلمون في الصلاة فنهوا. وعن مجاهد : هو الركود وكف الأيدي والبصر. وروى أنهم كانوا إذا قام أحدهم إلى الصلاة هاب الرحمن أن يمدّ بصره أو يلتفت ، أو يقلب الحصى ، أو يحدث نفسه بشيء من أمور الدنيا ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ فإن كان بكم خوف من عدوّ أو غيره ﴿فَرَجَالاً﴾ فصلوا راجلين ، وهو جمع راجل كقائم وقيام ، أو رجل. يقال : رجل رجل ، أى راجل. وقرئ : فرجالا. بضم الراء ، ورجالا. بالتشديد ، ورجالا. وعند أبي حنيفة رحمه الله : لا يصلون في حال المشي والمسايقة ما لم يمكن الوقوف : وعند الشافعي رحمه الله : يصلون في كل حال ، والراكب يومئ ويسقط عنه التوجه إلى القبلة ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ فإذا زال خوفكم ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ من صلاة الأمن ، أو فإذا أمنتهم فاشكروا الله على الأمن ، واذكروه بالعبادة ، كما أحسن إليكم بما علمكم من الشرائع ، وكيف تصلون في حال الخوف وفي حال الأمن.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ﴾

. سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكذا أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي ومالك والشافعي وأحمد من هذا الوجه. وأما ابن عباس فرواه الطبري وابن أبي داود في المصاحف من رواية أبي إسحاق عمر بن مريم عن ابن عباس «أنه كان يقرأها كذلك».

(١) أخرجه الطبري من رواية أبي عقيل زهرة بن معبد أن سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وإبراهيم بن طلحة سألو ابن عمر عن الصلاة الوسطى. فقال : هي الظهر.

(٢) أخرجه الطبري من رواية إسحاق بن أبي فردة عن رحل عن قبيصة بن ذؤيب قال : الصلاة الوسطى صلاة المغرب. ألا ترى أنها ليست بأقلها ولا أكثرها ، ولا تقصر في السفر؟ وإسحاق متروك ، وشيخه مجهول.

غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾

تقديره فيمن قرأ وصية بالرفع : ووصية الذين يتوفون ، أو وحكم الذين يتوفون وصية لأزواجهم ، أو والذين يتوفون أهل وصية لأزواجهم. وفيمن قرأ بالنصب : والذين يتوفون يوصون وصية ، كقولك : إنما أنت سير البريد ، بإضمار سير. أو والزم الذين يتوفون وصية. وتدل عليه قراءة عبد الله : كتب عليكم الوصية لأزواجكم متاعاً إلى الحول ، مكان قوله ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لَأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾ وقرأ أبي : متاع لأزواجهم متاعاً. وروى عنه : فمتاع لأزواجهم. ومتاعاً نصب بالوصية ، إلا إذا أضمرت يوصون ، فإنه نصب بالفعل. وعلى قراءة أبي متاعاً نصب بمتاع ، لأنه في معنى التمتع ؛ كقولك : الحمد لله حمد الشاكرين ، وأعجبنى ضرب لك زيدا ضرباً شديداً. و ﴿غَيْرِ إِخْرَاجٍ﴾ مصدر مؤكد ، كقولك : هذا القول غير ما تقول. أو بدل من متاعاً. أو حال من الأزواج ، أى غير مخرجات. والمعنى أن حق الذين يتوفون عن أزواجهم أن يوصوا قبل أن يحتضروا بأن تمتع أزواجهم بعدهم حولاً كاملاً ، أى ينفق عليهن من تركته ولا يخرجن من مساكنهن ، وكان ذلك في أول الإسلام ، ثم نسخت المدة بقوله : ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ وقيل : نسخ ما زاد منه على هذا المقدار ، ونسخت النفقة بالإرث الذي هو الربع والثلث. واختلف في السكنى ، فعند أبي حنيفة وأصحابه : لا سكنى لمن ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾ من التزني والتعرض للخطاب ﴿مِنْ مَعْرُوفٍ﴾ مما ليس بمنكر شرعاً. فإن قلت : كيف نسخت الآية المتقدمة المتأخرة؟ قلت : قد تكون الآية متقدمة في التلاوة وهي متأخرة في التنزيل ، كقوله تعالى : ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ مع قوله : ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾.

﴿وَلِلْمُطَلَّاقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٤١) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

﴿وَلِلْمُطَلَّاقَاتِ مَتَاعٌ﴾ عم المطلقات بإيجاب المتعة لمن بعد ما أوجبه لواحده منهن وهي المطلقة غير المدخول بها ، وقال ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ كما قال ثمة : حقاً على المحسنين. وعن سعيد بن جبير وأبي العاليه والزهري : أنها واجبة لكل مطلقة. وقيل قد تناولت التمتع الواجب والمستحب جميعاً. وقيل : المراد بالمتاع نفقة العدة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٢٤٣) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأخبار الأولين ، وتعجيب من شأنهم. ويجوز أن يخاطب به من لم ير ولم يسمع ، لأن هذا الكلام جرى مجرى المثل في معنى التعجيب. روى أنَّ أهل داوردان قرية قبل واسط وقع فيهم الطاعون فخرجوا هارين ، فأماهم الله ثم أحياهم ليعتبروا ويعلموا أنه لا مفر من حكم الله وقضائه. وقيل : مرّ عليهم حزيل بعد زمان طويل وقد عريت عظامهم وتفرقت أوصالهم فلوى شذقه وأصابه تعجبا مما رأى ، فأوحى إليه : ناد فيهم أن قوموا بإذن الله ، فنادى ، فنظر إليهم قياما يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت. وقيل : هم قوم من بني إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد فهربوا حذراً من الموت ، فأماهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ فيه دليل على الألوف الكثيرة. واختلف في ذلك ، فقيل عشرة ، وقيل ثلاثون ، وقيل سبعون. ومن بدع التفسير ﴿أُلُوفٌ﴾ متألفون ، جمع ألف كقاعد وقعود. فإن قلت : ما معنى قوله ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾؟ قلت : معناه فأماهم ، وإنما جيء به على هذه العبارة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيتته ، وتلك ميتة خارجة عن العادة ، كأنهم أمروا بشيء فامتثلوه امتثالاً من غير إباء ولا توقف ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وهذا تشجيع للمسلمين على الجهاد والتعرض للشهادة ، وأن الموت إذا لم يكن منه بدٌ ولم ينفع منه مفر ، فأولى أن يكون في سبيل الله ﴿لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ حيث يبصرهم ما يعتبرون به ويستبصرون ، كما بصر أولئك ، وكما بصركم باقتصاص خبرهم. أو لذو فضل على الناس حيث أحيى أولئك ليعتبروا فيفوزوا ، ولو شاء لتركهم موتى إلى يوم البعث. والدليل على أنه ساق هذه القصة بعثاً على الجهاد : ما أتبعه من الأمر بالقتال في سبيل الله ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع ما يقوله المتخلفون والسابقون ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يضمرونه وهو من وراء الجزاء.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيراً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٤٥)

إقراض الله : مثل لتقديم العمل الذي يطلب به ثوابه. والقرض الحسن : إما المجاهدة في نفسها ،

وإما النفقة في سبيل الله ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ قيل : الواحد بسبعمائة. وعن السدى : كثيرة لا يعلم كنهها إلا الله ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾ يوسع على عباده ويقتصر ، فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم لا يبدلكم الضيقة بالسعة ﴿وَالِيَهُ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على ما قدّمتم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ هُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٢٤٦)

﴿لِنَبِيِّ هُمْ﴾ هو يوشع أو شمعون أو اشمويل ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾ أخض للقتال معنا أميراً نصدر في تدبير الحرب عن رأيه وننتهي إلى أمره ، طلبوا من نبههم نحو ما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من التأمير على الجيوش التي كان يجهزها ، ومن أمرهم بطاعته وامتثال أوامره. وروى أنه أمر الناس إذا سافروا أن يجعلوا أحدهم أميراً عليهم ﴿نُقَاتِلَ﴾ قرئ بالنون والجزم على الجواب. وبالنون والرفع على أنه حال ، أى ابعثه لنا مقدّرين القتال. أو استئناف كأنه قال لهم : ما تصنعون بالملك؟ فقالوا : نقاتل. وقرئ : يقاتل بالياء والجزم على الجواب ، وبالرفع على أنه صفة للملك. وخبر عسيتم ﴿أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ والشرط فاصل بينهما. والمعنى : هل قاربتم أن لا تقاتلوا؟ يعنى هل الأمر كما أتوقعه أنكم لا تقاتلون؟ أراد أن يقول : عسيتم أن لا تقاتلوا ، بمعنى أتوقع جبنكم عن القتال ، فأدخل هل مستفهماً عما هو متوقع عنده ومظنون. وأراد بالاستفهام التقرير ، وتثبيت أن المتوقع كائن ، وأنه صائب في توقعه ^(١) ، كقوله تعالى : ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ معناه التقرير. وقرئ (عسيتم) بكسر السين وهي ضعيفة ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ﴾ وأى دأى داع لنا إلى ترك القتال ، وأى غرض لنا فيه ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ وذلك أنّ قوم جالوت كانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين ، فأسروا من أبناء ملوكهم أربعمئة وأربعين ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ قيل كان القليل منهم ثلاثمئة وثلاثة عشر على عدد أهل بدر ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وعيد لهم على ظلمهم في القعود عن القتال وترك الجهاد.

(١) قوله «وأنه صائب في توقعه» في الصحاح : صاب السهم القرطاس يصيبه ، لغة في أصابه. (ع)

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَمَّنْ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٤٧)

﴿طَالُوتَ﴾ اسم أعجمي كجالوت وداود. وإنما امتنع من الصرف لتعريفه وعجمته ، وزعموا أنه من الطوال لما وصف به من البسطة في الجسم. ووزنه إن كان من الطول «فعلوت» منه ، أصله طولوت ، إلا أنّ امتناع صرفه يدفع أن يكون منه ، إلا أن يقال : هو اسم عبراني وافق عريباً ، كما وافق حنطا حنطة ، وبشمالاً لها رخمنا رخيماً بسم الله الرحمن الرحيم ، فهو من الطول كما لو كان عريباً ، وكان أحد سببيه العجمة لكونه عبرانياً ﴿أَمَّنْ﴾ كيف ومن أين ، وهو إنكار لتملكه عليهم واستبعاد له. فإن قلت : ما الفرق بين الواوين في : ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ﴾ ، ﴿وَلَمْ يُؤْتَ﴾؟^(١) قلت : الأولى للحال ، والثانية لعطف الجملة على الجملة الواقعة حالا ، قد انتظمتها معا في حكم واو الحال. والمعنى : كيف يتملك علينا والحال أنه لا يستحق التملك لوجود من هو أحق بالملك ، وأنه فقير ولا بدّ للملك من مال يعتضد به. وإنما قالوا ذلك لأنّ النبوة كانت في سبط لاوى بن يعقوب والملك في سبط يهوذا ولم يكن طالوت من أحد السبطين ، ولأنه كان رجلاً سقاء أو دباغاً فقيراً. وروى أنّ نبيهم دعا الله تعالى حين طلبوا منه ملكاً ، فأتى بعصا يقاس بها من يملك عليهم ، فلم يساوها إلا طالوت ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ يريد أنّ الله هو الذي اختاره عليكم ، وهو أعلم بالمصالح منكم ولا اعتراض على حكم الله. ثم ذكر مصلحتين أنفع مما ذكروا من النسب والمال وهما العلم المبسوط والجسامة. والظاهر أنّ المراد بالعلم المعرفة بما طلبوه لأجله من أمر الحرب. ويجوز أن يكون عالماً بالديانات وبغيرها. وقيل : قد أوحى إليه ونبي ، وذلك أنّ الملك لا بدّ أن يكون من أهل العلم ، فإنّ الجاهل مزدرى غير منتفع به ، وأن يكون جسيماً يملأ العين جهازة لأنه أعظم في النفوس وأهيب في القلوب. والبسطة : السعة والامتداد. وروى أن الرجل القائم كان يمدّ يده فينال رأسه ﴿يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أى الملك له غير منازع فيه ، فهو يؤتيه من يشاء : من يستصلحه للملك ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾

(١) قال محمود رحمه الله : «إن قلت ما الفرق بين الواوين ... الخ» قال أحمد رحمه الله : وحاصل هذا أن الواو الأولى أفادت جملتها الحالية بنفسها وأفادت الجملة الثانية الحالية أيضاً لكن بواسطة الواو العاطفة. وهذا النظر من السهل الممتنع.

الفضل والعطاء ، يوسع على من ليس له سعة من المال ويغنيه بعد الفقر ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يصطفيه للملك.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٢٤٨)

﴿التَّابُوتُ﴾ صندوق التوراة. وكان موسى عليه السلام إذا قاتل قَدَّمه فكانت تسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفرون. والسكينة : السكون والطمأنينة ، وقيل : هي صورة كانت فيه من زبرجد أو ياقوت ، لها رأس كرأس الهرّ وذنب كذنبه وجناحان ، فتثن فيزف التابوت نحو العدو وهم بمضون معه ، فإذا استقرّ ثبتوا وسكنوا ونزل النصر ، وعن عليّ رضي الله عنه : كان لها وجه كوجه الإنسان وفيها ريح هفافة ﴿وَبَقِيَّةٌ﴾ هي رضاض الألواح وعصى موسى وثيابه وشيء من التوراة ، وكان رفعه الله تعالى بعد موسى عليه السلام فنزلت به الملائكة تحمله وهم ينظرون إليه ، فكان ذلك آية لاصطفاء الله طالوت. وقيل : كان مع موسى ومع أنبياء بني إسرائيل بعده يستفتحون به ، فلما غيرت بنو إسرائيل غلبهم عليه الكفار فكان في أرض جالوت ، فلما أراد الله أن يملك طالوت أصحابهم ببلاء حتى هلكت خمس مدائن ، فقالوا : هذا بسبب التابوت بين أظهرنا ، فوضعه على ثورين ، فساقهما الملائكة إلى طالوت. وقيل كان من خشب الشمشام ممّوها بالذهب. نحواً من ثلاثة أذرع في ذراعين. وقرأ أيّ وزيد بن ثابت : التابوه بالهاء وهي لغة الأنصار. فإن قلت : ما وزن التابوت؟ قلت : لا يخلو من أن يكون فعلوتا ^(١) أو فاعولا ، فلا يكون «فاعولا» لقلته ، نحو : سلس وقلق ، ولأنه تركيب غير معروف فلا يجوز ترك المعروف إليه ، فهو إذاً «فعلوت» من التوب ، وهو الرجوع ؛ لأنه ظرف توضع فيه الأشياء وتودعه ، فلا يزال يرجع إليه ما يخرج منه ، وصاحبه يرجع إليه فيما يحتاج إليه من مودعاته. وأما من قرأ بالهاء فهو «فاعول» عنده ، إلا فيمن جعل هاء بدلا من التاء ، لاجتماعهما في الهمس وأنهما من حروف الزيادة. ولذلك أبدلت من تاء التأنيث. وقرأ أبو السمال : سكينه ، بفتح السين والتشديد وهو غريب. وقرئ : يحمله ، بالياء. فإن قلت : مَنْ ﴿آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾؟ قلت : الأنبياء من بني يعقوب بعدهما.

(١) قال محمود رحمه الله : «وزن التابوت فعلوت ... الخ» قال أحمد رحمه الله : يريد لأن الفاء تاء واللام كذلك والعرب تستثقل ما فاؤه ولامه حرف واحد لأنه توأم التكرار.

لأن عمران هو ابن قاهث بن لاوى بن يعقوب فكان أولاد يعقوب آلهما. ويجوز أن يراد : مما تركه موسى وهرون. والآل مقحم لتفخيم شأنهما.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٢٤٩)

﴿فَصَلِّ﴾ عن موضع كذا : إذا انفصل عنه وجاوزه ، وأصله : فصل نفسه ، ثم كثر محذوف المفعول حتى صار في حكم غير المتعدي كانفصل.

وقيل : فصل عن البلد فصولاً. ويجوز أن يكون : فصله فصلاً ، وفصل فصولاً كوقف وصدّ ونحوهما. والمعنى : انفصل عن بلده ﴿بِالْجُنُودِ﴾ روى أنه قال لقومه : لا يخرج معي رجل بنى بناء لم يفرغ منه ، ولا تاجر مشغل بالتجارة ، ولا رجل متزوج بامرأة لم يبن عليها ، ولا أبتغى إلا الشاب النشيط الفارع. فاجتمع إليه مما اختاره ثمانون ألفاً ، وكان الوقت قيظاً وسلكوا مفازة ، فسألوا أن يجرى الله لهم نهرًا ، ف ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ﴾ بما اقترحموه من النهر ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ﴾ فمن ابتداء شربه من النهر بأن كرع فيه ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾ فليس بمتصل بي ومتحد معي ، من قولهم : فلان منى ، كأنه بعضه ؛ لاختلاطهما واتحادهما. ويجوز أن يراد فليس من جملة وأشياعى ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ﴾ ومن لم يذقه ، من طعم الشيء ، إذا ذاقه. ومنه طعم الشيء ، لمذاقه.

قال :

وَإِنْ شِئْتَ لَمْ أَطْعَمْ نَقَاحًا ^(١) وَلَا بَرْدًا ^(٢)

ألا ترى كيف عطف عليه البرد وهو النوم. ويقال : ما ذقت غماضاً. ونحوه من الابتلاء :

(١) قوله «لم أطعم نقاخاً» هو الماء العذب الذي ينقخ الفؤاد ببرده. والنقخ : النقف. وهو كسر الرأس عن الدماغ. (ع)

(٢) فإن شئت حرمت النساء سواكم وإن شئت لم أطعم نقاخاً ولا بــــــرداً للعرجى. وتاء شئت يحتمل أنها للمتكلم ، وأنها للمخاطبة وهو أبلغ. وخاطب الواحدة بلفظ جمع المذكر تعظيماً. ولم أطعم : أى لم أتناول. والنقاخ. بالقاف والحاء المعجمة . : الماء العذب البارد. والبرد : النوم ، وعن بعض العرب : منع البرد البرد ، وهو من باب الجنس التام ، والعرجى : هو عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، نسبة لعرج الطائف.

رجلا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعنى القليل ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ يعنى الخالص منهم الذين نصبوا بين أعينهم لقاء الله وأيقنوه. أو الذين تيقنوا أنهم يستشهدون عما قريب ويلقون الله ، والمؤمنون مختلفون في قوة اليقين ونصوع البصيرة. وقيل : الضمير في : ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا﴾ للكثير الذين انخدلوا ، والذين يظنون هم القليل الذين ثبتوا معه ، كأهم تقاولوا بذلك والنهر بينهما. يظهر أولئك عذرهم في الانخدال ، ويرد عليهم هؤلاء ما يعتذرون به. وروى أن الغرفة كانت تكفى الرجل لشربه وإداوته والذين شربوا منه اسودّت شفاههم وغلبهم العطش.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْ لَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٢٥١)

و ﴿بِجَالُوتَ﴾ جبار من العمالقة من أولاد عمليق بن عاد ، وكانت بيضته فيها ثلاثمائة رطل ﴿وَتَبَّتْ أَقْدَامَنَا﴾ وهب لنا ما ثبتت به في مداحض الحر من قوة القلوب وإلقاء الرعب في قلب العدو ونحو ذلك من الأسباب. كان أيشى أبو داود في عسكر طالوت مع ستة من بنيهِ ، وكان داود سابعهم وهو صغير يرعى الغنم ، فأوحى إلى اشمويل أنّ داود بن أيشى هو الذي يقتل جالوت ، فطلبه من أبيه ، فجاء وقد مرّ في طريقه بثلاثة أحجار دعاه كل واحد منها أن يحمله وقالت له : إنك تقتل بنا جالوت ، فحملها في مخلاته ورمى بها جالوت فقتله ، وزوجه طالوت بنته. وروى أنه حسده وأراد قتله ثم تاب ﴿وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ في مشارق الأرض المقدّسة ومغارها ، وما اجتمعت بنو إسرائيل على ملك قط قبل داود ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ والنبوة ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ من صنعة الدروع ، وكلام الطير والدواب وغير ذلك ﴿وَلَوْ لَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ﴾ ولو لا أن الله يدفع بعض الناس ببعض ويكف بهم فسادهم ، لغلب المفسدون وفسدت الأرض وبطلت منافعها وتعطلت مصالحها من الحرث والنسل وسائر ما يعمر الأرض. وقيل : ولو لا أن الله ينصر المسلمين على الكفار لفسدت الأرض بعيث الكفار فيها وقتل المسلمين. أو لو لم يدفعهم بهم لعمّ الكفر ونزلت السخطة فاستؤصل أهل الأرض.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٥٢)

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ يعنى القصص التي اقتصها ، من حديث الألوف وإماتتهم وإحيائهم ،

وتمليك طالوت وإظهاره بالآية التي هي نزول التابوت من السماء ، وغلبة الجبابة على يد صبي ﴿بِالْحَقِّ﴾ باليقين الذي لا يشك فيه أهل الكتاب لأنه في كتبهم كذلك ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ حيث تخبر بها من غير أن تعرف بقراءة كتاب ولا سماع أخبار.

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٥٤)

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾ إشارة إلى جماعة الرسل التي ذكرت قصصها في السورة ، أو التي ثبت علمها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ لما أوجب ذلك من تفاضلهم في الحسنات ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ منهم من فضله الله بأن كلمه من غير سفير وهو موسى عليه السلام. وقرئ (كلم الله) بالنصب. وقرأ اليماني : كالم الله ، من المكالمه ، ويدل عليه قولهم : كلم الله ، بمعنى مكالمه ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ أى ومنهم من رفعه على سائر الأنبياء ، فكان بعد تفاوتهم في الفضل أفضل منهم درجات كثيرة. والظاهر أنه أراد محمداً صلى الله عليه وسلم ^(١) لأنه هو المفضل عليهم ، حيث أوتى ما لم يؤت أحد من الآيات المتكاثرة المرتقية إلى ألف آية أو أكثر. ولو لم يؤت إلا القرآن وحده لكفى به فضلاً منفياً على سائر ما أوتى الأنبياء ، لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات. وفي هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى ، لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذي لا يشتهه ، والمتميز الذي لا يلتبس. ويقال للرجل : من فعل هذا؟ فيقول :

(١) قال محمود رحمه الله : «والظاهر أنه أراد محمداً عليه الصلاة والسلام ... الخ» قال أحمد رحمه الله : وإنما أوردت هذا الفصل من كلامه استحساناً له لفظاً ومعنى ، وتبركا بإعطاء المصطفى عليه الصلاة والسلام من الفضل بعض حقه. وأصاب الزمخشري في قوله : حيث أوتى النبي عليه الصلاة والسلام من الفضل المنيف على سائر ما أوتيه الأنبياء ، على الجميع الصلاة والسلام. وليس كما يقال عن بعض أهل العصر من تفضيل النبي عليه الصلاة والسلام على كل واحد واحد من آحاد الأنبياء. وينبغي الوقوف عن نسبته له ، فانه من العلماء الأعلام وعمد دين الإسلام ، والوجه التوريك بالغلط على النقلة عنه.

أحدكم أو بعضكم ، يريد به الذي تعورف واشتهر بنحوه من الأفعال ، فيكون أفخم من التصريح به وأنوه بصاحبه. وسئل الحطيئة عن أشعر الناس؟ فذكر زهيراً والنابعة ثم قال : ولو شئت لذكرت الثالث ، أراد نفسه ، ولو قال : ولو شئت لذكرت نفسي ، لم يفخم أمره. ويجوز أن يريد : إبراهيم ومحمداً وغيرهما من أولى العزم من الرسل. وعن ابن عباس رضى الله عنه : كنا في المسجد نتذاكر فضل الأنبياء ، فذكرنا نوحاً بطول عبادته ، وإبراهيم بخلته ، وموسى بتكليم الله إياه ، وعيسى برفعه إلى السماء ، وقلنا : رسول الله أفضل منهم ، بعث إلى الناس كافة ؛ وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وهو خاتم الأنبياء. فدخل عليه السلام فقال : فيم أنتم؟ فذكرنا له. فقال : لا ينبغي لأحد أن يكون خيراً من يحيى بن زكريا ، فذكر أنه لم يعمل سيئة قط ولم يهَمَّ بها^(١). فإن قلت : فلم خصّ موسى وعيسى من بين الأنبياء بالذكر؟ قلت : لما أوتيا من الآيات العظيمة والمعجزات الباهرة. ولقد بين الله وجه التفضيل حيث جعل التكليم من الفضل وهو آية من الآيات ، فلما كان هذان النبيان قد أوتيا ما أوتيا من عظام الآيات خصا بالذكر في باب التفضيل. وهذا دليل بين أنّ من زيد تفضيلاً بالآيات منهم فقد فضل على غيره. ولما كان نبينا صلى الله عليه وسلم هو الذي أوتى منها ما لم يؤت أحد في كثرتها وعظمتها. كان هو المشهود له بإحراز قصبات الفضل غير مدافع ، اللهم ارزقنا شفاعته يوم الدين ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ مشيئة إلقاء وقسر^(٢) ﴿مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ﴾ من بعد الرسل ، لاختلافهم في الدين ، وتشعب مذاهبهم ، وتكفير بعضهم بعضاً ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ﴾ لالتزامه دين الأنبياء ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ لإعراضه عنه ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾ كثره للتأكيد^(٣)

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه : أخبرنا أبو عاصم العبادي أخبرنا علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عنه به. ورواه البزار والطبراني وابن مردويه من حديث ابن عاصم العبادي به. وهو ضعيف وشيخه مجهول.

(٢) قوله «مشيئة إلقاء وقسر» يعنى أنه أراد عدم الاقتتال ، لكن لا إرادة قسر ، ولذلك تخلف المراد عنها ، وهذا مذهب المعتزلة. وأما عند أهل السنة فليس هناك إرادة يتخلف عنها المراد ، بل كل ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، كما بين في محله. (ع)

(٣) قال محمود رحمه الله : «كرر ولو شاء الله للتأكيد» قال أحمد رحمه الله : ووراء التأكيد سر أخص منه ، وهو أن العرب متى بنت أول كلامها على مقصد ثم اعترضها مقصد آخر وأرادت الرجوع إلى الأول ، قصدت ذكره إما بتلك العبارة أو بقريب منها. وذلك عندهم مهيع من الفصاحة مسلوكة ، وطريق معتد. وكان جدي لأمي أبو العباس أحمد بن فارس الفقيه الوزير يعد في كتاب الله تعالى مواضع في هذا المعنى : منها قوله تعالى : ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ ومنها قوله تعالى : ﴿وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيكُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةً بَغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إلى قوله : ﴿لَوْ تَرَيُوا لَعَذَبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ وهذه الآية من هذا النمط ، لما صدر الكلام بأن اقتتلهم كان على وفق المشيئة. ثم طال الكلام ، أو أريد بيان أن مشيئة الله تعالى كما نفذت في هذا الأمر الخاص وهو اقتتال هؤلاء فهي نافذة في كل فعل واقع ، وهو المعنى المعبر عنه في قوله : ﴿وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ طراً ذكر تعلق المشيئة بالاقتتال لتلوه عموم تعلق المشيئة لتناسب

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ من الخذلان والعصمة ﴿انْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أراد الإنفاق الواجب لاتصال الوعيد به ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ لا تقدرين فيه على تدارك ما فاتكم من الإنفاق لأنه ﴿لَا يَبِيعُ فِيهِ﴾ حتى تبتاعوا ما تنفقونه ﴿وَلَا خَلَّةٌ﴾ حتى يسامحكم أخلاؤكم به. وإن أردتم أن يحط عنكم ما في ذمتكم من الواجب ^(١) لم تجدوا شفعاً يشفع لكم في حط الواجبات ، لأن الشفاعة ثمة في زيادة الفضل لا غير ^(٢) ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أراد والتاركون الزكاة هم الظالمون ، فقال ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ للتغليظ ، كما قال في آخر آية الحج ﴿مَنْ كَفَرَ﴾ مكان : ومن لم يحج ، ولأنه جعل ترك الزكاة من صفات الكفار في قوله : ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ وقرئ لا يبيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ، بالرفع.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (٢٥٥)
﴿الْحَيُّ﴾ الباقي الذي لا سبيل عليه للفناء ، ^(٣) وهو على اصطلاح المتكلمين الذي يصح أن يعلم

. الكلام وتعرف كل بشكله. فهذا سر ينشرح لبيانه الصدر ويرتاح السر ، والله الموفق. وأى قدم يثبت للاعتزال قبالة هذا؟ لأنه الدائرة القاطعة لدابره ، الكافلة بالرد على منتحلته وناصره ولذلك جوزها الرمحشري لاغتناها على تأويله ، واعتصامها بالنصوصية من حيله ونحيله.

(١) قال محمود رحمه الله : «ومعناه : إن أردتم أن يحط عنكم ما في ذمتكم ... الخ» قال أحمد رحمه الله : أما القدرية ، فقد وطنوا أنفسهم على حرمان الشفاعة وهم جدير أن يحرموها. وأدلة أهل السنة على إثباتها للعصاة من المؤمنين أوسع من أن تحصى. وما أنكرها القدرية إلا لا يجاهم مجازاة الله تعالى للمطيع على الطاعة وللعاصي على المعصية إيجاباً عقلياً على زعمهم. فهذه الحالة في إنكار الشفاعة نتيجة تلك الضلالة. وقد تقدم جواب عن التمسك بإطلاق مثل هذه الآية في نفى الشفاعة ، ونعبد فنقول : أيام القيامة متعددة والشفاعة في بعضها ثابتة ، فكل ما ورد مفهما لتفيتها حمل على الأيام الخالية منها جمعا بين الأدلة ، كما ورد قوله تعالى : ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ وورد ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ وورد ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ وورد ﴿وَقَفَّوهُمْ إِنْهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ ولا تخلص في أمثال هذه الآي باتفاق إلا الحمل على تعدد أوقات القيامة واختلاف أحوالها وأيامها ، وكذلك أمر الشفاعة سواء. رزقنا الله الشفاعة وحشرنا في زمرة السنة والجماعة.

(٢) قوله «لأن الشفاعة ثمة في زيادة الفضل لا غير» هذا مذهب المعتزلة. وعند أهل السنة قد تكون في تخفيف العذاب أيضا. (ع)

(٣) قوله «الحي الباقي الذي لا سبيل عليه ... الخ» المعتزلة يفرون من أن يثبتوا لله صفة وجودية كالحياة التي تنافي الموت فلذا فسر الحي بما قال. (ع)

ويقدر. و ﴿الْفَيُّومُ﴾ الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه. وقرئ : القيام ، والقيم. والسنة : ما يتقدم النوم من الفتور الذي يسمى النعاس. قال ابن الرقاع العاملي :

وَسَنَانٌ أَقْصَرُ نَعْسُهُ فَرَنَّتْ فِي عَيْنَيْهِ سِنَةٌ وَلَيْسَ بِنَائِمٍ^(١)

أى لا يأخذه نعاس ولا نوم وهو تأكيد للقيوم ؛ لأنّ من جاز عليه ذلك استحال أن يكون قيوما.

ومنه حديث موسى : أنه سأل الملائكة وكان ذلك من قومه كطلب الرؤية : أينام ربنا؟ فأوحى الله إليهم أن يوقظوه ثلاثا ولا يتركوه ينام ، ثم قال : خذ بيدك قارورتين مملوءتين. فأخذهما ، وألقى الله عليه النعاس فضرب إحداها على الأخرى فانكسرتا ، ثم أوحى إليه : قل لهؤلاء إني أمسك السموات والأرض بقدرتي ، فلو أخذني نوم أو نعاس لزالتا^(٢) ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ﴾ بيان

(١) لَو لا الحياء وإن رأسى قد عثى في المشيب لـزرت أم القاسم
وكأنهـا بـين النساء أعارها عينيـه أحـور مـن جـآذر جاسـم
وسـنان أقصـده النعـاس فرنقـت في عينيه سـنة ولـيس بـنائـم

لعدي بن الرقاع في تشبيب مدح الوليد بن عبد الملك. وعن الأصمعي : أنه لأحمد بن الرقاع. وعثى يعنى كسعي يسعى ، وعاث يعيث كعاش يعيش : سار على وجه الإفساد. وروى «عسى» بالسين أى ظهر وانتشر واشتد ، فعسى هنا تامة لا ناقصة. وأم القاسم : كنية محبوبته. وبين النساء : أى دون النساء ، وقد روى كذلك أيضا. و «أحور» فاعل «أعار» والخور : صفاء سواد العين وبياضها. والجآذر : جمع جؤذر وهو ولد الطيبة. وجاسم : موضع بعينه. ووسنان : نعت أحور. وأقصدت الرجل : إذا طعنته فلم تخطئ مقتله ، أى أصابه النعاس وهو ما يتقدم النوم من الفتور والغفلات. ورنق الماء : كدر. وترنق : تكدر. ورنقه وأرنقه : كدره ورنق الطائر ترنيقا ، إذا وقف في الهواء صافا جناحه يريد الوقوع. فالعنى : وقفت في عينه سنة. ويجوز أن المعنى : رنقت عينه سنة ، أى كدرتها. وأقحم «في» لأنه جعل العين ظرفا للترنيق ، وهذا يشعر بتشبيه العين بالماء في شدة الصفاء. والسنة من وسن فهو وسنان ، فهي من باب عدة. وسبب النوم : ريح يقوم في أغشية الدماغ ، فإذا وصل إلى العين فترت ، وهذا هو الوسن ، وإذا وصل إلى القلب وتمكن منه زال إدراك الحواس ، وهذا هو النوم ؛ فلذلك نفاه مع إثبات السنة.

(٢) قلت قوله «وذلك من قومه كطلب الرؤية» من كلام الزمخشري ، أدرجه في الخبر. فقد رواه عبد الرزاق في تفسيره عن معمر عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أن موسى سأل الملائكة : هل ينام الله عز وجل؟ فذكره» وقد رواه أبو يعلى والطبري والدارقطني في الأفراد وابن مردويه والبيهقي في الصفات ، كلهم من طريق إسحاق بن أبي إسرائيل عن هشام بن يوسف عن أمية بن سبل عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن أبي هريرة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكى عن موسى عليه السلام قال وقع في نفس موسى : هل ينام ربنا؟ فأرسل إليه ملكا فأرقه ، ثم أعطاه قارورتين في كل يد قارورة ، وأمره أن يحتفظ بهما. قال : فجعل ينام ويكاد يداه يلتقيان فيستيقظ فيحبس إحداها على الأخرى حتى نام نومة. فاصطفقت يداه فانكسرت القارورتان. قال : ضرب الله له مثلا : إن الله لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض» ورواه البيهقي موقوفا وقال : هذا هو الأشبه. وقال الدارقطني تفرد به الحاكم عن عكرمة وأمه عن الحكم وهشام عن أمية. وقال الخطيب : رواه معمر عن الحكم عن عكرمة من قوله. ولم يذكر أبا هريرة. ولا النبي صلى الله عليه وسلم. قلت : ورواية .

لملكوته وكبريائه ، وأن أحدا لا يتمالك أن يتكلم يوم القيامة إلا إذا أذن له في الكلام ، كقوله تعالى ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما كان قبلهم وما يكون بعدهم. والضمير لما في السموات والأرض لأنّ فيهم العقلاء ، أو لما دل عليه ﴿مَنْ ذَا﴾ من الملائكة والأنبياء ﴿مِنْ عِلْمِهِ﴾ من معلوماته ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ إلا بما علم. الكرسي : ما يجلس عليه ، ولا يفضل عن مقعد القاعد. وفي قوله ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ أربعة أوجه ^(١) : أحدها أنّ كرسيه لم يضيق عن السموات والأرض لبسطته وسعته ، وما هو إلا تصوير لعظمته وتخيل فقط ، ولا كرسي ثمة ولا قعود ولا قاعد ، كقوله ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ من غير تصوّر قبضة وطىّ ويمين ، وإنما هو تخيل لعظمة شأنه وتمثيل حسّى. ألا ترى إلى قوله ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾. والثاني : وسع علمه وسمى العلم كرسيا تسمية بمكانه الذي هو كرسي العالم. والثالث : وسع ملكه تسمية بمكانه الذي هو كرسي الملك والرابع : ما روى أنه خلق كرسيا هو بين يدي العرش دونه السموات والأرض ، وهو إلى العرش كأصغر شيء. وعن الحسن : الكرسي هو العرش ﴿وَلَا يُوَدُّهُ﴾ ولا يثقله ولا يشق عليه ﴿حَفَظَهُمَا﴾ حفظ السموات والأرض ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ الشأن ﴿الْعَظِيمُ﴾ الملك والقدرة. فإن قلت : كيف ترتبت الجمل في آية الكرسي ^(٢) من غير حرف عطف؟ قلت : ما منها جملة إلا وهي واردة على سبيل

. عبد الرزاق ترد عليه. لكنها موقوفة. وقد ذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية وقال : يشبه أن يكون عكرمة تلقاه عن كتب اهل الكتاب. قال : وقد روى عبد الله بن أحمد بن حنبل في كتاب السنة له عن سعيد بن جبير «أن بنى إسرائيل قالوا لموسى عليه الصلاة والسلام : هل ينাম ربنا ، قال : وهذا هو الصحيح. (١) قال محمود رحمه الله : «وفي قوله تعالى «وسع كرسيه السموات والأرض» أربعة أوجه ... الخ» قال أحمد رحمه الله : قوله في الوجه الأول أن ذلك تخيل للعظمة سوء أدب في الإطلاق وبعد في الإضرار ، فان التخيل إنما يستعمل في الأباطيل وما ليست له حقيقة صدق ، فان يكن معنى ما قاله صحيحا فقد أخطأ في التعبير عنه بعبارة موهمة لا مدخل لها في الأدب الشرعي ، وسيأتى له أمثالها مما يوجب الأدب أن يجتنب.

(٢) عاد كلامه قال : «فان قلت : كيف ترتبت الجمل في آية الكرسي وما بالها لم تعطف بالواو؟ قلت : لأنها كلها في حكم البيان والبيان متحد بالمبين فدخل الواو بينهما. كما تقول العرب . دخول بين العصا ولحائها ، فالأولى بيان لقيامه بتدبير الخلق وكونه مهيمنا عليه غير ساه عنه ، والثانية لكونه مالكا لتدبيره ، والثالثة لكبرياء شأنه ، والرابعة لاحاطته بأحوال الخلق ، والخامسة لسعة علمه وتعلقه بالمعلومات كلها. وقد وردت آثار في تفضيلها. منها قوله عليه السلام «ما قرئت هذه الآية في دار إلا اجتنبت الشياطين ثلاثين يوما ، ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلة ، يا على علمها ولدك وجيرانك فما نزلت آية أعظم منها» وعن على رضى الله عنه سمعت نبيكم على أعواد المنبر يقول «من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت ، ولا يواظب عليها إلا صديق أو عابد. ومن قرأها إذا أخذ مضجعه أمنه الله على نفسه وجاره وجار جاره والأبيات حوله» وتذاكر الصحابة أفضل ما في القرآن فقال على أين أنتم من آية الكرسي ، ثم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يا على ، سيد البشر آدم ، وسيد العرب محمد ولا فخر ، وسيد الفرس سلمان ، وسيد

البيان لما ترتبت عليه والبيان متحد بالمبين ، فلو توسط بينهما عاطف لكان كما تقول العرب : بين العصا^(١) ولحائها ، فالأولى بيان لقيامه بتدبير الخلق وكونه مهيمنا عليه غير ساه عنه. والثانية لكونه مالكا لما يدبره. والثالثة لكبرياء شأنه. والرابعة لإحاطته بأحوال الخلق ، وعلمه بالمرتضى منهم المستوجب للشفاعة ، وغير المرتضى. والخامسة لسعة علمه وتعلقه بالمعلومات كلها ، أو لجلاله وعظم قدره. فان قلت : لم فضلت هذه الآية حتى ورد في فضلها ما ورد منه قوله صلى الله عليه وسلم : ما قرئت هذه الآية في دار إلا اهتجرتها الشياطين ثلاثين يوما ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلة ، يا عليّ علمها ولدك وأهلك وجيرانك ، فما نزلت آية أعظم منها^(٢) وعن عليّ رضي الله عنه : سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم على أعواد المنبر وهو يقول : «من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت ، ولا يواظب عليها إلا صدّيق أو عابد ، ومن قرأها إذا

. الروم صهيب ، وسيد الحبشة بلال ، وسيد الجبال طور سيناء ، وسيد الأيام يوم الجمعة ، وسيد الكلام القرآن ، وسيد القرآن البقرة ، وسيد البقرة آية الكرسي». وإنما فضلت لما فضلت له سورة الإخلاص ، من اشتغالها على توحيد الله وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى» قال أحمد : وكان جدي رحمه الله عليه يقول : اشتملت آية الكرسي على ما لم تشتمل عليه آية من أسماء الله عز وجل وذلك أنها مشتملة على سبعة عشر موضعا فيها اسم الله تعالى ، ظاهرا في بعضها ومستكنا في بعض ، ويظهر لكثير من العادين منها ستة عشر إلا على بصير حاد البصيرة لدقة استخراجها. الأول الله ، الثاني هو ، الثالث الحي ، الرابع القيوم ، الخامس ضمير لا تأخذه ، السادس ضمير له ، السابع ضمير عنده ، الثامن ضمير إلا باذنه ، التاسع ضمير يعلم ، العاشر ضمير علمه ، الحادي عشر ضمير شاء ، الثاني عشر ضمير كرسيه ، الثالث عشر ضمير ولا يؤده ، الرابع عشر وهو ، الخامس عشر العلى ، السادس عشر العظيم. فهذه عدة الأسماء البينة. وأما الخفي فالضمير الذي اشتمل عليه المصدر في قوله : ﴿حَفِظْهُمَا﴾ فانه مصدر مضاف إلى المفعول ، وهو الضمير البارز ، ولا بد له من فاعل وهو الله ، ويظهر عند فك المصدر فيقول : ولا يؤده أن يحفظهما هو. وكان الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل المرسى قد رام الزيادة على هذا العدد لما أخبرته به عن الجد رحمه الله فقال : يمكن أن يعد ما في الآية من الأسماء المشتقة كل واحد منها بآيتين. لأن كل واحد يتحمل ضميراً ضرورة كونه مشتقا ، وذلك الضمير إنما يعود إلى الله تعالى ، وهي باعتبار ظهورها اسم وقد اشتملت على آخر مضمّر ، فيكون جملة العدد على هذا النظر أحداً وعشرين اسما ، وكنت قد أجريت معه في تعدد الزيادة المذكورة وجها لطيفاً ، وهو أن الاسم المشتق لا يتحمل الضمير بعد صيرورته بالتسمية علما على الأصح ، وهذه الصفات كلها أسماء الله تعالى ، ثم ولو فرضناها متحملة للضمائر بعد التسمية على سبيل التنزيل ، فالمشتق إنما يقع على موصوفه باعتبار تحمله ضميره. ألا تراك إذا قلت : زيد كريم ، وجدت «كريماً» إنما يقع على زيد ، لأن فيه ضميره ، حتى لو جردت النظر إليه لم تجده مختصا بزيد ، بل لك أن توقعه على كل موصوف بالكرم من الناس ، ولا تجده مختصا بزيد إلا باعتبار اشتماله على ضميره ، فليس المشتق إذاً مستقلا بوقوعه على موصوفه إلا بضميمة الضمير إليه ، فلا يمكن أن يجعل له حكم الانفراد عن الضمير مع الحكم برجوعه إلى معين أثبتة ، فرضي الشيخ المذكور عن هذا البحث وصوبه والله الموفق للصواب.

(١) قوله «بين العصا ولحائها» في الصحاح : اللحاء . ممدود . قشر الشجر. وفي المثل : لا تدخل بين العصا ولحائها. (ع)

(٢) لم أجده.

أخذ مضجعه آمنه الله على نفسه وجاره وجار جاره والأبيات حوله ^(١) وتذاكر الصحابة رضوان الله عليهم أفضل ما في القرآن ، فقال لهم على رضى الله عنه : أين أنتم عن آية الكرسي ، ثم قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا على ، سيد البشر آدم ، سيد العرب محمد ولا فخر ، وسيد الفرس سلمان ، وسيد الروم صهيب ، وسيد الحبشة بلال ، وسيد الجبال الطور ، وسيد الأيام يوم الجمعة ، وسيد الكلام القرآن ، وسيد القرآن البقرة ، وسيد البقرة آية الكرسي ^(٢)» قلت : لما فضلت له سورة الإخلاص لاشتغالها على توحيد الله وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى ، ولا مذكور أعظم من رب العزة فما كان ذكراً له كان أفضل من سائر الأذكار. وبهذا يعلم أنّ أشرف العلوم وأعلاها منزلة عند الله علم أهل العدل والتوحيد ^(٣) ولا يغترنك عنه كثرة أعدائه :

فَإِنَّ الْعَرَّانِينَ تَلَقَّاهُ الْمُحْسَنَ دَةً وَلَا تَرَى لِلْإِسْمِ النَّاسِ حُسْنَ إِذَا ^(٤)

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٥٦)

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أى لم يجبر الله أمر الإيمان على الإجبار والقسر ، ولكن على التمكن والاختيار. ونحوه قوله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أى لو شاء لقسرهم على الإيمان ولكنه لم يفعل ، وبني الأمر على الاختيار ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ قد تميز الإيمان من الكفر بالدلائل الواضحة ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾

(١) أخرجه البيهقي في الشعب من طريق ابن إسحاق عن حبة بن جوين العري «سمعت على بن أبي طالب يقول : فذكره دون قوله «ولا يواظب عليها إلا صديق أو عابد» : وذكر ما بعده. وفي إسناده نحل بن سعيد وهو متروك. وكذلك حبة العري ، وأخرجه أيضا من حديث أنس بلفظ «من قرأ في دبر كل صلاة مكتوبة آية الكرسي حفظ إلى الصلاة ، ولا يحافظ عليها إلا نبى أو صديق أو شهيد» وإسناده ضعيف وصدر الحديث أخرجه النسائي وابن حبان ، من حديث أبي أمامة ، وإسناده صحيح ، وله شاهد عن المغيرة بن شعبة عند أبي نعيم في الحلية من رواية محمد بن كعب القرظي عنه ، وغفل ابن الجوزي فأخرجه في الموضوعات.

(٢) لم أجده. وقد ذكره صاحب الفردوس ولم يخرج ابنه.

(٣) قوله «علم أهل العدل والتوحيد» المعتزلة سمو أنفسهم أهل العدل والتوحيد ، وعلم التوحيد أشرف العلوم في نفسه لا بقيد إضافته إلى فرقة من أهله ، اللهم إلا عند المتعصب. (ع)

(٤) للمغيرة شاعر آل المهلب. وقيل للمهلبية : ما أكثر حسادكم فأنشدوه. والعرايين : الخيار الأشراف و «لن» لتوكيد النفي. ويروى : ولا ترى. ويروى : ما ترى. واللثيم : الخسيس ، واللقام جمعه. وحساد . بضم الحاء . جمع حاسد. أى ليس للثيم الناس حاسداً ، فهو من مقابلة الجمع بالجمع. وفتحها على أنه مفرد أبلغ من حيث المعنى ، حيث نفى الواحد عن الجمع نفياً شمولياً.

فمن اختار الكفر بالشيطان أو الأصنام والإيمان بالله ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ من الحبل الوثيق المحكم ، المأمون انفصامها ، أى انقطاعها. وهذا تمثيل للمعلوم بالنظر ، والاستدلال بالمشاهد المحسوس ، حتى يتصوره السامع كأنه ينظر إليه بعينه ، فيحكم اعتقاده والتيقن به. وقيل : هو إخبار في معنى النهي ، أى لا تتكروها في الدين. ثم قال بعضهم : هو منسوخ بقوله ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ وقيل : هو في أهل الكتاب خاصة لأنهم حصنوا أنفسهم بأداء الجزية. وروى أنه كان لأنصارى من بنى سالم بن عوف ابنان فتنصرا قبل أن يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قدما المدينة فلزمهما أبوهما وقال : والله لا أدعكما حتى تسلما ، فأبيا ، فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الأنصارى : يا رسول الله أيدخل بعضى النار وأنا أنظر؟ فنزلت ، فخلاهما ^(١)

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُوهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥٧)

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى أرادوا أن يؤمنوا يلطف بهم حتى يخرجهم بلطفه وتأيدته من الكفر إلى الإيمان. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى صمموا على الكفر أمرهم على عكس ذلك. أو الله وليّ المؤمنين يخرجهم من الشبه في الدين. إن وقعت لهم. بما يهديهم ويوفقهم له من حلها ، حتى يخرجوا منها إلى نور اليقين ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ﴾ الشياطين ﴿يُخْرِجُوهُمْ﴾ من نور البينات التي تظهر لهم إلى ظلمات الشك والشبهة. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٥٨) أو كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى

(١) أخرجه الواحدي في أسبابه من قول مسروق ، وكذلك البغوي ، وقد أخرج الطبري من رواية أبى إسحاق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : نزلت في رجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف يقال له. الحصين : كان له ابنان نصرانيان وكان هو مسلما ، فقال : يا رسول الله ، ألا أستكرههما فأنزل الله تعالى : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ... الآية.

يُخْبِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْحَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةً عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةً عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها حَمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعجيب من محاجة نمرود في الله وكفره به ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ متعلق بحاج على وجهين ^(١) :

أحدهما حاج لأن آتاه الله الملك ، على معنى أن إيتاء الملك أبطره وأورثه الكبر والعتوّ فحاجّ لذلك ، أو على أنه ^(٢) وضع المحاجة في ربه موضع ما وجب عليه من الشكر على أن آتاه الله الملك ، فكأن المحاجة كانت لذلك ، كما تقول : عاداني فلان لأني أحسنت إليه ، تريد أنه عكس ما كان يجب عليه من الموالاة لأجل الإحسان. ونحوه قوله تعالى : ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾. والثاني : حاجّ وقت أن آتاه الله الملك. فان قلت : كيف جاز أن يؤتى الله الملك الكافر؟ قلت : فيه قولان : آتاه ما غلب به وتسلط من المال والخدم والأتباع ، وأما التغليب والتسليط فلا. وقيل : ملكه امتحانا لعباده ^(٣). و ﴿إِذْ قَالَ﴾ نصب بحاج أو بدل من آتاه إذ جعل بمعنى الوقت ﴿أَنَا

(١) قال محمود : «إن آتاه متعلق بحاج على وجهين ... الخ» قال أحمد : عفا الله عنه ، والوجهان قريبان من حيث المعنى ، إلا أن بينهما في الصناعة فرقا ، وهو إنما استعمل المصدر في الأول مفعولا من أجله ، وفي الثاني ظرفا. وقد وقعت المصادر ظرفا في مثل : خفوق النجم ، ومقدم الحاج ، وأمثال ذلك. وإنما وقعت محاجته بهذا الظرف لاشتماله على إيتاء الملك الحامل له على البطر ، أو على وضع كفر النعمة فيه مكان شكرها. وهذان المعنيان هما المذكوران في الوجه الأول بعينهما ؛ فلهذا نهيت على أن الفرق بين الوجهين صناعي لا معنوي. والله الموفق لمعاني كلامه.

(٢) قوله «أو على أنه» لعله : أو على معنى أنه. (ع)

(٣) قال محمود : «فان قلت كيف جاز أن يؤتى الله الملك الكافر؟ قلت : ذلك على وجهين : أحدهما آتاه ما غلب به وتسلط من المال والخدم والأتباع ، فأما التغليب والتسليط فلا. الثاني أن يكون ملكه امتحانا لعباده» قال أحمد : السؤال مبني وروده على قاعدة فاسدة ، وهي اعتقاد وجوب مراعاة ما يتوهمه القدرية صلاحا أو أصلح على الله تعالى في أفعاله ، وكل ذلك من أصول القدرية التي اجتثها البرهان القاطع فما لها من قرار. وأما إيراد السؤال على صيغة : لم آتاه الله الملك وهو كافر؟ أؤلم أفعّل كذا وكذا؟ فجواب رده على الإطلاق في قوله تعالى : ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ لو سمع الصم البكم. والله ولي التوفيق. (عاد كلامه) قال ومعنى قوله أنا أحبي وأميت : أعفو عن القتل وأقتل ، وكان الاعتراض عتيذاً ولكن إبراهيم عليه السلام لما سمع جوابه الأحق لم يحاجه فيه ولكنه انتقل إلى ما لا يقدر فيه على مثل ذلك لبيهته أول شيء ، وهذا دليل على جواز الانتقال للمجادل من حجة .

أُخِي وَأُمِيْتُ ﴿ يريد أعفو عن القتل ^(١) وأقتل. وكان الاعتراض عتيداً ولكن إبراهيم لما سمع جوابه الأحق لم يحاجه فيه ، ولكن انتقل إلى ما لا يقدر فيه على نحو ذلك الجواب لبيته أول شيء. وهذا دليل على جواز الانتقال للمجادل من حجة إلى حجة. وقرئ **فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ** ﴿ أى فغلب إبراهيم الكافر. وقرأ أبو حيوة : فبهت ، بوزن قرب. وقيل : كانت هذه المحاجة حين كسر الأصنام وسجنه نمرود ، ثم أخرجه من السجن ليحرقه فقال له : من ربك الذي تدعو إليه؟ فقال : ربى الذي يحيى ويميت. **أَوْ كَالَّذِي** ﴿ معناه : أو رأيت مثل الذي مرَّ ^(٢) فحذف لدلالة **﴿أَلَمْ تَرَ﴾** عليه ؛ لأنّ كليهما كلمة تعجيب. ويجوز أن يحمل على المعنى دون اللفظ ، كأنه قيل : رأيت كالذي حاج إبراهيم أو كالذي مرَّ على قرية. والمارّ كان كافراً ^(٣) بالبعث ، وهو الظاهر لانتظامه مع نمرود في سلك

. إلى حجة». قال أحمد : وقد التزم غير واحد من العلماء أن هذا الذي صدر من الخليل عليه الصلاة والسلام ليس بانتقال من الحجة ، ولكن من المثال. وأما الحجة فهي استدلاله على ألوهية الله تعالى بتعلق قدرته بما لا يجوز تعلق قدرة الحادث به ، ثم هذا له أمثلة منها الأحياء والاماتة ، ومنها : الإتيان بالشمس من المشرق. والعدول بعد قيام الحجة وتمهيد القاعدة من مثال إلى مثال ليس بيدع عند أهل الجدل والله أعلم.

(١) قوله «يريد أعفو عن القتل» في الصحاح عفوت عن ذنبه إذا تركته ولم تعاقبه. وفيه : أعفنى من الخروج معك أى دعني منه. (ع)

(٢) قال محمود : «معناه أو رأيت مثل الذي مر ... الخ» قال أحمد : ومثل هذا النظم يحذف منه فعل الرؤية كثيراً ، كقوله :

قَالَ لَهُ كَالَّذِي كَفَرَ أَسْـَٔلُكَ الْيَوْمَ مَطْلًا وَلَا طَلَبًا

يريد لم أر كالיום فحذف الفعل وحرف النفي. والظاهر حمل الآية على الوجه الأول لوجود نظيره ، والله أعلم.

(٣) (عاد كلامه) قال والمار كان كافراً بالبعث وهو الظاهر لانتظامه مع نمرود في سلك واحد. وقيل : كان مؤمناً وهو عزيز أو الخضر ، وأراد أن يعاين الأحياء كما طلبه إبراهيم. وقوله يوماً ، بناء على الظن. روى أنه مات ضحى وبعث بعد مائة سنة قبل غيبوبة الشمس فقال . قيل النظر إلى الشمس . يوماً ، ثم التفت فرأى بقية منها فقال : أو بعض يوم ، انتهى كلامه. قال أحمد : أما استدلال الزمخشري على أن المار كان كافراً بانتظامه مع نمرود في سلك واحد ، فمعارض بأنه نظمت قصته مع قصة إبراهيم عليه السلام في نسق واحد ، فليس الاستدلال على كفره باقتزان قصته مع قصة نمرود ، أولى من الاستدلال على إيمانه بانتظامها أيضاً مع قصة إبراهيم ، إلا أن يقول إن قصة هذا المار معطوفة على قصة نمرود عطفت تشريك في الفعل ، منطوقاً به في الأولى ومحدوفاً من الثانية ، مدلولاً عليه بذكره أولاً ، ولا كذلك عطفت قصة إبراهيم فإنها مصدرة بالواو التي لا تدخل في كثير من أحوالها للتشريك ، ولكن لتحسين النظم حتى تتوسط بين الجمل التي يعلم تعاطفها لذلك الغرض ، ولا كذلك عطفها في قصة نمرود ، فانه بأو التي لا تستعمل إلا مشرقة ، إذ عطفت التحسين اللفظي خاص بالواو فنقول : إذا انتهى الترجيح إلى هذا التدقيق فهو معارض بما بين قصة المار وقصة إبراهيم من التناسب المعنوي ، لأن طلبتهما واحدة ، إذ المار سأل معاينة الأحياء ، وكذلك طلبه إبراهيم ثم التناسب المعنوي أرجح من التعلق بأمور لفظية ترد إلى أنحاء مختلفة ويؤيد القول بأن المار كان مؤمناً تحريه في قوله تعالى : **﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾** فان ظاهره الاحتراز من التحريف في القول حتى لا يعبر عن جل اليوم باليوم حذراً من إهام طلبته لجملة اليوم. ومثل هذا التحري لا يصدر عن معطل ، والله أعلم.

ولا يقال إنما صدر منه هذا التحري بعد أن حيي وآمن ، لأننا نقول إنما آمن على القول بكفره بعد ظهور الآيات ، يدل عليه قوله تعالى : **﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ**

شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وأما التحري المذكور فكان أول القصة قبل

ولكلمة الاستبعاد التي هي : أنى يحى. وقيل هو عزيز أو الخضر ، أراد أن يعاين إحياء الموتى ليزداد بصيرة كما طلبه إبراهيم عليه السلام. وقوله : ﴿أَنَّى يُحْيِي﴾ اعتراف بالعجز عن معرفة طريقة الإحياء ، واستعظام لقدرة المحيي. والقرية : بيت المقدس حين خربه بخت نصر. وقيل : هي التي خرج منها الألو ف ﴿وَهِيَ خَاطِئَةٌ عَلَىٰ عُرْوَتِهَا﴾ تفسيره فيما بعد. ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ بناء على الظن. روى أنه مات ضحى وبعث بعد مائة سنة قبل غيبوبة الشمس ، فقال قبل النظر إلى الشمس : يوماً ، ثم التفت فرأى بقية من الشمس فقال : أو بعض يوم. وروى أن طعامه كان تينا وعنبا. وشرابه عصيراً أو لبناً ، فوجد التين والعنب كما جنيا ، والشراب على حاله ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم يتغير ، والهاء أصلية أو هاء سكت. واشتقاقه من السنة على الوجهين ، لأن لامها هاء أو واو ، وذلك أن الشيء يتغير بمرور الزمان. وقيل : أصله يتسنن ، من الحمأ المسنون ، فقلبت نونه حرف علة ، كتقضى البازي. ويجوز أن يكون معنى ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم تمر عليه السنون التي مرت عليه ، يعنى هو بحاله كما كان كأنه لم يلبث مائة سنة. وفي قراءة عبد الله : فانظر إلى طعامك وهذا شرابك لم يتسن. وقرأ أبى : لم يسنه ، بإدغام التاء في السين ﴿وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ كيف تفرقت عظامه ونخرت ، وكان له حمار قد ربطه. ويجوز أن يراد : وانظر إليه سالماً في مكانه كما ربطته ، وذلك من أعظم الآيات أن يعيشه مائة عام من غير علف ولا ماء ، كما حفظ طعامه وشرابه من التغير ﴿وَلَنَجْجَعَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ فعلنا ذلك يريد إحياءه بعد الموت وحفظ ما معه. وقيل : أتى قومه راكب حماره وقال : أنا عزيز ، فكذبوه ، فقال : هاتوا التوراة فأخذ يهدها هداً^(١) عن ظهر قلبه وهم ينظرون في الكتاب ، فما خرم حرفاً ، فقالوا : هو ابن الله. ولم يقرأ التوراة ظاهراً أحد قبل عزيز ، فذلك كونه آية. وقيل : رجع إلى منزله فرأى أولاده شيوخاً وهو شاب ، فإذا حدثهم بحديث قالوا : حديث مائة سنة ﴿وَانْظُرْ إِلَىٰ الْعِظَامِ﴾ هي عظام الحمار أو عظام الموتى الذين تعجب من إحيائهم ﴿كَيْفَ نُنْشِزُهَا﴾ كيف نحييها. وقرأ الحسن : ننشرها ، من نشر

. الإيمان وما قدرت هذا السؤال إلا لنكتة يذكرها الزمخشري الآن تشعر بإيراده على الترجيح المذكور. ثم هذه الجرأة التي نقلها الزمخشري في خلال كلامه من أنه إنما قال : أو بعض يوم لما رأى بقية من الشمس لم يكن رآها أول كلامه فاستدرك الأمر ، فيها نظر دقيق لم أقف عليه لأحد ممن أورد الحكاية في تفسيره. وذلك أن الأمر إذا كان على ما تضمنته ، وكلام المار المذكور بنى أولاً على الجزم بأنه لبث يوماً ثم جزم آخر أن لبثه إنما كان بعض يوم لرؤية بقية من الشمس ، وكان مقتضى التعبير عن حاله أن يقول : بل بعض يوم ، مضرباً عن جزمه الأول إلى جزمه الثاني ، لأن «أو» إنما تدخل في الخبر إذا انبنى أوله على الجزم ثم عرض في آخره شك ، ولا جزم بالنقيض ، فالحكاية المذكورة توجب أن يكون الموضع ل «بل» لا ل «أو» إذ موضع «بل» جزم بنقيض الأول ، فإذا استقر ذلك فالظاهر من حال المار أنه كان أولاً جازماً ثم شك لا غير اتباعاً لمقتضى الآية ، وعدولاً عن الحكاية التي لا تثبت إلا بإسناد قاطع ، فيضطر إلى تأويل ، فتأمل هذا النظر فانه من لطيف النكت ، والله الموفق.

(١) قوله «فأخذ يهدها» أى يسرع بها. أفاده الصحاح. (ع)

الله الموتى ، بمعنى : أنشرهم فنشروا ، وقرئ بالزاي ، بمعنى تحركها ونرفع بعضها إلى بعض للتركيب. وفاعل ﴿تَبَيَّنَ﴾ مضمَر تقديره : فلما تبين له أن الله على كل شيء قدير ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فحذف الأول لدلالة الثاني عليه ، كما في قولهم : ضربني وضربت زيدا. ويجوز : فلما تبين له ما أشكل عليه ، يعنى أمر إحياء الموتى. وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما : فلما تبين له على البناء للمفعول. وقرئ : قال اعلم ، على لفظ الأمر : وقرأ عبد الله : قيل اعلم. فإن قلت : فإن كان المارّ كافراً فكيف يسوغ أن يكلمه الله؟^(١) قلت : كان الكلام بعد البعث ولم يكن إذ ذاك كافراً.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَْلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٦٠)

﴿أَرِنِي﴾ بصري ، فإن قلت : كيف قال له ﴿أَوَْلَمْ تُؤْمِنْ﴾ وقد علم أنه أثبت الناس إيماناً^(٢)؟

(١) (عاد كلامه) قال : «فان قلت إذا كان المار كافراً ... الخ» قال أحمد : وهذا سؤال عجيب ، والجواب عنه أعجب منه ، ومن سلم لهذا السائل أن الله تعالى لا يسوغ أن يكلم الكافر؟ وهل هذا إلا خطب بلا أصل؟

أليس أن إبليس رأس الكفر ومعدنه ومع هذا قال الله تعالى : ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ...﴾ إلى آخر الآية ويقول تعالى للكفار وهم بين أطباقها يعذبون ﴿اٰخِسُوْا فِيْهَا وَلَا تَكَلِمُوْنَ﴾ ولأن هذا الأمر متيقن وقوعه فضلاً عن جوازه أول العلماء قوله تعالى : ﴿وَلَا يَكْلِمُهُمُ اللَّهُ﴾ بمعنى ولا يكلمهم بما يسرهم وينفعهم. هذا وجه تعجبي من السؤال. وأما الجواب فقد أسلفت آنفاً رده بأن إيمان هذا المار على القول بأنه كان كافراً إنما حصل في آخر القصة بعد أن تبينت له الآيات. وأما كلام الله تعالى فمن أول القصة. قلت : الرّمخشري كفانا مؤنة هذا الفضل سؤالاً وجواباً والله المستعان.

(٢) قال محمود : «إن قلت كيف قال له ﴿أَوَْلَمْ تُؤْمِنْ﴾ وقد علم ... الخ»؟ قال أحمد : الأولى في هذه الآية أن يذكر فيها المختار في تفسيرها من الممتحنة بالفكر المحرر ، والنكت المفصحة بالرأى المخمر فما وافق من كلام المصنف ما يذكره فالحمد لله ، وما خالفه فالحق فيما ذكرناه والله الموفق. فنقول : أما سؤال الخليل عليه السلام بقوله له ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ فليس عن شك والعياذ بالله في قدرة الله عن الأحياء ، ولكنه سؤال عن كيفية الأحياء ، ولا يشترط في الايمان الاحاطة بصورتها ، وإنما هي طلب علم ما لا يتوقف الايمان على علمه ، ويدل على ذلك ورود السؤال بصيغة كيف ، وموضوعها السؤال عن الحال ، ونظير هذا السؤال أن يقول القائل : كيف يحكم زيد في الناس؟ فهو لا يشك أنه يحكم فيهم ، ولكنه سأل عن كيفية حكمه لا ثبوته ، ولو كان الوهم قد يتلاعب ببعض الخواطر فيطرق إلى إبراهيم شكاً من هذه الآية. وقد قطع النبي عليه الصلاة والسلام دابر هذا الوهم بقوله «نحن أحق بالشك من إبراهيم» أى ونحن لم نشك ، فلأن لا يشك إبراهيم أخرى وأولى. فان قلت : إذا كان السؤال مصروفاً إلى الكيفية التي لا يضر عدم تصورها ومشاهدتها بالايمان ولا تخل به ، فما موقع قوله تعالى : ﴿أَوَْلَمْ تُؤْمِنْ﴾؟ قلت : قد وقعت لبعض الحذاق فيه على لطيفة وهي أن هذه الصيغة تستعمل ظاهراً في السؤال عن الكيفية كما مر ، وقد تستعمل في الاستعجاز. مثاله : أن يدعى مدع أنه يحمل ثقلاً من الأثقال وأنت جازم بعجزه عن حمله ، فتقول له : .

قلت : ليجيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجليلة للسامعين. و ﴿بَلَى﴾ إيجاب لما بعد النفي ، معناه بلى آمنت ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ ليزيد سكونا وطمأنينة بمضامة علم الضرورة علم الاستدلال وتظاهر الأدلة أسكن للقلوب وأزيد للبصيرة واليقين ، ولأن علم الاستدلال يجوز معه التشكيك بخلاف العلم الضروري ، فأراد بطمأنينة القلب العلم الذي لا مجال فيه للتشكيك. فإن قلت : بم تعلقتم اللام في : ﴿لِيَطْمَئِنَّ﴾؟ قلت : بمحذوف تقديره : ولكن سألت ذلك إرادة طمأنينة القلب ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ قيل طاوسا وديكا وغرابا وحمامة ﴿فَصُرُّهُنَّ إِلَيْكَ﴾ بضم الصاد وكسرهما بمعنى فأملهنّ واضممنّ إليك قال :

وَلَكِنَّ أَطْرَافَ الرِّمَاحِ تَصُورُهَا ^(١)

وقال :

وَفَرِحَ يَصِيرُ الْجَيْدَ وَخَفِيَ كَأَنَّهُ عَلَى اللَّيْتِ فَنَوَّانُ الْكُرُومِ الدَّوَالِحِ ^(٢)

. أرنى كيف محمل هذا ، فلما كانت هذه الصيغة قد يعرض لها هذا الاستعمال الذي أحاط علم الله تعالى بأن ابراهيم مبرأ منه ، أراد بقوله : ﴿أَوَلَمْ نُوْمِنْ﴾ أن ينطق إبراهيم بقوله : بلى آمنت ، ليدفع عنه ذلك الاحتمال اللفظي في العبارة الأولى : ليكون إيمانه مخلصاً نص عليه بعبارة يفهمها كل من يسمعها فهما لا يلحقه فيه شك. فان قلت : قد تبين لي وجه الربط بين الكلام على التقدير المبين ، فما موقع قول إبراهيم ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ وذلك يشعر ظاهراً بأنه كان عند السؤال فاقداً للطمأنينة؟ قلت : معناه ولكن ليزول عن قلبي الفكر في كيفية الحياة ، لأن إذا شاهدها سكن قلبي عن الجولان في كيفيةها المتخيلة ، وتعينت عندي بالتصوير المشاهد وجاءت الآية مطابقة لسؤاله ، لأنه شاهد صورة حياة الموتى ، تقديره : الذي يحيى ويميت ، فهذا أحسن ما يجرى لي في تفسير هذه الآية وربك الفتاح العليم. وأما قول الزمخشري : «إن علم الاستدلال يتطرق إليه التشكيك بخلاف العلم الضروري» فكلام لم يصدر عن رأى منور ولا فكر محرر ، وذلك أن العلم الموقوف عن سبب لا يتصور فيه تشكيك ، ما دام سببه مذكوراً في نفس العالم ، وإنما الذي يقبل التشكيك قبولاً مطلقاً هو الاعتقاد وإن كان صحيحاً وسببه باق في الذكر ، وبهذا ينحط الاعتقاد الصحيح عن ذروة العلم ، ولكن للقدماء من القدرة خيط طويل في تميز العلم عن الاعتقاد ، حتى غالى أبو هاشم فقال العلم بالشيء والجهل به مثلاً. وهذا على الحقيقة جهل حتى لحقيقة الجهل ، والزمخشري في قواعد العقائد يقفو آثار هذا القائل أية سلك فلعله من ثم طرق إلى العلم النظري الشك حسب تطرقه إلى الاعتقاد الذي يكون مرة جهلاً ومرة مطابقاً ، والله الموفق.

(١) ومما صيد الأعناق فيهم جبلية ولكن أطراف الرماح تصورها

الصير . بالتحريك . اعوجاج العنق. ويقال صار يصوره ويصيره ، بمعنى أماله وقطعه. أى ليس ميل الأعناق طبيعة فيهم ولكن أطراف الرماح لكثرتها فوق رؤسهم تميل أعناقهم. وإسناد الامالة للأطراف مجاز عقلى من الاسناد للسبب. ويجوز أن «فيهم» حال من الصيد لا من جبلية ، أى حال كونه فيهم.

(٢) صار يصيره ويصوره ، إذا أماله أو قطعه : وروى : يزين الجيد. والجيد : العنق : والوحف : الكثيف الأسود. والبيت : صفحة العنق. والدواخ : المثقلات بالحمل ، يصف شعر محبوبته بأنه يحمل عنقها لثقله عليه ، وشبه غدائره على جانب جيدها بعناقيد الكروم المثقلات بالحمل.

وقرأ ابن عباس رضى الله عنه (فَصْرَهْنَ) بضم الصاد وكسرها وتشديد الراء ، من صره يصره ويصره إذا جمعه ، نحو ضره ويضره ويضره. وعنه ﴿فَصْرُهُنَّ﴾ من التصرية وهي الجمع أيضاً ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا﴾ يريد : ثم جزئهن وافرّق أجزاءهن على الجبال. والمعنى : على كل جبل من الجبال التي بحضرتك وفي أرضك. وقيل : كانت أربعة أجبل. وعن السدّى : سبعة ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ﴾ وقل لهن : تعالين بإذن الله ﴿يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا﴾ ساعيات مسرعات في طيرانهن أو في مشيهن على أرجلهن : فان قلت : ما معنى أمره بضمها إلى نفسه بعد أن يأخذها ^(١)؟ قلت : ليتأملها ويعرف أشكالها وهيئاتها وحالاتها ^(٢) لئلا تلتبس عليه بعد الإحياء ولا يتوهم أنها غير تلك ولذلك قال : يأتينك سعيًا. وروى أنه أمر بأن يذبجها ويتنف ريشها ويقطعها ويفرّق أجزاءها ويخلط ريشها ودماءها ولحومها ، وأن يمسك رءوسها ، ثم أمر أن يجعل بأجزائها على الجبال ، على كل جبل ربعاً من كل طائر ، ثم يصيح بها : تعالين بإذن الله ، فجعل كل جزء يطير إلى الآخر حتى صارت جثثاً ثم أقبلن فانضممن إلى رءوسهن ، كل جثة إلى رأسها. وقرئ (جزأ) بضمّتين. وجزأ ، بالتشديد. ووجهه أنه خفف بطرح همزته ، ثم شدد كما يشدد في الوقف ، إجراء للوصول مجرى الوقف.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٦١)
﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾ لا بد من حذف مضاف ، أى مثل نفقتهم كمثّل حبة ، أو مثلهم كمثّل باذر حبة. والمنبت هو الله ، ولكن الحبة لما كانت سبباً أسند إليها الإنبات كما يسند إلى الأرض وإلى الماء. ومعنى إنباتها سبع سنابل ، أن تخرج ساقاً يتشعب منها سبع شعب ، لكل واحدة سنبله وهذا التمثيل تصوير للإضعاف ، كأنها ماثلة بين عيني الناظر : فإن قلت : كيف صحّ هذا التمثيل والمثّل به غير موجود؟ قلت : بل هو موجود في الدخن والذرة وغيرها ، وربما فرخت ساق البرة في الأرضى القوية المقلّة فيبلغ حبها هذا المبلغ ، ولو لم يوجد لكان صحيحاً على سبيل الفرض والتقدير : فإن قلت : هلا قيل : سبع سنبلات ، على حقه من التمييز بجمع القلة كما قال : ﴿وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾؟ قلت : هذا لما قدمت عند قوله : ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ من وقوع أمثلة الجمع متعاقبة مواقعها ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أى يضاعف تلك المضاعفة لمن يشاء ، لا لكل منفق ،

(١) قال محمود رحمه الله : إن قلت ما معنى أمره بضمها ... الخ؟ قال أحمد : يريد : ولم يقل طيراناً لأنه إذا كانت ساعية كان أثبت لنظره عليها من أن تكون طائراً ، والله أعلم.

(٢) قوله «وهيئاتها وحالاتها» جمع حلية بالكسر أى صفاتها. أفاده الصحاح. (ع)

لنفاوت أحوال المنفقين. أو يضاعف سبع المائة ويزيد عليها أضعافها لمن يستوجب ذلك.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى هُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٦٢)

المن أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه ، ويريد أنه اصطنعه وأوجب عليه حقا له : وكانوا يقولون : إذا صنعت صنعة فانسوها. ول بعضهم :

وَإِنْ أَفْـَرَأْأَسْتُ دَى إِلَى صَـنِيعَةٍ وَذَكَرْنِيهَا مَـرَّةً لِّلْـيَمِّ (١)

وفي نوابغ الكلم : صنوان (٢) من منح سائله ومن ، ومن منع نائله وضنّ. وفيها : طعم الآلاء (٣) أحلى من المنّ وهي أمر من الآلاء مع المنّ.

والأذى : أن يتطاول عليه بسبب ما أزال إليه : ومعنى «ثم» إظهار النفاوت بين الإنفاق وترك المنّ والأذى ، وأن تركهما خير من نفس

(١) يقول : وإن رجلا أعطاني عطية وذكرني بها مرة واحدة ، للقيم. أى بليغ في اللؤم والخسة.

(٢) قال محمود : «في نوابغ الكلم صنوان ... الخ» قال أحمد : «ثم» في أصل وضعها تشعر بتراخي المعطوف بها عن المعطوف عليه في الزمان وبعد ما بينهما ، والزخشي يحملها على النفاوت في المراتب والتباعد بينهما ، حيث لا يمكنه حملها على التراخي في الزمان لسياق يأبى ذلك كهذه الآية : وحاصله : أنها استعيرت من تباعد الأزمنة لتباعد المرتبة ، وعندى فيها وجه آخر محتمل في هذه الآية ونحوها : وهو الدلالة على دوام الفعل المعطوف بها وإرخاء الطول في استصحابه ، فهي على هذا لم تخرج عن الأشعار ببعيد الزمن. ولكن معناها الأصلى تراخى زمن وقوع الفعل وحدوثه ، ومعناها المستعارة إليه دوام وجود الفعل وتراخى زمن بقائه ؛ وعليه حمل قوله تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أى داموا على الاستقامة دواما متراخيا ممتد الأمد ، وتلك الاستقامة هي المعتبرة ، لا ما هو منقطع إلى ضده من الحيد إلى الهوى والشهوات. وكذلك قوله : ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ أى يدومون على تناسى الإحسان وعلى ترك الاعتداد به والامتنان ، ليسوا بتاركيه في أزمنة إلى الأذية وتقليد المنن بسببه ، ثم يتوبون ، والله أعلم. وقريب من هذا أو مثله أن السين يصحب الفعل لتنفيس زمان وقوعه وتراخيه ، ثم ورد قوله تعالى حكاية عن الخليل عليه السلام : ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّئِينَ﴾. وقد حكى الله تعالى في مثل هذه الآية ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ فليس إلى حمل السين على تراخى زمان وقوع الهداية له من سبيل ، فيتعين المصير إلى حملها على تنفس دوام الهداية الحاصلة له وتراخى بقائها وتمادى أمدّها. ولعل الزخشي وأشار إلى هذا المعنى في آية إبراهيم عليه السلام ، فأمل هذا الوجه فهو أوجه مما حمل الزخشي عليه آية البقرة. وهذه الآية أبقي على الحقيقة وأقرب إلى الوضع على أحسن طريقة والله الموفق.

(٣) قوله «وفيها طعم الآلاء» في الصحاح : الآلاء النعم ، واحدها «ألا» بالفتح. وفيه أيضا : الألاء . بالفتح . شجر حسن المنظر مر الطعم اه. واسم النعم على زنة أسباب. والظاهر أن اسم الشجر على زنة سحاب ، فليحرر ما في النوابغ. (ع)

الإنفاق ، كما جعل الاستقامة على الإيمان خيراً من الدخول فيه بقوله : ﴿ثُمَّ اسْتَفَامُوا﴾. فإن قلت : أى فرق بين قوله : ﴿هُمْ أَجْرُهُمْ﴾ وقوله فيما بعد : ﴿هُمْ أَجْرُهُمْ﴾؟ قلت : الموصول لم يضمن هاهنا معنى الشرط. وضمنه ثمة. والفرق بينهما من جهة المعنى أنّ الفاء فيها دلالة على أنّ الإنفاق به استحق الأجر ، وطرحها عار عن تلك الدلالة.

﴿قَوْلُ مَعْرُوفٍ وَمَغْفِرَةٍ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَىٰ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (٢٦٣) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٦٤)

﴿قَوْلُ مَعْرُوفٍ﴾ ردّ جميل ﴿وَمَغْفِرَةٍ﴾ وعفو عن السائل إذا وجد منه ما يثقل على المستول أو نيل مغفرة من الله بسبب الرد الجميل ، أو عفو من جهة السائل لأنه إذا ردّه ردّاً جميلاً عذره ﴿خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَىٰ﴾ وصح الإخبار عن المبتدئ النكرة لاختصاصه بالصفة ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾ لا حاجة به إلى منفق يمن ويؤذى ﴿حَلِيمٌ﴾ عن معاجلته بالعقوبة ، وهذا سخط منه ووعيد له ، ثم بالغ في ذلك بما أتبعه ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ﴾ أى لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كابطال المنافق الذي ينفق ماله ﴿رِئَاءَ النَّاسِ﴾ لا يريد بإنفاقه رضا الله ولا ثواب الآخرة ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ مثله ونفقته التي لا ينتفع بها البتة بصفوان بحجر أملس عليه تراب. وقرأ سعيد بن المسيب : صفوان بوزن كروان ﴿فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ مطر عظيم القطر ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أجرد نقيا من التراب الذي كان عليه. ومنه صلد جبين الأصلع إذا برق ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ كقوله : ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ ويجوز أن تكون الكاف في محل نصب على الحال : أى لا تبطلوا صدقاتكم مماثلين الذي ينفق. فإن قلت : كيف قال : ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ بعد قوله : ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ﴾؟ قلت : أراد بالذي ينفق الجنس أو الفريق الذي ينفق ، ولأن «من» و «الذي» يتعاقبان ، فكأنه قيل : كمن ينفق.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَنْبِيئًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢٦٥)

﴿وَتَثْبِيْتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ وليثبتوا منها ببذل المال الذي هو شقيق الروح. وبذله أشق شيء على النفس على سائر العبادات الشاقة وعلى الإيمان ؛ لأن النفس إذا رِيضت بالتحامل عليها وتكليفها ما يصعب عليها ذلت خاضعة لصاحبها وقل طمعها في اتباعه لشهواتها ، وبالعكس ، فكان إنفاق المال تثبيتا لها على الإيمان واليقين. ويجوز أن يراد : وتصديقا للإسلام ، وتحقيقا للجزاء من أصل أنفسهم ؛ لأنه إذا أنفق المسلم ماله في سبيل الله ، علم أن تصديقه وإيمانه بالثواب من أصل نفسه ومن إخلاص قلبه. «ومن» على التفسير الأول للتبويض ، مثلها في قولهم : هز من عطفه ، وحرك من نشاطه. وعلى الثاني لابتداء الغاية ، كقوله تعالى : ﴿حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾. ويحتمل أن يكون المعنى : وتثبيتا من أنفسهم عند المؤمنين أنها صادقة الإيمان مخلصه فيه. وتعضده قراءة مجاهد : وتبيننا من أنفسهم. فإن قلت : فما معنى التبويض؟ قلت : معناه أن من بذل ماله لوجه الله فقد ثبت بعض نفسه ، ومن بذل ماله وروحه معا فهو الذي ثبتها كلها ﴿وَنَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ والمعنى : ومثل نفقة هؤلاء في زكاتها عند الله ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ﴾ وهي البستان ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ بمكان مرتفع. وخصها لأن الشجر فيها أركى وأحسن ثمرًا ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ مطر عظيم القطر ﴿فَأَتَتْ أَكْلَهَا﴾ ثمرتها ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ مثلي ما كانت تثمر بسبب الوابل ﴿فَإِنْ لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ فمطر صغير القطر يكفيها لكرم منبتها. أو مثل حالهم عند الله بالجنة على الربوة ، ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطلّ ، وكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكل الجنة ، فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة. بعد أن يطلب بها وجه الله ويبذل فيها الوسع. زاكية عند الله ، زائدة في زلفاهم وحسن حالهم عنده. وقرئ : كمثال حبة ، وبربوة . بالحركات الثلاث . وأكلها بضميتين.

﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢٦٦)

الهمزة في ﴿أَيُّودُ﴾ للإنكار. وقرئ : له جنات ، وذرية ضعاف. والإعصار : الريح التي تستدير في الأرض ، ثم تسطع نحو السماء كالعمود. وهذا مثل لمن يعمل الأعمال الحسنة لا يبتغى بها وجه الله. فإذا كان يوم القيامة وجدها محبطة ، فيتحسر عند ذلك حسرة من كانت له جنة من أبهى الجنان وأجمعها للثمار فبلغ الكبر ، وله أولاد ضعاف والجنة معاشهم ومتعشهم ، فهلك

بالصاعقة. وعن عمر رضى الله عنه أنه سأل عنها الصحابة فقالوا : الله أعلم ، فغضب وقال : قولوا نعلم أو لا نعلم ، فقال ابن عباس رضى الله عنه : في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين ^(١). قال : قل يا ابن أخى ولا تحقر نفسك. قال : ضربت مثلاً لعمل. قال : لأى عمل؟ قال : لرجل غنى يعمل الحسنات ، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله كلها ^(٢). وعن الحسن رضى الله عنه : هذا مثلاً قلّ والله من يعقله من الناس : شيخ كبير ضعف جسمه وكثر صبيانه أفقر ما كان إلى جنته ، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا. فإن قلت : كيف قال ﴿جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ ثم قال : ﴿لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ^(٣) قلت : النخيل والأعناب لما كانا أكرم الشجر وأكثرها منافع ، خصهما بالذكر ، وجعل الجنة منهما. وإن كانت محتوية على سائر الأشجار . تغليباً لهما على غيرها ، ثم أردفهما ذكر كل الثمرات. ويجوز أن يريد بالثمرات المنافع التي كانت تحصل له فيها كقوله : ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ بعد قوله : ﴿جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُا بِنَخْلٍ﴾. فإن قلت : علام عطف قوله ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾؟ قلت : الواو للحال لا للعطف. ومعناه أن تكون له جنة وقد أصابه الكبر. وقيل يقال : وددت أن يكون كذا ووددت لو كان كذا ، فحمل العطف على المعنى ، كأنه قيل : أيودّ أحدكم لو كانت له جنة وأصابه الكبر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (٢٦٧)

﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ من جياذ مكسوباتكم ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ﴾ من الحب والثمر والمعادن وغيرها. فإن قلت : فهلا قيل : وما أخرجنا لكم ، عطفاً على : ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾ حتى يشتمل الطيب على المكسوب والمخرج من الأرض؟ قلت : معناه : ومن طيبات ما أخرجنا لكم إلا أنه حذف لذكر الطيبات ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾ ولا تقصدوا المال الرديء ﴿مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ تخصونه بالإنفاق ، وهو في محل الحال. وقرأ عبد الله : ولا تأمموا. وقرأ ابن عباس : ولا تيمموا ، بضم التاء. وبممه

(١) أخرجه البخاري من حديث عبيد بن عمير : أن عمر سأل ... فذكره.

(٢) قوله «أغرق أعماله كلها» في بعض نسخ الجلال : أحرق ، بالحاء ، وكذلك عبارة النسفي . (ع)

(٣) قال محمود رحمه الله : «إن قلت : لم ذكر النخيل والأعناب أولاً ... الخ»؟ قال أحمد رحمه الله : وهذا من باب تثنية ذكر ما يقع الاهتمام به مرتين عموماً وخصوصاً ومثله ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ إلا أنه في تلك الآية بدأ بالتعميم وفي هذه الآية بدأ بالتخصيص والمقصود هو ما نبهنا عليه ، والله أعلم.

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ﴾ يوفق للعلم والعمل به. والحكيم عند الله : هو العالم العامل. وقرئ ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ﴾ بمعنى ومن يؤته الله الحكمة. وهكذا قرأ الأعمش. و ﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾ تنكير تعظيم ، كأنه قال : فقد أوتى أى خير كثير ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ يريد الحكماء العلام العمال. والمراد به الحث على العمل بما تضمنت الآي في معنى الإنفاق.

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٢٧٠)

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ﴾ في سبيل الله ، أو في سبيل الشيطان ﴿أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ﴾ في طاعة الله ، أو في معصيته ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ لا يخفى عليه وهو مجازيكم عليه ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ الذين يمنعون الصدقات أو ينفقون أموالهم في المعاصي ، أو لا يفون بالنذور ، أو يندرون في المعاصي ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾ ممن ينصرهم من الله ويمنعهم من عقابه.

﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٧١)

«ما» في : (نعما) نكرة غير موصولة ولا موصوفة. ومعنى ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ فنعم شيئا إبداءها. وقرئ بكسر النون وفتحها ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ﴾ وتصيبوا بها مصارفها مع الإخفاء ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ فالإخفاء خير لكم. والمراد الصدقات المتطوع بها ، فإنَّ الأفضل في الفرائض أن يجاهر بها. وعن ابن عباس رضى الله عنهما : «صدقات السر في التطوع تفضل علانيتهما سبعين ضعفا ، وصدقة الفريضة علانيتهما أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفا»^(١) وإنما كانت المجاهرة بالفرائض أفضل ، لنفى التهمة ، حتى إذا كان المزكى ممن لا يعرف باليسار كان إخفاؤه أفضل ، والمتطوع إن أراد أن يقتدى به كان إظهاره أفضل ﴿يُكَفِّرُ﴾ وقرئ بالنون مرفوعا عطفا على محل ما بعد الفاء ، أو على أنه خبر مبتدئ محذوف ، أى ونحن نكفر. أو على أنه جملة من فعل وفاعل مبتدأة ، ومجزوما عطفا على محل الفاء وما بعده ، لأنه جواب الشرط. وقرئ : ويكفر ، بالياء مرفوعا ، والفعل لله أو للإخفاء. وتكفر بالتاء ، مرفوعا ومجزوما ، والفعل للصدقات. وقرأ الحسن رضى الله عنه بالياء والنصب بإضمار أن. ومعناه : إن تخفوها يكن خيرا لكم ، وأن يكفر عنكم.

(١) أخرجه الطبري من رواية ابن عباس ، قال «جعل الله صدقة السر التطوع تفضل علانيتهما سبعين ضعفا وجعل صدقة الفريضة علانيتهما تفضل سرها خمسة وعشرين ضعفا ، وكذا جميع الفرائض والنوافل في الأشياء كلها».

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (٢٧٢)

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ لا يجب عليك أن تجعلهم ^(١) مهديين إلى الانتهاء عما نحووا عنه من المن والأذى والإنفاق من الخبيث وغير ذلك ، وما عليك إلا أن تبلغهم النواهي فحسب ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ يلطف بمن يعلم أنّ اللطف ينفع فيه فينتهي عما نهى عنه ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ من مال ﴿فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾ فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم فلا تمنوا به على الناس ولا تؤذوهم بالتطاول عليهم ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ﴾ وليست نفقتكم إلا لابتغاء وجه الله ولطلب ما عنده ، فما بالكم تمنون بها وتنفقون الخبيث الذي لا يوجه مثله إلى الله؟ ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ ثوابه أضعافا مضاعفة ، فلا عذر لكم في أن ترغبوا عن إنفاقه ، وأن يكون على أحسن الوجوه وأجملها. وقيل : حجت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما فأنتها أمها تسألها وهي مشركة ، فأبت أن تعطيهما ، فنزلت. وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه : كانوا يتقون أن يرضخوا لقرباتهم من المشركين. وروى أنّ ناسا من المسلمين كانت لهم أصهار في اليهود ورضاع وقد كانوا ينفقون عليهم قبل الإسلام ، فلما أسلموا كرهوا أن ينفقوهم ^(٢). وعن بعض العلماء : لو كان شر خلق الله ، لكان لك ثواب نفقتك. واختلف في الواجب ، فجوز أبو حنيفة رضي الله عنه صرف صدقة الفطر إلى أهل الذمة ، وأباه غيره.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٢٧٣)

(١) قال محمود رحمه الله «لا يجب عليك أن تجعلهم مهديين ... الخ». قال أحمد رحمه الله : المعتقد الصحيح أن الله هو الذي يخلق الهدى لمن يشاء هداه ، وذلك هو اللطف ، لا كما يزعم الزمخشري أن الهدى ليس خلق الله وإنما العبد يخلقه لنفسه. وإن أطلق الله تعالى إضافة الهدى إليه كما في هذه الآية ، فهو مؤول على زعم الزمخشري بلطف الله الحامل للعبد على أن يخلق هداه. إن هذا إلا اختلاق ، وهذه النزعة من توابع معتقدهم السيئ في خلق الأفعال وليس علينا هداهم ، ولكن الله يهدي من يشاء ، وهو المستول أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ،

(٢) قوله «كرهوا أن ينفقوهم» لعله على تضمين الفعل معنى الإعطاء. أو لعله محرف وأصله ينفقوهم من النفع. (ع)

الجار متعلق بمحذوف. والمعنى : اعمدوا الفقراء ، واجعلوا ما تنفقون للفقراء ، كقوله تعالى ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، أى صدقاتكم للفقراء. و ﴿الَّذِينَ أُخْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هم الذين أحصرهم الجهاد ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لاشتغالهم به ﴿صَرَبًا فِي الْأَرْضِ﴾ للكسب. وقيل هم أصحاب الصفة ، وهم نحو من أربعمائة رجل من مهاجرى قريش لم يكن لهم مساكن في المدينة ولا عشائر ، فكانوا في صفة المسجد . وهي سقيفته . يتعلمون القرآن بالليل ، ويرضخون النوى ^(١) بالنهار. وكانوا يخرجون في كل سرية بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن كان عنده فضل أتاهم به إذا أمسى. وعن ابن عباس رضى الله عنهما : وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما على أصحاب الصفة فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم فقال «أبشروا يا أصحاب الصفة ، فمن بقي من أمتي على النعت الذي أنتم عليه راضياً بما فيه فإنه من رفقائي في الجنة» ^(٢) ﴿يَحْسَنُهُمُ الْجَاهِلُ﴾ بحالهم ﴿أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ مستغنين من أجل تعففهم عن المسألة ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ من صفرة الوجه وراثثة الحال. والإلحاف : الإلحاح ، وهو اللزوم ، وأن لا يفارق إلا بشيء يعطاه. من قولهم : لحفنى من فضل لحافه ، أى أعطانى من فضل ما عنده. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحِبُّ الْحَيَّ الْحَلِيمَ الْمُتَعَفِّفَ ، وَيَبْغِضُ الْبَذِيَّ الْمُلْحَفَ» ^(٣) ومعناه : أنهم إن سألوا سألوا بتلطف ولم يلحوا وقيل : هو نفى للسؤال والإلحاف جميعاً ، كقوله :

عَلَى لَا حِبِّ لَا يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ ^(٤)

يريد نفى المنار والاهتداء به.

(١) قوله «ويرضخون النوى» في الصحاح : رضخت الحصى والنوى : كسرتة ، ورضخت له رضا ، وهو العطاء ليس بالكثير اه. (ع)

(٢) لم أجد ،

(٣) أخرجه ابن أبي شبة في الأدب من رواية ميمون بن أبي شبيب عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلًا إلا أنه قال «ويبغض الفاحش البذيء» وقد روى موصولا ، والبخاري من طريق محمد بن كثير الملائي عن ليث عن مجاهد عن أبي هريرة به ، في حديث أوله «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه» وقال : لا نعلمه عن أبي هريرة إلا بهذا الإسناد اه وإسناده ضعيف. وقد رواه الطبراني من حديث ابن مسعود به ، وأتم منه وفي إسناده سوار بن مصعب ، وهو ضعيف وله طريق أخرى عن أبي هريرة أخرجهما إسحاق في مسنده ، والطبراني في مسند الشاميين من طريقه قال : أخبرنا كلثوم بن محمد قال حدثنا عطاء بن أبي مسلم الخراساني عن أبي هريرة . فذكره مقتصرًا على ما ذكره المصنف بمعناه. وأخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان وحمزة السهمي في تاريخ جرجان ، كلاهما من طريق عيسى بن خالد البلخي عن ورقاء عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة بلفظ «إن الله إذا أنعم على عبد نعمة أحب أن يرى أثر نعمته عليه ، ويكره البؤس والتبؤس ويبغض السائل الملحف ، ويحب العفيف المتعفف».

(٤) قوله «على لا حب» أى طريق واضح. أفاده الصحاح. (ع)

(٥) وإني زعم أن رجعت مملكت _____ بسير تـرى منـه الفرانـق أزورا
على لا حـب لا يهتـدى بمـناره إذا سـأله العـود النبـاطي جرجـرا

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٧٤)

﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعملون الأوقات والأحوال بالصدقة لحرصهم على الخير ، فكلما نزلت بهم حاجة محتاج عجلوا قضاءها ولم يؤخروه ولم يتعللوا بوقت ولا حال. وقيل : نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين تصدق بأربعين ألف دينار ، عشرة بالليل ، وعشرة بالنهار ، وعشرة في السر ، وعشرة في العلانية. وعن ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت في علي رضي الله عنه لم يملك إلا أربعة دراهم ، فتصدق بدرهم ليلا ، وبدرهم نهاراً ، وبدرهم سرّاً ، وبدرهم علانية. وقيل نزلت في علف الخيل وارتباطها في سبيل الله. وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، كان إذا مر بفرس سمين قرأ هذه الآية.

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧٥) يَحَقِّقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلِ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (٢٧٦)

الربوا كتب بالواو على لغة من يفخم كما كتبت الصلاة والزكاة وزيدت الألف بعدها

. لامرئ القيس. والزعيم الكفيل. والفرانق. بضم الفاء. : رسول يوصل خبر الخوف. والأزور : المائل : يقول : إن ملكوني عليهم كما كنت فاني متكفل بسفر صعب. واللحب واللاحب : الطريق الواسع ، من لحبه إذا وطنه وممر فيه ، فأصله ملحوب. والمنار أعلام الطريق. وسافه يسوفه سوفا إذا شمه شما. ومنه المسافة. والعود : الجمل المسن. ويطلق على الطريق القديم. والسؤدد : القديم. والنباطي : نسبة للنبط ، وهم قوم يحلون البطاح بين العرافين يستنبطون منها الماء ، كيما في نسبة لليمن. ويروى : العود الديايي. وداف يدوف إذا خلط ، ودياف : موضع بالجزائر فيه نبط الشام. والديايي نسبة إليه. والجرجرة ، صوت يردده البعير في حنجرتة ، يعنى أنه طريق واسع لا منار فيه يهتدى به ، وفيه نوع من البديع يسمونه نفى الشيء بإيجابه ، ويفسرونه بأن يكون الكلام ظاهره إيجاب الشيء وباطنه نفيه ، بأن ينفى ما هو من سببه وهو المنفي في الباطن. وفي البيت نفى الاهتداء بالمنار ، والمقصود نفى المنار كما ذكره السيوطي في شرح عقود الجمان ، إذا شمه الجمل المسن عرف أنه طريق وعر لتجربته الطرق ، وجرجر خوفا منه لصعوبته عليه مع تمرنه على السفر ، سيما إذا كان من إبل النبط لكثرة رحيلهم. هذا ويحتمل أن السير مجاز عن السياسة كما يشعر به طلب الملك ؛ فيكون ما بعده ترشيح للمجاز.

تشبيها بواو الجمع ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ إذا بعثوا من قبورهم ^(١) ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ﴾ أى المصروع. وتخبط الشيطان من زعمات العرب ، يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع. والخبط الضرب على غير استواء كخبط العشاء ، فورد على ما كانوا يعتقدون. والمس : الجنون. ورجل ممسوس ، وهذا أيضاً من زعماتهم ، وأن الجنى يمسه فيختلط عقله ، وكذلك جن الرجل : معناه ضربته الجن ، ورأيتهم لهم في الجن قصص وأخبار وعجائب ، وإنكار ذلك عندهم كإنكار المشاهدات. فإن قلت : بم يتعلق قوله ﴿مَنْ الْمَسِّ﴾؟ قلت : بلا يقومون ، أى لا يقومون من المس الذي بهم إلا كما يقوم المصروع. ويجوز أن يتعلق بيقوم ، أى كما يقوم المصروع من جنونه. والمعنى أنهم يقومون يوم القيامة مخبلين كالمصروعين ، تلك سيماهم يعرفون بها عند أهل الموقف. وقيل الذين يخرجون من الأحداث يوفضون ، إلا أكلة الربا فإنهم ينهضون ويسقطون كالمصروعين ، لأنهم أكلوا الربا فأرياه الله في بطونهم حتى أثقلهم ، فلا يقدرّون على الإيفاض ﴿ذَلِكَ﴾ العقاب بسبب قولهم ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾. فإن قلت : هلا قيل إنما الربا مثل البيع لأن الكلام في الربا لا في البيع ^(٢) ، فوجب أن يقال إنهم شبهوا الربا بالبيع فاستحلوه ، وكانت شبهتهم

(١) قال محمود رحمه الله : «يعنى إذا بعثوا من قبورهم ... الخ» قال أحمد : قوله وتخبط الشيطان من زعمات العرب ، أى كذباتهم وزخارفهم التي لا حقيقة لها ، كما يقال في الغول والعنقاء ونحو ذلك. وهذا القول على الحقيقة من تخبط الشيطان بالقدرة في زعماتهم المردودة بقواطع الشرع ، فقد ورد «ما من مولود يولد إلا يمسه الشيطان فيستهلّ صارخا» وفي بعض الطرق «إلا طعن الشيطان في خاصرته ومن ذلك يستهل صارخا إلا مريم وابنها ، لقول أمها : إني أعيزها بك وذريتها من الشيطان الرجيم» وقوله عليه السلام «التقطوا صبيانكم أول العشاء فانه وقت انتشار الشياطين ، أو لقد عوفيت ، إنما ساعة مخرجهم وفيها ينتشرون وفيها يكون الخبثة. قال ثمر : كان في لسان مكحول كنة ، وإنما أراد الخبثة من الشيطان ، أى إصابة مس أو جنون. وقد ورد في حديث المفقود الذي اختطفته الشياطين وردته في زمنه عليه الصلاة والسلام أنه حدث عن شأنه معهم قال : فجاءني طائر كأنه جمل ، فتعشّرتي ، فاحتملني على خافية من خوافيه ، إلى غير ذلك مما يطول الكتاب بذكره. واعتقاد السلف وأهل السنة أن هذه أمور على حقائقها واقعة ، كما أخبر الشرع عنها. وإنما القدريّة خصماء العلانية فلا جرم أنهم ينكرون كثيراً مما يزعمونه مخالفا لقواعدهم ، من ذلك : السحر ، وخبطة الشيطان ، ومعظم أحوال الجن. وإن اعترفوا بشيء من ذلك ، فعلى غير الوجه الذي يعترف به أهل السنة وينبئ عنه ظاهر الشرع ، في خبط طويل لهمفاحذرهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

(٢) قال محمود : «إن قلت لم لم يقولوا : إنما الربا مثل البيع ... الخ» قال أحمد : وعندي وجه في الجواب عن السؤال الذي أورده غير ما ذكر ، وهو أنه متى كان المطلوب التسوية بين المحلين في ثبوت الحكم ، فللقائل أن يسوى بينهما طرداً ، فيقول مثلاً : الربا مثل البيع ، وغرضه من ذلك أن يقول : والبيع حلال فالربا حلال. وله أن يسوى بينهما في العكس فيقول : البيع مثل الربا ، فلو كان الربا حراما كان البيع حراما ضرورة المماثلة. وتنتيجته التي دلت قوة الكلام عليها أن يقول : ولما كان البيع حلالا اتفاقا غير حرام ، وجب أن يكون الربا مثله ، والأول على طريقة قياس الطرد ، والثاني على طريقة قياس العكس ، ومآلهما إلى مقصد واحد ، فلا حاجة على هذا التقرير .

أنهم قالوا : لو اشترى الرجل ما لا يساوى إلا درهما بدرهمين جاز ، فكذلك إذا باع درهما بدرهمين؟ قلت : جيء به على طريق المبالغة ، وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم في حل الربا أنهم جعلوه أصلاً وقانوناً في الحل حتى شبهوا به البيع. وقوله ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ إنكار لتسويتهم بينهما ، ودلالة على أنّ القياس يهدمه النص ، لأنه جعل الدليل على بطلان قياسهم إحلال الله وتحريمه ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ﴾ فمن بلغه وعظ من الله وزجر بالنهاى عن الربا ﴿فَأَنْتَهَى﴾ فتبع النهى وامتنع ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ فلا يؤخذ بما مضى منه ، لأنه أخذ قبل نزول التحريم ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ يحكم في شأنه يوم القيامة ، وليس من أمره إليكم شيء فلا تطالبوه به ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى الربا ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وهذا دليل بين ^(١) على تخليد الفساق ^(٢). وذكر فعل الموعظة لأنّ تأنيثها غير حقيقى ، ولأنها في معنى الوعظ. وقرأ أيّ والحسن : فمن جاءته. ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ يذهب ببركته ويهلك المال الذي يدخل فيه. وعن ابن مسعود رضى الله عنه : الربا وإن كثّر إلى قلّ. ﴿وَيُزَيِّرُ الصَّدَقَاتِ﴾ ما يتصدّق به بأن يضاعف عليه الثواب ويزيد المال الذي أخرجت منه الصدقة ويبارك فيه. وفي الحديث «ما نقصت زكاة من مال قط» ^(٣) ﴿كُلَّ كَفَّارٍ أَنْيَمَ﴾ تغليظ في أمر الربا وإيدان بأنه من فعل الكفار لا من فعل المسلمين.

. إلى خروج عن الظاهر لعذر المبالغة أو غيره ، وليس الغرض من هذا كله إلا بيان هذا الذي تخيلوه على أنموذج النظم الصحيح وإن كان قياساً فاسد الوضع ، لاستعماله على مناقضة المعلوم من حكم الله أيضاً في تحريم الربا وتحليل البيع وقطع القياس بينهما ، ولكن إذا استعملت الطريقتين المذكورتين استعمالاً صحيحاً فقل في الأولى : النبيذ مثل الخمر في علة التحريم ، وهو الإسكار ، والخمر حرام فالنبيذ حرام. وقل في الثانية : إنما الخمر مثل النبيذ فلو كان النبيذ حلالاً لكان الخمر حلالاً ، وليست حلالاً اتفاقاً فالنبيذ كذلك ضرورة المماثلة المذكورة ، فهذا التوجيه أولى أن تحمل الآية عليه ، والله أعلم.

(١) قوله «على تخليد الفساق» وهو مذهب المعتزلة ولا يخلدون عند أهل السنة كما بين في محله (ع)

(٢) قال محمود رحمه الله : «في هذه الآية دليل على تخليد الفساق ... الخ» قال أحمد رحمه الله : وهو يبنى على أن المتوعد عليه بالخلود العود إلى فعل الربا خاصة ، ولا يساعده على ذلك الظاهر الذي استدل به ، فإن الذي وقع العود إليه مسكوت عنه في الآية. ألا تراه قال : ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ فلم يذكر العود إليه ، فيحمل على ما تقدم كأنه قال : ومن عاد إلى ما سلف ذكره فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، والذي سلف ذكره فعل الربا واعتقاد جوازه ، والاحتجاج عليه بقياسه على البيع. ولا شك عندنا . أهل السنة والجماعة . أن من تعاطى معاملة الربا مستحلاً لها مكابراً في تحريمها مسنداً إحلالها إلى معارضة آيات الله البينات بما يتوهمه من الخيالات فقد كفر ثم ازداد كفراً ، وإذا ذاك يكون الموعود بالخلود في الآية من يقال إنه كافر مكذب غير مؤمن ، وهذا لا خلاف فيه ، فلا دليل للزحخشري إداً على اعتزاله في هذه الآية ، والله الموفق. وإنما هو موكل بتحصيل الآيات من المعتقدات الباطلة ما لا تحتمله ، وأنى له ذلك في الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

(٣) من رواية العلاء عن أبيه عن أبي هريرة بلفظ «ما نقصت صدقة من مال ... الحديث» ورواه البزار من هذا الوجه ، فزاد فيه «قط».

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ هُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٨١)

أخذوا ما شرطوا على الناس من الربا وبقيت لهم بقايا ، فأمرُوا أن يتركوها ولا يطالبوا بها. وروى أنها نزلت في ثقيف وكان لهم على قوم من قريش مال فطالبوهم عند المحل بالمال والربا. وقرأ الحسن رضى الله عنه : ما بقي ، بقلب الياء ألفا على لغة طيى : وعنه ما بقي بياء ساكنة. ومنه قول جرير :
هُوَ الْخَلِيفَةُ فَارْضَوْا مَا رَضَى لَكُمْ وَمَا ضَى الْعَزِيمَةَ مَا فِي حُكْمِهِ جَنَفٌ ^(١)
﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إن صح إيمانكم ، يعنى أنَّ دليل صحة الإيمان وثباته امتثال ما أمرتم به من ذلك ﴿فَأَذْنُوا بِحَرْبٍ﴾ فاعلموا بها ، من أذن بالشيء إذا علم به. وقرئ : فأذنوا ، فاعلموا بها غيركم ، وهو من الإذن وهو الاستماع ، لأنه من طرق العلم. وقرأ الحسن : فأيقنوا ، وهو دليل لقراءة العاقبة. فإن قلت : هلا قيل بحرب الله ورسوله؟ قلت : كان هذا أبلغ ، لأن المعنى : فأذنوا بنوع من الحرب عظيم عند الله ورسوله. وروى أنها لما نزلت قالت ثقيف : لا يدئ لنا بحرب الله ورسوله. ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ﴾ من الارتباء ﴿فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ المديونين ^(٢) بطلب الزيادة عليها ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بالنقصان منها. فإن قلت : هذا حكمهم إن تابوا ، فما حكمهم لو لم يتوبوا قلت : قالوا : يكون ما لهم فينا للمسلمين ، وروى المفضل عن عاصم : لا تظلمون ولا تظلمون ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ وإن وقع غريم من غرمائكم ذو عسرة أو ذو إعسار : وقرأ عثمان رضى الله عنه :

(١) أى هو المعروف بالعدل. أو هو الخليفة الكامل فارضوا ما رضى لكم من الأحكام. وتسكين آخر «رضى» ونحوه : لغة شاذة. ماضى العزيمة : نافذ الحكم ، ليس في حكمه جنف : أى ميل عن الحق إلى غيره.

(٢) قوله «المديونين بطلب الزيادة» القياس المدينين ، فلعل هذا مسموع شذوذاً ، وسيعبر به فيما بعد أيضاً. (ع)

ذا عسرة على : وإن كان الغريم ذا عسرة. وقرئ : ومن كان ذا عسرة ﴿فَنَظَرَةٌ﴾ أى فالحكم أو فالأمر نظرة وهي الإنظار. وقرئ : فنظرة بسكون الظاء. وقرأ عطاء : فناظره. بمعنى فصاحب الحق ناظره : أى منتظره ، أو صاحب نظرتة على طريقة النسب كقولهم : مكان عاشب وباقل ، أى ذو عشب وذو بقل. وعنه : فناظره ، على الأمر بمعنى فساحه بالنظرة وياسره بها ﴿إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ إلى يسار. وقرئ بضم السين ، كمقبرة ومقبرة ومشرقة ومشرقة. وقرئ بهما مضافين بحذف التاء عند الإضافة كقوله :

وَأَخْلَفُوكَ عِدَا الْأَمْرِ الَّذِي وَعَدُوا^(١)

وقوله تعالى : ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾. ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ ندب إلى أن يتصدقوا برءوس أموالهم على من أعسر من غرمائهم أو ببعضها ، كقوله تعالى : ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ وقيل : أريد بالتصدق الإنظار لقوله صلى الله عليه وسلم «لا يحل دين رجل مسلم فيؤخره إلا كان له بكل يوم صدقة»^(٢) ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خير لكم فتعملوا به ، جعل من لا يعمل به وإن علمه كأنه لا يعلمه. وقرئ (تصدقوا) بتخفيف الصاد على حذف التاء ﴿ثُرْجَعُونَ﴾ قرئ على البناء للفاعل والمفعول : وقرئ : يرجعون بالياء على طريقة الالتفات. وقرأ عبد الله : تردون : وقرأ أبي : تصيرون. وعن ابن عباس أنها آخر آية نزل بها جبريل عليه السلام وقال : وضعها في رأس المائتين والثمانين من البقرة. وعاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها أحدا وعشرين يوما. وقيل أحدا وثمانين. وقيل سبعة أيام. وقيل ثلاث ساعات.

(١) إن الخلط أجسدوا البسبين وانجسدوا وأخلفوك عدا الأمر الذي وعدهوا

لأبي أمية الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب. وقيل : لزهير. والخلط : المخالط في العشرة ، وهو كالعشير. يقال للواحد والمتعدد. وأجدوا البين : اجتهدوا في الفراق. وانجسدوا. مضوا. وعدا الأمر : أصله عدة الأمر ، وأصلها وعد ، فعوضت التاء عن الواو ، ثم حذفت التاء للاضافة كالتنوين على لغة ، واختلف فقيل إنها سماعية. وقيل إنها قياسية. واشترطهم للحذف عدم اللبس . فيمتنع في شجرة زيد للبس بشجر زيد . يؤيد كونها قياسية. وفي المراح : أن حذفت تاء التعويض جائز هنا اتفاقا. أما عند سيبويه فلأن التعويض عنده من الأمور الجائزة. وأما عند الفراء فإنه لا يوجب التاء إلا عند عدم الاضافة ، وهي هنا متحققة فتقوم مقام العوض ، وعائد الموصول محذوف ، أى الأمر الذي وعدوه إياك.

(٢) رواه ابن ماجه من رواية الأعمش عن أبي داود نفي عن بريدة رفعه «من أنظر معسراً كان له بكل يوم صدقة. ومن أنظره بعد حله كان له مثله في كل يوم صدقة» وأبو داود ضعيف وقد اختلف عليه فيه ، فرواه عبد الله ابن نمير عن الأعمش هكذا ، وخالفه أبو بكر بن عياش فرواه عن الأعمش عن أبي داود عن عمران بن حصين ، أخرجه أحمد والطبراني وقد أخرجه أحمد وابن أبي شيبة وأبو يعلى والطبراني والحاكم والبيهقي في آخر الشعب كلهم من رواية عبد الوارث عن محمد بن جحادة عن ابن بريدة عن أبيه نحوه وله شاهد من حديث ابن عباس أخرجه الطبراني.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلَئَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْنَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكَمْ أَفْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى إِلَّا أَنْ تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُوهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٢٨٣)

﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ﴾ إذا دأين بعضكم بعضا. يقال : دأنت الرجل عاملته ﴿بِدِينٍ﴾ معطيا أو آخذا كما تقول : بأيعته إذا بعته أو باعك. قال رؤية :

دَايَنْتُ أَزْوَى _____ دُيُونُ تُقْضَى _____ فَمَطَلْتُ _____ بَعْضًا _____ وَأَدَّتْ بَعْضًا _____ (١)

(١) لرؤية. يقول : عاملت محبوبتي أروى بدين لي عليها من لوازم المودة ، فمطلت : أى أخرت بعضا منه وأطالت مدة تأخيره ، وقضت بعضا منه . وقوله «والديون تقضى» جملة حالية أو اعتراضية مبينة لظلمها في المطل وأصل المطل : المط والمد.

والمعنى : إذا تعاملتم بدين مؤجل فاكتبوه. فإن قلت : هلا قيل : إذا تداينتم إلى أجل مسمى ^(١) وأى حاجة إلى ذكر الدين كما قال : داينت أروى ، ولم يقل : بدين؟ قلت : ذكر ليرجع الضمير إليه في قوله ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ إذ لو لم يذكر لوجب أن يقال : فاكتبوا الدين ، فلم يكن النظم بذلك الحسن. ولأنه أبين لتنويع الدين إلى مؤجل وحال. فإن قلت : ما فائدة قوله ﴿مُسَمًّى﴾. قلت : ليعلم أن من حق الأجل أن يكون معلوما كالتوقيف بالسنة والأشهر والأيام ، ولو قال : إلى الحصاد ، أو الدياس ، أو رجوع الحاج ، لم يجز لعدم التسمية. وإنما أمر بكتابة الدين ، لأن ذلك أوثق وأمن من النسيان وأبعد من الجحود ، والأمر للندب. وعن ابن عباس أن المراد به السلم وقال لما حرم الله الربا أباح السلف. وعنه : أشهد أن الله أباح السلم المضمون إلى أجل معلوم في كتابه وأنزل فيه أطول آية ^(٢). ﴿بِالْعَدْلِ﴾ متعلق بكاتب صفة له ، أى كاتب مأمون على ما يكتب ، يكتب بالسوية والاحتياط. لا يزيد على ما يجب أن يكتب ولا ينقص. وفيه : أن يكون الكاتب فقيها عالما بالشروط حتى يجيء مكتوبه معدلا بالشرع. وهو أمر للمتدائنين بتخير الكاتب ، وأن لا يستكتبوا إلا فقيها دينيا ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾ ولا يتمتع أحد من الكتاب وهو معنى تنكير كاتب ﴿أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ مثل ما علمه الله كتابة الوثائق لا يبدل ولا يغير. وقيل هو قوله تعالى ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أى ينفع الناس بكتابته كما نفعه الله بتعليمها. وعن الشعبي : هي فرض كفاية ، وكما علمه الله : يجوز أن يتعلق بأن يكتب ، ويقول فليكتب. فإن قلت : أى فرق بين الوجهين؟ قلت : إن علقته بأن يكتب فقد نهي عن الامتناع من الكتابة المقيدة ، ثم قيل له ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ يعنى فليكتب تلك الكتابة لا يعدل عنها للتوكيد ، وإن علقته بقوله فليكتب فقد نهي عن الامتناع من الكتابة على سبيل الإطلاق ، ثم أمر بها مقيدة ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ ولا يكن المملى إلا من وجب عليه الحق ، لأنه هو المشهود على ثباته في ذمته وإقراره به. والإملاء والإملال لغتان قد نطق بهما القرآن ﴿فَهِىَ ثَمَلَى عَلَيْهِ﴾. ﴿وَلَا يَبْخَسُ مِنْهُ﴾ من الحق ﴿شَيْئًا﴾ والبخس : النقص. وقرئ شيا ، بطرح الهمزة : وشيا ، بالتشديد ﴿سَفِيهَا﴾ محجورا عليه لتبذيره

(١) قال محمود : «إن قلت هلا قيل إذا تداينتم ... الخ»؟ قال أحمد : الأجل المسمى هو المعلوم انتهاؤه ، ولعلم الانتهاء طرق منها التحديد بنفس الزمان كالسنة والشهر. ومنها التحديد بما يعتاد وقوعه في زمن مخصوص مضبوط بالعرف. كالخصاد ، ومقدم الحاج. وكيفما علم الأجل صح ضربه ، فمن ثم أجاز ملك البيع إلى الخصاد لأنه معلوم عندهم ، ثم المعتبر زمان وقوع هذه المسميات لا نفس وقوعها حتى لو حل زمن قدوم الحاج فمنعه مانع من القدوم مثلا لم يكن به عبرة وحكمنا بحلول أجل الدين ، والله أعلم.

(٢) أخرجه الحاكم من رواية أبى حيان الأعرج عن الأعمش عن ابن عباس ، قال «أشهد أن السلم المضمون إلى أجل مسمى أن الله أجله في الكتاب وأذن فيه» وقرأ هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾.

وجهله بالتصرف ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ صبيبا أو شيخا مختلا ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمَلَّ هُوَ﴾ أو غير مستطيع للإملاء بنفسه لعمى به أو خرس ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ﴾ الذي يلي أمره من وصيٍّ إن كان سفيها أو صبيبا ، أو وكيل إن كان غير مستطيع ، أو ترجمان يمل عنه وهو يصدقه. وقوله تعالى ﴿أَنْ يُمَلَّ هُوَ﴾ فيه أنه غير مستطيع ولكن بغيره ، وهو الذي يترجم عنه ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ﴾ واطلبوا أن يشهد لكم شهيذان على الدين ﴿مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ من رجال المؤمنين. والحرية والبلوغ شرط مع الإسلام عند عامة العلماء. وعن على رضي الله عنه : لا تجوز شهادة العبد في شيء. وعند شريح وابن سيرين وعثمان البتي أنها جائزة ، ويجوز عند أبي حنيفة شهادة الكفار بعضهم على بعض على اختلاف الملل ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا﴾ فإن لم يكن الشهيذان ﴿رَجُلَيْنِ فَرَجُلٍ وَامْرَأَتَانِ﴾ فليشهد رجل وامرأتان ، وشهادة النساء مع الرجال مقبولة عند أبي حنيفة فيما عدا الحدود والقصاص ﴿مَنْ تَرَضَوْنَ﴾ ممن تعرفون عدالتهم ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ أن لا تتهدى إحداها للشهادة بأن تنساها ، من ضل الطريق إذا لم يهتد له. وانتصابه على أنه مفعول له أى إرادة أن تضل. فإن قلت : كيف يكون ضلالها مراد الله تعالى؟ قلت لما كان الضلال سببا للإذكار ، والإذكار مسببا عنه ، وهم ينزلون كل واحد من السبب والمسبب منزلة الآخر لالتباسهما واتصالهما ، كانت إرادة الضلال المسبب عنه الإذكار إرادة للإذكار ، فكأنه قيل : إرادة أن تذكر إحداها الأخرى إن ضلت. ونظيره قولهم : أعددت الخشبة أن يميل الحائط فأدعمه ، وأعددت السلاح أن يجيء عدو فأدفعه. وقرئ ﴿فَتَذَكَّرَ﴾ بالتخفيف والتشديد ، وهما لغتان. فتذاكر. وقرأ حمزة : إن تضل إحداها ، على الشرط. فتذكر : بالرفع والتشديد ، كقوله : ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ وقرئ أن تضل إحداها على البناء للمفعول والتأنيث. ومن بدع التفاسير : فتذكر ، فتجعل إحداها الأخرى ذكرا ، يعنى أنهما إذا اجتمعتا كانتا بمنزلة الذكر ﴿إِذَا مَا دُعُوا﴾ ليقيموا الشهادة. وقيل : ليستشهدوا. وقيل لهم شهداء قبل التحمل ، تنزيلا لما يشارف منزلة الكائن. وعن قتادة : كان الرجل يطوف الحواء ^(١) العظيم فيه القوم فلا يتبعه منهم أحد ، فنزلت. كنى بالسأم عن الكسل ، لأن الكسل صفة المنافق. ومنه الحديث : لا يقول المؤمن كسلت ^(٢) ويجوز أن يراد من كثرت مدايناته ؛ فاحتاج أن يكسب لكل دين صغير أو كبير كتابا ، وربما مل كثرة الكتب. والضمير في ﴿تَكْتُبُوهُ﴾ للدين أو الحق ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ على أى حال كان الحق من صغر أو كبر. ويجوز أن يكون الضمير للكتاب ؛ وأن يكتبوه مختصرا أو مشبعا لا يخلوا بكتابته ﴿إِلَى أَجَلِهِ﴾ إلى وقته الذي اتفق

(١) قوله «يطوف في الحواء» في الصحاح : الحواء جماعة بيوت من الناس مجتمعة. (ع)

(٢) يأتي في براءة

الغريمان على تسميته ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى أن تكتبوه ، لأنه في معنى المصدر ، أى ذلكم الكتب ﴿أَقْسَطُ﴾ أعدل من القسط ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾ وأعون على إقامة الشهادة ﴿وَأَذِّنْ آلَا تَرْتَابُوا﴾ وأقرب من انتفاء الريب. فإن قلت : ممّ بنى أفعلا التفضيل ، أعنى : أقسط ، وأقوم؟ قلت : يجوز على مذهب سيبويه أن يكونا مبنيين من أقسط وأقام ، وأن يكون أقسط من قاسط على طريقة النسب بمعنى ذى قسط ، وأقوم من قويم. وقرئ : ولا يسأموا أن يكتبوه بالياء فيهما. فإن قلت : ما معنى ﴿تِجَارَةً حَاصِرَةً﴾ وسواء أكانت المبايعة بدين أو بعين فالتجارة حاضرة؟ وما معنى إدارتها بينهم؟ قلت. أريد بالتجارة ما يتجر فيه من الأبدال. ومعنى إدارتها بينهم تعاطيهم إياها يدا بيد. والمعنى : إلا أن تتبايعوا بيعا ناجزا يدا بيد فلا بأس أن لا تكتبوه ، لأنه لا يتوهم فيه ما يتوهم في التداين. وقرئ : تجارة حاضرة بالرفع على كان التامة. وقيل : هي الناقصة على أنّ الاسم «تجارة حاضرة» والخبر «تديرونها» وبالنصب على : إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة كبيت الكتاب :

بَنِي أَسَدٍ هَلْ تَعْلَمُونَ بَلَاءَنَا إِذَا كَانَ يَوْمًا ذَا كَوَاكِبٍ أَشْهَدُ نَعَا^(١)

أى إذا كان اليوم يوما ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ أمر بالإشهاد على التبايع مطلقاً ، ناجزا أو كائنا لأنه أحوط وأبعد مما عسى يقع من الاختلاف. ويجوز أن يراد : وأشهدوا إذا تبايعتم هذا التبايع يعنى التجارة الحاضرة ، على أن الإشهاد كاف فيه دون الكتابة. وعن الحسن : إن شاء أشهد وإن شاء لم يشهد. وعن الضحاك : هي عزيمة من الله ولو على باقة بقل^(٢) ﴿وَلَا يُضَارُّ﴾ يحتمل البناء للفاعل والمفعول. والدليل عليه قراءة عمر رضى الله عنه : ولا يضارر ، بالإظهار والكسر. وقراءة ابن عباس رضى الله عنه : ولا يضارر ، بالإظهار والفتح. والمعنى نهى الكاتب والشهيد عن ترك الإجابة إلى ما يطلب منهما. وعن التحريف والزيادة والنقصان ، أو النهى عن الضرار بما بأن يعجلا عن مهم ، ويلزا ، أو لا يعطى الكاتب حقه من الجعل ، أو يحمل الشهيد مؤنة مجيئه من بلد^(٣). وقرأ الحسن : ولا يضار ، بالكسر ﴿وَإِنْ تَفْعَلُوا﴾ وإن تضارّوا ﴿فَإِنَّهُ﴾ فإنّ الضرار ﴿فُسُوقٌ﴾

(١) من أبيات الكتاب. والمراد من هذا الاستفهام الوعيد والتهديد وتذكير ما سبق أو التقرير ، أو هل معنى قد. والبلاء : الحرب وكل مكروه. أى يا بنى أسد ، هل تعلمون حربنا إذا كان اليوم يوما صاحب كواكب ، فاسم كان محذوف. ويجوز أن اسم كان ضمير البلاء ، ويوما ظرف متعلق بالخبر المحذوف. وكنى بذى الكواكب عن المظلم ، لأن الكواكب المتعددة لا تظهر إلا ليلا ، فالمعنى : إذا كان اليوم يشبه الليل في الظلمة من اشتداد الحرب وإثارة الغبار فيحجب الشمس ، فكان النجوم ترى فيه. وأقرب من ذلك أنه استعار الكواكب لأطراف الرماح ، وسيوف للمعاطا وانتشارها ذلك اليوم كالنجوم على طريق التصريحة ، والأشنع : القبيح.

(٢) قوله «على باقة بقل» حزمة منه. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قوله «مؤنة مجيئه من بلد» لعله من بلد بعيد. (ع)

بِكُمْ وقيل : وإن تفعلوا شيئاً مما نهيتم عنه **﴿عَلَى سَفَرٍ﴾** مسافرين. وقرأ ابن عباس وأبى رضى الله عنهما كتابا. وقال ابن عباس : أرأيت إن وجدت الكاتب ولم تجد الصحيفة والدواة. وقرأ أبو العالية : كتباً. وقرأ الحسن : كتاباً ، جمع كاتب (فرهن) فالذي يستوثق به رهن. وقرئ فرهن بضم الهاء وسكونها ، وهو جمع رهن ، كسقف وسقف. وفرهان. فإن قلت : لم شرط السفر في الارتهان ولا يختص به سفر دون حضر ^(١) وقد رهن رسول الله صلى الله عليه وسلم درعه في غير سفر ^(٢). قلت : ليس الغرض تجويز الارتهان في السفر خاصة ، ولكن السفر لما كان مظنة لإعواز الكتب والإشهاد ، أمر على سبيل الإرشاد إلى حفظ المال من كان على سفر ، بأن يقيم التوثق بالارتهان مقام التوثق بالكتب والإشهاد. وعن مجاهد والضحاك أنهما لم يجوّزاه إلا في حال السفر أخذاً بظاهر الآية. وأما القبض فلا بدّ من اعتباره^(٣). وعند مالك يصح الارتهان

(١) قال محمود رحمه الله : «إن قلت : لم شرط السفر في الارتهان ولا يختصّ به سفر ... الخ» قال أحمد رحمه الله : فالتخصيص بالسفر على هذا جرى على وفق الغالب فلا مفهوم له. وفي هذه الآية دليل بين لمذهب مالك رضى الله عنه في إقامة الرهن عند النزاع في قدر الدين مقام شاهد للمرتحن إلى تمام قيمته ، حتى لو تنازعا فقال الراهن : رهنك بمائة ، وقال المرتحن : بل الرهن بمائتين ، لكان الرهن شاهداً بقيمته. خلافاً للشافعي رضى الله عنه فإنه يرى القول قول الراهن مطلقاً ، لأنه غارم ، ووجه الدليل لمالك رضى الله عنه من الآية : أن الله تعالى جعل الرهن في التوثق عوضاً من الاشهاد والكتابة ، وخصه بالسفر لإعوازهما حينئذ ، ولو كان القول قول الراهن شرعاً لم يكن قائماً مقام الاشهاد ولا مفيداً فائدته بوجه ، إذ لو لم يكن الرهن لكان القول قول المديان في قدر الدين فلم يزد وجود الرهن فائدة على عدمه باعتبار نيابته عن الاشهاد ، ولا يقال : إن فائدته الامتياز به على الغرماء ، لأن تلك فائدة الاشهاد حتى يكون نائباً عنه عند تعذره ، ولا فائدة إذ ذاك إلا جعل القول قول المرتحن في قدر الدين عند التخالف وهو مذهب مالك المقدم ذكره. ومن ثم لم يجعله شاهداً إلا في قيمته لا فيما زاد عليها ، معتضداً بالعادة في أن رب الدين لا يقبل في دينه إلا الموفى بقيمته. فدعوه أن الدين أكثر من القيمة مردودة بالعادة ، والمديان أيضاً لا يسمح بتسليم ما قيمته أكثر فيما هو أقل ، فدعواه أن الدين أقل من القيمة مردودة بالعادة ، ولا يبقى إلا النظر في أمر واحد ، وهو أن المعتبر عند مالك في القيمة يوم الحكم ، حتى لو تصادقا على أن القيمة كانت يوم الرهن أكثر أو أقل لم يلتفت إلى ذلك زادت أو نقصت ، وإنما يعتبر يوم القضاء. ولقائل أن يقول : إذا جعلتم الرهن مقام الشاهد عند عدمه لأن العادة تقتضي أن الناس إنما يرهنون في الديون المساوى قيمته لها ، فينبغي أن تعتبروا القيمة يوم الرهن غير معرجين على زيادتها ونقصاتها يوم القضاء ، وعند ذلك يتجاذب أطراف الكلام في أن المقتضى لاقامته مقام الشاهد هو المعنى المتقدم أو غيره. وليس غرضنا إلا أن الآية ترشد إلى إقامته مقام الشهادة في الجملة. وأما تفاصيل المسألة فذلك من حظ الفقه.

(٢) منفق عليه من رواية الأسود بن يزيد عن عائشة «أن النبي صلى الله عليه وسلم اشترى من يهودى طعاماً إلى أجل ورهنه درعاً من حديد» والبخاري من رواية قتادة عن أنس. قال «ولقد رهن رسول الله صلى الله عليه وسلم درعاً له بالمدينة عند يهودى ، وأخذ منه شعيراً لأهله» اهـ.

(٣) قال محمود : «وأما القبض فلا بد من اعتباره ... الخ» قال أحمد رحمه الله : ليس بين مالك والشافعي خلاف في صحة الارتهان بالإيجاب والقبول دون القبض ، ولكنه عند مالك رضى الله عنه يصح بذلك ، ويلزم الراهن بالعقد تسليمه للمرتحن. وعند الشافعي لا يلزم بالعقد ولكن للقبض عند مالك اعتبار في الابتداء والدوام ، ولا يشترط .

والمضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله ، فكأنه قيل : فقد تمكن الإثم في أصل نفسه ، وملك أشرف مكان فيه . ولئلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام المتعلقة باللسان فقط ، وليعلم أنّ القلب أصل متعلقه ومعدن اقترافه ، واللسان ترجمان عنه . ولأنّ أفعال القلوب أعظم من أفعال سائر الجوارح وهي لها كالأصول التي تتشعب منها . ألا ترى أنّ أصل الحسنات والسيئات الإيمان والكفر ، وهما من أفعال القلوب ، فإذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب فقد شهد له بأنه من معاصم الذنوب . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أكبر الكبائر الإشراك بالله لقوله تعالى : ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ وشهادة الزور ، وكتمان الشهادة . وقرئ : قلبه ، بالنصب ، كقوله : ﴿سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ وقرأ ابن أبيبيلة : أثم قلبه ، أى جعله آثماً ^(١) ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٨٤)

﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ يعنى من السوء يحاسبكم به الله ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ لمن استوجب المغفرة بالتوبة مما أظهر منه أو أضمره ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ ممن استوجب العقوبة بالإصرار . ولا يدخل فيما يخفيه الإنسان : الوسواس وحديث النفس ، لأنّ ذلك مما ليس في وسعه الخلو منه ، ولكن ما اعتقده وعزم عليه . وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه تلاها فقال : لئن آخذنا الله بهذا لنهلكن ^(٢) ، ثم بكى حتى سمع نشيجه ^(٣) فذكر لابن عباس فقال : يغفر الله لأبى عبد الرحمن ، قد وجد المسلمون منها مثل ما وجد فنزل ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ﴾ وقرئ : فيغفر ويعذب ، مجزومين عطفاً على جواب الشرط ، ومرفوعين على : فهو يغفر ويعذب . فإن قلت : كيف يقرأ الجازم؟ قلت : يظهر الراء ويدغم الباء . ومدغم الراء في اللام لاحت مخطئ خطأ فاحشا . وراويه عن أبى عمرو مخطئ مرتين ، لأنه يلحن وينسب إلى أعلم الناس بالعربية ما يؤذن بجهل عظيم . والسبب في نحو هذه الروايات قلة ضبط الرواة ، والسبب في قلة الضبط قلة الدراية ، ولا يضبط نحو هذا إلا أهل النحو . وقرأ الأعمش : يغفر ، بغير فاء مجزوما على البدل من يحاسبكم ، كقوله :

(١) قوله «أثم قلبه أى جعله آثماً» يحتمل أنه بمد الهمزة من الافعال ، وأنه بتشديد التاء من التفعيل ، فليحرر . (ع)

(٢) أخرجه الطبري من طريق الزهري عن سعيد بن مرجانة عن ابن عمر به . وأخرجه الحاكم من وجه آخر عن ابن عمر

(٣) قوله «حتى سمع نشيجه» في الصحاح : نشج الباكي نشجا ونشيحاً ، إذا غص بالبكاء في حلقه من غير انتحاب . (ع)

مَــئِى تَأْتِنَــا تُلْمِــمَ بَــا فِى دِيارِنَا تَجِدَ حَــطَباً جَــزْلاً وَنَاراً تَأْجَجُـا (١)

ومعنى هذا البديل التفصيل لجملة الحساب ، لأنّ التفصيل أوضح من المفصل ، فهو جار مجرى بديل البعض من الكل أو بديل الاشتمال ، كقولك : ضربت زيدا رأسه ، وأحب زيدا عقله. وهذا البديل واقع في الأفعال وقوعه في الأسماء لحاجة القبيلين إلى البيان.

﴿آَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (٢٨٥)

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ إن عطف على الرسول كان الضمير . الذي التنوين نائب عنه في كل . راجعاً إلى الرسول والمؤمنين ، أى كلهم آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله من المذكورين (٢). ووقف عليه. وإن كان مبتدأ كان الضمير للمؤمنين. ووجد ضمير كل في آمن على معنى : كل واحد منهم آمن ، وكان يجوز أن يجمع ، كقوله : ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾. وقرأ ابن عباس : وكتابه ، يريد القرآن أو الجنس (٣) وعنه : الكتاب أكثر من الكتب. فإن قلت : كيف يكون الواحد أكثر من الجمع؟ قلت : لأنه إذا أريد بالواحد الجنس . والجنسية قائمة في وحدان الجنس كلها . لم يخرج منه شيء. فأما الجمع فلا يدخل تحته إلا ما فيه الجنسية من الجموع ﴿لَا نُفَرِّقُ﴾ يقولون لا نفرق. وعن أبي عمرو : يفرق بالياء ، على أن الفعل لكل. وقرأ عبد الله : لا يفرقون. و ﴿أَحَدٍ﴾ في معنى الجمع ، كقوله تعالى : ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ ولذلك دخل عليه بين. ﴿سَمِعْنَا﴾ أجبتا ﴿غُفْرَانَكَ﴾ منصوب بإضمار فعله. يقال : غفرانك لا كفرانك ، أى نستغفرك ولا نكفرك. وقرئ (وكتبه ورسله) بالسكون.

(١) «تلمم» بديل مما قبله ، أى متى تنزل عندنا تجدنا موقدين النار يحطب غليظ ، وهذا كناية عن كرمهم. وتأججا : مسند لضمير الحطب والنار ، أى اشتعلا ، واستدل بهما. وإسناده للنار حقيقى ، وللحطب من باب الاسناد للسبب ، فهو مجاز عقلى وفيه الجمع بين الحقيقة والمجاز في الاسناد.

(٢) قوله «ورسله من المذكورين» لعل قبله سقطا تقديره : أى كل من المذكورين. (ع)

(٣) قال محمود : «نقل عن ابن عباس أنه قرأ وكتابه ... الخ» قال أحمد : وقد قال مالك : إن التمر أخرى باستغراق الجنس من التمر ، فإن التمر استرسل على الجنس لا بصيغة لفظية ، والتمر يرد إلى تخيل الوحدان ، ثم الاستغراق بعده بصيغة الجمع وفي صيغة الجمع مضطرب. وهذا الكلام من الامام لو ظفر له بقول ابن عباس هذا لأشهر الفرضية في الاستشهاد به على صحة مقالته هذه فلا نعيده.

﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٨٦)

الوسع : ما يسع الإنسان ولا يضيق عليه ولا يخرج فيه ، أى لا يكلفها إلا ما يتسع فيه طوقه ويتيسر عليه دون مدى الطاقة والمجهود. وهذا إخبار عن عدله ورحمته كقوله تعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ﴾ لأنه كان في إمكان الإنسان وطاقته أن يصلى أكثر من الخمس ، ويصوم أكثر من الشهر ، ويحج أكثر من حجة. وقرأ ابن أبي عبة وسعها بالفتح ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ ينفعها ما كسبت من خير ويضرها ما اكتسبت من شر ، لا يؤاخذ بذنبها غيرها ولا يثاب غيرها بطاعتها. فإن قلت : لم خص الخير بالكسب ، والشر بالاكْتِسَاب؟ قلت : في الاكْتِسَابِ اعتمال ، فلما كان الشر مما تشتهي النفس وهي منجذبة إليه وأماره به ، كانت في تحصيله أعمل وأجدّ ، فجعلت لذلك مكتسبة فيه. ولما لم تكن كذلك في باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال. أى لا تؤاخذنا بالنسيان أو الخطأ إن فرط منا. فإن قلت : النسيان والخطأ متجاوز عنهما ، فما معنى الدعاء بترك المؤاخذة بهما؟^(١) قلت : ذكر النسيان والخطأ والمراد بهما ما هما مسببان عنه من التفريط والإغفال. ألا ترى إلى قوله : ﴿وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ والشيطان لا يقدر على فعل النسيان ، وإنما يوسوس فتكون وسوسته سبباً للتفريط الذي منه النسيان ، ولأنهم كانوا متقين الله حق تقاته ، فما كانت تفرط منهم فرطة إلا على وجه النسيان والخطأ ، فكان وصفهم بالدعاء بذلك إيذاناً ببراءة ساحتهم عما يؤاخذون به ، كأنه قيل : إن كان النسيان والخطأ مما يؤاخذ به ، فما فيهم سبب مؤاخذة إلا الخطأ والنسيان. ويجوز أن يدعو الإنسان بما

(١) قال محمود : «فإن قلت النسيان والخطأ متجاوز عنهما ... الخ» قال أحمد : ولا ورود لهذا السؤال على قواعد أهل السنة ، لأننا نقول : إنما ارتفعت المؤاخذة بهذين بالسمع كقوله عليه الصلاة والسلام : «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان» وإذا كان كذلك فلعل رفع المؤاخذة بهما كان إجابة لهذه الدعوة ، فقد نقل أن الله تعالى قال عند كل دعوة منها : قد فعلت. وإنما التزم الزمخشري ورود السؤال على قواعد القدرية الداهيين إلى استحالة المؤاخذة بالخطأ والنسيان عقلاً ، لأنه من تكليف ما لا يطيق ، وهو المستحيل عندهم تفرعاً على قاعدة التحسين والتبحيح ، وكلها قواعد باطلة ومذاهب ماحلة. فالله تعالى يجعل لنا من إجابة هذه الدعوات أوفر نصيب ، ويلهمنا المعتقد الحق والقول المصيب ، إنه سميع مجيب ، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

علم أنه حاصل له قبل الدعاء من فضل الله لاستدامته والاعتداد بالنعمة فيه. والإصر : العبء الذي يأصر حامله أى يجبسه مكانه لا يستقل به لثقله ، استعير للتكليف الشاق ، من نحو قتل الأنفس ، وقطع موضع النجاسة من الجلد والثوب وغير ذلك. وقرئ : آصاراً على الجمع. وفي قراءة أبيّ : ولا تحمل علينا بالتشديد. فإن قلت : أئ فرق بين هذه التشديدية والتي في : ﴿وَلَا تُحْمِلُنَا﴾؟ قلت : هذه للمبالغة في حمل عليه ، وتلك لنقل حمله من مفعول واحد إلى مفعولين ﴿وَلَا تُحْمِلُنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ من العقوبات النازلة بمن قبلنا ، طلبوا الإعفاء عن التكليفات الشاقة التي كلفها من قبلهم ، ثم عما نزل عليهم من العقوبات على تفريطهم في المحافظة عليها. وقيل : المراد به الشاق الذي لا يكاد يستطيع من التكليف. وهذا تكرير لقوله : ﴿وَلَا تُحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾. ﴿مَوْلَانَا﴾ سيدنا ونحن عبيدك. أو ناصرنا. أو متولى أمورنا ﴿فَإِنْصُرْنَا﴾ فمن حق المولى أن ينصر عبيده. أو فإنّ ذلك عادتك. أو فإنّ ذلك من أمورنا التي عليك توليها. وعن ابن عباس «أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دعا بهذه الدعوات ، قيل له عند كل كلمة : قد فعلت» ^(١) وعنه عليه السلام «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه» ^(٢) وعنه عليه السلام «أوتيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يؤتھن نبيّ قبلي» ^(٣) وعنه عليه السلام «أنزل الله آيتين من كنوز الجنة كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفي سنة من قرأهما بعد العشاء الآخرة أجزأتاه عن قيام الليل» ^(٤)

(١) أخرجه مسلم من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس : لما نزلت هذه الآية (إن تبدوا ما في أنفسكم. الآية) قال : دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم. فقال : قولوا : سمعنا وأطعنا. الحديث ، وفيه : قد فعلت. في مواضع ، وغفل الحاكم فاستدركه.

(٢) متفق عليه من حديث ابن مسعود. واختلف في معناه. فقيل : كفتاه ، أجزأتاه عن قيام الليل كما في الذي قبله ، وقيل : كفتاه أجراً وفضلاً ، وقيل : كفتاه من كل شيطان أو من كل آفة.

(٣) هذا طرف من حديث ، أوله عن حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فضلنا على الناس بثلاث: جعلت لنا الأرض كلها مسجداً وجعلت تربتها لنا طهوراً ، وجعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وأوتيت هؤلاء الآيات آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش ، لم يعط منه أحد قبلي ، ولا يعطي منه أحد بعدي : أخرجه النسائي وأحمد والبخاري وابن أبي شيبة وابن خزيمة وابن حبان من رواية أبي مالك الأشجعي عن ربعي بن خراش عن حذيفة ، وقد أخرجه مسلم ، لكن قال في الثالثة وذكر خصلة أخرى : فأجمها ، وذكرها أصحاب المستخرجات وغيرهم من طريق شيخه بإسناده فيه ، وغفل الحاكم فذكر في فضائل القرآن في المستدرك : ان مسلماً أخرج هذه الجملة ، ولعل مسلماً إنما أجمها للاختلاف على ربعي فيها ، فقد رواه أحمد وإسحاق من رواية جرير عن منصور عن ربعي عن خراش عن زيد بن ظبيان عن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لكن تابع أبا مالك نعيم بن أبي هند ، أخرجه الطبراني في الأوسط في المحدثين منه من طريقه.

(٤) أخرجه ابن عدى من حديث ابن مسعود ، وفي إسناده الوليد بن عباد وهو مجهول عن أبان بن أبي عيش. وهو متروك.

فإن قلت : هل يجوز أن يقال : قرأت سورة البقرة أو قرأت البقرة. قلت : لا بأس بذلك. وقد جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم «من آخر سورة البقرة» و «خواتيم سورة البقرة» و «خواتيم البقرة»^(١).

وعن عليّ رضي الله عنه «خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش».

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما أنه رمى الجمرة ثم قال «من هاهنا . والذي لا إله غيره . رمى الذي أنزلت عليه سورة البقرة»^(٢).

ولا فرق بين هذا وبين قولك سورة الزخرف وسورة الممتحنة وسورة المجادلة. وإذا قيل : قرأت البقرة ، لم يشكل أنّ المراد سورة البقرة كقوله : ﴿وَسَلِّ

الْقُرْآنَ﴾. وعن بعضهم أنه كره ذلك وقال : يقال قرأت السورة التي تذكر فيها البقرة.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «السورة التي تذكر فيها البقرة فسطاط القرآن فتعلموها فإنّ تعلمها بركة وتركها حسرة ولن تستطيعها البطلة. قيل : وما البطلة؟ قال : السحرة»^(٣)

(١) تقدما جميعا قريبا ، ولمسلم من حديث مرة بن شراحيل الطبيب عن ابن مسعود : أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً : الصلوات الخمس ، وخواتيم سورة البقرة . الحديث. وله عن ابن عباس : بينما جبريل عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ نزل ملك . الحديث وفيه : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة.

(٢) متفق عليه من رواية الأعمش : سمعت الحجاج بن يوسف على المنبر يقول : السورة التي يذكر فيها البقرة والسورة التي يذكر فيها آل عمران. والسورة التي يذكر فيها النساء. قال : فذكرته لإبراهيم فقال : حدثني عبد الرحمن ابن يزيد أنه كان مع ابن مسعود حين رمى جمرة العقبة ... الحديث.

(٣) ذكر أبو شجاع الديلمي في الفردوس. من حديث أبي سعيد الخدري : والمسألة في صحيح مسلم من حديث أبي أمامة مرفوعا : اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة. قال معاوية أحد رواة :

المعنى أن البطلة السحرة. وفي الباب عن بريدة عند الثعلبي والبخاري.

(تنبيه) المصنف ذكر حديث أبي سعيد مستدلا به ان قال : السورة التي يذكر فيها كذا. ولما قبله على الجواز.

فانه من المرفوع ما رواه الطبراني في الأوسط في المحدثين وابن مردويه في تفسيره من حديث موسى بن أنس بن مالك عن أبيه رفعه : «لا تقولوا سورة البقرة ولا سورة آل عمران ، وكذا القرآن كله ، ولكن قولوا السورة التي يذكر فيها البقرة والتي يذكر فيها آل عمران» وكذا القرآن كله ، وفي إسناد عيسى بن ميمون أبو سلمة الخواص ، وهو ساقط.

سورة آل عمران

مدنية وهي مائتا آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الم (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ هُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ (٤)

(م) حقها أن يوقف عليها كما وقف على ألف ولام ، وأن يبدأ ما بعدها كما تقول : واحد اثنان : وهي قراءة عاصم. وأما فتحها فهي حركة الهمزة ألقيت عليها حين أسقطت للتخفيف. فإن قلت: كيف جاز إلقاء حركتها عليها وهي همزة وصل لا تثبت في درج الكلام فلا تثبت حركتها لأنّ ثبات حركتها كتباً؟ قلت : هذا ليس بدرج ، لأنّ (م) في حكم الوقف والسكون والهمزة في حكم الثابت. وإنما حذفت تخفيفاً وألقيت حركتها على الساكن قبلها ليدل عليها. ونظيره قولهم : واحد اثنان ، بإلقاء حركة الهمزة على الدال. فإن قلت : هلا زعمت أنّها حركة لالتقاء الساكنين؟ قلت : لأنّ التقاء الساكنين لا يبالي به في باب الوقف ، وذلك قولك : هذا إبراهيم وداود وإسحاق. ولو كان التقاء الساكنين في حال الوقف يوجب التحريك لحرك الميمان في ألف لام ميم ، لالتقاء الساكنين. ولما انتظر ساكن آخر. فإن قلت : إنما لم يحركوا لالتقاء الساكنين في ميم ، لأنهم أرادوا الوقف وأمكنهم النطق بساكنين ، فإذا جاء اسكن ثالث لم يمكن إلا التحريك فحركوا. قلت : الدليل على أن الحركة ليست لملاقاة الساكن أنه كان يمكنهم أن يقولوا : واحد اثنان ، بسكون الدال مع طرح الهمزة ، فيجمعوا بين ساكنين ، كما قالوا : أصيم ، ومديق. فلما حركوا الدال علم أن حركتها هي حركة الهمزة الساقطة لا غير وليست لالتقاء الساكنين. فإن قلت : فما وجه قراءة عمرو بن عبّيد بالكسر؟ قلت : هذه القراءة على توهم التحريك لالتقاء الساكنين وما هي بمقولة. و ﴿التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ اسمان أعجميان. وتكلف اشتقاقهما من الورى والنجل ووزنهما بتفعلة وأفعيل ، إنما يصح بعد كونهما عربيين. وقرأ الحسن : الإنجيل ، بفتح الهمزة ،

وهو دليل على العجمة ، لأن أفعيل . بفتح الهمزة . عديم في أوزان العرب . فإن قلت : لم قيل ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ ^(١) ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾؟ قلت : لأن القرآن نزل منجماً ، ونزل الكتابان جملة . وقرأ الأعمش : نَزَلَ عليك الكتابُ بالتخفيف ورفع الكتاب ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ أى لقوم موسى وعيسى . وقال نحن متعبدون بشرائع من قبلنا فسرره على العموم . فإن قلت : ما المراد بالفرقان؟ قلت : جنس الكتب السماوية ^(٢) ، لأن كلها فرقان يفرق بين الحق والباطل ، أو الكتب التي ذكرها ، كأنه قال بعد ذكر الكتب الثلاثة : وأنزل ما يفرق به بين الحق والباطل من كتبه ، أو من هذه الكتب ، أو أراد الكتاب الرابع وهو الزبور ، كما قال : ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ وهو ظاهر . أو كرر ذكر القرآن بما هو نعت له ومدح من كونه فارقاً بين الحق والباطل بعد ما ذكره باسم الجنس ، تعظيماً لشأنه وإظهاراً لفضله ﴿بَايَاتِ اللَّهِ﴾ من كتبه المنزلة وغيرها ﴿ذُو انتقام﴾ له انتقام شديد ^(٣) لا يقدر على مثله منتقم .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٦)

﴿لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾ في العالم فعبر عنه بالسماء والأرض ، فهو مطلع على كفر من كفر وإيمان من آمن ، وهو مجازيهم عليه ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ من الصور المختلفة المتفاوتة . وقرأ طاوس : تصوّرکم،

(١) قال محمود : «فان قلت : لم قيل في القرآن نزل ... الخ» قال أحمد : يريد لأن «فعل» صيغة مبالغة وتكثير ، فلما كان نزول القرآن منجماً كان أكثر تنزيلاً من غيره لتفرقه في مرار عديدة ، فعبر عنه بصيغة مطابقة لكثرة تنزيلاته ، وعبر عن الكتابين بصيغة خلية عن المبالغة والتكثير والله أعلم .

(٢) (عاد كلامه) قال : والفرقان يحتمل أن يراد به جميع الكتب السماوية لأنها تفرق بين الحق والباطل ، أو الكتب التي ذكرها أو أراد الكتاب الرابع وهو الزبور . كما أفردته وآخر ذكره في قوله : ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ أو كرر ذكر القرآن بما هو نعت له ومدح من كونه فارقاً بين الحق والباطل ، بعد ما ذكره باسم الجنس تعظيماً لشأنه وإظهاراً لفضله والله أعلم . قال أحمد : وقد جعل الزمخشري سر التعبير عن نزول القرآن بصيغة «فعل» تفريقه في التنزيل كما تقدم آنفاً ، ثم حمل الفرقان على أحد تأويلاته على القرآن والتعبير عنه بأفعل كغيره ، فان يكن هذا . والله أعلم . فالوجه أنه لما عبر أولاً عن نزوله الخاص به ، أتى بعبارة مطابقة لقصد الخصوصية ، فلما جرى ذكره ثانياً لينعت بصفة زائدة على اسم الجنس «عبر عن نزوله من حيث الإطلاق اكتفاء بتميزه أولاً وإجمالاً لذلك في غير مقصوده ، ومن العبارة السائرة عن هذا المعنى : الكلام يحمل في غير مقصوده ، ويفصل في مقصوده .

(٣) قال محمود : «معناه له انتقام شديد ... الخ» . قال أحمد : وإنما يلقي هذا التفخيم من التكثير وهو من علاماته مثله في قوله : ﴿فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ .

أى صوّركم لنفسه ولتعبده ، كقولك : أثلت مالا ، إذا جعلته أثلة ، أى أصلا. وتأثلته ، إذا أثلته لنفسك. وعن سعيد بن جبير : هذا حجاج على من زعم أنّ عيسى كان ربا ، كأنه نبه بكونه مصورا في الرحم ، على أنه عبد كغيره ، وكان يخفى عليه ما لا يخفى على الله.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٧)

﴿مُحْكَمَاتٌ﴾ أحكمت عبارتها ^(١) بأن حفظت من الاحتمال والاشتباه ﴿مُتَشَابِهَاتٌ﴾ مشتبهات

(١) قال محمود : «المحكمات التي أحكمت عبارتها ... الخ» قال أحمد : هذا كما قدمته عنه من تكلفه لتنزيل الآي على وفق ما يعتقد ، وأعوذ بالله من جعل القرآن تبعاً للرأى. وذلك أن معتقده إحالة رؤية الله تعالى بناء على زعم القدرية من أن الرؤية تستلزم الجسمية والجهة ، فإذا ورد عليهم النص القاطع الدال على وقوع الرؤية كقوله : ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ مالوا إلى جعله من المتشابه حتى يردوه بزعمهم إلى الآية التي يدعون أن ظاهرها يوافق رأيهم. والآية قوله تعالى : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ وغرضنا الآن بيان وجوب الجمع بين الآيتين على الوجه الحق ، فنقول : يحمل قوله : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ في دار الدنيا. ومحمل الرؤية على الدار الآخرة جمعا بين الأدلة. أو نقول : الأبصار وإن كانت ظاهرة العموم إلا أن المراد بها الخصوص ، أى لا تدركه أبصار الكفار كقوله : ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ ونقول : لا تعارض بين الآيتين ، فنقر كل واحدة منها في نصائها. وبيان ذلك : أن الأبصار عام بالآلف واللام الجنسيتين ، ولا يتم غرض القدرية على زعمهم إلا بالموافقة على عمومها ، وحينئذ يكون في العموم مرادفة لدخول كل ، لأن كليهما أعنى المعرف والجنسي ، وكلا يفيد الشمول والاحاطة ، وإذا أثبت ذلك فالسلب داخل على الكلية. والقواعد مستقرة على أن سلب الكلية جزئى لغة وتعقلا. ألا ترى أن القائل إذا قال : لا تنفق كل الدراهم ، كان المفهوم من ذلك الاذن في إنفاق البعض والنهي عن إنفاق البعض ، ومن حيث المعقول أن الكلية تسلب بسلب بعض الأفراد ولو واحداً ، وحينئذ يكون مقتضى الآية سلب الرؤية عن بعض الأبصار وثبوتها لبعض الأبصار ، وهذا عين مذهب أهل السنة ، لأنهم يثبتونها للموحدين ويسلبونها عن الكفار كما أنبأ عنه قوله تعالى : ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ فقد ثبت أن هذه الآية إما محمولة على إثبات الرؤية ، وإما باقية على ظاهرها ، دليلا على ثبوتها على وفق السنة. ولا يقال قد ثبت الفرق بين دخول كل على المعرف تعريف الجنس وبين عدم دخولها. ألا ترى أنهم يقولون إن قولنا : «الإنسان كاتب» مهمل في قوة الجزئية ، وإن قولنا «كل إنسان حيوان» كلى لا جزئى ، لأننا نقول إنما جاربنا القدرية على ما يلزمهم الموافقة فيه ، وهم قد وافقوا على تناول الأبصار لكل واحد واحد من أفراد الجنس ، ولو لا ذلك لما تم لهم مرام ، ولكفونا مؤنة البحث في ذلك ، وهذا القدر من الكلية المتفق عليها بين الفريقين لا يثبت لما سماه أهل ذلك الفن مهملا ، بل هذا هو الكلى عندهم والله الموفق. وأما الآيتان الأخريان اللتان إحداهما قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ والأخرى التي هي قوله تعالى : ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ فلا ينازع الزمخشري في تمثيل المحكم والمتشابه بهما.

محتملات ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أى أصل الكتاب تحمل التشابهات عليها وتردّ إليها ، ومثال ذلك ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ ، ﴿إِلَى رَبِّهَا نَظِيرَةٌ﴾ ، ﴿لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾. ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾. فإن قلت : فهلا كان القرآن كله محكما؟ قلت : لو كان كله محكما لتعلق الناس به لسهولة مأخذه ، ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل من النظر والاستدلال ، ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذي لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به ، ولما في التشابه من الابتلاء والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه ، ولما في تقادح العلماء وإتعاجم القرائح في استخراج معانيه وردّه إلى المحكم من الفوائد الجليلة والعلوم الجمة ونيل الدرجات عند الله ، ولأنّ المؤمن المعتقد أن لا مناقضة في كلام الله ولا اختلاف ، إذا رأى فيه ما يتناقض في ظاهره ، وأهمه طلب ما يوفق بينه ويجريه على سنن واحد ، ففكر وراجع نفسه وغيره ففتح الله عليه وتبين مطابقة التشابه المحكم ، ازداد طمأنينة إلى معتقده وقوة في إيقانه ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ رَيْبٌ﴾ هم أهل البدع ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ فيتعلقون بالمتشابه الذي يحتمل ما يذهب إليه المبتدع مما لا يطابق المحكم ويحتمل ما يطابقه من قول أهل الحق ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم ويضلّوهم ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ وطلب أن يأولوه التأويل الذي يشتهونه ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ أى لا يهتدى إلى تأويله الحق الذي يجب أن يحمل عليه إلا الله ^(١) وعباده الذين رسخوا في العلم ، أى ثبتوا فيه وتمكنوا وعضوا فيه بضرر قاطع. ومنهم من يقف على قوله إلا الله ، ويتدبّر والراسخون في العلم يقولون. ويفسرون التشابه بما استأثر الله بعلمه ، وبمعرفة الحكمة فيه من آياته ، كعدد الزبانية ونحوه : والأوّل هو الوجه. ويقولون : كلام مستأنف موضح لحال الراسخين بمعنى هؤلاء العالمون بالتأويل ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ أى بالمتشابه ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ أى كل واحد منه ومن المحكم من عنده ، أو بالكتاب كل من متشابهه ومحكمه من عند الله الحكيم الذي لا يتناقض كلامه ولا يختلف كتابه ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ مدح للراسخين بإلقاء الذهن وحسن التأمل. ويجوز أن يكون

(١) قال محمود : معناه لا يهتدى إلى تأويله ... الخ» قال أحمد رحمه الله : وقوله «لا يهتدى إليه إلا الله» عبارة قلقة ، ولم يرد إطلاق الاهتداء على علم الله تعالى ، مع أن في هذه اللفظة إيها ما إذ الاهتداء لا يكون في الإطلاق إلا عن جبل وضلال . جل الله وعز . حتى إن الكافر إذا أسلم أطلق أهل العرف عليه : فلان المهتدى ، ذلك مقتضى اللغة فيه فانه مطاوع هدى . يقال : هديته فاهتدى ، والإجماع منعقد على أن ما لم يرد إطلاقه وكان موها لا يجوز إطلاقه على الله عز وجل . ولذا أنكر على القاضي إطلاقه المعرفة على علم الله تعالى حيث حد مطلق العلم بأنه معرفة المعلوم على ما هو عليه. فلأن ينكر على الزمخشري إطلاق الاهتداء على علم الله تعالى أجدر. وما أراها صدرت منه إلا وهما حيث أضاف العلم إلى الله تعالى وإلى الراسخين في العلم ، فأطلق الاهتداء على الراسخين ، أو عقل عن كونه ذكرهم مضائين إلى الله تعالى في الفعل المذكور والله أعلم.

﴿يَقُولُونَ﴾ حالا من الراسخين. وقرأ عبد الله : إن تأويله إلا عند الله. وقرأ أبي : ويقول الراسخون.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (٩)

﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ لا تبلىنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا ^(١) ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ وأرشدتنا لدينك. أو لا تمنعنا أطفافك بعد إذ لطفت بنا ﴿مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ من عندك نعمة بالتوفيق والمعونة. وقرئ لا تزغ قلوبنا ، بالتاء والياء ورفع القلوب ﴿جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ أى تجمعهم لحساب يوم أو لجزاء يوم ، كقوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ : وقرئ : جامع الناس ، على الأصل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ معناه أن الإلهية تنافى خلف الميعاد كقولك : إن الجواد لا يخيب سائله والميعاد : الموعد. قرأ على رضى الله عنه. لن تغنى بسكون الياء ، وهذا من الجدّ في استثقال الحركة على حروف اللين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ (١٠) كَذَابُ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢)﴾

﴿مِنْ﴾ في قوله ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ مثله في قوله : ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ والمعنى : لن تغنى عنهم من رحمة الله أو من طاعة الله ﴿شَيْئًا﴾ أى بدل رحمته وطاعته وبدل الحق : ومنه «ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ» أى لا ينفعه جدّه وحظه من الدنيا بذلك ، أى بدل طاعتك وعبادتك وما عندك

(١) قال محمود : «معناه ربنا لا تبلىنا ببلايا ... الخ» قال أحمد : أما أهل السنة فيدعون الله بهذه الدعوة غير محرّفة ، لأنهم يوحدون حق التوحيد ، فيعتقدون أن كل حادث من هدى وزیغ مخلوق لله تعالى. وأما القدريّة فعندهم أن الزیغ لا يخلقه الله تعالى وإنما يخلقه العبد لنفسه ، فلا يدعون الله تعالى بهذه الدعوة إلا محرّفة إلى غير المراد بما كما أولها المصنف به ، وإن كنا ندعو الله تعالى مضافا إلى هذه الدعوة بأن لا يتبلىنا ولا يمنعنا لطفه آمين ، لأن الكل فعله وخلقه ، ولا موجود إلا هو وأفعاله ، التي نحن وأفعالنا منها.

وفي معناه قوله تعالى : ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى﴾ وقرئ : وقود ، بالضم بمعنى أهل وقودها. والمراد بالذين كفروا من كفر برسول الله صلى الله عليه وسلم. وعن ابن عباس : هم قريظة والنضير. الدأب : مصدر دأب في العمل إذا كدح فيه فوضع موضع ما عليه الإنسان من شأنه وحاله ، والكاف مرفوع المحل تقديره : دأب هؤلاء الكفرة كدأب من قبلهم من آل فرعون وغيرهم. ويجوز أن ينتصب محل الكاف بلن تغنى ، أو بالوقود. أى لن تغنى عنهم مثل ما لم تغن عن أولئك أو توقد بهم النار كما توقد بهم ، تقول : إنك لتظلم الناس كدأب أبيك تريد كظلم أبيك ومثل ما كان يظلمهم ، وإن فلانا لمخارف كدأب ^(١) أبيه ، تريد كما حورف أبوه ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ تفسير لدأبهم ما فعلوا وفعل بهم ، على أنه جواب سؤال مقدّر عن حالهم ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هم مشركو مكة ﴿سَتُعْلَبُونَ﴾ يعنى يوم بدر. وقيل : هم اليهود. ولما غلب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر قالوا : هذا والله النبي الأمي الذي بشرنا به موسى ، وهما باتباعه. فقال بعضهم لا تعجلوا حتى ننظر إلى وقعة أخرى ، فلما كان يوم أحد شكوا. وقيل : جمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وقعة بدر في سوق بني قينقاع فقال يا معشر اليهود احذروا مثل ما نزل بقريش ^(٢) وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم ، فقد عرفتم أني نبي مرسل ، فقالوا لا يغرنك أنك لقيت قوما أغماراً لا علم لهم بالحرب فأصبحت منهم فرصة ، لئن قاتلتنا لعلمت أننا نحن الناس ، فنزلت وقرئ : سيغلبون ويحشرون ، بالياء ، كقوله تعالى : ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ﴾ على قل لهم قولي لك سيغلبون. فإن قلت : أى فرق بين القراءتين من حيث المعنى؟ قلت : معنى القراءة بالياء الأمر بأن يخبرهم بما سيجرى عليهم من الغلبة والحشر إلى جهنم. فهو إخبار بمعنى سيغلبون ويحشرون وهو الكائن من نفس المتوعد به والذي يدل عليه اللفظ : ومعنى القراءة بالياء الأمر بأن يحكى لهم ما أخبره به من وعيدهم بلفظه ، كأنه قال : أد إليهم هذا القول الذي هو قولي لك سيغلبون ويحشرون.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيِ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (١٣)

(١) قوله «وإن فلانا لمخارف كدأب أبيه» في الصحاح : رجل مخارف . بفتح الراء . أى محدود محروم ، وهو خلاف قولك : مبارك. (ع)

(٢) أخرجه أبو داود والطبري ، من رواية ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير ، وعكرمة عن ابن عباس قال «لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً يوم بدر وقدم المدينة جمع اليهود . الحديث»

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ الخطاب لمشركي قريش ﴿فِي فِتْنَتَيْنِ التَّقَاتَا﴾ يوم بدر ﴿يَرَوْهُمْ مِنْهُمْ﴾ يرى المشركون المسلمين مثلي عدد المشركين ^(١) قريباً من ألفين. أو مثلي عدد المسلمين ستمائة ونيفاً وعشرين ، أراهم الله إياهم مع قلتهم أضعافهم ليها بؤهم ويجبنوا عن قتالهم ، وكان ذلك مدداً لهم من الله كما أمدهم بالملائكة. والدليل عليه قراءة نافع : تروهم ، بالتاء أى ترون يا مشركي قريش المسلمين مثلي فتتكم الكافرة ، أو مثلي أنفسهم. فإن قلت : فهذا مناقض لقوله في سورة الأنفال ﴿وَيَقْلِلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾. قلت : قللوا أولاً في أعينهم حتى اجترعوا عليهم ، فلما لا قوهم كثروا في أعينهم حتى غلبوا ، فكان التقليل والتكثير في حالين مختلفين. ونظيره من المحمول على اختلاف الأحوال قوله تعالى ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ وقوله تعالى : ﴿وَقَفَّوهُمْ إِثْمَ مَسْئُولُونَ﴾ وتقليلهم تارة وتكثيرهم أخرى في أعينهم أبلغ في القدرة وإظهار الآية. وقيل يرى المسلمون المشركين مثلي المسلمين ^(٢) على ما قرر عليه أمرهم من مقاومة الواحد الاثنين في قوله تعالى : ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ بعد ما كلفوا أن يقاوم الواحد العشرة في قوله تعالى : ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ ولذلك وصف ضعفهم ^(٣) بالقلة لأنه قليل بالإضافة إلى عشرة الأضعاف وكان الكافرون ثلاثة أمثالهم. وقراءة نافع لا تساعد عليه. وقرأ ابن مصرف : يروهم ، على البناء للمفعول بالياء والتاء ، أى يريهم الله ذلك بقدرته. وقرأ : فئة تقاتل وأخرى كافرة ، بالجرّ على البديل من فئتين ، وبالنصب على الاختصاص. أو على الحال من الضمير في التقنا ﴿رَأَيْ الْعَيْنِ﴾ يعنى رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها ، معاينة كسائر المعاينات ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ﴾ كما أيد أهل بدر بتكثيرهم في عين العدو.

(١) قال محمود : «معناه يرى المشركون المسلمين مثلي عدد المشركين ... الخ» قال أحمد : وكذلك آيات الشفاعة المقدمة على رأى أهل السنة.

(٢) (عاد كلامه) قال : «وقيل يرى المسلمون المشركين مثلي المسلمين ... الخ» قال أحمد : إنما قال ذلك لأن الخطاب على قراءة نافع يكون للمسلمين ، أى تروهم يا مسلمون ، ويكون ضمير المثلين أيضاً للمسلمين. وقد جاء على لفظ الغيبة فيلزم الخروج في جملة واحدة من الحضور إلى الغيبة والالتفات وإن كان سائغا فصيحاً ، إلا أنه إنما يأتي في الأغلب في جملتين. وقد جاء هاهنا الكلام جملة واحدة ، لأن مثليهم مفعول ثان للرؤية ، ولو قال القائل : ظننتك يقوم ، على لفظ الغيبة بعد الخطاب ، لم يكن بذلك ، فهذا هو الوجه الذي أعد الزمخشري به بين قراءة نافع وبين هذا التأويل ، إلا أنه يلزم مثله على أحد وجهيه المتقدمين آنفاً ، لأنه قال : معناه على قراءة نافع : ترون يا مشركون المسلمين مثلي عددهم أو مثلي فتتكم الكافرة ، فعلى هذا الوجه الثاني يلزم الخروج من الخطاب إلى الغيبة في الجملة بعينها ، كما ألزمه هو على ذلك الوجه والله أعلم.

(٣) قوله «ولذلك وصف ضعفهم» لعل هذا في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ أى وصف ضعف المسلمين وهو الستمائة بالقلة ، مع أن ضعف الشيء أكثر منه ، فتدبر. (ع)

﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِصَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ (١٤) قُلْ أَتُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ (١٧)

﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ﴾ المزين هو الله سبحانه وتعالى ^(١) للابتلاء ، كقوله : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ﴾ ويدل عليه قراءة مجاهد : زين للناس ، على تسمية الفاعل. وعن الحسن : الشيطان. والله زينها لهم ، لأننا لا نعلم أحداً أذم لها من خالقها ﴿حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ جعل الأعيان التي ذكرها شهوات ^(٢) مبالغة في كونها مشتتة محروصاً على الاستمتاع بها. والوجه أن يقصد تخسيسها فيسميها شهوات ، لأن الشهوة مستزلة عند الحكماء مذموم من اتباعها شاهد على نفسه بالهيمية ، وقال : ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ ثم جاء بالتفسير ، ليقرر أولاً في النفوس أن المزين لهم حبه ما هو إلا شهوات لا غير ، ثم يفسره بهذه الأجناس ، فيكون أقوى لتخسيسها ، وأدل على ذم من يستعظمها ويتهالك عليها ويرجح طلبها على طلب ما عند الله. والقنطار : المال الكثير. قيل : ملء مسك ثور. وعن سعيد بن جبير : مائة ألف دينار. ولقد جاء الإسلام يوم جاء وبمكة مائة رجل قد قنطروا.

(١) قال محمود : «المزين هو الله تعالى ... الخ» قال أحمد : التزين للشهوات يطلق ويراد به خلق حبها في القلوب ، وهو بهذا المعنى مضاف إلى الله تعالى حقيقة ، لأنه لا خالق إلا هو خالق كل شيء ، من جوهر ، ومن عرض قائم بالجوهر ، حب أو غيره. محمود في الشرع أولاً. ويطلق التزين ويراد به الحظ على تعاطي الشهوات والأمر بها ، فهو بهذا الاعتبار لا يضاف إلى الله تعالى منه إلا الحظ على بعض الشهوات المنصوص عليها شرعاً كالنكاح المقتن بقصد التناسل واتباع السنة فيه وما يجري مجراه. وأما الشهوات المحظورة فتزيناها بهذا المعنى الثاني مضاف إلى الشيطان ، تنزيلاً لوسوسته وتحسينه منزلة الأمر بها والحظ على تعاطيها. وكلام الحسن رضى الله عنه محمول على التزين بالمعنى الثاني لا بالمعنى الأول ، فانه يحاشى أن ينسب خلق الله إلى غير الله. وإنما الزمخشري كثيراً ما يورد أمثال هذه العبارة الملتبسة تنزيلاً لها على قواعد القدريّة الفاسدة ، فتفطن لها وبريء قائلها من السلف الصالح عما يزعم الزمخشري النقل عنه ، والله الموفق.

(٢) (عاد كلامه) قال : «جعل الأعيان التي ذكرها شهوات ... الخ» قال أحمد : يريد إلحاقها بباب : رجل صوم وفطر ، مما يوضع فيه المعنى موضع الاسم مبالغة.

و ﴿الْمُقَنْطَرَةُ﴾ مبنية من لفظ القنطار للتوكيد كقولهم : ألف مؤلفة ، وبدرة مبدرة. و ﴿الْمُسَوِّمَةُ﴾ المعلمة ، من السومة وهي العلامة. أو المطهمة أو المرعية ^(١) من أسام الدابة وسومها ﴿وَالْأَنْعَامُ﴾ الأزواج الثمانية ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ﴾.

﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾ كلام مستأنف فيه دلالة على بيان ما هو خير من ذلكم ، كما تقول : هل أدلك على رجل عالم؟ عندي رجل من صفته كيت وكيت. ويجوز أن يتعلق اللام بخير. واختص المتقين ، لأنهم هم المنتفعون به. وترتفع ﴿جَنَّاتٌ﴾ على : هو جنات. وتنصره قراءة من قرأ (جنات) بالجرّ على البدل من خير ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾ يثيب ويعاقب على الاستحقاق ، أو بصير بالذين اتقوا وبأحوالهم ، فلذلك أعدّ لهم الجنات ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ نصب على المدح ، أو رفع. ويجوز الجرّ صفة للمتقين أو للعباد. والواو المتوسطة بين الصفات للدلالة على كما لهم في كل واحدة منها. وقد مرّ الكلام في ذلك. وخص الأسحار لأنهم كانوا يقدّمون قيام الليل فيحسن طلب الحاجة بعده ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ وعن الحسن : كانوا يصلون في أوّل الليل حتى إذا كان السحر أخذوا في الدعاء والاستغفار ، هذا نهارهم ، وهذا ليلهم.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقُسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾

شبهت دلالته على وحدانيته بأفعاله الخاصة التي لا يقدر عليها غيره ، وبما أوحى من آياته الناطقة بالتوحيد كسورة الإخلاص وآية الكرسي وغيرها بشهادة الشاهد في البيان والكشف ، وكذلك إقرار الملائكة وأولى العلم بذلك واحتجاجهم عليه ﴿قَانِمًا بِالْقُسْطِ﴾ مقيما للعدل فيما يقسم من الأرزاق والآجال ، ويثيب ويعاقب ، وما يأمر به عباده من إنصاف بعضهم لبعض والعمل على السوية فيما بينهم. وانتصابه على أنه حال مؤكدة منه كقوله : ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾. فإن قلت : لم جاز إفراده بنصب الحال دون المعطوفين عليه؟ ولو قلت جاءني زيد وعمرو ركباً لم يجز؟ قلت : إنما جاز هذا لعدم الإلباس كما جاز في قوله : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ أن انتصب نافلة حالا

(١) قوله «أو المطهمة أو المرعية» عبارة أبي السعود. أو المطهمة التامة الخلق اه. وفي الفخر : قال القفال : المطهمة المرأة الجميلة المرتبة اه. (ع)

عن يعقوب. ولو قلت : جاءني زيد وهند ركباً جاز لتميظه بالذكرة ، أو على المدح. فإن قلت : أليس من حق المنتصب على المدح أن يكون معرفة كقولك : الحمد لله الحميد. «إنا معشر الأنبياء لا نورث»^(١). إنا بنى نَحْشَل لا ندعى لأب؟ قلت : قد جاء نكرة كما جاء معرفة. وأنشد سيويه فيما جاء منه نكرة قول الهذلي :

وَيَأْوِي إِلَى نِسْـَٔةٍ عُتْـُوبَةٍ ۚ وَشُدَّ غَنًّا مَرَّاضٍ ۚ بَعِثَ مَثَلًا لِّلَّ سَّـَّعَالِي (٢)

فإن قلت : هل يجوز أن يكون صفة للمنفى كأنه قيل : لا إله قائماً بالقسط إلا هو؟ قلت : لا يبعد ، فقد رأيناهم يتسعون في الفصل بين الصفة والموصوف. فإن قلت : قد جعلته حالا من فاعل شهد ، فهل يصح أن ينتصب حالا عن «هو» في : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؟ قلت : نعم ، لأنها حال مؤكدة والحال المؤكدة لا تستدعى أن يكون في الجملة التي هي زيادة في فائدتها عامل فيها ، كقولك : أنا عبد الله شجاعاً. وكذلك لو قلت : لا رجل إلا عبد الله شجاعاً. وهو أوجه من انتصابه عن فاعل شهد ، وكذلك انتصابه على المدح. فإن قلت : هل دخل قيامه بالقسط في حكم شهادة الله والملائكة وأولى العلم كما دخلت الوجدانية؟ قلت : نعم إذا جعلته حالا من هو ، أو نصباً على المدح منه ، أو صفة للمنفى ، كأنه قيل : شهد الله والملائكة وأولو العلم أنه لا إله إلا هو ، وأنه قائم بالقسط. وقرأ عبد الله : القائم بالقسط ، على أنه بدل من هو ، أو خبر مبتدأ محذوف. وقرأ أبو حنيفة : قيما بالقسط ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ صفتان مقررّتان لما وصف به ذاته من الوجدانية والعدل ، يعنى أنه العزيز الذي لا يغالبه إله آخر ، الحكيم الذي لا يعدل عن العدل في أفعاله. فإن قلت : ما المراد بأولى العلم الذين عظمهم هذا التعظيم حيث جمعهم معه ومع الملائكة في الشهادة على وحدانيته وعدله؟ قلت : هم الذين يثبتون وحدانيته وعدله بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة وهم علماء العدل ^(٣) والتوحيد. وقرئ (أنه) بالفتح ، و ﴿إِنَّ الدِّينَ﴾ بالكسر على أن الفعل واقع على أنه

(١) أخرجه أحمد ، حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة مرفوعاً بهذا. ورواه النسائي في الكبرى ، من رواية ابن عيينة عن الزهري عن مالك بن أوس بن الحدثان ، قال : قال عمر لعبد الرحمن وسعد وعثمان وطلحة والزبير «أنشدكم بالله الذي قامت له السموات والأرض ، أسمعتم النبي صلى الله عليه وسلم يقول . فذكروه ، وفيه قالوا : اللهم نعم» وأخرجه في الكنى في ترجمة أبي إدريس تلميذ أبي سليمان من رواية عن عبد الملك بن عمر عن أبي هريرة مثله. وأصله متفق عليه من حديث عائشة بلفظ «لا نورث ما تركنا صدقة»

(٢) للهندلي يصف رجلاً يصيد ويرجع إلى زوجته وبناته عطل عاريات من الحلي والثياب. وشعثنا نصب على الدم ، أى وأذم شعثنا أى مغبرات الوجوه من الجوع. والعطل : جمع عاطلة. والشعث. جمع شعثاء ، كسود وسوداء. ومراضيع : جمع مرضاع قياسا ، أو مرضع سماعا ، أى ترضع أولادها مثل السعالى جمع سعالاة وهي أثنى الشياطين ، أى كريهات المنظر مثل الأغوال. وهي أقبح شيء عند العرب.

(٣) قوله «والبراهين القاطعة وهم علماء العدل» تلميح بالمعتزلة حيث سمو أنفسهم أهل العدل والتوحيد ، لكن الانصاف التعميم حتى يشمل أهل السنة والجماعة. (٤)

بمعنى شهد الله على أنه ، أو بأنه. وقوله ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ جملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى. فإن قلت : ما فائدة هذا التوكيد؟ قلت : فائدته أن قوله : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ توحيد ، وقوله : ﴿قَانِمًا بِالْقِسْطِ﴾ تعديل ، فإذا أردفه قوله : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ فقد آذن أن الإسلام هو العدل ^(١) والتوحيد ، وهو الدين عند الله ، وما عداه فليس عنده في شيء من الدين. وفيه أن من ذهب إلى تشبيهه أو ما يؤدى إليه كإجازة الرؤية أو ذهب إلى الجبر الذي هو محض الجور ، لم يكن على دين الله الذي هو الإسلام ، وهذا بين جلى كما ترى. وقرئنا مفتوحين ، على أن الثاني ^(٢) بدل من الأول ، كأنه قيل : شهد الله أن الدين عند الله الإسلام ، والبدل هو المبدل منه في المعنى ، فكان بيانا صريحا ، لأن دين الله هو التوحيد والعدل. وقرئ الأول بالكسر والثاني بالفتح ، على أن الفعل واقع على إن ^(٣) ، وما بينهما اعتراض مؤكد. وهذا أيضا شاهد على أن دين الإسلام هو العدل والتوحيد ، فترى القراءات كلها متعاضدة على ذلك. وقرأ عبد الله : أن لا إله إلا هو. وقرأ أبي : إن الدين عند الله للإسلام ، وهي مقوية لقراءة من فتح الأولى وكسر الثانية. وقرئ : شهداء الله ، بالنصب على أنه حال من المذكورين قبله ، وبالرفع على هم شهداء الله. فإن قلت : فعلام عطف على هذه القراءة ﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾؟ قلت : على الضمير في شهداء ، وجاز لوقوع الفاصل بينهما. فإن قلت : لم كرر قوله : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؟ ^(٤) قلت : ذكره أولا للدلالة على اختصاصه بالوحدانية ، وأنه لا إله إلا تلك الذات

(١) قوله «فقد آذن أن الإسلام هو العدل» تعسف لا يقتضيه النظم الكريم ، لكن دعى إليه التعصب. وقوله «وفيه أن من ذهب» الخ تورك على أهل السنة مبنى على ذلك ، وتحقيقه في علم التوحيد. وبالجملة فالعدل والتوحيد لم ينحصرا في مذهب المعتزلة. (ع)

(٢) قوله «وقرئنا مفتوحين على أن الثاني» الضمير عائد إلى قوله تعالى : ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وقوله : ﴿إِنَّ الدِّينَ﴾ اه. (ع)

(٣) قوله «واقع على إن» أى على إن الدين ... الخ. (ع)

(٤) قال محمود رحمه الله : «إن قلت ما فائدة تكرار لا إله إلا هو ... الخ»؟ قال أحمد رحمه الله : وهذا التكرار لما قدمته في نظيره مما صدر الكلام به إذا طال عهده. وذلك أن الكلام مصدر بالتوحيد ، ثم أعقب التوحيد تعداد الشاهدين به ، ثم قوله : ﴿قَانِمًا بِالْقِسْطِ﴾ وهو التنزيه ، فطال الكلام بذلك ، فجدد التوحيد تلو التنزيه ليلي قوله : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ ولو لا هذا التجديد لكان التوحيد المتقدم كالمقطع في الفهم مما أريد إيصاله به والله أعلم. قال : «وفيه أن من ذهب إلى تشبيه ... الخ». قال أحمد : هذا تعريض بخروج أهل السنة من رتبة الإسلام بل تصريح ، وما ينقم منهم إلا أن صدقوا وعد الله عباده المكرمين على لسان نبيهم الكريم صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم بأنهم يرون ربه كالقمر ليلة البدر لا يضافون في رؤيته ، ولأنهم وحدوا الله حق توحيده فشاهدوا أن لا اله إلا هو ولا خالق لهم ولأفعالهم إلا هو ، واقتصروا على أن نسبوا لأنفسهم قدرة تقارن فعلهم لا خلق لها ولا تأثير غير التمييز بين أفعالهم الاختيارية والاضطرارية ، وتلك المعبر عنها شرعا بالكسب في مثل .

المتميّزة ، ثم ذكره ثانيا بعد ما قرن بإثبات الوجدانية إثبات العدل ، للدلالة على اختصاصه بالأمرين ، كأنه قال : لا إله إلا هذا الموصوف بالصفتين ، ولذلك قرن به قوله : ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لتضمنهما معنى الوجدانية والعدل ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أهل الكتاب من اليهود والنصارى. واختلافهم أنهم تركوا الإسلام وهو التوحيد والعدل ^(١) ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أنه الحق الذي لا محيد عنه ، فثلثت النصارى ، وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالوا : كنا أحق بأن تكون النبوة فينا من قريش لأنهم أميون ونحن أهل كتاب ، وهذا تجويز لله ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أى ما كان ذلك الاختلاف وتظاهر هؤلاء بمذهب هؤلاء بمذهب إلا حسداً بينهم وطلباً منهم للرئاسة وحظوظ الدنيا ، واستتباع كل فريق ناساً يطؤون أعقابهم ، لا شبهة في الإسلام. وقيل : هو اختلافهم في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث آمن به بعض وكفر به بعض. وقيل : هو اختلافهم في الإيمان بالأنبياء ، فمنهم من آمن بموسى ، ومنهم من آمن بعبسى. وقيل هم اليهود ، واختلافهم أن موسى عليه السلام حين احتضر استودع التوراة سبعين حبراً من بنى إسرائيل ، وجعلهم أمناء عليها ، واستخلف يوشع ، فلما مضى قرن بعد قرن واختلف أبناء السبعين بعد ما جاءهم علم التوراة بغياً بينهم وتحاسداً على حظوظ الدنيا والرياسة. وقيل : هم النصارى واختلافهم في أمر عيسى بعد ما جاءهم العلم أنه عبد الله ورسوله

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٢٠)

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ فإن جادلوك في الدين ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ أى أخلصت نفسي وجملي

. قوله تعالى : ﴿فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ هذا إيمان القوم وتوحيدهم ، لا تقوم يغيرون في وجه النصوص فيجحدون الرؤية التي يظهر أن جحدهم لها سبب في حرمانهم إياها. ويجعلون أنفسهم الحسياسة شريكة لله في مخلوقاته ، فيزعمون أنهم يخلقون لأنفسهم ما شاءوا من الأفعال على خلاف مشيئة ربهم محادة ومعاندة لله في ملكه ، ثم بعد ذلك يتسترون بتسمية أنفسهم أهل العدل والتوحيد ، والله أعلم بمن اتقى. ولجبر خير من إشراك ، إن كان أهل السنة مجبرة فأنا أول المجبرين. ولو نظرت أيها الزمخشري بعين الانصاف إلى جهالة القدرية وضلالها ، لانبعثت إلى حدائق السنة وظلالها ، ولخرجت عن مزالق البدع ومزالها ، ولكن كره الله انبعاثهم ، ولعلمت أى الفريقين أحق بالأمن وأولى بالدخول في أولى العلم المقرونين في التوحيد بالملائكة المشرفين بعطفهم على اسم الله عز وجل. اللهم ألهمنا على اقتفاء السنة شكرك. ولا تؤمنا مكرك إنه لا يأمن من مكر الله إلا القوم الخاسرون ، فليس ينجى من الخوف إلا الخوف. والله ولى التوفيق.

(١) قوله «تركوا الإسلام وهو التوحيد والعدل» مبنى على ما قاله أنفا. (ع)

الله وحده لم أجعل فيها لغيره شركاً بأن أعبدوه وإلهامه معه ؛ يعنى أن ديني التوحيد وهو الدين القديم الذي ثبتت عندكم صحته كما ثبتت عندي ، وما جئت بشيء بديع حتى تجادلوني فيه. ونحوه ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ فهو دفع للمحاجة بأن ما هو عليه ومن معه من المؤمنين هو حق اليقين الذي لا لبس فيه ؛ فما معنى المحاجة فيه؟ ﴿وَمَنْ اتَّبَعَني﴾ عطف على التاء في أسلمت وحسن للفواصل. ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع فيكون مفعولاً معه ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى ﴿وَالْأُمِّيِّينَ﴾ والذين لا كتاب لهم من مشركي العرب ﴿أَسْلَمْتُمْ﴾ يعنى أنه قد أتاكم من البينات ما يوجب الإسلام ويقتضى حصوله لا محالة ؛ فهل أسلمتم أم أنتم بعد على كفركم؟ وهذا كقولك لمن لخصت له المسألة ولم تبق من طرق البيان والكشف طريقاً إلا سلكته : هل فهمتها لا أم لك ، ومنه قوله عزّ وعلا ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُوْنَ﴾ بعد ما ذكر الصوارف عن الخمر والميسر. وفي هذا الاستفهام استقصار^(١) وتعير بالمعاندة وقلة الإنصاف ، لأن المنصف إذا تجلّت له الحجة لم يتوقف إذعانه للحق ، وللمعاندة بعد تجلّى الحجة ما يضرب أسداً بينه وبين الإذعان^(٢) ، وكذلك في : هل فهمتها؟ تويخ بالبلادة وكلة القريحة. وفي : ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُوْنَ﴾ بالتقاعد عن الانتهاء والحرص الشديد على تعاطي المنهي عنه ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ فقد نفَعُوا أنفسهم حيث خرجوا من الضلال إلى الهدى ومن الظلمة إلى النور ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ لم يضروك فإنك رسول منبه عليك أن تبلغ الرسالة وتنبه على طريق الهدى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّيْنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢١) **أُولَئِكَ الَّذِينَ خِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا هُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٢٢)**

قرأ الحسن : يقتلون النبيين. وقرأ حمزة : ويقاتلون الذين يأمرؤن. وقرأ عبد الله : وقاتلوا وقرأ أبيّ. يقتلون النبيين ، والذين يأمرؤن. وهم أهل الكتاب. قتل أولوهم الأنبياء وقتلوا أتباعهم وهم راضون بما فعلوا ، وكانوا حول قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لو لا عصمة الله. وعن أبي عبيدة بن الجراح : قلت يا رسول الله ، أى الناس أشدّ عذاباً يوم القيامة؟ قال : «رجل قتل نبياً ؛ أو رجلاً أمر بمعروف ونهى عن منكر» ثم قرأها ثم قال : «يا أبا عبيدة ، قتلت

(١) قوله «وفي هذا الاستفهام استقصار» أى عد المخاطب قاصراً. (ع)

(٢) قوله «يضرب أسداً بينه وبين الإذعان» لعله أسداً ، أى حجباً. (ع)

بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا من أول النهار في ساعة واحدة ، فقام مائة واثنا عشر رجلا من عباد بنى إسرائيل فأمرؤا قتلتهم بالمعروف ونهؤهم عن المنكر فقتلوا جميعا من آخر النهار ^(١)» ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لأنّ لهم اللعنة والخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة. فإن قلت : لم دخلت الفاء في خبر إن؟ قلت : لتضمن اسمها معنى الجزاء ، كأنه قيل : الذين يكفرون فبشرهم بمعنى من يكفر فبشرهم ، و «إنّ» لا تغير معنى الابتداء «فكأنّ دخولها كلا دخول ، ولو كان مكانها «ليت» أو «لعل» لامتنع إدخال الفاء لتغير معنى الابتداء.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْنَا لَهُم لَيُّومٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٥) ﴿أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ يريد أحبار اليهود ، وأنهم حصلوا نصيبا وافرًا من التوراة. و «من» إما للتبويض وإما للبيان ، أو حصلوا من جنس الكتب المنزلة أو من اللوح التوراة وهي نصيب عظيم ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ﴾ وهو التوراة ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ وذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل مدارسهم فدعاهم فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد : على أى دين أنت؟ قال : على ملة إبراهيم. قالوا : إنّ إبراهيم كان يهوديا. قال لهما : إنّ بيننا وبينكم التوراة ، فهلّموا إليها ^(٢) فأبيا. وقيل نزلت في الرجم ، وقد اختلفوا فيه. وعن الحسن وقتادة : كتاب الله القرآن ؛ لأنهم قد علموا أنه كتاب الله لم يشكوا فيه ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ استبعاد لتوليهم بعد علمهم بأن الرجوع إلى كتاب الله واجب ﴿وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ وهم قوم لا يزال الإعراض ديدنهم. وقرئ (ليحكم) على البناء للمفعول. والوجه أن يراد ما وقع من الاختلاف والتعادي بين من أسلم من أحبارهم وبين من لم يسلم : وأنهم دعوا إلى كتاب الله الذي لا اختلاف بينهم في صحته وهو التوراة ليحكم بين الحق والمبطل منهم ، ثم يتولى فريق منهم وهم الذين لم يسلموا. وذلك أنّ قوله : ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ يقتضى أن يكون اختلافا واقعا فيما بينهم ، لا فيما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) أخرجه البزار والطبراني وابن أبي حاتم والثعلبي والبغوي من حديثه ، وفيه أبو الحسن مولى بنى أسد ، وهو مجهول.

(٢) أخرجه الطبري من رواية إسحاق عن محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما به.

﴿ذَلِكَ﴾ التولي والإعراض بسبب تسهيلهم ^(١) على أنفسهم أمر العقاب وطمعهم في الخروج من النار بعد أيام قلائل كما طمعت المجبرة والحشوية ^(٢) ﴿وَعَرَّهْمُ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من أن آباءهم هم الأنبياء يشفعون لهم كما غرت أولئك شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم في كبائرهم ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْنَا لَهُمْ﴾ فكيف يصنعون فكيف ^(٣) تكون حالهم ، وهو استعظام لما أعد لهم وتحويل لهم ، وأنهم يقعون فيما لا حيلة لهم في دفعه والمخلص منه ، وأن ما حدثوا به أنفسهم وسهلوه عليها تعلل بباطل وتطمع بما لا يكون. وروى أن أول راية ترفع لأهل الموقف من رايات الكفار راية اليهود ، فيفضحهم الله على رؤس الأشهاد ، ثم يأمر بهم إلى النار ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ يرجع إلى كل نفس على المعنى ، لأنه في معنى كل الناس كما تقول : ثلاثة أنفس ، تريد ثلاثة أناسى .

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٦) **تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴿٢٧﴾ الميم في ﴿اللَّهُمَّ﴾ عوض من يا ، ولذلك لا يجتمعان. وهذا بعض خصائص هذا الاسم كما اختص بالتاء في القسم ، وبدخول حرف النداء عليه ، وفيه لام التعريف ، وبقطع همزته في يا الله ، وبغير ذلك ﴿مَالِكِ الْمُلْكِ﴾ أى تملك جنس الملك فتتصرف فيه تصرف الملاك فيما يملكون ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ تعطى من تشاء النصيب الذي قسمت له واقتضته حكمتك من الملك ﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ النصيب الذي أعطيته منه ، فالملك الأول عام شامل ، والملكان

(١) قال محمود : ذلك التولي والاعراض بسبب طمعهم في الخروج من النار بعد أيام قلائل كما طمعت الحشوية والمجبرة وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون» قال أحمد رحمه الله : هذا أيضا تعريض بأهل السنة في اعتقادهم تفويض العفو عن كبائر المؤمن الموحد إلى مشيئة الله تعالى وإن مات مصرا عليها إيمانا بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وتصديقا بالشفاعة لأهل الكبائر وينقم عليهم ذلك حتى يجعلهم أصلا يقيس عليهم اليهود القائلين : ﴿لَنْ نَمْسَسَا النَّارَ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ﴾ فانظر اليه كيف أشحن قلبه بغضا لأهل السنة وشقاقا ، وكيف ملأ الأرض من هذه النزعات نفاقا ، فالحمد لله الذي أهل عبيده الفقير إلى التورك عليه ، لأن أخذ من أهل البدعة بثأر السنة ، فأصمى أفئدتهم من قواطع البراهين بمقومات الأسنة.

(٢) قوله «كما طمعت المجبرة والحشوية» تورك على أهل السنة ، حيث ذهبوا الى أن من دخل النار من أهل الكبائر المؤمنين يخرج بالشفاعة أو بعفو الله ، كما نطقت به الأحاديث. (ع)

(٣) قوله «فكيف تكون» لعله أو فكيف. (ع)

الآخران خاصان بعضان من الكل : روى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين افتتح مكة وعد أمته ملك فارس والروم ، فقال المنافقون واليهود : هيهات هيهات ، من أين لمحمد ملك فارس والروم؟ ^(١) هم أعز وأمنع من ذلك. وروى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خط الخندق ^(٢) عام الأحزاب وقطع لكل عشرة أربعين ذراعاً وأخذوا يحفرون ، خرج من بطن الخندق صخرة كالتل العظيم لم تعمل فيها المعاول ، فوجهوا سلمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره ، فأخذ المعول من سلمان فضربها ضربة صدّعتها «وبرق منها برق أضاء ما بين لاتبتيها ، لكأن مصباحاً في جوف بيت مظلم ، وكبر وكبر المسلمون وقال : أضاءت لي منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب ، ثم ضرب الثانية فقال : أضاءت لي منها القصور الحمر من أرض الروم ، ثم ضرب الثالثة فقال : أضاءت لي قصور صنعاء ، وأخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرة على كلها ، فأبشروا. فقال المنافقون : ألا تعجبون ، يمنيكم ويعدكم الباطل ، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم ، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا ، فنزلت. فإن قلت : كيف قال ﴿يَبْدِكَ الْخَيْرُ﴾ فذكر الخير دون الشر؟ قلت : لأنّ الكلام إنما وقع في الخير الذي يسوقه إلى المؤمنين وهو الذي أنكرته الكفرة ، فقال بيدك الخير تؤتيه أوليائك على رغم من أعدائك ، ولأن كل أفعال الله تعالى من نافع وضارّ صادر عن الحكمة والمصلحة ، فهو خير كله لإيتاء الملك ونزعه. ثم ذكر قدرته الباهرة بذكر حال الليل والنهار في المعاقبة بينهما ، وحال الحيّ والميت في إخراج أحدهما من الآخر ، وعطف عليه رزقه بغير حساب على أنّ من قدر على تلك الأفعال العظيمة المحيرة للأفهام ثم قدر أن يرزق بغير حساب من يشاء من عباده ، فهو قادر على أن ينزع الملك من العجم ويذلهم ويؤتيه العرب ويعزهم وفي بعض الكتب : أنا الله ملك الملوك ، قلوب الملوك ونواصيهم بيدي ، فإن العباد أطاعوني جعلتهم لهم رحمة ، وإن العباد عصوني جعلتهم عليهم عقوبة ، فلا تشتغلوا بسب الملوك ولكن

(١) ذكره الواحدي في أسبابه عن ابن عباس وأنس رضي الله عنهم ، ولم أجد له إسناداً.

(٢) أخرجه البيهقي. وأبو نعيم في دلائل النبوة لهما ؛ من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده. قال «خط رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق عام الأحزاب ، ثم قطع أربعين ذراعاً بين كل عشرة» قال عمرو بن عوف ، فكنت أنا وسليمان وحذيفة والنعمان بن مقرن وستة نفر من الأنصار في أربعين ذراعاً فذكره مطولاً من هذا الوجه. ذكره الواحدي في أسباب النزول والطبري والتعليقي والبغوي. ورواه ابن سعد في الطبقات في ترجمة سلمان. قال : أخبرنا ابن أبي فديك عن كثير بن عبد الله به. وقال الواقدي في المغازي : حدثني عاصم ابن عبد الله الحكمي عن عمر بن الحكم قال «كان عمر بن الخطاب يومئذ يضرب بالمعول ، إذ صادف حجراً أصلد فضرب ضربة. فذكره بنحوه» ورواه النسائي وأحمد وإسحاق وابن أبي شيبه وأبو يعلى كلهم من رواية ميمون أبي عبد الله عن البراء بن عازب رضي الله عنهما مختصراً وإسناده حسن.

توبوا إلى أعطفهم عليكم» وهو معنى قوله عليه السلام «كما تكونوا يولى عليكم»^(١).

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (٢٨)

نحو أن يوالوا الكافرين لقراية بينهم أو صداقة قبل الإسلام أو غير ذلك من الأسباب التي يتصادق بها ويتعاشر ، وقد كرر ذلك في القرآن. ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّكُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ ، ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ ، ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ ... الآية. والمحبة في الله والبغض في الله باب عظيم وأصل من أصول الإيمان ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعنى أن لكم في موالاة المؤمنين مندوحة عن موالاة الكافرين فلا تؤثرهم عليهم ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ ومن يوالى الكفرة فليس من ولاية الله في شيء يقع عليه اسم الولاية ، يعنى أنه منسلخ من ولاية الله رأساً ، وهذا أمر معقول فإن موالاة الولي وموالاة عدوه متنافيان ، قال :

تَوَدُّ عَاوِدُوى ثُمَّ تَزْعُمُ أَنَّى صَدِيقُكَ لَيْسَ النَّوْكَ عَنْكَ بِعَازِبٍ^(٢)

﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ إلا أن تحافوا من جهتهم أمراً يجب اتقاؤه. وقرئ : تقية. قيل للمتقى تقاة وتقية ، كقولهم : ضرب الأمير لمضروبه. رخص لهم في موالاتهم إذا خافوهم ، والمراد بتلك الموالاة مخالفة ومعاشرة ظاهرة والقلب مطمئن بالعداوة والبغضاء ، وانتظار زوال المانع من قشر العصا ، كقول عيسى صلوات الله عليه «كن وسطا وامش جانباً» ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ فلا تتعرضوا لسخطه بموالاة أعدائه ، وهذا وعيد شديد. ويجوز أن يضمن ﴿تَتَّقُوا﴾ معنى تحذروا وتحافوا ، فيعدى بمن وينتصب ﴿تُقَاةً﴾ أو تقية على المصدر ، كقوله تعالى : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾.

(١) رواه القضاعي في مسند الشهاب من رواية المبارك بن فضالة عن الحسن عن أبي بكرة ، وفي إسناده إلى مبارك مجاهيل.

(٢) تَوَدُّ عَاوِدُوى ثُمَّ تَزْعُمُ أَنَّى صَدِيقُكَ لَيْسَ النَّوْكَ عَنْكَ بِعَازِبٍ
فلَيْسَ أَخْصى مَدْنى رَأى عَيْنَه وَلَكِنْ أَخْصى مَدْنى رَأى عَيْنَه
النوك : الحمق. والعازب : البعيد. يقول : إن الصديق من لا يصادق بغيب صدقه ، ومن يراعى الأخوة بظهر الغيب ، لا يرى العين. ويجوز أن تود على تقدير الاستفهام التوبيخي ، وأبرزه في صورة الخبر للتشنيع. ورأى عينه : نصب على الظرف أى حين رأى عينه : والمغايب : أزمان العياب.

﴿قُلْ إِنْ تُخَفُّوْا مَا فِي صُدُوْرِكُمْ أَوْ تُبْدُوْهُ يَعْلَمُهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾ (٢٩)

﴿إِنْ تُخَفُّوْا مَا فِي صُدُوْرِكُمْ أَوْ تُبْدُوْهُ﴾ من ولاية الكفار أو غيرها مما لا يرضى الله ﴿يَعْلَمُهُ﴾ ولم يخف عليه وهو الذي ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ لا يخفى عليه منه شيء قط ، فلا يخفى عليه سرهم وعلنكم ﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾ فهو قادر على عقوبتكم. وهذا بيان لقوله ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ لأن نفسه وهي ذاته المميزة من سائر الذوات ، متصفة بعلم ذاتي لا يختص بمعلوم دون معلوم ، فهي متعلقة بالمعلومات كلها وبقدرة ذاتية لا تختص بمقدور دون مقدور ، فهي قادرة على المقدورات كلها ، فكان حقها أن تحذر وتتقى فلا يجسر أحد على قبيح ولا يقصر عن واجب ، فإن ذلك مطلع عليه لا محالة فلا حق به العقاب ، ولو علم بعض عبید السلطان أنه أراد الاطلاع على أحواله ، فوكل همه بما يورد ويصدر ، ونصب عليه عيوننا ، وبث من يتجسس عن بواطن أموره : لأخذ حذره وتيقظ في أمره ، واتقى كل ما يتوقع فيه الاسترابة به ، فما بال من علم أن العالم الذات ^(١) الذي يعلم السر وأخفى مهيمن عليه وهو آمن. اللهم إنا نعوذ بك من اغترارنا بسترِكَ.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٣٠)

﴿يَوْمَ تَجِدُ﴾ منصوب بتوّد. والضمير في بينه لليوم ، أى يوم القيامة حين تجد كل نفس خيرها وشرها حاضرين ، تمنى لو أن بينها وبين ذلك اليوم وهو له أمدًا بعيدًا. ويجوز أن ينتصب ﴿يَوْمَ تَجِدُ﴾ بمضمّر نحو : اذكر ، ويقع على ما عملت وحده ^(٢) ، ويرتفع ﴿وَمَا عَمِلْتَ﴾ على على الابتداء ، و ﴿تَوَدُّ﴾ خبره ، أى : والذي عملته من سوء توّد هي لو تباعد ما بينها وبينه. ولا يصح أن تكون ما شرطية لارتفاع توّد. فإن قلت : فهل يصح أن تكون شرطية على قراءة عبد الله ودّت؟ قلت : لا كلام في صحته ، ولكن الحمل على الابتداء والخبر أوقع في المعنى لأنه حكاية الكائن في ذلك اليوم وأثبت لموافقة قراءة العامة. ويجوز أن يعطف ﴿وَمَا عَمِلْتَ﴾ على : ﴿مَا عَمِلْتَ﴾ ويكون ﴿تَوَدُّ﴾ حالا ، أى يوم تجد عملها محضراً وادّة تباعد ما بينها وبين اليوم

(١) قوله «فما بال من علم أن العالم الذات» من اضافة الوصف الى مرفوعه كالحسن الوجه ، يعنى أن علمه بذاته ، لا يعلم زائد على ذاته كعلم الحوادث ، وهذا عند المعتزلة. (ع)

(٢) قوله «ويقع على ما عملت وحده» أى يقع فعل الوجدان على ما عملت من خير وحده. (ع)

أو عمل السوء محضراً ، كقوله تعالى : ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ يعنى مكتوبا في صحفهم يقرءونه ونحوه ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَخْصَاةُ اللَّهِ وَسَوْءُ﴾ .
والأمد المسافة كقوله تعالى : ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ وكرر قوله ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ ليكون على بال منهم لا يغفلون عنه ﴿وَاللَّهُ رُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ يعنى أن تحذيره نفسه وتعريفه حالها من العلم والقدرة من الرأفة العظيمة بالعباد لأنهم إذا عرفوه حق المعرفة وحذروه دعاهم ذلك إلى طلب رضاه واجتناب سخطه. وعن الحسن من رأفته بهم أن حذرهم نفسه. ويجوز أن يريد أنه مع كونه محذورا لعلمه وقدرته ، مرجو لسعة رحمته كقوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ .

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٢)

محبة العباد لله مجاز عن إرادة نفوسهم اختصاصه بالعبادة دون غيره ورغبتهم فيها. ومحبة الله عباده أن يرضى عنهم ويحمد فعلهم. والمعنى : إن كنتم مريدين لعبادة الله على الحقيقة ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ حتى يصح ما تدعونه من إرادة عبادته ، يرض عنكم ويغفر لكم. وعن الحسن : زعم أقوام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يحبون الله فأراد أن يجعل لقولهم تصديقا من عمل ، فمن ادعى محبته وخالف سنة رسوله فهو كذاب وكتاب الله يكذبه. وإذا رأيت من يذكر محبة الله ويصفق بيديه مع ذكرها ويطرب وينعر ويصعق ^(١) فلا تشك في أنه لا يعرف ما الله ولا يدرى ما محبة الله. وما تصفيقه وطربه ونعرتة وصعقته إلا أنه تصوّر في نفسه الخبيثة صورة مستملحة معشقة فسامها الله بجهله ودعارته ، ثم صفق وطرب ونعر وصعق على تصوّرها ، وربما رأيت المنيّ قد ملأ إزار ذلك الحب عند صعقته ، وحمقى العامة على حواليه قد ملؤوا أدرانهم بالدموع لما رفقهم من حاله. وقرئ : تحبون. ويحبكم. ويحبكم ، من حبه يحبه. قال :

أَحَبُّ أَبَا ثَرْوَانَ مِنْ حُبِّ تَمْرِهِ وَأَعْلَى أُنْ الرِّفْقِ بِالْجَارِ أَزْفَى
وَوَاللَّهِ لَا تَمْرُهُ مَا حَبَبْتُهُ وَلَا كَانَ أَدْنَى مِنْ عُيَيْدٍ وَمُشْرِقٍ ^(٢)

(١) قوله «وينعر ويصعق» في الصحاح : النعرة صوت في الخيشوم. ويقال : ما كانت فتنة إلا نعر فيها فلان ، أى نهض. (ع)

(٢) لغيلان بن شجاع النهشلي. يقول : أحب هذا الرجل من أجل حب تمره. ويروى : أبا مروان ، وأعلم أن الرفق بالجار .

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يحتمل أن يكون ماضياً ، وأن يكون مضارعاً بمعنى : فإن تتولوا ، ويدخل في جملة ما يقول الرسول لهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٧)

﴿آلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ إسماعيل وإسحاق وأولادهما. و ﴿آلَ عِمْرَانَ﴾ موسى وهرون ^(١) ابنا عمران ابن يصهر. وقيل عيسى ومريم بنت عمران بن ماثان ، وبين العمرانين ألف وثمانمائة سنة. و ﴿ذُرِّيَّةً﴾ بدل من آل إبراهيم وآل عمران ﴿بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ يعنى أنَّ الآلين ذرية واحدة متسلسلة بعضها متشعب من بعض : موسى وهرون من عمران ، وعمران من يصهر ، ويصهر من فاهث ، وفاهث من لاوى ، ولاوى من يعقوب ، ويعقوب من إسحاق. وكذلك عيسى ابن مريم

. أرفق منه بغيره ، أى أشد رفقاً ، وأسند الرفق إلى نفسه مبالغة كجد جده. ويجوز أن المعنى أن الرفق بالجار أحق أو أكمل منه بغيره. وأما لو قرئ «أوفق» بالواو فظاهر. وفيه استعطاف لأبي مروان ، وطلب الرفق منه بالشاعر. واللغة الغالبة أحب الرباعي. وحبه يحبه بكسر فاء المضارع من باب ضرب نادر من جهة مجيئه ثلاثياً ومن جهة كسر فاء مضارعه. وقياس مضارع الثلاثي المضاعف المتعدي ضم فائه كيشد ويرد. وقد يجيء حب يحب من باب علم يعلم. ولا كان أدنى ، أى أقرب إلى من عبيد ومشرق ، وهما ابناه. وفي القافية الاقواء. وروى أبو العباس المبرد بدل الشطر الأخير : وكان عياض منه أدنى ومشرق ، أى أقرب إلى من أبي مروان. وعليه فلا إقواء فيها.

(١) قال محمود رحمه الله «آل عمران موسى وهرون ... الخ» قال أحمد رحمه الله : ومما يرجح هذا القول الثاني أن السورة تسمى آل عمران ولم تشرح قصة عيسى ومريم في سورة أبسط من شرحها في هذه السورة. وأما موسى وهارون فلم يذكر قصتهما في هذه السورة ، فدل ذلك على أن عمران المذكور هاهنا هو أبو مريم والله أعلم.

بنت عمران بن ماثان بن سليمان بن داود ^(١) بن ايشا بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق. وقد دخل في آل إبراهيم رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقيل بعضها من بعض في الدين ، كقوله تعالى ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعلم من يصلح للاصطفاء ، أو يعلم أنّ بعضهم من بعض في الدين. أو سميع عليم لقول امرأة عمران ونيتها. و ﴿إِذْ﴾ منصوب به. وقيل : بإضمار اذكر. وامرأة عمران هي امرأة عمران بن ماثان ، أمّ مريم البتول ، جدّة عيسى عليه السلام ، وهي حنة بنت فاقوذ. وقوله ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ على أثر قوله : ﴿وَالْأَلْ عِمْرَانُ﴾ مما يرجح أنّ عمران هو عمران بن ماثان جدّ عيسى ، والقول الآخر يرجحه أن موسى يقرب إبراهيم كثيراً في الذكر. فإن قلت : كانت لعمران بن يصهر بنت اسمها مريم أكبر من موسى وهرون ، ولعمران بن ماثان مريم البتول ، فما أدراك أن عمران هذا هو أبو مريم البتول دون عمران أبي مريم التي هي أخت موسى وهرون؟ قلت : كفى بكفالة زكريا دليلاً على أنه عمران أبو البتول ، لأن زكريا بن آذن وعمران بن ماثان كانا في عصر واحد ، وقد تزوّج زكريا بنته إيشاع أخت مريم فكان يحى وعيسى ابني خالة. روى أنها كانت عاقراً لم تلد إلى أن عجزت ، فبينما هي في ظل شجرة بصرت بطائر يطعم فرخاً له فتحركت نفسها للولد وتمنته ، فقالت : اللهم إن لك عليّ نذراً شكرياً إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سدنته وخدمه ، فحملت بمريم وهلك عمران وهي حامل ﴿مُحَرَّرًا﴾ معتقاً لخدمة بيت المقدس لا يد لي عليه ولا أستخدامه ولا أشغله بشيء ، وكان هذا النوع من النذر مشروعاً عندهم. وروى أنهم كانوا يندرون هذا النذر ، فإذا بلغ الغلام خير بين أن يفعل وبين أن لا يفعل. وعن الشعبي ﴿مُحَرَّرًا﴾ مخلصاً للعبادة ، وما كان التحرير إلا للغلمان ، وإنما بنت الأمر على التقدير ، أو طلبت أن ترزق ذكراً ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ الضمير لما في بطني ^(٢) ، وإنما أنث على المعنى لأن ما في بطنها كان أنثى في علم الله ، أو على تأويل الحبله أو النفس أو النسمة. فإن قلت : كيف جاز انتصاب ﴿أُنْثَى﴾ حالاً من الضمير في وضعتها وهو كقولك وضعت الأنثى أنثى؟ قلت : الأصل : وضعت أنثى ، وإنما أنث لتأنيث الحال ؛ لأن الحال وذا الحال لشيء واحد ، كما أنث الاسم في ما كانت أمك لتأنيث الخبر. ونظيره قوله تعالى : ﴿فَإِنْ كَانَتْ أَنْثَى﴾ وأما على تأويل الحبله أو النسمة فهو ظاهر ، كأنه قيل : إني وضعت الحبله أو النسمة

(١) قوله «ابن ماثان بن سليمان بن داود» قوله : ابن سليمان ، أى من نسله. وقوله : ابن يهوذا ، أى من نسله ، كما صرح به الفخر الرازي. وذكر أبو السعود بين ماثان وسليمان نحو خمسة عشر جداً ، وبين إيشا ويهوذا تسعة جدود. (ع)

(٢) قال محمود : «الضمير عائد إلى ما في بطني ... الخ» قال أحمد : الضمير في قوله «وضعتها» يتناول إذا ما نسب إليها الوضع والأنوثة ، فالحال واقعة عليها من حيث الجهة العامة وتلك الجهة كونها شيئاً وضع لا لخصوص نسبة الأنوثة إليها. وقد مر هذا البحث بعينه عند قوله تعالى : ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَجُلًا﴾.

أنثى. فإن قلت : فلم قالت : إني وضعتها أنثى وما أردت إلى هذا القول؟ قلت : قالته تحسراً^(١) على ما رأت من خيبة رجائها وعكس تقديرها ، فتحزنت إلى رها لأنها كانت ترجو وتقدر أن تلد ذكراً ، ولذلك نذرته محرراً للسدانة. ولتكلمها بذلك على وجه التحسر والتحزن قال الله تعالى ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ تعظيماً لموضوعها وتجهيلاً لها بقدر ما وهب لها منه. ومعناه : والله أعلم بالشيء الذي وضعت وما علق به من عظام الأمور ، وأن يجعله وولده آية للعالمين وهي جاهلة بذلك لا تعلم منه شيئاً ، فلذلك تحسرت. وفي قراءة ابن عباس : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ على خطاب الله تعالى لها أى أنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب وما علم الله من عظم شأنه وعلو قدره. وقرئ : وضعت. بمعنى : ولعلّ الله تعالى فيه سرّاً وحكمة ، ولعلّ هذه الأنثى خير من الذكر تسليّة لنفسها. فإن قلت : فما معنى قوله ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾؟ قلت : هو بيان لما في قوله : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ من التعظيم للموضوع والرفع منه ، ومعناه : وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت لها ، واللام فيهما للعهد. فإن قلت : علام عطف قوله ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾؟ قلت : هو عطف على إني وضعتها أنثى ، وما بينهما جملتان معترضتان ، كقوله تعالى : وإنه لقسم لو تعلمون عظيم. فإن قلت : فلم ذكرت تسميتها مريم لربها؟ قلت : لأن مريم في لغتهم بمعنى العابدة^(٢) ، فأردت بذلك التقرب والطلب إليه أن يعصمها حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها ، وأن يصدق فيها ظنها بها. ألا ترى كيف أتبعته طلب الإعادة لها ولولدها من الشيطان وإغوائه. وما يروى من الحديث «ما من مولود يولد

(١) (عاد كلامه) قال : «وإنما أردت بقولها : وضعتها أنثى التحسر والتأسف ... الخ» قال أحمد : هذا التأويل على أنه من كلام الله تعالى لا حكاية عنها. وقد ذكر أهل التفسير تأويلاً آخر ، وهو أن يكون هذا القول قولها حكاه الله تعالى عنها ، أعنى قوله : ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ ويرشد إليه عطف كلامها عليه وهو قوله : ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ...﴾ الخ ويوردون على هذا الوجه أن قياس كونه من قولها أن يكون : وليست الأنثى كالذكر ، فان مقصودها تنقيص الأنثى بالنسبة إلى الذكر ، والعادة في مثله أن ينفي عن الناقص شبهه بالكمال لا العكس ، وقد وجد الأمر في ذلك مختلفاً فلم يثبت لي عين ما قالوه. ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ فنفي عن الكمال شبه الناقص ، مع أن الكمال لأزواج النبي عليه الصلاة والسلام ثابت بالنسبة إلى عموم النساء. وعلى ذلك جاءت عبارة امرأة عمران والله أعلم. ومنه أيضاً ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾.

(٢) (عاد كلامه) قال : «وفائدة قولها ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ أن مريم في لغتهم العابدة ... الخ» قال أحمد : أما الحديث فمذكور في الصحاح متفق على صحته ، فلا محيص له إذا عن تعطيل كلامه عليه السلام بتحمله ما لا يحتمله جنوحاً إلى اعتزال منتزع في فلسفة منتزع في إلحاد ظلمات بعضها فوق بعض. وقد قدمت عند قوله تعالى : ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ ما فيه كفاية ، وما أرى الشيطان إلا طعن في خواصر القدرية حتى بقرها ، ووكر في قلوبهم حتى حمل الزمخشري وأمثاله أن يقول في كتاب الله تعالى وكلام رسوله عليه السلام بما يتخيل ، كما قال في هذا الحديث ، ثم نظره بتخييل ابن الرومي في شعره ، جراءة وسوء أدب. ولو كان معنى ما قاله صحيحاً لكانت هذه العبارة واجبا أن تجتنب ، ولو كان الصراخ غير واقع من المولود لأمكن على بعد أن يكون تمثيلاً. وما هو واقع مشاهد فلا وجه لحملة على التخييل إلا الاعتقاد الضئيل وارتكاب الهوى الوبيل.

إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهلّ صارخاً من مس الشيطان إياه ، إلا مريم وابنها» ^(١) فالله أعلم بصحته. فإن صح فمعناه أن كل مولود يطمع الشيطان في إغوائه إلا مريم وابنها ، فإنهما كانا معصومين ، وكذلك كل من كان في صفتهم كقوله تعالى : ﴿لَا غُورَ لَهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ واستهلاله صارخاً من مسه تخيل وتصوير لطمعه فيه ، كأنه يمسه ويضرب بيده عليه ويقول : هذا ممن أغويه ، ونحوه من التخييل قول ابن الرومي :

لَمَّا تُؤْذَنُ الدُّنْيَا بِـهِ مِنْ صُرُوفِهَا يَكُونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةً يُؤَلَّدُ ^(٢)

وأما حقيقة المس والنخس كما يتوهم أهل الحشو فكلا ، ولو سلط إبليس على الناس ينخسهم لامتألت الدنيا صراخا وعياطاً مما يبلوننا به من نخسه ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾ فرضي بها في النذر مكان الذكر ﴿بِقَبُولِ حَسَنِ﴾ فيه وجهان : أحدهما أن يكون القبول اسم ما تقبل به الشيء كالسقوط والدود ، لما يسقط به ويلد ، وهو اختصاصه لها بإقامتها مقام الذكر في النذر ، ولم يقبل قبلها أنثى في ذلك ، أو بأن تسلمها من أمها عقيب الولادة قبل أن تنشأ وتصلح للسدانة. وروى أن حنة حين ولدت مريم ، لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ، ووضعتها عند الأحبار أبناء هرون ، وهم في بيت المقدس كالحجبة في الكعبة ، فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم ، وكانت بنو ماثان رعوس بنى إسرائيل وأخبارهم وملوكهم ، فقال لهم زكريا : أنا أحق بها ، عندي خالتها ^(٣). فقالوا : لا حتى نقترع عليها ، فانطلقوا. وكانوا سبعة وعشرين. إلى نحر ، فألقوا فيه أقلامهم ، فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت أقلامهم ، فتكفلها. والثاني : أن يكون مصدراً على تقدير حذف المضاف بمعنى : فتقبلها بذی قبول حسن ،

(١) قال المصنف : الله أعلم بصحته هكذا قال. والحديث في الصحيحين من حديث أبي هريرة في آخره : قال أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم : ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

(٢) لَمَّا تُؤْذَنُ الدُّنْيَا بِـهِ مِنْ صُرُوفِهَا يَكُونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةً يُؤَلَّدُ
وإلا فمما ييكبه منه وإخفاها لأفسح مماكن فيفه وأرغده
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه بما سوف يلقى من أذاها يهدد

لابن الرومي ، يقول : إن بكاء الطفل حين ولادته لأجل ما تشعر به الدنيا من حوادثها فقط ، وإن لا يكن بكاؤه لذلك ، فأى شيء منها ييكبه ، أو فأى شيء ييكبه منها ، وإخفا أى الدنيا. وروى : وإنه ، أى الطفل لأفسح موضعاً مما كان فيه من ضيق الرحم وأرغد منه. وعوده على ما ييكبه بعيد ، أو غير سديد. ويجوز أنه عائد على فضاء الدنيا المعلوم من المقام ، ثم قال : إذا أبصرها صرخ ، كأنه يخوف بما سوف يناله من أذاها قبل حصوله.

(٣) قوله «أنا أحق بها عندي خالتها» قوله خالتها : يعنى زوجته إيشاع أخت حنة لكن تقدم أنها أخت مريم وقال صلى الله عليه وسلم في يحيى وعيسى هما ابنا خالة وفي أبى السعود قيل في تأويل ذلك أن الأخت كثيراً ما تطلق على بنت الأخت فجرى الحديث على ذلك وقيل إن إيشاع أخت حنة من الأم وأخت مريم من الأب بأن نكح عمران أم حنة فولدت إيشاع ثم نكح حنة ربيته فولدت مريم بناء على حل نكاح الرائب عندهم. (ع)

أى بأمر ذى قبول حسن وهو الاختصاص. ويجوز أن يكون معنى (فتقبلها) فاستقبلها ، كقولك : تعجله بمعنى استعجله ، وتقصاه بمعنى استقصاه ، وهو كثير في كلامهم ، من استقبال الأمر إذا أخذه بأوله وعنفوانه. قال القطامي :

وَحَسْبُ الْأَمْرِ مَا اسْتَقْبَلَتْ مِنْهُ وَلَيْسَ بِأَنْ تَتَّبَعُهُ أَتْبَاءُ (١)

ومنه المثل «خذ الأمر بقوابله» أى فأخذها في أول أمرها حين ولدت بقبول حسن ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ مجاز عن التربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها في جميع أحوالها. وقرئ : وكفلها زكرياء ، بوزن وعملها ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ بتشديد الفاء ونصب زكرياء ، (٢) الفعل لله تعالى بمعنى : وضمها إليه وجعله كافلا لها وضامناً لمصالحها. ويؤيدها قراءة أبي : وأكفلها ، من قوله تعالى ﴿فَقَالَ أَكْفُلْنِيهَا﴾ وقرأ مجاهد : فتقبلها ربها ، وأنبتها ، وكفلها ، على لفظ الأمر في الأفعال الثلاثة ، ونصب ربها ، تدعو بذلك ، أى فاقبلها يا ربها وربها ، واجعل زكريا كافلا لها. قيل بنى لها زكريا محرابا في المسجد ، أى غرفة يصعد إليها بسلم. وقيل المحراب أشرف المجالس ومقدمها ، كأنها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس. وقيل : كانت مساجدهم تسمى المحاريب. وروى أنه كان لا يدخل عليها إلا هو وحده ، وكان إذا خرج غلق عليها سبعة أبواب ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ كان رزقها ينزل عليها من الجنة ولم ترضع ثديا قط ، فكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء ﴿أَنَّى لَكَ هَذَا﴾ من أين لك هذا الرزق الذي لا يشبه أرزاق الدنيا وهو آت في غير حينه والأبواب مغلقة عليك لا سبيل للدخل به إليك؟ ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فلا تستبعد. قيل تكلمت وهي صغيرة كما تكلم عيسى وهو في المهد. وعن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه جاع في زمن قحط (٣) فأهدت له فاطمة رضى الله عنها رغيفين وبضعة لحم أثرته بها ، فرجع بها إليها وقال : هلمى يا بنية فكشفت عن الطبق فإذا هو مملوء خبزاً ولحماً ، فبهتت وعلمت أنها نزلت من عند الله ، فقال لها صلى الله عليه وسلم : أنى لك هذا؟ فقالت : هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب. فقال عليه الصلاة والسلام : الحمد لله الذي

(١) يقول : خير الأمور هو الذي تستقبله وتنتظره فتأخذه أول إتيانه ، وليس خبرها ما تصبر عنه حتى يفوتك ويمضى ثم تتبعه وتذهب وراءه لتدركه ، فالباء زائدة في خبر ليس ، وهو على تقدير مضاف ، أى ذى التتبع. وتتبعه : أصله تتبعه حذف منه تاء المضارعة أو تاء التفعّل أو التاء التي هي فاء الفعل وهو أولاها ، لأن كل من الأوليين جاء لمعنى. وقال الجوهري : وضع الاتباع موضع التتبع اه ، فهو اسم مصدر ، أو مصدر حذف منه بعض الزوائد ، والتفعّل أبلغ من الافتعال ، فيتعين إرادته هنا لأنه مؤكد.

(٢) قوله «ونصب زكريا الفعل لله تعالى» لعله والفعل. (ع)

(٣) رواه أبو يعلى من حديث جابر ، وهو من رواية ابن لهيعة عن ابن المنكدر عنه. والمتن ظاهر النكارة.

جعلك شبيهة سيدة نساء بنى إسرائيل ، ثم جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب والحسن والحسين وجميع أهل بيته ، فأكلوا عليه حتى شبعوا وبقي الطعام كما هو ، فأوسعت فاطمة على جيرانها. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ﴾ من جملة كلام مريم عليها السلام ، أو من كلام رب العزة عزّ من قائل ﴿بَغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير لكثرتة ، أو تفضلاً بغير محاسبة ومجازاة على عمل بحسب الاستحقاق.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَتَى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا زَمْزَاءً وَادُّكْرًا وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤١)

﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم في المحراب أو في ذلك الوقت ، فقد يستعار هنا ^(١) وثم وحيث للزمان. لما رأى حال مريم في كرامتها على الله ومنزلتها ، رغب في أن يكون له من ايشاع ولد مثل ولد أختها حنة في النجابة والكرامة على الله ، وإن كانت عاقراً عجوزاً فقد كانت أختها كذلك. وقيل لما رأى الفاكهة في غير وقتها انتبه على جواز ولادة العاقر ﴿ذُرِّيَّةً﴾ ولداً. والذرية يقع على الواحد والجمع ﴿سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ مجيبه. قرئ : فناده الملائكة. وقيل : ناداه جبريل عليه السلام ، وإنما قيل الملائكة على قولهم : فلان يركب الخيل ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾ بالفتح على بأن الله ، وبالكسر على إرادة القول. أو لأن النداء نوع من القول. وقرئ : يبشرك ، ويبشرك ، من بشره وأبشره. ويبشرك ^(٢) ، بفتح الياء من بشره. ويحيى إن كان أعجماً وهو الظاهر فمنع صرفه للتعريف والعجمة كموسى وعيسى ، وإن كان عربياً فللتعريف

(١) قال محمود : فقد يستعار هنا وثم وحيث للزمان ... الخ» قال أحمد : لا يليق بالنبي أن يقف علمه بجواز ولادة العاقر على مشاهدة مثله ، فان العقل يقضى بجواز ذلك في قدرة الله تعالى وإن لم يقع نظيره. وأحسن من هذه العبارة وأسلم أن يقال : لما شاهد وقوع هذا الحادث كرامة لمريم امتد أملها إلى حادث يناسبه كرامة له ، والله أعلم.

(٢) قوله «وبيشرك» لعل هذه بدون ضمير الخطاب ، وإن كانت السابقة من بشره بفتح الباء أيضاً. (ع)

ووزن الفعل كيتمر ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ مصدقا بعيسى مؤمناً به. قيل هو أول من آمن به ، وسمى عيسى «كلمة» لأنه لم يوجد إلا بكلمة الله وحدها ، وهي قوله : ﴿كُنْ﴾ من غير سبب آخر. وقيل : مصدقا بكلمة من الله ، مؤمناً بكتاب منه. وسمى الكتاب كلمة ، كما قيل كلمة الحويدرة لقصيدته. والسيد : الذي يسود قومه ، أى يفوقهم في الشرف. وكان يحيى فائقا لقومه وفائقا للناس كلهم في أنه لم يركب سيئة قط ، ويا لها من سيادة. والحصور : الذي لا يقرب النساء حصراً لنفسه أى منعاً لها من الشهوات. وقيل هو الذي لا يدخل مع القوم في الميسر. قال الأخطل :

وَشَّارِبٍ مُّـرِيحٍ بِالْكُـأْسِ نَادِمٌ نِّى لَا بِالْخُصْـوَرِ وَلَا فِيهِـا بِسَـتَّارٍ ^(١)

فاستعير لمن لا يدخل في اللعب واللهو. وقد روى أنه مرّ وهو طفل بصبيان فدعوه إلى اللعب فقال : ما للعب خلقت ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ناشئاً من الصالحين ، لأنه كان من أصلاب الأنبياء ، أو كائناً من جملة الصالحين كقوله : ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾. ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ استبعاد من حيث العادة كما قالت مريم ﴿وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ﴾ كقولهم : أدركته السنّ العالية. والمعنى أثر فيّ الكبر فأضعفنى ، وكانت له تسع وتسعون سنة ، ولامرأته ثمان وتسعون ﴿كَذَلِكَ﴾ أى يفعل الله ما يشاء من الأفعال العجيبة مثل ذلك الفعل ، وهو خلق الولد بين الشيخ الفاني والعجوز العاقر ، أو كذلك الله مبتدأ وخبر ، أى على نحو هذه الصفة الله ، ويفعل ما يشاء بيان له ، أى يفعل ما يريد من الأفاعيل الخارقة للعادات ﴿آيَةً﴾ علامة أعرف بها الجبل لأتلقى النعمة إذا جاءت بالشكر ﴿قَالَ آيَتُكَ إِلَّا﴾ تقدر على تكليم الناس ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ وإنما خص تكليم الناس ليعلمه أنه يحبس لسانه عن القدرة على تكليمهم خاصة ، مع إبقاء قدرته على التكلم بذكر الله ، ولذلك قال : ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعُشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ يعنى في أيام عجزك عن تكليم الناس ، وهي من الآيات الباهرة. فإن قلت : لم حبس لسانه عن كلام الناس؟ قلت : ليخلص المدّة لذكر الله لا يشتغل لسانه بغيره ، توفراً منه على قضاء حق تلك النعمة الجسيمة ،

(١) للأخطل ، يقول : رب شارب مشتر للخمر بالثمن الربيح الزائد ، نادمى بالكأس. ويجوز تعلقه بما قبله ، ليس حصوراً مانعاً نفسه من الدخول على القوم في لعب الميسر ، ولا سآر على صيغة «فعال» للمبالغة ، أى مبقياً في الكأس سؤراً ، أى بقية ، من أسأر إذا أبقي ، وهو شاذ كجبار من أجبر. ويروى بسوار من السورة وهي الوثبة والعريضة ، ففي سببية ، أى ولا متغير العقل بسببها ، ولا عاطفة على مريح ، والثانية توكيد ، والباء زائدة بعد كل ، ونادمى خبر ، فيجوز الرجوع إلى الوصف بعد الاخبار.

وشكرها الذي طلب الآية من أجله ، كأنه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له : آيتك أن تحبس لسانك ^(١) إلا عن الشكر. وأحسن الجواب وأوقعه ما كان مشتقا من السؤال. ومنتزعا منه ﴿إِلَّا رَمَزًا﴾ إلا إشارة بيد أو رأس أو غيرها وأصله التحرك. يقال ارتمز : إذا تحرك. ومنه قيل للبحر الراموز. وقرأ يحيى بن وثاب (إلا رمزا) بضمين ، جمع رموز كرسول ورسول. وقرئ (رمزا) بفتحين جمع رامز كخادم وخدم ، وهو حال منه ومن الناس دفعة كقوله :

مَــئِي تَلَقَّــنِي فَرَدَّيْنِ تَرْجُفُ رَوَانِ فُ أَلَيْتَيْــكَ وَتُسْــ تَطَارًا ^(٢)

بمعنى إلا مترامزين ، كما يكلم الناس الأخرس بالإشارة ويكلمهم. والعشئ : من حين تزول الشمس إلى أن تغيب. و ﴿إِلْبَكَارٍ﴾ من طلوع الفجر إلى وقت الضحى. وقرئ : والأبكار ، بفتح الهمزة جمع بكر ، كسحر وأسحار. يقال : أتيته بكراً بفتححتين. فإن قلت : الرمز ليس من جنس الكلام ؛ فكيف استثنى منه؟ قلت : لما أدى مؤدى الكلام وفهم منه ما يفهم منه سمي كلاما ويجوز أن يكون استثناء منقطعا.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (٤٣)

﴿يَا مَرْيَمُ﴾ روى أنهم كلوها شفاها معجزة لذكريا أو إرهابا لنبوة عيسى ﴿اصْطَفَاكِ﴾

(١) قوله «أن تحبس لسانك» لعله : يحبس. (ع)

(٢) أحـ ولى تـ نفض اسـ تك مـ ذرويهـا لتقتلـ ني فهـ أنا ذا عمـ ارا

مـ تى مـا تلـقـ ني فـردين تـرجـ فـ روانـ فـ أليتـ ك وتـ تطارا

وسـ يفي صـ ارم قبضـ ت عليـه أصـ ابع لا تـ رى فيهـا انتـ ارا

لعترة يخاطب عمارة بن زياد العبسي ، لما قال لقومه : ليتني لقيته فأرحتكم منه وأعلمتكم أنه عبد ، والاست : الدبر ، وهي فاعل. ومذرويهـا : مفعول ، وكان قياسه : مذران بالياء لأنه مقصور زائد على ثلاثة أحرف ، وقياس تثنيته كذلك ، فمجيئه بالواو شاذ ، وسهله أن تثنيته تقديرية لأنه لم يسمع له مفرد. وحكى عن أبي عمرو «مذرى» مفردا ، فيكون مثنى حقيقة ، وبه قيل. وحكى عن أبي عبيدة مذرى مفردا ، ومذران مثنى بالياء على القياس ، وإن نصب الاست كان مفعولا ، ومذرويهـا بدلا منه. والمذروان بالكسر فرعا الأليتين وقرنا الرأس. يقال : جاء ينفذ مذكروه يحتال ويتبختر ، وقوس هتافة المذروين ، وهما موقعا الوتر من أعلى وأسفل. أى رنانتها ، وهما أنا ذا أصله أنا هذا ، فقدمت الهاء مبادرة إلى التنبيه ، ثم قال : متى تلاقى حال كوننا منفردين عن غيرنا ، تخف متى فترتعد أطراف أليتيك ، فارتعادها كناية عن الخوف. وتستطارا مؤكدا بالنون الخفيفة المنقلبة ألفا ، والفاعل ضمير المخاطب كأن الخوف يطيره. ويجوز أن الضمير للروانف ، أى تنتفض وتنتشر كالطائر. ويروى : روادف ، والمراد واحد.

أولاً حين تقبلك من أمك ورباك واختصك بالكرامة السنية ﴿وَطَهَّرَكَ﴾ مما يستقذر من الأفعال ومما قرفك به اليهود ﴿وَاصْطَفَاكَ﴾ آخرًا ﴿على نساء العالمين﴾ بأن وهب لك عيسى من غير أب ؛ ولم يكن ذلك لأحد من النساء. أمرت بالصلاة بذكر القنوت والسجود ؛ لكونهما من هيات الصلاة وأركانها ؛ ثم قيل لها ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ بمعنى : ولتكن صلاتك مع المصلين أى في الجماعة ؛ أو انظمى نفسك في جملة المصلين وكوني معهم في عدادهم ولا تكوني في عداد غيرهم. ويحتمل أن يكون في زمانها من كان يقوم ويسجد في صلاته ولا يركع وفيه من يركع ، فأمرت بأن تركع مع الراكعين ولا تكون مع من لا يركع.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا مَهْمُ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٤٤)

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ زكريا ويحيى ومريم وعيسى عليهم السلام ، يعنى أن ذلك من الغيوب التي لم تعرفها إلا بالوحي. فإن قلت : لم نفيت المشاهدة وانتفاؤها معلوم بغير شبهة؟ وترك نفى استماع الأنباء من حفاظها وهو موهوم؟ قلت : كان معلوما عندهم علما يقيناً أنه ليس من أهل السماع والقراءة وكانوا منكرين للوحي ، فلم يبق إلا المشاهدة وهي في غاية الاستبعاد والاستحالة ، فنفيت على سبيل التهكم بالمنكرين للوحي مع علمهم بأنه لا سماع له ولا قراءة. ونحوه ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ ، ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ﴾ ، ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ ﴿أَفَلَا مَهْمُ﴾ أزالاهم وهي قداحهم التي طرحوها في النهر مقترعين. وقيل : هي الأقلام التي كانوا يكتبون بها التوراة ، اختاروها للقرعة تبركا بها ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ في شأنها تنافسا في التكفل بها. فإن قلت : ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ﴾ بم يتعلق؟ قلت : بمحذوف دلّ عليه يلقون أقلامهم ، كأنه قيل : يلقونها ينظرون أيهم يكفل ، أو ليعلموا ، أو يقولون.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (٤٥) وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨)

وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخْرِى الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيِّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَجَلٍ لِّكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

﴿الْمَسِيحُ﴾ لقب من الألقاب المشرفة ، كالصديق والفاروق ، وأصله مشيحا بالعبيرانية ، ومعناه المبارك ، كقوله : ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ وكذلك (عيسى) معرب من أيشوع ، ومشتقهما من المسح والعيس ، كالراقم في الماء. فإن قلت : ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ بم يتعلق؟ قلت : هو بدل من ﴿وَإِذْ قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ﴾ ويجوز أن يبدل من ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ على أن الاختصام والبشارة وقعا في زمان واسع ، كما تقول : لقيته سنة كذا. فإن قلت : لم قيل : عيسى ابن مريم والخطاب لمريم^(١)؟ قلت : لأنّ الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات ، فأعلمت بنسبته إليها أنه يولد من غير أب فلا ينسب إلا إلى أمه ، وبذلك فضلت واصطفيت على نساء العالمين. فإن قلت : لم ذكر ضمير الكلمة؟ قلت لأن المسمى بها مذكر. فإن قلت : لم قيل اسمه المسيح عيسى ابن مريم^(٢) ، وهذه ثلاثة أشياء : الاسم منها عيسى ، وأما المسيح والابن فللقب وصفة؟ قلت : الاسم للمسمى علامة يعرف بها ويتميز من غيره ، فكأنه قيل : الذي يعرف به ويتميز ممن سواه مجموع هذه الثلاثة

(١) قال محمود : «إن قلت لم قيل عيسى ابن مريم والخطاب لمريم ... الخ» قال أحمد : ويحقق هذا الجواب قولها ﴿أَنِّي يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ فانه لم يتقدم في وعد الله لها بالولد ما يدل على أنه من غير أب ، إلا أنه لما نسبته إليها دل على أنها فهمت من ذلك كونه من غير أب ، والله أعلم.

(٢) (عاد كلامه) قال : «فان قلت لم قيل اسمه المسيح عيسى ابن مريم ... الخ» قال أحمد : وفي هذا التقرير خلاص من إشكال يوردونه فيقولون : المسيح في الآية إن أريد به التسمية وهو الظاهر فما موقع قوله عيسى ابن مريم؟ والتسمية لا توصف بالنبوة ، وإن أريد بالمسيح المسمى بهذه التسمية لم يلتزم مع قوله اسمه؟ ويجاب عن الاشكال بأن المسيح خبر عن قوله اسمه ، والمراد التسمية ، وأما عيسى ابن مريم فخير مبتدأ محذوف تقديره : هو عيسى ابن مريم ، ويكون الضمير عائدا إلى المسمى بالتسمية المذكورة ، منقطعاً عن قول المسيح. والذي قرره الزمخشري لا يرد عليه هذا الاشكال ، وهو حسن جداً ، والله أعلم.

﴿وَجِيهًا﴾ حال من ﴿بِكَلِمَةٍ﴾ وكذلك قوله : ومن المقربين ، ويكلم ، ومن الصالحين. أى ييشرك به موصوفا بهذه الصفات. وصح انتصاب الحال من النكرة لكونها موصوفة. والوجاهة في الدنيا : النبوة والتقدم على الناس. وفي الآخرة الشفاعة وعلو الدرجة في الجنة. وكونه ﴿مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ رفعه إلى السماء وصحبته للملائكة. والمهد : ما يمهد للصبي من مضجعه ، سمى بالمصدر. و ﴿فِي الْمَهْدِ﴾ في محل النصب على الحال ﴿وَكَهْلًا﴾ عطف عليه بمعنى : ويكلم الناس طفلاً وكهلاً. ومعناه : يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء ، من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة التي يستحكم فيها العقل ويستنبأ فيها الأنبياء. ومن بدع التفاسير أن قولها ﴿رَبِّ﴾ نداء لجبريل عليه السلام بمعنى يا سيدي (ونعلمه) عطف على ييشرك ، أو على وجيهاً أو على يخلق ، أو هو كلام مبتدأ. وقرأ عاصم ونافع : ويعلمه ، بالياء. فإن قلت : علام تحمل : ورسولا ، ومصداً ، من المنصوبات المتقدمة ، وقوله : ﴿أَيُّ قَدْ جِئْتُكُمْ﴾ و ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْ﴾ يأبى حمله عليها؟ قلت : هو من المضايق ، وفيه وجهان : أحدهما أن يضمّر له «وأرسلت» على إرادة القول ؛ تقديره : ونعلمه الكتاب والحكمة ، ويقول أرسلت رسولا بأنى قد جئتك. ومصداً لما بين يدي. والثاني أن الرسول والمصدّق فيهما معنى النطق ، فكأنه قيل : وناطقاً بأنى قد جئتك ، وناطقاً بأنى أصدق ما بين يدي وقرأ البيهقي : ورسول : عطفاً على كلمة ﴿أَيُّ قَدْ جِئْتُكُمْ﴾ أصله أرسلت بأنى قد جئتك ، فحذف الجار وانتصب بالفعل ، و ﴿أَيُّ أَخْلَقُ﴾ نصب بدل من ﴿أَيُّ قَدْ جِئْتُكُمْ﴾ أو جرّ بدل من آية ، أو رفع على : هي أنى أخلق لكم ، وقرئ : إني ، بالكسر على الاستئناف ، أى أقدر لكم شيئاً مثل صورة الطير ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ﴾ الضمير للكاف ، أى في ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا﴾ فيصير طيراً كسائر الطيور حياً. وقرأ عبد الله : فأنفخها. قال :

كَالْمُهْرَقِيِّ تَنْحَى يَنْفُخُ الْفَحْمَا ^(١)

وقيل : لم يخلق غير الحفّاش ﴿الْأَكْمَهَ﴾ الذي ولد أعمى ، وقيل هو المسحوق العين. ويقال : لم يكن في هذه الأمة أكمه غير قتادة بن دعامة السدوسي صاحب التفسير. وروى أنه ربما اجتمع عليه خمسون ألفاً من المرضى ، من أطاق منهم أناه ، ومن لم يطق أناه عيسى ، وما كانت مداواته إلا بالدعاء وحده. وكرر ﴿يَا ذُنِ اللَّهِ﴾ دفعاً لوهم من توهم فيه اللاهوتية. وروى أنه أحيا

(١) مولى الريح قرنيه وجهته وجبهته كالمهريقى تنحى ينفخ الفحم

للنايعة يصف ثوراً وحشياً موجهها قرنيه وجهته إلى الريح ، فهو مستقبلها برأسه وينفخ في مقابلتها بفمه ، فيسمع له صوت ، فهو كالمهريقى . وزان جعفري وزبرجى . وهو الحداد والصانع . ويروى : كالحرقى ، أى الحداد ، نسبة لحرق النار ، شبهه به سال كونه انحاز إلى ناحية ينفخ الفحم المنقد بالنار ، فينفخ : حال متداخلة.

سام بن نوح وهم ينظرون ، فقالوا هذا سحر فأرنا آية : فقال يا فلان خبيء لك كذا ، ويا فلان خبيء لك كذا. وقرئ تذخرون ، بالذال والتخفيف ﴿وَلَا حِلَّ﴾ ردّ على قوله : ﴿بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أى جئتمكم بآية من ربكم ، ولأحل لكم ويجوز أن يكون ﴿مُصَدِّقًا﴾ مردودا عليه أيضا ، أى جئتمكم بآية وجئتمكم مصدقا. وما حرم الله عليهم في شريعة موسى : الشحوم والثروب ^(١) ولحوم الإبل ، والسّمك ، وكل ذى ظفر ، فأحل لهم عيسى بعض ذلك. وقيل : أحل لهم من السمك والطير ما لا صيصية ^(٢) له. واختلفوا في إحلاله لهم السبت. وقرئ (حرم عليكم) على تسمية الفاعل ، وهو ما بين يديّ من التوراة ، أو الله عزّ وجلّ ، أو موسى عليه السلام ؛ لأن ذكر التوراة دل عليه ، ولأنه كان معلوما عندهم. وقرئ : حرم ، بوزن كرم ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ شاهدة على صحة رسالتي وهي قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ لأنّ جميع الرسل كانوا على هذا القول لم يختلفوا فيه : وقرئ بالفتح على البدل من ﴿بِآيَةٍ﴾. وقوله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ اعتراض ، فإن قلت : كيف جعل هذا القول آية من ربه؟ قلت لأنّ الله تعالى جعله له علامة يعرف منها أنه رسول كسائر الرسل ، حيث هداه للنظر في أدلة العقل والاستدلال. ويجوز أن يكون تكريرا لقوله : ﴿جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أى جئتمكم بآية بعد أخرى مما ذكرت لكم ، من خلق الطير ، والإبراء ، والإحياء ، والإنباء بالخفايا ، وبغيره من ولادتي بغير أب ، ومن كلامي في المهد ، ومن سائر ذلك. وقرأ عبد الله. وجئتمكم بآيات من ربكم ، فاتقوا الله لما جئتمكم به من الآيات ، وأطيعوني فيما أدعوكم إليه. ثم ابتداء فقال : إن الله ربى وربكم. ومعنى قراءة من فتح : ولأنّ الله ربى وربكم فاعبدوه ، كقوله : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَرِيشٍ فَلْيَعْبُدُوا﴾ ويجوز أن يكون المعنى : وجئتمكم بآية على أن الله ربى وربكم وما بينهما اعتراض.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (٥٤)

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ﴾ فلما علم منهم ﴿الْكُفْرَ﴾ علما لا شبهة فيه كعلم ما يدرك بالحواس. و ﴿إِلَى﴾

(١) قوله «الثروب» الشحوم الرقيقة التي تغشى الكرش والأمعاء. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله «ما لا صيصية له» الصيصية شوكة كالتى في رجل الديك. أفاده الصحاح. (ع)

الله من صلة أنصاري مضمنا معنى الإضافة ، كأنه قيل : من الذين يضيفون أنفسهم إلى الله ، ينصرونني كما ينصرتني ، أو يتعلق بمحذوف حالا من الياء ، أى من أنصاري ، ذاهبا إلى الله ملتجئا إليه ﴿تَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أى أنصار دينه ورسوله. وحوارى الرجل : صفوته وخالصته. ومنه قيل للحضرىات الحواريات ؛ لخلوص ألوانهن ونظافتهن ، قال :

فَقُلْ لِلْحَوَارِيَّاتِ يَبْكِينَ غَيْرَنَا وَلَا تَبْكِينَ إِلَّا الْكَرْبُ النَّوَاحِ (١)

وفي وزنه الحوالى ، وهو الكثير الحيلة. وإنما طلبوا شهادته بإسلامهم تأكيداً لإيمانهم ، لأنّ الرسل يشهدون يوم القيامة لقومهم وعليهم ﴿مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ مع الأنبياء الذين يشهدون لأممهم أو مع الذين يشهدون بالوحدانية. وقيل : مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم شهداء على الناس ﴿وَمَكَرُوا﴾ الواو لكفار بنى إسرائيل الذين أحس منهم الكفر ، ومكرهم أنهم وكلوا به من يقتله غيلة ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ أن رفع عيسى إلى السماء وألفى شبهه على من أراد اغتياله حتى قتل ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أقواهم مكرراً وأنفذهم كيذا وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المعاقب.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَرَافِعُكَ إِلَى مَتَوَفِيكَ وَأَنْتَ كَفَرُوا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأَخَذَكُمْ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَ اللَّهُ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧)﴾ ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ ظرف لخير الماكرين أو لمكر الله ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أى مستوفى أجلك. معناه : إني عاصمك (٢) من أن يقتلك الكفار ؛ ومؤخره إلى أجل كتبته لك. وميتك حتف أنفك لا قتيلا بأيديهم ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ إلى سمائي ومقر ملائكتي ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من سوء جوارهم وخبث صحبتهم. وقيل متوفيك : قابضك من الأرض ، من توفيت مالى على

(١) للشكرى ، يقول : فقل للنساء الحضرىات الصافيات البياض يبكين غيرنا ، كناية عن أنه ليس من أهل التمتع ، ثم نحى عن أن يبيحهم أحد إلا الكلاب التي تساق معهم للصيد ، أو التي جرت عادتها بأكل قتلاهم في الحرب أو التي تنبجهم إذا أقبلوا على أصحابها ، كناية عن أنه من أهل البدو والغزو.

(٢) قوله «أى مستوفى أجلك ومعناه إني عاصمك» مبنى على أن القتل يموت قبل استيفاء أجله ، وهو مذهب المعتزلة. (ع)

فلان إذا استوفيته : وقيل : مميتك في وقتك بعد النزول من السماء ورافعك الآن : وقيل : متوفى نفسك بالنوم من قوله : ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ ورافعك وأنت نائم حتى لا يلحقك خوف ، وتستيقظ وأنت في السماء آمن مقرب ﴿فَوقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعلوهم بالحجة وفي أكثر الأحوال بها وبالسيف ، ومتبعوه هم المسلمون لأنهم متبعوه في أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع ، دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من اليهود والنصارى ﴿فَأَحْكُمْ بَيْنَكُمْ﴾ تفسير الحكم قوله ﴿فَأَعَذِّبُهُمْ...﴾ (فنوفهم أجورهم) ^(١) وقرئ فيوفهم بالياء.

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ (٥٨)

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ عيسى وغيره وهو مبتدأ خبره ﴿نَتْلُوهُ﴾ و ﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾ خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف. ويجوز أن يكون ذلك بمعنى الذي ، ونتلوه صلته. ومن الآيات الخبر : ويجوز أن ينتصب ذلك بمضمر تفسيره نتلوه ﴿وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ القرآن ، وصف بصفة من هو سببه ، أو كأنه ينطق بالحكمة لكثرة حكمه.

﴿إِنْ مَثَلٌ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥٩)

﴿إِنْ مَثَلٌ عِيسَى﴾ إن شأن عيسى وحاله الغريبة كشأن آدم. وقوله ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ جملة مفسرة لما له شبهه ^(٢) عيسى بآدم أى خلق آدم من تراب ولم يكن ثمة أب ولا أم ، وكذلك حال عيسى. فإن قلت : كيف شبه به وقد وجد هو من غير أب ، ووجد آدم من غير أم؟ قلت : هو مثيله في إحدى الطرفين ، فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به ، لأن المماثلة مشاركة في بعض الأوصاف ، ولأنه شبه به لأنه وجد وجودا خارجا عن العادة المستمرة ، وهما في ذلك نظيران ، ولأن الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود بغير أب ، فشبه الغريب بالأغرب ؛ ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه. وعن بعض العلماء أنه أسر بالروم فقال لهم : لم تعبدون عيسى ، قالوا : لأنه لا أب له. قال. فآدم أولى لأنه لا أبوين له. قالوا : كان يحيى الموتى. قال : فحزقيل أولى ، لأن عيسى أحيا أربعة نفر ، وأحيا حزقيل ثمانية آلاف. قالوا : كان يبرئ الأكفم والأبرص. قال : فجرجيس أولى ، لأنه طبخ وأحرق

(١) قوله «فأعذبهم فنوفهم» هذا في الذين كفروا. وقوله : فنوفهم ... الخ ، في الذين آمنوا. (ع)

(٢) قوله «لما له شبه» أى للأمر الذي لأجله كان ذلك التشبيه. (ع)

ثم قام سالماً. ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ قدّره جسداً من طين ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾ أى أنشأه بشراً كقوله ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾. ﴿فَيَكُونُ﴾ حكاية حال ماضية. ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٦٠)

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ خبر مبتدئ محذوف ، أى هو الحق كقول أهل خير : محمد والخميس (١).

ونُهيّه عن الامتراء . وجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون ممترياً . من باب التهييج لزيادة الثبات والطمأنينة ، وأن يكون لطفاً لغيره.

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (٦١)

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ﴾ من النصارى ﴿فِيهِ﴾ في عيسى ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أى من البيانات الموجبة للعلم ﴿تَعَالَوْا﴾ هلموا . والمراد المجيء بالرأى والعزم ، كما نقول تعال نفكر في هذه المسألة ﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ أى يدع كل منى ومنكم أبناءه ونسائه ونفسه إلى المباحلة ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ ثم نتباهل بأن نقول بحلة الله على الكاذب منا ومنكم . والبهلة بالفتح ، والضم : اللعنة . وبهله الله لعنه وأبعده من رحمته من قولك «أبهله» إذا أهمله . وناقاة باهل : لاصرار عليها (٢) وأصل الابتهاال هذا ، ثم استعمل في كل دعاء يجتهد فيه وإن لم يكن التعانا . وروى «أنهم لما دعاهم إلى المباحلة قالوا : حتى نرجع وننظر ، فلما تخالوا قالوا للعاقب وكان ذا رأيهم : يا عبد المسيح ، ما ترى؟ فقال والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أنّ محمداً نبيّ مرسل ، وقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم ، والله ما باهل قوم نبيا قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، ولئن فعلتم لتهلكنّ فإن أبيتهم إلا ألف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه ، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غدا محتضنا الحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشى خلفه وعلى خلفها وهو يقول : «إذا أنا دعوت فأمتنوا» فقال أسقف نجران (٣) : يا معشر النصارى ، إني لأرى وجوها لو شاء الله أن يزيل جبلا

(١) هو طرف من حديث لأنس متفق عليه ، بلفظ «صبح رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل خير وقد خرجوا بالمساحي على أعناقهم فلما رأوه قالوا : هذا محمد والخميس ... الحديث» وسيأتى في سورة الصافات.

(٢) قوله «وناقاة باهل لاصرار عليها» في الصحاح صررت الناقاة شددت عليها الصرار ، وهو خيط يشد فوق الخلف والتودية ، لثلا يرضعها ولدها . وفيه الخلف : حلمة ضرع الناقاة . وفيه التودية : خشبة تشد عليه . (ع)

(٣) قوله «فقال أسقف نجران يا معشر النصارى» أى حبرهم عبد المسيح اهـ . (ع)

من مكانه لأزاله بها ، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة ، فقالوا : يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك وأن نقرّك على دينك وثبتت على ديننا قال «فإذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم» فأبوا. قال : «فإني أناجزكم» فقالوا : ما لنا بحرب العرب طاقة ، ولكن نصالحك على أن لا تغزونا ولا تخيفنا ولا ترددنا عن ديننا على أن نؤدي إليك كل عام ألفى حلة : ألف في صفر ، وألف في رجب ، وثلاثين درعا عادية من حديد. فصالحهم على ذلك ^(١) وقال : «والذي نفسي بيده ، إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ، ولاضطرم عليهم الوادي ناراً ، ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رؤس الشجر ، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا» وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج وعليه مرط مرجل من شعر أسود ، فجاء الحسن فأدخله ، ثم جاء الحسين فأدخله ، ثم فاطمة ، ثم علي ، ثم قال : ^(٢) ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ فإن قلت. ما كان دعاؤه إلى المباهلة إلا ليتبين الكاذب منه ومن خصمه وذلك أمر يختص به ويمن يكاذبه ، فما معنى ضم الأبناء والنساء؟ قلت : ذلك أكد في الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه ، حيث استجراً على تعريض أعزته وأفلاذ كبده ^(٣) وأحب الناس إليه لذلك ولم يقتصر على تعريض نفسه له ، وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته هلاك الاستئصال إن تمت المباهلة. وخص الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب ، وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل. ومن ثمة كانوا يسوقون مع أنفسهم الطعائن في الحروب لتمنعهم من الهرب ، ويسمون الذادة عنها بأرواحهم حماة الحقائق. وقدمهم

(١) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة ، من طريق محمد بن مروان السدي عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس بطوله وابن مروان متروك متهم بالكذب ثم أخرج أبو نعيم نحوه عن الشعبي مرسل ، وفيه «فان أبيتم المباهلة فأسلموا ولكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم ، فان أبيتم فأعطونا الجزية ، كما قال الله تعالى. قالوا : ما نملك إلا أنفسنا قال : فان أبيتم فاني أنبذ إليكم على سواء ، فقالوا : لا طاقة لنا بحرب العرب ، ولكن نؤدي الجزية ، فجعل عليهم في كل سنة ألفى حلة : ألفاً في صفر ، وألفاً في رجب ، فقال صلى الله عليه وسلم : لقد أتاني البشير بهلكة أهل نجران لو تموا على الملائنة» رواه الطبري من طريق أبي إسحاق ، حدثني محمد بن جعفر بن الزبير في قوله : ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ فذكره مرسل ، وفي سنن أبي داود من حديث ابن عباس «صالح النبي صلى الله عليه وسلم أهل نجران على ألفى حلة النصف في صفر ، والبقية في رجب يؤدونه إلى المسلمين ، وعارية ثلاثين درعا وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً ، وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها والمسلمون ضامنون لها حتى يردوها عليهم» وهو طرف من هذه القصة.

(٢) أخرجه مسلم من طريق صفية بنت شيبة عنها. وغفل الحاكم فاستدركه.

(٣) قوله «وأفلاذ كبده وأحب الناس إليه» في الصحاح : الفلذ : كبد البعير. والجمع : أفلاذ. والفلذة : القطعة من الكبد واللحم والمال وغيرها ، والجمع فلذاه ، فتدبر. (ع)

في الذكر على الأنفس لينبه على لطف مكانهم وقرب منزلتهم ، وليؤذن بأنهم مقدمون على الأنفس مفدون بها. وفيه دليل لا شيء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام. وفيه برهان واضح على صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم لأنه لم يرو أحد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك.

﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٦٢) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي قص عليك من نبأ عيسى ﴿هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ قرئ بتحريك الهاء على الأصل وبالسكون ، لأن اللام تنزل من (هو) منزلة بعضه ، فخفف كما خفف عضد. وهو إما فصل بين اسم إن وخبرها ، وإما مبتدأ والقصص الحق خبره ، والجملة خبر إن. فإن قلت : لم جاز دخول اللام على الفصل؟ قلت : إذا جاز دخولها على الخبر كان دخولها على الفصل أجوز ، لأنه أقرب إلى المبتدأ منه ، وأصلها أن تدخل على المبتدأ. و «من» في قوله ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ بمنزلة البناء على الفتح في : ﴿إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ في إفادة معنى الاستغراق ، والمراد والرد على النصارى في تثليثهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ وعيد لهم بالعذاب المذكور في قوله : ﴿وَدَنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٦٤) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجِّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ قيل هم أهل الكتابين. وقيل : وفد نجران. وقيل : يهود المدينة ﴿سَوَاءٍ﴾

بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ مستوية بيننا وبينكم ، لا يختلف فيها القرآن والتوراة والإنجيل . وتفسير الكلمة قوله ﴿أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعنى تعالوا إليها حتى لا نقول : عزيز ابن الله ، ولا المسيح ابن الله ، لأن كل واحد منهما بعضنا بشر مثلنا ، ولا نطيع أخبارنا فيما أحدثوا من التحريم والتحليل من غير رجوع إلى ما شرع الله ، كقوله تعالى ﴿اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً واحداً﴾ وعن عدى بن حاتم : ما كنا نعبدهم يا رسول الله ، قال : أليس كانوا يملكون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم؟ قال : نعم. قال : هو ذاك. وعن الفضيل : لا أبالي أطعت مخلوقاً في معصية الخالق ، أو صليت لغير القبلة. وقرئ (كلمة) بسكون اللام. وقرأ الحسن (سواء) بالنصب بمعنى استوت استواء ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن التوحيد ﴿فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أى لزمتمكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا وتسلموا بأنا مسلمون دونكم ، كما يقول الغالب للمغلوب في جدال أو صراع أو غيرهما. اعترف بأنى أنا الغالب وسلم لي الغلبة. ويجوز أن يكون من باب التعريض ، ومعناه : اشهدوا واعترفوا بأنكم كافرون حيث توليتم عن الحق بعد ظهوره. زعم كل فريق من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان منهم ، وجادلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فيه فقبل لهم : إن اليهودية إنما حدثت بعد نزول التوراة ، والنصرانية بعد نزول الإنجيل ، وبين إبراهيم وموسى ألف سنة ، وبينه وبين عيسى ألفان ، فكيف يكون إبراهيم على دين لم يحدث إلا بعد عهده بأزمة متطاولة؟ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدال المحال ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ ها للتنبية ، وأنتم مبتدأ وهؤلاء خبره. و ﴿حَاجَّجْتُمْ﴾ جملة مستأنفة مبينة للجملة الأولى ، يعنى أنتم هؤلاء الأشخاص الحمقى وبيان حماقتكم وقلة عقولكم أنكم جادلتم ﴿فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ مما نطق به التوراة والإنجيل ﴿فَلِمَ تَحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ ولا ذكر له في كتابيكم من دين إبراهيم. وعن الأخفش : ها أنتم هو أنتم على الاستفهام ، فقلبت الهمزة هاء. ومعنى الاستفهام التعجب من حماقتهم. وقيل ﴿هَؤُلَاءِ﴾ بمعنى الذين و ﴿حَاجَّجْتُمْ﴾ صلته ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ علم ما حاججتم فيه ﴿وَأَنْتُمْ﴾ جاهلون به ثم أعلمهم بأنه بريء من دينكم وما كان إلا ﴿حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كما لم يكن منكم. أو أراد بالمشركين اليهود والنصارى لإشراكهم به عزيزاً والمسيح ﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ﴾ إن أخصهم به وأقربهم منه من الولي وهو القرب ﴿لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ في زمانه وبعده ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ خصوصاً ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ من أمته. وقرئ : وهذا النبى ، بالنصب عطفاً على الهاء في اتبعوه ، أى اتبعوه واتبعوا هذا النبي. وبالجر عطفاً على إبراهيم.

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾

وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾
﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ﴾ هم اليهود ، دعوا حذيفة وعماراً ومعاذاً إلى اليهودية ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ وما يعود وبال الإضلال إلا عليهم ، لأن العذاب
يضاعف لهم بضالهم وإضلالهم. أو وما يقدرّون على إضلال المسلمين ، وإنما يضلّون أمثالهم من أشياعهم ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بالتوراة والإنجيل. وكفرهم بها :
أنهم لا يؤمنون بما نطقّت به من صحة نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرها. وشهادتهم : اعترافهم بأنها آيات الله. أو تكفرون بالقرآن ودلائل نبوة
الرسول ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ نعته في الكتابين. أو تكفرون بآيات الله جميعاً وأنتم تعلمون أنها حق. قرئ ﴿تَلْبِسُونَ﴾ بالتشديد. وقرأ يحيى بن وثاب
﴿تَلْبِسُونَ﴾ بفتح الباء أى تلبسون الحق مع الباطل. كقوله : كلابس ثوبي زور. وقوله :

إِذَا هُوَ بِالْمَجْدِ ارْتَدَى وَتَأَزَّرَا ^(١)

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ قُلْ
إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٧٤)

(١) فـ لا أب وابنـا تمثـل مـروان وابنـه إذا هـو بالمجـد ارتـدى وتـأزرا

للفرزذق. وابنا : نصب عطفا على موضع الأب ، ومثل بالرفع . خير لا أو نصب صفة لأب وابنا ، والخبر محذوف. وابنه هو عبد الملك. و «إذا هو» أى مروان ، لأن مجد الابن
بمجد الأب لا العكس ، والمراد بالمجد هنا : الأفعال الحميدة التي تتجدد منه ، ثم إنه شبهه باللباس بجامع صون كل لصاحبه على طريق المكنية ، والارتداء والتأزر تخييل. ويحتمل أنه شبه
الاتصاف به ظاهرا وباطنا بالارتداء والتأزر على طريق التصريحية. ويجوز أن المراد من «إذا» الزمن المستمر ، لا المستقبل فقط.

﴿وَجَهَ النَّهَارِ﴾ أوله. قال :

مَنْ كَانَ مَسْرُورًا بِمَقْتَلِ مَالِكٍ فَلْيَسْأَلْ نِسْـَوتَنَا بِوَجْهِهِ تَهَارِ (١)

والمعنى : أظهروا الإيمان بما أنزل على المسلمين في أول النهار ﴿وَأَكْفُرُوا﴾ به في آخره لعلهم يشكون في دينهم ويقولون : ما رجعوا وهم أهل كتاب وعلم إلا لأمر قد تبين لهم فيرجعون برجوعكم. وقيل : تواطأ اثنا عشر من أحبار يهود خيبر وقال بعضهم لبعض : ادخلوا في دين محمد أول النهار من غير اعتقاد ، واكفروا به آخر النهار وقولوا : إنا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمداً ليس بذلك المنعوت وظهر لنا كذبه وبطلان دينه ، فإذا فعلتم ذلك شك أصحابه في دينهم. وقيل : هذا في شأن القبلة لما صرفت إلى الكعبة قال كعب بن الأشرف لأصحابه : آمنوا بما أنزل عليهم من الصلاة إلى الكعبة وصلوا إليها في أول النهار ، ثم اكفروا به في آخره وصلوا إلى الصخرة ، ولعلهم يقولون : هم أعلم منا وقد رجعوا فيرجعون ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا﴾ متعلق بقوله : ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ﴾ وما بينهما اعتراض. أى : ولا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأهل دينكم دون غيرهم. أرادوا : أسروا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتم ، ولا تفشوه إلا إلى أشياعكم وحدهم دون المسلمين لئلا يزيدهم ثباتاً ، ودون المشركين لئلا يدعوهم إلى الإسلام ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ عطف على أن يؤتى (٢). والضمير في يحاجوكم لأحد لأنه في معنى الجمع (٣) ، بمعنى : ولا تؤمنوا لغير أتباعكم ، أن المسلمين يحاجونكم

(١) مَنْ كَانَ مَسْرُورًا بِمَقْتَلِ مَالِكٍ فَلْيَسْأَلْ نِسْـَوتَنَا بِوَجْهِهِ تَهَارِ
يَحْجِدُ النِّسَاءَ حَوَاسٍ رَأً يَنْدَبْنَهُ يَلْطَمُ نَ أَوْجَهُهُ نَ بِالْأَسْـَوحَارِ

لربيع بن زياد. يرثى مالك بن زهير العيسى ، ووجه النهار : أوله. والحواسر : كاشفات الوجوه ، وصرف للوزن. والندبة : رفع الصوت بالبكاء على الميت. والأسحار : مقدم أعالي الأعناق. والباء بمعنى مع. كانت عادة العرب أن لا يندبوا القتيل إلا بعد أخذ ثأره فضمن الرثاء معنى المدح لهم والتشفي من عدوهم. وقال : من كان شامتا بقتله فليجئ إلى نسائنا في أول النهار يجدهن كاشفات وجوههن يكيّن عليه برفع أصواتهن ، يضررن أوجهن مع صفاح أعناقهن ، يعنى أننا أخذنا ثأره فحل لنسائنا البكاء عليه ، وانتقد ابن العميد قوله : فليأت نسوتنا. والله در الامام المرزوقي حيث أبدله بقوله : فليأت ساحتنا ، لأنه فيه أيضا الفرار من الاظهار موضع الإضمار.

(٢) قال محمود : «أو يحاجوكم معطوف على أن يؤتى ... الخ» قال أحمد : وفي هذا الوجه من الاعراب إشكال ، وهو وقوع أحد في الواجب ، لأن الاستفهام هنا إنكار ، واستفهام الإنكار في مثله إثبات ، إذ حاصله أنه أنكر عليهم ووبخهم على ما وقع منهم وهو إخفاء الإيمان بأن النبوة لا تخص بنى إسرائيل لأجل العلتين المذكورتين ، فهو إثبات محقق. ويمكن أن يقال : روعيت صيغة الاستفهام وإن لم يكن المراد حقيقة ، فحسن لذلك دخول أحد في سياقه ، والله أعلم.

(٣) قال محمود : «والضمير في يحاجوكم لأحد لأنه في معنى الجمع ... الخ» قال أحمد : أى حيث كان نكرة في سياق النفي ، كما وصفه بالجمع في قوله : ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾.

يوم القيامة بالحق ويغالبونكم عند الله تعالى بالحجة. فإن قلت : فما معنى الاعتراض؟ قلت : معناه أنّ الهدى هدى الله ، من شاء أن يلطف به حتى يسلم ، أو يزيد ثباته على الإسلام ، كان ذلك ، ولم ينفع كيدكم وحيلكم وزيكم تصديقكم عن المسلمين والمشركين ، وكذلك قوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يريد الهداية والتوفيق. أو يتمّ الكلام عند قوله : ﴿إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ﴾ على معنى : ولا تؤمنوا هذا الإيمان الظاهر وهو إيمانهم وجه النهار إلا لمن تبع دينكم : إلا لمن كانوا تابعين لدينكم ممن أسلموا منكم لأن رجوعهم كان أرجى عندهم من رجوع من سواهم ، ولأن إسلامهم كان أغبط لهم. وقوله : ﴿أَنْ يُؤْتَى﴾ معناه لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم فلتتم ذلك ودبرتموه ، لا لشيء آخر ، يعنى أن ما بكم من الحسد والبغي . أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من فضل العلم والكتاب . دعاكم إلى أن قلتم ما قلتم ، والدليل عليه قراءة ابن كثير : أنّ يؤتى أحد بزيادة همزة الاستفهام للتقرير والتوبيخ ، بمعنى : إلا أن يؤتى أحد. فإن قلت : فما معنى قوله أو يحاجوكم على هذا؟ قلت : معناه دبرتم ما دبرتم لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ولما يتصل به عند كفركم به من محاجتهم لكم عند ربكم. ويجوز أن يكون ﴿هُدَى اللَّهِ﴾ بدلا من الهدى ، و ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ﴾ خبر إن ، على معنى : قل إن هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم حتى يحاجوكم عند ربكم فيقرعوا باطلكم بحقهم ويدحضوا حجتكم. وقرئ : إن يؤتى أحد ، على إن النافية ، وهو متصل بكلام أهل الكتاب. أى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم وقلولوا لهم : ما يؤتى أحد مثل ما أوتيتم حتى يحاجوكم عند ربكم ، يعنى ما يؤتون مثله فلا يحاجونكم. ويجوز أن ينتصب ﴿أَنْ يُؤْتَى﴾ بفعل مضمر يدل عليه قوله : ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ﴾ كأنه قيل : قل إن الهدى هدى الله ، فلا تنكروا ان يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ؛ لأن قولهم ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ﴾ إنكار لأن يؤتى أحد مثل ما أوتوا.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّانِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٧٦)

عن ابن عباس ﴿مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ﴾ هو عبد الله بن سلام ، استودعه رجل من قريش ألفا ومائتي أوقية ذهباً فأداه إليه. و ﴿مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ﴾ فنحاص بن عازوراء استودعه رجل

من قريش ديناراً فجحدته وخانه. وقيل : المأمونون على الكثير النصارى ، لغلبة الأمانة عليهم. والخائنون في القليل اليهود ، لغلبة الخيانة عليهم ﴿إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ إلا مدّة دوامك عليه يا صاحب الحق قائماً على رأسه متوكلاً عليه بالمطالبة والتعنيف ، أو بالرفع إلى الحاكم وإقامة البينة عليه. وقرئ (يؤده) بكسر الهاء والوصل ، وبكسرهما بغير وصل ، وبسكونهما. وقرأ يحيى بن وثاب : تتمنه ، بكسر التاء. ودمت بكسر الدال من دام يدام ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ترك الأداء الذي دلّ عليه لم يؤدّه ، أى تركهم أداء الحقوق بسبب قولهم ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَنَ سَبِيلٌ﴾ أى لا يتطرّق علينا عتاب وذم في شأن الأميين ، يعنون الذين ليسوا من أهل الكتاب ، وما فعلنا بهم من حبس أموالهم والإضرار بهم ، لأنهم ليسوا على ديننا ، وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم ويقولون : لم يجعل لهم في كتابنا حرمة. وقيل : بايع اليهود رجالاً من قريش ، فلما أسلموا تقاضوهم فقالوا : ليس لكم علينا حق حيث تركتم دينكم ، وادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عند نزولها «كذب أعداء الله ما من شيء في الجاهلية إلا وهو تحت قدميَّ ، إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البرّ والفاجر» ^(١) وعن ابن عباس أنه سأله رجل فقال : إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة. قال : فتقولون ما ذا؟ قال : نقول ليس علينا في ذلك بأس. قال : هذا كما قال أهل الكتاب : ليس علينا في الأميين سبيل. إنهم إذا أدّوا الجزية لم يحلّ لكم أكل أموالهم إلا بطيبة أنفسهم ^(٢). ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بادعائهم أن ذلك في كتابهم ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون ﴿بَلَى﴾ إثبات لما نفوه من السبيل عليهم في الأميين ، أى بلى عليهم سبيل فيهم. وقوله ﴿مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ﴾ جملة مستأنفة مقرّرة للجملة التي سَدّت بلى مسدّها ، والضمير في بعهد راجع إلى من أوفى ، على أنّ كل من أوفى بما عاهد عليه واتفق الله في ترك الخيانة والغدر ، فإنّ الله يحبه. فإن قلت ، فهذا عام يخيل أنه لو وفي أهل الكتاب بعهودهم وتركوا الخيانة لكسبوا محبة الله. قلت : أجل ، لأنهم إذا وفوا بالعهود وفوا أول شيء بالعهد الأعظم ، وهو ما أخذ عليهم في كتابهم من الإيمان برسول مصدق لما معهم ، ولو اتقوا الله في ترك الخيانة لاتقوه في ترك الكذب على الله وتحريف كلمه. ويجوز أن يرجع الضمير إلى الله تعالى ، على أن كل من وفي بعهد الله واتفق الله فإنّ الله يحبه ، ويدخل في ذلك الإيمان وغيره من الصالحات وما وجب اتقاؤه من الكفر وأعمال السوء. فإن قلت : فأين الضمير الراجع من الجزاء إلى من؟ قلت :

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريق يعقوب بن النعمان القمي عن جعفر عن سعيد بن جبير به مرسلًا.

(٢) أخرجه عبد الرزاق والطبري من طريق أبي إسحاق عن صعصعة بن معاوية أنه سأل ابن عباس . فذكره.

عموم المتقين قام مقام رجوع الضمير. وعن ابن عباس : نزلت في عبد الله بن سلام وبحيرا الراهب ونظرائهما من مسلمة أهل الكتاب ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٧) وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٨)

﴿يَشْتَرُونَ﴾ يستبدلون ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ بما عاهدوه عليه من الإيمان بالرسول المصدق لما معهم ﴿وَأَيْمَانِهِمْ﴾ وبما حلفوا به من قولهم. والله لنؤمنن به ولننصرنه ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ متاع الدنيا من الترويس والارتشاء ونحو ذلك. وقيل : نزلت في أبي رافع ولبابة بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب ، حرفوا التوراة وبدلوا صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذوا الرشوة على ذلك. وقيل : جاءت جماعة من اليهود إلى كعب بن الأشرف في سنة أصابتهم ممتارين ، فقال لهم : هل تعلمون أن هذا الرجل رسول الله؟ قالوا : نعم. قال : لقد هممت أن أميركم وأكسوكم فحرمكم الله خيراً كثيراً. فقالوا : لعله شبه علينا فرويداً حتى نلقاه. فانطلقوا فكتبوا صفة غير صفته ، ثم رجعوا إليه وقالوا : قد غلطنا وليس هو بالنعت الذي نعت لنا ، ففرح ومارهم. وعن الأشعث بن قيس : نزلت في ، كانت بيني وبين رجل خصومة في بئر ، فاختصمنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «شاهدك أو يمينه» فقلت إذن يحلف ولا ييالى فقال «من حلف على يمين يستحق بها ما لا هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان»^(١) وقيل : نزلت في رجل أقام سلعة في السوق فحلف لقد أعطى بها ما لم يعطه. والوجه أن نزولها في أهل الكتاب. وقوله : ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ يقوَّى رجوع الضمير في بعهدته إلى الله ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم تقول : فلان لا ينظر إلى فلان ، تريد نفى اعتداده به وإحسانه إليه ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ ولا يثنى عليهم. فإن قلت : أى فرق بين استعماله فيمن يجوز عليه النظر وفيمن لا يجوز عليه؟ قلت : أصله فيمن يجوز عليه النظر الكناية ، لأن من اعتد بالإنسان التفت إليه وأعاره نظر عينيه ، ثم كثر حتى صار عبارة عن الاعتداد والإحسان وإن لم يكن ثم نظر ، ثم جاء فيمن لا يجوز عليه النظر مجرداً لمعنى الإحسان

(١) متفق عليه من حديثه.

مجازاً عما وقع كناية عنه فيمن يجوز عليه النظر ﴿لَفَرِيقًا﴾ هم كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحيّ بن أخطب وغيرهم ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾ يفتلونها بقرائه عن الصحيح إلى المحرف وقرأ أهل المدينة : يَلْوُونَ ، بالتشديد ، كقوله : لووا رؤسهم. وعن مجاهد وابن كثير : يلون. ووجهه أحما قلبا الواو المضمومة همزة ، ثم خففوها بحذفها وإلقاء حركتها على الساكن قبلها. فإن قلت : إلام يرجع الضمير في : (لتحسبوه)؟ قلت : إلى ما دلّ عليه يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ وهو المحرف. ويجوز أن يراد : يعطفون ألسنتهم بشبه الكتاب لتحسبوا ذلك الشبه من الكتاب وقرئ : ليحسبوه بالياء ، بمعنى : يفعلون ذلك ليحسبه المسلمون من الكتاب ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ تأكيد لقوله : هو من الكتاب ، وزيادة تشنيع عليهم ، وتسجيل بالكذب ، ودلالة على أنهم لا يعرضون ولا يورون وإنما يصرحون بأنه في التوراة هكذا ، وقد أنزله الله تعالى على موسى كذلك لفرط جراتهم على الله وقساوة قلوبهم وبأسهم من الآخرة. وعن ابن عباس : هم اليهود الذين قدموا على كعب بن الأشرف غيروا التوراة وكتبوا كتابا بدّلوا فيه صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذت قريظة ما كتبوه فخلطوه بالكتاب الذي عندهم.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (٧٩) وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ تكذيب لمن اعتقد عبادة عيسى. وقيل : إنّ أبا رافع القرظي والسيد من نصارى نجران قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أتريد أن نعبدك ونتخذك ربا؟ فقال معاذ الله أن نعبد غير الله ، أو أن نأمر بعبادة غير الله! فما بذلك بعثني ، ولا بذلك أمرني ^(١) فنزلت. وقيل : قال رجل : يا رسول الله ، نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك؟ قال :

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل والطبري من طريق ابن إسحاق : حدثني محمد بن أبي محمد حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس قال «اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتنازعوا عنده ، فقالت الأخبار : ما كان إبراهيم إلا يهوديا. وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانيا. فأُنزل الله فيهم ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾. الآية قال أبو رافع القرظي ورجل آخر منهم يقال له الرئيس وهو السيد . لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد دعاهم للإسلام . أتريد منا يا محمد . فذكره» وذكر الواحدى في الأسباب من طريق الكلبي وعطاء بن عياش «أن أبا رافع والرئيس من نصارى نجران قالوا يا محمد . فذكره»

لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله ، ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله ^(١) ﴿وَالْحُكْمَ﴾ والحكمة وهي السنة ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ ولكن يقول كونوا. والربانيّ : منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون ؛ كما يقال : رقباني ولحياني ، وهو الشديد التمسك بدين الله وطاعته. وعن محمد ابن الحنفية أنه قال حين مات ابن عباس : اليوم مات ربانيّ هذه الأمة. وعن الحسن ربانيين علماء فقهاء. وقيل علماء معلمين. وكانوا يقولون : الشارع الرباني : العالم العامل المعلم ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ بسبب كونكم عالمين ^(٢) وبسبب كونكم دارسين للعلم أوجب أن تكون الربانية التي هي قوّة التمسك بطاعة الله مسببة عن العلم والدراسة ، وكفى به دليلا على خيبة سعى من جهد نفسه وكّد روحه في جمع العلم ، ثم لم يجعله ذريعة إلى العمل ، فكان مثله مثل من غرس شجرة حسناء توثقه بمنظرها ولا تنفعه بثمرها : وقرئ : تعلمون ، من التعليم. وتعلمون من التعلم ﴿تَدْرُسُونَ﴾ تقرأون. وقرئ تدرسون ، من التدريس. وتدرسون على أن أدرس بمعنى درّس كأكرم وكترم وأنزل ونزل. وتدرّسون ، من التدرّس. ويجوز أن يكون معناه ومعنى تدرسون بالتخفيف : تدرسونه على الناس كقوله : ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ﴾ فيكون معناه معنى تدرسون من التدريس. وفيه أن من علم ودرس العلم ولم يعمل به فليس من الله في شيء ، وأن السبب بينه وبين ربه منقطع ، حيث لم يثبت النسبة إليه إلا للمتمسكين بطاعته. وقرئ ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ﴾ بالنصب عطفًا على : ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾ وفيه وجهان أحدهما أن تجعل «لا» مزيدة لتأكيد معنى النفي في قوله : ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ والمعنى : ما كان لبشر أن يستنبئه الله وينصبه للدعاء إلى اختصاص الله بالعبادة وترك الأنداد ، ثم يأمر الناس بأن يكونوا عباداً له ويأمرهم ﴿أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ كما تقول : ما كان لزيد أن أكرمه ثم يهينني ولا يستخف بي. والثاني أن تجعل «لا» غير مزيدة. والمعنى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينهى قريشا عن عبادة الملائكة ، واليهود والنصارى عن عبادة عزيز والمسيح. فلما قالوا له : أنتخذك ربا؟ قيل لهم : ما كان لبشر أن يستنبئه الله ، ثم يأمر الناس بعبادته وينهاكم عن عبادة الملائكة والأنبياء. والقراءة بالرفع على ابتداء الكلام أظهر ، وتنصرها قراءة عبد الله ولن يأمركم. والضمير في : ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ﴾ و ﴿لَا يَأْمُرُكُمْ﴾ لبشر. وقيل الله ، والهمزة في يأمركم للإنكار ﴿بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ دليل على أن المخاطبين كانوا مسلمين ، وهم الذين استأذنوه أن يسجدوا له

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ

(١) لم أجد له إسناداً. ونقله الواحدي في الأسباب عن الحسن البصري «أن رجلاً» فذكره.

(٢) قوله «بسبب كونكم عالمين» تفسير لقراءة (تعلمون) من العلم. (ع)

رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢) أَفَغَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

﴿مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ فيه غير وجه : أحدها أن يكون على ظاهره من أخذ الميثاق على النبيين بذلك. والثاني أن يضيف الميثاق إلى النبيين إضافته إلى الموثق لا إلى الموثق عليه ، كما تقول : ميثاق الله وعهد الله ، كأنه قيل : وإذ أخذ الله الميثاق الذي وثقه الأنبياء على أممهم ، والثالث : أن يراد ميثاق أولاد النبيين وهم بنو إسرائيل على حذف المضاف. والرابع : أن يراد أهل الكتاب وأن يرد على زعمهم تهكما بهم ، لأنهم كانوا يقولون : نحن أولى بالنبوة من محمد لأننا أهل الكتاب ومنا كان النبيون. وتدلل عليه قراءة أبي وابن مسعود : وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب واللام في ﴿لَمَّا آتَيْنَتْكُمْ﴾ لام التوطئة لأن أخذ الميثاق في معنى الاستحلاف ^(١) وفي لتؤمنن لام جواب القسم ، و «ما» يحتمل أن تكون المتضمنة لمعنى الشرط ، ولتؤمنن ساد مسدّ جواب القسم والشرط جميعاً ، وأن تكون موصولة بمعنى : للذي آتيتكموه لتؤمنن به. وقرئ : لما آتيناكم وقرأ حمزة : لما آتيتكم. بكسر اللام ومعناه : لأجل إيتائي إياكم بعض الكتاب والحكمة ؛ ثم لجيء رسول مصدّق لما معكم لتؤمنن به ، على أن «ما» مصدرية ، والفعالان معها أعني «آتيتكم» و «جاءكم» في معنى المصدرين ، واللام داخله للتعليل على معنى : أخذ الله ميثاقهم لتؤمنن بالرسول ولتنصرنه ، لأجل أني آتيتكم الحكمة ، وأن الرسول الذي أمركم بالإيمان به ونصرته موافق لكم غير مخالف. ويجوز أن تكون «ما» موصولة. فإن قلت : كيف يجوز ذلك والعطف على آتيتكم وهو قوله ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ﴾ لا يجوز أن يدخل تحت حكم الصفة ، لأنك لا تقول : للذي جاءكم رسول مصدق لما معكم؟ قلت : بلى ^(٢) ، لأنّ ما معكم في معنى ما آتيتكم ، فكأنه قيل : للذي آتيتكموه وجاءكم رسول مصدق له. وقرأ سعيد بن جبير «لما» بالتشديد ، بمعنى حين آتيتكم بعض الكتاب والحكمة ،

(١) قال محمود : «اللام في لما آتيتكم لام التوطئة لأن أخذ الميثاق في معنى القسم ... الخ» قال أحمد : يريد على أن قوله : ﴿رَسُولٌ﴾ فاعل جاء ، لأنه لا يخلو من الضمير وإلا فهذا القول صحيح على أن يكون الفاعل مضمراً ، ورسول : خبر الموصول. ولم يرد الزمخشري إلا الأول ، وهو ظاهر الآية.

(٢) عاد كلامه ، قال مجيباً عن السؤال : «قلت : بلى ... الخ» قال أحمد : يريد أن الكلام وإن خلا من العائد إلا أنه في معنى كلام يتحقق فيه العائد فيجوز دخوله في الصلة ، والله أعلم.

ثم جاءكم رسول مصدق له وجب عليكم الإيمان به ونصرته. وقيل : أصله لمن ما ، فاستثقلوا اجتماع ثلاث ميمات وهي الميمان والنون المنقلبة ميمًا بإدغامها في الميم ، فحذفوا إحداها فصارت لما. ومعناه : لمن أجل ما آتيتكم لتؤمنن به ، وهذا نحو من قراءة حمزة في المعنى ﴿إِصْرِي﴾ عهدى. وقرئ : أصرى ، بالضم. وسمى إصرًا ، لأنه مما يؤصر ، أى يشدّ ويعقد. ومنه الإصار ، الذي يعقد به. ويجوز أن يكون المضموم لغة في أصر ، كعبر وعبر ، وأن يكون جمع إصار ﴿فَاشْهَدُوا﴾ فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ﴾ من إقراركم وتشاهدكم ﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ وهذا تأكيد عليهم وتحذير من الرجوع إذا علموا بشهادة الله وشهادة بعضهم على بعض. وقيل : الخطاب للملائكة ﴿فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ الميثاق والتوكيد ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أى المتمردون من الكفار دخلت همزة الإنكار على الفاء العاطفة جملة على جملة. والمعنى : فأولئك هم الفاسقون فغير دين الله ييغون ، ثم توسطت الهمزة بينهما. ويجوز أن يعطف على محذوف تقديره (أ) يتولون ﴿فَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبِغُونَ﴾ وقدم المفعول الذي هو غير دين الله على فعله لأنه أهم من حيث أنّ الإنكار الذي هو معنى الهمزة متوجه إلى المعبود بالباطل. وروى : أن أهل الكتاب اختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اختلفوا فيه من دين إبراهيم عليه السلام ؛ وكل واحد من الفريقين ادعى أنه أولى به ، فقال صلى الله عليه وسلم : «كلا الفريقين بريء من دين إبراهيم» ^(١) فقالوا : ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك. فنزلت : وقرئ : ييغون ، بالياء : وترجعون ، بالتاء وهي قراءة أبى عمرو ، لأنّ الباغيين هم المتولون ، والراجعون جميع الناس. وقرئنا بالياء معا ، وبالتاء معا ﴿طُوعًا﴾ بالنظر في الأدلة والإنصاف من نفسه ﴿وَكَرْهًا﴾ بالسيف ، أو بمعاينة ما يلجئ إلى الإسلام كنتق الجبل على بنى إسرائيل ، وإدراك الغرق فرعون ، والإشفاء على الموت ^(٢) فلما رأوا بأسنا قالوا : آمنا بالله وحده. وانتصب طوعا وكرها على الحال ، بمعنى طائعين ومكرهين

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٤) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾
أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يخبر عن نفسه وعمن معه بالإيمان ، فلذلك وحد الضمير

(١) لم أجد له إسنادا ، وذكره الواحدي في الأسباب أيضا عن ابن عباس رضى الله عنهما.

(٢) قوله «والإشفاء على الموت» أى الاشراف ، كما في الصحاح. (ع)

في ﴿قُلْ﴾ وجمع في ﴿آمَنَّا﴾ ويجوز أن يؤمر بأن يتكلم عن نفسه كما يتكلم الملوك إجلالا من الله لقدر نبيه. فإن قلت : لم عدى أنزل في هذه الآية بحرف الاستعلاء ، وفيما تقدم من مثلها بحرف الانتهاء؟ قلت : لوجود المعنيين جميعا ، لأن الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسل ، فجاء تارة بأحد المعنيين ، وأخرى بالآخر. ومن قال : إنما قيل ﴿عَلَيْنَا﴾ لقوله : ﴿قُلْ﴾ ؛ و (إلينا) لقوله (قولوا) تفرقة بين الرسل والمؤمنين ، لأن الرسول يأتيه الوحي على طريق الاستعلاء ، ويأتيهم على وجه الانتهاء ، فقد تعسف. ألا ترى إلى قوله : ﴿بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ ، ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ وإلى قوله : ﴿آمَنُوا بِالَّذِي أَنْزَلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾. ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ موحدون مخلصون أنفسنا له لا نجعل له شريكا في عبادتها ؛ ثم قال ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ﴾ يعني التوحيد والإسلام الوجه لله تعالى ﴿دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ من الذين وقعوا في الخسران مطلقا من غير تقييد للشياع. وقرئ : ومن يتبع غير الإسلام بالإدغام.

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاءُهمُ أَنَّ عَلَيْهِمُ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩)

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا﴾ كيف يلطف بهم وليسوا من أهل اللطف ، لما علم الله من تصميمهم على كفرهم ، ودل على تصميمهم بأنهم كفروا بعد إيمانهم وبعد ما شهدوا بأن الرسول حق ، وبعد ما جاءهم الشواهد من القرآن وسائر المعجزات التي تثبت بمثلها النبوة . وهم اليهود . كفروا بالنبى صلى الله عليه وسلم بعد أن كانوا مؤمنين به ؛ وذلك حين عاينوا ما يوجب قوة إيمانهم من البينات : وقيل : نزلت في رهط كانوا أسلموا ثم رجعوا عن الإسلام ولحقوا بمكة ، منهم طعمة ابن أبيرق ، ووحوح بن الأسلت ، والحريث بن سويد بن الصامت. فإن قلت : علام عطف قوله ﴿وَشَهِدُوا﴾؟ قلت : فيه وجهان : أن يعطف على ما في إيمانهم من معنى الفعل ؛ لأن معناه بعد أن آمنوا ، كقوله تعالى : ﴿فَأَصْدَقَ وَأَكُنْ مِنْ﴾ وقول الشاعر :

... لَيْسُ _____ وَاحِدٌ _____ لِحَيْنَ عَشِيرَةٍ _____ وَلَا نَاعٍ _____ بِ (١)

(١) مشائيم ليسوا مصـ لحين عشيرة ولا ناعـ ب إلا يـين غراهم

أنشده أبو المهدى. والشؤم : ضد اليمن. والناعب : الصائح ، من باب ضرب ونفع. والبين : مصدر بمعنى .

ويجوز أن تكون الواو للحال بإضمار «قد» بمعنى كفروا وقد شهدوا أن الرسول حق ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ المعاندين الذين علم أن اللطف لا ينفعهم ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الكفر العظيم والارتداد ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أفسدوا أو ودخلوا في الإصلاح. وقيل : نزلت في الحرث بن سويد بعد أن ندم على رذته وأرسل إلى قومه أن سلوا : هل لي من توبة ، فأرسل إليه أخوه الجلاس بالآية ، فأقبل إلى المدينة فتاب وقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم توبته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الصَّالُونَ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٩١)

﴿ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ هم اليهود كفروا بعیسی والإنجیل بعد إيمانهم بموسی والتوراة ، ثم ازدادوا كفراً بكفرهم بمحمد والقرآن. أو كفروا برسول الله بعد ما كانوا به مؤمنين قبل مبعثه ثم ازدادوا كفراً بإصرارهم على ذلك وطعنهم في كل وقت ، وعداوتهم له ، ونقضهم ميثاقه ، وفتنتهم للمؤمنين ، وصددهم عن الإيمان به ، وسخرتهم بكل آية تنزل. وقيل : نزلت في الذين ارتدوا ولحقوا بمكة ، ازديادهم الكفر أن قالوا نقيم بمكة نترصد بمحمد ريب المنون ، وإن أردنا الرجعة تافقنا بإظهار التوبة. فإن قلت : قد علم أنّ المرتد كيفما ازداد كفراً فإنه مقبول التوبة إذا تاب فما معنى ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾؟ قلت : جعلت عبارة عن الموت على الكفر ، لأنّ الذي لا تقبل توبته من الكفار هو الذي يموت على الكفر ، كأنه قيل : إن اليهود أو المرتدين الذين فعلوا ما فعلوا مائتون على الكفر ، داخلون في جملة من لا تقبل توبتهم. فإن قلت : فلم قيل في إحدى الآيتين ﴿لَنْ تُقْبَلَ﴾ بغير فاء ، وفي الأخرى ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ﴾؟ قلت : قد أودن بالفاء أنّ الكلام بنى على الشرط والجزاء. وأن سبب امتناع قبول الفدية هو الموت على الكفر. وبترك الفاء أن الكلام مبتدأ وخبر ولا دليل فيه على التسبيب ، كما تقول : الذي جاءني له درهم ، لم تجعل المجيء سبباً في استحقاق الدرهم ، بخلاف قولك : فله درهم. فإن قلت : فحين كان المعنى ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾

. الانفصال والبعد. وجر ناعب على توهم : ليسوا بمصلحين ولا ناعب ، وجعل هذا جمهور النحاة مطرداً ، ومنعه بعضهم. وروى «إلا بشؤم» وصوت الغراب كثيراً ما تشاءم منه العرب. وهو كناية عن تشتت شمل تلك المشائيم وعدم اتفاق كلمتهم.

بمعنى الموت على الكفر ، فهلا جعل الموت على الكفر مسببا عن ارتدادهم وازديادهم الكفر لما في ذلك من قساوة القلوب وركوب الرين وجره إلى الموت على الكفر؟ قلت : لأنه كم من مرتد مزداد للكفر يرجع إلى الإسلام ولا يموت على الكفر. فإن قلت : فأى فائدة في هذه الكناية ، أعنى أن كنى عن الموت على الكفر بامتناع قبول التوبة؟ قلت : الفائدة فيها جليلة ، وهي التعليل في شأن أولئك الفريق من الكفار ، وإبراز حالهم في صورة حالة الآيسين من الرحمة التي هي أغلظ الأحوال وأشدّها : ألا ترى أنّ الموت على الكفر إنما يخاف من أجل اليأس من الرحمة ﴿ذَهَبًا﴾ نصب على التمييز. وقرأ الأعمش : ذهب ، بالرفع ردا على ملء ، كما يقال : عندي عشرون نفسا رجال. فإن قلت : كيف موقع قوله ﴿وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾^(١)؟ قلت : هو كلام محمول على المعنى ،

(١) قال محمود رحمه الله : «إن قلت كيف موقع قوله ولو افتدى به ... الخ» قال أحمد : لم يبين تطبيق لفظ الآية على هذا التقدير الذي ذهب إليه بوجه ، ونحن نبين السبب الباعث له على إخراج الكلام عن ظاهره ، ثم نقرر وجهها يطابق الآية ، وذلك أن هذه الواو المصاحبة للشرط تستدعى شرطا آخر يعطف عليه الشرط المقترية به ضرورة ، والعادة في مثل ذلك أن يكون المنطوق به منبها على المسكوت عنه بطريق الأولى ، مثاله قولك : أكرم زيدا ولو أساء ، فهذه الواو عطفت المذكور على محذوف تقديره : أكرم زيدا لو أحسن ولو أساء ، إلا أنك نبهت بإيجاب إكرامه إن أساء على أن إكرامه إن أحسن بطريق الأولى. ومنه ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ معناه . والله أعلم . : لو كان الحق على غيركم ، ولو كان عليكم ، ولكنه ذكر ما هو أعسر عليهم ، فأوجبه تنبيها على ما هو أسهل وأولى بالوجوب ، فإذا تبين مقتضى الواو في مثل هذه المواضع وجدت آية آل عمران هذه مخالفة لهذا النمط ظاهراً ، لأن قوله : ﴿وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ يقتضى شرطا آخر محذوفا يكون هذا المذكور منبها عليه بطريق الأولى ، وهذه الحال المذكورة وهي حالة افتدائهم بملء الأرض ذهباً هي حالة أجدر الحالات بقبول الفدية ، وليس وراءها حالة أخرى تكون أولى بالقبول منها ، فلذلك قدر الكلام بمعنى : لن يقبل من أحد منهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ، حتى تبين حالة أخرى يكون الافتداء الخاص بملء الأرض ذهباً هو أولى بالقبول منها ، فإذا انتفى حيث كان أولى فلأن ينتفي فيما عدا هذه الحالة أولى ، فهذا كله بيان للباعث له على التقدير المذكور. وأما تنزيل الآية عليه ففسر جداً ، فالأولى ذكر وجه يمكن تطبيق الآية عليه على أسهل وجه وأقرب مأخذ إن شاء الله فنقول : قبول الفدية التي هي ملء الأرض ذهباً يكون على أحوال : منها أن يؤخذ منه على وجه لقهر فدية عن نفسه كما تؤخذ الدية قهراً من مال القاتل على قول. ومنها أن يقول المفتدى في التقدير : أفدى نفسي بكذا ، وقد لا يفعل. ومنها أن يقول هذا القول وينجز المقدار الذي يفدى به نفسه ويجعله حاضراً عتيداً ، وقد يسلمه مثلاً لمن يأمن منه قبول فديته. وإذا تعددت الأحوال فالمراد في الآية أبلغ الأحوال وأجدرها بالقبول ، وهو أن يفتدى بملء الأرض ذهباً افتداءً محققاً بأن يقدر على هذا الأمر العظيم ويسلمه وينجزه اختياراً ، ومع ذلك لا يقبل منه ؛ فمجرد قوله أبذل المال وأقدر عليه أو ما يجري هذا المجرى بطريق الأولى ، فيكون دخول الواو والحالة هذه على بابها ، تنبيها على أن ثم أحوالا آخر لا ينفع فيها القبول بطريق الأولى بالنسبة إلى الحالة المذكورة. وقد ورد هذا المعنى مكشوفاً في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ كُفْرَهُمْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ﴾ والله أعلم. وهذا كله تسجيل بأنه لا محيص ولا مخلص لهم من الوعيد ، وإلا فمن المعلوم أنهم أعجز عن الفلس في ذلك اليوم. ونظير هذا التقدير من الأمثلة أن يقول القاتل : لا أبيعك هذا الثوب بألف دينار ولو سلمتها إلى في يدي هذه. فتأمل هذا النظر فانه من السهل الممتنع. والله ولى التوفيق.

كأنه قيل : فلن تقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً. ويجوز أن يراد : ولو افتدى بمثله ^(١) ، كقوله : ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ والمثل يحذف كثيراً في كلامهم ، كقولك : ضربته ضرب زيد ، تريد مثل ضربه. وأبو يوسف أبو حنيفة تريد مثله ولا هيثم الليلة للمطى ، وقضية ولا أبا حسن لها ، تريد : ولا مثل هيثم ، ولا مثل أبي حسن ، كما أنه يراد في نحو قولهم : مثلك لا يفعل كذا ، تريد أنت. وذلك أن المثليين يسد أحدهما مسد الآخر فكانا في حكم شيء واحد ، وأن يراد : فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً كان قد تصدق به ، ولو افتدى به أيضاً لم يقبل منه. وقرئ : فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ، على البناء للفاعل وهو الله عزّ وعلا ، ونصب ملء. ومل لرض بتخفيف الهمزتين ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٩٢)

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ﴾ لن تبلغوا حقيقة البر ، ولن تكونوا أبراراً. وقيل : لن تنالوا بر الله وهو ثوابه ﴿حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ حتى تكون نفقتكم من أموالكم التي تحبونها وتؤثرونها كقوله : ﴿أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ وكان السلف رحمهم الله إذا أحبوا شيئاً جعلوه لله. وروى أنها لما نزلت جاء أبو طلحة فقال : يا رسول الله. إن أحب أموالي إلىّ بيرحا فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «بخ بخ ذاك مال رابح ^(٢) أو مال رائج وإنى أرى أن تجعلها في الأقربين» فقال أبو طلحة : افعل يا رسول الله فقسّمها في أقاربه. وجاء زيد ابن حارثة بفرس له كان يحبها فقال : هذه في سبيل الله ، فحمل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد ، فكان زيدا وجد في نفسه وقال : إنما أردت أن أتصدق به. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إن الله تعالى قد قبلها ^(٣) منك. وكتب عمر رضى الله عنه إلى أبي موسى الأشعري أن يبتاع له جارية من سبي جلولاء يوم فتحت مدائن كسرى ، فلما جاءت أعجبتة فقال : إن الله تعالى يقول ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ ^(٤) فأعتقها. ونزل بأبي ذرّ ضيف فقال للراعي

(١) (عاد كلامه) قال : «ويجوز أن يكون معنى الكلام ولو افتدى بمثله ... الخ» قال أحمد : وعلى هذا النمط يجرى الكلام على التأويل المتقدم لأنه نبه بعدم قبول مثلي ملء الأرض ذهباً على عدم قبول ملئها مرة واحدة بطريق الأولى.

(٢) متفق عليه من حديث إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن انس بن مالك رضى الله عنه.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره والطبري من طريقه : أخبرنا معمر عن أيوب وغيره «أنه لما نزلت ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ جاء زيد بن حارثة بفرس له . فذكره وهو معضل. وأخرجه الطبري من رواية عمرو بن دينار نحوه مرسلًا ، ورجاله ثقات.

(٤) رواه الطبري من رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قال «كتب عمر إلى أبي موسى . فذكره».

اثنني بخير إبلَى فجاء بناقاة مهزولة. فقال : خنتني ، قال : وجدت خير الإبل فحلها ، فذكرت يوم حاجتكم إليه فقال : إنّ يوم حاجتي إليه ليوم أوضع في حفرتي. وقرأ عبد الله : حتى تنفقوا بعض ما تحبون. وهذا دليل على أنّ «من» في : ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ للتبعيض. ونحوه : أخذت من المال. ومن في ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ لتبيين ما تنفقوا ، أى من أى شيء كان طيباً تحبونه أو خبيثاً تكرهونه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ عليهم بكل شيء تنفقونه فمجازيكم بحسبه.

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٩٤)

﴿كُلُّ الطَّعَامِ﴾ كل المطعومات أو كل أنواع الطعام. والحل مصدر. يقال : حل الشيء حلاً كقولك : ذلت الدابة ذلاً ، وعزّ الرجل عزراً ، وفي حديث عائشة رضی الله عنها : كنت أطيبه لحله وحرمة^(١) ولذلك استوى في الوصف به المذكر والمؤنث والواحد والجمع. قال الله تعالى : لا هنّ حلّ لهم. والذي حرم إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام على نفسه لحوم الإبل وألبانها وقيل العروق. كان به عرق النسا ، فنذر إن شفى أن يحرم على نفسه أحب الطعام إليه ، وكان ذلك أحبه إليه فحرّمه. وقيل : أشارت عليه الأطباء باجتنابه ، ففعل ذلك بإذن من الله ، فهو كتحریم الله ابتداء والمعنى أن المطاعم كلها لم تنزل حلالاً لبني إسرائيل من قبل إنزال التوراة وتحريم ما حرم عليهم منها لظلمهم وبغيهم لم يحرم منها شيء قبل ذلك غير المطعوم الواحد الذي حرّمه أبوهم إسرائيل على نفسه فتبعوه على تحريمه ، وهو رد على اليهود وتكذيب لهم ، حيث أرادوا براءة ساحتهم مما نعى عليهم في قوله تعالى : ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ إلى قوله تعالى ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وفي قوله : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ إلى قوله : ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ وجحود ما غاظهم واشتأزوا منه وامتنعوا^(٢) مما نطق به القرآن من تحريم الطيبات عليهم لبغيهم وظلمهم ، فقالوا : لسنا بأول من حرّمت عليه ، وما هو إلا تحريم قديم ، كانت محرّمة على نوح وعلى إبراهيم ومن بعده من بني إسرائيل وهلم جرا ، إلى أن انتهى التحريم إلينا ، فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا. وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبغي والظلم والصدّ عن سبيل الله وأكل الربا وأخذ أموال الناس بالباطل ،

(١) متفق عليه من حديثها.

(٢) قوله «واشتمأزوا منه وامتنعوا» أى غضبوا منه وشق عليهم ، أفاده الصحاح. (ع)

وما عدّد من مساوئهم التي كلما ارتكبوا منها كبيرة حُرّم عليهم نوع من الطيبات عقوبة لهم ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا﴾ أمر بأن يحاجهم بكتابتهم ويكتهم مما هو ناطق به من أن تحريم ما حرّم عليهم تحريم حادث بسبب ظلمهم وبغيهم ، لا تحريم قديم كما يدعونه ، فروى أنهم لم يجسروا على إخراج التوراة ويهتوا وانقلبوا صاغرين ، وفي ذلك الحجة البينة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى جواز النسخ الذي ينكرونه ﴿فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ﴾ بزعمه أن ذلك كان محرماً على بني إسرائيل قبل إنزال التوراة من بعد ما لزمهم من الحجة القاطعة ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ المكابرون الذين لا ينصفون من أنفسهم ولا يلتفتون إلى البينات.

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٥)

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ تعريض بكذبهم كقوله : ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أى ثبت أن الله صادق فيما أنزل وأنتم الكاذبون ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾ وهي ملة الإسلام التي عليها محمد ومن آمن معه ، حتى تتخلصوا من اليهودية التي ورطتكم في فساد دينكم ودنياكم ، حيث اضطرتكم إلى تحريف كتاب الله لتسوية أغراضكم ، وألزمتكم تحريم الطيبات التي أحلها الله لإبراهيم ولمن تبعه.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (٩٧)

﴿وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ صفة لبیت ، والواضع هو الله عز وجلّ ، تدل عليه قراءة من قرأ ﴿وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ بتسمية الفاعل وهو الله. ومعنى وضع الله بيتا للناس ، أنه جعله متعبداً لهم ، فكأنه قال : إن أول متعبد للناس الكعبة. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن أول مسجد وضع للناس فقال : «المسجد الحرام ، ثم بيت المقدس» وسئل كم بينهما؟ قال : «أربعون»^(١) سنة. وعن عليّ رضي الله عنه أن رجلاً قال له : أهو أول بيت؟ قال : لا ، قد كان قبله بيوت ، ولكنه أول بيت وضع للناس مباركا فيه الهدى والرحمة والبركة. وأول من بناه إبراهيم ثم بناه قوم من

(١) متفق عليه من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع للناس قال : المسجد الحرام. قلت : ثم؟ قال : بيت المقدس. قلت : كم بينهما؟ قال أربعون عاما ، ثم الأرض لك مسجد فحيث أدركتك الصلاة فصل».

العرب من جرهم ثم هدم فبنته العمالقة ثم هدم فبناه قريش. وعن ابن عباس : هو أول بيت حُجَّ بعد الطوفان. وقيل : هو أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق السماء والأرض ، خلقه قبل الأرض بألفي عام ، وكان زبدة بيضاء على الماء فدحيت الأرض تحته. وقيل : هو أول بيت بناه آدم في الأرض. وقيل : لما أهبط آدم قالت له الملائكة : طف حول هذا البيت فلقد طفنا قبلك بألفي عام ، وكان في موضعه قبل آدم بيت يقال له الضراح ، فرفع في الطوفان إلى السماء الرابعة تطوف به ملائكة السموات ﴿لِلَّذِي بَيْكَةً﴾ البيت الذي بيكة ، وهي علم للبلد الحرام : ومكة وبكة لغتان فيه ، نحو قولهم : النبط والنميط ، في اسم موضع بالدهناء : ونحوه من الاعتقاب : أمر راتب وراتم. وحى مغمطة ومغبطة ^(١). وقيل : مكة : البلد ، وبكة : موضع المسجد. وقيل : اشتقاقها من «بكه» إذا زحمه لازدحام الناس فيها. وعن قتادة : يبك الناس بعضهم بعضاً الرجال والنساء ، يصلى بعضهم بين يدي بعض ، لا يصلح ذلك إلا بمكة كأنها سميت ببكة وهي الرحمة. قال :

إِذَا الشَّـرِيبُ أَخَذَتْهُ الْأَكْـمَةُ فَخَلَّـهُ حَـيِّيْ يَبْـكُ بَكْـمَةً ^(٢)

وقيل : تبك أعناق الجبابة أى تدقها. لم يقصدها جبار إلا قصمه الله تعالى ﴿مُبَارَكاً﴾ كثير الخير لما يحصل لمن حجه واعتمره وعكف عنده وطاف حوله من الثواب وتكفير الذنوب ، وانتصابه على الحال من المستكن في الظرف ، لأن التقدير للذي بيكة هو ، والعامل فيه المقدر في الظرف من فعل الاستقرار ﴿وَهْدَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ لأنه قبلتهم ومتعبدتهم ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ عطف بيان لقوله ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾. فإن قلت : كيف صح بيان الجماعة بالواحد ^(٣)؟ قلت : فيه وجهان : أحدهما أن يجعل وحده بمنزلة آيات كثيرة لظهور شأنه وقوة دلالته على قدرة الله ونبوة إبراهيم من تأثير قدمه في حجر صلد ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ والثاني : اشتماله على آيات ^(٤) لأن أثر

(١) قوله «وحى مغمطة ومغبطة» في الصحاح : أغمطت عليه الحمى لغة في أغبطت ، أى دامت اه. (ع)

(٢) يقول إذا أخذت «الأكمة» وهي سوء الخلق «الشريب» الذي يشرب معك ، أو الذي يسقى إبله معك ، كأنها ملكته واستولت عليه «فخله» أى اتركه حتى يقطع من الماء قطعة ، أو حتى يزدحم بإبله على الماء مرة ، من الازدحام. وهذا وصية بمكارم الأخلاق ، والحلم عند الغضب ، والسماحة.

(٣) قال محمود : «إن قلت : كيف صح بيان الجماعة بالواحد ... الخ»؟ قال أحمد : ونظير هذا التأويل ما تقدم لي عند قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ قال محمود فيما تقدم «والذي صدر منهم أمانة واحدة ، فما وجه جمعها» وبينت فيها هذا بعينه ، وهو أن الشيء الواحد متى أريد تمكينه وامتيازه عن غيره من صفة جمع ، أفاد الجمع فيه ذلك ، وقد لاح لي الآن في جمع الأمانى. ثم وجه آخر ، وذلك أن كل واحد منهم صدرت منه هذه الأمانة ، فجمعها بهذا الاعتبار تنبيهها على تعددها بتعدددهم ، والعجب أن الجمع في مثل هذا هو الأصل ، وأن الافراد إنما يقع فيه على نوع ما من الاختصار. ومنه : كلوا في بعض بطنكم تصحوا.

(٤) عاد كلامه. قال : الوجه الثاني اشتماله على آيات لأن أثر القدم في الصخرة الصماء آية ، وغوصه فيها إلى الكعبين آية ، وإلانة بعض الصخر دون بعض آية ، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء آية ، وحفظه مع كثرة عدوه من

القدم في الصخرة الصماء آية ، وغوصه فيها إلى الكعبين آية ، وغوصه فيها إلى الكعبين آية ، وإلانة بعض الصخر دون بعض آية ، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام آية لإبراهيم خاصة ، وحفظه مع كثرة أعدائه من المشركين وأهل الكتاب والملاحدة أُلوف سنة آية. ويجوز أن يراد : فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، وأمن من دخله ، لأنّ الاثنين نوع من الجمع كالثلاثة والأربعاء. ويجوز أن تذكر هاتان الآيتان ويطوى ذكر غيرها. دلالة على تكاثر الآيات ، كأنه قبل : فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، وأمن من دخله ، وكثير سواهما. ونحوه في طيّ الذكر قول جرير :

كَأَنَّكَ حَتِيفٌ أَنْتَ أَثَلًا فُتِّلَتْهُمْ ————— مِنْ الْعَبِيدِ وَتُلْتُ مِنْ مَوَالِيهِ^(١)

ومنه قوله عليه السلام «حبب إليّ من دنياكم ثلاث : الطيب ، والنساء ، وقرة عيني في الصلاة»^(٢) وقرأ ابن عباس وأبي ومجاهد وأبو جعفر المدني في رواية قتبية : آية بينة ، على التوحيد. وفيها دليل على أنّ مقام إبراهيم واقع وحده عطف بيان. فإن قلت : كيف أجزت أن يكون مقام إبراهيم والأمن عطف بيان للآيات؟ وقوله : ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ جملة مستأنفة إما ابتدائية وإما شرطية؟ قلت : أجزت ذلك من حيث المعنى ، لأن قوله : ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ دلّ على أمن داخله ، فكأنه قيل : فيه آيات بينات : مقام إبراهيم ، وأمن داخله. ألا ترى أنك لو قلت : فيه آية بينة ، من دخله كان آمنا صحّ ، لأنه في معنى قولك : فيه آية بينة ، أمن من دخله. فإن قلت : كيف

. المشركين وأهل الكتاب والملاحدة أُلوف سنة آية ، ويجوز أن يريد مقام إبراهيم وأمن من دخله ، وكثيراً سواهما والله أعلم.

(١) لجرير يقول : كانت هذه القبيلة منقسمة أثلاثاً ، فتلتها من العبيد الأرقاء ، وتلتها من عتقى القبيلة أو من عتقى العبيد. وعليه فالإضافة على معنى «من» ولم يذكر الثلث الثالث ، لأنه من المعلوم أنه لم يبق إلا السادة الأشراف ، بدليل الحصر في الأثلاث ، والترقي من العبيد إلى العتقى. وهذا يحتمل الدم ، وأن ثلث القبيلة فقط كرام والباقي لثام. ويحتمل المدح وأن خدمهم من العبيد كثير.

(٢) قد تقدم أنه أوردته عند قوله تعالى : ﴿وَإِنَّمَا لِكَبِيرَةٍ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ مختصراً. وقد تقدم أن النسائي أخرجه من طريق سيار بن حاتم عن جعفر بن سليمان ومن طريق سلام بن مسكين ، كلاهما عن ثابت عن أنس. ومن طريق سيار. رواه أحمد في الزهد والحاكم في المستدرک. ومن طريق سلام أخرجه أحمد وابن أبي شيبة وابن سعد والبخاري وأبو يعلى ، وابن عدی في الكامل ، وأعله به ، والعقيلي في الضعفاء كذلك. وقال الدارقطني في علله. رواه أبو المنذر سلام. وسلام بن أبي الصهباء وجعفر بن سليمان ، فرووه عن ثابت عن أنس ، وخالفهم حماد بن زيد عن ثابت مرسلًا. وكذا رواه محمد بن ثابت البصري. والمرسل أشبه بالصواب. وقد رواه عبد الله بن أحمد في زيادات الزهد عن غير أبيه من طريق يوسف بن عطية ، عن ثابت مرسلًا أيضًا. ويوسف ضعيف. وله طريق أخرى معلولة عند الطبراني في الأوسط عن محمد بن عبد الله الحضرمي عن يحيى بن عثمان الحريري عن الهقل بن زياد عن الأوزاعي عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس مثله قلت : ليس في شيء من طرقه لفظ «ثلاث» بل أوله عند الجميع «حبب إلي من دنياكم النساء . الحديث» وزيادة «ثلاث» تفسد المعنى. على أن الامام أبا بكر بن فورك شرحه في جزء مفرد بإثباتها ، وكذلك أوردته الغزالي في الأحياء واشتهر على الألسنة.

كان سبب هذا الأثر؟ قلت : فيه قولان : أحدهما أنه لما ارتفع بنيان الكعبة وضعف إبراهيم عن رفع الحجارة قام على هذا الحجر فغاصت فيه قدماه. وقيل : إنه جاء زائراً من الشام إلى مكة فقالت له امرأة إسماعيل : انزل حتى يغسل رأسك ، فلم ينزل ، فجاءته بهذا الحجر فوضعتة على شقه الأيمن ، فوضع قدمه عليه حتى غسلت شق رأسه ، ثم حولته إلى شقه الأيسر حتى غسلت الشق الآخر ، فبقى أثر قدميه عليه. ومعنى ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ معنى قوله : ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ وكان الرجل لو جر كل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يطلب. وعن عمر رضي الله عنه «لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه»^(١) وعند أبي حنيفة : من لزمه القتل في الحل بقصاص أو ردّة أو زنى فالتجأ إلى الحرم لم يتعرض له ، إلا أنه لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى ولا يبايع حتى يضطر إلى الخروج. وقيل : آمنة من النار. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة^(٢) آمناً» وعنه عليه الصلاة والسلام «الحجون والبقيع يؤخذ بأطرافهما وينثران في الجنة^(٣)» وهما مقبرتا مكة والمدينة. وعن ابن مسعود : وقف رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم على ثنية الحجون وليس بها يومئذ مقبرة ، فقال «يبعث الله من هذه البقعة ومن هذا الحرم كله سبعين ألفاً وجوههم كالقمر ليلة البدر ، يدخلون الجنة بغير حساب ، يشفع كل واحد منهم في سبعين ألفاً وجوههم كالقمر ليلة البدر^(٤)» وعن النبي صلى الله عليه وسلم «من صبر على حرّ مكة ساعة من نهار ، تباعدت منه جهنم مسيرة مائتي^(٥) عام» (من)

(١) أخرجه عبد الرزاق في كتاب الحج من مصنفه وأبو الوليد الأزرقى في تاريخ مكة من طريقه عن ابن جريج ، سمعت ابن أبي حسين عن عكرمة بن خالد قال قال عمر بهذا وهذا منقطع.
(٢) قال إسحاق : أخبرنا عيسى ابن يونس حدثنا ثور بن يزيد حدثني شيخ عن أنس به. ورواه البيهقي في الشعب من طريق ابن أبي فديك عن سليمان بن يزيد الكعبي عن أنس به وزاد «من زارني محتسباً إلى المدينة كان في جوارى يوم القيامة» وأخرجه أبو داود الطيالسي تاماً من حديث عمر رضي الله عنه بإسناد فيه ضعف ، وهو مجهول ، وقال عبد الرزاق في مصنفه ، أخبرنا يحيى بن العلاء وغيره ، وغالب بن عبيد الله يرفعه ، فذكره ، ويحيى وغالب ضعيفان جداً وأخرجه الدارقطني من رواية هارون بن أبي قزعة عن رجل من آل حاطب عن حاطب بتمامه ، وهو معلول «ورواه الطبراني في الأوسط والصغير ، من وجهين عن عبد الله بن المؤمل عن أبي الزبير عن جابر دون الزيادة ، وأورده ابن عدى في ترجمة عبد الله بن المؤمل : وأخرجه البيهقي في الشعب والطبراني من حديث عبد الغفور ابن سعيد الأنصاري عن أبي هاشم الرماني عن زاذان عن سلمان قال البيهقي عبد الغفور ضعيف ، وقد روى بإسناد أحسن من هذا ، ثم ذكر طريق عبد الله بن المؤمل ، وقد أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات من طريق عبد الغفور ونقل عن ابن حبان أنه قال : كان يضع الحديث. قلت : وهذا من غلط ابن الجوزي في تصرفه فانه لم يختص بعبد الغفور

(٣) لم أجده.

(٤) لم أجده.

(٥) هكذا ذكره أبو الوليد الأزرقى في تاريخ مكة ، لكن بغير إسناد. وقد أخرجه العقيلي في الضعفاء في ترجمة

استطاع بدل من الناس. وروى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر الاستطاعة بالزاد والراحلة ^(١) ، وكذا عن ابن عباس وابن عمر وعليه أكثر العلماء. وعن ابن الزبير : هو على قدر القوة. ومذهب مالك أن الرجل إذا وثق بقوته لزمه. وعنه : ذلك على قدر الطاقة ، وقد يجد الزاد والراحلة من لا يقدر على السفر ، وقد يقدر عليه من لا زاد له ولا راحلة ، وعن الضحاك : إذا قدر أن يؤجر نفسه فهو مستطيع. وقيل له في ذلك فقال : إن كان لبعضهم ميراث بمكة أكان يتركه؟ بل كان ينطلق إليه ولو حبوا فكذاك يجب عليه الحج. والضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ للبيت أو للحج. وكل ما أتى إلى الشيء فهو سبيل إليه وفي هذا الكلام أنواع من التوكيد والتشديد ؛ ومنها قوله : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ ^(٢) يعنى أنه حق واجب لله في رقاب الناس لا ينفكون عن أدائه والخروج من عهده. ومنها أنه ذكر الناس ثم أبدل عنه من استطاع إليه سبيلا ، وفيه ضربان من التأكيد : أحدهما أن الإبدال تثنية للمراد وتكرير له ، والثاني أن الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال إيراد له في صورتين مختلفتين. ومنها قوله : ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ مكان ومن لم يحج تغليظا على تارك الحج ؛ ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا أو نصرانيا» ^(٣) ونحوه من التغليظ «من ترك الصلاة متعمدا

. الحسن بن رشيد عن ابن جريح عن عطاء عن ابن عباس رفعه «من صبر في حر مكة ساعة باعد الله منه جهنم سبعين خريفاً ، وقال هذا باطل ، لا أصل له ، والحسن بن رشيد يحدث بالمنكير. وأورده أبو شجاع في الفردوس من حديث أنس ، بلفظ «تباعدت عنه جهنم مسيرة مائة عام وتقربت منه الجنة مائة عام».

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه ، من حديث عمر ، بلفظ السبيل الزاد والراحلة» فيه ابراهيم بن يزيد الجوزي وهو ضعيف والحاكم من حديث أنس ، وهو معلول. وأخرجه الدارقطني والحاكم من رواية قتادة عن أنس ، لكن قال البيهقي : الصواب عن قتادة عن الحسن مرسلا ، وأخرجه ابن ماجه عن عباس ، وإسناده ضعيف ، والصحيح عنه قوله ، كما أخرجه ابن المنذر. وقال : لا يثبت مرفوعا. وفي الباب عن علي وابن مسعود. وعائشة وجابر وعبد الله ابن عمر. وأخرجها الدارقطني بأسانيد ضعيفة.

(٢) قال محمود : «وفي الكلام أنواع من التوكيد منها قوله : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ﴾ أى في رقابهم لا ينفكون عن ... الخ» قال أحمد : قوله «إن المراد بمن كفر من ترك الحج وعبر عنه بالكفر تغليظا عليه» فيه نظر ، فان قاعدة أهل السنة توجب أن تارك الحج لا يكفر بمجرد تركه قولاً واحداً ، فيتعين حمل الآية على تارك الحج جاحداً لوجوبه ، وحينئذ يكون الكفر راجعاً إلى الاعتقاد لا إلى مجرد الترك. وأما الزمخشري فيستحل ذلك لأن تارك الحج بمجرد الترك يخرج من رتبة الايمان ومن اسمه ومن حكمه ، لأنه عنده غير مؤمن ومخلد تخليد الكفار. وعلى قاعدة السنة يتعين المصير إلى ما ذكرناه ، هذا إن كان المراد بمن كفر من ترك الحج. ويحتمل أن يكون استئناف وعيد للكافر ، فيبقى على ظاهره والله أعلم.

(٣) أخرجه الترمذي من رواية هلال بن عبد الله الباهلي : حدثنا أبو إسحاق عن الحارث عن علي رفعه «من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا» وقال : غريب وفي إسناده مقال. وهلال بن عبد الله مجهول. والحارث بضعف. وأخرجه البزار من هذا الوجه. وقال : لا نعلمه عن علي إلا من هذا.

فقد كفر»^(١) ومنها ذكر الاستغناء عنه وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان ، ومنها قوله ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ وإن لم يقل عنه ، وما فيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان ، لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لا محالة ، ولأنه يدل على الاستغناء الكامل فكان أدلّ على عظم السخط الذي وقع عبارة عنه. وعن سعيد بن المسيب نزلت في اليهود ، فإنهم قالوا : الحج إلى مكة غير واجب وروى أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الأديان كلهم^(٢) فخطبهم فقال ، إن الله كتب عليكم الحج فحجوا» فأمنت به ملة واحدة وهم المسلمون وكفرت به خمس ملل قالوا : لا نؤمن به ولا نصلى إليه ولا نحجه ، فنزل ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ وعن النبي صلى الله عليه وسلم «حجوا قبل أن لا تحجوا ، فإنه قد هدم البيت مرتين ويرفع في الثالثة»^(٣) وروى «حجوا قبل أن لا تحجوا ، حجوا قبل أن يمنع البر جانبه»^(٤) وعن ابن مسعود : حجوا هذا البيت قبل أن تنبت

. الوجه وأخرجه ابن عدى والعقيلي في ترجمة هلال ونقلا عن البخاري أنه منكر الحديث. وقال البيهقي في الشعب : تفرد به هلال. وله شاهد من حديث أبي أمامة ، أخرجه الدرامي بلفظ «من لم يمنعه عن الحج حاجة ظاهرة أو سلطان جائر أو مرض حابس فمات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً» أخرجه من رواية شريك عن ليث ابن أبي سليم عن عبد الرحمن بن سابط عنه. ومن هذا الوجه أخرجه البيهقي في الشعب. وقد أخرجه ابن أبي شيبة عن أبي الأحوص عن ليث عن عبد الرحمن مرسلًا ، لم يذكر أبا أمامة. وأورده ابن الجوزي في الموضوعات من طريق ابن عدى. وابن عدى أورده في الكامل في ترجمة أبي المهزوم يزيد بن سفيان عن أبي هريرة مرفوعاً ونحوه. ونقل عن الفلاس أنه كذب أبا المهزم وهذا من غلط ابن الجوزي في تصرفه. لأن الطريق إلى أبي أمامة ليس فيه من اتهم بالكذب ، فضلاً عن كذب.

(١) أخرجه الدارقطني في العلل. من رواية أبي النضر هاشم بن القاسم عن أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أنس قال : رواه علي بن الجعد عن أبي جعفر عن الربيع مرسلًا. وهو أشبه بالصواب. ورواه البزار من حديث أبي الدرداء قال «أوصاني أبو القاسم صلى الله عليه وسلم أن لا أشرك بالله شيئاً وإن حرقت ، ولا أترك صلاة مكتوبة متعمداً. فمن تركها متعمداً فقد كفر ، ولا أشرب الخمر ، فإنها مفتاح كل شر» أخرجه من رواية راشد الخثاني عن شهر بن حوشب. وقال : راشد بصرى ليس به بأس. وشهر مشهور. والحديث عند الترمذي والنسائي وأحمد وابن حبان والحاكم من حديث بريدة دون قوله «متعمداً» ولفظه «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر» قد تقدم في البقرة حديث جابر عند مسلم «بين العبد والكفر ترك الصلاة» وروى الترمذي من طريق عبد الله بن شقيق قال «كان أصحاب محمد النبي صلى الله عليه وسلم لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر إلا الصلاة» وإسناده صحيح. الحاكم من حديث أبي هريرة رضى الله عنه

(٢) أخرجه الطبري من طريق جوير عن الضحاك قال : «لما نزلت . فذكره» وهو معضل. وجوير متروك الحديث ساقط

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة أخبرنا يزيد بن هارون عن حميد عن بكر بن عبد الله المزني عن عبد الله بن عمر قال «تمتعوا من هذا البيت ، فانه . فذكره موقوفاً» وقد روى مرفوعاً : أخرجه ابن حبان والحاكم والبزار والطبراني من طريق سفيان بن حبيب عن حميد بهذا.

(٤) لم أره هكذا. والذي في الدارقطني في آخر كتاب الحج من السنن من رواية عبد الله بن عيسى الجندي عن محمد ابن أبي محمد عن أبيه عن أبي هريرة . رفعه «حجوا قبل أن لا تحجوا. قالوا : وما شأن الحج يا رسول الله ، قال : يفعله أعراجمها على أذنان أوديتها ، فلا يصل إلى الحج أحد» وعبد الله ومحمد مجهولان ، قاله العقيلي.

في البادية شجرة لا تأكل منها دابة إلا نفقت ^(١). وعن عمر رضى الله عنه : لو ترك الناس الحج عاما واحدا ما نوظروا ^(٢). وقرئ حج البيت بالكسر.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٨) **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُوهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾** (٩٩)

﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ﴾ الواو للحال. والمعنى : لم تكفرون بآيات الله التي دلتكم على صدق محمد صلى الله عليه وسلم والحال أن الله شهيد على أعمالكم فمجازيكم عليها ، وهذه الحال توجب أن لا تحسروا على الكفر بآياته. قرأ الحسن : تصدّون ، من أصدّه ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن دين حق علم أنه سبيل الله التي أمر بسلوكها وهو الإسلام ، وكانوا يفتنون المؤمنين ويحتالون لصدّهم عنه ، ويمنعون من أراد الدخول فيه بجهدهم. وقيل : أتت اليهود الأوس والخزرج فذكروهم ما كان بينهم في الجاهلية من العداوات والحروب ليعودوا لمثله ﴿تَبْغُوهَا عِوَجًا﴾ تطلبون لها اعوجاجاً ^(٣) وميلا عن القصد والاستقامة. فإن قلت : كيف تبغونها عوجا ^(٤) وهو محال؟ قلت فيه معنيان : أحدهما أنكم تلبسون على الناس حتى توهموهم أنّ فيها عوجا بقولكم : إن شريعة موسى لا تنسخ ، وبتغييركم صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وجهها ونحو ذلك. والثاني : أنكم تتبعون أنفسكم في إخفاء الحق وابتغاء ما لا يتأتى لكم من وجود العوج فيما هو أقوم من كل مستقيم ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ أنها سبيل الله لا يصدّ عنها إلا ضال مضل ، أو وأنتم شهداء بين أهل دينكم ، عدول يثقون بأقوالكم ويستشهدونكم في عظام أمورهم ، وهم الأخبار ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ﴾ وعيد ، ومحل تبغونها نصب على الحال.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا قَرِيبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ (١٠٠)

(١) لم أجده.

(٢) لم أجده. وفي مصنف عبد الرزاق من رواية سالم بن أبي حفصة عن ابن عباس قال «لو ترك الناس زيارة هذا البيت عاما واحداً ما مطروا» وهو منقطع.

(٣) قال محمود : «أى تطلبون لها اعوجاجا ... الخ» قال أحمد : وفي تقديره الجار مع ضمير المفعول حيث قال : تطلبون لها اعوجاجا ، تنقيص من المعنى ، وأتم من إعرابه معنى أن تجعل الهاء هي المفعول به وعوجا حال وقع فيها المصدر الذي هو عوجا موقع الاسم. وفي هذا الاعراب من المبالغة أنهم يطلبون أن تكون الطريقة المستقيمة نفس العوج على طريقة المبالغة في مثل رجل صوم ، ويكون ذلك أبلغ في ذمهم وتوبيخهم ، والله أعلم.

(٤) قوله «فان قلت كيف تبغونها عوجا» لعله : كيف قال تبغونها. أو لعله : كيف يبغونها. (ع)

قيل مرَّ شاس بن قيس اليهودي ^(١) . وكان عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد لهم . على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج في مجلس لهم يتحدثون ، فغاضه ذلك حيث تألفوا واجتمعوا بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة وقال : ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار ، فأمر شابا من اليهود أن يجلس إليهم ويذكرهم يوم بعث ^(٢) وينشدهم بعض ما قيل فيه من الأشعار ، وكان يوما اقتتل في الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس . ففعل فتنازع القوم عند ذلك وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا : السلاح السلاح ، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار فقال : أتدعون الجاهلية ^(٣) وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم . فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم ، فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضا ، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما كان يوم أقبح أولا وأحسن آخرًا من ذلك اليوم .

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٠١)

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ معنى الاستفهام فيه الإنكار والتعجيب ، والمعنى : من أين يتطرق إليكم الكفر والحال أن آيات الله وهي القرآن المعجز ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ على لسان الرسول غضة طرية ^(٤) وبين أظهركم رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبهكم ويعظكم ويزيح شبهكم ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾ ومن يتمسك بدينه . ويجوز أن يكون حثا لهم على الالتجاء إليه في دفع شرور الكفار ومكائدهم ﴿فَقَدْ هُدِيَ﴾ فقد حصل له الهدى لا محالة كما تقول : إذا جئت فلانا فقد أفلحت ، كأن الهدى قد حصل فهو يخبر عنه حاصلًا . ومعنى التوقع في «قد» ظاهر لأن المعتصم

(١) أخرجه الطبري عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه بلفظه وأخرجه ابن إسحاق في المغازي ، من طريق الطبري أيضا قال : حدثنا الثقة عن زيد بن أسلم مطولا . وذكره ابن هشام فلم يذكر إسناد إسحاق . وزاد في آخره «وكان يومئذ على الأوس حضير بن سمالك والد أسيد ، وكان على الخزرج عمرو بن النعمان البياضي ، فقتلا جميعا . وأنزل الله في شاس ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ . الآية وذكره الثعلبي والواحدي في أسبابه عن زيد بن أسلم بغير إسناد .

(٢) قوله «يوم بعث» بعث بالضم يوم وقعة للأوس والخزرج . (ع)

(٣) قوله «فقال أتدعون الجاهلية» في الشهاب على البيضاوي أنه محرف والرواية أبدعوى الجاهلية أى أتأخذون بها (ع)

(٤) قوله «على لسان الرسول غضة طرية» في الصحاح : شيء غض ، أى طرى ، وكل ناضر غض ، نحو الشباب وغيره . وفيه شيء طرى ، أى غض بين الطراوة . (ع)

بالله متوقع للهدى ، كما أن قاصد الكريم متوقع للفلاح عنده.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٠٣)

﴿حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ واجب تقواه وما يحق منها ، وهو القيام بالموجب واجتناب المحارم ، ونحوه ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ يريد : بالغوا في التقوى حتى لا تتركوا من المستطاع منها شيئا. وعن عبد الله : هو أن يطاع فلا يعصى ، ويشكر فلا يكفر ، ويذكر فلا ينسى ^(١)» وروى مرفوعا. وقيل : هو أن لا تأخذه في الله لومة لائم ، ويقوم بالقسط ولو على نفسه أو ابنه أو أبيه. وقيل : لا يتقى الله عبد حق تقاته حتى يخزن لسانه ، والتقاة من اتقى كالتؤدة من اتأد ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ﴾ معناه : ولا تكوننَّ على حال سوى حال الإسلام إذا أدرككم الموت ، كما تقول لمن تستعين به على لقاء العدو : لا تأتني إلا وأنت على حصان ، فلا تنهاه عن الإتيان ولكنك تنهاه عن خلاف الحال التي شرطت عليه في وقت الإتيان. قولهم اعتصمت بحبله : يجوز أن يكون تمثيلا لاستظهاره به ووثوقه بحمايته ، بامتسак المتدلى من مكان مرتفع بحبل وثيق يأمن انقطاعه ، وأن يكون الحبل استعارة لعهد والاعتصام لوثوقه بالعهد ، أو ترشيحا لاستعارة الحبل بما يناسبه. والمعنى : واجتمعوا على استعانتكم بالله ووثوقكم به ولا تفرقوا عنه. أو واجتمعوا على التمسك بعهدته إلى عباده وهو الإيمان والطاعة ؛ أو بكتابه لقول النبي صلى الله عليه وسلم «القرآن حبل الله المتين لا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الردّ ، من قال به صدق ؛ ومن عمل به رشد ، ومن اعتصم به هدى إلى صراط مستقيم» ^(٢). ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ ولا تفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف

(١) قال المصنف وروى مرفوعا انتهى. فأما الموقوف فأخرجه الحاكم من طريق مسعر عن زيد عن مرة عنه ، وكذلك أخرجه عبد الرزاق ومن طريقه الطبري وابن أبي حاتم والطبراني ، وقال أبو نعيم في ترجمة مسعر من الحلية : حدثنا سليمان بن أحمد ، وهو الطبراني . فذكره. ثم قال : هكذا رواه الناس عن زيد موقوفا. ورفع النضر عن محمد بن طلحة عن زيد ثم ساقه مرفوعا. وأخرجه ابن مردويه من طريق ابن وهب عن سفيان الثوري عن زيد مرفوعا أيضا. وله شاهد عن ابن عباس مرفوعا. أخرجه البيهقي في الشعب من رواية ابن جرير عن عطاء عن ابن عباس. لكنه من نسخة عبد الغنى بن سعيد الثقفي عن موسى بن عبد الرحمن الصنعاني. وهي ساقطة.

(٢) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن ، من حديث الحارث الأعور عن علي رضي الله عنه مطولا. وفيه قصة وقال : غريب لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات. وإسناده مجهول انتهى. وأخرجه ابن أبي شيبة

بينكم كما اختلفت اليهود والنصارى ، أو كما كنتم متفرقين في الجاهلية متدابرين يعادى بعضكم بعضا ويحاربه ، أو ولا تحدثوا ما يكون عنه التفرق ويزول معه الاجتماع والألفة التي أنتم عليها مما يأباه جامِعكم والمؤلف بينكم ، وهو اتباع الحق والتمسك بالإسلام. كانوا في الجاهلية بينهم الإحن والعداوات والحروب المتواصلة ، فألف الله بين قلوبهم بالإسلام. وقذف فيها المحبة فتحابوا وتوافقوا وصاروا ﴿إِخْوَانًا﴾ متراحين متناصحين مجتمعين على أمر واحد قد نظم بينهم وأزال الاختلاف ، وهو الأخوة في الله : وقيل : هم الأوس والخزرج ، كانا أخوين لأب وأم ، فوقعت بينهما العداوة وتطاولت الحروب مائة وعشرين سنة إلى أن أطفأ الله ذلك بالإسلام وألف بينهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ وكنتم مشفين ^(١) على أن تقعوا في نار جهنم لما كنتم عليه من الكفر ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ بالإسلام. والضمير للحفرة أو للنار أو للشفة ^(٢) وإنما أنث لإضافته إلى الحفرة وهو منها كما قال :

كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ الْقَنَآةِ مِنَ الدَّمِ ^(٣)

. وإسحاق والدارمي والبخاري قال البزار : لا نعلمه إلا من طريق علي . ولا نعلمه رواه عنه إلا الحارث انتهى . وله شاهد عن معاذ بن جبل . أخرجه الطبراني من رواية عمرو بن واقد عن يونس بن ميسرة عن ابن إدريس بلفظ «ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفتن فشدها. قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه : ما المخرج منها؟ قال : كتاب الله . فذكر الحديث بطوله. ورواه الحاكم من حديث ابن مسعود مرفوعا أيضا «إن هذا القرآن جبل الله والنور المبين ، والشافع ، عصمة لمن تمسك به ... الحديث» أخرجه من طريق صالح بن عمر عن إبراهيم البحري عن أبي الأحوص عنه . وإبراهيم ضعيف.

(١) قوله «وكنتم مشفين» أى مشرفين. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود : «الضمير للشفة وهو مذكر وإنما أنثه للاضافة ... الخ» قال أحمد : ويجوز عود الضمير إلى الحفرة فلا يحتاج إلى تأويله المذكور ، كما تقول : أكرمت غلام هند ، وأحسنيت إليها. والمعنى على عوده إلى الحفرة أتم ، لأنها التي يمتن بالانقاذ منها حقيقة. وأما الامتنان بالانقاذ من الشفا فلا يستلزمه الكون على الشفا غالبا ، من الهوى إلى الحفرة ، فيكون الانقاذ من الشفا إنقاذاً من الحفرة التي يتوقع الهوى فيها ، فاضافة المنة إلى الانقاذ من الحفرة تكون أبلغ وأوقع ، مع أن اكتساب التأنيث من المضاف إليه قد عده أبو علي في التعاليق من ضرورة الشعر. خلاف رأيه في الإيضاح. نقله ابن يسعون. وما حمل الزمخشري على إعادة الضمير إلى الشفا إلا أنه هو الذي كانوا عليه ، ولم يكونوا في الحفرة حتى يمتن عليهم بالانقاذ منها ، وقد بينا في أدراج هذا الكلام ما يسوغ الامتنان عليهم بالانقاذ من الحفرة ، لأنهم كانوا صائرين إليها غالبا لو لا الانقاذ الرباني. ألا ترى إلى قوله عليه السلام «المرتفع حول الحمى يوشك أن يقع فيه» وإلى قوله تعالى : ﴿أَمْ مِّنْ أَسْسٍ بُنْيَانُهُ عَلَىٰ شَفَا حُفْرٍ هَارٍ فَأَهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ وانظر كيف جعل تعالى كون البنيان على الشفا سببا مؤديا إلى أهياره في نار جهنم ، مع تأكيد ذلك بقوله : ﴿هَارٍ﴾ والله أعلم.

(٣) فلو كنـت في جـب ثمـانين قامـة	ورقيـت أسـباب السـماء بسـلم
ليسـت درجـتك القـول حـتى تمـره	وتعلـم أنى عنـدكم غـير مـفحـم
وتشـرق بالقـول الـذي قـد أذعـته	كـما شـرقت صـدر القنـاة مـن الـدم

للأعشى ميمون بن قيس وفيه وجهان : الأول أنه يصف رجلا بإفشاء السر ، وأنه لو تحيل لكتمه لم يقدر ، أى

وشفا الحفرة وشفتها : حرفها ، بالتذكير والتأنيث ، ولامها واو ، إلا أنها في المذكر مقلوبة وفي المؤنث محذوفة ، ونحو الشفا والشفة الجانب والجانبية. فإن قلت : كيف جعلوا على حرف حفرة من النار؟ قلت : لو ماتوا على ما كانوا عليه وقعوا في النار ، فمثلت حياتهم التي يتوقع بعدها الوقوع في النار بالقيود على حرفها مشفين على الوقوع فيها ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك البيان البليغ ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إرادة أن تزدادوا هدى.

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٤)

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ من للتبعيض ^(١) ، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات ، ولأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف والمنكر ، وعلم كيف يرتب الأمر في إقامته وكيف يباشر ، فإن الجاهل ربما نهي عن معروف وأمر بمنكر ، وربما عرف الحكم في مذهبه وجهله في مذهب صاحبه فنهاه عن غير منكر ، وقد يغلظ في موضع الدين ، ويلين في موضع الغلظة ، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تماديا ، أو على من الإنكار عليه عبث ،

. لو بالغت في الكتمان حتى كأنك كنت في بحر عميق. فالعدد كناية عن ذلك ، ثم رقيت من قعره وبلغت أسباب السماء ، أى أبوابها. وقوله «بسلم» مبالغة في التشبيه ، كأنه صعد حقيقة على سلم «ليستدرجنا» بالنون المخففة ، أى ليستنزلنا «القول» من السماء درجة درجة إلى قعر البئر كما كنت ويفسد تحيلك ، فتهره أى تقوله. ودرج الصبي : إذا قارب بين خطاه. ودرج القوم : مات بعضهم إثر بعض. وهر الكلب هريراً إذا صوت. وفيه إشعار بتشبيهه بالكلب النابح. وتعلم ، أى وأجيب أنا عن قولك فتعلم اني غير عاجز عن الجواب فيما بينكم. وروى «عنكم» بدل «عندكم» وهي هي. ورجع إلى بيان استدراج القول له فقال : وتشرق بالقول الذي قد أذعته ونشرته عنى. وشرق : إذا غص بريقه أو نحوه. وذاع الخبر ذيعا وذيوعا : انتشر. وأذاعه : نشره. أى لم تقدر على ابتلاعه وكتمانها كما لم يبلغ صدر القناة أى الرمح الدم الذي يكون عليه من القتل. وشبه القول الذي لم يقدر على كتمانها بالشيء الذي لم يقدر على ابتلاعه ، فاستعار الشرق للعجز عن الكتمان على طريق التصريحية. وشبه الشرق الأول بالثاني ليفيد ضمنا أن قوله كالدّم للمبالغة في عدم إمكان الكتمان. الوجه الثاني أن معناه لو كنت متباعداً عنى كأنك في قعر البئر ورقيت منه إلى السماء ليقربك القول إلى شيئاً فشيئاً حتى تهرة ، أى تكرهه وتبغضه ، وتعلم أنى عندكم غير عاجز عن الكلام الذي يقربك إلى ، وتشرق بالقول الذي قد أذعته أنا عنك ؛ فالتاء على هذا للمتكلم ، أى لم تقدر على استماعه ودخوله أذنك كما لم تقدر صدر القناة على ابتلاع الدم. وصدر القناة مذكر. ولكن اكتسب التأنيث من المضاف إليه ، فلذلك أنث فعله وقال شرقت ، وقيل القناة هنا مجرى الماء ، وأين هي من الدم.

(١) قال محمود «من للتبعيض ... الخ» قال أحمد : وفي هذا التبعض وتنكير أمة تنبيه على قلة العاملين بذلك ، وأنه لا يخاطب به إلا الخواص. ومن هذا الأسلوب قوله تعالى : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ **وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ** فإنما وجه الخطاب على نفس منكرة تنبيهها على قلة الناظر في معاده ، وكذلك قوله : ﴿وَتَعْبِهَا أُذُنٌ وَإِعْيَةٌ﴾ حتى ورد في التفسير أن المراد أذن واحدة مخصوصة وهي أذن على بن أبى طالب رضى الله عنه.

كالإنكار على أصحاب المآصر ^(١) والجلادين وأضربهم. وقيل «من» للتبيين ، بمعنى : وكونوا أمة تأمرون ، كقوله تعالى : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ﴾. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ هم الأخصاء بالفلاح دون غيرهم. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل وهو على المنبر : من خير الناس؟ قال : أمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر ، وأتقاهم لله وأوصلهم ^(٢). وعنه عليه السلام : «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه ، وخليفة رسوله ، وخليفة كتابه ^(٣)» وعن علي رضي الله عنه : أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومن شئى الفاسقين وغضب الله ، غضب الله له ^(٤). وعن حذيفة : يأتى على الناس زمان تكون فيهم جيفة الحمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر. وعن سفيان الثوري. إذا كان الرجل محببا في جيرانه محموداً عند إخوانه فاعلم أنه مدهن. والأمر بالمعروف تابع للمأمور به ، إن كان واجبا فواجب ، وإن كان ندبا فندب. وأما النهي عن المنكر فواجب كله ، لأن جميع المنكر تركه واجب لاتصافه بالقبح. فإن قلت : ما طريق الوجوب؟ قلت : قد اختلف فيه الشيخان ، فعند أبي علي : السمع والعقل ، وعند أبي هاشم : السمع وحده. فإن قلت : ما شرائط النهي؟ قلت : أن يعلم الناهي أن ما ينكره قبيح ، لأنه إذا لم يعلم لم يأمن أن ينكر الحسن ، وأن لا يكون ما ينهى عنه واقعا ، لأن الواقع لا يحسن النهي عنه ، وإنما يحسن الذم عليه والنهي عن أمثاله ، وأن لا يغلب على ظنه أن المنهي يزيد في منكراته ، وأن لا يغلب على ظنه أن نهيه لا يؤثر لأنه عبث. فإن قلت : فما شروط الوجوب؟ قلت : أن يغلب على ظنه وقوع المعصية نحو أن يرى الشارب

(١) قوله «المآصر» جمع مآصر ، وهو الخبس أى السجن ، أفاده الصحاح. (ع)

(٢) أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبري والبيهقي في الشعب من رواية شريك عن سماك عن عبد الله بن عميرة عن زوج درة بنت أبي لهب قالت «كنت عند عائشة ، فجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم كان ناداه وهو على المنبر فقال : يا رسول الله ، أى الناس خير؟ فذكره».

(٣) أخرجه ابن عدى في الكامل في ترجمة كادح بن رحمة من روايته عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن مسلم بن جابر عن عبادة بن الصامت. وكادح ساقط. وله شاهد مرسل أخرجه علي بن معبد في كتاب الطاعة عن بقية عن حسان بن سليمان عن أبي نضرة عن الحسن البصري. ومن هذا الوجه أخرجه الثعلبي.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية في ترجمة على مطولا ، من رواية خلاص بن عمرو قال : كنا جلوسا عند علي ابن أبي طالب رضى الله عنه إذ أتاه رجل من خزاعة فقال : يا أمير المؤمنين هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينعت الإسلام؟ قال : سمعته يقول : بنى الإسلام على أربعة أركان : الصبر واليقين والجهاد والعدل. فذكره. إلى أن قال : والجهاد أربع شعب : الأمر بالمعروف : والنهي عن المنكر. والصدق في مواطن الصبر. وشتان الفاسقين. فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمن. ومن نهى عن المنكر أرغم أنف الكافر. ومن صدق في مواطن الصبر أحرز دينه. وقضى ما عليه. ومن شئى الفاسقين فقد غضب الله. ومن غضب الله غضب الله له» وهو من طريق إسحاق ابن بشر عن مقاتل. وهما ساقطان. قال : ورواية العلاء بن عبد الرحمن عن قبيصة بن جابر عن علي رضي الله عنه.

قد تهيأ لشرب الخمر بإعداد آلاته ، وأن لا يغلب على ظنه أنه إن أنكر لحقته مضرة عظيمة. فإن قلت : كيف يباشر الإنكار؟ قلت : يبتدئ بالسهل ، فإن لم ينفع ترقى إلى الصعب ، لأنَّ الغرض كف المنكر. قال الله تعالى : فأصلحوا بينهما ، ثم قال : فقاتلوا ، فإن قلت : فمن يباشره؟ قلت : كل مسلم تمكن منه واختص بشرائطه ، وقد أجمعوا أن من رأى غيره تاركاً للصلاة وجب عليه الإنكار ، لأنه معلوم قبحه لكل أحد. وأما الإنكار الذي بالقتال ، فالإمام وخلفاؤه أولى لأنهم أعلم بالسياسة ومعهم عدتها. فإن قلت : فمن يؤمر ويُنهى؟ قلت : كل مكلف ، وغير المكلف إذا همَّ بضرر غيره مُنَّع ، كالصبيان والمجانين ، وينهى الصبيان عن المحرمات حتى لا يتعدوها ، كما يؤخذون بالصلاة ليمنروا عليها. فإن قلت : هل يجب على مرتكب المنكر أن ينهى عما يرتكبه قلت : نعم يجب عليه ، لأن ترك ارتكابه وإنكاره واجبان عليه ؛ فبتركه أحد الواجبين لا يسقط عنه الواجب الآخر. وعن السلف : مروا بالخير وإن لم تفعلوا. وعن الحسن أنه سمع مطرف بن عبد الله يقول : لا أقول ما لا أفعل ، فقال : وأينا يفعل ما يقول؟ ودَّ الشيطان لو ظفر بهذه منكم فلا يأمر أحد بمعروف ولا ينهى عن منكر. فإن قلت. كيف قيل ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾؟ قلت : الدعاء إلى الخير ^(١) عامٌّ في التكليف من الأفعال والتروك والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاص ، فجاء بالعام ثم عطف عليه الخاص إيداناً بفضله ، كقوله : ﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ هُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦)﴾

(١) (عاد كلامه) قال : «وقوله يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر صدر الكلام بالدعاء ... الخ» قال أحمد : عطف الخاص على العام يؤذن بمزيد اعتناء بالخاص لا محالة إذا اقتصر على بعض متناولات العام ، كقوله : ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ وكقوله : ﴿فِيهِمَا فَكِهَةٌ وَنُحْلٌ وَرُؤْمَانٌ﴾ وكقوله : ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ وشبه ذلك ، لأن الاقتصار على تخصيص ما يفرد بالذكر يفيد تمييزاً عن غيره من بقية المتناولات. وأما هذه الآية ، فقد ذكر بعد العام فيها جميع ما يتناولها ، إذ الخير المدعو إليه إما فعل مأمور أو ترك منهى ، لا يعدو واحداً من هذين ، حتى يكون تخصيصها يميزها عن بقية المتناولات ، فالأولى في ذلك أن يقال : فائدة هذا التخصيص ذكر الدعاء إلى الخير عاماً ، ثم مفصلاً. وفي تنبيه أن الذكر على وجهين ما لا يخفى من العناية والله أعلم ، إلا أن يثبت عرف يخص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ببعض أنواع الخير ، فيأذ ذاك يتم مراد الرمحشري ، وما أرى هذا العرف ثابتاً ، والله أعلم.

وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾

﴿كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الموجبة للاتفاق على كلمة واحدة وهي كلمة الحق. وقيل : هم مبتدعو هذه الأمة ، وهم المشبهة والمجبرة والحشوية ^(١) وأشباههم ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وَجُوهُ﴾ نصب بالظرف وهو لهم ، أو بإضمار اذكر ، وقرئ : تبيض وتسود ، بكسر حرف المضارعة. وتبيض وتسود ، والبياض من النور ، والسود من الظلمة ، فمن كان من أهل نور الحق وسم ببياض اللون وإسفاره وإشراقه ، وابتيضت صحيفته وأشرقت ، وسعى النور بين يديه وبيمينه. ومن كان من أهل ظلمة الباطل وسم بسواد اللون وكسوفه وكمده ، واسودت صحيفته وأظلمت ، وأحاطت به الظلمة من كل جانب. نعوذ بالله وبسعة رحمته من ظلمات الباطل وأهله ﴿أَكْفَرْتُمْ﴾ فيقال لهم : أكفرتم ، والهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم. والظاهر أنهم أهل الكتاب. وكفرهم بعد الإيمان تكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد اعترافهم به قبل مجيئه. وعن عطاء : تبيض وجوه المهاجرين والأنصار وتسود وجوه بني قريظة والنضير. وقيل هم المرتدون. وقيل أهل البدع والأهواء ، وعن أبي أمامة : هم الخوارج ، ولما رأيهم على درج دمشق دمعت عيناه ثم قال كلاب النار هؤلاء شر قتلى تحت أديم السماء. وخير قتلى تحت أديم السماء : الذين قتلهم هؤلاء ، فقال له أبو غالب : أشيء تقوله برأيك ، أم شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال : بل سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة. قال : فما شأنك دمعت عينك ، قال : رحمة لهم ، كانوا من أهل الإسلام فكفروا. ثم قرأ هذه الآية ، ثم أخذ بيده فقال : إن بأرضك منهم كثيراً. فأعاذك الله منهم ^(٢). وقيل هم جميع الكفار لإعراضهم عما أوجبه الإقرار حين أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴿فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ ففي نعمته وهي الثواب المخلد ، فإن قلت : كيف موقع قوله ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ بعد قوله : ﴿فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ﴾؟ قلت : موقع الاستئناف ، كأنه قيل : كيف يكونون فيها؟ فقيل : هم فيها خالدون لا يظعنون عنها ولا يموتون.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٨)

(١) قوله «وهم المشبهة والمجبرة والحشوية» إن أراد بهم أهل السنة ومن وافقهم كعاداته ، فقد أفرط في التعصب للمعتزلة. (ع)

(٢) أخرجه الثعلبي في تفسيره من طريق عكرمة بن عمار عن شداد عن أبي أمامة هكذا. ومن هذا الوجه أخرجه الحاكم. وقد أخرجه الترمذي وابن ماجه ، وعبد الرزاق وأحمد وإسحاق وأبو يعلى والطبراني كلهم من طريق أبي غالب. بتمامه. وله إسناد آخر أخرجه الطبراني من رواية شهر بن حوشب عن أبي أمامة.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ الواردة في الوعد والوعيد ﴿تَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ ملتبسة ﴿بِالْحَقِّ﴾ والعدل من جزاء المحسن والمسيء بما يستوجبانه ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا﴾ فيأخذ أحداً بغير جرم ، أو يزيد في عقاب مجرم ، أو ثواب محسن. ونكر ظلما وقال ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ على معنى ما يريد شيئا من الظلم لأحد من خلقه ، فسبحان من يحلم عمن يصفه بإرادة القبائح ^(١) والرضا بها.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١١٠) لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمْ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١١١﴾

«كان» عبارة عن وجود الشيء في زمان ماض على سبيل الإيهام ، وليس فيه دليل على عدم سابق ولا على انقطاع طارئ ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ومنه قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ كأنه قيل : وجدتم خير أمة ، وقيل : كنتم في علم الله خير أمة. وقيل : كنتم في الأمم قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة ، موصوفين به ﴿أُخْرِجَتْ﴾ أظهرت ، وقوله ﴿تَأْمُرُونَ﴾ كلام مستأنف بين به كونهم خير أمة ، كما تقول زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بما يصلحهم ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ جعل الإيمان بكل ما يجب الإيمان به إيمانا بالله ، لأن من آمن ببعض ما يجب الإيمان به من رسول أو كتاب أو بعث أو حساب أو عقاب أو ثواب أو غير ذلك لم يعتد بإيمانه ، فكأنه غير مؤمن بالله ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ، أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ والدليل عليه قوله تعالى ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ مع إيمانهم بالله ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ لكان الإيمان خيرا لهم مما هم عليه ، لأنهم إنما آثروا دينهم على دين الإسلام حبا للرئاسة واستتباع العوام ، ولو آمنوا لكان لهم من الرياسة والأتباع وحظوظ الدنيا ما هو خير مما آثروا دين الباطل لأجله ، مع الفوز بما وعدوه على الإيمان من إتياء الأجر مرتين ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المتمردون في الكفر ﴿لَنْ﴾

(١) قوله «فسبحان من يحلم عمن يصفه بإرادة القبائح» يريد أهل السنة القائلين : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، كما أجمع عليه السلف. (ع)

يَضْرُوكُمْ إِلَّا أَذًى ﴿١﴾ إلا ضرراً مقتصراً على أذى بقول من طعن في الدين أو تهديد أو نحو ذلك **﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمْ الْأُدْبَارَ﴾** منهزمين ولا يضروكم بقتل أو أسر **﴿ثُمَّ لَا يَنْصَرُونَ﴾** ثم لا يكون لهم نصر من أحد ولا يمنعون منكم. وفيه تثبيت لمن أسلم منهم ، لأنهم كانوا يؤذنونهم بالتلهي بهم وتوبيخهم وتضليلهم وتهديدهم بأنهم لا يقدرّون أن يتجاوزوا الأذى بالقول إلى ضرر يبالى به ، مع أنه وعدهم الغلبة عليهم والانتقام منهم وأنّ عاقبة أمرهم الخذلان والذل. فإن قلت : هلا جزم المعطوف في قوله : **﴿ثُمَّ لَا يَنْصَرُونَ﴾**؟ ^(١) قلت عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداء ، كأنه قيل : ثم أخبركم أنهم لا ينصرون. فإن قلت : فأى فرق بين رفعه وجزمه في المعنى؟ قلت : لو جزم لكان نفى النصر مقيداً بمقاتلتهم ، كتولية الأدبار. وحين رفع كان نفى النصر وعداً مطلقاً ، كأنه قال : ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها وأبشركم بما بعد التولية أنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوة لا ينهضون بعدها بجناح ولا يستقيم لهم أمر وكان كما أخبر من حال بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع ويهود خيبر. فإن قلت : فما الذي عطف عليه هذا الخبر؟ قلت : جملة الشرط والجزاء كأنه قيل : أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا ، ثم أخبركم أنهم لا ينصرون. فإن قلت : فما معنى التراخي في ثم؟ قلت : التراخي في المرتبة لأنّ الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتولييتهم الأدبار. فإن قلت : ما موقع الجملتين أعني **﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾** و **﴿لَنْ يَضْرُوكُمْ﴾**؟ قلت : هما كلامان واردان على طريق الاستطراد عند إجراء ذكر أهل الكتاب ، كما يقول القائل : وعلى ذكر فلان فإنّ من شأنه كيت وكيت ، ولذلك جاء من غير عاطف.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلِيلَةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبِأُورٍ يَغْضَبُ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (١١٢)

﴿بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ﴾ في محل نصب على الحال ، بتقدير : إلا معتصمين أو متمسكين أو ملتبسين بحبل من الله وهو استثناء من أعم عام الأحوال. والمعنى : ضربت عليهم الدلة في عامة الأحوال إلا في

(١) قال محمود : «إن قلت هلا جزم المعطوف في قوله ثم لا ينصرون ... الخ»؟ قال أحمد : وهذا من الترقى في الوعد عما هو أدنى إلى ما هو أعلى ، لأنهم وعدوا بتولية عدوهم الأدبار عند المقاتلة ، ثم ترقى الوعد إلى ما هو أتم في النجاح من أن هؤلاء لا ينصرون مطلقاً. ويزيد هذا الترقى بدخول ثم دون الواو ، فإنها تستعار هاهنا للتراخي في الرتبة لا في الوجود ، كأنه قال : ثم هاهنا ما هو أعلى في الامتنان وأسمح في رتب الإحسان ، وهو أن هؤلاء قوم لا ينصرون البتة ، والله أعلم.

حال اعتصامهم بجبل الله وحبل الناس ، يعنى ذمة الله وذمة المسلمين ، أى لا عز لهم قط إلا هذه الواحدة وهي التجاؤهم إلى الذمة لما قبلوه من الجزية ﴿وَبَاؤُاْ بِغَضَبِ مِّنَ اللّٰهِ﴾ استوجبه ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ كما يضرب البيت على أهله ، فهم ساكنون في المسكنة غير طاعنين عنها ، وهم اليهود عليهم لعنة الله وغضبه ﴿ذٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من ضرب الذلة والمسكنة والبؤاء بغضب الله أى ذلك كائن بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء ، ثم قال ﴿ذٰلِكَ بِمَا عَصَوْاْ﴾ أى ذلك كائن بسبب عصيانهم لله واعتدائهم لحدوده ليعلم أنّ الكفر وحده ليس بسبب في استحقاق سخط الله ، وأنّ سخط الله يستحق بركوب المعاصي كما يستحق بالكفر. ونحوه ﴿مَّا خَطِيئَتُهُمْ أُعْرِقُواْ﴾ ، ﴿وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّوَاْ وَقَدْ نُهُوْاْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾.

﴿لَيْسُواْ سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّٰهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصّٰلِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ وَاللّٰهُ عَلِيْمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللّٰهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١١٦)

الضمير في ﴿لَيْسُواْ﴾ لأهل الكتاب ، أى ليس أهل الكتاب مستوين. وقوله ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ كلام مستأنف لبيان قوله : ﴿لَيْسُواْ سَوَاءً﴾ كما وقع قوله : ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بيانا لقوله : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ ، أمة قائمة : مستقيمة عادلة ، من قولك : أقمت العود فقام ، بمعنى استقام ، وهم الذين أسلموا منهم. وعبر عن تهجدهم بتلاوة القرآن في ساعات الليل مع السجود ، لأنه أبين لما يفعلون ؛ وأدل على حسن صورة أمرهم. وقيل عنى صلاة العشاء ، لأن أهل الكتاب لا يصلونها. وعن ابن مسعود رضى الله عنه : أخر رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العشاء ، ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة ، فقال : أما إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله في هذه الساعة غيركم ^(١) ، وقرأ هذه الآية. وقوله ﴿يَتْلُونَ﴾ و ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ في محل الرفع صفتان لأمة ، أى أمة قائمة تالون مؤمنون ، وصفهم بخصائص ما كانت في اليهود من تلاوة آيات الله بالليل

(١) أخرجه النسائي وابن حبان وأحمد وابن أبي شيبه وأبو يعلى والبزار ، كلهم من رواية عاصم عن زرعة.

ساجدين ، ومن الإيمان بالله ، لأن إيمانهم به كلاً إيمان لإشراكهم به عزيزاً ، وكفرهم ببعض الكتب والرسل دون بعض. ومن الإيمان باليوم الآخر ، لأنهم يصفونه بخلاف صفته. ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لأنهم كانوا مدهنيين. ومن المسارعة في الخيرات ، لأنهم كانوا متباطئين عنها غير راغبين فيها. والمسارعة في الخير : فرط الرغبة فيه لأن من رغب في الأمر سارع في توليه والقيام به وآثر الفور على التراخي ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بما وصفوا به ﴿مِّنْ﴾ جملة ﴿الصَّالِحِينَ﴾ الذين صلحت أحوالهم عند الله ورضيهم واستحقوا ثنائه عليهم. ويجوز أن يريد بالصلحين المسلمين ﴿فَلَن يَكْفُرُوهُ﴾ لما جاء وصف الله عز وعلا بالشكر في قوله : ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ في معنى توفيه الثواب نفى عنه نقيض ذلك. فإن قلت : لم عدى إلى مفعولين. وشكر وكفر لا يتعديان إلا إلى واحد ، تقول شكر النعمة وكفرها؟ قلت : ضمن معنى الحرمان ، فكأنه قيل : فلن تحرموه ؛ بمعنى فلن تحرموا جزاءه. وقرئ يفعلوا ، ويكفروه ، بالياء والثناء ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ بشارة للمتقين بجزيل الثواب ، ودلالة على أنه لا يفوز عنده إلا أهل التقوى.

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١١٧)

الصُّرُّ : الريح الباردة ^(١) نحو : الصرصر. قال :

لَا تَغْرِ دِلٌّ أَتَاوِيٍّ مِنْ تَضُرٍّ رُبُّهُمْ نَكْبَاءٌ صِرٌّ بِأَصْحَابِ الْمَحَلِّاتِ ^(٢)

(١) قال محمود : «الصر الريح الباردة ... الخ» قال أحمد : كلها أوجه وجيهة ، وهذا الأخير أحسنها وأوجهها ، لكن لم يبين الزمخشري وجه الظرفية في الأمثلة المذكورة ، ونحن نبينها فنقول : إذا قلت مثلاً : إن ضيعتي زيد ففي عمرو بعد الله كاف ، فقولك «كاف» أثبت به منكرًا مجرداً من القيود المشخصة المخصصة ، ثم جعلت المعين الذي هو عمرو محلاً له ، فشخصت ذلك المطلق المجرد بهذا المعنى ، فهي ظرفية صحيحة ، إذ كل مقيد ظرف لمطلقه ، إذ المطلق بعض المقيد ، فتنبه لهذه النكتة فإنها لطيفة ، والله الموفق.

(٢) الأتاوى : الغريب البعيد ، كأنه منسوب إلى الأتاوة وهي الرشوة والخفالة ، لأنه قد يذلها على إقامته في غير وطنه. والنكباء : الريح الشديدة. والصر الحارة ، وقيل الباردة. وقال الزجاج : صوت النار في الريح. وقيل : صوت الريح. وقيل : الجو. وقيل : البرد. وعلى هذا لو روى بالجر على الاضافة لكان وجيهاً. والمحلات قيل هي أدوات البيت كالفأس والقدر والغربال والدلو. ويجوز أنها البيوت وهو الظل من البيت. يقول : لا تسو بين الغرياء وبين أصحاب البيوت. وروى : لا يعدلن أتاويون ، بالبناء للمجهول ، وما بعده نائب فاعل. ورواه الجوهري بالبناء الفاعل ، وقال : أى لا يعدلن أتاويون أحداً بأصحاب المحلات ، فحذف المفعول وهو مدان ، وفسر المحلات فحذف الموصول وهو مدان ، وفسر المحلات فيه بالأدوات كافة ، لأن الأتاوي يستعيرها من أصحابها. وعلى كل فالنون للتوكيد.

كما قالت ليلي الأخيلية :

وَلَمْ يَغْلِبِ الْخُصْمَ الْأَلْمُ وَيَمْلَأِ الْجَفَانَ سَدِيفاً يَوْمَ نَكَبََاءِ صَرَصَرٍ^(١)

فإن قلت : فما معنى قوله ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾؟ قلت : فيه أوجه : أحدهما أنَّ الصرَّ في صفة الريح بمعنى الباردة ، فوصف بها القرّة بمعنى فيها قرة صرّ ، كما تقول : برد بارد على المبالغة. والثاني :

أن يكون الصر مصدراً في الأصل بمعنى البرد فجيء به على أصله. والثالث : أن يكون من قوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ومن قولك : إن ضيعني فلان ففي الله كاف وكافل. قال :

وَفِي الرَّحْمَنِ لِلضُّعْفَاءِ كَأَنِّي^(٢)

(١) كأن فتى الفتية ان توبة لم يــــنخ بنجد ولم يطلــــع مع المتغــــور الجفــــان ســــديفا يــــوم نكبــــاء صرصر ولم يغلب الخصم الألمــــد ويمــــلأ

لليلي الأخيلية ترى صاحبها توبة بن الحمير وتذكر أحواله وتعد مناقبه. وفتى الفتية : أى هو الفتى من بينهم وليسوا فتية بالنسبة له وإن كانوا فتية في أنفسهم ، وتوبة بدل. ولم ينخ من أناخ بعيره ، خبر كأن ، أى كأنه لم ينخ بعيره بمحل مرتفع. ويروى : لم يسر بنجد ، ولم يطلع من أطلع بمعنى طلع ، أو لم يطلع بعيره من المتغور على اسم المفعول ، أى المكان المنخفض ما فيه ، وكأنه لم يغلب الخصم الشديد الخصومة. ويروى الخصم الصبح بفتح الصاد ، بمعنى الصحيح ، وكأنه لم يملأ الجفان سديفاً ، أى قطعاً بيضا من السنام في زمن الريح الشديدة الباردة ، أو كثرة الصرير وهو التصويت تعنى أنه كان يفعل ذلك كله ، ثم كأنه اليوم لم يفعل لموته.

(٢) لقســــد زاد الحيةــــة إلى حبةــــة بنــــاني إنهمــــن من الضــــعاف أحــــاذر أن يــــريرن البــــؤس بعــــدي وأن يشــــريرن رنقــــة بعــــد صــــاف وأن يعــــريرن إن كســــى الجــــواري ولــــو لا هــــن قــــد ســــويت مهــــري وفي الــــرحمن للضــــعفاء كــــاني

لأبي خالد الخارجي. وقيل : لمحمد بن عبد الله الأزدي. وقيل : لعمران بن حطان. وقيل غير ذلك ؛ لامة قطري ابن الفجاءة عن التخلف عن الحرب فاعتذر بذلك. وبناتي فاعل زاد. وأحاذر أى أخاف أن يدركهن الفقر بعد موتى ، وكنى عن ذلك برؤيتهن له مبالغة ، لأنه إذا خاف الرؤية خاف اللحوق. ويروى مخافة أن يذقن البؤس ، أى الشدة ، فشبهه بمطعموم على سبيل المكنية والذوق تخيل. ورنق الماء كدر ، وترنق تكدر ، ورنقه وأرنقه كدره ، والرنق بالتحريك مصدر كالكدرك فسكن وأريد منه الماء الكدر. وروى «زيفاً» أى مغشوشاً مكدرًا ، فالمراد واحد ، فشبه العيش المنعص به ، وشبه العيش الناعم بالماء الصافي على طريق التصريح والشرب ترشيع ، وكسى بوزن فرح لازم ضد عرى. ويجوز هنا بناؤه للمجهول ، من كسى المتعدي كدعا. وإن للشرط المجرد عن الشك أو بمعنى إذ. وتنبو ترتفع عنهن ، كناية عن عدم التزوج بهن. والكرم بالسكون ، وقيل . بالكسر . وصف من الكرم يقع على الواحد والمتعدد مذكراً ومؤنثاً. ويروى «عن رم» أى باليات ، وهو أشبه بالسياق. والعجاف جمع عجفاء ، أى مهزولة ، أى لا يلتفت إليهن مع كونهن كريمات لهزاهن وراثثة حاهن. وسويت مهري : وضعت عليه آلات الحرب ومهدته وهياتة لها. ويروى «قد سموت مهري» ولعله بتخفيف الميم بمعنى علوت عليه وركبته وقيل : بمعنى وضعت عليه سمات الحرب ، فلعله مقلوب. و «سمت» وروى سومت بالتشديد ، وهو الذي يصلح أنه بمعنى جعلت عليه علامات الحرب لا ذاك ، وجود من جانب الله عز وجل شخصاً كافياً ، ولا حجر في المبالغة لا سيما على العرب. وفيه نوع استرجاع إلى الله وتفويض إليه وتوكل عليه ، وأنه هو الرزاق ذو القوة المتين.

شبه ما كانوا ينفقون من أموالهم في المكارم والمفاخر وكسب الثناء وحسن الذكر بين الناس لا يبتغون به وجه الله ، بالزرع الذي حسه البرد فذهب حطاما. وقيل : هو ما كانوا يتقربون به إلى الله مع كفرهم. وقيل : ما أنفقوا في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فضاع عنهم ، لأنهم لم يبلغوا بإنفاقه ما أنفقوه لأجله. وشبه بحرث ﴿قَوْمٌ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ فأهلك عقوبة لهم على معاصيهم ، لأنّ الهلاك عن سخط أشدّ وأبلغ. فإن قلت : الغرض تشبيه ما أنفقوا في قلة جدواه ^(١) وضياعه بالحرث الذي ضربته الصر ، والكلام غير مطابق للغرض حيث جعل ما ينفقون ممثلا بالريح. قلت : هو من التشبيه المركب الذي مر في تفسير قوله : ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ ويجوز أن يراد : مثل إهلاك ما ينفقون مثل إهلاك ربح ، أو مثل ما ينفقون كمثله مهلك ربح وهو الحرث وقرئ : تنفقون ، بالتاء ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ الضمير للمنفقين على معنى : وما ظلمهم الله بأن لم يقبل نفقاتهم ، ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث لم يأتوا بها مستحقة للقبول ، أو لأصحاب الحرث الذين ظلموا أنفسهم ، أى : وما ظلمهم الله بإهلاك حرثهم ، ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا به العقوبة. وقرئ (ولكن) بالتشديد ، بمعنى ولكنّ أنفسهم يظلمونها هم. ولا يجوز أن يراد : ولكن أنفسهم يظلمون ، على إسقاط ضمير الشأن ، لأنه إنما يجوز في الشعر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا

(١) قال محمود «فإن قلت : الغرض تشبيه ما أنفقوا في قلة جدواه ... الخ» قال أحمد : أما إيراد السؤال فلا ترتضي صيغته لما فيها من حيف بالأدب ، إذ جزم السائل المقدر بأن كلام الله تعالى غير مطابق لمراده ، واللائق بالسؤال الوارد عن كتاب الله تعالى أن يذكر بصيغة الاسترشاد الصريحة ، لا بصيغة الاعتراض المحضة والعبارة الصحيحة أن يقال : فما وجه مطابقة الكلام للغرض. ولا ينبغي التساهل في ذلك ، فإن أحدنا لو أورد سؤالا على كلام إمام معتبر برأى منه ومسمع ، تحيل في أنواع التلطف في إيراده وبعد عن أمثال هذه العبارة. ولعل الاعتراض على ذلك الامام يكون وارداً لا يمكن عنه جواب ، فكيف يليق التسامح في إيراد الأسئلة على كتاب الله تعالى بصيغ الاعتراضات ، وإنما يستل عن كتاب الله تعالى برأى منه ومسمع على علم بأنه كلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. فما أجدره أن يتوفر في الاسترشاد وأن يتأدب في الإيراد ؛ ثم نعود إلى جواب الزمخشري الثاني وهو قوله «إن المراد مثل إهلاك ما ينفقون» فنقول : لم يكشف الغطاء بهذا الجواب عن المطابقة المسئول عنها ، والسؤال باق. وذلك أن الريح المشبه بها ليست الإهلاك وإنما هي المهلكة. ولا مطابقة بين المصدر والاسم إلا بتأويل آخر ، وحينئذ يبعد هذا الوجه. وأقرب معه أن يقول : أصل الكلام والله أعلم : مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثله حرث قوم ظلموا أنفسهم فأصابته ربح فيها صر فأهلكته. ولكن خولف هذا النظم في المثل المذكور لفائدة جلييلة وهو تقديم ما هو أهم ؛ لأن الريح التي هي مثل العذاب ذكرها في سياق الوعيد والتهديد أهم من ذكر الحرث ، فقدمت عناية بذكرها واعتمادا على أن الأفهام الصحيحة تستخرج المطابقة برد الكلام إلى أصله على أيسر وجه. ومثل هذا في تحويل النظم لمثل هذه الفائدة قوله تعالى : ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ ، مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَصِلَ إِحْدَاهُمَا إِلَى الْأُخْرَىٰ وَتُؤَدِّعَهُمَا﴾ الآية ومثله أيضاً : أعددت هذه الخشبة أن يميل الحائط فأدعمه. والأصل : أن تذكر إحداهما الأخرى إن ضلت ، وأن أدعّم بها الحائط إذا مال ، وأمثال ذلك كثيرة ، والله الموفق.

وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّوهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩)

بطانة الرجل وولجيته : خصيصه وصفيه الذي يفضى إليه بشقوره^(١) ثقة به شبه ببطانة الثوب كما يقال : فلان شعاري. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «الأنصار شعار والناس دثار»^(٢) ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾ من دون أبناء جنسكم وهم المسلمون. ويجوز تعلقه بلا تتخذوا ، وبطانة على الوصف ، أى بطانة كائنة من دونكم مجاوزة لكم ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ يقال : ألا في الأمر يآلو ، إذا قصر فيه ، ثم استعمل معدى إلى مفعولين في قولهم : لا آلوك نصحا ، ولا آلوك جهدا ، على التضمنين. والمعنى : لا أمنعك نصحا ولا أنقصكه. والخبال : الفساد ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ ودّوا عنيتكم ، على أنّ «ما» مصدرية. والعنت : شدّة الضرر والمشقة. وأصله اخياض العظم بعد جبره ، أى تمنوا أن يضروكم في دينكم ودنياكم أشدّ الضرر وأبلغه ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَهِهِمْ﴾ لأنهم لا يتمالكون مع ضبطهم أنفسهم وتحاملهم عليها أن ينفلت من ألسنتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين. وعن قتادة : قد بدت البغضاء لأولياهم من المنافقين والكفار لإطلاع بعضهم بعضا على ذلك. وفي قراءة عبد الله قد بدأ البغضاء ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الدالة على وجوب الإخلاص في الدين وموالة أولياء الله ومعاداة أعدائه ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما بين لكم فعملتم به. فإن قلت : كيف موقع هذه الجمل؟ قلت يجوز أن يكون ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ﴾ صفة للبطانة وكذلك ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ﴾ كأنه قيل : بطانة غير آليكم خبالا بادية بغضاؤهم. وأما ﴿قَدْ بَيَّنَّا﴾ فكلام مبتدأ ، وأحسن منه وأبلغ أن تكون مستأنفات كلها على وجه التعليل للنهي عن اتخاذهم بطانة ﴿هَا﴾ للتنبيه. و ﴿أَنْتُمْ﴾ مبتدأ. و ﴿أَوْلَاءُ﴾ خبره. أى أنتم أولاء الخاطئون في موالة منافقي أهل الكتاب. وقوله ﴿تُحِبُّوهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ بيان لخطئهم في موالاتهم حيث ييذلون محبتهم لأهل البغضاء. وقيل ﴿أَوْلَاءُ﴾ موصول ﴿تُحِبُّوهُمْ﴾ صلته. والواو في ﴿وَتُؤْمِنُونَ﴾ للحال ، وانتصابها من لا يحبونكم

(١) قوله «بشقوره» في الصحاح الشقور بالضم الأمور اللاصقة بالقلب المهمة له الواحد شقر (ع)

(٢) متفق عليه من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم المازني في أثناء حديث طويل ، أوله «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح جنينا قسم المغانم».

أى لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابتهم كله ، وهم مع ذلك يبغضونكم. فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم. وفيه توبيخ شديد بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم. ونحوه ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ ويوصف المغتاط والنادم بعض الأنامل والبنان والإبهام. قال الحرث بن ظالم المري :

فَأَقْتُلْ أَقْوَاماً لِّئَاماً أَذِلَّةً يَعْضُّونَ مِنْ عَظْمِ رُؤُسِ الْأَبَاهِمِ^(١)

﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به والمراد بزيادة الغيظ زيادة ما يغيظهم من قوّة الإسلام وعز أهله وما لهم في ذلك من الذل والحزى والتبار ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فهو يعلم ما في صدور المنافقين من الحنق والبغضاء ، وما يكون منهم في حال خلوّ بعضهم ببعض ، وهو كلام داخل في جملة المقول أو خارج منها. فإن قلت : فكيف معناه على الوجهين؟ قلت : إذا كان داخلاً في جملة المقول فمعناه : أخبرهم بما يسرونه من عضهم الأنامل غيظاً إذا خلوا ، وقل لهم إنّ الله عليم بما هو أخفى مما تسرونه بينكم وهو مضمرات الصدور ، فلا تظنوا أنّ شيئاً من أسراركم يخفى عليه. وإذا كان خارجاً فمعناه : قل لهم ذلك يا محمد ولا تتعجب من اطلاعى إياك على ما يسرون فيأني أعلم ما هو أخفى من ذلك وهو ما أضمره في صدورهم ولم يظهره بألسنتهم. ويجوز أن لا يكون ثمّ قول ، وأن يكون قوله : ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ أمراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم بطيب النفس وقوّة الرجاء والاستبشار بوعده الله أن يهلكوا غيظاً بإعزاز الإسلام وإذلالهم به ، كأنه قيل : حدث نفسك بذلك.

﴿إِنْ تَمَسَّسْتُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١٢٠)

الحسنة : الرخاء والخصب والنصرة والغنيمة ونحوها من المنافع. والسيئة : ما كان ضدّ ذلك. وهذا بيان لفرط معاداتهم حيث يحسدونهم على ما نالهم من الخير ويشمتون بهم فيما أصابهم من الشدة. فإن قلت : كيف وصفت الحسنة بالمس والسيئة بالإصابة؟^(٢) قلت : المس

(١) للحرث بن ظالم المري. وعض الأنامل من الغيظ : كناية عن شدته ، وأطلق الأباهم وأراد مطلق الأصابع مجازاً مرسلًا ؛ لأنه لا داعي للتخصيص المخالف للواقع عادة. ويحتمل أنها حقيقة.

(٢) قال محمود : «إن قلت : كيف وصفت الحسنة بالمس والسيئة بالإصابة ... الخ» قال أحمد : يمكن أن يقال : المس أقل تمكناً من الإصابة ، وكأنه أقل درجاتها ، فكأن الكلام والله أعلم : إن تصيبكم الحسنة أدنى إصابة تسؤهم ويحسدوكم عليها ، وإن تمكنت الإصابة منكم وانتهى الأمر فيها إلى الحد الذي يرثى الشامت عنده منها فهم لا يرثون لكم ولا ينفكون عن حسدهم ولا في هذه الحال ، بل يفرحون ويسرون ، والله أعلم.

مستعار لمعنى الإصابة فكان المعنى واحداً. ألا ترى إلى قوله : ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ﴾ ، ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ ، ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾. ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا﴾ على عداوتهم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ ما نهيتهم عنه من موالاتهم. أو وإن تصبروا على تكاليف الدين ومشاقه وتنقوا الله في اجتنابكم محارمه كنتم في كنف الله فلا يضركم كيدهم. وقرئ ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ من ضاره يضره. ويضركم على أن ضمة الراء لإتباع ضمة الضاد ، كقولك مدّ يا هذا. وروى المفضل عن عاصم ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ بفتح الراء ، وهذا تعليم من الله وإرشاد إلى أن يستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى. وقد قال الحكماء : إذا أردت أن تكبت من يحسدك فازدد فضلاً في نفسك ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من الصبر والتقوى وغيرهما ﴿مُعِيطٌ﴾ ففاعل بكم ما أنتم أهله. وقرئ بالياء بمعنى أنه عالم بما يعملون في عداوتكم فمعاقبهم عليه.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلَيْتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٢٢)

﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ بالمدينة وهو غدوّه إلى أحد من حجرة عائشة رضى الله عنها. روى أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء ، فاستشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ودعا عبد الله بن أبيّ ابن سلول ولم يدعه قط قبلها ، فاستشاره ، فقال عبد الله وأكثر الأنصار : يا رسول الله ، أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم ، فو الله ما خرجنا منها إلى عدوّ قط إلا أصاب منا ولا دخلها علينا إلا أصابنا منه ، فكيف وأنت فينا ، فدعهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة ، وإن رجعوا رجعوا خائبين وقال بعضهم : يا رسول الله ، اخرج بنا إلى هؤلاء الأكلب لا يرون أنا قد جبنّا عنهم. فقال صلى الله عليه وسلم : إني قد رأيت في منامي بقرأ مذبحه حولي ، فأولتها خيراً ، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً فأولته هزيمة ، ورأيت كأنى أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة ، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم. فقال رجال من المسلمين قد فاتتهم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد : اخرج بنا إلى أعدائنا. فلم يزالوا به حتى دخل فلبس لأمته. فلما رأوه قد لبس لأمته ندموا وقالوا : بئسما صنعنا ، نشير على رسول الله صلى الله عليه وسلم والوحي يأتيه ، وقالوا : اصنع يا رسول ما رأيت ، فقال : لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل ، فخرج يوم الجمعة بعد صلاة

الجمعة وأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال فمشى على رجليه فجعل يصف أصحابه للقتال كأنما يقوم بهم القدح^(١). إن رأى صدراً خارجاً قال : تأخر ، وكان نزوله في عدوة الوادي وجعل ظهره وعسكره إلى أحد ؛ وأمر عبد الله بن جبير على الرماة وقال لهم : «انضحوا عنا بالنبل لا يأتونا من ورائنا»^(٢) ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تنزلهم. وقرأ عبد الله للمؤمنين ، بمعنى تسوى لهم وتهيئ ﴿مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ مواطن ومواقف. وقد اتسع في قعد وقام حتى أجريا مجرى صار. واستعمل المقعد والمقام في معنى المكان. ومنه قوله تعالى : ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ ، ﴿قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ من مجلسك وموضع حكمك ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم عليهم بنياتكم وضمائركم ﴿إِذْ هَمَّتْ﴾ بدل من ﴿إِذْ غَدَوْتَ﴾ أو عمل فيه معنى ﴿سَمِيعٌ عَلَيْهِمُ﴾. والطائفتان حيان من الأنصار : بنو سلمة من الخزرج ، وبنو حارثة من الأوس ، وهما الجناحان. خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ألف ، وقيل في تسعمائة وخمسين ، والمشركون في ثلاثة آلاف ووعدهم الفتح إن صبروا ، فانخزل عبد الله بن أبي بثلث الناس وقال : يا قوم ، علام نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فتبعهم عمرو بن حزم الأنصاري فقال : أنشدكم الله في نبيكم وأنفسكم ، فقال عبدك : لو نعلم قتالا لاتبعناكم ، فهم الحيان باتباع عبد الله فعصمهم الله فمضوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣). وعن ابن عباس رضی الله عنه : أضمروا أن يرجعوا ، فعزم الله لهم على الرشد فثبتوا. والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس ، وكما لا تخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع ، ثم يردّها صاحبها إلى الثبات والصبر ويوطنها على احتمال المكروه ، كما قال عمرو بن الأظنابة :

أَقُولُ لَهَا إِذَا جَشَّأَتْ وَجَشَّأْتُ مَكَانَكَ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي^(٤)

(١) قوله «كأنما يقوم بهم القدح» في الصحاح : القدح . بالكسر . السهم قبل أن يراش ويركب نصله. (ع)

(٢) أخرجه ابن إسحاق في المغازي ، قال : حدثني محمد بن شهاب وعاصم بن عمر ومحمد بن يحيى بن حبان والحصين ابن عبد الرحمن وغيرهم من علمائنا ، كلهم قد حدث عن غزوة أحد. وكان من حديثهم قالوا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلمين يوم أحد «إني رأيت بقرأ وأولتها خيراً. ورأيت في ذباب سيفي ثلماً. فذكر الحديث بطوله وفيه : ومات في ذلك اليوم رجل من الأنصار يقال له : مالك بن عمرو. وفيه : ذكرا للأمة وغير ذلك. ومن طريق ابن إسحاق أخرجه البيهقي في الدلائل وأورد منه الطبري من طريقه قطعة. وساقه عبد الرزاق عن معمر عن ابن شهاب عن عروة مطولا وأخرجه الطبري من رواية أسباط عن السدي بلفظ المصنف ، إلى قوله «وأصبح بالشعب» وبقيّة ذلك هو من كلام ابن إسحاق «قوله فيه حتى يقوم بها القداح» وقع في رواية الواقدي عن ابن أخى الزهري عن عروة عن المسور بن مخرمة ، وقد ساقه الواقدي بهذا الاسناد مطولا.

(٣) هو في الذي قبله. وذكره ابن هشام في تهذيب السيرة بتمامه عن ابن إسحاق.

(٤) أبطت لي عفتي وأبى تلادى وأخذي الحمى بالثمن الـرييح
 وإقحامي على المكروه نفسي وضري هامـة البطـل المشـيح
 وقولي كلمـا جشـأت وجشـأت مكانك تحمـدي أو تسـتريحي

مما يسر لهم من الفتح يوم بدر وهم في حالة قلة وذلة. والأذلة : جمع قلة والذلان جمع الكثرة ، وجاء بجمع القلة ليدل على أنهم على ذلتهم كانوا قليلا ، وذلتهم : ما كان بهم من ضعف الحال وقلة السلاح والمال والمركوب ، وذلك أنهم خرجوا على النواضح يعتقب النفر منهم على البعير الواحد وما كان معهم إلا فرس واحد. وقتلهم أنهم كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر ، وكان عدوهم في حال كثرة زهاء ألف مقاتل ومعهم مائة فرس والشكة والشوكة ^(١). وبدر : اسم ماء بين مكة والمدينة كان لرجل يسمى بدرأ فسمى به ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الثبات مع رسوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ بتقواكم ما أنعم به عليكم من نصرته. أو لعلكم ينعم الله عليكم نعمة أخرى تشكرونها ، فوضع الشكر موضع الإنعام لأنه سبب له ﴿إِذْ تَقُولُ﴾ ظرف لنصركم ، على أن يقول لهم ذلك يوم بدر ، أو بدل ثان من ﴿إِذْ غَدَوْتَ﴾ على أن يقوله لهم يوم أحد. فإن قلت. كيف يصح أن يقول لهم يوم أحد ولم تنزل فيه الملائكة؟ قلت : قاله لهم مع اشتراط الصبر والتقوى ، فلم يصبروا عن الغنائم ولم يتقوا ، حيث خالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلذلك لم تنزل الملائكة ؛ ولو تموا على ما شرط عليهم لنزلت. وإنما قدم لهم الوعد بنزول الملائكة لتقوى قلوبهم ويعزموا على الثبات ويثقوا بنصر الله. ومعنى ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾ إنكار أن لا يكفيهم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة. وإنما جيء بـ «لن» الذي هو لتأكيد النفي ، للإشعار بأنهم كانوا لقلتهم وضعفهم وكثرة عدوهم وشوكتهم كالأئسين من النصر. و ﴿بَلَى﴾ إيجاب لما بعد لن ، بمعنى : بل يكفيكم الإمداد بهم ، فأوجب الكفاية ثم قال ﴿إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ بمددكم بأكثر من ذلك العدد مسؤمين للقتال ﴿وَيَأْتُوَكُمْ﴾ يعنى المشركين ﴿مِنْ فُورِهِمْ هَذَا﴾ من قولك : قفل من غزوته وخرج من فوره إلى غزوة أخرى ، وجاء فلان ورجع من فوره. ومنه قول أبي حنيفة رحمه الله : الأمر على الفور لا على التراخي ، وهو مصدر من : فارت القدر ، إذا غلت ، فاستعير للسرعة ، ثم سميت به الحالة التي لا ريث فيها. ولا تعريج على شيء من صاحبها ؛ فقليل : خرج من فوره ، كما تقول : خرج من ساعته ، لم يلبث. والمعنى : أنهم إن يأتوكم من ساعتهم هذه ﴿يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ﴾ بالملائكة في حال إتيانهم لا يتأخر نزولهم عن إتيانهم ، يريد : أن الله يعجل نصرته وييسر فتحكم إن صبرتم واتقيتم.

وقرى (منزليين) بالتشديد. ومنزليين بكسر الزاى ، بمعنى : منزليين النصر. و ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ بفتح الواو وكسرها ، بمعنى : معلمين. ومعلمين أنفسهم أو خيلهم. قال الكلبي : معلمين بعمائم صفر مرخاة على أكتافهم. وعن الضحاك : معلمين بالصفوف الأبيض في نواصي الدواب وأذناها. وعن مجاهد : مجزوزة أذنان خيلهم. وعن قتادة : كانوا على حيل بلق. وعن عروة بن الزبير : كانت عمامة

(١) قوله «والشكة والشوكة» في الصحاح : الشكة . بالكسر . السلاح . والشوكة : شدة البأس . (ع)

الزبير يوم بدر صفراء ، فنزلت الملائكة كذلك ، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأصحابه «تسوموا فإنّ الملائكة قد تسومت» ^(١) ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ الهاء لأن يمدكم. أى : وما جعل الله إمدادكم بالملائكة إلا بشارة لكم بأنكم تنصرون ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ كما كانت السكينة لبني إسرائيل بشارة بالنصر وطمأنينة لقلوبهم ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ لا من عند المقاتلة إذا تكاثروا ، ولا من عند الملائكة والسكينة ، ولكن ذلك مما يقوى به الله رجاء النصر والطمع في الرحمة ، ويربط به على قلوب المجاهدين ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب في حكمه ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يعطى النصر ويمنعه لما يرى من المصلحة ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ليهلك طائفة منهم بالقتل والأسر ، وهو ما كان يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين من رؤساء قريش وصناديدهم ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أو يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة ﴿فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ غير ظافرين بمبتغاهم. ونحوه ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ ويقال : كبته ، بمعنى كبده إذا ضرب كبده بالغيظ والحرقه. وقيل في قول أبي الطيب :

لَأَكْبِتَ حَاسِدًا وَأَرَىٰ عَدُوًّا ^(٢)

هو من الكبد والرئة ، واللام المتعلقة بقوله : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أو بقوله : ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾. ﴿أَوْ يَتُوبَ﴾ عطف على ما قبله.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٢٨)

(١) أخرجه ابن أبي شيبة. حدثنا أبو أمامة عن ابن عون. عن ابن عمير ، وابن إسحاق بهذا. وهو مرسل وزاد : قال «فهو أول يوم وضع فيه الصوف» ورواه الطبري من وجه آخر عن ابن عون به. وقال الواقدي :

حدثني محمد بن صالح عن عاصم بن عمر. عن محمود بن لبيد فذكره. قال : فأعلموا بالصوف في مغافرههم» ولم يذكر الزيادة. ورواه ابن سعد من طرق في قصة «وفيه فقال لأصحابه يومئذ : تسوموا فان الملائكة قد تسومت. قال فأعلموا بالصوف في مغافرههم وقالنهم»

(٢) رويدك أيها الملك الجليل	تأن وعنده مم تنيـل
وجودك بالملك والملك	فما فيمـا تجود به قليـل
لأكبت حاسدا وأرى عدوا	كأنهم وداعا والرحيـل

لأبي الطيب. يقول تمهل يا أيها الملك عن السفر ، واجعل ذلك التأن مما تحسن به إلينا ، وجودك علينا بالاقامة ، ولو كانت قليلة عندك أو في ذاتها فهي كثيرة عندنا ، فانه ليس فيما تجود به قليل. وقوله «لأكبت» متعلق بتأن. وأصله : لأكبد ، قلبت الدال تاء لقرب مخرجيهما ، أى لأصيب كبد الحاسد بالغيظ. وأرى : أى أصيب رئة العدو به أيضا ، كأنهما : أى الحاسد والعدو ، شبه الأول بالوداع ، والثاني بالرحيل ، في أن كلا يحزنه. وخص الثاني بالثاني ؛ لأنه أشد كراهة. وفيه لف ونشر مرتب ، وهو حسن.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

و ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ اعتراض. والمعنى أنّ الله مالك أمرهم ، فإما يهلكهم أو يهزمهم أو يتوب عليهم إن أسلموا ، أو يعذبهم إن أصروا على الكفر ، وليس لك من أمرهم شيء ، إنما أنت عبد مبعوث لإنذارهم ومجاهدتهم. وقيل إنّ ﴿يَتُوبُ﴾ منصوب بإضمار «أن» و «وأن يتوب» في حكم اسم معطوف بأو على الأمر أو على شيء ، أى ليس لك من أمرهم شيء ، أو من التوبة عليهم ، أو من تعذيبهم. أو ليس لك من أمرهم شيء ، أو التوبة عليهم ، أو تعذيبهم ، وقيل «أو» بمعنى «إلا أن» كقولك : لألزمناك أو تعطيني حقي ، على معنى ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرج بحالهم ، أو يعذبهم فتتشفى منهم. وقيل : شجه عتبة ابن أبي وقاص يوم أحد وكسر رباعيته ، فجعل يمسح الدم عن وجهه ، وسالم مولى أبي حذيفة يغسل عن وجهه الدم ، وهو يقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربحهم ^(١) ، فنزلت. وقيل : أراد أن يدعو الله عليهم فنهاه الله تعالى ، لعلمه أن فيهم من يؤمن. وعن الحسن ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ بالتوبة ^(٢) ، ولا يشاء أن يغفر إلا للتائبين ^(٣) ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ ولا يشاء أن يعذب إلا

(١) أخرجه عبد الرزاق. ومن طريقه الطبري. أخبرنا معمر عن قتادة : أن عتبة. فذكره ومن طريق معمر أخرجه ابن سعد سواء. والحديث في الصحيحين من حديث سهل بن سعد «كسرت رباعية النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وشج رأسه. فجعل يسلط الدم عن وجهه ويقول : كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم ، وهو يدعوهم إلى الله؟ فأنزل الله تعالى : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ قال : وكانت فاطمة تغسل الدم عن وجهه. الحديث» وسيأتى قريباً أن الذي شجه عبد الله بن قمئة. وقال الواقدي : المثبت عندنا أن الذي رمى وجه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله ابن قمئة : والذي رمى شفته وأصاب رباعيته. عتبة بن أبي وقاص. وفي السيرة لابن هشام من حديث أبي سعيد الخدري أن عتبة بن أبي وقاص رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ فكسر رباعيته اليمنى السفلى. وجرح شفته السفلى ، وأن عبد الله بن شهاب شجه في وجهه ، وأن ابن قمئة جرح وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ، ووقع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حفرة من الحفر فأخذ علي بيده ورفع طلحة حتى استوى قائما ومص مالك بن سنان أبو أبي سعد الدم عن وجه النبي صلى الله عليه وسلم ثم ازدرده. فقال النبي صلى الله عليه وسلم : من مس دمه دمي لم تصبه النار».

(٢) قال محمود : «معناه يغفر لمن يشاء بالتوبة ... الخ» قال أحمد : هذه الآية واردة في الكفار. ومعتقد أهل السنة أن المغفرة في حقهم مشروطة بالتوبة من الكفر والرجوع إلى الإيمان ، وليسوا محل خلاف بين الطائفتين وعندهم أن المؤمن النائب من كفره هو المعنى في قوله : ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ كما قاله الزمخشري. وأما تسلقه من ذلك على تعميم هذا الحكم وتعديته إلى الموحدين ، فمن التعامي والتصام حقيقة ، وإلا فهو أحذق من ذلك. وأما نسبته إلى أهل السنة التعامي والتصام والهوى والبدعة والافتراء ، فالله حسيبه في ذلك والسلام.

(٣) قوله «ولا يشاء أن يغفر إلا للتائبين» هذا عند المعتزلة. (ع)

المستوجبين للعذاب. وعن عطاء : يغفر لمن يتوب إليه ويعذب من لقيه ظالماً. وإتباعه قوله ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ تفسير بين لمن يشاء ، وأنهم المتوب عليهم ، أو الظالمون ، ولكن أهل الأهواء والبدع يتصامتون ويتعامون ^(١) عن آيات الله فيخبطون خبط عشواء ، ويطيبون أنفسهم بما يفترون على ابن عباس من قولهم. يهب الذنب الكبير لمن يشاء ، ويعذب من يشاء على الذنب الصغير.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٣٢)

﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً﴾ نهي عن الربا مع توبيخ بما كانوا عليه من تضعيفه كان الرجل منهم إذا بلغ الدين محله زاد في الأجل فاستغرق بالشيء الطفيف مال المديون ^(٢). ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ كان أبو حنيفة رحمه الله يقول : هي أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه. وقد أمد ذلك بما أتبعه من تعليق رجاء المؤمنين لرحمته بتوفرهم على طاعته وطاعة رسوله. ومن تأمل هذه الآية وأمثالها لم يحدث نفسه بالأطماع الفارغة والتمني على الله تعالى ، وفي ذكره تعالى «لعل» و «عسى» في نحو هذه المواضع. وإن قال الناس ما قالوا. ما لا يخفى على العارف الفطن من دقة مسلك التقوى ، وصعوبة إصابة رضا الله ، وعزة التوصل إلى رحمته وثوابه.

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ

(١) قوله «ولكن أهل الأهواء والبدع يتصامون» يريد أهل السنة وتحقيق المبحث في علم التوحيد. (ع)

(٢) قوله «مال المديون» لعله المدين ، أو هو لغة شاذة. (ع)

تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٣٧﴾

في مصاحف أهل المدينة والشام سارعوا بغير واو. وقرأ الباقون بالواو. وتنصره قراءة أبي وعبد الله : وسابقوا. ومعنى المسارعة إلى المغفرة والجنة : الإقبال على ما يستحقان به ﴿عَرَضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أى عرضها عرض السموات والأرض ، كقوله : ﴿عَرَضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ والمراد وصفها بالسعة والبسطة ، فشبهت بأوسع ما علمه الناس من خلقه وأبسطه. وخص العرض ، لأنه في العادة أدنى من الطول للمبالغة ، كقوله : ﴿بَطَانُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾. وعن ابن عباس رضى الله عنه : كسيع سموات وسيع أرضين لو وصل بعضها ببعض ﴿فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ في حال الرخاء واليسر وحال الضيقة والعسر ، لا يخلون بأن ينفقوا في كلتا الحالتين ما قدروا عليه من كثير أو قليل ، كما حكى عن بعض السلف : أنه ربما تصدق ببصلة. وعن عائشة رضى الله عنها أنها تصدقت بحبة عنب ^(١) أو في جميع الأحوال لأنها لا تخلو من حال مسرة ومضرة ، لا تمنعهم حال فرح وسرور ، ولا حال محنة وبلاء ، من المعروف. وسواء عليهم كان الواحد منهم في عرس أو في حبس ، فإنه لا يدع الإحسان. وافتتح بذكر الإنفاق لأنه أشق شيء على النفس وأدله على الإخلاص ، ولأنه كان في ذلك الوقت أعظم الأعمال للحاجة إليه في مجاهدة العدو ومواساة فقراء المسلمين.

كظم القربة : إذا ملأها وشد فاهها. وكظم البعير : إذا لم يجتر. ومنه كظم الغيظ ، وهو أن يمسك على ما في نفسه منه بالصبر ولا يظهر له أثرا. وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم «من كظم غيظا وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا ^(٢)» وعن عائشة رضى الله عنها : أن خادماً لها غاظها فقالت : لله درّ التقوى ، ما تركت لذي غيظ شفاء. ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ إذا جنى عليهم أحد لم يؤاخذوه. وروى «ينادى مناد يوم القيامة : أين الذين كانت أجورهم على الله فلا يقوم إلا من عفا» ^(٣) وعن ابن عيينة أنه رواه للرشيد وقد غضب على رجل فخلاه. وعن النبي صلى

(١) أخرجه ابن سعد أخبرنا يزيد بن هارون أخبرنا فضيل بن مرزوق عن طيبة بنت المعلل. قالت «دخلت على عائشة فجاء سائل فأعطته حبة عنب ، ثم نظرت إلينا. وقالت : أتعجبين من هذا؟ إن في هذا لمثاقيل كثيرة».

(٢) أخرجه أبو داود. من رواية ابن عجلان عن سويد بن وهب عن رجل من أبناء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أبيه. قال ابن طاهر : هذا الصحابي هو معاذ بن أنس وابنه هو سهل. ورواه عبد الرزاق وأحمد عنه. والعقيلي من طريقه. قال : أخبرنا داود بن قيس عن زيد بن أسلم عن رجل من أهل الشام يقال له عبد الجليل عن عمر له عن أبي هريرة به. وعبد الجليل مجهول.

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب. من رواية المبارك بن فضالة عن الحسن عن عمران بن حصين رفعه «إذا كان

الله عليه وسلم : «إن هؤلاء في أمتي قليل إلا من عصم الله ، وقد كانوا كثيراً في الأمم التي ^(١) مضت » ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يجوز أن تكون اللام للجنس فيتناول كل محسن ويدخل تحته هؤلاء المذكورون. وأن تكون للعهد فتكون إشارة إلى هؤلاء ﴿وَالَّذِينَ﴾ عطف على المتقين ، أى أعدت للمتقين وللتائبين. وقوله : ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الفريقين. ويجوز أن يكون والذين مبتدأ خبره أولئك ﴿فَاحِشَةً﴾ فعلة متزايدة القبح ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أو أذنبوا أى ذنب كان مما يؤاخذون به. وقيل : الفاحشة الزنا. وظلم النفس ما دونه من القبلة واللمسة ونحوهما. وقيل : الفاحشة الكبيرة. وظلم النفس الصغيرة ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ تذكروا عقابه أو وعيده أو نهيهِ ، أو حقه العظيم وجلاله الموجب للخشية والحياء منه ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ فتابوا عنها لقبحها نادمين عازمين ^(٢) ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ وصف لذاته بسعة الرحمة وقرب المغفرة وإنّ التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له ، وأنه لا مفرج للمذنبين إلا فضله وكرمه ، وأنّ عدله يوجب المغفرة للتائب ، لأن العبد إذا جاء في الاعتذار والتوصل بأقصى ما يقدر عليه وجب العفو ^(٣) والتجاوز وفيه تطيب لنفوس العباد ، وتنشيط للتوبة ، وبعث عليها وردع عن اليأس والقنوط وأن الذنوب وإن جلّت فإن عفوه أجل وكرمه أعظم. والمعنى : أنه وحده معه مصححات المغفرة. وهذه جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا﴾ ولم يقيموا على قبيح فعلهم غير مستغفرين. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «ما أصرّ من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين ^(٤) مرّة» وروى «لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار ^(٥)» ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حال من فعل

. يوم القيامة ينادى مناد من بطنان العرش ليقيم الذين كانت أجورهم على الله فلا يقوم إلا من عفا» وفي إسناده قصة إبراهيم بن مهدي مع المأمون. ورواه الطبراني من رواية محرز أبي رجاء عن الحسن قال «يقال يوم القيامة ليقيم من كان له على أنه أجر فما يقوم إلا إنسان عفا ، ثم قرأ ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. وذكره أبو شجاع في الفردوس عن أنس رضي الله عنه.

(١) ذكره الثعلبي عن مقاتل بن حيان قال : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ... فذكره. وإسناده إلى مقاتل في أول الكتاب ، وفي الفردوس عن أنس نحوه في أول الذي قبله.

(٢) قوله «عازمين» لعله عازمين على عدم العود. (ع)

(٣) قوله «بأقصى» مما يقدر عليه وجب العفو» أما سمعاً فباتفاق ، وأما عقلاً فعند المعتزلة فقط. (ع)

(٤) أخرجه أبو داود والترمذي وأبو يعلى والبزار. من طريق عثمان بن واهد عن أبي نصيرة عن مولى لأبي بكر رضي الله عنه. قال الترمذي : غريب وليس إسناده بالقوى. وقال البزار : لا نحفظه إلا من حديث أبي بكر بهذا الطريق. وأبو نصيرة وشيخه لا يعرفان. قلت : له شاهد أخرجه الطبراني في الدعاء من حديث ابن عباس.

(٥) أخرجه إسحاق بن بشر أبو حذيفة في المبتدأ عن الثوري عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة وإسحاق حديثه منكر. ورواه الطبراني في مسند الشاميين من رواية مكحول. عن أبي سلمة. عن أبي هريرة. وزاد في آخره «فطوبى لمن وجد في كتابه استغفاراً كثيراً» وفي إسناده بشر بن عبد الوارث. وهو متروك. ورواه الثعلبي وابن شاهين في الترغيب من رواية بشر بن إبراهيم عن خليفة بن سليمان عن أبي سلمة عن أبي هريرة به.

الإصرار وحرف النفي منصب عليهما معاً. والمعنى : وليسوا ممن يصرون على الذنوب وهم عالمون بقبحها وبالنهاى عنها وبالوعيد عليها ، لأنه قد يعذر من لا يعلم قبح القبيح. وفي هذه الآيات بيان قاطع أنّ الذين آمنوا على ثلاث طبقات متقون وتائبون ومصرّون ، وأن الجنة للمتقين والتائبين منهم ، دون المصرّين ^(١). ومن خالف في ذلك فقد كابر عقله وعاند ربه. قال ﴿أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ بعد قوله : ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ لأثما في معنى واحد. وإنما خالف بين اللفظين لزيادة التنبيه على أنّ ذلك جزاء واجب على عمل ، وأجر مستحق عليه ، لا كما يقول المبطلون ^(٢). وروى أنّ الله عزّ وجلّ أوحى إلى موسى : «ما أقلّ حياء من يطمع في جنّتي بغير عمل ، كيف أجود برحمتي على من ييخل بطاعتي» وعن شهر بن حوشب : طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب ، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور ، وارتجاء الرحمة ممن لا يطاع حق وجهالة. وعن الحسن رضى الله عنه :

يقول الله تعالى يوم القيامة «جوزوا الصراط بعفوي ، وادخلوا الجنة برحمتي ، واقتسموها بأعمالكم» وعن رابعة البصرية رضى الله عنها أنها كانت

تنشد :

تَرْجُو النِّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا إِنَّ السَّيِّئَةَ لَا تَجْزِي عَلَى الْيَسْبَسِ ^(٣)

والمخصوص بالمدح محذوف تقديره : ونعم أجر العاملين ذلك. يعنى المغفرة والجنات ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ يريد ما سنه الله في الأمم المكذبين من وقائعه ، كقوله : ﴿وَقَتِّلُوا تَفْتِيلًا سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ، ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ﴾. ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٨) وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٩)

(١) قوله والتائبين منهم دون المصرّين يعنى أن الإصرار كبيرة وفاعل الكبيرة يخلد في النار لكن هذا عند المعتزلة ، وخالف أهل السنة لأنه مؤمن عندهم والمؤمن لا يخلد فيها وتحقيقه في علم التوحيد. (ع)

(٢) قوله وأجر مستحق عليه لا كما يقول المبطلون) يريد بهم أهل السنة حيث قالوا لا يجب على الله شيء. (ع)

(٣) مــــا بال نفســــك ترضــــى أن تدنــــسها و ثــــوب نفســــك مغســــول مــــن الدنــــس

ترجــــو النجــــاة ولم تــــسلك مــــسالكها إن الســــيئة لا تجــــزى علــــى الــــيسب

للإمام على كرم الله وجهه وقيل : لأبى العتاهية. والبال الشأن والنفس. ويجوز أنها الذات والثوب على ظاهره. ويجوز أنها الروح والثوب مستعار للجسم ، لأنه للروح كالثوب للبدن ، أى لا ينبغي تدنيس المطروف مع تنظيف ظرفه. ويجوز أن الأولى الروح والثانية الذات. ويروى ما بال دينك ترضى أن تدنسه وثوب نفسك : جملة حالية. ويروى : «وثوبك الدهر مغسول». وترجو النجاة على حذف أداة الاستفهام التوبيخي ، أبرزه في صورة الخبر ليصور قبحه ، وشبه الأسباب الموصلة للنجاة بالطرق المسلوكة على سبيل التصريحية «ولم تسلك» ترشيح. وقوله «إن السفينة» تمثيل لحال من يرجو أمراً ولم يأخذ في أسبابه بحال ملاح يريد تسيير السفينة على أرض صلبة لا ماء بها ، وفيه تقرير التوبيخ الذي أفاده الاستفهام.

﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ إيضاح لسوء عاقبة ما هم عليه من التكذيب ، يعنى : حثهم على النظر في سوء عواقب المكذبين قبلهم والاعتبار بما يعاينون من آثار هلاكهم ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يعنى أنه مع كونه بيانا وتنبيهاً للمكذبين فهو زيادة تثبيت وموعظة للذين اتقوا من المؤمنين : ويجوز أن يكون قوله : ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ جملة معترضة للبعث على الإيمان وما يستحق به ما ذكر من أجر العاملين ، ويكون قوله : ﴿هَذَا بَيَانٌ﴾ إشارة إلى ما لخص وبين من أمر المتقين والتائبين والمصرين ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ تسليية من الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين عما أصابهم يوم أحد وتقوية من قلوبهم ، يعنى ولا تضعفوا عن الجهاد لما أصابكم ، أى لا يورثكم ذلك وهنا وجبنا ، ولا تبالوا به ، ولا تحزنوا على من قتل منكم وجرح ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ وحالكم أنكم أعلى منهم وأغلب ، لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم يوم أحد. أو وأنتم الأعلون شأننا ، لأن قتالكم لله وإعلاء كلمته ، وقتالهم للشيطان لإعلاء كلمة الكفر ، ولأن قتالكم في الجنة وقتالهم في النار. أو هي بشارة لهم بالعلو والغلبة ، أى وأنتم الأعلون في العاقبة ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بالنهاى بمعنى : ولا تهنوا إن صح إيمانكم على أن صحة الإيمان توجب قوة القلب والثقة بصنع الله وقلة المبالاة بأعدائه. أو بالأعلون ، أى إن كنتم مصدقين بما يعدكم الله ويبشركم به من الغلبة.

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (١٤٠) ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٤١)

قري (قرح) بفتح القاف وضمها ، وهما لغتان كالضعف والضعف. وقيل : هو بالفتح الجراح ، وبالضم ألمها. وقرأ أبو السمال (قرح) بفتحتين. وقيل القرح والقرح كالطرد والطرد. والمعنى : إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتهم منهم قبله يوم بدر ، ثم لم يضعف ذلك قلوبهم ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال ، فأنتم أولى أن لا تضعفوا. ونحوه ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ وقيل : كان ذلك يوم أحد ، فقد نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإن قلت : كيف قيل ﴿قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ وما كان قرحهم يوم أحد مثل قرح المشركين؟ قلت : بلى كان مثله ، ولقد قتل يومئذ خلق من الكفار. ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّوهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾. ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ﴾ تلك مبتدأ ، والأيام صفته. و ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ خبره ، ويجوز أن يكون ﴿تِلْكَ

الْأَيَّامُ ﴿١﴾ مبتدأ وخبراً ، كما تقول : هي الأيام تبلى كل جديد. والمراد بالأيام : أوقات الظفر والغلبة ، نداولها : نصرفها بين الناس نديل تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء ، كقوله وهو من أبيات الكتاب :

فَيَوْمَ عَلَيْنَا وَيَوْمَ لَنَا وَيَوْمَ نُسَاءُ وَيَوْمَ نُسَاءُ (١)

ومن أمثال العرب : الحرب سجال. وعن أبي سفيان أنه صعد الجبل يوم أحد فمكث ساعة ثم قال : أين ابن أبي كبشة ، أين ابن أبي قحافة ، أين ابن الخطاب. فقال عمر : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا أبو بكر ، وهذا أنا عمر. فقال أبو سفيان يوم بيوم والأيام دول والحرب سجال. فقال عمر رضى الله عنه : لا سواء ، قتلاتنا في الجنة ، وقتلاككم في النار. فقال : إنكم تزعمون ذلك فقد خبنا إذن وخسرنا (٢) ، والمداوله مثل المعاورة. وقال :

يَرِدُ الْمِيَاهَ فَلَا يَزَالُ مُدَاوِلًا فِي النَّاسِ بَيِّنٌ تَمَثَّلُ لِي وَسَمَاعٌ (٣)

يقال : داوت بينهم الشيء فتداولوه ﴿وَلْيَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيه وجهان : أحدهما أن يكون المعلل محذوفاً معناه : وليتميز الثابتون على الإيمان منكم من الذين على حرف ، فعلنا ذلك وهو من باب التمثيل. بمعنى : فعلنا ذلك فعل من يريد أن يعلم من الثابت على الإيمان منكم من غير الثابت ، وإلا فالله عز وجل لم يزل عالماً بالأشياء قبل كونها. وقيل : معناه وليعلمهم علماً يتعلق به الجزاء ،

(١) فلا وأبي الناس لا يعلمون فلا الخير خير ولا الشر شر فيوم علينا ويوم لنا

ويوم نساء ويوم نسر

للنمر بن تولب ، وهو من أبيات الكتاب. و «لا» زائدة قبل القسم ، لأنه في الغالب لنفى شيء. وقيل : إشارة إلى اتضاح القضية المقسم عليها وعدم احتياجها إلى قسم ، لكنه إنما يظهر في مثل قوله تعالى : ﴿فَلَا أَقْسِمُ﴾ حيث أبرز في صورة النفي المعتادة : و «الناس» مبتدأ خبره «لا يعلمون» ثم بين ذلك بقوله : فليس الخير الذي زعموا أنه خير ، خيراً كما زعموا. وليس الشر الذي زعموه شراً كما زعموا. أو ليس الخير خيراً دائماً ، وليس الشر شراً دائماً. فيوم علينا نخذل فيه. ويوم لنا ننصر فيه ، ويوم نساء فيه ، ويوم نسر فيه. وروى بنصب اليوم. والمعنى : فيوما تدور الدائرة علينا ، ويوما تكون الدولة لنا. ونساء يوما ، ونسر يوما. وكل جملتين من هذه الجمل واقعتان موقع البيان مما قبلهما. وفي البيت الثاني : لف ونشر مرتب ، وذلك حسن.

(٢) أخرجه أحمد والحاكم والطبراني والبيهقي في الدلائل. من رواية ابن أبي الزناد عن أبيه عن ابن عباس أن أبا سفيان قال يوم أحد فذكره. قلت : وأصله في الصحيح من غير هذا الوجه بغير هذا السياق.

(٣) فلأهمدين مع الريح قصيدة مسمى محبرة إلى القعقاع

تورد الميهاه فلا تزال تداولا في الناس بـيِّن تمثِّل وسماع

المحبرة : المحسنة. والقعقاع اسم الممدوح ، وهو في الأصل الشيء اليابس الصلب. ترد تلك القصيدة المياه ، خصها لكثرة الناس عليها وتغنيهم بالأشعار عندها ، أى ترد مواضع المياه فلا تزال متداولة في الناس ، أو فلا تزال ذات تداول ، أو فلا تزال تتداول تداولا بين الناس دائرة بين تمثل ، أى إنشاد لها بأن يضرها الناس أمثالاً لأحوالهم ، وبين استماع لها لحسنها. وروى يرد المياه فلا يزال مداولا الخ فذكر ضمير القصيدة لأنها بمعنى الشعر.

وهو أن يعلمهم موجوداً منهم الثبات ، والثاني أن تكون العلة محذوفة ، وهذا عطف عليه ، معناه : وفعلنا ذلك ليكون كيت وكيت وليعلم الله . وإنما حذف للإيدان بأن المصلحة فيما فعل ليست بواحدة ، ليسليهم عما جرى عليهم ، وليبصرهم أن العبد يسوءه ما يجري عليه من المصائب ، ولا يشعر أن الله في ذلك من المصالح ما هو غافل عنه ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ وليكرم ناساً منكم بالشهادة ، يريد المستشهدين يوم أحد. أو وليتخذ منكم من يصلح للشهادة على الأمم يوم القيامة بما يتلى به صبركم من الشدائد ، من قوله تعالى : ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ اعتراض بين بعض التعليل وبعض. ومعناه : والله لا يحب من ليس من هؤلاء الثابتين على الإيمان ، المجاهدين في سبيل الله ، المحصنين من الذنوب. والتمحيص : التطهير والتصفية ﴿وَيَمَحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ ويهلكهم. يعنى : إن كانت الدولة على المؤمنين فللتمييز والاستشهاد والتمحيص ، وغير ذلك مما هو أصلح لهم. وإن كانت على الكافرين ، فلمحقهم ومحو آثارهم.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٤٢)

﴿أَمْ﴾ منقطعة ^(١) ومعنى الهمزة فيها الإنكار ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ بمعنى ولما تجاهدوا ، لأنّ العلم متعلق بالمعلوم ^(٢) فنزل نفى العلم منزلة نفى متعلقه لأنه منتف بانتفائه. يقول الرجل : ما علم الله في فلان خيراً ، يريد : ما فيه خير حتى يعلمه. ولما بمعنى لم ، إلا أن فيها ضرباً من التوقع فدلّ على نفى الجهاد فيما مضى وعلى توقعه فيما يستقبل. وتقول : وعدني أن يفعل كذا ، ولما تريد ، ولم يفعل ، وأنا أتوقع فعله. وقرئ ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ بفتح الميم. وقيل أراد النون الخفيفة ولما يعلمن ^(٣)

(١) قوله «أَمْ منقطعة» هي المفسرة ببل والهمزة. (ع)

(٢) قال محمود : «ولما تجاهدوا لأن العلم متعلق بالمعلوم ... الخ» قال أحمد : التعبير عن نفى المعلوم بنفى العلم خاص بعلم الله تعالى ، لأنه يلزم من عدم تعلق علمه بوجود شيء ما ، عدم ذلك الشيء ، ضرورة أنه لا يعزب عن علمه شيء لعموم تعلقه ، فاستقام التعبير عن نفى الشيء بنفى تعلق العلم القديم بوجوده المصحح للملازمة ، ولا كذلك علم آحاد المخلوقين ، فانه لا يعبر عن نفى شيء بنفى تعلق علم الخلق به ، لجواز وجود ذلك الشيء غير معلوم للخلق. والزخشرى يظهر من كلامه صحة هذا التعبير مطلقاً ويعتقد الملازمة المذكورة عامة ، فلذلك قال في قول فرعون ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ أنه عبر عن نفى المعلوم بنفى العلم ، لأنه من لوازمه. وسيأتى بيان أن الزخشرى وهم في هذا الموضع ، وإلا فهو يحاشى عن الوقوع في مثله اعتقاداً ، والله أعلم. وإنما عبر فرعون بذلك تليساً على ملئه وتتميماً لدعوى ألوهيته الكاذبة بأنه لا يعزب عن علمه شيء ، فلو كان إله سواه على دعواه لتعلق علمه به وهذا يعد من حماقات فرعون ودعاويه الفارغة ، والله الموفق.

(٣) قوله «ولما يعلمن» لعله أى ولما يعلمن. (ع)

فحذفها ﴿وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ﴾ نصب بإضمار أن والواو بمعنى الجمع ، كقولك لا تأكل السمك وتشرب اللبن. وقرأ الحسن بالجزم على العطف. وروى عبد الوارث عن أبي عمرو (ويعلم) بالرفع على أنّ الواو للحال ، كأنه قيل : ولما تجاهدوا وأنتم صابرون.

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (١٤٣)

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾ خوطب به الذين لم يشهدوا بدرّاً وكانوا يتمنون أن يحضروا مشهداً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصيبوا من كرامة الشهادة ما نال شهداء بدر ، وهم الذين ألحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخروج إلى المشركين ، ^(١) وكان رأيّه في الإقامة بالمدينة ، يعنى : وكنتم تمنون الموت قبل أن تشاهدوه وتعرفوا شدّته وصعوبة مقاساته ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ أى رأيتموه معانين مشاهدين له حين قتل بين أيديكم من قتل إخوانكم وأقاربكم وشارفتم أن تقتلوا. وهذا توبيخ لهم على تمنّيهم الموت ، وعلى ما تسببوا له من خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم بإلحاحهم عليه ، ثم انخراطهم عنه وقلة ثباتهم عنده. فإن قلت : كيف يجوز تمنّي الشهادة وفي تمنّيها تمنّي غلبة الكافر المسلم؟ قلت : قصد متمنى الشهادة إلى نيل كرامة الشهداء لا غير ، ولا يذهب وهمه إلى ذلك المتضمن ، كما أن من يشرب دواء الطبيب النصراني قاصداً إلى حصول المأمول من الشفاء ، ولا يخطر بباله أنّ فيه جرّ منفعة وإحسان إلى عدوّ الله وتنفيقا لصناعته. ولقد قال عبد الله بن ربيعة رضي الله عنه . حين نهض إلى مؤتة وقيل له ردكم الله ^(٢) :

لَكِنِّي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً وَضَرْبَةَ ذَاتِ فَرْغٍ تَقْذِفُ الزَّيْداً
أَوْ طَعْنَ يَبْدِي حَرَّانَ مُجْهِزَةً بِحَرْبَةٍ تَنْفُذُ الْأَحْشَاءَ وَالْكَبْداً
حَتَّى يَقُولُوا إِذَا مَرُّوا عَلَيَّ جَدَثِي أَرَشَدَكَ اللَّهُ مِنْ غَازٍ وَقَدْ رَشَدَا ^(٣)

(١) قوله «في الخروج» لعله وكان رأيهم في الخروج. (ع)

(٢) قوله «وقيل له : ردكم الله» لعله سالمين. (ع)

(٣) لعبد الله بن ربيعة حين خرج إلى غزوة مؤتة فقبل له : ردك الله سالماً. وذات فرغ : أى واسعة الثقب. والفرغ : مصب الماء من الدلو بين العرقى. أو طعنة ذات فرغ : أى ذات سعة. ويطلق الفرغ على الدلو أيضاً. وتقذف الزيد : تمج الدم الذي يعلوه الزيد. أى الرغبة. لكثرت. وحران : عطشان إلى قتلى ، وهو مجاز عن تطلبه إياه. والمجبهة : المدفقة المسرعة التي لا تبقى رماً. وتنفذ الأحشاء : أى تنفذ فيها. وإن ضمنت التاء وكسرت الفاء ، فمعناه تثقبها. والكبد : عطف خاص على عام. والجدث : القبر ، والتفت إلى الغيبة في قوله : وقد رشد ، على أنه من كلامه. ويجوز أنه من قول الناس. ويحتمل الاخبار والدعاء. ومن غاز : تمييز.

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْفَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

لما رمى عبد الله بن قمئة الحارثي رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر فكسر رباعيته وشج وجهه ، أقبل يريد قتله فذب عنه صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير وهو صاحب الراية يوم بدر ويوم أحد ، حتى قتله ابن قمئة وهو يرى أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : قد قتلت محمداً. وصرخ صارخ : ألا إن محمداً قد قتل. وقيل : كان الصارخ الشيطان ، ففشا في الناس خبر قتله فانكفؤا ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو : «إلى عباد الله» حتى انحازت إليه طائفة من أصحابه ، فلامهم على هربهم ، فقالوا : يا رسول الله . فدينناك بآبائنا وأمهاتنا . أتانا خبر قتلِكَ فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين^(١). فنزلت. وروى أنه لما صرخ الصارخ قال بعض المسلمين :

(١) قلت : هذا منتزع من عدة أخبار في وقعة أحد. قال موسى بن عقبة في المغازي ومن طريقه البيهقي في الدلائل عن ابن شهاب. قال «رمى يومئذ رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من بني الحرث يقال له عبد الله بن قمئة ، ويقال : بل رماه عتبة بن أبي وقاص» وفي الطبراني عن أبي أمامة «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رماه عبد الله بن قمئة بحجر يوم أحد فشججه في وجهه وكسر رباعيته ، وقال : خذها وأنا ابن قمئة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أقمأك الله فسلط الله عليه تيس جبل فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة» وروى الطبري من طريق أسباط عن السدي فذكر قصة أحد. قال فأتى ابن قمئة الحارثي أحد بني الحرث بن عبد مناف بن كنانة. فرمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر فكسر أنفه ورباعيته وشججه في رأسه فأثقله وتفرق عنه أصحابه ودخل بعضهم المدينة ، وانطلق بعضهم فوق الجبل ، وجعل يدعوهم : إلى عباد الله. إلى عباد الله. وفشا في الناس أن محمداً قتل» الحديث ، وفي المغازي لابن إسحاق ومن طريقه الطبري عن الزهري ، ومحمد بن محمد بن حبان وعاصم بن عمر ، وغيرهم فذكر قصة أحد. قال «ولم يزل مصعب بن عمير يقاتل دونه ومعه لواءه حتى قتل ، وكان الذي أصابه ابن قمئة وهو يظن أن النبي صلى الله عليه وسلم. فرجع إلى قريش فقال : لقد قتلت محمداً. وعند الواقدي عن ابن أبي سبرة عن خالد بن رباح عن الأعرج قال «لما صاح الشيطان يوم أحد إن محمداً قد قتل. قال أبو سفيان : أيكم قتل محمداً؟ قال ابن قمئة : أنا. وأما قوله : فلامهم على هربهم إلى آخره فرواه [بياض بالأصل].] قوله أنه لما صرخ الصارخ قال بعض المسلمين : ليت عبد الله ابن أبي يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان ، هو من رواية السدي المتقدمة ولفظه : فقال بعض أصحاب الصخرة ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبي فيأخذ لنا أمانة من أبي سفيان. قوله «وقال ناس من المنافقين : لو كان نبياً ما قتل. ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم. فقال أنس بن النضر عم أنس : يا قوم إن كان قتل محمد فان رب محمد حي لا يموت. الحديث : هو في آخر رواية السدي المذكورة. قوله وعن بعض المهاجرين أنه مر بأنصارى يتشحط في دمه فقال : يا فلان أشعرت أن محمداً قد قتل. فقال : إن كان قد قتل فقد بلغ. فقاتلوا عن دينكم» رواه الطبري من رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد أن رجلاً من المهاجرين مر على رجل من الأنصار وهو يتشحط ، فذكره في كلام طويل.

ليت عبد الله بن أبيّ يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان. وقال ناس من المنافقين : لو كان نبياً لما قتل ، ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم. فقال أنس بن النضر . عم أنس بن مالك . : يا قوم ، إن كان قتل محمد فإن رب محمد حيّ لا يموت ، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقاتلوا على ما قاتل عليه ، وموتوا على ما مات عليه. ثم قال : اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء ، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ، ثم شدّ بسيفه فقاتل حتى قتل. وعن بعض المهاجرين : أنه مرّ بأنصارى يتشحط في دمه ، فقال يا فلان ، أشعرت أن محمداً قد قتل ، فقال : إن كان قتل فقد بلغ ، قاتلوا على دينكم. والمعنى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ فسيخلو كما خلوا ، وكما أن أتباعهم بقوا متمسكين بدينهم بعد خلوه ، فعليكم أن تتمسكوا بدينه بعد خلوه ، لأن الغرض من بعثة الرسل ^(١) تبليغ الرسالة وإلزام الحجة ، لا وجوده بين أظهر قومه ﴿إِنَّمَا مَاتَ﴾ الفاء معلقة للجملة الشرطية بالجملة قبلها على معنى التسبب ، والهمزة لإنكار أن يجعلوا خلو الرسل قبله سبباً لانقلابهم على أعقابهم بعد هلاكه بموت أو قتل ، مع علمهم أنّ خلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكا به يجب أن يجعل سبباً للتمسك بدين محمد صلى الله عليه وسلم ، لا للانقلاب عنه. فإن قلت : لم ذكر القتل وقد علم أنه لا يقتل؟ قلت : لكونه مجوّزاً عند المخاطبين. فإن قلت : أما علموه من ناحية قوله : ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾؟ قلت : هذا مما يختص بالعلماء منهم وذوى البصيرة. ألا ترى أنهم سمعوا بخبر قتله فهربوا ، على أنه يحتمل العصمة من فتنة الناس وإذ لا لهم. والانقلاب على الأعقاب : الإدبار عما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم به من أمر الجهاد وغيره. وقيل : الارتداد. وما ارتد أحد من المسلمين ذلك اليوم إلا ما كان من قول المنافقين. ويجوز أن يكون على وجه التغليظ عليهم فيما كان منهم من الفرار والانكشاف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإسلامه ^(٢) ﴿فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً﴾ فما ضر إلا نفسه ، لأن الله تعالى لا يجوز عليه المضارّ والمنافع ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ الذي لم ينقلبوا كأنس بن النضر وأضرابه. وسماهم شاكرين ، لأنهم شكروا نعمة الإسلام فيما فعلوا. المعنى : أن موت الأنفس محال أن يكون إلا بمشيئة الله ، فأخرجه مخرج فعل لا ينبغي لأحد أن يقدم عليه إلا أن يأذن الله له فيه تمثيلاً ، ولأن ملك الموت هو الموكل بذلك ، فليس له أن يقبض نفساً إلا بإذن من الله. وهو على معنيين : أحدهما تحريضهم على الجهاد وتشجيعهم على لقاء العدو بإعلامهم أن الحذر لا ينفع ، وأن أحداً لا يموت قبل بلوغ أجله وإن خوّض المهالك واقتحم المعارك.

(١) قوله «من بعثة الرسل» لعلة الرسول. (ع)

(٢) قوله «وإسلامه» أى : تركه للعدو. (ع)

والثاني ذكر ما صنع الله برسوله عند غلبة العدو والتفافهم عليه وإسلام قومه له ، نَهْزَةً للمختلس من الحفظ والكلاءة وتأخير الأجل

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٥)

﴿كِتَابًا﴾ مصدر مؤكد ، لأن المعنى : كتب الموت كتابا ﴿مُؤَجَّلًا﴾ موقتا له أجل معلوم لا يتقدم ولا يتأخر ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ تعريض بالذين شغلتهم الغنائم يوم أحد ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أى من ثوابها ﴿وَسَنَجْزِي﴾ الجزاء المبهم الذين شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شيء عن الجهاد. وقرئ : يؤته. وسيجزي ، بالياء فيهما.

﴿وَكَايْنٍ مَنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٤٨)

قرئ ؛ قاتل. وقتل. وقتل ، بالتشديد ، والفاعل ربيون ، أو ضمير النبي. و ﴿مَعَهُ رِبِّيُّونَ﴾ حال عنه بمعنى : قتل كائنا معه ربيون. والقراءة بالتشديد تنصر الوجه الأول. وعن سعيد بن جبير رحمه الله : ما سمعنا بنبي قتل في القتال. والربيون الربانيون. وقرئ بالحركات الثلاث ، فالفتح على القياس ، والضم والكسر من تغييرات النسب. وقرئ : ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ بكسر الهاء. والمعنى : فما وهنوا عند قتل النبي ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ عن الجهاد بعده ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ للعدو. وهذا تعريض بما أصابهم من الوهن والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم ، حين أرادوا أن يعتضدوا بالمنافق عبد الله بن أبي في طلب الأمان من أبي سفيان ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا﴾ هذا القول وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين ، هضمًا لها واستقصارًا. والدعاء بالاستغفار منها مقدما على طلب تثبيت الأقدام في مواطن الحرب والنصرة على العدو ، ليكون طلبهم إلى ربه عن زكاء وطهارة وخضوع ، وأقرب إلى الاستجابة ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ من النصرة

والغنيمة والعز وطيب الذكر. وخص ثواب الآخرة بالحسن دلالة على فضله وتقدمه ، وأنه هو المعتد به عنده ﴿ثُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُزِدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٥١)

﴿إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال على رضي الله عنه نزلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة : ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا في دينهم. وعن الحسن رضي الله عنه : إن تستنصحو اليهود والنصارى وتقبلوا منهم ، لأنهم كانوا يستغوثونهم ويوقعون لهم الشبه في الدين ، ويقولون : لو كان نبيا حقا لما غلب ولما أصابه وأصحابه ما أصابهم ، وإنما هو رجل حاله كحال غيره من الناس يوما له ويوما عليه. وعن السدي : إن تستكينوا لأبي سفيان وأصحابه وتستأمنوهم ﴿يُزِدُّوكُمْ﴾ إلى دينهم. وقيل هو عام في جميع الكفار ، وإن على المؤمنين أن يجانبوهم ولا يطيعوهم في شيء ولا ينزلوا على حكمهم ولا على مشورتهم حتى لا يستجروهم إلى موافقتهم ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ أى ناصرهم ، لا تحتاجون معه إلى نصره أحد وولايته. وقرئ بالنصب على : بل أطيعوا الله مولاكم ﴿سَنُلْقِي﴾ قرئ بالنون والياء. و ﴿الرُّعْبَ﴾ . بسكون العين وضمها .. قيل : قذف الله في قلوب المشركين الخوف يوم أحد فانهمزموا إلى مكة من غير سبب ولهم القوة والغلبة. وقيل : ذهبوا إلى مكة فلما كانوا ببعض الطريق قالوا : ما صنعنا شيئا ، قتلنا منهم ثم تركناهم ونحن فاهرون ^(١) ارجعوا فاستأصلوهم ، فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب في قلوبهم فأمسكوا. ﴿بِمَا أَشْرَكُوا﴾ بسبب إشراكهم ، أى كان السبب في إلقاء الله الرعب في قلوبهم إشراكهم به ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ﴾ آلهة لم ينزل الله بإشراكها حجة. فإن قلت : كان هناك حجة ^(٢) حتى ينزلها ^(٣) الله

(١) قوله «فاهرون» لعله فاهرون. والفاره : الحاذق بالشيء. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله «فإن قلت كان هناك حجة» لعله : أكان. (ع)

(٣) قال محمود : «إن قلت كان هناك حجة حتى ينزلها الله فيصح لهم الاشراك ... الخ»؟ قال أحمد : إنما يرد هذا السؤال لو أفهم ظاهر اللفظ أن ثم حجة وليس في ظاهره ما يفهم ذلك ، ولو كانت الآية كقول القائل : بما أشركوا بالله ما لم ينزل سلطانه ، باضافة السلطان إلى ما أشركوا به ، لكان للسائل مقول ، ولكن كقول القائل : على لا حب لا يهتدى بمناره فانه باضافة المنار إليه يوهم أن فيه منارا ، فيحتاج الناظر إلى حمله على معنى لا منار فيه فيهتدى به ، ولو أطلق الشاعر فقال : «على لا حب لا يهتدى فيه بمنار» مثلا ، لاستغنى عن تأويل الكلام ، وكذلك الآية غنية عن التأويل ، والله أعلم.

فيصح لهم الإشراك؟ قلت : لم يعن أن هناك حجة إلا أنها لم تنزل عليهم ، لأن الشرك لا يستقيم أن يقوم عليه حجة ، وإنما المراد نفى الحجة ونزولها جميعا ، كقوله :

وَلَا تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرُ ^(١)

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّوهُم بِآذِنِهِ حَتَّى إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ عَمَّا بَغِمَ لَكُمْ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نَاعَسًا يَغْشى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١٥٤) ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ وعدهم الله النصر بشرط الصبر والتقوى في قوله تعالى : ﴿إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ﴾ ويجوز أن يكون الوعد قوله تعالى : ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ فلما فشلوا وتنازعوا لم يربعهم. وقيل : لما رجعوا إلى المدينة قال ناس من

(١) لا تفزع الأرنب أهوالها ولا ترى الضب بها ينجح

لابن أحرر. يقول : لا تخفيف الأرنب أهوال تلك الصحراء ، أى لا هول فيها حتى يفزعه ، فما في البيت كناية عن ذلك ، كقوله : ولا ترى الضب فيها يدخل حجره ، أى لا ضب فيها ينجح. و «ينجح» حال إن كانت ترى بصرية ، ومفعول ثانٍ إن كانت علمية. ويجوز أن المعنى : لا أرنب فيها تفزعه أهوالها ، كما لا ضب فيها يدخل حجره ، فهما منفيان. وهذا أوفق بالمقدم.

المؤمنين من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر فنزلت. وذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل أحدا خلف ظهره ، واستقبل المدينة وأقام الرماة عند الجبل ، وأمرهم أن يثبتوا في مكائهم ولا يبرحوا . كانت الدولة للمسلمين أو عليهم . فلما أقبل المشركون جعل الرماة يرشقون خيلهم ، والباقيون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم . يحسونهم أى يقتلونهم قتلا ذريعا . حتى إذا فشلوا . والفشل : الجبن وضعف الرأى . وتنازعوا ، فقال بعضهم : قد انهزم المشركون فما موقفنا هاهنا وقال بعضهم : لا نخالف أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فممن ثبت مكانه عبد الله بن جبير أمير الرماة في نفر دون العشرة وهم المعنيون بقوله : ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ ونفر أعقابهم ينهايون ، وهم الذين أرادوا الدنيا ، فكرّ المشركون على الرماة ، وقتلوا عبد الله بن جبير رضى الله عنه ، وأقبلوا على المسلمين ، وحالت الريح دبوراً وكانت صبا ، حتى هزموهم وقتلوا من قتلوا ، وهو قوله ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ليمتحن صبركم على المصائب وثباتكم على الإيمان عندها ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ لما علم من ندمكم على ما فرط منكم من عصيان أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ يتفضل عليهم بالعفو ، أو هو متفضل عليهم في جميع الأحوال سواء أديل لهم أو أديل عليهم ؛ لأنّ الابتلاء رحمة كما أنّ النصر رحمة . فإن قلت : أين متعلق ﴿حَتَّى إِذَا﴾؟ قلت : محذوف تقديره : حتى إذا فشلتم منعكم نصره . ويجوز أن يكون المعنى : صدقكم الله وعده إلى وقت فشلكم ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ نصب بصرفكم ، أو بقوله : ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أو بإضمار «اذكر» والإصعاد . الذهاب في الأرض والإبعاد فيه . يقال : صعد في الجبل وأصعد في الأرض . يقال : أصعدنا من مكة إلى المدينة : قرأ الحسن رضى الله عنه : تصعدون ، يعنى في الجبل . وتعصد الأولى قراءة أبي : إذ تصعدون في الوادي . قرأ أبو حيوه : تصعدون ، بفتح التاء وتشديد العين ، من تصعد في السلم وقرأ الحسن رضى الله عنه : تلون ، بواو واحدة وقد ذكرنا وجهها . وقرئ : يصعدون . ويلوون بالياء ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ كان يقول «إلى عباد الله ، إلى عباد الله ، أنا رسول الله ، من يكرّ فله الجنة» ﴿فِي أَخْرَاكُمْ﴾ في ساقطكم وجماعتكم الأخرى وهي المتأخرة . يقال : جئت في آخر الناس وأخراهم ، كما تقول : في أولهم وأولاهم ، بتأويل مقدمتهم وجماعتهم الأولى ﴿فَأَنَابَكُمْ﴾ عطف على صرفكم ، أى فجازاكم الله ﴿عَمَّا﴾ حين صرفكم عنهم وابتلاككم (ب) سبب (غم) أذقتموه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعصيانكم له ، أو غما مضاعفا ، غما بعد غم ، وغما متصلا بغم ، من الاغتنام بما أرجف به من قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم والجرح والقتل وظفر المشركين وفوت الغنيمة والنصر ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا﴾ لتتمرنوا على تجرع الغموم ، وتضروا باحتمال الشدائد ، فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع ولا على مصيب من المضار . ويجوز أن يكون الضمير في : ﴿فَأَنَابَكُمْ﴾ للرسول ، أى فأساكم في الاغتنام ^(١) ، وكما غمكم ما نزل به من كسر الرباعية والشجة وغيرهما

(١) قوله «فأساكم في الاغتنام» لعله : فأساكم ، أى فصار أسوتكم «أفاده الصحاح» . (ع)

غمه ما نزل بكم ، فأثابكم غما اغتمه لأجلكم بسبب غم اغتمتموه لأجله ، ولم يثربكم على عصيانكم ومخالفتكم لأمره : وإنما فعل ذلك ليسليكم وينفس عنكم لئلا تحزنوا على ما فاتكم من نصر الله ، ولا على ما أصابكم من غلبة العدو . وأنزل الله الأمن على المؤمنين وأزال عنهم الخوف الذي كان بهم حتى نعسوا وغل بهم النوم . وعن أبي طلحة رضى الله عنه : غشينا النعاس ونحن في مصافنا ، فكان السيف يسقط من يد أحدنا فيأخذه ، ثم يسقط فيأخذه . وما أحد إلا ويميل تحت حجفته ^(١) . وعن ابن الزبير رضى الله عنه : لقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتد علينا الخوف ، فأرسل الله علينا النوم . والله إني لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشاني ^(٢) : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا . والأمنة : الأمن . وقرئ (أمنة) يسكون الميم ، كأنها المرة من الأمن ﴿نُعَاسًا﴾ بدل من أمنة . ويجوز أن يكون هو المفعول ، وأمنة حالا منه مقدمة عليه ، كقولك : رأيت راكبا رجلا ، أو مفعولا له بمعنى نعستم أمنة . ويجوز أن يكون حالا من المخاطبين ، بمعنى : ذوى أمنة ، أو على أنه جمع آمن ، كبار وبررة ﴿يَغْشَى﴾ قرئ بالياء والتاء ردا على النعاس ، أو على الأمنة ﴿طَائِفَةٌ مِنْكُمْ﴾ هم أهل الصدق واليقين ﴿وَطَائِفَةٌ﴾ هم المنافقون ﴿قَدْ أَهْمَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ ما بهم إلا هم أنفسهم لا هم الدين ولا هم الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، أو قد أوقعتهم أنفسهم وما حل بهم في الهموم والأشجان ، فهم في التشاكي والتبائس ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ في حكم المصدر . ومعناه : يظنون بالله غير الظن الحق الذي يجب أن يظن به . و ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةَ﴾ بدل منه . ويجوز أن يكون المعنى : يظنون بالله ظن الجاهلية . وغير الحق : تأكيد ليظنون ، كقولك : هذا القول غير ما تقول ، وهذا القول لا قولك وظن الجاهلية ، كقولك : حاتم الجود ، ورجل صدق : يريد الظن المختص بالملة الجاهلية . ويجوز أن يراد ظن أهل الجاهلية ، أى لا يظن مثل ذلك الظن إلا أهل الشرك الجاهلون بالله ﴿يَقُولُونَ﴾ لرسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ معناه هل لنا معاشر المسلمين من أمر الله نصيب قط ، يعنون النصر والإظهار على العدو ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ ولأوليائه المؤمنين وهو النصر والغلبة ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَعْلِينَ أَنَا وَرُسُلِي﴾ ، ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ معناه : يقولون لك فيما يظهرون : هل لنا من الأمر من شيء سؤال المؤمنين المسترشدين وهم فيما ييطنون على النفاق ، يقولون في أنفسهم أو بعضهم لبعض منكبين

(١) أخرجه البخاري من رواية قتادة عن أنس به . لكن ليس في آخره «وما أحد إلا ويميل تحت حجفته» وهو بتمامه عند الحاكم . وكذا أخرجه الطبري من رواية ثابت عن أنس رضى الله عنه .

(٢) أخرجه ابن إسحاق في المغازي . حدثني يحيى بن عباد بن عبيد الله بن الزبير عن أبيه . عن عبيد الله بن الزبير عن أبيه به . وأخرجه إسحاق والبيهقي وابن أبي حاتم وأبو نعيم والبيهقي . كلهم من طريقه .

لقولك لهم إن الأمر كله لله ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أى لو كان الأمر كما قال محمد أن الأمر كله لله ولأوليائه وأنهم الغالبون ، لما غلبنا قط ، ولما قتل من المسلمين من قتل في هذه المعركة ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ يعنى من علم الله منه أنه يقتل ويصرع في هذه المصارع وكتب ذلك في اللوح لم يكن بد من وجوده فلو قعدتم في بيوتكم ﴿لَبَرَزَ﴾ من بينكم ﴿الَّذِينَ﴾ علم الله أنهم يقتلون ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ وهي مصارعهم ليكون ما علم الله أنه يكون. والمعنى أن الله كتب في اللوح قتل من يقتل من المؤمنين ، وكتب مع ذلك أنهم الغالبون ، لعلمه أن العاقبة في الغلبة لهم ، وأن دين الإسلام يظهر على الدين كله ، وأن ما ينكبون به في بعض الأوقات تمحيص لهم وترغيب في الشهادة ، وحرصهم على الشهادة مما يحرضهم على الجهاد فتحصل الغلبة. وقيل : معناه هل لنا من التدبير من شيء ، يعنون لم تملك شيئا من التدبير حيث خرجنا من المدينة إلى أحد ، وكان علينا أن نقيم ولا نبرح كما كان رأى عبد الله بن أبي وغيره ، ولو ملكنا من التدبير شيئا لما قتلنا في هذه المعركة ، قل إن التدبير كله لله ، يريد أن الله عز وجل قد دبر الأمر كما جرى ، ولو أقمتهم بالمدينة ولم تخرجوا من بيوتكم لما نجا من القتل من قتل منكم. وقرئ : كتب عليهم القتال. وكتب عليهم القتل ، على البناء للفاعل. ولبرز ، بالتشديد وضم الباء ﴿وَلَيَبْتَلِيَّ اللَّهُ﴾ وليمتحن ما في صدور المؤمنين من الإخلاص ، ويمحص ما في قلوبهم من وساوس الشيطان. فعل ذلك أو فعل ذلك لمصالح جمة وللابتلاء والتمحيص. فإن قلت : كيف مواقع الجمل التي بعد قوله وطائفة؟ قلت : ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ﴾ صفة لطائفة. و ﴿يَطُنُّونَ﴾ صفة أخرى أو حال بمعنى : قد أهتمهم أنفسهم ظانين. أو استئناف على وجه البيان للجملة قبلها. و ﴿يَقُولُونَ﴾ بدل من يطنون. فإن قلت : كيف صح أن يقع ما هو مسألة عن الأمر بدلا من الإخبار بالظن؟^(١) قلت : كانت مسألتهم صادرة عن الظن ، فلذلك جاز إبداله منه. ويخفون حال من يقولون. و ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ اعتراض بين الحال وذوى الحال. و ﴿يَقُولُونَ﴾ بدل من ﴿يَخْفُونَ﴾ والأجود أن يكون استئنفا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (١٥٥)

(١) قال محمود : «إن قلت كيف صح أن يقع ما هو مسألة عن الأمر ... الخ»؟ قال أحمد : ويلاحظ هذا النظر في قوله تعالى عن الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ...﴾ الآية فان هذا السؤال استفهام ، والاستفهام لا يتصف بما يتصف به الخبر من الصدق ونقيضه ، ومع ذلك ورد قوله تعالى في خطابهم ﴿أَتَبْتَونِي بِأَسْمَاءٍ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعنى في قولكم أتجعل فيها من يفسد فيها. فأجرى استفهامهم مجرى الخبر لاستلزامه الاخبار بأن هذا النوع الإنساني ليس بمعصوم عن الفساد وسفك الدماء ، إلا من عصمه الله تعالى منهم ، والله أعلم.

﴿اسْتَزَكَّهُمْ﴾ طلب منهم الزلل ودعاهم إليه ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ من ذنوبهم. ومعناه إنّ الذين انهزموا يوم أحد كان السبب في توليهم أنهم كانوا أطاعوا الشيطان فاقتربوا ذنوبا ، فلذلك منعتهم التأييد وتقوية القلوب حتى تولوا. وقيل : استزلال الشيطان إياهم هو التولي ، وإنما دعاهم إليه بذنوب قد تقدمت لهم ، لأنّ الذنب يجزّ إلى الذنب ، كما أن الطاعة تجر إلى الطاعة وتكون لطفا فيها. وقال الحسن رضى الله عنه : استزكهم بقبول ما زين لهم من الهزيمة. وقيل : ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ هو تركهم المركز الذي أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالثبات فيه. فجرّهم ذلك إلى الهزيمة. وقيل : ذكرهم تلك الخطايا فكرهوا لقاء الله معها ، فأخروا الجهاد حتى يصلحوا أمرهم ويجاهدوا على حال مرضية. فإن قلت : لم قيل ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾؟ قلت : هو كقوله تعالى ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾. ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ لتوبتهم واعتذارهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بالعقوبة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١٥٦) وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَغْفِرَةً مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِنْ مِتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨)

﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أى لأجل إخوانهم ، كقوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ ومعنى الأخوة : اتفاق الجنس أو النسب ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إذا سافروا فيها وأبعدوا للتجارة أو غيرها ﴿أَوْ كَانُوا غُزًى﴾ جمع غاز ، كعاف وعفى ، كقوله : عفى الحياض أجون^(١). وقرئ : بتخفيف الزاى على حذف التاء من غزاة. فإن قلت : كيف قيل : ﴿إِذَا ضَرَبُوا﴾ مع ﴿قَالُوا﴾؟ قلت : هو على حكاية الحال الماضية ، كقولك : حين يضربون في الأرض فإن قلت : ما متعلق ليجعل؟ قلت : قالوا ، أى قالوا ذلك واعتقدوه ليكون ﴿حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ على أنّ اللام مثلها في : ﴿لَيَكُونَنَّ هُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾. أو لا تكونوا ، بمعنى : لا تكونوا مثلهم في

(١) قوله «وعفى كقوله : عفى الحياض أجون» في الصحاح : العفى . جمع عاف . وهو الدارس . والآجن : الماء المتغير الطعم واللون . وأجن الماء يأجن ويأجن أجاً وأجونا اه . وجمع الآجن على أجون ، كالراكع على ركوع ، والشاهد على شهود. (ع)

النطق بذلك القول واعتقاده ، ليجعله الله حسرة في قلوبهم خاصة ويصون منها قلوبكم. فإن قلت : ما معنى إسناد الفعل إلى الله تعالى؟ قلت : معناه أنّ الله عز وجل عند اعتقادهم ذلك المعتقد الفاسد يضع الغم والحسرة في قلوبهم ، ويضيق صدورهم عقوبة ، فاعتقاده فعلهم وما يكون عنده من الغم والحسرة وضيق الصدور فعل الله عز وجل كقوله : ﴿يَجْعَلْ صَدْرُهُ ضَيْقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى ما دلّ عليه النهي ، أى لا تكونوا مثلهم ليجعل الله انتفاء كونكم مثلهم حسرة في قلوبهم ، لأنّ مخالفتهم فيما يقولون ويعتقدون ومضادّتهم مما يغمهم ويغيظهم ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ ردّ لقولهم. أى الأمر بيده ، قد يحيى المسافر والغازي ، ويميت المقيم والقاعد كما يشاء. وعن خالد بن الوليد رضى الله عنه أنه قال عند موته : ما فيّ موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وها أنا ذا أموت كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فلا تكونوا مثلهم. وقرئ بالياء ، يعنى الذين كفروا ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾ جواب القسم ، وهو سادّ مسدّ جواب الشرط ، وكذلك ﴿لِإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ كذب الكافرين أولا في زعمهم أن من سافر من إخوانهم أو غزى لو كان في المدينة لما مات ، ونهى المسلمين عن ذلك لأنه سبب التقاعد عن الجهاد ، ثم قال لهم : ولئن تم عليكم ما تخافونه من الهلاك بالموت والقتل في سبيل الله ، فإنّ ما تنالونه من المغفرة والرحمة بالموت في سبيل الله خير مما تجمعون من الدنيا ومنافعها لو لم تموتوا.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : خير من طلاع الأرض ذهبه ^(١) حمراء. وقرئ بالياء ، أى يجمع الكفار ﴿لِإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ لإلى الله الرحيم الواسع الرحمة ، الميثب العظيم الثواب تحشرون ولوقوع اسم الله تعالى هذا الموقع مع تقديمه وإدخال اللام على الحرف المتصل به ، شأن ليس بالخفي. قرئ ﴿مُتَّم﴾ بضم الميم وكسرهما ، من مات يموت ومات يمات.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (١٥٩)

«ما» مزيدة للتوكيد والدلالة على أنّ لينه لهم ما كان إلا برحمة من الله ونحوه ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾ ومعنى الرحمة : ربطه على جأشه وتوفيقه للرفق والتلطّف بهم حتى أثابهم غما بغم وآسأهم بالمبائة بعد ما خالفوه وعصوا أمره وانهمزوا وتركوه ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا﴾ جافيا ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ قاسيه ﴿لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ لتفرقوا عنك حتى لا يبقى حولك أحد منهم ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ فيما

(١) قوله «خير من طلاع الأرض ذهبه» في الصحاح : طلاع الأرض : ملؤها. والذهبة. القطعة من الذهب. (ع)

يختص بك ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فيما يختص بحق الله إتماماً للشفقة عليهم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ يعنى في أمر الحرب ونحوه مما لم ينزل عليك فيه وحي لتستظهر برأيهم ، ولما فيه من تطيب نفوسهم والرفع من أقدارهم. وعن الحسن رضى الله تعالى عنه ، قد علم الله أنه ما به إليهم حاجة ، ولكنه أراد أن يستقّ به من بعده. وعن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم «ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمرهم» ^(١) وعن أبي هريرة رضى الله عنه : ما رأيت أحداً أكثر مشاورة من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ^(٢). وقيل : كان سادات العرب إذا لم يشاوروا في الأمر شق عليهم فأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه لئلا يثقل عليهم استبداده بالرأى دونهم. وقرئ : وشاورهم في بعض الأمر ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ فإذا قطعت الرأى على شيء بعد الشورى ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في إمضاء أمرك على الأرشد الأصلح ، فإن ما هو أصلح لك لا يعلمه إلا الله لا أنت ولا من تشاور. وقرئ ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ بضم التاء ، بمعنى فإذا عزمتم لك على شيء وأرشدتكم إليه فتوكل علىّ ولا تشاور بعد ذلك أحداً.

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١) أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (١٦٢)

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ﴾ كما نصركم يوم بدر فلا أحد يغلبكم ﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ﴾ كما خذلكم يوم أحد أحد ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ﴾ فهذا تنبيه على أن الأمر كله لله وعلى وجوب التوكل عليه. ونحوه ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾. ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد خذلانه. أو هو من قولك ليس لك من يحسن إليك من بعد فلان ؛ تريد إذا جاوزته. وقرأ عبيد بن عمير :

(١) أعاده في تفسير سورة الشورى عن الحسن قوله وهو المحفوظ. ومن طريقه أخرجه الطبري.

(٢) هذا فيه تحريف. والصواب من رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه ، كذلك أخرجه الشافعي عن ابن عيينة عن الزهري عنه وهو منقطع وهو مختصر من الحديث الطويل في قصة الحديبية وغزوة الفتح ، أخرجه ابن حبان من رواية عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عروة عن المسور ومروان. وفيه قال الزهري : وكان أبو هريرة يقول. فذكره. وكذا أخرجه عبد الرزاق في مصنفه وعند أحمد وإسحاق ، وقد أشار إليه الترمذي في آخر الجهاد فقال : ويروى عن أبي هريرة فذكره.

وإن يخذلكم ، من أخذه إذا جعله مخذولا. وفيه ترغيب في الطاعة وفيما يستحقون به النصر من الله تعالى والتأييد ، وتحذير من المعصية ومما يستوجبون به العقوبة بالخذلان ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ وليخص المؤمنون بهم بالتوكل والتفويض إليه لعلمهم أنه لا ناصر سواه ، ولأن إيمانهم يوجب ذلك ويقتضيه. يقال غلّ شيئا من المغنم غلولا وأغلّ إغلالا ، إذا أخذه في خفية. يقال أغلّ الجازر ، إذا سرق من اللحم شيئا مع الجلد. والغل : الحقد الكامن في الصدر. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «من بعثناه على عمل فغلّ شيئا جاء يوم القيامة يحمله على عنقه^(١)» وقوله صلى الله عليه وسلم «هدايا الولاة غلول^(٢)» وعنه «ليس على المستعير غير المغل ضمان^(٣)» وعنه «لا إغلال ولا إسلال^(٤)» ويقال : أغله إذا وجد غالا ، كقولك : أبخلته وأفحمته^(٥). ومعنى ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ وما صحّ له ذلك ، يعنى أن النبوة تنافي الغلول ، وكذلك من قرأ على البناء للمفعول فهو راجع إلى معنى الأوّل ، لأن معناه : وما صح له أن يوجد غالا ، ولا يوجد غالا إلا إذا كان غالا. وفيه وجهان : أحدهما أن يبرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٦) من ذلك وينزه وينبه على عصمته

(١) أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن أنيس ، أنه تذاكر هو وعمر بن الخطاب يوما الصدقة فقال عمر «ألم تسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذكر غلول الصدقة : أنه من غل يعيرا. أو شاه أتى به يوم القيامة فقال له عبد الله بن أنيس : بلى» وفي الصحيحين عن أبي حميد الساعدي «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل عاملا فجاءه العامل حين فرغ من عمله. الحديث : وفيه ، فو الذي نفس محمد بيده لا يعمل أحدكم شيئا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه» ،

(٢) رواه أحمد ، والبخاري ، والطبراني من حديث أبي حميد الساعدي بلفظ «هدايا العمال» وهو من رواية إسماعيل بن عياش عن يحيى بن سعيد عن عروة عنه. قال البخاري : أخطأ فيه إسماعيل سندا ومتناً. وإنما أراد حديث الزهري عن عروة ، عن أبي حميد باللفظ الماضي. وكذا عده ابن عدى في منكرات إسماعيل بن عياش. وقال عبد الرزاق : حدثنا سفيان الثوري عن أبان بن أبي عياش عن أبي نصيرة عن جابر بلفظ «المهدايا للأمراء غلول» رواه إسحاق أخبرنا وكيع حدثنا سفيان عن ابن نضر عن أبي نضره به. قال البخاري : أبان متروك. ثم ساقه من رواية قيس بن الربيع عن ليث بن أبي سليم. عن عطاء عن جابر به. وأخرجه ابن عدى في ترجمة أحمد بن معاوية الباهلي من روايته عن النضر بن شميل عن ابن عون عن ابن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه. وقال : هذا حديث باطل. وذكر الطبراني في الأوسط ، أن أحمد بن معاوية تفرد به.

(٣) أخرجه البيهقي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وزاد «وليس على المستودع غير المغل ضمان» قال البيهقي : هذا ضعيف والمخفوظ أنه من قول شريح.

(٤) أخرجه أبو داود وأحمد من رواية الزهري عن عروة عن المسور ومروان في حديث. ورواه الدارمي والطبراني وابن عدى من رواية كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده رفعه «لا نهب ولا إسلال ولا إغلال ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة» ورواه ابن زنجويه في الأموال ، وإبراهيم الحري في الغريب من رواية موسى بن عبيدة عن أبان بن سلمة عن أبيه. وموسى ضعيف.

(٥) قوله «كقولك أبخلته وأفحمته» في الصحاح : أفحمته : أى وجدته مفحما لا يقول الشعر. (ع)

(٦) قال محمود : «فيه توجيهان : أحدهما أن يكون ذلك تنزيها لرسول الله عليه الصلاة والسلام ... الخ» قال أحمد رحمه الله : حمل الآية على الوجه الثاني يشهد له ورود هذه الصيغة كثيراً في النهي في أمثال قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ

بأن النبوة والغلول متنافيان؟ لئلا يظن به ظانٌ شيئاً منه وألا يستريب به أحد ، كما روى أنّ قطيفة حمراء فقدت يوم بدر. فقال بعض المنافقين : لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها ^(١). وروى أنها نزلت في غنائم أحد ^(٢) حين ترك الرماة المركز وطلبوا الغنيمة وقالوا : نخشى أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أخذ شيئاً فهو له وأن لا يقسم الغنائم كما لم يقسم يوم بدر ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : ألم أعهد إليكم أن لا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمرى ، فقالوا : تركنا بقية إخواننا وقوفاً ، فقال صلى الله عليه وسلم : بل ظننتم أنا نغل ولا نقسم لكم : والثاني أن يكون مبالغة في النهي لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ما روى : أنه بعث طلّاع ^(٣) فغنمت غنائم فقسمها ولم يقسم للطلّاع ، فنزلت. يعنى : وما كان لنبيّ أن يعطى قوماً ويمنع آخرين ، بل عليه أن يقسم بالسوية. وسمى حرمان بعض الغزاة «غلولاً» تغليظاً وتقبيحاً لصورة الأمر ، ولو قرئ ﴿أَنْ يَغْلَ﴾ من أغل بمعنى غل ، لجاز ﴿يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يأت بالشيء الذي غله بعينه يحمله كما جاء في الحديث ^(٤) «جاء يوم القيامة يحمله على عنقه ^(٥)» وروى : «ألا لا أعرفنّ أحدكم يأتي ^(٦) بغير له رغاء وببقرة لها خوار وبشاة لها ثغاء ، فينادى يا محمد ، يا محمد ، فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً فقد بلغتك ^(٧)» وعن بعض جفاة العرب أنه سرق نافجة مسك ، فتليت عليه الآية

. ﴿لَنْبِيَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى﴾ ، ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ، ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ إلى غير ذلك. على أن الزمخشري حاف في العبارة إذ يقول : عبر عن الحرمان بالغلول تغليظاً وتقبيحاً ، وما كان له أن يعبر عن هذا المعنى بهذه العبارة ، فان عادة لطف الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم في التأديب أن يكون ممزوجاً بغاية التخفيف والتعطف. ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ هَٰؤُلَاءِ﴾ قال بعض العلماء : بدأه بالعفو قبل العتب. ولو لم يبدأه بالعفو لانفطر قلبه صلى الله عليه وسلم. (١) أخرجه الترمذي من حديث خفيف عن مقسم عن ابن عباس بلفظ فقال بعض الناس ، وقال حسن. قال وروى عن مقسم ولم يذكر ابن عباس ورواه الطبراني وأبو يعلى وابن عدى والطبري والواحدى كلهم من هذا الوجه. وأعله ابن عدى بخصيف.

(٢) ذكره الثعلبي والواحدى في أسبابه عن الكلبي ومقاتل قال «نزلت في غنائم أحد حين ترك الرماة المركز الخ»

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة. حدثنا وكيع حدثنا سلمة بن نبيط. عن الضحاك ، فذكره به وأتم منه. وأخرجه الطبري والواحدى في أسبابه.

(٤) تقدم قبل ستة أحاديث

(٥) قوله : «جاء يوم القيامة يحمله على عنقه» : لعل صدره : من غل شيئاً. (ع)

(٦) قوله : «وروى : ألا لا أعرفن أحدكم يأتي» قوله : «لا أعرفن» بلفظ المنفي المؤكد بالنون ، ومعناه النهى. أى لا يغل أحدكم فأعرفه. اه قسطلاني. (ع)

(٧) رواه على بن المديني في العلل وأبو يعلى والطبري من رواية حفص بن حميد عن عكرمة عن ابن عباس عن عمر بهذا في حديث طويل ، وأصله في الصحيحين عن أبي زرعة بن عمرو بن

جرير عن أبي هريرة بلفظ «ألا لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بغير له رغاء ... الحديث»

فقال : إذا أحمّلها طيبة الريح خفيفة الحمل. ويجوز أن يراد يأتي بما احتمل من وباله وتبعته وإثمه فإن قلت : هلا قيل : ثم يوفى ما كسب ، ليتصل به؟ قلت : جيء بعامّ دخل تحته كل كاسب من الغال وغيره فاتصل به من حيث المعنى ، وهو أبلغ وأثبت ، لأنه إذا علم الغال أن كل كاسب خيراً أو شراً مجزى فموفى جزاءه ، علم أنه غير متخلص من بينهم مع عظم ما اكتسب ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ أى يعدل بينهم في الجزاء ، كلّ جزاؤه على قدر كسبه.

﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾

﴿هُمْ دَرَجَاتٌ﴾ أى هم متفاوتون كما تتفاوت الدرجات كقوله :

أَنْصَبُ لِلْمَنِيِّ تَعَرِّيهِمْ رَجُلًا إِلَى أُمِّ هُمٍّ وَ دَرَجُ السُّيُولِ ^(١)

وقيل : ذوو درجات. والمعنى تفاوت منازل المتأيين منهم ومنازل المعاقبين ، أو التفاوت بين الثواب والعقاب ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ عالم بأعمالهم ودرجاتها فمجازيهم على حسبها ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ على من آمن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قومه. وخص المؤمنين منهم لأنهم هم المنتفعون بمبعثه ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ من جنسهم عربيا مثلهم. وقيل من ولد إسماعيل كما أنه من ولده ، فإن قلت : مما وجه المنّة عليهم في أن كان من أنفسهم؟ قلت : إذا كان منهم كان اللسان واحداً ، فسهل أخذ ما يجب عليهم أخذه عنه وكانوا واقفين على أحواله في الصدق والأمانة ، فكان ذلك أقرب لهم إلى تصديقه والوثوق به ، وفي كونه من أنفسهم شرف لهم ، كقوله : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقراءة فاطمة رضى الله عنها : من أنفسهم ، أى من أشرفهم. لأن عدنان ذروة ولد إسماعيل ، ومضر ذروة نزار بن معد بن عدنان ، وخندف ذروة مضر ، ومدركة ذروة خندف ، وقريش ذروة مدركة ، وذروة قريش محمد صلى الله عليه وسلم. وفيما خطب به أبو طالب في تزويج خديجة رضى الله عنها. وقد حضر معه بنو هاشم ورؤساء مضر . : الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضىء معدّ وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة

(١) أنشده سيبويه عن ابن هذمة ، والهمزة للاستفهام ، وهو من تجاهل العارف للتعجب والتحزن. والنصب : الغرض المنصوب يرمى إليه بالسهم ، وهو كفلس أوفق بالوزن ويجوز أن أصله كعنق فسكن للوزن ، أو ككتب فسكن كذلك. وهذا أوفق بالمعنى. وقد قيل بكل منها. وشبه رجاله به تشبيهاً بليغاً من حيث تتابع إصابة كل بالمكروه. وتعتريهم : جملة حالية. ودرج السيول : محلات انحدارها ، شبههم بها لانمحاق كل شيئاً فشيئاً.

بيته وسؤاس حرمه ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً ، وجعلنا الحكام على الناس . ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله من لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل . وقرئ : لمن من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم . وفيه وجهان : أن يراد لمن من الله على المؤمنين منه أو بعثه إذ بعث فيهم ، فحذف لقيام الدلالة ، أو يكون إذ في محل الرفع كإذا في قولك : أخطب ما يكون الأمير إذا كان قائماً ، بمعنى لمن من الله على المؤمنين وقت بعثه ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ بعد ما كانوا أهل جاهلية لم يطرق أسماعهم شيء من الوحي ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهرهم من دنس القلوب بالكفر ونجاسة سائر الجوارح بملازمة المحرمات وسائر الخبائث . وقيل : يأخذ منهم الزكاة ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ القرآن والسنة بعد ما كانوا أجهل الناس وأبعدهم من دراسة العلوم ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل بعثة الرسول ﴿لَفِي ضَلَالٍ﴾ إن هي المخففة من الثقيلة ، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية . وتقديره : وإن الشأن والحديث كانوا من قبل في ضلال ﴿مُبِينٍ﴾ ظاهر لا شبهة فيه .

﴿أَوَلَمْ أَصَابْتُكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٦٥) ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّنْقِ الْجُمُعَانِ فَيَاذَنِ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٦٦) ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ (١٦٧) ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِأَخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٦٨)

﴿أَصَابْتُكُمْ مُصِيبَةً﴾ يريد : ما أصابهم يوم أحد من قتل سبعين منهم ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾ يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين . و ﴿لَمَّا﴾ نصب بقلتم . و ﴿أَصَابْتُكُمْ﴾ في محل الجر بإضافة ﴿لَمَّا﴾ إليه وتقديره : أقلتم حين أصابتكم . و ﴿أَنَّى هَذَا﴾ نصب لأنه مقول ، والهمزة للتقرير والتقرير . فإن قلت : علام عطفت الواو هذه الجملة؟ قلت : على ما مضى من قصة أحد من قوله : ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ ويجوز أن تكون معطوفة على محذوف ، كأنه قيل : أفعلتم كذا وقلتم حينئذ كذا ، أنى هذا : من أين هذا . كقوله تعالى : ﴿أَنَّى لَكَ هَذَا﴾ لقوله ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ وقوله : ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾

والمعنى : أنتم السبب فيما أصابكم ، لاختياركم الخروج من المدينة ، أو لتخليتكم المركز. وعن عليّ رضي الله عنه : لأخذكم الفداء من أسارى بدر قبل أن يؤذن لكم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادر على النصر وعلى منعه ، وعلى أن يصيب بكم تارة ويصيب منكم أخرى ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ﴾ يوم أحد يوم التقى جمعكم وجمع المشركين (ف) هو كائن (بإذن الله) أى بتخليته ، استعار الإذن لتخليته الكفار ، وأنه لم يمنعهم منهم ليتليهم ، لأنّ الأذن مغل بين المأذون له ومراده ﴿وَلْيَعْلَمَ﴾ وهو كائن ليتميز المؤمنون والمنافقون ، وليظهر إيمان هؤلاء ونفاق هؤلاء ﴿وَقِيلَ هُمْ﴾ من جملة الصلة عطف على نافقوا ، وإنما لم يقل فقالوا لأنه جواب لسؤال اقتضاه دعاء المؤمنين لهم إلى القتال ، كأنه قيل : فما ذا قالوا لهم. فقيل : قالوا : لو نعلم. ويجوز أن تقتصر الصلة على : ﴿نَافِقُوا﴾ ، ويكون ﴿وَقِيلَ هُمْ﴾ كلاماً مبتدأ قسم الأمر عليهم بين أن يقاتلوا للآخرة كما يقاتل المؤمنون ، وبين أن يقاتلوا إن لم يكن بهم غم الآخرة ^(١) دفعاً عن أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، فأبوا القتال وجحدوا القدرة عليه رأساً لنفاقهم ودغلهم ^(٢) وذلك ما روى أن عبد الله بن أبي النخز مع حلفائه ، فقيل له ، فقال ذلك. وقيل ﴿أَوْ اذْفَعُوا﴾ العدو بتكثيركم سواد المجاهدين وإن لم تقاتلوا لأنّ كثرة السواد مما يروع العدو ويكسر منه. وعن سهل بن سعد الساعدي . وقد كف بصره . : لو أمكنني لبعث دارى ولحقت بثغر من تغور المسلمين فكنت بينهم وبين عدوهم. قيل : وكيف وقد ذهب بصرك؟ قال لقوله : ﴿أَوْ اذْفَعُوا﴾ أراد : كثروا سوادهم. ووجه آخر وهو أن يكون معنى قولهم ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا﴾ لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالاً ﴿لَا تَبْعَانَكُمْ﴾ يعنون أن ما أنتم فيه لخطأ رأيكم وزللكم عن الصواب ليس بشيء ، ولا يقال لمثله قتال ، إنما هو إلقاء بالأنفس إلى التهلكة ، لأنّ رأى عبد الله كان في الإقامة بالمدينة وما كان يستصوب الخروج ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمٌ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ يعنى أنهم قبل ذلك اليوم كانوا يتظاهرون بالإيمان وما ظهرت منهم أمارات تؤذن بكفرهم ، فلما انخزلوا عن عسكر المؤمنين وقالوا ما قالوا ، تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم واقتربوا من الكفر. وقيل : هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان ، لأنّ تقلييلهم سواد المسلمين بالانخزال تقوية للمشركين ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ لا يتجاوز إيمانهم أفواههم ومخارج الحروف منهم ولا تعى قلوبهم منه شيئاً. وذكر الأفواه مع القلوب تصوير لنفاقهم ، وأنّ إيمانهم موجود في أفواههم معدوم في قلوبهم ، خلاف صفة المؤمنين في مواطاة قلوبهم لأفواههم ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ من النفاق ، وبما يجرى بعضهم مع بعض من ذمّ

(١) قوله «غم الآخرة» لعله هم الآخرة. (ع)

(٢) قوله «ودغلهم» في الصحاح : الدغل . بالتحريك . الفساد ، مثل الدخل. (ع)

يجوز أن يكون سببها القعود عن القتال وأن يكون غيره ، لأن أسباب النجاة كثيرة ، وقد يكون قتال الرجل سبب نجاته ولو لم يقاتل لقتل ، فما يدريكم أن سبب نجاتكم القعود وأنكم صادقون في مقاتلتكم؟ وما أنكرتم أن يكون السبب غيره. ووجه آخر : إن كنتم صادقين في قولكم : لو أطاعونا وقعدوا ما قتلوا ، يعنى أنهم لو أطاعوكم وقعدوا لقتلوا قاعدين كما قتلوا مقاتلين. وقوله ﴿فَادْرُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾ استهزاء بهم ، أى إن كنتم رجالا دفاعين لأسباب الموت ، فادرؤا جميع أسبابه حتى لا تموتوا.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧١)

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد. وقرئ بالياء على : ولا يحسبن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو ولا يحسبن حاسب. ويجوز أن يكون ﴿الَّذِينَ قُتِلُوا﴾ فاعلا ، ويكون التقدير : ولا يحسبنهم الذين قتلوا أمواتا ، أى ولا يحسبن الذين قتلوا أنفسهم أمواتا. فإن قلت : كيف جاز حذف المفعول الأول؟ قلت : هو في الأصل مبتدأ ، فحذف كما حذف المبتدأ في قوله ﴿أَحْيَاءٌ﴾ والمعنى : هم أحياء لدلالة الكلام عليهما. وقرئ : ولا تحسبن بفتح السين ، وقتلوا بالتشديد. وأحياء بالنصب على معنى : بل احسبهم أحياء ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ مقربون عنده ذوو زلفى ، كقوله : ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾. ﴿يُرْزَقُونَ﴾ مثل ما يرزق سائر الأحياء يأكلون ويشربون. وهو تأكيد لكونهم أحياء ووصف لحالهم التي هم عليها من التمتع برزق الله ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وهو التوفيق في الشهادة وما ساق إليهم من الكرامة والتفضيل على غيرهم ، من كونهم أحياء مقربين معجلا لهم رزق الجنة ونعيمها. وعن النبي صلى الله عليه

. وقت حينهم في علم الله عز وجل ، إيماننا بقوله تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ وخلافا للمنافقين وللموافقين لهم من المعتزلة في قولهم : لو أطاعونا ما ماتوا. ولعمري إنهم في هذا المعتقد مقلدون لنمروذ في قوله : أنا أحى وأميت ، فإن الأحق ظن أنه يقتل إن شاء فيكون ذلك إماتة ، ويعفو عن القتل فيكون ذلك إحياء ، وغاب عنه أن الذي عفا عن قتله إنما حيي لاستيفاء الأجل الذي كتبه الله له ، وأن الذي قتله إنما مات لأنه استوفى تلك الساعة أجله ، والله الموفق.

وسلم «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر تدور في أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش^(١)» ﴿وَيَسْتَبِشِرُونَ﴾ بإخوانهم المجاهدين ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ أى لم يقتلوا فيلحقوا بهم ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ يريد الذين من خلفهم قد بقوا بعدهم وهم قد تقدموهم. وقيل : لم يلحقوا بهم ، لم يدركوا فضلهم ومنزلتهم ﴿أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بدل من الذين. والمعنى : ويستبشرون بما تبين لهم من حال من تركوا خلفهم من المؤمنين ، وهو أنهم يبعثون آمنين يوم القيامة. بشرهم الله بذلك فهم مستبشرون به. وفي ذكر حال الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم بعث للباقيين بعدهم على ازدياد الطاعة ، والجد في الجهاد ، والرغبة في نيل منازل الشهداء وإصابة فضلهم ، وإحماد لحال من يرى نفسه في خير فيتمنى مثله لإخوانه في الله ، وبشرى للمؤمنين بالفوز في المآب. وكرر ﴿يَسْتَبِشِرُونَ﴾ ليعلق به ما هو بيان لقوله : ﴿أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من ذكر النعمة والفضل ، وأن ذلك أجر لهم على إيمانهم يجب في عدل الله وحكمته أن يحصل لهم ولا يضيع. وقرئ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ بالفتح عطفاً على النعمة والفضل. وبالكسر على الابتداء وعلى أنَّ الجملة اعتراض ، وهي قراءة الكسائي. وتعضدها قراءة عبد الله. والله لا يضيع.

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ مبتدأ خبره ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ أو صفة للمؤمنين ، أو نصب على المدح. روى أنَّ أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا^(٢) وهموا بالرجوع ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد أن يرهبهم ويريه من نفسه وأصحابه قوّة ، فندب أصحابه للخروج في طلب أبي سفيان وقال : لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جماعة حتى بلغوا حمراء الأسد وهي من المدينة على ثمانية أميال ،

(١) أخرجه أبو داود وابن أبي شيبة والحاكم وأبو يعلى والبخاري كلهم من حديث ابن عباس به وأتم منه. قال الدارقطني تفرد به محمد بن إسحاق عن إسماعيل بن أمية ، وأصله في مسلم من حديث ابن مسعود رضى الله عنه ، بلفظ «أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تمرح في الجنة حيث شاءت. الحديث».

(٢) أخرجه ابن إسحاق في المغازي عن شيوخه ومن طريقه البيهقي في الدلائل فذكره مطولا

وكان بأصحابه القرع فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر ، وألقى الله الرعب في قلوب المشركين فذهبوا ، فنزلت. و «من» في ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ﴾ للتبيين مثلها في قوله تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً﴾ لأن الذين استجابوا لله والرسول قد أحسنوا كلهم واتقوا ، لا بعضهم. وعن عروة بن الزبير : قالت لي عائشة رضى الله عنها «إن أبويك لمن الذين استجابوا لله والرسول ^(١)» تعنى أبا بكر والزبير ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ روى أنّ أبا سفيان نادى ^(٢) عند انصرافه من أحد. يا محمد موعدنا موسم بدر لقابل إن شئت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن شاء الله ؛ فلما كان القابل خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مر الظهران. فألقى الله الرعب في قلبه فبدا له أن يرجع ، فلقى نعيم بن مسعود الأشجعي وقد قدم معتمراً فقال : يا نعيم ، إني واعدت محمداً أن نلتقي بموسم بدر ، وإن هذا عام جدد ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن ، وقد بدا لي ولكن إن خرج محمد ولم أخرج زاده ذلك جراءة ، فالحق بالمدينة فثبطهم ولك عندي عشر من الإبل ، فخرج نعيم فوجد المسلمين يتجهزون فقال لهم : ما هذا بالرأى. أتوكم في دياركم وقراركم فلم يفلت منكم أحد إلا شريداً ، فتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم عند الموسم ، فو الله لا يفلت منكم أحد. وقيل : مرّ بأبي سفيان ركب من عبد القيس يريدون المدينة للميرة فجعل لهم حمل بعير من زبيب إن ثبطوهم ، فكره المسلمون الخروج. فقال صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيده لأخرجن ولو لم يخرج معي أحد ، فخرج في سبعين راكبا ^(٣) وهم يقولون : حسبنا الله ونعم الوكيل . وقيل : هي الكلمة التي قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار . حتى وافوا بدرأً وأقاموا بها ثمانى ليال ، وكانت معهم تجارات فباعوها وأصابوا خيراً ، ثم انصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين. ورجع أبو سفيان إلى مكة فسمى أهل مكة جيشه جيش السويق. قالوا : إنما خرجتم لتشربوا السويق. فالناس الأولون : المثبطون. والآخرين : أبو سفيان وأصحابه. فإن قلت : كيف قيل ﴿النَّاسُ﴾ إن كان نعيم هو المثبط وحده؟ قلت : قيل ذلك لأنه من جنس الناس ، كما يقال : فلان يركب الخيل ويلبس البرود ، وماله إلا فرس واحد وبرد فرد. أو لأنه حين قال ذلك لم يخل من ناس من أهل المدينة يضامونه ، ويصلون جناح كلامه ، ويثبطون مثل تثبيطه. فإن قلت : إلام يرجع المستكن في ﴿فَرَادَهُمْ﴾؟ قلت : إلى

(١) متفق عليه ووهم الحاكم فاستدركه.

(٢) ذكره الثعلبي عن مجاهد وعكرمة وسنده إليهما في أول كتابه. وروى ابن سعد في الطبقات بعضه.

(٣) أخرجه ابن سعد من طريق ابن إسحاق. وموسى بن عقبة وغيرهما. وأخرجه الواقدي في المغازي. قال حدثني الضحاك بن عثمان وعبد الله بن جعفر ومحمد بن عبد الله بن مسلم وابن أبي حبيب وغيرهم. قالوا «لما أراد أبو سفيان أن ينصرف من أحد» فذكره مطولا. قوله وقيل هي الكلمة التي قال إبراهيم حين ألقى في النار. رواه البخاري من طريق أبي الضحى عن ابن عباس.

المقول الذي هو ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ كأنه قيل : قالوا لهم هذا الكلام فزادهم إيماناً ، أو إلى مصدر قالوا ، كقولك : من صدق كان خيراً له. أو إلى الناس إذا أريد به نعيم وحده. فإن قلت : كيف زادهم نعيم أو مقوله إيماناً؟ قلت : لما لم يسمعوا قوله وأخلصوا عنده النية والعزم على الجهاد وأظهروا حمية الإسلام ، كان ذلك أثبت ليقينهم وأقوى لاعتقادهم ، كما يزداد الإيقان بتناصر الحجج ؛ ولأنّ خروجهم على أثر تنبيطه إلى وجهة العدو طاعة عظيمة ، والطاعات من جملة الإيمان ؛ لأنّ الإيمان اعتقاد وإقرار وعمل. وعن ابن عمر : قلنا يا رسول الله إن الإيمان يزيد وينقص؟ قال «نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة. وينقص حتى يدخل صاحبه النار» ^(١) وعن عمر رضى الله عنه : أنه كان يأخذ بيد الرجل فيقول : قم بنا نردد إيماناً ^(٢). وعنه : لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة لرجح به ^(٣) ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ محسبنا ، أى كافينا. يقال : أحسبه الشيء إذا كفاه. والدليل على أنه بمعنى المحسب أنك تقول : هذا رجل حسبك ، فتصف به النكرة ؛ لأنّ إضافته لكونه في معنى اسم الفاعل غير حقيقة ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ونعم الموكول إليه هو ﴿فَانْقَلَبُوا﴾ فرجعوا من بدر ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ وهي السلامة وحذر العدو منهم ﴿وَفَضْلٍ﴾ وهو الربح في التجارة ، كقوله : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾. ﴿لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ﴾ لم يلقوا ما يسوءهم من كيد عدوّ ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ بجرأتهم وخروجهم ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ قد تفضل عليهم بالتوفيق فيما فعلوا. وفي ذلك تحسير لمن تخلف عنهم ، وإظهار لخطأ رأيهم حيث حرموا أنفسهم ما فاز به هؤلاء. وروى أنهم قالوا : هل يكون هذا غزوا ، فأعطاهم الله ثواب الغزو ورضى عنهم.

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (١٧٥)

(١) أخرجه الثعلبي من رواية على بن عبد العزيز عن حبيب بن عيسى بن فروخ عن إسماعيل بن عبد الرحمن عن مالك عن نافع عنه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في الإيمان من رواية رزين عن عبد الله عنه. ورجاله ثقات إلا أنه منقطع. ومن هذا الوجه أخرجه الثعلبي. والبيهقي في الشعب.

(٣) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده من رواية هذيل بن شرحبيل عن عمر وإسناده صحيح وروى مرفوعاً أخرجه ابن عدى من رواية عبد العزيز بن أبي رواد عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما رفعه «لو وضع إيمان أبي بكر على إيمان هذه الأمة لرجح بها» في إسناده عيسى بن عبد الله بن سليمان وهو ضعيف. قلت : لم ينفرد به بل تابعه عبد الله بن عبد العزيز بن أبي رواد بلفظ «لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجحهم» أخرجه ابن عدى أيضاً. وحديث عمر الموقوف أخرجه أيضاً ابن المبارك في الزهد. ومعاذ بن المثني في زيادات مسند مسدد.

﴿الشَّيْطَانُ﴾ خبر ذلكم ، بمعنى : إنما ذلك المثبط هو الشيطان. ويخوف أولياءه : جملة مستأنفة بيان لشيطنته. أو الشيطان صفة لاسم الإشارة. ويخوف الخبر. والمراد بالشيطان نعيم ، أو أبو سفيان. ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف ، بمعنى إنما ذلكم قول الشيطان ، أى قول إبليس لعنه الله ﴿يَخَوْفُ أَوْلِيَائِهِ﴾ يخوفكم أولياءه الذين هم أبو سفيان وأصحابه. وتدل عليه قراءة ابن عباس وابن مسعود : يخوفكم أولياءه. وقوله : فلا تخافوهم. وقيل : يخوف أولياءه القاعدين عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإن قلت : فيلام رجع الضمير في ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ على هذا التفسير؟ قلت : إلى الناس في قوله : ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ فلا تخافوهم فتقعدوا عن القتال وتجنبوا ﴿وَخَافُونَ﴾ فجاهدوا مع رسولي وسارعوا إلى ما يأمركم به ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعنى أن الإيمان يقتضى أن تؤثروا خوف الله على خوف الناس ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾.

﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٧) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ مَتْلِي هُمْ خَيْرٌ لَّأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا مَتْلِي هُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (١٧٨) ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ يقعون فيه سريعاً ويرغبون فيه أشدَّ رغبة ، وهم الذين نافقوا من المتخلفين. وقيل : هم قوم ارتدوا عن الإسلام. فإن قلت : فما معنى قوله : ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ﴾؟ ومن حق الرسول أن يحزن لنفاق من نافق وارتداد من ارتد؟ قلت : معناه : لا يحزنوك لخوف أن أن يضروك ويعينوا عليك. ألا ترى إلى قوله ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ يعنى أنهم لا يضرون بمسارعتهم في الكفر غير أنفسهم ، وما وبال ذلك عائداً على غيرهم. ثم بين كيف يعود وباله عليهم بقوله ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ أى نصيباً من الثواب ﴿وَهُمْ﴾ بدل الثواب ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وذلك أبلغ ما ضرَّ به الإنسان نفسه. فإن قلت : هلا قيل : لا يجعل الله لهم حطاً في الآخرة ، وأى فائدة في ذكر الإرادة؟ قلت : فائدته الإشعار بأنّ الداعي إلى حرمانهم وتعذيبهم قد خلص خلوصاً لم يبق معه صارف قط حين سارعوا في الكفر ، تنبيهاً على تماديهم في الطغيان وبلوغهم الغاية فيه ، حتى أن أرحم الراحمين يريد أن لا يرحمهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ

بِالْإِيمَانِ ﴿١﴾ إمّا أن يكون تكريراً لذكرهم للتأكيد والتسجيل عليهم بما أضاف إليهم. وإمّا أن يكون عاماً للكفار ، والأول خاصاً فيمن نافق من المتخلفين ، أو ارتدّ عن الإسلام أو على العكس. و ﴿شَيْئاً﴾ نصب على المصدر ؛ لأن المعنى : شيئاً من الضرر وبعض الضرر ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿٢﴾ فيمن قرأ بالتاء نصب و ﴿أَمَّا تُغْلِي هُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ﴾ بدل منه : أى ولا تحسبن أنّ ما غلّي للكافرين خير لهم ، و «أن» مع ما في حيزه ينوب عن المفعولين ، كقوله : أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون ، وما مصدرية ، بمعنى : ولا تحسبن أنّ إملأنا خير ، وكان حقها في قياس علم الخط أن تكتب مفصولة. ولكنها وقعت في الإمام متصلة فلا يخالف ، وتتبع سنة الإمام في خط المصاحف. فإن قلت : كيف صحّ مجيء البديل ولم يذكر إلا أحد المفعولين ، ولا يجوز الاقتصار بفعل الحسبان على مفعول واحد؟ قلت : صحّ ذلك من حيث أنّ التعويل على البديل والمبدل منه في حكم المنحى : ألا تراك تقول : جعلت متاعك بعضه فوق بعض ، مع امتناع سكوتك على متاعك. ويجوز أن يقدّر مضاف محذوف على : ولا تحسبن الذين كفروا أصحاب أن الإملاء خير لأنفسهم. أو ولا تحسبنّ حال الذين كفروا أن الإملاء خير لأنفسهم. وهو فيمن قرأ بالياء رفع ، والفعل متعلق بأن وما في حيزه. والإملاء لهم : تخليتهم وشأنهم ، مستعار من أملى لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء. وقيل : هو إملأهم وإطالة عمرهم. والمعنى : ولا تحسبنّ أن الإملاء خير لهم من منعمهم أو قطع آجالهم ﴿أَمَّا تُغْلِي هُمْ﴾ «ما» هذه حقها أن تكتب متصلة ، لأنها كافة دون الأولى ، وهذه جملة مستأنفة تعليل للجملة قبلها ، كأنه قيل : ما بالهم لا يحسبون الإملاء خيراً لهم ، فقيل : إنّما غلّي لهم ليزدادوا إثماً. فإن قلت : كيف جاز أن يكون ازدياد الإثم غرضاً لله تعالى في إملأته ^(١) لهم؟ قلت : هو علة للإملاء ، وما كل علة بغرض. ألا تراك تقول : قعدت عن الغزو للعجز والفاقة ، وخرجت من البلد لمخافة الشر ، وليس شيء منها بغرض لك. وإنما هي علل وأسباب ، فكذلك ازدياد الإثم جعل علة للإمهال وسبباً فيه. فإن قلت : كيف يكون ازدياد الإثم علة للإملاء كما كان العجز علة للقعود عن الحرب؟ قلت : لما كان في علم الله المحيط بكل شيء أنهم مزدادون إثماً ، فكان الإملاء وقع من أجله وبسببه على طريق المجاز. وقرأ يحيى بن وثاب بكسر الأولى وفتح الثانية. ولا يحسبنّ بالياء ، على معنى : ولا يحسبنّ الذين كفروا أن إملأنا لازدياد الإثم كما يفعلون ، وإنما هو ليتوبوا ويدخلوا في الإيمان. وقوله : ﴿أَمَّا تُغْلِي هُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ﴾ اعتراض بين الفعل ومعموله. ومعناه : أن إملأنا خير لأنفسهم إن عملوا فيه وعرفوا إنعام الله عليهم

(١) قال محمود : «إن قلت : كيف جاز أن يكون ازدياد الإثم غرضاً لله تعالى في إملأته لهم ... الخ»؟ قال أحمد : بنى الزمخشري هذا الجواز على شفا جرف هار فانهار ، لأن معتقده أن الإثم الواقع منهم ليس مرداً لله تعالى بل هو واقع على خلاف الإرادة الربانية ، فلما وردت الآية مشعرة بأن ازدياد الإثم مراداً لله تعالى إشعاراً لا يقبل التأويل ، أخذ يعمل الحيلة في وجه من التعطيل التزاماً لإتمام الفاسد وضرباً في حديد بارد ، فجعل ازدياد الإثم سبباً وليس بغرض.

بتفسيح المدّة وترك المعاجلة بالعقوبة. فإن قلت : فما معنى قوله ﴿وَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ على هذه القراءة؟ قلت : معناه : ولا تحسبوا إن إملأنا لزيادة الإثم وللتعذيب ، والواو للحال ، كأنه قيل : ليزدادوا إثماً معداً لهم عذاب مهين.

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٩)

اللام لتأكيد النفي ﴿عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ من اختلاط المؤمنين الخالص والمنافقين ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ حتى يعزل المنافق عن المخلص. وقرئ : يميز. من ميز. وفي رواية عن ابن كثير : يميز ، من أمار بمعنى ميز. فإن قلت : لمن الخطاب في : ﴿أَنْتُمْ﴾؟ قلت : للمصدّقين جميعاً من أهل الإخلاص والنفاق ، كأنه قيل : ما كان الله ليذر المخلصين منكم على الحال التي أنتم عليها. من اختلاط بعضكم ببعض ، وأنه لا يعرف مخلصكم من منافقكم لاتفاقكم على التصديق جميعاً. حتى يميزهم منكم بالوحي إلى نبيه وإخباره بأحوالكم ، ثم قال ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ أى وما كان الله ليؤتى أحداً منكم علم الغيوب ، فلا تتوهموا عند إخبار الرسول عليه الصلاة والسلام بنفاق الرجل وإخلاص الآخر أنه يطلع على ما في القلوب اطلاع الله فيخبر عن كفرها وإيمانها ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ يرسل الرسول فيوحى إليه ويخبره بأنّ في الغيب كذا ، وأن فلاناً في قلبه النفاق وفلاناً في قلبه الإخلاص ، فيعلم ذلك من جهة إخبار الله لا من جهة اطلاعه على المغيبات. ويجوز أن يراد : لا يترككم مختلطين حتى يميز الخبيث من الطيب ، بأن يكلفكم التكاليف الصعبة التي لا يصبر عليها إلا الخالص الذين امتحن الله قلوبهم. كبذل الأرواح في الجهاد ، وإنفاق الأموال في سبيل الله ، فيجعل ذلك عياراً على عقائدكم وشاهداً بضمائركم ، حتى يعلم بعضكم ما في قلب بعض من طريق الاستدلال ، لا من جهة الوقوف على ذات الصدور والاطلاع عليها ، فإن ذلك مما استأثر الله به. وما كان الله ليطلع أحداً منكم على الغيب ومضمرات القلوب حتى يعرف صحيحها من فاسدها مطلعاً عليها ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ فيخبره ببعض المغيبات ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ بأن تقدره حق قدره ، وتعلموه وحده مطلعاً على الغيوب ، وأن تنزلوهم منازلهم بأن تعلموهم عبداً مجتبيين ، لا يعلمون إلا ما علمهم الله ، ولا يخبرون إلا بما أخبرهم الله به من الغيوب ، وليسوا من علم الغيب في شيء. وعن السدى قال الكافرون : إن كان محمد صادقاً فليخبرنا من يؤمن منا ومن يكفر. فنزلت.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١٨٠)

(ولا تحسبن) من قرأ بالتاء قدر مضافا محذوفا ، أى ولا تحسبن بخل الذين يبخلون هو خيراً لهم. وكذلك من قرأ بالياء وجعل فاعل يحسبن ضمير رسول الله ، أو ضمير أحد. ومن جعل فاعله الذين يبخلون كان المفعول الأول عنده محذوفا تقديره : ولا يحسبن الذين يبخلون بخلهم ﴿هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ والذي سوغ حذفه دلالة ﴿يَبْخُلُونَ﴾ عليه ، وهو فصل. وقرأ الأغمش بغير هو ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ تفسير لقوله ﴿هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ أى سيلزمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق. وفي أمثالهم : تقلدها طوق الحمامة ، إذا جاء بهنة يسب بها ويذم. وقيل : يجعل ما بخل به من الزكاة حية يطوقها في عنقه يوم القيامة ، تنهشه من قرنه إلى قدمه وتنقر رأسه وتقول : أنا مالك. وعن النبي صلى الله عليه وسلم في مانع الزكاة «يطوق بشجاع أقرع»^(١) وروى بشجاع أسود. وعن النخعي سيطوقون بطوق من نار ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى وله ما فيها مما يتوارثه أهلها من مال وغيره فما لهم يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه في سبيله. ونحوه قوله : ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ وقرئ ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء والياء فالتاء على طريقة الالتفات ، وهي أبلغ في الوعيد والياء على الظاهر.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (١٨٢)

قال ذلك اليهود حين سمعوا قول الله تعالى من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ، فلا يخلو إما أن يقولوه عن اعتقاد لذلك ، أو عن استهزاء بالقرآن ، وأيهما كان فالكلمة عظيمة لا تصدر إلا عن متمردين في كفرهم. ومعنى سماع الله له : أنه لم يخف عليه ، وأنه أعد له كفاؤه من العقاب ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ في صحائف الحفظ. أو سنحفظه ونثبتته في علمنا لا ننساه كما يثبت المكتوب فإن قلت : كيف قال : ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ ثم قال : ﴿سَنَكْتُبُ﴾ وهلا قيل : ولقد كتبنا؟ قلت : ذكر وجود

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رفعه «من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل ماله بشجاع أقرع له زبيبتان بطوقه يوم القيامة».

السماع أولاً مؤكداً بالقسم ثم قال : سنكتب على جهة الوعيد بمعنى لن يفوتنا أبداً إثباته وتدوينه كما لن يفوتنا قتلهم الأنبياء. وجعل قتلهم الأنبياء قرينة له إيداناً بأنهما في العظم أخوان ، وبأن هذا ليس بأول ما ركبه من العظائم ، وأنهم أصلاء في الكفر ولهم فيه سوابق ، وأن من قتل الأنبياء لم يستبعد منه الاجترار على مثل هذا القول. وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب مع أبي بكر رضى الله عنه إلى يهود بنى قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإلى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً ^(١) ، فقال فنحاص اليهودي : إن الله فقير حين سألنا القرض فلطمه أبو بكر في وجهه وقال : لو لا الذي بيننا وبينكم من العهد لضربت عنقك فشكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجحد ما قاله ، فنزلت. ونحوه قولهم ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ ﴿وَنَقُولُ﴾ لهم ﴿ذُوقُوا﴾ وننتقم منهم بأن نقول لهم يوم القيامة : ذوقوا ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ كما أذقتم المسلمين الغصص. يقال للمنتقم منه : أحس ، وذق. وقال أبو سفيان لحمزة ^(٢) رضى الله عنه : ذق عقق ^(٣) وقرأ حمزة : سيكتب ، بالياء على البناء للمفعول ، ويقول بالياء. وقرأ الحسن والأعرج : سيكتب بالياء وتسمية الفاعل. وقرأ ابن مسعود : ويقال ذوقوا ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من عقابهم وذكر الأيدي لأن أكثر الأعمال تزاوّل بهنّ ، فجعل كل عمل كالواقع بالأيدي على سبيل التغليب فإن قلت : فلم عطف قوله ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ على ما قدمت أيديكم ، وكيف جعل كونه غير ظلام للعبيد شريكاً لاجتراحهم السيئات في استحقاق التعذيب؟ قلت : معنى كونه غير ظلام للعبيد أنه عادل عليهم ومن العدل أن يعاقب المسيء منهم ويثيب المحسن.

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بَقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ فَلَمَّا جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٨٣) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾

(١) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق ابن إسحاق ، حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة عن ابن عباس. فذكره مطولاً

(٢) ذكره ابن إسحاق في المغازي قال : وكان المجلس بن زياد الكناني سيد الأحابيش مر بأبي سفيان وهو يضرب في شدة حمزة بن عبد المطلب بزج الرمح ويقول «ذق عقق» ومن طريق ابن إسحاق أخرجه الدارقطني في المؤلف.

(٣) قوله : «لحمزة رضى الله عنه : ذق عقق» في الصحاح : عاق وعقق ، مثل عامر وعمر. وذق عقق : أى ذق جزاء فعلك يا عاق. (ع)

أو حفرة من حفر النار ^(١). قلت : كلمة التوفية تزيل هذا الوهم لأن المعنى أن توفية الأجور وتكملها ^(٢) يكون ذلك اليوم ، وما يكون قبل ذلك فبعض الأجور. الزحزحة : التنحية والإبعاد تكرير الزح ، وهو الجذب بعجلة ﴿فَقَدْ فَازَ﴾ فقد حصل له الفوز المطلق المتناول لكل ما يفاز به ولا غاية للفوز وراء النجاة من سخط الله والعذاب السرمذ ، ونيل رضوان الله والنعيم المخلد. اللهم وفقنا لما ندرك به عندك الفوز في المآب. وعن النبي صلى الله عليه وسلم : «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو مؤمن بالله واليوم الآخر ، ويأتى إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه ^(٣)» وهذا شامل للمحافظة على حقوق الله وحقوق العباد. شبه الدنيا بالمتاع الذي يدلس به على المستام ويغتر حتى يشتريه ثم يتبين له فساد ودرأته. والشيطان هو المدلس الغرور. وعن سعيد بن جبير : إنما هذا لمن آثرها على الآخرة فأما من طلب الآخرة بما فإنها متاع بلاغ ، خوطب المؤمنون بذلك ليوطنوا أنفسهم على احتمال ما سيلقون من الأذى والشدائد والصبر عليها ، حتى إذا لقوها لقوها وهم مستعدون لا يرهقهم ما يرهق من يصيبه الشدة بغتة فينكرها وتشمئز منها نفسه.

﴿تَتَّبَلُّونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٨٦)

والبلاء في الأنفس : القتل والأسر والجراح وما يرد عليها من أنواع المخاوف والمصائب. وفي الأموال : الإنفاق في سبيل الخير وما يقع فيها من الآفات. وما يسمعون من أهل الكتاب ^(٤) المطاعن في الدين الحنيف ، وصدّ من أراد الإيمان ، وتخطئة من آمن ، وما كان من كعب بن الأشرف من هجائه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتحريض المشركين ، ومن فنحاص ،

(١) أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وهو ضعيف. ورواه الطبراني في الأوسط في ترجمة مسعود بن محمد الرملي بإسناده إلى أبي هريرة وقال : لم يروه عن الأوزاعي إلا أيوب بن سويد. تفرد به ولده محمد عنه. قلت : وهو ضعيف.

(٢) قال محمود : «لأن المعنى أن توفية الأجور وتكملها يكون ... الخ» قال أحمد : هذا كما ترى صريح في اعتقاده حصول بعضها قبل يوم القيامة ، وهو المراد بما يكون في القبر من نعيم وعذاب. ولقد أحسن الزمخشري في مخالفة أصحابه في هذه العقيدة ، فإنهم يجحدون عذاب القبر ، وها هو قد اعترف به ، والله الموفق.

(٣) أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص في حديث طويل

(٤) قوله «وما يسمعون من أهل الكتاب» بقي ما يسمعون من الذين أشركوا. (ع)

ومن بنى قريظة والنضير ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ﴾ فإن الصبر والتقوى ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ من معزومات الأمور ، أى مما يجب العزم عليه من الأمور أو مما عزم الله أن يكون ، يعنى أنّ ذلك عزيمة من عزمات الله لا بد لكم أن تصبروا وتتقوا.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَزَّوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (١٨٧)

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ﴾ واذكر وقت أخذ الله ميثاق أهل الكتاب ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ﴾ الضمير للكتاب. أكد عليهم إيجاب بيان الكتاب واجتناب كتمانها كما يؤكد على الرجل إذا عزم عليه وقيل له. آله لتفعلن ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ فنبذوا الميثاق وتأكده عليهم ، يعنى لم يراعوه ولم يلتفتوا إليه. والنبذ وراء الظهر مثل في الطرح وترك الاعتداد. ونقيضه جعله نصب عينيه وألقاه بين عينيه ، وكفى به دليلا على أنه مأخوذ على العلماء أن يبينوا أحق للناس وما علموه وأن لا يكتموا منه شيئا لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة ، وتطيب لنفوسهم. واستجلاب لمسارهم ، أو لجّر منفعة وحطام دنيا ، أو لتقية : مما لا دليل عليه ولا أمانة أو لبخل بالعلم ، وغبرة أن ينسب إليه غيرهم. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «من كتم علما عن أهله ألحم بلجام من نار» ^(١) وعن طاوس أنه قال

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من رواية على بن الحكم البناني عن عطاء عن أبي هريرة بلفظ «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار» أخرجه أبو داود من رواية حماد بن سلمة ، والآخران من رواية عمارة بن زاذان كلاهما عن على ، ورجال أبي داود ثقات. لكن له علة. رواه عبد الوارث عن على بن الحكم عن رجل عن عطاء. ويقال : إن هذا المبهم حجاج بن أرطاة ، وفي رواية ابن ماجه التصريح بسماع على بن عطاء. لكن عمارة ضعيف. ولحديث أبي هريرة طريق أخرى حسنهما ابن القطان فذكره من رواية قاسم بن أصبغ عن أبي الأحوص وهو العكبري عن ابن السرى عن معتمر عن أبيه عن عطاء به ، وابن أبي السرى له أرهام ، وكأنه دخل عليه حديث في حديث. ورواه الطبراني في الأوسط من طريق جابر الجعفي عن الشعبي عن عطاء به ، وجابر ضعيف ، وله طرق كثيرة عن أبي هريرة أوردها ابن الجوزي في العلل المتناهية. وفي الباب عن عبد الله بن عمرو بن العاص أخرجه ابن حبان في صحيحه ، والحاكم من طريق ابن وهب عن عبد الله بن عباس عن أبيه عن أبي عبد الرحمن الحبلى عنه ، وعن ابن عباس أخرجه الطبراني والعقيلي وفيه معمر بن زائدة قال العقيلي : لا يتابع عليه. وله طريق أخرى قاله أبو يعلى : حدثنا زهير حدثنا يونس بن محمد حدثنا أبو عوانة عن عبد الأعلى عن سعيد بن جببر عن ابن عباس به. وأخرجه ابن الجوزي من طريقين آخرين وضعفهما. وعن أنس ، رواه ابن ماجه من طريق يوسف بن ابراهيم سمعت أنساً به وأخرجه ابن الجوزي من طريقين آخرين وضعفهما أيضاً. وعن ابن مسعود وطلق بن على كلاهما في الطبراني. وعن جابر وعائشة كلاهما عند العقيلي. وعن ابن عمر عند ابن عدى. وعن أبي سعيد الخدري عن أبي يعلى وأسانيدها كلها ضعيفة. وعن عمرو بن عبسة أخرجه ابن الجوزي بلفظ «فقد بريء من الإسلام» وإسناده ضعيف أيضا. قال الامام أحمد : لا يصح في هذا الباب شيء (تنبيه) ليس في شيء من طرقه «عن أهله»

لوهب : إني أرى الله سوف يعذبك بهذه الكتب. وقال : والله لو كنت نبيا فكتمت العلم كما تكتمه لرأيت أنّ الله سيعذبك ، وعن محمد بن كعب : لا يحل لأحد من العلماء أن يسكت على علمه ^(١) ولا يحل لجاهل أن يسكت على جهله حتى يسأل. وعن علي رضي الله عنه. ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا ^(٢). وقرئ : ليبينه. ولا يكتُمونه ، بالياء ، لأنهم غيب. وبالتاء ، على حكاية مخاطبتهم ، كقوله : ﴿وَقَصَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ﴾

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُونَ أَنَّ يُمْدَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٨٨)

﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وأحد المفعولين ﴿الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ والثاني ﴿بِمَفَازَةٍ﴾ وقوله ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾ تأكيد تقديره : لا تحسبنهم ، فلا تحسبنهم فائزين. وقرئ : لا تحسبن. فلا تحسبنهم ، بضم الباء على خطاب المؤمنين. ولا يحسبن. فلا يحسبنهم ، بالياء وفتح الباء فيهما ، على أنّ الفعل للرسول. وقرأ أبو عمرو بالياء وفتح الباء في الأول وضمها في الثاني ، على أن الفعل للذين يفرحون ، والمفعول الأول محذوف على : لا يحسبنهم الذين يفرحون بمفازة ، بمعنى : لا يحسبن أنفسهم الذين يفرحون فائزين ، وفلا يحسبنهم ، تأكيد. ومعنى ﴿بِمَا أُوتُوا﴾ بما فعلوا. وأتى وجاء ، يستعملان بمعنى فعل. قال الله تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ ، ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا قَرِيًّا﴾. ويدل عليه قراءة أبيّ : يفرحون بما فعلوا. وقرئ : آتوا ، بمعنى أعطوا. وعن علي رضي الله عنه : بما أوتوا. ومعنى ﴿بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ بمنجاة منه. روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل اليهود عن شيء مما في التوراة فكتّموا الحق وأخبروه بخلافه ^(٣) ، وأروه أنهم قد صدقوه ، واستحمدوا إليه ، وفرحوا بما فعلوا ، فأطلع الله رسوله على ذلك وسلاه بما أنزل من وعيدهم : أى : لا تحسبن اليهود الذين يفرحون بما فعلوا. من تدليسهم عليك ويحبون أن تحمدهم بما لم يفعلوا من إخبارك بالصدق عما سألتهم عنه. ناجين من العذاب. ومعنى ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُتُوا﴾

(١) قوله «على علمه» لعل بعده سقطا تقديره «حتى يعلم». (ع)

(٢) رواه الحرث بن أبي أسامة أخبرنا عبد الوهاب الخفاف حدثنا الحسن بن عمارة حدثني الحكم بن عيينة عن يحيى بن الجزار : سمعت عليا يقول فذكره والحسن متروك ، ومن طريق الحرث رواه الثعلبي ورويناه في جزء الذراع قال : كتب الحارث بن أسامة فذكره ، وذكره ابن عبد البر في العلم. قال : ويروى عن علي. وذكره صاحب الفردوس عن علي. فكأنه وقف عليه مرفوعا. (٣) متفق عليه من رواية حميد بن عبد الرحمن أن مروان قال لبوابه : يا رافع اذهب إلى ابن عباس فقل له لئن كان امرؤ منا فرح بما أوتي وحمد بما لم يفعل عذب لنعذب جميعاً. فقال ابن عباس رضي الله عنهما : إنما نزلت هذه الآية في أهل الكتاب ، أتاه اليهود فسأهم النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء فكتّموه ... الحديث».

بما أوتوه من علم التوراة. وقيل يفرحون بما فعلوا من كتمان نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا من اتباع دين إبراهيم حيث ادعوا أن إبراهيم كان على اليهودية وأنهم على دينه. وقيل : هم قوم تخلفوا عن الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قفل اعتذروا إليه بأنهم رأوا المصلحة في التخلف ، واستحمدوا إليه بترك الخروج. وقيل : هم المنافقون يفرحون بما أتوا من إظهار الإيمان للمسلمين ومنافقتهم وتوصلهم بذلك إلى أغراضهم ، ويستحمدون إليهم بالإيمان الذي لم يفعلوه على الحقيقة لإبطائهم الكفر. ويجوز أن يكون شاملا لكل من يأتي بحسنة فيفرح بها فرح إعجاب ، ويجب أن يحمده الناس ويثنوا عليه بالديانة والزهد وبما ليس فيه.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٩١) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو يملك أمرهم. وهو على كل شيء قدير ، فهو يقدر على عقابهم ﴿لَآيَاتٍ﴾ لأدلة واضحة على الصانع وعظيم قدرته وباهر حكمته ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ للذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال والاعتبار ، ولا ينظرون إليها نظر البهائم غافلين عما فيها من عجائب الفطر. وفي النصائح الصغار : املا عينيك من زينة هذه الكواكب ، وأجلهما في جملة هذه العجائب ، متفكرا في قدرة مقدّرها ، متدبرا حكمة مدبرها ، قبل أن يسافر بك القدر ، ويحال بينك وبين النظر : وعن ابن عمر رضى الله عنهما : قلت لعائشة رضى الله عنها : أخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ^(١) فبكت وأطالت ، ثم قالت : كل أمره عجب ، أتاني في ليلتي فدخل في لحافي حتى ألصق جلده بجلدي ، ثم قال : يا عائشة ، هل لك أن تأذني لي الليلة في عبادة ربّي؟ فقلت : يا رسول الله ، إني لأحب قربك وأحب هواك ، قد أذنت لك. فقام إلى قربة من ماء في البيت فتوضأ ولم يكثر من صب الماء ، ثم قام يصلي ، فقرأ من القرآن فجعل يبكي حتى بلغ الدموع حقويه ، ثم جلس فحمد الله وأثنى عليه وجعل يبكي ، ثم رفع يديه فجعل يبكي

(١) أخرجه ابن حبان من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء : دخلت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير على عائشة ، فقالت : قد آن لك أن تزورنا ، فقال : أقول كما قال الأول : زر غيباً تزدد حباً ، فقالت : دعونا من بطالتكم هذه. ثم قال ابن عمر لعائشة : أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث بطوله ورواه عبد بن حميد ، والثلثي وغيرهم من رواية أبي جناب الكلبي عن عطاء قال : دخلت أنا وابن عمر على عائشة فقال لها ابن عمر أخبريني ... فذكره.

حتى رأيت دموعه قد بليت الأرض ، فأتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فرآه يبكي فقال له : يا رسول الله ، أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال : يا بلال أفلا أكون عبداً شكوراً. ثم قال : ومالي لا أبكي وقد أنزل الله عليّ في هذه الليلة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ثم قال : ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها. وروى : «ويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأملها» ^(١) وعن علي رضي الله عنه : أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل يتسوّك ثم ينظر إلى السماء ثم يقول ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ^(٢). وحكى أنّ الرجل من بنى إسرائيل كان إذا عبد الله ثلاثين سنة أظلمت سحابة ، فعبدها فتي من فتيانهم فلم تظله ، فقالت له أمّه : لعلّ فرطة فرطت منك في مدّتك؟ فقال : ما أذكر. قالت : لعلك نظرت مرّة إلى السماء ولم تعتبر؟ قال : لعلّ. قالت : فما أتيت إلا من ذاك ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ ذكراً دائماً على أى حال كانوا ، من قيام وقعود واضطجاع لا يخلون بالذكر في أغلب أحوالهم. وعن ابن عمر وعروة بن الزبير وجماعة أنهم خرجوا يوم العيد إلى المصلى فجعلوا يذكرون الله ، فقال بعضهم : أما قال الله تعالى : ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً﴾ فقاموا يذكرون الله على أقدامهم. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «من أحبّ أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله ^(٣)» وقيل : معناه يصلون في هذه الأحوال على حسب استطاعتهم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمران بن الحصين «صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب ، تومئ إيماء ^(٤)» وهذه حجة للشافعي رحمه الله في إضجاع المريض على جنبه كما في اللحد. وعند أبي حنيفة رحمه الله أنه يستلقى حتى إذا وجد خفة قعد. ومحل ﴿عَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ نصب على الحال عطفاً على ما قبله ، كأنه قيل : قياماً وقعوداً ومضطجعين ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وما يدل عليه اختراع هذه الأجرام العظام وإبداع صنعتها وما دبر فيها بما تكل الأفهام عن إدراك بعض عجائبه على عظم ^(٥) شأن الصانع

(١) رواه ابن مردويه في تفسير سورة الروم من رواية أبي جناب عن عطاء عن عائشة قالت «لما نزلت هذه الآية ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويح لمن لاكها بين لحييه ثم لم يتفكر فيها»

(٢) رواه الثعلبي من طريق حماد عن حجاج عن حبيب بن أبي ثابت عن محمد بن علي بن أبي طالب عن علي وأصله في المتفق عليه من حديث ابن عباس.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة وإسحاق والطبراني من حديث معاذ وفي إسناده موسى بن عبيدة وهو ضعيف. وأخرجه الثعلبي في تفسير العنكبوت ، وابن مردويه في تفسير الواقعة.

(٤) أخرجه البخاري وأصحاب السنن ، من حديث عمران بن حصين. قال «كانت في بواسير . فذكر الحديث» وليس في آخره يومئ إيماء» وأورده صاحب الهداية . كما أورده الزمخشري.

(٥) قوله «على عظم» لعله من عظم ... الخ ، فيكون بيانا لما يدل عليه. (ع)

وكبرياء سلطانه. وعن سفيان الثوري أنه صلى خلف المقام ركعتين ثم رفع رأسه إلى السماء ، فلما رأى الكواكب غشى عليه ، وكان يبول الدم من طول حزنه وفكرته. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «بينما رجل مستلق على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى النجوم وإلى السماء فقال : أشهد أن لك رباً وخالقاً ، اللهم اغفر لي ، فنظر الله إليه فغفر له»^(١) وقال النبي صلى الله عليه وسلم «لا عبادة كالتفكير»^(٢) وقيل : الفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشية كما يحدث الماء للزرع النبات ، وما جليت القلوب بمثل الأحزان ولا استنارت بمثل الفكرة. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم «لا تفضلوني على يونس بن متى فإنه كان يرفع له في كل يوم مثل عمل أهل الأرض»^(٣) قالوا : وإنما كان ذلك التفكير في أمر الله الذي هو عمل القلب ، لأن أحداً لا يقدر أن يعمل بجوارحه في اليوم مثل عمل أهل الأرض ﴿مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾ على إرادة القول. أى يقولون ذلك وهو في محل الحال ، بمعنى يتفكرون قائلين. والمعنى : ما خلقته خلقاً باطلاً بغير حكمة ، بل خلقته لداعي حكمة عظيمة ، وهو أن تجعلها مساكن للمكلفين وأدلة لهم على معرفتك ووجوب طاعتك واجتناب معصيتك ؛ ولذلك وصل به قوله ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ لأنه جزء من عصي ولم يطع. فإن قلت : هذا إشارة إلى ما ذا؟ قلت : إلى الخلق على أن المراد به المخلوق ، كأنه قيل : ويتفكرون في مخلوق السموات والأرض ، أى فيما خلق منها. ويجوز أن يكون إشارة إلى السموات والأرض ؛ لأنها في معنى المخلوق. كأنه قيل : ما خلقت هذا المخلوق العجيب باطلاً. وفي هذا ضرب من التعظيم كقوله : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ ويجوز أن يكون باطلاً حالاً من هذا. وسبحانك : اعتراض للتنزيه من العبث ، وأن يخلق شيئاً بغير حكمة.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (١٩٤)

(١) أخرجه التعلبي من رواية زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة وفي إسناده من لا يعرف.

(٢) أخرجه ابن حبان في الضعفاء ، والبيهقي في الشعب من رواية أبي رجاء محمد بن عبد الله الخطرى من أهل شر عن شعبة عن أبي إسحاق عن عاصم بن ضمرة عن علي رضي الله عنه أنه قال لابنه الحسن «يا بني ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا مال أعوز من العقل ، ولا فقر أشد من الجهل ، ولا عقل كالتدبير ، ولا ورع كحسن الخلق ، ولا عبادة كالتفكير ... الحديث بطوله» وأبو رجاء ، قال البيهقي : ليس بالقوى ، وقال ابن حبان يروى عن الثقات ما ليس من حديث الأئمة.

(٣) لم أجده.

﴿فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ﴾ فقد أبلغت في إخزائه. وهو نظير قوله فقد فاز. ونحوه في كلامهم : من أدرك مرعى الصمان ^(١) فقد أدرك ، ومن سبق فلانا فقد سبق ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ اللام إشارة إلى من يدخل النار وإعلام بأن من يدخل النار فلا ناصر له بشفاعه ولا غيرها ^(٢) ، تقول : سمعت رجلاً يقول كذا ، وسمعت زيداً يتكلم. فتوقع الفعل على الرجل وتحذف المسموع ، لأنك وصفته بما يسمع ، أو جعلته حالاً عنه فأغناك عن ذكره ، ولو لا الوصف أو الحال لم يكن منه بد ، وأن يقال سمعت كلام فلان أو قوله. فإن قلت : فأى فائدة في الجمع بين المنادى وينادى؟ قلت : ذكر النداء مطلقاً ثم مقيداً بالإيمان تفخيماً لشأن المنادى ؛ لأنه لا منادى أعظم من مناد ينادى للإيمان. ونحوه قولك : مررت بهاد يهدى للإسلام. وذلك أنّ المنادى إذا أطلق ذهب الوهم إلى مناد للحرب ، أو لإطفاء النائرة ، أو لإغاثة المكروب ، أو لكفاية بعض النوازل ، أو لبعض المنافع ، وكذلك الهادي قد يطلق على من يهدى للطريق ويهدى لسداد الرأي وغير ذلك ؛ فإذا قلت : ينادى للإيمان ، ويهدى للإسلام ، فقد رفعت من شأن المنادى والهادي وفخمته. ويقال : دعاه لكذا وإلى كذا ، وندبه له وإليه ، وناداه له وإليه. ونحوه : هداه للطريق وإليه ، وذلك أن معنى انتهاء الغاية ومعنى الاختصاص واقعان جميعاً ، والمنادى هو الرسول ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ﴾ ، ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾. وعن محمد بن كعب : القرآن. ﴿أَنْ آمِنُوا﴾ أى آمنوا ، أو بأن آمنوا ﴿ذُنُوبَنَا﴾ كبائرنا ﴿سَيِّئَاتِنَا﴾ صغائرنا ﴿مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ مخصوصين بصحبتهم ، معدودين في جملتهم. والأبرار : جمع برّ أو بارّ ، كبر وأرباب ، وصاحب وأصحاب ﴿عَلَى رَسُولِكَ﴾ على هذه صلة للوعد ، كما في قولك : وعد الله الجنة على الطاعة. والمعنى : ما وعدتنا على تصديق رسلك. ألا تراه كيف أتبع ذكر المنادى للإيمان وهو الرسول وقوله آمنا وهو التصديق ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف ، أى ما وعدتنا منزلاً على رسلك ، أو محمولاً على رسلك ، لأن الرسل محملون ذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ وقيل : على السنة رسلك. والموعود هو الثواب. وقيل : النصر على الأعداء. فإن قلت : كيف دعوا الله بإنجاز ما وعد الله لا يخلف الميعاد؟ قلت : معناه طلب التوفيق فيما يحفظ عليهم أسباب إنجاز الميعاد أو هو باب من اللجأ إلى الله والخضوع له ، كما كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يستغفرون مع علمهم أنهم مغفور لهم ، يقصدون بذلك

(١) قوله «من أدرك مرعى الصمان» في الصحاح : موضع إلى جنب رمل عاج. وعالج : موضع بالبادية به رمل. (ع)

(٢) قوله «فلا ناصر له بشفاعه ولا غيرها» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة ، فمن يدخل النار من المؤمنين يخرج بالشفاعة أو بالعفو ، كما حقق في محله. (ع)

التذلل لربهم والتضرع إليه ، واللجأ الذي هو سيما العبودية.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَأَلَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقَاتَلُوا لَا يَكْفِرُنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخِلَتْهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ (١٩٥)

يقال استجاب له واستجاب به :

فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبٌ ^(١)

﴿أَنِّي لَا أَضِيعُ﴾ قرئ بالفتح على حذف الياء ، وبالكسر على إرادة القول. وقرئ : لا أضيع ، بالتشديد ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ بيان لعامل ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أى يجمع ذكوركم وإناثكم أصل واحد ، فكل واحد منكم من الآخر ، أى من أصله ، أو كأنه منه لفرط اتصالكم واتحادكم. وقيل المراد وصلة الإسلام. وهذه جملة معترضة بينت بها شركة النساء مع الرجال فيما وعد الله عباده العاملين. وروى أنّ أمّ سلمة قالت : يا رسول الله ، إني أسمع الله تعالى يذكر الرجال في الهجرة ولا يذكر النساء ^(٢). فنزلت ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ تفصيل لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم له والتفخيم ، كأنه قال : فالذين عملوا هذه الأعمال السننية الفاتكة ، وهي المهاجرة عن أوطانهم فارّين إلى الله بدينهم من دار الفتنة ، واضطّروا إلى الخروج من ديارهم التي ولدوا فيها ونشؤا بما سامهم ^(٣) المشركون من الخسف ﴿وَأُودُوا فِي سَبِيلِي﴾ من أجله وبسببه ، يريد

(١) وداع دعاً يا مــــن يهيبــــب إلى النــــدى فلم يــــســــتجبه عنــــد ذاك مجيــــب

فقلــــت ادع أخــــرى وارفع الصــــوت جهــــرة لعل أبي المغــــوار منــــك قريــــب

لكعب بن سعد الغنوي ، يرثى أخاه هرم وكنيته أبو المغوار . و «جهرة» مفعول مطلق مؤكد. و «أبي» مجرور بلعل ، وهي لغة عقيل. واستعمال لعل في الأمر البعيد . مع أنها للرجاء والقرب . دليل على شدة وله وتنزيله البعيد منزلة القريب. وروى : «لعل أبا المغوار» على اللغة المشهورة. يقول : ورب داع إلى المكارم لم يهبه أحد فقلت له : ادع مرة أخرى برفع صوتك ، لعل أخي يكون قريباً فيجيبك على عادته ، فانه كثيراً ما يطلب معالي الأمور. وهذا من باب التمثيل والتخييل ، لأنه لا داعي في الواقع.

(٢) أخرجه الترمذي ، من رواية عمرو بن دينار أخبرني سلمة . رجل من ولد أم سلمة رضى الله عنها . قال قالت أم سلمة.

(٣) قوله «بما سامهم» في الصحاح : يقال سامه الخسف ، وسامه خسفاً ، وخسفاً أيضاً بالضم : أى أولاه ذلاً. (ع)

سبيل الدين ﴿وَقَاتِلُوا وَقُتِلُوا﴾ وغزوا المشركين واستشهدوا. وقرئ : وقتلوا ، بالتشديد. وقتلوا وقتلوا . على التقديم . بالتخفيف والتشديد. وقتلوا ، وقتلوا ، على بناء الأول للفاعل والثاني للمفعول. وقتلوا ، وقتلوا ، على بنائهما للفاعل ﴿ثَوَابًا﴾ في موضع المصدر المؤكد بمعنى إثابة أو تثويباً ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ لأن قوله : ﴿لَا كُفْرَ عَنْهُمْ...﴾ ﴿وَلَا دُخْلَ لَهُمْ﴾ في معنى. لأثيبنهم. و ﴿عِنْدَهُ﴾ مثل : أن يختص به وبقدرته وفضله ، لا يثيبه غيره ولا يقدر عليه ، كما يقول الرجل : عندي ما تريد ، يريد اختصاصه به وبملكه وإن لم يكن بحضرته. وهذا تعليم من الله كيف يدعى وكيف يتهل إليه ويتضرع. وتكرير ﴿رَبَّنَا﴾ من باب الابتغال ، وإعلام بما يوجب حسن الإجابة وحسن الإثابة ، من احتمال المشاق في دين الله ، والصبر على صعوبة تكاليفه ، وقطع لأطماع الكسالى المتمنين عليه ، وتسجيل على من لا يرى الثواب ^(١) موصولاً إليه ، بالعمل بالجهل والغاوة. وروى عن جعفر الصادق رضي الله عنه : من حزبه أمر فقال خمس مرات (ربنا) أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد ، وقرأ هذه الآية. وعن الحسن : حكى الله عنهم أنهم قالوا خمس مرات (ربنا) ثم أخبر أنه استجاب لهم ، إلا أنه أتبع ذلك رافع الدعاء وما يستجاب به ، فلا بد من تقديمه بين يدي الدعاء.

﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ (١٩٦) ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (١٩٧)

﴿لَا يَغُرُّكَ﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ، أى لا تنظر إلى ما هم عليه من سعة الرزق والمضطرب ودرك العاجل وإصابة حظوظ الدنيا ، ولا تغتر بظاهر ما ترى من تبسطهم في الأرض ، وتصرفهم في البلاد يتكسبون ويتجرون ويتدهقنون ^(٢). وعن ابن عباس : هم أهل مكة. وقيل : هم اليهود. وروى أن أناساً من المؤمنين كانوا يرون ما كانوا فيه من الخصب والرخاء ولين العيش فيقولون : إن أعداء الله فيما نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع والجهد. فإن قلت : كيف جاز أن يغتر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك حتى ينهى عن الاغترار

(١) قوله «وتسجيل على من لا يرى الثواب» يريد أهل السنة القائلين يجوز على الله أن يتفضل على العبد بدون عمل ولا يجب عليه إثابة العامل. وقد حقق في محله. (ع)

(٢) قوله «ويتجرون ويتدهقنون» يتمثلون ويتمتعون بلين الطعام وطيب الشراب. أفاده الصحاح ، في مادة دهق ، ومادة دهقن. والأوفق بما في الصحاح : يتدهقنون ، حيث قال : قال الأصمعي : الدهقة : لين الطعام وطيبة ورقته. وحديث عمر «لو شئت أن يدهق لي لفعلت ، ولكن الله عاب قوما فقال : أذهبتم طيباتكم ... الآية» ولم يذكر الدهقة بهذا المعنى تصريحاً. (ع)

به؟ قلت : فيه وجهان أحدهما أن مدرة القوم ومتقدّمهم يخاطب بشيء فيقوم خطابه مقام خطابهم جميعاً ، فكأنه قيل : لا يغرنكم. والثاني : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان غير مغرور بحالهم فأكد عليه ما كان عليه وثبت على التزامه ، كقوله : ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ ، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ، ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ وهذا في النهي نظير قوله في الأمر ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ وقد جعل النهي في الظاهر للتقلب وهو في المعنى للمخاطب ، وهذا من تنزيل السبب منزلة المسبب ، لأنّ القلب لو غرّه لاغتر به ، فمنع السبب ليمتنع المسبب. وقرئ : لا يغرنك بالنون الخفيفة ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أى ذلك متاع قليل وهو القلب في البلاد ، أراد قلته في جنب ما فإنهم من نعيم الآخرة ، أو في جنب ما أعدّ الله للمؤمنين من الثواب ، أو أراد أنه قليل في نفسه لانقضائه وكل زائل قليل. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع^(١)» ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ وساء ما مهدوا لأنفسهم.

﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ جَنَّتْ حَتَّى تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ (١٩٨)

النزل والنزل : ما يقام للنازل. وقال أبو الشعراء الضبي :

وَكُنْتُ إِذَا الْجَبَّارُ بِالْجَيْشِ ضَافَتَا جَعَلْنَا الْقَنَاقَةَ وَالْمُرْهَقَاتِ لَهْ نُزُلًا^(٢)

وانتصابه إمّا على الحال من جنات لتخصصها بالوصف والعامل اللام : ويجوز أن يكون بمعنى مصدر^(٣) مؤكّد ، كأنه قيل : زرقاء ، أو عطاء ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الكثير الدائم ﴿خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ مما يتقلب فيه الفجار من القليل الزائل ، وقرأ مسلمة بن محارب والأعمش ﴿نُزُلًا﴾ بالسكون. وقرأ يزيد بن القعقاع : لكنّ الذين اتقوا ، بالتشديد.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾

(١) أخرجه مسلم من حديث المستورد بن شداد به.

(٢) لأبي الشعراء الضبي. والجبار : الملك العاتي. وضافه يضيفه : نزل عنده ضيفا ، أى إذا نزل بنا الجبار مع جيشه نزول الضيف. وفيه تحكم به حيث جاء محاربا ، فشبهه بمن جاء للمعروف طالبا ، ورشح ذلك التشبيه يجعل الرماح والسيوف المرفقات المسنونات نزلا له ، وهو الطعام المعد للضيف

(٣) قوله «ويجوز أن يكون بمعنى مصدر» في قوة : وأما على المصدر ، لأنه يجوز ... الخ. (ع)

خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بَايَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ هُمُ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ عن مجاهد : نزلت في عبد الله بن سلام وغيره من مسلمة أهل الكتاب. وقيل : في أربعين من أهل نجران ، واثنين وثلاثين من الحبشة ، وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى عليه السلام فأسلموا. وقيل : في أصحابمة النجاشي ملك الحبشة ، ومعنى أصحابمة «عطية» بالعربية. وذلك أنه لما مات نعاه جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم ، فخرج إلى البقيع ونظر إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشي وصلى عليه واستغفر له : فقال المنافقون : انظروا إلى هذا يصلى على علج نصراني لم يره قط وليس على دينه ^(١) ، فنزلت. ودخلت لام الابتداء على اسم «إِنَّ» لفصل الظرف بينهما ؛ كقوله : ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَبْطِئَنَّ﴾. ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من القرآن ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ من الكتابين ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ حال من فاعل يؤمن ، لأن من يؤمن في معنى الجمع ﴿لَا يَشْتَرُونَ بَايَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ كما يفعل من لم يسلم من أحبارهم وكبارهم ﴿أُولَئِكَ هُمُ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أى ما يختص بهم من الأجر وهو ما وعدوه في قوله : ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ ، ﴿يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لنفوذ عمله في كل شيء ، فهو عالم بما يستوجهه كل عامل من الأجر. ويجوز أن يراد : إنما توعدون لآت قريب بعد ذكر الموعد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٢٠٠)

(١) ذكره الثعلبي من قول ابن عباس وقتادة. ولفظه «فخرج إلى البقيع. وكشف له من المدينة إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشي» والباقي نحوه ، وقد ذكر إسناده إليهما آخر الكتاب. وذكره الواحدي بلا إسناد ، ورواه الطبري وابن عدى في ترجمة أبي بكر الهذلي ، واسمه : سلمى ، وهو ضعيف. عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن جابر دون قوله «ونظر إلى أرض الحبشة ، فأبصر سرير النجاشي ، وزاد فيه ، وكبر أربعاً ، والطبراني في الأوسط» من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد قال «لما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وفاة النجاشي قال : اخرجوا فصلوا على أخ لكم لم نره قط ؛ فخرج بنا ، وتقدم النبي صلى الله عليه وسلم ووقفنا خلفه ، فصلى وصلينا ، فلما انصرفنا قال المنافقون : انظروا إلى هذا يصلى على علج نصراني لم يره قط فأنزل الله تعالى : ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾.

اصبروا على الدين وتكاليفه ﴿وَصَابِرُوا﴾ أعداء الله في الجهاد ، أى غالبوهم في الصبر على شدائد الحرب لا تكونوا أقل صبراً منهم وثباتاً. والمصابرة : باب من الصبر ذكر بعد الصبر على ما يجب الصبر عليه ، تخصيصاً لشدته وصعوبته ﴿وَرَابِطُوا﴾ وأقيموا في الثغور رابطين خيلكم فيها ، مترصدين مستعدين للغزو. قال الله عز وجل : ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وعن النبي صلى الله عليه وسلم «من رابط يوماً وليلة في سبيل الله كان كعدل صيام شهر^(١) وقيامه ، لا يفطر ، ولا يفتل عن صلاته إلا لحاجة».

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قرأ سورة آل عمران أعطى بكل آية منها أماناً على جسر جهنم»^(٢) وعنه عليه الصلاة والسلام : «من قرأ السورة التي يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكته حتى تحجب الشمس»^(٣).

(١) أخرجه أحمد وابن أبي شيبة من حديث سلمان أتم منه ولابن حبان من حديث سلمان «رابط يوم وليلة في سبيل الله أفضل من صيام شهر وقيامه جاع لا يفطر ، وقام لا يفتّر» وأصله في مسلم ، ووهم الحاكم فاستدركه.

(٢) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات من حديث أبي بن كعب وسيأتي آخر الكتاب ، ورواه ابن مردويه من وجه آخر عن أبي بن كعب ، والواحدي في التفسير الأوسط من حديث أبي أمامة رضى الله عنه.

(٣) أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس ، وإسناده ضعيف.

سورة النساء

مدنية ، وهي مائة وست وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (١)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يا بني آدم ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ فرعكم من أصل واحد وهو نفس آدم أبيكم^(١). فإن قلت : علام عطف قوله ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾؟ قلت : فيه وجهان : أحدهما أن يعطف على محذوف ، كأنه قيل : من نفس واحدة أنشأها أو ابتدأها ، وخلق منها زوجها. وإنما حذف لدلالة المعنى عليه. والمعنى : شعبكم من نفس واحدة هذه صفتها ، وهي أنه أنشأها من تراب وخلق زوجها حواء من ضلع من أضلاعها ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ نوعي جنس الإنس وهما الذكور والإناث ، فوصفها بصفة هي بيان وتفصيل بكيفية خلقهم منها. والثاني : أن يعطف على خلقكم ، ويكون الخطاب في : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ للذين بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. والمعنى : خلقكم من نفس آدم ، لأنهم من جملة الجنس المفرع منه ، وخلق منها أمكم حواء وبث منهما ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ غيركم من الأمم الفاتئة للحصر. فإن قلت : الذي يقتضيه سداد نظم الكلام وجزالته أن يجاء عقيب الأمر بالتقوى بما يوجبها أو يدعوا إليها ويبحث عليها ، فكيف كان خلقه إياهم من نفس واحدة على التفصيل الذي ذكره موجبا للتقوى وداعيا إليها؟ قلت : لأنَّ

(١) قال محمود : «معناه فرعكم من أصل واحد وهو نفس آدم أبيكم وعلام عطف ... الخ» قال أحمد : وإنما قدر المحذوف في الوجه الأول حيث جعل الخطاب عاما في الجنس ، لأنه لو لا التقدير لكان قوله : ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ تكراراً لقوله : ﴿خَلَقَكُمْ﴾ إذ مؤداهما واحد ، وليس على سبيل بيان الأول ، لأنه معطوف عليه حينئذ. وأما وهو معطوف على المقدر ، فذاك المقدر واقع صفة مبينة ، والمعطوف عليه داخل في حكم البيان فاستقام. وأما الوجه الثاني فالتكرار فيه ليس بلازم ، إذ المخاطب بقوله : ﴿خَلَقَكُمْ﴾ الذين بعث إليهم النبي عليه الصلاة والسلام. وقوله ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ واقع على من عدا المبعوث إليهم من الأمم ، فلا حاجة للتقدير المذكور في الوجه الثاني ، والله أعلم.

ذلك مما يدل على القدرة العظيمة. ومن قدر على نحوه كان قادراً على كل شيء ، ومن المقدورات عقاب العصاة ، فالنظر فيه يؤدي إلى أن يتقى القادر عليه ويخشى عقابه ، ولأنه يدل على النعمة السابغة عليهم ، فحقهم أن يتقوه في كفرائها والتفريط فيما يلزمهم من القيام بشكرها. أو أراد بالتقوى تقوى خاصة وهي أن يتقوه فيما يتصل بحفظ الحقوق بينهم ، فلا يقطعوا ما يجب عليهم وصله ، فقيل : اتقوا ربكم الذي وصل بينكم ، حيث جعلكم صنوانا مفرعة من أرومة واحدة. فيما يجب على بعضكم لبعض ، فحافظوا عليه ولا تغفلوا عنه. وهذا المعنى مطابق لمعاني السورة. وقرئ : وخالق منها زوجها. وبإث منهما ، بلفظ اسم الفاعل ، وهو خبر مبتدأ محذوف تقديره : وهو خالق ﴿تَسْأَلُونَ بِهِ﴾ تتساءلون به ، فأدغمت التاء في السين. وقرئ (تساءلون) بطرح التاء الثانية ، أى يسأل بعضكم بعضا بالله وبالرحم. فيقول : بالله وبالرحم أفعل كذا على سبيل الاستعطاف. وأناشدك الله والرحم. أو تسألون غيركم بالله والرحم ، فقيل «تفاعلون» موضع «تفعلون» للجمع ، كقولك : رأيت الهلال وتراءيناه. وتنصره قراءة من قرأ : تسألون به. مهموز أو غير مهموز. وقرئ ﴿وَالْأَرْحَامُ﴾ بالحركات الثلاث ، فالنصب على وجهين : إما على : واتقوا الله والأرحام ، أو أن يعطف على محل الجار والمجرور ، كقولك : مررت بزيد وعمراً. وينصره قراءة ابن مسعود : نسألون به وبالأرحام ، والجرّ على عطف الظاهر على المضمّر ، وليس بسديد ؛ لأنّ الضمير المتصل متصل كاسمه ، والجار والمجرور كشيء واحد ، فكانا في قولك «مررت به وزيد» و «هذا غلامه وزيد» شديدي الاتصال ، فلما اشتد الاتصال لتكرره أشبه العطف على بعض الكلمة ، فلم يجز ووجب تكرير العامل ، كقولك : «مررت به وبزيد» و «هذا غلامه وغلام زيد» ألا ترى إلى صحة قولك «رأيتك وزيدا» و «مررت بزيد وعمرو» لما لم يقو الاتصال ، لأنه لم يتكرر ، وقد تمحل لصحة هذه القراءة بأنها على تقدير تكرير الجار ونظيرها.

فَمَا بِكَ وَالْأَيَّامِ مِنْ عَجَبٍ ^(١)

والرفع على أنه مبتدأ خبره محذوف ، كأنه قيل : والأرحام كذلك ، على معنى : والأرحام مما يتقى أو والأرحام مما يتساءل به. والمعنى أنهم كانوا يقولون بأن لهم خالقاً ، وكانوا يتساءلون بذكر الله والرحم ، فقيل لهم : اتقوا الله الذي خلقكم ، واتقوا الذي تتناشدون به واتقوا الأرحام

(١) فالأيام قريب تهجونا وتشتمنا فاذهب فمما بك والأيام ممن عجب

للأعشى. وقيل : لعمرو بن معديكرب. وقيل : لخفاف بن ندبة. وقيل : لعباس بن مرداس. يقال : قرب الفرس تقريباً أسرع. يقول : فالأيام دنوت مسرعا في هجونا بعد بطئك عنه. ويروى : قد بت ، أى قد صرت تهجونا ، فاذهب على طريقتهك فإنها سمة اللثام وشيمة الأيام ، فلا عجب من ذلك ، وهو أمر تخلية ومتاركة. والأيام : عطف على الضمير المجرور ، وهو دليل على جوازه بدون إعادة الجار وإن منعه الجمهور.

فلا تقطعوها. أو واتقوا الله الذي نتعاطفون بذكاره وبإذكار الرحم. وقد آذن عز وجل . إذ قرن الأرحام باسمه . أن صلتها منه بمكان ، كما قال : ﴿ **أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِأَلْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾ وعن الحسن : إذا سألك بالله فأعطه ، وإذا سألك بالرحم فأعطه . وللرحم حجنة عند العرش ^(١) ومعناه ما روى عن ابن عباس رضى الله عنه «الرحم معلقة بالعرش فإذا أتاها الواصل بثت به وكلمته ، وإذا أتاها القاطع احتجبت ^(٢) منه». وسئل ابن عيينة عن قوله عليه الصلاة والسلام «تخيروا لنطفكم» ^(٣) فقال : يقول لأولادكم. وذلك أن يضع ولده في الحلال. ألم تسمع قوله تعالى ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ** ﴾ وأول صلته أن يختار له الموضع الحلال ، فلا يقطع رحمه ولا نسبه فإنما للعاهر الحجر ، ثم يختار الصحة ويجتنب الدعوة ^(٤) ، ولا يضعه موضع سوء يتبع شهوته وهواه بغير هدى من الله.

﴿ **وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا** ﴾ (٢)

﴿ **الْيَتَامَىٰ** ﴾ الذين مات آباؤهم فانفردوا عنهم. واليتيم. الانفراد. ومنه : الرملة اليتيمة والدرة اليتيمة. وقيل : اليتيم في الأناسى من قبل الآباء ، وفي البهائم من قبل الأمهات. فإن قلت : كيف جمع اليتيم . وهو فعيل كمريض . على يتامى ؟ قلت : فيه وجهان : أن يجمع على يتمى كأسرى ، لأنّ اليتيم من وادى الآفات والأوجاع ، ثم يجمع فعلى على فعالى كأسارى. ويجوز أن يجمع على فعائل لجرى اليتيم مجرى الأسماء ، نحو صاحب وفارس ، فيقال : يتائم ، ثم يتامى على القلب. وحق هذا

(١) قوله «حجنة عند العرش» في الصحاح : الحجن . بالتحريك . الاعوجاج . وصقر أحجن المخالب معوجها . وحجنة المغزل . بالضم . هي المنعقة في رأسه . وفيه أيضا : عقت الشيء فانعقف ، أى عطفته فانعطف . والتعقيف : التعويج (ع)

(٢) أخرجه إسحاق بن راهويه : أخبرنا جرير عن قابوس عن أبيه عنه به . ورواه الحكيم الترمذي من هذا الوجه

(٣) رواه ابن ماجه والحاكم والدارقطني من حديث هشام عن أبيه عن عائشة . قال ابن طاهر : لم يروه عن هشام ثقة . ورواه ابن عدى من طريق عيسى بن ميمون أحد الضعفاء عن القاسم عن عائشة رضى الله عنها ورواه تمام في فوائده وأبو نعيم في الحلية من رواية الزهري عن أنس وفيه عبد العظيم بن إبراهيم الساملي وهو مجهول . ورواه ابن عدى من حديث عمر موقوفا . وفيه سليمان بن عطاء وهو ضعيف وقال ابن طاهر : رواه إسحاق بن الغبض عن عبد المجيد عن ابن جريج عن عطاء ، فمرة قال : عن ابن عباس . ومرة قال : عن عائشة . وهذا أجود طرقه إن كان الاسناد إلى إسحاق قويا . قال ابن أبي حاتم عن أبيه : هذا الحديث ضعيف من جميع طرقه

(٤) قوله «ويجتنب الدعوة» لعله الدعة بالراء بدل الواو . وفي الصحاح : الدعر . بالتحريك . الفساد . (ع)

الاسم أن يقع على الصغار ^(١) والكبار لبقاء معنى الانفراد عن الآباء ، إلا أنه قد غلب أن يسموا به قبل أن يبلغوا مبلغ الرجال ، فإذا استغنوا بأنفسهم عن كافل وقائم عليهم وانتصبوا كفاة يكفلون غيرهم ويقومون عليهم ، زال عنهم هذا الاسم. وكانت قريش تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يتيم أبي طالب ، إتما على القياس وإتما حكاية للحال التي كان عليها صغيراً ناشئاً في حجر عمه توضعاً له. وأما قوله عليه السلام «لا يتم بعد الحلم» ^(٢) فما هو إلا تعليم شريعة لا لغة ، يعنى أنه إذا احتلم لم تجر عليه أحكام الصغار. فإن قلت : فما معنى قوله ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾؟ قلت : إما أن يراد باليتامى الصغار ، وبإيتائهم الأموال : أن لا يطمع فيها الأولياء والأوصياء وولاة السوء وقضاته ويكفوا عنها أيديهم الخاطفة ، حتى تأتي اليتامى إذا بلغوا سالمة غير مخدوفة. وإتما أن يراد الكبار تسمية لهم يتامى على القياس ، أو لقرب عهدهم . إذا بلغوا . بالصغر ، كما تسمى الناقة عشراء بعد وضعها. على أن فيه إشارة إلى أن لا يؤخر دفع أموالهم إليهم عن حد البلوغ ، ولا ولا يطلوا إن أونس منهم الرشد ، وأن يؤتوها قبل أن يزول عنهم اسم اليتامى والصغار. وقيل : هي في رجل من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم ، فلما بلغ طلب المال فمنعه عمه فترافعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ^(٣) فنزلت ، فلما سمعها العم قال : أطعنا الله وأطعنا الرسول ، نعوذ بالله من الحوب الكبير ، فدفع ماله إليه ؛ فقال النبي عليه السلام : ومن يوق شح نفسه يطع ربه هكذا فإنه يحل داره. يعنى جنته ، فلما قبض ألفوا ماله أنفقه في سبيل الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ثبت الأجر ، ثبت الأجر وبقي الوزر : قالوا : يا رسول الله ، قد عرفنا أنه ثبت الأجر

(١) قال محمود : «إما أن يراد باليتامى الصغار ... الخ» قال أحمد : والوجه الأول قوى بقوله بعد آيات ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَى حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ دل على أن الآية الأولى في الحض على حفظها لهم ليؤتوها عند بلوغهم ورشدهم ، والثانية في الحض على الإيتاء الحقيقي عند حصول البلوغ والرشد. ويقول أيضاً قوله عقيب الأولى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَيْبَةَ بِالطَّبِيبِ﴾ ، ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ فهذا كله تأديب للوصي ما دام المال بيده واليتيم في حجره. وأما على الوجه الآخر فيكون مؤدى الآيتين واحداً ، وهو الأمر بالإيتاء حقيقة ، ويخلص عن التكرار بأن الأولى كالجمله الثانية كالمبينة لشرط الإيتاء من البلوغ وإيناس الرشد ، والله أعلم.

(٢) أخرجه أبو داود عن علي وإسناده حسن لأن له طريقاً أخرى عن علي أخرجه عبد الرزاق أيضاً عن الثوري عن جوير موقوفاً. وصوبه العقيلي وقد تابع جويراً عليه عبد الكريم بن أبي المخارق عن الضحاك. وعبد الكريم متروك أيضاً وله طريق أخرى عند الطبراني في الأوسط في ترجمة محمد بن سليمان الصوفي من رواية علقمة بن قيس عن علي. ورواه أبو يعلى والطبراني من رواية ذبال بن عبيد بن حنظلة بن جذيم بن حنيفة. سمعت جدي حنظلة يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول. فذكره وفي الباب عن أنس عند البزار وفيه مرثد بن عبد الملك وهو ضعيف. وعن جابر عند عبد الرزاق والطيالسي وابن يعلى من رواية حرام بن عثمان وهو متروك. ومن طريق سعيد بن المرزبان عن يزيد الفقير عن جابر. وسعيد ضعيف جداً

(٣) ذكره الثعلبي عن مقاتل الكلبي. وسنده إليهما مذكور في أول الكتاب.

كيف بقي الوزر وهو ينفق في سبيل الله؟ فقال : ثبت أجر الغلام ، وبقي الوزر على والده ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَيْبَةَ بِالطَّبِيبِ﴾ ولا تستبدلوا الحرام وهو مال اليتامى بالحلال وهو مالكم وما أبيح لكم من المكاسب ورزق الله المبتوث في الأرض فتأكلوه مكانه. أو لا تستبدلوا الأمر الخبيث وهو اختزال أموال اليتامى بالأمر الطيب وهو حفظها والتورع منها ^(١) والتفعل بمعنى الاستفعال غير عزيز ، منه التعجيل بمعنى الاستعجال ، والتأخر بمعنى الاستئثار. قال ذو الرمة :

فَيَا كَرَمَ السَّكَنِ الَّذِينَ تَحْمَلُوا عَنِ الدَّارِ وَالْمُسْتَحْلَفِ الْمُتَبَدِّلِ ^(٢)

أراد : ويا لؤم ما استخلفته الدار واستبدلته. وقيل : هو أن يعطى رديفاً ويأخذ جيداً. وعن السدي : أن يجعل شاة مهزولة مكان سمينة ، وهذا ليس بتبدل ، وإنما هو تبديل إلا أن يكارم صديقا له فيأخذ منه عجفاء مكان سمينة من مال الصبي ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ ولا تنفقوها معها. وحقيقتها : ولا تضموها إليها ^(٣) في الإنفاق ، حتى لا تفرقوا بين أموالكم وأموالهم

(١) قوله «والتورع منها» لعله : عنها. (ع)

(٢) لذي الرمة. بالسكون . : سكان الدار ، فهو اسم جمع لسكن ، كركب لراكب ، وصحب لصاحب. وفي نداء كرمهم معنى التعجب من كثرته ، أى يكرم أصحاب الدار الذين ارتحلوا عنها ، ويا لؤم المستخلف المتبدل ، على صيغة اسم المفعول فيهما أى ما استخلفته وما استبدلته بعدهم من الوحوش. وقيل : من الذين لا يوفون بالمراد ، فالتبدل بمعنى الاستبدال. والمستخلف على تقدير مضاف دل عليه المقام.

(٣) قال محمود : «معناه ولا تضموها إلى أموالكم ... إلخ» : قال أحمد : وأهل البيان يقولون المنهي متى كان درجات فطريق البلاغة النهى عن أدناها تنبيها على الأعلى ، كقوله تعالى : ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ﴾ وإذا اعتبرت هذا القانون بهذه الآية وجدته يبادئ الرأي مخالفا لها ، إذ أعلى درجات أكل مال اليتيم في النهى أن يأكله وهو غنى عنه ، وأدناها أن يأكله وهو فقير إليه ، فكان مقتضى القانون المذكور أن ينهى عن أكل مال اليتيم من هو فقير إليه ، حتى يلزم نهي الغنى عنه من طريق الأولى. وحينئذ فلا بد من تمهيد أمر بوضح فائدة تخصيص الصورة العليا بالنهي في هذه الآية فنقول : أبلغ الكلام ما تعددت وجوه إفادته ، ولا شك أن النهى عن الأدنى وإن أفاد النهى عن الأعلى إلا أن للنهي عن الأعلى أيضا فائدة أخرى جليلة لا تؤخذ من النهى عن الأدنى ، وذلك أن المنهي كلما كان أقبح كانت النفس عنه أنفر والداعية إليه أبعد ، ولا شك أن المستقر في النفوس أن أكل مال اليتيم مع الغنى عنه أقبح صور الأكل ، فخصص بالنهي تشنيعا على من يقع فيه ، حتى إذا استحكم نفوره من أكل ماله على هذه الصورة الشنعاء ، دعاه ذلك إلى الاحجام عن أكل ماله مطلقا. ففيه تدريب للمخاطب على النفور من المحارم ، ولا تكاد هذه الفائدة تحصل لو خصص النهى بأكله مع الفقر ، إذ ليست الطباع في هذه الصورة معينة على الاجتناب كاعانتها عليه في الصورة الأولى. ويحقق مراعاة هذا المعنى تخصيصه الأكل ، مع أن تناول مال اليتيم على أى وجه كان منهى عنه ، كان ذلك بالادخار ، أو بالتباس ، أو ببذله في لذة النكاح مثلا ، أو غير ذلك. إلا أن حكمة تخصيص النهى بالأكل : أن العرب كانت تتدمم بالإكثار من الأكل ، وتعد البطنة من البهيمة وتعيب على من اتخذها ديدنه ، ولا كذلك سائر المالاذ ، فإنهم ربما يتفاخرون بالإكثار من النكاح ويعدون من زينة الدنيا ، فلما كان الأكل عندهم أقبح المالاذ خص النهى به ، حتى إذا نفرت النفس منه بمقتضى طبعها المألوف جرها ذلك إلى النفور من صرف .

قلة مبالاة بما لا يحل لكم ، وتسوية بينه وبين الحلال. فإن قلت : قد حرم عليهم أكل مال اليتامى وحده ومع أموالهم ، فلم ورد النهى عن أكله معها؟ قلت : لأنهم إذا كانوا مستغنين عن أموال اليتامى بما رزقهم الله من مال حلال . وهم على ذلك يطمعون فيها . كان القبح أبلغ والذم أحق ولأنهم كانوا يفعلون كذلك فعلى عليهم فعلهم وسمع بهم ، ليكون أجزر لهم. والحبوب : الذنب العظيم. ومنه قوله عليه السلام «إن طلاق أم أيوب لحوب^(١)» فكأنه قيل : إنه كان ذنباً عظيماً كبيراً. وقرأ الحسن ﴿حُوباً﴾ بفتح الحاء وهو مصدر حاب حوبا. وقرئ : حابا. ونظير الحوب والحاب : القول والقال. والطرْد والطرْد.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ

أَذْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ (٣)

. مال اليتيم في سائر الملاذ أو غيرها ، أكلا أو غيره. ومثل هذه الآية في تخصيص النهى بما هو أعلى قوله تعالى : ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَ الْيَتَامَى أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً﴾ فخص هذه الصورة لأن الطبع على الانتهاء عنها أعون. ويقابل هذا النظر في النهى نظر آخر في الأمر ، وهو أنه تارة يخص صورة الأمر الأدنى تنبيهاً على الأعلى ، وتارة يخص صورة الأعلى لمثل الفائدة المذكورة من التدريب. ألا ترى إلى قوله تعالى بعد آيات من هذه السورة : ﴿وَإِذَا خَصَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ فَارْزُقُوهُمْ...﴾ الآية كيف خص صورة حضورهم وإن كانت العليا بالنسبة إلى غيبتهم. وذلك أن الله تعالى علم شح الأنفس على الأموال ، فلو أمر بأسعاف الأقارب واليتامى من المال الموروث ولم يذكر حالة حضورهم القسمة ، لم تكن الأنفس بالمنعثة إلى هذا المعروف كانبعاثها مع حضورهم ، بخلاف ما إذا حضروا فإن النفس يرق طبعها وتنفر من أن تأخذ المال الجزل وذو الرحم حاضر محروم ولا يسعف ولا يساعد ، فإذا أمرت في هذه الحالة بالأسعاف هان عليها امتثال الأمر واثلافها على امتثال الطبع ، ثم تدرت بذلك على إسعاف ذى الرحم مطلقاً حضر أو غاب ، فمراعاة هذا وأمثاله من الفوائد لا يكاد يلقى إلا في الكتاب العزيز ، ولا يعثر عليه إلا الحاذق الفطن المؤيد بالتوفيق ، نسأل الله أن يسلك بنا في هذا النمط ، فخذ هذا القانون عمدة ، وهو أن النهى إن خص الأدنى فللفائدة التنبيه على الأعلى ، وإن خص الأعلى فللفائدة التدريب على الانكفاف عن القبح مطلقاً من الانكفاف عن الأقبح ، ومثل هذا النظر في جانب الأمر ، والله الموفق.

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل وإبراهيم الحري في الغريب من رواية أنس بن سيرين قال : بلغني أن أبا أيوب أراد أن يطلق أم أيوب فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا أبا أيوب. إن طلاق أم أيوب لحوب» ورواه يحيى الحماني في مسنده. والطبراني في الأوسط من طريقه. قال : حدثنا حماد بن زيد عن واصل عن محمد بن سيرين عن ابن عباس وزاد : قال ابن سيرين : والحبوب الإثم. وروى الحاكم من رواية على بن عاصم عن حميد عن أنس قال : كان بين أبي طلحة وأم سليم كلاماً. فأراد أن يطلقها. فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «إن طلاق أم سليم لحوب».

ولما نزلت الآية في اليتامى وما في أكل أموالهم من الحوب الكبير ، خاف الأولياء ^(١) أن يلحقهم الحوب بترك الإقساط في حقوق اليتامى ، وأخذوا يتحرّجون من ولايتهم ، وكان الرجل منهم ربما كان تحته العشر من الأزواج والثمان والست فلا يقوم بحقوقهنّ ولا يعدل بينهن ، فقليل لهم : إن خفتم ترك العدل في حقوق اليتامى فتحرّجتم منها ، فخافوا أيضاً ترك العدل بين النساء فقالوا عدد المنكوحات ، لأنّ من تخرج من ذنب أو تاب عنه وهو مرتكب مثله فهو غير متحرّج ولا تائب ، لأنه إنما وجب أن يُتخرج من الذنب ويُتاب عنه لقبحه ، والقبح قائم في كل ذنب. وقيل : كانوا لا يتحرّجون من الزنا ^(٢) وهم يتحرّجون من ولاية اليتامى ، فقليل : إن خفتم الجور في حق اليتامى فخافوا الزنا ، فانكحوا ما حلّ لكم من النساء ، ولا تحوموا حول المحرّمات. وقيل : كان الرجل يجد اليتيمة لها مال وجمال أو يكون وليها ، فيتزوجها ضناً بها عن غيره ، وربما اجتمعت عنده عشر منهن ، فيخاف . لضعفهن وفقد من يغضب لهن . أن يظلمهنّ حقوقهن ويفرط فيما يجب لهنّ ، فقليل لهم : إن خفتم أن لا تقسطوا في يتامى النساء فانكحوا من غيرهن ما طاب لكم. ويقال للإناث اليتامى كما يقال للذكور ، وهو جمع يتيمة على القلب ، كما قيل : أيامى ، والأصل : أيّام ويتائم. وقرأ النخعي **﴿تَقْسِطُوا﴾** بفتح التاء على أن لا مزيدة مثلها في **﴿لَيْئَالٍ يَغْلَمَ﴾** يريد : وإن خفتم أن تجوروا **﴿ما طاب﴾** ما حلّ **﴿لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾** لأنّ منهن ما حرم كاللاتي في آية التحريم. وقيل **﴿ما﴾** ذهاباً إلى الصفة. ولأن الإناث من العقلاء يجبرن مجرى غير العقلاء : ومنه قوله تعالى : **﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾** **﴿ثَلَاثَ وَرُبَاعَ﴾** معدولة عن أعداد مكررة ، وإنما منعت الصرف لما فيها من العدلين : عدلها عن صيغها ، وعدلها عن تكررها ، وهي نكرات يعرّفن بلام التعريف. تقول : فلان ينكح المثنى والثلاث والرابع ، ومحلّهن

(١) قال محمود : «لما نزلت آية اليتامى خاف الأولياء ... الخ» قال أحمد : قد ثبت أن قاعدة القدرية وعقيدتهم أن الكبيرة الواحدة توجب خلود العبد في العذاب وإن كان موحداً ، ما لم يتب عنها ، فمن ثم يقولون : لا تفيد التوبة عن بعض الذنوب والإصرار على بعضها ، لأنه بواحدة من الكبائر ساوى الكافر في الخلود في العذاب ، ولا يفيد توحيدته ولا شيء من أعماله. هذا هو معتقدهم الفاسد الذي يروم الزمخشري تفسير الآية عليه فاحذر. أما أهل السنة فيقولون : إذا تاب العبد من بعض الذنوب كان الخطاب بوجود التوبة من باقيها متوجهاً عليه ، وكأنه قام ببعض الواجبات وترك القيام ببعضها ، فأفادته التوبة محو المتوب عنه بإذن الله ووعد ، وهو في العهدة فيما لم يتب عنه ، فان كان تفسير الآية على أنهم خوطبوا بالتحرج في حقوق النساء والتوبة من الجور عليهن كما تابوا عن الحيف على اليتامى ، فالأمر في ذلك منزل على ما بيناه من قواعد السنة ، والله ولى التوفيق.

(٢) عاد كلامه. قال محمود : وقيل كانوا لا يتحرّجون من الزنا وهم يتحرّجون من ولاية اليتامى ... الخ» قال أحمد :

وهذا التأويل الذي أخرجه جدير بالتقدم وهو الأظهر ، وتكون الآية معه لبيان حكم اليتامى ، وتحذيراً من التورط في الجور عليهن ، وأمرأً بالاحتياط. وفي غيرهن متسع إلى الأربع ، وأصدق شاهد على أنه هو المراد.

النصب على الحال مما طاب ، تقديره : فانكحوا الطيبات لكم معدودات هذا العدد ، ثنتين ثنتين ، وثلاثا ثلاثا ، وأربعا أربعا. فإن قلت : الذي أطلق للنكاح في الجمع أن يجمع بين ثنتين أو ثلاث أو أربع ، فما معنى التكرير في مثنى وثلاث ورباع؟ (قلت) : الخطاب للجميع ، فوجب التكرير ليصيب كل ناكح يريد الجمع ما أراد من العدد الذي أطلق له ، كما تقول للجماعة : اقتسموا هذا المال . وهو ألف درهم . درهمين درهمين ، وثلاثة ثلاثة ، وأربعة أربعة. ولو أفردت لم يكن له معنى. فإن قلت : فلم جاء العطف بالواو دون أو؟ قلت : كما جاء بالواو في المثال الذي حدوته لك. ولو ذهبت تقول : اقتسموا هذا المال درهمين درهمين ، أو ثلاثة ثلاثة ، أو أربعة أربعة : أعلمت أنه لا يسوغ لهم أن يقتسموه إلا على أحد أنواع هذه القسمة ، وليس لهم أن يجمعوا بينها فيجعلوا بعض القسم على ثنية ، وبعضه على تثليث ، وبعضه على ترييع. وذهب معنى تجويز الجمع بين أنواع القسمة الذي دلت عليه الواو. وتحريه : أن الواو دلت على إطلاق أن يأخذ الناكحون من أرادوا نكاحها من النساء على طريق الجمع ، إن شاءوا مختلفين في تلك الأعداد ، وإن شاءوا متفقين فيها ، محظورا عليهم ما وراء ذلك. وقرأ إبراهيم : وثلاث ورباع ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ بين هذه الأعداد كما خفتم ترك العدل فيما فوقها ﴿فَوَاحِدَةً﴾ فالزموا ؛ أو فاختاروا واحدة وذروا الجمع رأسا. فإن الأمر كله يدور مع العدل ، فأينما وجدتم العدل فعليكم به. وقرأ ﴿فَوَاحِدَةً﴾ بالرفع على : فالمقنع واحدة ، أو فكفت واحدة ، أو فحسبكم واحدة ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ سوى في السهولة واليسر بين الحرة الواحدة وبين الإماء ، من غير حصر ولا توقيت عدد. ولعمري أنهن أقل تبعة وأقصر شغبا وأخف مؤنة من المهاتر ، لا عليك أكثر منهن أم أقللت ، عدلت بينهن في القسم أم لم تعدل ، عزلت عنهن أم لم تعزل. وقرأ ابن أبي عبيدة. من ملكت ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى اختيار الواحدة والتسرى ﴿أَذْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ أقرب من أن لا تميلوا ، من قولهم : عال الميزان عولا ، إذا مال. وميزان فلان عائل ، وعال الحاكم في حكمه إذا جار. وروى أن أعرابيا حكم عليه حاكم فقال له : أتعول عليّ. وقد روت عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم «ألا تعولوا : أن لا تجوروا»^(١) والذي يحكى عن الشافعي رحمه الله أنه فسر ﴿أَلَّا تَعُولُوا﴾ أن لا تكثر عيالك ، فوجهه أن يجعل من قولك : عال الرجل عياله يعولهم ، كقولهم : ما هم يموئهم ، إذا أنفق عليهم ، لأن من كثر عياله لزمه أن يعولهم ، وفي ذلك ما يصعب عليه المحافظة على حدود الكسب وحدود الورع وكسب الحال والرزق الطيب. وكلام مثله من أعلام العلم

(١) أخرجه ابن حبان وإبراهيم الحربي والطبري وابن أبي حاتم وغيرهم من رواية عمر بن محمد بن زيد عن هشام عن أبيه عنها ، قال ابن أبي حاتم : الصواب موقوف.

وأئمة الشرع ورؤس المجتهدين ، حقيقى بالحمل على الصحة والسداد ، وأن لا يظنّ به تحريف تعيلوا إلى تعولوا ، فقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لا تظن بكلمة خرجت من في أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً^(١). وكفى بكتابنا المترجم بكتاب «شافي العي ، من كلام الشافعي» شاهداً بأنه كان أعلى كعباً وأطول باعاً في علم كلام العرب ، من أن يخفى عليه مثل هذا ، ولكن للعلماء طرفاً وأساليب ، فسلك في تفسير هذه الكلمة طريقة الكنايات. فإن قلت : كيف يقل عيال من تسرى ، وفي السرائر نحو ما في المهائز؟ قلت : ليس كذلك ، لأن الغرض بالتزوّج التوالد والتناسل بخلاف التسرى ، ولذلك جاز العزل عن السراري بغير إذنه ، فكان التسرى مظنة لقلّة الولد بالإضافة إلى التزوّج ، كتزوّج الواحدة بالإضافة إلى تزوج الأربع. وقرأ طاوس : أن لا تعيلوا ، من أعال الرجل إذا كثّر عياله. وهذه القراءة تعضد تفسير الشافعي رحمه الله من حيث المعنى الذي قصده.

﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ (٤)

﴿صَدَقَاتِهِنَّ﴾ مهورهن ، وفي حديث شريح : قضى ابن عباس لها بالصدقة. وقرئ : ﴿صَدَقَاتِهِنَّ﴾ بفتح الصاد وسكون الدال على تخفيف صدقاتهن. وصدقاتهن بضم الصاد وسكون الدال جمع صدقة بوزن غرفة. وقرئ : صدقتهن ، بضم الصاد والدال على التوحيد ، وهو تثقيب صدقة ، كقولك في ظلمة ظلمة ﴿نِحْلَةً﴾ من نخله كذا إذا أعطاه إياه ووهبه له عن طيبة من نفسه نحلة ونحلا. ومنه حديث أبي بكر رضى الله عنه : إني كنت نخلتك جداد عشرين وسقا بالعالية^(٢). وانتصاها على المصدر^(٣)

(١) أخرجه المحاملي. حدثنا زياد بن أيوب. حدثنا محمد بن يزيد عن نافع عن ابن عمر عن سليمان أن عبدة قال : قال عمر فذكره. وإسناده منقطع ورواه الجوهري في مشيخته والأصبهاني في الترغيب في قصة طويلة أولها عن سعيد بن المسيب قال «وضع عمر بن الخطاب للناس ثمان عشرة كلمة كلها حكمة» فذكر فيها ذلك وفي الاسناد ضعف وروى البيهقي في الشعب من وجه آخر عنه قال «كتب إلى بعض إخواني من الصحابة أن ضع أمر أخيك على أحسنه . الحديث» موقوف أيضاً.

(٢) أخرجه مالك بإسناد صحيح أتم منه.

(٣) قال محمود : «نحلة منصوب على المصدر لأنها في معنى الإيتاء ... الخ» قال أحمد : هذا الفصل بجملته حسن جداً ، غير أن في جملة تذكير الضمير في منه على الصداق ، ثم تنظيره ذلك بقوله «فأصدق نظراً» وذلك أن المراعى ثم الأصل ، وهو عدم دخول الفاء والجزم وتقدير ما هو الأصل ، وإعطاؤه حكم الموجود ليس ببدع ، ولا كذلك إفراد الصداق المقدر ، فانه ليس بأصل الكلام ، بل الأصل الجمع : وأما الافراد فقد يأتي في مثله على سبيل الاختصار استغناء عن الجمع بالاضافة ، ولا يرد أنهم قد راعوا ما ليس بأصل في قوله :

بــــــدا لي أنى لــــــست مــــــدرك مــــــاضى ولا ســــــابق شــــــيئا إذا كــــــان جــــــائى

لأن النحلة والإيتاء بمعنى الإعطاء فكأنه قيل : وانحلوا النساء صدقاتهن نحلة ، أى أعطوهن مهورهن عن طيبة أنفسكم ، أو على الحال من المخاطبين ، أى آتوهن صدقاتهن ناحلين طيبي النفوس بالإعطاء ، أو من الصدقات ، أى منحولة معطاة عن طيبة الأنفس. وقيل : نحلة من الله عطية من عنده وتفضلا منه عليهن ، وقيل : النحلة الملة ، ونحلة الإسلام خير النحل. وفلان ينتحل كذا : أى يدين به. والمعنى : آتوهن مهورهن ديانة ، على أنها مفعول لها. ويجوز أن يكون حالا من الصدقات ، أى دينا من الله شرعه وفرضه. والخطاب للأزواج. وقيل : للأولياء ، لأنهم كانوا يأخذون مهور بناتهم ، وكانوا يقولون : هنيئا لك النافجة ، لمن تولد له بنت ، يعنون : تأخذ مهرها فتنفج به مالك أى تعظمه. الضمير في : ﴿مِنْهُ﴾ جار مجرى اسم الإشارة كأنه قيل عن شيء من ذلك ، كما قال الله تعالى : ﴿قُلْ أَنَبِيُّكُمْ يَخْبِرُ مِنْ ذَلِكُمْ﴾ بعد ذكر الشهوات ، ومن الحجج المسموعة من أفواه العرب ما روى عن رؤية أنه قيل له في قوله:

كَأَنَّهُ فِي الْجِلْدِ تَوَلَّيْعُ الْبَهَقِ^(١)

فقال : أردت كأن ذاك. أو يرجع إلى ما هو في معنى الصدقات وهو الصداق ، لأنك لو قلت : وآتوا النساء صدقاتهن ، لم تخل بالمعنى ، فهو نحو قوله : ﴿فَأَصْدَقَ وَأَكْنُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ كأنه قيل : أصدق. و ﴿نَفْسًا﴾ تميز ، وتوحيدها لأن الغرض بيان الجنس والواحد يدل عليه. والمعنى : فإن وهبن لكم شيئا من الصداق وتحافت عنه نفوسهن طيبات غير مخبتات بما يضطرهن إلى الهبة من شكاسة أخلاقكم وسوء معاشرتكم ﴿فَكُلُوهُ﴾ فأنفقوه. قالوا : فإن وهبت له ثم طلبت منه بعد الهبة ، علم أنها لم تطب منه نفسا ، وعن الشعبي : أن رجلا أتى مع امرأته شريحا في عطية أعطتها إياه وهي تطلب أن ترجع ، فقال شريح : ردّ عليها. فقال الرجل : أليس قد قال الله تعالى : ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ﴾ قال لو طابت نفسها عنه لما رجعت فيه. وعنه : أقيلا فيما وهبت ولا أقيلا ، لأنهن يخدعن. وحكى أن رجلا من آل معيط أعطته امرأته ألف دينار صداقا كان لها عليه ، فلبث شهرا ثم طلقها ، فخاصمته إلى عبد الملك بن مروان ، فقال الرجل : أعطتني طيبة بما نفسها ، فقال عبد الملك : فأين الآية التي بعدها فلا تأخذوا منه شيئا؟ اردد عليها. وعن عمر رضى الله عنه أنه كتب إلى قضاته : إن النساء يعطين رغبة ورهبة. فأیما امرأة أعطت ثم أرادت أن ترجع فذلك لها»^(٢)

. لأن دخول الباء وإن لم يكن أصلا ، إلا أنها قد توطنت بهذا الموضوع وكثر حلولها فيه ، فصارت كأن الأصل دخولها في الخبر ، والله أعلم. والأمر في ذلك قريب

(١) مر شرح هذا الشاهد بصفحة ١٤٩ من هذا الجزء فراجع إن شئت اه مصححه

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة وعبد الرزاق من طريق محمد بن عبيد الله الثقفي قال كتب عمر نحوه.

وعن ابن عباس أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن هذه الآية فقال «إذا جادت لزوجها بالعطية طائعة غير مكرهة لا يقضى به عليكم سلطان ولا يؤخذكم الله به في الآخرة»^(١) وروى أن أناسا كانوا يتأثمون أن يرجع أحد منهم في شيء مما ساق إلى امرأته ، فقال الله تعالى إن طابت نفس واحدة من غير إكراه ولا خديعة فكلوه سائغا هنيئا. وفي الآية دليل على ضيق المسلك في ذلك ووجوب الاحتياط ، حيث بنى الشرط على طيب النفس فقيل : فإن طبن ، ولم يقل : فإن وهبن أو سمحن ، إعلاما بأن المراعى هو تحافى نفسها عن الموهوب طيبة. وقيل : إن طبن لكم عن شيء منه ، ولم يقل : فإن طبن لكم عنها ، بعثا لمن على تقليل الموهوب. وعن الليث بن سعد : لا يجوز تبرعها إلا باليسير. وعن الأوزاعي : لا يجوز تبرعها ما لم تلد أو تقم في بيت زوجها سنة. ويجوز أن يكون تذكير الضمير لينصرف إلى الصداق الواحد ، فيكون متناولا بعضه ، ولو أنث لتناول ظاهره هبة الصداق كله ، لأن بعض الصداقات واحدة منها فصاعدا. الهنيء ، والمريء : صفتان من هنؤ الطعام ومرؤ ، إذا كان سائغا لا تنغيص فيه. وقيل : الهنيء : ما يلذه الآكل. والمريء ما يحمد عاقبته. وقيل هو ما ينساغ في مجراه. وقيل لمدخل الطعام من الحلقوم إلى فم المعدة «المريء» لمروء الطعام فيه وهو انسياغه ، وهما وصف للمصدر ، أى أكلا هنيئا مريئا ، أو حال من الضمير ، أى كلوه وهو هنيء مريء ، وقد يوقف على فكلوه ويبتدأ مريئا على الدعاء ، وعلى أنهما صفتان أقيمتا مقام المصدرين ، كأنه قيل : هنا مرأ. وهذه عبارة عن التحليل والمبالغة في الإباحة وإزالة التبعة.

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (٥)

﴿السُّفَهَاءُ﴾ المبذرون أموالهم الذين ينفقونها فيما لا ينبغي ولا يدي لهم بإصلاحها وتتميرها والتصرف فيها. والخطاب للأولياء : وأضاف الأموال إليهم^(٢) لأنها من جنس ما يقيم به الناس معاشهم ، كما قال : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ، ﴿فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ الدليل على أنه خطاب للأولياء في أموال اليتامى قوله : ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾. ﴿جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ أى تقومون بها وتنتعشون ، ولو ضيعتموها لضعتم فكأنها في أنفسها قيامكم وانتعاشكم. وقرئ : قيما ، بمعنى قياما ، كما جاء عودا بمعنى عيادا. وقرأ عبد الله بن عمر : قواما ، بالواو. وقوام الشيء : ما يقام به ، كقولك هو ملاك الأمر لما يملك به. وكان السلف يقولون : المال سلاح المؤمن ، ولأن أترك ما لا يحاسبني

(١) أخرجه الثعلبي والواحدي في الأوسط من رواية جوير عن الضحاك عن ابن عباس.

(٢) قال محمود : «المراد أموال السفهاء وأضافها إلى الأولياء ... الخ» قال أحمد : ويؤيد هذا المعنى أنه لما أمر بأسعاف ذوى القربى على سبيل المواساة قال : وارزقوهم منه ، لأن المدفوع إليهم من صلب المال ، والله أعلم.

الله عليه ، خير من أن أحتاج إلى الناس. وعن سفيان . وكانت له بضاعة يقلبها . : لولاها لتمندل بي بنو العباس ^(١) . وعن غيره . وقيل له إنها تدنيك من الدنيا . : لئن أدتني من الدنيا لقد صانتني عنها. وكانوا يقولون : اتجروا واكتسبوا ، فإنكم في زمان إذا احتاج أحدكم كان أول ما يأكل دينه. وربما رأوا رجلا في جنازة فقالوا له : اذهب إلى دكانك ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ واجعلوها مكانا لرزقهم بأن تتجروا فيها وتربحوا ، حتى تكون نفقتهم من الأرباح لا من صلب المال فلا يأكلها الإنفاق. وقيل : هو أمر لكل أحد أن لا يخرج ماله إلى أحد من السفهاء ، قريب أو أجنبي ، رجل أو امرأة ، يعلم أنه يضعه فيما لا ينبغي ويفسده ﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ قال ابن جريج : عدّة جميلة ، إن صلحتم ورشدتم سلمنا إليكم أموالكم. وعن عطاء : إذا ربحت أعطيتك ، وإن غنمت في غزاتي جعلت لك حظا. وقيل : إن لم يكن ممن وجبت عليك نفقته فقل : عافانا الله وإياك ، بارك الله فيك. وكل ما سكنت إليه النفس وأحبته لحسنه عقلا أو شرعا من قول أو عمل ، فهو معروف. وما أنكرته ونفرت منه لقبحه ، فهو منكّر.

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (٦)

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى﴾ واختبروا عقولهم وذوقوا أحوالهم ^(٢) ومعرفتهم بالتصرف ، قبل البلوغ

(١) قوله «لتمندل بي بنو العباس» في الصحاح : المنديل معروف ، تقول منه : تسندلت بالمنديل ، وتمندلت. (ع)

(٢) قال محمود : «معناه اختبروا أحوالهم ... الخ» قال أحمد : الابتلاء على هذا الوجه مذهب مالك رضى الله عنه ، غير أنه لا يكون عنده إلا بعد البلوغ ولا يدفع إليه من ماله شيء قبله ، وكذلك أحد قولي الشافعي رضى الله عنه ، وقوله الآخر كمذهب أبي حنيفة ، غير أن عنه خلافا في صورته قبل البلوغ على وجهين : أحدهما أن يسلم إليه المال ويباشر العقود بنفسه كالبالغ ، والآخر أن يكون وظيفته أن يساوم ، وتقرير الثمن إذا بلغ الأمر إلى العقد باشره الولي دونه وسلم الصبي الثمن ، فأما الرشد فالمعتبر عند مالك رضى الله عنه فيه : هو أن يحرز ماله وينميّه ، وإن كان فاسقاً في حاله. وعند الشافعي : المعتبر صلاح الدين والمال جميعاً ، وغرضنا الآن أن نبين وجه تنزيل مذهب مالك في هذه الآية والله المستعان. فأما منعه من الإيتاء قبل البلوغ. وإن كان ظاهر الآية أن الإيتاء قبله. من حيث جعل البلوغ وإيناس الرشد غاية للإيتاء ، والغاية متأخرة عن المغيا ضرورة ، فيتعين وقوع الإيتاء قبل. ولهذه النكتة أثبت أبو حنيفة قبل البلوغ والله أعلم ، فعلى جعل المجموع من البلوغ وإيناس الرشد هو الغاية حينئذ يلزم وقوع الابتلاء قبلهما ، أعنى المجموع وإن وقع بعد أحدهما وهو البلوغ ، لأن المجموع من اثنين فصاعدا لا يتحقق إلا بوجود كل واحد من مفرديه. ويحقق هذا التنزيل أنك لو قلت : وابتلوا اليتامى بعد البلوغ ، حتى إذا اجتمع الأمران وتضاماً .

حتى إذا تبينتم منهم رشداً . أى هداية . دفعتم إليهم أموالهم من غير تأخير عن حدّ البلوغ . وبلوغ النكاح . أن يحتلم لأنه يصلح للنكاح عنده ، ولطلب ما هو مقصود به وهو التوالد والتناسل . والإيناس : الاستيضاح فاستعير للتبيين . واختلف في الابتلاء والرشد ، فالابتلاء عند أبي حنيفة وأصحابه : أن يدفع إليه ما يتصرف فيه حتى يستبين حاله فيما يجيء منه . والرشد : التهدي إلى وجوه التصرف . وعن ابن عباس : الصلاح في العقل والحفظ للمال . وعند مالك والشافعي : الابتلاء أن يتتبع أحواله وتصرفه في الأخذ والإعطاء ، ويتبصر مخايله وميله إلى الدين . والرشد : الصلاح في الدين ، لأن الفسق مفسدة للمال . فإن قلت : فإن لم يؤنس منه رشد إلى حدّ البلوغ؟ قلت : عند أبي حنيفة رحمه الله ينتظر إلى خمس وعشرين سنة ، لأن مدة بلوغ الذكر عنده بالسنة ثمان عشرة سنة ، فإذا زادت عليها سبع سنين وهي مدة معتبرة في تغير أحوال الإنسان لقوله عليه السلام «مروهم بالصلاة لسبع»^(١) دفع إليه ماله أونس منه الرشد أو لم يؤنس . وعند أصحابه : لا يدفع إليه أبداً إلا بإيناس الرشد . فإن قلت : ما معنى تنكير الرشد؟ قلت : معناه نوعاً من الرشد وهو الرشد في التصرف والتجارة ، أو طرفاً من الرشد ومخيلة من مخايله حتى لا ينتظر به تمام الرشد . فإن قلت : كيف نظم هذا الكلام؟^(٢) قلت : ما بعد

﴿حَتَّى﴾ إلى ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ﴾

. البلوغ والرشد فادفعوا إليهم أموالهم ، لاستقام الكلام ، ولكان البلوغ قبل الابتلاء وإن كان الابتلاء مغياً بالأمرين واقعاً قبل مجموعهما ، ونظير هذا النظر توجيه مذهب أبي حنيفة في قوله : إن فئة المولى إنما تعتبر في أجل الإيلاء لا بعده ، وتنزيله على قوله تعالى : ﴿لِّلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرِيصُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فجدد به عهداً يتضح لك تناسب النظرين ، والله أعلم . وأما اقتضاره رضى الله عنه بالرشد على المال ، فإن كان المولى عليه فاسق الحال فوجه استخراجه من الآية أنه علق إيناس الرشد فيها بالابتلاء بدفع مال إليهم ينظر تصرفهم فيه ، فلو كان المراد إصلاح الدين فقط لم يقف الاختبار في ذلك على دفع المال إليهم ، إذ الظاهر من المصلح لدينه أنه لا يتفاوت حاله في حالتي عدمه ويسره . ولو كان المراد إصلاح الدين والمال معاً . كما يقوله الشافعي رضى الله عنه . لم يكن إصلاح الدين موقوفاً على الاختبار بالمال كما مر آنفاً . وأيضاً فالرشد في الدين والمال جميعاً هو الغاية في الرشد ، وليس الجمع بينهما بقيد ، وتنكير الرشد في الآية يأتى ذلك ، إذ الظاهر : فإن آنستم منهم رشداً ما فبادروا بتسليم المال إليهم غير منتظرين بلوغ الغاية فيه ، والله أعلم .

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وابن خزيمة والحاكم من رواية عبد الملك بن الربيع بن سبوة الجهني عن أبيه عن جده مرفوعاً «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع» ورواه أبو داود والحاكم من طريق سوار بن داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وأعله العقيلي في الضعفاء بسوار . ورواه البزار من رواية محمد بن الحسن بن عطية عن محمد بن عبد الرحمن عنه وأعله العقيلي بمحمد ابن الحسن وقال : الأولى رواية من رواه عن محمد بن عبد الرحمن مرسلاً وذكره ابن حبان في الضعفاء عن عبد المنعم بن نعيم الرياحي عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة ورواه الدارقطني في الأوسط من حديث أنس وفيه داود بن المجير وهو متروك .

(٢) قال محمود رحمه الله : «فما وجه نظم الكلام الواقع بعد حتى إلى قوله فادفعوا إليهم أموالهم ... الخ» قال أحمد رحمه الله : هو يروم بهذا التقدير تنزيل مذهب أبي حنيفة في سبق الابتلاء على البلوغ على مقتضى الآية ، وقد أسلفنا وجه تنزيل مذهب مالك عليها بأظهر وجه وأقربه . والحاصل أن مقتضى النظر إلى المجموع من حيث هو ومقتضى مذهب أبي حنيفة النظر إلى المفردين ، والظاهر اعتبار المجموع فإن العطف بالفاء يقتضيه ، والله أعلم .

متأثّل^(١) مالا ولا واق مالك بماله» فقال : أفأضربه قال : «مما كنت ضارباً منه ولدك^(٢)» : وعن ابن عباس : أنّ وليّ اليتيم قال له : أفأشرب من لبن إبله؟ قال : إن كنت تبغى ضالتها ، وتلوط حوضها ، وتحنأ جرباها^(٣) وتسقيها يوم وردها ، فاشرب غير مضرّ بنسل ، ولا ناهك في الحلب^(٤) وعنه : يضرب بيده مع أيديهم ، فليأكل بالمعروف ، ولا يلبس عمامة فما فوقها. وعن إبراهيم : لا يلبس الكتان والحلل ، ولكن ما سدّ الجوعة ووارى العورة. وعن محمد بن كعب : يتقرّم تقرّم البهيمة^(٥) وينزل نفسه منزلة الأجير فيما لا بدّ منه. وعن الشعبي : يأكل من ماله بقدر ما يعين فيه. وعنه : كالميتة يتناول عند الضرورة ويقضى. وعن مجاهد : يستسلف ، فإذا أيسر أذى. وعن سعيد بن جبير : إن شاء شرب فضل اللبن وركب الظهر ولبس ما يستره من الثياب وأخذ القوت ولا يجاوزه فإن أيسر قضاه ، وإن أعسر فهو في حلّ. وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إنى أنزلت نفسي من مال الله منزلة والى اليتيم ، إن استغنيت استعففت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف ، وإذا

(١) قوله «غير متأثّل مالا» أى : متخذ مالا أصلاً ، كما في الصحاح. (ع)

(٢) أخرجه الثعلبي من طريق معاوية بن هشام. حدثنا الثوري عن ابن أبي نجيح عن الحسن العربي عن ابن عباس قال «جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن في حجري يتيماً» بلفظ المصنف سواء ورواه عبد الرزاق في المصنف وابن المبارك في البر والصلة والطبري عن سفيان بن عيينة عن ابن دينار عن الحسن العربي «أن رجلاً قال يا رسول الله» فذكره مراسلاً وهو عند ابن أبي شيبة في البيوع عن إسماعيل عن أيوب بن عمرو كذلك. وروى أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة وغيرهم من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : لا أجد شيئاً وليس لي مال. ولي يتيم له مال. قال : كل من مال يتيمك غير مسرف ولا متأثّل مالا ولا تق مالك بماله» وروى ابن حبان من رواية صالح بن رستم عن عمرو بن دينار عن جابر قال : قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم «مم أضرب يتيمى؟ قال : ما كنت ضارباً منه ولدك ، غير واق مالك بماله. ولا متأثّل من ماله مالا» وأخرجه ابن عدى في الكامل في ترجمة صالح بن رستم. وهو أبو عامر الخزان وضعفه عن ابن معين. وقال : لم أجد له حديثاً منكراً. ورواه أبو نعيم في الحلية في ترجمة عمرو بن دينار. وقال : تفرد به الخزان وهو من ثقات البصريين.

(٣) قوله «وتلوط حوضها وتحنأ جرباها» أى تصلحه بالطين بأن تلزقه به. أفاده الصحاح. وفيه : هنأت البعير أهنؤه إذا طلبته بالهناء وهو القطران اه. ونقل المناوى بهامشه عن الزجاج أنه بضم النون وأنه لم يحنأ مضموم العين في مهموز اللام إلا هنا يهنأ وقرأ يقرأ فليحرر. (ع)

(٤) أخرجه عبد الرزاق من رواية يحيى بن سعيد عن القاسم بن محمد. قال «جاء رجلى إلى ابن عباس» فذكره ، إلا أنه قال : بدل تبغى ضالتها «ترد نادتها» وأخرجه الطبري من طريقه والثعلبي والواحدي من وجه آخر عن القاسم. ورواه البغوي من طريق مالك عن يحيى بن سعيد عن القاسم وهو في الموطأ.

(٥) قوله : «يتقرّم تقرّم البهيمة» في الصحاح : قرم الصبي والبهيمة قرما وقروما وهو أكل ضعيف في أول ما يأكل. وتقرّم مثله. (ع)

أيسرت قضيت» ^(١) واستعف أبلغ من عفّ ، ^(٢) كأنه طالب زيادة العفة ﴿فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾ بأنهم تسلموها وقبضوها وبرئت عنها ذممكم ، وذلك أبعد من التخاصم والتجاحد وأدخل في الأمانة وبراءة الساحة. ألا ترى أنه إذا لم يشهد فادعى عليه صدق مع اليمين عند أبي حنيفة وأصحابه. وعند مالك والشافعي لا يصدق إلا بالبينة ، فكان في الإشهاد الاستحراز من توجه الحلف المفضى إلى التهمة أو من وجوب الضمان إذا لم يقم البينة ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أى كافيا في الشهادة عليكم بالدفع والقبض ، أو محاسبا. فعليكم بالتصادق ، وإياكم والتكاذب.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ (٧) وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾

﴿الْأَقْرَبُونَ﴾ هم المتوارثون من ذوى القربات دون غيرهم ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ بدل مما ترك بتكرير العامل. و ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ نصب على الاختصاص ، بمعنى : أعنى نصيبا مفروضا مقطوعا واجبا لا بدّ لهم من أن يحوزوه ولا يستأثر به. ويجوز أن ينتصب انتصاب المصدر المؤكد كقوله : ﴿فَرِيشَةً مِنْ اللَّهِ﴾ كأنه قيل : قسمة مفروضة. وروى أن أوس بن الصامت الأنصارى ^(٣) ترك امرأته أم كحة وثلاث بنات ، فزوى ابنا عمه سويد وعرفطة أو قتادة وعرفجة ميراثه عنهنّ ، وكان أهل الجاهلية لا يورثون النساء والأطفال ، ويقولون : لا يرث إلا من طاعن بالرماح وذاد عن الحوزة وحاز الغنيمة ، فجاءت أم كحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسجد الفضيف فشكت إليه ، فقال : «ارجعي حتى أنظر ما يحدث الله» فنزلت ، فبعث إليهما «لا تفرّقا من مال أوس شيئا فإنّ الله قد جعل لهنّ نصيبا ولم يبين حتى يبين» فنزلت ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ فأعطى أم كحة

(١) أخرجه ابن سعد وابن أبي شيبه والطبري من رواية إسرائيل وسفيان كلاهما عن أبي إسحاق عن حارثة بن مضرب قال : قال عمر ورواه سعيد بن منصور عن أبي الأحوص عن أبي إسحاق عن البراء قال : قال لي عمر. فذكره

(٢) قال محمود : «استعف أبلغ من عفّ ، وكأنه يطلب زيادة العفة من نفسه» قال أحمد : في هذا إشارة إلى أنه من استفعل بمعنى الطلب وليس كذلك ، فان استفعل الطلبية متعدية وهذه قاصرة. والظاهر أنه مما جاء فيه فعل واستفعل بمعنى ، والله أعلم.

(٣) قوله «روى أن أوس بن الصامت الأنصارى» في رواية ابن ثابت. وليحرر اه (ع)

الثلث ، والبنات الثلثين ، والباقي ابني العم ^(١) ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ أى قسمة التركة ﴿أُولُوا الْقَرْبَى﴾ ممن لا يرث ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ الضمير لما ترك الوالدان والأقربون ، وهو أمر على الندب قال الحسن : كان المؤمنون يفعلون ذلك ، إذا اجتمعت الورثة حضرم هؤلاء فرضخوا لهم بالشيء من رثة المتاع ^(٢) . فحضرهم الله على ذلك تأديبا من غير أن يكون فريضة. قالوا : ولو كان فريضة لضرب له حدّ ومقدار كما لغيره من الحقوق ، وروى أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر رضى الله عنه قسم ميراث أبيه وعائشة رضى الله عنها حية؟ فلم يدع في الدار أحداً إلا أعطاه ، وتلا هذه الآية. وقيل : هو على الوجوب. وقيل : هو منسوخ بآيات الميراث كالوصية. وعن سعيد بن جبير : أن ناسا يقولون نسخت ، وو الله ما نسخت ، ولكنها مما تهاونت به الناس. والقول المعروف أن يلطفوا لهم القول ويقولوا : خذوا بارك الله عليكم ، ويعتذروا إليهم ، ويستقلوا ما أعطوهم ولا يستكثروهم ، ولا يمنوا عليهم. وعن الحسن والنخعي : أدركنا الناس وهم يقسمون على القرابات والمساكين واليتامى من العين ، يعتيان الورق والذهب. فإذا قسم الورق والذهب وصارت القسمة إلى الأرضين والرقيق وما أشبه ذلك ، قالوا لهم قولاً معروفاً ، كانوا يقولون لهم : بورك فيكم.

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً﴾ (٩)

(١) هكذا أورده التعلي ثم البغوي بغير سند وقال الواحدي في الأسباب : قال المفسرون «إن أوس بن ثابت الأنصاري توفى وترك امرأة يقال لها أم كحة ، وله منها ثلاث بنات. فقام رجلان هما ابنا عم الميت ووصياه يقال لهما عافجة وسويد فأخذا ماله ولم يعطيا امرأته شيئاً ولا بناته. وكانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغير ، وإن كان ذكراً. وإنما يورثون الرجال الكبار. وكانوا يقولون : لا يعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل ، وحاز الغنيمة فجاءت أم كحة فذكره إلى آخره سواء. والظاهر أنه عنى بقوله «المفسرون» الكلبي ومقاتل وأشباههما وقد روى الطبري هذه القصة من طريق ابن جريج عن عكرمة على غير هذا السياق ولفظه «نزلت في أم كحة وثعلبة وأوس بن سويد وهم من الأنصار كان أحدهما زوجها والآخر عم ولدها. فقالت : يا رسول الله توفى زوجي وتركني وابنته فلم نورث. فقال عم ولدها : إن ولدها لا يركب فرساً ولا يحمل كلا ، ولا ينكأ عدواً. فنزلت ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ الآية وروى من طريق السدى قال : في قوله : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ . الآية كان أهل الجاهلية لا يورثون الجوازي ولا الضعفاء من العلمان ولا يورثون إلا من أطاق القتال فمات عبد الرحمن أبو حسان الشاعر. وترك امرأة يقال لها أم كحة وترك خمس أخوات. فجاءت الورثة فأخذوا ماله فشكت أم كحة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله ﴿إِنْ كُنْ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ ثم قال في أم كحة ﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ بِمَا تَرَكَهُنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُم وَلَدٌ﴾ . الآية

(٢) قوله «من رثة المتاع» في الصحاح : الرثة : السقط من متاع البيت من الخلقان ، والجمع رث ، مثل قرية وقرب. (ع)

«لو» مع ما في حيزه صلة للذين. والمراد بهم : الأوصياء ، أمروا بأن يخشوا الله ^(١) فيخافوا على من في حجورهم من اليتامى ويشفقوا عليهم ، خوفهم على ذريتهم لو تركوهم ضعافا وشفقتهم عليهم وأن يقدروا ذلك في أنفسهم ويصوّروه حتى لا يجسروا على خلاف الشفقة والرحمة. ويجوز أن يكون المعنى : وليخشوا على اليتامى من الضياع. وقيل : هم الذين يجلسون إلى المريض فيقولون : إن ذريتك لا يغنون عنك من الله شيئا ، فقدم مالك ، فيستغرقه بالوصايا ، فأمرؤا بأن يخشوا ربهم ، أو يخشوا على أولاد المريض ويشفقوا عليهم شفقتهم على أولاد أنفسهم لو كانوا. ويجوز أن يتصل بما قبله وأن يكون أمراً بالشفقة للورثة على الذين يحضرون القسمة من ضعفاء أقاربهم واليتامى والمساكين وأن يتصوّروا أنهم لو كانوا أولادهم بقوا خلفهم ضائعين محتاجين ، هل كانوا يخافون عليهم الحرمان والخيبة؟ فإن قلت : ما معنى وقوع ﴿لَوْ تَرَكُوا﴾ وجوابه صلة للذين؟ قلت : معناه : وليخش الذين صفتهم وحالهم أنهم لو شافوا أن يتركوا خلفهم ذرية ضعافا ، وذلك عند احتضارهم خافوا عليهم الضياع بعدهم لذهاب كافلهم وكاسبهم ، كما قال القائل :

لَقَدْ زَادَ الْحَيَاءَ إِلَى حُبِّ مَا بَنَاتِي إِهْمُنَّ مِنْ الضَّرِّ عَافٍ
أَحْـاذِرُ أَنْ يَرَيْنَ الْبُؤْسَ بَعْدِي وَأَنْ يَشْـرَبْنَ رَنْقاً بَعْدَ صَافِي ^(٢)

وقرئ : ضعفاء. وضعافى ، وضعافى. نحو : سكارى ، وسكارى. والقول السديد من الأوصياء : أن لا يؤذوا اليتامى ويكلموهم كما يكلمون أولادهم بالأدب الحسن والترحيب ، ويدعوهم بيا بنى ويا ولدى ، ومن الجالسين إلى المريض أن يقولوا له إذا أراد الوصية : لا تسرف في وصيتك فتجحف بأولادك ، مثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد : «إنك إن تترك ولدك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس» ^(٣) وكان الصحابة رضى الله عنهم يستحبون أن لا تبلغ الوصية الثلث وأن الخمس أفضل من الربع والربع أفضل من الثلث. ومن المتقاسمين ميراثهم أن

(١) قال محمود : «المراد الأوصياء أمروا بأن يخشوا الله ... الخ» قال أحمد : وإنما ألجأه إلى تقدير ﴿تَرَكُوا﴾ بقوله : شافوا أن يتركوا ؛ لأن جوابه قوله : ﴿خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ والخوف عليهم إنما يكون قبل تركهم إياهم وذلك في دار الدنيا ، فقد دل على أن المراد بالترك الاشراف عليه ضرورة ، وإلا لزم وقوع الجواب قبل الشرط وهو باطل ، ونظيره ﴿قَبْلَ أَنْ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أى شارفن بلوغ الأجل ، ولهذا المجاز في التعبير عن المشاركة على الترك بالترك سر بديع ، وهو التخويف بالحالة التي لا يبقى معها مطمع في الحياة ولا في الذب عن الذرية الضعاف ، وهي الحالة التي وإن كانت من الدنيا إلا أنها لقرىها من الآخرة ولصوقها بالمفارقة صارت من حيزها ومعبراً عنها بما يعبر به عن الحالة الكائنة بعد المفارقة من الترك ، والله أعلم.

(٢) تقدم شرح هذه الشواهد بصفحة ٤٠٤ من هذا الجزء فراجعه إن شئت اه مصححه.

(٣) متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص في قصة.

يلطفوا القول ويجملوه للحاضرين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (١٠)

﴿ظُلْمًا﴾ ظالمين ^(١) ، أو على وجه الظلم من أولياء السوء وقضاته ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾ ملء بطونهم يقال : أكل فلان في بطنه ، وفي بعض بطنه. قال :

كُلُوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمْوا تَعْفُوا ^(٢)

ومعنى يأكلون نارا : ما يجر إلى النار ، فكأنه نار في الحقيقة. وروى : أنه يبعث أكل مال اليتيم يوم القيامة والدخان يخرج من قبره ^(٣) ومن فيه وأنفه وأذنيه وعينيه ^(٤) فيعرف الناس أنه كان يأكل مال اليتيم في الدنيا. وقرئ ﴿وَسَيَصْلَوْنَ﴾ بضم الياء وتخفيف اللام وتشديدها ﴿سَعِيرًا﴾ نارا من النيران مبهمة الوصف.

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ

(١) قال محمود : «معناه ظالمين ، أو على وجه الظلم ... الخ» قال أحمد : ومثله ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أى شذقوا بها وقالوها بملء أفواههم. أو يكون المراد بذكر البطون تصوير الأكل للسامع ، حتى يتأكد عنده بشاعة هذا الجرم بمزيد تصوير ، ولأجل تأكيد التشنيع على الظالم لليتيم في ماله ، خص الأكل لأنه أبشع الأحوال التي يتناول مال اليتيم فيها ، والله أعلم.

(٢) كَلُوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمْ تعفوا

أى كلوا في بعض بطونكم. وأفرد البطن لأمن اللبس ، أى لا تملؤها ، فان أطعموني عفتهم عن الطعام. وعف يعف . بكسر عين المضارع . من باب ضرب يضرب. ثم قال : فان زمانكم ، أى أمرتكم بذلك لأن زمانكم مجذب. والخميص : الضامر البطن. فشبه الزمان المجذب بالرجل الجائع على طريق الكناية ، ووصفه بالخميص تخييل لذلك.

(٣) قوله من «قبره» يروى من دبره. ويؤيده ما في الخازن من حديث أبي سعيد الخدري ، أنهم يجعل في أفواههم صخر من نار يخرج من أسافلهم اه ، فحرره. (ع)

(٤) أخرجه الطبري من طريق السدى قال «يبعث الله أكل مال اليتيم ظلما يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه وأنفه» إلى آخره وفي صحيح ابن حبان من رواية زناد أبي المنذر عن نافع بن الحرث عن أبي برة رفعه يبعث الله يوم القيامة قوما من قبورهم تأجج أفواههم نارا فقليل من هم يا رسول الله؟ فقال : ألم تر أن الله يقول ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ الآية وفي إسناد زناد المذكور. كذبه ابن معين وشيخه نافع بن الحرث ضعيف أيضاً وقد أورده ابن عدى في الضعفاء في ترجمة زناد وأعل يه.

فَالْأُمُّهُ الثَّلَاثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ يعهد إليكم ويأمركم ﴿فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ في شأن ميراثهم بما هو العدل والمصلحة. وهذا إجمال تفصيله ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ مِثْلِ الْأُنثَيَيْنِ﴾ فإن قلت : هلا قيل : للأنثيين مثل حظ الذكر ^(١) أو للأنثى نصف حظ الذكر ؛ قلت : لبيدأ ببيان حظ الذكر لفضله ، كما ضعف حظه لذلك ، ولأنّ قوله : ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ مِثْلِ الْأُنثَيَيْنِ﴾ قصد إلى بيان فضل الذكر. وقولك : للأنثيين مثل حظ الذكر ، قصد إلى بيان نقص الأنثى. وما كان قصداً إلى بيان فضله ، كان أدلّ على فضله من القصد إلى بيان نقص غيره عنه ؛ ولأنهم كانوا يورثون الذكور دون الإناث ^(٢) وهو السبب لورود الآية ، فقليل : كفى الذكور أن ضعف لهم نصيب الإناث ، فلا يتمادى في حظهن حتى يحرم من إدلائهن من القرابة بمثل ما يدلون به. فإن قلت : فإن حظ الأنثيين الثلثان ، فكأنه قيل للذكر الثلثان. قلت : أريد حال الاجتماع لا الانفراد أى إذا اجتمع الذكر والأنثيان كان له سهمان ، كما أن لهما سهمين. وأما في حال الانفراد ، فالابن يأخذ المال كله والبنتان يأخذان الثلثين. والدليل على أن الغرض حكم الاجتماع ، أنه أتبعه حكم الانفراد ، وهو قوله : ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ والمعنى للذكر منهم ، أى من أولادكم ، فحذف الراجع إليه لأنه مفهوم ، كقولهم : السمن منوان بدرهم ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ والمعنى للذكر منهم ، أى من أولادكم ، فحذف الراجع إليه لأنه مفهوم ، كقولهم : السمن منوان بدرهم ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ ليس معهن رجل يعنى بنات ليس معهن ابن ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ يجوز أن يكون خبراً ثانياً لكان وأن يكون صفة لنساء أى نساء زائدات على اثنتين ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً﴾ وإن كانت البنت أو المولودة منفردة فذة ليس معها أخرى ﴿فَلَهَا النِّصْفُ﴾ وقرئ : واحدة بالرفع على كان التامة والقراءة بالنصب أوفق لقوله : ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً﴾ وقرأ زيد بن ثابت ﴿النِّصْفُ﴾

(١) قال محمود : «إن قلت هلا قيل للأنثيين مثل حظ الذكر ... الخ» قال أحمد : لأن الأفضلية حينئذ مدلول عليها بواسطة الاستلزام لا منطوق بها. وأما على نظم الآية ، فالأفضلية منطوق بما غير محتاجة إلى ذلك.

(٢) عاد كلامه. قال : «ولأنهم كانوا يورثون الذكور دون الإناث ... الخ» قال أحمد : وعلى مقتضى هذا لا يكون حكم الابن إذا انفرد مذكوراً في الآية ، لأنه حيث ذكره فإنما عنى حالة الاجتماع مع الإناث خاصة على تفسير الزمخشري. هذا ويمكن خلافه ، وهو أن المذكور أولاً ميراث الذكر على الإطلاق مجتمعاً مع الإناث منفرداً ، أما وجه تلقى حكمه حالة الاجتماع فقد قرره الزمخشري. وأما وجه تلقيه حالة الانفراد فمن حيث أن الله تعالى جعل له مثل حظ الأنثيين ، فإن كانت معه فذاك ، وإن كانت منفردة عنه فقد جعل لها في حال انفرادها النصف ، فاقترض ذلك أن للذكر عند انفراده مثلي نصيبها عند انفرادها ، وذلك الكامل. والله أعلم.

بالضم. والضمير في ﴿تَرَكَ﴾ للميت ؛ لأنّ الآية لما كانت في الميراث ، علم أن التارك هو الميت. فإن قلت : قوله : ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ كلام مسوق لبيان حظ الذكر من الأولاد ، لا لبيان حظ الأنثيين ، فكيف صح أن يردف قوله : ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً﴾ وهو لبيان حظ الإناث؟ قلت : وإن كان مسوقاً لبيان حظ الذكر ، إلا أنه لما فقه منه وتبين حظ الأنثيين مع أخيهما ؛ كان كأنه مسوق للأميرين جميعاً ، فلذلك صح أن يقال : ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً﴾ : فإن قلت. هل يصح أن يكون الضميران في «كن» و «كانت» مبهمين ، ويكون «نساء» و «واحدة» تفسيراً لهما ، على أن كان تامة؟ قلت : لا ابعد ذلك. فإن قلت : لم قيل ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً﴾^(١) ولم يقل : وإن كانت امرأة؟ قلت : لأنّ الغرض ثمة خلوصهن إناثاً لا ذكر فيهنّ ، ليميز بين ما ذكر من اجتماعهن مع الذكور في قوله : ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ وبين انفرادهن. وأريد هاهنا أن يميز بين كون البنت مع غيرها وبين كونها وحدها لا قرينة لها. فإن قلت : قد ذكر حكم البنتين في حال اجتماعهما مع الابن وحكم البنات والبنت في حال الانفراد ، ولم يذكر حكم البنتين في حال الانفراد فما حكمهما ، وما باله لم يذكر؟ قلت : أما حكمهما فمختلف فيه ، فابن عباس أبي تنزيلهما منزلة الجماعة^(٢) ، لقوله تعالى ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ فأعطاهما حكم الواحدة وهو ظاهر مكشوف. وأما سائر الصحابة فقد أعطوهما حكم الجماعة ، والذي يعلل به قولهم : أن قوله : ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ قد دلّ على أن حكم الأنثيين حكم الذكر ، وذلك أن الذكر كما يجوز الثلثين مع الواحدة ، فالأنثيان كذلك يجوزان الثلثين ، فلما ذكر ما دلّ على حكم الأنثيين قيل ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ على معنى : فإن كن جماعة بالغات ما بلغن من العدد فلهن ما للأنثيين وهو الثلثان لا يتجاوزنه لكثرتن

(١) عاد كلامه. قال محمود : فان قلت لم قيل ؛ فان كن نساء ، ولم يقل : وإن كانت امرأة ... الخ» قال أحمد: يريد أن حكم البنتين حال اجتماعهما مع الابن مذكور في قوله : ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ وأن حكم البنات منفردات مذكور في قوله : ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً﴾ وأن حكم البنت منفردة مذكور في قوله : ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ وبقي عليه أن ذكر الابن في حال الانفراد مستفاد من قوله : ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ إذا ضمته إلى قوله : ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ على التقرير الذي قدمته.

(٢) عاد كلامه. قال في الجواب «أما حكمهما فمختلف فيه ، فابن عباس أبي تنزيلهما منزلة الجماعة ... الخ» قال أحمد : وحز النظر أن ابن عباس أجرى التقييد بالصفة ، وهي قوله : ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ على ظاهره من مفهوم المخالفة ، غير أنه ما كان يقتضى اللفظ أن يقتصر لهما على النصف لأجل تعارض المفهومين ، إذ مفهوم ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ أن تكون الأنثى أقل من الثلثين ، ومفهوم ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ أن تكون الأنثيين أزيد من النصف ، فيكون نصيبهما متردداً فيما بين النصف والثلثين بقدر مجمل. وأما غيره فأظهر للتقييد فائدة جلية سوى المخالفة ، وتلك الفائدة رفع الفرق المتوهم بين الأنثيين وما فوقهما. ومتى ظهرت للتخصيص فائدة جلية سوى المخالفة وجب المصير إليها وسقط التعلق بالمفهوم ، وكأنه على القول المشهور لما علم أن الأنثيين يستوجبان الثلثين بالطرق المذكورة ، وكان الوهم قد يسبق إلى أن الزائد على الأنثيين يستوجب أكثر من فرض الأنثيين ، لأن ذلك مقتضى القياس. رفع هذا الوهم ، بإيجاب الثلثين لما فوق الأنثيين كوجوبه لهما ، والله أعلم.

ليعلم أن حكم الجماعة حكم الثنتين بغير تفاوت. وقيل : إن الثنتين أمس رحماً بالميت من الأختين فأوجبوا لهما ما أوجب الله للأختين ، ولم يروا أن يقصروا بهما عن حظ من هو أبعد رحماً منهما. وقيل : إن البنت لما وجب لها مع أخيها الثلث كانت أخرى أن يجب لها الثلث إذا كانت مع أخت مثلها ، ويكون لأختها معها مثل ما كان يجب لها أيضاً مع أخيها لو انفردت معه ، فوجب لهما الثلثان ﴿وَلَأَبَوَيْهِ﴾ الضمير للميت. و ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا﴾ بدل من ﴿لَأَبَوَيْهِ﴾^(١) بتكرير العامل. وفائدة هذا البديل أنه لو قيل : ولأبويه السدس ، لكان ظاهره اشتراكهما فيه. ولو قيل : ولأبويه السدسان ، لأوهم قسمة السدسين عليها على التسوية وعلى خلافها. فإن قلت : فهلا قيل : ولكل واحد من أبويه السدس : وأى فائدة في ذكر الأبوين أولاً ، ثم في الإبدال منهما؟ قلت : لأنّ في الإبدال والتفصيل بعد الإجمال تأكيداً وتشديداً ، كالذي تراه في الجمع بين المفسر والتفسير. والسدس : مبتدأ ، وخبره : لأبويه. والبديل متوسط بينهما للبيان. وقرأ الحسن ونعيم بن ميسرة ﴿السُّدُسُ﴾ بالتخفيف ، وكذلك الثلث والرابع والثلثون. والولد : يقع على الذكر والأنثى ، ويختلف حكم الأب في ذلك. فإن كان ذكراً اقتصر بالأب على السدس ، وإن كانت أنثى عصب مع إعطاء السدس. فإن قلت : قد بين حكم الأبوين في الإرث^(٢) مع الولد ؛ ثم حكمهما مع

(١) قال محمود «لكل واحد منهما بدل من لأبويه بتكرير العامل ... الخ» قال أحمد : وفي إعرابه بدلاً نظراً ، وذلك أنه يكون على هذا التقدير من بدل الشيء من الشيء ، وهما كعين واحدة ، ويكون أصل الكلام : والسدس لأبويه لكل واحد منهما ، ويقتضى الاقتصار على المبدل منه التشريك بينهما في السدس ، كما قال : ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ فافتضى اشتراكهن فيه ، فيقتضى البديل. لو قدر إهدار الأول. أفراد كل واحد منهما بالسدس وعدم التشريك ، وهذا يناقض حقيقة هذا النوع من البديل ، لأنه يلزم في هذا النوع أن يكون مؤدى المبدل والبديل واحداً. وإنما فائدته التأكيد بمجموع الاسمين لا غير بلا زيادة معنى ، فإذا تحقق ما بينهما من التباين تعذرت البدلية المذكورة ، وليس من بدل التقسيم أيضاً على هذا الاعراب ، وإلا لزم زيادة معنى في البديل. فالوجه . والله أعلم. أن يقدر مبتدأ محذوف كأنه قيل : ولأبويه الثلث ثم لما ذكر نصيبهما مجعلاً ، فصله بقوله : ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ﴾ وساغ حذف المبتدأ لدلالة التفصيل عليه ضرورة ، إذ يلزم من استحقاق كل واحد منهما للسدس استحقاقهما ، والله أعلم. ولا يستقيم على هذا الوجه أيضاً جعله من بدل التقسيم. ألا نراك لو قلت : الدار كلها لثلاثة : لزيد ، ولعمرو ، ولخالد : كان هذا بدلاً وتقسيماً صحيحاً ، لأنك لو حذف المبدل منه فقلت : الدار لزيد ولعمرو ولخالد ، ولم تزد في البديل زيادة ، استقام. فلو قلت : الدار لثلاثة : لزيد ثلثها ، ولعمرو ثلثها ، ولخالد ثلثها ، لم يستقم بدل تقسيم إذ لو حذف المبدل منه لصار الكلام : الدار لزيد ثلثها ، ولعمرو ثلثها ، ولخالد ثلثها. فهذا كلام مستأنف ، لأنك زدت فيه معنى تمييز ما لكل واحد منهم ، وذلك لا يعطيه المبدل ولا سبيل في بدل الشيء من الشيء إلى زيادة معنى. (٢) عاد كلامه. قال محمود : «فان قلت قد بين حكم الأبوين والإرث ... الخ» قال أحمد : ومذهب ابن عباس أن الأخوة يأخذون السدس الذي حجبوا الأم عنه مع وجود الأب ، فعلى هذا يكون فائدة قوله : ﴿وَوَرَثَهُ أَبَوَاهُ﴾ الاحتراز مما لو ورثه الأخوة مع الأبوين ، فان الأم لها حينئذ السدس ، وكأنه قيل : وورثه أبواه ولم يكن ثم إخوة فلأمه الثلث ، فان كان له إخوة فلأمه السدس. ولا يمكن جعله على مذهب ابن عباس مقيداً بعدم الزوجين ، لأن ثلث الأم عنده لا يتغير بوجود واحد منهما ، والله الموفق.

عدمه ، فهلا قيل : فإن لم يكن له ولد فلأمه الثلث. وأى فائدة في قوله : ﴿وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ﴾؟ قلت : معناه : فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فحسب ، فلأمه الثلث مما ترك ، كما قال : ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾ لأنه إذا ورثه أبواه مع أحد الزوجين ، كان للأم ثلث ما بقي بعد إخراج نصيب الزوج ، لا ثلث ما ترك ، إلا عند ابن عباس. والمعنى : أن الأبوين إذا خلصا تقاسما الميراث : للذكر مثل حظ الأنثيين. فإن قلت : ما العلة في أن كان لها ثلث ما بقي دون ثلث المال؟ قلت : فيه وجهان : أحدهما أنّ الزوج إنما استحق ما يسهم له بحق العقد لا بالقرابة ، فأشبهه الوصية في قسمة ما وراءه. والثاني : أن الأب أقوى في الإرث من الأم ، بدليل أنه يضعف عليها إذا خلصا ويكون صاحب فرض وعصبة ، وجامعا بين الأمرين ، فلو ضرب لها الثلث كملا لأدى إلى حط نصيبه عن نصيبها. ألا ترى أن امرأة لو تركت زوجها وأبوين فصار للزوج النصف وللأم الثلث والباقي للأب ، حازت الأم سهمين والأب سهما واحدا ، فينقلب الحكم إلى أن يكون للأنثى مثل حظ الذكركين ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ الإخوة يحبون الأم عن الثلث وإن كانوا لا يرثون مع الأب ، فيكون لها السدس وللأب خمسة الأسداس ، ويستوي في الحجب الاثنان فصاعدا إلا عند ابن عباس^(١). وعنه أنهم يأخذون السدس الذي حجبوا عنه الأم. فإن قلت : فكيف صحّ أن يتناول الإخوة الأخوين ، والجمع خلاف التثنية؟ قلت : الإخوة تفيد معنى الجمعية المطلقة بغير كمية ، والتثنية كالتثليث والتربيع في إفادة الكمية ، وهذا موضع الدلالة على الجمع المطلق ، فدل بالإخوة عليه. وقرئ : فلأُمّه ، بكسر الهمزة اتباعا للجرّة : ألا تراها لا تكسر في قوله ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾. ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ﴾ متعلق بما تقدمه من قسمة الموارث كلها ، لا بما يليه وحده ، كأنه قيل قسمة هذه الأنصبة من بعد وصية يوصى بها. وقرئ ﴿يُوصِي بِهَا﴾ بالتخفيف والتشديد. و ﴿يُوصِي بِهَا﴾ على البناء للمفعول مخففا : فإن قلت : ما معنى أو؟ قلت : معناها الإباحة : وأنه إن كان أحدهما أو كلاهما ، قدم على قسمة الميراث ، كقولك : جالس الحسن أو ابن سيرين. فإن قلت : لم قدّمت الوصية على الدين^(٢) والدين مقدم عليها في الشريعة؟ قلت : لما

(١) عاد كلامه. قال محمود : «يستوي في حجب الأم الاثنان فصاعدا إلا عند ابن عباس ... الخ» قال أحمد : ولقد أحسن في هذا التقرير ما لم يحسن كثير من حذاق الأصوليين ، ويريد متلقى في تغاير وصفى الجمع والتثنية ، إذ الجمع يتناول الاثنين ويتناول أزيد منهما. ولك هذا. وأما التثنية فقاصرة على الاثنين فبينهما على هذا العموم والخصوص ، فكل تثنية جمع ، وليس كل جمع تثنية.

(٢) قال محمود : «إن قلت : لم قدّمت الوصية على الدين ... الخ»؟ قال أحمد : الوصية على ضربين : لغير معين ، فلا يطالب بها إلا الامام إن عثر عليها. ولمعين ، فله المطالبة. ولكن يتباينان في القوة بين مطالبة رب الدين بدينه والموصى له بوصيته ، لأن رب الدين يطالب بحق مستقر في الذمة سبق له به الفضل على مديانه ، والموصى له إنما يطلب صدقة تفضل بها عليه الميت ، لا عن استحقاق سابق ، فاكتفى بما لرب الدين من القوة عن تقديمه في

كانت الوصية مشبهة للميراث في كونها مأخوذة من غير عوض ، كان إخراجها مما يشق على الورثة ويتعاضمهم ولا تطيب أنفسهم بها ، فكان أداؤها مظنة للتفريط ، بخلاف الدين فإنّ نفوسهم مطمئنة إلى أدائه ، فلذلك قدمت على الدين بعثا على وجوبها والمساورة إلى إخراجها مع الدين ، ولذلك جيء بكلمة «أو» للتسوية بينهما في الوجوب ، ثم أكد ذلك ورغب فيه بقوله ﴿**آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ**﴾ أى لا تدرون من أنفع لكم من آبائكم وأبنائكم الذين يموتون ، أمّن أوصى منهم أمّن لم يوص؟ يعنى أن من أوصى ببعض ماله فعرضكم لثواب الآخرة بإمضاء وصيته فهو أقرب لكم نفعا وأحضر جدوى ممن ترك الوصية ، فوفر عليكم عرض الدنيا وجعل ثواب الآخرة أقرب وأحضر من عرض الدنيا ، ذهابا إلى حقيقة الأمر ، لأن عرض الدنيا وإن كان عاجلا قريبا في الصورة ، إلا أنه فان ، فهو في الحقيقة الأبعد الأقصى. وثواب الآخرة وإن كان آجلا إلا أنه باق فهو في الحقيقة الأقرب الأدنى. وقيل : إن الابن إن كان أرفع درجة من أبيه في الجنة سأل أن يرفع أبوه إليه فيرفع. وكذلك الأب إن كان أرفع درجة من ابنه ، سأل أن يرفع إليه ابنه. فأنتم لا تدرون في الدنيا أيهم أقرب لكم نفعا. وقيل : قد فرض الله الفرائض على ما هو عنده حكمة. ولو وكل ذلك إليكم لم تعلموا أيهم لكم أنفع ، فوضعتم أنتم الأموال على غير حكمة. وقيل: الأب يجب عليه ^(١) النفقة على الابن إذا احتاج ، وكذلك الابن إذا كان محتاجا فهما في النفع بالنفقة لا يدرى أيهما أقرب نفعا. وليس شيء من هذه الأقاويل بملائم للمعنى ولا مجابو له ، لأن هذه الجملة اعتراضية. ومن حق الاعتراضى أن يؤكد ما اعترض بينه ويناسبه ، والقول ما تقدم ﴿**فَرِيضَةً**﴾ نصبت نصب المصدر المؤكد ، أى فرض ذلك فرضاً ﴿**إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا**﴾ بمصالح خلقه ﴿**حَكِيمًا**﴾ في كل ما فرض وقسم من الموارث وغيرها.

﴿**وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمُ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمُ**﴾

. الذكر ، وعضد ضعف الموصى له بتقدمه في الذكر عونا له على حصول رفع الوصية ، ويمكن في دفعه طريق آخر فأقول : لم يخالف ترتيب الآية الواقع شرعا فلا يرد السؤال ، وذلك أن أول ما يبدأ به إخراج الدين ، ثم الوصية ، ثم اقتسام ذوى الميراث. فانظر كيف جاء إخراج الميراث آخرًا ، تلو إخراج الوصية ، تلو الدين ، فوافق قولنا : قسمة الموارث بعد الوصية والدين ، صورة الواقع شرعا. ولو سقط ذكر بعد وكان الكلام : أخرجوا الميراث والوصية والدين ، لما أمكن ورود السؤال المذكور ، والله أعلم.

(١) قوله «عليه» : لعله «له» فتدبر اه مصححه

مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الشُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنَ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَلِيمٌ ﴿١٢﴾

﴿فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ منكم أو من غيركم. جعلت المرأة على النصف من الرجل بحق الزواج ، كما جعلت كذلك بحق النسب. والواحدة والجماعة سواء في الربع والثلث ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ﴾ يعنى الميت. و ﴿يُورَثُ﴾ من ورث ، أى يورث منه وهو صفة لرجل. و ﴿كَالَالَةً﴾ خير كان ، أى وإن كان رجل موروث منه كالالة ، أو يجعل يورث خير كان ، وكالالة حالا من الضمير في يورث. وقرئ يورث ويورث بالتخفيف والتشديد على البناء للفاعل ، وكالالة حال أو مفعول به. فإن قلت : ما الكالالة؟ قلت : ينطلق على ثلاثة على من لم يخلف ولداً ولا والداً ، وعلى من ليس بولد ولا والد من المخلفين ، وعلى القرابة من غير جهة الولد والوالد. ومنه قولهم : ما ورث المجد عن كالالة ، كما تقول : ما صمت عن عى ، وما كف عن جبن. والكالالة في الأصل : مصدر بمعنى الكلال ، وهو ذهاب القوّة من الإعياء. قال الأعشى :

فَأَلَيْتُ لَا أَرِثِي لَهَا مِنْ كَالَالَةٍ ^(١)

فاستعيرت للقرابة من غير جهة الولد والوالد ، لأنها بالإضافة إلى قرابتهما كالة ضعيفة ، وإذا جعل صفة للموروث أو الوارث فبمعنى ذى كالالة. كما تقول : فلان من قرابتي ، تريد من ذوى قرابتي. ويجوز أن تكون صفة كالهجاجة والفقاقة للأحمق ^(٢). فإن قلت : فإن جعلتها اسماً للقرابة في الآية فعلام تنصبها؟ قلت : على أنها مفعول له أى يورث لأجل الكالالة أو يورث غيره

(١) وأما إذا ما أدلجت فترى لها رقيباً من جدياً لا يغيرى ب وفرقدا

فأليت لا أرثى لها من كالالة ولا من وجى حتى تلاقى محمداً

للأعشى ، يصف ناقته وقد وفد على النبي صلى الله عليه وسلم ، فصدّه المشركون ومات باليمامة. وأدلت : سارت ليلاً. وجدياً ، وفرقدا : بدل مما قبلهما. وهذا كناية عن طول ليلها ، بل عن مللها من السير. فأليت. أى حلفت ، لا أرثى : لا أرق لها ، من أجل ملالة وسامة. والوجى : ضرر الخف ونحوه من السير. ويروى بدله «فما لك عندي مشتكى من كالالة ولا من حفا» والمشتكى : الشكوى. والحفا : الوجى. يقول : إذا سارت ناقتي ليلاً طال ليلها ، وحلفت لا أرق لها من أجل تعب ولا ضرر ، حتى ألقى بها محمداً صلى الله عليه وسلم. وأسند الفعل إليها ، دلالة على أنها تعرفه ، فهي السائرة إليه.

(٢) قوله «كالهجاجة والفقاقة للأحمق» في الصحاح : رجل هجاجة أى أحمق. وفيه رجل فقاقة أى أحمق هذر.

وفيه أيضاً : الهذر . بالتحريك . : الهذيان. والرجل هذر. بكسر الذال. (ع)

لأجلها ، فإن قلت : فإن جعلت يورث على البناء للمفعول من أورث ، فما وجهه؟ قلت : الرجل حينئذ هو الوارث لا الموروث. فإن قلت : فالضمير في قوله : ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا﴾ إلى من يرجع حينئذ؟ قلت : إلى الرجل وإلى أخيه أو أخته ، وعلى الأول إليهما. فإن قلت : إذا رجع الضمير إليهما أفاد استواءهما في حيازة السدس من غير مفاضلة الذكر والأنثى ، فهل تبقى هذه الفائدة قائمة في هذا الوجه؟ قلت : نعم ، لأنك إذا قلت السدس له أو لواحد من الأخ أو الأخت على التخيير فقد سويت بين الذكر والأنثى. وعن أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، أنه سئل عن الكلالة فقال : أقول فيه برأى ، فإن كان صواباً فمن الله ، وإن كان خطأ فمنى ومن الشيطان والله منه بريء. الكلالة : ما خلا الولد والوالد ^(١). وعن عطاء والضحاك : أنّ الكلالة هو الموروث. وعن سعيد ابن جبير : هو الوارث. وقد أجمعوا على أنّ المراد أولاد الأم. وتدل عليه قراءة أبيّ : وله أخ أو أخت من الأم. وقراءة سعد بن أبي وقاص : وله أخ أو أخت من أم. وقيل : إنما استدل على أن الكلالة هاهنا الإخوة للأم خاصة بما ذكر في آخر السورة من أنّ للأختين الثلثين وأنّ للإخوة كل المال ، فعلم هاهنا. لما جعل للواحد السدس ، وللاثنتين الثلث ، ولم يزدوا على الثلث شيئاً. أنه يعنى بهم الإخوة للأم ، وإلا فالكلالة عامة لمن عدا الولد والوالد من سائر الإخوة الأخياف والأعيان وأولاد العلات ^(٢) وغيرهم ﴿غَيْرَ مُضَارٍ﴾ حال ، أى يوصى بها وهو غير مضارّ لورثته وذلك أن يوصى بزيادة على الثلث ، أو يوصى بالثلث فما دونه ، ونيتة مضارّة ورثته ومغاضبتهم لا وجه الله تعالى. وعن قتادة : كره الله الضرار في الحياة وعند الممات ونهى عنه. وعن الحسن : المضارة في الدين أن يوصى بدين ليس عليه ومعناه الإقرار ﴿وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ﴾ مصدر مؤكد ، أى يوصيكم بذلك وصية ، كقوله : ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾ ويجوز أن تكون منصوبة بغير مضار ، أى لا يضار وصية من الله وهو الثلث فما دونه بزيادته على الثلث أو وصية من الله بالأولاد وأن لا يدعهم عالة بإسرافه في الوصية. وينصر هذا الوجه قراءة الحسن : ﴿غَيْرَ مُضَارٍ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ﴾ بالاضافة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمن جار أو عدل في وصيته ﴿حَلِيمٌ﴾ عن الجائر لا يعاجله. وهذا وعيد. فإن قلت : في : ﴿يُوصَى﴾ ضمير الرجل إذا جعلته الموروث ، فكيف تعمل إذا جعلته الوارث؟ قلت: كما عملت في قوله تعالى : ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ لأنه علم أن التارك والموصى هو الميت. فإن قلت: فأين ذو الحال فيمن قرأ ﴿يُوصَى بِهَا﴾ على ما لم يسم فاعله؟ قلت : يضمير يوصى فينتصب عن فاعله

(١) أخرجه ابن أبي شيبة والطبري وسعيد بن منصور. ومن رواية الشعبي قال : قال أبو بكر. وفي رواية سعيد والطبري كلام عمر أيضاً.

(٢) قوله «سائر الاخوة الأخياف والأعيان وأولاد العلات» في الصحاح : إخوة أخيف ، إذا كانت أمهم واحدة والآباء شتى. والأعيان : الاخوة بنو أب واحد وأم واحدة. وبنو العلات :

أولاد الرجل الواحد من أمهات شتى اه ملخصاً من مواضع. (ع)

لأنه لما قيل ﴿يُوصَىٰ بِهَا﴾ علم أن ثم موصيا ، كما قال : ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ على ما لم يسم فاعله ، فعلم أن ثم مسبحا ، فأضمر يسبح فكما كان رجال فاعل ما يدل عليه يسبح ، كان غير مضارّ حالا عما يدل عليه يوصى بها .

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (١٤)

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الأحكام التي ذكرت في باب اليتامى والوصايا والموارث . وسماها حدوداً ، لأن الشرائع كالحُدود المضروبة الموقته للمكلفين ، لا يجوز لهم أن يتجاوزوها ويتخطوها إلى ما ليس لهم بحق ﴿يُدْخِلْهُ﴾ قرئ بالياء والنون ، وكذلك ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا﴾ وقيل : يدخله ، وخالدين حملا على لفظ «من» ومعناه . وانتصب خالدين وخالداً على الحال . فان قلت : هل يجوز أن يكونا صفتين لجنات ونارا؟ قلت : لا ، لأخما جريا على غير من هما له ، فلا بد من الضمير وهو قولك : خالدين هم فيها ، وخالداً هو فيها .

﴿وَاللَّائِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥) وَالَّذَانِ يَأْتِيَاهُمَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (١٦)

﴿يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ﴾ يرهقنها ، يقال أتى الفاحشة وجاءها وغشيها ورهقها بمعنى . وفي قراءة ابن مسعود : يأتين بالفاحشة ، والفاحشة : الزنا لزيادتها في القبح على كثير من القبائح ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ قيل معناه : فخلدوهن محبوسات في بيوتكم ، وكان ذلك عقوبتهن في أول الإسلام ، ثم نسخ بقوله تعالى : ﴿الرَّائِيَةُ وَالرَّائِي ...﴾ الآية ويجوز أن تكون غير منسوخة بأن يترك ذكر الحد لكونه معلوما بالكتاب والسنة ، ويوصى بإمساكنهن في البيوت ، بعد أن يحددن صيانة لهن عن مثل ما جرى عليهن بسبب الخروج من البيوت والتعرض للرجال ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ هو النكاح الذي يستغنين به عن السفاح . وقيل : السبيل هو الحد ، لأنه لم يكن مشروعاً ذلك أوقت . فإن قلت : ما معنى يتوفاهن الموت . والتوفي والموت بمعنى واحد ، كأنه قيل : حتى يميتهن الموت ؟! قلت : يجوز أن يراد حتى يتوفاهن ملائكة الموت ، كقوله : ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ ، ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾ أو حتى يأخذهن الموت ويستوفى أرواحهن ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَاهَا مِنْكُم﴾ يريد الزاني والزانية ﴿فَأَذُوهُمَا﴾ فوبخوهما وذمّوهما وقولوا لهما : أما استحييتما ، أما خفتما الله ﴿فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا﴾ وغيرا الحال ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ واقطعوا التوبيخ والمذمة ، فإن التوبة تمنع استحقاق الذم والعقاب ، ويحتمل أن يكون خطاباً للشهود العاثرين على سرهما ، ويراد بالإيذاء ذمهما وتعنيفهما وتهديدهما بالرفع إلى الإمام والحد ، فإن تابا قبل الرفع إلى الإمام فأعرضوا عنهما ولا تتعرضوا لهما. وقيل : نزلت الأولى في السحاقات وهذه في اللواطين. وقرئ : والذنان بتشديد النون. والذنان : بالهمزة وتشديد النون.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٨)

﴿التَّوْبَةُ﴾ من تاب الله عليه إذا قبل توبته وغفر له ، يعنى إنما القبول والغفران واجب على الله تعالى ^(١) هؤلاء. ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ في موضع الحال أى يعملون السوء جاهلين سفهاء ، لأن ارتكاب القبيح مما يدعو إليه السفه والشهوة ، لا مما تدعو إليه الحكمة والعقل. وعن مجاهد : من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع عن جهالته ﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾ من زمان قريب. والزمان القريب :

(١) قال محمود : «يعنى إنما القبول والغفران واجب على الله ... الخ» قال أحمد : وقد تقدم في مواضع أن إطلاق مثل هذا من قول القائل : يجب على الله كذا. مما نعوذ بالله منه . تعالى عن الإلزام والإيجاب رب الأرباب . وقاعدة أهل السنة أن الله تعالى مهما تفضل فهو لا عن استحقاق سابق ، لأنهم يقولون : إن الأفعال التي يتوهم القدرية أن العبد يستحق بها على الله شيئا ، كلها خلق الله ، فهو الذي خلق لعبده الطاعة وأثابه عليها ، وخلق له التوبة وقبلها منه ، فهو المحسن أولا وآخرأ وباطناً وظاهراً ، لا كالقدرية الذين يزعمون أن العبد خلق لنفسه التوبة بقدرته وحوله ، ليستوجب على ربه المغفرة بمقتضى حكمته التي توجب عليه . على زعمهم . المجازاة على الأعمال إيجابا عقليا ، فلذلك يطلقون بلسان الجرأة هذا الإطلاق . وما أبشع ما أكد الرنخشري هذا المعتقد الفاسد بقوله : يجب على الله قبول التوبة ، كما يجب على العبد بعض الطاعات. فنظر المعبود بالمعبد ، وقاس الخالق على الخلق. وإنه لإطلاق يتقيد عنه لسان العاقل ويقشعر جلده استبشاعا لسماعه ، ويتعثر القلم عند تسطيره. على أن من لطف الله تعالى أن لم يجعل حاكى الكفر كافراً ، ولا حاكى البدعة لضرورة ردها والتحذير منها مبتدعا. وما بلغ الرنخشري في هذا الإطلاق إلا اغتناما لفرصة التمسك على صحته بصيغة «على» المشعرة بالوجوب ، فجعلها ذريعة لاستباحة هذا الإطلاق ، ولم يجعل الله له فيها مستروحا ، فانا نقول معاشر أهل السنة قد وعدنا الله قبول التوبة المستجمعة لشرائط الصحة ووقوع هذا الموعود واجب ضرورة صدق الخبر ، فمهما ورد من صيغ الوجوب فمنزل على وجوب صدق الوعد. ومعنى قولنا «صدق الخبر واجب» كمعنى قولنا «وجود الله واجب» لأن أحداً لا يستوجب على الله شيئا. ألهمنا الله الأدب في حق جلاله ، وعصمنا من زيغ القول وضلاله.

ما قبل حضرة الموت. ألا ترى إلى قوله : ﴿حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ فبين أنّ وقت الاحتضار هو الوقت الذي لا تقبل فيه التوبة فبقى ما وراء ذلك في حكم القريب. وعن ابن عباس : قبل أن ينزل به سلطان الموت. وعن الضحاك : كل توبة قبل الموت فهو قريب. وعن النخعي : ما لم يؤخذ بكظمه. وروى أبو أيوب عن النبي صلى الله عليه وسلم «إنّ الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»^(١) وعن عطاء : ولا قبل موته بفواق ناقة. وعن الحسن : أنّ إبليس قال حين أهبط إلى الأرض : وعزتك لا أفارق ابن آدم ما دام روحه في جسده. فقال تعالى : وعزتي لا أغلق عليه باب التوبة ما لم يغرغر^(٢) فإن قلت : ما معنى ﴿مِنْ﴾ في قوله : ﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾؟ قلت : معناه التبويض ، أى يتوبون بعض زمان قريب ، كأنه سمى ما بين وجود المعصية وبين حضرة الموت زمانا قريبا ، ففي أى جزء تاب من أجزاء هذا الزمان فهو تائب من قريب ، وإلا فهو تائب من بعيد. فإن قلت : ما فائدة قوله ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بعد قوله : إنما التوبة على الله لهم؟ قلت : قوله : ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ إعلام بوجودها عليه كما يجب على العبد بعض الطاعات. وقوله : ﴿فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ عدة بأنه يفي بما وجب عليه ، وإعلام بأن الغفران كائن لا محالة كما يعد العبد الوفاء بالواجب ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ﴾ عطف على الذين يعملون السيئات. سوى بين الذين سوفوا توبتهم إلى حضرة الموت ، وبين الذين ماتوا على الكفر في أنه لا توبة لهم ، لأنّ حضرة الموت أول أحوال الآخرة ، فكما أنّ المائت على الكفر قد فاتته التوبة على اليقين ، فكذلك المسوّف إلى حضرة الموت لمجاوزه كل واحد منهما أو ان التكليف والاختيار ﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ في الوعيد نظير قوله : ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ في الوعد ليتبين أن الأمرين كائنان لا محالة. فإن قلت : من المراد بالذين يعملون السيئات ، أهم الفساق من أهل القبلة أم الكفار؟ قلت : فيه وجهان : أحدهما أن يراد الكفار ، لظاهر قوله : ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾. وأن يراد الفساق ، لأن الكلام إنما وقع في الزانيين ، والإعراض عنهما إن تابا وأصلحا ، ويكون قوله : ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ وارداً على سبيل التعليل كقوله : ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾

(١) لم أجده من حديث أبي أيوب الأنصاري على ما يتبادر إلى الفهم من هذا الإطلاق وإنما أورده الطبري من طريق قتادة عن العلاء بن زياد عن أبي أيوب بشير بن كعب فذكره. وبشير تابعي معروف وهو بالموحدة والمعجمة مصغر ، ولقتادة فيه إسناد آخر أخرجه الطبري أيضاً بالإسناد المذكور إليه. قال عن قتادة عن عبادة بن الصامت ومن هذا الوجه أخرجه إسحاق بن راهويه وهو منقطع بين قتادة وعبادة. وفي الباب عن ابن عمر أخرجه الترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وأحمد وأبو يعلى والطبراني وفي إسناده عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان مختلف فيه ، وعن أبي هريرة أخرجه البزار وفيه يزيد بن عبد الملك النوفلي وهو ضعيف لكن له طريق أخرى أخرجه ابن مردويه عن صحابي معهم أخرجه أحمد والحاكم من رواية عبد الرحمن السلماني قال اجتمع أربعة من الصحابة فذكر الحديث فقال الرابع «وأنا سمعته أى النبي صلى الله عليه وسلم يقول لي : إن الله يقبل توبة العبد قبل أن يغرغر بنفسه».

(٢) أخرجه الثعلبي من رواية عمرو بن عبيد عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ... فذكره. قلت وله شاهد من حديث أبي سعيد الخدري وأخرجه أحمد وأبو يعلى والطبراني.

فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ وقوله «فليمت إن شاء يهوديا أو نصرانيا» ^(١) «من ترك الصلاة متعمدا فقد كفر ^(٢)» لأن من كان مصدقا ومات وهو لم يحدث نفسه بالتوبة ، حاله قريبة من حال الكافر ، لأنه لا يجترئ على ذلك إلا قلب مصمت.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيجعلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (١٩)

كانوا يبلون النساء بضروب من البلايا ويظلموهن بأنواع من الظلم ، فزجروا عن ذلك : كان الرجل إذا مات له قريب من أب أو أخ أو حميم ^(٣) عن امرأة ، ألقى ثوبه عليها وقال أنا أحق بها من كل أحد ^(٤) ، ف قيل **﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾** أى أن تأخذوهن على سبيل الإرث كما تحاز المواريث وهن كارهات لذلك : أو مكرهات. وقيل : كان يمسكها حتى تموت ، ف قيل : لا يحل لكم أن تمسكوهن حتى ترثوا منهن وهن غير راضيات بإمساكم. وكان الرجل إذا تزوج امرأة ولم تكن من حاجته حبسها مع سوء العشرة والقهر ، لتفتدى منه بما لها وتختلع ، ف قيل : ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتينموهن. والعضل : الحبس والتضييق. ومنه : عضلت المرأة بولدها ، إذا اختنقت رحمها به فخرج بعضه وبقي بعضه **﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾** وهي النشوز وشكاسة الخلق وإيذاء الزوج وأهله بالبذاء والسياسة ، أى إلا أن يكون سوء العشرة من جهتهن فقد عذرتم في طلب الخلع. وبدل عليه قراءة أبيّ : إلا أن يفحشن عليكم. وعن الحسن : الفاحشة الزنا ، فإن فعلت حلّ لزوجها أن يسألها الخلع. وقيل : كانوا إذا أصابت امرأة فاحشة أخذ منها ما ساق إليها وأخرجها. وعن أبي قلابة ومحمد بن سيرين : لا يحل الخلع حتى يوجد رجل على بطنها. وعن قتادة : لا يحل أن يجبسها ضراراً حتى تفتدى منه ، يعنى وإن زنت. وقيل : نسخ ذلك بالحدود ، وكانوا يسيئون معاشره النساء فقيل لهم **﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾** وهو النصفة في

(١) تقدم في الكلام على آية الحج في آل عمران.

(٢) تقدم في البقرة.

(٣) قوله «أخ حميم» في الصحاح «حميمك» قريبك الذي تهتم لأمره. (ع)

(٤) قال محمود : «كان الرجل إذا مات له قريب ألقى ثوبه على امرأته وقال أنا أحق بها من كل أحد ... الخ» قال أحمد : وخص تعالى ذكر من أتى القنطار من المال بالنهي ، تنبيهها بالأعلى على الأدنى ، لأنه إذا كان هذا على كثرة ما بذل لامرأته من الأموال منهيّاً عن استعادة شيء يسير حقير منها على هذا الوجه ، كان من لم يبذل إلا الحقير منهيّاً عن استعادته بطريق الأولى. ومعنى قوله : **﴿وَأَتَيْنَهُنَّ﴾** والله أعلم : وكنتم آتينهم ، إذ إرادة الاستبدال في ظاهر الأمر واقعة بعد إتياء المال واستقرار الزوجية.

المبيت والنفقة ، والإجمال في القول ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ فلا تفارقوهن لكرهة الأنفس وحدها فرمما كرهت النفس ما هو أصلح في الدين وأحمد وأدنى إلى الخير ، وأحبت ما هو بضد ذلك ، ولكن للنظر في أسباب الصلاح.

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنِ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (٢١)

وكان الرجل إذا طمحت عينه ^(١) إلى استطراف امرأة؟ بهت التي تحته ورمها ^(٢) بفاحشة حتى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها ليصرفه إلى تزوج غيرها. فقيل : ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ﴾ الآية. والقنطار : المال العظيم ، من قنطرت الشيء إذا رفعته. ومنه القنطرة ، لأنها بناء مشيد. قال :

كَقَنْطَرَةِ الرُّومِ مِيَّ أَقْسَمَ رَهْطُهَا لَتَكُنَّ نَقْنَقَ حَاسِيٍّ تُشَادَ بِقَرْمٍ (٣)

وعن عمر رضى الله عنه أنه قام خطيباً فقال : أيها الناس ، لا تغالوا بصدق النساء ^(٤) ، فلو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما أصدق امرأة من نسائه أكثر من اثني عشر أوقية ، فقامت إليه امرأة فقالت له : يا أمير المؤمنين ، لم تمنعنا حقاً جعله الله لنا والله يقول ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا﴾ فقال عمر : كل أحد أعلم من عمر ثم قال لأصحابه : تسمعوني أقول مثل هذا القول فلا تنكرونيه على حتى تردّ على امرأة ليست من أعلم النساء ^(٥). والبهتان : أن تستقبل الرجل بأمر قبيح تفدّفه به وهو بريء منه ، لأنه يبهت

(١) قوله «إذا طمحت عينه» أى ارتفعت إلى استحسان امرأة للتمتع بها بدل امرأته. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله «ورمها» أى بما ليس فيها كما يؤخذ مما يأتى. (ع)

(٣) لطرفة بن العبد من معلقته يشبه ناقته بقنطرة الرجل الرومي. أو النهر الرومي ، وهو أنسب بلام العهد ويذكر الاسم الظاهر بعده. وأقسم : جملة حالبة ، أى : حلف لا تحاط بالقومد ، أى الجبس ، حتى تشاد وترفع بالآجر ، أو ليحيط بها الفعلة حتى ترفع بالجبس. وتكتنن : مضارع مبني المجهول مؤكد بالنون.

(٤) قوله «لا تغالوا بصدق النساء» جمع صدق ، كسحب جمع سحب. (ع)

(٥) أخرجه أصحاب السنن وابن حبان والحاكم وأحمد والدارمي وابن أبي شيبة والطبراني كلهم من طريق محمد ابن سيرين عن أبي العجفاء قال خطبنا عمر فذكره دون ما في آخره. وأخرجه الحاكم من أوجه أخرى عن عمر كذلك. وذكر الدارقطني في العلل لهذا الحديث اختلافاً كثيراً ، ورواه عبد الرزاق من الوجه الأول وزاد فيه : فقامت امرأة فقالت له ليس ذلك لك يا عمر ، وإن الله يقول ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا﴾ الآية. فقال إن امرأة خاصمت عمر فخصمته ، وأخرجه أبو نعيم في الحلية في ترجمة شريح من طريق أشعث بن سوار عن الشعبي عن شريح قال قال عمر ... فذكره بلفظ السنن واستغريه من هذا الوجه. وأخرجه إسحاق من رواية عطاء الخراساني عن عمر ، وهو منقطع وزاد فيه «ثم إن عمر خطب أم كلثوم. أى بنت على وأصدقها أربعين ألفاً» وروى أبو يعلى من طريق ابن إسحاق. حدثني .

عند ذلك ، أى يتحير. وانتصب ﴿يُحَنَّنَا﴾ على الحال ، أى باهتين وآثمين ، أو على أنه مفعول له وإن لم يكن غرضاً ، كقولك : قعد عند القتال جبناً. والميثاق الغليظ : حق الصحبة والمضاجعة ، كأنه قيل : وأخذن به منكم ميثاقاً غليظاً ، أى بإفشاء بعضكم إلى بعض. ووصفه بالغلظ لقوّته وعظمه ، فقد قالوا : صحبة عشرين يوماً قرابة ، فكيف بما يجرى بين الزوجين من الاتحاد والامتزاج؟ وقيل : هو قول الولي عند العقد : أنكحتك على ما في كتاب الله من إمساك معروف أو تسريح بإحسان. وعن النبي صلى الله عليه وسلم : استوصوا ^(١) بالنساء خيراً فإنهن عوان في أيديكم ^(٢) أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٢٢)

وكانوا ينكحون رواهم ^(٣) ، وناس منهم بمقتونه ^(٤) من ذى مرواتهم ، ويسمونهم نكاح

. محمد بن عبد الرحمن عن مجالد عن الشعبي عن مسروق قال : ركب عمر المنبر ثم قال أيها الناس ما إكثاركم في صدق النساء ، وقد كانت الصدقات فيما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أصحابه أربعمائة درهم فما دون ذلك ، ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو مكرمة لم تسبقوهم إليها ثم نزل فاعترضته امرأة من قريش فقالت له : يا أمير المؤمنين نخت الناس أن يزيدوا النساء في صدقهن على أربعمئة. قال : نعم ، قالت : أما سمعت الله يقول ﴿وَأَتَيْتُمُ إِخْدَاهُنَّ قِطَارًا﴾ ... الآية فقال عمر : اللهم عفوا كل أحد أفقه من عمر ، ثم رجع فركب المنبر ، فقال : من شاء أن يعطي من ماله ما أحب.

(١) هذا مركب من حديثين. الأول أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث عمرو بن الأحوص. قال شهدت حجة الوداع. فذكر حديثاً. وفيه «واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان عندهن» وفي البخاري ومسلم من حديث أبي حازم عن أبي هريرة في أثناء حديث واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع. الحديث». والثاني أخرجه مسلم في حديث جابر الطويل في صفة الحج فقال فيه «واتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله» وروى أبو يعلى والبخاري والطبري من رواية موسى بن عبيدة الريدى أحد الضعفاء عن صدقة بن يسار عن ابن عمر رفعه «أيها الناس ، النساء عوان في أيديكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله. (فائدة) العوان : جمع عانية ، وهي الأسيرة.

(٢) قوله «فإنهن عوان في أيديكم» في الصحاح : العاني الأسير. وقوم عناة ، ونسوة عوان. (ع)

(٣) قوله «ينكحون رواهم» في الصحاح. الراب زوج الأم. والرابية : امرأة الأب. وربيب الرجل : ابن امرأته من غيره. ونكاح المقت : كان في الجاهلية أن يتزوج امرأة أبيه. اه في موضعين. (ع)

(٤) قال محمود فيه : «كانوا ينكحون رواهم وناس منهم بمقتونه ... الخ» قال أحمد : وعندي في هذا الاستثناء سر آخر وهو أن هذا المنهي عنه . لفظاعته وبشاعته عند أكثر الخلق حتى كان ممقوتا قبل ورود الشرع . جدير أن يمثل النهى فيه فيجتنب ، فكأنه قد امتثل النهى عنه حتى صار مخبراً عن عدم وقوعه ، وكأنه قيل : ما يقع نكاح الأبناء المنكوحات للآباء ولا يؤخذ منه شيء إلا ما قد سلف. وأما في المستقبل بعد النهى فلا يقع منه شيء البتة ، ومثل هذا النظر جار في مثل قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ فأجراه مرفوعاً على أنه خبر وإن كان المراد نهيهم عن عبادة غير الله ، ولكن لما كان هذا المنهي جديراً بالاجتناب وكأنه اجتنب ، عبر عن النهى فيه بصيغة الخبر ورفع الفعل . وقد مضى هذا التقدير بعينه ثم لم يجر مثله في هذه الآية والله أعلم.

المقت. وكان المولود عليه يقال له المقتى. ومن ثم قيل ﴿وَمَقْتًا﴾ كأنه قيل : هو فاحشة في دين الله بالغة في القبح ، قبيح ممقوت في المروءة ولا مزيد على ما يجمع القبحين. وقرئ : لا تحل لكم بالتاء ، على أن تراثوا بمعنى الورثة. وكرها . بالفتح ، والضم . من الكراهة والإكراه. وقرئ ﴿بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ﴾ من أبانت بمعنى تبينت أو بينت ، كما قرئ ﴿مُبِينَةٍ﴾ بكسر الياء وفتحها. و (يجعل الله) بالرفع ، على أنه في موضع الحال : (وأتيتهم إحداهن) بوصل همزة إحداهن ، كما قرئ (فلا اثم عليه). فإن قلت : تعضلوهم ، ما وجه إعرابه؟ قلت : النصب عطفًا على أن تراثوا. و (لا) لتأكيد النفي. أى لا يحل لكم أن تراثوا النساء ولا أن تعضلوهم. فإن قلت : أى فرق بين تعدية ذهب بالباء ، وبينها بالهمزة؟ قلت : إذا عدى بالباء فمعناه الأخذ والاستصحاب ، كقوله تعالى ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ وأما الإذهاب فكالإزالة. فإن قلت : ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ﴾ ما هذا الاستثناء؟ قلت : هو استثناء من أعم عام الظرف أو المفعول له ، كأنه قيل : ولا تعضلوهم في جميع الأوقات إلا وقت أن يأتين بفاحشة. أو : ولا تعضلوهم لعله من العلل إلا لأن يأتين بفاحشة. فإن قلت : من أى وجه صح قوله : ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا﴾ جزاء للشرط؟ قلت : من حيث أن المعنى : فإن كرهتموهن فاصبروا عليهن مع الكراهة ، فلعل لكم فيما تكرهونه خيرا كثيرا ليس فيما تحبونه فإن قلت كيف استثنى ما قد سلف مما نكح آبائكم؟ قلت : كما استثنى «غير أن سيوفهم» من قوله «ولا عيب فيهم» يعنى : إن أمكنكم أن تنكحوا ما قد سلف ، فانكحوه ، فلا يحل لكم غيره. وذلك غير ممكن. والغرض المبالغة في تحريمه وسدّ الطريق إلى إباحته ، كما يعلق بالمحال في التأييد نحو قولهم : حتى يبيض القار ، وحتى يلج الجمل في سم الخياط.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٢٣)

معنى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ تحريم نكاحهن ^(١) لقوله : ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنْ

(١) قال محمود : «معناه تحريم نكاحهن ... الخ» قال أحمد : وهذا تفريع على القول بعموم المشترك في معانيه فاستقام تعليق الجار المذكور بهما ، والله أعلم

النِّسَاءُ ﴿١﴾ ولأنَّ تحريم نكاحهن هو الذي يفهم من تحريمهن ، كما يفهم من تحريم الخمر تحريم شربها ، ومن تحريم لحم الخنزير تحريم أكله. وقرئ (وبنات الأخت) بتخفيف الهمزة. وقد نزل الله الرضاعة منزلة النسب ، حتى سُمي المرضعة أمًّا للرضيع ، والمرأعة أختًا ، وكذلك زوج المرضعة أبوه وأبواه جداه ، وأخته عمته ، وكل ولد ولد له من غير المرضعة قبل الرضاع وبعده فهم إخوته وأخواته لأبيه ، وأم المرضعة جدّته ، وأختها خالته ، وكل من ولد لها من هذا الزوج فهم إخوته وأخواته لأبيه وأمه ، ومن ولد لها من غيره فهم إخوته وأخواته لأمه. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»^(١) وقالوا : تحريم الرضاع كتحریم النسب إلا في مسألتين : إحداهما أنه لا يجوز للرجل أن يتزوج أخت ابنه من النسب ويجوز أن يتزوج أخت ابنه من الرضاع ، لأن المانع في النسب وطؤه أمها. وهذا المعنى غير موجود في الرضاع والثانية : لا يجوز أن يتزوج أم أخيه من النسب ، ويجوز في الرضاع ، لأن المانع في النسب وطء الأب إياها ، وهذا المعنى غير موجود في الرضاع ﴿مِنْ نِّسَائِكُمْ﴾ متعلق بربائبكم. ومعناه أن الربيبة من المرأة المدخول بها محرمة على الرجل حلال له إذا لم يدخل بها. فإن قلت : هل يصح أن يتعلق بقوله ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾؟ قلت : لا يخلو إمّا أن يتعلق بهن وبالربائب ، فتكون حرمتهم وحرمة الربائب غير مبهمتين جميعاً. وإما أن يتعلق بهن دون الربائب ، فتكون حرمتهم غير مبهمة وحرمة الربائب مبهمة ، فلا يجوز الأوّل ، لأن معنى «من» مع أحد المتعلقين ، خلاف معناه مع الآخر. ألا تراك أنك إذا قلت : وأمهات نساءكم من نساءكم اللاتي دخلتم بهنّ فقد جعلت «من» لبيان النساء ، وتمييز المدخول بهنّ من غير المدخول بهنّ. وإذا قلت وربائبكم من نساءكم اللاتي دخلتم بهنّ فإنك جاعل «من» لابتداء الغاية ، كما تقول : بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم من خديجة ، وليس بصحيح أن يعنى بالكلمة الواحدة في خطاب واحد معنيين مختلفان. ولا يجوز الثاني لأن ما يليه هو الذي يستوجب التعليق به ، ما لم يعترض أمر لا يرد ، إلا أن تقول : أعلقه بالنساء والربائب ، وأجعل «من» للاتصال ، كقوله تعالى : ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ فإنني لست منك ولست مني. ما أنا من دد ولا الدد مني : وأمّهات النساء متصلات بالنساء لأنهنّ أمهاتهنّ^(٢) كما أن الربائب متصلات بأمهاتهنّ لأنهنّ بناتهنّ. هذا وقد

(١) متفق عليه من حديث عائشة وابن عباس.

(٢) عاد كلامه. قال : «ولا يجوز الثاني لأن ما يليه هو الذي يستوجب التعليق به ما لم يعترض أمر لا يرد إلا أن تقول : أعلقه بالنساء والربائب ، وأجعل من للاتصال ، كقوله تعالى : ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ فاني لست منك ولست مني. ما أنا من دد ولا الدد مني. وأمّهات النساء متصلات بالنساء لأنهن ... الخ» قال أحمد : يعنى أن لهذا الاعراب وجهها في الصحة ، وتكون «من» على هذا مستعملة في معنى واحد من معانيها وهو .

اتفقوا على أن تحريم أمهات النساء مبهم دون تحريم الرئائب ، على ما عليه ظاهر كلام الله تعالى وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم في رجل تزوج امرأة ثم طلقها قبل أن يدخل بها أنه قال «لا بأس أن يتزوج ابنتها ، ولا يحل له أن يتزوج أمها»^(١) وعن عمر وعمران بن الحصين رضى الله عنهما : أن الأم تحرم بنفس العقد. وعن مسروق : هي مرسلة فأرسلوا ما أرسل الله. وعن ابن عباس : أبهموا ما أبهم الله ، إلا ما روى عن علي وابن عباس وزيد وابن عمر وابن الزبير : أنهم قرءوا : وأمّهات نسائكم اللائي دخلتم بهن. وكان ابن عباس يقول : والله ما نزل إلا هكذا. وعن جابر روايتان. وعن سعيد بن المسيب عن زيد : إذا ماتت عنده فأخذ ميراثها ، كره أن يخلف على أمّها. وإذا طلقها قبل أن يدخل بها فإن شاء فعل : أقام الموت مقام الدخول في ذلك ، كما قام مقامه في باب المهر. وسمى ولد المرأة من غير زوجها ربيبا وربيبا ، لأنه يربهما كما يرب ولده في غالب الأمر ، ثم اتسع فيه فسميا بذلك وإن لم يربهما. فإن قلت : ما فائدة قوله في حجوركم^(٢) ؟ قلت : فائدته التعليل للتحريم ، وأنهن لاحتضانكم لهن أو لكوئهن بصدد احتضانكم ، وفي حكم التقلب في حجوركم إذا دخلتم بأمهاتهن ، وتمكن بدخولكم حكم الزواج وثبتت الخلطة والألفة ، وجعل الله بينكم المودة والرحمة ، وكانت الحال خليقة بأن تجروا

. الاتصال ، فيستقيم تعلقها بهما. وقد نقل ذلك عن ابن عباس مذهباً. ونقل أيضا قراءة عن علي وابن عباس وزيد وابن عمر وابن الزبير : وأمّهات نسائكم اللائي دخلتم بهن. وكان ابن عباس يقول : والله ما نزل إلا هكذا انتهى نقل الزمخشري. والقول المشهور عن الجمهور إتهام تحريم المرأة ، ويقيد تحريم الربيبة بدخول الأم كما هو ظاهر الآية. ولهذا الفرق سر وحكمة ، وذلك لأن المتزوج بابتنة المرأة لا يخلو بعد العقد وقبل الدخول من محاورة بينه وبين أمها ومخاطبات ومساورات ، فكانت الحاجة داعية إلى تنجيز التحريم ليقطع شوقه من الأم فيعاملها معاملة ذوات المحارم ، ولا كذلك العاقد على الأم ، فانه بعيد عن مخاطبة ابنتها قبل الدخول بالأم ، فلم تدع الحاجة إلى تعجيل نشر الحرمة. وأما إذا وقع الدخول بالأم فقد وجدت مظنة خلطة الربيبة ، فحينئذ تدعو الحاجة إلى نشر الحرمة بينهما ، والله أعلم.

(١) أخرجه أبو قرة موسى بن طارق الزبيدي في السنن قال ذكر المثنى بن الصباح عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. رفعه «أما رجل نكح امرأة فدخل بها فلا يحل له نكاح ابنتها. وإن لم يكن دخل بها فلينكح ابنتها. وأما رجل نكح امرأة فدخل بها أو لم يدخل فلا يحل له نكاح أمها» وأخرجه أبو يعلى والبيهقي من طريق ابن مبارك عن المثنى به. والمثنى ضعيف لكن رواه الترمذي والبيهقي أيضا من طريق ابن لهيعة عن عمرو به وقال : لا يصح ، وإنما يرويه المثنى وابن لهيعة وهما ضعيفان. انتهى. ويشبه أن يكون ابن لهيعة أخذه عن المثنى لأن أبا حاتم قال لم يسمع ابن لهيعة من عمرو بن شعيب شيئا. فلهذا لم يرتق هذا الحديث إلى درجة الحسن.

(٢) عاد كلامه. قال : «فإن قلت ما فائدة قوله في حجوركم ... الخ» قال أحمد : وهذا مما قدمته من تخصيص أعلى صور المنهي عنه بالمنهي ، فإن النهي عن نكاح الربيبة المدخول بأمها عام في جميع الصور ، سواء كانت في حجر الزوج أو بابتنة عنه في البلاد القاصية ، ولكن نكاحه لها وهي في حجره أقبح الصور والطبع عنها أنفر ، فخصت بالنهي لتساعد الجيلة على الانقياد لأحكام الملة ، ثم يكون ذلك تدريبا وتدرجاً إلى استقباح الحرم في جمع صوره ، والله أعلم.

أولادهن مجرى أولادكم ، كأنكم في العقد على بناتهن عاقدون على بناتكم. وعن علي رضي الله عنه : أنه شرط ذلك في التحريم. وبه أخذ داود. فإن قلت : ما معنى ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾؟ قلت : هي كناية عن الجماع ، كقولهم : بنى عليها وضرب عليها الحجاب يعني أدخلتموهن الستر. والباء للتعدية واللمس. ونحوه ؛ يقوم مقام الدخول عند أبي حنيفة. وعن عمر رضي الله عنه أنه خلا بجارية فجردها ، فاستوهبها ابن له فقال : إنها لا تحل لك. وعن مسروق أنه أمر أن تباع جاريته بعد موته وقال : أما إنني لم أصب منها إلا ما يحرمها على ولدي من اللمس والنظر. وعن الحسن في الرجل يملك الأمة فيغمزها لشهوة أو يقبلها أو يكشفها : أنها لا تحل لولده بحال وعن عطاء وحامد بن أبي سليمان : إذا نظر إلى فرج امرأة فلا ينكح أمها ولا ابنتها. وعن الأوزاعي : إذا دخل بالأم فعزاها ولمسها بيده وأغلق الباب وأرخى الستر ، فلا يحل له نكاح ابنتها. وعن ابن عباس وطاوس وعمر بن دينار : أن التحريم لا يقع إلا بالجماع وحده ﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ دون من تبنيتم. وقد تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش الأسدية بنت عمته أمة بنت عبد المطلب حين فارقها زيد بن حارثة ^(١) ، وقال عز وجل ﴿لَكِنِّي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾. ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا﴾ في موضع الرفع عطف على المحرمات ، أى وحرم عليكم الجمع بين الأختين. والمراد حرمة النكاح ، لأن التحريم في الآية تحريم النكاح وأما الجمع بينهما في ملك اليمين ، فعن عثمان وعلى رضي الله عنهما أنهما قالوا : أحلتها آية وحرمتهما آية ^(٢) يعنىان هذه الآية وقوله : ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ فرجح على التحريم ، وعثمان التحليل ^(٣). ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ^(٤) ولكن ما مضى مغفور بدليل قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾

(١) متفق عليه من حديث أنس بغير هذا اللفظ.

(٢) أما حديث عثمان ففي الموطأ عن الزهري عن قبيصة بن ذؤيب «أن عثمان سئل عن الأختين مما ملكت اليمين فقال : لا أمرك ولا أنهاك ، أحلتها آية وحرمتهما أخرى» وأخرجه الشافعي عن مالك وابن أبي شيبة من طريق مالك والدارقطني من طريق معمر عن الزهري وهو أشبه بلفظ المصنف. وأما حديث علي فرواه البزار وابن أبي شيبة وأبو يعلى من رواية أبي صالح الحنفي قال قال علي للناس : سلوني فقال ابن الكواء حدثنا يا أمير المؤمنين عن الأختين المملوكتين. قال : أحلتها آية وحرمتهما أخرى وإنى لا أحله ولا أنهى عنه ولا أفعله أنا ولا أحد من أهل بيتي.

(٣) أما عثمان فلم أجد عنه التصريح بالتحليل وإنما توقف ، وأما علي ففي رواية الموطأ ثم خرج السائل فلقى رجلا من الصحابة قال الزهري أحسبه قال علي فسأله فقال له. ولكنى أنهاك ولو كان لي سبيل على فعله لجعلته نكالا.

(٤) قال أحمد : موقع هذا الاستثناء كموقع نظيره المقدم ذكره عند قوله : ولا تنكحوا ما نكح آبؤكم من النساء على الوجه الذي بينت ، وهو أن هذا النهى لكونه جديرا بأن يمثل أجرى مجرى الاخبار عن امتثاله ، حتى كأنه قيل : لا يقع شيء من هذه المحرمات إلا السالف منها لا غير. أو على الوجه الذي بينه الزمخشري فيما تقدم ، وهو أن يكون المراد إلا ما قد سلف فانه غير محرم فتعاطوه إن كان ممكنا ، من باب التعليق على المحال بتا للتحريم ، إلا أن الزمخشري لم يسلك هذا المسلك هاهنا لأن قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ يرشد إلى أن المراد إلا ما قد سلف فانه مغفور لاستثنائه في الآية الأولى لأنه عقبه ثم بقوله : ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ فقد رد في كل آية ما يناسب سياقها ، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٢٤)

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ القراءة بفتح الصاد. وعن طلحة بن مصرف أنه قرأ بكسر الصاد. وهنّ ذوات الأزواج ، لأنهنّ أحصنّ فروجهنّ بالتزويج ، فهنّ محصنات ومحصنات ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يريد : ما ملكت أيمانهم من اللاتي سبين وهنّ أزواج في دار الكفر فهنّ حلال لغزاة المسلمين وإن كنّ محصنات. وفي معناه قول الفرزدق :

وَدَاثُ خَلِيلٍ لَأَنْكَحَتْهُ رِمَاحُ خَلَالٍ لِمَنْ يَبْنِي بَهَا لَمْ تُطَلَّقِ (١)

﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ مصدر مؤكد ، أى كتب الله ذلك عليكم كتابا وفرضه فرضا ، وهو تحريم ما حرّم. فإن قلت : علام عطف قوله ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ﴾؟ قلت : على الفعل المضمر الذي نصب ﴿كِتَابَ اللَّهِ﴾ أى كتب الله عليكم تحريم ذلك ، وأحلّ لكم ما وراء ذلكم. ويدل عليه قراءة اليماني : كتب الله عليكم ، وأحلّ لكم. وروى عن اليماني : كتب الله عليكم ، على الجمع والرفع أى هذه فرائض الله عليكم. ومن قرأ : وأحلّ لكم ، على البناء للمفعول ، فقد عطفه على حرمت. ﴿أَنْ تَبْتَغُوا﴾ مفعول له بمعنى بين لكم ما يحلّ مما يحرم ، إرادة أن يكون ابتغاءكم ﴿بِأَمْوَالِكُمْ﴾ التي جعل الله لكم قياما في حال كونكم ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ لئلا تضيعوا أموالكم وتففقروا أنفسكم فيما لا يحلّ لكم فتخسروا دنياكم ودينكم ، ولا مفسدة أعظم مما يجمع بين الخسرانين. والإحصان : العفة وتحصين النفس من الوقوع في الحرام ، والأموال : المهور وما يخرج في المناكح. فإن قلت : أين مفعول تبتغوا؟ قلت : يجوز أن يكون مقدراً وهو النساء. والأجود أن لا يقدر ، وكأنه قيل : أن تخرجوا أموالكم. ويجوز أن يكون ﴿أَنْ تَبْتَغُوا﴾ بدلا من ﴿وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ والمسافح الزاني ، من السفح وهو صبّ المني. وكان الفاجر يقول للفاجرة : سافحيني وماذيني من المذي ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ فما استمتعتم به من المنكوحات من جماع أو خلوة صحيحة أو عقد

(١) للفرزدق ، أنشده في مجلس الحسن البصري حين سئل رضى الله عنه عن سبي المرأة والتسرى بها ولها حليل ، فقال : كنت أراك أشعر ، فإذا أنت أشعر وأفقه. أى : ورب صاحبة حليل تسببت الرماح في تزويجها ، فاسناد الانكاح إلى الرماح مجاز عقلي ، حلال : خير ذات حليل ، والبناء عليها : كناية عن الدخول بها ، لأن الزوج يبني لها بيتا عند الدخول عادة «لم تطلق» جملة حالية من ضمير بها.

عليهنَّ ﴿فَاتَّوَهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ عليه ، فأسقط الراجع إلى «ما» لأنه لا يلبس ، كقوله : ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ بإسقاط منه. ويجوز أن تكون «ما» في معنى النساء ، و «من» للتبعية أو البيان ، ويرجع الضمير إليه على اللفظ في به ، وعلى المعنى في : ﴿فَاتَّوَهُنَّ﴾ وأجورهن مهورهن لأن المهر ثواب على البضع ﴿فَرِيضَةً﴾ حال من الأجور بمعنى مفروضة أو وضعت موضع إيتاء لأن الإيتاء مفروض أو مصدر مؤكد ، أى فرض ذلك فريضة ﴿فِيمَا تَرَاصَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ فيما تحط عنه من المهر ، أو تحب له من كله أو يزيد لها على مقداره. وقيل فيما تراضياه به من مقام أو فراق وقيل : نزلت في المتعة التي كانت ثلاثة أيام ^(١) حين فتح الله مكة على رسوله عليه الصلاة والسلام ثم نسخت ، كان الرجل ينكح المرأة وقتاً معلوما ليلة أو ليلتين أو أسبوعاً بثوب أو غير ذلك ، ويقضى منها وطره ثم يسرحها. سميت متعة لاستمتاعه بها أو لتمتيعه لها بما يعطيها. وعن عمر : لا أوتى برجل تزوّج امرأة إلى أجل إلا رجعتها بالحجارة ^(٢). وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أباحها ، ثم أصبح يقول «يا أيها الناس إني كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء : ألا إن الله حرّم ذلك إلى يوم القيامة» ^(٣) وقيل : أبيع مرتين وحرّم مرتين. وعن ابن عباس هي محكمة ^(٤) يعنى لم تنسخ ، وكان يقرأ : فما استمتعتم به منهنّ إلى أجل مسمى. ويروى أنه رجع عن ذلك عند موته وقال : اللهم إني أتوب إليك من قولي بالمتعة ، وقولي في الصرف ^(٥)

(١) قوله «في المتعة التي كانت ثلاثة أيام» أى أبيحت هذه المدة ثم نسخت. (ع)

(٢) أخرجه مسلم وابن حبان من طريق جابر عنه في أثناء حديث.

(٣) أخرجه مسلم من رواية الربيع بن ميسرة عن أبيه (فائدة) «قوله ثم أصبح» لم يرد أنه قال ذلك صبيحة الليلة التي أباحه قبلها بيوم ، بل أراد أنه قال ذلك صباحاً.

(٤) لم أجده.

(٥) أما رجوعه عن المتعة فرواه الترمذي بسند ضعيف عنه. وأما قوله «اللهم إني أتوب إليك من قولي بالمتعة» فلم أجده. وأما قوله «أتوب إليك من قولي بالصرف» فروى عنه معنى ذلك من أوجه : منها ما رواه أبو يعلى من طريق عبد الرحمن بن أبي نعيم قال : جاء أبو سعيد إلى ابن عباس فذكر مناظرته إياه في الصرف وفيه فقال : فسمعت بعد ذلك يقول : اللهم إني أتوب إليك مما كنت أفتي به الناس في الصرف. وللنسائي في الكنى من وجه آخر عن ابن عباس رضى الله عنهما. أنه سمعه يقول «أستغفر الله وأتوب إليه من قولي في الصرف» ولا بن عدى من رواية داود بن على عن أبيه عن جده أنه ترك قوله في الصرف حين سمع أبا سعيد يروى النهى عنه. ولا بن ماجة من رواية أبي الجوزاء سمعت ابن عباس يأمر بالصرف ثم بلغني أنه رجع. ثم لقينته بمكة فقال نعم إنما كان رأياً منى. وللحاكم من طريقه نحوه. وللطبراني من رواية بكر بن عبد الله الزنى مطولاً. وفيه «وإني أستغفر الله وأتوب إليه» وللبخاري في التاريخ من رواية ابن سيرين قال أشهد على اثني عشر من أصحاب ابن مسعود أنهم شهدوا ابن عباس تاب من قوله في الصرف : منهم عبيدة السلماني. وقال عبد الرزاق أخبرنا الثوري عن أبي هشام الواسطي عن زياد قال : كنت مع ابن عباس بالطائف فرجع عن الصرف قبل أن يموت بسبعين يوماً.

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِأُذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٥)

الطول : الفضل ، يقال : لفلان على فلان طول أى زيادة وفضل. وقد طاله طولاً فهو طائل. قال :

لَقَدْ زَادَنِى حُبُّـا لِنَفْسِـى أَتَّـنِى بَغِـيْضٍ إِلَى كُلِّ امْرِئٍ غَـيْرِ طَائِلٍ ^(١)

ومنه قولهم : ما حلا منه بطائل ، أى بشيء يعتد به مما له فضل وخطر. ومنه الطول في الجسم لأنه زيادة فيه ، كما أن القصر قصور فيه ونقصان. والمعنى : ومن لم يستطع زيادة في المال وسعة ^(٢) يبلغ بها نكاح الحرّة فلينكح أمة. قال ابن عباس : من ملك ثلاثمائة درهم فقد وجب عليه الحج وحرّم عليه نكاح الإماء ^(٣) وهو الظاهر ، وعليه مذهب الشافعي رحمه الله. وأمّا أبو حنيفة رحمه الله فيقول : الغنى والفقير سواء في جواز نكاح الأمة ، ويفسر الآية بأن من لم يملك فراش الحرّة ، على أن

(١) لقد زادني حبا لنفسي أتتني بغيض إلى كل امرئ غير طائل

إذا رأني قطع الطرف بينه ويبيني فعلى العارف المتجاهل

للطرمح بن حكيم ، يقول : لقد زادني بغضي لغير المحسن حبي لنفسي ، لأنني إذا كرهته لبخله علمت أنني بضده ، وأن نفسي كريمة فأحببتها ، إذا رأني غض بصره عني ، فكأنه قطع امتداده بيني وبينه كما يفعل العارف بالشيء المتغافل عنه ، كراهة لرؤيتي ، أو استحياء مني.

(٢) قال محمود : «معناه ومن لم يستطع زيادة في المال وسعة ... الخ» قال أحمد : وعلى هذا يكون الطول عند أبي حنيفة : وجود الحرّة تحته ، وهو أحد القولين لمالك رضى الله عنه ، لكن يبعد هذا المعنى ، لأن الطول عند مالك في أحد قوليه : القدرة بالمال على نكاح الحرّة خاصة ، حتى لو كانت الحرّة تحته فأراد نكاح الأمة عجزاً عن حرّة أخرى جاز له ذلك. وفي القول الآخر : الطول أحد الأمرين ، إما القدرة بالمال على نكاح الحرّة ، وإما وجود الحرّة تحته حتى لا يجوز له نكاح أمة على حرّة إن كان عاجزاً عن حرّة أخرى. ومقتضى ما نقله المصنف عن أبي حنيفة : أنه لا يجوز لمن تحته حرّة نكاح أمة. وأنه يجوز لمن ليست تحته حرّة أن ينكح الأمة ولو كان غنياً ، وهو قول لا يساعده ظاهر الآية ، لأن الاستطاعة تثبت وإن لم يفعل المستطيع بمقتضاها. فالمستطيع لنكاح الحرّة : ذو الطول ، وإن لم يكن تحته الحرّة. وتفسير الاستطاعة على مذهب أبي حنيفة بعيد جداً.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة وعبد الرزاق من رواية النزال بن سيرة عنه بهذا.

النكاح هو الوطء ، فله أن ينكح أمة. وفي رواية عن ابن عباس أنه قال : ومما وسع الله على هذه الأمة نكاح الأمة واليهودية والنصرانية وإن كان موسراً. وكذلك قوله ﴿مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ الظاهر أن لا يجوز نكاح الأمة الكتابية ، وهو مذهب أهل الحجاز. وعند أهل العراق يجوز نكاحها ، ونكاح الأمة المؤمنة أفضل ، فحملوه على الفضل لا على الوجوب ، واستشهدوا على أن الإيمان ليس بشرط بوصف الحرائر به ، مع علمنا أنه ليس بشرط فيهن على الاتفاق ، ولكنه أفضل. فإن قلت : لم كان نكاح الأمة منحطاً عن نكاح الحرة؟ قلت : لما فيه من اتباع الولد الأم في الرق ، ولثبوت حق المولى فيها وفي استخدامها ، ولأنها ممتحنة مبتدلة خراجة ولاجة وذلك كله نقصان راجع إلى النكاح ومهانة ، والعزة من صفات المؤمنين. وقوله ﴿مِنْ فَتَيَاتِكُمُ﴾ أى من فتيات المسلمين ، لا من فتيات غيركم وهم المخالفون في الدين. فإن قلت : فما معنى قوله ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾؟ قلت : معناه أن الله أعلم بتفاضل ما بينكم وبين أرقائكم في الإيمان ورجحانه ونقصانه فيهم وفيكم ، وربما كان إيمان الأمة أرجح من إيمان الحرة ، والمرأة أفضل في الإيمان من الرجل وحق المؤمنين أن لا يعتبروا إلا فضل الإيمان لا فضل الأحساب والأنساب ، وهذا تأنيس بنكاح الإماء وترك الاستنكاف منه ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أى أنتم وأرقاؤكم متواصلون متناسبون لا شتراكم في الإيمان ، لا يفضل حر عبداً إلا برجحان فيه ﴿بِإِذْنِ أَهْلِيهِنَّ﴾ اشتراط لإذن المولى في نكاحهن ^(١). ويحتج به لقول أبي حنيفة أن لهن أن يباشرن العقد بأنفسهن ، لأنه اعتبر إذن المولى لا عقدهم ﴿وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وأدوا إليهن مهورهن بغير مطل وضرار وإحواج إلى الاقتضاء واللز. فإن قلت : المولى هم ملاك مهورهن لا هن ، والواجب أدائها إليهم لا إليهن ، فلم قيل : وأتوهن؟ قلت : لأنهن وما في أيديهن مال المولى ، فكان أدائها إليهن أداء إلى المولى. أو على أن أصله : فأتوا موابيهن ، فحذف المضاف ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ عفاف. والأخدان : الأخلاء في السر ، كأنه قيل : غير مجاهرات بالسفاح ولا مسرات له ﴿فَإِذَا أُحْصِنَ﴾ بالتزويج. وقرئ : أحصن ﴿نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾ أى الحرائر ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ من الحد كقوله : ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا﴾ و ﴿يَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ ولا رجم عليهن ، لأن الرجم لا يتنصف ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى نكاح الإماء ﴿لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ﴾ لمن خاف الإثم الذي يؤدي إليه غلبة الشهوة. وأصل العنت : انكسار العظم بعد الجبر ، فاستعير لكل مشقة وضرر ، ولا ضرر أعظم من موقعة المآثم. وقيل : أريد به الحد ، لأنه إذا هويها خشي أن يواقعها فيحد فيتزوجها

(١) قال محمود : «هذا اشتراط لاذن المولى في نكاحهن ... الخ» قال أحمد : وليس في الآية اشتراط إذن المولى لمن يتولى عقد نكاح أمته ، ومتولى العقد ومباشرته مسكوت عنه في الآية ، فيحمل على إذنه لو كيله في العقد على أمته ، ولا يلزم أن تكون الأمة هي المباشرة ، ولا دليل في الآية على ذلك ، والله أعلم.

﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا﴾ في محل الرفع على الابتداء ، أى وصبركم عن نكاح الإماء متعفين ﴿خَيْرَ لَكُمْ﴾ وعن النبي صلى الله عليه وسلم «الحرائر صلاح البيت ، والإماء هلاك البيت» (١)

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (٢٨)

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أصله يريد الله أن يبين لكم فزادت اللام مؤكدة لإرادة التبيين كما زيدت في : لا أبالك ، لتأكيد إضافة الأب. والمعنى : يريد الله أن يبين لكم ما هو خفى عنكم من مصالحكم وأفاضل أعمالكم ، وأن يهديكم مناهج من كان قبلكم من الأنبياء والصالحين والطرق التي سلكوها في دينهم لتقتدوا بهم ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ويرشدكم إلى طاعات إن قمتم بها كانت كفارات لسيئاتكم فيتوب عليكم ويكفر لكم ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أن تفعلوا ما تستوجبون به أن يتوب عليكم ﴿وَيُرِيدُ﴾ الفجرة ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ وهو الميل عن القصد والحق ، ولا ميل أعظم منه بمساعدتهم وموافقتهم على اتباع الشهوات. وقيل : هم اليهود. وقيل : المجوس : كانوا يحلون نكاح الأخوات من الأب وبنات الأخ وبنات الأخت ، فلما حرمهن الله قالوا : فإنكم تحلون بنت الخالة والعمة ، والخالة والعمة عليكم حرام ، فانكحوا بنات الأخ والأخت ، فنزلت. يقول تعالى : يريدون أن تكونوا زناة مثلهم ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ إحلال نكاح الأمة وغيره من الرخص ﴿وَوُخِّلَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ لا يصبر عن الشهوات وعلى مشاق الطاعات. وعن سعيد بن المسيب : ما أيسر الشيطان من بنى آدم قط إلا أتاها من قبل النساء ، فقد أتى على ثمانون سنة وذهبت إحدى عيني وأنا أعشو بالأخرى. وإن أخوف ما أخاف على فتنة النساء. وقرئ : أن يميلوا بالياء. والضمير للذين يتبعون الشهوات. وقرأ ابن عباس ﴿وَوُخِّلَ الْإِنْسَانُ﴾ على البناء للفاعل ونصب الإنسان وعنه رضى الله عنه : ثمان آيات في سورة النساء هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس

(١) أخرجه الثعلبي من رواية أحمد بن محمد بن عمر بن يونس اليمامي. حدثنا أحمد بن يوسف العجلي. حدثنا يونس بن مرداس خادم أنس. قال «كنت مع أنس وأبي هريرة فقال أنس : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من أحب أن يلقي الله طاهرا مطهرا فليتزوج الحرائر. وقال أبو هريرة سمعته يقول : الحرائر صلاح البيت والإماء فساد البيت. أو قال هلاك البيت» قلت : في إسناده أحمد بن محمد وهو متروك وكذبه أبو حاتم ويونس لا أعرفه.

وغربت : (١) ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ﴾ ، ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ و ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ ، ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ .
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (٣٠)

﴿بِالْبَاطِلِ﴾ بما لم تبحه الشريعة من نحو السرقة والخيانة والغصب والقمار وعقود الربا ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً﴾ إلا أن تقع تجارة. وقرئ تجارة على : إلا أن تكون التجارة تجارة ﴿عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ والاستثناء منقطع. معناه : ولكن اقصدوا كون تجارة عن تراض منكم. أو ولكن كون تجارة عن تراض غير منهي عنه. وقوله : ﴿عَنْ تَرَاضٍ﴾ صفة لتجارة ، أى تجارة صادرة عن تراض. وخص التجارة بالذكر ، لأن أسباب الرزق أكثرها متعلق بها. والتراضي رضا المتبايعين بما تعاقدا عليه في حال البيع وقت الإيجاب والقبول ، وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله تعالى. وعند الشافعي رحمه الله تفريقهما عن مجلس العقد متراضين ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ من كان من جنسكم من المؤمنين. وعن الحسن : لا تقتلوا إخوانكم ، أو لا يقتل الرجل نفسه كما يفعله بعض الجهلة. وعن عمرو بن العاصي : أنه تأوله في التيمم لخوف البرد فلم ينكر عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم (٢). وقرأ على رضى الله عنه ﴿وَلَا تَقْتُلُوا﴾

(١) أخرجه البيهقي في الشعب في الباب السابع والأربعين من رواية صالح المزري عن قتادة ، قال ابن عباس «ثمان آيات في سورة النساء هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس : أولهن ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ﴾ فذكره وهو عند الطبري من هذا الوجه. وصالح ضعيف وقاتدة عن ابن عباس منقطع.

(٢) أخرجه أبو داود من رواية عبد الرحمن بن جبير عن ابن العاص قال «احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فأشفقت أن أغتسل فأهلك فتيممت ثم صليت بأصحابي الصبح فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب ، فأخبرته بالذي معني من الاغتسال ، وقلت : إني سمعت الله يقول ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئا» وعلقه البخاري فقال : يذكر عن عمرو بن العاص ، وهذا الحديث اختلف فيه على يزيد بن أبي حبيب عن عمران بن أنس عن عبد الرحمن فرواه عنه يحيى بن أيوب هكذا وخالف عمرو بن الحارث سندا ومتنا : أما السند فزاد بين عبد الرحمن وعمرو وأبا قيس مولى عمرو ، وأما المتن فقال بدل التيمم : فتوضأ وغسل مغابنه» ووافق يحيى بن أيوب عليه ابن لهيعة عند إسحاق بن راهويه وأخرجه أحمد بالسند الأول ، وأخرجه ابن حبان بالسند الثاني ، وأخرجه بالسندين الحاكم والدارقطني.

بالتشديد ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ما نحاكم عما يضركم إلا لرحمته عليكم. وقيل : معناه أنه أمر بنى إسرائيل بقتلهم أنفسهم ليكون توبة لهم وتمحيصاً لخطاياهم ، وكان بكم يا أمة محمد رحيماً حيث لم يكلفكم تلك التكاليف الصعبة ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى القتل ، أى ومن يقدم على قتل الأنفس ﴿عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾ لا خطأ ولا اقتصاصاً. وقرئ ﴿عُدْوَانًا﴾ بالكسر. و ﴿نُصْلِيهِ﴾ بتخفيف اللام وتشديدها. و ﴿نُصْلِيهِ﴾ بفتح النون من صلاه يصليه. ومنه شاة مصلية ، ويصليه بالياء والضمير لله تعالى ، أو لذلك ، لكونه سبباً للصلى ﴿نَارًا﴾ أى ناراً مخصوصة شديدة العذاب ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ لأنَّ الحكمة تدعو إليه ، ولا صارف عنه من ظلم أو نحوه

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ (٣١)

﴿كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ وقرئ : كبير ما تنهون عنه ، أى ما كبر من المعاصي التي ينهاكم الله عنها والرسول ﴿نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ غط ما تستحقونه من العقاب في كل وقت على صغائركم ، وتجعلها كأن لم تكن ، لزيادة الثواب المستحق على اجتنابكم الكبائر وصبركم عنها ، على عقاب السيئات. والكبيرة والصغيرة إنما وصفنا بالكبر والصغر بإضافتهما إما إلى طاعة أو معصية أو ثواب فاعلهما ^(١). والتكفير : إمطة المستحق من العقاب بثواب أزيد ، أو بتوبة. والإحباط : نقيضه ، وهو إمطة الثواب المستحق بعقاب أزيد أو بدم على الطاعة. وعن على رضى الله عنه : الكبائر سبع : الشرك ، والقتل ، والقذف ، والزنا ، وأكل مال اليتيم ، والفرار من الزحف ، والتعرب بعد الهجرة ^(٢). وزاد ابن عمر : السحر ، واستحلال البيت الحرام. وعن ابن عباس : أن رجلاً قال له : الكبائر سبع؟ فقال : هي إلى سبعمائة أقرب ، لأنه لا صغيرة مع الإصرار ، ولا كبيرة مع الاستغفار ^(٣). وروى إلى سبعين. وقرئ : يكفر ، بالياء. و ﴿مُدْخَلًا﴾ بضم الميم وفتحها ، بمعنى المكان والمصدر فيهما.

(١) قوله «أو ثواب فاعلهما» أى جزائه. ويمكن أن أصل العبارة «ثواب تاركهما» فحرفها الناسخ فلتحرر. (ع)

(٢) أخرجه الطبري من طريق محمد بن إسحاق عن محمد بن سهل بن خيثمة عن أبيه ، قال «إني لفي هذا المسجد مسجد الكوفة وعلى يخطب» فذكره. وقوله : «وزاد ابن عمر استحلال البيت الحرام ، أخرجه أبو داود من طريقه مرفوعاً ، وأخرجه الثعلبي موقوفاً.

(٣) قال عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال قيل لابن عباس : الكبائر سبع. قال : هي إلى السبعين أقرب. وروى الطبري من رواية قيس ابن سعد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس «أن رجلاً سأله عن الكبائر أسبع؟ قال : هي إلى سبعمائة أقرب لأنه لا صغيرة» إلى آخره.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (٣٢)

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا﴾ نَحواً عن التَّحاسد وعن تَمَنَّى ما فَضَّلَ اللهُ به بعض الناس على بعض من الجاه والمال ، لأن ذلك التفضيل قسمة من الله صادرة عن حكمة وتدبير وعلم بأحوال العباد ، وبما يصلح المقسوم له من بسط في الرزق أو قبض ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ فعلى كل أحد أن يرضى بما قسم له علماً بأن ما قسم له هو مصلحته ، ولو كان خلافه لكان مفسدة له ، ولا يحسد أخاه على حظه ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا﴾ جعل ما قسم لكل من الرجال والنساء على حسب ما عرف الله من حاله الموجبة للبسط أو القبض كسباً له ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ولا تتمنوا أنصباء غيركم من الفضل ، ولكن سلوا الله من خزائنه التي لا تنفذ. وقيل : كان الرجال قالوا : إن الله فضلنا على النساء في الدنيا : لنا سهمان ولهن سهم واحد ، فنرجو أن يكون لنا أجران في الآخرة على الأعمال ولهن أجر واحد ، فقالت أم سلمة ونسوة معها : ليت الله كتب علينا الجهاد كما كتبه على الرجال ، فيكون لنا من الأجر مثل ما لهم. فنزلت.

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيًّ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَاتَّوَهُمْ نَصِيبُهُمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ (٣٣)

﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ تبين لكل ، أى : ولكل شيء مما ترك ﴿الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ من المال جعلنا موالى وراثا يلونه ويحزونه : أو ولكل قوم جعلناهم موالى ، نصيب مما ترك الوالدان والأقربون على أن ﴿جَعَلْنَا مَوَالِيًّ﴾ صفة لكل ، والضمير الراجع إلى كل محذوف ، والكلام مبتدأ وخبر ، كما تقول : لكل من خلقه الله إنساناً من رزق الله ، أى حظ من رزق الله ، أو : ولكل أحد جعلنا موالى مما ترك ، أى وراثا مما ترك ، على أن «من» صلة موالى ، لأنهم في معنى الوراث ، وفي : ﴿تَرَكَ﴾ ضمير كل ، ثم فسر الموالى بقوله : ﴿الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ كأنه قيل : من هم؟ فقيل : الوالدان والأقربون ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ مبتدأ ضمن معنى الشرط. فوقع خبره مع الفاء وهو قوله ﴿فَاتَّوَهُمْ نَصِيبُهُمْ﴾ ويجوز أن يكون منصوباً على قولك : زيدا فاضربه. ويجوز أن يعطف على الوالدان ، ويكون المضمرة في : ﴿فَاتَّوَهُمْ﴾ للموالى ، والمراد بالذين عاقدت أيمانكم : موالى الموالاة

كان الرجل يعاقد الرجل فيقول : دمي دمك ، وهدمي هدمك ^(١) ، وتأري تأرك ، وحرى حريك ، وسلمى سلمك ، وترثني وأرثك ، وتطلب بي وأطلب بك ، وتعقل عني وأعقل عنك ، فيكون للحليف السدس من ميراث الحليف ، فنسخ. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه خطب يوم الفتح فقال «ما كان من حلف في الجاهلية فتمسكوا به ، فإنه لم يزه الإسلام إلا شدة ، ولا تحدثوا حلفاً في الإسلام ^(٢)» وعند أبي حنيفة : لو أسلم رجل على يد رجل وتعاقدا على أن يتعاقلا ويتوارثا صح عنده وورث بحق المولاة خلافاً للشافعي. وقيل : المعاقدة التبني. ومعنى عاقدت أيمانكم : عاقدتهم أيديكم وماسحتموهم. وقرئ ﴿عَقَدْتُ﴾ بالتشديد والتخفيف بمعنى عقدت عهودهم أيمانكم.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْزُبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ (٣٤)

﴿قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ يقومون عليهن آمرين ناهين ، كما يقوم الولاة على الرعايا. وسموا قوماً لذلك. والضمير في ﴿بَعْضَهُمْ﴾ للرجال والنساء جميعاً ، يعنى إنما كانوا مسيطرين عليهن بسبب تفضيل الله بعضهم وهم الرجال ، على بعض وهم النساء. وفيه دليل على أن الولاية إنما تستحق بالفضل ، لا بالتغلب والاستطالة والقهر. وقد ذكروا في فضل الرجال : العقل ، والحزم ، والعزم ، والقوة ، والكتابة . في الغالب ، والفروسية ، والرمي ، وأن منهم الأنبياء والعلماء ، وفيهم الإمامة الكبرى والصغرى ، والجهاد ، والأذان ، والخطبة ، والاعتكاف ، وتكبيرات التشريق عند أبي حنيفة ، والشهادة في الحدود ، والقصاص ، وزيادة السهم ، والتعصيب في الميراث ، والحماية ، والقسامة ، والولاية في النكاح والطلاق والرجعة ، وعدد الأزواج ، وإليهم الانتساب ، وهم أصحاب اللحى والعمامة ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا﴾ وبسبب ما أخرجوا في نكاحهن من أموالهم في المهور

(١) قوله «دمي دمك وهدمي هدمك» في الصحاح الهدم . بالتحريك . : ما تخدم من جوانب البئر فسقط فيها. ويقال : دماؤهم بينهم هدم : أى هدر. وهدم أيضا بالتسكين ، إذا لم يودوا. (ع)

(٢) هو مركب من حديثين أخرجهما الطبري من حديث قيس بن عاصم «أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما كان من حلف في الجاهلية فتمسكوا به» ومن حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده «أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في خطبته يوم الفتح : فوا بالحلف ، فانه لا يزيده الإسلام إلا شدة. ولا تحدثوا حلفاً في الإسلام» وفي الباب عن جبير بن مطعم رفعه : «لا حلف في الإسلام» أخرجاه.

والنفقات. وروى أنّ سعد بن الربيع وكان نقيبا من نقباء الأنصار نشرت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن أبي زهير ، فلطمها ، فانطلق بها أبوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أفرشته كريمي فلطمها فقال : «لتقتصّ منه» فنزلت ، فقال صلى الله عليه وسلم : «أردنا أمراً وأراد الله أمراً ، والذي أراد الله خير»^(١) ، ورفع القصاص. واختلف في ذلك ، فقيل لا قصاص بين الرجل وامرأته فيما دون النفس ولو شجها ، ولكن يجب العقل. وقيل : لا قصاص إلا في الجرح والقتل. وأما اللطمة ونحوها فلا ﴿قَانِتَاتٌ﴾ مطيعات قائمات بما عليهنّ للأزواج ﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ الغيب خلاف الشهادة ، أى حافظات لمواجب الغيب إذا كان الأزواج غير شاهدين لهنّ حفظهنّ ما يجب عليهنّ حفظه في حال الغيبة ، من الفروج والبيوت والأموال. وعن النبي صلى الله عليه وسلم : «خير النساء امرأة إن نظرت إليها سرتك ، وإن أمرتها أطاعتك وإذا غبت عنها حفظتك في مالها ونفسها» وتلا الآية^(٢) وقيل ﴿لِّلْغَيْبِ﴾ لأسرارهم ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ بما حفظهنّ الله حين أوصى بهنّ الأزواج في كتابه وأمر رسوله عليه الصلاة والسلام فقال : «استوصوا بالنساء خيراً»^(٣) أو بما حفظهنّ الله وعصمهنّ ووفقهنّ لحفظ الغيب ، أو بما حفظهنّ حين وعدهنّ الثواب العظيم على حفظ الغيب ، وأوعدهنّ بالعذاب الشديد على الخيانة. و «ما» مصدرية. وقرئ ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ بالنصب على أنّ ما موصولة ، أى حافظات للغيب بالأمر الذي يحفظ حق الله وأمانة الله ، وهو التعفف والتحصن والشفقة على الرجال والنصيحة لهم. وقرأ ابن مسعود : فالصالح قوانت حوافظ للغيب بما حفظ الله فأصلحوا إليهنّ. نشوزها ونشوصها : أن تعصى زوجها ولا تطمئن إليه وأصله الانزعاج ﴿فِي الْمَضَاجِعِ﴾ في المراقد. أى لا تدخلوهن تحت اللحد أو هي كناية عن الجماع. وقيل : هو أن يوليها ظهره في المضجع وقيل : في المضاجع : في بيوتهن التي يبتن فيها. أى

(١) كذا ذكره الثعلبي والواحدي عن مقاتل به. ولأبي داود في المراسيل وابن أبي شيبه والطبري عن الحسن أن رجلا لطم وجه امرأته : فأنت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فشكت إليه. فقال : القصاص. فنزلت ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ ولابن مردويه عن علي بإسناده أو نحوه. ولم يقل «القصاص» وزاد «أردت أمراً وأراد الله غيره».

(٢) أخرجه أبو داود والحاكم والترمذي من رواية مجاهد عن ابن عباس «لما نزلت الذين يكتزون الذهب والفضة ، الحديث . وفيه ألا أخبركم بخير ما يكنز : المرأة الصالحة : إذا نظر إليها سرته ، وإذا أمرها أطاعته. وإذا غاب عنها حفظته» وللنسائي من رواية سعيد المقبري عن أبي هريرة قال «سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن خير النساء فقال : التي تطيع إذا أمر وتسر إذا نظر. وتحفظه في نفسها وماله» وإسناده حسن. وأخرجه البزار والحاكم والطبري وغيرهم من طرق عن سعيد. وفي الباب عن أبي أمامة عند ابن ماجه وإسناده ساقط. وعن عبد الله بن سلام عند الطبراني. وعن ثوبان وغيرهم.

(٣) متفق عليه من حديث أبي حازم عن أبي هريرة. وقد تقدم من وجه آخر.

لا تبايتوهن. وقرئ : في المضجع ، وفي المضطجع. وذلك لتعرّف أحوالهن وتحقق أمرهن في النشوز. أمر بوعظهن أولاً^(١) ، ثم هجرانهن في المضاجع ، ثم بالضرب إن لم ينجع فيهن الوعظ والهجران. وقيل : معناه أكرهوهن^(٢) على الجماع واربطوهن ، من هجر البعير إذا شدّه بالهजार. وهذا من تفسير الثقلاء. وقالوا : يجب أن يكون ضرباً غير مبرّح لا يجرّحها ولا يكسر لها عظماً ويجتنب الوجه. وعن النبي صلى الله عليه وسلم : «علق سوطك حيث يراه أهلك»^(٣) وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما : كنت رابعة أربع نسوة عند الزبير بن العوّام ، فإذا غضب على إحداها ضربها بعود المشجب^(٤) حتى يكسره عليها^(٥). ويروى عن الزبير أبيات منها :

وَلَوْ لَا بَنُوها حَوْكُها لَحَبَطْتُها

﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾ فأزيلوا عنهن التعرض بالأذى والتوبيخ والتجني ، وتوبوا عليهن واجعلوا ما كان منهن كأن لم يكن بعد رجوعهن إلى الطاعة والانقياد وترك النشوز ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾ فاحذروه واعلموا أنّ قدرته عليكم أعظم من قدرتكم على من تحت أيديكم. ويروى أن أبا مسعود الأنصاري رفع سوطه ليضرب غلاماً له ، فبصر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصاح به : أبا مسعود ، لله أقدر عليك منك عليه ، فرمى بالسوط وأعتق الغلام^(٦). أو إن الله كان علياً كبيراً وإنكم تعصونه على علو شأنه وكبرياء سلطانه ، ثم تتوبون فيتوب عليكم فأنتم أحق بالعفو عمن يحيي عليكم إذا رجع.

(١) قال محمود : «أمر الله بوعظهن أولاً ... الخ» قال أحمد : وهذا الترتيب بين هذه الأفعال المعطوفة غير متلقى من صيغة لفظية ، إذ العطف بالواو وهي مسلوقة الدلالة على الترتيب متمحضة الاشعار بالجمعية فقط. وإنما يتلقى الترتيب المذكور من قرائن خارجة عن اللفظ مفهومة من مقصود الكلام وسياقه.

(٢) عاد كلامه. قال محمود : «وقيل معناه أكرهوهن ... الخ» قال أحمد : ولعل هذا المفسر يتأيد بقوله ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾ فانه يدل على تقدم إكراه على أمر ما ، وقرينة المضاجع ترشد إلى أنه الجماع. وإطلاق الزمخشري لما أطلقه في حق هذا المفسر من الافراط.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد من حديث ابن عباس ، وفيه ابن أبي ليلى القاضي وفيه ضعف. وفي الباب عن ابن عمرو أخرجه أبو نعيم في الحلية في ترجمة الحسن بن صالح من روايته عن عبد الله بن دينار عنه ، بلفظ «علقوا السوط حيث يراه أهل البيت» وعن جابر رفعه «رحم الله رجلاً يعلق السوط حيث يراه أهل البيت» وعن جابر رفعه «رحم الله رجلاً يعلق في بيته سوطاً يؤدب به أهله» وفي إسناده عباد بن كثير وهو ضعيف.

(٤) قوله «ضربها بعود المشجب» في الصحاح : المشجب الخشبة التي تلقى عليها الثياب. (ع)

(٥) أخرجه الثعلبي من رواية أبي أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عنها بهذا وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن هشام عن أبيه قال «كان الزبير شديداً على النساء ويكسر عليهن عيدان المشاجب» وقال ابن أبي شيبة حدثنا حفص بن غياث ، حدثنا هشام به.

(٦) أخرجه مسلم من حديثه نحوه وقال في آخره «أما إنك لو لم تفعل للفحتك النار».

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (٣٥)

﴿شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ أصله : شقاقا بينهما ، فأضيف الشقاق إلى الظرف على طريق الاتساع ، كقوله : ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وأصله : بل مكر في الليل والنهار. أو على أن جعل البين مشاقا والليل والنهار ماكرين ، على قولهم : هارك صائم. والضمير للزوجين. ولم يجر ذكرهما لجرى ذكر ما يدل عليهما ، وهو الرجال والنساء ﴿حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ﴾ رجلا مقنعاً راضياً يصلح لحكومة العدل والإصلاح بينهما ، وإنما كان بعث الحكمين من أهلها ، لأن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال ، وأطلب للصالح ، وإنما تسكن إليهم نفوس الزوجين ، ويبرز إليهم ما في ضمائرهما من الحب والبغض وإرادة الصلح والفرقة ، وموجبات ذلك ومقتضياته وما يزويانه عن الأجانب ولا يجبان أن يطلعوا عليه. فإن قلت : فهل يليان الجمع بينهما والتفريق إن رأيا ذلك؟ قلت : قد اختلف فيه ، فقبل : ليس إليهما ذلك إلا بإذن الزوجين. وقيل : ذلك إليهما ، وما جعلنا حكمين إلا وإليهما بناء الأمر على ما يقتضيه اجتهادهما. وعن عبيدة السلماني : شهدت علياً رضي الله عنه وقد جاءته امرأة وزوجها ومع كل واحد منهما فقام ^(١) من الناس ، فأخرج هؤلاء حكماً وهؤلاء حكماً ^(٢). فقال عليّ رضي الله عنه للحكمين : أتدريان ما عليكما؟ إن عليكما إن رأيتما أن تفرقا فرتما ، وإن رأيتما أن تجمعا جمعتما. فقال الزوج : أما الفرقة فلا. فقال عليّ : كذب والله لا تبرح حتى ترضى بكتاب الله لك وعليك. فقالت المرأة : رضيت بكتاب الله لي وعليّ. وعن الحسن : يجمعان ولا يفرقان. وعن الشعبي : ما قضى الحكمان جاز. والألف في ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا﴾ للحكمين. وفي ﴿يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ للزوجين أي إن قصدا إصلاح ذات البين وكانت نيتهما صحيحة وقلوبهما ناصحة لوجه الله ، بورك في وساطتهما ، وأوقع الله بطيب نفسهما وحسن سعيهما بين الزوجين الوفاق والألفة ، وألقى في نفوسهما المودة والرحمة. وقيل : الضميران للحكمين ، أي إن قصدا إصلاح ذات البين والنصيحة للزوجين يوفق الله بينهما ، فيتفقان على الكلمة الواحدة ، ويتساندان في طلب الوفاق حتى يحصل الغرض ويتم المراد. وقيل : الضميران للزوجين. أي : إن يريدَا إصلاح ما بينهما وطلبا الخير وأن يزول عنهما الشقاق يطرح الله بينهما الألفة ، وأبدلهما بالشقاق وفاقا وبالبغضاء مودة. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ يعلم كيف يوفق بين المختلفين ويجمع بين المفترقين ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾.

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ

(١) قوله «فقام من الناس» في الصحاح : الفقام الجماعة من الناس ، لا واحد له من لفظه اه. (ع)

(٢) أخرجه الشافعي من رواية ابن سيرين عنه. وعبد الرزاق والدارقطني والطبري وغيرهم من طريقه.

وَالْمَسَاكِينَ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾

﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وأحسنوا بهما إحساناً ﴿وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ وبكل من بينكم وبينه قرى من أخ أو عم أو غيرها ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ الذي قرب جواره ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ الذي جواره بعيد. وقيل الجار : القريب النسيب ، والجار الجنب : الأجنبي. وأنشد لبلعاء ابن قيس :

لَا يَجْتَوِيَنَّ مَجْرًا مَّاءٌ أَبَدًا ذُو رَحْمٍ أَوْ مَجْرًا مَّاءٌ جُنُبٌ ^(١)

وقرى : والجار ذا القرى ، نصبا على الاختصاص. كما قرئ ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ تنبيها على عظم حقه لإدلائه بحق الجوار والقرى ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ هو الذي صحبتك بأن حصل بجنبك ، إما رفيقا في سفر ، وإما جارا ملاصقا ، وإما شريكا في تعلم علم أو حرفة ، وإما قاعداً إلى جنبك في مجلس أو مسجد أو غير ذلك ، من أدنى صحبة التأمت بينك وبينه. فعليك أن ترعى ذلك الحق ولا تنساه ، وتجعله ذريعة إلى الإحسان. وقيل : الصاحب بالجنب : المرأة ﴿ابْنِ السَّبِيلِ﴾ المسافر المنقطع به. وقيل الضيف ، والمختال : التباه الجهور الذي يتكبر عن إكرام أقاربه وأصحابه ومماليكه ، فلا يتحفى بهم ^(٢) ولا يلتفت إليهم. وقرئ : والجار الجنب ، بفتح الجيم وسكون النون.

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (٣٧)

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ بدل من قوله : ﴿مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا﴾ أو نصب على الذم. ويجوز أن يكون رفعاً عليه ، وأن يكون مبتدأ خبره محذوف ، كأنه قيل : الذين يبخلون ويفعلون ويصنعون ، أحقاء بكل ملامة. وقرئ ﴿بِالْبُخْلِ﴾ بضم الباء وفتحها. وبفتحتين. وبضمتين : أى يبخلون بذات أيديهم ، وبما في أيدي غيرهم. فيأمرهم بأن يبخلوا به مقتا للسخاء ممن وجد. وفي أمثال العرب : أبخل من الضنين بنائل غيره. قال :

(١) لبلغان بن قيس. ويروى : بلعاء. والرحم : القرابة. والجنب : صفة مشبهة بمعنى الأجنبي ، يستوي فيه المذكر والمؤنث ، والواحد والمتعدد. يقول : لا يكرهنا الجار النسيب ، ولا الجار الجنيب أبداً ، لحسن عشرتنا.

(٢) قوله «فلا يتحفى بهم» في الصحاح : تخفيت به ، أى بالغت في إكرامه والطفاه. (ع)

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨) وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ (٣٩)

﴿رِئَاءَ النَّاسِ﴾ للفخار ، وليقال : ما أسخاهم وما أجودهم ، لا ابتغاء وجه الله. وقيل : نزلت في مشركي مكة المنفقين أموالهم في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿فَسَاءَ قَرِينًا﴾ حيث حملهم على البخل والرياء وكل شر. ويجوز أن يكون وعيداً لهم بأن الشيطان يقرن بهم في النار ﴿وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ﴾ وأى تبعة ووبال عليهم في الإيمان والإنفاق في سبيل الله ؛ والمراد الذم والتوبيخ. وإلا فكل منفعة ومفاحة في ذلك. وهذا كما يقال للمنتقم : ما ضرك لو عفوت. وللعاق : ما كان يرزؤك لو كنت باراً ، وقد علم أنه لا مضرة ولا مرزأة في العفو والبر. ولكنه ذم وتوبيخ وتجهيل بمكان المنفعة ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ وعيد.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠) فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ (٤٢)

الذرة : النملة الصغيرة. وفي قراءة عبد الله : مثقال نملة. وعن ابن عباس : أنه أدخل يده في التراب فرفعه ثم نفخ فيه فقال : كل واحدة من هؤلاء ذرة. وقيل : كل جزء من أجزاء الهباء في الكوة ذرة. وفيه دليل على أنه لو نقص من الأجر أدنى شيء وأصغره ، أو زاده في العقاب لكان ظلماً ، وأنه لا يفعله لاستحالاته في الحكمة لا لاستحالاته في القدرة ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً﴾ وإن يكن مثقال ذرة حسنة وإنما أنت ضمير المثقال ^(١) لكونه مضافاً إلى مؤنث. وقرئ . بالرفع . على كان التامة ﴿يُضَاعَفْهَا﴾ يضاعف ثوابها لاستحقاقها عنده الثواب في كل وقت من الأوقات المستقبلية غير

(١) قال محمود : «وإنما أنت الضمير وهو للمثقال ... الخ» قال أحمد : وقد تقدم له مثل ذلك في قوله : ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ وقد بينا ثم أن عوده إلى الحفرة جائز ، بل أولى. وكذلك عوده هاهنا إلى الذرة. ولا يمنع ذلك كون المضاف إليه غير مخبر عنه ، لأن عود الضمير لا يستلزم الاخبار عنه في الكلام الأول. ويجوز : كانت دابتك ، وكل ذلك أسهل من اكتساب المضاف للتأنيث من المضاف إليه. فقد نص أبو على في التعليقات على أنه شاذ.

المتناهية. وعن أبي عثمان النهدي أنه قال لأبي هريرة : بلغني عنك أنك تقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن الله تعالى يعطي عبده المؤمن بالحسنة ألف ألف حسنة» قال أبو هريرة : لا ، بل سمعته يقول «إن الله تعالى يعطيه ألفى ألف حسنة» ^(١) ثم تلا هذه الآية. والمراد : الكثرة لا التحديد ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ويعط صاحبها من عنده على سبيل التفضل عطاء عظيما وسماه ﴿أَجْرًا﴾ لأنه تابع للأجر لا يثبت إلا بثباته. وقرئ : يضعفها بالتشديد والتخفيف ، من أضعف وضعف : وقرأ ابن هرمز : نضاعفها بالنون ﴿فَكَيْفَ﴾ يصنع هؤلاء الكفرة من اليهود وغيرهم ﴿إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ يشهد عليهم بما فعلوا وهو نبينهم ، كقوله : ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾. ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ المكذبين ﴿شَهِيدًا﴾ وعن ابن مسعود : أنه قرأ سورة النساء على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ قوله : ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : «حسبنا» ^(٢) ﴿لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ لو يدفنون فتسوى بهم الأرض كما تسوى بالموتى. وقيل : يودّون أنهم لم يبعثوا وأنهم كانوا والأرض سواء وقيل : تصير البهائم تراباً ، فيودّون حالها ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ ولا يقدرّون على كتمانها لأن جوارحهم تشهد عليهم. وقيل الواو للحال ، أى يودّون أن يدفنوا تحت الأرض وأنهم لا يكتُمون الله حديثاً. ولا يكذبون في قولهم : والله ربنا ما كنا مشركين ، لأنهم إذا قالوا ذلك وجحدوا شركهم ، ختم الله على أفواههم عند ذلك ، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بتكذيبهم والشهادة عليهم بالشرك فلشدّة الأمر عليهم يتمنون أن تسوى بهم الأرض : وقرئ : تسوى ، بحذف التاء من تتسوى. يقال : سويته فتسوى نحو : لويته فتلوى. وتسوى بإدغام التاء في السين ، كقوله : يسمعون ، وماضيه أسوى كأزكى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ

جاء

(١) أخرجه أحمد والبخاري وابن أبي شيبة من رواية على بن زيد بن جدعان عن أبي عثمان. ولفظه بلغني أن أبا هريرة يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله يضعف الحسنة لعبده المؤمن ألف ألف حسنة فانطلقت فلقيت أبا هريرة ، فقلت : بلغني عنك أنك تقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله يعطي بالحسنة ألف ألف حسنة. قال أبو هريرة : بل سمعته يقول : إن الله يعطيه ألفى ألف حسنة ثم تلا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾. إلى قوله ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فمن يدرى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «أجرًا عظيمًا» لم يرفعه ابن أبي شيبة قال البخاري لا نعلمه يروى عن أبي هريرة إلا بهذا الاسناد. كذا قال. وقد أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الزهد من طريق زياد الجصاص عن أبي عثمان نحوه. وأخرجه عبد الرزاق عن أبان عن أبي العالية قال : جئت أبا هريرة فذكره موقوفاً. وأبان متروك.

(٢) متفق عليه من رواية عبيدة السلماني عنه ، وقال في آخره «حسبك الآن» فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان.

أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

لأن السكر علة تلحق العقل. أو مفرداً بمعنى : وأنتم جماعة سكرى ، كقولك : امرأة سكرى ، وسكرى بضم السين كحبلى. على أن تكون صفة للجماعة. وحكى جناح بن حبيش : كسلى وكسلى ، بالفتح والضم ﴿وَلَا جُنْبًا﴾ عطف على قوله : ﴿وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ لأن محل الجملة مع الواو النصب على الحال ، كأنه قيل : لا تقربوا الصلاة سكارى ولا جنبا. والجنب : يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، لأنه اسم جرى مجرى المصدر الذي هو الإجناب ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ استثناء من عامة أحوال المخاطبين. وانتصابه على الحال. فإن قلت : كيف جمع بين هذه الحال والحال التي قبلها؟ قلت : كأنه قيل : لا تقربوا الصلاة في حال الجنابة ، إلا ومعكم حال أخرى تعذرون فيها ، وهي حال السفر. وعبور السبيل : عبارة عنه. ويجوز أن لا يكون حالا ولكن صفة ، لقوله ﴿جُنْبًا﴾ أى ولا تقربوا الصلاة جنبا غير عابري سبيل ، أى جنبا مقيمين غير معذورين. فإن قلت : كيف تصح صلاتهم على الجنابة لعذر السفر؟ قلت : أريد بالجنب : الذين لم يغتسلوا كأنه قيل : لا تقربوا الصلاة غير مغتسلين ، حتى تغتسلوا ، إلا أن تكونوا مسافرين. وقال : من فسر الصلاة بالمسجد معناه : لا تقربوا المسجد جنبا إلا مجتازين فيه ، إذا كان الطريق فيه إلى الماء ، أو كان الماء فيه أو احتلمتم فيه. وقيل إن رجلا من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد ، فتصيبهم الجنابة ولا يجدون ممرا إلا في المسجد ، فرخص لهم. وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأذن لأحد أن يجلس في المسجد أو يمر فيه وهو جنب إلا لعلى رضى الله عنه ، لأن بيته كان في المسجد ^(١) فإن قلت : أدخل في حكم الشرط أربعة : وهم المرضى ، والمسافرون ، والمحدثون ، وأهل الجنابة فيمن تعلق الجزاء الذي هو الأمر بالتيمم عند عدم الماء منهم. قلت : الظاهر أنه تعلق بهم جميعاً وأنّ المرضى إذا عدموا الماء لضعف حركتهم وعجزهم عن الوصول إليه فلهم أن يتيمموا ، وكذلك السفر إذا عدموه ، لبعده. والمحدثون وأهل الجنابة كذلك إذا لم يجدوه لبعض الأسباب. وقال الزجاج : الصعيد وجه الأرض ^(٢) ، ترابا كان أو غيره. وإن كان صخرًا لا تراب عليه لو ضرب

(١) أصل هذا الحديث في الترمذي بغير هذا اللفظ. أخرجه من طريق سالم بن أبي حفصة عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى «يا على ، لا يحل لأحد أن يجنب في هذا المسجد غيرى وغيرك» قال الترمذي : حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقد سمعته منى محمد بن إسماعيل اه وقد أخرجه البزار من رواية الحسن بن زياد عن خارجة بن سعد عن أبيه سعد مثله سواء. وقال : لا نعلمه عن سعد إلا بهذا الاسناد ، ثم أخرجه من حديث أبي سعيد كالترمذي. وقال : كان سالم شيعيا ، لكنه لم يترك ولم يتابع على هذا ومعناه : أنه صلى الله عليه وسلم كان منزله في المسجد. وفي الباب عن أم سلمة ، أخرجه الطبري بلفظ «لا ينبغي لأحد أن يجنب في هذا المسجد إلا أنا وعلى» وروى أبو يعلى من حديث ابن عباس «أن النبي صلى الله عليه وسلم سد أبواب المسجد إلا باب على» فدخل المسجد جنبا وهو طريقه ليس له طريق غيره».

(٢) قال محمود : «الصعيد وجه الأرض ترابا كان أو غيره ... الخ» قال أحمد : هذا إذا كان الضمير عائدا إلى .

المتيمم يده عليه ومسح. لكان ذلك طهوره ، وهو مذهب أبي حنيفة رحمة الله عليه. فإن قلت : فما يصنع بقوله تعالى في سورة المائدة ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ أى بعضه ، وهذا لا يتأتى في الصخر الذي لا تراب عليه؟ قلت. قالوا إنّ «من» لا ابتداء الغاية. فان قلت : قولهم إنها لا ابتداء الغاية قول متعسف ، ولا يفهم أحد من العرب من قول القائل : مسحت برأسه من الدهن ومن الماء ومن التراب ، إلا معنى التبعيض. قلت : هو كما تقول. والإذعان للحق أحق من المراء ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا﴾ كناية عن الترخيص والتيسير ، لأنّ من كانت عادته أن يعفو عن الخطائين ويغفر لهم ، أثر أن يكون ميسرا غير معسر. فان قلت : كيف نظم في سلك واحد بين المرضى والمسافرين ، وبين المحدثين والمجنبيين ^(١) ، والمرض والسفر سببان من أسباب الرخصة ، والحدث سبب لوجوب الوضوء. والجنابة سبب لوجوب الغسل؟ قلت : أراد سبحانه أن يرخص للذين وجب عليهم التطهر وهم عادمون الماء في التيمم بالتراب ، فخص أوّل من بينهم مرضاهم وسفرهم ، لأنهم المتقدّمون في استحقاق بيان الرخصة لهم بكثرة المرض والسفر وغلبتهما على سائر الأسباب الموجبة للرخصة ، ثم عم كل من وجب عليه التطهر وأعوزه الماء لخوف عدو أو سبع أو عدم آلة استقاء أو إرهاب في مكان لا ماء فيه وغير ذلك بما لا يكثر كثرة المرض والسفر. وقرئ : من غيط ، قيل هو تخفيف غيط ، كهين في هين. والغيط بمعنى الغائط

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ (٤٥)

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ من رؤية القلب ، وعدى بإلى ، على معنى : ألم ينته علمك إليهم؟ أو بمعنى : ألم تنظر إليهم؟ ﴿أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ حظا من علم التوراة ، وهم أحبار اليهود ﴿يَشْتَرُونَ الصَّلَاةَ﴾ يستبدلوها بالهدى ، وهو البقاء على اليهودية ، بعد وضوح الآيات لهم على صحة نبوة رسول الله

. الصعيد ، وثم وجه آخر ، وهو عود الضمير على الحدث المدلول عليه بقوله : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مُرْضَى﴾ إلى آخرها ، فان المفهوم منه : وإن كنتم على حدث في حال من هذه الأحوال سفر أو مرض أو محي من الغائط أو ملامسة النساء ، فلم تجدوا ماء تتطهرون به من الحدث ، فتييمموا منه. يقال : تيممت من الجنابة. وموقع «من» على هذا مستعمل متداول ، وهي على هذا الاعراب إما للتعليل أو لا ابتداء الغاية ، وكلاهما فيها متمكن ، والله أعلم.

(١) قال محمود : «فان قلت : كيف نظم في سلك واحد بين المرضى والمسافرين وبين المحدثين والمجنبيين ... الخ»؟ قال أحمد : وهذا من ذكر المعنى به خاصا ومندرجا في العموم تنبيها بذكره على وجهين مختلفين ، لأن المرض والسفر مندرجان في عموم المحدثين والمجنبيين ، والله أعلم.

صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنه هو النبي العربي المبشر به في التوراة والإنجيل ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضَلُّوا﴾ أنتم أيها المؤمنون سبيل الحق كما ضلوه ، وتنخروا في سلكهم لا تكفيهم ضلالتهم ؛ بل يحبون أن يضل معهم غيرهم. وقرئ : أن يضلوا ، بالياء بفتح الضاد وكسرهما ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بِأَعْدَائِكُمْ﴾ وقد أخبركم بعبادة هؤلاء ، وأطلعكم على أحوالهم وما يريدون بكم ؛ فاحذروهم ولا تستنصحوهم في أموركم ولا تستشيروهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ فثقوا بولايته ونصرته دونهم. أو لا تبالوا بهم ، فإن الله ينصركم عليهم ويكفيكم مكرهم.

﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالْسِتِّهِمْ وَطُغْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٤٦)

﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا﴾ بيان للذين أوتوا نصيبا من الكتاب ؛ لأنهم يهود ونصارى. وقوله : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾ ، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ﴾ ، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ﴾ جمل توسطت بين البيان والمبين على سبيل الاعتراض أو بيان لأعدائكم ، وما بينهما اعتراض أو صلة لنصيراً ، أى ينصركم من الذين هادوا ، كقوله ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا﴾ ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأ ، على أن ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ صفة مبتدأ محذوف تقديره : من الذين هادوا قوم يحرفون. كقوله :

وَمَمَّا الْـدَّهْرُ إِلَّا تَارَتَانِ فَمِنْهُمَا أَمُوتُ وَأُخْرَى أَبْتَغِي الْعَيْشَ أَكْـدَحُ^(١)

أى فمنهما تارة أموت فيها ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ يميلونه عنها ويزيلونه ؛ لأنهم إذا بدلوه ووضعوا مكانه كلما غيره ، فقد أمالوه عن موضعه التي وضعها الله فيها ، وأزالوه عنها. وذلك نحو تحريفهم «أسم ربعة» عن موضعه في التوراة بوضعهم «آدم طوال»^(٢) مكانه ، ونحو تحريفهم «الرجم»

(١) وَمَمَّا الْـدَّهْرُ إِلَّا تَارَتَانِ فَمِنْهُمَا أَمُوتُ وَأُخْرَى أَبْتَغِي الْعَيْشَ أَكْـدَحُ

وكلتاها قـد خـطـط لي في صـحيفة فـلا العـيش أهـوى لي ولا المـوت أرواح

لتميم بن عقيب ، يقول : ليس الدهر إلا تارتين ومرتين ، فتارة أموت بها ، وتارة أطلب العيش حال كوني أكـدح ، أى أجد وأتعب وأسرع في طلبه ، والمراد بالصحيفة : اللوح المحفوظ ، ثم قال : ليس العيش أحب إلى لما فيه من النصب ، وليس الموت أروح لي لأن النفس تكرهه.

(٢) قوله «طوال» هو بالضم : الطويل. وبالكسر : جمعه. وبالفتح مصدر ، أفاده الصحاح. (ع)

بوضعهم «الحدّ» بدله : فإن قلت : كيف قيل هاهنا ﴿عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ وفي المائدة ﴿مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ قلت : أمّا ﴿عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ فعلى ما فسرناه من إزالته عن مواضعه التي أوجبت حكمة الله وضعه فيها بما اقتضت شهواتهم من إبدال غيره مكانه. وأمّا ﴿مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ فالمعنى : أنه كانت له مواضع هو قمن بأن يكون فيها ، فحين حرفوه تركوه كالغريب الذي لا موضع له بعد مواضعه ومقارّه ، والمعنيان متقاربان. وقرئ : يحزفون الكلام. والكلم . بكسر الكاف وسكون اللام . : جمع كلمة تخفيف كلمة. قولهم ﴿غَيْرُ مُسْمِعٍ﴾ حال من المخاطب ^(١). أى اسمع وأنت غير مسمع ، وهو قول ذو وجهين ، يحتمل الذمّ أى اسمع منا مدعوا عليك . بلا سمعت . لأنه لو أجيب دعوتهم عليه لم يسمع ، فكان أصم غير مسمع. قالوا ذلك اتكالا على أنّ قولهم . لا سمعت . دعوة مستجابة أو اسمع غير مجاب إلى ما تدعو إليه. ومعناه غير مسمع جواباً ^(٢) يوافقك ، فكأنك لم تسمع شيئاً. أو اسمع غير مسمع كلاما ترضاه ، فسمعك عنه ناب. ويجوز على هذا أن يكون ﴿غَيْرُ مُسْمِعٍ﴾ مفعول اسمع ، أى اسمع كلاما غير مسمع إياك ، لأن أذنك لا تعيه نبوّاً عنه. ويحتمل المدح ، أى اسمع غير مسمع مكروهاً ، من قولك : أسمع فلان فلانا إذا سبه. وكذلك قولهم ﴿رَاعِنَا﴾ يحتمل راعنا نكلمك ، أى ارقبنا وانتظرنا. ويحتمل شبه كلمة عبرانية ^(٣) أو سريانية كانوا يتسابون بها ، وهي : راعينا ، فكانوا . سخرية بالدين وهزوا برسول الله صلى الله عليه وسلم . يكلمونه بكلام محتمل ، ينوون به الشتيمة والإهانة ويظهرون به التوقير والإكرام ﴿لَيَّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ فتلا بها وتحريفاً ، أى يفتلون بألسنتهم الحق إلى الباطل ، حيث يضعون ﴿رَاعِنَا﴾ موضع ﴿انظُرْنَا﴾

- (١) قال محمود : «غير مسمع حال من المخاطب ... الخ» قال أحمد : مراده بذلك أنه لما فسر غير مسمع بالدعاء وهو إنشاء وطلب وقد أوقعه حالا والحال خبر ، أراد أن يبين أوجه صحة التعبير على الخبر بالإنشاء بواسطة أن هؤلاء كانوا يظنون دعاءهم مستجاباً مخبراً بوقوع المدعو فيه. ونظيره ورود الأمر بصيغة الخبر تنبيهاً على تحقق وقوعه.
- (٢) قال محمود «ومعناه غير مسمع جواباً ... الخ» قال أحمد : والظاهر أن الكلم المحرف إنما أريد به في هذه السورة مثل «غير مسمع» و «راعنا» ولم يقصد هاهنا تبديل الأحكام وتوسطها بين الكلمتين ، بين قوله : ﴿يَحْزِفُونَ﴾ وبين قوله : ﴿لَيَّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ والمراد أيضاً : تحريف مشاهد بين على أن المحرف هما وأمثالهما. وأمّا في سورة المائدة فالظاهر . والله أعلم . أن المراد فيها بالكلم الأحكام وتحريفها تبديلها ، كتبديلهم الرجم بالجلد. ألا تراه عقبه بقوله : ﴿يَقُولُونَ إِنَّ أُوتِيْنَاهُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتُوْهُ فَاخْذُرُوا﴾ الاختلاف المراد بالكلم في السورتين. قيل في سورة المائدة ﴿يَحْزِفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ أى ينقلونه عن الموضع الذي وضعه الله فيه فصار وطنه ومستقره إلى غير الموضع ، فبقى كالغريب المتأسف عليه ، الذي يقال فيه : هذا غريب من بعد مواضعه ومقاره ، ولا يوجد هذا المعنى في مثل «راعنا» «وغير مسمع» وإن وجد على بعد فليس الوضع اللغوي مما يعياً بانتقاله عن موضعه كالوضع الشرعي. ولو لا اشتغال هذا النقل على الهزء والسخرية لما عظم أمره ، فلذلك جاء هنا ﴿يَحْزِفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ غير مقرون بما قرن به الأول من صورة التأسف.
- (٣) قوله «ويحتمل شبه كلمة عبرانية» عبارة النسفي : ويحتمل شبه كلمة عبرانية ، إلى آخر ما هنا. (ع)

و ﴿غَيْرِ مُسْمِعٍ﴾ موضع : لا أسمعتم مكروها. أو يفتلون بالسنتهم ما يضمرونه من الشتم إلى ما يظهرونه من التوقير نفاقا. فان قلت : كيف جاءوا بالقول المحتمل ذى الوجهين بعد ما صرحوا وقالوا سمعنا وعصينا؟ قلت : جميع الكفرة كانوا يواجهونه بالكفر والعصيان. ولا يواجهونه بالسب ودعاء السوء. ويجوز أن يقولوه فيما بينهم. ويجوز أن لا ينطقوا بذلك ، ولكنهم لما لم يؤمنوا جعلوا كأهم نطقوا به. وقرأ أبي : وأنظرنا ، من الإنظار وهو الإمهال. فان قلت : إلام يرجع الضمير في قوله ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾؟ قلت : إلى ﴿أَنَّهُمْ قَالُوا﴾ لأن المعنى. ولو ثبت قولهم سمعنا وأطعنا. لكان قولهم ذلك خيرا لهم ﴿وَأَقْوَمُ﴾ وأعدل وأسدّ ﴿وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أى خذلهم بسبب كفرهم ، وأبعدهم عن أطفاه ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا﴾ إيمانا ﴿قَلِيلًا﴾ أى ضعيفا ركيكا لا يعبا به ، وهو إيمانهم بمن خلقهم مع كفرهم بغيره ، أو أراد بالقلة العدم ، كقوله :

قَلِيلُ التَّشْكِي لِلْمُهِمِّ يُصِيبُهُ ^(١)

أى عديم التشكي ، أو إلا قليلا منهم قد آمنوا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَوْا الْكِتَابَ آمِنُوا بَمَا نُنَزِّلُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ

وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (٤٧)

﴿أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا﴾ أى نمحو تخطيط صورها ، من عين وحاجب وأنف وفم ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾ فنجعلها على هيئة أدبارها ، وهي الأفقاء

مطموسة مثلها. والفاء للتسبيب ، وإن جعلتها للتعقيب على أنهم توعدوا بعقابين : أحدهما عقيب الآخر ، ردها على أدبارها بعد طمسها ؛ فالمعنى

(١) قليل التشكي للمهم يصيبه كثير الهوى شتى النوى والمسالكة

يظل بمومنة ويمساة وبغيرها جحيشا ويعرورى ظهر المهالك

لتأبط شرا ، بمدح شمس بن مالك من رؤساء العرب. وقيل لأبي كبير الهذلي بمدح تأبط شرا. والمعنى : أنه عديم التشكي ليظهر المدح. أى لا يشتكى لأجل المهم حال كونه يصيبه. كثير هوى النفس. والشت كالشتات في الأصل مصدر ، ويستعملان بمعنى المتفرق المنتشر. وروى نشر النوى ، وهو بمعناه. وروى شتى النوى وهو جمع شتيت ، أى متفرق مختلف ، أى نواه ومسالكه شتى أى كثيرة مختلفة. والنوى : اسم جمع نواة ، وهي نية المسافر ، ويطلق على البعد أيضا فهو مذكر ، ويطلق على نية المسافر فيؤنث. والمومة : المفازة لا ماء بها. والجحيش : الفريد الوحيد والاعروراء : ركوب الجواد عريان الظهر. وعبر بيمسى دون يبيت ، إشارة إلى أنه يديم السير ولا ينزل في الليل. ويقول «يعرورى» إشارة إلى أنه يقتحم المكاره بلا وقاية عنها. ولقد شبه المهالك بما يصح ركوبه على طريق المكنية ، وأثبت لها الظهور تخيلا. وفيه إشارة إلى أنه غير مكتثر بها ، بل يسرع إليها بغير استعداد كاسراع الفارس إلى فرسه وعدم صبره حتى يسرجه. وفيه إشارة إلى أنه يظهر ويظفر حيث عبر بما يفيد الاستعلاء عليها.

أن نطمس وجوها فننكسها ، الوجوه إلى خلف ، والأفقاء إلى قدام . ووجه آخر : وهو أن يراد بالطمس القلب والتغيير ، كما طمس أموال القبط فقلبها حجارة . وبالوجوه ، رؤسهم ووجهاؤهم أى من قبل أن نغير أحوال وجهائهم ، فنسلبهم إقبالهم ووجهاتهم ، ونكسوهم صغارهم وإدبارهم أو نردهم إلى حيث جاءوا منه . وهي : أذرعات الشام ، يريد : إجلاء بنى النضير . فإن قلت : لمن الراجع في قوله : ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾؟ قلت : للوجوه إن أريد الوجهاء ، أو لأصحاب الوجوه . لأن المعنى من قبل أن نطمس وجوه قوم أو يرجع إلى ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ على طريقة الالتفات ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾ أو نجزيهم بالمسخ ، كما مسخنا أصحاب السبت . فإن قلت : فأين وقوع الوعيد . قلت : هو مشروط بالآيمان ^(١) . وقد آمن منهم ناس . وقيل : هو منتظر ، ولا بدّ من طمس ومسح لليهود قبل يوم القيامة ، ولأنّ الله عز وجلّ أوعدهم بأحد الأمرين ، بطمس وجوه منهم ، أو بلعنهم فإن الطمس تبديل أحوال رؤسائهم ، أو إجلائهم إلى الشام ، فقد كان أحد الأمرين وإن كان غيره فقد حصل اللعن ، فإنهم ملعونون بكل لسان ، والظاهر اللعن المتعارف دون المسخ ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ أَنْتُمْ بِبَشَرٍ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَالْحَنَازِيرَ﴾ . ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ فلا بدّ أن يقع أحد الأمرين إن لم يؤمنوا .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (٤٨)

فإن قلت : قد ثبت أن الله عزّ وجلّ يغفر الشرك لمن تاب منه ، وأنه لا يغفر ما دون الشرك من الكبائر إلا بالتوبة ^(٢) . فما وجه قول الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ^(٣)؟ قلت : الوجه أن يكون الفعل المنفي والمثبت جميعاً موجّهين إلى

(١) قوله «هو مشروط بالآيمان» لعله : مشروط بعدم الآيمان . (ع)

(٢) قوم «لا يغفر ما دون الشرك من الكبائر إلا بالتوبة» هذا عند المعتزلة . وأما عند أهل السنة فتغفر بما ، وبالشفاعة ، وبمجرد الفضل . (ع)

(٣) قال محمود : «إن قلت قد ثبت أن الله عز وجلّ يغفر الشرك لمن تاب منه ... الخ» قال أحمد رحمه الله : عقيدة أهل السنة أن الشرك غير مغفور البتة . وما دونه من الكبائر مغفور لمن يشاء الله أن يغفر له . هذا مع عدم التوبة . وأما مع التوبة فكلاهما مغفور . والآية إنما وردت فيمن لم يتب ، ولم يذكر فيها توبة كما ترى ، فلذلك أطلق الله تعالى نفى مغفرة الشرك ، وأثبت مغفرة ما دونه مقرونة بالمشيئة كما ترى ، فهذا وجه انطباق الآية على عقيدة أهل السنة . وأما القدريّة فإنهم يظنون التسوية بين الشرك وبين ما دونه من الكبائر في أن كل واحد من النوعين لا يغفر بدون التوبة ولا يشاء الله أن يغفرهما إلا للتائبين . فإذا عرض الزمخشري هذا المعتقد على هذه الآية ردته ونبت عنه ، إذ المغفرة منفية فيها عن الشرك . وثابتة لما دونه مقرونة بالمشيئة . فأما أن يكون المراد .

قوله تعالى : ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ كأنه قيل إن الله لا يغفر لمن يشاء الشرك ، ويغفر لمن يشاء ما دون الشرك على أنّ المراد بالأول من لم يتب ، وبالثاني من تاب. ونظيره قولك : إنّ الأمير لا يبذل الدينار ويبذل القنطار لمن يشاء. تريد : لا يبذل الدينار لمن لا يستأهله ، ويبذل القنطار لمن يستأهله ﴿فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا﴾ أى ارتكبه وهو مفتر مفتعل ما لا يصح كونه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٤٩) انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ (٥٠)

﴿الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ اليهود والنصارى ، قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه ، وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى. وقيل : جاء رجال من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأطفالهم فقالوا : هل على هؤلاء ذنب؟ قال : لا. قالوا : والله ما نحن إلا كهيئتهم ، ما عملناه بالنهار كفر عنا بالليل ، وما عملناه بالليل كفر عنا بالنهار ^(١). فنزلت. ويدخل فيها كل من زكى نفسه ووصفها بركاء العمل وزيادة الطاعة والتقوى والزلفى عند الله. فإن قلت : أما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض» ^(٢)؟ قلت : إنما قال ذلك حين قال له المنافقون : اعدل في القسمة ، إكذاباً لهم إذ وصفوه بخلاف ما وصفه به ربه. وشتان من شهد الله له بالتركية ، ومن شهد لنفسه أو شهد له من لا يعلم ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ إعلام بأن تركية الله هي التي يعتد بها ، لا تركية غيره لأنه هو العالم بمن هو أهل للتركية. ومعنى يزكى من يشاء : يزكى المرتضين من عباده الذين عرف منهم الزكاء فوصفهم به ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أى الذين يزكون أنفسهم يعاقبون على تركيتهم أنفسهم حق جزائهم. أو

. فيهما من لم يتب ، فلا وجه للتفضيل بينهما بتعليق المغفرة في أحدهما بالمشيئة. وتعليقها بالآخر مطلقاً ، إذ هما سياتان في استحالة المغفرة. وإما أن يكون المراد فيهما التائب فقد قال في الشرك : إنه لا يغفر ، والتائب من الشرك مغفور له ، وعند ذلك أخذ الزمخشري يقطع أحدهما عن الآخر ، فيجعل المراد مع الشرك عدم التوبة ، ومع الكبائر التوبة ، حتى تنزل الآية على وفق معتقده ، فيحملها أمرين لا تحمل واحداً منهما : أحدهما : إضافة التوبة إلى المشيئة وهي غير مذكورة ، ولا دليل عليها فيما ذكر. وأيضاً لو كانت مرادة لكانت هي السبب الموجب للمغفرة على زعمهم عقلاً ، ولا يمكن تعلق المشيئة بخلافها على ظنهم في العقل ، فكيف يليق السكوت عن ذكر ما هو العمدة والموجب وذكر ما لا مدخل له على هذا المعتقد الرديء. الثاني أنه بعد تقريره التوبة احتكم فقدرها على أحد القسمين دون الآخر. وما هذا إلا من جعل القرآن تبعاً للرأى ، نعوذ بالله من ذلك. وأما القدرية فهم بهذا المعتقد يقع عليهم المثل السائر «السيد يعطى والعبد يمنع» لأن الله تعالى يصرح كرمه بالمغفرة للمصر على الكبائر إن شاء ، وهم يدفعون في وجه هذا التصريح ، ويحيلون المغفرة بناء على قاعدة الأصلح والصالح ، التي هي بالفساد أجدر وأحق.

(١) ذكره الثعلبي عن الكلبي قال : نزلت هذه الآية في رجال من اليهود أتوا بأطفالهم. فذكره» وسنده إلى الكلبي في أول الكتاب.

(٢) لم أجده.

من يشاء يثابون على زكائهم ولا ينقص من ثوابهم. ونحوه ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ : ﴿كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ في زعمهم أنهم عند الله أركياء ﴿وَكَفَى﴾ بزعمهم هذا ﴿إِنَّمَا مُبِينًا﴾ من بين سائر آثامهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالطَّاعُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ (٥١) **أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا** ﴿٥٢﴾

الجيت : الأصنام وكل ما عبد من دون الله : والطاغوت : الشيطان. وذلك أن حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف اليهوديين خرجا إلى مكة مع جماعة من اليهود يحالفون قريشاً على محاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : أنتم أهل كتاب ، وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا ، فلا نأمن مكرهم ، فاسجدوا لأهتنا حتى نطمئن إليكم ففعلوا فهذا إيمانهم ﴿بِالْجَنَّةِ وَالطَّاعُوتِ﴾ لأنهم سجدوا للأصنام وأطاعوا إبليس فيما فعلوا. وقال أبو سفيان : نحن أهدى سبيلاً أم محمد. فقال كعب : ما ذا يقول محمد؟ قالوا يأمر بعبادة الله وحده وينهى عن الشرك. قال : وما دينكم؟ قالوا : نحن ولاية البيت ، ونسقي الحاج ، ونقرى الضيف ، ونفك العاني. وذكروا أفعالهم ، فقال : أنتم أهدى سبيلاً.

﴿أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ (٥٣) **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا** (٥٤) **فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا** ﴿٥٥﴾

وصف اليهود بالبخل والحسد وهما شرّ خصلتين : يمنعون ما أوتوا من النعمة ويتمنون أن تكون لهم نعمة غيرهم فقال ﴿أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ﴾ على أن أم منقطعة ^(١) ومعنى الهمزة لإنكار أن يكون لهم نصيب من الملك ثم قال ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ﴾ أى لو كان لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون أحداً مقدار نقير لفرط بخلهم : والنقير : النقرة في ظهر النواة

(١) قوله «على أن أم منقطعة» أى تفسر ببل والهمزة. (ع)

وهو مثل في القلة ، كالفتيل والقطمير . والمراد بالملك : إما ملك أهل الدنيا ، وإما ملك الله كقوله تعالى : ﴿قُلْ لَوْ أَنُّكُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ وهذا أوصف لهم بالشح ، وأحسن لطباقة نظيره من القرآن . ويجوز أن يكون معنى الهمزة في أم : لإنكار أنهم قد أوتوا نصيباً من الملك ، وكانوا أصحاب أموال وبساتين وقصور مشيدة كما تكون أحوال الملوك . وأهم لا يؤتون أحداً مما يملكون شيئاً . وقرأ ابن مسعود : فإذا لا يؤتوا ، على إعمال إذا عملها الذي هو النصب ، وهي ملغاة في قراءة العامة ، كأنه قيل : فلا يؤتون الناس نقيراً إذا ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ بل يحسدون رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على إنكار الحسد واستقباحه . وكانوا يحسدونهم على ما آتاهم الله من النصرة والغلبة وازدياد العزّ والتقدم كل يوم ﴿فَقَدْ آتَيْنَا﴾ إلزام لهم بما عرفوه من إيتاء الله الكتاب والحكمة ﴿آلِ إِبْرَاهِيمَ﴾ الذين هم أسلاف محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه ليس ببدع أن يؤتیه الله مثل ما أتى أسلافه . وعن ابن عباس : الملك في آل إبراهيم ملك يوسف وداود وسليمان . وقيل : استكثروا نساءه فقليل لهم : كيف استكثرت له التسع وقد كان لداود مائة ولسليمان ثلاثمائة مهيرة وسبعمائة سرية؟ ﴿فَمِنْهُمْ﴾ فمن اليهود ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ أى بما ذكر من حديث آل إبراهيم ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ وأنكره مع علمه بصحته . أو من اليهود من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من أنكر نبوته . أو من آل إبراهيم من آمن بإبراهيم ، ومنهم من كفر ، كقوله : ﴿فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (٥٦)

﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ أبدلناهم إياها . فإن قلت : كيف تعذب مكان الجلود العاصية جلود لم تعص؟ قلت : العذاب للجملة الحساسة ، وهي التي عصت لا للجلد . وعن فضيل : يجعل النضيج غير نضيج . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم «تبدل جلودهم كل يوم سبع مرّات» ^(١) وعن الحسن : سبعين مرّة يبدلون جلوداً بيضاء كالقراطيس ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ ليدوم لهم ذوقه ولا ينقطع ، كقولك للعزير : أعزّك الله ، أى أدامك على عزّك وزادك فيه

(١) لم أجده . ولابن عدى والطبراني عن ابن عمر : قرأ رجل عند عمر ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا﴾ فقال معاذ : تبدل كل ساعة مائة مرة . فقال عمر : هكذا سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه نافع ابن يوسف السلمى وأبو هرمز وهو ضعيف . وقال إسحاق بن راهويه في مسنده : سئل فضيل بن عياض عن هذه الآية ، فأخبرنا عن هشام عن الحسن قال : تبدل جلودهم كل يوم سبعين ألف مرة .

﴿عَزِيزًا﴾ لا يمتنع عليه شيء مما يريد به المجرمين ﴿حَكِيمًا﴾ لا يعذب إلا بعدل من يستحقه.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾

﴿ظَلِيلًا﴾ صفة مشتقة من لفظ الظلّ لتأكيد معناه. كما يقال : ليل أليل ، ويوم أيوم ، وما أشبه ذلك. وهو ما كان فينا لا جوب فيه ، ودائما لا تنسخه الشمس ، وسجسجاً^(١) لا حرّ فيه ولا برد ، وليس ذلك إلا ظل الجنة. رزقنا الله بتوفيقه لما يزلف إليه التفيؤ تحت ذلك الظل. وفي قراءة عبد الله : سيدخلهم بالياء ﴿أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ﴾ الخطاب عام لكل أحد في كل أمانة. وقيل نزلت في عثمان بن طلحة بن عبد الدار وكان سادن الكعبة. وذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة يوم الفتح أغلق عثمان باب الكعبة وصعد السطح ، وأبى أن يدفع المفتاح إليه وقال : لو علمت أنه رسول الله لم أمتعه ، فلو على ابن أبي طالب رضى الله عنه يده ، وأخذه منه وفتح ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى ركعتين. فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسدانة. فنزلت ، فأمر علياً أن يرده إلى عثمان ويعتذر إليه فقال عثمان لعليّ : أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق؟ فقال : لقد أنزل الله في شأنك قرآنا ، وقرأ عليه الآية ، فقال عثمان : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فهبط جبريل وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن السدانة في أولاد عثمان أبداً^(٢). وقيل هو خطاب للولادة بأداء الأمانات والحكم بالعدل. وقرئ : الأمانة ، على التوحيد ﴿نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ «ما» إما أن تكون منصوبة موصوفة بيعظكم به. وإما أن تكون مرفوعة موصولة به ، كأنه قيل : نعم شيئا يعظكم به. أو نعم الشيء الذي يعظكم به. والمخصوص بالمدح محذوف ، أى نعماً يعظكم به ذاك ، وهو المأمور به من أداء الأمانات والعدل في الحكم. وقرئ (نعماً) بفتح النون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ

(١) قوله «فينا» أى طويلاً ممتداً. والجوب : الخرق والقطع. والسجسج : المتوسط. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) هكذا ذكره الثعلبي ثم البغوي بغير إسناد. وكذا ذكره الواحدي في الوسيط والأسباب. وقال فيه «ما دام هذا البيت ، فان المفتاح والسدانة في أولاد عثمان».

تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

لما أمر الولاة بأداء الأمانات إلى أهلها وأن يحكموا بالعدل ، أمر الناس بأن يطيعوهم وينزلوا على قضاياهم. والمراد بأولى الأمر منكم : أمراء الحق ؛ لأن . أمراء الجور . الله ورسوله بريئان منهم ، فلا يعطفون على الله ورسوله في وجوب الطاعة لهم ، وإنما يجمع بين الله ورسوله والأمراء الموافقين لهما في إثبات العدل واختيار الحق والأمر بهما والنهي عن أضدادهما كالخلفاء الراشدين ومن تبعهم بإحسان. وكان الخلفاء يقولون : أطيعوني ما عدلت فيكم ، فإن خالفت فلا طاعة لي عليكم. وعن أبي حازم أن مسلمة بن عبد الملك قال له : أستم أمرتم بطاعتنا في قوله : **﴿وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾** قال : أليس قد نزعنا عنكم إذا خالفتكم الحق بقوله : **﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾** وقيل : هم أمراء السرايا وعن النبي صلى الله عليه وسلم «من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن يطع أميري فقد أطاعني ومن يعص أميري فقد عصاني» ^(١) وقيل : هم العلماء الدينون الذين يعلمون الناس الدين ويأمرهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر. **﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾** فإن اختلفتم أنتم وأولو الأمر منكم في شيء من أمور الدين ، فردوه إلى الله ورسوله ، أى : ارجعوا فيه إلى الكتاب والسنة. وكيف تلزم طاعة أمراء الجور وقد جنح الله الأمر بطاعة أولى الأمر بما لا يبقى معه شك ، وهو أن أمرهم أولاً بأداء الأمانات وبالعدل في الحكم وأمرهم آخر بالرجوع إلى الكتاب والسنة فيما أشكل ، وأمراء الجور لا يؤدّون أمانة ولا يحكمون بعدل ، ولا يردون شيئاً إلى كتاب ولا إلى سنة ، إنما يتبعون شهواتهم حيث ذهبت بهم ، فهم منسلخون عن صفات الذين هم أولو الأمر عند الله ورسوله ، وأحق أسمائهم : اللصوص المتغلبة **﴿ذَلِكَ﴾** إشارة إلى الرد إلى الكتاب والسنة **﴿خَيْرٌ﴾** لكم وأصلح **﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾** وأحسن عاقبة. وقيل : أحسن تأويلاً من تأويلكم أنتم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة. والبخاري من رواية الأعرج. ومسلم من رواية الأعرج وأبي سلمة كلاهما عنه.

وَالِى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّ أَرْدُنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾

روى أن بشراً المنافق خاصم يهوديا فدعاه اليهودي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف ، ثم إنهما احتكما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى لليهودي فلم يرض المنافق وقال : تعال نتحاكم إلى عمر بن الخطاب. فقال اليهودي لعمر : قضى لنا رسول الله فلم يرض بقضائه. فقال للمنافق : أكذلك؟ قال : نعم. فقال عمر : مكانكما حتى أخرج إليكما فدخل عمر فاشتغل على سيفه ثم خرج فضرب به عنق المنافق حتى برد ثم قال : هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله ، فنزلت. وقال جبريل : إنّ عمر فرق بين الحق والباطل ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت الفاروق ^(١). والطاغوت : كعب بن الأشرف ، سماه الله «طاغوتا» لإفراطه في الطغيان وعداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم. أو على التشبيه بالشيطان والتسمية باسمه. أو جعل اختيار التحاكم إلى غير رسول الله صلى الله عليه وسلم على التحاكم إليه تحكما إلى الشيطان ، بدليل قوله : ﴿وَقَدْ أَمَرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ﴾. وقرئ (بما أنزل ... وما أنزل) على البناء للفاعل. وقرأ عباس بن الفضل : أن يكفروا بها ، ذهابا بالطاغوت إلى الجمع ، كقوله : ﴿أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ﴾ وقرأ الحسن (تعالوا) بضم اللام على أنه حذف اللام من تعاليت تخفيفاً ^(٢) ، كما قالوا : ما باليت به بالة ، وأصلها بالية كعافية ، وكما قال الكسائي في : (آية) إن أصلها «آية» فاعلة ، فحذفت اللام ، فلما حذفت وقعت واو الجمع بعد اللام من تعال فضمت ، فصار (تعالوا) ، نحو : تقدموا. ومنه قول أهل مكة : تعالى ، بكسر اللام للمرأة. وفي شعر الحمداي :

(١) ذكره الثعلبي من رواية الكلبي عن أبي عاصم عن ابن عباس في هذه الآية : نزلت في رجل من المنافقين يقال له : بشر. وإسناده إلى الكلبي في خطبة كتابه. وذكره الواحدي أيضا. ولابن أبي حاتم وابن مردويه من رواية وهب عن ابن لهيعة عن أبي الأسود «اختصم رجلان إلى النبي صلى الله عليه وسلم. فقضى بينهما. فقال الذي قضى عليه ردنا إلى عمر. فانطلقا إليه. فضرب عنق الذي قال : ردنا إلى عمر. فجاء الآخر فأخبره فقال : ما كنت أظن عمر يجترئ على قتل مؤمن. فأنزل الله تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. الآية فأهدر دمه»
(٢) قوله «من تعاليت تخفيفاً» لعله عند إسناده إلى واو الجمع. فليحذر. (ع)

تَعَالَى أَقَاسِمُكَ الْهُمُومَ تَعَالَى (١)

والوجه فتح اللام ﴿فَكَيْفَ﴾ يكون حالهم ، وكيف يصنعون؟ يعنى أنهم يعجزون عند ذلك فلا يصدرن أمراً ولا يوردونه ﴿إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ﴾ بما قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من التحاكم إلى غيرك واتهامهم لك في الحكم ﴿ثُمَّ جَاؤُكَ﴾ حين يصابون فيعتذرون إليك ﴿يَخْلِفُونَ﴾ ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك ﴿إِلَّا إِحْسَانًا﴾ لا إساءة ﴿وَتَوْفِيقًا﴾ بين الخصمين ، ولم نرد مخالفة لك ولا تسخطاً لحكمك ، ففرج عنا بدعائك وهذا وعيد لهم على فعلهم ، وأنهم سيندمون عليه حين لا ينفعهم الندم. ولا يغنى عنهم الاعتذار عند حلول بأس الله. وقيل : جاء أولياء المنافق

(١) أقول وقد ناحت بقرى حمامة	أيا جارتا هل بات حالك حالي
معاذ الهوى ما ذقت طارقة الهوى	وما خطرت منك الهموم بي
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا	تعالى أقاسمك الهموم تعالى
تعالى ترى روحا لى ضعيفة	تردد في جسم يعذب بالي
أيضا حك مأسور وتبكي طليقة	ويسكت محزون ويندب سالى
لقد كنت أولى منك بالدمع والبكا	ولكن دمعى في الشدائد غالى

للهمدانى بالهاء. وبعضهم يرويه بالحاء ، وكان أسيرا. وبات : أى صار حالك كحالي في الضيق والحزن ، والاستفهام إنكارى. ويروى بدله «هل تعلمين بحالي» ونسبة العلم إليها لتنزيلها منزلة العاقل كما في ندائها. وقال «معاذ الهوى» كما يقال «معاذ الله» لعظمة الهوى عنده ، وهو مصدر نائب عن فعله ، أى ألتجئ إلى الهوى ، من دعوى أنك مثلي ، «ما ذقت» يا حمامة «طارقة» الفراق وشبهها بمطعم مكره والدوق تخييل. «وما خطرت الهموم ببال» أى بقلب منك. وأيا : حرف نداء. و «جارتا» أصله جارتى ، فقلبت الياء ألفاً لرفع الصوت. وتكرير النداء فيه معنى التحسر. وادعاء بلادتها بعد تنزيلها منزلة العاقل بعيد «ما أنصف الدهر بيننا» حيث أطلقك وأسرك وأسرنى وأحزننى. والقياس في تعالى . أمر للمؤنثة ، وفي تعاليا للمثنى ، وفي تعالوا لجمع الذكور . فتح اللام على أصلها لأنها عين الفعل ، والضمير تال للامه المقدرة ، وأهل مكة يكسرون الأولى لمناسبة الياء ، ويضمون الثانية لمناسبة الواو تنزيلا لها منزلة لام الفعل. ومنه قوله «أقاسمك الهموم» فلي النصف ولك الآخر. فان قيل : إن قائل هذا الشعر مولد فلا يستشهد بكلامه. قلت : أجيب بأن إيراد من قبيل الاستثناء لا من قبيل الاستبدال. ومذهب الزجاجى أن «هات» بالكسر بمعنى ناولني ، و «تعالى» بالفتح دائما على اللغة المشهورة بمعنى أقبل إلى ، كلاهما اسم فعل لا فعل أمر ، ولعله لعدم تصرفها في هذين المعنيين. وأغرب منه ما نقله السيوطي عن بعضهم : أن أدوات النداء أسماء أفعال متجملة لضمير المتكلم بمعنى أدعو. وقوله «ترى» بفتح الراء على اللغة الأولى ، وبكسرها على الثانية. وتكرير الأمر كتكرير النداء. ومعنى ضعف الروح : عجز حواسها عن الإدراك. و «تردد» أصله : تردد «بالي» أى نخل. وقوله «أيضا حك» استفهام تعجبي بالنسبة للجمللة الأولى ، وتوبيخي بالنسبة للثانية ، وكذلك المصراع الثاني. ويجوز أنه تعجبي في الجميع ، أو توبيخي في الجميع وهو أبعدا ، ويعنى بالمأسور والمحزون نفسه. وبالطليقة والسالى الحمامة. ويجوز أنه أراد العموم ويدخلان فيه دخولا أوليا. و «المأسور» المحبوس وحزنه : لغة قريش. وأحزنه : لغة تميم. ومحزون من الأول. والندبة : رفع الصوت بالبكاء ، والمراد به النوح السابق. والسالى : الصابر وقليل الهموم. والدمع : ماء العين ونزوله منها. والمراد الثاني. وروى «بالدمع مقلة» فمقلة تميز ، والأصل : لقد كانت مقلتي أولى من مقلتك بالدمع. و «غالى» مرتفع وممتنع لتجلد الشامتين.

يطلبون بدمه وقد أهدره الله فقالوا : ما أردنا بالتحاكم إلى عمر إلا أن يحسن إلى صاحبنا بحكومة العدل والتوفيق بينه وبين خصمه ، وما خطر ببالنا أنه يحكم له بما حكم به ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ لا تعاقبهم لمصلحة في استبقائهم ، ولا تزد على كفهم بالموعظة والنصيحة عما هم عليه ﴿وَقُلْ هُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ بالغ في وعظهم بالتخفيف والإنذار. فإن قلت : بم تعلق قوله : ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾^(١)؟ قلت : بقوله : ﴿بَلِيغًا﴾ أى : قل لهم قولاً بليغاً في أنفسهم مؤثراً في قلوبهم يغمون به اغتماماً ، ويستشعرون منه الخوف استشعاراً ، وهو التوعد بالقتل والاستئصال إن نجم منهم النفاق وأطلع قرنه ، وأخبرهم أن ما في نفوسهم من الدغل والنفاق معلوم عند الله ، وأنه لا فرق بينكم وبين المشركين ، وما هذه المكافاة إلا لإظهاركم الإيمان وإسراكم الكفر وإضماره ، فإن فعلتم ما تكشفون به غطاءكم لم يبق إلا السيف. أو يتعلق بقوله : ﴿قُلْ هُمْ﴾ أى قل لهم في معنى أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المطوية على النفاق قولاً بليغاً ، وأن الله يعلم ما في قلوبكم لا يخفى عليه فلا يغنى عنكم إبطانه. فأصلحوا أنفسكم وطهروا قلوبكم وداووها من مرض النفاق ، وإلا أنزل الله بكم ما أنزل بالجاهرين بالشرك من انتقامه ، وشرّاً من ذلك وأغلظ. أو قل لهم في أنفسهم . خاليا بهم ، ليس معهم غيرهم ، مساراً لهم بالنصيحة ، لأنها في السر أنجع ، وفي الإمحاض أدخل . قولاً بليغاً يبلغ منهم ويؤثر فيهم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (٦٤) فَلَا وَرَبَّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٦٥)

(١) قال محمود «إن قلت : بم تعلق قوله في أنفسهم ... الخ»؟ قال أحمد : ولكل من هذه التأويلات شاهد على الصحة. أما الأول فلأن حاصله أمره بتهديدهم على وجه مبلغ صميم قلوبهم وسيق التهديد في قوله : ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاؤُكَ﴾ يشهد له ، فانه أخبر بما سيقع لهم على سبيل التهديد. وأما الثاني فيلائمه من السياق قوله : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يعنى ما انطوت عليه من الخبث والمكر والحيل. ثم أمره بوعظهم والاعراض عن جرائمهم ؛ حتى لا تكون مؤاخذتهم بما مانعة من نصحتهم ووعظهم ، ثم جاء قوله : ﴿وَقُلْ هُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ كالشرح للوعظ ، ولذكر أهم ما يعظم فيه ، وتلك نفوسهم التي علم الله ما انطوت عليه من المدام ، وعلى هذا يكون المراد الوعظ وما يتعلق به. وأما الثالث : فيشهد له سيرته عليه الصلاة والسلام في كتم عناد المنافقين ، والتجاني عن إفصاحهم والستر عليهم ، حتى عد حذيفة رضى الله عنه صاحب سره عليه الصلاة والسلام ، لتخصيصه إياه بالاطلاع على أعيانهم ، وتسميتهم له بأسمائهم ، وأخباره في هذا المعنى كثيرة

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ﴾ وما أرسلنا رسولا قط ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بسبب إذن الله في طاعته ، وبأنه أمر المبعوث إليهم بأن يطيعوه ويتبعوه ، لأنه مؤدّ عن الله ، فطاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ ويجوز أن يراد بتيسير الله وتوفيقه في طاعته ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالتحاكم إلى الطاغوت ﴿جَاؤُكَ﴾ تائبين من النفاق متنصلين عما ارتكبوا ﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ من ذلك بالإخلاص ، وبالعوا في الاعتذار إليك من إيدائك برّد قضائك ، حتى انتصبت شفيعا لهم إلى الله ومستغفراً ﴿لَوْ جَدُّوا اللَّهَ تَوَّابًا﴾ لعلموه توابا ، أى لتاب عليهم. ولم يقل : واستغفرت لهم ، وعدل عنه ^(١) إلى طريقة الالتفات ، تفخيما لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيما لاستغفاره ، وتنبيها على أن شفاعته من اسمه الرسول من الله بمكان ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ معناه فو ربك ، ^(٢) كقوله تعالى ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ﴾ و «لا» مزيدة

(١) قال محمود : وإنما لم يقل واستغفرت لهم لأنه عدل به ... الخ» قال أحمد : وفي هذا النوع من الالتفات خصوصية ، وهي اشتماله على ذكر صفة مناسبة لما أضيف إليه ، وذلك زائد على الالتفات بذكر الأعلام الجامدة ، والله الموفق.

(٢) قال محمود «معناه فو ربك و «لا» مزيدة لتأكيد ... الخ» قال أحمد : يشير إلى أن (لا) لما زيدت مع القسم وإن لم يكن المقسم به ، دل ذلك على أنها إنما تدخل فيه لتأكيد القسم ، فإذا دخلت حيث يكون المقسم عليه نفياً ، تعين جعلها لتأكيد القسم ، طردا للباب. والظاهر عندي والله أعلم : أنها هنا لتوطئة النفي المقسم عليه ، والزمخشري لم يذكر مانعا من ذلك ، وحاصل ما ذكره مجيئها لغير هذا المعنى في الإثبات ؛ وذلك لا يأبى مجيئها في النفي على الوجه الآخر من التوطئة ، على أن في دخولها على القسم المثبت نظراً ، وذلك أنها لم ترد في الكتاب العزيز إلا مع القسم ، حيث يكون بالفعل ، مثل ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ، ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ، ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالْحَنَسِ﴾ ، ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ (فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ) ولم تدخل أيضا إلا على القسم بغير الله تعالى ، ولذلك سر يأبى كونها في آية النساء لتأكيد القسم. ويعين كونها للتوطئة ، وذلك أن المراد بها في جميع الآيات التي عدناها ، تأكيد تعظيم المقسم به ، إذ لا يقسم بالشيء إلا إعظاما له فكأنه بدخولها يقول : إن إعظامي لهذه الأشياء بالمقسم بها كلا إعظام ، يعنى أنها تستوجب من التعظيم فوق ذلك ، وهذا التأكيد إنما يؤتى به رفعا لتوهم كون هذه الأشياء غير مستحقة للتعظيم وللأقسام بها ، فيزاح هذا الوهم بالتأكيد في إبراز فعل القسم مؤكداً بالنفي المذكور. وقد قرر الزمخشري هذا المعنى في دخول ﴿لَا﴾ عند قوله : ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ على وجه يحمل هذا بسطه وإيضاحه ، فإذا بين ذلك ، فهذا الوهم الذي يراد إزاحته في القسم بغير الله مندفع في الأقسام بالله ، فلا يحتاج إلى دخول (لا) مؤكدة للقسم فيتعين حملها على الموطئة ، ولا تكاد تجدها في غير الكتاب العزيز داخلة على قسم مثبت. وأما دخولها في القسم وجوابه نفى فكثير مثل :

ف_____لا وأبي_____ك ابن_____ة الع_____امري	لا ي_____دعى الق_____وم أنى أف_____ر
وكقوله :	
ألا نادى أ_____مام_____ة باحتم_____ال	لتح_____زنى ف_____لا ب_____ك م_____أبالي
وقوله :	
رأى برق_____ا فأوض_____ع ف_____وق بك_____ر	ف_____لا ب_____ك م_____أس_____ال ولا أقام_____ا
وقوله :	
فخ_____الف ف_____لا والله ت_____بط تل_____ة	م_____ن الأرض إلا أن_____ت لل_____ذل ع_____ارف

وهو أكثر من أن يحصى فتأمل هذا الفصل فانه حقيق بالتأمل.

لتأكيد معنى القسم ، كما زيدت في : ﴿لَيْئَلًا يَعْلَمُ﴾ لتأكيد وجود العلم. و ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جواب القسم فإن قلت : هلا زعمت أنها زيدت لتظاهر ﴿فَلَا﴾ في : ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾؟ قلت : يأبى ذلك استواء النفي والإثبات فيه ، وذلك قوله : ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿فِيَمَا شَجَرٍ بَيْنَهُمْ﴾ فيما اختلف بينهم واختلط ، ومنه الشجر لتداخل أغصانه ﴿حَرْجًا﴾ ضيقاً ، أى لا تضيق صدورهم من حكمك ، وقيل : شكا ، لأنّ الشاك في ضيق من أمره حتى يلوح له اليقين ﴿وَيُسَلِّمُوا﴾ وينقادوا ويدعنوا لما تأتى به من قضائك ، لا يعارضوه بشيء ، من قولك : سلم الأمر لله وأسلم له ، وحقيقة سلم نفسه وأسلمها ، إذا جعلها سالمة له خالصة ، و ﴿تَسْلِيماً﴾ تأكيد للفعل بمنزلة تكريره. كأنه قيل : وينقادوا لحكمه انقياداً لا شبهة فيه ، بظاهرهم وباطنهم. قيل : نزلت في شأن المنافق واليهودي. وقيل : في شأن الزبير وحاطب بن أبى بلتعة ؛ وذلك أنهما اختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في شراج من الحرة ، كانا يسقيان بها النخل ، فقال «اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك» ^(١) فغضب حاطب وقال : لأن كان ابن عمك؟ فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : «اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر واستوف حقه ، ثم أرسله إلى جارك» كان قد أشار على الزبير برأى فيه السعة له ولخصمه ؛ فلما أحفظ ^(٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم ، استوعب للزبير حقه في صريح الحكم ، ثم خرجا فمرا على المقداد ، فقال : لمن كان القضاء؟ فقال الأنصارى : قضى لابن عمته ، ولوى شذقه. ففطن يهودى كان مع المقداد فقال : قاتل الله هؤلاء ، يشهدون أنه رسول الله ثم يتهمونونه في قضاء يقضى بينهم ، وإيم الله ، لقد أذنبنا ذنباً مرة في حياة موسى ، فدعانا إلى التوبة منه وقال : اقتلوا أنفسكم ، ففعلنا ، فبلغ قتلانا

(١) قال ابن أبى حاتم : حدثنا عمرو بن عثمان حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن الزهري عن سعيد بن المسيب . قوله تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ . الآية قال : نزلت في الزبير بن العوام ، وحاطب بن أبى بلتعة : اختصما في ماء فقضى النبي صلى الله عليه وسلم أن يسقى الأعلى ثم الأسفل» وأصله في الصحيحين أتم من هذا من غير تسمية حاطب. أخرجاه من طريق الزهري عن عروة قال «اختصم الزبير ورجل من الأنصار في شراج الحرة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك. فقال الأنصارى : يا رسول الله ، إن كان ابن عمك؟ فتلون وجهه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر ، ثم أرسل الماء إلى جارك واستوعب الزبير حقه في صريح الحكم. قال الزبير : فما أحسب هذه الآيات إلا نزلت في ذلك ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية وروى أنهما لما خرجا مرا على المقداد : فقال قاتل الله هؤلاء ، يشهدون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يتهمونونه على قضاء يقضى بينهم ، وإيم الله لقد أذنبنا مرة في حياة موسى عليه السلام فدعانا إلى التوبة منه وقال : اقتلوا أنفسكم ، ففعلنا فبلغ قتلانا سبعين ألفاً في طاعة ربنا حتى رضى عنا فقال ثابت بن قيس بن شماس : أما والله إن الله يعلم منى الصدق ، لو أمرني أن أقتل نفسي لقتلتها» ذكره الثعلبي في تفسيره بغير سند عن الصالحى ، وإسناده إليه أول الكتاب.

(٢) قوله «فلما أحفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم» أى أغضب ، أفاده الصحاح. (ع)

سبعين ألفا في طاعة ربنا حتى رضى عنا. فقال ثابت بن قيس بن شماس : أما والله إنَّ الله ليعلم منى الصدق ، لو أمرنى محمد أن أقتل نفسي لقتلتها. وروى أنه قال ذلك ثابت وابن مسعود وعمار بن ياسر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «والذي نفسي بيده إنَّ من أمتى رجالا الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي»^(١). وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : والله لو أمرنا ربنا لفعلنا ، والحمد لله الذي لم يفعل بنا ذلك ، فنزلت الآية في شأن حاطب ، ونزلت في شأن هؤلاء.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذَا لَا تَأْنِيَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (٦٨)

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أى لو أوجبنا عليهم مثل ما أوجبنا على بنى إسرائيل من قتلهم أنفسهم ، أو خروجهم من ديارهم حين استتيبوا من عبادة العجل ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا﴾ ناس ﴿قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ وهذا توبيخ عظيم. والرفع على البدل من الواو في : ﴿فَعَلُوهُ﴾. وقرئ : إلا قليلا ، بالنصب على أصل الاستثناء ، أو على إلا فعلا قليلا ﴿مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ من اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وطاعته ، والانقياد لما يراه ويحكم به ، لأنه الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ في عاجلهم وآجلهم ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ لإيمانهم وأبعد من الاضطراب فيه ﴿وَإِذَا﴾ جواب لسؤال مقدر ، كأنه قيل وما ذا يكون لهم أيضاً بعد التثبيت ، فقيل : وإذا لو ثبتوا ﴿لَا تَأْنِيَهُمْ﴾ لأن إذا جواب وجزاء ﴿مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ كقوله : ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ في أنَّ لمراد العطاء المتفضل به من عنده وتسميته أجراً ، لأنه تابع للأجر لا يثبت إلا بثباته ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ﴾ ولطفنا بهم ووقفناهم لازدياد الخيرات.

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ (٧٠)

الصديقون : أفاضل صحابة الأنبياء الذين تقدموا في تصديقهم كأبى بكر الصديق رضى الله

(١) لم أجده هكذا ، وإنما ذكره الثعلبي عن الحسن ومقاتل قالا : لما نزلت هذه الآية قال عمر ، وعمار وابن مسعود «والله لو أمرنا الله لفعلنا ، والحمد لله الذي عافانا» فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فقال . فذكره

عنه وصدقوا في أقوالهم وأفعالهم. وهذا ترغيب للمؤمنين في الطاعة ، حيث وعدوا مرافقة أقرب عباد الله إلى الله وأرفعهم درجات عنده ﴿وَحَسَنَ أَوْلِيَّكَ رَفِيقًا﴾ فيه معنى التعجب كأنه قيل : وما أحسن أولئك رفيقا ولا استقلاله بمعنى التعجب. قرئ : وحسن ، يسكون السين. يقول المتعجب : حسن الوجه وجهك! وحسن الوجه وجهك! بالفتح والضم مع التسكين. والرفيق : كالصديق والخليط في استواء الواحد والجمع فيه ، ويجوز أن يكون مفرداً ، بين به الجنس في باب التمييز. وروى أنّ ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم قليل الصبر عنه ، فأتاه يوماً وقد تغير وجهه ونحل جسمه وعرف الحزن في وجهه فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حاله ، فقال : يا رسول الله ، ما بي من وجع غير أني إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك ، فذكرت الآخرة ، فخفت أن لا أراك هناك ، لأنني عرفت أنك ترفع مع النبيين وإن أدخلت الجنة كنت في منزل دون منزلك ، وإن لم أدخل فذاك حين لا أراك أبداً ، فنزلت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه وأبويه وأهله وولده والناس أجمعين^(١)». وحكى ذلك عن جماعة من الصحابة ﴿ذَلِكَ﴾ مبتدأ و ﴿الْفَضْلُ﴾ صفتة و ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ الخبر ، ويجوز أن يكون ذلك مبتدأ ، والفضل من الله خبره ، والمعنى : أنّ ما أعطى المطيعون من الأجر^(٢) العظيم

(١) ذكره الثعلبي بغير سند ، ونقله الواحدي في الأسباب عن الكلبي لكن لم يقل في آخره «فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيده إلى آخره» حكى ذلك عن جماعة من الصحابة قال سعيد بن جبیر : حدثنا خلف بن خليفة عن عطاء بن السائب عن الشعبي قال «جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : أنت أحب إلى من نفسي وولدي وأهلي ومالي ، ولو لا أني أتيتك فأراك لكنت ، أى سأموت وبكى الأنصارى. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ما ييكيك؟ فقال : ذكرت أنك ستموت مع النبيين عليهم الصلاة والسلام ونحن إن دخلنا الجنة كنا دونك فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ﴾ . الآية فقال له : أبشر» ومن طريقه أخرجه البيهقي في الشعب ووصله الطبراني وعنه ابن مردويه ، ومن طريق خالد بن عبد الرحمن عن عطاء بن السائب عن الشعبي عن ابن عباس نحوه ، ورواه الطبري من طريق يعقوب القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبیر نحوه مرسلًا ، ورواه الطبراني في الصغير والواحدى موصولًا من طريق عبد الله بن عمران العابدی عن فضيل بن عياض عن منصور بن إبراهيم عن الأسود عن عائشة رضی الله عنها قالت «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، والله إنك لأحب إلى من نفسي . الحديث بنحوه ، وأخرجه الواحدي من طريق أخرى عن مسروق قال قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . فذكره مختصراً ومن طريق روح عن قتادة كذلك مرسلًا.

(٢) قال محمود : «والمعنى أن ما أعطى المطيعون من الأجر ... الخ» قال أحمد : عقيدة أهل السنة : أن المطيع لا يستحق على الله بطاعته شيئاً ، وأنه مهما أثيب به من دخول الجنة والنجاة من النار ، فذاك فضل من الله لا عن استحقاق ثابت ، فهم يقرون هذه الآية في رجائها ، وأما القدريّة : فيزعمون أن المطيع يستوجب على الله ثواب الطاعة ، وأن المقابل لطاعته من الثواب أجر مستحق كالأجرة على العمل في الشاهد ، ليس بفضل ، وإنما الفضل ما يزيده العبد على حقه من أنواع الثواب وصنوف الكرامة ، فلما وردت هذه الآية ناطقة بأن جملة ما يناله .

ومرافقة المنعم عليهم من الله لأنه تفضل به عليهم تبعاً لثوابهم ﴿وَكَفَى بِاللّٰهِ عَلِيماً﴾ بجزاء من أطاعه أو أراد أنّ فضل المنعم عليهم ومزيتهم من الله ، لأنهم اكتسبوه بتمكينه وتوفيقه وكفى بالله عليماً بعباده فهو يوفقهم على حسب أحوالهم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعاً﴾ (٧١)

﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ الحذر والحذر بمعنى ، كالإثر والأثر ، يقال : أخذ حذره ، إذا تيقظ واحترز من المخوف ، كأنه جعل الحذر آتته التي بقي بها نفسه ويعصم بها روحه. والمعنى : احذروا واحترزوا من العدو ولا تمكنوه من أنفسكم ﴿فَانْفِرُوا﴾ إذا نفرتم إلى العدو. إما ﴿ثُبَاتٍ﴾ جماعات متفرقة سرية بعد سرية ، وإما ﴿جَمِيعاً﴾ أى مجتمعين كوكبة واحدة ، ولا تتخاذلوا فتلقوا بأنفسكم إلى التهلكة. وقرئ : فانفروا بضم الفاء

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَن لَّيْبَطُنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً﴾ (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ (٧٣)

اللام في : ﴿لَمَن﴾ للابتداء بمنزلتها في قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ﴾ وفي ﴿لَيَبْطُنَّ﴾ جواب قسم محذوف تقديره : وإنّ منكم لمن أقسم بالله ليبطئن ، والقسم وجوابه صلة من ، والضمير الراجع منها إليه ما استكن في : ﴿لَيَبْطُنَّ﴾ والخطاب لعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم والمبطئون منهم المنافقون لأنهم كانوا يغزون معهم نفاقاً. ومعنى ﴿لَيَبْطُنَّ﴾ ليتشاكلن وليتخلفن عن الجهاد وبطاً. بمعنى : أبطأ كعتم بمعنى : أعتم ^(١) ، إذا أبطأ ، وقرئ ﴿لَيَبْطُنَّ﴾ بالتخفيف يقال : بطأ على فلان وأبطأ على وبطؤ

. عباد الله فضل من الله ، اضطر الزمخشري إلى ردها إلى معتقده ، فجعل الفضل المشار إليه هو الزيادة التابعة للثواب ، يعنى المستحق ، ثم اتسع في التأويل فذكر وجهها آخر وهو : أن يكون المشار إليه ، مزايا هؤلاء المطيعين في طاعتهم وتمييزهم بأعمالهم ، وجعل معنى كونها فضلاً من الله أنه وفقهم لاكتسابها ومكنهم من ذلك لا غير ، يعنى وأما إحداثها فبقدرهم. وهذا من الطراز الأول ، والحق أن الكل أيضاً فضل من الله بكل اعتبار ، لأن معتقدنا معاشر أهل السنة أن الطاعات والأعمال التي يتميز بها هؤلاء الخواص خلق الله تعالى وفعله ، وأن قدرهم لا تأثير لها في أعمالهم ، بل الله عز وجل يخلق على أيديهم الطاعات ويثيبهم عليها ، فالطاعة إذاً من فضله وثوابها من فضله ، فله الفضل على كل حال والمنة في الفاتحة والمآل ، وكفى بقول سيد البشر في ذلك حجة وقدوة ، فقد قال عليه أفضل الصلاة والسلام «لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله ولكن بفضل الله ورحمته» قيل : ولا أنت يا رسول الله ، قال «ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة» قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا. اللهم اختم لنا باقتفاء السنة ، وأدخلنا بفضلك المحض الجنة»

(١) قوله «كعتم بمعنى أعتم» في الصحاح «العتم : الإبطاء». (ع)

نحو : ثقل ، ويقال : ما بظاً بك ، فيعدى بالباء ، ويجوز أن يكون منقولاً من بطؤ ، نحو؟ ثقل من ثقل ، فيراد ليططن غيره وليثبطنه عن الغزو ، وكان هذا ديدن المنافق عبد الله ابن أبيّ ، وهو الذي ثبط الناس يوم أحد ﴿فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ من قتل أو هزيمة ^(١) ﴿فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ﴾ من فتح أو غنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ وقرأ الحسن (ليقولن) بضم اللام إعادة للضمير إلى معنى (من) لأن قوله ﴿لَمَنْ لَيَبْطِئَنَّ﴾ في معنى الجماعة وقوله ﴿كَأَنَّ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ اعتراض بين الفعل الذي هو ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ وبين مفعوله وهو ﴿يَا لَيْتَنِي﴾ والمعنى كأن لم تتقدم له معكم موادة ، لأن المنافقين كانوا يوادون المؤمنين ويصادقونهم في الظاهر ، وإن كانوا يبعون لهم الغوائل في الباطن. والظاهر أنه تحكم. لأنهم كانوا أعدى عدو للمؤمنين وأشدّهم حسداً لهم ، فكيف يوصفون بالموادة إلا على وجه العكس تحكمًا بحالهم. وقرئ : فأفوز بالرفع عطفاً على كنت معهم لينتظم الكون معهم ، والفوز معنى التمني ، فيكونا متمنين جميعاً ، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، بمعنى فأنا أفوز في ذلك الوقت

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٧٤) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)

﴿يَشْرُونَ﴾ بمعنى يشترون ويبيعون قال ابن مفرغ :

وَشَرَيْتُ بُرْدًا لَيْتَنِي _____ مِنْ بَعْدِ بُرْدٍ كُنْتُ هَامَةً ^(٢)

(١) قال محمود فيه : «المراد بالمصيبة القتل والهزيمة ... الخ» قال أحمد : وفي هذه القراءة نكتة غريبة ، وهي الاعادة إلى لفظ من بعد الاعادة إلى معناها ، وهو مستغرب أنكر بعضهم وجوده في الكتاب العزيز لما يلزم من الإجمال بعد البيان ، وهو خلاف قانون البلاغة ، إذ الاعادة إلى لفظها ليس بمفصح عن معناها ، بل تناوله للمعنى مجمل مبهم ، فوقوعه بعد البيان عسر ، ومنهم من أثبتته وعد موضعين ، وهذه الآية على هذه القراءة ثالث ، وسيأتى بيان شاف إن شاء الله تعالى

(٢) وشـ ربت بـ رداً لـيتـ ني _____ من بعد بـ رداً كنت هامة _____
يا هامة تـدعو صـدى _____ بين المشـ رق فالـمام _____

فالذين يشترتون الحياة الدنيا بالآخرة هم المبطلون ، وعظوا بأن يغيروا ما بهم من النفاق ويخلصوا الإيمان بالله ورسوله ، ويجاهدوا في سبيل الله حق الجهاد ، والذين يبيعون هم المؤمنون الذين يستحبون الآجلة على العاجلة ويستبدلون بها ، والمعنى : إن صدّ الذين مرضت قلوبهم وضعفت نياتهم عن القتال فليقاتل الثابتون المخلصون ووعد المقاتل في سبيل الله ظافراً أو مظفوراً به إيتاء الأجر العظيم على اجتهداه في إعزاز دين الله ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ فيه وجهان أن يكون مجروراً عطفاً على سبيل الله أى في سبيل الله وفي خلاص المستضعفين ، ومنصوباً ^(١) على اختصاص يعنى واختص من سبيل الله خلاص المستضعفين لأنّ سبيل الله عام في كل خير ، وخلاص المستضعفين من المسلمين من أيدى الكفار من أعظم الخير وأخصه والمستضعفون هم الذين أسلموا بمكة وصدّهم المشركون عن الهجرة فبقوا بين أظهرهم مستدلين مستضعفين يلقون منهم الأذى الشديد ، وكانوا يدعون الله بالخلاص ويستنصرونه فيسر الله لبعضهم الخروج إلى المدينة ، وبقي بعضهم إلى الفتح حتى جعل الله لهم من لدنه خير ولى وناصر وهو محمد صلى الله عليه وسلم فتولاهم أحسن التولي ونصرهم أقوى النصر ، ولما خرج استعمل على أهل مكة عتاب بن أسيد فرأوا منه الولاية والنصرة كما أرادوا ، قال ابن عباس : كان ينصر الضعيف من القوى حتى كانوا أعز بها من الظلمة. فإن قلت : لم ذكر الولدان؟ قلت : تسجيلاً بإفراط ظلمهم ، حيث بلغ أذاهم الولدان غير المكلفين ، إرغاماً لآبائهم وأمهاتهم ومبغضة لهم لمكانهم ، ولأن المستضعفين كانوا يشركون صبيانهم في دعائهم استنزالاً لرحمة الله بدعاء صغارهم الذين لم يذنبوا ، كما فعل قوم يونس وكما وردت السنة بإخراجهم في الاستسقاء ، وعن ابن عباس : كنت أنا وأمى من المستضعفين من النساء والولدان ، ويجوز أن يراد بالرجال والنساء الأحرار والحرائر ، وبالولدان العبيد والإماء ، لأنّ العبد والأمة يقال لهما الوليد والوليدة ، وقيل للولدان

. لابن مفرغ. باع غلامه بردا عند انصرافه من سجستان إلى البصرة ، فندم على ذلك ودعا على نفسه بالقتل. ويقال : اشتراه إذا أخذه ودفع ثمنه. وشراه إذا دفعه وأخذ ثمنه. وكانت العرب تزعم أن عظام رأس القتييل تصير هامة ، أى بومة تزقو وتصيح : أدركوني ، أدركوني حتى يؤخذ بثأره. والصدى : ذكر البوم. والمشرق . كمعظم . واليمامة : موضعان بعينهما بينهما مفازة. ف قوله «كنت هامة» كناية عن أن يكون قتيلاً. ويا للتنبيه أو للنداء. والمنادى محذوف وهامة بيان أو بدل من هامة الأولى ، وغايرتها بانضمام الصفة إليها وهي قوله «تدعو صدى» أى تصيح على ذكرها. وهذا من المبالغة في الإشارة واللفظ في العبارة ، حيث ضرب عن جانب المعنى المراد صفحا ، حتى كأنه يتكلم في هامة حقيقية تزقو على ذكرها ، بل أنّها هامة تطير وتصيح مع الهامات في المفاوز ، وبعد هذا فالكلام مجاز عن شدة تحسره وتخزنه وندمه على ما فعل.

(١) قال محمود : «يجوز أن يكون المستضعفين مجروراً. إلى قوله . ومنصوباً ... الخ» قال أحمد : وفيه على هذا مبالغة في الحث على خلاصهم من جهتين : إحداهما . التخصيص بعد التعميم فانه يقتضى إضمار الناصب الذي هو اختص ، ولو لا النصب لكان التخصيص معلوماً من إفراده بالذكر ، ولكن أكد هذا المعلوم بطريق اللزوم بأن أخرجه إلى النطق.

والولائد «الولدان» لتغليب الذكور على الإناث كما يقال الآباء والإخوة. فإن قلت : لم ذكر الظالم وموصوفه مؤنث ^(١)؟ قلت : هو وصف للقرية إلا أنه مسند إلى أهلها ، فأعطى إعراب القرية لأنه صفتها ، وذكر لإسناده إلى الأهل كما تقول من هذه القرية التي ظلم أهلها ، ولو أنت فقيل : الظالمة أهلها ، لجاز لا لتأنيث الموصوف ، ولكن لأن الأهل يذكر ويؤنث. فإن قلت : هل يجوز من هذه القرية الظالمين أهلها؟ قلت : نعم ، كما تقول : التي ظلموا أهلها ، على لغة من يقول أكلوني البراغيث ، ومنه ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾. رغب الله المؤمنين ترغيبا وشجعهم تشجيعا بإخبارهم أنهم إنما يقاتلون في سبيل الله. فهو وليهم وناصرهم ، وأعداؤهم يقاتلون في سبيل الشيطان فلا ولي لهم إلا الشيطان ، وكيد الشيطان للمؤمنين إلى جنب كيد الله للكافرين أضعف شيء وأوهنه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْ لَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٧٧)

﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ أى كفوها عن القتال وذلك أن المسلمين كانوا مكفوفين عن مقاتلة الكفار ما داموا بمكة ، وكانوا يتمنون أن يؤذن لهم فيه ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ بالمدينة كع فريق منهم ^(٢) لا شكا في الدين ولا رغبة عنه ، ولكن نفورا عن الإخطار بالأرواح وخوفا من الموت ﴿كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ من إضافة المصدر ^(٣) إلى المفعول ، فإن قلت : ما محل ﴿كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾

(١) قال محمود : «إن قلت لم ذكر الظالم وموصوفه مؤنث ... إلخ»؟ قال أحمد : ووقفت على نكتة في هذه الآية حسنة ، وهي أن كل قرية ذكرت في الكتاب العزيز فالظلم إليها ينسب بطريق المجاز كقوله : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ إلى قوله : ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ﴾ وقوله : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِشَتَهَا﴾ وأما هذه القرية في سورة النساء فينسب الظلم إلى أهلها على الحقيقة ، لأن المراد بها مكة فوقرت عن نسبة الظلم إليها تشريفاً لها شرفها الله تعالى.

(٢) قوله «كع فريق منهم» أى جبن. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قال محمود : «قوله تعالى : ﴿كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ من إضافة المصدر ... إلخ» قال أحمد : وقد مر نظير هذه الآية في الاعراب وهو قوله تعالى : ﴿فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ وقد قرأ الزمخشري ثم ما أذعن له هنا وهو الجر عطفاً على الذكر ، وبينما ثم جوازه بالتأويل الذي ذكره الزمخشري هاهنا ، وهو إلحاقه بباب جد جده ، وأصل هذا الاعراب لأبى الفتح ، وقد بينت جواز الجر عطفاً على الذكر من غير احتياج إلى التأويل المذكور ، وأجرى مثله هاهنا وهو وجه حسن استنبطته من كتاب سيبويه ، فإن أصبت فمن الله ، وإن أخطأت فمنى ، والله الموفق.

من الإعراب؟ قلت : محله النصب على الحال من الضمير في ﴿يُخْشَوْنَ﴾ أى يخشون الناس مثل أهل خشية الله ، أى مشبهين لأهل خشية الله ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشِيَّةً﴾ بمعنى أو أشد خشية من أهل خشية الله ، وأشد معطوف على الحال. فإن قلت : لم عدلت عن الظاهر وهو كونه صفة للمصدر ولم تقدر يخشون خشية مثل خشية الله ، بمعنى مثل ما يخشى الله؟ قلت : أبى ذلك قوله : ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشِيَّةً﴾ لأنه وما عطف عليه في حكم واحد ، ولو قلت يخشون الناس أشد خشية؟ لم يكن إلا حالا عن ضمير الفريق ولم ينتصب انتصاب المصدر ، لأنك لا تقول خشي فلان أشد خشية ، فتنصب خشية وأنت تريد المصدر ، إنما تقول أشد خشية فتجرّها ، وإذا نصبتها لم يكن أشد خشية إلا عبارة عن الفاعل حالا منه ، اللهم إلا أن تجعل الخشية خاشية وذات خشية ، على قولهم جد جده فتزعم أن معناه يخشون الناس خشية مثل خشية الله ، أو خشية أشد خشية من خشية الله ، ويجوز على هذا أن يكون محل ﴿أَشَدَّ﴾ مجروراً عطفاً على : ﴿كَخَشِيَةِ اللَّهِ﴾ تريد كخشية الله أو كخشية أشد خشية منها ﴿لَوْ لَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ استزادة في مدة الكف ، واستمهال إلى وقت آخر ، كقوله : ﴿لَوْ لَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَقَ﴾. ﴿وَلَا تَظْلَمُونَ فِتْيَالَ﴾ ولا تنقصون أدنى شيء من أجوركم على مشاق القتال فلا ترغبوا عنه ، وقرئ : ولا يظلمون ، بالياء.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَا لَهُمْ لَوْلَا الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (٧٨)

. الذي ذكر سيبويه جواز قول القائل . زيد أشجع الناس رجلا . ثم قال سيبويه فرجل واقع على المبتدأ ولك أن تجره فتقول . زيد أشجع رجل . وهو الأصل انتهى المقصود من كلام سيبويه. وإذا بنيت عليه جاز أن تقول خشي فلان أشد خشية ، فتنصب الخشية وأنت تريد المصدر ، كأنك قلت خشي فلان خشية أشد خشية ، فتوقع خشية الثانية على الأولى ، وإن نصبتها فهو كما قلت : زيد أشجع رجلا ، فأوقعت رجلا على زيد وإن كنت نصبتَه فهو على الأصل أن تقول أشد خشية فتجرّها ، كما كان الأصل أن تقول زيد أشجع رجل فتجره ، وما منع الزمخشري من النصب مع وقوعه على المصدر إلا أن مقتضى النصب في مثله خروج المنصوب عن الأول ، بخلاف المجرور ، ألا تراك تقول زيد أكرم أبا ، فيكون زيد من الأبناء وأنت تفضل أبا ، وتقول زيد أكرم أب ، فيكون من الآباء وأنت تفضله ، فلو ذهبت توقع أشد على الخشية الأولى وقد نصبت مميزها ، لزم خروج الثاني عن الأول وهو محال ، إذ لا تكون الخشية خشية فتحتاج إلى التأويل المذكور ، وهو جعل الخشية الأولى خاشية حتى تخرجها عن المصدر المميز لها ، وقد بينا في كلام سيبويه جواز النصب مع وقوع الثاني على الأول ، كما لو جررت ، فمثله يجوز في الآية من غير تأويل والله أعلم. وقد مضت وجوه من الاعراب في آية البقرة يتعذر بعضها هنا لمنافرة المعنى والله الموفق. ومثل هذه الأنواع من الاعراب منزل من العربية منزلة اللب الخالص ، فلا يوصل إليها إلا بعد تجاوز جملة القشور ، وربك الفتاح العليم.

وهو قول نحوى سيبوى. ويجوز أن يتصل بقوله : ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أى ولا تنقصون شيئاً مما كتب من أجالكم. أينما تكونوا في ملاحم حروب أو غيرها ، ثم ابتداء قوله : ﴿يُذَرِّكُمْ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ والوقف على هذا الوجه على أينما تكونوا والبروج : الحصون. مشيدة مرفعة. وقرئ ﴿مُشِيدَةٍ﴾ من شاد القصر إذا رفعه أو طلاه بالشيد وهو الحصن. وقرأ نعيم بن ميسرة ﴿مُشِيدَةٍ﴾ بكسر الياء وصفا لها بفعل فاعلها مجازاً كما قالوا : قصيدة شاعرة ، وإنما الشاعر فارضها. السيئة تقع على البلية والمعصية. والحسنة على النعمة والطاعة. قال الله تعالى : ﴿وَيَلُونَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وقال : ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾. والمعنى : وإن تصبهم نعمة من خصب ورخاء نسبوها إلى الله ، وإن تصبهم بلية من فحط وشدة أضافوها إليك وقالوا : هي من عندك ، وما كانت إلا بشؤمك ، كما حكى الله عن قوم موسى : ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ وعن قوم صالح : ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ وروى عن اليهود . لعنت . أنها تشاءمت برسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : منذ دخل المدينة نقصت ثمارها وغلّت أسعارها ، فردّ الله عليهم ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يبسط الأرزاق ويقبضها على حسب المصالح ﴿لَا يَكَادُونَ يَقْفَهُونَ حَدِيثًا﴾ فيعلموا أن الله هو الباسط القابض ، وكل ذلك صادر عن حكمة وصواب ثم قال ﴿مَا أَصَابَكُمْ﴾ يا إنسان خطابا عاما ﴿مِنْ حَسَنَةٍ﴾ أى من نعمة وإحسان ﴿فَمِنْ اللَّهِ﴾ تفضلا منه وإحسانا وامتنانا وامتحانا ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ﴾ أى من بلية ومصيبة فمن عندك ، لأنك السبب فيها بما اكتسبت يداك ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ وعن عائشة رضى الله عنها : ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب ، حتى الشوكة يشاكها ، وحتى انقطاع شسع نعله إلا بذنب ، وما

. لزهير بن أبى سلمى ، يمدح هرم بن سنان. والسائل : العطاء. وعفوا : حال منه ، أى سهلا عليه ، أى قليلا عنده وإن كثر في الواقع ، أو بغير سؤال. ويظلم : أى يسأل فوق طاقته فيتكلف ويعطى. ويروى : فيظلم ، وأصله : يظتلم ، مطاوع ظلمه. قلبت تاؤه طاء على الأصل في تاء الافتعال بعد المطابقة ، ثم قلبت الطاء ظاء معجمة على خلاف الأصل في القلب للادغام ، وأدغمت فيها الأولى. وروى «فيظلم» وأصله : يظتلم أيضا ، قلبت التاء طاء مهملة ، ثم قلبت الطاء ظاء مهملة أيضا على القياس وأدغمت في الثانية وروى «فيظلم» بمها معا. وقوله «أحيانا» فيه نوع احتراس من توهم وصفه بالعقر المستمر. «وإن أتاه خليل» أى متصف بالخلّة . بالفتح . وهي الفقر والفاقة يبيح له أمواله ولا يتعلل. فقوله «يقول» ... إلى آخره» كناية عن ذلك ، وهو جواب الشرط. ورفع لأن الشرط ماض لم يؤثر العامل في لفظه الجزم ، وقد يرفع جواب الشرط المضارع لتخيل أنه ماض ، كمسئلة العطف على التوهم. وقيل إنه على تقدير الفاء ، أى فهو يقول. وقيل : التقدير يقول : لا غائب مالى إن أتاه خليل ؛ فالجواب محذوف دل عليه المذكور ، وهو قول سيبويه ، وما قبله قول الكوفيين ، وروى عنه أيضا. و «المسغبة» الجوع. و «حرم» كحذر ، مصدر حرمه إذا منعه. والمراد به المفعول ، أى ليس محروما ومنوعا عن السائلين. ويجوز أنه صفة مشبهة ، كحذر وفرح بمعنى صنع. ولو قرئ «حرم» بالفتح بمعنى حرام ، كزمن وزمان لجاز. وغايته أن يكون في القافية السناد.

يعفو الله أكثر ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ أى رسولا للناس جميعا لست برسول العرب وحدهم ، أنت رسول العرب والعجم ، كقوله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ ، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على ذلك ، فما ينبغي لأحد أن يخرج عن طاعتك واتباعك.

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ (٨٠)

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ لأنه لا يأمر إلا بما أمر الله به ولا ينهى إلا عما نهى الله عنه فكانت طاعته في امتثال ما أمر به والانتفاء عما نهى عنه طاعة لله. وروى أنه قال : «من أحبنى فقد أحب الله ، ومن أطاعنى فقد أطاع الله» ^(١) فقال المنافقون : ألا تسمعون إلى ما يقول هذا الرجل ، لقد قارف الشرك وهو ينهى أن يعبد غير الله! ما يريد هذا الرجل إلا أن نتخذه ربا كما اتخذت النصارى عيسى ، فنزلت ﴿وَمَنْ تَوَلَّى﴾ عن الطاعة فأعرض عنه ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ إلا نذيرا ، لا حفيظا ومهيمننا عليهم تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها وتعاقبهم ، كقوله : ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (٨١)

﴿وَيَقُولُونَ﴾ إذا أمرتهم بشيء ﴿طَاعَةٌ﴾ بالرفع أى أمرنا وشأننا طاعة. ويجوز النصب بمعنى أطعناك طاعة. وهذا من قول المرتسم : سمعا وطاعة ، وسمع وطاعة. ونحوه قول سيويه : وسمعنا بعض العرب الموثوق بهم يقال له : كيف أصبحت؟ فيقول : حمد الله وثناء عليه ، كأنه قال : أمرى وشأنى حمد الله. ولو نصب حمد الله وثناء عليه. كان على الفعل والرفع يدل على ثبات الطاعة واستقرارها ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ﴾ زورت طائفة وسوت ﴿غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ خلاف ما قلت وما أمرت به. أو خلاف ما قالت وما ضمنت من الطاعة ، لأنهم أبطلوا الرد لا القبول ، والعصيان لا الطاعة. وإنما ينافقون بما يقولون ويظهرون. والتببيت : إما من البيتوتة لأنه قضاء الأمر وتدييره بالليل ، يقال : هذا أمر بيت بليل. وإما من أبيات الشعر ، لأن الشاعر يدبرها ويسويها ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ يثبتته في صحائف أعمالهم ، ويجازيهم عليه على سبيل الوعيد. أو يكتبه في جملة ما يوحى إليك فيطلعك على أسرارهم فلا يحسبوا أن إبطائهم يغنى عنهم ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تحدّث نفسك بالانتقام منهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في شأنهم ، فإنّ

(١) لم أجده.

الله يكفيك معرّتهم^(١) وينتقم لك منهم إذا قوى أمر الإسلام وعز أنصاره. وقرئ ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ﴾ بالإدغام وتذكير الفعل ، لأنّ تأنيث الطائفة غير حقيقي ، ولأنّها في معنى الفريق والفوج.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٨٢)

تدبّر الأمر : تأمّله والنظر في إدباره وما يؤل إليه في عاقبته ومنتهاه ، ثم استعمل في كل تأمل ؛ فمعنى تدبر القرآن : تأمل معانيه وتبصر ما فيه ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ لكان الكثير منه مختلفا متناقضا قد تفاوت نظمه وبلاغته ومعانيه ، فكان بعضه بالغا حدّ الإعجاز ، وبعضه قاصرا عنه يمكن معارضته ، وبعضه إخبارا بغيب قد وافق المخبر عنه ، وبعضه إخبارا مخالفا للمخبر عنه ، وبعضه دالا على معنى صحيح عند علماء المعاني. وبعضه دالا على معنى فاسد غير ملتئم ، فلما تجاوب كله بلاغة معجزة فائقة لقوى البلغاء وتناصر صحة معان وصدق إخبار ، علم أنه ليس إلا من عند قادر على ما لا يقدر عليه غيره ، عالم بما لا يعلمه أحد سواه. فإن قلت : أليس نحو قوله : ﴿فَإِذَا هِيَ تُعْبَأُ مُبِينٌ﴾ ، ﴿كَأَنَّهُمَا جَانٌّ﴾ ، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلَنَّهِنَّ أجمعين﴾ ، ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ من الاختلاف؟ قلت : ليس باختلاف عند المتدبرين.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٣) فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْلَفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ (٨٤)

هم ناس من ضعفة المسلمين^(٢) الذين لم تكن فيهم خبرة بالأحوال ولا استبطان للأمر.

(١) قوله «معرّتهم» أى إثمهم. وعبارة النسفي «مضرّتهم» فحرر. (ع)

(٢) قال محمود : «هم ناس من ضعفة المسلمين الذين لم تكن فيهم خبرة بالأحوال ... الخ» قال أحمد : وفي اجتماع الهمزة والباء على التعدية نظر ، لأنهما متعاقبتان وهو الذي اقتضى عند الزمخشري قوله في الوجه الثاني : فعلوا الاذاعة ليخرجها عن الباء المعاقبة للهمزة ، ثم في هذه الآية تأديب لمن يحدث بكل ما يسمع ، وكفى به كذبا ، وخصوصا عن مثل السرايا والمناصبين الأعداء والمقيمين في نحر العدو ، وما أعظم المفسدة في لهج العامة بكل ما يسمعون من أخبارهم ، خيرا أو غيره. ولقد جرينا ذلك في زماننا هذا منذ طرق العدو المخدول البلاد . طهرها الله من دنسه ، وصافها عن رجسه ونجسه ، وعجل للمسلمين الفتح وأنزل عليهم السكينة والنصر.

كانوا إذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمن وسلامة أو خوف وخلل ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾ وكانت إذاعتهم مفسدة ، ولو ردوا ذلك الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أولى الأمر منهم . وهم كبراء الصحابة البصراء بالأمر أو الذين كانوا يؤمرون منهم . ﴿لَعَلِمَهُ﴾ لعلم تدبير ما أخبروا به ﴿الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾ الذين يستخرجون تدبيره بفطنهم وتجاربهم ومعرفتهم بأمر الحرب ومكائدها . وقيل : كانوا يقفون من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولى الأمر على أمن ووثوق بالظهور على بعض الأعداء ، أو على خوف واستشعار ، فيذيعونه فينتشر فيبلغ الأعداء ، فتعود إذاعتهم مفسدة . ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر وفوضوه إليهم وكانوا كأن لم يسمعوا ، لعلم الذين يستنبطون تدبيره كيف يدبرونه وما يأتون ويذرون فيه . وقيل : كانوا يسمعون من أفواه المنافقين شيئاً من الخبر عن السرايا مظنوناً غير معلوم الصحة فيذيعونه ، فيعود ذلك وبالأعلى المؤمنين . ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر وقالوا نسكت حتى نسمعه منهم ونعلم هل هو مما يذاع أو لا يذاع ، لعلمه الذين يستنبطونه منهم ، لعلم صحته وهل هو مما يذاع أو لا يذاع هؤلاء المذيعون ، وهم الذين يستنبطونه من الرسول وأولى الأمر ، أى يتلقونه منهم ويستخرجون علمه من جهتهم . يقال : أذاع السر ، وأذاع به . قال :

أَذَاعَ فِي النَّاسِ حَسْبِي كَأَنَّهُ بَعْلِيَاءَ نَارٍ أَوْقَدَتْ بِثَقُوبِ^(١)

ويجوز أن يكون المعنى فعلوا به الإذاعة ، وهو أبلغ من أذاعوه . وقرئ ﴿لَعَلِمَهُ﴾ بإسكان اللام كقوله :

فَإِنْ أَهْجَاهُ يَضْجَرُ كَمَا ضَجَرَ بَازِلٌ مِّنَ الْأُذْمِ دَبْرَتْ صَفْحَتَاهُ وَغَارِيَّتُهُ^(٢)

والنبط : الماء يخرج من البئر أول ما تحفر ، وإنباطه واستنباطه : إخراج واستخراجه ، فاستعير لما يستخرجه الرجل بفضل ذهنه من المعاني والتدابير

فيما يعضل ويهم ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ

(١) أمننت على السر امراءاً غير حازم ولكن في النص ح غير مريب
أذاع به في الناس حسبي كأنه بعلياء نار أوقدت بثقوب

لأبي الأسود الدؤلي . والحازم : السديد الرأي . ويقال : أذاعه إذا أفشاه وأظهره ، ويضمن معنى التحدث أيضاً فيقال : أذاع به أى تحدث به فأظهره . والعلياء : الأرض المرتفعة . والثقوب : آلة تنقب بها النار فتشتعل . يقول : وضعت السر عند من لا يصونه ، وغرني صدق نصحه فأفشاه بين الناس . حتى كأنه نار في أكمة عالية أشعلت بالثقوب ، فتكون أشد ظهوراً .
(٢) ضجر البعير : كثر رغاؤه من ثقل الحمل . والبازل البعير الذي انشق نابه ، وذلك في السنة الثامنة أو التاسعة .

والأدم : الشديديات البياض : جمع آدم أى شديد البياض ، وربما علتة صفرة ، وزان حمر وأحمر ، خصها لركة جلودها . والدبر : الانجرار والانتقاب من الرجل . والغارب : العظم الناشئ في الظهر . وضجر ، ودبر : فعلان ماضيان من باب تعب ، سكن وسطهما تخفيفاً . يقول : إن أذمه يتضجر كتضجر ذلك البعير من حمله .

وَرَحْمَتُهُ وهو إرسال الرسول ، وإنزال الكتاب ^(١) ، والتوفيق **لَا تَتَّبِعْتُمُ الشَّيْطَانَ** لبقيتكم على الكفر **إِلَّا قَلِيلًا** منكم. أو إلا اتباعا قليلا ، لما ذكر في الآي قبلها تثبطهم عن القتال ، وإظهارهم الطاعة وإضمارهم خلافها. قال : **﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾** إن أفردوك وتركوك وحدك **﴿لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾** غير نفسك وحدها أن تقدّمها إلى الجهاد ، فإنّ الله هو ناصرك لا الجنود ، فإن شاء نصرك وحدك كما ينصرك وحولك الألوف. وقيل : دعا الناس في بدر الصغرى إلى الخروج ، وكان أبو سفيان واعد رسول الله صلى الله عليه وسلم اللقاء فيها ، فكره بعض الناس أن يخرجوا فنزلت ، فخرج وما معه إلا سبعون لم يلو على أحد ، ولو لم يتبعه أحد لخرج وحده ، وقرئ (لا تكلف) بالجزم على النهي. ولا نكلف : بالنون وكسر اللام ، أى لا نكلف نحن إلا نفسك وحدها **﴿وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ﴾** وما عليك في شأنهم إلا التحريض فحسب ، لا التعنيف بهم **﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** وهم قريش ، وقد كف بأسهم فقد بدا لأبي سفيان وقال : هذا عام مجذب ، وما كان معهم زاد إلا السويق ، ولا يلقون إلا في عام مخصب فرجع بهم **﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾** من قريش **﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾** تعديا.

(١) عاد كلامه. قال : «ومعنى ولو لا فضل الله عليكم ورحمته : ولو لا إرسال الرسول وإنزال الكتاب ... الخ» قال أحمد : وفي تفسير الزمخشري هذا نظر ، وذلك أنه جعل الاستثناء من الجملة التي وليها بناء على ظاهر الاعراب» وأغفل المعنى ، وذلك أنه يلزم على ذلك جواز أن ينتقل الإنسان من الكفر إلى الإيمان ، ومن اتباع الشيطان إلى عصيانه وخزيه ، وليس لله عليه في ذلك فضل. ومعاذ الله أن يعتقد ذلك. وبيان لزومه أن لو لا حرف امتناع لوجود ، وقد أبانت امتناع اتباع المؤمنين للشيطان ، فإذا جعلت الاستثناء من الجملة الأخيرة ، فقد سلبت تأثير فضل الله في امتناع الاتباع عن البعض المستثنى ضرورة ، وجعلت هؤلاء المستثنين مستبدين بالإيمان وعصيان الشيطان الداعي إلى الكفر ، بأنفسهم لا بفضل الله. ألا تراك إذا قلت لمن تذكره بحقك عليك : لو لا مساعدتي لك لسلبت أموالك إلا قليلا ، كيف لم تجعل لمساعدتك أثرا في بقاء القليل للمخاطب ، وإنما مننت عليه بتأثير مساعدتك في بقاء أكثر ماله لا في كله. ومن المحال أن يعتقد موحد مسلم أنه عصم في شيء من الأشياء من اتباع الشيطان إلا بفضل الله تعالى عليه. أما قواعد أهل السنة فواضح أن كل ما يعد به العبد عاصيا للشيطان من إيمان وعمل خير ، مخلوق لله تعالى ، وواقع بقدرته ، ومنعم على العبد به. وأما المعتزلة فهم وإن ظنوا أن العبد يخلق لنفسه إيمانه وطاعته إلا أنهم لا يخالفون في أن فضل الله منسحب عليه في ذلك ، لأنه خلق له القدرة التي بها خلق العبد ذلك على زعمهم ووفقه لارادة الخير ، فقد وضح لك تعذر الاستثناء من الجملة الأخيرة على تفسير الزمخشري ، وما أراه إلا واهما مسترسلا على المألوف في الاعراب ، وهو إعادة الاستثناء إلى ما يليه من الجمل ، مهما لل نظر في المعنى. ومن ثم اتخذ القاضي أبو بكر رضى الله عنه الاستثناء في هذه الآية إلى ما قبل الجملة الأخيرة فطنة منه ويقظة ، ولأنه إمام مؤيد في نظره مسود في فكره ، ثم اتخذ القاضي رضى الله عنه هذه الآية وزره في الرد على من زعم الجزم بعود الاستثناء المتعقب للجمل إلى الأخيرة ، ظنا منه أن ذلك واجب لا يسوغ سواه. ثم يقف في عوده إلى ما تقدم خاصة. وقد بينت عند قوله تعالى : **﴿فَمَنْ شَرَبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾** أن الاستثناء في هذه الآية أيضاً يتعين عوده إلى الأولى ، ويتعذر رده إلى الأخيرة ، لأن المعنى بآباه ، وهي مؤازرة للقاضي في الرد على من حتم عود الاستثناء إلى الأخيرة ، والله الموفق.

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾ (٨٥)

الشفاعة الحسنة : هي التي روعي بها حق مسلم ، ودفع بها عنه شر أو جلب إليه خير. وابتغى بها وجه الله ولم تؤخذ عليها رشوة ، وكانت في أمر جائز لا في حدٍّ من حدود الله ولا في حق من الحقوق. والسيئة : ما كان بخلاف ذلك. وعن مسروق أنه شفع شفاعته فأهدى إليه المشفوع جارية ، فغضب وردّها وقال : لو علمت ما في قلبك لما تكلمت في حاجتك ، ولا أتكلم فيما بقي منها وقيل : الشفاعة الحسنة : هي الدعوة للمسلم ، لأنها في معنى الشفاعة إلى الله. وعن النبي صلى الله عليه وسلم : «من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استحجبت له ^(١) قال له الملك : ولك مثل ذلك ، فذلك النصيب» والدعوة على المسلم بضد ذلك ﴿مُقِيتًا﴾ شهيداً حفيظاً. وقيل : مقتدرًا. وأقات على الشيء ، ^(٢) قال الزبير بن عبد المطلب :

وَذِي ضِرْنٍ نَقَيْتُ الشُّوْءَ عَنْهُ وَكُنْتُ عَلَى إِسَاءَتِهِ مُقِيتًا ^(٣)
وقال السموأل :

أَلِي الْفَضْلُ أَمْ عَلَيَّ إِذَا حُورِ سَبَبْتُ إِنِّي عَلَى الْحَسَابِ مُقِيتٌ ^(٤)
واشتقاقه من القوت لأنه يمسك النفس ويحفظها.

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي الدرداء ، بلفظ «قالت الملائكة : آمين ، ولك بمثله».

(٢) قوله «وأقات على الشيء» لعل بعده سقطا تقديره : اقتدر عليه. (ع)

(٣) للزبير بن عبد المطلب. والضغن : الحقد. والاقانة : الاقتدار. وروى الصاغاني : أقيت. وروى بعده :

يبييت اللييل مرتفقًا ثقيلًا
علي ففرش الفتاة ومما أبيت
وططن إلى مننعه مؤذيات
كمما تؤذي الجذامير البروت
والمرتفق : المتكئ على مرفقه. وتعن : تسرع وتظهر. والجذمار : ما بقي من أصل السعفة. والبروت : الفأس ، وهي فاعل تؤذي.

(٤) ليبيت شعري وأشعرن إذا مـا
قربوها منشورة ودعيت
ألى الفضل أم علي إذا حـو
سببت إني على الحسب مقيت
ينفع الطيب القليل من الرز
ق ولا ينفع الكثير الخبيث

للسموأل الغساني اليهودي. وأشعرن : اعتراض ، أى لا حاجة إلى ثمين الشعور ، فإني أعلم أن من عمل خيراً يره ، ومن عمل شراً يره وتوكيد الفعل المثبت الخبر كما هنا نادر جداً ، لأنه ليس من مواضع التوكيد المنكورة في النحو. و «ما» زائدة. وضمير قريبها للصحف. وضمير الفاعل للملائكة. ويروى «الغور» بدل الفضل. وإني : بالكسر والفتح. المقيت : المقتدر. والشهيد : الحفيظ ، وأصله من القوت ؛ لأنه يقوى النفس ويحفظها. والخبيث بالثناة : الخبيث بالمثلثة. وحق بلاغة المعنى : تقديم القليل على الطيب ، لكن أخرته الضرورة.

﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً﴾ (٨٦)

الأحسن منها أن تقول «وعليكم السلام ورحمة الله» إذا قال «السلام عليكم» وأن تزيد «وبركاته» إذا قال «ورحمة الله» وروى أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : السلام عليك ، فقال «وعليك السلام ورحمة الله» وقال آخر : السلام عليك ورحمة الله ، فقال «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته» وقال آخر : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، فقال «وعليك» ^(١) فقال الرجل : نقصتني ، فأين ما قال الله؟ وتلا الآية ، فقال «إنك لم تترك لي فضلاً فرددت عليك مثله. ﴿أَوْ رُدُّوها﴾ أو أجيبوها بمثله. ورد السلام ورجعه : جوابه بمثله ، لأن المجيب يرد قول المسلم ويكرره ، وجواب التسليمة واجب ، والتخيير إنما وقع بين الزيادة وتركها. وعن أبي يوسف رحمه الله : من قال لآخر : أقرئ فلانا السلام ، وجب عليه أن يفعل. وعن النخعي : السلام سنة الردّ فريضة. وعن ابن عباس : الردّ واجب. وما من رجل يمرّ على قوم مسلمين فيسلم عليهم ولا يردّون عليه إلا نزع عنهم روح القدس وردّت عليه الملائكة. ولا يرد السلام في الخطبة ، وقراءة القرآن ، جهراً ورواية الحديث ، وعند مذاكرة العلم ، والأذان ، والإقامة. وعن أبي يوسف : لا يسلم على لاعب النرد والشطرنج ، والمغني ، والقاعد لحاجته ، ومطير الحمام ، والعارى من غير عذر في حمام أو غيره. وذكر الطحاوي : أن المستحب ردّ السلام على طهارة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه تيمم لردّ السلام ^(٢). قالوا : ويسلم الرجل إذا دخل على امرأته ، ولا يسلم على أجنبية. ويسلم الماشي على القاعد ، والراكب على الماشي ، وراكب الفرس على راكب الحمار ، والصغير على الكبير ، والأقل على الأكثر. وإذا التقيا ابتدرا. وعن أبي حنيفة : لا تجهر بالرد يعنى الجهر الكثير. وعن النبي صلى الله عليه وسلم

(١) أخرجه الطبراني والطبري من رواية هشام بن عاصم الأحول عن أبي عثمان عن سلمان. وقال ابن الجوزي في العلل : ترك حديث هشام. ورواه الطبراني أيضاً من رواية عكرمة عن ابن عباس. والراوي له عن عكرمة أبو هريرة عن نافع عن هرمز. وهو ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري من رواية عمير مولى ابن عباس قال «أقبلت أنا وعبد الله بن يسار مولى ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم حتى دخلنا على أبي الجهم بن الحرث ابن الصمة الأنصاري. فقال أبو الجهم : أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من نحو بئر جمل فلقية رجل ، فسلم عليه فلم يرد عليه حتى أتى على الجدار فمسح بوجهه ويديه ثم رد عليه السلام» ورواه مسلم معلقاً. ولأبي داود عن ابن عمير «مر رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سكة من السكك ، وقد خرج من غائط أو بول ، فسلم عليه. فلم يرد عليه حتى إذا كاد الرجل أن يتوارى في السكة ضرب يده على الحائط ومسح بها وجهه ، ثم ضرب ضربة أخرى فمسح ذراعيه ثم رد السلام ، وقال : إنه لم يمنعني أن أرد عليك السلام إلا أني لم أكن على طهارة».

«إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا : وعليكم^(١)» أى وعليكم ما قلتم ؛ لأنهم كانوا يقولون : السام عليكم. وروى «لا تبتدئ اليهودىّ بالسلام ، وإن بدأك فقل. وعليك». وعن الحسن : يجوز أن تقول للكافر : وعليك السلام ، ولا تقل : ورحمة الله ، فإنها استغفار. وعن الشعبي أنه قال لنصراني سلم عليه : وعليك السلام ورحمة الله. فقل له في ذلك ، فقال : أليس في رحمة الله يعيش؟ وقد رخص بعض العلماء في أن يبدأ أهل الذمة بالسلام إذا دعت إلى ذلك حادثة تحوج إليهم. وروى ذلك عن النخعي. وعن أبي حنيفة : لا تبدأه بسلام في كتاب ولا غيره. وعن أبي يوسف لا تسلم عليهم ولا تصافحهم ، وإذا دخلت فقل : السلام على من اتبع الهدى. ولا بأس بالدعاء له بما يصلحه في دنياه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيًّا﴾ أى يحاسبكم على كل شيء من التحية وغيرها.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (٨٧)

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إما خبر للمبتدأ. وإما اعتراض والخبر ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾. ومعناه : الله والله ليجمعنكم ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أى ليحشرنكم إليه. والقيامة والقيام ، كالطالبة والطلاب ، وهي قيامهم من القبور أو قيامهم للحساب. قال الله تعالى : ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ لأنه عز وعلا صادق لا يجوز عليه الكذب. وذلك أنّ الكذب مستقل بصارف عن الإقدام عليه وهو قبحه. ووجه قبحه ، الذي هو كونه كذبا وإخباراً عن الشيء بخلاف ما هو عليه ، فمن كذب لم يكذب إلا لأنه محتاج إلى أن يكذب ليحرر منفعة أو يدفع مضرة. أو هو غنى عنه إلا أنه يجهل غناه. أو هو جاهل بقبحه. أو هو سفيه لا يفرق بين الصدق والكذب في إخباره ولا يبالى بأيهما نطق ، وربما كان الكذب أحلى على حنكه من الصدق. وعن بعض السفهاء أنه عوتب على الكذب فقال : لو غرغرت لهواتك به ما فارقت. وقيل لكذاب : هل صدقت قط؟ فقال : لو لا أنى صادق في قولي «لا» لقلتها. فكان الحكيم الغنى الذي لا يجوز عليه الحاجات العالم بكل معلوم ، منزها عنه ، كما هو منزّه عن سائر القبائح.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (٨٨)

﴿فِتْنَيْنِ﴾ نصب على الحال ، كقولك : مالك قائما؟ روى أنّ قوما من المنافقين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخروج إلى البدو معتلين

باجتواء المدينة ، فلما خرجوا لم يزلوا

(١) متفق عليه من حديث أنس رضى الله عنه.

راحلين مرحلة مرحلة حتى لحقوا بالمشركين ، فاختلف المسلمون فيهم ، فقال بعضهم : هم كفار. وقال بعضهم : هم مسلمون. وقيل : كانوا قوما هاجروا من مكة ، ثم بدا لهم فرجعوا وكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا على دينك وما أخرجنا إلا اجتواء المدينة والاشتياق إلى بلدنا. وقيل. هم قوم خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ثم رجعوا. وقيل : هم العريون الذين أغاروا على السرح وقتلوا بساراً. وقيل هم قوم أظهروا الإسلام وقعدوا عن الهجرة. ومعناه : ما لكم اختلفتم في شأن قوم نافقوا نفاقاً ظاهراً وتفرقتم فيه فرقتين وما لكم لم تبتوا القول بكفرهم ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ﴾ أى ردهم في حكم المشركين كما كانوا ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ من ارتدادهم ولحوقهم بالمشركين واحتياهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم. أو أركسهم في الكفر بأن خذهم حتى أركسوا فيه ، لما علم من مرض قلوبهم ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا﴾ أن تجعلوا من جملة المهتدين ﴿مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ من جعله ^(١) من جملة الضلال ، وحكم عليه بذلك أو خذله حتى ضلّ. وقرئ : ركسهم. وركسوا فيها.

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠) سَتَجِدُونَ آخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ (٩١)

﴿فَتَكُونُونَ﴾ عطف على : ﴿تَكْفُرُونَ﴾ ولو نصب على جواب التمني لجاز. والمعنى : ودّوا

(١) قال محمود : «معناه من جعله ... الخ» قال أحمد : هو يهذين الوجهين يفر من الحق والحقيقة. أما الحق ، فلأن الله هو الذي خلق الضلال لمن ضل ؛ إذ لا خالق إلا الله. وأما الحقيقة ، فالأخا. أعنى الآية . اقتضت نسبة الأصل إلى فعل الله تعالى ، فالتخيل في تحريف الفاعلية إلى التسبب عدول عن الحقيقة إلى المجاز. وقد علمت الباعث له على هذا المعتقد فلا نعيده.

كفركم فكونكم معهم شرعاً^(١) واحداً فيما هم عليه من الضلال واتباع دين الآباء. فلا تتولوهم وإن آمنوا حتى يظاهروا إيمانهم بهجرة صحيحة هي لله ورسوله. لا لغرض من أغراض الدنيا. مستقيمة ليس بعدها بداء ولا تعرب. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان المظاهر بالهجرة الصحيحة المستقيمة ، فحكمهم حكم سائر المشركين يقتلون حيث وجدوا في الحلّ والحرم ، وجانبوهم بجانب كلية ، وإن بذلوا لكم الولاية والنصرة فلا تقبلوا منهم ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ استثناء من قوله ﴿فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ﴾ ومعنى ﴿يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ﴾ ينتهون إليهم ويتصلون بهم. وعن أبي عبيدة : هو من الانتساب. وصلت إلى فلان واتصلت به إذا انتميت إليه. وقيل : إن الانتساب لا أثر له في منع القتال ، فقد قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه من هو من أنسابهم ، والقوم هم الأسلميون ، كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد ، وذلك أنه وادع وقت خروجه إلى مكة هلال بن عويمر الأسلمي على أن لا يعينه ولا يعين عليه ، وعلى أنّ من وصل إلى هلال ولجأ إليه فله من الجوار مثل الذي لهلال. وقيل : القوم بنو بكر بن زيد مناة كانوا في الصلح ﴿أَوْ جَاؤُكُمْ﴾ لا يخلو من أن يكون معطوفاً على صفة قوم ، كأنه قيل : إلا الذين يصلون إلى قوم معاهدين ، أو قوم ممسكين عن القتال لا لكم ولا عليكم ، أو على صلة الذين ، كأنه قيل : إلا الذين يتصلون بالمعاهدين ، أو الذين لا يقاتلونكم والوجه العطف على الصلة لقوله : ﴿فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ بعد قوله : ﴿فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ فقرر أن كفهم عن القتال أحد سبب استحقاقهم لنفي التعرض عنهم وترك الإيقاع بهم. فإن قلت : كل واحد من الاتصاليين له تأثير في صحة الاستثناء ، واستحقاق إزالة التعرض للاتصال بالمعاهدين والاتصال بالمكافين ، لأنّ الاتصال بهؤلاء أو هؤلاء دخول في حكمهم ، فهلا جوزت أن يكون العطف على صفة قوم ، ويكون قوله : ﴿فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ﴾ تقريراً لحكم اتصاليهم بالمكافين واختلاطهم بهم وجريهم على سننهم؟ قلت : هو جائز ، ولكن الأول أظهر وأجرى على أسلوب الكلام. وفي قراءة أبيّ : بينكم وبينهم ميثاق جأؤكم حصرت صدورهم ، بغير أو. ووجهه أن يكون ﴿جَاؤُكُمْ﴾ بياناً ليصلون ، أو بدلاً أو استثناء ، أو صفة بعد صفة لقوم. حصرت صدورهم في موضع الحال بإضمار قد. والدليل عليه قراءة من قرأ : حصرة صدورهم. وحصرات صدورهم. وجعله المبرد صفة لموصوف محذوف على : أو جأؤكم قوماً حصرت صدورهم. وقيل : هو بيان لجأؤكم ، وهم بنو مدلج جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مقاتلين. والحصر الضيق والانقباض ﴿أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ عن أن يقاتلوكم. أو كراهة أن يقاتلوكم. فإن قلت : كيف يجوز أن يسلط الله الكفرة على المؤمنين؟ قلت : ما كانت مكافتهم إلا

(١) قوله «شرعاً» أى طريقاً. وفي الصحاح : أنه يحرك ويسكن. (ع)

لقذف الله الرعب في قلوبهم ، ولو شاء لمصلحة يراها من ابتلاء ونحوه لم يقذفه ، فكانوا متسلطين مقاتلين غير مكافين ، فذلك معنى التسليط. وقرئ : فلقتلوكم ، بالتخفيف والتشديد ﴿فَإِنْ اعْتَرَفْتُمْ لَكُمْ﴾ فإن لم يتعرضوا لكم ﴿وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾ أى الانقياد والاستسلام. وقرئ بسكون اللام مع فتح السين ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ فما أذن لكم في أخذهم وقتلهم ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ﴾ هم قوم من بنى أسد وغطفان ، كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا ليامنوا المسلمين ، فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا ونكثوا عهودهم ﴿كُلَّمَا رُزُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ﴾ كلما دعاهم قومهم إلى قتال المسلمين ﴿أَرَكِسُوا فِيهَا﴾ قلبوا فيها أقبح قلب وأشنعه ، وكانوا شرّاً فيها من كل عدوّ ﴿حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ﴾ حيث تمكنتم منهم ﴿سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ حجة واضحة لظهور عداوتهم وانكشاف حالهم في الكفر والغدر ، وإضرارهم بأهل الإسلام أو تسلطاً ظاهراً حيث أذن لكم في قتلهم.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٩٢) وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (٩٣)

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ وما صح له ولا استقام ولا لاق بحاله ، كقوله : ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ ، ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾. ﴿أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ ابتداء غير قصاص ﴿إِلَّا خَطَأً﴾ إلا على وجه الخطأ. فإن قلت : بم انتصب خطأ؟ قلت : بأنه مفعول له ، أى ما ينبغي له أن يقتله لعله من العلل إلا للخطأ وحده. ويجوز أن يكون حالا بمعنى لا يقتله في حال من الأحوال إلا في حال الخطأ ، وأن يكون صفة للمصدر إلا قتلا خطأ. والمعنى أن من شأن المؤمن أن ينتفي عنه وجود قتل المؤمن ابتداء البتة ، إلا إذا وجد منه خطأ من غير قصد ، بأن يرمى كافراً فيصيب مسلماً ، أو يرمى شخصاً على أنه كافر فإذا هو مسلم. وقرئ : خطأ . بالمد . وخطأ ، بوزن عمى . بتخفيف الهمزة . وروى أنّ عياش بن أبي ربيعة . وكان أخا أبي جهل لأُمّه . أسلم وهاجر خوفاً من قومه إلى المدينة ، وذلك قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقسمت أمه لا تأكل ولا تشرب ولا يؤويها سقف حتى يرجع. فخرج أبو جهل ومعه الحرث بن زيد بن أبي أنيسة فأتيها

وهو في أطم^(١) فقتل منه أبو جهل في الذروة والغارب ، وقال : أليس محمد يحثك على صلة الرحم ، انصرف وبرّ أمك وأنت على دينك ، حتى نزل وذهب معهما ، فلما فسحا عن المدينة كتفاه ، وجلده كل واحد مائة جلدة ، فقال للحارث : هذا أخى ، فمن أنت يا حارث؟ لله علىّ إن وجدتك خاليا أن أقتلك ، وقدا به على أمه ، فحلفت لا يحل كتافه أو يرتد ، ففعل ثم هاجر بعد ذلك وأسلم ، وأسلم الحارث وهاجر ، فلقيه عياش بظهر قباء . ولم يشعر بإسلامه . فأنحى عليه فقتله ، ثم أخبر بإسلامه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : قتلته ولم أشعر بإسلامه^(٢) ، فنزلت ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ فعليه تحرير رقبة . والتحرير : الإعتاق . والحر والعتيق : الكريم ، لأن الكرم في الأحرار كما أن اللؤم في العبيد . ومنه : عتاق الخيل ، وعتاق الطير لكرامها . وحرّ الوجه : أكرم موضع منه . وقولهم للثيم «عبد» وفلان عبد الفعل : أى لثيم الفعل . والرقبة : عبارة عن النسمة ، كما عبر عنها بالرأس في قولهم : فلان يملك كذا رأساً من الرقيق . والمراد برقبة مؤمنة : كل رقبة كانت على حكم الإسلام عند عامة العلماء . وعن الحسن : لا تجزئ إلا رقبة قد صلت وصامت ، ولا تجزئ الصغيرة . وقاس عليها الشافعي كفارة الظهار ، فاشتراط الإيمان . وقيل : لما أخرج نفساً مؤمنة عن جملة الأحياء لزمه أن يدخل نفساً مثلها في جملة الأحرار ، لأنّ إطلاقها من قيد الرق كإحيائها من قبل أن الرقيق ممنوع من تصرف الأحرار ﴿مُسَلَّمَةً إِلَى أَهْلِهِ﴾ مؤداة إلى ورثته يقتسمونها كما يقتسمون الميراث ، لا فرق بينها وبين سائر التركة في كل شيء ، يقضى منها الدين ، وتنفذ الوصية وإن لم يبق وارثا فهي لبيت المال ، لأن المسلمين يقومون مقام الورثة كما قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم «أنا وارث من لا وارث له»^(٣) وعن عمر رضى الله عنه أنه قضى بدية المقتول ، فجاءت امرأته تطلب ميراثها من عقله فقال : لا أعلم لك شيئاً ، إنما الدية للعصبة الذين يعقلون عنه . فقام الضحّاك بن سفيان الكلابي فقال : كتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرني أن أورث امرأة أشيم الضبابي من عقل زوجها أشيم . فورّثها عمر^(٤) ، وعن ابن مسعود :

(١) قوله «وهو في أطم فقتل منه» الأطم : الحصن ، أفاده الصحاح . وفيه : ما زال فلان يقتل من فلان في الذروة والغارب ، أى يدور من وراء خديعته . (ع)

(٢) أخرجه الثعلبي بغير سند ، والواحدي عن ابن الكلبي . ورواه الطبري من طريق أسباط عن السدى بتغيير يسير ، ولم يسم الحارث . فقال : ومعه رجل من بنى عامر وقال ابن إسحاق في المغازي : حدثني نافع عن ابن عمر عن أبيه قال «أبعدت أنا وعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص : لما أردنا الهجرة . فأصبحت أنا وعياش . وحبس عنا هشام وفتى . وخرج أبو جهل وأخوه الحارث إلى عياش بالمدينة فكلماه وقالوا له : إن أمك نذرت أن لا تمس رأسها بمشط ، فذكر القصة بطولها .

(٣) أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث المقدام بن معديكرب به ، وأتم منه .

(٤) أخرجه أصحاب السنن من رواية سعيد بن المسيب «أن عمر رضى الله عنه كان يقول : الدية للعاقلة ، .

يرث كل وارث من الدية غير القاتل. وعن شريك : لا يقضى من الدية دين ، ولا تنفذ وصية. وعن ربيعة : الغرة لأُم الجنين وحدها ، وذلك خلاف قول الجماعة. (فان قلت) : على من تجب الرقبة والدية؟ قلت : على القاتل إلا أن الرقبة في ماله ، والدية تتحملها عنه العاقلة ، فإن لم تكن له عاقلة فهي في بيت المال ، فإن لم يكن ففي ماله ﴿إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾ إلا أن يتصدقوا عليه بالدية ومعناه العفو ، كقوله : ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ ونحوه ﴿وَأَنْ تَصَّدَّقُوا حَيْرَ لَكُمْ﴾ وعن النبي صلى الله عليه وسلم «كل معروف صدقة»^(١) ، وقرأ أبي : إلا أن يتصدقوا. فإن قلت : بم تعلق أن يصدقوا ، وما محله؟ قلت : تعلق بعليه ، أو بمسلمة ، كأنه قيل : وتجب عليه الدية أو يسلمها ، إلا حين يتصدقون عليه. ومحلهما النصب على الظرف بتقدير حذف الزمان ، كقولهم : اجلس ما دام زيد جالسا. ويجوز أن يكون حالا من أهله بمعنى إلا متصدقين ﴿مِنْ قَوْمٍ عَدُوٌّ لَكُمْ﴾ من قوم كفار أهل حرب وذلك نحو رجل أسلم في قومه الكفار وهو بين أظهرهم لم يفارقهم ، فعلى قاتله الكفارة إذا قتله خطأ وليس على عاقلته لأهله شيء. لأنهم كفار محاربون. وقيل : كان الرجل يسلم ؛ ثم يأتي قومه وهم مشركون فيغزوهم جيش المسلمين ، فيقتل فيهم خطأ لأنهم يظنونهم كافراً مثلهم ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ﴾ كفره لهم ذمة كالمشركين الذين عاهدوا المسلمين وأهل الذمة من الكتابيين ، فحكمه حكم مسلم من مسلمين ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ رقبة ، بمعنى لم يملكها ولا ما يتوصل به إليها (ف) عليه ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ﴾ قبولاً من الله ورحمة منه ، من تاب الله عليه إذا قبل توبته يعني شرع ذلك توبة منه ، أو نقلكم من الرقبة إلى الصوم توبة منه. هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد والإبراق والإرعاد^(٢) أمر عظيم وخطب غليظ. ومن ثم روى عن ابن عباس ما روى أن توبة قاتل المؤمن عمداً غير مقبولة^(٣). وعن سفيان : كان أهل العلم إذا سئلوا قالوا :

. لا تترث المرأة من دية زوجها شيئا حتى قال له الضحاك بن سفيان كتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن أوث امرأة أشيم الضبابي من دية زوجها. فرجع عمر رضي الله عنه.

(١) أخرجه البخاري ومسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٢) قال محمود : «في هذه الآية من التهديد والوعيد والإبراق ... الخ» قال أحمد : وكفى بقوله تعالى في هذه السورة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ دليلاً أبلغ على أن القاتل الموحد. وإن لم يتب. في المشيئة وأمره إلى الله ، إن شاء آخذه وإن شاء غفر له. وقد مر الكلام على الآية ، وما بالعهد من قدم. وأما نسبة أهل السنة إلى الأشعية ، فذلك لا يضيرهم ؛ لأنهم إنما تطفلوا على لطف أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين ، ولم يقنطوا من رحمة الله ، إنه لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الظالمون.

(٣) متفق عليه من رواية سعيد بن حبيب عن ابن عباس في قوله : ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ قال : لا توبة له» وفي رواية لهما عنه «قال : قلت لابن عباس : أئمن قتل مؤمناً متعمداً من توبة؟ قال : لا» (فائدة) قال ابن أبي شيبه : حدثنا يزيد بن هرون أنبأنا أبو مالك الأشجعي عن سعد بن عبيدة قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال : أئمن قتل مؤمناً توبة؟ قال : لا إلى النار ، فلما ذهب قال له جلساؤه : ما هكذا كنت تفتينا ، قد كنت تفتينا .

لا توبة له ، وذلك محمول منهم على الاقتداء بسنة الله في التغليظ والتشديد ، وإلا فكل ذنب محو بالتوبة. وناهيك بمحو الشرك دليلا. وفي الحديث «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرئ مسلم^(١) وفيه «لو أن رجلا قتل بالمشرك وآخر رضى بالمغرب لأشرك في دمه^(٢)» وفيه «إن هذا الإنسان بنيان الله. ملعون من هدم بنيانه» وفيه «من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب^(٣) بين عينيه آيس من رحمة الله^(٤)». والعجب من قوم يقرؤون^(٥) هذه الآية ويرون ما فيها ويسمعون هذه الأحاديث العظيمة ، وقول ابن عباس بمنع التوبة. ثم لا تدعهم أشعبيتهم وطماعتهم الفارغة واتباعهم هواهم وما يخيّل إليهم مناهم ، أن يطمعوا في العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة ، أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوب أقفالها؟ ثم ذكر الله سبحانه وتعالى التوبة في قتل الخطأ ، لما عسى يقع من نوع تفريط فيما يجب من الاحتياط والتحفظ

. أن لمن قتل مؤمنا توبة مقبولة. فما بال هذا اليوم؟ قال : إني أحسبه رجلا مغضبا يريد أن يقتل مؤمنا. قال : فبعثوا في أثره فوجدوه كذلك».

(١) أخرجه الترمذي والنسائي من رواية شعبة عن يعلى بن عطاء عن أبيه عن عبد الله بن عمر. ومثله بلفظ «من قتل رجلا مسلما» وروياه موقوفًا. وهو أصح. ورواه البزار وقال : لا نعلم أسنده عن شعبة إلا ابن أبي عدى. ورواه ابن أبي شيبه وأبو يعلى من رواية الثوري عن يعلى بن عطاء به مرفوعا وأخرجه النسائي من وجه آخر مرفوعا. وفي الباب عن بريدة ، أخرجه النسائي وابن عدى. والبيهقي في الشعب ، بلفظ ، ولقتل مؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا» وفيه بشر بن المهاجر وفيه ضعف وعن البراء بن عازب رضى الله عنهما أخرجه ابن ماجه ، والبيهقي بلفظ «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مؤمن. وزاد : والمؤمن أكرم عند الله من الملائكة الذين عنده» وفي إسناده أبو المهزم يزيد بن سفيان.

(٢) لم أجده.

(٣) قوله «مكتوب» لعله مكتوبا. (ع)

(٤) أخرجه ابن ماجه وأبو يعلى والعقيلي وابن عدى من حديث أبي هريرة مثله. وإسناده ضعيف. ورواه ابن حبان في الضعفاء من رواية عمرو بن محمد الأعمى عن نجم بن سالم الأفيطس عن أبيه عن سعيد بن المسيب عن عمر به وقال. إنه حديث موضوع ، لا أصل له من حديث الثقات ، وعمرو ، والأفيطس لا يجوز الاحتجاج بهما بحال. وقد أخرجه أبو نعيم في الحلية ، وترجمه خلف بن حويشب من روايته عن الحكم بن عتيبة عن سعيد بن المسيب به وقال غريب تفرد به حكيم بن نافع عن خلف. وحكيم ضعيف إلا أنه يرد على كلام ابن حبان وفي الباب أيضا عن ابن عمر. أخرجه البيهقي في الشعب ، في السادس والثلاثين. وعن ابن عباس ، أخرجه الطبراني من رواية عبد الله ابن حراش عن العوام بن حوشب عن مجاهد عنه.

(٥) قوله «والعجب من قوم يقرءون» فيه انتصار للمعتزلة وتشنيع على أهل السنة حيث ذهبوا إلى أنه يجوز غفران الكبائر بالتوبة أو بالشفاعة أو بمجرد فضل الله ، تمسكا بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ كما حقق في علم التوحيد وفي الصحاح : أشعب اسم رجل كان طماعا. وفي المثل «أطمع من أشعب» اه فالأشعبية : الخصلة التي تنسب إلى أشعب ، وهي الطمع الشديد. (ع)

فيه حسم للأطماع وأى حسم ، ولكن لا حياة لمن تنادى. فإن قلت : هل فيها دليل على خلود من لم يتب ^(١) من أهل الكبائر؟ قلت : ما أبين الدليل وهو تناول قوله : ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ﴾ أى قاتل كان ، من مسلم أو كافر ، تائب أو غير تائب ، إلا أن التائب أخرجه الدليل. فمن ادعى إخراج المسلم غير التائب فليأت بدليل مثله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (٩٤)

﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ وقرئ : فتثبتوا ، وهما من التفعّل بمعنى الاستفعال . أى اطلبوا بيان الأمر وثباته ولا تنهوكوا فيه من غير روية ^(٢). وقرئ : السلم. والسلام وهما الاستسلام. وقيل : الإسلام. وقيل : التسليم الذي هو تحية أهل الإسلام ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ وقرئ (مؤمناً) بفتح الميم من آمنه ، أى لا تؤمنك ، وأصله أن مرادس بن نهيك ^(٣) رجلا من أهل فذك أسلم ولم يسلم من قومه غيره ، فغزتهم سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان عليها غالب بن فضالة الليثي ، فهربوا وبقي مرداس لثقتة بإسلامه ، فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى عاقول ^(٤) من الجبل وصعد ، فلما تلاحقوا وكبروا كبر ونزل وقال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، السلام عليكم ، فقتله أسامة بن زيد واستاق غنمه ، فأخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد وجداً شديداً وقال : قتلتموه إرادة ما معه ، ثم قرأ الآية على أسامة ، فقال : يا رسول الله استغفر لي. قال فكيف بلا إلا إلا الله ، قال أسامة فما زال يعيدها حتى وددت أن لم أكن أسلمت إلا يومئذ ، ثم استغفر لي وقال : أعتق ^(٥) رقبة ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تطلبون الغنمة

(١) قوله «دليل على خلود من لم يتب» هو مذهب المعتزلة. وذهب أهل السنة إلى خروج من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، كما في حديث الشفاعة وقد تقرر في محله. (ع)

(٢) قوله «ولا تنهوكوا فيه» أى تنهكوا أو تخطوا بلا مبالاة. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قوله «مرداس» في الصحاح : ردست القوم وراستهم : إذا رميتهم بحجر. والمرداس : حجر يرمى به في البئر ليعلم أن فيها ماء أولاً. ومنه سمي الرجل. (ع)

(٤) قوله «إلى عاقول» في الصحاح : العاقول من النهر والوادي والرمل : الموج منه. (ع)

(٥) أخرجه الثعلبي من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وأخرجه الطبري من رواية أسباط عن السدى بتغيير يسير.

التي هي حطام سريع النفاد ، فهو الذي يدعوكم إلى ترك الثبوت وقلة البحث عن حال من تقتلونهم ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ﴾ يغنمكموها تغنيكم عن قتل رجل يظهر الإسلام ويتعوذ به من التعرض له لتأخذوا ماله ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أول ما دخلتم في الإسلام سمعت من أفواهكم كلمة الشهادة ، فحصنت دماءكم وأموالكم من غير انتظار الاطلاع على مواطاة قلوبكم لألستكم ﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيكُمْ﴾ بالاستقامة والاشتغال بالإيمان والتقدم ، وإن صرتم أعلاما فعليكم أن تفعلوا بالداخلين في الإسلام كما فعل بكم ، وأن تعتبروا ظاهر الإسلام في المكافة ، ولا تقولوا إن تحليل هذا لاتقاء القتل لا لصدق النية ، فتجعلوه سلماً إلى استباحة دمه وماله وقد حرّمهما الله وقوله ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ تكرير للأمر بالتبين ليؤكد عليهم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فلا تنهاتوا في القتل وكونوا محترزين محتاطين في ذلك.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٦﴾

﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ قرئ بالحركات الثلاث ، فالرفع صفة للقاعدون ، والنصب استثناء منهم أو حال عنهم ، والجر صفة للمؤمنين. والضرر : المرض ، أو العاهة من عمى أو عرج أو زمانة أو نحوها. وعن زيد بن ثابت : كنت إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم فغشيت السكينة ، فوقعت فخذه على فخذي حتى خشيت أن ترضها ، ثم سرى عنه فقال : اكتب فكتبت في كتف ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ﴾ فقال ابن أم مكتوم وكان أعمى : يا رسول الله ، وكيف بمر لا يستطيع الجهاد من المؤمنين. فغشيت السكينة كذلك ، ثم قال : اقرأ يا زيد ، فقرأت ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فقال غير أُولِي الضَّرَرِ. قال زيد : أنزلها الله وحدها ، فألحقتها. والذي نفسي بيده لكأنني أنظر إلى ملحقتها عند صدع في الكتف ^(١). وعن ابن عباس : لا يستوي القاعدون عن بدر والخارجون إليها. وعن مقاتل : إلى تبوك. فإن قلت : معلوم أن القاعد بغير عذر والمجاهد لا يستويان ، فما فائدة نفى الاستواء؟ قلت : معناه الإذكار بما بينهما من التفاوت العظيم والبون البعيد ، ليأنف القاعد ويرقع بنفسه عن انحطاط

(١) أخرجه البخاري من رواية ابن الحكم عن يزيد بن ثابت نحوه ، وأبو داود وأحمد والحاكم من رواية خارجة بن زيد عن زيد بن ثابت باللفظ المذكور.

منزلته ، فيهتز للجهد ويرغب فيه وفي ارتفاع طبقته ، ونحوه ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أريد به التحريك من حمية الجاهل وأنفته ليهاب به ^(١) إلى التعلم ، ولينهض بنفسه عن صفة الجهل إلى شرف العلم ﴿فَصَلِّ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ﴾ جملة موضحة لما نفى من استواء القاعدين والمجاهدين كأنه قيل : ما لهم لا يستوون ، فأجيب بذلك. والمعنى على القاعدين غير أولى الضرر لكون الجملة بيانا للجملة الأولى المتضمنة لهذا الوصف ﴿وَكَلَّا﴾ وكل فريق من القاعدين والمجاهدين ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ أى المثوبة الحسنى وهي الجنة وإن كان المجاهدون مفضلين على القاعدين درجة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «لقد خلفتم بالمدينة أقواما ما سرتهم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم» ^(٢) وهم الذين صحت نيأتهم ونصحت جيوبهم ^(٣) وكانت أفئدتهم تموى إلى الجهاد ، وبهم ما يمنعونهم من المسير من ضرر أو غيره. فإن قلت : قد ذكر الله تعالى مفضلين درجة ومفضلين درجات ، فمن هم؟ قلت : أما المفضلون درجة واحدة فهم الذين فضلوا على القاعدين الأضرأ وأما المفضلون درجات فالذين فضلوا على القاعدين الذين أذن لهم في التخلف اكتفاء بغيرهم ، لأن الغزو فرض كفاية. فإن قلت : لم نصب ﴿دَرَجَةً﴾ و ﴿أَجْرًا﴾ و ﴿دَرَجَاتٍ﴾؟ قلت : نصب قوله : ﴿دَرَجَةً﴾ لوقوعها موقع المرة من التفضيل ، كأنه قيل فضلهم تفضيلة واحدة. ونظيره قولك : ضربه سوطا ، بمعنى ضربه ضربة. وأما ﴿أَجْرًا﴾ فقد انتصب بفضل ، لأنه في معنى أجرهم أجرا ودرجات ، ومغفرة ، ورحمة : بدل من أجر. أو يجوز أن ينتصب ﴿دَرَجَاتٍ﴾ نصب درجة ، كما تقول : ضربه أسواطا بمعنى ضربات ، كأنه قيل : وفضله تفضيلات. ونصب ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ على أنه حال عن النكرة التي هي درجات مقدمة عليها ، وانتصب مغفرة ورحمة بإضمار فعلهما بمعنى : وغفر لهم ورحمهم ، مغفرة ورحمة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفُرَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفْوًا غَفُورًا﴾ (٩٩)

(١) قوله «ليهاب» الظاهر أنه من الهوب وهو وهج النار ، أى توقدها ، كما في الصحاح. (ع)

(٢) أخرجه البخاري وأبو داود من رواية حميد عن أنس. ونحوه عند مسلم من حديث جابر رضى الله عنه.

(٣) قوله «ونصحت جيوبهم» في الصحاح : تقول : إنه لحسن الجيبة . بالكسر . أى الجواب . ورجل ناصح الجيب : أى أمين. (ع)

﴿تَوَفَّاهُمْ﴾ يجوز أن يكون ماضياً كقراءة من قرأ : توفتهم. ومضارعاً بمعنى تتوفاهم ، كقراءة من قرأ : توفاهم ، على مضارع وفيت ، بمعنى أن الله يوفى الملائكة أنفسهم فيتوفونها ، أى يمكنهم من استيفائها فيستوفونها ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ في حال ظلمهم أنفسهم ﴿فَالُوا﴾ قال الملائكة للمتوفين ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾ في أى شيء كنتم من أمر دينكم. وهم ناس من أهل مكة أسلموا ولم يهاجروا حين كانت الهجرة فريضة. فإن قلت : كيف صح وقوع قوله ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ جواباً عن قولهم ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾؟ وكان حق الجواب أن يقولوا : كنا في كذا أو لم نكن في شيء؟ قلت : معنى ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾ للتوبيخ بأنهم لم يكونوا في شيء من الدين ، حيث قدروا على الهجرة ولم يهاجروا ، فقالوا : كنا مستضعفين اعتذاراً مما وبخوا به واعتلالاً بالاستضعاف ، وأنهم لم يتمكنوا من الهجرة حتى يكونوا في شيء ، فبكتهم الملائكة بقولهم ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ أرادوا أنكم كنتم قادرين على الخروج من مكة إلى بعض البلاد التي لا تمنعون فيها من إظهار دينكم ومن الهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما فعل المهاجرون إلى أرض الحبشة. وهذا دليل على أن الرجل إذا كان في بلد لا يتمكن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب ، لبعض الأسباب والعوائق عن إقامة الدين لا تنحصر ، أو علم أنه في غير بلده أقوم بحق الله وأدوم على العبادة . حققت عليه المهاجرة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «من قرّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض استوجبت له الجنة ، وكان رفيق أبيه إبراهيم ونبيه محمد عليهما الصلاة والسلام»^(١). اللهم إن كنت تعلم أن هجري إليك لم تكن إلا للفرار بديني فاجعلها سبباً في خاتمة الخير ودرك المرجو من فضلك والمبتغى من رحمتك وصل جوارى لك بعكوفى عند بيتك ، بجوارك في دار كرامتك يا واسع المغفرة. ثم استثنى من أهل الوعيد المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة في الخروج لفقهم وعجزهم ولا معرفة لهم بالمسالك. وروى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بهذه الآية إلى مسلمي مكة ، فقال جندب بن ضمرة أو ضمرة بن جندب لبنيه : احملوني ، فإنى لست من المستضعفين ، وإنى لأهتدى الطريق ، والله لا أبيت الليلة بمكة. فحملوه على سرير متوجهاً إلى المدينة وكان شيخاً كبيراً فمات بالتنعيم^(٢). فإن قلت : كيف أدخل الولدان في جملة المستثنى من أهل الوعيد^(٣) ، كأَنهم كانوا يستحقون الوعيد مع الرجال والنساء

(١) أخرجه الثعلبي في تفسير العنكبوت من رواية عباد بن منصور الناجي عن الحسن مرسلاً.

(٢) ذكره الثعلبي بغير سند هكذا. وأخرجه الواحدى في الأسباب من طريق أشعث بن سوار عن عكرمة عن ابن عباس : أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فلما قرأها المسلمون قال جندب بن ضمرة الليثي وكان شيخاً كبيراً : احملوني فذكره. وأخرجه أبو يعلى والطبراني من هذا الوجه مختصراً.

(٣) قال محمود : «الاستثناء من المتوعدين في قوله : ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ... الخ» قال أحمد : قوله «إن المراهقين من الولدان يكلفون إلحاقاً بالبالغين» مردود بقوله عليه وعلى آله الصلاة والسلام .

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿١٠١﴾

الضرب في الأرض : هو السفر. وأدنى مدة السفر الذي يجوز فيه القصر عند أبي حنيفة : مسيرة ثلاثة أيام ولياليهنّ سير الإبل ومشى الأقدام على القصد ، ولا اعتبار بإبطاء الضارب وإسراعه. فلو سار مسيرة ثلاثة أيام ولياليهنّ في يوم ، قصر. ولو سار مسيرة يوم في ثلاثة أيام ، لم يقصر. وعند الشافعي. أدنى مدة السفر أربعة برد مسيرة يومين. وقوله ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ ظاهره التخيير بين القصر والإتمام ، وأن الإتمام أفضل. وإلى التخيير ذهب الشافعي. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتم في السفر ^(١). وعن عائشة رضي الله عنها : اعتمدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى مكة حتى إذا قدمت مكة قلت يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ، قصرت وأتممت ، وصمت وأفطرت. فقال : أحسنت يا عائشة وما عاب عليّ ^(٢). وكان عثمان رضي الله عنه يتم ويقصر ^(٣). وعند أبي حنيفة رحمه الله : القصر في السفر عزيمة غير رخصة لا يجوز غيره. وعن عمر رضي الله عنه : صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم ^(٤). وعن عائشة رضي الله عنها : أول ما فرضت الصلاة فرضت ركعتين ركعتين ، فأقرت في السفر ، وزيدت في الحضر ^(٥). فإن قلت : فما تصنع بقوله : ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا﴾ قلت : كأهم ألفوا الإتمام فكانوا مظنة لأن يخطر ببالهم أن عليهم نقصانا في القصر فنفي عنهم الجناح لتطيب أنفسهم بالقصر ويطمئنوا إليه. وقرئ : تقصروا من أقصر. وجاء في الحديث إقصار الخطبة بمعنى تقصيرها ^(٦). وقرأ الزهري (تقصروا) بالتشديد. والقصر

(١) أخرجه الشافعي وابن أبي شيبة والبخاري والدارقطني والبيهقي من طرق عن عطاء عن عائشة رضي الله عنها «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقصر في السفر ويتم ويفطر ويصوم» لفظ الدارقطني. وقال إسناده صحيح

(٢) أخرجه النسائي من حديث عبد الرحمن بن الأسود عنها وحسنه. وأورده من طريق أخرى عن عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه عن عائشة. وقال الأول متصل وعبد الرحمن أدرك عائشة. ورواه البيهقي من الوجهين

(٣) متفق عليه من حديث سالم عن أبيه «أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى بمى وعرفة وغيرها صلاة المسافر ركعتين ، وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان صدراً من خلافته ، ثم أتمها أربعاً» وأخرجاه عن عبد الرحمن بن يزيد قال صلى عثمان بمى أربعاً فقتل لابن مسعود ، فاسترجع . الحديث.

(٤) أخرجه النسائي وابن ماجه من رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى عن عمر رضي الله عنه. ورواه البزار من هذا الوجه. وحدث به يزيد بن زياد بن أبي الجعد عن زيد عن عبد الرحمن عن كعب بن عجرة. وهذا الطريق أخرجه ابن ماجه. وأخرجه البزار من طريق أخرى عن زيد بن وهب عن عمر وفيه ياسين الزيات. وهو ضعيف.

(٥) متفق عليه.

(٦) أخرجه أبو داود والحاكم وأبو يعلى والبزار من رواية أبي راشد عن عمار بن ياسر «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بإقصار الخطبة» قال أبو داود : لا نعلم روى أبو راشد عن عمار إلا هذا الحديث. وفي ابن -

ثابت بنص الكتاب في حال الخوف خاصة ، وهو قوله ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأما في حال الأمن فبالسنة ، وفي قراءة عبد الله : من الصلاة أن يفتنكم ليس فيها ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ على أنه مفعول له ، بمعنى : كراهة أن يفتنكم. والمراد بالفتنة : القتال والتعرض بما يكره ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٠٢) فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا﴾ (١٠٣)

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ يتعلق بظاهره من لا يرى صلاة الخوف بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث شرط كونه فيهم : وقال من رآها بعده : إن الأئمة نواب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل عصر ، قوام بما كان يقوم به فكان الخطاب له متناولا لكل إمام يكون حاضر الجماعة في حال الخوف ، عليه أن يؤمهم كما أم رسول الله صلى الله عليه وسلم الجماعات التي كان يحضرها. والضمير في : ﴿فِيهِمْ﴾ للخائفين ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ فاجعلهم طائفتين فلتقم إحداهما معك فصل بهم ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ الضمير إمّا للمصلين ^(١) وإمّا لغيرهم فإن كان للمصلين فقالوا : يأخذون من السلاح ما لا يشغلهم عن الصلاة كالسيف والخنجر ونحوهما. وإن

. حبان من حديث جابر في قصة صلاة الخوف قال «وأنزل الله إقصار الصلاة. وفي أبي يعلى عن يعلى بن أمية : قلت لعمر : فيم إقصار الصلاة ... الحديث.

(١) قال محمود : قيل المأمور بأخذ الأسلحة المصلون ... الخ» قال أحمد : والظاهر أن المخاطب بأخذ الأسلحة المصلون ، إذ من لم يصل إنما أعد للحرس ، فالظاهر الاستغناء عن أمرهم بذلك وتنبههم عليه ، وهم إنما أخوا الصلاة لذلك. أما المصدر فهم في مظنة طرح الأسلحة ، لأنهم لم يعتادوا حملها في الصلاة ، فنبهوا على أنهم لا ينبغي لهم طرح الأسلحة وإن كانوا في الصلاة ، لضرورة الخوف وخشية الغرة. وأيضا فصنيع الآية يعطى ذلك ، لأنه قال : فلتقم طائفة منهم معك ، وعقب ذلك بقوله : ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ فالظاهر رجوع الضمير إليهم ، وحيث يعاد إلى غير المصلين يحتاج إلى تكلف في صحة العود إليهم ، بدلالة قوة الكلام عليهم وإن لم يذكروا.

كان لغيرهم فلا كلام فيه ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا﴾^(١) ﴿مِنْ وَرَائِكُمْ﴾ يحرسونكم وصلة صلاة الخوف عند أبي حنيفة : أن يصلى الإمام بإحدى الطائفتين ركعة إن كانت الصلاة ركعتين . والأخرى بإزاء العدو . ثم تقف هذه الطائفة بإزاء العدو وتأتى الأخرى فيصلى بها ركعة ويتم صلاته . ثم تقف بإزاء العدو ، وتأتى الأولى فتؤدي الركعة بغير قراءة وتتم صلاتها ثم تحرس ، وتأتى الأخرى فتؤدي الركعة بقراءة وتتم صلاتها . والسجود على ظاهره عند أبي حنيفة . وعند مالك بمعنى الصلاة ، لأن الإمام يصلى عنده بطائفة ركعة ويقف قائما حتى تتم صلاتها وتسلم وتذهب ، ثم يصلى بالثانية ركعة ويقف قاعداً حتى تتم صلاتها ، ويسلم بهم . ويعضده ﴿وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ . وقرئ : وأمتعاتكم : فإن قلت : كيف جمع بين الأسلحة وبين الحذر في الأخذ^(٢) . قلت : جعل الحذر وهو التحرز والتيقظ آلة يستعملها الغازي ، فلذلك جمع بينه وبين الأسلحة في الأخذ ، وجعلا مأخوذين . ونحوه قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ جعل الإيمان مستقراً لهم ومتبواً لتمكّنهم فيه فلذلك جمع بينه وبين الدار في التبوؤ ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ﴾ فيشدون عليكم شدة واحدة . ورخص لهم في وضع الأسلحة إن ثقل عليهم حملها بسبب ما يبلهم في مطر أو يضعفهم من مرض ، وأمرهم مع ذلك بأخذ الحذر لئلا يغفلوا فيهمج عليهم العدو . فإن قلت : كيف طابق الأمر بالحذر قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً﴾؟ قلت : الأمر بالحذر من العدو يوهم توقع غلبته واعتزازه ، فنفى عنهم ذلك الإيهام بإخبارهم أنّ الله يهين عدوهم ويخذله وينصرهم عليه ، لتقوى قلوبهم ، وليعلموا أن الأمر بالحذر ليس لذلك ، وإنما هو تعبد من الله كما قال : ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ . ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ فإذا صليتم في حال الخوف والقتال ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ فصلوها ﴿قِيَاماً﴾ مسايفين ومقارعين ﴿وَقُعُوداً﴾ جاثين على الركب مرامين ﴿وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ متخنين بالجراح ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ﴾ حين تضع الحرب أوزارها وأمنتكم ﴿فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ﴾ فاقضوا ما صليتم في تلك الأحوال التي هي أحوال القلق والانزعاج ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ

(١) عاد كلامه . قال «والمراد بقوله فليكونوا من ورائكم غير المصلين» قال أحمد : والظاهر أن معنى السجود هاهنا الصلاة . وقد عبر عنها بالسجود كثيراً والمراد : فإذا صلت الطائفة أى أتمت صلاتها ، فليكونوا من ورائكم . وفيه دليل لمشهور مذهب مالك من أن الطائفة الأولى تتم صلاتها والامام منتظر للطائفة الأخرى . وقوله : ﴿وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى﴾ يعنى إذا أتمت الأولى صلاتها ووقفت من ورائكم ، لتأت الطائفة الأخرى التي لم تصل بعد شيئاً فليصلوا معك . وفيه دليل بين أيضاً لأحد القولين في مذهب مالك ، من أن الامام ينتظر الثانية حتى تتم صلاتها ويسلم بهم ، لأن ظاهر المعية المطلقة يوجب ذلك ، إذ لو كانوا يقضون بعد سلامه لم يكونوا مصلين معه على الإطلاق ، والله أعلم . فهذه الآية منطبقة على أكثر مشهور مذهبه في تفاصيل صلاة الخوف ، والله الموفق للصواب .

(٢) عاد كلامه . قال «فان قلت كيف جمع بين الأسلحة ... الخ»؟ قال أحمد : وحسن هذا المجاز وبلغ به ذروة الفصاحة ، عطف الحقيقة عليه .

كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا محدوداً بأوقات لا يجوز إخراجها عن أوقاتها على أى حال كنتم ، خوف أو أمن. وهذا ظاهر على مذهب الشافعي رحمه الله في إيجابه الصلاة على المحارب في حالة المسابقة والمشى والاضطراب في المعركة إذا حضر وقتها ، فإذا اطمأن فعليه القضاء. وأما عند أبي حنيفة رحمه الله فهو معذور في تركها إلى أن يطمئن. وقيل : معناه فإذا قضيت صلاة الخوف فأدعوا ذكر الله مهللين مكبرين مسبحين داعين بالنصرة والتأييد في كافة أحوالكم من قيام وعود واضطجاع ، فإن ما أنتم فيه من خوف وحرب جدير بذكر الله ودعائه واللجأ إليه **﴿فَإِذَا اطمأننتم﴾** فإذا أقمت **﴿فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ﴾** فأتوها.

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَلَهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٠٤)

﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ ولا تضعفوا ولا تتوانوا **﴿فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾** في طلب الكفار بالقتال والتعرض به لهم ، ثم ألزمهم الحجة بقوله : **﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ﴾** أى ليس ما تكابدون من الألم بالجرح والقتل مختصاً بكم ، إنما هو أمر مشترك بينكم وبينهم يصيبهم كما يصيبكم ، ثم إنهم يصبرون عليه ويتشجعون ، فما لكم لا تصبرون مثل صبرهم ، مع أنكم أولى منهم بالصبر لأنكم **﴿تَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾** من إظهار دينكم على سائر الأديان ، ومن الثواب العظيم في الآخرة. وقرأ الأعرج : أن تكونوا تألمون ، بفتح الهمزة ، بمعنى : ولا تهنوا لأن تكونوا تألمون. وقوله : **﴿فَالَهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ﴾** تعليل. وقرأ : فإلهم ييلمون كما تيلمون. وروى أن هذا في بدر الصغرى ، كان بهم جراح فتواكلوا **﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾** لا يكلفكم شيئاً ولا يأمركم ولا ينهاكم إلا لما هو عالم به مما يصلحكم.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ (١٠٥) **﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾** (١٠٦)

روى أن طعمة بن أبيرق أحد بني ظفر سرق درعا من جار له اسمه قتادة بن النعمان في جراب دقيق ، فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه ، وخبأها عند زيد بن السمين رجل من اليهود ، فالتصقت الدرع عند طعمة فلم توجد وحلف ما أخذها ، وما له بها علم ، فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودي فأخذوها ، فقال : دفعها إلى طعمة ، وشهد له ناس من اليهود. فقالت بنو ظفر : انطلقوا بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا إن لم تفعل هلك وافتضح ويريء اليهودي ، فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل وأن يعاقب

اليهودي. وقيل : هم أن يقطع يده ^(١) فنزلت. وروى أن طعمة هرب إلى مكة وارتد ونقب حائطاً بمكة ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ بما عرفك وأوحى به إليك. وعن عمر رضى الله عنه : لا يقولنَّ أحدكم قضيت بما أرانى الله ، فإنَّ الله لم يجعل ذلك إلا لنبية صلى الله عليه وسلم ، ولكن ليجتهد ^(٢) رأيه ، لأن الرأى من رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مصيباً ، لأن الله كان يريه إياه ، وهو منا الظن والتكلف ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾ ولا تكن لأجل الخائنين محاصماً للبراء ، يعنى لا تخاصم اليهود لأجل بنى ظفر ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ﴾ مما هممت به من عقاب اليهودي.

﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيماً﴾ (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً (١٠٨) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩) وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١١٠)

﴿يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ يخونونها بالمعصية. كقوله : ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ جعلت معصية العصاة خيانة منهم لأنفسهم كما جعلت ظلماً لها : لأنَّ الضرر راجع إليهم. فإن قلت : لم قيل ﴿لِلْخَائِنِينَ﴾ و ﴿يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ وكان السارق طعمة وحده؟ قلت : لوجهين ، أحدهما : أنَّ بنى ظفر شهدوا له بالبراءة ونصروه ، فكانوا شركاء له في الإثم. والثاني : أنه جمع ليتناول طعمة وكل من خان خيانتته ، فلا تخاصم لخائن قط ولا تجادل عنه. فإن قلت : لم قيل ﴿خَوَّانًا أَثِيماً﴾ على المبالغة؟ قلت : كان الله عالماً من طعمة بالإفراط في الخيانة وركوب المآثم ، ومن كانت تلك

(١) ذكره الثعلبي من رواية أبي صالح عن الكلبي عن ابن عباس. ونقله الواحدي عن المفسرين في الأسباب. ورواه الطبري من رواية سعيد عن قتادة قال «ذكر لنا أن هذه الآية نزلت في شأن طعمة بن أبيرق وكان من الأنصار من بنى ظفر سرق درعاً لعمه ، كانت ودیعة عنده ثم قذفها على يهودى كان يغشاهم يقال له : زيد بن السمين . فذكر القصة . وأخرجه الترمذي والحاكم مطولاً من رواية محمد بن سلمة عن ابن إسحاق عن عاصم بن عمر عن أبيه عن جده قتادة بن النعمان . وقال الترمذي : غريب ، ولا نعلم أسنده عن ابن إسحاق إلا محمد بن سلمة . ورواه يونس وغير واحد عن ابن إسحاق عن عاصم مرسلاً.

(٢) قوله «ولكن ليجتهد رأيه» عبارة الخازن : ليجهد. (ع)

خاتمة أمره لم يشك في حاله. وقيل : إذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم أن لها أخوات. وعن عمر رضى الله عنه أنه أمر بقطع يد سارق ، فجاءت أمه تبكى وتقول : هذه أول سرقة سرقها فاعف عنه. فقال : كذبت ، إن الله لا يؤاخذ عبده في أول مرة ^(١) ﴿يَسْتَحْفُونَ﴾ يستترون ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ حياء منهم وخوفا من ضررهم ﴿وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ ولا يستحيون منه ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ وهو عالم بهم مطلع عليهم لا يخفى عليه خاف من سرهم ، وكفى بهذه الآية ناعية على الناس ما هم فيه من قلة الحياء والخشية من ربهم ، مع علمهم إن كانوا مؤمنين أنهم في حضرته لا ستر ولا غفلة ولا غيبة ، وليس إلا الكشف الصريح والافتضاح ﴿يُبَيِّنُونَ﴾ يدبرون ويؤرون ^(٢) وأصله أن يكون بالليل ﴿مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ وهو تدبير طعمة أن يرمى بالدرع في دار زيد ليسرق دونه ويحلف ببراءته. فإن قلت : كيف سمى التدبير قولاً ، وإنما هو معنى في النفس؟ قلت : لما حدث بذلك نفسه سمى قولاً على المجاز. ويجوز أن يراد بالقول : الحلف الكاذب الذي حلف به بعد أن بيته ، وتوريكه ^(٣) الذنب على اليهودي ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ ها للتنبيه في أنتم. وأولاء : وهما مبتدأ وخبر. و ﴿جَادَلْتُمْ﴾ جملة مبنية لوقوع أولاء خبراً ، كما تقول لبعض الأسخياء : أنت حاتم ، تجود بمالك ، وتؤثر على نفسك. ويجوز أن يكون (أولاء) اسماً موصولاً بمعنى الذين ، وجادلتم صلتته. والمعنى : هبوا أنكم خاصمتهم عن طعمة وقومه في الدنيا ، فمن يخاصم عنهم في الآخرة إذا أخذهم الله بعذابه. وقرأ عبد الله : عنه ، أى عن طعمة ﴿وَكَيْلًا﴾ حافظاً ومحامياً من بأس الله وانتقامه ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا﴾ قبيحاً متعدياً يسوء به غيره ، كما فعل طعمة بقتادة واليهودي ﴿أَوْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ﴾ بما يختص به كالحلف الكاذب. وقيل : ومن يعمل سوءاً من ذنب دون الشرك ، أو يظلم نفسه بالشرك. وهذا بعث لطعمة على الاستغفار والتوبة لتلزمه الحجة ، مع العلم بما يكون منه. أو لقومه لما فرط منهم من نصرته والذب عنه.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١١١) ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (١١٢)

﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أى لا يتعداه ضرره إلى غيره فليبق على نفسه من كسب السوء

(١) لم أجده.

(٢) قوله «ويؤرون» في الصحاح «زورت الشيء» حسنته وقومته. والتزوير : تزيين الكذب. (ع)

(٣) قوله «وتوريكه الذنب» في الصحاح «ورك فلان ذنبه على غيره» أى ترفه به. وفيه أيضاً «هو يقذف بكذا» أى يرمى به ويتهم به. (ع)

﴿خَطِيئَةٌ﴾ صغيرة ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ أو كبيرة ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا﴾ كما رمى طعمة زيدا ﴿فَقَدْ احْتَمَلَ بُحْتَانًا وَإِثْمًا﴾ لأنه بكسب الإثم «آثم» وبرمي البريء «باهت» فهو جامع بين الأمرين. وقرأ معاذ بن جبل رضى الله عنه : ومن يكسب ، بكسر الكاف والسين المشددة وأصله يكتسب.

﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (١١٣)

﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ أى عصمته وألطفه وما أوحى إليك من الاطلاع على سرهم ﴿لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ من بنى ظفر ﴿أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ عن القضاء بالحق وتوخى طريق العدل ، مع علمهم بأن الجاني هو صاحبهم ، فقد روى أن ناسا منهم كانوا يعلمون كنه القصة ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ لأن وباله عليهم ﴿وَمَا يَصُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ لأنك إنما عملت بظاهر الحال ، وما كان يخطر ببالك أن الحقيقة على خلاف ذلك ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ من خفيات الأمور وضماير القلوب ، أو من أمور الدين والشرائع. ويجوز أن يراد بالطائفة بنو ظفر ، ويرجع الضمير في : ﴿مِنْهُمْ﴾ إلى الناس. وقيل : الآية في المنافقين.

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١١٤)

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾ من تناجي الناس ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ إلا نجوى من أمر ، على أنه مجرور بدل من كثير ، كما تقول : لا خير في قيامهم إلا قيام زيد. ويجوز أن يكون منصوبا على الانقطاع ، بمعنى : ولكن من أمر بصدقة ، ففي نجواه الخير. وقيل : المعروف القرض. وقيل إغاثة الملهوف. وقيل هو عام في كل جميل. ويجوز أن يراد بالصدقة الواجب والمعروف ما يتصدق به على سبيل التطوع. وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم «كلام ابن آدم كله عليه لا له إلا ما كان من أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو ذكر الله» ^(١) وسمع سفيان رجلا يقول : ما أشد هذا الحديث. فقال : ألم تسمع الله يقول ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ﴾

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجة والحاكم وأبو يعلى والطبراني من حديث أم حبيبة. ومداره على محمد بن يزيد ابن حبيش رواية سفيان الثوري ، وفيه رواية الحاكم بزيادة فيه من كلام الثوري وأنه استشهد بهذه الآية وغيرها.

﴿مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾ فهو هذا بعينه. أو ما سمعته يقول ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ فهو هذا بعينه وشرط في استيجاب الأجر العظيم أن ينوى فاعل الخير عبادة الله والتقرب به إليه ، وأن يتغى به وجهه خالصاً ، لأن الأعمال بالنيات. فإن قلت : كيف قال : ﴿إِلَّا مِنْ أَمْرٍ﴾ ثم قال : ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ قلت : قد ذكر الأمر بالخير ليدل به على فاعله ، لأنه إذا دخل الأمر به في زمرة الخيرين كان الفاعل فيهم أدخل. ثم قال : ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ فذكر الفاعل وقرن به الوعد بالأجر العظيم ، ويجوز أن يراد : ومن يأمر بذلك ، فعبر عن الأمر بالفعل كما يعبر به عن سائر الأفعال ، وقرئ : يؤتيه ، بالياء. ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١١٦) إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَانَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨) وَلَاضِلَّيْنَهُمْ وَلَأَمْنَيْنَهُمْ فَلَيُبْتِغِينَ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَأَمْرَهُمْ فَلَيُغَيِّرْنَ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١)

﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهو السبيل الذي هم عليه من الدين الحنيفي القيم ، وهو دليل على أن الإجماع حجة لا تجوز مخالفتها ، كما لا تجوز مخالفة الكتاب والسنة ، لأن الله عز وعلا جمع بين اتباع سبيل غير المؤمنين ، وبين مشاققة الرسول في الشرط ، وجعل جزاء الوعيد الشديد ، فكان اتباعهم واجبا كمواولة الرسول عليه الصلاة والسلام. قوله ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾ نجعله واليا لما تولى من الضلال ، بأن نخذله ونخلي بينه وبين ما اختاره ﴿وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾ وقرئ : ونصله ، بفتح النون ، من صلاه. وقيل : هي في طعمة وارتداده وخروجه إلى مكة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ تكرير للتأكيد ، وقيل : كرر لقصة طعمة : وروى : أنه مات مشركا. وقيل : جاء شيخ من العرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني شيخ منهمك في الذنوب ، إلا أني لم أشرك بالله شيئا منذ عرفته وآمنت به ، ولم أتخذ من دونه وليا ، ولم أوقع المعاصي جرة

على الله ولا مكابرة له ، وما توهمت طرفة عين أنى أعجز الله هربا ، وإنى لنادم تائب مستغفر ، فما ترى حالى عند الله؟^(١) فنزلت. وهذا الحديث ينصر قول من فسر ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ بالتائب من ذنبه^(٢) ﴿إِلَّا إِنَانَا﴾ هي اللات والعزى ومناة. وعن الحسن لم يكن حتى من أحياء العرب إلا ولهم صنم يعبدونه يسمونه أنثى بنى فلان. وقيل : كانوا يقولون في أصنامهم هنّ بنات الله. وقيل : المراد الملائكة. لقولهم : الملائكة بنات الله. وقرئ أنثا ، جمع أنيث أو أناث. ووثناً. وأنثا ، بالتخفيف والتثقيل جمع وثن ، كقولك أسد وأسد وأسد. وقلب الواو ألفا نحو «أجوه» في وجوه. وقرأت عائشة رضى الله عنها : أوثاناً ﴿وَأِنْ يَدْعُونَ﴾ وإن يعبدون عبادة الأصنام ﴿إِلَّا شَيْطَانًا﴾ لأنه هو الذي أغراهم على عبادتها فأطاعوه فجعلت طاعتهم له عبادة. و ﴿لَعْنَةُ اللَّهِ وَقَالَ لِأَتَّخِذَنَّ﴾ صفتان بمعنى شيطانا مريداً جامعاً بين لعنة الله وهذا القول الشنيع ﴿نَصِيْبًا مَّفْرُوضًا﴾ مقطوعاً واجباً فرضته لنفسه من قولهم : فرض له في العطاء ، وفرض الجند رزقه. قال الحسن : من كل ألف تسعمائة وتسعين إلى النار ﴿وَلَا مُنِيْنَهُمْ﴾ الأمانى الباطلة^(٣) من طول الأعمار ، وبلوغ الآمال ، ورحمة الله للمجرمين بغير توبة^(٤) والخروج من النار بعد دخولها بالشفاعة ونحو ذلك. وتبتيكنهم الأذان فعلهم بالبحائر ، كانوا يشقون أذن الناقة إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكراً ، وحرّموا على أنفسهم الانتفاع بها. وتغيّروهم خلق الله : فقء عين الحامى وإعفاؤه عن الركوب. وقيل : الخصاء ، وهو في قول عامة العلماء مباح في البهائم. وأما في بنى آدم فمحظور. وعند أبى حنيفة : يكره شراء الخصيان وإمساكلهم واستخدامهم ، لأن الرغبة فيهم تدعو إلى خصائهم. وقيل : فطرة الله التي هي دين الإسلام. وقيل للحسن : إن عكرمة يقول هو الخصاء ، فقال : كذب عكرمة ، هو دين الله. وعن

(١) هو منقطع.

(٢) قوله «ينصر قول من فسر من يشاء ... الخ» هو قول المعتزلة. (ع)

(٣) قال محمود : «المراد الأمانى الباطلة ... الخ» قال أحمد : هو تعريض بأهل السنة الذين يعتقدون أن الموحد ذا الكبائر غير التائب أمره يرجأ إلى الله تعالى ، والعفو عنه موكول إلى مشيئته إيمانا وتصديقا بقوله في الآية المعتبرة في هذا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ والعجب أن هذه الآية تكررت في هذه السورة مرتين على أذن الزمخشري ، وهو مع ذلك يتصام عنها ، ويجعل العقيدة المتلقاة منها من جملة الأمانى الشيطانية ، نعوذ بالله من إرسال الرسن في اتباع الهوى ، وكذلك أيضا عرض بأهل السنة في اعتقادهم صدق الوعد الصادق بالشفاعة المحمدية ، وعد ذلك أيضا أمنية شيطانية ، وما أرى من جحد الشفاعة بناها. فلا حول ولا قوة إلا بالله ، لقد مكر بهذا الفاضل ، فلا يأمن بعده عاقل. إنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

(٤) قوله : «للمجرمين بغير توبة» بل بالشفاعة ، أو بمجرد الفضل. وهو مذهب أهل السنة. (ع)

ابن مسعود : هو الوشم. وعنه : لعن الله الواشرات والمتنمصات ^(١) والمستوشمات المغيرات خلق الله ^(٢). وقيل التخنث.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ (١٢٢)

﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ مصدران : الأول مؤكد لنفسه ، والثاني مؤكد لغيره ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ تأكيد ثالث بليغ. فإن قلت : ما فائدة هذه التوكيدات؟ قلت : معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة وأمانيه الباطلة لقرنائه بوعده الصادق لأوليائه ، ترغيباً للعباد في إثارة ما يستحقون به تنجز وعد الله ، على ما يتجرعون في عاقبته غصص إخلاف مواعيد الشيطان.

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٢٣) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (١٢٤)

في ﴿لَيْسَ﴾ ضمير وعد الله ، أى ليس ينال ما وعد الله من الثواب ﴿بِأَمَانِيكُمْ وَلَا﴾ ب ﴿أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ والخطاب للمسلمين لأنه لا يتمنى وعد الله إلا من آمن به ، وكذلك ذكر أهل الكتاب معهم لمشاركتهم لهم في الإيمان بوعده الله. وعن مسروق والسدى : هي في المسلمين. وعن الحسن : ليس الإيمان بالتمني ، ولكن ما قر في القلب وصدقه العمل ، إن قوما ألهتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا : نحسن الظن بالله وكذبوا ، لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل له. وقيل : إن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا ، فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم ، وكتابتنا قبل كتابكم. وقال المسلمون : نحن أولى منكم ، نبينا خاتم النبيين وكتابتنا يقضى على الكتب التي كانت قبله. فنزلت. ويحتمل أن يكون الخطاب للمشركين لقولهم : إن كان الأمر كما يزعم هؤلاء لنكونن خيراً منهم وأحسن حالا ﴿لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ ، ﴿إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ وكان أهل الكتاب يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه. لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة. ويعضده

(١) قوله «الواشرات والمتنمصات» الواشرات : المرققات أسناخن. والمتنمصات : الناتفات للشعر ، والمتنقشات أيضاً. اه صحاح. (ع)

(٢) متفق عليه من رواية علقمة بزيادة «المتفلجات» وفيه قصة.

تقدم ذكر أهل الشرك قبله. وعن مجاهد : إن الخطاب للمشركين. قوله : ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ وقوله : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ بعد ذكر تمنى أهل الكتاب ، نحو من قوله : ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ وقوله : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ عقيب قوله : ﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ وإذا أبطل الله الأمانى وأثبت أن الأمر كله معقود بالعمل ، وأن من أصلح عمله فهو الفائز. ومن أساء عمله فهو الهالك : تبين الأمر ووضح ، ووجب قطع الأمانى وحسم المطامع ، والإقبال على العمل الصالح. ولكنه نصح لا تعيه الأذان ولا تلقى إليه الأذهان. فإن قلت : ما الفرق بين «من» الأولى والثانية؟ قلت : الأولى للتبعيض ، أراد : ومن يعمل بعض الصالحات ؛ لأنّ كلا لا يتمكن من عمل كل الصالحات لاختلاف الأحوال ، وإنما يعمل منها ما هو تكليفه وفي وسعه. وكَم من مكلف لا حج عليه ولا جهاد ولا زكاة ، وتسقط عنه الصلاة في بعض الأحوال. والثانية لتبيين الإبهام في : ﴿مَنْ يَعْمَلْ﴾ فإن قلت : كيف خص الصالحون بأنهم لا يظلمون وغيرهم مثلهم في ذلك ^(١)؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون الراجع في : ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ لعمال السوء وعمال الصالحات جميعاً. والثاني أن يكون ذكره عند أحد الفريقين دالا على ذكره عند الآخر ، لأن كلا الفريقين مجزيون بأعمالهم لا تفاوت بينهم ، ولأن ظلم المسيء أن يزداد في عقابه ، وأرحم الراحمين معلوم أنه لا يزيد في عقاب المجرم ، فكان ذكره مستغنى عنه وأما المحسن فله ثواب وتوابع للثواب من فضل الله هي في حكم الثواب ، فجاز أن ينقص من الفضل لأنه ليس بواجب ، فكان نفى الظلم دلالة على أنه لا يقع نقصان في الفضل

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (١٢٥)

﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له لا تعرف لها ربا ولا معبوداً سواه

(١) قال محمود : «إن قلت كيف خص الصالحون بأنهم لا يظلمون وغيرهم مثلهم في ذلك؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون الراجع في : ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ لعمال السوء وعمال الصالحات جميعاً. والثاني : أن يكون ذكره عند أحد الفريقين دالا على ذكره عند الآخر ، لأن كلا الفريقين مجزيون بأعمالهم لا تفاوت بينهم ، ولأن ظلم المسيء أن يزداد في عقابه ، وأرحم الراحمين معلوم أنه لا يزيد في عقاب المجرم ، فكان ذكره مستغنى عنه. وأما المحسن فله ثواب وتوابع للثواب من فضل الله هي في حكم الثواب ، فجاز أن ينقص من الفضل لأنه ليس بواجب ، وكان نفى الظلم دلالة على أنه لا يقع نقصان في الفضل» قال أحمد : مدار هذا التطويل بالسؤال والجواب على بث المعتقد الفاسد في أن الله تعالى يجب عليه أن يثيب على الطاعات ، وأن الثواب منقسم إلى واجب ليس بفضل ، وإلى زيادة على الواجب وهي الفضل خاصة ، وهذا المعتقد هو الذي يصدق عليه أن الشيطان مناه للقدرة ، حتى زعموا أن لهم على الله واجبا . تعالى الله عن ذلك . إن الله لغنى عن عمل يوجب عليه حقاً ، جل الله وعز . لقد نفخ الشيطان بهذه الأمنية في آذان القدرة. اللهم لا عمدة لنا إلا فضلك ، فأجزل نصيبنا منه يا كريم

وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الْوُلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

﴿مَا يُتْلَى﴾ في محل الرفع. أى الله يفتيكم والمتلو ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ في معنى اليتامى ، يعنى قوله ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ وهو من قولك : أعجبني زيد وكرمه. ويجوز أن يكون. ﴿مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ مبتدأ و ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ خبره على أنها جملة معترضة ، والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ تعظيما للمتلو عليهم ، وأن العدل والنصفة في حقوق اليتامى من عظام الأمور المرفوعة الدرجات عند الله التي تجب مراعاتها والمحافظة عليها ، والمخل بما ظالم متهاون بما عظمه الله. ونحوه في تعظيم القرآن : ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ ويجوز أن يكون مجروراً على القسم ، كأنه قيل : قل الله يفتيكم فيهنّ ، وأقسم بما يتلى عليكم في الكتاب. والقسم أيضاً لمعنى التعظيم ، وليس بسديد أن يعطف على المجرور في : ﴿فِيهِنَّ﴾ ، لاختلاله من حيث اللفظ والمعنى ، فإن قلت بم تعلق قوله ﴿فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾؟ قلت : في الوجه الأول هو صلة ﴿يُتْلَى﴾ أى يتلى عليكم في معانهم. ويجوز أن يكون ﴿فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ بدلا من ﴿فِيهِنَّ﴾ وأما في الوجهين الآخرين فبدل لا غير. فإن قلت : الإضافة في : ﴿يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ ما هي؟ قلت : إضافة بمعنى «من» كقولك : عندي سحق عمامة. وقرئ : في ييامى النساء ، بياءين على قلب همزة أيامى ياء ﴿لَا تُؤْتُوهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ وقرئ : ما كتب الله لهنّ ، أى ما فرض لهن من الميراث. وكان الرجل منهم يضم اليتيمة إلى نفسه وما لها ^(١). فإن كانت جميلة تزوجها وأكل المال ، وإن كانت دميمة عضلها عن التزوج حتى تموت فيرثها ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ يحتمل في أن تنكحوهن لجمالهن ، وعن أن تنكحوهن لدمامتهن. وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا جاءه ولى اليتيمة نظر ، فإن كانت جميلة غنية قال : زوّجها غيرك والتمس لها من هو خير منك. وإن كانت دميمة ولا مال لها قال : تزوجها فأنت أحق بها ^(٢) ﴿وَالْمُسْتَضْعِفِينَ﴾ مجرور معطوف على يتامى النساء ، وكانوا في الجاهلية إنما يورثون الرجال القوام بالأموال دون الأطفال والنساء. ويجوز أن يكون خطابا للأوصياء كقوله : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَيْبَةَ بِالطَّبَإِ﴾ ﴿وَأَنْ تَقُومُوا﴾ مجرور كالمستضعفين بمعنى : يفتيكم في يتامى النساء ، وفي المستضعفين. وفي أن تقوموا. ويجوز أن يكون منصوبا بمعنى : ويأمركم أن تقوموا ، وهو خطاب للأئمة في أن ينظروا لهم ويستوفوا لهم حقوقهم ، ولا يخلوا أحداً يهتضمهم.

(١) قوله «وما لها الخ» عبارة النسفي : ولعل أصله وما لها إلى ماله. (ع)

(٢) أخرجه الطبري من طريق إبراهيم أن عمر بن الخطاب . فذكره مرسلا.

﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١٢٨)

﴿خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا﴾ توقعت منه ذلك لما لاح لها من مخايله وأماراته. والنشوز : أن يتجافى عنها بأن يمنعها نفسه ونفقته والمودة والرحمة التي بين الرجل والمرأة ، وأن يؤذيها بسب أو ضرب والإعراض : أن يعرض عنها بأن يقلل محادثتها ومؤانستها ، وذلك لبعض الأسباب من طعن في سنّ ، أو دمامة ، أو شيء في خلق أو خلق ، أو ملال ، أو طموح عين إلى أخرى ، أو غير ذلك فلا بأس بما في أن يصلحا بينهما. وقرئ : يصلحا. ويصلحا ، بمعنى : يتصلحا ، ويصطلحا. ونحو أصلح : أصبر في اصطبر ﴿يُصْلِحَا﴾ في معنى مصدر كل واحد من الأفعال الثلاثة. ومعنى الصلح : أن يتصلحا على أن تطيب له نفسا عن القسمة أو عن بعضها ، كما فعلت سودة بنت زمعة حين كرهت أن يفارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفت مكان عائشة من قلبه ، فوهبت لها يومها ^(١). وكما روى أن امرأة أراد زوجها أن يطلقها لرغبته عنها وكان لها منه ولد ، فقالت : لا تطلقني ودعني أقوم على ولدي وتقسم لي في كل شهرين ، فقال : إن كان هذا يصلح فهو أحب إليّ ، فأقرها. أو تحب له بعض المهر ، أو كله ، أو النفقة ؛ فإن لم تفعل فليس له إلا أن يمسكها بإحسان أو يسرحها ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ من الفرقة أو من النشوز والإعراض وسوء العشرة. أو هو خير من الخصومة في كل شيء. أو الصلح خير من الخيور ، كما أن الخصومة شر من الشرور وهذه الجملة اعتراض ، وكذلك قوله ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ ومعنى إحضار الأنفس الشح أن الشح جعل حاضرا لها لا يغيب عنها أبداً ولا تنفك عنه ، يعنى أنها مطبوعة عليه والغرض أن المرأة لا تكاد تسمح بقسمتها وبغير قسمتها ^(٢) ، والرجل لا تكاد نفسه تسمح بأن يقسم لها وأن يمسكها إذا رغب عنها وأحب غيرها ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا﴾ بالإقامة على نساءكم وإن كرهتموهن وأحببتن غيرهن ، وتصبروا على ذلك مراعاة لحق الصحبة ﴿وَتَتَّقُوا﴾ النشوز والإعراض وما يؤدي إلى الأذى والخصومة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإحسان والتقوى ﴿خَبِيرًا﴾ وهو يثيبكم عليه. وكان عمران بن حطان الخارجي من آدم بنى آدم ، وامرأته من أجملهم ،

(١) أخرجه الحاكم من حديث عائشة وهو في الصحيحين من رواية عروة عن عائشة قالت «ما رأيت امرأة أحب أن أكون مسلحها من سودة بنت زمعة من امرأة فيها حدة . الحديث».

(٢) قوله «وبغير قسمتها» لعله «غير قسمتها» ، كالفرقة والنفقة والمهر. وعبرة النسفي : تسمح بقسمتها والرجل ... الخ ، فحرر. (ع)

فأجالت في وجهه نظرها يوماً ثم تابعت الحمد لله ، فقال : مالك؟ قالت : حمدت الله على أنى وإياك من أهل الجنة ، قال : كيف؟ قالت : لأنك رزقت مثلي فشكرت ، ورزقت مثلك فصبرت ، وقد وعد الله الجنة عباده الشاكرين والصابرين ^(١)

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (١٢٩)

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا﴾ ومحال أن تستطيعوا العدل ﴿بَيْنَ النِّسَاءِ﴾ والتسوية حتى لا يقع ميل البتة ولا زيادة ولا نقصان فيما يجب لهن ، فرفع لذلك عنكم تمام العدل وغايته ، وما كلفتم منه إلا ما تستطيعون بشرط أن تبدلوا فيه وسعكم وطاقتكم ؛ لأنّ تكليف ما لا يستطاع داخل في حدّ الظلم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ وقيل : معناه أن تعدلوا في المحبة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقسم بين نسائه فيعدل ويقول «هذه قسمتي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك ^(٢)» يعنى المحبة ؛ لأن عائشة رضى الله عنها كانت أحب إليه. وقيل : إن العدل بينهما أمر صعب بالغ من الصعوبة حدّاً يوهم أنه غير مستطاع ، لأنه يجب أن يسوى بينهما في القسمة والنفقة والتعهد والنظر والإقبال والمخالطة والمفاكهة والمؤانسة وغيرها مما لا يكاد الحصر يأتى من ورائه ، فهو كالخارج من حدّ الاستطاعة. هذا إذا كن محبوبات كلهن ؛ فكيف إذا مال القلب مع بعضهن ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ﴾ فلا تجوروا على المرغوب عنها كل الجور فتمنعوها قسمتها من غير رضى منها ، يعنى : أن اجتناب كل الميل مما هو في حد اليسر والسعة ؛ فلا تفرطوا فيه إن وقع منكم التفريط في العدل كله. وفيه ضرب من التوبيخ ﴿فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ وهي التي ليست بذات بعل ولا مطلقة قال :

هَلْ هِيَ إِلَّا حَظٌّ أَوْ تَطْلِيْقٌ أَوْ صَلْفٌ أَوْ بَـلْغٌ ذَاكَ تَعْلِيْقٌ ^(٣)

وفي قراءة أبيّ : فتدروها كالمسجونة. وفي الحديث : «من كانت له امرأتان يميل مع إحداها جاء

(١) لم أجده.

(٢) أخرجه أصحاب السنن وابن حبان والحاكم من رواية أبي قلابة عن عبد الله بن يزيد عن عائشة ، وفيه يعنى القلب.

(٣) لبنت الحمارس. والاستفهام إنكارى ، أى ليست حالة الزوجة مع زوجها إلا حطة صغيرة بخطوة الزوج بها ، أو تطليق لها مع الزوج ، أو صلف . أى عدم حظوة من الزوج بها . وصلفت صلفاً من باب تعب. ونساء صالفات وصلائف ، لم يحظهن الزوج ، أو تعليق بين ذلك المذكور من الأحوال. وتسبيغ مشطور الرجز بزيادة ساكن في آخره . كما هنا . قليل.

يوم القيامة وأحد شقيه ماثل» ^(١) وروى أنّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعث إلى أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم بمال ، فقالت عائشة رضى الله عنها : إلى كل أزواج رسول الله بعث عمر مثل هذا؟ قالوا : لا ، بعث إلى القرشيات بمثل هذا وإلى غيرهنّ بغيره ، «فقلت : ارفع رأسك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعدل بيننا في القسمة بماله ونفسه. فرجع الرسول فأخبره ، فأتم هن جميعاً ^(٢) وكان لمعاذ امرأتان ، فإذا كان عند إحداهما لم يتوضأ في بيت الأخرى ، فماتتا في الطاعون فدفنهما في قبر واحد ^(٣) ﴿وَإِنْ تُصَلِّحُوا﴾ ما مضى من ميلكم وتداركوه بالتوبة ﴿وَتَتَّقُوا﴾ فيما يستقبل ، غفر الله لكم.

﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ (١٣٠)

وقرى : وإن يتفارقا ، بمعنى وإن يفارق كل واحد منهما صاحبه ﴿يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا﴾ يرزقه زوجا خيراً من زوجه وعيشاً أهنأ من عيشه. والسعة الغنى. والمقدرة : والواسع : الغنى المقتدر.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ (١٣٣)

﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ متعلق بوصينا ، أو بأوتوا ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ عطف على ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ اسم للجنس يتناول الكتب السماوية ﴿أَنْ اتَّقُوا﴾ بأن اتقوا. وتكون أن المفسرة ، لأنّ التوصية في معنى القول : وقوله ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ﴾ عطف على اتقوا : لأنّ المعنى :

(١) أخرجه أصحاب السنن وابن حبان والحاكم من رواية بشير بن خنيك عن أبي هريرة. قال الترمذي : لا يعرف مرفوعاً إلا من حديث همام.

(٢) لم أجده هكذا ، وفي مسند أحمد من رواية باسرة بن سمين : سمعت عمر بن الخطاب يقول : وهو يخطب الناس يوم الجابية «إن الله جعلني خازناً لهذا المال وقاسماً له ، ثم قال : بل الله يقسمه ، وأنا بادئ أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم ففرض لأزواجه عشرة آلاف إلا جويرية وصفية وميمونة. فقالت عائشة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعدل بيننا. فعدل بينهن عمر . الحديث» أورده في سنن أبي عمرو بن حفص في مسند المكين

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية في ترجمة معاذ من رواية الليث عن يحيى بن سعيد أن معاذ بن جبل . فذكره . وزاد : فأسهم بينهما أيهما تقدم وهذا مرسل.

أمرناهم وأمرناكم بالتقوى ، وقلنا لهم ولكم : إن تكفروا فإنَّ الله . والمعنى : إن الله الخلق كله وهو خالقهم ومالكهم والمنعم عليهم بأصناف النعم كلها ، فحقه أن يكون مطاعا في خلقه غير معصى . يتقون عقابه ويرجون ثوابه . ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من الأمم السالفة ووصيناكم أن اتقوا الله ، يعنى أنها وصية قديمة ما زال يوصى الله بها عباده ، لستم بها مخصوصين ، لأنهم بالتقوى يسعدون عنده ، وبها ينالون النجاة في العاقبة ، وقلنا لهم ولكم : وإن تكفروا فإنَّ الله في سماواته وأرضه من الملائكة والثقليين من يوحده ويعبده ويتقيه ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ مع ذلك ﴿غَنِيًّا﴾ عن خلقه وعن عبادتهم جميعاً ، مستحقا لأن يحمد لكثرة نعمه وإن لم يحمده أحد منهم وتكرير قوله ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تقرير لما هو موجب تقواه ليتقوه فيطيعوه ولا يعصوه ، لأن الخشية والتقوى أصل الخير كله ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يفتنكم ويعدمكم كما أوجدكم وأنشأكم ﴿وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ ويوجد إنساً آخرين مكانكم أو خلقا آخرين غير الإنس ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ﴾ من الإعدام والإيجاد ﴿قَدِيرًا﴾ بليغ القدرة لا يمتنع عليه شيء أراده ، وهذا غضب عليهم وتخويف وبيان لاقتداره . وقيل : هو خطاب لمن كان يعادى رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب . أى : إن يشأ يمتكم ويأت بأناس آخرين يوالونه . ويروى أنها لما نزلت ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده على ظهر سلمان وقال : «إنهم قوم هذا» ^(١) يريد أبناء فارس .

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (١٣٤)

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ كالجاهد يريد بجهاده الغنيمة ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فما له يطلب أحدهما دون الآخر والذي يطلبه أحسهما ، لأن من جاهد الله خالصاً لم تخطئه الغنيمة ، وله من ثواب الآخرة ما الغنيمة إلى جنبه كلا شيء . والمعنى : فعند الله ثواب الدنيا والآخرة له إن أراده حتى يتعلق الجزاء بالشرط .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أُولَىٰ بِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١٣٥)

(١) أخرجه الطبري من رواية سهيل عن أبيه عن أبي هريرة بهذا وقال «يعنى عجم الفرس» .

﴿قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ مجتهدين في إقامة العدل حتى لا تجوروا ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ تقيمون شهادتكم لوجه الله كما أمرتم بإقامتها ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ ولو كانت الشهادة على أنفسكم أو آبائكم أو أقاربكم. فإن قلت : الشهادة على الوالدين والأقربين أن تقول : أشهد أن لفلان على والدئ كذا ، أو على أقاربي . فما معنى الشهادة على نفسه؟ قلت : هي الإقرار على نفسه ، لأنه في معنى الشهادة عليها بالزام الحق لها. ويجوز أن يكون المعنى : وإن كانت الشهادة وبالأعلى أنفسكم ، أو على آبائكم وأقاربكم ، وذلك أن يشهد على من يتوقع ضرره من سلطان ظالم أو غيره ﴿إِنْ يَكُنْ﴾ إن يكن المشهود عليه ﴿غَنِيًّا﴾ فلا تمنع الشهادة عليه لغناه طلباً لرضاه ﴿أَوْ فَقِيرًا﴾ فلا تمنعها ترهما عليه ﴿فَاللَّهُ أُولَىٰ بِهِمَا﴾ بالغنى والفقر أى بالنظر لهما وإرادة مصلحتهما ، ولو لا أن الشهادة عليهما مصلحة لهما لما شرعها ، لأنه أنظر لعباده من كل ناظر. فإن قلت : لم ثنى الضمير في : ﴿أُولَىٰ بِهِمَا﴾ وكان حقه أن يوحد ، لأن قوله إن يكن غنياً أو فقيراً في معنى إن يكن أحد هذين؟ قلت : قد رجع الضمير إلى ما دل عليه قوله : ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ لا إلى المذكور ، فلذلك ثنى ولم يفرد ، وهو جنس الغنى وجنس الفقر ، كأنه قيل : فالله أولى بجنسى الغنى والفقر ، أى بالأغنياء والفقراء ، وفي قراءة أبي : فالله أولى بهم وهي شاهدة على ذلك. وقرأ عبد الله : إن يكن غنى أو فقير ، على «كان» التامة ﴿أَنْ تَعْدِلُوا﴾ يحتمل العدل والعدل ، كأنه قيل : فلا تتبعوا الهوى ، كراهة أن تعدلوا بين الناس ، أو إرادة أن تعدلوا عن الحق ﴿وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا﴾ وإن تلووا ألسنتكم عن شهادة الحق أو حكومة العدل ، أو تعرضوا عن الشهادة بما عندكم وتمنعوها. وقرئ : وإن تلو ، أو تعرضوا ، بمعنى : وإن وليتم إقامة الشهادة أو أعرضتم عن إقامتها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ وبمجازاتكم عليه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (١٣٦)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خطاب للمسلمين. ومعنى ﴿آمَنُوا﴾ اثبتوا على الإيمان وداوموا عليه وازدادوه ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ المراد به جنس ما أنزل على الأنبياء قبله من الكتب ، والدليل عليه قوله : ﴿وَكُتُبِهِ﴾ قرئ : وكتابه على إرادة الجنس. وقرئ : أنزل ، على البناء للفاعل. وقيل : الخطاب لأهل الكتاب ، لأنهم آمنوا ببعض الكتب والرسول وكفروا ببعض. وروى أنه لعبد الله بن سلام ، وأسد وأسيد ابني كعب. وثعلبة

ابن قيس ، وسلام بن أخت عبد الله بن سلام ، وسلمة ابن أخيه ، ويامين بن يامين ، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : يا رسول الله ، إنا نؤمن بك وبكتابك وموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سواه من الكتب والرسل ، فقال عليه السلام : «بل آمنوا بالله ورسوله محمد وكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله» فقالوا : لا نفعل ، فنزلت ، فآمنوا كلهم^(١). وقيل : هو للمنافقين ، كأنه قيل : يا أيها الذين آمنوا نفاقا آمنوا إخلاصا. فإن قلت : كيف قيل لأهل الكتاب ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ وكانوا مؤمنين بالتوراة والإنجيل؟ قلت : كانوا مؤمنين بهما فحسب ، وما كانوا مؤمنين بكل ما أنزل من الكتب ، فأمرنا أن يؤمنوا بالجنس كله ، ولأن إيمانهم ببعض الكتب لا يصح إيمانا به ، لأن طريق الإيمان به هو المعجزة ، ولا اختصاص لها ببعض الكتب دون بعض ، فلو كان إيمانهم بما آمنوا به لأجل المعجزة لآمنوا به كله ، فحين آمنوا ببعضه علم أنهم لم يعتبروا المعجزة ، فلم يكن إيمانهم إيمانا. وهذا الذي أراد عز وجل في قوله : ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾. فإن قلت : لم قيل ﴿نَزَلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ و ﴿أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾؟ قلت : لأن القرآن نزل مفترقا منجما في عشرين سنة ، بخلاف الكتب قبله ، ومعنى قوله ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ﴾ الآية : ومن يكفر بشيء من ذلك ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ لأن الكفر ببعضه كفر ب كله. ألا ترى كيف قدم الأمر بالإيمان به جميعا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ (١٣٧)

﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ نفى للغفران والهداية^(٢) وهي اللطف على سبيل

(١) ذكره الثعالبي من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وذكره الواحدي في الأسباب عن الكلبي بغير سند.

(٢) قال محمود : «نفى للغفران والهداية ... الخ» قال أحمد : وليس في هذه الآية ما يخالف ظاهر القاعدة المستقرة على أن التوبة مقبولة على الإطلاق ، لأن آخر ما ذكر من حال هؤلاء ازدياد الكفر ، ولو كان المذكور في آخر أحوالهم التوبة والإيمان لاحتجج إلى الجمع بين الآية والقاعدة إذاً ، وإنما يقع هذا الفصل الذي أورده الزمخشري موقعه في آية آل عمران ، وهو قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ وقد ظهر الآن في الجمع بين هذه الآية والقاعدة وجه آخر سوى ما تقدم في آل عمران ، وهو أن يكون المراد : لن يصدر منهم توبة فلن يكون قبول ، من باب على لا حب لا يهتدى بمناره وعلى هذا يكون خبراً لا حكماً ، والمخير عنهم من سبق في علم الله أنه لا يتوب من المرتدين ، والله أعلم. وفي قول الزمخشري «إن الناكث للتوبة العائد إليها يغلب من حاله أنه يموت بشر حال» نظر ، فقد ورد في الحديث «المؤمن مفتن تواب» قال الهروي : معناه يقارف الذنب لفتنته ، ثم يعقبه بالتوبة.

المبالغة التي يعطيها اللام ، والمراد بنفيهما نفى ما يقتضيهما وهو الإيمان الخالص الثابت. والمعنى : إنّ الذين تكرر منهم الارتداد وعهد منهم ازدياد الكفر والإصرار عليه ، يستبعد منهم أن يحدثوا ما يستحقون به المغفرة ويستوجبون اللطف ، من إيمان صحيح ثابت يرضاه الله ، لأن قلوب أولئك الذين هذا ديدنهم قلوب قد ضربت بالكفر ومرنت على الردّة ، وكان الإيمان أهون شيء عندهم وأدونه ، حيث يبدو لهم فيه كرتة بعد أخرى وليس المعنى أنهم لو أخلصوا الإيمان بعد تكرار الردّة ونصحت توبتهم لم يقبل منهم ولم يغفر لهم ، لأنّ ذلك مقبول حيث هو بذل للطاقة واستفراغ للوسع ، ولكنه استبعاد له واستغراب ، وأنه أمر لا يكاد يكون ، وهكذا ترى الفاسق الذي يتوب ثم يرجع ثم يتوب ثم يرجع ، لا يكاد يرجي منه الثبات. والغالب أنه يموت على شرّ حال وأسمج صورة. وقيل : هم اليهود ، آمنوا بالتوراة وبموسى ثم كفروا بالإنجيل وبعبسى. ثم ازدادوا كفراً بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم.

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَتُهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ (١٣٩)

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾ وضع ﴿بَشِّرِ﴾ مكان : أخبر ، تهكما بهم. و ﴿الَّذِينَ﴾ نصب على الذمّ أو رفع بمعنى أريد الذين ، أو هم الذين. وكانوا يمايلون الكفرة^(١) ويوالوهم ويقول بعضهم لبعض : لا يتم أمر محمد فتولوا اليهود. ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ يريد لأوليائه الذين كتب لهم العز والغلبة على اليهود وغيرهم ، وقال ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَفْعَدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ أَنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً (١٤٠) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِنْ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ (١٤١)

(١) قوله «يمايلون الكفرة» : لعله «يماثلون». (ع)

﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ﴾ هي أن المخففة من الثقيلة. والمعنى أنه إذا سمعتم ، أى نزل عليكم أنّ الشأن كذا والشأن ما أفادته الجملة بشرطها وجزائها ، و «أن» مع ما في حيزها في موضع الرفع بنزل ، أو في موضع النصب بنزل ، فيمن قرأ به. والمنزل عليهم في الكتاب : هو ما نزل عليهم بمكة من قوله : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ وذلك أن المشركين كانوا يخوضون في ذكر القرآن في مجالسهم فيستهزءون به ، فنهى المسلمون عن القعود معهم ما داموا خائضين فيه. وكان أحبار اليهود بالمدينة يفعلون نحو فعل المشركين ، فنهوا أن يقعدوا معهم كما نهوا عن مجالسة المشركين بمكة. وكان الذين يقاعدون الخائضين في القرآن من الأحبار هم المنافقون ، ف قيل لهم إنكم إذاً مثل الأحبار في الكفر ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ﴾ يعنى القاعدين والمقعود معهم. فإن قلت : الضمير في قوله ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ إلى من يرجع؟ قلت : إلى من دل عليه ﴿يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ كأنه قيل : فلا تقعدوا مع الكافرين بها والمستهزئين بها. فإن قلت : لم يكونوا مثلهم بالمجالسة إليهم في وقت الخوض؟ قلت : لأنهم إذا لم ينكروا عليهم كانوا راضين. والراضي بالكفر كافر. فإن قلت : فهلا كان المسلمون بمكة . حين كانوا يجالسون الخائضين من المشركين . منافقين؟ قلت : لأنهم كانوا لا ينكرون لعجزهم وهؤلاء لم ينكروا مع قدرتهم ، فكان ترك الإنكار لرضاهم ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ﴾ إما بدل من الذين يتخذون وإما صفة للمنافقين أو نصب على الذم منهم ﴿يَتَّبِعُونَ بِكُمْ﴾ أى ينتظرون بكم ما يتجدد لكم من ظفر أو إخفاق ^(١) ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ مظاهرين فأسهموا لنا في الغنيمة ﴿أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ﴾ ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم وأسرهم فأبقينا عليكم ﴿وَمَنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بأن ثبطناهم عنكم ، وخيلنا لهم ما ضعفت به قلوبهم ومرضوا في قتالكم ، وتوانينا في مظاهرتهم عليكم ، فهاتوا نصيباً لنا بما أصبتم. وقرئ ﴿وَمَنَعَكُمْ﴾ بالنصب بإضمار أن ، قال الخطيئة :

أَلَمْ أَكُ جَارِكُمْ وَيَكُ وَنَ بَيْتِي وَبَيْتُكُمْ أَلَمْ وَدَّةُ الْإِخَاءِ ^(٢)

فإن قلت : لم سمى ظفر المسلمين فتحاً ، وظفر الكافرين نصيباً؟ قلت : تعظيماً لشأن المسلمين وتخسيساً لحظ الكافرين ؛ لأن ظفر المسلمين أمر عظيم ^(٣) تفتح لهم أبواب

(١) قوله «أو إخفاق» في الصحاح : أخفق الرجل إذا غزا ولم يغنم. (ع)

(٢) للخطيئة يخاطب الزبرقان ، وهم بنو عوف بن كعب ، وكان جاره ثم انتقل إلى بنى ربيع ، فذكر الزبرقان بحق الجوار ، وأنه ينبغي أن لا يقاطعونه. والاستفهام للترقية : أى أقروا بحق الجوار ، فيكون بينا تمام المودة والمواخاة ، أى الموافقة في العسر واليسر ، والبأساء والضراء.

(٣) قال محمود : «سمى ظفر المسلمين فتحاً تعظيماً لشأن المسلمين ... الخ» قال أحمد : وهذا من محاسن نكت أسرار القرآن ، فإن الذي كان يتفق للمسلمين فيه : استئصال لشأفة الكفار واستيلاء على أرضهم وديارهم وأموالهم .

السماء حتى ينزل على أوليائه. وأما ظفر الكافرين ، فما هو إلا حظ دنيّ وملظة من الدنيا ^(١) يصيبونها.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالً يُرَأُّونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٤٢) مُدْبِدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (١٤٣)

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ يفعلون ما يفعل المخادع من إظهار الإيمان وإبطان الكفر ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ وهو فاعل بهم ما يفعل الغالب في الخداع حيث تركهم معصومي الدماء والأموال في الدنيا وأعدّ لهم الدرك الأسفل من النار في الآخرة ، ولم يخلهم في العاجل من فضيحة وإحلال بأس ونقمة ورعب دائم. والخداع : اسم فاعل من خادعته فخدعته إذا غلبته وكنت أخدع منه. وقيل : يعطون على الصراط نوراً كما يعطى المؤمنون فيمضون بنورهم ثم يطفأ نورهم ويبقى نور المؤمنين ، فينادون : انظرونا نقتبس من نوركم ﴿كُسَالً﴾ قرئ بضم الكاف وفتحها ، جمع كسلان ، كسكارى في سكران ، أى يقومون متثاقلين متقاعسين ، كما ترى من يفعل شيئاً على كره لا عن طيبة نفس ورغبة ﴿يُرَأُّونَ النَّاسَ﴾ يقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة ^(٢) ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ولا يصلون إلا قليلاً لأنهم لا يصلون قط غائبين عن عيون الناس إلا ما يجاهرون به ، وما يجاهرون به قليل أيضاً لأنهم ما وجدوا مندوحة من تكلف ما ليس في قلوبهم لم يتكلفوه. أو ولا يذكرون الله بالتسبيح والتهليل إلا ذكراً قليلاً في الندرة ، وهكذا ترى كثيراً من المتظاهرين بالإسلام لو صحبتهم الأيام

. وأرض لم يطؤها. وأما ما كان يتفق للكفار فمثل الغلبة والقدرة التي لا يبلغ شأنها أن تسمى فتحا ، فالتفريق بينهما مطابق أيضاً للواقع ، والله أعلم.

(١) قوله «وملظة من الدنيا» في الصحاح : لمظ يلمظ . بالضم . لمظا ، إذا تتبع بلسانه بقية الطعام في فمه. واللمظة . بالضم . كالنكتة من البياض. (ع)

(٢) قال محمود : «لأنهم إنما يصلون رياء ما دام من يرقبهم ، فإذا خلوا بأنفسهم لم يصلوا أو لا يذكرون الله بالتهليل والتسبيح إلا ذكراً قليلاً في الندرة وهكذا ترى كثيراً من المتظاهرين بالإسلام لو صحبتهم الأيام والليالي لم تسمع منه تهليلة ولا تحميدة ، ولكن حديث الدنيا يستغرق به أوقاته لا يفتر عنه. ولا يجوز أن يراد بالقلة العدم» انتهى كلامه. قلت : وإنما منع من أن يراد بها العدم لأنه خبر فيجب صدقه ، وقد كانوا يذكرون الله في بعض الأحيان فلا يمكن أن يسلب ذكر الله مطلقاً ، وإذا بنينا على أن المراد بالذكر الصلاة وهو الظاهر ، فالمراد أيضاً الصلاة المعتبرة التي يذكر بها الإنسان حق الله عليه فينتهي عن الفحشاء والمنكر. والصلاة في هذا الوجه مسلوقة عن المنافقين مطلقاً ، فيجوز إذا حمل القلة على العدم بهذا التفسير ، والله أعلم.

والليالي لم تسمع منه تهليل ولا تسيحة ولا تحميدة ، ولكن حديث الدنيا يستغرق به أوقاته لا يفتر عنه. ويجوز أن يراد بالقلة العدم. فإن قلت : ما معنى المراءة وهي مفاعلة من الرؤية؟ قلت : فيها وجهان ، أحدهما : أن المرائي يريهم عمله وهم يرونه استحسانه. والثاني : أن يكون من المفاعلة بمعنى التفعيل ، فيقال : راءى الناس. يعنى رآهم ، كقولك : نعمه وناعمه ، وفنقه وفائقه ^(١) وعيش مفائق. روى أبو زيد : رأت المرأة المرأة الرجل ، إذا أمسكتها لترى وجهه. ويدل عليه قراءة ابن أبي إسحاق : يراؤهم بهمزة مشددة : مثل. يرعوهم ، أى يبصروهم أعمالهم ويراءوهم كذلك ﴿مُذَبِّدِينَ﴾ إمّا حال نحو قوله : ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ﴾ عن واو يراؤن ، أى يراءوهم غير ذاكرين مذبيين ، أو منصوب على الذم. ومعنى ﴿مُذَبِّدِينَ﴾ ذببهم الشيطان والهوى بين الإيمان والكفر ، فهم مترددون بينهما متحيرون. وحقيقة المذبذب الذي يذب عن كلا الجانبين أى يزداد ويدفع فلا يقرّ في جانب واحد ، كما قيل : فلان يرمى به الرحوان ^(٢) ، إلا أن الذبذبة فيها تكرير ليس في الذب كأن المعنى : كلما مال إلى جانب ذب عنه. وقرأ ابن عباس ﴿مُذَبِّدِينَ﴾ بكسر الذال ، بمعنى يذبذبون قلوبهم أو دينهم أو رأيهم. أو بمعنى يتذبذبون. كما جاء : صلصل وتصلصل بمعنى. وفي مصحف عبد الله. متذبذبين. وعن أبي جعفر : مدبدين ، بالدال غير المعجمة وكأن المعنى : أخذ بهم تارة في دبة وتارة في دبة ، فليسوا بماضين على دبة واحدة. والدبة : الطريقة ومنها : دبة قريش. و ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الكفر والإيمان ﴿لَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ لا منسوبين إلى هؤلاء فيكونون مؤمنين ﴿وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ ولا منسوبين إلى هؤلاء فيسمون مشركين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ (١٤٤)

﴿لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ لا تشبهوا بالمنافقين في اتخاذهم اليهود وغيرهم من أعداء الإسلام أولياء ﴿سُلْطَانًا﴾ حجة بينة ، يعنى أن موالة الكافرين بينة على النفاق. وعن صعصعة ابن صوحان أنه قال لابن أخ له : خالص المؤمن ، وخالق الكافر والفاجر ؛ فان الفاجر يرضى منك بالخلق الحسن ، وإنه يحق عليك أن تخالص المؤمن.

(١) قوله «وفنقه وفائقه» في الصحاح أنهما بمعنى : أى نعمه. (ع)

(٢) قوله «يرمى به الرحوان» في الصحاح الرحى معروفة ، والألف منقلبة من الباء. تقول : هما رحبان. وفيه أيضاً ، رحت الحية ترحو ، إذا استدارت. والرحى : قطعة من الأرض تستدير وترتفع على ما حولها. ورحى القوم : سيدهم. والأرجاء : الأضراس. والأرجاء : القبائل التي تستقل بنفسها وتستغني عن غيرها اه. وظاهره أن الرحى هنا وادى ، فليحرر. (ع)

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ نَصِيرًا﴾ (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١٤٦)

﴿الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ﴾ الطبقة الذي في قعر جهنم ، والنار سبع دركات ، سميت بذلك لأنها متداركة متتابعة بعضها فوق بعض ، وقرئ بسكون الراء ، والوجه التحريك ، لقولهم : أدراك جهنم. فإن قلت : لم كان المنافق أشدَّ عذابا من الكافر؟ قلت ؛ لأنه مثله في الكفر ، وضم إلى كفره الاستهزاء بالإسلام وأهله ومداجاتهم ^(١) ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أفسدوا من أسرارهم وأحوالهم في حال النفاق ﴿وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾ ووثقوا به كما يثق المؤمنون الخالص ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ لا يبتغون بطاعتهم إلا وجهه ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فهم أصحاب المؤمنين ورفقاؤهم في الدارين ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فيشاركوهم فيه ويساهموهم. فإن قلت : من المنافق؟ قلت. هو في الشريعة من أظهر الإيمان وأبطن الكفر. وأما تسمية من ارتكب ما يفسق به بالمنافق فللتغليظ ، كقوله «من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر» ^(٢) ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «ثلاث من كنّ فيه فهو منافق ، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم : من إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان ^(٣)» وقيل لحذيفة رضى الله عنه : من المنافق؟ فقال : الذي يصف الإسلام ولا يعمل به. وقيل لابن عمر : ندخل على السلطان ونتكلم بكلام فإذا خرجنا تكلمنا بخلافه فقال : كنا نعدّه من النفاق. وعن الحسن : أتى على النفاق زمان وهو مقروع فيه ^(٤) ، فأصبح وقد عمم وقلد وأعطى سيفاً ، يعني الحجاج.

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (١٤٧)

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ أيتشفى به من الغيظ ، أم يدرك به النار ، أم يستجلب به نفعاً ، أم يستدفع به ضرراً كما يفعل الملوك بعذابهم ، وهو الغنى الذي لا يجوز عليه شيء من ذلك. وإنما

(١) قوله «ومداجاتهم» في الصحاح : المداجاة : المداراة. (ع)

(٢) تقدم في آل عمران والبقرة.

(٣) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ «آية المنافق ثلاث إلى آخره ، وفي رواية «من علامات المنافق ثلاث».

(٤) قوله «وهو مقروع فيه» لعله يريد القرع بالعصا. وفي الصحاح «القارعة» الشديدة من شدائد الدهر ، وهي الداهية ، يقال : قرعتهم قوارع الدهر ، أى أصابتهم. وقرعت رأسه بالعصا ، مثل قرعت. (ع)

هو أمر أوجبته الحكمة أن يعاقب المسيء ، فإن فتمت بشكر نعمته وآمنت به فقد أبعدتم عن أنفسكم استحقاق العذاب ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا﴾ مثيباً موفياً أجوركم ﴿عَلِيمًا﴾ بحق شكركم وإيمانكم. فإن قلت : لم قدم الشكر على الإيمان؟ قلت : لأن العاقل ينظر إلى ما عليه من النعمة العظيمة في خلقه وتعريضه للمنافع ، فيشكر شكراً مبهماً ، فإذا انتهى به النظر إلى معرفة المنعم آمن به ثم شكر شكراً مفصلاً ، فكان الشكر متقدماً على الإيمان ، وكأنه أصل التكليف ومداره.

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (١٤٨) **﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفَوْهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾** (١٤٩)

﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ إلا جهر من ظلم ^(١) استثنى من الجهر الذي لا يحبه الله جهر المظلوم. وهو أن يدعو على الظالم ويذكره بما فيه من السوء. وقيل : هو أن يبدأ بالشتيمة فيرد على الشاتم ﴿وَلَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ وقيل : ضاف رجل قوما فلم يطعموه ، فأصبح شاكياً ، فعوتب على الشكاية فنزلت ، وقرئ ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ على البناء للفاعل للانقطاع. أى ولكن الظالم ركب ما لا يحبه الله فيجهر بالسوء. ويجوز أن يكون ﴿مَنْ ظَلَمَ﴾ مرفوعاً ، كأنه قيل : لا يحب الله الجهر بالسوء ، إلا الظالم على لغة من يقول : ما جاءني زيد إلا عمرو ، بمعنى ما جاءني إلا عمرو. ومنه ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ثم حث على العفو ، وأن لا يجهر أحد لأحد بسوء وإن كان على وجه الانتصار ، بعد ما أطلق الجهر به وجعله محبوباً ، حثاً على الأحب إليه والأفضل عنده والأدخل في الكرم والتخضع والعبودية ، وذكر إبداء الخير وإخفائه تشبيهاً ^(٢) للعفو ، ثم عطفه عليهما اعتداداً به وتنبيهاً على منزلته ، وأن له مكاناً في باب الخير وسيطاً ^(٣). والدليل على أن العفو هو الغرض المقصود بذكر إبداء الخير وإخفائه قوله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أى يعفو عن الجانين مع قدرته على الانتقام ، فعليكم أن تقتدوا بسنة الله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ

(١) قال محمود : «تقديره لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا جهر من ظلم ، وهو أن يدعو على الظالم ويذكره بما فيه ... الخ» قال أحمد : «ووجه التغير أن الظالم لا يندرج في المستثنى منه كما أن الله تعالى مقدس أن يكون في السموات أو في الأرض ، فاستحال دخوله في المستثنى منه. وكذا لا يندرج المستثنى في المستثنى منه في قولك : ما جاءني زيد إلا عمرو. وكلام الزمخشري في هذا الفصل لا يتحقق لي منه ما يسوغ مجازيته فيه لاغلاق عبارته ، والله أعلم بمراده.

(٢) قوله «تشبيهاً» لعله محرف وأصله «تنبيهاً» فحرر (ع)

(٣) قوله «وسطاً» أى متوسطاً. (ع)

وَيَقُولُونَ نُوْمُنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾

جعل الذين آمنوا بالله وكفروا برسله أو آمنوا بالله وبيعض رسله وكفروا ببعض كافرين بالله ورسله جميعا لما ذكرنا ^(١) من العلة ، ومعنى اتخاذهم بين ذلك سبيلا : أن يتخذوا دينا وسطا بين الإيمان والكفر كقوله : ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أى طريقا وسطا في القراءة وهو ما بين الجهر والمخافتة. وقد أخطوا ، فإنه لا واسطة بين الكفر والإيمان ^(٢) ولذلك قال ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ أى هم الكاملون في الكفر. و ﴿حَقًّا﴾ تأكيد لمضمون الجملة ، كقولك : هو عبد الله حقا ، أى حق ذلك حقا ، وهو كونهم كاملين في الكفر ، أو هو صفة لمصدر الكافرين ، أى هم الذين كفروا كفرا حقا ثابتا يقينا لا شك فيه ،

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١٥٢)

فإن قلت : كيف جاز دخول ﴿بَيْنَ﴾ على ﴿أَحَدٍ﴾ وهو يقتضى شيئين فصاعدا؟ قلت : إن أحدا عام في الواحد المذكور والمؤنث وتثنيتهما وجمعهما ، تقول : ما رأيت أحدا ، فتقصد العموم ، ألا تراك تقول : إلا بنى فلان ، وإلا بنات فلان ؛ فالمعنى : ولم يفرقوا بين اثنين منهم أو بين جماعة ومنه قوله تعالى : ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ ، ﴿سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورُهُمْ﴾ معناه : أن إتياءها كائن لا محالة وإن تأخر فالغرض به توكيد الوعد وتثبيتته لا كونه متأخرا ،

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَمْصٍ فَلَمَّا أَنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مِنْ ذَلِكَ بَدَّلْنَاهُمْ فِئَةً بَاقِيَةً فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ كَذَّبُوا بِهَا فَوَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْهَا فَنُفِثَ فِي السَّحَابِ فَذَرَأْنَاهُمْ أَهْلَاءَ دُونِ آلِ هَارُونَ فَكُفِّرُوا بَعْدَ ذَلِكَ عَذَابًا (١٥٤)﴾

(١) قوله «لما ذكرنا» أى في تفسير قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُولِهِ...﴾ الخ. (ع)

(٢) قوله «فانه لا واسطة بين الكفر والايمن» هذا عند أهل السنة. أما عند المعتزلة ففاعل الكبيرة الذي يموت بلا توبة لا هو مؤمن ولا كافر ، بل منزلة بين المنزلتين. فتدبر. (ع)

بآياتِ الله وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ هُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا هُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾

روى أنّ كعب بن الأشرف وفتحاص بن عازورا وغيرهما قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن كنت نبيا صادقا فأتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى به موسى ^(١). فنزلت. وقيل : كتابا إلى فلان وكتابا إلى فلان أنك رسول الله ، وقيل : كتابا نعاينه حين ينزل. وإنما اقترحوا ذلك على سبيل التعنت ، قال الحسن : ولو سألوهم لكي يتبينوا الحق لأعطاهم ، وفيما آتاهم كفاية ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى﴾ جواب لشرط مقدر ^(٢). معناه : إن استكبرت ما سألوهم منك فقد سألوهم موسى ﴿أَكْبَرُ﴾

(١) لم أجده هكذا. ورواه الطبري من طريق أسباط عن السدي قال «قالت اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم :

إن كنت صادقا أنك رسول الله فأتنا بكتاب من السماء كما جاء به موسى. فنزلت.

(٢) قال محمود : «فقد سألوهم موسى : جواب لشرط مقدر ... الخ» قال أحمد : وهذا من المواضع التي استولى عليها فيها الاغفال ، ولوح به اتباع هواه إلى مهواة الضلال ، لأنه بنى على أن الظلم المضاف إليهم لم يكن إلا مجرد كونهم طلبوا الرؤية وهي محال عقلا دنيا وآخرة على زعم القدرية ، لما يلزم عندهم لو قيل بجوازها من اعتقاد التشبيه ، فلذلك سمي أهل السنة المعتقدين لجوازها ووقوعها في الآخرة وفاء بالوعد الصادق مشبهة ، وغفل عن كون اليهود اقترحوا على موسى عليه السلام خصوصية علقوا إيمانهم بها ، ولم يعتبروا المعجز من حيث هو كما يجب اعتباره فقالوا ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ فهذا الاقتراح والتعنت يكفيهم ظلما. ألا ترى أن الذين قالوا لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتابا من السماء ، أو حتى تفجر الأرض ، أو يكون لك بيت من زخرف ، كيف هم من أظلم الظلمة؟ وإن كانوا إنما طلبوا أمورا جائزة ، ولكنهم اقترحوا في الآيات على الله ، وحققهم أن يسندوا إيمانهم إلى أى معجز اختاره الله. دل ذلك دلالة يلجأ على أن ظلمهم مسبب عن اقتراحهم ، لا عن كون المقترح ممتنعا عقلا. والعجب بتنظير هذا السؤال لو كان المسئول جائزا كسؤال إبراهيم عن إحياء الموتى على زعم الزمخشري ، غفلة منه عما انطوى عليه سؤال إبراهيم عليه السلام من صريح الإيمان حيث قال له تعالى : ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى﴾ وعما انطوى عليه سؤال هؤلاء الملاحين من محض الكفر والإصرار عليه في قولهم : لن نؤمن لك. فصدروا كلامهم بالجدد والنفي. وأما دعاء الزمخشري على أهل السنة بالتب والصواعق ، فالله أعلم أى الفريقين أحق بها ، ويكفيه هذه الغفلة التي تنادى عليه باتباع الهوى الذي يعنى ويصم ، نسأل الله العصمة من الضلالة والغواية.

مِنْ ذَلِكَ ﴿ وَإِنَّمَا أَسْنَدُ السُّؤَالِ إِلَيْهِمْ وَإِنْ وَجَدَ مِنْ آبَائِهِمْ فِي أَيَّامِ مُوسَى وَهُمْ النُّقَبَاءُ السَّبْعُونَ ، لَأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مَذْهَبِهِمْ وَرَاضِينَ بِسُؤَالِهِمْ وَمُضَاهِينَ لَهُمْ فِي التَّعَنُّتِ ﴾ **جَهَنَّمَ** ﴿ عَيْنَانَا بِمَعْنَى أَرْنَاهُ نَرَهُ جَهَنَّمَ ﴾ بِسَبَبِ سُؤَالِهِمُ الرَّؤْيَا . وَلَوْ طَلَبُوا أَمْرًا جَائِزًا لَمَا سَمَوْا ظَالِمِينَ وَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ ، كَمَا سَأَلَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَرِيَهُ إِحْيَاءَ الْمَوْتَى فَلَمْ يَسْمَعْ ظَالِمًا وَلَا رَمَاهُ بِالصَّاعِقَةِ ، فَتَبَا لِلْمُشْتَبِهَةِ وَرَمِيَا بِالصَّوَاعِقِ ^(١) ﴿ **آتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا** ﴾ تَسْلُطًا وَاسْتِيلَاءً ظَاهِرًا عَلَيْهِمْ حِينَ أَمَرَهُمْ بِأَنْ يَقْتُلُوا أَنْفُسَهُمْ حَتَّى يَتَابَ عَلَيْهِمْ فَأُطَاعُوهُ ، وَاحْتَبَوُا بِأَفْنِيَّتِهِمْ وَالسِّيُوفَ تَتَسَاقَطُ عَلَيْهِمْ فَيَا لَكَ مِنْ سُلْطَانٍ مَبِينٍ ﴿ **مِيثَاقَهُمْ** ﴾ بِسَبَبِ مِيثَاقِهِمْ لِيَخَافُوا فَلَا يَنْقُضُوهُ ﴿ **وَقُلْنَا لَهُمْ** ﴾ وَالطُّورَ مَطْلَ عَلَيْهِمْ ﴿ **ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا** ﴾ وَلَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ ، وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُمْ الْمِيثَاقَ عَلَى ذَلِكَ ، وَقَوْلُهُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، وَمَعَاهِدَتْهُمْ عَلَى أَنْ يَتِمُّوا عَلَيْهِ ثُمَّ نَقُضُوهُ بَعْدَ . وَقَرَأَ : لَا تَعْتَدُوا . وَلَا تَعْدُوا ، بِإِدْغَامِ التَّاءِ فِي الدَّالِ ﴿ **فَبِمَا نَقُضِهِمْ** ﴾ فَبِنَقْضِهِمْ . «وَمَا» مُزِيدَةٌ لِلتَّوَكُّيدِ . فَإِنْ قُلْتَ : بِمِ تَعَلَّقْتَ الْبَاءُ؟ وَمَا مَعْنَى التَّوَكُّيدِ؟ ^(٢) قُلْتَ : إِمَّا أَنْ يَتَّعَلَّقَ بِمَحْذُوفٍ ، كَأَنَّهُ قِيلَ : فَبِمَا نَقُضَهُمْ مِيثَاقَهُمْ فَعَلْنَا بِهِمْ مَا فَعَلْنَا ، وَإِمَّا أَنْ يَتَّعَلَّقَ بِقَوْلِهِ : ﴿ **حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ** ﴾ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ **فَيُظْلَمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا** ﴾ بَدَلَ مِنْ قَوْلِهِ ﴿ **فَبِمَا نَقُضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ** ﴾ وَأَمَّا التَّوَكُّيدُ فَمَعْنَاهُ تَحْقِيقُ أَنَّ الْعِقَابَ أَوْ تَحْرِيمَ الطَّيِّبَاتِ لَمْ يَكُنْ إِلَّا بِنَقْضِ الْعَهْدِ وَمَا عَظِفَ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَقَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . فَإِنْ قُلْتَ : هَلَا زَعَمْتَ أَنْ الْمَحْذُوفَ ^(٣) الَّذِي تَعَلَّقْتَ بِهِ الْبَاءُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ ﴿ **بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا** ﴾ فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ :

- (١) قَوْلُهُ «فَتَبَا لِلْمُشْتَبِهَةِ وَرَمِيَا بِالصَّوَاعِقِ» يَعْنِي أَهْلَ السَّنَةِ ، حَيْثُ أَجَازُوا عَلَى اللَّهِ الرَّؤْيَا كَمَا حَقَّقَ فِي مَحَلِّهِ ، وَغَفَرَ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ يَسِيءِ الْمُؤْمِنِينَ . (ع)
- (٢) قَالَ مُحَمَّدٌ : «إِنْ قُلْتَ بِمِ تَعَلَّقْتَ الْبَاءُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ **فَبِمَا نَقُضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ** ﴾ قُلْتَ : إِمَّا أَنْ يَتَّعَلَّقَ بِمَحْذُوفٍ كَأَنَّهُ قِيلَ : فَبِمَا نَقُضَهُمْ مِيثَاقَهُمْ فَعَلْنَا بِهِمْ مَا فَعَلْنَا . وَإِمَّا أَنْ يَتَّعَلَّقَ بِقَوْلِهِ : ﴿ **حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ** ﴾ عَلَى أَنْ قَوْلَهُ : ﴿ **فَيُظْلَمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا** ﴾ بَدَلَ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ **فَبِمَا نَقُضِهِمْ** ﴾ انْتَهَى كَلَامُهُ . قُلْتَ : وَلِذَلِكَ الْبَدَلُ الْمَذْكُورُ سِرٌّ ، وَهُوَ أَنَّ الْكَلَامَ لَمَّا طَالَ بَعْدَ قَوْلِهِ ﴿ **فَبِمَا نَقُضِهِمْ** ﴾ حَتَّى يَبْعُدَ عَنْ مَتَّعَلِّقِهِ الَّذِي هُوَ حَرَمْنَا ، قَوَى ذِكْرُهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ **فَيُظْلَمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا** ﴾ حَتَّى يَلِيَّ مَتَّعَلِّقَهُ ، وَجَاءَ النِّظْمُ بِهِ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ الْإِجْمَالِ فِي إِجْمَالِ مَا سَبَقَ تَفْصِيلُهُ ، لِأَنَّ جَمِيعَ مَا تَقَدَّمَ مِنَ النِّقْضِ ، وَالْقَتْلِ ، وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، وَكُفْرِهِمْ ، وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بَهْتَانًا عَظِيمًا . وَدَعْوَاهُمْ قَتْلَ الْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ قَدْ انْطَوَى عَلَيْهِ الْإِجْمَالُ الْمَذْكُورُ آخِرًا انْطَوَاءً جَامِعًا ، مَعَ التَّنْسِجِيلِ عَلَى أَنْ جَمِيعَ أَفَاعِيلِهِمُ الصَّادِرَةِ مِنْهُمْ ظَلَمٌ . وَقَدْ تَقَدَّمَ لِهَذَا التَّقْرِيرِ نِظَائِرُ وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ .
- (٣) عَادَ كَلَامُهُ . قَالَ : «إِنْ قُلْتَ هَلَا زَعَمْتَ أَنَّ الْمَحْذُوفَ الَّذِي تَعَلَّقْتَ بِهِ الْبَاءُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : ﴿ **بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا** ﴾ فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ : فَبِمَا نَقُضَهُمْ مِيثَاقَهُمْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ . قُلْتَ : لَمْ يَصِحَّ هَذَا التَّقْدِيرُ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ **بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ** ﴾ رَدٌّ وَإِنْكَارٌ لِقَوْلِهِمْ ﴿ **قُلُوبُنَا غُلْفٌ** ﴾ فَكَانَ مَتَّعَلِّقًا بِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِقَوْلِهِمْ ﴿ **قُلُوبُنَا غُلْفٌ** ﴾ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَهَا غُلْفًا ، أَيْ فِي أَكْنَةٍ لَا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهَا شَيْءٌ مِنَ الذِّكْرِ وَالْمَوْعِظَةِ ، كَمَا حَكَى اللَّهُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَقَالُوا ﴿ **لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ** ﴾ وَكَمْ مَذْهَبُ الْحَبِيرَةِ أَخْرَاجَهُمُ اللَّهُ ، فَقِيلَ لَهُمْ : بَلْ خَذَلَهَا اللَّهُ وَمَنْعَهَا الْأَلْطَافَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ ، فَصَارَتْ كَالْمَطْبُوعِ عَلَيْهَا» انْتَهَى كَلَامُهُ . قَالَ أَحْمَدُ : هَؤُلَاءِ قَوْمٌ زَعَمُوا أَنَّ لَهُمْ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بِكَوْنِهِ خَلَقَ قُلُوبَهُمْ غَيْرَ قَابِلَةً لِلْحَقِّ

فبما نقضهم ميثاقهم طبع الله على قلوبهم ، بل طبع الله عليها بكفرهم. قلت : لم يصح هذا التقدير لأنّ قوله : ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ ردّ وإنكار لقولهم ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ فكان متعلقاً به ، وذلك أنهم أرادوا بقولهم ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أنّ الله خلق قلوبنا غلفاً ، أى في أكنة لا يتوصل إليها شيء من الذكر والموعظة ، كما حكى الله عن المشركين وقالوا ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ وكمذهب المجبرة ^(١) أخزاهم الله ، فقيل لهم : بل خذلها الله ومنعها الألفاظ بسبب كفرهم ، فصارت كالمطبوع عليها ، لا أن تخلق غلفاً غير قابلة للذكر ولا متمكنة من قبوله. فإن قلت : علام عطف قوله ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾؟ قلت : الوجه أن يعطف على : ﴿فَبِمَا نَقَضْتُمْ﴾ ويجعل قوله : ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ كلاماً تتبع قوله : ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ على وجه الاستطراد ، يجوز عطفه على ما يليه من قوله : ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾. فإن قلت : ما معنى الحجيء بالكفر معطوفاً على ما فيه ذكره ، سواء عطف على ما قبل حرف الإضراب ، أو على ما بعده ، وهو قوله : ﴿وَكُفْرِهِمْ بآيَاتِ اللَّهِ﴾ وقوله : ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾؟ قلت : قد تكرر منهم الكفر ، لأنهم كفروا بموسى ، ثم بيسى ، ثم بمحمد صلوات الله عليهم ، فعطف بعض كفرهم على بعض ، أو عطف مجموع المعطوف على مجموع المعطوف عليه ، كأنه قيل : فيجمعهم بين نقض الميثاق ، والكفر بآيات الله ، وقتل الأنبياء ، وقولهم قلوبنا غلف ، وجمعهم

. ولا متمكنة من قبوله ، فكذبهم في قولهم لأنه خلق قلوبهم على الفطرة أى أن الإيمان وقبول الحق من جنس مقدورهم كما هو من جنس مقدور المؤمنين ، وذلك هو المعبر بالتمكن ، ويخلقهم ميسرين للإيمان ، متأتياً منهم قبول الحق قامت عليهم حجة الله ، إذ يجد الإنسان بالضرورة الفرق بين قبول الحق والدخول في الإيمان ، وبين طيرانه في الهواء ومشيه على الماء ، ويعلم ضرورة أن الإيمان ممكن منه ، كما يعلم أن الطيران غير ممكن منه عادة ، فقد قامت الحجة وتبلجت ، ألا الله الحجة البالغة ، فمن هذا الوجه اتجه الرد عليهم «لا كما يزعمه الرنخشري من أن لهم قدرة على الإيمان يلحقونه بما لأنفسهم ويقرونه في قلوبهم ، وتلك القدرة موجودة سواء وجد الفعل أو لا ، كالسيف المعد في يد القاتل للقتل سواء وجد أو لا ، وأن هذه القدرة التي هي كالآلة للخلق على زعمه يصرفها العبد حيث شاء في إيمان وكفر ، وافق ذلك مشيئة الله أولاً ، وأن هؤلاء صرفوا قدرتهم إلى خلق الكفر لأنفسهم على خلاف مشيئة الله تعالى ، فلذلك يعرض الرنخشري بأهل السنة ، القائلين بأن الله تعالى لو شاء من عبدة الأوثان أن لا يعبدوها لما عبدوها ، وتسميتهم لذلك مجبرة ، ويجعل قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ رداً على الأشعرية كما هو رد على الوثنية ، ويغفل عن النكتة التي نبهنا عليها ، وهي : أن الرد على الوثنية بذلك لم يكن إلا لأنهم ظنوا أن هذا المقدار يقيم لهم الحجة على الله ، ولذلك قال تعالى عقيب ذلك ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فأوضح الله تعالى أن الرد عليهم لم يكن لقولهم : إن الله لو شاء لهداكم أجمعين ، ولكن إنما كان الرد لظنهم أن ذلك حجة على الله بقوله : ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ فهذا التقدير هو الإيمان المحض والتوحيد الصرف ، وما عداه من الاشرار الصراح فخرى ، نعوذ بالله منه.

(١) قوله «وكمذهب المجبرة أخزاهم الله» يريد بهم أهل السنة وحاشاهم أن يريدوا بمذهبهم ما أراده الكفار بما قالوا. وتحقيقه في علم التوحيد. وغفر الله لمن تعدى حد الشرع من المؤمنين ولا أخزاهم يوم الدين. (ع)

بين كفرهم وبهتهم^(١) مريم ، وافتخارهم بقتل عيسى ، عاقبناهم. أو بل طبع الله عليها بكفرهم وجمعهم بين كفرهم وكذا وكذا. والبهتان العظيم : هو التزنية. فإن قلت : كانوا كافرين بعيسى عليه السلام ، أعداء له ، عامدين لقتله ، يسمونه الساحر بن الساحرة ، والفاعل بن الفاعلة ، فكيف قالوا ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾؟ قلت : قالوه على وجه الاستهزاء ، كقول فرعون ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ ويجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح في الحكاية عنهم رفعا لعيسى عما كانوا يذكرونه به وتعظيما لما أرادوا بمثله كقوله : ﴿لَيَقُولَنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾. روى أنّ رهطاً من اليهود سبوه وسبوا أمّه فدعا عليهم «اللهم أنت ربى وبكلمتك خلقتني ، اللهم العن من سبني وسب والدي» فمسح الله من سبهما قردة وخنازير ، فأجمعت اليهود على قتله ، فأخبره الله بأنه يرفعه إلى السماء ويطهره من صحبة اليهود ، فقال لأصحابه : أيكم يرضى أن يلقي عليه شبهي فيقتل ويصلب ويدخل الجنة؟ فقال رجل منهم : أنا فألقى عليه شبهه فقتل وصلب. وقيل : كان رجلا ينافق عيسى ، فلما أرادوا قتله قال : أنا أدلكم عليه ، فدخل بيت عيسى فرفع عيسى وألقى شبهه على المنافق ، فدخلوا عليه فقتلوه وهم يظنون أنه عيسى ، ثم اختلفوا فقال بعضهم : إنه إله لا يصح قتله. وقال بعضهم : إنه قتل وصلب. وقال بعضهم إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ وقال بعضهم رفع إلى السماء. وقال بعضهم : الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا. فإن قلت : ﴿شَبَّهَ﴾ مسند إلى ما ذا؟ إن جعلته مسنداً إلى المسيح ، فالمسيح مشبه به وليس بمشبه ، وإن أسندته إلى المقتول فالمقتول لم يجر له ذكر قلت : هو مسند إلى الجار والمجرور وهو ﴿قَوْلِهِمْ﴾ كقولك خيل إليه ، كأنه قيل : ولكن وقع لهم التشبيه. ويجوز أن يسند إلى ضمير المقتول ؛ لأنّ قوله : إنا قتلنا يدل عليه ، كأنه قيل : ولكن شبه لهم من قتلوه ﴿إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ استثناء منقطع لأنّ اتباع الظن ليس من جنس العلم ، يعنى : ولكنهم يتبعون الظن. فإن قلت : قد وصفوا بالشك والشك أن لا يترجح أحد الجائزين^(٢) ، ثم وصفوا بالظن والظن أن يترجح أحدهما ، فكيف يكونون شاكين ظانين؟ قلت : أريد أنهم شاكون ما لهم من علم قط ، ولكن إن لاحت لهم أمانة فظنوا ، فذاك ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ وما قتلوه قتلا يقيناً. أو ما قتلوه متيقنين ، كما ادّعوا

(١) قوله «وبهتهم مريم» أى رميها بما ليس فيها ، وهو التزنية. أى الرمي بالزنا. (ع)

(٢) قال محمود : «إن قلت قد وصفوا بالشك والشك أن لا يترجح ... الخ» قال أحمد : وليس في هذا الجواب شفاء للغليل. والظاهر والله أعلم أنهم كانوا أغلب أحوالهم الشك في أمره والتردد فجاءت العبارة الأولى على ما يغلب من حالهم ثم كانوا لا يخلون من ظن في بعض الأحوال وعنده يقفون لا يرفعون إلى العلم فيه البتة وكيف يعلم الشيء على خلاف ما هو به فجاءت العبارة الثانية على حالهم النادرة في الظن نافية عنهم ما يترقى عن الظن البتة ، والله أعلم.

ذلك في قولهم ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ﴾ أو يجعل ﴿يَقِينًا﴾ تأكيداً لقوله : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ كقولك : ما قتلوه حقاً أى حق انتفاء قتله حقاً. وقيل : هو من قولهم : قتلت الشيء علماً ونحرته علماً إذا تبلغ فيه علمك. وفيه تحكم ، لأنه إذا نفى عنهم العلم نفياً كلياً بحرف الاستغراق. ثم قيل : وما علموه علم يقين وإحاطة لم يكن إلا تحكما بهم ﴿لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ جملة قسمية واقعة لوصف محذوف تقديره : وإن من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمننّ به. ونحوه : ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ ، ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ والمعنى : وما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمننّ قبل موته بعميسى ، وبأنه عبد الله ورسوله ، يعنى : إذا عاين قبل أن تزهر روحه ^(١) حين لا ينفعه إيمانه لانقطاع وقت التكليف. وعن شهر بن حوشب : قال لي الحجاج : آية ما قرأتها ^(٢) إلا تخالج في نفسي شيء منها ^(٣) يعنى هذه الآية ، وقال إني أوتى بالأسير من اليهود والنصارى فأضرب عنقه فلا أسمع منه ذلك ، فقلت : إن اليهودي إذا حضره الموت ضربت الملائكة دبره ووجهه وقالوا يا عدوّ الله ، أذاك موسى نبيا فكذبت به فيقول : آمنت أنه عبد نبيّ. وتقول للنصراني : أذاك عيسى نبيا فزعمت أنه الله أو ابن الله ، فيؤمن أنه عبد الله ورسوله حيث لا ينفعه إيمانه. قال : وكان متكئاً فاستوى جالساً فنظر إلى وقال : ممن؟ قلت : حدثني محمد بن عليّ بن الحنفية ، فأخذ ينكت الأرض بقضيبه ثم قال : لقد أخذتها من عين صافية ، أو من معدنها. قال الكلبي : فقلت له : ما أردت إلى أن تقول حدثني محمد بن عليّ بن الحنفية. قال : أردت أن أغيظه ، يعنى بزيادة اسم عليّ ، لأنه مشهور بابن الحنفية. وعن ابن عباس أنه فسر ذلك ، فقال له عكرمة : فإن أتاه رجل فضرب عنقه قال : لا تخرج نفسه حتى يحرك بها شفتيه. قال : وإن خرّ من فوق بيت أو احترق أو أكله سبع قال : يتكلم بها في الهواء ولا تخرج روحه حتى يؤمن ^(٤) به. وتدل عليه قراءة أبيّ : إلا ليؤمننّ به قبل موتهم ، بضم النون على معنى : وإن منهم أحد إلا سيؤمنون به قبل موتهم ، لأنّ أحداً يصلح للجمع. فإن

(١) قال محمود : «يعنى إذا عاين قبل أن تزهر روحه ... الخ» قال أحمد : كقول فرعون لما عاين الهلاك : آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل.

(٢) عاد كلامه. قال محمود : «وعن شهر بن حوشب قال لي الحجاج آية ما قرأتها ... الخ». قال أحمد : ويعد هذا التأويل قوله : ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ فان ظاهره التهديد ، ولكن ما أريد بقوله في حق هذه الأمة ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ والله أعلم.

(٣) لم أجده. قلت : هو في تفسير الكلبي ، رواه عن شهر. ورأيت قديماً في كتاب المبتدئ وقصص الأنبياء لوثيمة بسنده من هذا الوجه.

(٤) لم أجده هكذا. وأخرجه الطبري من رواية أسباط عن السدي قال : قال ابن عباس رضى الله عنهما «ليس من يهودى يموت حتى يؤمن بعيسى بن مريم. فقال له رجل من أصحابه : كيف والرجل يغرق أو يحترق ، أو يسقط عليه الجدار أو يأكله السبع؟ فقال : لا تخرج روحه من جسده حتى يقذف فيه الايمان بعيسى عليه الصلاة والسلام

قلت : ما فائدة الإخبار بإيمانهم بعيسى قبل موتهم؟ قلت : فائدته الوعيد ، وليكون علمهم بأنهم لا بدّ لهم من الإيمان به عن قريب عند المعاينة ، وأن ذلك لا ينفعهم ، بعثا لهم وتنبيها على معالجة الإيمان به في أوان الانتفاع به ، وليكون إلزاما للحجة لهم ، وكذلك قوله ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ يشهد على اليهود بأنهم كذّبوه ، وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله. وقيل : الضميران لعيسى ، بمعنى : وإن منهم أحد إلا ليؤمننّ بعيسى قبل موت عيسى ، وهم أهل الكتاب الذين يكونون في زمان نزوله. روى أنه ينزل من السماء في آخر الزمان ، فلا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به ، حتى تكون الملة واحدة وهي ملة الإسلام ، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال ، وتقع الأمانة حتى ترتع الأسود مع الإبل ، والنمور مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان بالحيات ، ويلبث في الأرض أربعين سنة ، ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون ويدفنونه ^(١). ويجوز أن يراد أنه لا يبقى أحد من جميع أهل الكتاب إلا ليؤمننّ به ، على أن الله يحييهم في قبورهم في ذلك الزمان ، ويعلمهم نزوله وما أنزل له ، ويؤمنون به حين لا ينفعهم إيمانهم. وقيل : الضمير في ﴿بِهِ﴾ يرجع إلى الله تعالى. وقيل : إلى محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّوا وَقَدْ كَفَرُوا عَنْهُمْ وَأَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١) لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١٦٢)

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ فبأى ظلم منهم. والمعنى ما حرّمنا عليهم الطيبات إلا لظلم عظيم ارتكبهوه ، وهو ما عدّد لهم من الكفر والكبائر العظيمة. والطيبات التي حرّمت عليهم : ما ذكره

(١) أخرجه ابن حبان وأبو داود من رواية همام عن قتادة عن عبد الرحمن بن آدم عن أبي هريرة في حديث أوله «الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إخوة أولاد علات أمهاتهم شتى ودينهم واحد ، وإنّ أولى الناس بعيسى ابن مريم ، لأنه لم يكن بيني وبينه نبي ، وإنه نازل. فإذا رأيتموه فاعرفوه ، فانه رجل مربع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الشعر ، كأن رأسه يقطر وإن لم يمسه بلل ، بين محصرين ، فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ، ويفيض المال ويقاتل الناس على الإسلام حتى يملكه الله في زمانه الملك كلها إلا الإسلام إلى آخره» وأما قوله في أوله هنا «لا يبقى أحد من أهل الأرض إلا يؤمن به» فرواه الطبري من قول ابن عباس رضی الله عنهما.

في قوله : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ وحرمت عليهم الألبان ، وكلما أذنبوا ذنباً صغيراً أو كبيراً حرّم عليهم بعض الطيبات من المطاعم وغيرها ﴿وَبَصَدِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً﴾ ناساً كثيراً أو صديداً كثيراً ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ بالرشوة التي كانوا يأخذونها من سفلتهم في تحريف الكتاب ﴿لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ﴾ يريد من آمن منهم ، كعبد الله بن سلام وأضرابه ، والراسخون في العلم الثابتون فيه المتقنون المستبصرون ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ يعنى المؤمنين منهم ، أو المؤمنون من المهاجرين والأنصار. وارتفع الراسخون على الابتداء. و ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ خبره. و ﴿الْمُقِيمِينَ﴾ نصب على المدح لبيان فضل الصلاة ، وهو باب واسع ، وقد كسره سيبويه على أمثلة وشواهد. ولا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه لحنا في خط المصحف. وربما التفت إليه من لم ينظر في الكتاب ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم في النصب على الاختصاص من الافتتان ، وغبي عليه أنّ السابقين الأولين الذين مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كانوا أبعد همة في الغيرة على الإسلام وذبّ المطاعن عنه ، من أن يتركوا في كتاب الله ثلثة ليسدّها من بعدهم وخرقا يرفوه من يلحق بهم. وقيل : هو عطف على : ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أى يؤمنون بالكتاب وبالمقيمين الصلاة وهم الأنبياء. وفي مصحف عبد الله : والمقيمون ، بالواو ، وهي قراءة مالك بن دينار ، والجحدري ، وعيسى الثقفي.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالتَّيِّبِينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً (١٦٤) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَاسٍ لِيَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٦٥) لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ (١٦٦)

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ جواب لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتابا من السماء ، واحتجاج عليهم بأنّ شأنه في الوحي إليه كشأن سائر الأنبياء الذين سلفوا. وقرئ (زبوراً) بضم الزاى جمع زبر وهو الكتاب ﴿وَرُسُلًا﴾ نصب بمضمر في معنى : أوحينا إليك وهو : أرسلنا ، ونبأنا ، وما أشبه ذلك. أو بما فسر قصصناهم. وفي قراءة أبيّ : ورسل

قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم. وعن إبراهيم ويحيى بن وثاب : أهما قرءا ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ﴾ بالنصب. ومن بدع التفاسير أنه من الكلم ^(١) ، وأن معناه وجرَّح الله موسى بأظفار الحن ومخالب الفتن ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ الأوجه أن ينتصب على المدح. ويجوز انتصابه على التكرير. فإن قلت : كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرسل ^(٢) ، وهم محجوجون بما نصبه الله من الأدلة التي النظر فيها موصل إلى المعرفة ، والرسل في أنفسهم لم يتوصلوا إلى المعرفة إلا بالنظر في تلك الأدلة ، ولا عرف أنهم رسل الله إلا بالنظر فيها؟ قلت : الرسل منبهون عن الغفلة ، وباعثون على النظر ، كما ترى علماء أهل العدل والتوحيد ^(٣) مع تبليغ ما حملوه من تفضيل أمور الدين وبيان أحوال التكليف وتعليم الشرائع ، فكان إرسالهم إزاحة لليلة وتتميمًا لإلزام الحجة ، لئلا يقولوا : لو لا أرسلت إلينا رسولاً فيوقظنا من سنة الغفلة وينبهنا لما وجب الانتباه له. وقرأ السلمي :

(١) قال محمود : ومن بدع التفاسير أن كلم من الكلم ... الخ قال أحمد : وإنما ينقل هذا التفسير عن بعض المعتزلة لانكارهم الكلام القديم الذي هو صفة الذات ، إذ لا يثبتون إلا الحروف والأصوات قائمة بالأجسام ، لا بذات الله تعالى ، فيرد عليهم بجحدهم كلام النفس إبطال خصوصية موسى عليه السلام في التكليم ، إذ لا يثبتونه إلا بمعنى سماعه حروفاً وأصواتاً قائمة ببعض الأجرام ، وذلك مشترك بين موسى وبين كل سامع لهذه الحروف ، حتى المشترك الذي قال الله فيه ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ فيضطر المعتزل إلى إبطال الخصوصية الموسوية بحمل التكليم على التجريح ، وصدق الزمخشري وأنصف : إنه لمن بدع التفاسير التي ينو عنها الفهم ولا يبين بها إلا الوهم ، والله الموفق

(٢) عاد كلامه. قال محمود : «فان قلت كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرسل ... الخ» قال أحمد : قاعدة المعتزلة في التحسين والتقبيح العقليين تجرهم وتجروهم إلى إثبات أحكام الله تعالى بمجرد العقل وإن لم يبعث رسولاً ، فيوجبون بعقولهم ، ويحرمون ويبيحون على وفق زعمهم. ومما يوجبونه قبل ورود الشرع : النظر في أدلة المعرفة ولا يتوقفون على ورود الشرع الموجب ، فمن ثم يلزمون بعد خبط وتطويل ، أن من ترك النظر في الأدلة قبل ورود الشرع ، فقد ترك واجباً استحق به التعذيب ، وقد قامت الحجة عليه في الوجوب وإن لم يكن شرع ، وإذا تليت عليهم هذه الآية وهي قوله : ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ وقيل لهم أما هذه الآية تناديكم يا معشر القدرية أن الحجة إنما قدمت على الخلق بالأحكام الشرعية المؤدية إلى الجزاء بإرسال الرسل لا بمجرد العقل ، فما تقولون فيها؟ صمت حينئذ آذانهم وغيروا في وجه هذا النص وغيروا عما هو موضوع له ، فقالوا : المراد أن الرسل تتم حجة الله وتنبه على ما وجب قبل بعثها بالعقل ، كما أجاب به الزمخشري ، وقريباً من هذا التعسف يقولون إذا ورد عليهم قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وربما يدل على ضعف المطالع لهذا الفصل من كلام الزمخشري قوله : إن أدلة التوحيد والمعرفة منصوبة قبل إرسال الرسل ، وبذلك تقوم الحجة فنظن أن ذلك جار على سنن الصحة ، إذ المعرفة باتفاق ، والتوحيد بإجماع ، إنما طريقه العقل لا النقل الذي يلبس عليه أن النظر في أدلة التوحيد هو فعل المكلف ليس بالحكم الشرعي ، بل الحكم وجوب النظر ، والمعرفة متلقاة من العقل المحض ، والوجوب متلقى من النقل الصرف ، وبه تقوم الحجة ، وعليه يرتب الجزاء. والله سبحانه ولى التوفيق والمعونة.

(٣) قوله «كما ترى علماء أهل العدل» أى كما ذهب إليه المعتزلة. وذلك أنهم حكموا العقل وجعلوه كافياً في معرفة الأحكام ، كوجوب العدل وحرمة الظلم. وقال أهل السنة : لا حكم قبل الشرع. والمسألة مشهورة في علم الأصول ، فالسؤال مبنى على مذهب المعتزلة. (ع)

لكن الله يشهد ، بالتشديد. فإن قلت : الاستدراك لا بد له من مستدرك ^(١) فما هو في قوله : ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ﴾؟ قلت : لما سأل أهل الكتاب إنزال الكتاب من السماء وتعتوا بذلك واحتج عليهم بقوله : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ قال : لكن الله يشهد ، بمعنى أنهم لا يشهدون لكن الله يشهد. وقيل : لما نزل ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ قالوا : ما نشهد لك بهذا ، فنزل ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ﴾ ومعنى شهادة الله بما أنزل إليه : إثباته لصحته بإظهار المعجزات ، كما تثبت الدعاوى بالبينات. وشهادة الملائكة : شهادتهم بأنه حق وصدق. فإن قلت : هم يجابون لو قالوا : هم يعلم أن الملائكة يشهدون بذلك؟ قلت : يجابون بأنه يعلم بشهادة الله ، لأنه لما علم بإظهار المعجزات أنه شاهد بصحته علم أن الملائكة يشهدون بصحة ما شهد بصحته ؛ لأن شهادتهم تبع لشهادته. فإن قلت : ما معنى قوله ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ وما موقعه من الجملة التي قبله؟ قلت : معناه أنزله ملتبساً بعلمه الخاص الذي لا يعلمه غيره ، وهو تأليفه على نظم وأسلوب يعجز عنه كل بليغ وصاحب بيان ، وموقعه مما قبله موقع الجملة المفسرة لأنه بيان للشهادة ، وأن شهادته بصحته أنه أنزله بالنظم المعجز الفائت للقدرة. وقيل : أنزله وهو عالم بأنك أهل لإنزاله إليك وأنتك مبلغه. وقيل : أنزله مما علم من مصالح العباد مشتملاً عليه. ويحتمل : أنه أنزله وهو عالم به رقيب عليه حافظ له من الشياطين برصد من الملائكة ، والملائكة يشهدون بذلك ، كما قال في آخر سورة الجن. ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ والإحاطة بمعنى العلم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ وإن لم يشهد غيره ، لأن التصديق بالمعجزة هو الشهادة حقاً ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالاً بَعِيداً﴾ (١٦٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً﴾ (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾ (١٦٩)

﴿كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾ جمعوا بين الكفر والمعاصي ^(٢) ، وكان بعضهم كافرين وبعضهم ظالمين

(١) قال محمود : «إن قلت الاستدراك لا بد له من مستدرك ... الخ» قال أحمد : ورود هذا الفصل في كلامه مما يغتبط به.

(٢) قال محمود : «أى جمعوا بين الكفر والمعاصي ... الخ» قال أحمد : يعدل من الظاهر ، لعله يتروح إلى بث طرف من العقيدة الفاسدة في وجوب وعيد العصاة ، وأنهم مخلدون تخليد الكفار. وقد تكرر ذلك منه. وهذه الآية تنبو عن هذا المعتقد ، فانه جعل الفعلين أعنى الكفر والظلم كليهما صلة للموصول المجموع ، فيلزم وقوع الفعلين جميعاً من كل واحد من أحاده. ألا تراك إذا قلت : الزيدون قاموا ، فقد أسندت القيام إلى كل واحد من أحاد الجمع ، فكذلك لو عطفك عليه فعلاً آخر لزم فيه ذلك ضرورة ، والله الموفق.

أصحاب كبائر ، لأنه لا فرق بين الفريقين في أنه لا يغفر لهما ^(١) إلا بالتوبة ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً﴾ لا يلفظ بهم فيسلكون الطريق الموصل إلى جهنم. أو لا يهديهم يوم القيامة طريقاً إلا طريقها ﴿يَسِيراً﴾ أى لا صارف له عنه.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (١٧٠) يا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ (١٧١)

﴿فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ﴾ وكذلك ﴿انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ﴾ انتصابه بمضمر ، وذلك أنه لما بعثهم على الإيمان وعلى الانتهاء عن التثليث ، علم أنه يحملهم على أمر فقال : ﴿خَيْراً لَكُمْ﴾ أى اقصدوا ، أو اتنوا أمراً خيراً لكم مما أنتم فيه من الكفر والتثليث. وهو الإيمان والتوحيد ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ غلت اليهود في حط المسيح عن منزلته ، حيث جعلته مولوداً لغير رشدة ^(٢). وغلت النصارى في رفعه عن مقداره حيث جعلوه إلهاً ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ وهو تنزيهه عن الشريك والولد. وقرأ جعفر بن محمد ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ﴾ بوزن السكيت. وقيل لعيسى (كلمة الله) (وكلمة منه) لأنه وجد بكلمته وأمره لا غير ، من غير واسطة أب ولا نطفة. وقيل له : روح الله ، وروح منه ، لذلك ، لأنه ذو روح وجد من غير جزء من ذى روح ، كالنطفة المنفصلة من الأب الحىّ وإنما اخترع اختراعاً من عند الله وقدرته خالصة. ومعنى ﴿أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أوصلها إليها وحصلها فيها ﴿ثَلَاثَةً﴾ خبر مبتدأ محذوف ، فإن صحت الحكاية عنهم أنهم يقولون : هو جوهر واحد ثلاثة أقانيم ، أقنوم الأب ، وأقنوم الابن ، وأقنوم روح القدس. وأنهم يريدون بأقنوم الأب : الذات ، وبأقنوم الابن : العلم ، وبأقنوم روح القدس : الحياة ، فتقديره الله ثلاثة ؛ وإلا فتقديره : الآلهة ثلاثة. والذي يدل عليه القرآن التصريح منهم بأن الله والمسيح

(١) قوله «في أنه لا يغفر لهما إلا بالتوبة» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فقد تغفر الكبيرة بالشفاعة ، أو بمجرد الفضل. (ع)

(٢) قوله «مولوداً لغير رشدة» أى لزنية ، وفي الصحاح : تقول «هو لرشدة» خلاف قولك «لزنية». (ع)

ومريم ثلاثة آلهة ، وأنَّ المسيح ولد الله من مريم. ألا ترى إلى قوله : ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهْيَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ، ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ والمشهور المستفيض عنهم أنهم يقولون : في المسيح لاهوتية وناسوتية من جهة الأب والأم. ويدل عليه قوله : ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ فأثبت أنه ولد لمريم اتصل بها اتصال الأولاد بأُمَّهاتها ، وأن اتصاله بالله تعالى من حيث أنه رسوله ، وأنه موجود بأمره وابتداعه جسدا حيا من غير أب ، فنفى أن يتصل به اتصال الأبناء بالأباء. وقوله : ﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ وحكاية الله أوثق من حكاية غيره. ومعنى ﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ سبحة تسبيحا من أن يكون له ولد. وقرأ الحسن : إن يكون ، بكسر الهمزة ورفع النون : أى سبحانه ما يكون له ولد. على أنَّ الكلام جملتان ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ بيان لتزده عما نسب إليه ، يعنى أنَّ كل ما فيهما خلقه وملكه ، فكيف يكون بعض ملكه جزءاً منه ، على أن الجزء إنما يصح في الأجسام وهو متعال عن صفات الأجسام والأعراض ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ يكل إليه الخلق كلهم أمورهم ، فهو الغنى عنهم وهم الفقراء إليه.

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَهِهِ جَمِيعًا﴾ (١٧٢)

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ﴾ لن يأنف ولن يذهب بنفسه عزة ^(١) من نكفت الدمع. إذا

(١) قال محمود معناه لن يأنف ولن يذهب بنفسه عزة ... الخ قال أحمد : وقد كثر الاختلاف في تفضيل الأنبياء على الملائكة ، فذهب جمهور الأشعرية إلى تفضيل الأنبياء. وذهب القاضي أبو بكر منا والحليمي وجماعة المعتزلة إلى تفضيل الملائكة ، واتخذ المعتزلة هذه الآية عمدهم في تفضيل الملائكة من حيث الوجه الذي استدل به الزمخشري. ونحن بعون الله نشبع القول في المسألة من حيث الآية فنقول : أورد الأشعرية على الاستدلال بها أسئلة : أحدها : أن سيدنا محمداً عليه أفضل الصلاة والسلام أفضل من عيسى عليه الصلاة والسلام ، فلا يلزم من كون الملائكة أفضل من المسيح أن تكون أفضل من محمد عليه الصلاة والسلام ، وهذا السؤال إنما يتوجه إذ لم يدع مورده أن كل واحد من آحاد الأنبياء أفضل من كل واحد من آحاد الملائكة ، وبين طائفتنا في هذا الطرف خلاف. السؤال الثاني : أن قوله : ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ صيغة جمع تتناول مجموع الملائكة ، فهذا يقتضى كون مجموع الملائكة أفضل من المسيح ، ولا يلزم أن يكون كل واحد منهم أفضل من المسيح. وفي هذا السؤال أيضاً نظر ؛ لأن مورده إذا بنى على أن المسيح أفضل من كل واحد من آحاد الملائكة فقد يقال : يلزم القول بأنه أفضل من الكل ، كما أن النبي عليه الصلاة والسلام لما كان أفضل من كل واحد من آحاد الأنبياء كان أفضل من كلهم ، ولم يفرق بين التفضيل على التفصيل والتفضيل على الجملة أحد ممن صنف في هذا المعنى. وقد كان بعض المعاصرين يفصل بين التفضيلين وادعى أنه لا يلزم منه على التفصيل تفضيل على الجملة ، ولم يثبت عنه هذا القول. ولو قاله أحد فهو مردود بوجه لطيف ، وهو أن التفضيل المراد جل أماراته رفع درجة الأفضل في الجنة. والأحاديث متوافرة بذلك. وحينئذ لا يخلو ، إما أن ترفع درجة واحد من المفضولين على من اتفق على أنه أفضل من كل واحد منهم ، أو لا ترفع درجة أحد منهم عليه. لا سبيل إلى الأول ، لأنه يلزم منه رفع المفضول على الأفضل ، فتعين الثاني - وهو ارتفاع.

نحيته عن خدك بإصبعك ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ولا من هو أعلى منه قدراً وأعظم منه خطراً

. درجة الأفضل على درجات المجموع . ضرورة ، فيلزم ثبوت أفضليته على المجموع من ثبوت أفضليته على كل واحد منهم قطعاً.

الثالث أنه عطف الملائكة على المسيح بالواو ، وهي لا تقتضي ترتيباً . وأما الاستشهاد بالمثل المذكور على أن الثاني أبداً يكون أعلى رتبة ، فمعارض بأمثلة لا تقتضي ذلك ، كقول القائل : ما عابني على هذا الأمر زيد ولا عمرو . قلت : وكقولك : لا تؤذ مسلماً ولا ذمياً ، فإن هذا الترتيب وجه الكلام . والثاني أدنى وأخفض درجة ، ولو ذهب تعكس هذا فقلت : لا تؤذ ذمياً ولا مسلماً ليجعل الأعلى ثانياً ، لخرجت عن حد الكلام وقانون البلاغة . وهذا المثل بين ما يورد في نقض القانون المقرر ، ولكن الحق أولى من المراء ، وليس بين المثاليين تعارض . ونحن نمهد تمهيداً يرفع اللبس ويكشف الغطاء فنقول : النكتة في الترتيب في المثاليين الموهوم تعارضهما واحدة ، وهي توجب في مواضع تقديم الأعلى ، وفي مواضع تأخيرها . وتلك النكتة مقتضى البلاغة النائي عن التكرار والسلامة عن النزول ، فإذا اعتمدت ذلك فمهما أدى إلى أن يكون آخر كلامك نزولاً بالنسبة إلى أوله ، أو يكون الآخر مندرجاً في الأول قد أفاده ، وأنت مستغن عن الآخر ، فاعدل عن ذلك إلى ما يكون ترقياً من الأدنى إلى الأعلى ، واستثنافا لفائدة لم يشتمل عليها الأول ، مثاله الآية المذكورة ، فإنك لو ذهبت فيها إلى أن يكون المسيح أفضل من الملائكة وأعلى رتبة ، لكان ذكر الملائكة بعده كالمستغنى عنه ؛ لأنه إذا كان الأفضل وهو المسيح على هذا التقدير عبداً لله غير مستنكف من العبودية ، لزم من ذلك أن من دونه في الفضيلة أولى أن لا يستنكف عن كونه عبداً لله وهم الملائكة على هذا التقدير ، فلم يتجدد إذاً بقوله : ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ إلا ما سلف أول الكلام . وإذا قدرت المسيح مفضولاً بالنسبة إلى الملائكة ، فإنك ترقبت من تعظيم الله تعالى بأن المفضول لا يستنكف عن كونه عبداً له ، إلى أن الأفضل لا يستنكف عن ذلك ، وليس يلزم من عدم استنكاف المفضول عدم استنكاف الأفضل ، فالحاجة داعية إلى ذكر الملائكة ، إذ لم يستلزم الأول الآخر ، فصار الكلام على هذا التقدير تتجدد فوائده وتزايد ، وما كان كذلك تعين أن يحمل عليه الكتاب العزيز ، لأنه الغاية في البلاغة . وهذه النكتة يجب أن تقول لا تؤذ مسلماً ولا ذمياً ، فتؤخر الأدنى على عكس الترتيب في الآية ؛ لأنك إذا نحيته عن إيذاء المسلم ، فقد يقال : ذاك من خواصه ، احتراماً للإسلام . فلا يلزم من ذلك نحيه عن الكافر المسلمية عنه هذه الخصوصية ، فإذا قلت : ولا ذمياً ، فقد جددت فائدة لم تكن في الأول ، وترقيت من النهي عن بعض أنواع الأذى إلى النهي عن أكثر منه ، ولو رتب هذا المثل كترتيب الآية فقلت : لا تؤذ ذمياً ، فهم المنهي أن أذى المسلم أدخل في النهي ، إذ يساوى الذمي في سبب الاحترام وهو الانسانية مثلاً ، ويمتاز عنه بسبب أجل وأعظم وهو الإسلام ، فيقنعه هذا النهي عن تحديد نهي آخر عن أذى المسلم . فإن قلت : ولا مسلماً ، لم تحدد له فائدة ولم تعلمه غير ما علمه أولاً ، فقد علمت أنها نكتة واحدة توجب أحياناً تقديم الأعلى وأحياناً تأخيرها ، ولا يميز لك ذلك إلا السياق . وما أشك أن سياق الآية يقتضي تقديم الأدنى وتأخير الأعلى . ومن البلاغة المرتبة على هذه النكتة قوله تعالى : ﴿فَلَا تَقُلْ هُمَا أَفْ﴾ استغناء عن نحيه عن ضربهما فما فوقه بتقدير الأدنى ، ولم يلق ببلاغة الكتاب العزيز أن تريد نحيها عن أعلى من التأفيف والأخبار ، لأنه مستغنى عنه وما يحتاج المتدبر لآيات القرآن مع التأييد شاهداً سواها ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ولما اقتضى الانصاف تسليم مقتضى الآية لتفضيل الملائكة ، وكانت الأدلة على تفضيل الأنبياء عتيقة عند المعتقد لذلك ، جمع بين الآية وتلك الأدلة بحمل التفضيل في الآية على غير محل الخلاف . وذلك أن تفضيل الملائكة في القوة وشدة البطش وسعة التمكن والاقتدار . قال : وهذا النوع من الفضيلة هو المناسب لسياق الآية ؛ لأن المقصود الرد على النصارى في اعتقادهم ألوهية عيسى عليه السلام ، مستندين إلى كونه أحى الموتى ، وأبرأ الأكمه والأبرص ، وصدرت على يديه آثار عظيمة خارقة ، فناسب ذلك أن يقال : هذا الذي صدرت على يديه هذه الخوارق

وهم الملائكة الكروبيون الذين حول العرش ، كجبريل وميكائيل وإسرافيل ، ومن في طبقتهم. فإن قلت : من أين دلّ قوله : ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ على أنّ المعنى : ولا من فوقه؟ قلت : من حيث أنّ علم المعاني لا يقتضى غير ذلك. وذلك أنّ الكلام إنما سيق لرد مذهب النصارى وغلّوهم في رفع المسيح عن منزلة العبودية ، فوجب أن يقال لهم : لن يترفع عيسى عن العبودية ، ولا من هو أرفع منه درجة ، كأنه قيل : لن يستنكف الملائكة المقربون من العبودية ، فكيف بالمسيح؟ ويدل عليه دلالة ظاهرة بينة ، تخصيص المقرّبين لكونهم أرفع الملائكة درجة وأعلامهم منزلة. ومثاله قول القائل :

وَمَا مِثْلُهُ مِمَّنْ يُجَادُ حَاتِمٌ وَلَا الْبَحْرُ دُوَّ الْأُمِّ وَأَجْ يَلْتَجُّ زَاخِرُهُ^(١)

لا شبهة في أنه قصد بالبحر ذى الأمواج : ما هو فوق حاتم في الجود. ومن كان له ذوق فليذق مع هذه الآية قوله : ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى﴾ حتى يعترف بالفرق البين. وقرأ علىّ رضى الله عنه : عبّداً لله ، على التصغير. وروى أن وفد نجران قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

. لا يستنكف عن عبادة الله تعالى ، بل من هو أكثر خوارق وأظهر آثاراً كالملائكة المقربين الذين من جملتهم جبريل عليه السلام ، وقد بلغ من قوته وإقدار الله له أن اقتلع المدائن واحتملها على ريشة من جناحه فقلب عاليها سافلها ، فيكون تفضيل الملائكة إذاً بهذا الاعتبار ، لا خلاف أنهم أقوى وأبطش ، وأن خوارقهم أكثر. وإنما الخلاف في التفضيل باعتبار مزيد الثواب والكرامات ورفع الدرجات في دار الجزاء. وليس في الآية عليه دليل. ولما كان أكثر ما ليس على النصارى في ألوهية عيسى كونه مخلوقاً أى موجوداً من غير أب ، أنبأنا الله تعالى أن هذا الموجود من غير أب لا يستنكف من عبادة الله ، بل ولا الملائكة المخلوقين من غير أب ولا أم ، فيكون تأخير ذكرهم لأن خلقهم أغرب من خلق عيسى. ويشهد لذلك أن الله تعالى نظر عيسى بآدم عليهما السلام ، فنظر الغريب بالأغرب ، وشبه العجيب من قدرته بالأعجب ؛ إذ عيسى مخلوق من أم ، وآدم من غير أم ولا أب ؛ ولذلك قال : ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ومدار هذا البحث على النكتة التي نهت عليها ، فمتى استقام اشتغال المذكور أياً ما على فائدة لم يشتمل عليها الأول بأى طريق كان من تفضيل أو غيره من الفوائد ، فقد استند النظر وطابق صيغة الآية ، والله أعلم. وعلى الجملة فالمسألة سمعية والقطع فيها معروف بالنص الذي لا يحتمل تأويلاً ووجوده عسر ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وما أحسن تأكيد الزمخشري لاستدلاله ببعث الملائكة المعنيتين بأنهم المقربون ، ومن ثم ينشئ ظهور من فصل القول في الملائكة والأنبياء ، فلم يعمم التفضيل في الملائكة ولا في الأنبياء ، بل فضل ثم فصل. وليس الغرض إلا ذكر محامل الآية ، لا البحث في اختلاف المذاهب ، والله الموفق.

(١) «يلتج» أى تضطرب لجته وهي معظم مائه. و «الزاخر» المرتفع. يقول : وليس مثل ممدوحى من الناس الذين يجاودهم حاتم ، ولا من الذين يجاودهم البحر الزاخر ، أى يضاھيهم في الجود. فالبحر : عطف على «حاتم» بالغ في وصف ممدوحه بأن مثله لا يضاھي في الكرم ، فيلزم أنه هو لا يضاھي أيضاً ، فنفى المضاهاة عن المثل كناية عن نفيها عن الممدوح. وفيه مبالغة أيضاً من جهة ترقيه من نفى مجاودة أكرم الناس إلى نفى مجاودة أنفع الأشياء. والفعل بالنسبة للبحر مجاز أو مشاكلة. أو شبه البحر بإنسان وأثبت له المجاورة على طريق المكنية وهذا على أن «يجاود» مبنى للفاعل ، فان كان مبنياً للمجهول فالمعنى أن حاتم ليس مثله ممن يضاھي في الجود ، كما أن البحر لا يضاھي في النفع. فقد شبهه بالبحر ضمناً.

لم تعيب صاحبنا؟ قال : ومن صاحبكم؟ قالوا : عيسى . قال : وأى شيء أقول؟ قالوا : تقول : إنه عبد الله ورسوله . قال : إنه ليس بعار ^(١) أن يكون عبداً لله . قالوا : بلى ، فنزلت : أى لا يستنكف عيسى من ذلك فلا تستنكفوا له منه ، فلو كان موضع استنكاف لكان هو أولى بأن يستنكف لأنّ العار ألصق به . فإن قلت : علام عطف قوله : ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ﴾؟ قلت : لا يخلو إمّا أن يعطف على المسيح ، أو على اسم «يكون» أو على المستتر في : ﴿عَبْدًا﴾ لما فيه من معنى الوصف ، لدلالته على معنى العبادة ، كقولك : مررت برجل عبد أبوه ، فالعطف على المسيح هو الظاهر لأداء غيره إلى ما فيه بعض انحراف عن الغرض ، وهو أن المسيح لا يأنف أن يكون هو ولا من فوقه موصوفين بالعبودية ، أو أن يعبد الله هو ومن فوقه . فإن قلت : قد جعلت الملائكة وهم جماعة عبداً لله في هذا العطف ، فما وجهه؟ قلت : فيها وجهان : أحدهما أن يراد : ولا كل واحد من الملائكة أو ولا الملائكة المقربون أن يكونوا عباداً لله ، فحذف ذلك لدلالة (عبد الله) عليه إيجازاً . وأمّا إذا عطفتهم على الضمير في : ﴿عَبْدًا﴾ فقد طاح هذا السؤال . قرئ ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾ بضم الشين وكسرهما وبالنون .

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنَكَفُوا فَسَيَذَرُهمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً (١٧٣) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيَدْخُلُهمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيماً﴾ (١٧٥)

فإن قلت : التفصيل غير مطابق للمفصل ^(٢) ؛ لأنه اشتمل على الفريقين ، والمفصل على فريق واحد . قلت : هو مثل قولك : جمع الإمام الخوارج ، فمن لم يخرج عليه كساره وحمله ، ومن خرج عليه نكل به ، وصحة ذلك لوجهين ، أحدهما : أن يحذف ذكر أحد الفريقين لدلالة التفصيل عليه ،

(١) أخرجه الواحدي في الأسباب عن ابن الكلبي .

(٢) قال محمود : «إن قلت التفصيل غير مطابق للمفصل ... الخ» قال أحمد : المراد بالمفصل : من لم يستنكف ومن استنكف ؛ لسبق ذكرهما . ألا ترى أن المسيح والملائكة المقربين ومن دونه من عباد الله لم يستنكفوا عن عبادة الله وقد جرى ذكرهم . ويرشد إليه تأكيد الضمير بقوله : ﴿جَمِيعاً﴾ فكأنه قال فسيحشر إليه المقربين وغيرهم جميعاً . ووقع الفعل المتصل به الضمير جزاء لقوله : ﴿وَمَنْ يَسْتَنكِفْ﴾ لا يعين اختصاص الضمير بالمستنكفين ؛ لأن المصحح لا رتباط الكلام قد وجد مندرجا في طى هذا الضمير الشامل لهم ولغيرهم . وحينئذ يكون المفصل مشتملا على الفريقين ، وتفصيله منطبق عليه ، والله أعلم .

ولأنّ ذكر أحدهما يدل على ذكر الثاني ، كما حذف أحدهما في التفصيل في قوله عقيب هذا ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ والثاني ، وهو أن الإحسان إلى غيرهم مما يغمهم ، فكان داخلا في جملة التنكيل بهم فكأنه قيل : ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر ، فسيعذب بالحسرة إذا رأى أجور العاملين وبما يصيبه من عذاب الله. البرهان والنور المبين : القرآن. أو أراد بالبرهان دين الحق أو رسول الله صلى الله عليه وسلم. وبالنور المبين : ما يبينه ويصدق من الكتاب المعجز ﴿فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ﴾ في ثواب مستحق وتفضل ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ﴾ إلى عبادته ﴿صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ وهو طريق الإسلام. والمعنى : توفيقهم وتثبيتهم.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلْثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَصِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٧٦)

روى أنه آخر ما نزل من الأحكام^(١). كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في طريق مكة عام حجة الوداع ، فأتاه جابر بن عبد الله فقال : إنّ لي أختا ، فكم آخذ من ميراثها إن ماتت؟^(٢) وقيل : كان مريضا فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني كلاله فكيف أصنع في مالي؟^(٣) فنزلت ﴿إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ﴾ ارتفع امرؤ بمضمر يفسره الظاهر. ومحل ﴿لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ الرفع على الصفة لا النصب على الحال. أى : إن هلك امرؤ غير ذى ولد. والمراد بالولد الابن وهو اسم مشترك يجوز إيقاعه على الذكر وعلى الأنثى ؛ لأن الابن يسقط الأخت ، ولا تسقطها البنت إلا في مذهب ابن عباس ، وبالأخت التي هي لأب وأم دون التي لأُم ، لأنّ الله تعالى فرض لها النصف وجعل أخاها عصبه وقال ﴿فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ وأما الأخت للأُم فلها السدس

(١) قوله «روى أنه آخر ما نزل من الأحكام» أى قوله تعالى : ﴿يَسْتَفْتُونَكَ...﴾ الخ. (ع)

(٢) أخرجه الثعلبي من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٣) متفق عليه من رواية ابن المنذر عنه. وأخرجه أصحاب السنن ، لكن ليس في رواية أحد منهم فنزلت ﴿إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ﴾ إلا عند مسلم ، من رواية ابن عيينة عنه بلفظ فنزلت ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ . الآية (فائدة) روى النسائي من طريق يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس قال : آخر آية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ . الآية وفي البخاري من رواية الشعبي عن ابن عباس «آخر آية نزلت آية الزنا» وروى الطبري من طريق يوسف بن مهران عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال : آخر آية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ . الآية.

في آية المواريث مسوّى بينها وبين أخيها ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا﴾ وأخوها يرثها إن قدر الأمر على العكس من موتها وبقائه بعدها ﴿إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ أى ابن ؛ لأن الأب ين يسقط الأخ دون البنت. فإن قلت : الابن لا يسقط الأخ وحده فإن الأب نظيره في الإسقاط ، فلم اقتصر على نفى الولد؟ قلت : بين حكم انتفاء الولد ، ووكّل حكم انتفاء الوالد إلى بيان السنة ، وهو قوله عليه السلام «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى عصبه ذكر» ^(١) والأب أولى من الأخ ، وليس بأول حكمين بين أحدهما بالكتاب والآخر بالسنة. ويجوز أن يدل بحكم انتفاء الولد على حكم انتفاء الوالد ، لأن الولد أقرب إلى الميت من الوالد ، فإذا ورث الأخ عند انتفاء الأقرب ، فأولى أن يرث عند انتفاء الأبعد : ولأن الكلاله تتناول انتفاء الوالد والولد جميعا ، فكان ذكر انتفاء أحدهما دالا على انتفاء الآخر. فإن قلت : إلى من يرجع ضمير التثنية والجمع ^(٢) في قوله ﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ﴾ وإن كانوا إخوة؟ قلت : أصله : فان كان من يرث بالأخوة اثنتين ، وإن كان من يرث بالأخوة ذكورا وإناثا : وإنما قيل : فان كانتا ، وإن كانوا ، كما قيل : من كانت أمك. فكما أنت ضمير «من» لمكان تأنيث الخبر ، كذلك ثنى وجمع ضمير من يرث في كانتا وكانوا ، لمكان تثنية الخبر وجمعه ، والمراد بالإخوة. الإخوة لا الأخوات ، تغليباً لحكم الذكورة ﴿أَنْ تَضِلُّوا﴾ مفعول له. ومعناه : كراهة أن تضلوا. عن النبي صلى الله عليه وسلم «من قرأ سورة النساء فكأنما تصدّق على كل مؤمن ومؤمنة ورث ميراثاً ، وأعطى من الأجر كمن اشترى محرراً ، وبريء من الشرك وكان في مشيئة الله من الذين يتجاوز عنهم» ^(٣).

(١) متفق عليه ، من حديث ابن عباس بلفظ «فلأولى رجل ذكر» وأخرجه كذلك الترمذي والحاكم وأبو يعلى والبزار (فائدة) قال ابن الجوزي : لفظ «عصبه» لا يحفظ في هذا الحديث
(٢) قال محمود : «إن قلت إلى من يرجع ضمير التثنية والجمع ... الخ»؟ قال أحمد : وقد سبق له هذا التمثيل في مثل هذا الموضع ولو مثل بقول القائل : حصان كانت دابتك ، لكان أسلم إذ في لفظ «من» من الإبهام ما يسوغ وقوعها على الأصناف المختلفة من مذكر ومؤنث وتثنية وجمع. ومثل الآية سواء قوله تعالى : ﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صَبِيحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو﴾ فيمن جعل الجملة مفعولاً ثانياً للحسبان ، فان أصل الكلام : هي العدو ، إذ الضمير على هذا الاعراب للصيحة ، ولكنه ذكره وجمعه لمكان الخبر ، والله أعلم.
(٣) تقدم الكلام على أسانيده في آخر سورة آل عمران.

سورة المائدة

مدنية [إلا آية ٣ فنزلت بعرفات في حجة الوداع]

وهي مائة وعشرون آية [نزلت بعد الفتح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحْلَتْ لَكُمْ بِمِمَّةِ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحْلِي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ (١)

يقال وفي بالعهد وأوفى به ^(١) ومنه : والموفون بعهدهم. والعقد : العهد الموثق ، شبه بعقد الحبل ونحوه ، قال الخطيئة :

قَوْمٌ إِذَا عَقَّ عَقُّدُوا عَقًّا لِحَارِهِمْ شَدُّوا الْعِنَاجَ وَشَدُّوا فَوْقَهُ الْكِرْبَا (٢)

وهي عقود الله التي عقدها على عباده وألزمها إياهم من مواجب التكليف. وقيل : هي ما يعقدون بينهم من عقود الأمانات ويتحالفون عليه ويتماسحون من المبيعات ونحوها. والظاهر

(١) قال المصنف : «يقال وفي بالعهد وأوفى به ومنه الموفون بعهدهم» قال أحمد : ورد في الكتاب العزيز ﴿وَفِي﴾ بالتضعيف في قوله تعالى : ﴿وَأَبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ وورود أو في كثير. ومنه ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ وأما (وفي) ثلاثيا فلم يرد إلا في قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ لأنه بنى أفعل التفضيل من وفي ، إذ لا يبنى إلا من ثلاثي

(٢) قوم إذا عققوا عققا لِحَارِهِمْ شَدُّوا الْعِنَاجَ وَشَدُّوا فَوْقَهُ الْكِرْبَا

قوم هم الأنصف والأذنان غيـرهم وممن يسوى بأنصف الناقصة الذنبا

للخطيئة. والعنـاج. ككتاب . حبل يشد في أسفل الدلو ، ثم في العراقي جمع عرقوة ، وهي الخشبة التي في فم الدلو. والكرب . كسبب . : حبل يشد على طرف العرقوة والعنـاج ليربطهما. وهذا استعارة تمثيلية شبه حالهم في توثيقهم العهد بوجوه متعددة بحال من يوثق الدلو بحبال متعددة. أو شبه حال عهدهم في وثاقته الزائدة بحال الدلو الموثقة «وأنف الناقة» لقب جعفر بن قريع ، ذبح والده ناقة لنسائه فأرسلته أمه ليأخذ نصيبها فلم يجد إلا الرأس ، فقال والده : عليك به ، فجعل يحجره من الأنف فلقب بذلك ، فكانت قبيلته تأنف من ذلك اللقب ، فاستعار الشاعر الأنف : للخيار العالين المقدار على طريق التصريح. أو شبه القوم به تشبيها بليغا ، وشبه غيرهم بالذنب في الخسة والضعفة. والاستفهام إنكارى ، أى لا أحد يسوى بين الأنف والذنب في الدفعة ، فصار هذا اللقب مدحا من حينئذ. وفيه تورية في غاية الحسن.

أنها عقود الله عليهم في دينه من تحليل حلاله وتحريم حرامه وأنه كلام قدم مجملاً ثم عقب بالتفصيل وهو قوله ﴿أَحَلَّتْ لَكُمْ﴾ وما بعده. البهيمة : كل ذات أربع في البر والبحر ، وإضافتها إلى الأنعام للبيان ، وهي الإضافة التي بمعنى «من» كخاتم فضة. ومعناه : البهيمة من الأنعام ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ إلا محرم ما يتلى عليكم من القرآن ، من نحو قوله : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ﴾ ، وإلا ما يتلى عليكم آية تحريمه. والأنعام : الأزواج الثمانية. وقيل «بهيمة الأنعام» الطباء وبقر الوحش ونحوها كأنهم أرادوا ما يماثل الأنعام ويدانيها من جنس البهائم في الاجترار وعدم الأنياب ، فأضيفت إلى الأنعام لملازمة الشبه ﴿غَيْرَ مُحْلِي الصَّيْدِ﴾ نصب على الحال من الضمير في : ﴿لَكُمْ﴾ أى أحلت لكم هذه الأشياء لا محلين الصيد. وعن الأخفش أن انتصابه عن قوله : ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ وقوله ﴿وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ حال عن محلي الصيد ، كأنه قيل : أحللتنا لكم بعض الأنعام في حال امتناعكم من الصيد وأنتم محرمون ، لئلا تخرج عليكم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ من الأحكام ، ويعلم أنه حكمة ومصلحة. والحرم : جمع حرام وهو المحرم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْغَدُورِ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٢)

الشعائر جمع شعيرة وهي اسم ما أشعر ، أى جعل شعاراً وعلماً للنسك ، من مواقف الحج ومرامي الجمار ، والمطاف ، والمسعى ، والأفعال التي هي علامات الحج يعرف بها من الإحرام ، والطواف ، والسعى ، والحلق ، والنحر. والشهر الحرام : شهر الحج. والهدى : ما أهدى إلى البيت وتقرب به إلى الله من النسائك. وهو جمع هدية ، كما يقال جدي في جمع جدية السرج^(١). والقلائد : جمع قلادة ، وهي ما قلده به الهدى من نعل أو عروة مزادة ، أو لحاء شجر^(٢) ، أو غيره. وآموا المسجد الحرام : قاصدوه ، وهم الحجاج والعمار. وإحلال هذه الأشياء أن يتهاون بجرمة

(١) قوله «يقال جدي في جمع جدية السرج» في الصحاح : الجدية . بتسكين الدال : شيء محشو يجعل تحت دفتي السرج والرجل. والجمع جدي وجديات. (ع)

(٢) قوله «أو لحاء شجر» أى قشره. (ع)

الشعائر وأن يحال بينها وبين المتنسكين بها ، وأن يحدثوا في أشهر الحج ما يصدّون به الناس عن الحج ، وأن يتعرض للهدى بالغصب أو بالمنع من بلوغ محله. وأما القلائد ففيها وجهان ، أحدهما : أن يراد بها ذوات القلائد من الهدى وهي البدن ، وتعطف على الهدى للاختصاص وزيادة التوصية بها لأنها أشرف الهدى ، كقوله : ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ كأنه قيل : والقلائد منها خصوصا. والثاني أن ينهى عن التعرض لقلائد الهدى مبالغة في النهي عن التعرض للهدى ، على معنى : ولا تحلوا قلائدها فضلا أن تحلوها ، كما قال : ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ فنهى عن إبداء الزينة مبالغة في النهي عن إبداء مواقعها ﴿وَلَا آمِينَ﴾ ولا تحلوا قوما قاصدين المسجد الحرام ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وهو الثواب ﴿وَرِضْوَانًا﴾ وأن يرضى عنهم ، أى لا تتعرضوا لقوم هذه صفتهم ، تعظيما لهم واستنكارا أن يتعرض لمثلهم. قيل : هي محكمة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «المائدة من آخر القرآن نزولا ، فأحلوا حلالها وحرّموا حرامها»^(١) وقال الحسن : ليس فيها منسوخ. وعن أبي ميسرة : فيها ثمان عشرة فريضة وليس فيها منسوخ. وقيل : هي منسوخة. وعن ابن عباس : كان المسلمون والمشركون يحجون جميعا ، فنهى الله المسلمين أن يمنعوا أحدا عن حج البيت بقوله ﴿لَا تُحِلُّوا﴾ ثم نزل بعد ذلك ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ ، ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ وقال مجاهد والشعبي : ﴿لَا تُحِلُّوا﴾ نسخ بقوله : ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾. وفسر ابتغاء الفضل بالتجارة ، وابتغاء الرضوان بأنّ المشركين كانوا يظنون في أنفسهم أنهم على سداد من دينهم ، وأنّ الحج يقرّبهم إلى الله ، فوصفهم الله بظنهم. وقرأ عبد الله : ولا آمي البيت الحرام ، على الإضافة. وقرأ حميد بن قيس والأعرج : تبتغون ، بالتاء على خطاب المؤمنين ﴿فَاصْطَادُوا﴾ إباحة للاصطياد بعد حظره عليهم ، كأنه قيل : وإذا حللتهم فلا جناح عليكم أن تصطادوا. وقرئ بكسر الفاء. وقيل : هو بدل من كسر الهمزة عند الابتداء. وقرئ : وإذا أحللتهم ، يقال حلّ المحرم وأحلّ. «جرم» يجرى مجرى «كسب» في تعديه إلى مفعول واحد واثنين. تقول : جرم ذنبا ، نحو كسبه. وجرمته ذنبا ، نحو كسبته إياه. ويقال : أجرمته ذنبا ، على نقل المتعدي إلى مفعول بالهمزة إلى مفعولين ، كقولهم : أكسبته ذنبا. وعليه قراءة عبد الله : ولا يجرمنكم بضم الياء ، وأول المفعولين على القراءتين ضمير المخاطبين ، والثاني ﴿أَنْ تَعْتَدُوا﴾. و ﴿أَنْ صَدُّوكُمْ﴾ بفتح الهمزة ، متعلق بالشنآن بمعنى العلة ، والشنآن : شدّة البغض. وقرئ بسكون النون. والمعنى : ولا يكسبنكم بغض قوم لأن صدّوكم الاعتداء ، ولا يحملنكم عليه. وقرئ : إن صدّوكم ، على «إن»

(١) أخرجه الحاكم من طريق جبير بن نفير. قال «دخلت على عائشة. فقالت لي : يا جبير ، تقرأ المائدة؟ فقلت نعم. فقالت : أما إنها آخر سورة نزلت سورة المائدة والفتح. وأشار الترمذي إلى أن المراد بقولها «والفتح» إذا جاء نصر الله. قال : وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما.

الشرطية. وفي قراءة عبد الله. إن يصدوكم. ومعنى صدّهم إياهم عن المسجد الحرام : منع أهل مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين يوم الحديبية عن العمرة ، ومعنى الاعتداء : الانتقام منهم بإلحاق مكروه بهم ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ على العفو والإغضاء ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ على الانتقام والتشفي. ويجوز أن يراد العموم لكل برّ وتقوى وكل إثم وعدوان ، فيتناول بعمومه العفو والانتصار.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَخُمُ الْحَنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فِسْقُ الْيَوْمِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣)

كان أهل الجاهلية يأكلون هذه المحرمات : البهيمة التي تموت حتف أنفها ، والفصيد وهو الدم في المباعر ^(١) ، يشوونها ويقولون : لم يحرم من فزد له ﴿وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أى رفع الصوت به لغير الله ، وهو قولهم : باسم اللات والعزى عند ذبحه ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ التي خنقوها حتى ماتت ، أو انخفت بسبب ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ التي أثخنوها ضربا بعضا أو حجر حتى ماتت ﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾ التي تردت من جبل أو في بئر فماتت ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ التي نطحتها أخرى فماتت بالنطح ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ بعضه ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ إلا ما أدركتم ذكاته وهو يضطرب اضطراب المذبوح وتشخب أوداجه. وقرأ عبد الله : والمنطوحة. وفي رواية عن أبي عمرو ﴿السَّبُعُ﴾ بسكون الباء. وقرأ ابن عباس : وأكيل السبع ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت يذبحون عليها ويشرحون اللحم عليها ، يعظمونها بذلك ويتقربون به إليها ، تسمى الأنصاب ، والنصب واحد. قال الأعشى :

وَذَا النَّصْبِ الْمَنْصُوبِ لَا تَعْبُدُهُ
لِعَاقِبَةِ اللَّهِ رَبِّكَ فَاعْبُدْهُ (٢)

(١) قوله «وهو الدم في المباعر» المباعر : الأمعاء يجعل فيها الدم بعد فصدته ويشوى للضيف. وقولهم «لم يحرم ... الخ» جار مجرى الأمثال. و «فزد» مبنى للمجهول ، أصله «فصد» فسكنت صاده تخفيفا ثم قلبت زاياء. انتهى. (ع)

(٢) وذا النصْب المنصُوب لا تعبدُنه
وصل على حنين العشريات والضحي
لعاقبة الله ربك فاعبداه
ولا تحمد الشيطان والله فاحمداه

وقيل : أريد يوم نزولها ، وقد نزلت يوم الجمعة ، وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع ﴿يُنَسِّسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ يؤسوا منه أن يطلوه وأن ترجعوا محللين لهذه الخبائث بعد ما حرمت عليكم. وقيل : يؤسوا من دينكم أن يغلبوه ؛ لأن الله عز وجل وفي بوعده من إظهاره على الدين كله ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ بعد إظهار الدين وزوال الخوف من الكفار وانقلابهم مغلوبين مقهورين بعد ما كانوا غالبين ﴿وَإِخْشَوْنِي﴾ وأخلصوا لي الخشية ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ كفيتكم أمر عدوكم ، وجعلت اليد العليا لكم ، كما تقول الملوك : اليوم كمل لنا الملك وكمل لنا ما نريد ، إذا كفوا من ينازعهم الملك ووصلوا إلى أغراضهم ومباغيتهم. أو أكملت لكم ما تحتاجون إليه في تكليفكم من تعليم الحلال والحرام والتوقيف على الشرائع وقوانين القياس وأصول الاجتهاد ﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بفتح مكة ودخولها آمنين ظاهرين ، وهدم منار الجاهلية ومناسكهم وأن لم يحج معكم مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان. أو أتممت نعمتي عليكم بإكمال أمر الدين والشرائع كأنه قال : اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي بذلك ، لأنه لا نعمة أتم من نعمة الإسلام ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ يعني اخترته لكم من بين الأديان ، وأذنتكم بأنه هو الدين المرضي وحده ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ، ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾. فإن قلت : بم اتصل قوله ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾؟ قلت : بذكر المحرمات. وقوله : ﴿ذَلِكَمْ فِسْقٌ﴾ اعتراض أكد به معنى التحريم ، وكذلك ما بعده ؛ لأن تحريم هذه الخبائث من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والإسلام المنعوت بالرضا دون غيره من الملل. ومعناه : فمن اضطرَّ إلى الميتة أو إلى غيرها ﴿فِي مَحْمَصَةٍ﴾ في جماعة ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ غير منحرف إليه ، كقوله : ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لا يؤاخذ به بذلك.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾

. عن بلوغه غاية الشيب ، وأما المسرية بالفتح فقط فهي مخرج الغائط. و «من نأبي» حال مقدمة. و «من» تبعية. و «الجدم» أصل الشيء ، كأن أنياه تفتتت حتى لم يبق إلا أصولها. ويجوز أن المعنى : أنها سقطت وبقي محلها من اللحم ، وهو أيضا كناية عما تقدم توكيد له في المعنى. و «حلبت هذا الدهر» أى جمعت ما فيه من الحوادث وجريتها. و «أشطره» نواحيه وجوانبه ؛ فكأنه شبه الزمان بمكان له جوانب على طريق الكناية ، وإثبات الأشرط تخييل ، وهو نصب على البدلية. والأشطر أيضاً : نصف ضرع الناقة : فيه خالفان ، وفي النصف الآخر خالفان. فشبه الدهر بناقة على طريق المكنية ، وإثبات الأشرط تخييل. وحلبها ترشيح. وهذا أوجه وأقرب من الأول. وأشطره : نصب على البدلية أيضاً. ويمكن أن حلب مضاعف للتعدية لا للمبالغة. فالمعنى: جعلت الدهر يحلب لي ما أشطره ويجمع لي ما فيها من الغرائب والعجائب. وقيل : المراد بأشطره أنواع الخير والشر. وأتيت : أى فعلت ؛ لأن من يفعل الشيء لا بد من توجه جسمه وقلبه إليه. والمعنى : صارت عادتي أني أفعل ما أفعله على علم عندي ، من طول تجربتي لحوادث الدهر.

مُكَلِّبِينَ تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾

في السؤال معنى القول ، فلذلك وقع بعده ﴿**مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ**﴾ كأنه قيل : يقولون لك ما ذا أحلّ لهم. وإنما لم يقل : ما ذا أحلّ لنا ، حكاية لما قالوه لأنّ يسألونك بلفظ الغيبة ، كما تقول أقسم زيد ليفعلن. ولو قيل : لأفعلن وأحلّ لنا ، لكان صوابا. و «ما ذا» مبتدأ ، و ﴿**أَحَلَّ لَهُمْ**﴾ خبره كقولك : أى شيء أحلّ لهم؟ ومعناه : ما ذا أحلّ لهم من المطاعم كأنهم حين تلا عليهم ما حرّم عليهم من خبيثات المأكّل سألوا عما أحلّ لهم منها ، فقيل : ﴿**أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ**﴾ أى ما ليس بخبيث منها ، وهو كل ما لم يأت تحرّمه في كتاب أو سنة أو قياس مجتهد. ﴿**وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ**﴾ عطف على الطيبات ^(١) أى أحلّ لكم الطيبات وصيد ما علمتم فحذف المضاف. أو تجعل ﴿**مَا**﴾ شرطية ، وجوابها ﴿**فَكُلُوا**﴾ والجوارح : الكواسب من سباع البهائم والطيور ، كالكلب والفهد والنمر والعقاب والصقر والبازي والشاهين. والمكلب : مؤدّب الجوارح ومضربها بالصيد لصاحبها ، ورائضها لذلك بما علم من الحيل وطرق التأديب والتثقيف ، واشتقاقه من الكلب ، لأنّ التأديب أكثر ما يكون في الكلاب فاشتقّ من لفظه لكثرة من جنسه. أو لأنّ السبع يسمى كلباً. ومنه قوله عليه السلام «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك» ^(٢) فأكله الأسد. أو من الكلب الذي هو بمعنى الضراوة. يقال : هو كلب بكذا ، إذا كان ضارياً به. وانتصاب ﴿**مُكَلِّبِينَ**﴾ على الحال من علمتم. فإن قلت. ما فائدة هذه الحال وقد استغنى عنها بعلمتم؟ قلت : فائدتها أن يكون من يعلم الجوارح نخبراً في علمه مدرّباً فيه ، موصوفاً بالتكليب. و ﴿**تَعْلَمُونَهُنَّ**﴾ حال ثانية أو استئناف. وفيه فائدة جليّة ^(٣) وهي أن على كلّ آخذ علماً أن لا يأخذه إلا من أقتل أهله علماً وأنحرهم دراية وأغوصهم على لطائفه وحقائقه ، وإن احتاج إلى أن يضرب إليه أكباد الإبل. فكم من آخذ عن غيره متقن ، قد ضيع أيامه وعضّ عند لقاء النحارير أنامله ﴿**مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ**﴾ من علم التكليب ، لأنه إلهام من الله ومكتسب بالعقل. أو مما عرفكم أن تعلموه من اتباع الصيد بإرسال صاحبه ، وانزجاره بزجره. وانصرافه بدعائه ، وإمساك الصيد عليه وأن لا يأكل منه.

(١) قال محمود رحمه الله تعالى : «وما علمتم عطفاً على الطيبات ... الخ» قال أحمد رحمه الله تعالى : ولقد أحسن في التنبيه على هذا السر الخفي غير أن الحال بأصالتها منتقلة غير لازمة ومقتضى هذا التقرير جعلها من الصفات اللازمة لمعلم الجوارح الثابتة له.

(٢) هو طرف من حديث أخرجه الحاكم. وسيأتى بتمامه في سورة النجم.

(٣) عاد كلامه قال : «وفي قوله تعلمونهنّ مما علمكم الله فائدة جليّة ... الخ» قال أحمد : وفي الآية دليل على أن البهائم لها علم لأنّ تعليمها معناه لغة تحصيل العلم لها بطرقه خلافاً لمنكري ذلك.

وقرئ ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ بالتخفيف. وأفعِل وفعل يشتركان كثيراً. والإمساك على صاحبه أن لا يأكل منه ، لقوله عليه السلام لعديّ بن حاتم «وإن أكل منه فلا تأكل إنما أمسك على نفسه» ^(١) وعن على رضى الله عنه : إذا أكل البازي فلا تأكل ^(٢). وفرق العلماء ، فاشتروا في سباع البهائم ترك الأكل لأنها تؤدّب بالضرب ، ولم يشترطوه في سباع الطير. ومنهم من لم يعتبر ترك الأكل أصلاً ولم يفرق بين إمساك الكل والبعض. وعن سلمان ، وسعد بن أبي وقاص ، وأبي هريرة رضى الله عنهم : إذا أكل الكلب ثلثيه وبقي ثلثه وذكرت اسم الله عليه فكل ^(٣). فإن قلت : إلام رجع الضمير في قوله ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾؟ قلت. إما أن يرجع إلى ما أمسكن على معنى وسموا عليه إذا أدركتم ذكاته ، أو إلى ما علمتم من الجوارح. أى سموا عليه عند إرساله.

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٥)

﴿طَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ قيل : هو ذبائحهم. وقيل : هو جميع مطاعمهم. ويستوي في ذلك جميع النصارى. وعن على رضى الله عنه : أنه استثنى نصارى بنى تغلب وقال : ليسوا على النصرانية ولم يأخذوا منها إلا شرب الخمر ^(٤) ، وبه أخذ الشافعي. وعن ابن عباس أنه سئل عن ذبائح نصارى العرب فقال : لا بأس ^(٥). وهو قول عامة التابعين ، وبه أخذ أبو حنيفة

(١) متفق عليه من حديث عدى بن حاتم.

(٢) لم أجده.

(٣) حديث سلمان أخرجه ابن أبي شيبة وعبد الرزاق من طريق قتادة عن سعيد بن المسيب عن سلمان في الكلب يرسل على الصيد إن أكل ثلثيه فكل الثلث الباقي. وحديث أبي هريرة كذلك رواه ابن أبي شيبة من طريق الشعبي عنه قال «إذا أرسلت كلبك فأكله فكل وإن أكل ثلثه» وحديث سعد ابن أبي وقاص كذلك أخرجه ابن أبي شيبة من رواية بكر بن الأشج عن حميد بن مالك عن سعد في الصيد يرسل عليه الكلب قال : كله وإن لم يبق منه إلا بضعة منه.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة من رواية إبراهيم النخعي عن على. وهو منقطع. وأخرجه الشافعي وعبد الرزاق موصولاً من رواية عبيدة عن على رضى الله عنه.

(٥) أخرجه في الموطأ عن ثور عن ابن عباس بهذا. وهو منقطع. ثور لم يلق ابن عباس. وإنما أخذه عن عكرمة فحذفه مالك. وروى ابن أبي شيبة من طريق عطاء بن السائب عن عكرمة عن ابن عباس. قال «كلوا ذبائح بنى تغلب وتزوجوا نساءهم».

وأصحابه. وحكم الصابئين حكم أهل الكتاب عند أبي حنيفة. وقال صاحبه : هم صنفان : صنف يقرؤون الزبور ويعبدون الملائكة. وصنف لا يقرؤون كتابا ويعبدون النجوم ؛ فهؤلاء ليسوا من أهل الكتاب. وأما المجوس فقد سَنَّ بهم سنة أهل الكتاب في أخذ الجزية منهم دون أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم. وقد روى عن أبي المسيب أنه قال : إذا كان المسلم مريضاً فأمر المجوسي أن يذكر اسم الله ويدبح فلا بأس. وقال أبو ثور : وإن أمره بذلك في الصحة فلا بأس وقد أساء ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ هُمْ﴾ فلا عليكم أن تطعموهم ^(١) ، لأنه لو كان حراما عليهم طعام المؤمنين لما ساء لهم إطعامهم. ﴿الْمُحْصَنَاتُ﴾ الحرائر أو العفائف. وتخصيصهن بعث على تخير المؤمنين لنظفهم والإماء من المسلمات يصح نكاحهن بالاتفاق ، وكذلك نكاح غير العفائف منهن ، وأما الإماء الكتانيات ، فعند أبي حنيفة : هن كالمسلمات ، وخالفه الشافعي ، وكان ابن عمر لا يرى نكاح الكتانيات ، ويحتج بقوله «ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن» ويقول : لا أعلم شركاً أعظم من قولها : إن ربها عيسى. وعن عطاء : قد أكثر الله المسلمات ، وإنما رخص لهم يومئذ ﴿مُحْصِنِينَ﴾ أعفاء ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ صدائق ، والخذن يقع على الذكر والأنثى ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾ بشرائع الإسلام وما أحلّ الله وحرم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٦)

(١) قال محمود : «معناه فلا عليكم أن تطعموهم ... الخ» قال أحمد : وقد يستدل بهذه الآية من يرى الكفار مخاطبين بفروع الشريعة ، لأن التحليل حكم ، وقد علقه بهم في قوله : ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ هُمْ﴾ كما علق الحكم بالمؤمنين. وهذه الآية أبين في الاستدلال بها من قوله : ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَكُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ هُنَّ﴾ فان لقائل أن يقول في تلك الآية : نفى الحكم ليس بحكم ، ولا يستطيع ذلك في آية المائدة هذه : لأن الحكم فيها مثبت والله أعلم. ولما استشعر الزمخشري دلالتها على ذلك وهو من القائلين بأن الكفار يستحيل خطابهم بفروع الشريعة ، أسلف تأويلها بصرف الخطاب إلى المؤمنين ، أى لا جناح عليكم أيها المسلمون أن تطعموا أهل الكتاب ، كما رأيته في كلامه أيضا.

﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ كقوله «فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله»^(١) وكقولك : إذا ضربت غلامك فهوّن عليه ، في أن المراد إرادة الفعل. فإن قلت : لم جاز أن يعبر عن إرادة الفعل بالفعل؟ قلت: لأن الفعل يوجد بقدرة الفاعل عليه وإرادته له وهو قصده إليه وميله وخلوص داعيه ، فكما عبر عن القدرة على الفعل بالفعل في قولهم : الإنسان لا يطير ، والأعمى لا يبصر ، أى لا يقدران على الطيران والإبصار. ومنه قوله تعالى : ﴿نُعِيدُهُ وَعَدّاً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ يعنى إنا كنا قادرين على الإعادة ، كذلك عبر عن إرادة الفعل بالفعل ، وذلك لأنّ الفعل مسبب عن القدرة والإرادة ، فأقيم المسبب مقام السبب للملابسة بينهما ، ولإيجاز الكلام ونحوه من إقامة المسبب مقام السبب قولهم : كما تدين تدان ، عبر عن الفعل المبتدأ الذي هو سبب الجزاء بلفظ الجزاء الذي هو مسبب عنه. وقيل : معنى قمتم إلى الصلاة قصدتموها ؛ لأنّ من توجه إلى شيء وقام إليه كان قاصداً له لا محالة ، فعبر عن القصد له بالقيام إليه. فإن قلت : ظاهر الآية يوجب الوضوء على كل قائم إلى الصلاة^(٢) محدث وغير محدث ، فما وجهه؟ قلت : يحتمل أن يكون الأمر للوجوب ، فيكون الخطاب للمحدثين خاصة ، وأن يكون للندب. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء بعده ، أنهم كانوا يتوضئون لكل صلاة^(٣). وعن النبي صلى الله عليه وسلم «من توضأ على طهر كتب الله له عشر حسنات^(٤). وعنه عليه السلام : أنه كان يتوضأ لكل صلاة^(٥). فلما كان يوم الفتح مسح

-
- (١) قال محمود : «قوله إذا قمتم كقوله فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ... الخ» قال أحمد هذا الكلام يستقيم وروده من السنن ، كما يستقيم من المعتزلي لأننا نقول : الفعل يوجد بقدرة العبد ملتبساً بها ومقارناً لها ، والمعتزلي يقوله ويعنى مخلوقاً بها وناشئاً عن تأثيرها ، فالعبارة مستعملة في المذهبين ولكن باختلاف المعنى ، والله الموفق.
- (٢) عاد كلامه. قال : «فان قلت : ظاهر الآية يوجب الوضوء على كل قائم ... الخ» قال أحمد : الزمخشري أنكر أن يراد بالمشترك كل واحد من معانيه على الجمع ، وقد سبق له إنكار ذلك ومن جوز إرادة جميع المحامل أجاز ذلك في الآية ، ومن المجوزين لذلك الشافعي رحمه الله تعالى. وناهيك بإمام الفن وقُدوته. هذا إذا وقع البناء على أن صيغة «أفعل» مشتركة بين الوجوب والندب صح تناولها في الآية للفريقين المحدثين والمتطهرين ، وتناولها للمتطهرين من حيث الندب ، والله أعلم.
- (٣) أخرجه البخاري من رواية عمرو بن عامر عن أنس بلفظ «عند كل» وزاد «قلت : كيف كنتم تصنعون قال : يجزئ أحدنا الوضوء ما لم يحدث ، والترمذي من رواية حميد عن أنس نحوه ، وزاد «طاهراً وغير طاهر» ولمسلم من حديث يزيد «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتوضأ لكل صلاة ، فلما كان يوم الفتح صلى الصلوات بوضوء واحد. فقال له عمر : فعلت شيئاً لم تكن تفعله ، قال : قد فعلته يا عمر» وسيأتى بعد قليل ، ولأبي داود والحاكم وأحمد من حديث أسماء بنت زيد بن الخطاب عن عبد الله بن حنظلة بن الغسيل «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أمر بالوضوء عند كل صلاة طاهراً أو غير طاهر. فلما شق ذلك عليه أمر بالسواك» وقوله : «وكان الخلفاء بعد النبي صلى الله عليه وسلم يتوضئون لكل صلاة : أخرجه ابن أبي شيبة والطبري من رواية أبي عوانة عن محمد بن سيرين قال : «كان الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم يتوضئون لكل صلاة».
- (٤) أخرجه أصحاب السنن إلا النسائي من حديث ابن عمر رضى الله عنهما. قال الترمذي : إسناده ضعيف.
- (٥) تقدم التنبيه عليه وأن مسلماً أخرجه دون ذكر المسح. وكذلك أخرجه أصحاب السنن.

فإن قلت : فما تصنع بقراءة الجر ودخولها في حكم المسح؟ قلت : الأرجل من بين الأعضاء الثلاثة المغسولة تغسل بصب الماء عليها ، فكانت مظنة للإسراف المذموم المنهي عنه ، فعطفت على الثالث الممسوح لا لتمسح ، ولكن لينبه على وجوب الاقتصاد في صب الماء عليها. وقيل ﴿إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ فجيء بالغاية إمطة لظنّ ظانّ يحسبها ممسوحة ، لأن المسح لم تضرب له غاية في الشريعة. وعن علي رضي الله عنه : أنه أشرف على فتية من قریش فرأى في وضوئهم تجوزاً ، فقال : ويل للأعقاب من النار ، فلما سمعوا جعلوا يغسلونها غسلًا ويدلكونها دلكًا. وعن ابن عمر : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتوضأ قوم وأعقابهم بيض تلوح فقال : «ويل للأعقاب من النار^(١)» وفي رواية جابر «ويل للعراقيب^(٢)» وعن عمر أنه رأى رجلاً يتوضأ فترك باطن قدميه ، فأمره أن يعيد الوضوء ، وذلك للتغليظ عليه^(٣). وعن عائشة رضي الله عنها لأن تقطعا أحب إلى من أن أمسح على القدمين بغير خفين^(٤). وعن عطاء : والله ما علمت أن أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مسح على القدمين^(٥). وقد ذهب بعض الناس إلى ظاهر العطف فأوجب المسح. وعن الحسن : أنه جمع بين الأمرين. وعن الشعبي : نزل القرآن بالمسح والغسل سنة. وقرأ الحسن : وأرجلكم ، بالرفع بمعنى وأرجلكم مغسولة أو ممسوحة إلى الكعبين. وقرأ ﴿فَاطَّهَّرُوا﴾ أى

-
- (١) متفق عليه من طريق يوسف بن ماهك عن عبد الله بن عمرو قال «خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم عنا في سفرة فأدركنا. فذكره. وفيه : وأعقابهم تلوح» ولمسلم «رجعنا مع النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة» ولأبي نعيم في المستخرج «وأعقابهم تلوح» ولمسلم «رجعنا مع النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ولأبي نعيم في المستخرج : وأعقابهم بيض تلوح (تنبيه) لم أره من حديث ابن عمر ، وكأنه تحرف على صاحب الكتاب ، أو بعض من أخذه عنه.
- (٢) أخرجه ابن ماجه وأحمد وابن أبي شيبة وإسحاق وأبو يعلى من رواية أبي إسحاق عن سعيد بن أبي كريب عن جابر وهي عند مسلم من حديث أبي هريرة. وللنسائي في حديث عبد الله بن عمرو المذكور ولأبي يعلى من حديث عائشة. ولسعيد بن منصور من حديث أبي ذر رضي الله عنه
- (٣) أخرجه ابن أبي شيبة وعبد الرزاق من رواية أبي قلابة «أن عمر رأى رجلاً يتوضأ فبقى في رجله قدر ظفر. فقال : أعد الوضوء» وهو منقطع. ورواه البيهقي موصولاً من طريق الثوري عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر «أن عمر رأى رجلاً» فذكره بلفظ «لمعة» وقد روى مرفوعاً. أخرجه أحمد وأبو داود من رواية خالد بن معدان عن بعض الصحابة «أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً وفي ظهر قدمه لمعة قدر الدرهم لم يصبها الماء فأمره أن يعيد الوضوء والصلاة. وقال الأثرم عن أحمد : إسناده جيد. وقال أبو داود : هو مرسل. وتعقبه ابن دقيق العيد بأن عدم ذكر اسم الصحابي حدثه. وهو موصوف بكثرة الإرسال (تنبيه) قوله «تغليظاً عليه» من كلام صاحب الكشاف. وفيه نظر ، لاحتمال أن يكون المراد بقوله «أعد الوضوء» أى اغسل رجلك من إطلاق الكل وإرادة البعض. وأما الذي في المرفوع فيحتمل أن يكون الأمر المذكور بعد أن أحدث الرجل
- (٤) أخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية من رواية القاسم عنها دون قوله «بغير خفين» وفي إسناده محمد بن مهاجر البغدادي ، رادعي ابن الجوزي أنه وضعه.
- (٥) لم أجده.

فطهروا أبدانكم ، وكذلك ليطهركم. وفي قراءة عبد الله : فأَمُوا صعيداً ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ في باب الطهارة ، حتى لا يرخص لكم في التيمم ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ بالتراب إذا أعوزكم التطهر بالماء ﴿وَلِيَتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ وليتم برخصه إنعامه عليكم بعزائمه ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته فيثيبكم.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٧)

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ وهي نعمة الإسلام ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾ أى عاقدكم به عقداً وثيقاً هو الميثاق الذي أخذه على المسلمين حين بايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في حال اليسر والعسر والمنشط والمكره فقبلوا وقالوا : سمعنا وأطعنا. وقيل : هو الميثاق ليلة العقبة وفي بيعة الرضوان.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٨) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠)

عدى ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ بحرف الاستعلاء مضمناً معنى فعل يتعدى به ، كأنه قيل : ولا يحملنكم. ويجوز أن يكون قوله : ﴿أَنْ تَعْتَدُوا﴾ بمعنى على أن تعتدوا ، فحذف مع أن ونحوه قوله عليه السلام :

«من اتبع على مليء فليتبع»^(١) لأنه بمعنى أحيل. وقرئ ﴿شَنَاَنُ﴾ بالسكون. ونظيره في المصادر «ليان» والمعنى : لا يحملنكم بغضكم للمشركين على أن تتركوا العدل فتعتدوا عليهم بأن تنتصروا منهم وتتشفوا بما^(٢) في قلوبكم من الضغائن بارتكاب ما لا يحل لكم من مثله أو قذف أو قتل أولاد أو نساء أو نقض عهد أو ما أشبه ذلك ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ ناهم أولاً أن تحملهم البغضاء

(١) متفق عليه من حديث الأعرج عن أبي هريرة بلفظ «وإذا اتبع أحدكم على مليء فليتبع» وفي رواية لأحمد «وإذا أحيل أحدكم على مليء فليحتل» وبهذا اللفظ أخرجه البزار من حديث ابن عمر رضى الله عنهما.

(٢) قوله «وتتشفوا بما في قلوبكم» لعله مما. (ع)

على ترك العدل ، ثم استأنف فصّرّح لهم بالأمر بالعدل تأكيداً وتشديداً ، ثم استأنف فذكر لهم وجه الأمر بالعدل وهو قوله : ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ أى العدل أقرب إلى التقوى ، وأدخل في مناسبتها. أو أقرب إلى التقوى لكونه لطفاً فيها. وفيه تنبيه عظيم على أن وجود العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله إذا كان بهذه الصفة من القوة ، فما الظنّ بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه؟ ﴿هُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ بيان للوعد بعد تمام الكلام قبله ، كأنه قال : قدّم لهم وعداً فقليل : أى شيء وعده لهم؟ فقليل : لهم مغفرة وأجر عظيم. أو يكون على إرادة القول بمعنى وعدهم وقال لهم مغفرة. أو على إجراء وعد مجرى قال : لأنه ضرب من القول. أو يجعل وعد واقعاً على الجملة التي هي لهم مغفرة ، كما وقع (تركنا) على قوله : ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ﴾ كأنه قيل : وعدهم هذا القول وإذا وعدهم من لا يخلف الميعاد هذا القول ، فقد وعدهم مضمونه من المغفرة والأجر العظيم.

وهذا القول يتلقون به عند الموت ويوم القيامة ، فيسرون به ويستروحون إليه ويهوّن عليهم السكرات والأهوال قبل الوصول إلى الثواب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١١)

روى أن المشركين رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه قاموا إلى صلاة الظهر يصلون معا ، وذلك بعسفان في غزوة ذى أمار. فلما صلوا ندموا أن لا كانوا أكبوا عليهم ، فقالوا : إنّ لهم بعدها صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم ، يعنون صلاة العصر وهموا بأن يوقعوا بهم إذا قاموا إليها. فنزل جبريل بصلاة الخوف ^(١). وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بنى قريظة ومعه الشيخان وعليّ رضى الله عنهم يستقرضهم دية مسلمين قتلها عمرو بن أمية الضمري خطأ يحسبهما مشركين ، فقالوا : نعم يا أبا القاسم ، اجلس حتى نطعمك ونقرضك ، فأجلسوه في

(١) أخرجه الطبري من رواية النضر بن عمر عن عكرمة عن ابن عباس بتغير فيه ، ولفظه قال «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة. فلقي المشركين بعسقلان ، فلما صلى الظهر فرأوه يركع ويسجد قال بعضهم لبعض: كان فرصة لكم لو أغرتم عليهم ما علوا بكم قال قائل منهم : فان لهم صلاة أخرى» والباقي نحوه. وأصله في مسلم من رواية أبي الزبير عن جابر «غزونا مع النبي صلى الله عليه وسلم قوما من جهينة فقاتلونا قتالا شديداً فلما صلينا الظهر قال المشركون : لو ملنا عليهم لاقتطعناهم فقالوا : إنهم سيأتيهم صلاة هي أحب إليهم من الأولى فأخبر جبريل النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر ذلك لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما حضرت العصر صففنا صفين . الحديث» وللترمذي والنسائي من طريق عبد الله بن شقيق عن أبي هريرة نحوه.

صفة وهموا بالفتك به ، وعمد عمرو بن جحاش إلى رجا عظيمة يطرحها عليه ، فأمسك الله يده ونزل جبريل فأخبره ، فخرج^(١). وقيل : نزل منزلا وتفرق الناس في العضاه يستظلون بها ، فعلق رسول الله صلى الله عليه وسلم سلاحه بشجرة ، فجاء أعرابي فسل سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل عليه فقال : من يمنعك مني؟ قال : الله ، قالها ثلاثا ، فشام الأعرابي السيف^(٢) فصاح رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه فأخبرهم ، وأبى أن يعاقبه^(٣). يقال : بسط إليه لسانه إذا شتمه ، وبسط إليه يده إذا بطش به ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾ ومعنى «بسط اليد» مدها إلى المبطوش به. ألا ترى إلى قولهم : فلان بسيط الباع ، ومديد الباع ، بمعنى. ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ فمنعها أن تمتد إليكم.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣)

(١) أخرجه ابن إسحاق في المغازي ومن طريقه البيهقي وأبو نعيم في الدلائل. قال : حدثني والدي إسحاق بن يسار بن المغيرة بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وغيرهما من أهل العلم قالوا : قدم أبو براد عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فذكره مطولا . وفيه قال «ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير يستعينهم في القتيلين اللذين قتلتهما عمرو بن أمية الضمري فيما حدثني يزيد بن رومان قال : كان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف . فلما أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعينهم قالوا : نعم ، اجلس يا أبا القاسم فجلس إلى جانب جدار من بيوتهم ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا . من رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيقتله بها فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك منهم عمرو بن جحاش بن كعب ، فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال . ورسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من أصحابه منهم أبو بكر وعمر وعلي ، فأتاه جبريل من السماء بما أراد القوم فقام وخرج راجعا إلى المدينة ، ثم أمر بحرقهم والمسير إليهم . فسار الناس» (تنبيه) في كلام صاحب الكشاف «أنهما كانا مسلمين» ولم أجد ذلك في شيء من طرقه بل صرح موسى بن عقبة في المغازي أنهما كانا كافرين ، وكان لهما عهد وفي الدلائل لأبي نعيم من حديث ابن عباس : فلقى عمرو بن أمية رجلين من بني كلاب معهما أمان ولم يعلم به فقتلهما».

(٢) قوله «فشام الأعرابي السيف» في الصحاح. شمت السيف أغمدته. وشتمته : سللته وهو من الأضداد. (ع)

(٣) متفق عليه من رواية أبي سلمة عن جابر نحوه. وللبخاري من وجه آخر.

لما استقر بنو إسرائيل بمصر بعد هلاك فرعون أمرهم الله بالمسير إلى أريحاء أرض الشام وكان يسكنها الكنعانيون الجبابرة ، وقال لهم : إني كتبتها لكم داراً قراراً ، فاخرجوا إليها وجاهدوا من فيها ، وإني ناصرکم ، وأمر موسى عليه السلام بأن يأخذ من كل سبط نقيباً يكون كفيلاً على قومه بالوفاء بما أمروا به توثقه عليهم ، فاختر النقباء وأخذ الميثاق على بنى إسرائيل ، وتكفل لهم به النقباء وسار بهم ، فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون ، فأروا أجراماً عظيمة وقوة وشوكة فهابوا ورجعوا وحدثوا قومهم وقد نأههم موسى عليه السلام أن يحدثوهم ، فنكثوا الميثاق ، إلا كالب بن يوفنا من سبط يهوذا ، ويوشع بن نون من سبط أفرايم بن يوسف ، وكانا من النقباء. والنقيب : الذي ينقب عن أحوال القوم ويفتش عنها ، كما قيل له : عريف ، لأنه يتعرفها ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أى ناصرکم ومعينکم ﴿عَزَّزْتُهُمْ﴾ نصرتهم ومنعتموهم من أيدى العدو. ومنه التعزير ، وهو التنكيل والمنع من معاودة الفساد. وقرئ بالتخفيف يقال : عززت الرجل إذا حطته وكنته. والتعزير والتأزير من واد واحد. ومنه : لأنصرك نصرّاً مؤزراً ، أى قويا. وقيل معناه : ولقد أخذنا ميثاقهم بالإيمان والتوحيد وبعثنا منهم اثني عشر ملكاً يقيمون فيهم العدل ويأمروهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر. واللام في ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمْ﴾ موطئة للقسم وفي ﴿لَا تُكْفِرُون﴾ جواب له ، وهذا الجواب سادّ مسدّد جواب القسم والشرط جميعاً ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ بعد ذلك الشرط المؤكد المعلق بالوعد العظيم. فإن قلت : من كفر قبل ذلك أيضاً فقد ضلّ سواء السبيل. قلت : أجل ، ولكن الضلال بعده أظهر وأعظم ، لأنّ الكفر إنما عظم قبحه لعظم النعمة المكفورة ، فإذا زادت النعمة زاد قبح الكفر وتمادى ﴿لَعَنَاهُمْ﴾ طردناهم وأخرجناهم من رحمتنا. وقيل : مسخناهم. وقيل : ضربنا عليهم الجزية ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ خذلناهم ومنعناهم الألفاف حتى قست قلوبهم. أو أملينا لهم ولم نعاجلهم بالعقوبة حتى قست. وقرأ عبد الله : قسية ، أى ردية مغشوشة ، من قولهم : درهم قسى وهو من القسوة ؛ لأنّ الذهب والفضة الخالصين فيهما لين والمغشوش فيه ييس وصلابة ، والقاسي والقاسح . بالحاء . أخوان في الدلالة على اليس والصلابة وقرئ : قسية ، بكسر القاف للإتباع ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾ بيان لقسوة قلوبهم ، لأنه لا قسوة أشدّ من الافتراء على الله وتغيير وحيه ﴿وَنَسُوا حَظًّا﴾ وتركوا نصيباً جزيلاً وقسطاً وافياً ﴿بِمَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ من التوراة ، يعنى أن تركهم وإعراضهم عن التوراة إغفال حظ عظيم ، أو قست قلوبهم وفسدت فحرفوا التوراة وزالت أشياء منها عن حفظهم. وعن ابن مسعود رضى الله عنه : قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية ^(١). وتلا هذه الآية. وقيل تركوا نصيب أنفسهم مما أمروا

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد. قال : أخبرنا عبد الرحمن المسعودي عن القاسم عن عبد الله قال «إني لأحسب الرجل ينسى العلم يعلمه بالخطيئة يعملها» وهذا منقطع وكذا أخرجه الدارمي والطبراني.

به من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبيان نعتة ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ﴾ أى هذه عادتهم وهجيراهم وكان عليها أسلافهم كانوا يخونون الرسل وهؤلاء يخونونك ينكثون عهودك ويظاهرون المشركين على حريك ويهمون بالفتك بك وأن يسموك ﴿عَلَى خَائِنَةٍ﴾ على خيانة ، أو على فعلة ذات خيانة ، أو على نفس ، أو فرقة خائنة. ويقال : رجل خائنة ، كقولهم : رجل راوية للشعر للمبالغة. قال :

حَدَّثْتُ نَفْسَكَ بِالْوَفَاءِ وَلَمْ تَكُنْ لِلْعَدْرِ خَائِنَةً مَضَى الْأَصْبُعُ ^(١)

وقرى على خيانة ﴿مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ وهم الذين آمنوا منهم ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ بعث على مخالفتهم. وقيل هو منسوخ بآية السيف. وقيل : فاعف عن مؤمنهم ولا تؤاخذهم بما سلف منهم.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (١٤)

﴿أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ أخذنا من النصارى ميثاق من ذكر قبلهم من قوم موسى ، أى مثل ميثاقهم بالإيمان بالله والرسول وبأفعال الخير. وأخذنا من النصارى ميثاق أنفسهم بذلك. فإن قلت : فهلا قيل : من النصارى؟ ^(٢) قلت : لأنهم إنما سموا أنفسهم بذلك ادعاء لنصرة الله ، وهم الذين قالوا ليعسى : نحن أنصار الله ، ثم اختلفوا بعد : نسطورية ، ويعقوبية ، وملكانية. أنصارا

(١) أقـرـين إنـك لـو رأيت فوارسـى بـعـمـايتين إلى جوانـب صـلـفـع

حـدثت نفسـك بالوفـاء ولم تـكـن للـعـدر خائـنـة مـضـى الأصـبـع

للكلابي ، يخاطب ضيفاً نزل عنده فطمع في جاريته. والهمزة للنداء و «عمائتين» اسم جبلين. و «صلفع» اسم موضع. أى ياقرين لو رأيت فوارسى بجذنين الجبلين ممتدين إلى جوانب صلفع ، لحدثت نفسك بوفاء العهد خوفاً منى كما هو الواجب عليك ، ولم تكن لأجل العدو. أو ولم تكن مجعولا للغدر خائنة ، على أنه خير بعد خبر ، أى كثير الخيانة ، فالتناء للمبالغة كرواية. ولعله كان قد أشار للجارية بإصبعه ، فسمى الإشارة به للخيانة إضلالاً له : ويروى مغل الأصبع بالغين وغل وأغل إذا سرق شيئاً تافهاً ، كأنه جعل أصبعه غالا ، أى سارقاً ، للإشارة به.

(٢) قال محمود : «فان قلت : فهلا قيل من النصارى ... الخ» قال أحمد : وبقيت نكتة في تخصيص هذا الموضع بإسناد النصرانية إلى دعواهم ولم يتفق ذلك في غيره. ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ فالوجه في ذلك والله أعلم أنه لما كان المقصود في هذه الآية ذمهم بنقض الميثاق المأخوذ عليهم في نصرة الله تعالى ، ناسب ذلك أن يصدر الكلام بما يدل على أنهم لم ينصروا الله ولم يفوا بما واثقوا عليه من النصرة ، وما كان حاصل أمرهم إلا التفوه بدعوى النصرة وقولها دون فعلها ، والله أعلم.

للسيطان ^(١) ﴿فَأَعْرَبْنَا﴾ فألصقنا وألزمنا من غرى بالشيء إذا لزمه ولصق به وأغراه غيره. ومنه الغراء الذي يلصق به ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بين فرق النصارى المختلفين. وقيل : بينهم وبين اليهود. ونحوه ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِغَضِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ ، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٦)

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ خطاب لليهود والنصارى ﴿مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ﴾ من نحو صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن نحو الرجم ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ مما تخفونه لا يبينه إذا لم تضطر إليه مصلحة دينية ، ولم يكن فيه فائدة إلا اقتضاء حكم وصفته ^(٢) مما لا بد من بيانه ، وكذلك الرجم وما فيه إحياء شريعة وإماتة بدعة. وعن الحسن : ويعفو عن كثير منكم لا يؤاخذة ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ يريد القرآن ، لكشفه ظلمات الشرك والشك ، ولإبانتها ما كان خافياً عن الناس من الحق. أو لأنه ظاهر الإعجاز ﴿مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ من آمن به ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ طرق السلامة والنجاة من عذاب الله أو سبل الله.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٧)

قولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ﴾ معناه بت القول ، على أن حقيقة الله هو المسيح لا غير. قيل: كان في النصارى قوم يقولون ذلك. وقيل : ما صرحوا به ولكن مذهبهم يؤدّي إليه ، حيث اعتقدوا أنه يخلق ويحيى ويميت ويدبر أمر العالم ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ فمن يمنع من قدرته ومشيتته شيئاً ﴿إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ﴾ من دعوه إلهاً من المسيح وأمه دلالة على أن المسيح عبد مخلوق كسائر العباد. وأراد بعطف ﴿مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ على : ﴿الْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ﴾ أنهما من جنسهم لا تفاوت بينهما

(١) قوله «وملكانية أنصاراً للشيطان» في الخازن فرقة رابعة وهي المرقوسية اه. (ع)

(٢) قوله «إلا اقتضاء حكم وصفته» لعل هنا سقطاً أو تحريفاً أوجب خفاء المعنى فليحرر. (ع)

وبينهم في البشرية ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أى يخلق من ذكر وأنثى ويخلق من أنثى من غير ذكر كما خلق عيسى ^(١) ، ويخلق من غير ذكر وأنثى كما خلق آدم. أو يخلق ما يشاء كخلق الطير على يد عيسى معجزة له ، وكإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، وغير ذلك. فيجب أن ينسب إليه ولا ينسب إلى البشر المجرى على يده.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (١٨)

﴿أَبْنَاءُ اللَّهِ﴾ أشياع ابني الله عزير والمسيح ^(٢) ، كما قيل لأشياع أبي خبيب وهو عبد الله بن الزبير «الحبيبون» وكما كان يقول رهط مسيلمة : نحن أنبياء الله. ويقول أقرباء الملك وذووه وحشمه : نحن الملوك. ولذلك قال مؤمن آل فرعون : لكم الملك اليوم ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ فإن صح أنكم أبناء الله وأحبائه فلم تذبون وتعذبون بذنوبكم فتمسخون وتمسكم النار أياما معدودات على زعمكم. ولو كنتم أبناء الله ، لكنتم من جنس الأب ، غير فاعلين للقبائح ولا مستوجبين للعقاب. ولو كنتم أحباءه ، لما عصيتموه ولما عاقبكم ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ﴾ من جملة من خلق من البشر ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ وهم أهل الطاعة ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ وهم العصاة ^(٣).

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٩)

﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ إما أن يقدّر المبين وهو الدين والشرائع ، وحذفه لظهور ما ورد الرسول

(١) قوله «كما خلق عيسى» في النسفي : ويخلق من ذكر من غير أنثى ، كما خلق حواء من آدم. (ع)

(٢) قال محمود : «معنى قولهم أبناء الله أشياع ابني الله عزير ... الخ» قال أحمد : ومنه قول الملائكة لأهم خواص عباد الله ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ﴾ إلى قوله : ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّمَا لِمَنِ الْغَابِرِينَ﴾ فأضافوا التقدير إليهم ، وفي الحقيقة المقدر الله «وكذلك قول الدابة . لأنها من خواص آيات الله . : ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ فيمن جعله من قول الدابة ، والله أعلم.

(٣) قال محمود : «يعنى أهل الطاعة ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ قال : يعنى العصاة» قال أحمد رحمه الله : بل مشيئة الله تعالى تسع التائب المنيب ، والعاصي المصّر إذا كان موحداً. والزمخشري أخرج هذا التفسير على قاعدته المتكررة في غير ما موضع ، وهي القطع بوعيد العصاة المصيرين الموحدين ، وأن المغفرة لهم محال.

لتبيينه. أو يقدر ما كنتم تخفون ، وحذفه لتقدم ذكره. أو لا يقدر ويكون المعنى. ييذل لكم البيان ، ومحله النصب على الحال ، أى مبيناً لكم. و ﴿على فترة﴾ متعلق بجاءكم ، أى جاءكم على حين فتور من إرسال الرسل وانقطاع من الوحي ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ كراهة أن تقولوا ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ متعلق بمحذوف ، أى لا تعتذروا فقد جاءكم. وقيل : كان بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما خمسمائة وستون سنة. وقيل : ستمائة. وقيل : أربعمائة ونيف وستون. وعن الكلبي : كان بين موسى وعيسى ألف وسبعمائة سنة وألف نبي وبين عيسى ومحمد صلوات الله عليهم أربعة أنبياء. ثلاث من بنى إسرائيل ، وواحد من العرب : خالد بن سنان العبسي. والمعنى : الامتنان عليهم ، وأن الرسول بعث إليهم حين انطمست آثار الوحي أحوج ما يكون إليه ، ليهشوا إليه ويعدّوه أعظم نعمة من الله ، وفتح باب إلى الرحمة ، وتلزمهم الحجة فلا يعتلوا غداً بأنه لم يرسل إليهم من ينبهم عن غفلتهم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤)﴾
﴿جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ لأنه لم يبعث في أمة ما بعث في بنى إسرائيل من الأنبياء ^(١) ﴿وَجَعَلَكُمْ

(١) قال محمود : «لم يبعث في أمة ما بعث في بنى إسرائيل من الأنبياء ... الخ» قال أحمد : والحامل على تفسير الملك بهذه التفسير أن الله تعالى أنبأ في ظاهر الكلام أنه جعل الجميع ملوكا بقوله : ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ ولم يقل (وجعل فيكم ملوكا) كما قال : ﴿جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ فلما عمم الملك فيهم ، ولا شك أن الملك . المعهود هو الاستيلاء العام . لم يثبت لكل أحد منهم ، فيتعين حمل الملك على ما كان ثابتا لجميعهم أو لأكثرهم من الأبعاد المذكورة. هذا هو الباعث على تفسير الملك بذلك ، والله أعلم. وهذا المعنى وإن لم يثبت لكل واحد منهم إلا أنه كان ثابتا

مُلُوكًا ﴿لأنه ملكهم بعد فرعون ملكه ، وبعد الجبابرة ملكهم ؛ ولأنّ الملوك تكاثروا فيهم تكاثر الأنبياء. وقيل : كانوا مملوكين في أيدي القبط فأنقذهم الله ، فسمى إنقاذهم ملكا. وقيل : الملك من له مسكن واسع فيه ماء جار. وقيل : من له بيت وخدم. وقيل : من له مال لا يحتاج معه إلى تكلف الأعمال وتحمل المشاق ﴿مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ من فلق البحر ، وإغراق العدو ، وتظليل الغمام ، وإنزال المنّ والسلوى ، وغير ذلك من الأمور العظام ، وقيل : أراد عالمي زمانهم ﴿الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ يعنى أرض بيت المقدس. وقيل : الطور وما حوله. وقيل : الشام. وقيل : فلسطين ودمشق وبعض الأردن. وقيل : سماها الله لإبراهيم ميراثا لولده حين رفع على الجبل ، فقليل له. انظر ، فلك ما أدرك بصرك ، وكان بيت المقدس قرار الأنبياء ومسكن المؤمنين ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قسمها لكم وسماها ، أو خط في اللوح المحفوظ أنها لكم ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ﴾ ولا تنكصوا على أعقابكم مدبرين من خوف الجبابرة جبناً وهلعاً ، وقيل : لما حدثهم النقباء بحال الجبابرة رفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا : ليتنا متنا بمصر. وقالوا : تعالوا نجعل علينا رأساً ينصرف بنا إلى مصر. ويجوز أن يراد : لا ترتدوا على أديباركم في دينكم بمخالفتكم أمر ربكم وعصيانكم نبيكم : فترجعوا خاسرين ثواب الدنيا والآخرة. الجبار «فعال» من جبره على الأمر بمعنى أجبره عليه وهو العاتي الذي يجبر الناس على ما يريد ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ هما كالب ويوشع ﴿مَنْ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ من الذين يخافون الله ويخشونه ، كأنه قيل : رجلان من المتقين. ويجوز أن تكون الواو لبنى إسرائيل والراجع إلى الموصول محذوف تقديره : من الذين يخافهم بنو إسرائيل وهم الجبارون ، وهما رجلان منهم ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالإيمان فآمنا ، قالوا لهم : إن العمالقة أجسام لا قلوب فيها ، فلا تخافوهم وازحفوا إليهم فإنكم غالبوهم ، يشجعانهم على قتالهم. : وقراءة من قرأ : يخافون ، بالضم شاهدة له : وكذلك أنعم الله عليهما ، كأنه قيل : من الخوفين. وقيل : هو من الإخافة ، ومعناه من الذين يخوفون من الله بالتذكرة والموعظة. أو يخوّفهم وعيد الله بالعقاب. فإن قلت : ما محل أنعم الله عليهما؟ قلت : إن انتظم مع قوله «من الذين يخافون» في حكم الوصف لرجلان فمرفوع.

الملوكهم وهم منهم ، إذ إسرائيل لأب الأقرب يجمعهم ، فلما كانت ملوكهم منهم وهم أقرباؤهم وأشياعهم وملتبسون بهم ، جاز الامتنان عليهم بهذه الصنعة ، والمعنى مفهوم. وهذا بعينه هو التقرير السالف آنفا في قول اليهود والنصارى ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ وما بالعهد من قدم. فان قلت : فلم لم يقل إذ جعلكم أنبياء لأن الأنبياء منهم كما قلت في الملوك؟ قلت : النبوة مزية غير الملك. وآحاد الناس يشارك الملك في كثير مما به صار الملك ملكا ، ولا كذلك النبوة فان درجتها أرفع من أن يشرك من لم تثبت له مع الثابتة نبوته في مزيتها وخصوصيتها ونعتها ، فهذا هو سر تمييز الأنبياء وتعميم الملوك ، والله أعلم.

وإن جعل كلاماً معترضاً فلا محلّ له. فإن قلت : من أين علما أنهم غالبون؟ قلت : من جهة إخبار موسى بذلك. وقوله تعالى ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وقيل ، من جهة غلبة الظن وما تبينا من عادة الله في نصرته رسله ، وما عهدا من صنع الله لموسى في قهر أعدائه ، وما عرفا من حال الجبابة. والباب : باب قريتهم ﴿لَنْ نَدْخُلَهَا﴾ نفى لدخولهم في المستقبل على وجه التأكيد المؤيس. و ﴿أَبَدًا﴾ تعليق للنفي المؤكد بالدهر المتطول. و ﴿مَا دَامُوا فِيهَا﴾ بيان للأبد ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ﴾ يحتمل أن لا يقصدوا حقيقة الذهاب ^(١) ولكن كما تقول : كلمته فذهب يجيئني ، تريد معنى الإرادة والقصد للجواب ، كأنهم قالوا : أريدا قتالهم. والظاهر أنهم قالوا ذلك استهانة بالله ورسوله وقلة مبالاة بهما واستهزاء ، وقصدوا ذهابهما حقيقة بجهلهم وجفاهم وقسوة قلوبهم التي عبدوا بها العجل وسألوا بها رؤية الله عز وجل جهرة. والدليل عليه مقابلة ذهابهما بقعودهم ويحكى أنّ موسى وهرون عليهما السلام خرا لوجوههما فدّاهم لشدة ما ورد عليهما ، فهموا برجمهما. ولأمر ما قرن الله اليهود بالمشركين وقدمهم عليهم في قوله تعالى : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٥) قَالَ فَإِنَّمَا مَحْرَمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيَهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٦)

لما عصوه وتمردوا عليه وخالفوه وقالوا ما قالوا من كلمة الكفر ولم يبق معه مطيع موافق يثق به إلا هرون ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ﴾ لنصرة دينك ^(٢) ﴿إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ وهذا من البث والحزن والشكوى إلى الله والحسرة ورقة القلب التي يمثلها تستجلب الرحمة وتستنزل النصرة

(١) قال محمود : «يحتمل أن لا يقصدوا حقيقة الذهاب ولكن ... الخ» قال أحمد رحمه الله : يريد الزمخشري سألوا رؤية الله جهرة وهي محال عقلا تعنتا منهم. وقد مر له ذلك ، وبيننا ان تلبسهم بذلك كان لعدم فهم الايمان به على التعيين اقتراحا وتقاعسا عن الحق في قوله : ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾.

(٢) عاد كلامه. قال محمود : «قال رب إني لا أملك لنصرة دينك إلا نفسي ... الخ» قال أحمد : وفي قول موسى عليه الصلاة والسلام ليلة الاسراء لنبيينا عليه الصلاة والسلام : إني جريت بني إسرائيل وخبرتهم ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فان أمتك لا تطيق ذلك. وتكريره هذا القول مراراً مصداق لما ذكره الزمخشري. وأما إن كان المراد بالرجلين غير يوشع وكالب. وكانا من العماليق الذين خافهم بنو إسرائيل. ويكون معنى يخافون أى يخافهم بنو إسرائيل. فالضمير على هذا يرجع إلى بني إسرائيل ، والعائد محذوف وهو المفعول. فعلى هذا لا شك أن هذين الرجلين ليسا من بني إسرائيل المكتوب عليهم قتال العمالقة. وإنما عنى موسى عليه السلام : إني لا أملك من بني إسرائيل المفروض عليهم القتال أمر أحد إلا نفسي وأخي ، والله أعلم.

ونحوه قول يعقوب عليه السلام ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَخُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾. وعن علي رضي الله عنه أنه كان يدعو الناس على منبر الكوفة إلى قتال البغاة ، فما أجابه إلا رجلان فتنفس الصعداء ^(١). ودعا لهما وقال : أين تقعان مما أريد؟ وذكر في إعراب «أخى» وجوه : أن يكون منصوبا عطفا على نفسي أو على الضمير في «إني» ، بمعنى : ولا أملك إلا نفسي ^(٢) وإن أخى لا يملك إلا نفسه. ومرفوعا عطفاً على محل إن واسمها ، كأنه قيل : أنا لا أملك إلا نفسي ، وهرون كذلك لا يملك إلا نفسه أو على الضمير في لا أملك. وجاز للفصل. ومجروراً عطفاً على الضمير في نفسي ، وهو ضعيف لقبح العطف على ضمير المجرور ^(٣) إلا بتكرير الجار. فإن قلت : أما كان معه الرجلان المذكوران؟ قلت : كأنه لم يثق بهما كل الوثوق ولم يطمئن إلى ثباتهما ، لما ذاق على طول الزمان واتصال الصحبة من أحوال قومه وتلوّهم وقسوة قلوبهم ، فلم يذكر إلا النبي المعصوم الذي لا شبهة في أمره. ويجوز أن يقول ذلك لفرط ضجره عند ما سمع منهم تقليلاً لمن يوافقه. ويجوز أن يريد : ومن يؤاخي على ديني ﴿فَافْرُقْ﴾ فافصل ﴿بَيْنَنَا﴾ وبينهم بأن تحكم لنا بما نستحق ، وتحكم عليهم بما يستحقون ، وهو في معنى الدعاء عليهم. ولذلك وصل به قوله : ﴿فَإِنَّمَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ على وجه التسبيب ، أو فباعد بيننا وبينهم وخلصنا من صحبتهم «كقوله : ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿فَإِنَّمَا﴾ فإن الأرض المقدسة ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ لا يدخلونها ولا يملكونها ، فان قلت : كيف يوفق بين هذا وبين قوله ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يراد كتبها لكم بشرط أن تجاهدوا أهلها فلما أبوا الجهاد قيل : فإنها محرمة عليهم. والثاني : أن يراد فإنها محرمة عليهم أربعين سنة ، فإذا مضت الأربعون كان ما كتب ، فقد روى أن موسى سار بمن بقي من بني إسرائيل وكان يوشع على مقدمته ففتح أريحاء وأقام فيها ما شاء الله ثم قبض صلوات الله عليه. وقيل : لما مات موسى بعث يوشع نبياً ، فأخبرهم بأنه نبي الله ، وأن الله أمره بقتال الجبابرة ، فصدقوه وبايعوه وسار بهم إلى أريحاء وقتل الجبارين وأخرجهم ، وصار الشام كله لبني إسرائيل. وقيل : لم يدخل الأرض المقدسة أحد ممن قال : ﴿إِنَّا لَنَنَدْخُلُهَا﴾ وهلكوا في التيه ونشأت نواشئ من ذرياتهم فقاتلوا الجبارين ودخلوها والعامل في الظرف إما ﴿مُحَرَّمَةٌ﴾ وإما ﴿يَتِيَهُونَ﴾ ومعنى ﴿يَتِيَهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يسبغون فيها متحيرين لا يهتدون طريقاً. والتهيه : المفازة التي يتاه فيها. روى أنهم لبثوا أربعين سنة في ستة فراسخ يسبغون كل يوم جادين ، حتى إذا سئموا وأمسوا إذا هم بحيث ارتحلوا عنه ، وكان الغمام يظللهم

(١) قوله «فتنفس الصعداء» في الصحاح : الصعداء بالضم والمد تنفس ممدود اه. (ع)

(٢) قوله «بمعنى لا أملك إلا نفسي» لعله بمعنى إني لا أملك. وعبارة النسفي. أي إني لا أملك ... الخ. (ع)

(٣) قوله «على ضمير المجرور» لعله على الضمير. (ع)

من حرّ الشمس ، ويطلع لهم عمود من نور بالليل يضيء لهم ، وينزل عليهم المنّ والسلوى ، ولا تطول شعورهم ، وإذا ولد لهم مولود كان عليه ثوب كالظفر يطول بطوله. فإن قلت : فلم كان ينعم عليهم بتظليل الغمام وغيره وهم معاقبون؟ قلت : كما ينزل بعض النوازل على العصاة عركا لهم ^(١) ، وعليهم مع ذلك النعمة متظاهرة. ومثل ذلك مثل الوالد المشفق يضرب ولده ويؤذيه ليتأدب ويتثقف ولا يقطع عنه معرفه وإحسانه. فإن قلت : هل كان معهم في التيه موسى وهرون عليهما السلام؟ قلت : اختلف في ذلك ، فقليل لم يكونا معهم لأنه كان عقابا ، وقد طلب موسى إلى ربه أن يفرق بينهما وبينهم. وقيل : كانا معهم إلا أنه كان ذلك روحا لهما وسلامة ، لا عقوبة ، كالنار لإبراهيم ، وملائكة العذاب. وروى أن هرون مات في التيه ، ومات موسى بعده فيه بسنة. ودخل يوشع أريحاء بعد موته بثلاثة أشهر. ومات النقباء في التيه بغتة ، إلا كالب ويوشع ﴿فَلَا تَأْسَ﴾ فلا تحزن عليهم لأنه ندم على الدعاء عليهم ، فقليل : إنهم أحقاء لفسقهم بالعذاب ، فلا تحزن ولا تندم.

﴿وَأَنبَأَ عَلَيْهِمُ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِإِيدِي إِلَيْكَ لِأَفْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِغْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ

(١) قوله «عركا لهم» في الصحاح : عركت الشيء دلكنه. وعرك البعير جنبه بمرفقه. وفيه أيضا : الدعك مثل الدلك. وقد دعكت الأديم والحصم : لبنته. (ع)

أَخْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾

هما ابنا آدم لصلبه قابيل وهابيل ، أوحى الله إلى آدم أن يزوّج كل واحد منهما توأمة الآخر ، وكانت توأمة قابيل أجمل واسمها «إقليما» فحسد عليها أخاه وسخط. فقال لهما آدم : قَرَّبَا قربانا ، فمن أيكما تقبل زوّجها ، فقبل قربان هابيل بأن نزلت نار فأكلته ؛ فازداد قابيل حسدا وسخطا ، وتوعده بالقتل. وقيل : هما رجلان من بني إسرائيل ﴿بِالْحَقِّ﴾ تلاوة ملتبسة بالحق والصحة. أو اتله نبأ ملتبسا بالصدق موافقا لما في كتب الأولين ، أو بالغرض الصحيح وهو تقبيح الحسد ؛ لأن المشركين وأهل الكتاب كلهم كانوا يحسدون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويغنون عليه. أو اتل عليهم وأنت محق صادق. و ﴿إِذْ قَرَّبَا﴾ نصب بالنبا ، أى قصتهم وحديثهم في ذلك الوقت. ويجوز أن يكون بدلا من النبأ ، أى اتل عليهم النبأ نبأ ذلك الوقت ، على تقدير حذف المضاف. والقربان : اسم ما يتقرب به إلى الله من نسكة أو صدقة ، كما أنّ الحلوان اسم ما يحلى أى يعطى. يقال : قرب صدقة وتقرب بها ، لأن تقرب مطاوع قرب : قال الأصمعي : تقربوا قرف القمع ^(١) فيعدى بالباء حتى يكون بمعنى قرب. فإن قلت : كيف كان قوله ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ جوابا لقوله : ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾؟ قلت : لما كان الحسد لأخيه على تقبل قربانه هو الذي حمله على توعده بالقتل قال له : إنما أتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى ، لا من قبلي ، فلم تقتلني؟ ومالك لا تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى الله التي هي السبب في القبول؟ فأجابه بكلام حكيم مختصر جامع لمعان. وفيه دليل على أنّ الله تعالى لا يقبل طاعة إلا من مؤمن متق ، فما أنعاه على أكثر العاملين أعمالهم. وعن عامر بن عبد الله : أنه بكى حين حضرته الوفاة ، فقبل له : ما يبكيك فقد كنت وكنت؟ قال إني أسمع الله يقول ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾. ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ﴾ قيل : كان أقوى من القاتل وأبطش منه ، ولكنه تخرج عن قتل أخيه واستسلم له خوفا من الله ؛ لأنّ الدفع لم يكن مباحا في ذلك الوقت. قاله مجاهد وغيره ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أن تحتمل إثم قتلى لك لو قتلتك وإثم قتلك لي. فإن قلت : كيف يحمل إثم قتله له ولا تنزر وزارة وزر أخرى؟ قلت : المراد بمثل إثمى على الاتساع في الكلام ، كما تقول : قرأت قراءة فلان ، وكتبت كتابته ، تريد المثل وهو اتساع فاش مستفيض لا يكاد يستعمل غيره.

(١) قوله «تقربوا قرف القمع» في الصحاح : القرف القشر. والقمعة رأس السنام ، والجمع قمع. والقمع أيضا : بثرة تخرج في شفر العين. (ع)

ونحوه قوله عليه الصلاة والسلام «المستبان ما قالاً فعلى البادي ما لم يعتد المظلوم»^(١) على أنّ البادي عليه إثم سبه ، ومثل إثم سب صاحبه ؛ لأنه كان سببا فيه ، إلا أن الإثم محطوط عن صاحبه معفو عنه ، لأنه مكافئ مدافع عن عرضه. ألا ترى إلى قوله «ما لم يعتد المظلوم» لأنه إذا خرج من حدّ المكافأة واعتدى لم يسلم. فإن قلت : فحين كف هابيل قتل أخيه واستسلم وتخرج عما كان محظورا في شريعته من الدفع ، فأين الإثم حتى يتحمل أخوه مثله فيجتمع عليه الإثمان؟ قلت : هو مقدّر فهو يتحمل مثل الإثم المقدّر ، كأنه قال : إني أريد أن تبوء بمثل إثمى لو بسطت يدي إليك. وقيل ﴿بِإِثْمِي﴾ بإثم قتلى ﴿وَأِثْمِكَ﴾ الذي من أجله لم يتقبل قربانك. فإن قلت : فكيف جاز أن يريد شقاوة أخيه وتعذيبه^(٢) بالنار؟ قلت : كان ظالما وجزاء الظالم حسن جائز أن يراد. ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ وإذا جاز أن يريده الله ، جاز أن يريده العبد ؛ لأنه لا يريد إلا ما هو حسن^(٣). والمراد بالإثم وبال القتل وما يحجره من استحقاق العقاب. فإن قلت : لم جاء الشرط بلفظ الفعل^(٤) والجزاء بلفظ اسم الفاعل وهو قوله : ﴿لَنْ يَبْسُطَ

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة. وللبخاري في الأدب المفرد عن أنس نحوه.

(٢) قال محمود : «إن قلت : كيف جاز أن يريد شقاوة أخيه وتعذيبه ... الخ» قال أحمد : وهذا من دسه للمعتقد الفاسد في بيان كلامه ، والفساد من هذا اعتقاده أن في الكائنات ما ليس مراد الله تعالى وتلك القبائح بجملتها ، فإنها على زعمه واقعة على خلاف المشيئة الربانية ، وهذا هو الشرك الخفي ؛ فإياك أن تحوم حول شركه والعباذ بالله فأمره إرادته لإثم أخيه وعقوبته فمعناه : إني لا أريد أن أقتلك فأعاقب ، ولما لم يكن بد من إرادة أحد الأمرين : إما إثمته بتقدير أن يدفع عن نفسه فيقتل أخاه ، وإما إثم أخيه بتقدير أن يستسلم وكان غير مرید للأول اضطر إلى الثاني ، فلم يرد إذاً إثم أخيه لعينه ، وإنما أراد أن الإثم هو بالمدافعة المؤدية إلى القتل ولم تكن حينئذ مشروعة فلزم من ذلك إرادة إثم أخيه. وهذا كما يتمنى الإنسان الشهادة. ومعناها أن يبوء الكافر بقتله وبما عليه في ذلك من الإثم ، ولكن لم يقصد هو إثم الكافر لعينه ، وإنما أراد أن يبذل نفسه في سبيل الله رجاء إثم الكافر بقتله ضمنا وتبعا. والذي يدل على ذلك أنه لا فرق في حصول درجة الشهادة ، وفضيلتها بين أن يموت القاتل على الكفر ، وبين أن يختتم له بالإيمان فيحبط عنه إثم القتل الذي به كان الشهيد شهيدا ، أعنى بقي الإثم على قاتله أو حبط عنه إذ ذلك لا ينقص من فضيلة شهادته ولا يزيد لها ، ولو كان إثم الكافر بالقتل مقصوداً لاختلف التمني باعتبار بقائه وإحباطه فدل على أنه أمر لازم تبع لا مقصود. والله أعلم.

(٣) قوله «لأنه لا يريد إلا ما هو حسن» هذا مذهب المعتزلة أما عند أهل السنة ، فالله يريد كل كائن حسنا كان أو قبيحا كما تقرر في علم التوحيد. (ع)

(٤) عاد كلامه. قال : «فان قلت : لم جاء الشرط بصيغة الفعل والجزاء باسم الفاعل ... الخ» قال أحمد : وإنما امتاز اسم الفاعل عن الفعل بهذه الخصوصية من حيث أن صيغة الفعل لا تعطى سوى حدوث معناه من الفاعل لا غير. وأما اتصاف الذات به فذاك أمر يعطيه اسم الفاعل. ومن ثم يقولون : قام زيد فهو قائم ، فيجعلون اتصافه بالقيام ناشئا عن صدوره منه ، ولهذا المعنى قوله تعالى : ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ عدولا عن الفعل الذي هو لترجمتك إلى الاسم تغليظا. يعنون أنهم يجعلون هذه لثبوتها ووقوعها به كالسمة والعلامة الثابتة ، ولا يقتضون على مجرد إيقاعها به.

ما أنا بباسِطٍ؟ قلت : ليفيد أنه لا يفعل ما يكتسب به هذا الوصف الشنيع. ولذلك أكد به الباء المؤكدة للنفي ، **﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾** فوسعته له ويسرته ، من طاع له المرتع : إذا اتسع. وقرأ الحسن : فطاوعت. وفيه وجهان : أن يكون مما جاء من فاعل بمعنى فعل ، وأن يراد أن قتل أخيه كأنه دعا نفسه إلى الإقدام عليه فطاوَعته ولم تمتنع ، وله لزيادة الربط كقولك : حفظت لزيد ماله. وقيل : قتل وهو ابن عشرين سنة ، وكان قتله عند عقبة حراء ، وقيل بالبصرة في موضع المسجد الأعظم **﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا﴾** روى أنه أول قتيل قتل على وجه الأرض من بنى آدم. ولما قتله تركه بالعراء لا يدرى ما يصنع به ، فخاف عليه السباع فحمله في جراب على ظهره سنة حتى أروح وعكفت عليه السباع ، فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر ، فحفر له بمنقاره ورجليه ثم ألقاه في الحفرة **﴿قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾** ويروى أنه لما قتله اسودّ جسده وكان أبيض فسأله آدم عن أخيه فقال : ما كنت عليه وكيفا ؛ فقال بل قتلته ولذلك اسودّ جسدي. وروى أن آدم مكث بعد قتله مائة سنة لا يضحك» وأنه رثاه بشعر ، وهو كذب بحت ، وما الشعر إلا منحول ملحون. وقد صحّ أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الشعر. **﴿لِيرِيَهُ﴾** ليريه الله. أو ليريه الغراب ، أى ليعلمه ؛ لأنه لما كان سبب تعليمه ، فكأنه قصد تعليمه على سبيل المجاز **﴿سَوَاءٌ أَخِيهِ﴾** عورة أخيه وما لا يجوز أن ينكشف من جسده. والسوأة : الفضيحة لقبحها. قال :

يَا لَقَوْمٍ لِلْسَّوْءَةِ السَّوْءُ (١)

أى للفضيحة العظيمة فكنى بها عنها **﴿فَأَوَارِي﴾** بالنصب على جواب الاستفهام. وقرئ بالسكون على : فأنا أوارى. أو على التسكين في موضع النصب للتخفيف **﴿مِنَ النَّادِمِينَ﴾** على قتله ، لما تعب فيه من حمله وتحيّره في أمره ، وتبين له من عجزه ، وتلمذه للغراب ، واسوداد لونه وسخط أبيه ، ولم يندم ندم التائبين **﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾** بسبب ذلك وبعثته. وقيل : أصله من أجل شرا إذا جناه يأجله أجلا. ومنه قوله :

وَأَهْلٌ خِبَاءٍ صَالِحٍ ذَاتُ بَيْنٍ مِنْهُمْ قَدْ اِحْتَرَبُوا فِي عَاجِلٍ أَنَا آجِلُهُ (٢)

(١) قوله «يا لقوم» يروى يا لقومي. (ع)

(٢) وأهل خباء صالح ذات بينهم قدام احتربوا في عاجل أنا آجله

فأقبلت في الباغين أسأل عنهم سؤلك بالأمير الذي أنست جاهله

لخوات بن جبير ، يصف نفسه بأنه مهياج للشور والحروب ، يقول : ورب أهل خباء ، أى بيوت متلاصقة كأنها بيت واحد. أو كنى به عن تقاربهم في النسب صالح ذات بينهم. أى الحال التي بينهم صالحة ، قد تحاربوا بسبب شر عاجل أنا آجله أى جانبه قبل الحرب ومهيجه. وفيه شبه التضاد. ويقال : أجل الشر أجلا إذا جناه ومهيجه ،

كأنك إذا قلت : من أجلك فعلت كذا ، أردت من أن جنيت فعله وأوجبته ، ويدل عليه قولهم : من جراك فعلته ، أى من أن جررته بمعنى جنيته. وذلك إشارة إلى القتل المذكور ، أى من أن جنى ذلك القتل الكتب وجزه ﴿كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ و «من» لابتداء الغاية ، أى ابتداء والكتب نشأ من أجل ذلك. ويقال : فعلت كذا لأجل كذا. وقد يقال : أجل كذا ، بحذف الجار وإيصال الفعل قال : أجل أن الله قد فضلكم. وقرئ : من أجل ذلك ، بحذف الهمزة وفتح النون لإلقاء حركتها عليها. وقرأ أبو جعفر : من أجل ذلك ، بكسر الهمزة وهي لغة فإذا خفف كسر النون ملقيا لكسرة الهمزة عليها ﴿بَغَيْرِ نَفْسٍ﴾ بغير قتل نفس ، لا على وجه الاقتصاص ﴿أَوْ فَسَادٍ﴾ عطف على نفس بمعنى أو بغير فساد ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وهو الشرك. وقيل : قطع الطريق ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ ومن استنقذها من بعض أسباب الهلكة قتل أو غرق أو حرق أو هدم أو غير ذلك. فإن قلت : كيف شبه الواحد بالجميع وجعل حكمه كحكمهم؟ قلت : لأن كل إنسان يدلى بما يدلى به الآخر من الكرامة على الله وثبوت الحرمة ، فإذا قتل فقد أهين ما كرم على الله وهتكت حرمة وعلى العكس ، فلا فرق إذاً بين الواحد والجميع في ذلك. فإن قلت : فما الفائدة في ذكر ذلك؟ قلت : تعظيم قتل النفس وإحيائها في القلوب ليشمئز الناس عن الجسارة عليها ، ويتراغبوا في المحاماة على حرمتها ؛ لأنّ المتعرض لقتل النفس إذا تصوّر قتلها بصورة قتل الناس جميعاً عظم ذلك عليه فثبطه ، وكذلك الذي أراد إحياءها. وعن مجاهد : قاتل النفس جزاؤه جهنم ، وغضب الله ، والعذاب العظيم. ولو قتل الناس جميعاً لم يزد على ذلك. وعن الحسن : يا ابن آدم ، أرايت لو قتلت الناس جميعاً أكنت تطمع أن يكون لك عمل يوازى ذلك فيغفر لك به؟ كلا إنه شيء سؤلته لك نفسك والشيطان ، فكذلك إذا قتلت واحداً ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ بعد ما كتبنا عليهم وبعد مجيء الرسل بالآيات ﴿لَمُسْرِفُونَ﴾ يعنى في القتل لا يبالون بعظمته ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ هُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٤)

. فمحاربتهم كانت من أجله وبسببه ، فانخذل الباغون للشر ، فأقبلت أسأل عنهم ، كسؤالك بالأمر : أى عن الأمر الذي أنت جاهله ، أفاد بالتشبيه أنه كان ليس جاهلاً بهم حين سؤاله ، وإنما كان يريهم أنه معهم ومحب لهم لا لعدوهم.

﴿مُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يحاربون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومحاربة المسلمين في حكم محاربتة ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ مفسدين ، أو لأنّ سعيهم في الأرض لما كان على طريق الفساد نزل منزلة : ويفسدون في الأرض فانتصب فسادا. على المعنى ، ويجوز أن يكون مفعولا له ، أى للفساد. نزلت في قوم هلال بن عويمر وكان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد وقد مرّ بهم قوم يريدون رسول الله فقطعوا عليهم. وقيل : في العرنيين ، فأوحى إليه أنّ من جمع بين القتل وأخذ المال قتل وصلب ومن أفرد القتل قتل. ومن أفرد أخذ المال قطعت يده لأخذ المال ، ورجله لإخافة السبيل. ومن أفرد الإخافة نفى من الأرض. وقيل : هذا حكم كل قاطع طريق كافرا كان أو مسلما. ومعناه ﴿أَنْ يُقْتَلُوا﴾ من غير صلب ، إن أفردوا القتل ﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ مع القتل إن جمعوا بين القتل والأخذ. قال أبو حنيفة ومحمد رحمهما الله ، يصلب حيا ، ويطعن حتى يموت ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ إن أخذوا المال ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ إذا لم يزيدوا على الإخافة. وعن جماعة منهم الحسن والنخعي : أن الإمام مخير بين هذه العقوبات في كل قاطع طريق من غير تفصيل. والنفي : الحبس عند أبي حنيفة ، وعند الشافعي : النفي من بلد إلى بلد ، لا يزال يطلب وهو هارب فرعا ، وقيل : ينفي من بلده ، وكانوا ينفونهم إلى «دهلك» وهو بلد في أقصى تهامة ، و «ناصع» وهو بلد من بلاد الحبشة ﴿حِزْيٍ﴾ ذلّ وفضيحة ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ استثناء من المعاقبين عقاب قطع الطريق خاصة. وأما حكم القتل والجراح وأخذ المال فيلّى الأولياء ، إن شاءوا عفوا ، وإن شاءوا استوفوا. وعن علي رضي الله عنه : أنه الحرث بن بدر ^(١) جاءه تائبا بعد ما كان يقطع الطريق ، فقبل توبته ودرأ عنه العقوبة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٣٥)

الوسيلة : كل ما يتوسل به أى يتقرّب من قرابة أو صنعة أو غير ذلك ، فاستعيرت لما يتوسل به إلى الله تعالى من فعل الطاعات وترك المعاصي.

وأنشد للبيد :

أَرَى النَّاسَ لَا يَذْرُونَ مَا قَدَرُ أَمْرِهِمْ أَلَا كُنْتُ ذُلًّا لِّإِلَهِ اللَّهِ وَأَسِـلًّا ^(٢)

(١) أخرجه ابن أبي شيبة من رواية مجالد عن الشعبي. قال : كان حارثة بن بدر التميمي قد أفسد في الأرض وحارب ، فذكر قصة هذا فيها.

(٢) ألا تسألان المرء ما ذا يحاول أنحب فيقبض على أم ضلال وباطل

أرى الناس لا يقدرون ما قدر أمرهم ألا كذل ذى لب إلى الله وأسئل

ألا كذل شيعي ما خلا الله باطل وكذل نعيم لا محالة زائل

أو على إجراء الضمير مجرى اسم الإشارة ، كأنه قيل : ليفتدوا بذلك. ويجوز أن يكون الواو في : ﴿مِثْلَهُ﴾ بمعنى «مع» فيتوحد المرجوع إليه. فإن قلت : فبم ينصب المفعول معه؟ قلت : بما يستدعيه «لو» من الفعل ، لأن التقدير : لو ثبت أن لهم ما في الأرض. قرأ أبو واقد (أن يخرجوا) بضم الياء من أخرج. ويشهد لقراءة العامة قوله : ﴿يُخَارِجِينَ﴾. وما يروى عن عكرمة أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس : يا أعمى البصر أعمى القلب تزعم أن قوما يخرجون من النار ^(١) وقد قال الله تعالى : ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ فقال : ويحك ^(٢) ، اقرأ ما فوقها. هذا للكفار. فمما لفقته المجبرة ^(٣) وليس بأول تكاذيبهم وفراهم. وكفاك بما فيه من مواجهة ابن الأزرق ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو بين أظهر أعضاده من قريش وأنضاده ^(٤) من بنى عبد المطلب وهو حبر الأمة وبحرها ومفسرها ، بالخطاب الذي لا يجسر على مثله أحد من أهل الدنيا ، ويرفعه إلى عكرمة دليلين ناصين أن الحديث فرية ما فيها مرية.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤٠)

. ومن أمسى رحله بالمدينة حسن حاله ، بخلاف حالي ، فاني غريب لأن رحلي . أى منزلي . ليس فيها ، وإنما فيها أنا وفرسي فقط. و «قيار» اسم فرسه. وقيل جملة. وقيل غلامه. وهو مبتدأ أو معطوف على محل اسم «إن» حذف خبره اختصاراً لدلالة المذكور عليه ، فالعطف من عطف الجمل أو المفردات. وفيه العطف قبل تمام المعطوف عليه ، لكنه على نية التقديم والتأخير ، وهو سماعي لا يجوز القياس عليه ، ولا يجوز جعل الغريب خبراً عنهما لئلا يتوارد عاملان على معمول واحد ، ولا جعله خبراً عن قيار ؛ لأن لام الابتداء لا تدخل على الخبر المؤخر. والبيت لفظه خبر ، ومعناه إنشاء التحسر والتحزن ، لكونه غريباً وحيداً.

(١) قال محمود : «وما يروى عن عكرمة أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس يا أعمى البصر أعمى القلب تزعم أن قوما يخرجون من النار ... الخ» قال أحمد : في هذا الفصل من كلامه وتمشده بالسفاهة على أهل السنة ورميهم بما لا يقولون به من الأخبار بالكذب والتخليق والافتراء ما يحمي الكبد المملوء بحب السنة وأهلها على الانتصاب للانتصاف منه ، ولسنا بصدد تصحيح هذه الحكاية ، ولا وقف الله صحة العقيدة على صحتها.

(٢) لم أجده. وقد أنكره صاحب الكشف وقال : هذا مما لفقه المجبرة. وليس أول تكاذيبهم إلى آخر كلامه

(٣) قوله «فمما لفقته المجبرة» يعني أهل السنة القائلين بخروج صاحب الكبيرة من النار لأنه مؤمن خلافا للمعتزلة القائلين لا مؤمن ولا كافر بل واسطة. وتحقيق المبحث في علم التوحيد. (ع)

(٤) قوله «وأنضاده» في الصحاح : أنضاد الرجل ، أعمامه وأحواله المتقدمون في الشرف. (ع)

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ رفعهما على الابتداء والخبر محذوف ^(١) عند سيبويه ، كأنه قيل : وفيما فرض عليكم السارق والسارقة أى حكمهما. ووجه آخر وهو أن يرتفعا بالابتداء ، والخبر ﴿اقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ ودخول الفاء لتضمنهما معنى الشرط ، لأنّ المعنى : والذي سرق والتي سرقت فاقطعوا أيديهما ، والاسم الموصول يضمن معنى الشرط. وقرأ عيسى بن عمر بالنصب ، وفضلها سيبويه على قراءة العامة لأجل الأمر لأنّ «زيداً فاضربه» أحسن من «زيد فاضربه» ﴿أَيْدِيَهُمَا﴾ يديهما ، ونحوه ﴿فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ اكتفى بتثنية المضاف إليه عن تثنية المضاف. وأريد باليدين

(١) قال محمود : «رفعهما على الابتداء والخبر محذوف عند سيبويه كأنه ... الخ» قال أحمد : المستقرأ من وجوه القراءات أن العامة لا تتفق فيها أبداً على العدول عن الأفصح. وجدير بالقرآن أن يجرى على أفصح الوجوه ، وأن لا يخلو من الأفصح وما يشتمل عليه كلام العرب الذي لم يصل أحد منهم إلى ذروة فصاحته ولم يتعلق بأهدابها. وسيبويه يحاشي من اعتقاد عراء القرآن عن الأفصح ، واشتماله على الشاذ الذي لا يعد من القرآن. ونحن نورد الفصل من كلام سيبويه على هذه الآية ليتضح لسامعه براءة سيبويه من عهدة هذا النقل. قال سيبويه . في ترجمة باب الأمر والنهى ، بعد أن ذكر المواضع التي يختار فيها النصب . : وملخصها أنه متى بنى الاسم على فعل الأمر فذاك موضع اختيار النصب ، ثم قال : كالموضح لامتنياز هذه الآية عما اختار فيها النصب. وأما قوله عز وجل : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا...﴾ الآية وقوله : ﴿الرَّائِيَةُ وَالرَّائِي فَاجْلِدُوا...﴾ فان هذا لم يبن على الفعل ، ولكنه جاء على مثال قوله : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ ثم قال بعد ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ﴾ فيها كذا ... قلت : يريد سيبويه تمييز هذه الآي عن المواضع التي بين اختيار النصب فيها ، ووجه التمييز بأن الكلام حيث يختار النصب يكون الاسم فيها مبنيا على الفعل. وأما في هذه الآي فليس بمبنى عليه ، فلا يلزم فيه اختيار النصب. عاد كلامه. قال : وإنما وضع المثل للحديث الذي ذكر بعده فذكر أخباراً وقصصاً ، فكأنه قال : ومن القصص مثل الجنة ، فهو محمول على هذا الإضمار والله أعلم. وكذلك الزانية والزاني لما قال جل ثناؤه ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ قال في جملة الفرائض ﴿الرَّائِيَةُ وَالرَّائِي﴾ ثم جاء ﴿فَاجْلِدُوا﴾ بعد أن مضى فيها الرفع. قلت : يريد سيبويه : لم يكن الاسم مبنيا على الفعل المذكور بعد ، بل بنى على محذوف متقدم وجاء الفعل طارئاً. عاد كلامه. قال : كما جاء وقائلة خولان فانكح فتاتهم فجاء بالفعل بعد أن عمل فيه المضمر ، وكذلك ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ وفيما فرض عليكم السارق والسارقة ، فإنما دخلت هذه الأسماء بعد قصص وأحاديث. وقد قرأ ناس ﴿السَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ بالنصب وهو في العربية على ما ذكرت لك من القوة ، ولكن أبت العامة إلا الرفع ، قلت : يريد سيبويه أن قراءة النصب جاء الاسم فيها مبنيا على الفعل ، غير معتمد على متقدم ، فكان النصب قويا بالنسبة إلى الرفع ، حيث يبنى الاسم على الفعل لا على متقدم ، وليس يعنى أنه قوى بالنسبة إلى الرفع حيث يعتمد الاسم على المحذوف المتقدم ، فانه قد بين أن ذلك يخرج من الباب الذي يختار فيه النصب ، فكيف يفهم عنه ترجيحه عليه ، والباب مع القراءتين مختلف. وإنما يقع الترجيح بعد التساوي في الباب فالنصب أرجح من الرفع ، حيث يبنى الاسم على الفعل والرفع متعين ، لا أقول أرجح حيث بنى الاسم على كلام متقدم ، ثم حقق سيبويه هذا المقدر بأن الكلام واقع بعد قصص وأخبار ، ولو كان كما ظنه الزمخشري لم يحتج سيبويه إلى تقدير ، بل كان يرفعه على الابتداء ويجعل الأمر خبره كما أعربه الزمخشري ، فالمخلص على هذا أن النصب على وجه واحد وهو بناء الاسم على فعل الأمر ، والرفع على وجهين : أحدهما ضعيف وهو الابتداء ، وبناء الكلام على الفعل ، والآخر قوى بالغ كوجه النصب ، وهو رفعه على خبر ابتداء محذوف دل عليه السياق ، وحيثما تعارض لنا وجهان في الرفع وأحدهما قوى والآخر ضعيف ، تعين حمل القراءة على القوى كما أعربه سيبويه رضى الله عنه. والله تعالى أعلم.

اليمينان ، بدليل قراءة عبد الله : والسارقون والسارقات فاقطعوا أيماهم ، والسارق في الشريعة : من سرق من الحرز : والمقطع. الرسغ. وعند الخوارج : المنكب. والمقدار الذي يجب به القطع عشرة دراهم عند أبي حنيفة ، وعند مالك والشافعي رحمهما الله ربع دينار. وعن الحسن درهم وفي مواعظه : احذر من قطع يدك في درهم ﴿جَزَاءً﴾ و ﴿نَكَالًا﴾ مفعول لهما ﴿فَمَنْ تَابَ﴾ من السرّاق ﴿مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾ من بعد سرقته ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أمره بالتفصى عن التبعات ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ ويسقط عنه عقاب الآخرة. وأما القطع فلا تسقطه التوبة عند أبي حنيفة وأصحابه وعند الشافعي في أحد قوليه تسقطه ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من يجب في الحكمة تعذيبه والمغفرة له من المصرين والتائبين. وقيل : يسقط حدّ الحربي إذا سرق بالتوبة ، ليكون أدعى له إلى الإسلام وأبعد من التنفير عنه ، ولا يسقطه عن المسلم ^(١) : لأن في إقامته الصلاح للمؤمنين والحياة ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾. فإن قلت : لم قدم التعذيب على المغفرة ؟^(٢) قلت : لأنه قوبل بذلك تقدم السرقة على التوبة.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ بِكُفْرٍ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاصِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٤١)

قري (لا يحزنك) بضم الياء. ويسرعون. والمعنى : لا تهتم ولا تبال بمسارعة المنافقين ﴿فِي الْكُفْرِ﴾ أى في إظهاره بما يلوح منهم من آثار الكيد للإسلام ومن موالة المشركين ، فإني ناصرك عليهم وكافيك شرهم. يقال : أسرع فيه الشيب ، وأسرع فيه الفساد ، بمعنى : وقع

(١) قوله «ولا يسقطه عن المسلم» لعله «ولا يسقط» أو «ولا تسقطه». (ع)

(٢) قال محمود : «فان قلت لم قدم التعذيب على المغفرة ... الخ» قال أحمد : هو مبنى على أن المراد بالمغفور لهم التائبون ، وبالمعذبين السراق. ولا يجعل المغفرة تابعة للمشيمة إلا بقيد التوبة ، لأن غير التائب على زعمه لا يجوز أن يشاء الله المغفرة له ، فلذلك ينزل الإطلاق على المتقدم ذكره. ونحن نعتقد أن المغفرة في حق غير التائب من الموحدين تتبع المشيمة ، حتى أن من جملة ما يدخل في عموم قوله : ﴿وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ السارق الذي لم يتب. وعلى هذا يكون تقديم التعذيب لأن السياق للوعيد فيناسب ذلك تقديم ما يليق به من الزواجر والله أعلم.

فيه سريعاً ، فكذلك مسارعتهم في الكفر ووقوعهم وتهافتهم فيه ، أسرع شيء إذا وجدوا فرصة لم يخطئوها. و ﴿آمَنَّا﴾ مفعول قالوا : و ﴿بِأَفْوَهِهِمْ﴾ متعلق بقالوا لا بآمننا ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ منقطع مما قبله خبر لسماعون ، أى : ومن اليهود قوم سماعون. ويجوز أن يعطف على : ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ ويرتفع سماعون على : هم سماعون. والضمير للفريقين. أو للذين هادوا. ومعنى ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ قابلون لما يفتريه الأخبار ويفتعلونه من الكذب على الله وتحريف كتابه من قولك الملك يسمع كلام فلان. ومنه «سمع الله لمن حمده» ﴿سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ﴾ يعنى اليهود الذين لم يصلوا إلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحافوا عنه لما أفرط فيهم من شدة البغضاء وتبالغ من العداوة ، أى قابلون من الأخبار ومن أولئك المفرطين في العداوة الذين لا يقدر أن ينظروا إليك. وقيل : سماعون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأجل أن يكذبوا عليه بأن يمسخوا ما سمعوا منه بالزيادة والنقصان والتبديل والتغيير ، سماعون من رسول الله لأجل قوم آخرين من اليهود وجهوهم عيوناً ليلغوهم ما سمعوا منه. وقيل : السماعون : بنو قريظة. والقوم الآخرون : يهود خيبر ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾ يميلونه ويزيلونه ﴿مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ التي وضعه الله تعالى فيها ، فيهملونه بغير مواضع بعد أن كان ذا مواضع ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا﴾ المحرف المزال عن مواضعه ﴿فَخُذُوهُ﴾ واعلموا أنه الحق واعملوا به ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ﴾ وأفتاكم محمد بخلافه ﴿فَاخْذَرُوا﴾ وإياكم وإياه فهو الباطل والضلال. وروى أن شريفاً من خيبر زنى بشريفة وهما محصنان وحدّهما الرجم في التوراة ، فكرهوا رجمهما لشرفهما فبعثوا رهطاً منهم إلى بنى قريظة ليسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، وقالوا : إن أمركم محمد بالجلد والتحميم^(١) فاقبلوا وإن أمركم بالرجم فلا تقبلوا ، وأرسلوا الزانيين معهم ، فأمرهم بالرجم فأبوا أن يأخذوا به فقال له جبريل : اجعل بينك وبينهم ابن صوريا ، فقال هل تعرفون شاباً أمرد أبيض أعور يسكن فذك يقال له ابن صوريا؟ قالوا : نعم وهو أعلم يهودى على وجه الأرض ورضوا به حكماً. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنشدك الله الذي لا إله إلا هو الذي فلق البحر لموسى ورفع فوقكم الطور وأنجاكم وأغرق آل فرعون والذي أنزل عليكم كتابه وحلاله وحرامه ، هل تجدون فيه الرجم على من أحصن؟ قال : نعم ، فوثب عليه سفلة اليهود ، فقال : خفت إن كذبت أنه ينزل علينا العذاب. ثم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء كان يعرفها من أعلامه فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله النبي الأمي العربي الذي بشر به المرسلون ، وأمر رسول الله صلى

(١) قوله «والتحميم» أى التسويد. وفي الصحاح «الحمة» بالضم : السواد. (ع)

الله عليه وسلم الزانين ^(١) فرجما عند باب مسجده ^(٢) ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ تركه مفتوناً ^(٣) وخذلانه ^(٤) ﴿فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ فلن تستطيع له من لطف الله وتوفيقه شيئاً ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ﴾ أن يمنحهم من ألطافه ما يطهر به قلوبهم ؛ لأنهم ليسوا من أهلها ، لعلمه أنها لا تنفع فيهم ولا تنجج ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ .

﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْأَلُونَ لِلْسُّحْتِ فَإِنْ جَاؤُكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٤٢) وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٣)

﴿لِلْسُّحْتِ﴾ كل ما لا يحل كسبه ، وهو من . سحته . إذا استأصله لأنه مسحوت البركة كما قال تعالى : ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرَّبَابَ﴾ والربا باب منه . وقرئ ﴿لِلْسُّحْتِ﴾ بالتخفيف والتثقيل . والسحت بفتح السين على لفظ المصدر من سحته . والسحت ، بفتحيتين . والسحت ، بكسر السين . وكانوا يأخذون الرشا على الأحكام وتحليل الحرام . وعن الحسن : كان الحاكم في بني إسرائيل إذا أتاه

(١) قوله «الزانين» لعله بالزانين . (ع)

(٢) أخرجه ابن إسحاق في المغازي حدثني ابن شهاب سمعت رجلاً من مزينة يحدث سعيد بن المسيب عن أبي هريرة . فذكره ، دون أوله ، ودون قوله فيه : فقال له جبريل : اجعل بينك وبينهم ابن صوريا فقال : هل تعرفون شاباً أمرد أبيض أعور ، يسكن فذك . ودون ما في آخره . وكذا أخرجه البيهقي في الدلائل من رواية معمر عن الزهري مطولاً . زاد فيه قصة الملك الذي كان زنى منهم فلم يرحمه ، وأصله في الصحيحين من حديث أبي هريرة وغيره مختصراً .

(٣) قال محمود : «معنى ومن يرد الله فتنته : ومن يرد تركه مفتوناً ... الخ» قال أحمد رحمه الله : كم يتلجلج والحق أبلغ هذه الآية كما تراها منطبقة على عقيدة أهل السنة في أن الله تعالى أراد الفتنة من المفتونين ، ولم يرد أن يطهر قلوبهم من دنس الفتنة ووضر الكفر ، لا كما تزعم المعتزلة من أنه تعالى ما أراد الفتنة من أحد ، وأراد من كل أحد الإيمان وطهارة القلب ، وأن الواقع من الفتن على خلاف إرادته ، وأن غير الواقع من طهارة قلوب الكفار مراد ولكن لم يقع ، فحسبهم هذه الآية وأمثالها ، لو أراد الله أن يطهر قلوبهم من وضر البدع . أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها . وما أبشع صرف الزمخشري هذه الآية عن ظاهرها بقوله : لم يرد الله أن يمنحهم ألطافه ، لعلمه أن ألطافه لا تنجج فيهم ولا تنفع ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً . وإذا لم تنجج ألطاف الله تعالى ولم تنفع ، فلطف من ينفع وإرادة من تنجج؟ وليس وراء الله للمرء مطمع .

(٤) قوله «تركه مفتوناً وخذلانه» قدر هذا بناء على أنه تعالى لا يريد الشر عند المعتزلة لكن عند أهل السنة يريد الشر والخير كما حقق في محله . (ع)

أحدهم برشوة جعلها في كفه فأراها إياه وتكلم بحاجته فيسمع منه ولا ينظر إلى خصمه ، فيأكل الرشوة ويسمع الكذب . وحكى أن عاملاً قدم من عمله فجاءه قومه ، فقدم إليهم العرّاضة ^(١) وجعل يحدثهم بما جرى له في عمله ، فقال أعرابي من القوم : نحن كما قال الله تعالى : ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّخْتِ﴾ وعن النبي صلى الله عليه وسلم : «كل لحم أنبته السحت فالنار أولى ^(٢) به» قيل : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مخيراً . إذا تحاكم إليه أهل الكتاب . بين أن يحكم بينهم وبين أن لا يحكم . وعن عطاء والنخعي والشعبي : أنهم إذا ارتفعوا إلى حكام المسلمين ، فإن شاءوا حكموا وإن شاءوا أعرضوا . وقيل : هو منسوخ بقوله : ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ وعند أبي حنيفة رحمه الله : إن احتكموا إلينا حملوا على حكم الإسلام ، وإن زنى منهم رجل بمسلمة أو سرق من مسلم شيئاً أقيم عليه الحدّ . وأما أهل الحجاز فإنهم لا يرون إقامة الحدود عليهم ، يذهبون إلى أنهم قد صولحوا على شركهم وهو أعظم الحدود . ويقولون : إنّ النبي صلى الله عليه وسلم رجم اليهوديين قبل نزول الجزية ﴿فَلَنْ يَصْرُوكَ شَيْئاً﴾ لأنهم كانوا لا يتحاكمون إليه إلا لطلب الأيسر والأهون عليهم ، كالجلد مكان الرجم . فإذا أعرض عنهم وأبى الحكومة لهم ، شق عليهم وتكرهوا إعراضه عنهم وكانوا خلقاء بأن يعادوه ويضاروه ، فأمن الله سربه ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل والاحتياط كما حكم بالرجم ﴿وَكَيْفَ يَحْكُمُونَكَ﴾ تعجيب من تحكيمهم

(١) قوله «فقدم إليهم العرّاضة» في الصحاح : العرّاضة . بالضم . : ما يعرض المائر ، أى يطعمه من الميرة . ويقال : اشتر عرّاضة لأهلك ، أى هدية وشياً تحمله إليهم . (ع)
(٢) أخرجه الحاكم من رواية زيد بن أرقم عن أبي بكر الصديق رضى الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من نبت لحمه من السحت فالنار أولى به» وأخرجه ابن عدى في ترجمة عبد الواحد بن زمعة وضعف به وفي الباب عن معمر عند الطبراني وابن عدى في أثناء حديث وفيه يزيد بن عبد الملك النوفلي . وهو ضعيف . وعن حذيفة أخرجه إسحاق بن راهويه من طريق كردوس قال «خطب حذيفة بالمدائن . فذكر الخطبة . وفيها الحديث ، بلفظ «ليس لحم ينبت من سحت فيدخل الجنة» وأخرجه الطبراني في الأوسط من رواية أيوب بن سويد عن الثوري عن عبد الملك بن عمير عن ربعي عن حذيفة بلفظ «لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت ، النار أولى به» قال أبو حاتم في العلل : أخطأ أيوب بن سويد فيه . والصواب موقوف . وعن ابن عمر أخرجه الطبراني والحارثي في الغريب . وابن مردويه في الغريب من طريق عمر بن حمزة عنه . ورجاله ثقات إلا أن عمر لم يسمع من ابن عمر . وعن ابن عباس أخرجه الطبراني والبيهقي من وجهين ضعيفين . وروى الترمذي من حديث كعب بن عجرة في حديث طويل في آخره «يا كعب بن عجرة ، إنه لا يربو لحم نبت من سحت إلا وكانت النار أولى به ، وقال : حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وسألت محمداً عنه فاستغربه . وقال أبو يعلى من وجه آخر عن كعب بن عجرة ، وله شاهد فيه ابن حبان من رواية عبد الله بن خيثمة عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر بن عبد الله «أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يا كعب بن عجرة . فذكر مثله سواء» وأخرجه أحمد وإسحاق والبزار وأبو يعلى والحاكم من هذا الوجه ، وأخرجه الحاكم من طريق سعيد بن بشير عن قتادة عن الحسن عن عبد الرحمن بن سمرة . فذكر مثل حديث كعب بن عجرة «أنه صلى الله عليه وسلم خاطب به عبد الرحمن» وسعيد بن بشير ضعيف .

لمن لا يؤمنون به وبكتابه ، مع أن الحكم منصوص في كتابهم الذي يدعون الإيمان به ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ ثم يعرضون من بعد تحكيمك عن حكمك الموافق لما في كتابهم لا يرضون به ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ بكتابهم كما يدعون. أو وما أولئك بالكاملين في الإيمان على سبيل التهكم بهم. فإن قلت : ﴿فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ ما موضعه من الإعراب؟ قلت : إما أن ينتصب حالا من التوراة وهي مبتدأ خبره عندهم وإما أن يرتفع خبرا عنها كقولك : وعندهم التوراة ناطقة بحكم الله وإما أن لا يكون له محل وتكون جملة مبينة ، لأن عندهم ما يغنيهم عن التحكيم ، كما تقول : عندك زيد ينصحك ويشير عليك بالصواب ، فما تصنع بغيره؟ فإن قلت : لم أثنت التوراة؟ قلت : لكونها نظيرة لمومة ودودة ونحوها في كلام العرب. فإن قلت : علام عطف ثم يتولون؟ قلت : على يحكمونك.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٤٤)

﴿فِيهَا هُدًى﴾ يهدى للحق والعدل ﴿وَنُورٌ﴾ يبين ما استبهم من الأحكام ﴿الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ صفة أجريت على النبيين على سبيل المدح ^(١) ، كالصفات الجارية على القديم سبحانه لا للتفصلة

(١) قال محمود : «قوله أسلموا صفة أجريت على النبيين على سبيل المدح ... الخ» قال أحمد : وإنما بعثه على حمل هذه الصفة على المدح دون التفصلة والتوضيح أن الأنبياء لا يكونون إلا متصفين بها ، فذكر النبوة يستلزم ذكرها ، فمن ثم حملها على المدح. وفيه نظر ؛ فان المدح إنما يكون غالباً بالصفات الخاصة التي يتميز بها الممدوح عن غيره. والإسلام أمر عام يتناول أمم الأنبياء ومتبعيهم كما يتناولهم. ألا ترى أنه لا يحسن في مدح النبي أن يقتصر على كونه رجلاً مسلماً ؛ فان أقل متبعيه كذلك. فالوجه والله أعلم أن الصفة قد تذكر للعظم في نفسها وليتوجه بها إذا وصف بها عظيم القدر ، كما يكون تنويها بقدر موصوفها. فالخاص أن كونه رجلاً مسلماً كما يراد إعظام الموصوف بالصفة العظيمة ، قد يراد إعظام الصفة بعظم موصوفها. وعلى هذا الأسلوب جرى وصف الأنبياء بالصلاح في قوله تعالى : ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وأمثاله ، تنويهاً بمقدار الصلاح ؛ إذ جعل صفة الأنبياء وبعثاً لأحاديث الناس على الدأب في تحصيل صفته ، وكذلك قيل في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأخبر عن الملائكة المقربين بالإيمان تعظيماً لقدر الإيمان ، وبعثاً للبشر على الدخول فيه ليساوا الملائكة المقربين في هذه الصفة ، وإلا فمن المعلوم أن الملائكة مؤمنين ليس إلا ، ولهذا قال : ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني من البشر لثبوت حق الاخوة في الإيمان بين الطائفتين ، فكذلك. والله أعلم. جرى وصف الأنبياء في هذه الآية بالإسلام تنويهاً به. ولقد أحسن القائل في أوصاف الأشراف ، والناظم في مدحه عليه الصلاة والسلام

فلــــمن مــــدحت محمد دأً بقصــــيدتي فلــــقــــد مــــدحت قصــــيدتي بمحمد دــــ

وعنه : نعم القوم أنتم ، ما كان من حلو فلکم ، ومن كان من مرّ فهو لأهل الكتاب ، من جحد حكم الله كفر ، ومن لم يحكم به وهو مقرّ فهو ظالم فاسق. وعن الشعبي : هذه في أهل الإسلام ، والظالمون في اليهود ، والفاسقون في النصارى. وعن ابن مسعود : هو عام في اليهود وغيرهم. وعن حذيفة : أنتم أشبه الأمم سمتا ببني إسرائيل : لتركبن طريقهم حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة ^(١) ، غير أني لا أدري أتعبدون العجل أم لا؟

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٤٥)

في مصحف أبي : وأنزل الله على بني إسرائيل فيها. وفيه : وأن الجروح قصاص. والمعطوفات كلها قرئت منصوبة ومرفوعة ، والرفع للعطف على محل أن النفس ، لأن المعنى وكتبنا عليهم النفس بالنفس ، إما لإجراء كتبنا مجرى قلنا ، وإما لأن معنى الجملة التي هي قولك النفس بالنفس مما يقع عليه الكتب كما تقع عليه القراءة. تقول : كتبت الحمد لله ، قرأت سورة أنزلناها. ولذلك قال الزجاج : لو قرئ : إن النفس بالنفس ، بالكسر ؛ لكان صحيحاً. أو للاستئناف. والمعنى : فرضنا عليهم فيها ﴿أَنَّ النَّفْسَ﴾ مأخوذة ﴿بِالنَّفْسِ﴾ مقتولة بها إذا قتلتها بغير حق ﴿وَوَ﴾ كذلك ﴿الْعَيْنَ﴾ مفقوءة ﴿بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ﴾ مجدوع ﴿بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ﴾ مصلومة ﴿بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ﴾ مقلوعة ﴿بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ ذات قصاص ، وهو المقاصة ، ومعناه : ما يمكن فيه القصاص وتعرف المساواة. وعن ابن عباس رضى الله عنهما : كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة فنزلت ﴿فَمَن تَصَدَّقَ﴾ من أصحاب الحق ﴿بِهِ﴾ بالقصاص وعفا عنه ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ فالتصدق به كفارة للمتصدق يكفر الله من سيئاته ما تقتضيه الموازنة كسائر طاعاته ، وعن عبد الله بن عمرو يهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدق به ، وقيل : فهو كفارة للجاني ، إذا تجاوز عنه صاحب الحق سقط عنه ما لزمه ، وفي قراءة أبي : فهو كفارة له يعنى فالتصدق كفارته له أى الكفارة التي يستحقها له لا ينقص منها ، وهو تعظيم لما فعل ، كقوله تعالى : ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ وترغيب في العفو.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى

(١) قوله «والقذة بالقذة» القذة. ريشة السهم اه. (ع)

وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾

قفيته مثل عقبته ، إذا أتبعته ، ثم يقال قفيته بفلان وعقبته به ، فتعديبه إلى الثاني بزيادة الباء فإن قلت : فأين المفعول الأول في الآية؟ قلت ، هو محذوف والظرف الذي هو ﴿عَلَى آثَارِهِمْ﴾ كالمساذ مسدّه ؛ لأنه إذا قفى به على أثره فقد قفى به إياه ، والضمير في آثارهم للنبيين في قوله : ﴿يَحْكُمُ بِهِمَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾. وقرأ الحسن : الإنجيل بفتح الهمزة ؛ فإن صح عنه فلا أنه أعجمى خرج لعجمته عن زناة العربية ، كما خرج هاويل وأجر ﴿وَمُصَدِّقًا﴾ عطف على محل ﴿فِيهِ هُدًى﴾ ومحل النصب على الحال ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً﴾ يجوز أن ينتصبا على الحال. كقوله : ﴿مُصَدِّقًا﴾ وأن ينتصبا مفعولا لهما ، كقوله : ﴿وَلِيَحْكُمَ﴾ كأنه قيل. وللهدى والموعظة آتيانه الإنجيل ، وللحكم بما أنزل الله فيه من الأحكام. فإن قلت : فإن نظمت ﴿هُدًى وَمَوْعِظَةً﴾ في سلك مصدقا ، فما تصنع بقوله وليحكم قلت : أصنع به ما صنعت بهدى وموعظة حين جعلتهما مفعولا لهما ، فأقدر : وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله آتيانه إياه. وقرئ : وليحكم على لفظ الأمر بمعنى : وقلنا ليحكم. وروى في قراءة أبي : وأن ليحكم ، بزيادة «أن» مع الأمر على أن «أن» موصولة بالأمر ، كقولك : أمرته بأن قم كأنه قيل : وآتيانه الإنجيل وأمرنا بأن يحكم أهل الإنجيل. وقيل : إن عيسى عليه السلام كان متعبداً بما في التوراة من الأحكام ؛ لأن الإنجيل مواعظ وزواجر والأحكام فيه قليلة. وظاهر قوله ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ يردّ ذلك ، وكذلك قوله : ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ وإن ساغ لقائل أن يقول : معناه : وليحكموا بما أنزل الله فيه من إيجاب العمل بأحكام التوراة.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ جَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٤٨)

فإن قلت : أى فرق بين التعريفين في قوله ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ وقوله ﴿لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾؟ قلت : الأول تعريف العهد ، لأنه عني به القرآن. والثاني تعريف الجنس ، لأنه

غنى به جنس الكتب المنزلة : ويجوز أن يقال : هو للعهد ؛ لأنه لم يرد به ما يقع عليه اسم الكتاب على الإطلاق ؛ وإنما أريد نوع معلوم منه ، وهو ما أنزل من السماء سوى القرآن ﴿وَمُهِمِّنَا﴾ ورفيها على سائر الكتب ؛ لأنه يشهد لها بالصحة والثبات. وقرئ ﴿وَمُهِمِّنَا عَلَيْهِ﴾ بفتح الميم ، أى هو من عليه بأن حفظ من التغيير والتبديل ، كما قال : ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ والذي هيمن عليه الله عز وجل أو الحفاظ في كل بلد ، لو حُرِفَ حَرْفٌ منه أو حركة أو سكون لتنبه عليه كل أحد ، ولاشتمأزوا رادّين ومنكرين. ضمن ﴿وَلَا تَتَّبِعْ﴾ معنى ولا تنحرف ؛ فلذلك عدّى بعن كأنه قيل : ولا تنحرف عما جاءك من الحق متبعا أهواءهم ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ أيها الناس ﴿شِرْعَةً﴾ شريعة. وقرأ يحيى بن وثاب بفتح الشين ﴿وَمِنْهَا جَاءَ﴾ وطريقا واضحا في الدين تجرون عليه. وقيل : هذا دليل على أنا غير متعبدین بشرائع من قبلنا ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ جماعة متفقة على شريعة واحدة ، أو ذوى أمة واحدة أى دين واحد لا اختلاف فيه ﴿وَلَكِنْ﴾ أراد ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ من الشرائع المختلفة ، هل تعملون بها مذكغنين معتقدين أنها مصالح قد اختلفت على حسب الأحوال والأوقات ، معترفين بأن الله لم يقصد باختلافها إلا ما اقتضته الحكمة؟ أم تتبعون الشبه وتفريطون في العمل؟ ﴿فَاسْتَبِقُوا الْحَيْرَاتِ﴾ فابتدروها وتسابقوا نحوها ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ استئناف في معنى التعليل لاستباق الخيرات ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ فيخبركم بما لا تشكون معه من الجزاء الفاصل بين محكمكم ومبطلكم ، وعاملكم ومفريطكم في العمل.

﴿وَأَنْ أَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ دُذُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ (٤٩)

فإن قلت : ﴿وَأَنْ أَحْكُمْ بَيْنَهُمْ﴾ معطوف على ما ذا؟ قلت : على : ﴿الْكِتَابِ﴾ في قوله ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ كأنه قيل : وأنزلنا إليك أن احكم على أن «أن» وصلت بالأمر ، لأنه فعل كسائر الأفعال : ويجوز أن يكون معطوفا على : ﴿بِالْحَقِّ﴾ أى أنزلناه بالحق وبأن احكم ﴿أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أن يضلوك عنه ويستزلوك : وذلك أن كعب بن أسيد وعبد الله بن سوريا وشاس بن قيس من أحبار اليهود قالوا : اذهبوا بنا إلى محمد نفتته عن دينه ، فقالوا : يا محمد قد عرفت أنا أحبار اليهود ، وأنا إن اتبعناك اتبعتنا اليهود كلهم ولم يخالفونا ، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنتحاكم إليك فتقضى لنا عليهم ، ونحن نؤمن بك ونصدّقك ، فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الحكم بما أنزل الله إليك وأرادوا غيره ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ دُذُوبِهِمْ﴾

يعنى بذنب التولي عن حكم الله وإرادة خلافه ، فوضع ﴿بَعْضُ ذُنُوبِهِمْ﴾ موضع ذلك وأراد أنّ لهم ذنوباً جمة كثيرة العدد ، وأنّ هذا الذنب مع عظمه بعضها وواحد منها ، وهذا الإيهام لتعظيم التولي واستسرافهم في ارتكابه. ونحو البعض في هذا الكلام ما في قول لبيد :

أَوْ يَرْتَبُطُ بَعْضُ النَّفُوسِ حِمَامُهَا ^(١)

أراد نفسه : وإنما قصد تفخيم شأنها بهذا الإيهام ، كأنه قال : نفساً كبيرة ، ونفساً أى نفس ، فكما أن التنكير يعطى معنى التكبير وهو معنى البعضية ، فكذلك إذا صرح بالبعض ﴿لَفَاسِقُونَ﴾ المتمردون في الكفر معتدون فيه ، يعنى أنّ التولي عن حكم الله من التمرد العظيم والاعتداء في الكفر.

﴿أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةَ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوفُونَ﴾ (٥٠)

﴿أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةَ يَبْغُونَ﴾ فيه وجهان ، أحدهما : أنّ قريظة والنضير طلبوا إليه أن يحكم بما كان يحكم به أهل الجاهلية من التفاضل بين القتلى : وروى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم «القتلى بواء» فقال بنو النضير : نحن لا نرضى بذلك ^(٢) فنزلت : والثاني : أن يكون تعبيراً لليهود بأنهم أهل كتاب وعلم ، وهم ييغون حكم الملة الجاهلية التي هي هوى وجهل ، لا تصدر عن كتاب ولا ترجع إلى وحى من الله تعالى : وعن الحسن : هو عام في كل من ييغى غير حكم الله : والحكم حكمان : حكم بعلم فهو حكم الله ، وحكم بجهل فهو حكم الشيطان. وسئل طاوس عن الرجل يفضل بعض ولده على بعض ، فقرأ هذه الآية : وقرئ : تبغون ، بالتاء والياء : وقرأ السلمي : أفحكم الجاهلية ييغون ، برفع الحكم على الابتداء ، وإيقاع ييغون خبراً وإسقاط الراجع عنه كإسقاطه عن الصلة في : ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ وعن الصفة في : الناس رجالان : رجل أهنت ، ورجل أكرمت. وعن الحال في «مررت بهند يضرب زيد» وقرأ قتادة ﴿أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةَ﴾ على أنّ هذا الحكم الذي ييغونه إنما

(١) تــــراك أمكنــــة إذا لم أرضــــها أو يــــرتبط بــــعــــض النفــــوس حــــمــــامهــــا

للبيد بن ربيعة من معلقته. يقول : أنا كثير ترك الأمكنة إذا لم أرض الإقامة بها. أو يرتبط ويحتبس بعض النفوس ، يعنى نفسه «حمامها» أى موتها المقدر لها فإذا رضيتها أو احتبسني الموت فيها فكيف أتركها؟ فقوله «يرتبط» بالجزم ، عطف على المجزوم قبله. وقيل «أو» بمعنى «إلا» لكن كان حقه النصب حينئذ. ولعله سكن للضرورة. وكما أن التنوين يفيد معنى التعظيم ، فكذلك كل ما فيه إيهام كالبعضية هنا ، فعبر عن نفسه ببعض النفوس دلالة على التعظيم. بل ربما ادعى أنها كل النفوس مبالغة.

(٢) لم أجده هكذا ، وفي ابن أبي شيبه من طريق الشعبي قال : كان بين حيين من العرب قتال . فذكر قصة ؛ فيها : فارتفعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : «القتلى بواء» أى سواء.

يحكم به أفعى نجران ، أو نظيره من حكام الجاهلية ، فأرادوا بسفهمهم أن يكون محمد خاتم النبيين حكما كأولئك الحكام. اللام في قوله ﴿لَقَوْمٍ يُوقِتُونَ﴾ للبيان كاللام في : ﴿هَبْتَ لَكَ﴾ أى هذا الخطاب وهذا الاستفهام لقوم يوقنون ، فإنهم الذين يتيقنون أن لا عدل من الله ولا أحسن حكما منه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥١)
فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ (٥٣)

لا تتخذوهم أولياء تنصروهم وتستنصروهم وتؤاخوهم وتصافوهم وتعاشروهم معاشرة المؤمنين. ثم علل النهى بقوله ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أى إنما يوالى بعضهم بعضا لاتحاد ملتهم واجتماعهم في الكفر ، فما لمن دينه خلاف دينهم ولموالاتهم ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ﴾ من جملتهم وحكمه حكمهم. وهذا تغليظ من الله وتشديد في وجوب مجانبة المخالف في الدين واعتزاله ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تراءى ناراها» ^(١) ومنه قول عمر رضى الله عنه لأبي موسى في كاتبه النصراني : لا تكرموهم إذ أهانهم الله ، ولا تأمنوهم إذ خوّنهم الله ، ولا تدنوهم إذ أقصاهم الله ^(٢) : وروى أنه قال له أبو موسى : لا قوام للبصرة إلا به ، فقال : مات النصراني والسلام ، يعنى هب أنه قد مات ، فما كنت تكون صانعاً حينئذ فاصنعه الساعة ، واستغن عنه بغيره ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يعنى الذين ظلموا أنفسهم بموالة الكفر ^(٣) يمنعهم الله ألطافه ويخذلهم مقتا لهم ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ ينكمشون في موالاتهم

(١) أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث جرير «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية إلى خثعم ، فاعتصم ناس بالسجود. الحديث» وفيه : وقال «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين. قالوا : ولم؟ قال : لا تراءى ناراها» وصله أبو معاوية عن إسماعيل عن قيس عنه. وأرسله غيره من أصحاب إسماعيل كعبدة بن سليمان ووكيع وهشيم ومروان وتابعه حجاج بن أرطاة عن إسماعيل موصولا. وحجاج ضعيف ورجح البخاري وغيره المرسل. وخالف الجميع حفص بن غياث فرواه عن إسماعيل عن قيس عن خالد بن الوليد أخرجه الطبراني.

(٢) أخرجه البيهقي في أدب القاضي من السنن الكبير مطولا دون ما في آخره ، فليُنظر.

(٣) قوله «موالة الكفر» لعله الكفرة. (ع)

ويرغبون فيها ويعتذرون بأنهم لا يأمنون أن تصيبهم دائرة من دوائر الزمان ، أى صرف من صروفه ودولة من دوله ، فيحتاجون إليهم وإلى معونتهم. وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ لي موالى من يهود كثيراً عددهم ، وإنى أبرأ إلى الله ورسوله ^(١) من ولايتهم وأوالى الله ورسوله فقال عبد الله بن أبيّ : إني رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالى وهم يهود بنى قينقاع ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَّ بِالْفَتْحِ﴾ لرسول الله صلى الله عليه وسلم على أعدائه وإظهار المسلمين ﴿أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ يقطع شأفة اليهود ^(٢) ويجلبهم عن بلادهم ، فيصبح المنافقون نادمين على ما حدثوا به أنفسهم : وذلك أنهم كانوا يشكون في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإظهار أسرار المنافقين وقتلهم فيندموا على نفاقهم. وقيل : أو أمر من عنده : أو أن يؤمر النبي صلى الله عليه وسلم بإظهار أسرار المنافقين وقتلهم فيندموا على نفاقهم. وقيل : أو أمر من عند الله لا يكون فيه للناس فعل كبني النضير الذين طرح الله في قلوبهم الرعب ، فأعطوا بأيديهم من غير أن يوجف عليهم بخيل ولا ركاب ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قرئ بالنصب عطفاً على أن يأتى ، وبالرفع على أنه كلام مبتدأ ، أى : ويقول الذين آمنوا في ذلك الوقت : وقرئ : يقول ، بغير واو ، وهي في مصاحف مكة والمدينة والشام كذلك على أنه جواب قائل يقول : فما ذا يقول المؤمنون حينئذ؟ فقيل : يقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا. فإن قلت : لمن يقولون هذا القول؟ قلت : إما أن يقوله بعضهم لبعض تعجباً من حالهم واعتباطاً بما مَنَّ الله عليهم من التوفيق في الإخلاص ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا﴾ لكم بإغلاظ الأيمان أنهم أولياؤكم ومعاضدوكم على الكفار. وإما أن يقوله لليهود لأنهم حلفوا لهم بالمعاضدة والنصرة ، كما حكى الله عنهم ﴿وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾. ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ من جملة قول المؤمنين ، أى بطلت أعمالهم التي كانوا يتكلفونها في رأى أعين الناس. وفيه معنى التعجب كأنه قيل : ما أحبط أعمالهم! فما أخسرهم! أو من قول الله عز وجل شهادة لهم بحبوط الأعمال وتعجباً من سوء حالهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُجِبُونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

(١) أخرجه الطبري من رواية عطية بن سعيد العوفي قال : جاء رجل يقال له عبادة بن الصامت . فذكره مرسلًا وأتم منه ومن هذا الوجه أخرجه ابن أبي شيبة. وله طرق أخرى في المغازي لابن إسحاق عن أبيه عن عبادة بن الوليد عن عبادة بن الصامت أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر نحوه.

(٢) قوله «يقطع شأفة اليهود» في الصحاح «الشأفة» قرحة تخرج في أسفل القدم فتكوى فتذهب ، ف ضرب بها المثل في الاستئصال اه باختصار. (ع)

وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَّائِمَ ذَلِكَ فَضَّلَ اللَّهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

وقرئ ﴿مَنْ يَرْتَدَّ﴾ ومن يرتدد ، وهو في الإمام بدالين ، وهو من الكائنات التي أخبر عنها في القرآن قبل كونها. وقيل : بل كان أهل الردّة إحدى عشرة فرقة : ثلاث في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم : بنو مدلج ، ورئيسهم ذو الخمار وهو الأسود العنسي ، وكان كاهنا تنبأ باليمن واستولى على بلاده ، وأخرج عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى معاذ بن جبل وإلى سادات اليمن ، فأهلكه الله على يدي فيروز الديلمي بيته فقتله وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله ليلة قتل ، فسرّ المسلمون وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغد. وأتى خبره في آخر شهر ربيع الأول^(١). وبنو حنيفة ،

(١) قوله : إن أهل الردة كانوا إحدى عشرة فرقة ثلاثة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسبعة على عهد أبي بكر رضي الله عنه وواحدة على عهد عمر. فالتى في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو مدلج ورئيسهم ذو الخمار وهو الأسود العنسي. قلت : ليس قوله الأسود المذكور بنى مدلج ، بل بنو مدلج قوم من بنى كنانة بن مضر إخوة قريش والأسود المذكور كان باليمن. وقومه بنو عنس . بفتح العين المهملة وسكون النون بعدها سين مهملة. قال الزمخشري كان الأسود المذكور كاهنا تنبأ باليمن واستولى على بلاده وأخرج عمال النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فكتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى معاذ بن جبل وإلى سادات اليمن ، فأهلكه الله على يد فيروز الديلمي فقتله. وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله ليلة قتل. فسر المسلمون بذلك. وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغد في آخر شهر ربيع الأول. قلت : وفي هذا الكلام من التخليط غير شيء فان قوله : استولى على بلاد اليمن وأخرج عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ظاهره يقتضى أن لا يبقى منهم هناك أحد وليس الأمر كذلك ، بل بقي منهم على ما كان عليه جماعة منهم من المهاجرين ابن أبي أمية ومعه جميع السواحل. وكان باليمن أيضا معاذ بن جبل وغيره من عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم في سواحل اليمن. وإنما استولى العنسي على صنعاء. وبعض البلاد الجبلية. وقد نقض الزمخشري كلامه بقوله : فانه صلى الله عليه وسلم كتب إلى معاذ بن جبل وإلى سادات اليمن. ولكن الجمع بين كلاميه : بأن مراده ، إخراج عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين حاربهم فيكون المراد إخراج بعضهم لا جميعهم. وقوله : وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغد ، أى صبيحة إخباره بقتل الأسود. وفيه نظر وسيأتى وجهه. وقوله : في آخر شهر ربيع الأول : ليس بصحيح فانه صلى الله عليه وسلم مات في أول شهر ربيع الأول. وقيل : في ثامن. وقيل : في ثاني عشر. وسيأتى بيان الاختلاف في وقت المجيء برأس الأسود العنسي. وقصة الأسود العنسي قد أخرجها مطولة جميع من صنف في الردة كابن إسحاق والواقدي وسيف بن عمر. وسيمة بن الفرات. وأخرجها الحاكم في الإكليل والبيهقي في الدلائل ، قال الواقدي : اسم الأسود ذو الخمار. وقال غيره : اسمه عبهلة ولقبه ذو الخمار ، لأنه كان يلقي على وجهه قناعا ويهمهم. وكان له شيطانان أحدهما سحيق والآخر بشقيق ، قال الواقدي : وملك الأسود نجران وأقام بها ستة أشهر ثم خرج في ستمائة ممن تبعه إلى صنعاء فحاصر الأساورة منهم باذان. وفيروز ودادويه في آخرين. وكانوا أسلموا. وأرسلوا بإسلامهم فروة بن مسيك المرادي. فاقتتل الفريقان حتى غلب الأسود فقتل منهم طائفة. وخير طائفة بين أن يخرجوا من صنعاء إلى بلد آخر وقيموا بها ويضرب عليهم الخراج ويصيروا عبيداً له. واصطفى الأسود المرزبانة امرأة باذان لنفسه. وكانت جميلة. وكان يشرب الخمر ويقع عليها ولا يغتسل ولا يصلى ، فكرهته المرزبانة وراسلت الأساورة وفيهم فيروز ، وواعدتهم البستان في الوقت الذي يسكر فيه الأسود. فدخل عليه فيروز ودادويه وقيس بن مكشوح وهو سكران. فقالت المرزبانة : .

قوم مسيلمة ^(١) تنبأ وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله. أما بعد فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك. فأجاب عليه الصلاة والسلام : «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب. أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين» فحاربه أبو بكر رضي الله عنه بجنود المسلمين ، وقتل على يدي وحشى قاتل حمزة. وكان يقول : قتلت خير الناس في الجاهلية ، وشرّ الناس في الإسلام ، أراد في جاهليتي وإسلامي. وبنو أسد قوم طليحة بن خويلد تنبأ فبعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خالداً ^(٢) فانهزم بعد القتال إلى الشام ثم أسلم وحسن إسلامه. وسبع في عهد أبي بكر رضي الله عنه : فزارة قوم عيينة بن حصن ، وغطفان قوم قرّة بن سلمة القشيري ، وبنو سليم قوم الفجاءة بن عبد يا ليل ، وبنو يربوع قوم

. لفيروز وهو أحدثهم سناً : دونك الرجل. قال فيروز : كنت قد أنسيت سيفي من الدهش. ف وقعت على الأسود فخنقته حتى حولت وجهه إلى قفاه. ثم دخل أصحابه فحزوا رأسه. واجتمع الأساورة بباب المدينة يقتلون أصحاب العنسي. فذكر تمام القصة ، إنما اختصرناها. وروى النسائي من حديث عبد الله بن فيروز الديلمي عن أبيه قال «أتيت النبي صلى الله عليه وسلم برأس الأسود العنسي» قال عبد الحق لا يصح في هذا الباب شيء. وتعقبه ابن القطان بأن إسناده النسائي صحيح. ولا يعارضه ما جاء إن الخير بقتله إنما جاء إثر موت النبي صلى الله عليه وسلم لأن رواية النسائي ليس فيها التصريح أنه صادف النبي صلى الله عليه وسلم. نعم في رواية الطبري زيادة تدل على ذلك.

(١) قول الزمخشري : وبنو حنيفة باليمامة. ورئيسهم مسيلمة. روى الواقدي من طريق حبيب بن عمير الأنصاري قال «كان مسيلمة بن حبيب قد ادعى النبوة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وقال لقومه يا معشر بني حنيفة ما الذي جعل قريشا أحق بالنبوة منكم وليسوا بأكثر منكم ولا أعد ، والله إن بلادكم لأوسع من بلادهم ، وإن جبريل ينزل على كما ينزل على محمد وشهد له الدجال بن عنوة أن محمداً أشرك مسيلمة في الأمر ، فسألوه وشهد له. وقرأ عليهم مسيلمة قرآناً يزعمه. سبح اسم ربك الأعلى الذي يسر على الحبلَى. فأخرج منها نسمة تسعى من بين أحشا وسلا فمنهم من يدس في الثرى ومنهم يعيش يحيى. إلى أجل ومنتهى. والله يعلم السر وأخفى. ولا يخفى عليه أمر الآخرة والأولى.

فبايعه أهل اليمامة فلما قدمت وفود العرب على النبي صلى الله عليه وسلم بعد الفتح قدم مسيلمة في وفد بني حنيفة ، فجعل يقول إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته. فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله أن يشركه في الأمر ، وأن يجعل له الخلافة بعده فأبى. ثم إن وفد بني حنيفة أظهروا الإسلام. وأجازهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل جوائز الوفود ورجع مسيلمة معهم مظهراً النبوة. وشهد له الدجال بن عنوة أن محمداً أشركه في الأمر. وتنادى مسيلمة على ضلاله. إلى خلافة أبي بكر فكثير تابعوه. فجهز إليه أبو بكر في جمع من الصحابة ، فالتقوا باليمامة فاقتتلوا قتالاً شديداً من طلوع الشمس إلى العصر : وكثر القتل والجراح في الفريقين ووقعت النوبة في المسلمين.

ثم تراجع المهاجرون والأنصار. فدفعوا بني حنيفة دفعة عظيمة حتى ألجؤهم إلى حديقة فيها مسيلمة فاعتصموا بها.

وأغلقت الباب فحاصروهم المسلمون. وقال لهم أبو دجانة ألقوني على المدينة حتى أصعد إلى أعلى الحديقة ففعلوا فهبط عليهم فقتل منهم حين فتح باب الحديقة وقتل هو وولج المسلمون الحديقة. فقتلوه حين انتهى القتال إلى مسيلمة فطعنه عبد الله بن زيد الأنصاري. وزرقه وحشى بن حرب فاشتركا في قتله.

(٢) قوله «خالداً» في أبي السعد «أبا بكر» اه. (ع)

مالك بن نويرة وبعض تميم قوم سجاح بنت المنذر المتنبئة التي زوّجت نفسها مسيلمة الكذاب ، وفيها يقول أبو العلاء المعري في كتاب استغفر واستغفري :

أَمْسَتْ سَجَاحٌ وَوَالَاهَا مُسَيْلِمَةُ كَذَّابَةٌ فِي بَنِي السُّدُنِّيَا وَكَذَّابٌ ^(١)

وكندة قوم الأشعث بن قيس ، وبنو بكر بن وائل بالبحرين قوم الحطيم بن زيد ، وكفى الله أمرهم على يد أبي بكر رضى الله عنه. وفرقة واحدة في عهد عمر رضى الله عنه : غسان قوم جبلة ابن الأيهم نصرته اللطمة ^(٢) وسيرته إلى بلاد الروم بعد إسلامه ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ﴾ قبل لما نزلت أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي موسى الأشعري فقال : «قوم هذا ^(٣)» وقيل هم ألفان من النخع ، وخمسة آلاف من كندة وبجيلة ، وثلاثة آلاف من أفناء الناس ^(٤) جاهدوا يوم القادسية. وقيل : هم الأنصار. وقيل : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم فضرب يده على عاتق سلمان وقال : «هذا وذووه» ثم قال : لو كان الإيمان معلقاً بالثريا لناله رجال من أبناء فارس ^(٥) ﴿حُبُّهُمْ وَحُبُّونَهُ﴾ محبة العباد لربهم طاعته وابتغاء مرضاته ، وأن لا يفعلوا ما يوجب سخطه ^(٦) وعقابه. ومحبة الله لعباده أن يثيبهم أحسن الثواب على طاعتهم ويعظمهم ويثني

(١) لأبي العلاء المصري. وأمت . بالتشديد . : صارت إماما في بني حنيفة وادعت النبوة. ويروى بالمد والتخفيف ، أى صارت إما غير متزوجة وهي بنت المنذر. ووافاها ، أى وافقها مسيلمة ، فانه تزوجها وكان مدعيا للنبوة أيضاً ، وبعد قتله تابت وحسن إسلامها.

(٢) قوله «نصرته اللطمة» لعلها اللطيمة وهي العير التي تحمل الطيب وبز التجار ، فحرر.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة وإسحاق والحاكم والطبراني. والطبري من طريق سماك بن حرب. عن عياض الأشعري. قال : لما نزلت هذه الآية فذكره. ورواه البيهقي في الدلائل من وجه آخر عن سماك عن عياض عن أبي موسى قال تلوت عند النبي صلى الله عليه وسلم ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ﴾ الآية. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قومك يا أبا موسى. أهل اليمن.

(٤) قوله «من أفناء الناس» في الصحاح «فناء الدار» ما امتد من جوانبها. والجمع أفنية. ويقال : هو من أفناء الناس ، إذا لم يعلم ممن هو. (ع)

(٥) هكذا رواه. وهو وهم منه فان. هذا الكلام إنما ورد في آية الجمعة من طريق أبي العيث عن أبي هريرة وهو متفق عليه. وفي آية القتال رواه الترمذي من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضى الله عنه

(٦) قال محمود : «محبة العباد لربهم طاعته وابتغاء مرضاته ، وأن لا يفعلوا ما يوجب سخطه وعقابه. ومحبة الله لعباده أن يثيبهم أحسن الثواب على طاعتهم ويعظمهم ويثني عليهم ويرضى عنهم. وأما ما يعتقدده أجهل الناس وأعداهم للعلم وأهله وأمقتهم للشرع وأسوأهم طريقة ، وإن كانت طريقتهم عند أمثالهم من الجهالة والسفهاء شيئا ، وهم الفرقة المفتعلة المتفعلة من الصوف ، وما يدينون به من المحبة والعشق والتغني على كراسيهم خربها الله ، وفي مراقصهم عطلها الله ، بأبيات الغزل المقولة في المردان الذين يسمونهم شهداء ، وصعقاتهم التي أين منها صعقة موسى يوم دك الطور ، فتعالى الله عنه علواً كبيراً. ومن كلماتهم كما أنه بذاته يحبهم كذلك يحبون ذاته ، فان الهاء راجعة إلى الذات دون النعوت والصفات» انتهى كلامه. قال أحمد : لا شك أن تفسير محبة العبد لله بطاعته له على خلاف الظاهر وهو من المجاز الذي يسمى فيه المسبب باسم السبب والمجاز الذي لا يعدل إليه عن الحقيقة إلا بعد تعذرهما ، فليمتحن حقيقة .

عليهم ويرضى عنهم : وأما ما يعتقد أنه أجهل الناس وأعداهم للعلم وأهله وأمقتهم للشرع وأسوأهم طريقة ، وإن كانت طريقتهم عند أمثالهم من الجهلة والسفهاء شيئاً ، وهم الفرقة المفتعلة المتفعلة من الصوف ، وما يدينون به من المحبة والعشق ، والتغني على كراسيهم خربها الله ، وفي مراقصهم عطّلها الله ، بأبيات الغزل المقولة في المردان الذين يسموهم شهداء ، وصعقاتهم التي أين عنها صعقة موسى عند ذلك الطور ، فتعالى الله عنه علواً كبيراً ، ومن كلماتهم : كما أنه بذاته يحبهم ، كذلك يحبون ذاته ، فإنّ الهاء راجعة إلى الذات دون النعوت والصفات. ومنها : الحب شرطه أن تلحقه

المحبة لغة بالقواعد لينظر أهي ثابتة للعبد متعلقة بالله تعالى أم لا ، إذ المحبة لغة : ميل المتصف بها إلى أمر ملذ واللذات الباعثة على المحبة منقسمة إلى مدرك بالحس ، كلذة الذوق في المطعم ، ولذة النظر واللمس في الصور المستحسنة ، ولذة الشم في الروائح العطرة ، ولذة السمع في النغمات الحسنة ، وإلى لذة تدرك بالعقل كلذة الجاه والرياسة والعلوم وما يجري مجراها ، فقد ثبت أن في اللذات الباعثة على المحبة ما لا يدركه إلا العقل دون الحس ، ثم تتفاوت المحبة ضرورة بحسب تفاوت البواعث عليها ، فليس اللذة برئاسة الإنسان على أهل قرية كلذته برئاسة على أقاليم معتبرة. وإذا تفاوتت المحبة بحسب تفاوت البواعث ، فلذات العلوم أيضاً متفاوتة بحسب تفاوت المعلومات فليس معلوم أكمل ولا أجمل من المعبود الحق ، فاللذة الحاصلة في معرفته تعالى ومعرفة جلاله وكماله تكون أعظم ، والمحبة المنبعثة عنها تكون أمكن. وإذا حصلت هذه المحبة بعثت على الطاعات والموافقات ، فقد تحصل من ذلك أن محبة العبد ممكنة ، بل واقعة من كل مؤمن ، فهي من لوازم الإيمان وشروطه ، والناس فيها متفاوتون بحسب تفاوت إيمانهم. وإذا كان كذلك وجب تفسير محبة العبد لله بمعناها الحقيقي لغة ، وكانت الطاعات والموافقات كالمسبب عنها والمغاير لها. ألا ترى إلى الأعرابي الذي سأل عن الساعة فقال له النبي عليه الصلاة والسلام «ما أعددت لها» قال : ما أعددت لها كبير عمل ولكن حب الله ورسوله. فقال عليه الصلاة والسلام «أنت مع من أحببت» فهذا الحديث ناطق بأن المفهوم من المحبة لله غير الأعمال والتزام الطاعات ، لأن الأعرابي نفاها وأثبت الحب وأقره عليه الصلاة والسلام على ذلك ، ثم إذا ثبت إجراء محبة العبد لله تعالى على حقيقتها لغة ، فالمحبة في اللغة إذا تأكدت سميت عشقاً ، فمن تأكدت محبته لله تعالى وظهرت آثار تأكدها عليه من استيعاب الأوقات في ذكره وطاعته ، فلا يمنع أن تسمى محبته عشقاً ؛ إذ العشق ليس إلا المحبة البالغة. وما أردت بهذا الفصل إلا تخليص الحق والانتصاب لأحباء الله عز وجل من الزمخشري ، فانه خلط في كلامه الغث بالسمين ، فأطلق القول كما سمعته بالقدح الفاحش في المتصوفة من غير تحر منه ، ونسب إليهم ما لا يعبأ بمرتكبه ، ولا يعد في البهائم فضلاً عن خواص البشر ، ولا يلزم من تسمى طائفة بهذا الاسم غاصبين له من أهله ، ثم ارتكأهم ما نقل عنهم مما ينافي حال المسمين به حقيقة ، أن يؤاخذ الصالح بالطالح ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ وهذا كما أن علماء الدين قد انتسب إليهم قوم سمو أنفسهم بأهل العدل والتوحيد ، ثم خلعوا الريقة فجحدوا صفات الله تعالى وقضاه وقدره وقالوا : إن الأمر أنف ، وجعلوا لأنفسهم شركا في المخلوقات وفعلوا وصنعوا ، فلا يسوغ لنا أن نقدح في علماء أصول الدين مطلقاً ؛ لأنهم قد انتسب إليهم من لا حيلة لهم في نفيه عن التسمي بنعتهم ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ولا شك أن في الناس من أنكر تصور محبة العبد لله إلا بمعنى طاعته له لا غير ، وهو الذي يحاز إليه الزمخشري. وقد بينا تصور ذلك وأوضحناه. والمعتزون بتصور ذلك وثبوتهم ينسبون المنكرين إلى أنهم جهلوا فأنكروا ، كما أن الصبي ينكر على من يعتقد أن وراء اللعب لذة من جماع أو غيره ، والمنهمك في الشهوات والغرام بالنساء يظن أن ليس وراء ذلك لذة من رياسة أو جاه أو شبه ذلك ، وكل طائفة تسحر بمن فوقها وتعتقد أنهم مشغولون في غير شيء. قال الغزالي : والمحبون لله يقولون لمن أنكر عليهم ذلك : إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون.

سكرات المحبة ، فإذا لم يكن ذلك لم تكن فيه حقيقة. فإن قلت : أين الراجع من الجزاء إلى الاسم المتضمن لمعنى الشرط؟ قلت : هو محذوف معناه : فسوف يأتي الله بقوم مكانهم أو يقوم غيرهم ، أو ما أشبه ذلك ﴿أَذِلَّةٌ﴾ جمع ذليل. وأما ذلول فجمعه ذلل. ومن زعم أنه من الذل الذي هو نقيض الصعوبة ، فقد غبي عنه أنّ ذلولاً لا يجمع على أذلة. فإن قلت : هلا قيل أذلة للمؤمنين أعزة على الكافرين؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما أن يضمن الذل معنى الحنو والعطف «كأنه قيل : عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع. والثاني : أنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنتهم. ونحو قوله عز وجل : ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ وقرئ : أذلة. وأعزة ، بالنصب على الحال ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ يحتمل أن تكون الواو للحال ، على أنهم يجاهدون وحالهم في المجاهدة خلاف حال المنافقين ، فإنهم كانوا موالين لليهود. لعنت . فإذا خرجوا في جيش المؤمنين خافوا أولياءهم اليهود ، فلا يعملون شيئاً مما يعلمون أنه يلحقهم فيه لوم من جهتهم. وأما المؤمنون فكانوا يجاهدون لوجه الله لا يخافون لومة لائم قط. وأن تكون للعطف ، على أن من صفتهم المجاهدة في سبيل الله ، وأنهم صلاب في دينهم ، إذا شرعوا في أمر من أمور الدين إنكار منكر أو أمر بمعروف ، مضوا فيه كالمسامير الحمأة ، لا يربعهم قول قائل ولا اعتراض معترض ولا لومة لائم ، يشق عليه جدهم في إنكارهم وصلابتهم في أمرهم. واللومة : المرة من اللوم ، وفيها وفي التنكير مبالغتان كأنه قيل : لا يخافون شيئاً قط من لوم أحد من اللوم. و ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما وصف به القوم من المحبة والذلة والعزة والمجاهدة وانتفاء خوف اللومة ﴿يُؤْتِيهِ﴾ يوفق له ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ ممن يعلم أنّ له لطفاً ﴿وَاسِعٌ﴾ كثير الفواضل والألطف ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن هو من أهلها.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (٥٥)

عقب النهي عن موالاة من تحب معاداتهم ذكر من تحب موالاتهم بقوله تعالى ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ومعنى «إنما» وجوب اختصاصهم بالموالاة. فإن قلت : قد ذكرت جماعة ، فهلا قيل إنما أولياؤكم؟ قلت : أصل الكلام : إنما وليكم الله ، فجعلت الولاية لله على طريق الأصالة ، ثم نظم في سلك إثباتها له إثباتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على سبيل التبع ، ولو قيل : إنما أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا ، لم يكن في الكلام أصل وتبع وفي قراءة عبد الله : إنما مولاكم. فإن قلت : ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ﴾ ما محله؟ قلت : الرفع على البدل من الذين آمنوا ، أو على : هم الذين يقيمون. أو النصب على المدح. وفيه تمييز للخلص من الذين

آمنوا نفاقاً ، أو واطأت قلوبهم ألسنتهم إلا أنهم مفرطون في العمل ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ الواو فيه للحال ، أى يعملون ذلك في حال الركوع وهو الخشوع والإخبات والتواضع لله إذا صلوا وإذا زكوا. وقيل : هو حال من يؤتون الزكاة ، بمعنى يؤتونها في حال ركوعهم في الصلاة ، وإنها نزلت في علىّ كرم الله وجهه حين سأله سائل وهو راكع في صلاته فطرح له خاتمه ^(١) ، كأنه كان مرجاً ^(٢) في خنصره ، فلم يتكلف لخلعه كثير عمل تفسد بمثله صلاته. فإن قلت : كيف صح أن يكون لعلّى رضى الله عنه واللفظ لفظ جماعة؟ قلت : جيء به على لفظ الجمع وإن كان السبب فيه رجلاً واحداً ، ليرغب الناس في مثل فعله فينالوا مثل ثوابه ، ولينبه على أن سجية المؤمنين يجب أن تكون على هذه الغاية من الحرص على البرّ والإحسان وتفقد الفقراء ، حتى إن لزهم أمر لا يقبل ^(٣) التأخير وهم في الصلاة ، لم يؤخروه إلى الفراغ منها.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٥٦)

﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ﴾ من إقامة الظاهر مقام المضمر ^(٤). ومعناه : فإنهم هم الغالبون ، ولكنهم بذلك جعلوا أعلاماً لكونهم حزب الله. وأصل الحزب؟ القوم يجتمعون لأمر حزبهم. ويحتمل أن يريد بحزب الله : الرسول والمؤمنين. ويكون المعنى : ومن يتولهم فقد تولى حزب الله ، واعتضد بمن لا يغالب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءاً وَلَعِباً مِّنْ

(١) قلت : في قوله : «كأنه» إلى قوله «بمثله» من كلام صاحب الكشف. فقد رواه ابن أبي حاتم من طريق سلمة بن كهيل قال تصدق على بخاتمه وهو راكع ، فنزلت ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ ولا بن مردويه من رواية سفيان الثوري عن ابن سنان عن الضحاك. عن ابن عباس قال كان على قائماً يصلى ، فمر سائل وهو راكع فأعطاه خاتمه فنزلت. وروى الحاكم في علوم الحديث من رواية عيسى بن عبد الله بن عمر بن على. حدثنا أبي عن أبيه عن جده عن على بن أبي طالب قال نزلت هذه الآية. إنما وليكم الله ورسوله. الآية فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد والناس يصلون ، بين قائم وراكع وساجد. وإذا سائل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاك أحد شيئاً. قال لا إلا هذا الراكع يعنى علياً. أعطاني خاتمه. رواه الطبراني في الأوسط في ترجمة محمد بن على الصائغ وعند ابن مردويه من حديث عمار بن ياسر قال : وقف بعلى سائل وهو واقف في صلاته. الحديث. وفي إسناده خالد بن يزيد العمرى. وهو متروك. ورواه الثعلبي من حديث أبي ذر مطولاً وإسناده ساقط.

(٢) قوله «كأنه كان مرجاً» أى قلقاً غير ثابت. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قوله «لا يقبل» لعله «لا يفعل». (ع)

(٤) قال محمود : «هذا من إقامة الظاهر مقام المضمر ومعناه ... الخ» قال أحمد : ومقابله قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ فوضع الظالمين موضع ضمير الأول ليزيدهم سمة الظلم إلى الخسران.

الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (٥٨)

روى أن رفاعه بن زيد وسويد بن الحرث كانا قد أظهرنا الإسلام ثم نافقا ، وكان رجال من المسلمين يوادونهما ، فنزلت . يعنى أن اتخاذهم دينكم هزواً ولعباً لا يصح أن يقابل باتخاذكم إياهم أولياء ، بل يقابل ذلك بالبغضاء والشنآن والمناظرة . وفصل المستهزئين بأهل الكتاب والكفار . وإن كان أهل الكتاب من الكفار . إطلاقاً للكفار على المشركين خاصة . والدليل عليه قراءة عبد الله : ومن الذين أشركوا . وقرئ : والكفار بالنصب والجر . وتعصد قراءة الجر قراءة أجي : ومن الكفار ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في موالاة الكفار وغيرها ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ حقاً ؛ لأن الإيمان حقاً يأبى موالاة أعداء الدين ﴿اتَّخَذُوهَا﴾ الضمير للصلاة أو للمناداة . قيل كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المؤذن يقول «أشهد أن محمداً رسول الله» قال : حرق الكاذب ، فدخلت خادمه بنار ذات ليلة وهو نائم ، فتطايرت منها شرارة في البيت فاحترق البيت ، واحترق هو ^(١) وأهله . وقيل : فيه دليل على ثبوت الأذان بنص الكتاب لا بالمنام وحده ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ لأن لعبهم وهزؤهم من أفعال السفهاء والجهلة ، فكأنه لا عقل لهم .

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٥٩)

قرأ الحسن . هل تنقمون بفتح القاف . والفصيح كسرهما . والمعنى هل تعيبون منا وتنكرون إلا الإيمان بالكتب المنزلة كلها ﴿وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾ . فإن قلت : علام عطف قوله ﴿وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾ ؟ قلت : فيه وجوه : منها أن يعطف على أن آمنا ، بمعنى : وما تنقمون منا إلا الجمع بين إيماننا وبين تمردكم وخروجكم عن الإيمان ، كأنه قيل : وما تنكرون منا إلا مخالفتكم حيث دخلنا في دين الإسلام وأنتم خارجون منه . ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف ، أى واعتقاد أنكم فاسقون . ومنها أن يعطف على المجرور ، أى وما تنقمون منا إلا الإيمان بالله وبما أنزل وبأن أكثركم فاسقون . ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع ، أى وما تنقمون منا إلا الإيمان مع أن أكثركم

(١) أخرجه الطبري من رواية أسباط عن السدى في قوله ، وإذا ناديتهم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ، قال : كان رجل من النصارى ... فذكره .

فاسقون. ويجوز أن يكون تعليلاً معطوفاً على تعليل محذوف ، كأنه قيل : وما تنقمون منا إلا الإيمان لقلة إنصافكم وفسقكم واتباعكم الشهوات. ويدل عليه تفسير الحسن : بفسقكم نقتم ذلك علينا.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠) وَإِذَا جَاؤُكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ (٦١)

وروى أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر من اليهود فسألوه عمن يؤمن به من الرسل؟ فقال «أو من بالله وما أنزل إلينا إلى قوله : ونحن له مسلمون» فقالوا حين سمعوا ذكر عيسى عليه السلام : ما نعلم أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم ، ولا ديناً شراً من دينكم^(١). فنزلت. وعن نعيم بن ميسرة : وإن أكثركم ، بالكسر. ويحتمل أن ينتصب ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ﴾ بفعل محذوف يدل عليه هل تنقمون ، أى : ولا تنقمون أن أكثركم فاسقون ، أو يرتفع على الابتداء والخبر محذوف ، أى وفسقكم ثابت معلوم عندكم ، لأنكم علمتم أنا على الحق وأنكم على الباطل ، إلا أن حب الرياسة وكسب الأموال لا يدعكم فتنصفوا ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى المنقوم ، ولا بدّ من حذف مضاف قبله ، أو قبل «من» تقديره : بشرّ من أهل ذلك ، أو دين من لعنه الله. و ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ في محل الرفع على قولك : هو من لعنه الله ، كقوله تعالى : ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ النَّارُ﴾ أو في محل الجر على البدل من شرّ. وقرئ : مثوبة. ومثوبة. ومثالهما : مشورة ، ومسورة. فإن قلت : المثوبة مختصة بالإحسان ، فكيف جاءت في الإساءة؟ قلت : وضعت المثوبة موضع العقوبة على طريقة قوله :

تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ^(٢)

(١) أخرجه الواحدي في الأسباب. والوسط عن ابن عباس بهذا وأخرجه الطبري من رواية ابن إسحاق حدثني محمد بن أبي محمد ، مولى زيد بن ثابت. حدثني سعيد أو عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر من اليهود وفيهم أبو ياسر بن أخطب ورافع بن أبي رافع. وعازر وآزار ابني آزار. وأشيّع فسألوه عمن يؤمن به من الرسل فذكر نحوه. وفيه فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته. وقالوا لا نؤمن بعيسى ولا نؤمن بمن آمن به.

(٢) مر شرح هذا الشاهد ص ٦٠ من هذا الجزء فراجع إن شئت اه مصححه.

ومنه ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. فإن قلت : المعاقبون من الفريقين هم اليهود ، فلم شورك بينهم ^(١) في العقوبة؟ قلت : كان اليهود . لعنوا . يزعمون أن المسلمين ضالون مستوجبون للعقاب ، فقليل لهم : من لعنه الله شر عقوبة في الحقيقة واليقين من أهل الإسلام في زعمكم ودعواكم ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ عطف على صلة ^(٢) «من» كأنه قيل : ومن عبد الطاغوت. وفي قراءة أبيّ وعبدوا الطاغوت ، على المعنى. وعن ابن مسعود : ومن عبدوا. وقرئ وعابد الطاغوت ، عطفاً على القردة. وعابدى. وعباد. وعبد. ومعناه : الغلوّ في العبودية ، كقولهم ، رجل حذر وفطن ، للبليغ في الحذر والفتنة. قال :
أَبْنِي لُبْنِي نِي إِنَّ أُمَّكَ مُمُ أُمَّةٌ وَإِنَّ أَبَاكَ مُمُ عَبْنِي عِبْنِي دُ ^(٣)
وعبد ، بوزن حطم. وعبيد. وعبد. بضميتين . جمع عبيد : وعبدة بوزن كفرة. وعبد ، وأصله عبدة ، فحذفت التاء للإضافة. أو هو كخدم في جمع خادم. وعبد ^(٤) وعباد. وأعبد. وعبد الطاغوت ، على البناء للمفعول ، وحذف الراجع ، بمعنى : وعبد الطاغوت فيهم ، أو بينهم. وعبد الطاغوت بمعنى صار الطاغوت معبوداً من دون الله ، كقولك «أمر» إذا صار أميراً. وعبد الطاغوت ، بالجر عطفاً على: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾. فإن قلت : كيف جاز أن يجعل الله منهم

(١) (قوله فلم شورك بينهم) لعله بينهما ، أو بينهم وبين المسلمين. (ع)

(٢) قال محمود : «وعبد الطاغوت عطف عل صلة من ... الخ» قال أحمد رحمه الله : السؤال يلزم القدرية لأنهم يزعمون أن الله تعالى إنما أراد منهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وأن عبادتهم للطاغوت قبيحة والله تعالى لا يريد القبائح بل تقع في الوجود على خلاف مشيئته ، فلذلك يضطر الرمحشري إلى تأويل الجعل بالخذلان أو بالحكم ، وكذلك أول قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى التَّارِ﴾ بمعنى حكمنا عليهم بذلك. هذا مقتضى قاعدة القدرية. وأما على عقيدة أهل السنة الموحدين حقاً ، فالآية على ظاهرها ، والله تعالى هو الذي أشقاهم وخلق في قلوبهم طاعة الطاغوت وعبادته ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. وإذا روجع القدري في تحقيق الخذلان أو الحكم الذي يستروح إلى التأويل به ، لم يقدر منه على حقيقة ، ولم يفسره بغير الخلق إن اعترف بالحق وترك ارتكاب المراء ، والتذبذب مع الأهواء ، والله ولى التوفيق.

(٣) أَبْنِي لُبْنِي نِي لَسْت مَعْتَرِفَا لِيكُونَ أَلَامُ مَنكُمْ أَحَدُ
أَبْنِي لُبْنِي نِي إِنْ أَمَكُ مُمُ أُمَّةٌ وَإِنْ أَبَاكَ مُمُ عَبْنِي عِبْنِي دُ

لأوس بن حجر. وقيل لطفة بن العبد ، والهمزة للنداء ، والعبد كالحذر البليغ في العبودية. ورواه الفراء بالضم ، لكن قال : إن ضم الباء ضرورة. وقال السيوطي : إنه بالضم اسم جمع لعبد بالسكون ، لكن ظاهر البيت يخالفه. يقول : يا بني لبني ، لست معترفاً لأن يكون أحد أشد لؤماً منكم ، فان أبويكم رقيقين. وتخصيص الأمة بالرقيقة والعبد بالرقيق : عرف شائع في اللغة. وأداهم نداء الغريب ، لأنه أغيب للمواجهة بالذم. وكرر النداء مع هذه الاضافة للاستخفاف بهم.

(٤) قوله «وعبد» لعله بفتح العين وضم الباء كندس. أفاده الصحاح. (ع)

عباد الطاغوت؟^(١) قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أنه خذلهم حتى عبدوه. والثاني : أنه حكم عليهم بذلك ووصفهم به ، كقوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنِئَاءً﴾ وقيل الطاغوت : العجل ؛ لأنه معبود من دون الله ، ولأن عبادتهم للعجل مما زينه لهم الشيطان ، فكانت عبادتهم له عبادة للشيطان وهو الطاغوت. وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنه : أطاعوا الكهنة ، وكل من أطاع أحداً في معصية الله فقد عبده. وقرأ الحسن : الطواغيت. وقيل : وجعل منهم القردة أصحاب السبت ، والخنازير كفار أهل مائدة عيسى. وقيل : كلا المسخين من أصحاب السبت ، فشباهم مسخوا قردة ، ومشايخهم مسخوا خنازير. وروى أنها لما نزلت كان المسلمون يعيرون اليهود ويقولون يا إخوة القردة والخنازير فينكسون رءوسهم ﴿أُولَئِكَ﴾ الملعونون الممسوخون ﴿شَرٌّ مَكَانًا﴾ جعلت الشرارة للمكان وهي لأهله. وفيه مبالغة ليست في قولك : أولئك شر وأضل ، لدخوله في باب الكناية التي هي أخت المجاز. نزلت في ناس من اليهود كانوا يدخلون على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يظهرون له الإيمان نفاقاً ، فأخبره الله تعالى بشأنهم وأنهم يخرجون من مجلسك كما دخلوا ، لم يتعلق بهم شيء مما سمعوا به من تذكيرك بآيات الله ومواعظك. وقوله : ﴿بِالْكَفْرِ﴾ و ﴿بِهِ﴾ حالان ، أى دخلوا كافرين^(٢) وخرجوا كافرين. وتقديره : ملتبسين بالكفر. وكذلك قوله : ﴿وَقَدْ دَخَلُوا﴾ و﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا﴾ ولذلك دخلت ﴿قَدْ﴾ تقريباً للماضي من الحال. ولمعنى آخر : وهو أن أمارات النفاق كانت لائحة عليهم ، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم متوقعاً لإظهار الله ما كتموه ، فدخل حرف التوقع وهو متعلق بقوله : ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ أى قالوا ذلك وهذه حالهم.

﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ (٦٢) لَوْ لَا يَنْهَاهُمُ الرَّبِّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (٦٣)

الإثم الكذب^(٣) بدليل قوله تعالى : ﴿عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾. ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ الظلم. وقيل : الإثم

(١) قوله «فان قلت كيف جاز أن يجعل ... الخ» السؤال مبنى على أنه لا يجوز عليه تعالى خلق الشر. وهو مذهب المعتزلة. أما عند أهل السنة فيجوز كما تقرر في علم التوحيد. (ع)
(٢) قال محمود : «المجروران حالان أى دخلوا كافرين ... الخ» قال أحمد : وفي تصدير الجملة الثانية بالضمير تأكيد لاتحاد حالهم في الكفر ، أى وقد دخلوا بالكفر وخرجوا وهم أولئك على حالهم في الكفر ، كما تقول : لقيت زيدا بعد عوده من سفره وهو هو ، أى على حاله. وفي المثل «وعبد الحميد عبد الحميد» أى حالته باقية ، والله أعلم.
(٣) قال محمود : «الإثم الكذب ... الخ» قال أحمد : وقوله : ﴿عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾ يدل على أن الإثم الأول مقول ، فيحتمل أن يكون المراد الكذب مطلقاً. ويحتمل أن يراد كلمة الشرك ، واستدلال الزمخشري على أن المراد الكذب لا يتم ، وإنما يدل على أنه مقول فيحتمل الأمرين ، والله أعلم.

كلمة الشرك. وقولهم عزيز ابن الله. وقيل : الإثم : ما يختص بهم. والعدوان : ما يتعداهم إلى غيرهم. والمسارعة في الشيء الشروع فيه بسرعة ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ كأنهم جعلوا آثم من مرتكبي المناكير ^(١) لأن كل عامل لا يسمى صانعاً ، ولا كل عمل يسمى صناعة حتى يتمكن فيه ويتدرب وينسب إليه ، وكأن المعنى في ذلك أن مواقع المعصية معه الشهوة التي تدعوه إليها وتحمله على ارتكابها ، وأما الذي ينهيه فلا شهوة معه في فعل غيره ، فإذا فرط في الإنكار كان أشدّ حالاً من المواقع. ولعمري إن هذه الآية مما يقذف السامع ^(٢) وينعى على العلماء توانيهم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما : هي أشدّ آية في القرآن. وعن الضحاك : ما في القرآن آية أخوف عندي منها.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٦٤)

غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود ^(٣) ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا بسط ، ولا فرق عنده بين هذا الكلام وبين ما وقع مجازاً عنه لأحدهما كلامان متعقبان على حقيقة واحدة ، حتى أنه يستعمله في ملك لا يعطى عطاء قط ولا يمنعه إلا بإشارته من غير استعمال يد وبسطها وقبضها ، ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزيلاً لقالوا : ما أبسط يده بالنوال ، لأن بسط اليد

(١) عاد كلامه. قال : «جعلوا آثم من مرتكبي المناكير ، لأن كل عامل ... الخ» قال أحمد : يعني أنه لما عبر عن الواقع المذموم من مرتكبي المناكير بالعمل في قوله : ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وعبر عن ترك الإنكار عليهم حيث ذمه بالصناعة في قوله : ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ كان هذا الظم أشد ، لأنه جعل المذموم عليه صناعة لهم وللرؤساء ، وحرفة لازمة هم فيها أمكن من أصحاب المناكير في أعمالهم. وهذا مراده والله أعلم.

(٢) قوله «مما يقذف السامع» يعني يخففه وينشطه. وهذا إن كان مشدداً للذال من القذف. أو يضربه حتى يسترخى ويشرف على الموت. وهذا إن كان مخففاً من الوقد. (ع)

(٣) قال محمود : «غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود ... الخ» قال أحمد : والنكتة في استعمال هذا المجاز تصوير الحقيقة المعنوية بصورة حسية تلزمها غالباً ، ولا شيء أثبت من الصور الحسية في الذهن ؛ فلما كان الجود وللبخل معنيين لا يدركان بالحس ويلازمهما صورتان تدركان بالحس وهو بسط اليد للجود وقبضها للبخل ، عبر عنهما بلازمهما لفائدة الإيضاح والانتقال من المعنويات إلى المحسوسات ، والله أعلم.

وقبضها عبارتان وقعتا متعاقبتين ^(١) للبخل والجود ، وقد استعملوها حيث لا تصح اليد كقوله :

جَادَ الْحِمَى بِسَطِّ الْيَدَيْنِ بِوَابِلٍ شَكَرْتُ نَدَاهُ تِلَاغُهُ وَوَهَادُهُ ^(٢)

ولقد جعل لبيد للشمال يدا في قوله :

إِذْ أَصْبَحَتْ يَبِيدِ الشِّمَالِ زِمَامُهَا ^(٣)

ويقال بسط اليأس كفيه في صدري ، فجعلت لليأس الذي هو من المعاني لا من الأعيان كفان. ومن لم ينظر في علم البيان عمى عن تبصر محجة الصواب في تأويل أمثال هذه الآية ، ولم يتخلص من يد الطاعن إذا عبثت به. فإن قلت : قد صح أن قولهم ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ عبارة عن البخل ^(٤). فما تصنع بقوله ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾؟ ومن حقه أن يطابق ما تقدمه وإلا تنافر الكلام وزل عن سننه؟ قلت : يجوز أن يكون معناه الدعاء عليهم بالبخل والنكد ، ومن ثم كانوا أبخل خلق الله وأنكدهم ، ونحوه بيت الأشر :

(١) قوله «وقعتا متعاقبتين» لعله «معاقبتين». (ع)

(٢) جاد الحمى أى أمطر فيه وبسط اليدين فاعل وأصله مصدر أريد به المنبسط ضد المنقبض ويروى سبط بتقديم السين صفة مشبهة كضخم وهو بمعنى المسترسل المنبسط كناية عن الكريم كما أن منقبض اليدين كناية عن البخل فشبه السحاب بإنسان كريم على سبيل المكنية وإثبات اليدين تخييل. والتلعة : الأرض المرتفعة. والوهدة : الأرض المنخفضة. وشبه أعالي الحمى وأسافله بطلاب الرزق وشكرها تخييل والندى بمعنى العطاء ترشيح للأولى. ويجوز أنه حقيقة لا بمعنى العطاء ويجوز أن الشكر تخييل للأولى أيضا. يقول : أمطر السحاب أرض الحما بمصر كثير فأنبئت وأزهت. وهذا معنى شكرها. ويجوز أن التلاع والوهاد مجاز عن أهلها النازلين فيهما.

(٣) وغداة ريح قسدت كشتفت وقسرة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

للبيد ، من المعلقة. يقول : ورب غداة ريح قد كشفتها أى كشفت غمتها عن الناس. ويروى «قد وزعت» أى كفتها ومنعتها. ورب غداة قرة ، بالكسر والضم أى شدة برد كشفت بردها أيضا. والكشف خاص بالحسوس فاستعير للمعقول من غمة الجوع والبرد على طريق التصريح. ويجوز أن إزالة الريح والبرد عن الناس كناية عن إدخالهم بيته لآكرامهم. وشبه الغداة بمطية لها زمام. أو شبه القرة بذلك. وشبه الشمال . وهي نوع من الريح. بقائد يقود تلك المطية على طريق المكنية ، والزمام تخييل للأولى ، واليد الثانية. وليس بالزم أن يكون للمشبه شيء حقيقى يشبه ما للمشبه به على المختار كاليد والزمام هنا. والمعنى أن الشمال تارة تجعل الغداة مغبرة باردة ، وتارة لا. أو تارة تنثر الغبار والبرد في جهة ، وتارة في أخرى.

(٤) عاد كلامه. قال : «فان قلت قد صح أن قولهم يد الله مغلولة عبارة عن البخل ... الخ» قال أحمد : لقد نقص فضيلته التي أوردتها في هذا الفصل بما ضمنه هذا السؤال والجواب من القاعدة الفاسدة في أن الله تعالى يستحيل عليه أن يريد من عباده شيئا مما نعاه عليهم ، وبني على ذلك استحالة أن يدعو عليهم بالبخل لأنه لم يرده منهم ، ويستحيل أن يريده منهم فوجه هذا النص بالتأويل والتمسك بالأباطيل. والحق أن الله يدعو عليهم بالبخل ودعاؤه عبارة عن خلقه الشح في قلوبهم والقبض في أيديهم ، فهو الداعي والخالق ، لا خالق إلا هو يخلق لهم البخل ويتقدس عنه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ فليت الزمخشري لم يتحدث في تفسير القرآن إلا من حيث علم البيان ، فانه فيه أفرس الفرسان ، لا يجارى في ميدانه ولا يماري في بيانه.

بَقِيَّتْ وَفَرَى وَانْحَرَفْتُ عَنِ الْعَالَا وَلَقِيَّتْ أَضْـيَافِي بِوَجْهِهِ عُبُوسٍ^(١)

ويجوز أن يكون دعاء عليهم بغل الأيدي حقيقة ، يغللون في الدنيا أسارى ، وفي الآخرة معذبين بأغلال جهنم : والطباق من حيث اللفظ وملاحظة أصل المجاز ، كما تقول : سبني سب الله دابره ، أى قطعه ؛ لأنَّ السب أصله القطع. فإن قلت : كيف جاز أن يدعو الله عليهم بما هو قبيح وهو البخل والنكد؟ قلت : المراد به الدعاء بالخذلان الذي تقسو به قلوبهم ، فيزيدون بخلا إلى بخلهم ونكداً إلى نكدهم ، أو بما هو مسبب عن البخل والنكد من لصوق العار بهم وسوء الأحداث التي تخزيهم وتمزق أعراضهم. فإن قلت : لم ثبتت اليد في قوله تعالى : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ وهي مفردة في : ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾^(٢)؟ قلت : ليكون ردّ قولهم وإنكاره أبلغ وأدل على إثبات غاية السخاء له ونفى البخل عنه. وذلك أنَّ غاية ما يبذله السخي بماله من نفسه أن يعطيه بيديه جميعاً فبنى المجاز على ذلك. وقرئ ﴿وَلَعْنُوا﴾ بسكون العين. وفي مصحف عبد الله : بل يدها بسطان.

يقال : يده بسط بالمعروف. ونحوه مشية شح^(٣) وناقصة صرح ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ تأكيد

(١) بقيت وفـرى وانحرفت عـن العـلى ولقيت أضـيافى بوجـه عبـوس

إن لم أشـن عـلى ابـن حـرب غـارة لم تخـل يـوماً مـن نـهاب نفـوس

للأشتر النخعي. والبيت الأول في صورة الخبر. والمراد به إنشاء للدعاء على نفسه بالبخل. ويجوز أنه من باب التعليق بالمتنع ، والوفر المال الكثير ويروى بقيت وحدي أى فنيته عشيرتي أو بعدت عنها والانحراف التباعده عن حرف الشيء المحسوس كما أن العلى خاص بالمحسوسات ، فيجوز أنه استعار الانحراف للاعراض والعدول على طريق التصريحية والعلى ترشيح. ويحتمل أنه استعار العلى للمكارم والانحراف ترشيح. وقوله بوجه عبوس : أى رجل عبوس ، ففيه معنى التجريد إن لم أشن بالضم شرط دل ما قبله على جوابه ، أى إن لم أفوق حرباً على ابن حرب معاوية بن صخر بن حرب ، بحيث تأتبه من كل فج. ويروى «على ابن هند» ولم تخل صفة غارة ، ونهاب النفوس ؛ أخذ الأرواح بالقتل أو أسر الذوات. ويروى «ذهاب نفوس» أى فنائها. وفي الكلام الادمج ، حيث ضمن تهديد معاوية مدح نفسه بالكرم ، حتى أن البخل عنده من أكبر المصائب وأشد العار ، حتى علقه بالمتنع فأفاد امتناعه.

(٢) عاد كلامه. قال : فإن قلت : لم ثبتت اليد في : ﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ وهي مفردة في قولهم ﴿يَدُ اللَّهِ﴾ ... الخ قال أحمد : ولما كان المعهود في العطاء أن يكون بإحدى اليدين وهي اليمنى ، وكان الغالب على اليهود . لعنت . اعتقاد الجسمية ، جاءت عبارتهم عن اليد الواحدة المألوف منها العطاء فبين الله تعالى كذبهم في الأمرين في نسبة البخل وفي إضافته إلى الواحدة ، تنزيلاً منهم على اعتقاد الجسمية ، بأن ينسب إلى ذاته صفة الكرم المعبر عنها بالبسط ، وبأن أضافه إلى اليدين جميعاً لأن كلتا يديه يمين ، كما ورد في الحديث تنبيهها على نفى الجسمية ، إذ لو كانت ثابتة جل الله عنها لكانت إحدى اليدين يميناً والأخرى شمالاً ضرورة. فلما أثبت أن كلتيهما يمين نفى الجسمية وأضاف الكرم إليهما ، لا كما يضاف إلى اليد اليمنى خاصة ، إذ الأخرى شمال وليست محلاً للتكريم ، والله أعلم.

(٣) قوله «شحح» في الصحاح «الشحشحة» الطيران السريع. و «قطاة شحشح» أى سريعة اه فلعل الشحح مثله وفيه أيضاً «الصرح» بالتحريك : الخالص من كل شيء. (ع)

للوصف بالسخاء ، ودلالة على أنه لا يتفق إلا على مقتضى الحكمة والمصلحة. روى أن الله تبارك وتعالى كان قد بسط على اليهود حتى كانوا من أكثر الناس ما لا ، فلما عصوا الله في محمد صلى الله عليه وسلم وكذبوه كف الله تعالى ما بسط عليهم من السعة ، فعند ذلك قال فنحاص بن عازوراء : يد الله مغلوله ، ورضى بقوله الآخرون فأشركوا فيه ﴿وَلَيَزِيدَنَّ﴾ أى يزدادون عند نزول القرآن لحسدهم تمادياً في الجحود وكفراً بآيات الله ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعِدَاةَ﴾ فكلهم أبداً مختلف ، وقلوبهم شتى ، لا يقع اتفاق بينهم ولا تعاضد ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا﴾ كلما أرادوا محاربة أحد غلبوا وقهروا ولم يقم لهم نصر من الله على أحد قط ، وقد أتاهم الإسلام وهم في ملك المجوس. وقيل : خالفوا حكم التوراة فبعث الله عليهم بخت نصر ، ثم أفسدوا فسلط الله عليهم فطرس الرومى ، ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المجوس ، ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المسلمين. وقيل : كلما حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم نصر عليهم. وعن قتادة رضى الله عنه لا تلقى اليهود ببلدة إلا وجدتهم من أذل الناس ﴿وَيَسْعَوْنَ﴾ ويجتهدون في الكيد للإسلام ومحو ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم من كتبهم.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (٦٦)

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ مع ما عددنا من سيئاتهم ﴿آمَنُوا﴾ برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به ، وقرنوا إيمانهم بالتقوى التي هي الشريعة في الفوز بالإيمان ﴿لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ﴾ تلك السيئات ولم نؤاخذهم بها ﴿وَلَأَدْخَلْنَاَهُمْ﴾ مع المسلمين الجنة. وفيه إعلام بعظم معاصي اليهود والنصارى وكثرة سيئاتهم ، ودلالة على سعة رحمة الله تعالى وفتح باب التوبة على كل عاص وإن عظمت معاصيه وبلغت مبالغ سيئات اليهود والنصارى ، وأن الإيمان لا ينجى ^(١)

(١) قال محمود : «فيه دليل على أن الإيمان لا ينجى ... الخ» قال أحمد : وهو ينتهز الفرصة من ظاهر هذه الآية فيجعله دليلاً على قاعدته في أن مجرد الإيمان لا ينجى من الخلود في النار حتى ينضاف إليه التقوى ، لأن الله تعالى جعل المجموع في هذه الآية شرطاً للتفكير ولادخال الجنة. وظاهره أنهما ما لم يجتمعا لا يوجد تكفير ولا دخول الجنة ، وأنى له ذلك والإجماع والاتفاق من الفريقين أهل السنة والمعتزلة على أن مجرد الإيمان يجب ما قبله ويمحوه ، كما ورد النص فلو فرضنا موت الداخل في الإيمان عقيب دخوله فيه ، لكان كيوم ولدته أمه باتفاق مكفر الخطايا محكوماً له بالجنة ، فدل ذلك على أن اجتماع الأمرين ليس بشرط. هذا إن كان المراد بالتقوى الأعمال . .

ولا يسعد إلا مشفوعاً بالتقوى ، كما قال الحسن : هذا العمود فأين الأطناب ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ أقاموا أحكامهما وحدودهما وما فيهما من نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ من سائر كتب الله ، لأنهم مكلفون الإيمان بجميعها ، فكأنها أنزلت إليهم ؛ وقيل : هو القرآن. لوسع الله عليهم الرزق وكانوا قد قحطوا. وقوله ﴿لَا كُلُّوْا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ عبارة عن التوسعة. وفيه ثلاث أوجه : أن يفيض عليهم بركات السماء وبركات الأرض وأن يكثر الأشجار المثمرة والزرع المغلة وأن يرزقهم الجنان اليانعة الثمار يجتنون ما تهدل ^(١) منها من رؤس الشجر ، ويلتقطون ما تساقط على الأرض من تحت أرجلهم ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ طائفة حالها أمة ^(٢) في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل هي الطائفة المؤمنة عبد الله بن سلام وأصحابه وثمانية وأربعون من النصارى ، و ﴿سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ فيه معنى التعجب ، كأنه قيل : وكثير منهم ما أسوأ عملهم ، وقيل : هم كعب بن الأشرف وأصحابه والروم.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٦٧)
 ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ جميع ما أنزل إليك وأى شيء أنزل إليك غير مراقب في تبليغه أحداً ^(٣) ، ولا خائف أن ينالك مكروه ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ وإن لم تبلغ جميعه كما أمرتك

. وإن كانت التقوى على أصل موضعها الخوف من الله عز وجل ، فهذا المعنى ثابت لكل مؤمن وإن قارف الكبائر. وحينئذ لا يتم للزحشري منه غرض. وما هذا إلا إلحاح ولجاج في مخالفة المعتقد المستفاد من قوله عليه الصلاة والسلام من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ، وإن زنى أو سرق» كررها النبي صلى الله عليه وسلم مرارا ، ثم قال : وإن رغم أنف أبي ذر ، لما راجعه رضى الله عنه في ذلك. ونحن نقول. وإن رغم أنف القدرية.

(١) قوله «ما تهدل» أى استرخى وتدل. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله «أمة» أى يسير. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قال محمود : «معناه بلغ غير مراقب في التبليغ أحداً ، ولا خائف أن ينالك مكروه. ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ معناه: وإن لم تبلغ جميعه كما أمرتك فما بلغت رسالته ، فلم تبلغ إذاً ما كلفت من أداء الرسالة ولم تؤد منها شيئاً قط. وذلك أن بعضها ليس بأولى بالأداء من البعض ، فكأنك أغفلت أداها جميعها ، كما أن من يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكلها ، لاداء كل منها بما يدلّيه غيرها. وكونها كذلك في حكم الشيء الواحد لا يكون مبلغا غير مبلغ ، مؤمنا به غير مؤمن ، إلى أن قال : «فان قلت وقوع قوله : ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ جزاء للشرط ما وجه صحته؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أنه إذا لم تمثل ... الخ» قال أحمد : وهذا الاتحاد بين الشرط والجزاء ظاهر ؛ لأن حاصله إن لم تبلغ الرسالة لم تبلغ الرسالة ، باتحاد المبتدأ والخبر ، حتى لا يزيد الخبر عليه شيئا في الظاهر كقوله :

أنا أبو النجم وشعري شعري

فجعل الخبر عن المبتدأ بلا مزيد في اللفظ ، وأراد : وشعري شعري المشهور بلاغته والمستفيض فصاحته ، ولكنه أفهم بالسكوت عن هذه الصفات التي بها تحصل الفائدة أنها من لوازم شعره في أفهام الناس السامعين ، لاشتهاره بها ، .

﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ وقرئ : رسالاته ، فلم تبلغ إذاً ما كلفت من أداء الرسالات ، ولم تؤدّ منها شيئاً قط ، وذلك أن بعضها ليس بأولى بالأداء من بعض ، وإن لم تؤدّ بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعاً ، كما أن من لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بأكملها ، لإدلاء كل منها بما يدلّه ^(١) غيرها. وكونها كذلك ^(٢) في حكم شيء واحد. والشيء الواحد لا يكون مبلغاً غير مبلغ ، مؤمناً به غير مؤمن به. وعن ابن عباس رضى الله عنهما : إن كتبت آية لم تبلغ رسالاتي. وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «بعثني الله برسالاته فضقت بها ذرعاً ، فأوحى الله إليّ إن لم تبلغ رسالاتي عذبتك. وضمن لي العصمة فقيوت ^(٣). فإن قلت : وقوع قوله ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ جزاء للشرط ما وجه صحته؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أنه إذا لم يمثل أمر الله في تبليغ الرسالات وكتبتها كلها كأنه لم يبعث رسولا كان أمراً شنيعاً لا خفاء بشناعته ، فقليل : إن لم تبلغ منها أدنى شيء وإن كان كلمة واحدة ، فأنت كمن ركب الأمر الشنيع الذي هو كتمان كلها ، كما عظم قتل النفس بقوله : ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾ والثاني : أن يراد : فإن لم تفعل فلك ما يوجب كتمان الوحي كله من العقاب فوضع السبب موضع المسبب ، ويعضده قوله عليه الصلاة والسلام «فأوحى الله إليّ إن لم تبلغ رسالاتي عذبتك» ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ﴾ عدة من الله بالحفظ والكلاءة والمعنى : والله يضمن لك العصمة من أعدائك ، فما عذرك في مراقبتهم؟ فإن قلت : أين ضمان العصمة وقد شجّ في وجهه يوم أحد وكسرت رباعيته ^(٤) صلوات الله عليه؟ قلت : المراد أنه يعصمه من القتل. وفيه : أن عليه أن يحتمل كل ما دون النفس في ذات الله ، فما أشد تكليف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقيل : نزلت بعد يوم أحد ، والناس الكفار بدليل قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي

. وأنه غنى عن ذكرها لشهرتها وذيعاها ، وكذلك أريد في الآية لأن عدم تبليغ الرسالة أمر معلوم عند الناس مستقر في الأفهام أنه عظيم شنيع ينقم على مرتكبه ، بل عدم نشر العلم من العالم أمر فظيع فضلاً عن كتمان الرسالة من الرسول ، فاستغنى عن ذكر الزيادات التي يتفاوت بها الشرط والجزاء للصوفها بالجزاء في الأفهام وإن كل من سمع عدم تبليغ الرسالة فهم ما وراءه من الوعيد والتهديد. وحسن هذا الأسلوب في الكتاب العزيز بذكر الشرط عاماً بقوله ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ ولم يقل وإن لم تبلغ الرسالة فما بلغت الرسالة ، حتى يكون اللفظ متغائراً ، وهذه المغايرة اللفظية وإن كان المعنى واحداً أحسن رونقاً وأظهر طلاوة من تكرار اللفظ الواحد في الشرط والجزاء ، وهذه الذروة انحط عنها أبو النجم بذكر المبتدئ بلفظ الخير ، وحق له أن تتضاءل فصاحته عند فصاحته المعجز فلا يعاب عليه في ذلك ، وهذا الفصل كاللباب من علم البيان ، والله الموفق.

(١) قوله «بما يدلّه» لعله : يدلّ به. (ع)

(٢) قوله «وكونها كذلك» لعله «لذلك». (ع)

(٣) أخرجه إسحاق في مسنده. أخبرنا كلثوم بن محمد بن أبي سدره ، حدثنا عطاء الخراساني عن أبي هريرة ولم يذكر وضمن لي العصمة فقيوت وذكره الواحد في الوسيط والأسباب عن الحسن بغير سند.

(٤) متفق عليه من حديث سهل. وقد تقدم في تفسير آل عمران ،

الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ومعناه أنه لا يمكنهم مما يريدون إنزاله بك من الهلاك. وعن أنس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرس حتى نزلت ، فأخرج رأسه من قبة آدم وقال : انصرفوا يا أيها الناس فقد عصمني الله من الناس ^(١).

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٦٨)

﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ أى على دين يعتد به حتى يسمى شيئاً لفساده وبطلانه ، كما تقول : هذا ليس بشيء تريد تحقيره وتصغير شأنه. وفي أمثالهم : أقل من لا شيء **﴿فَلَا تَأْسَ﴾** فلا تتأسف عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم ، فإن ضرر ذلك راجع إليهم لا إليك ، وفي المؤمنين غنى عنهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٩)

﴿وَالصَّابِقُونَ﴾ رفع على الابتداء وخبره ^(٢) محذوف ، والنية به التأخير عما في حيز إن من اسمها وخبرها ، كأنه قيل : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا ، والصابقون كذلك ، وأنشد سيبويه شاهداً له :

(١) لم أجده من حديث أنس ، وقد أخرجه الترمذي من رواية أبي قدامة الحارث بن عبيد عن سعيد الحريري عن عبد الله بن شقيق عن عائشة. وقال غريب. ورواه بعضهم عن الحريري مرسلًا ليس فيه عائشة. ورواه موصولا الطبري من رواية ابن علية عن الحريري ولكنه رواه من رواية وهب عن الحريري.

(٢) قال محمود : «فيه الصابقون رفع على الابتداء وخبره محذوف ... الخ» قال أحمد : صدق ، لا ورود للسؤال بهذا التوجيه ، ولكن ثم سؤال متوجه ، وهو أن يقال : لو عطف الصابقين ونصبه كما قرأ ابن كثير لأفاد أيضا دخولهم في جملة المتوب عليهم ، ولفهم من تقديم ذكرهم على النصارى ما يفهم من الرفع من أن هؤلاء الصابقين وهم أوغل الناس في الكفر يتاب عليهم ، فما الظن بالنصارى ، ولكان الكلام جملة واحدة بليغا مختصرا والعطف إفرادى ، فلم عدل إلى الرفع وجعل الكلام جملتين ، وهل يمتاز بفائدة على النصب والعطف الافرادى؟ ويجاب عن هذا السؤال بأنه لو نصبه عطفه لم يكن فيه إفهام خصوصية لهذا الصنف ، لأن الأصناف كلها معطوف بعضها على بعض عطف المفردات. وهذا الصنف من جملتها ، والخبر عنها واحد. وأما مع الرفع فينقطع عن العطف الافرادى وتبقى بقية الأصناف مخصصة بالخبر المعطوف به. ويكون خبر هذا الصنف المنفرد بمعزل تقديره مثلا ، والصابقون كذلك فيجيء كأنه مقيس على بقية الأصناف وملحق بها وهو بهذه المثابة ، لأنهم لما استقر بعد الأصناف من قبول التوبة فكانوا أحقاء يجعلهم تبعا وفرعا ، مشبهين بمن هم أقعد منهم بهذا الخير. وفائدة التقديم على الخبر أن يكون توسط هذا المبتدأ المحذوف الخبر بين الجزئين ، أدل على الخبر المحذوف من ذكره بعد تقضى الكلام وتمامه ، والله أعلم.

وَالْأَفْعَالُ مَا بَعْدَ الْفَاعِلِ وَأَنْتُمْ بَعْدَ مَا بَقِيَ الْفَاعِلُ فِي شِقَاقِ (١)

أى فاعلموا أنا بغاة وأنتم كذلك ، فإن قلت : هلا زعمت أن ارتفاعه للعطف على محل إن واسمها؟ قلت : لا يصح ذلك قبل الفراغ من الخبر ، لا تقول : إن زيدا وعمرو منطلقان. فان قلت لم لا يصح والنية به التأخير ، فكأنك قلت : إن زيدا منطلق وعمرو؟ قلت : لأنى إذا رفعته رفعت عطفها على محل إن واسمها ، والعامل في محلهما هو الابتداء ، فيجب أن يكون هو العامل في الخبر لأن الابتداء ينتظم الجزأين في عمله كما تنتظمها «إن» في عملها ، فلو رفعت الصابئون المنوى به التأخير بالابتداء وقد رفعت الخبر بأن ، لأعملت فيهما رافعين مختلفين. فان قلت : فقولوا والصابئون معطوف لا بد له من معطوف عليه فما هو؟ قلت : هو مع خبره المحذوف جملة معطوفة على جملة قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الخ ... ولا محل لها ، كما لا محل للتي عطفت عليها ، فان قلت : ما التقديم والتأخير إلا لفائدة ، فما فائدة هذا التقديم؟ قلت : فائدته التنبيه على أن الصابئين يتاب عليهم إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح ، فما الظن بغيرهم. وذلك أن الصابئين أبين هؤلاء المعدودين ضلالا وأشدّهم غيا ، وما سموا صابئين إلا لأنهم صبوا عن الأديان كلها ، أى خرجوا ، كما أن الشاعر قدم قوله «وأنتم» تنبيها على أن المخاطبين أو غل في الوصف بالبغاة من قومه ، حيث عاجل به قبل الخبر الذي هو «بغاة» لئلا يدخل قومه في البغي قبلهم ، مع كونهم أو غل فيه منهم وأثبت قدما فان قلت : فلو قيل والصابئين وإياكم لكان التقديم حاصلا. قلت : لو قيل هكذا لم يكن من التقديم في شيء ، لأنه لا إزالة فيه عن موضعه ، وإنما يقال مقدّم ومؤخر للمزال لا للقارّ في مكانه. ومجرى هذه الجملة مجرى الاعتراض في الكلام. فان قلت : كيف قال : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثم قال : ﴿مَنْ آمَنَ﴾؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يراد بالذين آمنوا : الذين آمنوا بالسننهم وهم المنافقون وأن يراد بمن آمن. من ثبت على الإيمان واستقام ولم يخالجه ريبة فيه. فان قلت : ما محل من آمن

(١) إذا جازت نواصي آلى بدر فادوها وأسرى فى الشقاق

وإلا فاعلموا أنا وأنتم بغاة ما بقى فى شقاق

لبشر بن أبى خازم الأسدى ، يخاطب بنى طيئ ويتوعددهم بما صنعوا بآل بدر حلفاء بنى أسد. والباصية : مقدم شعر الرأس : وجز النواصي حقيقة ، على عادتكم من جز ناصية الأسير إذا أرادوا إطلاقه ، فطالبهم بمقتضاها وقال : فادوها ، أى الأسرى التي جزت نواصبها. أو أدوا النواصي نفسها. ويجوز أنه مجاز عن قتل كبرائهم. وقوله «فادوها» أى دماء القتلى وأسرى عطف على الضمير المفعول. وإلا ، أى وإن لا تفعلوا فاعلموا أنا وأنتم بغاة. وبغاة : خبر إنا. وخبر أنتم محذوف ، أى بغاة أيضا. ولم يجعل المذكور خبراً عنه أيضا ، لأنه ليس عطفاً على اسم إن ، وإلا لقال : إنا وإياكم ، بل هو من عط ف الجمل. ولا يقال فيه العطف على الجملة قبل تمامها ، لا نقول : سمع العطف قبل المعطوف عليه بالكلية في قوله : عليك ورحمة الله السلام. و «في شقاق» خبر ثان ، أى في خلاف ما بقينا ، أى مدة بقائنا ، يعنى وأنتم تعلمون بأسنا في الحرب.

قلت : إما الرفع على الابتداء وخبره ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ثم الجملة كما هي خبر إن ، وإما النصب على البدل من اسم إن وما عطف عليه ، أو من المعطوف عليه. فان قلت : فأين الراجع إلى اسم إن؟ قلت : هو محذوف تقديره من آمن منهم ، كما جاء في موضع آخر. وقرئ : والصابيون ، بياء صريحة ، وهو من تخفيف الهمزة ، كقراءة من قرأ : يستهزيون. والصابون. وهو من صبوت ، لأنهم صبوا إلى اتباع الهوى والشهوات في دينهم ولم يتبعوا أدلة العقل والسمع. وفي قراءة أبي رضى الله عنه : والصابئين ، بالنصب. وبها قرأ ابن كثير. وقرأ عبد الله : يا أيها الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ (٧٠)

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا﴾ ميثاقهم بالتوحيد ﴿وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا﴾ ليقفوههم على ما يأتون وما يذرون في دينهم ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ﴾ جملة شرطية وقعت صفة لرسلا ، والراجع محذوف أى رسول منهم ﴿بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾ بما يخالف هواهم ويضاد شهواتهم من مشاق التكليف والعمل بالشرائع. فإن قلت : أين جواب الشرط ^(١) فإن قوله : ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ ناب عن الجواب ، لأن الرسول الواحد لا يكون فريقين ولأنه لا يحسن أن تقول إن أكرمت أخى أخاك أكرمت؟ قلت : هو محذوف يدل عليه قوله : ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ كأنه قيل : كلما جاءهم رسول منهم ناصبوه ، وقوله : ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا﴾ جواب مستأنف لقائل يقول : كيف فعلوا برسلمهم؟ فإن قلت : لم جيء بأحد الفعلين ماضيا ^(٢) وبالأخر مضارعاً؟ قلت : جيء يقتلون على حكاية

(١) قال محمود : «إن قلت أين جواب الشرط ... الخ» قال أحمد : ومما يدل على حذف الجواب أنه جاء ظاهراً في الآية الأخرى ، وهي توأمة هذه قوله تعالى : ﴿فَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ فأوقع قوله : ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ جواباً ، ثم فسر استكبارهم وصنيعهم بالأنبياء بقتل البعض وتكذيب البعض. ولو قدر الزمخشري هاهنا الجواب المحذوف مثل المنطوق به في أخت الآية فقال : وأرسلنا إليهم رسلاً كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا ، لكان أولى لدلالة مثله عليه.

(٢) عاد كلامه. قال : «فان قلت لم جيء بأحد الفعلين ماضياً ... الخ» قال أحمد : أو يكون حالا على حقيقته لأنهم داروا حول قتل محمد عليه أفضل الصلاة والسلام. وقد قيل هذا الوجه في أخت هذه الآية في البقرة.

وقد مضى وجه اقتضاء صيغة الفعل المضارع لاستحضاره دون الماضي وتمثيله بقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ فعدل عن فأصبحت إلى فتصبح ، تصويراً للحال واستحضاراً لها في ذهن السامع. ومنه :

بأنى قـــــــد لقيـــــــت الغـــــــول يســـــــعى	بسبب كالمصـــــــحفة صحصـــــــحان
فأخـــــــذ فأكـــــــفرت	صريعاً للـــــــدين وللجـــــــران

وأمثاله كثيرة والله أعلم.

الحال الماضية استفظاعا للقتل واستحضاراً لتلك الحال الشنيعة للتعجب منها. قرئ : أن لا يكون ، بالنصب على الظاهر. وبالرفع على «أن» هي المخففة من الثقيلة ، أصله : أنه لا يكون فتنة فخففت «أن» وحذف ضمير الشأن.

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (٧١)

فإن قلت : كيف دخل فعل الحسبان على «أن» التي للتحقيق؟ قلت : نزل حسبانهم لقوته في صدورهم منزلة العلم : فإن قلت : فأين مفعولا حسب؟ قلت : سد ما يشتمل عليه صلة أن وأن من المسند والمسند إليه مسدّ المفعولين ، والمعنى : وحسب بنو إسرائيل أنه لا يصيبهم من الله فتنة ، أى بلاء وعذاب في الدنيا والآخرة ﴿فَعَمُوا﴾ عن الدين ﴿وَصَمُوا﴾ حين عبدوا العجل ، ثم تابوا عن عبادة العجل ف ﴿تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا﴾ كره ثانية بطلبهم المحال غير المعقول في صفات الله وهو ^(١) الرؤية. وقرئ : عموا وصموا ، بالضم على تقدير عماهم الله وصمهم ، أى رماهم وضربهم بالعمى والصمم ، كما يقال : تركته إذا ضربته بالنيزك ^(٢) وركبته إذا ضربته بركبتك ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ بدل من الضمير : أو على قولهم : أكلوني البراغيث ، أو هو خبر مبتدأ محذوف أى أولئك كثير منهم.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٧٢)

لم يفرق عيسى عليه الصلاة والسلام بينه وبينهم في أنه عبد مريبوب كمثلهم ، وهو احتجاج على النصارى ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ في عبادته ، أو فيما هو مختص به من صفاته أو أفعاله ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ التي هي دار الموحدين أى حرّم دخولها ومنعه منه ، كما يمنع المحرّم من المحرّم عليه ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ من كلام الله على أنهم ظلموا ^(٣) وعدلوا

(١) قوله «وهو الرؤية» أحالها مذهب المعتزلة ، وأجازها أهل السنة كما حقق في محله. (ع)

(٢) قوله «إذا ضربته بالنيزك» هو الرمح القصير ، وهو فارسي معرب ، أصله نيزه ، فأبدلت الهاء كافا. كذا بجامش ، وأصله في الصحاح. (ع)

(٣) قوله «على أنهم ظلموا» لعله على معنى أنهم.

عن سبيل الحق فيما يقولوا على عيسى عليه السلام ، فلذلك لم يساعدهم عليه ولم ينصر قولهم ردّه وأنكره ، وإن كانوا معظمين له بذلك ورافعين من مقداره. أو من قول عيسى عليه السلام ، على معنى : ولا ينصركم أحد فيما تقولون ولا يساعداكم عليه لاستحالة وبعده عن المعقول. أو ولا ينصركم ناصر في الآخرة من عذاب الله.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٧٥)

من في قوله ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ للاستغراق وهي القدرة مع «لا» التي لنفي الجنس في قولك (لا إله إلا الله) والمعنى : وما إله قط في الوجود إلا إله موصوف بالوحدانية لا ثاني له ، وهو الله وحده لا شريك له : و «من» في قوله ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ للبيان كالتي في قوله تعالى : ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ فإن قلت : فهلا قيل ﴿لَيَمَسَّنَّكُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. قلت ؛ في إقامة الظاهر مقام المضمر فائدة وهي تكرير الشهادة عليهم بالكفر في قوله : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ وفي البيان فائدة أخرى وهي الإعلام في تفسير والذين كفروا منهم أنهم بمكان من الكفر. والمعنى : ليمسّن الذين كفروا من النصارى خاصة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى نوع شديد الألم من العذاب كما تقول : أعطنى عشرين من الثياب ، تريد من الثياب خاصة لا من غيرها من الأجناس التي يجوز أن يتناولها عشرون. ويجوز أن تكون للتبويض ، على معنى : ليمسّن الذين بقوا على الكفر منهم ، لأنّ كثيراً منهم تابوا من النصرانية ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ﴾ ألا يتوبون بعد هذه الشهادة المكررة عليهم بالكفر. وهذا الوعيد الشديد مما هم عليه. وفيه تعجب من إصرارهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر لهؤلاء إن تابوا ولغيرهم ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ صفة لرسول ، أى ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله جاء بآيات من الله كما أتوا بأمثالها ، أن أبرأ الله الأبرص وأحيا الموتى على يده ، فقد أحيا العصا وجعلها حية تسعى ، وخلق بها البحر ، وطمس على يد موسى ^(١). وإن خلقه من غير ذكر ، فقد خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى

(١) قوله «وطمس على يد موسى» لعله وطمس على أموال فرعون وقومه على يد ... الخ. (ع)

﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ أى وما أمه أيضاً إلا كصديقة كـبعض النساء المصدقات للأنبياء المؤمنات بهم ، فما منزلتهما إلا منزلة بشرين : أحدهما نبي ، والآخر صحابي. فمن أين اشتبه عليكم أمرهما حتى وصفتموهما بما لم يوصف به سائر الأنبياء وصحابتهم؟ مع أنه لا تميز ولا تفاوت بينهما وبينهم بوجه من الوجوه. ثم صرح ببعدهما عما نسب إليهما في قوله ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ لأن من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام وما يتبعه من الهضم والنفص لم يكن إلا جسماً مركباً من عظم ولحم وعروق وأعصاب وأخلاط وأمزجة مع شهوة وقرم^(١) وغير ذلك مما يدل على أنه مصنوع مؤلف مدبر كغيره من الأجسام ﴿كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ أى الأعلام من الأدلة الظاهرة على بطلان قولهم ﴿أَنَّا يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يصرفون عن استماع الحق وتأمله. فإن قلت : ما معنى التراخي في قوله ثم انظر؟^(٢) قلت : معناه ما بين العجبيين ، يعنى أنه بين لهم الآيات بيانا عجيباً ، وأن إعراضهم عنها أعجب منه.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٧٦)

﴿مَا لَا يَمْلِكُ﴾ هو عيسى ، أى شيئاً لا يستطيع أن يضركم بمثل ما يضركم به الله من البلايا والمصائب في الأنفس والأموال ، ولا أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم به من صحة الأبدان والسعة والخصب ، ولأن كل ما يستطيعه البشر من المضار والمنافع فيإقذار الله وتمكينه ، فكأنه لا يملك منه شيئاً. وهذا دليل قاطع على أن أمره مناف للربوبية ، حيث جعله لا يستطيع ضراً ولا نفعاً. وصفة الرب أن يكون قادراً على كل شيء لا يخرج مقدور على قدرته ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ متعلق بـ أتعبدون ، أى أتشركون بالله ولا تخشونه ، وهو الذي يسمع ما تقولون ويعلم ما تعتقدون أو أتعبدون العاجز والله هو السميع العليم الذي يصح منه أن يسمع كل مسموع ويعلم كل معلوم ، ولن يكون كذلك إلا وهو حى قادر.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلُوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (٧٧)

(١) قوله «وقرم» في الصحاح «القرم» بالتحريك : شدة شهوة اللحم. (ع)

(٢) قال محمود : «فان قلت ما معنى التراخي في قوله ثم انظر ... الخ» قال أحمد : ومنه ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ وقوله : ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَرٌ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَرٌ﴾ وهي في سائر هذه المواضع منقولة من التراخي الزماني إلى التراخي المعنوي في المراتب.

﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ صفة للمصدر أى لا تغلوا في دينكم غلوا غير الحق ^(١) أى غلواً باطلاً ؛ لأنّ الغلو في الدين غلوٌ ان غلوٌ حق ، وهو أن يفحص عن حقائقه ويفتش عن أباعد معانيه ، ويجتهد في تحصيل حججه كما يفعل المتكلمون من أهل العدل والتوحيد رضوان الله عليهم. وغلوٌ باطل وهو أن يتجاوز الحق ويتخطاه بالإعراض عن الأدلة واتباع الشبه ، كما يفعل أهل الأهواء والبدع ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ هم أئمتهم في النصرانية ، كانوا على الضلال قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ ممن شايعهم على التثليث ﴿وَضَلُّوا﴾ لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ حين كذبوه وحسدوه وبغوا عليه.

﴿لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٧٨) كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه لِبئس ما كانوا يفعلون (٧٩) ترى كثيراً منهم يتولّون الَّذِينَ كَفَرُوا لِبئس ما قدّمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٨١)

نزل الله لعنهم في الزبور ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ﴾ وفي الإنجيل على لسان عيسى. وقيل إن أهل أيلة ، لما اعتدوا في السبت قال داود عليه السلام : اللهم العنهم واجعلهم آية ، فمسخوا قردة. ولما كفر أصحاب عيسى عليه السلام بعد المائدة قال عيسى عليه السلام اللهم عذب من كفر بعد ما أكل من المائدة عذاباً لم تعذبه أحداً من العالمين ، والعنهم كما لعنت أصحاب السبت ، فأصبحوا خنازير

(١) قال محمود : «معناه لا تغلوا في دينكم غلواً باطلاً ... الخ» قال أحمد : يعنى بأهل العدل والتوحيد المعتزلة ، ويعنى بغلوهم الذي هو حق عنده أنهم غلوا في التوحيد فجحدوا الصفات الالهية ، وغلوا في التعديل فنفوا أكثر الأفعال بل كلها عن أن تكون مخلوقة لله تعالى لانطوائها في مفسد ؛ ولأن الله تعالى يعاقب على ما هو قبيح منها ، والعدل عندهم أن لا يعاقب على فعل خلقه فهذا غلوهم في التعديل ، وهو كما ترى أنه كاسد عن التوحيد ؛ لأنهم جعلوا كل مخلوق من الحيوانات خالقاً ، فالنصارى غلوا فأشركوا ثلاثة ، والمعتزلة كما رأيت أشركوا كل أحد بل غير آدميين في الخلق الذي هو خاص بالرب. ويعنى الزمخشري بأهل البدع والأهواء من عدا الطائفة المذكورة ، ويعنى بغلوهم الباطل إثبات الصفات لله تعالى وتوحيده على الحق ، حتى لا خالق سواه ولا مخلوق إلا بقدرته ، وقد ترضى عن شيعته وإخوانه وسكت عن ذكر من عداهم ، ونحن نقول : اللهم ارض عمن هو أحق الطوائف برضاك ، وهذه دعوة أيضاً بلا خلاف ، والله الموفق.

وكانوا خمسة آلاف رجل ، ما فيهم امرأة ولا صبي ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾ أى لم يكن ذلك اللعن الشنيع الذي كان سبب المسخ ، إلا لأجل المعصية والاعتداء ، لا لشيء آخر ، ثم فسر المعصية والاعتداء بقوله ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾ لا ينهاى بعضهم بعضاً ﴿عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ ثم قال ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ للتعجب من سوء فعلهم ، مؤكداً لذلك بالقسم ، فيا حسرة على المسلمين في إعراضهم عن باب التناهى عن المنكير ، وقلة عبثهم به ، كأنه ليس من ملة الإسلام في شيء مع ما يتلون من كلام الله وما فيه من المبالغات في هذا الباب. فان قلت : كيف وقع ترك التناهى عن المنكر ^(١) تفسيراً للمعصية والاعتداء؟ قلت : من قبل أن الله تعالى أمر بالتناهى ، فكان الإخلال به معصية وهو اعتداء ، لأنّ في التناهى حسباً للفساد فكان تركه على عكسه. فإن قلت : ما معنى وصف المنكر بفعلوه ، ولا يكون النهى بعد الفعل؟ قلت : معناه لا يتناهون عن منكر فعلوه ، أو عن مثل منكر فعلوه ، أو عن منكر أرادوا فعله ، كما ترى أمارات الخوض في الفسق وآلاته تسوّى وتهمياً فتنكر. ويجوز أن يراد : لا ينتهون ولا يمتنعون عن منكر فعلوه ، بل يصبرون عليه ويدأبون على فعله. يقال : تنهى عن الأمر وانتهى عنه إذا امتنع منه وتركه ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ هم منافقو أهل الكتاب ، كانوا يوالون المشركين ويصافونهم ﴿أَنَّ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ هو المخصوص بالذم ، ومحله الرفع ، كأنه قيل : لبئس زادهم إلى الآخرة سخط الله عليهم. والمعنى : موجب سخط الله. ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ﴾ إيماناً خالصاً غير نفاق ما اتخذوا المشركين ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ يعنى أنّ موالاة المشركين كفى بها دليلاً على نفاقهم ، وأنّ إيمانهم ليس بإيمان ﴿وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ متمردون في كفرهم ونفاقهم. وقيل معناه : ولو كانوا يؤمنون بالله وموسى كما يدعون ، ما اتخذوا المشركين أولياء كما لم يوالهم المسلمون.

(١) قال محمود : «إن قلت كيف وقع ترك التناهى ... الخ»؟ قال أحمد : وفي هذا التوبيخ الاخبار بأمرين قبيحين ، أحدهما : بأنهم كانوا يفعلون المنكر ، والآخر : أنهم كانوا تاركين للنهى عنها ، أى عن أمثالها في المستقبل ولو لا زيادة ﴿فَعَلُوهُ﴾ لما صرح بوقوعها منهم ، ولكان المصرح به ترك النهى عن المنكر عند استحقاق النهى ، وذلك حين الاشراف على تعاطيه وظهور الأمارات الدالة عليه ، فاننظم ثبوت الأمرين جميعاً على أحصر وجه وأبلغه وقد دلت هذه الآية على المذهب الصحيح الأشعري ، من أن متعلق النهى فعل وهو الترك ، خلافاً لأبي هاشم المعتزلي في قوله «إن متعلقه نفى محض وعدم صرف ، ووجه دلالة الآية على أن متعلقه فعل أنه عبر عن ترك التناهى الذي وقع توبيخهم عليه بالفعل ، حيث قال : ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أى لبئس الترك للتناهى فعلاً ، كما تقول : زيد بئس الرجل ، فتجعل الرجل واقعا على زيد. وقد سمى تركهم للنهى عن المنكر في الآية السالفة قبل هذه صنعا ، فقال : ﴿لَوْ لَا يَنْهَاهُمْ الرَّبَانِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ﴾ إلى قوله : ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وذلك أبلغ في الدلالة على أن متعلق النهى أمر ثابت ، إذ الصنع أمكن من الفعل في الدلالة على الإثبات ، وقد مر هذا التقرير ، والله الموفق.

شيء وأهداه إلى الخير وأدله على الفوز حتى علم القسيسين ، وكذلك غم الآخرة والتحدّث بالعاقبة وإن كان في راهب ، والبراءة من الكبر وإن كانت في نصراني. ووصفهم الله برقة القلوب وأنهم سيكون عند استماع القرآن ، وذلك نحو ما يحكى عن النجاشي رضى الله عنه أنه قال لجعفر بن أبي طالب . حين اجتمع في مجلسه المهاجرون إلى الحبشة والمشركون لعنوا وهم يغرونه عليهم ويتطلبون عندهم . : هل في كتابكم ذكر مريم؟ قال جعفر : فيه سورة تنسب إليها ، فقرأها إلى قوله : ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ وقرأ سورة طه إلى قوله : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ فبكى النجاشي ^(١) وكذلك فعل قومه الذين وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم سبعون رجلا حين قرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة يس ، فبكرا. فإن قلت : بم تعلق اللام في قوله ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾؟ قلت : بعداوة ومودة ، على أنّ عداوة اليهود التي اختصت المؤمنين أشدّ العداوات وأظهرها ، وأن مودة النصارى التي اختصت المؤمنين أقرب المودّات ، وأدناها وجوداً ، وأسهلها حصولاً. ووصف اليهود بالعداوة والنصارى بالمودة مما يؤذن بالتفاوت ، ثم وصف العداوة والمودة بالأشدّ والأقرب. فإن قلت : ما معنى قوله : ﴿تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ﴾ ^(٢) قلت : معناه تمتلئ من الدمع حتى تفيض ، لأن الفيض أن يمتلئ الإناء أو غيره حتى يطلع ما فيه من جوانبه ، فوضع الفيض الذي هو من الامتلاء موضع الامتلاء ، وهو من إقامة

(١) لم أجده قلت أظن صاحب الكشف ذكره بالمعنى من قصة جعفر بن أبي طالب مع عمرو بن العاص لما أرسلته قريش بهديتها إلى النجاشي ليدفع إليهم جعفرًا ورفقائه فان معنى ما ذكر موجوداً فيها إلا قراءة طه. أخرجه ابن إسحاق في المغازي. من طريق ابن حبان من حديث أم سلمة. وقوله : وكذلك فعل قومه أى النجاشي الذين وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهم سبعون رجلا حين قرأ النبي صلى الله عليه وسلم سورة يس : الطبري من رواية قيس بن الربيع. عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير في قوله ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا. قال نعم رسل النجاشي الذين أرسلت وإسلام قومهم وكانوا سبعين رجلا فدخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ عليهم يس. فبكوا وعرفوا الحق. فنزلت ونزل فيهم أيضا ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن قيس.

(٢) عاد كلامه. قال : «إن قلت ما معنى قوله : ﴿تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ...﴾ الخ» قال أحمد : وهذه العبارة من أبلغ العبارات ، وأنها هي ثلاث مراتب ، فالأولى : فاض دمع عينه ، وهذا هو الأصل. والثانية : محولة من هذه. وهي قول القائل : فاضت عينه دمعاً حولت الفعل إلى العين مجازاً ومبالغة ، ثم نبهت على الأصل والحقيقة بنصب ما كان فاعلاً على التمييز. والثالثة : فيها هذا التحويل المذكور ، وهي الواردة في الآية ، إلا أنها أبلغ من الثانية باطراح المنبهة على الأصل وعدم نصب التمييز ، وإبرازه في صورة التعليل والله أعلم. وإنما كان الكلام مع التعليل أبعد عن الأصل منه مع التمييز ؛ لأن التمييز في مثله قد استقر كونه فاعلاً في الأصل في مثل : تصبب زيد عرقاً ، وتفقأ عمرو شحماً ، واشتعل الرأس شيباً ، وتفجرت الأرض عيوناً. فإذا قلت : فاضت عينه دمعاً ، فهم هذا الأصل في العادة في أمثاله. وأما التعليل فلم يعهد فيه ذلك. ألا تراك تقول : فاضت عينه من ذكر الله كما تقول فاضت عينه من الدمع ، فلا يفهم التعليل ما يفهم التمييز والله الموفق.

المسبب مقام السبب ، أو قصدت المبالغة في وصفهم بالبكاء فجعلت أعينهم كأنها تفيض بأنفسها ، أى تسيل من الدمع من أجل البكاء من قولك دمعت عينه دمعاً فإن قلت : أى فرق بين من ومن في قوله ﴿بِمَا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾؟ قلت الأولى لا ابتداء الغاية ، على أن فيض الدمع ابتداء ونشأ من معرفة الحق ، وكان من أجله ويسببه. والثانية لتبيين الموصول الذي هو ما عرفوا. وتحتمل معنى التبعض على أنهم عرفوا بعض الحق ، فأبكاهم وبلغ منهم ، فكيف إذا عرفوه كله وقرءوا القرآن وأحاطوا بالسنة؟ وقرئ (ترى أعينهم) على البناء للمفعول ﴿رَبَّنَا آمَنَّا﴾ المراد به إنشاء الإيمان ، والدخول فيه ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين هم شهداء على سائر الأمم يوم القيامة ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ وقالوا ذلك لأنهم وجدوا ذكرهم في الإنجيل كذلك ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ إنكار استبعاد لانتفاء الإيمان مع قيام موجه وهو الطمع في إنعام الله عليهم بصحبة الصالحين : وقيل : لما رجعوا إلى قومهم لاموهم فأجابوهم بذلك. أو أرادوا : وما لنا لا نؤمن بالله وحده لأنهم كانوا مثلثين ، وذلك ليس بإيمان بالله : ومحل ﴿لَا نُؤْمِنُ﴾ النصب على الحال ، بمعنى : غير مؤمنين ، كقولك مالك قائما. والواو في ﴿وَنَطْمَعُ﴾ واو الحال. فإن قلت : ما العامل في الحال الأولى والثانية؟ قلت : العامل في الأولى ما في اللام من معنى الفعل ، كأنه قيل : أى شيء حصل لنا غير مؤمنين : وفي الثانية معنى هذا الفعل ، ولكن مقيداً بالحال الأولى ؛ لأنك لو أزلتها وقلت : وما لنا ونطمع ، لم يكن كلاماً. ويجوز أن يكون ﴿وَنَطْمَعُ﴾ حالا من لا نؤمن ، على أنهم أنكروا على نفوسهم أنهم لا يوحدون الله ، ويطمعون مع ذلك أن يصحبوا الصالحين ، وأن يكون معطوفاً على لا نؤمن على معنى : وما لنا نجمع بين التثليث وبين الطمع في صحبة الصالحين ، أو على معنى : وما لنا لا نجمع بينهما بالدخول في الإسلام ، لأن الكافر ما ينبغي له أن يطمع في صحبة الصالحين. قرأ الحسن : فاتاهم الله ﴿بِمَا قَالُوا﴾ بما تكلموا به عن اعتقاد وإخلاص ، من قولك : هذا قول فلان ، أى اعتقاده وما يذهب إليه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾

﴿طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ما طاب ولد من الحلال. ومعنى ﴿لَا تُحَرِّمُوا﴾ لا تمنعوها أنفسكم كمنع التحريم. أو لا تقولوا حرمانها على أنفسنا مبالغة منكم في العزم على تركها تزهداً

منكم وتقشفاً^(١) وروى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وصف القيامة يوماً لأصحابه ، فبالغ وأشبع الكلام في الإنذار ، فرقوا واجتمعوا في بيت عثمان بن مظعون ، واتفقوا على أن لا يزالوا صائمين قائمين ، وأن لا يناموا على الفرش ولا يأكلوا اللحم والودك ، ولا يقربوا النساء والطيب ، ويرفضوا الدنيا ويلبسوا المسوح^(٢) ويسيحوا في الأرض ، ويجبوا مذاكيرهم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم : إني لم أؤمر بذلك ، إن لأنفسكم عليكم حقاً ، فصوموا وأفطروا ، وقوموا وناموا ، فإني أقوم وأنام وأصوم وأفطر ، وآكل اللحم والدسم ، وآتى النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني^(٣) ونزلت. وروى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأكل الدجاج والفالوذ ، وكان يعجبه الحلواء والعسل. وقال : «إن المؤمن حلو يحب الحلوة^(٤)» وعن ابن مسعود أن رجلاً قال له : إني حرمت الفراش فتلا هذه

(١) قوله «تقشفاً» وفي الصحاح «قشف» بالكسر : قشفاً ، إذا لوحته الشمس أو الفقر فتغير. والمتقشف : الذي يتبلغ بالقوت وبالمرقع. (ع)

(٢) قوله «ويلبسوا المسوح» المسوح : أكسية غلاظ تعمل منها الغرائر للتين. أفاده الصحاح في مادة لبس

(٣) ذكره الواحدي هكذا في أسبابه بغير إسناد. لكن قال المفسرون . فذكره سواء ، وقد أورده الطبري من طريق السدي في هذه الآية قال «وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس يوماً. فذكر الناس ثم قام ولم يزداهم على التخويف فقام ناس من أصحابه فذكره بمعنى ما تقدم» وهو منتزع من أحاديث ، وأصله في الصحيحين عن عائشة» أن ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سألوا أزواجه عن عمله في السر. فقال بعضهم : لا آكل اللحم. وقال بعضهم : لا أتزوج النساء. وقال بعضهم : لا أنام على فراش ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا ولكني أصوم وأفطر. وأنام وأقوم. وآكل اللحم وأتزوج النساء. فمن رغب عن سنتي فليس مني» وفي الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص قال «رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على عثمان بن مظعون التبتل. ولو أذن له لاختصينا» وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص في قصة مراجعته النبي صلى الله عليه وسلم في الصوم والصلاة فقال صلى الله عليه وسلم «صم وأفطر ، وقم ونم. فإن لنفسك عليك حقاً. الحديث» وروى الطبري من طريق ابن جريج عن مجاهد قال «أراد رجال ، منهم عثمان بن مظعون وعبد الله ابن عمرو أن يتبتلوا ويخصوا أنفسهم ويلبسوا المسوح» ومن طريق ابن جريج عن عكرمة «أن عثمان بن مظعون وعلى ابن أبي طالب وابن مسعود والمقداد بن الأسود وسالما مولى أبي حذيفة ، في جماعة من الصحابة تبتلوا فجلسوا في البيوت واعتزلوا النساء ولبسوا المسوح وحرّموا طيبات الطعام واللباس. وهما بالاختصاص. واجتمعوا لقيام الليل وصيام النهار فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرُمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾. الآية قال : فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن لأنفسكم عليكم حقاً فصوموا وأفطروا وصلوا وناموا. فليس منا من ترك سنتنا»

(٤) هذا منتزع من أحاديث. أما أكل الدجاج فمتفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري في قصة له. وأما أكله الفالوذ فرواه الحاكم من حديث عبد الله بن سلام قال «كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في أناس من أصحابه إذ أقبل عثمان بن مظعون ومعه راحلة عليها غرارتان فذكر الحديث . وفيه فطبخ الدقيق والسمن والعسل حتى نفخ ثم أكل» وهو من رواية الوليد بن مسلم عن محمد بن حمزة مضعفاً وأعله ابن الجوزي بضعف الوليد. وأما «كان يعجبه الحلوى والعسل» فمتفق عليه من حديث همام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها. وأما الأخير فذكره الديلمي في الفردوس عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

الآية وقال : ثم على فراشك وكفر عن يمينك. وعن الحسن أنه دعى إلى طعام ومعه فرقد السنجي وأصحابه ، فقعدوا على المائدة وعليها الألوان من الدجاج المسمن والفالوذ وغير ذلك ، فاعتزل فرقد ناحية ، فسأل الحسن : أهو صائم؟ قالوا : لا ، ولكنه يكره هذه الألوان ، فأقبل الحسن عليه وقال : يا فرقد ، ترى لعب النحل بلباب البرّ بخالص السمن يعيبه مسلم. وعنه أنه قيل له. فلان لا يأكل الفالوذ ويقول : لا أؤذى شكره. قال : أفيشرب الماء البارد؟ قالوا : نعم. قال : إنه جاهل ، إن نعمة الله عليه في الماء البارد أكثر من نعمته عليه في الفالوذ. وعنه أن الله تعالى أدّب عباده فأحسن أديهم. قال الله تعالى : ﴿لِيَنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ﴾ ما عاب الله قوما وسع عليهم الدنيا فتنعموا وأطاعوا ، ولا عذر قوما زواها عنهم فعصوه ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ ولا تعدوا حدود ما أحل الله لكم إلى ما حرم عليكم. أو ولا تسرفوا في تناول الطيبات. أو جعل تحريم الطيبات اعتداء وظلماً ، فنهى عن الاعتداء ليدخل تحته النهى عن تحريمها دخولا أوليا لوروده على عقبه أو أراد ولا تعتدوا بذلك ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أى من الوجوه الطيبة التي تسمى رزقا ﴿حَلَالاً﴾ حال مما رزقكم الله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تأكيد للتوصية بما أمر به. وزاده تأكيداً بقوله ﴿الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ لأنّ الإيمان به يوجب التقوى في الانتهاء إلى ما أمر وعما نهى عنه.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٨٩)

اللعو في اليمين : الساقط الذي لا يتعلق به حكم : واختلف فيه ، فعن عائشة رضى الله عنها أنها سئلت عنه فقالت : هو قول الرجل «لا والله ، بلى والله» ^(١) وهو مذهب الشافعي. وعن مجاهد : هو الرجل يلف على الشيء يرى أنه كذلك وليس كما ظن. وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله ﴿بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ بتعقيدكم الأيمان وهو توثيقها بالقصد والنية. وروى أن الحسن رضى الله عنه سئل عن لغو اليمين وكان عنده الفرزدق فقال : يا أبا سعيد ، دعني أجب عنك فقال :

(١) أخرجه البخاري ومالك من حديثها دون قوله «سئلت» ورواه أبو داود من طريق عطاء عنها مرفوعا وموقوفا. وصحح الدارقطني الموقوف

وَلَسْتُ بِمُأْخُذٍ بَلْغَوْا تَقُولُوا إِذَا لَمْ نَعْمَ عَاقِبَاتِ الْعَزَائِمِ ^(١)

وقرئ : عقدتم ، بالتخفيف . وعاقدتهم . والمعنى : ولكن يؤاخذكم بما عقدتم إذا حنثتم ، فحذف وقت المؤاخذة . لأنه كان معلوما عندهم ، أو بنكث ما عقدتم ، فحذف المضاف **﴿فَكَفَّارَتُهُ﴾** فكفارة نكثه . والكفارة : الفعل التي من شأنها أن تكفر الخطيئة أى تسترها **﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ﴾** من أقصده ، لأنّ منهم من يسرف في إطعام أهله ، ومنهم من يقتّر ، وهو عند أبي حنيفة رحمه الله نصف صاع من برّ أو صاع من غيره لكل مسكين ، أو يغديهم ويعشيهم . وعند الشافعي رحمه الله : مدّ لكل مسكين . وقرأ جعفر بن محمد : أهاليكم ، بسكون الياء ، والأهالى : اسم جمع لأهل : كاللثالي في جمع ليلة ، والأراضى في جمع أرض . وقولهم «أهلون» كقولهم «أرضون» بسكون الراء . وأما تسكين الياء في حال النصب فللتخفيف ، كما قالوا : رأيت معديكرب ، تشبيها للياء بالألف **﴿أَوْ كَسَوْتَهُمْ﴾** عطف على محل **﴿مِنْ أَوْسَطِ﴾** ^(٢) وقرئ بضم الكاف ، ونحوه : قدوة في قدوة ، وأسوة في إسوة ، والكسوة ثوب يغطى العورة ، وعن ابن عباس رضى الله عنه كانت العباءة تجزئ يومئذ . وعن ابن عمر : إزار أو قميص أو رداء أو كساء . وعن مجاهد : ثوب جامع . وعن الحسن : ثوبان أبيضان . وقرأ سعيد بن المسيب واليماني : أو كأسوتهم ، بمعنى : أو مثل ما تطعمون أهليكم إسرافا كان أو تقنيرا . لا تنقصوهم عن مقدار نفقتهم ، ولكن تواسون بينهم وبينهم . فإن قلت : ما محل الكاف؟ قلت : الرفع ، تقديره : أو طعامهم كأسوتهم ، بمعنى : كمثّل طعامهم إن لم يطعموهم الأوسط **﴿أَوْ تَخْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾** شرط الشافعي رحمه الله الإيمان قياسا على كفارة القتل . وأما أبو حنيفة وأصحابه ، فقد جوزوا تحرير الرقبة الكفارة في كل كفارة سوى كفارة القتل . فإن قلت : ما معنى أو؟ قلت : التخيير وإيجاب إحدى الكفارات الثلاث على الإطلاق ، بأيها أخذ المكفر فقد أصاب **﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾** إحداها **﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾** متتابعات عند أبي حنيفة رحمه الله ، تمسكا بقراءة أبي وابن مسعود رضى الله عنهما : فصيام ثلاثة أيام متتابعات . وعن مجاهد : كل صوم متتابع إلا قضاء رمضان . ويخير في كفارة اليمين **﴿ذَلِكَ﴾** المذكور ^(٣) **﴿كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ﴾** ولو قيل : تلك كفارة أيمانكم ، لكان صحيحا بمعنى تلك الأشياء

(١) للفرزدق روى أن الحسن رضى الله عنه سئل عن لغو اليمين ، فقال الفرزدق : دعني أجب عنك يا أبا سعيد ، وقال البيت ، أى لست مؤاخذا باللغو أى الساقط من الكلام . وتعتمد : أصله تتعمد ، حذف منه إحدى التاءين . وهذا في معنى الاستثناء المنقطع . وعاقدات العزائم : الجازمات . ونسبة الجزم إليها مجاز عقلى .

(٢) قوله «على محل من أوسط» قد يقال هذا إنما يناسب القراءة الآتية أو كأسوتهم ولكن عبارة النسفي عطف على إطعام أو على محل من أوسط . ووجهه أن **﴿مِنْ أَوْسَطِ﴾** بدل من **﴿إِطْعَامٍ﴾** والبدل هو المقصود في الكلام اه (ع)

(٣) قال محمود : «المشار إليه هو المذكور فيما تقدم ولو قيل ... الخ» قال أحمد : بل في هذه الآية وجه

أو لتأنيث الكفارة. والمعنى ﴿إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ وحشتم. فترك ذكر الحنث لوقوع العلم بأن الكفارة إنما تجب بالحنث في الحلف ، لا بنفس الحلف ، والتكفير قبل الحنث لا يجوز عند أبي حنيفة وأصحابه ويجوز عند الشافعي بمال إذا لم يعص الحانث ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ فبروا فيها ولا تحنثوا ^(١) أراد الأيمان التي الحنث فيها معصية ، لأن الأيمان اسم جنس يجوز إطلاقه على بعض الجنس وعلى كله. وقيل : احفظوها بأن تكفروها. وقيل : احفظوها كيف حلفتن بها ، ولا تنسوها تهاونا بها ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك البيان ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ آيَاتِهِ﴾ أعلام شريعته وأحكامه ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته فيما يعلمكم ويسهل عليكم المخرج منه

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (٩١)

أكد تحريم الخمر والميسر وجوها من التأكيد ^(٢) منها تصدير الجملة بإنما ، ومنها أنه قرنها بعبادة الأصنام ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «شارب الخمر كعابد الوثن» ^(٣) ومنها أنه

. لطيف المأخذ في الدلالة على صحة وقوع الكفارة بعد اليمين وقبل الحنث وهو المشهور من مذهب مالك ، وبيان الاستدلال بها أنه جعل ما بعد الحلف طرفا لوقوع الكفارة المعتبرة شرعا ، حيث أضاف «إذا» إلى مجرد الحلف. وليس في الآية إيجاب الكفارة حتى يقال : قد اتفق على أنها إنما تجب بالحنث ، فتعين تقديره مضافا إلى الحلف ، بل إنما نطقت بشرعية الكفارة ووقوعها على وجه الاعتبار ، إذ لا يعطي قوله : ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةٌ أَيْمَانِكُمْ﴾ إيجابا ، إنما يعطى صحة واعتبارا ، والله أعلم. وهذا انتصار على من منع التكفير قبل الحنث مطلقا ، وإن كانت اليمين على بر والأقوال الثلاثة في مذهب مالك ، إلا أن القول المنصور هو المشهور.

(١) عاد كلامه. قال : «واحفظوا أيمانكم ، أى فبروا فيها ... الخ» قال أحمد : وفي هذا التأويل إشعار بأن الشاك في صورة اليمين بعد تحقق أصلها يشدد عليه ويؤاخذ بالأحوط ، فأرشده الله إلى حفظ اليمين لئلا يفضى أمره إلى أن يلزم في ظاهر الأمر على وجه الاحتياط ما لم يصدر منه في علم الله تعالى ، كالذي يحلف بالطلاق وينسى هل قيده بالثلاث مثلا أو أطلقه ، فيلزمه الثلاث على المذهب المشهور. ويحتمل أن يكون في علم الله تعالى أنه إنما حلف بالطلاق مطلقا ، فأرشد إلى الحفظ لئلا يجره النسيان إلى هذا التشديد. والمراد بالأيمان كل ما ينطلق عليه يمين ، سواء كان حلفا بالله أو بغيره مما يلزم في الشرع حكما والله أعلم.

(٢) قال محمود : «أكد الله تحريم الخمر والميسر وجوها من التأكيد منها ... الخ» قال أحمد : ويجوز عود الضمير إلى الرجس الذي انطوى على سائر ما ذكر والله أعلم.

(٣) أخرجه البزار من حديث مجاهد عن عبد الله بن عمرو بهذا. رواه الحرث بن أسامة وأبو نعيم في الحلية من رواية الحسن عن عبد الله بن عمرو به. وفيه الخليل بن زكريا وفي الذي قبله ثابت بن محمد وهو أصلح حالا من .

جعلهما رجسا ، كما قال تعالى : ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ ومنها أنه جعلهما من عمل الشيطان ، والشيطان لا يأتي منه إلا الشر البحت ، ومنها أنه أمر بالاجتناب. ومنها أنه جعل الاجتناب من الفلاح ، وإذا كان الاجتناب فلاحا ، كان الارتكاب خيبة ومحقة. ومنها أنه ذكر ما ينتج منهما من الوبال ، وهو وقوع التعادي والتباغض من أصحاب ^(١) الخمر والقمر ، وما يؤدّيان إليه من الصّدّ عن ذكر الله ، وعن مراعاة أوقات الصلاة. وقوله ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ من أبلغ ما ينهى به ، كأنه قيل : قد تلى عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والموانع ، فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون. أم أنتم على ما كنتم عليه ، كأن لم توعظوا ولم تزجروا؟ فإن قلت : إلام يرجع الضمير في قوله : ﴿فَاجْتَنِبُوا﴾؟ قلت : إلى المضاف المحذوف ، كأنه قيل : إنما شأن الخمر والميسر أو تعاطيهما أو ما أشبه ذلك. ولذلك قال : ﴿رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ فإن قلت لم جمع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام أولا ثم أفردهما آخر ^(٢)؟ قلت : لأن الخطاب مع المؤمنين. وإنما نهاهم عما كانوا يتعاطونه من شرب الخمر واللعب بالميسر ، وذكر الأنصاب والأزلام لتأكيد تحريم الخمر والميسر ، وإظهار أنّ ذلك جميعاً من أعمال الجاهلية وأهل الشرك ، فوجب اجتنابه بأسره ، وكأنه لا مبالغة بين من عبد صنما وأشرك بالله في علم الغيب ، وبين من شرب خمرأ أو قامر ، ثم أفردهما بالذكر ليرى أن المقصود بالذكر الخمر والميسر. وقوله ﴿وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ اختصاص للصلاة من بين الذكر كأنه قيل : وعن الصلاة خصوصاً.

[سورة المائدة (٥) : آية ٩٢]

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (٩٢)

. الخليل. ولابن ماجة من حديث أبي هريرة ، بلفظ «مدمن خمر كعابد وثن» وإسناده جيد ، قال : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا محمد بن سليمان الأصبهاني عن سهيل عن أبيه عنه به. ورواه ابن حبان من حديث ابن عباس بهذا اللفظ. وقال الشبه أن يكون فيمن استحلها. وفي مسند إسحاق ومن رواية عمر بن عبد العزيز عن بعض أصحابه ، بلفظ «من شرب الخمر فمات مات كعابد وثن» وللطبراني في الأوسط من حديث أنس بلفظ «المقيم على الخمر كعابد وثن» وإسناده ضعيف

(١) قوله «من أصحاب» لعله بين أصحاب. (ع)

(٢) عاد كلامه. قال : «فإن قلت لم جمع الخمر والميسر مع الأنصاب ... الخ» قال أحمد : ويرشد إلى أن المقصود الخمر والميسر خاصة ، لأنهم إنما كانوا يتعاطونها خاصة الآية الأخرى وهي قوله : ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ فخصهما بالذكر ولم يثبت النهي عنهما ، فلذلك ورد أن قوما تركوها لما فيها من الإثم ، وقوما بقوا على تعاطيها لما فيها من المنافع ، ثم نزلت هذه الآية جازمة بالنهي ، والله أعلم.

﴿وَاحْذَرُوا﴾ وكونوا حذرين خاشين ، لأنهم إذا حذروا دعاهم الحذر إلى اتقاء كل سيئة وعمل كل حسنة. ويجوز أن يراد : واحذروا ما عليكم في الخمر والميسر ، أو في ترك طاعة الله والرسول ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا﴾ أنكم لم تضروا بتوليكم الرسول ، لأن الرسول ما كلف إلا البلاغ المبين بالآيات ، وإنما ضررتم أنفسكم حين أعرضتم عما كلفتم.

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٩٣)

رفع الجناح عن المؤمنين في أى شيء طعموه من مستلذات المطاعم ومشتهياتها ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾ ما حرم عليهم منها ﴿وَآمَنُوا﴾ وثبتوا على الإيمان والعمل الصالح وازدادوه ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا﴾ ثم ثبتوا على التقوى والإيمان ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا﴾ ثم ثبتوا على اتقاء المعاصي وأحسنوا أعمالهم ، أو أحسنوا إلى الناس : واسوهم بما رزقهم الله من الطيبات. وقيل لما نزل تحريم الخمر قالت الصحابة : يا رسول الله ، فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون مال الميسر ^(١) فنزلت. يعنى أن المؤمنين لا جناح عليهم في أى شيء طعموه من المباحات إذا ما اتقوا المحارم ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا ، على معنى : أن أولئك كانوا على هذه الصفة ثناء عليهم وحمداً لأحوالهم في الإيمان والتقوى والإحسان. ومثاله أن يقال لك : هل على زيد فيما فعل جناح؟

(١) أخرجه أحمد من رواية ابن وهب مولى أبي هريرة قال «حرمت الخمر ثلاث مرات قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر. فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك. فأنزل الله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ الآية فقال الناس : لم تحرم علينا ، إنما قال : فيها إثم كبير فكانوا يشربون الخمر ، حتى كان يوم من الأيام صلى رجل من المهاجرين المغرب ، فخلط في قراءته. فأنزل الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ فكانوا يشربونها حتى يأتى أحدهم الصلاة وهو مفيق ، فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾. الآية فقالوا : انتهينا يا رب. وقال الناس : يا رسول الله ، ناس قتلوا في سبيل الله أو ماتوا على فرشهم كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر وقد جعله الله رجسا من عمل الشيطان. فأنزل الله ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ﴾. الآية فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لو حرمت عليهم لتركوها كما تركتم ، إسناده ضعيف ، فانه من رواية أبي معشر عن أبي وهب. وأبو معشر ضعيف. وروى الطبري من حديث على بن أبي طلحة عن ابن عباس قال في قوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية قالوا : يا رسول الله : ما تقول في إخواننا الذين ماتوا كانوا يشربون الخمر ، ويأكلون الميسر. فأنزل الله الآية وفي المتفق عليه عن حماد بن زيد عن ثابت عن أنس قال «كنت ساقى القوم في منزل أبي طلحة. وكان خمرهم يومئذ الفضيخ فأمر مناديا فنادى : ألا إن الخمر قد حرمت. الحديث» قال بعض القوم : قد قتل فلان وفلان وفلان وهي في بطونهم فأنزل الله ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا...﴾ الآية

فتقول . وقد علمت أن ذلك أمر مباح . : ليس على أحد جناح في المباح ، إذا اتقى المحارم ، وكان مؤمناً محسناً ، تريد : أن زیداً تقى مؤمن محسن ؛ وأنه غير مؤاخذ بما فعل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٩٤)

نزلت عام الحديبية ابتلاهم الله بالصيد وهم محرمون ، وكثر عندهم حتى كان يغشاهم في رحالهم فيستمكنون من صيده ، أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ لِيتميز من يخاف عقاب الله وهو غائب منتظر في الآخرة فيتقى الصيد ، ممن لا يخافه فيقدم عليه ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ﴾ فصاد ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ الابتلاء فالوعيد لاحق به ، فإن قلت : ما معنى التقليل والتصغير ^(١) في قوله : ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ﴾؟ قلت : قلل وصغر ليعلم أنه ليس بفتنة من الفتن العظام التي تدحض عندها أقدام الثابتين ، كالاتلاء ببذل الأرواح والأموال ، وإنما هو شبيه بما ابتلى به أهل أيلة من صيد السمك ، وأنهم إذا لم يثبتوا عنده فكيف شأنهم عند ما هو أشد منه. وقرأ إبراهيم : يناله ، بالياء.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنْكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بِالْغِ الْكَعْبَةِ

(١) قال محمود : «إن قلت ما معنى التقليل والتصغير ... الخ» قال أحمد : وقد وردت هذه الصيغة بعينها في الفتن العظيمة في قوله تعالى : ﴿وَلْيَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ فلا خفاء في عظم هذه البلايا والحن التي يستحق الصابر عليها أن يبشر ، لأنه صبر على عظيم. فقول الزمخشري إذا «إنه قلل وصغر تنبيهاً على أن هذه الفتنة ليست من الفتن العظام» مدفوع باستعمالها مع الفتن المتفق على عظمها. والظاهر . والله أعلم. أن المراد بما يشعر به اللفظ من التقليل والتصغير ، التنبيه على أن جميع ما يقع الابتلاء به من هذه البلايا بعض من كل بالنسبة إلى مقدور الله تعالى ، وأنه تعالى قادر على أن يكون ما يبلوهم به من ذلك أعظم مما يقع وأهول ، وأنه مهما اندفع عنهم مما هو أعظم في المقدور ، فإنما يدفعه عنهم إلى ما هو أخف وأسهل ، لطفاً بهم ورحمة : ليكون هذا التنبيه باعثاً لهم على الصبر وحاملاً على الاحتمال ، والذي يرشد إلى أن هذا مراد أن سبق التوعد بذلك لم يكن إلا ليكونوا متوطنين على ذلك عند وقوعه ، فيكون أيضاً باعثاً على تحمله ، لأن مفاجأة المكروه بغتة أصعب ، والانداز به قبل وقوعه مما يسهل موقعه ، وحاصل ذلك لطف في القضاء ، فسبحان اللطيف بعباده. وإذا فكر العاقل فيما يبتلى به من أنواع البلايا ، وجد المندفع عنه منها أكثر إلى ما لا يقف عند غاية ، فنسأل الله العفو والعافية واللطف في المقدور.

أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

﴿حُرْمٌ﴾ محرمون ، جمع حرام ، كردح في جمع رداح. والتعمد : أن يقتله وهو ذاكراً لإحرامه ، أو عالم أن ما يقتله مما يحرم عليه قتله ، فإن قتله وهو ناس لإحرامه أو رمى صيداً وهو يظن أنه ليس بصيد فإذا هو صيد ، أو قصد برميهِ غير صيد فعُدل السهم عن رميته فأصاب صيداً فهو مخطئ. فإن قلت : فمحظورات الإحرام يستوي فيها العمد والخطأ ، فما بال التعمد مشروطاً في الآية؟ قلت : لأن مورد الآية فيمن تعمد ؛ فقد روى أنه عنّ لهم في عمرة الحديبية حمار وحش ، فحمل عليه أبو اليسر قطعنه برمح فقتله ، فقليل له : إنك قتلت الصيد وأنت محرم فنزلت ولأن الأصل فعل التعمد ، والخطأ لاحق به للتغليظ. ويدل عليه قوله تعالى : ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ وعن الزهري : نزل الكتاب بالعمد ووردت السنة بالخطأ وعن سعيد بن جبير : لا أرى في الخطأ شيئاً أخذاً باشتراط العمد في الآية. وعن الحسن روايتان ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ﴾ برفع جزاء ومثل جميعاً ، بمعنى : فعليه جزاء بمثل ما قتل من الصيد ، وهو عند أبي حنيفة قيمة المصيد يقوم حيث صيد ، فإن بلغت قيمته ثمن هدى ، تخير بين أن يهدي من النعم ما قيمته قيمة الصيد ، وبين أن يشتري بقيمته طعاماً ، فيعطى كل مسكين نصف صاع من برّ أو صاع من غيره ، وإن شاء صام عن طعام كل مسكين يوماً ، فإن فضل ما لا يبلغ طعام مسكين صام عنه يوماً أو تصدّق به. وعند محمد والشافعي رحمهما الله مثله نظيره من النعم ، فإن لم يوجد له نظير من النعم عدل إلى قول أبي حنيفة رحمه الله. فإن قلت : فما يصنع من يفسر المثل بالقيمة بقوله ﴿مِنْ النَّعْمِ﴾ وهو تفسير للمثل ، ويقول : هدياً بالغ الكعبة؟ قلت : قد خير من أوجب القيمة بين أن يشتري بها هدياً أو طعاماً أو يصوم ، كما خير الله تعالى في الآية ، فكان قوله : ﴿مِنْ النَّعْمِ﴾ بياناً للهدى المشتري بالقيمة في أحد وجوه التخيير ؛ لأن من قوم الصيد واشترى بالقيمة هدياً فأهداه ، فقد جرى بمثل ما قتل من النعم. على أن التخيير الذي في الآية بين أن يجزى بالهدى أو يكفر بالإطعام أو بالصوم ، إنما يستقيم استقامة ظاهرة بغير تعسف إذا قوم ونظر بعد التقويم أى الثلاثة يختار ، فأما إذا عمد إلى النظر وجعله الواجب وحده من غير تخيير . فإذا كان شيئاً لا نظير له قوم حينئذ ، ثم يخير بين الإطعام والصوم . ففيه نبوّ عما في الآية. ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً﴾ كيف خير بين الأشياء الثلاثة ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتقويم. وقرأ عبد الله : فجزاؤه مثل ما قتل ، وقرئ. فجزاء مثل ما قتل ، على الإضافة ، وأصله. فجزاء مثل ما قتل ، بنصب مثل بمعنى : فعليه أن يجزى مثل ما قتل ، ثم أضيف كما تقول :

عجبت من ضرب زيد ، وقرأ السلمى على الأصل وقرأ محمد بن مقاتل ، فجزاء مثل ما قتل ، بنصبهما ، بمعنى : فليجز جزء مثل ما قتل . وقرأ الحسن : من النعم ، بسكون العين ، استثقل الحركة على حرف الحلق فسكنه ﴿يَحْكُمُ بِهِ﴾ بمثل ما قتل ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ حكمان عادلان من المسلمين . قالوا : وفيه دليل على أن المثل القيمة ، لأنّ التقويم مما يحتاج إلى النظر والاجتهاد دون الأشياء المشاهدة . وعن قبيصة أنه أصاب ظيباً وهو محرم فسأل عمر ، فشاور عبد الرحمن بن عوف ، ثم أمره بذبح شاة ، فقال قبيصة لصاحبه : والله ما علم أمير المؤمنين حتى سأل غيره ، فأقبل عليه ضرباً بالدرة وقال : أتغمص الفتيا وتقتل الصيد وأنت محرم . قال الله تعالى : ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ فأنا عمر ، وهذا عبد الرحمن ^(١) . وقرأ محمد بن جعفر ذو عدل منكم ، أراد يحكم به من يعدل منكم ولم يرد الوحدة . وقيل أراد الإمام ﴿هَدِيًّا﴾ حال عن جزاء فيمن وصفه بمثل ، لأنّ الصفة خصصته فقرّته من المعرفة ، أو بدل عن مثل فيمن نصبه ، أو عن محله فيمن جرّه . ويجوز أن ينتصب حالا عن الضمير في به . ووصف هدياً ب ﴿بَالِغِ الْكُفْبَةِ﴾ لأن إضافته غير حقيقية . ومعنى بلوغه الكعبة أن يذبح بالحرم ، فأما التصديق به فحيث شئت عند أبي حنيفة ، وعند الشافعي في الحرم . فإن قلت : بم يرفع ﴿كَفَّارَةً﴾ من ينصب جزاء؟ قلت : يجعلها خبر مبتدأ محذوف ، كأنه قيل : أو الواجب عليه كفارة . أو يقدر : فعليه أن يجزى جزاء أو كفارة . فيعطفها على أن يجزى . وقرئ : أو كفارة طعام مساكين على الإضافة . وهذه الإضافة مبينة ، كأنه قيل : أو كفارة من طعام مسكين ، كقولك : خاتم فضة ، بمعنى خاتم من فضة . وقرأ الأعرج : أو كفارة طعام مساكين . وإنما وحد ، لأنه واقع موقع التبيين ، فاكتفى بالواحد الدال على الجنس . وقرئ : أو عدل ذلك ، بكسر العين . والفرق بينهما أن عدل الشيء ما عادله من غير جنسه ، كالصوم والإطعام . وعدله ما عدل به في المقدار ، ومنه عدلا الحمل ، لأن كل واحد منهما عدل بالآخر حتى اعتدلا ، كأن المفتوح تسمية بالمصدر ، والمكسور بمعنى المفعول به ، كالذبح ونحوه ، ونحوهما الحمل والحمل . و ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الطعام ﴿صِيَامًا﴾ تمييز للعدل كقولك : لي مثله رجلاً . والخيار في ذلك إلى قاتل الصيد عند أبي حنيفة وأبي يوسف . وعند محمد إلى الحكمين ﴿لِيَذُوقَ﴾ متعلق بقوله : ﴿فَجَزَاءٌ﴾ أى فعليه أن يجازى أو يكفر ، ليدوق سوء عاقبة هتكه لحزمة الإحرام . والوبال : المكروه والضرر الذي يناله في العاقبة من عمل سوء لثقله عليه ، كقوله تعالى : ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ ثقيلاً . والطعام الوبيل : الذي يثقل على المعدة فلا يستمرأ ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْمَا سَلَفَ﴾ لكم من الصيد في حال الإحرام قبل أن تراجعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسألوه عن جوازه . وقيل : عما سلف لكم في الجاهلية منه ، لأنهم كانوا متعبدين بشرائع من قبلهم وكان الصيد فيها محرماً ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى قتل الصيد وهو محرم بعد

(١) رواه عبد الرزاق عن معمر عن عبد الملك بن عمير فذكره . وفيه الزيادة التي في آخره .

نزل النهي ﴿فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ ينتقم : خبر مبتدأ محذوف تقديره فهو ينتقم الله منه ، ولذلك دخلت الفاء. ونحوه ﴿فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ﴾ يعنى ينتقم منه في الآخرة. واختلف في وجوب الكفارة على العائد ، فعن عطاء وإبراهيم وسعيد بن جبير والحسن : وجوبها ، وعليه عامة العلماء. وعن ابن عباس وشريح : أنه لا كفارة عليه تعلقاً بالظاهر ، وأنه لم يذكر الكفارة

﴿أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٩٦)

﴿صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ مصيدات البحر مما يؤكل ومما لا يؤكل ﴿وَطَعَامُهُ﴾ وما يطعم من صيده والمعنى : أحل لكم الانتفاع بجميع ما يصاد في البحر ^(١) ، وأحل لكم أكل المأكول منه وهو السمك وحده عند أبي حنيفة. وعند ابن أبي ليلى جميع ما يصاد منه ، على أن تفسير الآية عنده أحل لكم صيد حيوان البحر وأن تطعموه ﴿مَتَاعاً لَكُمْ﴾ مفعول له ، أى أحل لكم تمتيعاً لكم وهو في المفعول له بمنزلة قوله تعالى : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ في باب الحال ، لأن قوله ﴿مَتَاعاً لَكُمْ﴾ مفعول له مختص بالطعام ، كما أن نافلة حال مختصة بيعقوب ، يعنى أحل لكم طعامه تمتيعاً لتنائكم ^(٢) يأكلونه طريا ، ولسيارتكم يتزودونه قديداً ، كما تزود موسى عليه السلام الحوت في مسيره إلى الخضر عليهما السلام. وقرئ : وطعمه. وصيد البر : ما صيد فيه ، وهو ما يفرّخ فيه وإن كان يعيش في الماء في بعض الأوقات ، كطيور الماء عند أبي حنيفة. واختلف فيه ^(٣) فمنهم من حرّم على المحرم كل شيء يقع عليه اسم الصيد ، وهو قول عمرو ابن عباس ، وعن أبي هريرة وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير : أنهم أجازوا للمحرم أكل ما صاده الحلال ، وإن صاده لأجله ، إذا لم يدل ولم يشر ، وكذلك ما ذبحه قبل إحرامه وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه رحمه الله ، وعند مالك والشافعي وأحمد رحمهم الله : لا يباح له ما صيد لأجله. فإن قلت : ما يصنع

(١) قوله «بجميع ما يصاد في البحر» لعله من. (ع)

(٢) قوله «تمتيعاً لتنائكم يأكلونه» أى للمتوطنين منكم. يقال : تنأ بالبلد توطئه ، فهو تانى ، وهم تناء. أفاده الصحاح ، وسيأتى للمفسر في قوله تعالى : ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ أن الأناس اسم جمع غير تكسير ، نحو رجال وتناء وتؤام. ويجوز أن يقال : إن الأصل الكسر والتكسير ، والضمّة بدل من الكسرة. (ع)

(٣) قال محمود «اختلف في المراد بالتحريم ... الخ» قال أحمد : وتخصيص عموم الآية لازم على كلتا الطائفتين ؛ لأن مالكا رضى الله عنه يجيز أكل المحرم لصيد البر ، إذا صاده حلال لنفسه ، أو لحلال ، فلا بد إذا على مذهبه من تخصيص العموم المخصوص ، غاية ذلك أن صورة التخصيص على مذهب أبي حنيفة ، تكون أكثر منها على مذهب مالك ، لأنه يجيز أكل ما صاده الحلال من أجل المحرم كما نقل عنه ، فيزيد على مذهب مالك بهذه الصورة ، والله أعلم.

أبو حنيفة بعموم قوله : صيد البر؟ قلت قد أخذ أبو حنيفة رحمه الله بالمفهوم من قوله : ﴿وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ لأن ظاهره أنه صيد المحرمين دون صيد غيرهم ، لأنهم هم المخاطبون فكأنه قيل : وحرم عليكم ما صدتم في البر ، فيخرج منه مصيد غيرهم ، ومصيدهم حين كانوا غير محرمين. ويدل عليه قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ وقرأ ابن عباس رضى الله عنه : وحرم عليكم صيد البر ، أى الله عز وجل. وقرئ ﴿مَا دُمْتُمْ﴾ بكسر الدال ، فيمن يقول دام يدام.

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٩٧) اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾

﴿الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ عطف بيان على جهة المدح ، لا على جهة التوضيح ، كما تحيى الصفة كذلك ﴿قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ انتعاشاً لهم ^(١) في أمر دينهم ودنياهم ، ونهوضاً إلى أغراضهم ومقاصدهم في معاشهم ومعادهم ، لما يتم لهم من أمر حجهم وعمرتهم وتجارتهم ، وأنواع منافعهم. وعن عطاء ابن أبي رباح : لو تركوه عاماً واحداً لم ينظروا ولم يؤخروا ﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ الشهر الذي يؤدي فيه الحج ، وهو ذو الحجة ، لأن اختصاصه من بين الأشهر بإقامة موسم الحج فيه شأناً قد عزّفه الله تعالى. وقيل عنى به جنس الأشهر الحرم ﴿وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾ والمقلد منه خصوصاً

(١) قال محمود : «معنى قياما للناس : انتعاشا لهم في أمر دينهم ودنياهم ... الخ» قال أحمد : وفي هذه الآية ما يبعد تأويلين من التأويلات الثلاثة المذكورة في قوله أول هذه السورة ﴿لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ فان حمل القلائد ثم على ظاهرها ، وتأويل صرف الإحلال إلى مواقعها من المقلد. كقوله : ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ يريد مواقع الزينة ، والنهي عن إحلال القلائد يشبهه ، كأنه قال : لا تحلوا قلائدها فضلا عنها . متعذر في هذه الآية ، لأنها وردت في سياق الامتنان بما جعله الله قياما للناس من هذه الأمور المعدودة ، وقد خص المنّة بالبدن في قوله : ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ...﴾ الآية ولا يليق بسياق الامتنان الخروج من الأعلى إلى الأدنى ، حتى يقع الامتنان بالمقلد ثم بالقلائد ، بل ذلك لائق في سياق النهي أن يخرج من النهي عن الأعلى إلى التشديد بالنهي عن الأدنى. وأما التأويل الآخر . وهو بقاء القلائد على حقيقتها وصرف الإحلال المنهي عنه إليها حقيقة ، أى لا تتعرضوا للقلائد ولا تنتفعوا بها ، كما قال عليه الصلاة والسلام «ألقى قلائدها في دمها وخل بين الناس وبينها» . فمتعذر أيضا بما بعد به الذي قبله. وأما التأويل الثالث . وهو حملها على ذوات القلائد . فلائق بالاثنتين فيتعين المصير إليه. ومن ثم لم يذكر الزمخشري في هذه الآية سواء. ووجه صلاحيته وظهوره فيهما : أن الغرض في سياق النهي إفراده بالذكر وتخصيصه بالنهي ، بعد أن اندرج مع غيره في النهي ، فكأنه نهي عنه لخصوصيته مرتين. والغرض في سياق الامتنان أيضا ذلك ، وهو تكرير المنّة به مندرجا في العموم ومخصوصا بالذكر. وأيضا فيليق في الامتنان الترقى من الأدنى إلى الأعلى ، بخلاف النهي. والله أعلم.

وهو البدن ، لأن الثواب فيه أكثر ، وبهاء الحج معه أظهر ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى جعل الكعبة قياماً للناس ، أو إلى ما ذكر من حفظ حرمة الإحرام بترك الصيد وغيره ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ كل شيء وهو عالم بما يصلحكم وما ينعشكم مما أمركم به وكلفكم ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن انتهك محارمه ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن حافظ عليها.

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (٩٩)

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ تشديد في إيجاب القيام بما أمر به ، وأن الرسول قد فرغ مما وجب عليه من التبليغ ، وقامت عليكم الحجة ، ولزمتكم الطاعة ، فلا عذر لكم في التفريط.

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٠٠)

البون بين الخبيث والطيب بعيد عند الله تعالى ^(١) وإن كان قريباً عندكم ، فلا تعجبوا بكثرة الخبيث حتى تؤثره لكثرتة على القليل الطيب ، فإنّ ما تتوهمونه في الكثرة من الفضل ، لا يوازى النقصان في الخبيث ، وفوات الطيب ، وهو عام في حلال المال وحرامه ، وصالح العمل وطالحه ، وصحيح المذاهب وفاسدها ، وحيد الناس ورديهم ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وآثروا الطيب ، وإن قل ، على الخبيث وإن كثر. ومن حق هذه الآية أن تكفح بها وجوه المجبرة ^(٢) إذا افتخروا بالكثرة كما قيل :

(١) قال محمود : «البون بين الخبيث والطيب بعيد عند الله ... الخ» قال أحمد رحمه الله : وقد ثبت شرعاً أن أكثر أهل الجنة من هذه الأمة. وقد اعترف للقدرية أنهم قليل فيها ، وشذوذ بالنسبة إلى من عداهم من الطوائف والأمر بهذه المثابة ، وهم أيضاً يعتقدون أنهم الفرقة الناجية الموعودون بالجنة لا غيرهم ، إذ كل من عداهم . على طمعهم الفاسد . مخلد في النار مع الكفار ، فعلى هذا تكون هذه الطائفة الشاذة القليلة أكثر أهل الجنة ، وحاشا لله أن يستمر ذلك على عقل عاقل محصل ، مطلع على ما ورد في السنن من الآثار المكافحة لهذا الظن الفاسد بالرد والتكذيب. ومن هم المعتزلة حتى يتزامى طمعهم على هذا الحد؟ وهذا الاستنباط الذي استنبطه الرّمحشري من أن المراد بالطيب هذا النفر المعتزلي. من قبيل القول بأن المراد في قوله تعالى : ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أهل الحديث وأصحاب الرأي ، يعنى الحقيقة. وقد أغلظ في تفسير هذه الآية على من قال ذلك وعده من البدع ، وما هو قد ابتدع قريباً منه في حمله الطيب في هذه الآية على الفريق المعتزلي ، بل والله شراً من تلك المقالة ، لأنه حمل الخبيث على من عداهم من الطوائف السنية ، نعوذ بالله من ذلك ، ونبرأ من تجريه على السلف والخلف.

(٢) قوله «أن تكفح بها وجوه المجبرة» يعنى أهل السنة. وهذا غلو من العلامة في التعصب للمعتزلة ، وما كان ينبغي أن يكون منه ، لعدم الداعي إليه هنا. (ع)

وَكَلَّا تَرِيسَ عِدِّ إِنْ سَعْدًا كَثِيرَةً و ، لَا تَنْجُ مِنْ سَعْدٍ وَقَاءَ وَلَا نَصْرًا ^(١)
وكما قيل :

لَا يَدَهْمَنَّكَ مِنْ دَهْمِ دَهْمِهِمْ عَدَدٌ فَإِنَّ جُلَّهُمْ بِمِثْلِ كُلِّهِمْ بَقَرٌ ^(٢)
وقيل : نزلت في حجاج اليمامة ، حين أراد المسلمون أن يوقعوا بهم ، فنهوا عن الإيقاع بهم وإن كانوا مشركين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ (١٠٢)

الجملة الشرطية والمعطوفة عليها أعنى قوله ﴿إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ ، وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ﴾ صفة للأشياء. والمعنى : لا تكثرُوا مسألة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى تسألوه عن تكاليف شاقة عليكم ، إن أفتاكم بها وكلفكم إياها تغمكم وتشق عليكم وتندموا على السؤال عنها. وذلك نحو ما روى أن سراقه بن مالك أو عكاشة بن محصن قال : يا رسول الله ، الحج علينا كل عام؟ فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أعاد مسأله ثلاث مرّات ، فقال صلى الله عليه وسلم : «ويحك! ما يؤمنك أن أقول نعم؟ والله لو قلت : نعم لوجبت ، ولو وجبت ما استطعتم ، ولو تركتم لكفرتم ، فاتركوني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤلهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بأمر فخذوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه» ^(٣) ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ﴾ وإن تسألوا عن هذه

(١) «سعد» اسم قبيلة. والمعنى : أنه لا نفع فيهم إلا تكتير سواد الجيش ، فلا يفون بما وعدوا من النصر ، ولا ينصرون بلا وعد. ويمكن أن المراد الوفاء بحق الشجاعة. فالنصر تفسير. وفي تكرير الاسم. نوع تهكم.

(٢) لم يبق من جمل هذا الناس باقية ينالهم إلا هـ الصـ
لا يدهمك من دهمهم عدد فإن جلهم بمثل كلهم بقـ

لأبى تمام. يقال : دهم الأمر ، إذا غشيه فحيره وسد عليه باب الرأى. والدهماء : الجماعة الكثيرة المتكاثفة ، وأصله من الدهمة وهي الظلمة والسواد. يقول : لم يبق من معظم هذا الجمع من الناس بقية يدركها الوهم بعد التأمل ، إلا هذه الصور والأجسام المشاهدة ، مجردة على العقول ، فلا تفرغ من كثرة عدد جماعتهم ، فان معظمهم كالبقر ، بل جميعهم كذلك ، فلا تدبير عندهم لأمر الحرب.

(٣) هذا السياق لم أجده لا عن سراقه ولا عن عكاشة. فأما سراقه فروى مسلم من حديث جابر الطويل في صفة الحج «فقال سراقه بن مالك : بن جعشم يا رسول الله ، لعامنا هذا. أم للأبد؟ قلت : وهو عند البخاري ايضا .

التكاليف الصعبة في زمان الوحي وهو ما دام الرسول بين أظهركم يوحى إليه ، تبد لكم. تلك التكاليف الصعبة التي تسؤكم ، وتؤمروا بتحملها ، فتعرضون أنفسكم لغضب الله بالتفريط فيها ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾. عفا الله عما سلف. من مسألتكم ، فلا تعودوا إلى مثلها ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلكم فيما يفرط منكم بعقوبته. فإن قلت : كيف قال : ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾ ثم قال : ﴿قَدْ سَأَلَهَا﴾ ولم يقل. قد سأل عنها؟ قلت : الضمير في : ﴿سَأَلَهَا﴾ ليس براجع إلى أشياء حتى تجب تعديته بعن ، وإنما هو راجع إلى المسألة التي دل عليها ﴿لَا تَسْأَلُوا﴾ يعنى قد سأل قوم هذه المسألة من الأولين ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا﴾ أى مرجوعها أو بسببها ﴿كَافِرِينَ﴾ وذلك أنّ بنى إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم عن أشياء ، فإذا أمروا بها تركوها فهلكوا.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٠٣)

كان أهل الجاهلية إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر ، بحروا أذنّها ، أى شقوها

. من وجه آخر عن جابر ، وللنسائي وابن ماجة من حديث سراقه بن مالك نفسه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم «يا رسول الله ، عمرتنا هذه لعامنا أم للأبد؟ فقال : لا ، بل للأبد. دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة» وأما عكاشة بن محصن فرواه الطبري وابن مردويه من طريق محمد بن زياد : سمعت أبا هريرة رضى الله عنه يقول «خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أيها الناس ، كتب عليكم الحج ، فقال عكاشة بن محصن الأسدي : أي كل عام يا رسول الله؟ فقال : أما أنا لو قلت نعم لوجبت. ولو وجبت ثم تركتم لضللتم. اسكتوا عني ما سكت عنكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم. فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾ الآية وهو أقرب إلى سياق المصنف ، دون ما في آخره مما ذكره المصنف فهو في الحديث الآتي. وأخرج الطبري من طريق أبي إسحاق الهجري عن ابن عباس عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله كتب عليكم الحج فقال رجل : كل عام يا رسول الله؟ فأعرض عنه حتى أعاد مرتين أو ثلاثا. فقال : من السائل؟ فقبل فلان. فقال : والذي نفسي بيده لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت ما أطقتموه. ولو تركتموه لكفرتم. فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾ وأخرج أيضا من طريق معاوية بن يحيى عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر عن أبي أمامة أنه سمعه يقول «قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس وقال : كتب عليكم الحج فقام رجل من الأعراب. فذكر الحديث ، وفيه فقال : ويحك ما ذا يؤمنك أن أقول نعم ، والله لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت لكفرتم. وأما بقيته ففيما أخرجه مسلم من طريق الربيع بن مسلم عن محمد بن زياد عن أبي هريرة «خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أيها الناس فرض الله عليكم الحج فحجوا فقال رجل : أي كل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثا. فقال لو قلت نعم لوجبت ، ولما استطعتم. ثم قال : ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه» وقد سأل عن الحج الأقرع بن حابس فعند بعض السنن من حديث ابن عباس «أن الأقرع بن حابس سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحج في كل سنة أو مرة واحدة؟ فقال : مرة واحدة. فما زاد فهو تطوع» وأخرجه الطبري من هذا الوجه. فسمى الرجل محصنا الأسدي ، وعند غيره عكاشة بن محصن.

وحَرَّمُوا رُكُوبَهَا ، ولا تطرد عن ماء ولا مرعى ، وإذا لقيها المعبي لم يركبها ، واسمها البحيرة. وكان يقول الرجل : إذا قدمت من سفري أو برئت من مرضي فناقني سائبة ، وجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها. وقيل : كان الرجل إذا أعتق عبداً قال : هو سائبة فلا عقل بينهما ولا ميراث. وإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم ، وإن ولدت ذكراً فهو لأهلتهم ، فإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا : وصلت أخاها ، فلم يذبحوا الذكر لأهلتهم. وإذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا قد حمى ظهره ، فلا يركب ، ولا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماء ولا مرعى. ومعنى ﴿مَا جَعَلَ﴾ ما شرع ذلك ولا أمر بالتبحير والتسييب وغير ذلك ، ولكنهم بتحريمهم ما حَرَّمُوا ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَآكَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فلا ينسبون التحريم إلى الله حتى يفتروا ، ولكنهم يقلدون في تحريمها كبارهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُوهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١٠٤) الواو في قوله ﴿أَوَّلُوهُمْ﴾ أو الحال قد دخلت عليها همزة الإنكار. وتقديره : أحسبهم ذلك ولو كان آبؤهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ والمعنى أنّ الاقتداء إنما يصح بالعالم المهتدى ، وإنما يعرف اهتداؤه بالحجة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٠٥) كان المؤمنون تذهب أنفسهم حسرة على أهل العتوّ والعناد من الكفرة ، يتمنون دخولهم في الإسلام ، ف قيل لهم ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ وما كلفتكم من إصلاحها والمشى بها في طرق الهدى ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ الضلال عن دينكم إذا كنتم مهتدين ، كما قال عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ وكذلك من يتأسف على ما فيه الفسقة من الفجور والمعاصي ، ولا يزال يذكر معانيهم ومناكيرهم. فهو مخاطب به ، وليس المراد ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن من تركهما مع القدرة عليهما فليس بمهتد ، وإنما هو بعض الضلال الذين فصلت الآية بينهم وبينه ، وعن ابن مسعود : أنها قرئت عنده فقال : إن هذا ليس بزمانها ^(١) إنها اليوم مقبولة. ولكن يوشك أن يأتي زمان تأمرون فلا يقبل منكم ، فحينئذ عليكم أنفسكم ،

(١) قوله «ليس بزمانها إنها» لعل هذا الضمير للنصيحة المفهومة من السياق. (ع)

فهي على هذا تسلية لمن يأمر وينهى فلا يقبل منه ، وبسط لعذره. وعنه : ليس هذا زمان تأويلها. قيل : فمتى؟ قال : إذا جعل دونها السيف والسوط والسجن. وعن أبي ثعلبة الخشني أنه سئل عن ذلك فقال للسائل : سألت عنها خبيراً. سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال : ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا ما رأيتم شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأى برأيه ، فعليك نفسك ودع أمر العوام. وإن من ورائكم أياما الصبر فيهنّ كقبض على الجمر ، للعامل منهم مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله ^(١). وقيل كان الرجل إذا أسلم قالوا له : سفهت آباءك ، ولا موه ، فنزلت ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ عليكم : من أسماء الفعل ، بمعنى : الزموا إصلاح أنفسكم ، ولذلك جزم جوابه. وعن نافع : عليكم أنفسكم ، بالرفع. وقرئ ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ وفيه وجهان ^(٢) أن يكون خبراً مرفوعاً وتنصره قراءة أبي حيوة ، لا يضرركم. وأن يكون جواباً للأمر مجزوماً. وإنما ضمت الراء اتباعاً لضمّة الضاد المنقولة إليها من الراء المدغمة. والأصل : لا يضرّوكم. ويجوز أن يكون نهيًا ، ولا يضرركم ، بكسر الضاد وضمها من ضاره يضره ويضوره.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذُو عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ (١٠٦) فَإِنْ عَثَرَ عَلَى أَهْمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا

(١) أخرجه أصحاب السنن إلا النسائي من رواية عبد الله بن المبارك عن عتبة بن أبي حكيم عن عمرو بن حارثة اللخمي عن أبي أمية الصنعاني قال «أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له كيف تصنع في هذه الآية؟ قال : أية آية؟ قلت : قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ الآية قال : أما والله لقد سألت عنها خبيراً سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر. وذكره : وقال فيه فعليك بخاصة نفسك ودع العوام. وقال في آخره : مثل عملكم» قال ابن المبارك : وزادني غير عتبة : قيل يا رسول الله أجر خمسين منا أو منهم؟ قال : لا ، بل منكم» وأخرجه ابن حبان والحاكم وإسحاق وأبو يعلى والطبراني.

(٢) قوله «لا يضرركم ، وفيه وجهان» يعني بالرفع ، وهو يفيد أن القراءة الأصلية بالنصب. (ع)

وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧) ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمِعُوا لِلَّهِ لَا يَهْدِيَ الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

ارتفع اثنان على أنه خبر للمبتدأ الذي هو ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ على تقدير : شهادة بينكم شهادة اثنين. أو على أنه فاعل شهادة بينكم على معنى : فيما فرض عليكم أن يشهد اثنان : قرأ الشعبي. شهادة بينكم بالتنوين. وقرأ الحسن : شهادة ، بالنصب والتنوين على : ليقم شهادة اثنان. و ﴿إِذَا حَضَرَ﴾ ظرف للشهادة. و ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ بدل منه ، إبداله منه دليل على وجوب الوصية ، وأنها من الأمور اللازمة التي ما ينبغي أن يتهاون بها مسلم ويذهل عنها. وحضور الموت : مشارفته وظهور أمارات بلوغ الأجل ﴿مِنْكُمْ﴾ من أقاربكم. و ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من الأجانب ﴿إِنْ أَنْتُمْ صَرَرْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني إن وقع الموت في السفر ولم يكن معكم أحد من عشيرتكم ، فاستشهدوا أجنبيين على الوصية ، جعل الأقارب أولى لأنهم أعلم بأحوال الميت وبما هو أصلح ^(١) وهم له أنصح. وقيل ﴿مِنْكُمْ﴾ من المسلمين ، و ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من أهل الذمة. وقيل : هو منسوخ لا تجوز شهادة الذمي على المسلم ، وإنما جازت في أول الإسلام لقلّة المسلمين وتعذر وجودهم في حال السفر. وعن مكحول : نسخها قوله تعالى ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ وروى أنه خرج بديل بن أبي مريم مولى عمرو بن العاصي وكان من المهاجرين ، مع عدى بن زيد وتميم بن أوس . وكانا نصرانيين . تجاراً إلى الشام ، فمريض بديل وكتب كتاباً فيه ما معه ، وطرحه في متاعه ولم يخبر به صاحبيه ، وأمرهما أن يدفعاً متاعه إلى أهله ، ومات ففتش متاعه ، فأخذوا إناء من فضة فيه ثلاثمائة مثقال منقوشاً بالذهب ، فغيباه ، فأصاب أهل بديل الصحيفة فطالبوهما بالإناء ، فجحدا فرفعوهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) ، فنزلت ﴿تَحْسِبُونَهُمَا﴾ تقفونهما وتصبرونهما للحلف ^(٣) ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ من بعد صلاة العصر ، لأنه وقت اجتماع الناس. وعن الحسن : بعد صلاة العصر أو الظهر ؛ لأن أهل الحجاز كانوا يقعدون للحكومة بعدهما. وفي حديث بديل : أنها لما نزلت صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) قوله «وبما هو أصلح» لعله «وبما هو له أصلح». (ع)

(٢) أخرجه الترمذي من رواية ابن إسحاق عن أبي النضر وهو محمد بن السائب الكلبي عن بادر ، يعني أبا صالح مولى أم هانئ عن ابن عباس عن تميم الداري رضى الله عنهم. فذكره وقال :

ليس إسناده بصحيح وأخرجه البخاري وأبو داود مختصراً

(٣) قوله «وتصبرونهما للحلف» أى تحبسونهما. أفاده الصحاح. (ع)

صلاة العصر ودعا بعدى وتقيم فاستحلفهما عند المنبر ، فحلفا ، ثم وجد الإناء بمكة ، فقالوا :

إنا اشتريناه من تميم وعدى. وقيل : هي صلاة أهل الذمة ، وهم يعظمون صلاة العصر ﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾ اعتراض بين القسم والمقسم عليه. والمعنى : إن ارتبتم في شأكما واتهمتموها فحلفوهما. وقيل : إن أريد بهما الشاهدان فقد نسخ تحليف الشاهدين ، وإن أريد الوصيان فليس بمنسوخ تحليفهما. وعن علي رضي الله عنه : أنه كان يحلف الشاهد والراوي إذا اتهمهما ^(١) والضمير في ﴿مُصِيبَةٌ﴾ للقسم. وفي ﴿كَانَ﴾ للمقسم له معنى : لا نستبدل بصحة القسم بالله عرضاً من الدنيا ، أى لا نخلف كاذبين لأجل المال ، ولو كان من نقسم له قريباً منا ، على معنى : أن هذه عادتهم في صدقهم وأمانتهم أبداً ، وأنهم داخلون تحت قوله تعالى : ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾. ﴿شَهَادَةُ اللَّهِ﴾ أى الشهادة التي أمر الله بحفظها وتعظيمها. وعن الشعبي أنه وقف على شهادة ، ثم ابتدأ الله بالمد ، على طرح حرف القسم وتعويض حرف الاستفهام منه. وروى عنه بغير مد على ما ذكر سيويه أن منهم من يحذف حرف القسم ولا يعوض منه همزة الاستفهام ، فيقول : الله لقد كان كذا. وقرئ : ملائمين يحذف الهمزة وطرح حركتها على اللام وإدغام نون من فيها ، كقوله : عاد لولى : فإن قلت : ما موقع تحبسونهما؟ قلت : هو استئناف كلام ، كأنه قيل بعد اشتراط العدالة فيهما ، فكيف نعمل إن ارتبنا بهما ، فقيل : تحبسونهما فإن قلت : كيف فسرت الصلاة بصلاة العصر وهي مطلقة؟ قلت : لما كانت معروفة عندهم بالتحليف بعدها ، أغنى ذلك عن التقييد ، كما لو قلت في بعض أئمة الفقه : إذا صلى أخذ في الدرس علم أنها صلاة الفجر. ويجوز أن تكون اللام للجنس ، وأن يقصد بالتحليف على أثر الصلاة أن تكون الصلاة لطفاً في النطق بالصدق ، ونهاية عن الكذب والزور ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾. ﴿فَإِنْ غَيْرُ﴾ فإن اطلع ﴿عَلَى أَكْثَمَا اسْتَحَقَّ إِثْمًا﴾ أى فعلاً ما أوجب إثماً ، واستوجبا أن يقال إنهما لمن الآثمين ﴿فَآخِرَانِ﴾ فشاهدان آخران ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمْ﴾ أى من الذين استحق عليهم الإثم. معناه من الذين جنى عليهم وهم أهل الميت وعشيرته. وفي قصة بديل : أنه لما ظهرت خيانة الرجلين ، حلف رجلان من ورثته أنه إناء صاحبهما ، وأنّ شهادتهما أحق من شهادتهما. و ﴿الْأُولَيَانِ﴾ الأحقان بالشهادة لقربتهما ومعرفتهما. وارتفاعهما على : هما الأوليان كأنه قيل ومن هما؟ فقيل : الأوليان. وقيل : هما بدل من الضمير في يقومان ، أو من آخران.

(١) فأما تحليف الشاهد. فلم أره. وأما تحليف الراوي فرواه أصحاب السنن الثلاثة : البزار وابن حبان من رواية اسماء بن الحكم الفزاري عن علي رضي الله عنه قال «إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً نفعني الله منه بما شاء أن ينفعني ، وإذا حدثني أحد من أصحابه استحلفته ، فإذا حلف لي صدقته قال : وحدثني أبو بكر . وصدق أبو بكر . الحديث» قال الترمذي : حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وروى بعضهم هذا الحديث موقوفاً أى المتن دون القصة. وقال البزار : أسماء هذا مجهول.

ويجوز أن يرتفعوا باستحقاق ، أى من الذين استحق عليهم انتداب الأوليين منهم للشهادة لاطلاعهم على حقيقة الحال. وقرئ الأولين على أنه وصف للذين استحق عليهم ، مجرور ، أو منصوب على المدح. ومعنى الأولوية التقدم على الأجانب في الشهادة لكونهم أحق بها. وقرئ : الأولين ، ^(١) على التثنية ، وانتصابه على المدح. وقرأ الحسن : الأولان ، ويحتج به من يرى رد اليمين على المدعى. وأبو حنيفة وأصحابه لا يرون ذلك ، فوجهه عندهم أن الورثة قد ادعوا على النصرانيين أنهما قد اختانا فحلفا ، فلما ظهر كذبهما ادعيا الشراء فيما كتما ، فأنكر الورثة فكانت اليمين على الورثة ، لإنكارهم الشراء. فإن قلت : فما وجه قراءة من قرأ استحق عليهم الأوليان على البناء للفاعل ، وهم على وأبى وابن عباس؟ قلت : معناه من الورثة الذين استحق عليهم الأوليان من بينهم بالشهادة ، أن يجردوها للقيام بالشهادة ، ويظهروا بهما كذب الكاذبين ﴿ذَلِكَ﴾ الذي تقدم من بيان الحكم ﴿أَذْنِي﴾ أن يأتي الشهداء على نحو تلك الحادثة ﴿بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ﴾ أن تكرر ^(٢) أيمان شهود آخرين بعد إيمانهم «يفتضحوا بظهور كذبهم كما جرى في قصة بديل ﴿وَاسْمَعُوا﴾ سمع إجابة وقبول.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (١٠٩) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١١٠﴾

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ﴾ بدل من المنصوب ^(٣) في قوله : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وهو من بدل الاشتمال ، كأنه

(١) قوله «وقرئ الأوليين» لعله «الأولين» فليحذر. (ع)

(٢) قوله «أن تكرر أيمان شهود» في الصحاح «الكر» الرجوع. يقال : كره ، وكر بنفسه يتعدى ولا يتعدى. (ع)

(٣) قال محمود : «يوم يجمع بدل من المنصوب ... الخ» قال أحمد : ويكون انتصابه إذا انتصاب المفعول به لا الظرف على حكم المبدل منه.

قيل : واتقوا الله يوم جمعه. أو ظرف لقوله : ﴿لَا يَهْدِي﴾^(١) أى لا يهديهم طريق الجنة يومئذ كما يفعل بغيرهم. أو ينصب على إضمار اذكر. أو يوم يجمع الله الرسل كان كيت وكيت. و ﴿مَا ذَا﴾ منتصب بأجبتكم^(٢) انتصاب مصدره ، على معنى : أى إجابة أجبتكم. ولو أريد الجواب ل قيل : بماذا أجبتكم. فإن قلت : ما معنى سؤالهم؟ قلت : توبيخ قومهم ، كما كان سؤال المؤدّة توبيخاً للوائد. فإن قلت : كيف يقولون ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ وقد علموا بما أجيبوا؟ قلت : يعلمون أن الغرض بالسؤال توبيخ أعدائهم ، فيكون الأمر إلى علمه وإحاطته بما منوا به منهم^(٣) وكابدوا من سوء إجابتهم ، إظهاراً للتشكي والللجإ إلى ربهم في الانتقام منهم ، وذلك أعظم على الكفرة وأفت في أعضادهم وأجلب لحسرتهم وسقوطهم في أيديهم ، إذا اجتمع توبيخ الله وتشكي أنبيائه عليهم. ومثاله أن ينكب بعض الخوارج على السلطان خاصة من خواصه نكبة قد عرفها السلطان واطلع على كنهها وعزم على الانتصار له منه ، فيجمع بينهما ويقول له : ما فعل بك هذا الخارجي وهو عالم بما فعل به ، يريد توبيخه وتبكيته ، فيقول له : أنت أعلم بما فعل بي تفويضاً للأمر إلى علم سلطانه ، واتكالا عليه ، وإظهاراً للشكاية ، وتعظيماً لما حل به منه. وقيل : من هول ذلك اليوم يفزعون ويذهلون^(٤) عن الجواب ، ثم يجيبون بعد ما تثوب إليهم عقولهم بالشهادة على أمهم. وقيل : معناه علمنا ساقط مع علمك ومغمور به ، لأنك علام الغيوب. ومن علم الخفيات لم تخف عليه الظواهر التي منها إجابة الأمم لرسولهم ، فكأنه لا علم لنا إلى جنب علمك. وقيل : لا علم لنا بما كان منهم بعدنا ، وإنما الحكم للخاتمة. وكيف يخفى عليهم أمرهم وقد رأوهم سود الوجوه زرق العيون موبخين. وقرئ (علام الغيوب) بالنصب^(٥) على أنّ الكلام قد تم بقوله ﴿إِنَّكَ أَنْتَ﴾ أى إنك الموصوف بأوصافك المعروفة من العلم وغيره ثم نصب علام الغيوب على الاختصاص ، أو على النداء ، أو هو صفة لاسم أنّ ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ﴾ والمعنى : أنه يوبخ الكافرين يومئذ بسؤال الرسل عن إجاباتهم ، وتعدد

(١) عاد كلامه. قال : «أو ظرف لقوله لا يهدي القوم الفاسقين ... الخ» قال أحمد : وهو على هذا أيضا مفعول به.

(٢) عاد كلامه. قال : «وما ذا منتصب بأجبتكم انتصاب مصدره على معنى أى إجابة ... الخ» قال أحمد : والتعظيم في هذا نحو التعظيم بالسكوت عن الصلة في مثل : ما حصل إلا بعد التي واللتيا.

(٣) قوله «بما منوا به منهم» أى ابتلوا. وفي الصحاح «منيته» و «منوته» إذا ابتليته. (ع)

(٤) عاد كلامه. قال : «وقيل من الهول والفرع يذهلون عن الجواب ... الخ» قال أحمد : وأيضا فالمستول عنه إجابتهم عند دعائهم إياهم إلى الله ، لا ما حدث بعد ذلك مما لا يتعلق به علم الرسل ، والله أعلم.

(٥) عاد كلامه. قال : «وقرئ علام الغيوب بالنصب ... الخ» قال أحمد : ويكون هذا من باب

أنا أبو النجم وشعري وشعري

وقد مر قبل بآيات. وإنما ذكرت هذه الثلاثة من الاعراب لالتباسها إلا على الحذاق وقليل ما هم.

ما أظهر على أيديهم من الآيات العظام ، فكذبوهم وسموهم سحرة. أو جاوزوا حدّ التصديق إلى أن اتخذوهم آلهة ، كما قال بعض بنى إسرائيل فيما أظهر على يد عيسى عليه السلام من البينات والمعجزات ﴿هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ واتخذ بعضهم وأمه إلهين ﴿أَيَّدْتَكَ﴾ قويتك. وقرئ أيدتك ، على أفعلتكَ ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ بالكلام الذي يحيا به الدين ، وأضافه إلى القدس ، لأنه سبب الطهر من أو ضار الآثام. والدليل عليه قوله تعالى ﴿تَكَلِّمِ النَّاسَ﴾ و ﴿فِي الْمَهْدِ﴾ في موضع الحال ، لأنّ المعنى تكلمهم طفلاً ﴿وَكَهْلًا﴾ إلا أن في المهدي دليل على حدّ من الطفولة. وقيل روح القدس : جبريل عليه السلام ، أيد به لتثبيت الحجة. فإن قلت : ما معنى قوله : ﴿فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾؟ قلت : معناه تكلمهم في هاتين الحالتين ، من غير أن يتفاوت كلامك في حين الطفولة وحين الكهولة الذي هو وقت كمال العقل وبلوغ الأشد والحدّ الذي يستنبأ فيه الأنبياء ﴿وَالْتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ خصا بالذكر مما تناوله الكتاب والحكمة ، لأن المراد بهما جنس الكتاب والحكمة. وقيل ﴿الْكِتَابَ﴾ الخط. و ﴿الْحِكْمَةَ﴾ الكلام المحكم الصواب ﴿كَهَيئَةِ الطَّيْرِ﴾ هيئة مثل هيئة الطير ﴿بِإِذْنِي﴾ بتسهيلي ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا﴾ الضمير للكاف ، لأنها صفة الهيئة التي كان يخلقها عيسى عليه السلام وينفخ فيها ، ولا يرجع إلى الهيئة المضاف إليها ؛ لأنها ليست من خلقه ولا من نفخه في شيء. وكذلك الضمير في فتكون ﴿تُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ تخرجهم من القبور وتبعثهم. قيل : أخرج سام بن نوح ورجلين وامرأة وجارية ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ﴾ يعنى اليهود حين هموا بقتله. وقيل : لما قال الله تعالى لعيسى ﴿ادْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ كان يلبس الشعر ويأكل الشجر ولا يدخر شيئاً لغد يقول : مع كل يوم رزقه ، لم يكن له بيت فيخرب ، ولا ولد فيموت ، أينما أمسى بات.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (١١١) إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (١١٥)

﴿أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ﴾ أمرتهم على ألسنة الرسل ﴿مُسْلِمُونَ﴾ مخلصون ، من أسلم وجهه لله ﴿عِيسَى﴾ في محل النصب على إتباع حركة الابن ، كقولك : يا زيد بن عمرو ، وهي اللغة الفاشية ويجوز أن يكون مضموما كقولك : يا زيد بن عمرو . والدليل عليه قوله :
 أَحَارِ بَنَّ عَمْرٍو كَأَتَى خَمْرٍ وَيَبْدُو عَالِ الْمَرْءِ مَا يَأْتُمِرُ^(١)
 لأنّ الترقيم لا يكون إلا في المضموم . فإن قلت : كيف قالوا ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ بعد إيمانهم وإخلاصهم^(٢)؟ قلت : ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص ، وإنما حكى ادعاءهم لهما ، ثم أتبعه

(١) أَحَارِ بَنَّ عَمْرٍو كَأَتَى خَمْرٍ وَيَبْدُو عَالِ الْمَرْءِ مَا يَأْتُمِرُ
 ولا وأيبيك ابنة العمامري لا يبيدعي القوم أن أفمر

لامرئ القيس بن حجر . وقيل لربيعة بن جشم اليمنى . والهمزة للداء . و «حار» مرخم ، أصله حارث ضم على لغة من لا ينتظر المحذوف . واللغة المشهورة معاملته معاملة التام ، كما أن المشهور أيضا فتح العلم المنادى الموصوف بابن مضاف إلى علم آخر اتباعا لنصب ابن . ويجوز ضمه كما هنا ، لأن الترقيم لا يكون إلا في المضموم لأن المفتوح اتباعا كالمركب مع ما بعده . والترقيم لا يأتي في الوسط ، لأنه لو كان مفتوحا وضم في الترقيم لكان فيه إخلال بالفتحة المجتلية للناسب . والخمر . كحذر . : الذي خالطه داء فغطى عقله . والخمر . كسبب . : كل ما ستر من بناء أو شجر . ثم تذكر السبب في ذلك وهو مطاوعته ما لا تبغي مطاوعته فقال ؛ ويعدو على الإنسان ائتماره ، أى امتثاله لأمر غيره . ويجوز أن «ما» موصولة ، أى الذي يمتثله من أمر من لا يعرف عواقب الأمور ، أو من أمر نفسه وهواه ، وشبه ذلك بمن يصح منه العدوان ، على طريق الكناية . ويروى «ويبدو على المرء» أى يشرف عليه ويظهر له عاقبة امتثاله لما لا ينبغي امتثاله . وكثير ينشد فاصلتى هذا البيت بالتنوين الغالي ، لكن أنكره الزجاج والسيراfi ، لأنه يكسر الوزن . وجعله ابن يعيش من تنوين التثنية ، بناء على أنه لجلب التثنية لا لقطعه ، فلا يختص بالقوائى ، المطلقة ، بل يدخل المقيدة كما هنا . والمشهور تحريك ما قبله بالكسر . واختار ابن الحاجب الفتح . وجوز بعضهم تحريكه بما كان يستحقه لو لا السكون . وبعض أجاز اجتماع الساكنين . ودخول «لا» النافية قبل القسم سائغ شائع في لسان العرب ، لأنه غالبا يكون لرد دعوى الخصم ونفيها . فالتقدير : ولا يحصل ذلك وحق أيبك ، ولو كانت زائدة محضا لكانت الواو في التقدير داخلة على واو القسم . وروى بحذف الواو الأولى : أى وحق أيبك يا ابنة العامري لا أفر من الحرب أصلا ، فلا يدعيه أحد على . فنفى الادعاء كناية عن نفى الفرار على أبلغ وجه .

(٢) قال محمود : فان قلت كيف قالوا هل يستطيع ربك بعد إيمانهم وإخلاصهم . في قوله : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ . قال : قلت ما وصفهم بالإيمان والإخلاص وإنما حكى ادعاءهم لهما ... الخ» قال أحمد : وقيل إن معنى ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ﴾ هل يفعل ، كما تقول للقادر على القيام : هل تستطيع أن تقوم : مبالغة في التقاضي . ونقل هذا القول عن الحسن ، فعلى هذا يكون إيمانهم سالما عن قدح الشك في القدرة ، فان استقام التعبير عن الفعل بالاستطاعة فذاك . والله أعلم . من باب التعبير عن المسبب بالسبب ، إذ الاستطاعة من جملة أسباب الإيجاد وعلى عكسه التعبير عن إرادة الفعل بالفعل ، تسمية بالسبب الذي هو الإرادة ، باسم المسبب الذي هو الفعل ، في مثل قوله : ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ وقد مضى أول السورة . وفي هذا التأويل الحسن تعضيد لتأويل أبي حنيفة ، حيث جعل الطول المانع من نكاح الأمة وجود الحرة في العصمة . وعدمه أن لا يملكك عصمة الحرة وإن كان قادراً على ذلك ، فتباح له حينئذ الأمة . وحمل قوله : ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكَحِ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ على معنى : ومن لم يملك منكم ، وحمل النكاح على الوطاء ، فجعل استطاعة الملك المنفية هي الملك .

قوله : ﴿إِذْ قَالَ﴾ فياذن إنّ دعواهم كانت باطلة ، وإنهم كانوا شاكين ، وقوله : ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ كلام لا يرد مثله عن مؤمنين معظمين لربهم ، وكذلك قول عيسى عليه السلام لهم معناه : اتقوا الله ولا تشكوا في اقتداره واستطاعته ، ولا تقترحوا عليه ، ولا تتحكموا ما تشتهون من الآيات فتهلكوا إذا عصيتموه بعدها ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إن كانت دعواكم للإيمان صحيحة. وقرئ : هل تستطيع ربك ، أى هل تستطيع سؤال ربك ، والمعنى : هل تسأله ذلك من غير صارف يصرفك عن سؤاله. والمائدة : الخوان ^(١) إذا كان عليه الطعام ، وهي من «مادّه» إذا أعطاه ورفده كأنها تميد من تقدّم إليه ﴿وَتَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ نشهد عليها عند الذين لم يحضروها من بنى إسرائيل ، أو نكون من الشاهدين لله بالوحدانية ولك بالنبوة ، عاكفين عليها ، على أن عليها في موضع الحال ، وكانت دعواهم لإرادة ما ذكروا كدعواهم الايمان والإخلاص. وإنما سأل عيسى وأجيب ليلزموا الحجة بكما لها ويرسل عليهم العذاب إذا خالفوا. وقرئ : ويعلم ، بالياء على البناء للمفعول. وتعلم. وتكون ، بالتاء. والضمير للقلوب ﴿اللَّهُمَّ﴾ أصله يا الله ، فحذف حرف النداء ، وعوضت منه الميم. و ﴿رَبَّنَا﴾ نداء ثان ﴿تَكُونُ لَنَا عِيداً﴾ أى يكون يوم نزولها عيداً. قيل : هو يوم الأحد. ومن ثم اتخذه النصارى عيداً ، وقيل : العيد السرور العائد ، ولذلك يقال : يوم عيد ، فكأن معناه : تكون لنا سروراً وفرحاً. وقرأ عبد الله : تكن ، على جواب الأمر. ونظيرهما ، يرثني ، ويرثني ﴿لَأَوَّلُنا وَآخِرُنا﴾ بدل من لنا بتكرير العامل ، أى لمن في زماننا من أهل ديننا ، ولمن يأتى بعدنا. وقيل : يأكل منها آخر الناس كما يأكل أولهم : ويجوز المقدمين منا والأتباع. وفي قراءة زيد : لأولانا وآخرانا ، والتأنيث بمعنى الأمة والجماعة ﴿عَذَاباً﴾ بمعنى تعذيباً. والضمير في : ﴿لَا أَعَذِّبُهُ﴾ للمصدر. ولو أريد بالعذاب ما يعذب به ، لم يكن بد من الباء. وروى أن عيسى عليه السلام لما أراد الدعاء لبس صوفاً ، ثم قال : اللهم أنزل علينا ، فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين : غمامة فوقها وأخرى تحتها ، وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين أيديهم ، فبكى عيسى عليه السلام وقال : اللهم اجعلنى من الشاكرين ، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة ، وقال لهم : ليقم أحسنكم عملاً يكشف عنها ويذكر اسم الله عليها ويأكل منها. فقال شمعون رأس الحواريين : أنت أولى بذلك ، فقام عيسى وتوضأ وصلى وبكى ، ثم كشف المنديل وقال : بسم الله خير الرازقين ، فإذا سمكة مشوية بلا فلس ولا شوك تسيل دسماً. وعند

. كما ترى ، حتى أن القادر غير المالك عادم الطول عنده فينكح الأمة. وقد مضى ذكر مذهبه ، وكنت أستبعد إضاضه لأن يكون تأويلاً يحتمله اللفظ ويساعده الاستعمال ، حتى وقفت على تفسير الحسن هذا والله أعلم.

(١) قوله «والمائدة الخوان» في الصحاح «الخوان» بالكسر : الذي يؤكل عليه ، معرب. وقوله «من مادة» الذي في الصحاح «ماد الشيء» تحرك. و «مادت الأغصان» تمايلت اه. (ع)

رأسها ملح ، وعند ذنبها خل ، وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث ، وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون ، وعلى الثاني عسل ، وعلى الثالث سمن ، وعلى الرابع جبن ، وعلى الخامس قديد. فقال شمعون : يا روح الله ، أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة؟ فقال : ليس منهما ، ولكنه شيء اخترعه الله بالقدرة العالية ، كلوا ما سألتهم واشكروا بمددكم الله ويزدكم من فضله : فقال الحواريون : يا روح الله ، لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى ، فقال يا سمكة احبي بإذن الله ، فاضطربت. ثم قال لها : عودي كما كنت ، فعادت مشوية. ثم طارت المائدة ، ثم عصوا بعدها فمسخوا قردة وخنازير. وروى أنهم لما سمعوا بالشریطة وهي قوله تعالى : ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِيَّيَّ أَعَذِّبُهُ﴾ قالوا لا نريد فلم تنزل. وعن الحسن : والله ما نزلت ، ولو نزلت لكان عيداً إلى يوم القيامة ، لقوله : ﴿وَأَخْرَيْنَا﴾. والصحيح أنها نزلت.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (١١٦)

﴿سُبْحَانَكَ﴾ من أن يكون لك شريك ﴿مَا يَكُونُ لِي﴾ ما ينبغي لي ﴿أَنْ أَقُولَ﴾ قولاً لا يحق لي أن أقوله ﴿فِي نَفْسِي﴾ في قلبي : والمعنى : تعلم معلومي ولا أعلم معلومك ، ولكنه سلك بالكلام طريق المشاكلة وهو من فصيح الكلام وبينه ، فقيل ﴿فِي نَفْسِكَ﴾ لقوله في نفسي ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ تقرير للجملتين معاً ، لأن ما انطوت عليه النفوس من جملة الغيوب ، ولأن ما يعلمه علام الغيوب لا ينتهي إليه علم أحد.

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١١٧) **﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** (١١٨)

«أن» في قوله **﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾** ^(١) إن جعلتها مفسرة لم يكن لها بد من مفسر. والمفسر إما

(١) قال محمود : «أن في قوله : **﴿أَنْ اعْبُدُوا﴾** إن جعلتها مفسرة لم يكن لها بد من مفسر ... الخ» قال أحمد : وقد أجاز بعضهم وقوع «أن» المفسرة بعد لفظ القول ، ولم يقتصر بها على ما في معناه ، فيجوز على هذا القول وقوعها تفسيراً لفعل القول. وقد أبى الزمخشري في مفصله وقوعها إلا بعد فعل في معنى القول كمذهبه هاهنا.

فعل القول وإما فعل الأمر ، وكلاهما لا وجه له . أما فعل القول فيحكى بعده الكلام من غير أن يتوسط بينهما حرف التفسير ، لا تقول : ما قلت لهم إلا أن اعبدوا الله . ولكن : ما قلت لهم إلا اعبدوا الله . وأما فعل الأمر ، فمستند إلى ضمير الله عز وجل . فلو فسرته باعبدوا الله ربى وربكم لم يستقم ؛ لأن الله تعالى لا يقول : اعبدوا الله ربى وربكم ، وإن جعلتها موصولة بالفعل ^(١) لم تخل من أن تكون بدلا من ما أمرتني به ، أو من الهاء ^(٢) في به ، وكلاهما غير مستقيم ؛ لأن البدل هو الذي يقوم مقام المبدل منه . ولا يقال : ما قلت لهم إلا أن اعبدوا الله ، بمعنى ما قلت لهم إلا عبادته ؛ لأن العبادة لا تقال . وكذلك إذا جعلته بدلا من الهاء ^(٣) لأنك لو أقمت ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ مقام الهاء ، فقلت : إلا ما أمرتني بأن اعبدوا الله ، لم يصح ، لبقاء الموصول بغير راجع إليه من صلته . فإن قلت : فكيف يصنع؟ ^(٤) قلت يحمل فعل

(١) عاد كلامه . قال : «وأما فعل الأمر فمستند إلى ضمير الله عز وجل ... الخ» قال أحمد : ويجوز أيضا هذا الوجه على صرف التفسير إلى المعنى ، كأنه حكى معنى قول الله عز وجل له بعبارة أخرى ، وكأن الله تعالى قال له : مرهم بعبادتي ، أو قال لهم على لسان عيسى : اعبدوا الله رب عيسى وربكم ، فلما حكاه عيسى عليه السلام قال : اعبدوا الله ربى وربكم ، فكنى عن اسمه الظاهر بضميره ، كما قال الله تعالى حكاية عن موسى ﴿قَالَ عَلَّمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ فانظر كيف جاء أول الكلام حكاية لقول موسى ، وموسى لا يقول : فأخرجنا ، ولكن فأخرج الله ، فلما حكاه الله تعالى عن موسى رد الكلام إليه تعالى ، وأضاف الإخراج إلى ذاته على طريقة المتكلم لا الحاكي ، وكذلك قوله تعالى : ﴿يَقُولُونَ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ إلى قوله : ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ ونظائره كثيرة . وقد قدمت نحواً من هذا البحث عند قوله تعالى حكاية عن اليهود ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ لما استبعد الزمخشري أن تصفه اليهود بهذه الصفات المنافية لاعتقادهم فيه .

(٢) عاد كلامه . قال : «وإن جعلت أن موصولة مع فعل الأمر ... الخ» قال أحمد : أى فلا يقدر بالعبادة ولكن بالأمر بها ، كأنه قيل : ما قلت لهم إلا الأمر بالعبادة لله ، والأمر مقول لقلت ، على أن جعل العبادة مقولة ليس ببعيد ، على طريقة ﴿ثُمَّ يَعُوذُونَ لِمَا قَالُوا﴾ أى للوطء الذي قالوا قولاً يتعلق به . وكقوله تعالى : ﴿وَنَزَّلْنَاهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ وسيأتى له تصحيح هذا الاستعمال لوروده كثيراً في القرآن الكريم .

(٣) عاد كلامه . قال : «وكذلك إذا جعلته بدلا من الهاء لأنك ... الخ» قال أحمد : وهذا أيضا غير مانع من البدل ، وإنما يواجه المصنف بما لا يسعه إنكاره ، فقد قال في مفصله ما هذا نصه : وقولهم : إن البدل في حكم تنحية الأول ، إيدان منهم باستقلاله بنفسه ومفارقته للتأكيد والصفة في كونهما اسمين لما يتبعانه ، لا أن يعنوا إهدار الأول وإطراحه . ألا تراك تقول : زيدا رأيت غلامه رجلا صالحا ، فلو ذهبنا إلى إهدار الأول لم يسند كلامك . فانظر كيف يرد كلامه في المفصل وهو الحق ما ارتكبه من رد البدل في هذه الآية ، للزوم طرح الأول فتخلو الصلة من الضمير : ولم يجعل هذا القدر مانعا في المثال المذكور . مع أنك لو طرحنا الأول لخلا الخبر من الضمير العائد ولم يسند الكلام . فهذه وجوه أربعة منعها في إعراب «أن» وكلها مسندة حسبما بينا . وهذه المساجلة في هذا الاعراب من الغرر والحوول في صناعة الاعراب وعلم البيان . وفرسان هذا المضمار قليل .

(٤) عاد كلامه . قال : فان قلت كيف يصنع؟ قلت : يحمل فعل ... الخ» قال أحمد : هذا التأويل لتوقع أن المفسرة بعد فعل في معنى القول ، وليس قولاً صريحا . وحمل القول على الأمر مما يصحح المذهب الآخر في إجازة

القول على معناه ؛ لأن معنى ﴿مَا قُلْتُ هُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾. ما أمرتهم إلا بما أمرتني به ، حتى يستقيم تفسيره بأن عبدوا الله ربي وربكم. ويجوز أن تكون «أن» موصولة ^(١) عطف بيان للهاء لا بدلا ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ رقيباً كالشاهد على المشهود عليه ، أ منعهم من أن يقولوا ذلك ويتدينوا به ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ تمنعهم من القول به بما نصبت لهم من الأدلة ، وأنزلت عليهم من البينات ، وأرسلت إليهم من الرسل ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ الذين عرفتهم عاصين جاحدين لا يأتك مكذبين لأنبيائك ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ القوى القادر على الثواب والعقاب ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يثيب ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب. فإن قلت : المغفرة لا تكون للكفار فكيف قال : ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ^(٢)؟ قلت : ما قال إنك تغفر لهم ، ولكنه بنى الكلام على : إن غفرت ، فقال : إن عذبتهم عدلت ، لأنهم أحقاء

. وقوعها بعد القول ، فانه لو لا ما بين القول والأمر من التفاوت المعنوي ، لما جاز إطلاق إحداها وإرادة الأخرى. والعجب أن الأمر قسم من أقسام القول ، وما بينهما إلا عموم وخصوص. وليس في هذا التأويل الذي سلكه إلا كلفة لا طائل وراءها. ولو كانت العرب تأبى وقوع المفسرة بعد القول. لما أوقعتها بعد فعل ليس بقول. ثم عبرت عن ذلك الفعل بالقول ؛ لأن ذلك كالعود إلى ما وقع الفرار منه وهم بعداء من ذلك.

(١) عاد كلامه. قال : ويجوز أن تكون أن موصولة ... الخ» قال أحمد : يريد بجعله عطف بيان أن يسلم من تقدير إطرach الأول في البدل وخلو الصلة حينئذ من العائد. وقد بينا أن ذلك غير لازم في البدل. والعجب أنه أيضا في مفصله لم يفصل بين عطف البيان والبدل ، إلا في مثل قول المار :

أنا ابن التارك البكري بشر

لأنه لو جعله بدلا للزم تكرير العامل ، وإضافة اسم الفاعل العرف بالألف واللام إلى العلم ولم يفصل بينهما في غير هذا المثال ومن حيث المعنى أن المعتمد في عطف البيان الأول. وأما الثاني فالتوضيح. والمعتمد في البدل الثاني.

وأما الأول فبساط لذكره ، لا على أنه مطرح مهدر.

(٢) قال محمود «إن قلت المغفرة لا تكون للكفار فكيف قال وإن تغفر لهم ... الخ»؟ قال أحمد رحمه الله : تذبذب الزمخشري في هذا الموضع فلا إلى أهل السنة ولا إلى القدرية. أما أهل السنة ، فالمغفرة للكافر جائزة عندهم في حكم الله تعالى عقلا ، بل عقاب المتقى المخلص كذلك غير ممتنع عقلا من الله تعالى ، وإذا كان كذلك فهذا الكلام خرج على الجواز العقلي ، وإن كان السمع ورد بتعذيب الكفار وعدم الغفران لهم ، إلا أن ورود السمع بذلك لا يرفع الجواز العقلي. وأما القدرية فيزعمون أن المغفرة للكافر ممتنعة عقلا ، لا تجوز على الله تعالى لمناقضتها الحكمة ، فمن ثم كفحتهم هذه الآية بالرد ، إذ لو كان الأمر كزعمهم لما دخلت كلمة «إن» المستعملة عند الشك في وقوع الفعل بعدها لغة في فعل لا شك في عدم وقوعه عقلا ، ولكان ذلك من باب التعليق بالمحال ، كأن يبيض القار وأشباهه. وليس هذا مكان. فقول الزمخشري إذاً ﴿إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ لم يعدم وجهها من الحكمة في المغفرة لأن العفو عن المجرم حسن عقلا لا يأتلف بقواعد السنة ، إذ لا يلتفت عندهم إلى التحسين العقلي ، ولا يأتلف أيضا بنزغات القدرية ، لأنهم يجزمون بأنه لا وجه من الحكمة في المغفرة للكافر ، ويقطعون بمنافاتها الحكمة ، فكيف يخاطب الله تعالى به ، فعلم أن عيسى عليه السلام يبرأ إلى الله من هذا الإطلاق ومما اشتمل عليه من سوء الأدب ، فان قول القائل لمن يخاطبه : ما فعل كذا فلن يعدم فيه عذراً ووجهاً من المصلحة كلام مبذول وعبرة نازلة عن أوفى مراتب الأدب ، إنما يطلقها المتكلم لمن هو دونه عادة ، فنسأل الله إلهام الأدب وتجنب ما في إساءته من مزلات العطب.

بالعذاب ، وإن غفرت لهم مع كفرهم لم تعدم في المغفرة وجه حكمة لأن المغفرة حسنة لكل مجرم في المعقول. بل متى كان الجرم أعظم جرماً كان العفو عنه أحسن.

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١١٩)

قرئ ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ﴾ بالرفع والإضافة. وبالنصب إما على أنه ظرف لقال. وإما على أنّ ﴿هذا﴾ مبتدأ ، والظرف خبر. ومعناه ، هذا الذي ذكرنا من كلام عيسى واقع يوم ينفع. ولا يجوز أن يكون فتحاً ، كقوله تعالى : ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ﴾ لأنه مضاف إلى متمكن ، وقرأ الأعمش : يوم ينفع ، بالتنوين ، كقوله تعالى : ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ﴾ فإن قلت : ما معنى قوله ﴿يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾؟ إن أريد صدقهم ^(١) في الآخرة فليست الآخرة بدار عمل ، وإن أريد صدقهم في الدنيا فليس بمطابق لما ورد فيه ؛ لأنه في معنى الشهادة لعيسى عليه السلام بالصدق فيما يجيب به يوم القيامة؟ قلت : معناه الصدق المستمر بالصادقين في دنياهم وآخرتهم. وعن قتادة : متكلمان تكلمان يوم القيامة. أمّا إبليس فقال : إنّ الله وعدكم وعد الحق ، فصدق يومئذ وكان قبل ذلك كاذباً ، فلم ينفعه صدقه. وأما عيسى عليه السلام فكان صادقاً في الحياة وبعد الممات فنفعه صدقه.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٢٠)

فإن قلت : في السموات والأرض العقلاء وغيرهم ، فهلا غلب العقلاء ، فقليل : ومن فيهن؟ قلت : «ما» يتناول الأجناس كلها تناولاً عاماً. ألا تراك تقول إذا رأيت شبحاً من بعيد : ما هو؟ قبل أن تعرف أعقل هو أم غيره ، فكان أولى بإرادة العموم.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قرأ سورة المائدة أعطى من الأجر عشر حسنات ومحى عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات بعدد كل يهودى ونصراني يتنفس في الدنيا» ^(٢)

(١) قال محمود «إن قلت ما معناه ، إن أريد صدقهم في الآخرة ... الخ» قال أحمد : ولو أجاب بحمل الصادقين على الدنيا وصدقهم على الآخرة حتى يكون التقدير : هذا يوم ينفع الصادقين في الدنيا صدقهم في الآخرة ، لكان أوضح طباقاً لتفسير قتادة ، وأخرج لإبليس وأشباهه من هذا العموم ؛ فان إبليس وإن صدق في الآخرة ، إلا أنه لم يكن من الصادقين في الدنيا ، فلم ينفعه صدقه في الآخرة ، والوجهان متقاربان.

(٢) تقدم إسناده إلى أبي بن كعب في تفسير آل عمران.

تم بعون الله تعالى الجزء الأول
ويليه . إن شاء الله تعالى . الجزء الثاني
وأوله : سورة الأنعام

فهرست

الجزء الأول

من تفسير الكشاف الزمخشري

ص	
ج	مقدمة الطبع
هـ	ترجمة المصنف
ي	المقدمات
١	تفسير سورة الفاتحة
١٩	تفسير سورة البقرة
٣٣٥	تفسير سورة آل عمران
٤٦١	تفسير سورة النساء
٦٠٠	تفسير سورة المائدة